

الحرب عبر التاريخ

الجزء الأول

تأليف الفيلد مارشال

مونتجـمري

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر



مكتبة الأنجلو المصرية

الحرب عبرى التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمري

تعريب وتعليق العميد

فَتْحى عابدين

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكلية العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
في عيد العلم العاشر والحامى عشر

ملزومة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

التصديق بالنشر

كتاب المخبرات الحربية رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

بتاريخ ١٥ / ٣ / ١٩٧١

تقديم



لقد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة لأعجابه الشديد به ، وفكرت مرات كثيرة في تعريبه لأنقل للمكتبة العربية أروع وآخر ما كتبه الفيلد مارشال مونتجمري عن الحرب عبر التاريخ ، ولكنني وجدت أنه عمل كبير ويحتاج إلى مجهود ضخم ، فلبّأت إلى صديقي الدكتور عبد العزيز الدسوقي والأستاذ سامي الشهابي فقديما لي العون المخلص الذي ساعدني على أخراج هذا الكتاب على الوجه الأكمل والمشرق .

وهذا الكتاب يعتبر من أروع الكتب التي ظهرت حتى الآن في مجال الدراسات العسكرية ليس لأنه يحملنا معه عبر تسعة آلاف سنة من الحرب ، ولكنه لأن مؤلفه الفيلد مارشال مونتجمري يعد من القادة العظام المعاصرين وقد حقق إنتصارات باهرة خلال الحرب العالمية الثانية ، ويرجع ذلك لعقليته الفذة وتفكيره الصائب وقيادته الحكيمة .

وقد بذل الفيلد مارشال مونتجمري ومساعدوه مجهوداً شاقاً يفوق الخيال حتى أخرجوا هذا الكتاب إلى النور ، فقرأوا حوالي ١٢٥ مرجعاً وبالرغم من ذلك كانوا في بعض الأحيان يقفون مكتوفي الأيدي أمام عصر من العصور تكون معلوماته قد طمست فيضطرون للبحث والتنقيب في المتاحف والمراجع القديمة والكتب المقدسة حتى يحصلوا على بصيص من الأمل أو شعاع ضعيف لينير لهم طريق المعرفة .

سيصحبنا مونتجمري معه في رحلة طويلة ، بدأها من ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد حيث يقص علينا قصص الحروب المختلفة والمعارك الحاسمة . . . والممالك والإمبراطوريات التي تزدهر ثم تندثر بعد أن تدفع إلى آتون الحرب ، فتتصهر وتذوب ويظهر على أنقاضها دول أخرى . . . يقود هذه الدول قادة عسكريون أو سياسيون . . . وقيصرة . . . ودكتاتوريون . . .

وفراعنة . . . فيدفعون بأممهم إما إلى النصر العظيم أو إلى قاع الهزيمة والذل والعار . . .
سيرافقنا موتجمرى عبر حقبة من الزمن . . . حقبة طويلة . . . تبلغ تسعين قرناً . . .
بنا من قرن إلى قرن . . . ومن دولة إلى أخرى . . . عبر قتال مرير . . . وجيوش
جراحة . . . وأسلوب تكتيكي أو استراتيجى متطور . . . وتنظيمات مستحدثة . . .

والجدير بالذكر أن موتجمرى وضع الشرق الأوسط ومصر في الصدارة وأظهرها بأنها
منبع الحضارات العريقة ، وأن الفن العسكرى قد نبع من مصر والعراق خاصة ومن العرب
عامة ، وكانوا الرواد الأوائل للاستراتيجية والحرب وتطور الأسلحة .

وقد أثنى على مقدرة أحس ورمسيس الثانى فى قيادة المعارك ، وأبرز أن صلاح الدين
الأيوبى كان استراتيجياً قديراً وألحق بالصليبيين كارثة مروعة ولم ينس أن يقص علينا تاريخ
الحروب فى العصور القديمة وعظمة الأغريق والرومان والأسبان والفرس ، وتمر القرون
عبر السطور وعلى نغمات طبول الحرب وحوافر الخيل وأقدام الجنود حتى يصل بنا إلى
الحروب التى نشبت فى أوروبا خلال القرن ١٧ ، ١٨ بعد الميلاد ويذكرنا بنلسون و نابليون
وويلنجتون ثم ينتقل إلى الشرق الأقصى حيث حرب مانغوليا والصين واليابان والهند حتى
يصل إلى بداية الحرب الحديثة حيث أندلعت نيران الحرب العالمية الأولى ويرافقنا عبر
الخدائد وبين أزيز طلقات المدافع حتى يدخل بنا إلى الحرب العالمية الثانية ويصل بنا إلى
نهايتها بـ ٢٠ عاماً ، ويخرج بنا إلى أخلاقيات الحرب والستار الحديدى والحرب الباردة بين
روسيا وأمريكا ثم يعود ثانية إلى العصر النووى وما ينتظر العالم خلال الحرب الهيدروجينية
المستقبلية حتى يصل بنا فى نهاية المطاف إلى مفهوم السلام ، ولم ينس هذا القائد العظيم أن
يكتب أحاسيسه وتجاربه الشخصية خلال السطور .

إنها رحلة ممتعة خلال هذه القرون . . . وهذه المعارك . . . وهؤلاء القادة . . .

رحلة شائقة لمعرفة الأعماق البشرية والقيمة الحقيقية للحروب الطويلة فى الماضى حتى
يمكن أستخلاص العبر والدروس المستفادة ، فالحرب جزء رئيسى من التاريخ لأنها تتعلق
بضروريات الحياة من طعام ومكان آمن يعيش فيه الإنسان .

أنه أول كتاب يقوم بدراسة الماضى دراسة عميقة للبحث عن كل ماله أهمية لإيضاح

وأناة الطريق فى الحاضر والمستقبل ، وقد ركز بصفة خاصة على قادة الأمم العظام
لمعرفة : —

كيف كانوا يفكرون ويعملون . . . ؟

كيف أستخدموا ما أتيح لهم من إمكانيات . . . ؟

العوامل التى أثرت وسيطرت على قراراتهم . . . ؟

ما هى قراراتهم . . . ولماذا . . . ؟

الصفات التى يجب توافرها فى القائد العسكرى والسياسى . . . ؟

العوامل التى تؤدى إلى النصر أو تسبب الهزيمة . . . ؟

لأننا أبناء القرن العشرين ، يوجد خلفنا ٢٠٠٠ سنة من الخبرة والتجارب ، فإذا أجبرنا
على القتال فليس لنا أى عذر إذا لم نحارب جيداً .

وقد أسهب فى الكتابة عن القيادة والروح المعنوية للرجال ، وضرب لنا الأمثلة التى
قشعت الضباب الكثيف حول هذه المشكلات ، ومنها أن الحصون ذات الأسوار العالية
والمكتظة بالأسلحة وبها أجود الخيول وأقوى عربات القتال والفيلة ، كل ذلك ما هو إلا
خرافاً ترتدى أقنعة الأسود إذا لم يتوفر الرجال لكل هذا ، ولديهم الروح المعنوية العالية
والجراءة والاستعداد لخوض الحرب . . .

**وعلى كل فالقيادة فى الحقيقة مشكلة انسانية لأن المادة الخام التى يتعامل بها القائد . . .
هى الرجال . . . والحرب هى البوتقة التى ستظهر من أى معدن صنع هذا القائد . . .
وهؤلاء الجنود . . . وهذه الأمة . . .**

سنقرأ سوياً خلال صفحات هذا الكتاب عن دول تعلو . . . وممالك تهوى . . .
وملوك تتوج . . . وأباطرة تسقط . . .

حياة كلها شقاء وعذاب . . . دماء تسفك على كوكبنا الأرضى . . .

الجميع يشعرون بها . . . وينادون بأعلى صوتههم ويطلبون السلام والحرية . . .

ولكن هذه الأصوات تخبو رويداً رويداً وتضيع عبر هذا الفراغ الكبير . . . وبين

هذه الدول الكبرى . . . وعبر هذه القرون الطويلة . . .

وفى النهاية يعلمو صوت واحد فقط . . .

أنه صوت الحرب . . . صوت المدافع . . .

صوت القنابل الذرية والهيدروجينية

ولكن من خلال هذا الدمار وهذه الأشلاء يستمر النداء بالحرية والسلام .

ولكن من يسمع ويعي ويقدر

إنها حكمة الله في ملكه

الحرب والحرب وإلا فسدت الأرض .

العميد

فتحي عبد الله النمر

المقدمة

لم أكتب هذا الكتاب لأعجّد الحروب ، ولكن لأسلط الضوء على الجهود الضخمة التي بذلها الرجال والنساء في الجبهة الداخلية وجبهة القتال على السواء خلال هذه الفترات العصيبة من الصراع •

لذلك أصبح من الحيوى أن يراعى القادة السياسيون الهدف السياسى من الحرب ، مع إصدار تعليمات واضحة للقادة العسكريين وجميع المسؤولين حتى يمكن تحقيق هذا الهدف ، فى نفس الوقت يجب عليهم تفهم العوامل الإنسانية حتى يمكن تجنب الحرب ، أما إذا اضطروا لها فيجب الحد من الخسائر الفادحة فى الأرواح بقدر الإمكان •

لذلك لم يصبح هدف القائد العسكرى تحقيق النصر فى الحروب ولكن عليه أيضاً أن يقوم بدور رئيسى فى منع قيامها •

وقد قال السير ونستون تشرشل : —

« السلام هو آخر جائزة اطمع فى كسبها . . . »

ونجد ان هذه الجائزة لا يعرف قيمتها غير المقاتل ، فهو وحده الذى يدرك حقيقة الوحش المسمى « بالحرب » .

وأنا شخصياً شاهدت عبر حياتى الطويلة معارك كبيرة دارت بعنف وضراوة وتكبدنا خلالها خسائر فادحة ، إلا أنها أنتهت دون تحقيق الأمن والسلام اللذين أشتعلت من أجلهما •

وفى هذه الأيام أشعر بهذا اليأس المرير الذى يعتري العالم المسمى « بعالم السلام » والذى نعيش فيه ، وبالرغم من هذا الشعور المظلم إلا أننى أشعر بالأمل والتفاؤل ، لأحاسنى بقرب شروق شمس حياة زاهرة وسلام مستتب •

وعلى هذا الأساس وهذه الأحاسيس ، أقدم كتابي هذا إلى جميع الشعوب المناضلة من أجل السلام والحرية ، وأخص منهم رفاقى فى السلاح الذين حاربوا معى فى ميادين القتال فى أفريقيا وأوروبا ، فالكثير منهم ضحوا بأرواحهم لكي ننعم نحن الباقين على قيد الحياة بالحرية .
وأخيراً أذكر ما كتبه ثوسيد يديز : —



« إذا ردّد أى إنسان أن ما أكتبه مفيد ، فهذا يكفينى » .
وهذا بالضبط ما أقصد أن أقوله .
الفيلد مارشال مونتجمرى

مصادر الكتاب

عندما فكرت في هذا الكتاب ، وجدت أنني لن أستطيع إخراجه لحيز الوجود بمفردي ، وأصبح لزاماً عليّ تكوين مجموعة من العلماء لتساعدني في البحث مع إمدادي بالمعلومات القيمة الصحيحة ، فأخذت أبحث عن العلماء ، ورشح لي عدد كبير منهم لمعاونتي وأخترت بنفسى آلان هوارث ليكون رئيساً لهذه المجموعة ، وقد وفقت في اختياره ، لأنه شاب نابه ذكي عمره ٢١ عاماً ، كرس كل جهوده ، بل وكل ما يملك من معلومات لآنجاح هذا العمل ، وعلى الفور أختار معاوناً له في البحث وهو أنتوني وينرايت ، وكان زميلاً له في رجبى وفي كلية لوبورد ، وقد فضل ترك الكلية لينضم إلى مجموعتنا .

وأنتوني عمره ٢١ عاماً ، وقد أثبت مقدرة عظيمة كمساعد لآلان هوارث . فأصبحت مجموعة البحث تتكون مني ، الرجل العسكري ، والمؤرخون الصغار .

وربما يتساءل البعض : — « كيف سار العمل بين الرجل العسكري الذي يناهز الثمانين والمؤرخين الصغار الذين لا يزيد عمر الواحد منهم عن ٢١ عاماً ..؟ »

الجواب : — لقد سار العمل بنجاح كبير ، وتعاون كامل ، فقد قاموا بالتفكير في البحث وأمدادي بالمعلومات القيمة ، وقد تعلمت منهم الكثير ، فكنت أفكر في عالمهم ، بينما بعثوا بالشباب في عالمي البعيد . وعلى كل حال فقد عملنا بجهد متواصل ، فلم تنقيد بساعات العمل المحددة ، وكنا نعمل بجهد ونشاط مرة في منزلي ومرات خارجه ، كل همتنا إنجاز هذا البحث بسرعة وعلى خير وجه .

وبالرغم من هذا فقد تخلل هذه الفترة كثير من المرح والسعادة في منزلي في هامبشير . وبعد أن قطعنا شوطاً كبيراً في هذا الكتاب وجدت أنني في حاجة إلى شخص آخر بعيد عن مجموعة البحث ، ليقراً ما كتبناه كما هو ، ويقوم بالتعليق عليه بكل صراحة .

فأخذت أبحث عن مؤرخ عسكري مجرب يستطيع القيام بهذا العمل ، وفي نفس الوقت يقوم بعمل الرسوم التخطيطية للمعارك التي يتحدث عنها الكتاب .

وأخيراً وقع اختيارى على أنتونى برىٲ جيمس ، أستاذ التاريخ العسكرى فى الكلية الحربية الملكية البريطانية فى ساندهيرست ، وله عدة مؤلفات فى التاريخ العسكرى ، وقد قدم لنا مساعدة وخبرة لا يمكن تقديرها .

بينما قدم جورج رينبيرد ومعه طاقم التحرير بكل خبرتهم ومساعدتهم الخالصة كل عون لنا .

وأخيراً لا يفوتنى أن أذكر الآنسة بونى التى كتبت فصول هذا الكتاب على الآلة الكاتبة ، وقد أعادت كتابتها أكثر من مرة .

وقد قرأت مجموعة البحث كتباً كثيرة . . . وكثيرة . . . لدرجة لا يمكن حصرها ، وصادفتنا مشا كل كثيرة منها : — هل الكاتب صادق فى سرده للحقائق التاريخية ؟ لأن الكتاب يختلفون عادة فى هذا المجال . . .

وعلى كل بذلنا أقصى طاقتنا ، ونحن مسئولون عن كل ماورد من حقائق وبيانات فى هذا البحث . . .

ولا يفوتنى أن أذكر أن مجموعة البحث طلبت منى أرشادها للكتب القيمة التى يمكن اللجوء إليها لدراسة حقبة معينة من الزمن ، وقد أسترنا بعض العلماء ، وقد أعطونا توجيهات سديدة • وعاونتنا المكتبات بقدر كبير ، ومنها مكتبة لندن والمتحف البريطانى وغيره •

وأخص بالذكر رئيس أمناء مكتبة وزارة الدفاع مستر د . و . كينج ومعاونوه ، فقد أعطونا بأخلاص خبرات وتوجيهات قيمة •

بينما أستمتعت أنا شخصياً بقراءة مجموعة من الكتب أرسلت لى من وقت لآخر من بعض المؤلفين والناشرين ، ليس للتعليق عليها بل كمظهر من مظاهر الصداقة والمودة ، وقد أعجبت بكتابين هما : —

١ — رجال فى السلاح : — وكتبه البروفيسور بريستون والبروفيسور وايز الكنديان وهما أستاذان فى الكلية الحربية الكندية ومسترفيرز الأمريكى وهو أستاذ بالأكاديمية البحرية الأمريكية .

٢ - تخطيط لن يموت : - وكتبه الجنرال باور وكان يشغل منصب قائد القوات الجوية الاستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية ، وتقاعد الآن ، وهو من أروع رجال القوات الجوية وصديق لى ، وقد أستفدت من كتابه هذا كثيراً فى هذا البحث . وأضيف إلى هذا أننى درست بعناية العديد من مؤلفات أصدقائى ، وأخص بالذكر سير بازل ليدل هارت ، سيريل فولز ، آلان كلارك ، كوريل بارنيت ، والميجور جنرال فولر .

بينما قرأت بأمعان كتاب « أسس القيادة » بقلم جون لافن ، وأرسله لى عن طريق الناشر وولتر هاراب .

وكانت النتيجة النهائية لكل هذه البحوث هذا الكتاب .

وأعتقد أن أصدقائى العسكريين قد يكون لهم رأى يخالف رأى وعلى كل حال فأنا أقبل تحمل المسؤولية كاملة ، وقد أعتمدت فى تعليق العسكرى على خبرتى العملية والشخصية الطويلة فى الحرب .

وأخيراً . . . أعترف بأننى أستمتعت بكل وقتى الذى قضيته فى هذا الكتاب .

وأوجه أمتنانى العميق لكل من قدم العون لى فى أخراجه بهذه الصورة المشرفة .

مونتجمرى

الفصل الأول

طبيعة الحرب

الصدام المسلح ونقدم الانسانية

- هل الحرب من أختصاص العسكريين وحدهم دون غيرهم . . ؟ ؟
- بالطبع لا
- فقد أظهر لنا التاريخ أن آثار الحروب ونتائجها تنعكس دائماً على المدنيين أيضاً ، وكم من أرواح غير عسكرية ذهبت ضحية هذه الحروب .
- وفي العصر الحديث أصبحت دفة الحرب تدار بواسطة الساسة ، وهم في الغالب من المدنيين وليسوا من العسكريين المحترفين .
- ونجد أيضاً في حالة الحرب الشاملة تجند جميع الطاقات والأماكن المدنية لخدمة المجهود الحربي ، لذلك لم يصبح التاريخ العسكري بمعزل عن التاريخ العام ، وتطلب هذا أن التاريخ العسكري أصبح جديراً بالدراسة والأهتمام لكل من المدنيين والعسكريين على السواء ، لذلك سأقوم في كتابي هذا بالتركيز على المواضيع الرئيسية الآتية لأهميتها : .
- الوسائل . . . والأساليب لجميع الأسلحة .
- الاستراتيجية . . . والتكتيك . . . والقيادة .
- وفي نفس الوقت سوف أبرز العوامل الرئيسية التي أثرت تأثيراً جوهرياً في مجرى تاريخ الحروب وأهمها : —
- عامل العلم . . . والتكنولوجيا .
- العوامل الاجتماعية . . . والاقتصادية . . . والسياسية .
- ولا يعني هذا أن يتحول الكتاب إلى أحد المراجع التاريخية ، بل أأمل أن يشعر القارئ بمتعة وجمال هذه القصة . . . قصة الحرب عبر التاريخ .
- لذلك أصبحت مهمتي الأولى شرح ومناقشة وتبسيط ما في الحروب من تعقيدات ، معتمداً على مجاربي التي مررت بها وخبراتي العسكرية الطويلة .

فعلى أولاً أن أحاول تبسيط المبادئ الأولية للحرب ، فمن الجائز أن يكون القارىء رجلاً غير عسكري ، ويحتاج إلى بعض المعلومات الواضحة والمبسطة لأساليب وتاريخ الحروب ، وعلى كل ستصبح مهمتى صعبة عندما أتكلم عن الحروب فى العصر الحديث ، فكما زادت المدنية زاد معها بل وبسرعة تطوّر الحروب ، وبالتالي يحتاج القارىء إلى أيضاحات أكثر وأبسط .

ولكن لا يفوتنى هنا إلا أن أشير للآثر الواضح للصدام المسلح على تقدم الإنسانية ، فسنجد فى بعض الأحيان أن تأثيرها كان مفيداً ، وفى البعض الآخر ضاراً . وعلى كل فالصدام المسلح من العوامل الحاسمة فى تقدم الإنسان لأنه من المستحيل أن نتصور أن الحروب تنشب فى الفراغ ، ولكنها على كل حال ليست العامل الوحيد . وعلى سبيل المثال ، فوليام الفاتح لم يتحكم فى تاريخ إنجلترا إلا نتيجة لأنتصاراته العسكرية ، ومثال آخر يرجع بعض المؤرخين بداية التوسع والأزدهار فى صناعة المعادن نتيجة للطلب الملح للمدافع ، بينما البعض الآخر يرجعها للطلب الملح لأجراس الكنائس .

لماذا تنشب الحرب . . ؟

سيقول البعض أنها وليدة المدنية ... والبعض الآخر سيقول أنها أمتداد للطبيعة البشرية .

هناك حقيقة واضحة بأن الحرب هى الحكم النهائى عند ما تفشل جميع الجهود السلمية للوصول الى اتفاق ، وهذا الحكم يستند على القوة والعنف أكثر من استناده على الحق ، بالرغم من وضوح الحق فى أغلب الأحيان .

والحروب لها أشكال وأسباب ولكنها تختلف حسب أماكن وقوعها فى بلدان العالم . فالبندو الرحل مثل جماعات « المآجيار » تنحصر حروبها فى البحث عن المناطق الغنية بالمراعى ، لسلبها والاستيلاء عليها بالقوة .

بينما نشبت الحرب الفارسية لأتقاذ اليونان ، وبالتالى لأتقاذ أوروبا من الأرهاب الأسوي . ونجد أن الحرب هى التى أقامت الأمبراطورية الرومانية ، وأيضاً ساهمت فى دمارها .

وما حدث للأمبراطورية الرومانية تكرر مع الأمبراطورية الألمانية التى أنشأها بسمارك . وقد حدث فى فترة من الزمن أن الدين كان من الأسباب الرئيسية لنشوب الحروب ، ولم تقتصر على دول معينة بل أمتدت لتصبح عالمية تقريباً . أما فى العصر الحديث فنجد أن مصادر

الثروة للقوى الاستعمارية تكمن في المستعمرات التي أستولت عليها بقوة السلاح ، وقد خلقت هذه الثروات منازعات بل ومنافسات تجارية بين هذه الدول مما أدى إلى دخولها في صدام مسلح .

ما هي الحرب . . ؟

الحرب : هي صدام طويل ينشب نتيجة لنزاع كتل سياسية بواسطة قوة السلاح .

الاستراتيجية العليا : هي تنسيق وإدارة جميع مصادر الدولة أو مجموعة دول لتحقيق الغرض السياسي من الحرب حتى يتحقق السلام والأمن الدائم المستقر لها .

الاستراتيجية : هي فن توزيع واستخدام الأماكن الحربية للقوات المساحة مع أمدادها لتحقيق الغرض السياسي بالكامل .

التكتيك : هو أسلوب واستخدام القوات المقاتلة والسيطرة عليها خلال القتال الفعلي .

وباختصار فالاستراتيجية هي فن إدارة الحرب والتكتيك هو فن القتال .

وبدراسي للحروب عبر التاريخ برزت لى عدة عوامل ثابتة لا تتغير على مر العصور وتمثل مشكلة عويصة أمام القادة وتطلبت منهم الجهد الكبير لحلها وتكمن في **خفة الحركة وقوة النيران** ، وكيف يستطيع القائد تحريك قواته المقاتلة بحرية كاملة، بينما يحرم خصمه منها؟ وأدى هذا إلى التفكير الدائم في زيادة خفة الحركة لنقل قوة النيران إلى المكان والزمان المناسبين مع تأمينهما ، وهذا تطلب تطوراً كبيراً في صناعة المركبات المدرعة حتى يمكن السيطرة على جبهات عريضة ، وأستلزم هذا تطوراً موازياً في مجال الاتصال اللاسلكي للسيطرة على القوات المتحركة عبر هذه المسافات الشاسعة .

وأصبحت هذه التطورات من العوامل الرئيسية التي تتحكم في خطط القادة بل وفي الحرب ككل .

لذلك نجد أن دراسة استراتيجية الحملات والمعارك مهم جداً ، حتى نستطيع معرفة . —

ما هو الغرض من الحملة . . . ؟

ما يريد القائد تحقيقه في المعركة . . . ؟

قد يكون الغرض المطلوب تحقيقه أهمية استراتيجية كبرى ، ولكن يجب ان يكون

من الممكن تنفيذه من الناحية التكتيكية بما هو متاح من القوات والامكانيات .

القوة البحرية في الميزان

منذ أقدم العصور والقوة لها تأثير فاصل وحاسم ، وكانت تتمثل في الماضي في القوة البحرية وقد ظهر ذلك جلياً عندما أدركت اليونان أثناء حربها مع الفرس أنه من الصعب عليها القضاء على عدوها طالما لديه أسطول بحري يستطيع به نقل قواته وأمداداته عبر بحر أيجة وأنزالها على الشاطئ اليوناني . ولكن بعد مجهود خارق استطاعت اليونان بناء قوتها البحرية فتمكن من هزيمة الفرس في معركة سلاميس البحرية عام ٤٨٠ قبل الميلاد . وبعد ذلك بسنة سيطرت اليونان على شرق البحر الأبيض المتوسط وأنهت الحملة الفارسية ، وكان ذلك بداية عهد جديد لليونان تمتعت فيه بالرفاهية والاستقرار التجاري ، وأنشأت خلاله أعظم الحضارات . وتكرر نفس الشيء مع روما عندما أشعلت الحرب بينها وبين دولة قرطاجة^(١) ووجدت من الضروري أولاً تدمير القوات البحرية لقرطاجة ، ولكنها لم تستطع حتى بنت أسطولاً قوياً هزمت به الأسطول القرطاجي الذي كان في ذلك العصر يعتبر من أقوى الأساطيل التي اصطدمت بها روما .

وفي القرن الثامن عشر كان من المستحيل غزو بريطانيا لوجود قوة بحرية كبيرة لديها ، وقد مكنتها هذه القوة البحرية من هزيمة الأسطولين الفرنسي والأسباني في معركة ترافالجار^(٢) .

وأستطاعت بريطانيا أيضاً في عام ١٨٠٨ من إنزال قواتها على الساحل البرتغالي . وبعدها بسنوات هزمت نابليون الذي كان يملك أكبر قوة عسكرية في ذلك الوقت ، ولكنه كان مقيداً بأستراتيجية القوات البرية ومسيطرة على تفكيره .

ولم تقتصر أهمية القوة البحرية على العصور الماضية بل ظهرت قيمتها بوضوح في العصر الحديث ، ويمكن ملاحظة ذلك في معركتي ترافالجار (٢١ أكتوبر) واللمين (٢٣ أكتوبر) فكل منهما بمثابة نقطة تحول في حرب طويلة الأمد ضد عدو قوى ينتمي إلى القارة الأوروبية .

(١) كانت دولة قرطاجة تقع في شمال أفريقيا

(٢) ترافالجار هي الطرف الأغر « المغرب » .

فلولا سيطرة الحلفاء البحرية لما أستطاعوا الحصول على النصر في العلمين لأنهم تمكنوا بذلك من بناء قواتهم البرية ونقل الأمدادات بسرعة أكبر من روميل ، ولولا ذلك لتغيرت النتيجة تماماً ولسيطر العدو على ميدان القتال في العلمين وربما أمتد وسيطر على مصر وقناة السويس بل وربما الشرق الأوسط كله .

والدرس المستفاد الذي يمكن الخروج به من دراسة تاريخ الدول
**أن السيادة الخربية تكون دائما في يد الدولة صاحبة السيادة البحرية ،
هل القوة الجوية سلاح رهيب ؟**

لقد ظهر أن القوة الجوية لها تأثير فعال على الحرب في البحر والبر . ففي خلال عام ١٩٤١ ، ١٩٤٣ ظهر في ميدان جنوب شرق آسيا والباسفيك ، التعاون الوثيق والتفوق الكاسح للقوة البحرية والجوية اليابانية ، عندما شنت اليابان في ٧ ديسمبر ١٩٤١ أعنف هجوم جوى يمكن أن تقوم به حاملة طائرات ، فقد أنطلق أكثر من ٣٠٠ طائرة يابانية وقصفت سفن الأسطول الأمريكي في الباسفيك الراسية في ميناء بيرل هاربور وأغرقتها . وكان الأمريكيون يعتقدون بأن سفنهم الراسية في هذا الميناء في مأمن من الطوربيدات الجوية لضحالة المياه هناك .

وبعد فترة وجيزة من هذا الهجوم القاتل ، أنطلقت الطائرات اليابانية من قواعد برية وأغرقت البارجة الحربية البريطانية « أميرويلز » كما أغرقت الطراد ريبالس البريطاني أمام شاطئ الملايو . وفي عام ١٩٤٢ حدثت معركتان بحريتان بين الأسطولين الأمريكي والياباني ويعاونهما القوات الجوية ، وقد ظهر بوضوح خلالهما الدور الفعال الذي تلعبه القوات الجوية في المعارك البحرية الحديثة ، والمركة الأولى نشبت في بحر المرجان^(١) في الفترة ما بين ٤ — ٨ مايو ، وأستطاع الأمريكيون صد الهجوم البحرى اليابانى على ميناء مورسبي وبذلك منعوا اليابان من تهديد أستراليا ... أما المركة الثانية فنشبت أمام سواحل جزيرة ميدواى في الفترة ما بين ٣ — ٦ يونية ، وأستطاع الأمريكيون بعد حل الشفرة اليابانية ومعرفة خطة العدو والأستعداد له في شمال وغرب الجزيرة من توجيه ضربة قاتلة لليابانيين .

وقد تميزت مركة بحر المرجان بأنها أول مركة بحرية تتم بدون أن يرى الخصم سفن

عدوه ، ولم يحدث ضرب مباشر على السفن ^(١) .

وقد أستخدم القادة ، القوات الجوية في الحرب البرية للاستطلاع فأستطاعوا رؤية «ماوراء الجبل » وقد تطورت القوات الجوية بسرعة مذهلة مما أصبح من المتعذر على العدو أجراء التحركات النهارية وتطلب منه ضرورة الحصول على السيادة الجوية قبل الدخول في أى معركة برية .

وبذلك أصبحت القوات الجوية هى السلاح الحاسم في الحروب ، فأستطاعت القاذفات نقل المعركة إلى العمق وضرب المناطق الحيوية للعدو محدثة خسائر فادحة في المدنيين والمصانع وبذلك تؤثر على جبهة القتال بطريق غير مباشر فتستطيع القوات البرية الحصول على النصر السريع وبخسائر طفيفة .

القيادة والحيط الذهبى

سيلاحظ القارئ بأن موضوع القيادة سيجرى نحيط من الذهب خلال صفحات هذا الكتاب وسوف أنه عنه حالياً ولكننى سأكتب بأستفاضة في الفصل الثانى .

فالقيادة هى قمة الاحساس بل اهم العهد في الحرب

لذلك يجب أن يتوفر في القائد بعض المميزات والصفات مع مساهمة بعض العوامل في صناعه ، ولكن يجب أن يتحلى أولاً بصفتين حيويتين وهما : —

١ — القدرة على اصدار القرارات الصحيحة والصائبة

٢ — الشجاعة والجرأة في تنفيذ هذه القرارات .

وطبعاً هذه الصفات لا تقتصر على القادة العسكريين فقط بل هى لازمة أيضاً في مجالات أخرى كالصناعة والسياسة .

ويجب على القائد أن يعرف . . .

— ماذا يريد تحقيقه . . . ؟

يرى هدفه بوضوح ثم يبدأ في محاولة تحقيقه . . .

(١) يقصد مونتهجرى أن الضرب تم عن طريق الحسابات من مسافات بعيدة دون أن يرى الغرس المراد الضرب عليه ، وهذه الطريقة تسمى بالضرب غير المباشر أما الضرب المباشر فهو أن يرى الغرس ويتم التصويب عليه . (المغرب)

— **يلم رؤوسيه الاما تاما بنا يريد ، مع معرفتوم للقواعد الرئيسية للسياسة**
التي سيتبعها مستقبلا .

وفي الواقع يجب أن يمارس القائد قيادة حازمة على أن يكون توجيهه واضحاً ، مع خلق ما يسمى « بالجو » ليعيش فيه ويعمل جميع مساعديه وأركاناته حربه وقادته الأصغر ، على أن يكون قادراً على إدارة زمام القيادة والتوجيه ، وله الشخصية والقدرة على بث الثقة فيمن يعملون تحت قيادته ، وأهم من كل ما سبق يجب أن يتمتع القائد **بالشجاعة الادبية** **والنصميم وقوة الارادة** ، فلا اعتبارات الثلاثة الأخيرة تمكن القائد من الوقوف بثبات أمام الأحداث التي تحتاج لهوازنة وأصدار قرار حاسم سريع ، ففي المعركة هناك شيء واحد مؤكداً ، وهو أن كل ما يجري في المعركة غير مؤكد ، لذلك فأهم مصادر السيطرة والقوة للقائد خلال المعركة ستنبع من قدرته على بث الثقة في الخطة التي وضعها ، ثم يتابع ذلك أثناء سير العمليات ، وخاصة عندما يكون القائد غير متأكد في قرارة نفسه بأن المعركة ستحقق النتيجة المرجوة .

ولكي يستطيع القائد تطبيق هذه الفلسفة على جميع الرؤوسين ، يجب عليه أن تكون معنوياته شخصياً مرتفعة ، فالمعركة في الحقيقة عبارة عن **صراع بين ارادتين . . . ارادته** **وارادة قائد قوات العدو** . فإذا ما ضعفت معنوياته نتيجة لقسوة المعركة وأحداثها المفزعة ، فالتصر سيكون من نصيب الخصم المتمالك لمعنوياته .

وفي اعتقادي يمكن تقسيم القادة إلى نوعين : —

١ - **قائد عادي جيد** : وهو قائد جيد ، طالما يتلقى أوامر مفصلة من قائده الأعلى ، على أن يوجهه قائده الأعلى إلى ما يجب عمله ، ويقف بجانبه ليساعده ويراقبه ويتأكد دائماً بأنه ينفذ كل ما يأمر به .

٢ - **قائد ممتاز (عبقري)** : وهو القائد الذي لا يحتاج إلى تعليمات مفصلة بل يكفيهِ فكرة عامه عن العملية التي سيقوم بها ، ويستطيع تنفيذها بدون معاونه قائده الأعلى وهو مملوء بالثقة والإطمئنان ، ومثل هذا القائد كالطائر النادر جداً جداً .

وسوف نجد أثناء دراستنا لتاريخ الحروب منذ بدايتها حتى العصر الحديث ، أن كثيراً

من الشخصيات المعروفة والبارزة ستمر أمامنا على مسرح الحرب ، وبذلك ستكون لدينا فرصة لنقرر بأنفسنا إلى أى نوع من النوعين السابقين من القادة ينتمون . ونستطيع أن نحكم على نوعية القادة من خلال ممارستهم لتخصصهم ، وأيضاً من خلال معتقداتهم ودوافعهم العسكرية .

ويمكننى أن أقول بأن القادة الذين قادوا الحملات وخاضوا المعارك لا شئ إلا لأسباب سياسية فقط دون الإستعداد لها . . . فإن هذه الحملات والمعارك لم تكن سوى المقبرة التى دفنت وطوت خبرتهم وشهرتهم العسكرية .

والآن وأستكمال للحديث عن القيادة والقادة يجب أن نتحدث عن موضوع هام وحيوى للقادة ويمنحهم العون الكبير قبل وأثناء وبعد المعركة وهو المخابرات والخدمة السرية .

المخابرات والخدمة السرية

لقد كتب بوليبيوس^(١) بأن القائد يجب أن يؤمن أيماناً راسخاً بوجود معرفة كل مايتعلق بنزعات وشخصية خصمه . وقال فون مولتك^(٢) منذ ألفى سنة أثناء مخاطبته لضباطه :



— « ستجدون عند تقدير موقف العدو أن أمامه ثلاثة طرق مفتوحة سوف يستخدم أحداها ولكن وعند القتال الفعلي سيفاجئكم باستخدام طريقة رابعة » .

لذلك فالقائد الجيد من يستطيع السيطرة على ما يحيط به من أحداث أما اذا سلبته هذه الأحداث سيطرته وتوازنه ، فسوف يفقد بعد ذلك ثقة رجاله وبالتالي يفقد أهم مقومات القيادة .

فون مولتك

لذلك كان لازماً على القائد أن يكون على علم سابق

بنوايا العدو وتحركاته المنتظرة ، حتى يستطيع اتخاذ الإجراءات المعتادة السريعة لمنعه من التدخل وأفساد خطته ، وبذلك يمنع العدو من التدخل فى تحركاته . وهذا أدى إلى ضرورة وجود جهاز مخابرات من الدرجة الأولى ، لأنه حيوى ، ومثل هذا الجهاز يجب أن يكون المسئول عنه ضابطاً يتمتع بأكبر قدر من الذكاء وليس من الضروري أن يكون ضابطاً

(١) بوليبيوس مؤرخ يونانى عاش فى الفترة ما بين ٢٠١ — ١٢٠ ق م .

(٢) فون مولتك كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات البروسية لمدة ثلاثين سنة بدأت

من عام ١٨٥٧ . (المعرب)

متخصصاً في القتال . فأهم الصفات التي يجب توافرها فيه أن يكون تفكيره ناضجاً ومرتباً ووثيقاً ، ليستطيع استخلاص النقط الهامة والرئيسية بالنسبة للعدو والتي قد تمر من أمامه مصادفة .

ويجب أن يكون هناك إتصال قريب ووثيق جداً بين أجهزة المخابرات وأجهزة الخدمة السرية . والقائد الجيد هو الذي يؤمن بأهمية معرفة ما يفكر فيه خصمه ولا يدخر وسعاً في المحاولة للحصول على هذه المعلومات . وكنت أثناء قيادتي لقواتي أحتفظ في عربة قيادتي بصورة فوتوغرافية معلقة لقائد الأعداء ، في كل من صحراء العلمين ونورماندى ، ولم تتغير هذه الصورة الفوتوغرافية . . . فكانت لروميل . وكنت دائماً أنظر إليها متمعنا في قسما ت وجهه محاولاً الوصول إلى ما يمكن أن يقوم به هذا العقل المتوارى خلف هذه القسما ت عند قيامى بتنفيذ خطى . . . وليصدقنى القارئ أن ذلك ساعدنى كثيراً . . . ومرة أخرى أكرر أن دراسة قادة العدو عامل هام وضرورى جداً .

أثناء سير المعارك الحربية ، قد تخرج المعركة وبسرعة عن مسار الخطة الموضوعة لها ، وإذا حدث ذلك أنتقل زمام المبادأة إلى العدو ، فالدرس الذى نخرج به وتعلمته طوال مدة خدمتى العسكرية الطويلة ، هو أنه إذا فقد القائد المبادأة ، أصبح من المستحيل أن يحقق النصر ، ومن هنا تظهر أهمية وخطورة المخابرات والخدمة السرية التى تتولاها الحكومة المركزية وتتضمن عمليات الجواسيس والمخربين والعملاء السريين ، وكل هذه العمليات بصفة عامة تعتبر خارجة عن نطاق القانون سواء المحلى أو الدولى ، وبالتالي يمكن أن يقال أنها من العمليات البغضية إذا قورنت بالعمليات الأخرى التقليدية التى تخدم القيادة ، ولكن بالرغم من ذلك ، فقد أثبت التاريخ بالرغم من هذه النظرة البغضية إلى عمليات الخدمة السرية ، أنه لم يحدث مطلقاً أن قامت أى دولة بالحد منها لأنها تريد من قوة وفاعلية هذه الدولة .

الروح المعنوية :

نجد أن عوامل القيادة والسيطرة تلعب الدور الرئيسى فى تحقيق النصر خلال المعارك ، ولكن يوجد عامل حيوى وهام يتوقف عليه النصر أيضاً وهو الروح المعنوية للمقاتل .

وقد ظهر أن أفضل الطرق لرفع المعنويات خلال الحرب هو الحصول على النجاح فى

المعركة . ويجب أن نعلم أن **المادة الخام التي يتعامل معها انفاذ هي الرجال** ، لذلك فمن الضروري ، بل ومن الحيوى أن نعرف أن النصر يتم أولا وقبل كل شيء ٠٠٠ في قلوب الرجال . ومن الخطأ النظر إلى القوات المسلحة على أنها مجموعة من الأفراد المزودين بعدد ضخم من الدبابات والأسلحة ، فقوتها ليست في مجموع هؤلاء ، بل القوة الفعلية تنبع مما هو أعظم بكثير من مجموع الأفراد والدبابات والأسلحة ٠٠٠ فالقوة الحقيقية تكمن في **الروح المعنوية ، والروح القتالية والثقة المتبادلة بين القادة والجنود** (وخاصة بين القادة الميدانيين والقيادة العليا) وهذه هي الدعائم التي تؤكّد وتدعم النصر .

وهناك أيضاً عاملان يلعبان دوراً هاماً في المعركة وهما **الضبط والربط .. والزمالة** (زمالة السلاح) ولذلك يبرز لنا السؤال التالي : — ما هو الدافع للجندي ليخرج من خندقه أو حفرة التي تحميه من رصاص الإعداء ، ويتوجه للأمام ويواجه الرصاص أو قذائف المدفعية معرضاً نفسه للموت ؟

السبب الرئيسى في هذا الاندفاع الجرىء هو قائده الذى يتقدمه وزملاؤه المحيطون به ، **فالزمالة تجعل الجندي يشعر بالدفع والشجاعة عندما تحاول غرائزه تحويله الى شخصى بارد خائف** .

ويجب على القائد تفهم القوى العاطفية الفياضة الكامنة في صدور الرجال ، ويجد لها متنفساً أو مخرجاً إيجابياً وبناءاً وبطريقة تدفئ القلوب وتثير وتلهب الخيال .

وفي العصر الحديث ، إذا قابل القائد مشكلات جنوده الأنسانية بطريقة باردة ومجردة من الشعور الحقيقى ، فلن يحصل منهم إلا على القليل ، ولكنه إذا أستطاع كسب ثقتهم وأيمانهم ، وجعلهم يشعرون بأنه يرفع مصالحهم ، وأنهم بين أيدي أمينة عليهم ، يكون بذلك قد أمتلك رجالاً ذوى مستوى عال ونادر معنويًا وقياليًا وحقق في نفس الوقت أعظم ما يمكن أن يحققه قائد . والنصر في المعركة لا يتحقق كما ذكرت ، إلا بواسطة الروح القتالية العالية للجنود والضباط في الميدان ، مهما كانت نوعية ضباط القيادات العليا .

وعندما تحدثت عن علاقة القائد والجنود ، بدأت بكلمة « العصر الحديث » لأن الحال لم يكن هكذا في العصور الماضية ، وعلى كل فالقادة في أى عصر مسئولون عن كسب

الحرب • وقادة العصر الحديث يقومون بذلك ولكن بأقل ما يمكن من الخسائر في الأرواح ، أما خلال العصور الوسطى فلم تكن للقوة البشرية أى اعتبار وليست ذات قيمة ، لأن العبيد كانوا يعملون في الأرض وبعد ذلك يستهلكون في المعارك • أما في القرن الرابع عشر فقد توالى سلسلة من الأوبئة وأصبحت القوة البشرية نادرة جداً ، فقد حصدت هذه الأوبئة أعداداً مخيفة من البشر حتى سمي هذا العصر ، بعصر « الموت الأسود » فنتج عنه ارتفاع قيمة هؤلاء العبيد وبذلت الجهود للمحافظة على حياتهم .

نعود ثانية للعصر الحديث ، فنجد أن معظم الدول بدأت تطعم قواتها المسلحة بعناصر من المدنيين المحترفين لأعمال في البحر والجو وهؤلاء الأفراد لم يفكروا مطلقاً في الانخراط في سلك الجندية .

وهؤلاء يختلفون تمام الاختلاف عن العبيد الذين كانوا ينزعون من أعمال الأرض إلى الحرب ، لأن هؤلاء المدنيين مثقفين ويمكنهم التفكير والتقدير بل والنقد أيضاً ، ويهتمهم دائماً معرفة ما يجرى ، وما يريد القائد أن يقوم به ••••• ولماذا ••••• ومتى ••••• ؟ ويهتمهم أيضاً أن يتأكدوا من أن قائدهم يعمل ما في صالحهم ، وأنهم بين أيدي أمينة ، ولذلك يريدون دائماً رؤيته حتى يرسّموا في أذهانهم صورة له فيعرفوا من أى نوع من البشر هذا القائد ••••• ؟ وبذلك ترتفع روحهم المعنوية .

الحرب الشاملة .

وأعتقد أنه أصبح واضحاً الآن مما كتبته ، أن الحرب لها **جوانب انسانية** أيضاً ، وللأسف أهملها كل المؤرخين ، وسأحاول الإشارة إلى هذا الموضوع عبر فصول هذا الكتاب ولن أغفر لنفسي مهما كانت الأعذار ألا أكتب عن هذا الجانب الإنساني • فالجانب الإنساني في الحرب هو أهم جوانبها لأن التعب والخوف والرعب والحرمان وتحمل الموت ... سوف يواجهها الجندي المقاتل بقلب جسر إذا كان على علم وإيمان بالغرض الذي يقاتل من أجله ويثق في ضباطه ورفاقه ، وفي نفس الوقت يعلم أنه لن يطلب منه تحقيق مالا يكون في استطاعته •••••

لذلك يجب أن يكون كل ماسبق محل اعتبار الدارسين للحرب ، وخاصة من تكون مهمتهم الأصلية هي الحرب والقتال فقط .

والحرب الحديثة قد ازدادت صورتها تعقيداً من الماضي حتى الآن ، وعلى كل فهمي النوع الذى يشمل كل أوجه الحياة والنشاط للدولة فترة طويلة بما فى ذلك معنويات هذه الدولة .

والحرب الشاملة فى العصر الحديث تمتص كل جهود القوى العاملة رجالاً ونساء ... وتحول كل قوى الصناعة لسد الحاجات الضرورية للمجهود الحربى .

وأثناء هذه الحرب يكون المرء دائماً محوطاً بالخطر سواء إستدعى للخدمة العسكرية أو كلف بأى عمل مدنى أو صناعى ، فالخطر يصبح ماثلاً فى كل مكان وأدى هذا إلى ضرورة وجود نظام خاص يكفل حماية المدنيين داخل المدن ، وسمى هذا « بالدفاع المدنى » أو « الدفاع الوطنى » .

تلك الحقائق أدت أن أصبحت الحرب الحديثة أمراً بالغ التعقيد ، لذلك لم تعد القوى الكبرى تستعد للحرب بالوسائل التقليدية ، بل اضطرت إلى أن تجهز نفسها بنوع آخر من الحروب ... وهى الحرب النووية . ولهذا سعت الدول لتضمن أمنها وبقائها إلى توجيه كل أمكانياتها العلمية والتكنولوجية إلى التوصل لأحدث وأقوى أنواع الأسلحة الحديثة على أن يتمشى ذلك مع الاستعداد للحرب النووية .

الفصل الثاني

القيادة

العلم وفن القيادة

خلال فترة الحرب ما بين ١٩١٤ - ١٩١٨ ، قال كل من برياند ولويد جورج نقلا عن توليراند بأن « الحرب من الأمور البالغة الخطورة ويجب ترك تصرف شؤونها للعسكريين فقط » وطبعاً هذا صحيح جداً ، ولكن يمكن أيضاً أن يقال « الحرب من الأمور البالغة الخطورة ويجب أن يتولى شؤونها السياسيون فقط . »

والحقيقة أن الحرب الحديثة تتطلب وجود تعاون وثيق بين كل من العسكريين والسياسيين ، لأن هذا أمر ضروري وحيوي وإذا لم يحدث هذا ، فستكون النتيجة الموجهة من الحرب مشكوكاً في تحقيقها .

والآن ... ليدعني القارئ أقدم وجهات النظر في مسئوليات العسكريين الذين يقصد بهم توليراند ، فنجد أن كلمة « قائد » تشمل معناها كل الرتب العسكرية الكبرى التي تعمل في خدمة الحرب والقتال ، وإذا بحثنا عن معنى القيادة في قاموس أكسفورد لوجدنا أنها تعني « مكتب الجنرال ، الاستراتيجية ، المهارة العسكرية ، الإدارة الناجحة ، التكتيك ، الدبلوماسية ... » أما التعريف الذي أضعه لهذه الكلمة فهو : -

علم وفن القيادة

فهى علم لأن الضباط يجب أن يدرسوها نظرياً ... وهى فن لأن هذه الدراسة النظرية تحتاج للتطبيق العملي ، ويجب أن تتضمن القيادة مع كل هذا المعرفة الحقة للأعماق البشرية .

وقد كتب ماوتسى تونج الذى يعتبر بلا منازع قائداً عظيماً فى كتابه بعنوان « كتابات حربية مختارة » قال : - أن القوانين والنظريات العسكرية ما هى إلا حصيلة وخلاصة الحروب الماضية والتي وضعها الأقدمون أو المعاصرون ، وهذه الخلاصة يجب علينا دراستها

دراسة عميقة وأختبار نتائجها على ضوء ما أكتسبناه نحن من تجاربنا ، ثم أستيعاب الجوانب القيمة لهذه النتائج مع رفض الضار منها وإضافة ما يمكن إضافته إليها من خبرتنا ، وإضافة الأخيرة هامة جداً ، وإلا فلن تتمكن من تطوير وتوجيه الحرب ، وعلى كل القراءة تعنى المعرفة ، ولكن تطبيق هذه المعرفة هو أهم ما فى القراءة من جوانب » .



فردريك الأكبر

وماوتسى تونج على حق ، فأنا أذكر خلال فترة الحرب ١٩١٤ — ١٩١٨ أننى أقترحت على أحد الضباط الألتحاق بأحدى الكليات العسكرية للضباط الأصغر فى فرنسا ، فما كان منه أن ضحك من أقتراحى هذا وقال : « إن الخبرة الفعلية للضباط لا تأتى إلا خلال المعارك والقتال فى الحنادق » . ولكننى ذكرته بما قاله فريدريك الأكبر عن الضباط الذين يعتمدون فى دراستهم وخبرتهم أشتركوا فى معارك كثيرة فقط فقال : — « كان لدى زوج من البغال أشتركوا معى فى أكثر من أربعين معركة ، ولكن بعد انتهاء كل هذه المعارك مازلا بغلين ... »

فالدراصة النظرية والتطبيق العملى كلاهما ضرورى ، فيجب دراسة علم الحرب أولاً ثم يتم تطبيق هذه الدراصة فى المعارك ثانياً . والأعتبار الأول ممكن القيام به دائماً ، وليس هناك أى عذر لأهماله ، أما الأعتبار الثانى فربما لا يتوفر ، ولكنه توفر لى كثيراً .

وسنجد أن قدراً كبيراً من الخبرة العظيمة والتجارب الكثيرة مدفونة تحت أنقاض

الماضى السحيق والعصور المتعاقبة للحروب ، ولن يستطيع القادة الإستفادة من هذه الخبرة إلا بوجود المؤرخين العسكريين لى يخرجوها من تحت أنقاض هذا الماضى ، وفى نفس الوقت لن يستطيعوا إستيعابها بدوننا نحن جنرالات وأدميرالات العصر الحديث ، لأن وجودنا حيوى لنقد وأختبار خبرات ذلك الماضى ، ولولا هذا لأختلطت الأمور وتشابكت الصور ، لأن القيمة الحقيقية للحروب الطويلة فى الماضى ، هى الخروج بالحقائق واستخلاص

العبر والدروس المستفادة ، وليس فى الدخول فى متاهات المناقشات فيما كان يجب أن يكون ...

فالمهم الخروج بالحقائق أولاً ثم بعد ذلك لتكن المناقشة وليكن الرأى . . .

دراسة التاريخ العسكرى .

لقد كان استمتاعى بكتابة هذا الكتاب أكثر بكثير من أننى الشخص الملائم لكتابته ، وخاصة لو عرف القارىء أننى بدأت حياتى ضابطاً صغيراً ليس له أى تجارب أو خبرة وألتحقت بكتيبة فى الهند عام ١٩٠٩ وأخذت أتدرج فى المناصب القيادية حتى وصلت إلى أعلى القيادات ، وكانت عادتى دائماً طوال هذه المدة (ولا زلت حتى الآن) القيام بدراسة الماضى دراسة عميقة محاولاً البحث عن كل ماله أهمية لأيضاح وأنارة طريقى فى الحاضر والمستقبل . ولذلك قمت بدراسة التاريخ العسكرى دراسة شاملة وواسعة ولكنها كانت محصورة فى حدود الكتب التى وضعها المؤرخون البريطانيون من أبناء عصرى ، إلا أننى حاولت دراسة كتب غيرهم مثل كلاوزفيتز الألمانى وجوميني السويسرى ، وكلاهما من الكتاب العسكرين ذائعى الصيت ، إلا أننى تعثرت مع كتاباتهم فعدت ثانية إلى دراسة كتابات المؤرخين من أبناء بلدى ولغتى .

وأول كتاب تناولته كان كتاب « علم الحرب » بقلم ج . ف . ر . هندرسون وهو عبارة عن مجموعة محاضرات نشرت للمؤلف بعد وفاته . وبعد ذلك قرأت كتاب « الحرب الأهلية الأمريكية » لنفس المؤلف وقد أثارنى جداً وأستمتعت به أستمتاعاً كبيراً . ثم وجدت أننى أستطيع الاستفادة والتعلم أكثر لو قرأت كتباً للمؤرخين المعاصرين ، وركزت بصفة خاصة دراستى على قادة الأمم العظام لأعرف كيف كانوا يفكرون ويعملون . . . ؟

كيف استخدموا ما اتيج لهم من إمكانيات . . ؟

ولم تشغلنى الطريقة التفصيلية لتوزيع وتنسيق القوات المحاربة فى أى عصر مضى ، بل كنت دائماً أبحث عن الإمكانيات التى كانت تواجه القائد أثناء المعركة . . .

ما هى العوامل التى أثرت وسيطرت على قراره . . ؟

وما هو قراره . . وماذا . . ؟

أردت أن أعرف ماذا كان يدور فى رأس هذا القائد العظيم عندما أصدر قراره . . ؟

وكان ذلك يمثل فى نظرى الدراسة الحقة والأكيدة للقيادة .

وقد تأثرت بعدد من المؤرخين العسكريين المعاصرين البريطانيين ومنهم بازيل ليدل هارت وهو من الكتاب الممتازين في هذا المضمار لتمييزه بالوضوح المطلق والكتابة السلسة ، علاوة على أنه خبير في مجالى التحليل والتعليق ، وكانت تربطنى به صداقة لأكثر من أربعين عاما ، وقد تتبعته خلالها كل مؤلفاته ، وقد أثرت طريقة تفكيره العسكرى تأثيراً بارزاً في قيادتى طوال مدة خدمتى وأثناء الحرب الأخيرة .

ومن المؤرخين أيضاً الذين تعلمت الكثير من كتاباتهم سير آرثر بريانت والمرحوم ج . ف . س . فولر وأيضاً سيريل فولز و أ . ج . تايلور ، والأخير كتب أفضل الكتب وخلالها أمكننى التعرف على المشكلة الألمانية ، وهذا الكتاب إسمه « الأسباب الرئيسية للحرب العالمية الثانية » . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ يظهر جيل جديد من المؤرخين العسكريين الشبان ، ولم يتمكنوا بحكم حداثة سنهم من رؤية خبايا الحرب ، ومن أبرز هؤلاء فى رأيى كوريللى بارنيت ، فكتابه « حملة السيوف » من الكتب ذات المستوى العالى وضمنه دراسة لبعض القادة الذين أشتركوا فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وأبرز ما فيه القوة الفائقة فى التحليل والتعليق . ومن هؤلاء أيضاً آلان كلارك الذى أعجبني كثيراً كتابه « بارباروسا » وهذان الكاتبان ينتظرهما مستقبل باهر ، وجميع مؤلفاتهم جديرة بالقراءة من القادة على جميع المستويات .

علم الحرب .

من الأمور الطبيعية أن المهارة العسكرية للقائد تحتاج إلى دراسة نظرية أولاً وذلك عن طريق دراسة علم الحرب ، لأن الفرصة لا تسنح دائماً للقائد للقيام بحرب عملية حقيقية فى أى وقت ، ولهذا كان أعظم القادة دائماً من الدارسين للتاريخ العسكرى .

وقد كتب بسمارك : « أكثر الرجال حكمة هم أكثرهم استفادة من تجارب الغير » وقال ت . د . لورانس : « إن وراءنا نحن أبناء القرن العشرين ألفى سنة من الخبرة والتجارب ، فإذا أجبرنا على القتال ، فليس لنا أى عذر إذا لم نحارب جيداً » .

ومن خلال قراءتى الطويلة عبر السنين ، أقتنعت بأنه لا يمكن لأى قائد فى القرن العشرين أن يصبح قائداً عظيماً وممارساً ممتازاً لمن الحرب ، إذا لم يقيم قبل كل شىء بالدراسة

والتفكير العلمى للحرب . وعلى ضوء تجاربى الشخصية فى قيادتى أثناء الحرب الأخيرة ، خرجت بمبادئ رئيسية ونتائج محددة حول القيادة منها أن من أولى مسئوليات قائد القوات أن يخلق ما يسمى « بالوسط أو الجو » الذى من خلاله سيعيش ويعمل ويقا تل كل أركانات حربه وقواده الرؤوسين وجنوده ، على أن تعرف وتلم قوائه بما يريد . . ؟ ويكرنون على علم تام بالأسس الرئيسية لسياسته المستقبلية ، مع توجيه القوات توجيهها حازماً فى ظل قيادة واضحة .

فى نفس الوقت يجب أن يصدر التفكير والتوجيه من القيادة العليا على أن ينتشر تدريجياً حتى يعم جميع القوات .

وإذا تم ذلك فالجميع سيسيرون للأمام كل فيما هو مرسوم له فى الخطة وبذلك ستكسب القوات عاملين هامين هما **التوازن . . . والتماسك . . .** وطبعاً يمكن أن نعرف ما تستطيع مثل هذه القوات أن تحققه فى المعركة . . ومن القادة الذين طبقوا هذه المبادئ كاملاً هو نيلسون .



وبعد أن يحقق القائد هذه العوامل أو المبادئ المعنوية يجب عليه أن يوفر المبادئ المادية من توفير المعدات الحربية اللازمة للمعركة مع الحصول على أقصى طاقة وجهد لهما ، ويتطلب هذا أن يكون على معرفة كاملة بإدارة الحرب وفى نفس الوقت يقوم بتدريب قوائه تدريباً شاقاً متواصلاً على هذه المعدات .

ويجب أيضاً أن يتواجد فى مركز قيادته جهاز يستطيع توجيه جميع الأسلحة والمعدات بكفاءة وبسرعة

نيلسون

مع دفعها إلى ساحة القتال بطريقة مدروسة لتحقيق أكبر قدر من النجاح ، ويجب أن تعرف القوات كل هذا . ويتضح لنا مما سبق أن إدارة مسرح المعركة أصبح حيويًا ومن أولى اختصاص القادة .

مشكلات الحرب

لقد ظهر للقادة بعض عناصر رئيسية يتوقف عليها القتال في المعركة ويجب تحقيقها للحصول على النصر وهي :

- ١ — المفاجأة .
- ٢ — تركيز الجهود .
- ٣ — التعاون بين جميع الأسلحة والقيادات والقوات .
- ٤ — السيطرة .
- ٥ — البساطة .
- ٦ — سرعة التصرف .
- ٨ — المبادأة .

علاوة على ذلك يجب على القائد أن يكون واضح التفكير ، قادراً على أستخلاص العوامل الهامة في المشكلة التي تحيط به ثم يتمسك بها ، على ألا تغيب عن بصره ولا يسمح لتفاصيل الكثيرة أن تغرق ما حصل عليه ، لأنها هي أسس النجاح .

والمشاكل الحربية في جوهرها بسيطة ، ولكن القدرة على تبسيطها واستخلاص الهام منها هو الصعب ، ويجب على القائد أن يتميز بهذه القدرة مع تحليه بصفة بعد النظر . وقد يتعرض القائد للفشل إذا لم يكن عقله منظم وتفكيره نقي في جميع الأوقات ، ويجب عليه الاعتدال في التدخين وشرب الخمر .

يجب على القائد أيضاً أن يضع خطة العمليات بنفسه ولا تفرض عليه من قبل أركان حرب أو تحت تأثير أى ظروف أو بواسطة العدو ، لأن أقصى ما يطمع فيه العدو أن تتاح له الفرصة ليملي أرائه على المعركة ، ولكن يمكن للقائد إحباط ذلك بأفقاد العدو لثوابته باستخدام خفه الحركة وأجباره على الأذعان لتحركاته وتهديده مع أستخدام عامل المفاجأة ، وهنا تظهر حنكة وبراعة القائد في المناورة والخداع مما يجعل العدو يتصرف ويتحرك طبقاً للضغط القوى المتواصل لهذا القائد .

المفاجأة

المفاجأة من العوامل الرئيسية لنجاح المعركة ، ولكن نجد دائماً أن من الصعب

تحقيق المفاجأة الاستراتيجية^(١) بينما يمكن تحقيق المفاجأة التكتيكية التي دائماً تتبوأ الصدارة أثناء وضع الخطة لأن القائد يجب أن يجبر عدوه على الرقص على ما يصنعه من أنغام طول الوقت . وهذا يتطلب أن يتنبأ القائد ويتخيل ما ستكون عليه معركته ، أى يقدر الموقف قبل بداية المعركة ثم يتصور ما يجب أن تكون عليه العمليات ، وبعد ذلك يستخدم جميع الإمكانيات المتوفرة له لإجبار المعركة على السير في الطريق الذي رسمه ويريده .

وأثناء سير العمليات سيحاول العدو أن يفقد قائد الحسم توازنه بالقيام بالهجوم والتهديد المضاد وهذا ما لا يجب أن يسمح به إطلاقاً عبر أرض المعركة ولذلك يجب أن تتمتع القوات بتوازن تام وضبط وربط عاليين ، وهذا يتطلب أن يكون الهيكل العام لتوزيع وتنسيق القوات جيداً حتى يصبح من المستحيل على العدو أن يفرض سيطرته عليها .

ومن أبرز علامات القيادة الممتازة المهارة في توزيع^(٢) القوات قبل المعركة ، على أن يصلح إعادة توجيهها لمقابلة ما يطرأ من تطورات على الموقف التكتيكي .

مناورة أفقاد التوازن .

كما ذكرت في بداية هذا الفصل أن من أهم صفات القائد أن يستطيع متابعة وفهم عقلية خصمه ، وبذا يقدر على قطع الطريق ، مقدماً على جميع محاولات خصمه لأحباط ما وضعه من خطط ، كما يمكنه أيضاً التحرك أسرع من تحرك خصمه المضاد . وبالطبع فالقيادة يختلفون ، فكل منهم له طريقة وأسلوب ينبعان من دراسته وتجاربه وعقليته . أما بالنسبة لى شخصياً فكان أسلوبى يعتمد على المناورة التي تفقد العدو توازنه في نفس الوقت احتفظ بتوازن قواتى بالكامل ، ويطلق على هذه المناورة أفقاد التوازن .

(١) المفاجأة الاستراتيجية : تعنى إخفاء نية وقوة وموعد واتجاه الضربة الرئيسية ، أما المكافأة التكتيكية فتمثل المفاجأة الاستراتيجية ما عدا بند النية .

(٢) يقصد مونجمرى ليس عملية التوزيع في حد ذاتها ، بل المهارة في التأكد ، أن جميع الوحدات قد اختيرت ووزعت بحيث تتلاءم مع الفرض التي ستحققه . (العرب)

وكنيت أهدف دائماً أثناء تخطيطي للمعركة أن أجعل العدو يبعثر قواته الاحتياطية على جبهة واسعة لكي يسد بها الثغرات التي حدثت في خطوطه الدفاعية ، وعندما يحدث ذلك أقوم على الفور بدفع قواتي الاحتياطية لتوجيه ضربات عنيفة للعدو وعلى جبهة ضيقة ، وفي هذا الوقت أحاول تكوين احتياطي جديد يكون على استعداد لأي تصرف مفاجئ يقوم به العدو .

المبادأة .

يجب عندما يمتلك القائد زمام المبادأة ، أن يحرص عليها ولا يدعها تفلت منه مطلقاً مهما كانت الظروف ، لأن المبادأة وحدها تجعل العدو يرقص على نغمات هذا القائد ، أما إذا فقدت المبادأة أمام عدو محمك فستصبح جميع التحركات تخضع لتهديد العدو وضغطه . وهذا كفيل بخسارة المعركة ، ومن السهل أن تفلت المبادأة من القائد إذا كانت العمليات تجري على نطاق واسع وشامل ، ولكن يمكن منع حدوث ذلك ، بمسك زمام المعركة بقبضة محكمة مع تعديل الخطة لتناسب مع التغيير الذي طرأ على الموقف التكتيكي ، وعلى كل فيجب على القائد أن يفكر في معركتين ، الأولى في وضع الخطة والثانية في تنفيذ هذه ، الخطة والنجاح في الأولى هو نقطة الانطلاق للنجاح في الثانية .

ويجب دائماً أن يكون الشاغل الأكبر للقائد في وضع الخطة والمشكلات التي تعترضها ، ولكنه لا ينسى مطلقاً أن **المادة الخام التي يتعامل بها هي . . الرجال ، فالقيادة في الحقيقة مشكلة إنسانية .**

الثقة بين القائد والجنود :

لقد ظهر أن الجنود يصيبهم شعور كبير بالوحدة أثناء المعركة وأذكر أنني شخصياً تعرضت لهذه الوحدة في فترة حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وكنيت أقود إحدى الدوريات الليلية عبر منطقة العدو وقد حدث أكثر من مرة أن فقدت الاتصال برجالي فأصبحت وحيداً وقريباً جداً من العدو .

وأعترف بأنني أحسست بالخوف في ذلك الوقت ، لأنها كانت أولى تجاربي في الحرب وبالطبع أعتدت بعد ذلك على هذه المواقف . وعندما أصبحت قائداً كبيراً وضعت نصب عيني

أهمية معرفة الجنود بوجود قادة من مختلف الرتب يقفون خلفهم ويعملون كل ما في جبهتهم للعناية بهم والقائد الذي يحرص ويعنى أشد العناية بالمحافظة على أرواح رجاله. يستطيع أن يحقق النصر بأقل خسائر في الأرواح لأنه يحصل على ثقة جنوده ، وبذلك سيتبعونه عن إيمان وثقة راسخة . لذلك أصبح لزاماً أن يتواجد القائد بين جنوده ، وكان أسلوبي في حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ التواجد بين رجالى والتحدث معهم بقدر استطاعتي ، وأحياناً كنت أتحدث إلى عدد كبير منهم من خلال نافذة عربتي الجيب عندما أصادفهم في الطريق وأحياناً أخرى وهم في خنادقهم أو دشمهم يقفون خلف أسلحتهم .

وفي أوقات أخرى كنت أوجه الحديث إليهم بطريق غير مباشر عن طريق الرسائل المكتوبة في الأوقات الحرجة وذلك أثناء القتال أو قبل بداية المعركة ... وكانت مثل هذه الرسائل تشجذ عزيمتهم وتساعدهم على تنمية روح الفريق ، فيقاتلون بثقة للحصول على النصر . وكان السير دوجلاس هييج لا يتبع هذه القاعدة بل يتفقد قواته في صمت تام ، وهناك قصة تروى عنه بأن أحد أركان حرب أقرح عليه في يوم من الأيام أن يتحدث إلى الجنود أثناء المرور عليهم لأن هذا سيحدث أثراً طيباً في نفوسهم ، وعمل هييج بالاقتراح ، ووقف مع أحد الجنود وسأله : - كيف بدأت الحرب . . ؟ فأجابه الجندي محملاً : أنا لم أبدأها يا سيدي . . . بل انقيصر هو الذي بدأها !! ؟ . . ؟ . .

وطبعاً لم يعلق هييج على هذه الإجابة غير المنتظرة ، وعلى كل حال فهذه الكلمات الصادقة يجب أن يعمل حسابها أثناء قيادة الرجال .

ومن المهام الرئيسية للقائد العمل على استمرار تدريب قواته للحرب المنتظرة وما قد يحدث خلالها من عمليات خاصة ، حتى يثق الجندي ثقة مطلقة في سلاحه ومقدرته على استخدامه بكفاءة في مختلف الظروف وعلى جميع الأراضي وفي جميع الأحوال الجوية . ويمكن تنمية هذه الثقة عن طريق التدريب المتواصل حتى يكمل بالنجاح فيصبح من أهم العوامل الرئيسية لرفع الروح المعنوية للقوات . ويجب القائد ألا يكون شحيحاً في توزيع



ثنائه على من يستحق هذا الثناء لأن جميع البشر يحبون أن يثنى عليهم إذا شعروا بأنهم قاموا بعملهم على خير وجه . وقد أخبرني ذات مرة السير ونستون تشرشل عما أجاب به دوق ويلنجتون رداً على سؤال وجه إليه في آخر أيامه ، وكان هذا السؤال هو : إذا أعطيت لك الفرصة لتبدأ حياتك من جديد فما هي الوسيلة التي تجعلك تؤدي عملك أحسن مما قدمته حتى الآن ؟ .

دوق ولنجتون

وكانت أجابته : « **الوسيلة لذلك ان أحصل على المزيد من الثناء** »

الصلابة

إذا قمنا بدراسة الطرق والأساليب التي أتبعها القادة في الماضي ، فنستطيع أن نعرف الجوانب العملية للحرب في ذلك الوقت وكيف كانت تدار ؟ ومن ناحية أخرى سترسم لنا هذه الدراسة صورة للتطور الذي مر به فن الحرب . وسيرى الدارس أن المبادئ التي أتبع في الماضي سيتوالى تكرارها عبر التاريخ ولكن الظروف فقط هي التي ستختلف . وبالرغم من أن أسلحة الحرب أصبحت أكثر قوة ، وأزدادت مشكلات ميدان القتال تعقيداً ، إلا أننا سنجد أن جوهر وأسس الحرب اليوم هي نفسها التي كانت في عهد الاغريق القدامى ، والتي ظهرت في المعارك التي نشبت بين روما وقرطاجة . . . وعلى مر القرون ، أخذ القادة على اختلاف رتبهم يواجهون رغماً عنهم مشكلة **الادارة** أو كما يسمونها **مشكلة الشؤون الادارية** ، وقد تعلمت أنا شخصياً من خلال تجاربي الشاقة ، أن **الموقف الاداري في مؤخرة القوات يجب ان يتكافأ تماماً مع ما أريد تحقيقه من مهام في المناطق الامامية أثناء المعركة** ، وخرجت أيضاً بدرس آخر وهو الحاجة إلى الصلابة أو بمعنى أصح **المقسرة على الثبات امام صدمات الحرب** التي ليس هناك أدنى شك في وقوعها ، تماماً كما نعرف أن الليل سيعقبه النهار . وقد عبرت في السطور السابقة عن مشاعري عندما كنت ضابطاً صغيراً أقود إحدى الدوريات الليلية عبر خطوط العدو ، وما شعرت به من وحدة ، ولكن هناك أيضاً شعور بهذه الوحدة أو العزلة في مجال القيادة العليا . والقائد الأعلى للقوات له مسؤوليات

جسام يجب ألا يترك تصرف أمورها لأركان حربه أو مرؤوسيه ، لأنه الوحيد الذى يجب أن يصدر القرارات ، وهو المسئول الوحيد أيضاً عن نجاحها أو فشلها وتقع مسئولية أرواح رجاله فى عنقه .

وتتجلى مظاهر المسئولية فى القيادة وبصفة خاصة فى وقت الشدائد والمحن ، ويعتبر ذلك أقسى أمتحان يمر به القائد ، وقد مر كل من ويلنجتون و نابليون بهذا الامتحان ، كما أننى مررت به شخصياً ولكن على نطاق أضيق فى نورماندى عام ١٩٤٤ . فعندما لا تسير الأمور طبقاً لما هو مخطط لها ، فجميع الأبصار تتجه إلى القائد الأعلى لتستلهم منه الثقة وتسأله : ماذا تفعل الآن ؟ .

وفى مثل هذه الأوقات العصيبة ، يجب على القائد بجانب قيادته لقواته أن يقوم أيضاً بقيادة نفسه . . . وأنا أعلم تماماً أن قيادته لنفسه لن تكون بالشىء السهل .

فوجد أن « لى » استطاع أثناء الحرب الأهلية الأمريكية من استعادة ثقة رجاله وأخلاصهم بالرغم من أنه لم يحقق النصر لهم . وقد كتب ويفل عن « لى » : —
لقد كان رجلاً مهذباً فى مواجهة اشرس مواقف القتال .

ضباب المعركة الكثيف

ولنعد الآن إلى الموضوع دكرته فى بداية حديثى عن القيادة وقلت أنها مهمة فى الحياة العسكرية أو السياسية ، فوجد أن القادة السياسيين إذا فشلوا فى تسوية منازعاتهم الدولية بطريقة سلمية ، فستظل دفة الحرب فى أيدينا نحن العسكريين ، أما إذا لجأت الدولة للقوة المسلحة لتحقيق أغراضها السياسية ، أو أن هذه الدولة نفسها هوجمت ، فستصبح مسئولية توجيه الحرب فى أيدي السياسيين وليس العسكريين .

وعلى كل سيجد القادة العسكريون صعوبة بل استحالة لتحقيق النجاح لحكومة مذبذبة غير مستقرة ، تنقصها الشجاعة والبصيرة الواضحة وليس لديها أى تقدير لما هو هام وما هو غير هام فى المعارك المنتظرة .

فمن المهم بل ومن الحيوى أن يكون هناك نوع من اللغة التى تربط بين الأهداف السياسية والاستراتيجية ، وذلك بطريقة واضحة لا تقبل اللبس ، ويجب أن تكون

التوجيهات العسكرية الصادرة للقادة الكبار نابعة من هذا المفهوم . ويجب أن ترعى الحكومات منتهى الدقة والحكمة في إنتقاء هؤلاء القادة حتى يستطيعوا توصيل هذه التوجيهات بعد ذلك إلى باقي القادة المرؤوسين ، مع مدھم بأقصى ما يمكن من العون والتأييد .

ويجب أن يراعى في التوجيهات التي تصدر أن تكون مشددة . . . واضحة . وقد ظهر في معظم الحروب أن إمكانيات الدول المشتركة في القتال تكون متساوية تقريباً ، وفي هذه الحالة فالنصر يحالف الجانب **الأفضل تدريباً . . . وقيادة . . . والأهم من ذلك . . . الروح المعنوية العالية . .** وقد حدث في كثير من الحروب بالرغم من مهارة القائد أن يصبح النصر مشكوكاً فيه لأصطدامه بعدو مستميت ، في هذه الحالة تنتقل مصادر القوة من القائد إلى جنوده ، ويصبح النصر عندئذ مرهوناً بشجاعتهم **ومستوى تدريبهم وضبطهم وربطهم ورفضهم لقبول الهزيمة ومقدرتهم على الثبات والتماسك خلال المعركة .** وخلال مسيرتي الطويلة من العاملين إلى برلين أبان حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ كنت دائماً أضع أمام عيني الجملة المأثورة عن شكسبير والتي وردت في قصته « هنري الخامس » والتي يقول فيها :

يا الله الحروب . . . انزع القلوب من صدور جنودي . .

ومع بداية دراستنا للحرب ، فأمل أن يصل القارئ إلى الأعماق الحقيقية لما أكتب فعظم ما سندرسه من الحروب حدثت في الماضي وقد تحقق النصر فيها ، ولكن كان وراء هذا النصر الجنود والبحارة^(١) . والقادة عندما يخططون للمعركة يواجهون دائماً بالضباب الكثيف ، ولكن براعتهم وحكمتهم في التخطيط يبذل هذا الضباب الكثيف أمام الجنود وفي اعتقادي أن القادة المهرة لا يولدون قادة ولكن يصنعون ، فلا يمكن للضابط أن يصل إلى مناصب القيادة العليا بدون دراسة طويلة ، فالقيادة في الحرب ما هي إلا دراسة دائمة ، وإذا أهملها القائد فلن ينجح .

(١) لم يذكر مونتهجمري القوات الجوية لأنها لم تكن كموجودة في العصور القديمة ، (المعرب)

وقد قلت ذات مرة لأحد ضباطي ، وكان طموحاً ولكنه إلى حد ما كسولاً : —
«تذكر أن الذين يحققون النصر بدون دراسة نادرون جداً وليس ذلك في الحرب فقط ،
ولكن أيضاً في أى مهنة أخرى » .

وطبعاً فالموهبة الطبيعية ضرورية وتظهر في القدرة على وضع قرار سريع حكيم وسديد
مع الصلابة والجرأة وفي الوقت المناسب .

الرأية وتأثيرها على الدول

سوف نرى كيف تؤدي الخبرة والتدريب المتواصل للقوات على اختلاف أسلحتهم إلى
تحقيق أعظم الانتصارات خلال أقصى الظروف وفي مواجهة أضخم الجيوش . وستظهر
مزايا القائد الجيد سواء في أوقات الشدة أو الحن أو عند الانتصار .

وأخيراً ... ستظهر لنا الدراسة أن أهم عوامل النجاح في الحرب هي المقدرة والقيادة
الجيدة وقوة العزيمة ، وإذا توافرت هذه الصفات في القائد فكانه الطبيعي في مصاف أشهر وأعظم
القادة . وعلى كل عندما تنطلق الأقوال وتتحول إلى أعمال ... فالجرب ستصبح البوتقة
التي ستظهر من أي معدن صنع هذا القائد .

وسوف أنهى هذه المجموعة البسيطة من الأفكار عن موضوع القيادة بملاحظة ،
وستتضح من خلال قراءة الفصول القادمة لهذا الكتاب ، وهي أن المارشال الراحل ويفل
أخبرني ذات مرة أنه عندما كان الأسبرطيون في أوج مجدهم العسكري ، أرسلوا وفداً إلى
كاهن مدني دلفي^(١) ووجهوا إليه السؤال التالي بطريقة تم عن الغطرسية : —

— هل تعتقد أن هناك ما يمكن أن يلحق الأذى بإسبرطه ؟

وجاءت الإجابة بسرعة . — نعم ... الرأية .

وقد قت بنفسى بزيارة دلفي ، وقضيت ساعات أمام هذا الخراب والدمار وكان المنظر
موحشاً وكانت أجابة الكاهن صحيحة .

فدراسة تاريخ الحروب سوف تبين لنا أننا لسنا أمام قصة تنتهى نهاية سعيدة ، بل

أمام قتال يجرى من عصر إلى عصر ، وكل تقدم للقوات يجب أن يحوز نصراً ، وكل موقع يستولى عليه يجب الاحتفاظ به. وسيظهر لنا أنه يمكن رؤية العدو بوضوح في الحرب أما في السلم ، فالدولة تواجه عدوا خفياً ، عدوا آت من داخلها ... وهو الضعف داخل الدولة ، والتي يجعلها تهاوى وحدها ، ومثال لذلك فرنسا .

فهى بلد عظيم ولكن في الفترة الأخيرة التي سبقت حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ كان الضعف الداخلي قد هاجم قلب وروح فرنسا ، حتى كانت الطامة الكبرى عام ١٩٤٠ ، ولكنها أستعادت روحها مرة أخرى على يد الجنرال الراحل ديغول ، وعادت إليها الحياة أكثر مما كانت عليه جمالا وشبابا تحت قيادة هذا القائد العظيم .

لقد تعرفت أثناء قيادتي في الحرب العالمية الثانية وخلال خدمتي لعشر سنوات في هيئة الدفاع الغربى على عدد كبير من جنود دول كثيرة ولكن كان من الطبيعى أن أعرف بدرجة كبيرة على أبناء بلدى فقد وضع لى أنهم كانوا شعبا يتميز بالصمود والإستقلال. ولسنين طويلة لم نعرف معنى للهزيمة النهائية فالحرية تجرى في دمانا ... تمدنا بالصمود والقوة الراسخة ... لقد أثرت الثورة الصناعية علينا وعلى روحنا إلا أن كفاحنا المستميت من أجل البقاء كان يزداد صلابة رغماً عن الآلام الجسدية التي تعصف بأجساد شعبنا في أحياء بريطانيا الفقيرة ، وعلى كل لم يتمكن الضيق الأقتصادي من قتل الروح البريطانية نهائياً ، لأن تلك الظروف هى التي أنجبت رجالا لم يعرفوا المستحيل وكل شىء أمامهم كان ممكناً ، وعندما يقاتلون فلن يعرفوا الهزيمة طالما أمامهم قيادة سديدة وبأيديهم سلاح مناسب وقادة يثون فيهم الثقة ، ولكن مرة أخرى أقول أن الخطر الآتى من الداخل قائم ويجب التأهب لصدده باستمرار ، وهنا أتوقف قليلا لأقول أن كاهن دلفى كان على حق ...

فاذا تسلطت الرفاهية على رجولة أى دولة واهملت الصفات العسكرية ، كان ذلك ذليلاً بانهتواء هذه الدولة ،

والروح المعنوية من أهم العوامل التي ترفع درجة الجهد الحربى وقد كتب فرانسيس بيكون : —

— إن المدن ذات الأسوار العالية والمكتظة بالأسلحة وبها أجود سلاطات الخيل ،
وأقوى عربات القتال والأفيال ٠٠٠ كل ذلك ما هو إلا خراف ترتدى أقنعة الأسود إذا لم
يتوفر الرجال لكل هذا ، ولديهم روح الجرأة والإستعداد لخوض الحرب ٠٠٠

ودراسة تاريخ الحروب سوف يثبت صحة هذا الكلام ، ويرجع مسئولية توفير هذه
الروح على عاتق القادة السياسيين ، وللقادة العسكريين دور هام أيضاً في هذا المجال .
وأرتفاع الروح المعنوية مرتبط باللياقة الجسدية ، فالجندى لا يمكن أن يكون لائقاً
للحرب من الناحية العقلية إذا لم يكن صالحاً من الناحية الجسدية .

وقد كتب كبلنج في مقدمة كتابه « قصص من البر والبحر » : —

- امم كثيرة هضمت بعيداً دون ان تترك اثراً . . .
- ثم جاء التاريخ وكشف عن حقيقتها . . .
- والسبب في كل مرة . . . ولكل دولة . . .
- سبب واحد . . . وبسيط . . .
- ذهبت هذه الدول لانه لم يكن بها رجال لا تقون . . .

الفصل الثالث

الحرب في العصر البدائي

حرب النمل

لقد تدخلت الحروب في حياة الإنسان منذ المجتمعات القديمة فلو عدنا إلى الورا ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد وأخذنا مدينة جيريكو^(١) مثالا لذلك لوجدنا أن هذه المدينة كانت محاطة بأسوار أرتفاعها ٢١ قدما ، بينما نحت في الصخر خارج هذه الأسوار خندق عرضه ١٥ قدما وعمقه ٩ أقدام ليملاً بالماء .

وكان يسكن هذه المدينة حوالى ٢٥٠٠ نسمة من بينهم ٥٠٠ إلى ٦٠٠ مقاتل مسلحين بالآقواس والسهم ذات الرؤوس الحادة المصنوعة من حجر الصوان . وكان هؤلاء القوم مهرة وخبراء فى فن التحصين والهندسة علاوة على تطويرهم لمعدات القتال مثل القوس والسهم .

وفي عام ١٩٣١ قضيت ساعات طويلة بين أنقاض هذه المدينة القديمة في وادي البحر الميت أستطلع ما بها من حفائر وأسوار ، وأول أنطباع قفز إلى ذهني عند رؤية هذه التحصينات الحربية أن هؤلاء القوم كانوا يخشون عدوا قويا ومخيفا .

وأنه ما من شك... أن فن الحرب ظهر قبل هذه المدينة بزمان بعيد... إذن

كيف كانت النشأة الأولى للحرب ؟ ؟ . . . ؟

يجب أن نعلم أولاً أن الحرب من العناصر الرئيسية للتاريخ نظراً لإرتباطها بضروريات الحياة، كالطعام والمكان الآمن للمعيشة، لذلك كانت من الضروريات الرئيسية للإنسان البدائي، كما هو الحال تماماً بالنسبة لنا الآن، ولكن وجد الإنسان أن هذه الضروريات

(۱) حبریکو : هی . مدینه اریحا . (المغرب)

محتاجة إلى مكملات، مثل الرفاق والثروة والقوة والنفوذ ، وقد تكون متوفرة أحيانا ولكن ليست بالقدر الكافى ، مما أدى إلى أن الأفراد بل الدول أخذت تتطاحن ، وفي الحقيقة هذا التطاحن يرجع لأسباب إقتصادية ، وقد ظهر ذلك جليا فى الماضى عندما كانوا يتنافسون من أجل ضمان أدنى مستوى للمعيشة ، تماما كما تتصارع الحيوانات والحشرات من أجل هذا السبب نفسه . وهذا يذكرنى بحرب النمل لأنه فى الواقع تعتبر من الحروب المعقدة جداً فتتضمن التجسس والكائن والهجمات المفاجأة والحصار ، ويتم ذلك تحت قيادات منظمة ومقسمة ولها رئاسة عليا تعمل على أسس من الاستراتيجية بعيدة المدى .

وأول من لفت نظرى إلى حرب النمل ، السير ونستون تشرشل ، فى إحدى زيارته لى فى مركز قيادتى فى ألمانيا خلال خريف ١٩٤٤ أهدانى كتاب « حياة النمل » لماثرلينيك ، معتقدا أن هذا الكتاب سيزودنى بأفكار جديدة فى عمليأتى المنتظرة ضد الألمان ، لأن النمل لديه جيوش منظمة ودأما تقوم بالأعمال الهجومية الناجحة .

عالم الأنسان والحيوان

وتعتبر الحرب من الأمور الأكثر طبيعية فى حياة الأنسان وأعتقد أن الأنسان لو لم يجد نفسه مجبرا عليها للجا إليها مختاراً ، وقد ظهر فى سجلات التاريخ أن التعاون بين الأفراد كان يسير بنفس الدرجة التى يسير بها القتال ، فنجد أن المجتمع الذى يسوده جو التنافس يصبح كل فرد فيه خطراً على زميله ، ومن هنا يظهر العدوان والحقد والخوف ، ويصبح شيئاً طبيعياً فى نفوس الأفراد نتيجة لهذا التنافس المحترم .

ونجد أيضاً أن المجتمعات الحيوانية كالقروود والطيور يسودها المنافسة وتقوم برسم وتحديد حدودها مع جيرانها، وهذه الحدود موجودة أيضاً داخل مجتمعات الأفراد، ويحترمونها بصفة عامة ويستخدمون القوة عادة لطرد الدخيل الذى يهدد مجتمعهم . وفى عالم الماشية والدواجن يوجد درجات ورتب لكبار السن وتحترم ، ولكن عندما ينشب عراك حول مصلحة ما ، وخاصة فى الطعام ، تنقلب الأمور إلى العكس ويصبح الأصغر سناً هو القائد ، ولكن هناك أنواع من الحيوانات لا يحدث بينها أى عراك إلا إذا كان هناك سبب قوى ومتعلق بضرورة حيوية ، وحتى العراك الغريزى فلا يحدث بينها .

وإذا عدنا إلى عالم الإنسان سنجد أن لديه وسائل يستطيع أن يمنع بها نشوب الحروب وتتمثل في أساليب السياسة والدبلوماسية إلا أن الإنسان كان دائماً أقل حظاً من باقي الكائنات في تجنب العنف ويرجع ذلك إلى التضخم والأزدحام السكاني الذي يصل في بعض الأحيان إلى نقطة الانفجار ، علاوة على أنه يعاني من مشكلات أكثر عدداً وأشد تعقيداً مما تعانيها باقي الكائنات .

العصر الحجري في القرن العشرين

تشير كل آثار الإنسان القديم إلى أنه كان يحاول بشق الطرق أن يتحد مع جيرانه ليكون دفاعاً قوياً ضد ما يحيط به من ظروف طبيعية قاسية . وعند ما كان ينشب القتال ، فلم يكن لديه سوى العصي والحجارة التي يستخدمها في أغراضه اليومية العادية فتصبح سلاحه الرئيسي . ومن أسلحة القتال التي كانت تستخدم في العصر الباليوزوي^(١) البساط والسكاكين^(٢) والعظام التي لها شكل الرمح وقرون الرنة . وعلى العموم ، فمن المستحيل على علماء الآثار معرفة أسباب وطرق وأساليب الحروب لدى الشعوب البدائية في أوروبا وآسيا ، ولذلك فمن الأفضل لدراسة هذا الموضوع أن ندرس بعض الشعوب في قارات أخرى ولا تزال تعيش في العصر الحجري ، بينما هي تعيش في قرننا هذا ... القرن العشرين . ومن خلال دراستنا لهذه الشعوب المتخلفة البدائية ، سنستطيع معرفة لماذا يحاربون .. ؟ وما هي اتجاهاتهم وميولهم عند التجاؤم للعنف ؟ وبالطبع سنعرف الأسباب والأساليب التي أتبعها الإنسان الأول في الحرب ، ولا يمكن القول بأن هناك حكماً عاماً أو قاعدة عامة كانت تتبعها كل الشعوب البدائية ولكن هو أقرب الطرق إلى الصحة ، لأن بواعث الحرب تختلف ، وتختلف أيضاً درجة ضراوتها ووحشيتها طبقاً لما هو محيط بها من ظروف ، مثل حرارة الحقد والخوف من عواقب الهزيمة . فبعض القبائل كانت تقتل أسراها في نفس الوقت توجد قبائل أخرى تعامل أسراها بالحسنى . وعلى كل فالطبيعة والتكوين الجسماني لهما تأثير كبير ، فوجد

(١) العصر الباليوزوي : هو العصر الحجري القديم .

(٢) البساط : كانت عبارة عن عصا مثبت بها في مقدمتها شظية مسننة ومديبة من الحجر .

السكين : كانت عبارة عن شظية طويلة مديبة ، وكان الإنسان القديم يقوم بقطع وشحذ وتهذيب كلاً النوعين . (المارب)

أن الأقزام كانوا مسالمين لضعفهم ، فأدى هذا إلى طردهم إلى أصعب المناطق معيشة في أفريقيا تحت ضغط الهجمات المتوالية من القبائل القوية المعادية . وقد ظهر عبر التاريخ أن سكان أستراليا الأصليين كانوا يكرهون الحرب ، في حين يوجد في أجزاء أخرى من العالم قبائل لعهد قريب ، تعتبر الحرب إحدى جوانب الحياة الطبيعية والتقليدية وأنها من الحلول الأكثر قبولاً عند نشوب أي نزاع . ومن الأمثلة لذلك قبائل « الماساي » في شرق أفريقيا وقبائل جوارانيس في البرازيل وقبائل الآباش في أمريكا الشمالية وقبائل الدياكس والكينياس في جزر الأوقيانوس .

بواعث الحرب

ومن أكثر أسباب الحرب شيوعاً بين هذه الشعوب البدائية هو الأزدحام السكاني بينهم والارتفاع المفاجيء في تعداد سكان منطقة معينة أو هبوط موارد الغذاء والمياه فيها ، وهذا يتطلب منهم محاولة خفض معدل التعداد ، وكان يتحقق هذا عن طريق الحروب أو بواسطة ظروف طبيعية (مثل الأمراض والأوبئة) . وتاريخ الهنود الحمر في أمريكا الشمالية يرسم لنا صورة صادقة للحرب الناجمة عن الحاجة والتوسع لأمتلاك أرض جديدة .

ومنذ حوالي ١٦٠٠ سنة ، تمكن عدد كبير من الأوروبيين من الاستيلاء على مناطق على الساحل الشرقي للقارة الأمريكية بقوة سلاحهم الحديث ، وطرّدوا الهنود الحمر إلى الغرب وكان ذلك بداية لحرب استمرت قرناً من الزمان . فأصبحت حرباً متواصلة بين قبائل الهنود بسبب تراجع القبائل غرباً وبالتالي أنهاكها للأرض التي تسكنها قبائل هندية أخرى ، فقامت معارك ضارية بين قبائل الشيبوا والسيو في منطقة ميل لاكس في القرن السابع عشر ، وفي منطقة كروس ليك في عام ١٨٠٠ ولم تكن هذه الحروب لمجرد استعراض العضلات أو لتحقيق المجد ، بل كانت حرباً شعواء من أجل البقاء ، حرباً كان يخوضها الرجال بكامل قوتهم وبأستماتة كبيرة ، حرباً من يسكنون الغرب دفاعاً عن بيوتهم وممتلكاتهم ضد هؤلاء الغزاة من الهنود أيضاً والذين طردهم الأوروبيون . وقد تدهور الموقف في القرن التاسع عشر عندما بدأ الغذاء الرئيسي للهنود في الاختفاء ... وهو الجاموس ، وبدأ معه المنافسة على الحصول على الخيول والأسلحة النارية ، وزادت الهجمات المسلحة للهنود ، فقبائل السيوا المهزومة تدفع

أمامها قبائل الشايين بعيداً إلى الغرب ، والشايين بدورهم يدفعون أمامهم قبائل الكومانش إلى الورا نحو المكسيك . ومن الأسباب الرئيسية لنشوب الحرب في مختلف أنحاء العالم ، رغبة الإنسان للأنتماء إلى عشيرة أو مجتمع حتى يتوفر لديه الوطنية والولاء . والأحاساس الفعل بالولاء للمجتمع يتولد معه شعور العداء نحو المجتمعات المجاورة . وتوجد صلة قوية بين ثقافة الشعوب والحرب ، وتظهر هذه الصلة بصفة خاصة في الشعائر والطقوس الدينية ، وعلى سبيل المثال قبائل الماباي في جنوب أمريكا من ضمن معتقداتهم الدينية أنهم إذا أرادوا الحياة فعليهم مهاجمة القبائل الأخرى والإستيلاء عليها . ومثال آخر عندما قام الأوروبيون بإيقاف حروب شعب البولينيز ، نتج عن هذا أن البولينيز عانوا من مأساة اجتماعية وثقافية عميقة ، لأن كل قيم هذا الشعب كانت مرتبطة تماماً بالحرب ، وعندما توقفت الحرب فقدوا طاقهم ودينهم وكرامتهم .

بينما كثير من قبائل الهنود يعتبرون الحرب من وسائل التسلية وأحد مظاهر الأثارة ، فيقومون بتنظيمها بينهم وغالباً ما تسفر هذه التسلية عن العديد من الضحايا . ومن ضمن أسباب الحرب كانت المرأة ، فالأعجاب بجمالها كان أحد بواعث ذهاب الرجال إلى الحرب ، كما كان الحال في « تاهيتي » فكان لزاماً على الزوج الحصول أولاً على وشم في ذراعيه يبين أنه قتل أحد الأعداء أثناء الحرب . وفي الأنجيل تكرر أكثر من مرة ذكر الغارات التي كان يقوم بها القبائل لخطف النساء ، وأعتقد أن الكثير منا يعلم أسطورة « هيليني » فاتنة طروادة ، وكذا أسطورة نساء ساين ومثال لذلك في أواخر القرن الثامن عشر هاجمت سفن القراصنة من البربر إحدى القرى على الساحل الفرنسي لا شيء إلا لأختطاف الفتيات لبيعهن كحريم في قصور الملوك والولاطين العرب ، ونتج عن هذا أن القبائل الضعيفة التي لم تقو على التصدي للمغيرين فكانوا يشوهون وجوه بناتهم ونسأهم حتى لا يسدون جيلا في أعين القراصنة .

الانفجار السكاني

ومن المنطق أن مسببات الحرب وأساليبها لها تأثير كبير على تشكيل هيكل وحضارة المجتمعات البدائية ، تماماً كما يحدث حالياً في القرن العشرين ، ولكن لا يمكن أن نجزم

بذلك ، لأن هناك فجوة زمنية كبيرة حوالى ٣٠٠٠ سنة فى التاريخ الأثرى للعالم القديم ، وهذه الفترة تقع ما بين حصون مدينة جيريكو من ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وتاريخ كل من العراق ومصر فى ٤٠٠٠ سنة الأخيرة قبل الميلاد ، لوجدنا أن العامل الوحيد المشترك فى جميع التطورات الحربية والسياسية فى تاريخ الشرق الأدنى هو الازدحام السكانى والأزدياد الهائل فى التعداد .

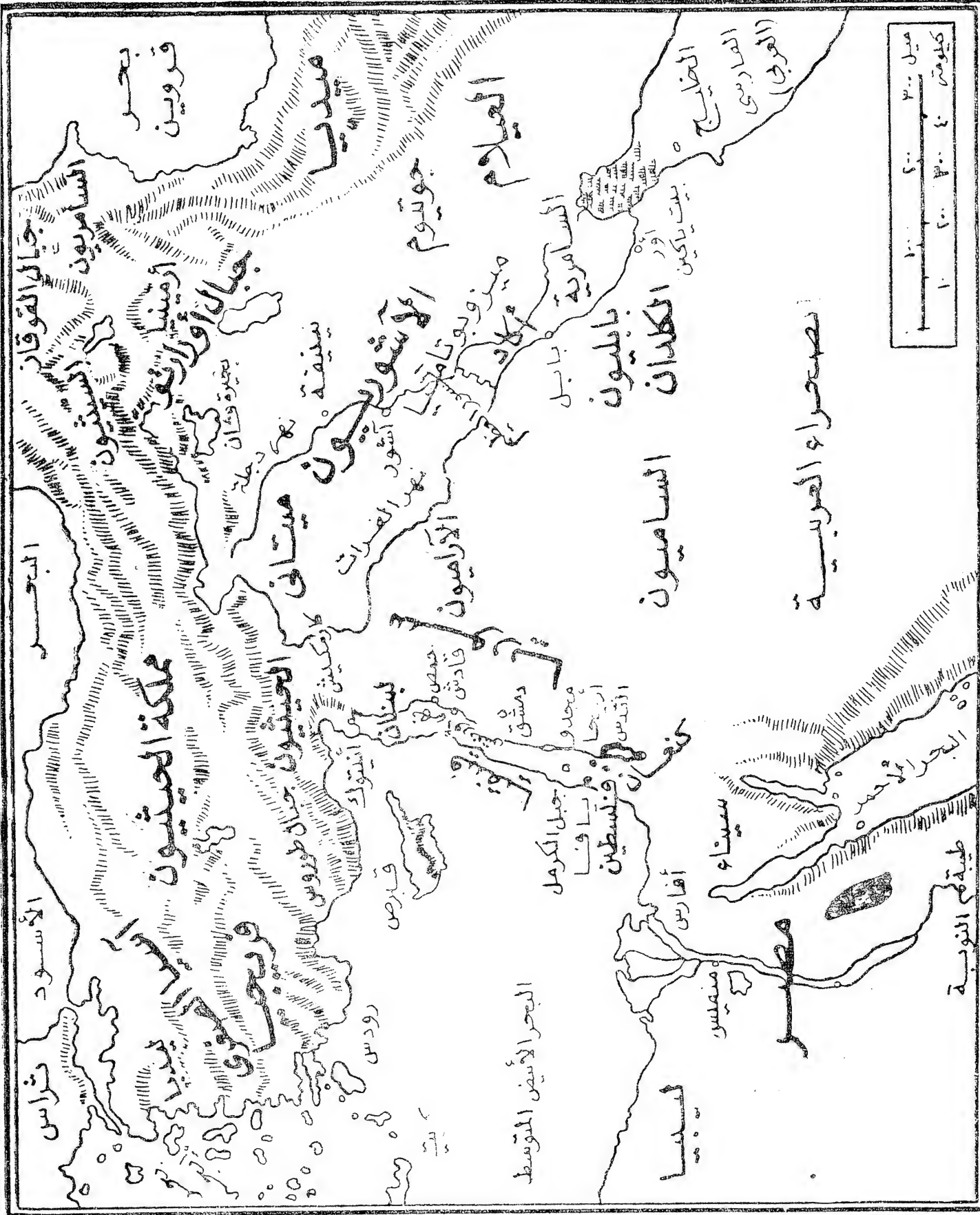
ومن أولى الحضارات القديمة ، الحضارة البابلية والسومرية التى ظهرت على ضفاف نهر الدجلة والفرات الأدنى وكذا الحضارة المصرية التى ظهرت على ضفاف النيل وتنتج عن هذا أنه أصبح لا مناص من الحرب بسبب التنافس على امتلاك هذا الشريط الخصب الموجود حول هذه الأنهار ، فقد قام السكان الذين يقيمون فى المساحات الكبيرة والتى يسودها الجفاف والمحيطات بهذه الوديان بالهجوم عليها وأصبح لزاماً على سكان الوديان الدفاع عن كل بوصة من هذه الأرض الحصبة ، علاوة على ذلك كانوا معرضين أيضاً للهجمات الخارجية من سكان المناطق الصحراوية المجاورة الذين كانوا ينظرون إليهم ولأراضيهم الوفيرة المياه بعين الغيرة والحقد .

أول صراع بين الحضارات فى التاريخ

لم تكن هناك أى موانع أو عوائق طبيعية تحمى كلاً من مصر أو بابل ضد الغزاة ، مما أدى أن المصريين تراجعوا إلى الخلف أمام هجمات أعدائهم النوبيين من الجنوب وقبائل الساميين عبر سيناء من الشرق ويعتبر سيرخيت أول ملك لمصر يغزو سيناء فى عام ٣٣٧٠ ق . م وقد سجل وقائع غزواته على صخورها ، فظهر رسم لهذا الملك وهو يضرب بسلاحه ملك قبائل العدو ، ووجد رسم آخر على جدران مقابر ساهور (عام ٢٩٥٠ ق . م) يبين قوة بحرية تعبر البحر الأحمر متجهة إلى سيناء ، ورسم آخر يبين رحلة العودة محملة بالأسرى من القبائل السامية .

وقام ملوك بابل بنفس الشئ ضد العرب الساميين وضد الآشوريين فى المناطق العليا العراق وفيما بعد تحولت الغارات على مصر وبابل إلى موجات عارمة من المهاجرين ، وقام الساميون بذلك ثم تبعهم الهنود الأوروبيون للوصول إلى وديان هذه الأنهار . والساميون فى الشرق الأدنى وشمال أفريقيا يرجع أصلهم إلى الجزيرة العربية لأن الجزيرة العربية صحراء

اللاهجة رقم ١ - الامداد اظهارة المصاحفة والأشده دسة والحيثية



ومن الطبيعي أن يضطر سكانها للبحث عن مناطق خصبة فاتجهوا إلى الخليج العربي ونهر الفرات والنيل

وعلى كل فهناك ثلاث انفجارات رئيسية للجنس السامي العربي .

وتقول الأساطير أنه في بداية عام ٤٥٠٠ ق . م كان هناك مملكة سامية في العراق ، كما أنه هناك شبه أساطير تقول أنه بعد فترة قصيرة من قيام المملكة السامية ، قامت مملكة أخرى سامية في جنوب العراق ويعتبر الصراع بين الساميين والسامريين حول العراق أول صراع بين الحضارات في التاريخ ، وقد قام أهل الجنوب ببناء سور يمتد من نهر الفرات إلى نهر الدجلة ليحميهم من غزوات القبائل الرحل ويعتبر هذا تفكيراً استراتيجياً يماثل فكرة سور الصين العظيم، ولكن كان بدون جدوى ، وأستمر الصراع بين الشمال والجنوب لمدة ٢٠٠٠ سنة لتحقيق السيادة الكاملة على جميع العراق . وأول مملكة حققت السيطرة على جميع العراق أسسها سارجون في عام ٢٧٥٠ ق . م وكان من الكهنة الذين ينتمون لنسل إشتار آله المارك .

١ كبر الأمباطوريات التي عرفها العالم : (أنظر اللوحة رقم ١)

ومع بداية مملكة سارجون بدأت قوة الساميين في الأزدية نتيجة لحافل المهاجرين الآتين من الجزيرة العربية إلى سوريا وشمال العراق في عام ٣٠٠٠ ق . م . وأختار سارجون مدينة آكاد عاصمة له ربما لأسباب عسكرية ، ففي هذه المنطقة يقرب نهر دجلة من نهر الفرات ولا يفصل بينهما سوى ١٥ ميلاً فقط . وقام سارجون في العام التالي لحكمه بفتح العيلام ثم سيطر على المناطق الممتدة غرباً إلى البحر المتوسط حتى جزيرة قبرص . وقد قامت عدة ثورات متفرقة ضد حكم سارجون ولكنه كان يقمعها بأسلوب غاية في الصرامة والقسوة ، لدرجة أنه قام بتحويل مدينة كازلا إلى أنقاض من الأتربة ، حتى أعشاش الطيور قام بسحقها . كما أنه صد جميع الهجمات الآتية من شمال غرب آسيا الصغرى من مملكة

الحيثيين^(١) وأجبرها على الانسحاب إلى الخلف تحت وطأة الهزيمة . وقد خلفه في الحكم ملك يختلف عن سارجون الكاهن ، فقد كان نارام سين رجلا عسكريا ويرجع نجاحه في الحكم إلى أنه قائد جيد ، ولديه جيوش ذات كفاءة عالية ومطبعة . وكان نارام سين قبل موته حاكم أكبر الإمبراطوريات التي عرفها العالم ، فكانت تمتد من أرمينيا شمالا والبحر الأحمر جنوبا ومن العيلام شرقا إلى ساحل البحر الأبيض غربا إلا أن هذه الإمبراطورية تفتت بعد موته تحت ضربات الثورات الدلخلية والغزوات الخارجية التي قام بها البرابرة من جوتيوم وبعد مرور أربعين عاما على وفاته فقدت الإمبراطورية استقلالها لدرجة أن الغزاة وصلوا إلى العاصمة آكاد نفسها .

العربات المدرعة

لقد شهدت الفترة ما بين (٣٥٠٠ — ٢٤٠٠ ق . م) نشاطا حربيًا عظيمًا خلال فترة الصراع بين الساميين والسامريين وفترة الإمبراطورية الأكادية^(٢) وفترة المملكة المصرية القديمة . وفي الفترة الأولى ظهر أول تطور حقيقي في فنون الحرب وأنواع الأسلحة والتحصينات ماعدا الفرسان ، وظلت سائدة ٣٠٠٠ سنة حتى بدأ اكتشاف البارود في القرن الرابع عشر بعد الميلاد .

وكان العراقيون يمتعون بتقدم كبير في المجال العسكري أكثر من المصريين الذين لم يعرفوا سوى الحروب ذات المستوى المحدود إلى أن حدث غزو الهكسوس في عام ١٨٠٠ ق . م . على سبيل المثال ، فالمصريون لم يستخدموا العربات الحربية إلا بعد أن استخدمها العراقيون بـ ١٢ قرنا من الزمان . وكانت العربات الحربية تعتبر من أدوات الحرب الرئيسية لدى العراقيين بعد عام ٣٥٠٠ ق . م ولها نوعان ، النوع الأول مزود بعجلتين ، والنوع الثاني له أربع عجلات ، وكلا النوعين يجره أربعة بغال ، وكان النوع الأول من هذه العربات ثقيلًا وغير متقن الصنع وقد عثر على أنواع من هذه العربات وكانت مزودة بلوحة مرتفعة في مقدمتها لوقاية راكبيها ، ويؤكد هذا أنها كانت تستخدم في العمليات الهجومية المباشرة

(١) الحيثيين : تركيا حالياً .

(٢) الأكادية : نسبة إلى مدينة آكاد التي أصبحت عاصمة العراق بعد توحيدها . (العرب)

وكان الغرض الرئيسى لاستخدام العربات عند العراقيين هو مفاجأة العدو بسرعتها وبث الذعر بين صفوفه . وطاغم العربى يتكون من فردين ، قائد العربى وجندى يحمل حربى ورمحاً ويقوم الطاقم بالمجوم عندما يصبحون على مسافة مناسبة من العدو مستخدمين الرماح ، وعندما تضيق المسافة بينهم وبين العدو يستخدمون الحراب . وقد طراً على هذه العربات تطور كبير فى الفترة ما بين ٢٠٠٠ — ١٥٠٠ ق . م حتى أصبحت من أهم مصادر المجوم لتحركها السريع وكفاءتها وأدى هذا التطور أنها أصبحت أكثر خفة وأستبدلت البغال بالخيول فى الأجزاء الشمالية للعراق عام ٢٠٠٠ ق . م .

أسلحة القتال

وصحب هذا التطور ، تطور آخر فى قوة النيران^(١) وذلك بإدخال القوس المركب ضمن أسلحة القتال الرئيسية عند العراقيين ، بينما كان السلاح الثابت تقريباً لدى الجميع وخاصة المصريين هو المقرعة^(٢) ولكن هذه الرؤوس الحديدية فقدت فاعليتها عندما ظهرت الخردات القوية الواقية للرأس ، وبدأت أهمية البلطة ، فى ٣٠٠٠ سنة الأخيرة ق . م تطورت البلطة ذات النصل النحاسى لتصبح أداة للطعن وأيضاً للقطع ، وكان يستخدمها كل من المشاة من حملة الحراب وأطقم العربات . أما السيف فقد ظهر متأخراً فى العراق وذلك لعدم وجود الإمكانيات لصناعته . وأول أنواع هذه السيوف كان يشبه الخنجر ، فكان قصيراً ، مستقيماً ذا حدين ثم بدأ بعد ذلك ظهور السيوف المقوسة التى تشبه المناجل لأستخدامها عند الألتحام ويجب أن نشير إلى أن السيف كان معروفاً من قبل عند صانعى الأسلحة فى الأناضول لخبرتهم الطويلة فى الصناعات الحديدية وهذا مكنهم من صناعة السيوف ذات النصل الطويل ، وبعد ذلك بدأت صناعة السيوف فى بداية القرن الرابع عشر ق . م تنتشر بين الدول ، بينما كان العراقيين قبل ذلك يعتبرون الحراب^(٣) هى السلاح المثالى وكان يحملها الجنود أثناء السير فى وضع رأسى مائل قليلاً على الكتف ، ويتغير هذا الوضع إلى وضع أفقى عند المجوم .

(١) قوة النيران : المقصود هنا بقوة النيران هو نوعية الأسلحة أى التطوير فى أسلحة القتال نفسها .

(٢) المقرعة : عبارة عن قضيب من الحديد ينتهى برأس حديدى على شكل كرة لضرب الأعداء على رؤوسهم .

(٣) الحراب : كانت عبارة عن ساق طويلة من الخشب مزودة بنصل معدنى على شكل ورقة الشجر

أما القوس ، فقد ظهرت له بعض النقوش على الآثار يرجع تاريخها إلى نهاية سنة ٤٠٠٠ ق . م ، وكان محذب الشكل ومزدوجاً ، أما في العراق ^(١) فكان عبارة عن جذع واحد مقوس ، بينما كانت سهام هذه الأقواس قوية ورؤوسها صلبة مصنوعة من حجر الصوان .

ومن الغريب أن راكبي العربات الحربية لم يستعملوا القوس إلا بعد عام ٢٠٠٠ ق . م وظهر القوس المزدوج لأول مرة مرسوماً على لوحة النصر التذكارية عام ٢٨٠٠ ق . م وأعتبر منذ هذا التاريخ السلاح الرئيسى للحرب وكان من الأسباب الرئيسية لقيام الإمبراطورية الأكادية امتلاكهم لهذا السلاح . وأبتدأ الإهتمام به والعناية بصنعه وأصبح يصنع من أكثر من مادة بعد أن ثبت أن المادة الواحدة لا تكسبه المرونة والصلابة . فأدى هذا أن القوس الحديث المركب ^(٢) أصبح يصنع من أربع مواد فاكسب صلابة مع مدى أبعد . وقد فوجئ العدو بالقوس المركب عندما تم الهجوم عليه من مسافة بعيدة خارجة عن حدود سمعه وبصره فلم يستطع القيام بالهجوم المضاد . وقد وصل القوس المركب إلى أعلى درجات الكفاءة عندما صنعه المصريون على شكل محذب ومزدوج وأصبح من أسلحتهم الرئيسية . ونتج عن هذا التطور الكبير في القوس ، تطوراً آخر مضاد في الدروع ، فأصبحت أكبر حجماً وأصلب صنفاً .

وكان السامريون أول من طوروا الدروع فأصبحت رداء مصفحاً مصنوعاً من قطع صغيرة ومستديرة من المعدن لوقاياه المقاتل من السهام المنطلقة من الأقواس .

أسلوب القتال

أما أسلوب القتال المتبع في العصر القديم ، فالرسومات لهذا قليلة جداً ، ولكن من الواضح أن المشاة وراكبوا العربات كانا يكملان بعضهما أثناء القتال ، وغالباً ما يبدأ بهجوم بالعربات الحربية لبعثرة قوات العدو وإرباك خطوطه بالمرور خلالها بسرعة ، وأثنائها يقوم

(١) العراق : كان يطلق عليها في ذلك الوقت بلاد ما بين النهرين أو أرض الجزيرة

(٢) القوس المركب : مصنوع من الخشب والعظام الحيوانية والأوتار والفراء ، فأصبح خفيفاً في نفس

الوقت زادت درجة قوة شده وأصبح مداه من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ياردة « العرب » .

الرماة بالرماح من العربات ، وتندفع سرايا المشاة لتطويق جناحي أو قلب قوات العدو تحت حماية دروعهم المستطيلة الشكل إلى أن يتم لهم القضاء على العدو بما لديهم من البلط والحراش . وكانت سرايا المشاة تتقدم نحو العدو بطريقة منظمة . فكل سرية تتحرك على شكل طابور مكون من ستة صفوف وكل صف مكون من عشرة جنود وصف ضابط واحد . وقد أضاف الأكاديون على التشكيل السابق للقتال جماعة من رماة السهام ، بينما كانت سرايا الرماة بعيدة المدى تكمل عمل راكبي العربات الحربية ، وفي نفس الوقت تعمل مع المشاة المسلحين بالحراش والسيوف .

وبعد ذلك بنحو ألف سنة أستعند المصريون نفس الأسلوب والتنظيم السابق أثناء حربهم مع الحيثيين . أما بالنسبة لأسلوب الحصار ، فلم يكن له وجود حتى عهد الآشوريين ، ولكن في العصر الألفى الثالث تم بناء الأسوار والحصون حول المدن ، ومن وراء هذه الحصون كان حاملو الأقواس يقومون بالدفاع عنها وهم متمركزون في أبراج على شكل مربع أو نصف دائرة . وكانت الحصون تبنى من خليط من الطوب والحجارة ، وكانت الجدران سميكة إلا أن العدو كان يتمكن من تصديعها وأختراقها وذلك لأن الأهتمام كان منصباً على أن تكن هذه الحوائط عالية حتى تمنع سلام العدو من الوصول إلى مهايتها وتشير آثار الحصار على مدينة دشاثة المصرية إلى الطريقة التي كان يتم بها مهاجمة مدينة محصنة في هذا العصر القديم . فكان المغيرون يتسلقون الأسوار بالسلام المزودة بالعجلات تحت حماية وابل من سهام فرق الرماة الموجودين خلفهم ، بينما يقوم الكباش^(١) بدك سور الحصن حتى يمكن النفاذ للداخل ويتم أختيار أضعف نقطة في سور الحصن وتكون غالباً البوابة . والآن وقد عرفنا شيئاً من أنواع الأسلحة وأساليب القتال في الفترة ما بين ٤٠٠٠ — ٢٠٠٠ سنة ق . م لنستعرض بشيء من الأختصار التاريخ السياسي للحرب في العهد القديم للشرق الأدنى .

التاريخ السياسي للحرب

لقد بدأت الموجة الثانية العظمى لهجرة الساميين حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م من الجزيرة العربية حتى وصلت إلى أرض كنعان على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد أدت الهجرة

(١) آلة حربية يستخدمها القدماء في دك أسوار المدن المحصنة وأختراقها . « المارب »

العظمى الأولى للساميين بدفع شعب كنعان إلى أرض العراق حيث قاموا بتقديم آلهتهم للعراقيين حتى أستمالوهم وهذه الآلهة هي ريمون والإله داجان . وبذلك أصبح الكنعانيون أول من رفع شأن مدينة بابل وعادوا تأسيس مدينة أور ، كما وحدوا جميع مناطق جنوب العراق التي سميت فيما بعد بالملكة الكلدانية .

أما في مصر في حوالي عام ٢٣٧٥ ق . م بدأ عهد المملكة الوسطى وقام حكام طيبة في الجنوب بغزو دلتا نهر النيل . وفي هذه الفترة تحتم على ملوك مصر أن يخوضوا معارك عنيفة ضد كل من القلاقل الداخلية والأعداء المغيرين على الحدود وفي نفس الوقت قاموا بفتح النوبة وإخضاعها لحكمهم الصارم .

وقد نقشت عبارة على جدران قلعة أحد الفراعنة في مدينة سيمنة تقول : — « تلك هي قلعتي الرابضة هنا ولن أسمح لأى زنجى أن يمر منها إلى الشمال ، فأنا ملك وأفعل ما أقول » إلا أن مصر دخلت في مرحلة جديدة لعصر طويل من السلام ووصلت فيه مدنيها إلى أقصى ازدهار وذلك في حكم أمينحيت الثالث العظيم (٢٠٦١ — ٢٠١٣ ق . م) . وأدى هذا السلام إلى ضعف قابلية المصريين للقتال عامة ، ولم يفكروا في صناعة العربات الحربية بالرغم من توفر أعداد كبيرة من البغال والعربات المدنية ، وأدى هذا إلى تأخر تكنولوجيا الحرب عندهم لمئات السنين عن باقي شعوب الشرق الأدنى . وأستمر الحال هكذا حتى عام ١٨٠٠ ق . م عندما غزا الهكسوس المناطق الشمالية لمصر وأستعبدوا شعبها .

والهكسوس يعتبروا فرع من نسل الموجة الثانية للهجرة السامية ، وجاءوا من الجنوب الغربى لسوريا للاستيلاء على وادى النيل العظيم . ولم يستطع المصريون مقاومة خيول وعربات الهكسوس الحربية وسيوفهم البرزية . وبعد فترة وحشية تخللها الدماء أصبح سيمكن الهكسوسى ملكا على مصر . وكانت مدينة طيبة هي آخر المدن المصرية التي سقطت في يد الهكسوس ومنها أيضاً بدأت حرب التحرير عام ١٦٣٠ ق . م .

أحمس والهكسوس

وأخيراً . . . قاد أحمس الحرب ضد الهكسوس متجها نحو دلتا النيل وأستولى على

مدينة أفاريس. وفي عام ١٥٨٠ ق. م إستطاع هزيمة الهكسوس تماماً وفروا أمامه من فلسطين إلى وادى نهر إورنتس^(١). وأصبح أحمس مؤسس المملكة الجديدة المصرية فى عام ١٥٨٠ ق. م وهكذا نجد أن احتلال الهكسوس لمصر لم يستمر أكثر من ٢٥٠ عاما . وقد أثرت هذه الفترة تأثيراً عميقاً على مصر وأصبحت بعد طرد الهكسوس دولة عسكرية قوية وهنا يبرز لنا سؤال : — كيف كانت طبيعة القوات المصرية خلال حرب التحرير فى نهاية المملكة الوسطى . ؟ كان المحاربون المصريون يستخدمون البلط والحرا ب فى القتال ، بينما كان سلاحهم الرئيسى هو القوس ، وبالرغم من ذلك فكان تطوره بطيئاً .

أما النوبيون فلم يكن لديهم دروع ، ولم يكن لديهم حافز لعمل سلاح طاعن طويل المدى^(٢) قبل مجىء الهكسوس . وفى الحقيقة أدخل الهكسوس إلى مصر العربية الحربية والقوس المركب والخيول . أما وسائل الدفاع فلم يكن فى مصر شكل ثابت محدد لدروع الجنود ، وكان المهاجمون يحملون دروعاً صغيرة وخفيفة لتمكينهم من حرية الحركة السريعة .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح من الأمور العادية بين القبائل أن يقوموا بتسوية نزاعاتهم التقليدية التى كانت تنحصر غالباً فى مصادر المياه والماشية وذلك عن طريق المعارك الفردية المحدودة^(٣) .

تنظيم القوات المسلحة المصرية

لقد أقام المصريون نظاماً عسكرياً معقداً فكان للملك جهازه الخاص من الحراس المحترفين وكانوا غالباً من الليبيين أو السودانيين بينما كان على كل حاكم إقليم أن يجمع عدد من الرجال ليمد بهم الملك حتى يستطيع تكوين جيش قوى .

وظل الذكور من المصريين خاضعين لهذا النظام^(٤) التعسفى حتى غزو الهكسوس . وفى المملكة الوسطى كان الجيش ينقسم إلى وحدات وكل وحدة تضم ٣٠٠ مقاتل ، وواجب هذه الوحدات والسرايا العمليات الهجومية ، أما وحدات الحرس فتتكون من عشرة أفراد فقط . وتتكون الوحدة من ٣ سرايا ، وكل سرية من ١٠٠ مقاتل

(١) نهر العاصى : ينبع هذا النهر من شمال مدينة حمص ويصب فى البحر بالقرب من انيقوك (أنطاكية) .

(٢) القوس والسهم

(٣) نظام المبارزة الفردية

(٤) لم يعد التجنيد الإجبارى إلى مصر إلا فى عهد محمد على (أوائل القرن التاسع عشر ب. م) .
« العرب »

بينما كان يسيطر على الجيش أجهزة اتصال ومخابرات وأدارة ذات كفاءة عالية .
وأستخدم المصريون شفرة خاصة ترسل بالإشارات الضوئية ، علاوة على وجود عدائين يحملون
الرسائل والأوامر إلى ميادين القتال ، وكانت تستخدم الأعلام والنفير لأستدعاء الجنود
وتبنيهم . وظهر الحاجة الشديدة للمعلومات لمعاونة القوات عند قيامها بحملات كبيرة وخاصة
في المناطق الصعبة وغير المعروفة ، لذلك كان المصريون يرسلون وحدات خاصة للأستكشاف
والتجسس وأسر بعض أفراد العدو لأستجوابهم ، **بينما ترسل التقارير عن الموقف والعدو
بسرعة وبانتظام من الضباط في الخطوط الامامية الى مراكز قيادتهم او للقائد الاعلى ، كهصدر
من مصادر المعلومات وكانت غاية في الدقة ، وهي تشبة إلى حد كبير التقارير التي نستخدمها
في الجيوش المتحضرة في الوقت الحالى . وتشير الايصالات التي أكتشفت عن القداماء المصريين
والخاصة باستلام قوائم طويلة من المعدات والإمدادات إلى مدى دقة ونظام الجهاز
الأدارى عندهم .**

وكانت الجيوش المصرية القديمة تضم وحدات من الخدمات الطبية ومن المهندسين
المسؤولين عن عمليات حصار الحصون علاوة على وجود سرايا للنقل مكونة من السفن
والعربات لنقل المعدات والجنود والمهمات لمسافات بعيدة .

مملكة مجدو

بعد أن أنهى أحس من طرد المكسوس ، أصبح سيد مصر وأخذ يهتم بالشئون
الداخلية للبلاد ، فوجد أن النبلاء لم يساعده بل ولم يؤيدوه أثناء حرب التحرير ، فقام على
الفور بمصادرة ممتلكاتهم وأصبحت مصر كلها تحت سيطرته وملك لفرعون . وقد شعر
المصريون بطعم النصر في الحرب ، مما أدى إلى فتح شهيتهم فقاموا بفتوحات أخرى في عهد
الملكة الحديثة ، فقام أمينحوتيب الأول ١٥٥٤ — ١٥٣٠ ق . م بتوحيد النوبة وليبيا
والسيطرة عليهما ، وبعدها بعام قام بغزو أسيا مخترقا سورياحتي نهر الفرات ، وتولى الحكم
من بعده أبنة تحتمس الأول الذى حافظ على مجد أبيه وغزا شعب ميتانى ^(١) وبعد ذلك أهتم
تحتمس الأول بإعادة تكوين الحضارة المصرية وتجديد جميع المعابد .

(١) تقع في أقصى شمال العراق . «المعرب»

وخلال هذه الفترة السليمة ، تراخت السيطرة المصرية على كل من ميثاني وسوريا وشمال فلسطين لدرجة خطيرة . وأدى هذا أن قام ملك قادش بثورة ضد تحتمس الثالث . وكان يعلم ملك مصر أن الأمبراطورية المصرية لن تؤمن إلا بالسيطرة الكاملة على مدينة قادش لأنها تقع بالقرب من بحيرة حمص في سوريا وتتحكم في الوادي الأعلى لنهر العاصي ، وتسيطر على المرتفعات اللبنانية التي تتحكم بدورها في الطرق إلى نهر الفرات وآشور ولذلك كانت هذه المدينة هي المفتاح الرئيسي للتجارة مع آسيا . لذلك قرر تحتمس الثالث فرض سيطرته عليها فقاد جيشاً مكوناً من ٣٠٠٠٠ مقاتل من دلتا النيل في ١٩ أبريل ١٤٦٨ ق . م حتى وصل إلى المنحدرات الجنوبية لجبل الكرمل في ١٠ مايو أي بمعدل ١٦ ميلاً يومياً . بينما كانت القوات الآسيوية بقيادة ملك قادش تحتل قلعة مجدو التي تقع على المنحدر الشمالي لجبل الكرمل وقد أحسن القائد اختياره لأرض المعركة ، لأنها أنسب الأماكن لمواجهة القوات الآتية من مصر شمالاً . فكانت قلعة مجدو يمتد أمامها سهل كبير علاوة على تحكمها في الطريق الرئيسي للتجارة إلى الأناضول وسوريا والفرات وهذه القلعة لها أهمية كبيرة في تاريخ الشرق الأدنى فكانت ميداناً للعديد من المعارك الهامة .

وقام المصريون بالهجوم وحققوا نصراً سهلاً ، ولكن ظهر خطأ تحتمس عندما ترك قواته تضعيع الوقت في النهب والسلب بدلاً من مطاردة العدو . وعموماً فقد وصل تحتمس حتى مشارف مدينة قادش .



نابليون

وقد تقدم تحتمس الثالث عبر مدينة مجدو وفعل مثله في العصر الحديث كل من نابليون والنبى ، وفي عام ١٩٣١ أثناء وجودى في فلسطين قت بتفقد ميدان معركة مجدو . وقد سيطر تحتمس سيطرة تامة على الساحل الفينيقي (٢) الغنى بعد مهاجمته برا وبحرا إلى أنه عاد مرة ثانية يهاجم عدوه القديم قادش . وكانت قادش تعد بمثابة القلعة الحصينة لسوريا لوقوعها بين نهر العاصي وروافده

(١) قادش : — جنوب مدينة حمص الآن

(٢) فينيقيا تمثل ساحل كل من فلسطين وسوريا الآن . « المغرب »

وهي موانع طبيعية وقد استكملت هذه الموانع بشق قناة أخرى بين النهر وروافده ، وكان هذا الحصن طويلاً ومنيعاً ولكن تحتمس تمكن أخيراً من احتلاله . وهكذا أتمت آخر عهود الهكسوس وأستطاع تحتمس من احتلال ميثاني مرة أخرى ، وبعدها أخذت الهدايا والهبات تصل إليه من العديد من مدن ما بين النهرين ^(١) وعندما مات عام ١٤٤٧ ق . م كانت الأمباطورية المصرية قد وصلت إلى قمة الانتشار والثراء .

الهجرة الآرامية

أما الهجرة السامية الثالثة ، فقد بدأت من الجزيرة العربية في حوالى عام ١٣٥٠ ق . م وكانت تعرف بالهجرة الآرامية ^(٢) وأستطاعت القبائل السامية من تأسيس دولة كبيرة لهم كانت عاصمتها دمشق وسيطروا على الطرق التجارية في المناطق الصحراوية الغربية لمدة ٣٠٠ سنة ، وهؤلاء هم السوريون .

وبعد موت تحتمس الثالث بدأت تضعف القوة العسكرية للأمباطورية المصرية فبدأ الآراميون والحيثيون بالهجوم على حدودها بينما قامت ثورات دينية داخلية وبالرغم من ذلك أستعاد الجيش المصرى قوته مرة أخرى بعد عام ١٣٥٠ ق . م ٠٠٠ ففى عام ١٢٩٢ ق . م . أصبح رمسيس الثانى الشاب ذا الطاقة والموهبة العظيمة فرعون مصر وقد عقد العزم على أحياء وإعادة الأمباطورية المصرية السابقة فقد تسببت فترة السلم فى مصر أن أستطاع الحيثيين تقوية أنفسهم فى سوريا ، مع جعل قادش حصناً منيعاً لحدودهم الجنوبية وعلى هذه النقطة (قادش) قرر رمسيس الهجوم .

الجيش المصرى فى عصر الملكة الجديدة

ولكن قبل دراسة معركة قادش ، يجب أن نتعرف على تنظيم الجيش المصرى وأسلحته فى عهد الملكة الحديثة منذ عهد آمينحوتب الأول إلى عهد رمسيس الثانى من واقع الأدلة والوثائق والآثار التى خلفتها هذه الملكة فنجد أن أستخدام الفأس (البلطة) ظل قائماً حتى عام ١٥٠٠ ق . م وبعدها قل أستخدامها وأصبح السيف ^(٣) أكثر شيوعاً وحل محل المقرعة التى كانت رمزاً للقوة الفراعنة . وأصبح سيف رمسيس الثانى طويلاً ... عريضاً ... إلا أن

(١) هى العراق أو أرض الجزيرة .

(٢) نسبة للمنطقة الواقعة بين لبنان والفرات .

(٣) لقد دخل السيف من آسيا إلى مصر فى ذلك الوقت . «المغرب»

السيف القصير الذى يشبه الخنجر ظل يستخدم ، وكانت هذه أكثر الأسلحة فاعلية في القتال المتلاحم . بينما كان السلاح الرئيسى للمشاة هو الرمح إلا أنه تطور وأصبح رأسه على شكل ورقة الشجر ومجوفة وكان يستخدم قبل ذلك في العراق .

وكانت أسلحة القوات المصرية تتكون من الرماح والفتوس والسيوف وأستخدمت الرماح أيضاً في الدفاع عن أسوار الحصون ، ولكنها لم تستخدم بواسطة راكبي العربات الحربية ، كما كانت تفعل الجيوش الآسيوية . أما راكبو العربات الحربية من المصريين فكانوا يستخدمون النبال وهذا الاختلاف راجع إلى اختلاف التكتيك ، فمثلا العربة الآسيوية كانت تندفع خلال قوات العدو فراداً وطاقتها مكون من السائق وإثنين من حملة الرماح وإذا أشدت وطأة القتال وأصبح من الصعب على العربة القيام بأى مناورة ، فالسائق يترك قيادة العربة ويساعد حملة الرماح في القتال . أما العربات المصرية فكانت تعمل في مجموعات أو وحدات ولا تندفع خلال قوات العدو ، بل تدفعهم أمامها ولا تعمل عربة بمفردها فيسهل على العدو حاصرها . والعربات المصرية كانت تمثل النسبة العظمى للقوات ، وكانت مقسمة إلى وحدات كل وحدة مكونة من خمسين عربة ويقودها ضابط ، ولم تكن الفرسان قد ظهرت بعد . ولكن حيث أن الأسلحة تطورت في القوة والفاعلية ، فصحب هذا تطوراً في الدروع لتوفر أقصى قدر من الحماية ... وأصبحت نتيجة المعركة تتوقف على **قدرة القوات على المناورة وخفة الحركة** ولذلك أصبحت العربات ذات أهمية كبيرة .

ومع بداية المملكة الحديثة ، كانت العربة عبارة عن مركبة خفيفة ذات إطار خشبي يجرها زوج من الخيول ، وكانت مصممة على أن تكون عربة قوية وسريعة وذات قدرة كبيرة على المناورة ، ومن عهد تحتمس الرابع قام المصريون بتطوير العربات المستعملة إلى عربات ثقيلة . وكانت هناك ورش لصيانة هذه العربات وتتواجد على طول خطوط الحملات الحربية ومعها رماح ومناشير لإصلاح مركبات النقل . وعلى كل فكان القوس هو السلاح الحاسم لكل الجيوش الكبرى في هذا العصر ، وكانت تستخدمه كل من المشاة وأطقم العربات الحربية وأستخدم بعد ذلك القوس المركب^(١) وكانت السهام^(٢) تستطيع

(١) كان يشبه المثلث في شكله أو ذو شكل مزدوج القوس وكان يحفظ في داخل جراب خاص لحفظه من الأتواء أو الأعوجاج .

(٢) عبارة عن قصبات رفيعة من البوص ذات رأس مدببة من البرونز . «المعرب»

أخترق دروع هذا العصر من على مسافة قصيرة . ويحمل جندي المشاة جراباً به ثلاثون سهماً وممدلى من حزام جلدى مثبت على كتفه . وكان التدريب على الرماية بالسهم تسلية شائعة في ذلك الوقت ، وأما كن التدريب متوفرة علاوة على وجود مدربين مهرة ، أما تدريب الجنود فيتم على أساس الرمي من العربة الحربية وهي في أقصى سرعتها .

وفي المملكة الوسطى (٢٣٧٥ — ١٥٨٠ ق .) لم يرتد الجنود المصريون أى واق للجسم ، بل كانوا يحملون دروعاً كبيرة .

أما في المملكة الحديثة (١٥٨٠ ق) فقد كان رماة السهم وأطقم العربات يلبسون دروعاً^(١) واقية أو يحملون دروعاً صغيرة ، وفي بعض الأحيان لا يحملون دروعاً على الإطلاق لأن طبيعة عملهم تقتضى أن تكون أيديهم حرة الحركة .

وأدى تطور أسلحة الأتراق (مثل السهم والحراب) إلى تطور صناعة الدروع^(٢) فأصبحت أصاب وأقوى ، ولكن كانت تكاليف صنعها باهظة ، مما أدى إلى قصر استعمالها على من تقتضى طبيعته عملهم أن تكون أيديهم حرة الحركة كحملة القوس ، أما حملة السيوف والحراب فكانوا يحملون دروعاً في أيديهم بينما يستخدم الجميع بدون استثناء خوذ للرأس وكانت غاية في الزخرفة .

أما الإدارة العسكرية فكانت أكثر تنظيماً في عهد المملكة الحديثة عما كانت عليه من قبل ، فمثلاً لم تعد السلطة مركزية لأنهم لم تعد قادرة وكافية لأجراء التجنيد والأمداد والتنظيم للجيش ، فأصبحت لا مركزية فكان هناك رئيس للشئون الإدارية وأركان حرب للأفراد للجيش ولديهم كل الوثائق والسجلات الخاصة بالمهمات والتموين والمعدات والأفراد والأجور وكانوا مسئولين عن توزيع الإمدادات على المستودعات وتجهيز العربات لنقل المؤن وتزويد القواب بالقوارب لنقلها عبر الأنهار ، مع إعداد قوائم للغنائم المستولى عليها من العدو .

الحصون الدفاعية

يظهر في هذه الفترة نوع جديد من الدفاع أطلق عليه « ميجدول » وكان عبارة عن

(١) يقصد البدله التي يلبسها الجندي ومصنوعة من صفائح معدنية مرنة وإلى حد ما خفيفة مع وجود خوذة على الرأس . « العرب »

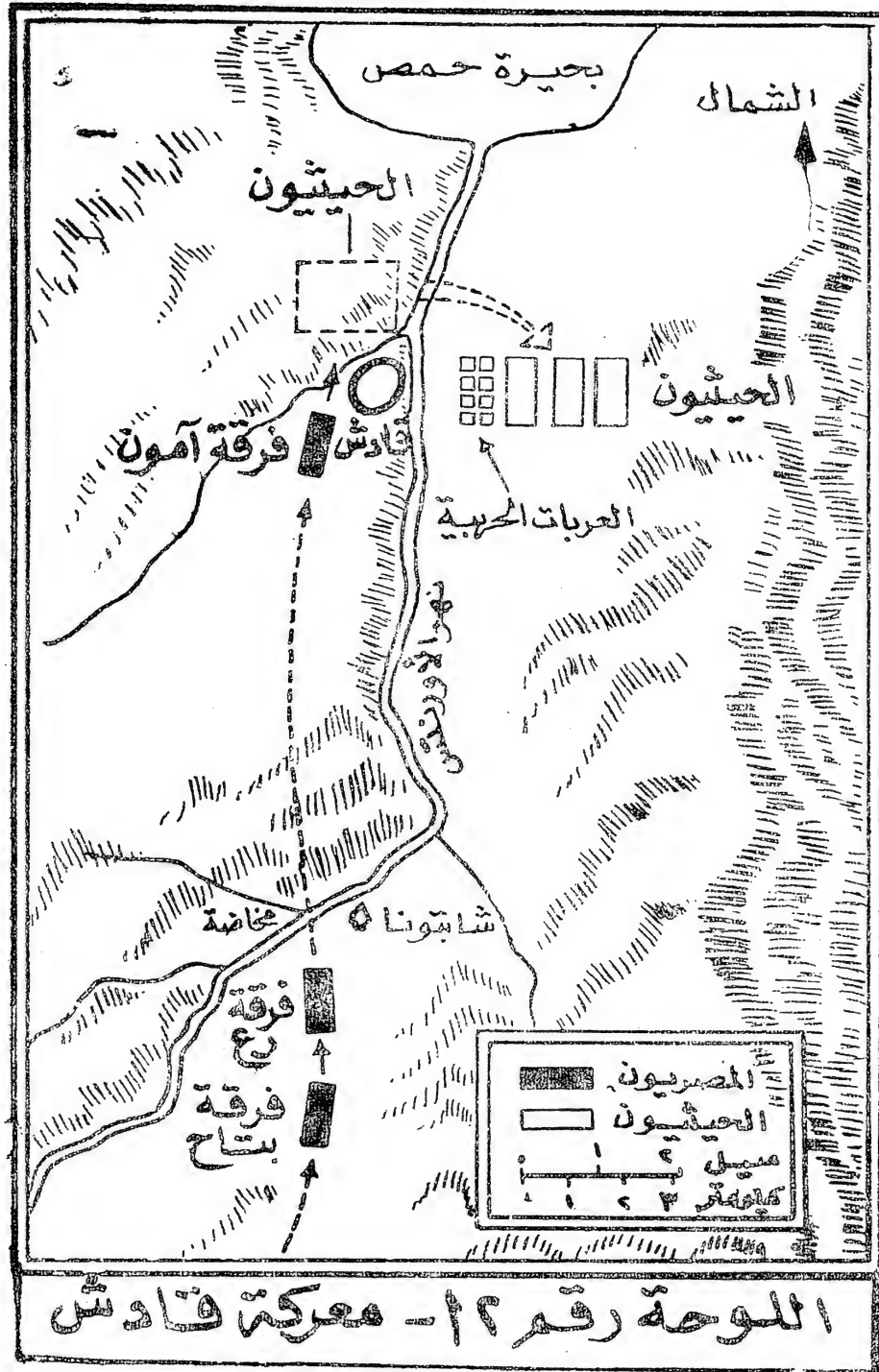
قلعة ذات حصون مستطيلة الشكل وتستخدم في حراسة المناطق ذات الأهمية العسكرية مثل الآبار والطرق الرئيسية وقد ظهرت المهارة الهندسية الفائقة في فن التحصين والقلاع في الألف سنة الثانية قبل الميلاد . وعلى سبيل المثال حصار مدينة مجدو والمشكلة الأزلية لهذا العصر وهي المياه ، فكان بئر المياه تقع خارج أسوار قلعة مجدو فقام أهل المدينة بحفر حفرة أسطوانية الشكل لعمق ٦٠ قدماً في أرض الحصن وأقرب ما يمكن لمكان البئر الخارجية وقاموا بتوصيل هذه الحفرة بالبئر الخارجية عن طريق نفق خلال الصخر طوله ١٤٠ قدماً . ولم يستخدم المصريون أثناء اقتحام الحصون في هذه الفترة الكباش وذلك لسمك أسوار هذه الحصون وكانت الطريقة المعتادة لمهاجمة المدن المحصنة هي تحطيم البوابات بالبلط مع تسلق الأسوار بالسلام ويتم ذلك بأن يمسك الجندي بالسلم بأحكام بكفتي يديه ويحمي نفسه أثناء التسلق بدرع توضع على ظهره ، في ذلك الوقت يقوم المدافعون عن الحصن بالرد على هذا الهجوم بواسطة وحدات الرماة ، أما حملة الحراب فيضربون الجنود الذين ينجحون في التسلق والوصول إلى قمة السور . لذلك كان مهاجمة الحصون القوية بهذا الأسلوب ينجم عنه خسائر فادحة ، لذلك كان يفضل القادة محاصرة الحصون فقط حتى تستسلم تحت وطأة الجوع مع اللجوء أيضاً إلى الحيل والخداع ، كما قام بذلك « توت » أحد قادة تحتمس الثالث أثناء حصار يافا عندما أوهم العدو بالاستسلام فدخلت الخدعة على سكان الحصن ، ففتحوا الأبواب ، فأجتاح على الفور الحصن وأستولى عليه ، وهناك أيضاً أسطورة حصان طروادة الذي حدث في هذا العصر ، ويعتبر من أحسن الأمثلة لأساليب الخداع .

وقد برع المصريون في عمل الكائن ، وكانوا يفضلون القتال في الأراضي المفتوحة معتمدين على مهارتهم الحربية وقواتهم الكبيرة خفيفة الحركة وتعتبر معركة قادش بين رمسيس الثاني والحيثيين عام ١٢٧٨ ق . م . مثالا واضحاً لذلك .

معركة قادش (انظر اللوحة رقم ٢)

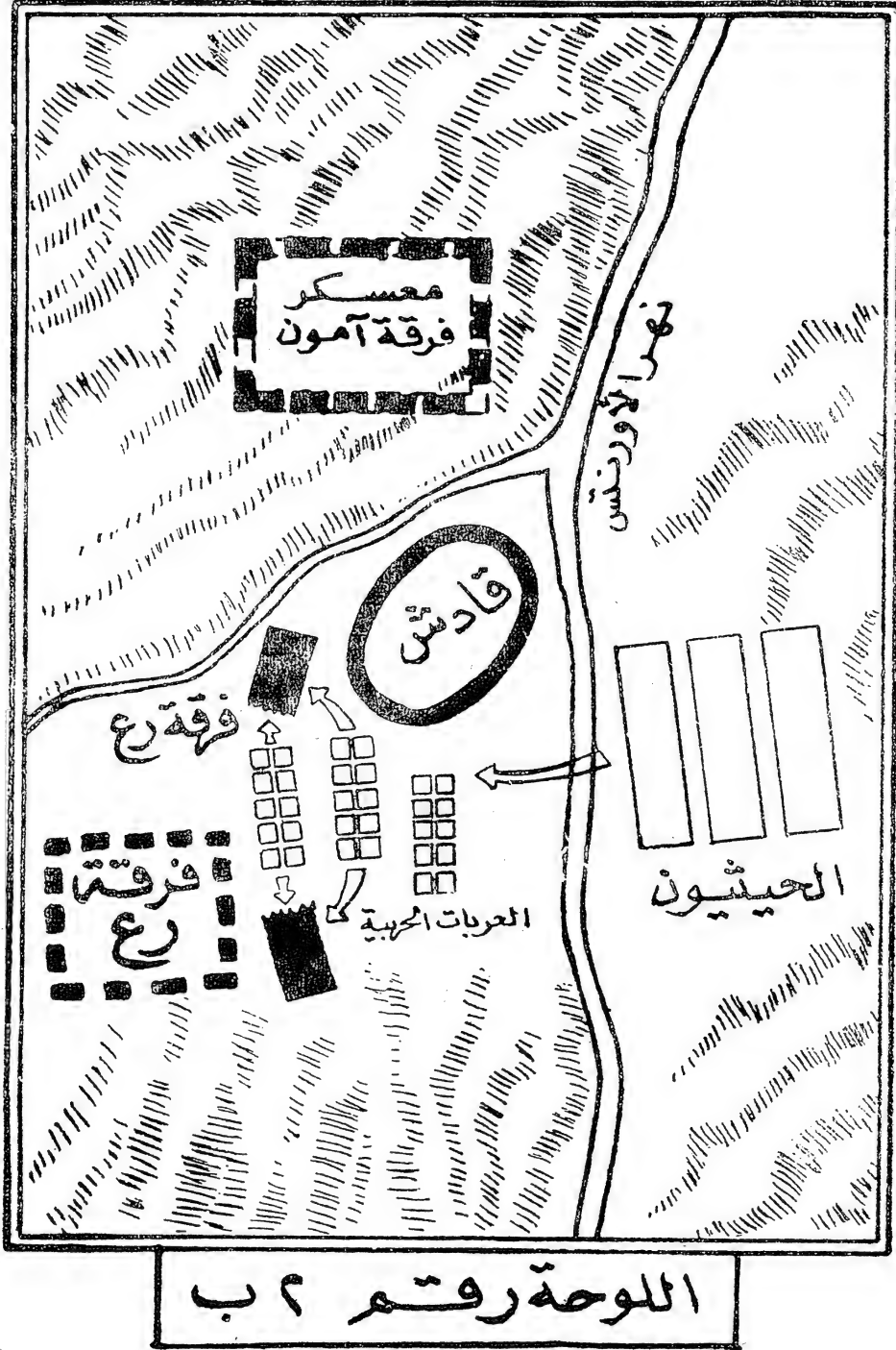
سادت الأمبراطورية المصرية فترة هدوء في عهد سيقى فاستغلها الحيثيون وقاموا بإنشاء جيش قوى كبير تحت قيادة موتاللو ، حتى أصبح أقوى من الجيش المصرى . إلا أن رمسيس الثانى أصبح حاكماً مصر فعمل على تقوية جيشه حتى أصبح يضارع جيش الحيثيين عام ١٢٨٨

ق. م وكان يضم بين صفوفه مجموعات من المرتزقة . وفي ربيع عام ١٢٨٨ ق. م تحرك رمسيس الثانى على رأس هذا الجيش ^(١) حتى وصل إلى أعلى مهر أورتنس (العاصى) ويطل على السهل الذى تقع به قادش ويمكن الوصول إليها بعد مسيرة يوم واحد .



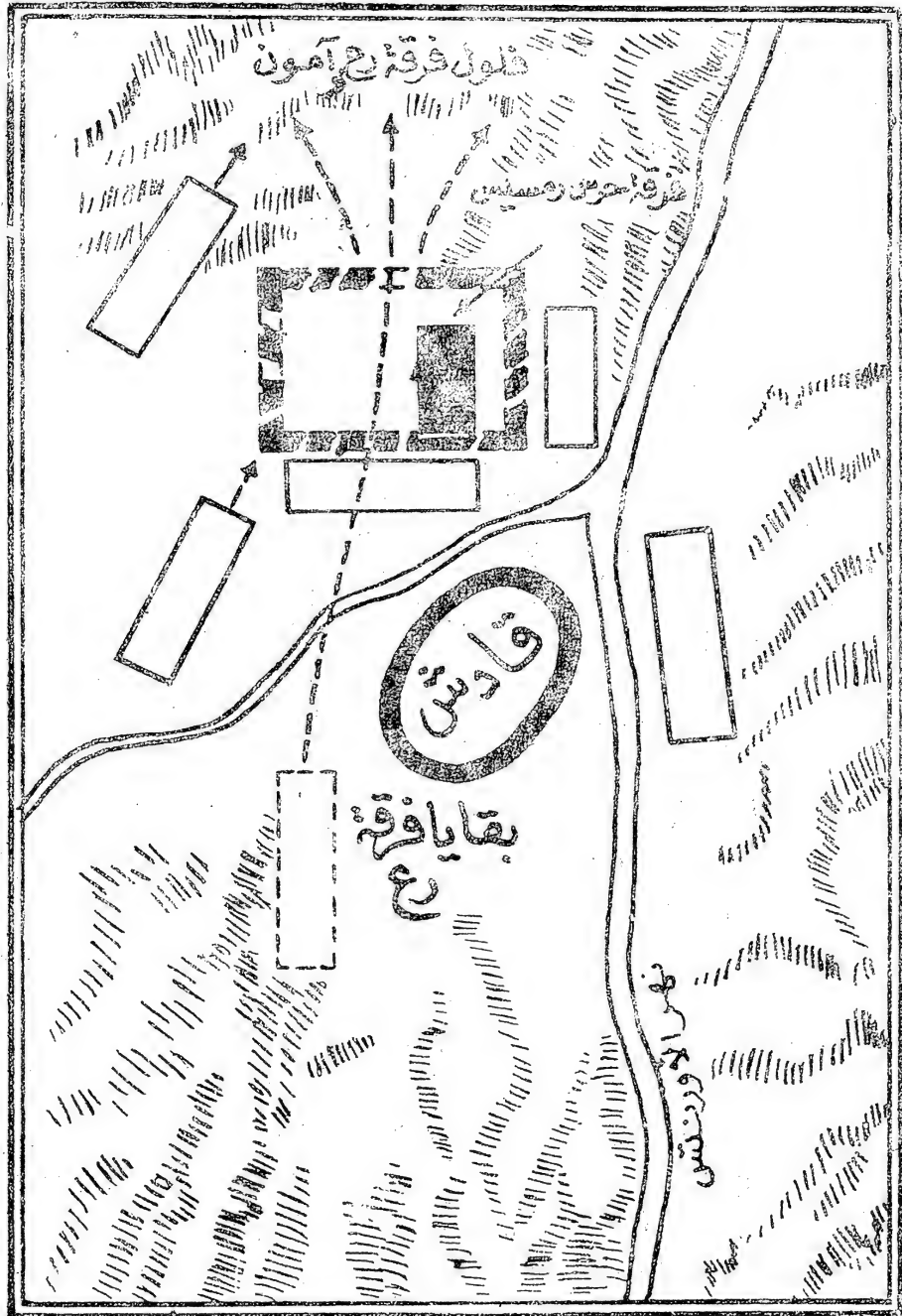
(١) كان جيش رمسيس مكونا من أربع فرق ، فرقة حرس رمسيس وفرقة آمون وفرقة رع وفرقة بتاح « العرب »

وعندما أقتراب رمسيس من قادش قاد بنفسه فرق آمون وعبر بها النهر بالقرب من شابتونا^(١) وتقدم شمالاً تاركاً باقي الفرق ، وكان متلفها لحصار قادش ووثقاً من النصر بعد أن ألتقى بجنديين من الحيثيين وأبلغاه بأنهما هاربان من صفوف الجيش وأن الحشد الأكبر



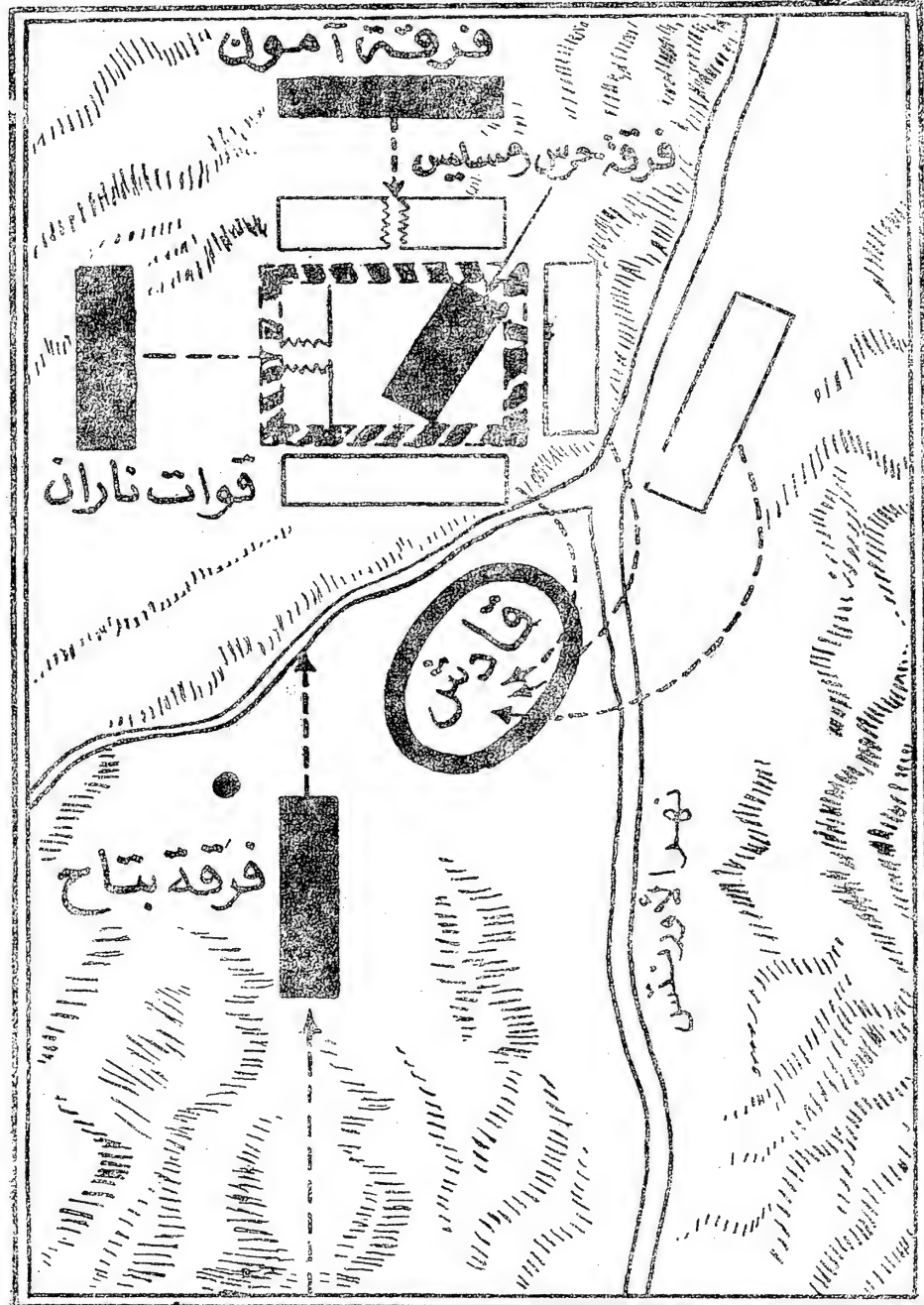
(١) شابتونا : تقع جنوب قادش بمسافة ٦ أميال « المغرب »

لجيش الحيثيين لا يزال بعيداً في الشمال بالقرب من حلب . وكان ذلك خدعة وقع فيها رمسيس ، فقد أرسلهما موتالو لإغراء رمسيس للاتجاه شمالاً حتى يسقط في المصيدة التي نصبها له شمال قادش . تقدم رمسيس شمالاً حتى أصبح غرب مدينة قادش ، في هذه الآونة تحرك جيش الحيثيين وعبر النهر ثم أتهجه نحو الجنوب حتى أصبح شرق قادش محافظاً على أن تبقى المدينة بينه وبين قوات رمسيس حتى لا يكتشف تحركه ، ونجح موتالو في أتمام



اللوحة رقم ٤ ج

حيلته وقام بمناورة بارعة وهاجم فرقة رع من الشرق والتي أخذت تماماً بالمفاجأة ونجح في شطرها إلى قسمين وتبعثر هذين القسمين إلى أجزاء صغيرة أنطلق بعضها نحو معسكر آمون في الشمال ويطاردهم عن قرب وحدات من العربات الحربية وكتائب الحيثيين^(١).



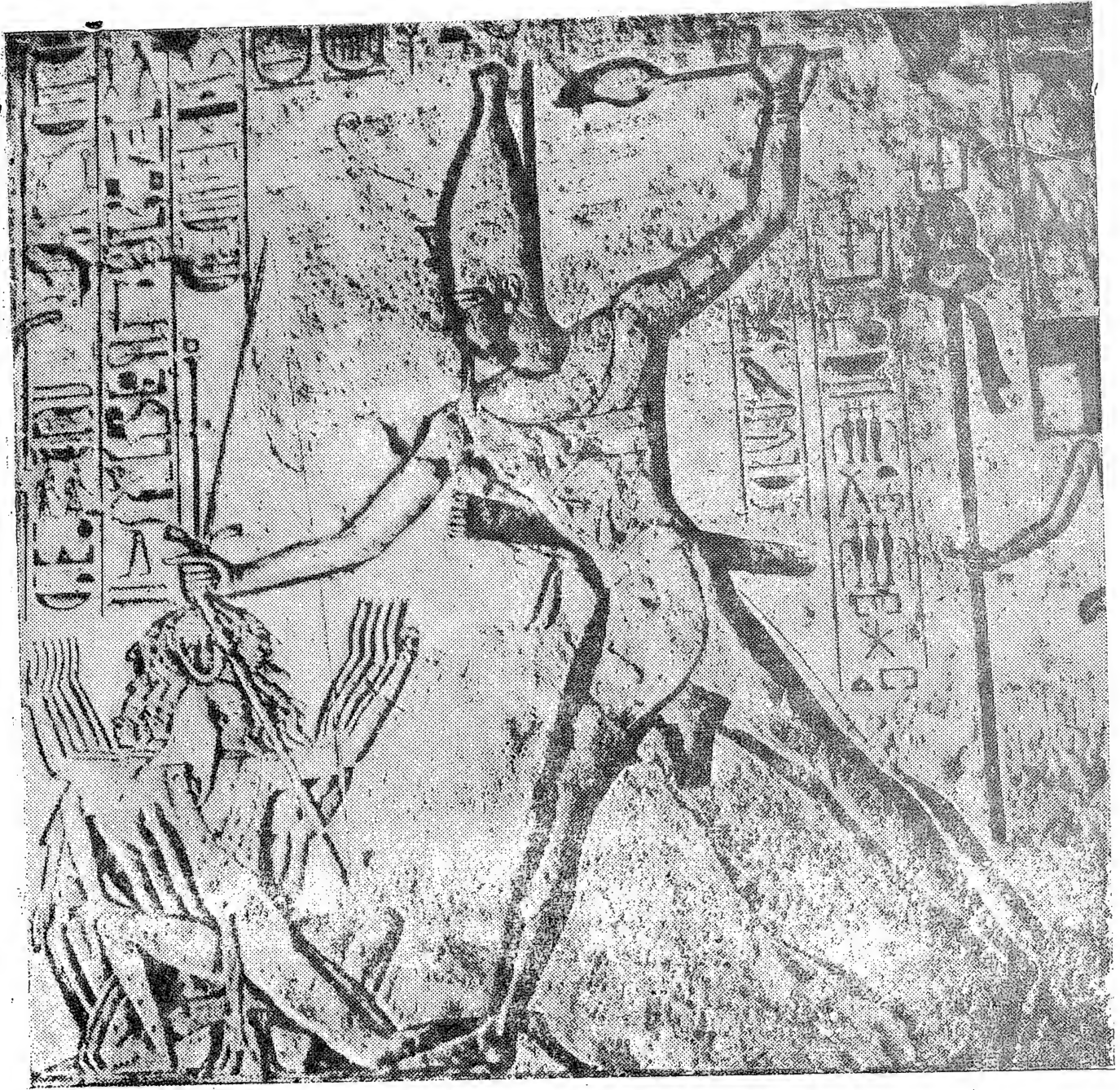
اللوحة رقم ٤٢

(١) كانت تقدر قوات الحيثيين التي تطارد المصريين بحوالى ٤٧ ألف مقاتل « العرب ».

وأصبح بذلك رمسيس معزولاً في الشمال ويهاجمه قوات كبيرة من الحيثيين ، بينما باقى قواته تقاتل بعيداً في الجنوب لدرجة أنه أصبح من المشكوك فيه أنها ستلحق به وتقاتل معه . وكان الجزء الأكبر من جيش موتالو يتمركز في قادش لكي يحمى ظهره مع توفير قاعدة حصينة لقواته . ولم يدرك رمسيس فداحة الموقف إلا بعد أن قبض على جاسوسين آخرين من الحيثيين واعترفوا له بالصدق في هذه المرة ، بأن جيش موتالو خاف مدينة قادش في ذلك الوقت وصلت فلول فرقة رع وخلفها قوات الحيثيين فأصاب فرقة آمون والتي يقودها رمسيس الذعر والأرتباك ، فأردت على أعقابها في تحركات عشوائية ظهر معها أن خيوط الهزيمة بدأت برمسيس . ولكن رمسيس قدر موقفه بسرعة وقرر القيام بهجوم مضاد ولكنه وجد أنه لن يستطيع كسر حدة هجوم الحيثيين في منطقة الوسط (القلب) إلا أنه لاحظ أن الجناح الشرقى لهم والمتحرك بمحاذاة النهر ضعيفاً ، فعلى الفور وجه هجومه المضاد إليه بواسطة عرباته الحربية . وبالرغم من ذلك كان الحيثيين لا يزالون مسيطرين على منطقة الوسط ، وما كان عليهم إلا أن يركزوا جهودهم ويحشدوا قواتهم في الجناح الشرقى ضد هجوم رمسيس المضاد ، وبذلك يضمنون النصر كاملاً ، ولكنهم بدلاً من ذلك بعثوا قواتهم وأنهمكوا في سلب الغنائم من معسكر المصريين في منطقة الوسط بعيدين عن حراسهم وكانت هذه هي اللحظة الحاسمة في المعركة . وعلى الفور دفع رمسيس بقوات ناران^(١) من الغرب لمهاجمتهم فتحسن موقف القوات المصرية في منطقة الوسط ، وفي نفس الوقت استمر المصريون في الضغط على الجناح الشرقى للعدو ، وهنا برزت عظمة التفوق التكتيكي لاستخدام العربات الحربية المصرية والمسلحة بالأقواس المركبة بعيدة المدى ، بينما كانت العربات الحربية للحيثيين أقل عدداً وأبطء حركة وتسليحها قاصرة على الأقواس قصيرة المدى .

وتم دحر موتالو وجيشه ، وأجبر على الانسحاب للخلف عبر نهر انعاص ومعه ٦٠٠٠ جندي وأصبح عاجزاً تماماً بعد فقدته لجميع عرباته الحربية تقريباً في هجومه الأول على منطقة الوسط للمصريين ، وبذلك أصبحت مشاته عاجزة هي الأخرى أمام ضربات العربات الحربية للمصريين ، وعند حلول المساء وصلت فرقة بتاح إلى ميدان المعركة ، فأضطر الحيثيون

(١) قوات نارات : وهي القوات الكنعانية التي يقودها ناران وتخدم مع القوات المصرية . « العرب »



رمسيس الثانى يوسع الامبراطورية المصرية



رَمْسِيسُ الثَّانِي يَقُودُ عَرَبَتَهُ الْحَرْبِيَّةَ أَثْنَاءَ مَعْرَكَةِ قَادِشَ

إلى الأنسحاب داخل قادش وأخذوا يعدون أنفسهم للحصار ، ولكن المصريين أنسحبوا دون احتمال قادش وبذلك أنهت المعركة نهاية غير حاسمة أو محددة .

وفي الحقيقة تفوق موتالو على رمسيس استراتيجياً ولكن قيادته الخاطئة وسوء تنظيم جيشه وافتقاره للأسلوب الفني^(١) في الحرب أفقدته المعركة ، بينما أستطاع رمسيس قيادة رجاله بحكمة وبراعة فأستطاع تجنب كارثة محققة .

قيام الدولة الآشورية (أنظر اللوحة رقم (١))

وبعد معركة قادش ، أضحلت كل من الإمبراطورية المصرية والحيثية وفترت عزيمة ونزعة المصريين للفتوحات ، بينما شعر الحيثيون بالقوة المتزايدة للآشوريين ، بالإضافة إلى ذلك أجتاحت قبائل المهاجرين^(٢) مناطق جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط من اتجاه بحر أيجه . . وبدأت غاراتهم المتفرقة تزداد عنفاً حتى أصبحت خطيرة ، وأصبحت من القوة بحيث لا تقاوم . وأستولوا في عام ١٢٠٠ ق . م على جزء من دولة الحيثيين وتقدموا نحو سوريا ، وأصبحوا يشكلون خطراً وتهديداً مباشراً لمصر .

وقد أعيد تنظيم الجيش المصرى بواسطة سيتنخت ورمسيس الثالث وكان الرماة المصريون لا يزالون يحتفظون بقوتهم . وفي عام ١١٩٠ ق . م أستطاعوا صد الغزاة براً وبحراً على الساحل الفينيقي ، وقد أطلق على هذا الغزو « الهجرة المسلحة » لأن القوات الغازية كانت تصحبها عربات كبيرة محملة بممتلكاتهم وعائلاتهم . وبعد أن هزمهم رمسيس أسكن رعاياهم المدنيين على الساحل وكانوا يسمون بالفلسطينيين . وبعد ذلك وبالرغم من ضعف الفراعنة لم يستطع أى غاز أن يخترق أرض مصر حتى ظهور الآشوريين في القرن السابع قبل الميلاد وأصبح الآشوريون في هذا الوقت أقوى دولة عسكرية في الشرق الأوسط .

من افق السماء حتى ذروتها

كنت معجباً جداً بالآشوريين وأنا ضابط صغير ذاهب للحرب في جنوب أفريقيا

(١) يقصد أن العربات الحربية والأسلحة عند الحيثيين كانت متخلفة في التطور عنها عند المصريين

(٢) الأندو أوروبى أو كما كانوا يسمون بالآرى « العرب »

وأقتبست هذه السطور من قصيدة بيرون وأسمها « سينا خريب »^(١) المدمر .

« وهبط الآشوريون من سفح الجبل كما يهجم الذئب على قطيع من الخراف » .

« وأسلحتهم تومض في لونها الأرجواني والذهبي » .

والشعب الأول لآشور^(٢) ينحدر من نسل موجة الهجرة السامية الثانية عام ٢٥٠٠ ق.م ولكن الطقس البارد ولأختلاطهم بدم غير السامي ، جعلهم شعباً قوياً صارماً ، وأصبحوا أعظم شعب عسكري ذو براعة فائقة في فن القتال قبل الرومان . وأستطاعوا توحيد كل شعوب الشرق الأدنى في إمبراطورية آشور وأصبحت عاصمتهم نينوى^(٣) وإذا عدنا قليلاً إلى الوراء نجد أنه في عام ٢٠٠٠ ق . م كان الآشوريين بعيدين عن الأحداث ، ولكنهم أخذوا ينمون ببطء حتى القرن الثالث عشر ق . م . وبعد انهيار الإمبراطورية المصرية والحيثية وجد ما يسمى « بفراغ القوة » فوجد الآشوريون . متنفساً لهم ليظهروا على مسرح الأحداث . وبين سنة ١٢٧٦ — ١٢٣٣ ق . م بدأوا تقدمهم السريع في الشمال والشمال الغربي . وفي عهد طجلال بلنزر الأول (١١١٥ — ١١٠٢ ق . م) كانوا من القوة بحيث أستطاعوا ضم مساحات شاسعة لهم من الإمبراطورية الحيثية وتمكنوا من الوصول لساحل البحر الأبيض المتوسط كما أستولوا على بابل . ولكن الحرب الأهلية داخل آشور بالإضافة إلى هجمات القبائل الآرامية أدى إلى ضعف الآشوريين لمدة ٢٠٠ سنة إلا أنهم أستعادوا قوتهم ومجدهم مرة أخرى في عهد أداد — نيراري الثاني عام (٩١١ — ٨٩٩ ق . م) الذي أستطاع دخول بابل والإيقاع بين سكان الجبال والوديان في الشمال الغربي . وأنتهج ملوك آشور في ١٠٠ سنة التالية سياسة التوسع الدائب المستمر القائم على أساليب غاية في الوحشية .

وكانوا دائماً يضعون القرص ذا الأجنحة^(٤) على عربة الملك الحربية في أي معركة ، ثم يوضع بعد ذلك في البلد التي يتم فتحها والإستيلاء عليها .

(١) سينا خريب هو ملك آشور وقد قتل على يد ولديه

(٢) آشور وهي مدينة تقع على نهر دجلة في العراق

(٣) نينوى أو (نينيفه) وتقع على نهر دجلة شمال مدينة آشور

(٤) هذا القرص منحوت عليه صورة آشور وهو يقود شعبه « المعرب »

وكان الضباط الكبار في الجيش الآشوري من الكهنة ولذلك كانوا متمسكين بعبادتهم لآشور ، وعند تمرد أى شخص أو بلد ، فيصبح هذا الشخص اثماً ويلقى أشد وأقلى العذاب أما البلد فيحولونها إلى دمار شامل كما حدث لمدينة (أرينا) عندما أحتقرت الإله آشور . وكان الآشوريون يقيمون الطقوس الدينية بعد أنتصارهم في المعارك ويجرى ذبح الأسرى أثناءها . ولم يكن هناك أى منفعة تعود على الشعوب التى يضمها الآشوريين إليهم بل على العكس كانوا ينهبون ويسلبون كل الممتلكات علاوة على أستعذابهم القسوة مع الشعب المهزوم بالقيام بعمليات النفي والطرده الجماعى وذلك لتوفير الأراضى ليسكنها الآشوريون ويتكاثروا فيها ، لأن آشور تقع فى منطقة جرداء فى المنطقة العليا لنهر الدجلة وكان عليهم اختيار أحد أمرين ، أما البقاء فى هذه الرقعة الصغيرة المقفرة ، أو القيام بالغزوات فيحصلوا على الأرض والغنى ، ولكى يسيروا فى طريق التوسع كان لزاما عليهم تأمين حدودهم الشرقية والجنوبية مع فرض سيطرتهم على الشمال والغرب .

ولم تكن هناك إلا مشا كل طفيفة حتى القرن السابع ق . م بسبب الهجرات الجماعية وكانت السياسة الآشورية تعتمد على فرض قوة وسلطة ملك بابل على القبائل ، ولكن بعد فترة طويلة من الثورات والتمرد ، قام سينا خريب بالاستيلاء على بابل عام ٦٨٩ ق . م . وفى عام ٦٣٩ ق . م قام آشور بانيبال بتدمير مملكة العيلام مما أدى إلى وجود فراغ هيا لظهور مملكة فارس . وهكذا نجد أن المشا كل الرئيسية أخذت تظهر فى كل من الشمال والغرب ، خفى الشمال مثلا كان لا بد للآشوريين من القيام بحملات دورية لتأديب القبائل التى تسكن الهضاب وخاصة قبائل الأورارتين وأخيراً المهاجرين من السيثيين والسامريين ، وأستعادة السيطرة عليهم . أما فى الغرب فقد أثبتت التجارب أنه لا يوجد غير الغزو وأحتلال هذه المنطقة لكى يمكن إستغلال الإمكانيات التجارية بها إلى أقصى حد ، مع الإستمرار فى أخضاع هذه القبائل لهم .

وقد قام طيجلاط بلنزر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ ق . م) بغزو أبعد المناطق فى الغرب وهى مدينة كاركيش وكانت وسيلته فى ذلك إبادة القوة الصغيرة ثم توجيه ضربات قاضية للعدوين الرئيسيين وهما أورارتو^(١) ودمشق . وخلال سلسلة من الحملات تقدم شمالا نحو دجلة

(١) كانت أورارتو مملكة قديمة وتقع بين بحيرة فان والقوقاز « العرب » .

موجهاً ضربات متلاحقة شرقاً وغرباً ضد الميديين وداخل سوريا ، وتم له فعلاً سحق أورارتو والأستيلاء على دمشق ، وبعد ذلك أستسلم حكام كل من فينيقيا وفلسطين وبعض الدويلات الأخرى ثم أبتدأ بعد ذلك التقدم نحو الجنوب .

وبعد ١٨ عاماً من المعارك والحملات مات الملك وترك المملكة الآشورية التي تمتد حدودها الشرقية من بيت ياكين على الخليج العربي إلى جبل بيكنى . أما حدودها الغربية فالبحر الأبيض المتوسط إلى مصر وعلى حد قوله « من أفق السماء حتى ذروتها » .

وأحتفظت آشور بقوتها وسيطرتها بعد ذلك على الشرق الأدنى لمدة قرن من الزمان ، وقد حاول المهاجرون السامريون التقدم ولكن سارجون الثاني دحرهم في موقعة كبيرة عام ٧٠٥ ق . م . وأخيراً في عام ٦٧١ ق . م قام الملك أسرحدون بقيادة الجيش الآشوري وأستولى على كل مصر العليا .

والآن نتساءل كيف حقق الآشوريون كل هذا النجاح العسكري ؟ .

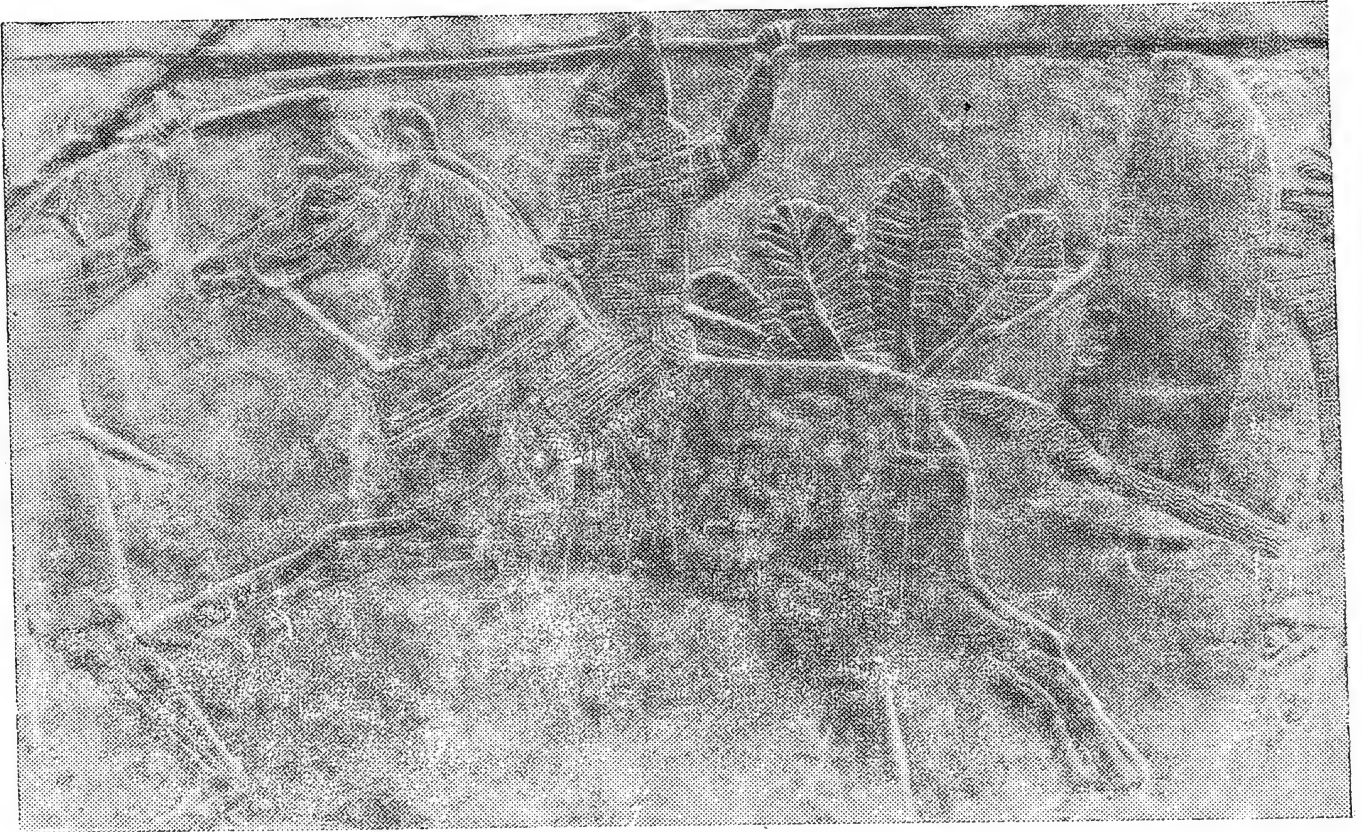
يبدو أنهم كانوا متفوقين في بعض الفنون غير فن الحرب ، إلا أن فن الحرب كان شاغلهم الرئيسي ويظهر لنا بوضوح الوصف التاريخي للآشوريين من خلال اللوحات المرسومة والمنحوتة في القصور الملكية وتبين حروبهم وبعض فنونهم الأخرى . ولذلك فنحن على دراية تامة بتطورات أسلحتهم وتكتيكهم العسكري . وكان الآشوريون يعتبرون أقوى قوة عسكرية شهدتها العصر الحديدي ، وكانت أسلحتهم أصلب وأمضى من أى أسلحة ظهرت في العصور السابقة .

ظهور الفرسان

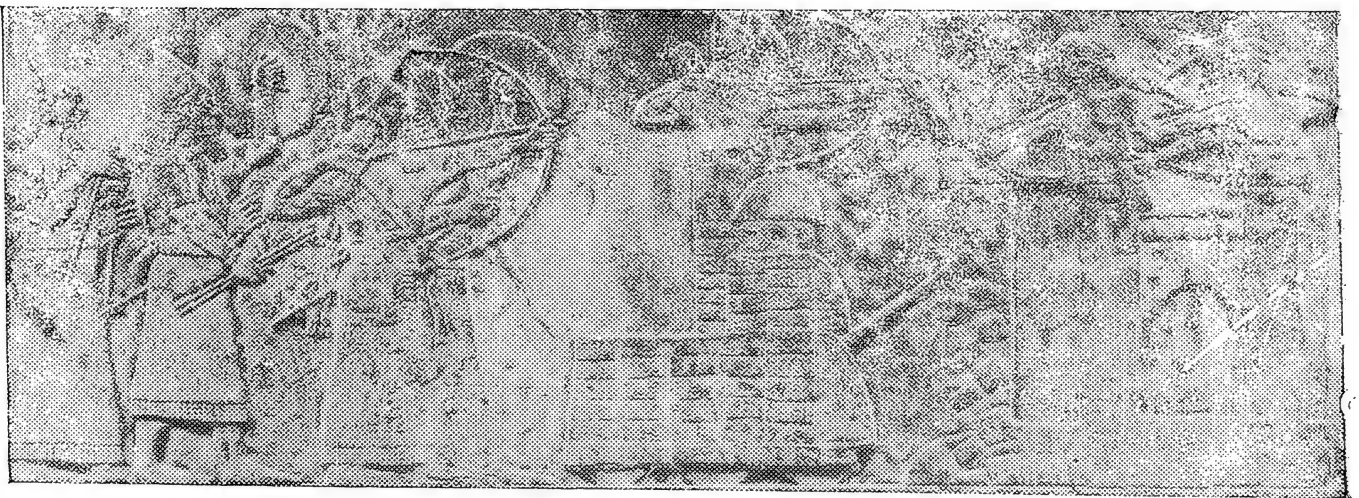
وكان الآشوريون أول شعب أدخل نظام الفرسان في الجيوش في حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م بفترة وجيزة . وكان هؤلاء الفرسان نوعين حملة الأقواس وحملة الحراب ويستخدم النوعين في القتال المفتوح القريب والبعيد ولكن لم يستخدموا مطلقاً في مهاجمة الأماكن المحصنة .

وعند نشوب المعركة كان على حملة الحراب من الخيالة أن تفتح ثغرة في قوات العدو ثم

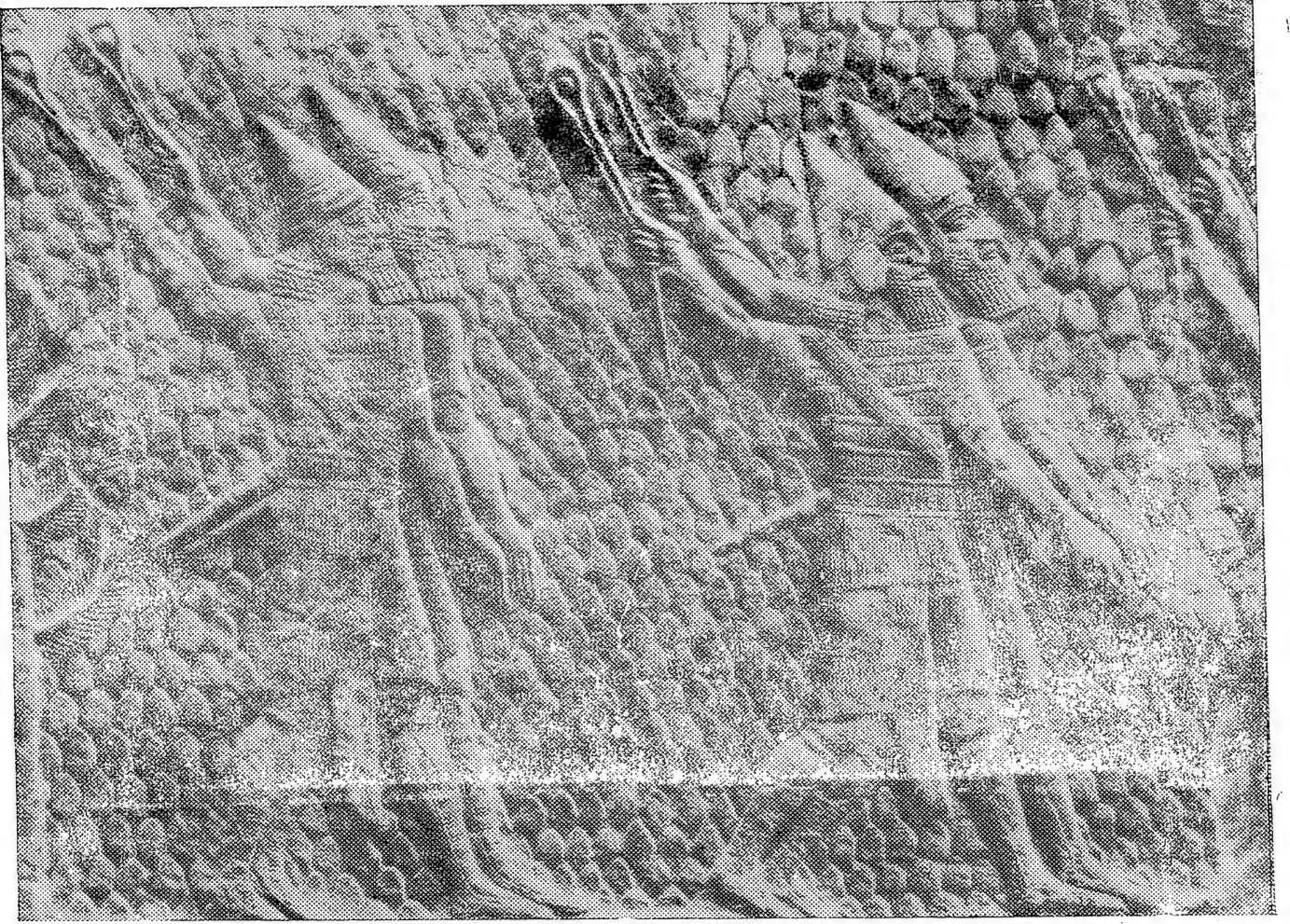
تندفع خلفهم المشاة من حملة الحراب ، أما الخيالة من حملة الأقواس ، فيقومون بمهاجمة مؤخرات



الآشوريون أول من أدخل نظام الفرسان في الجيش



الآشوريون يهاجمون المناطق المحصنة بكبش متحرك



المشاة الآشورية من حملة القلاع

وأجناب العدو في تشكيل ثنائى^(١) . وبالرغم من إستخدام الخيالة إلا أن السلاح الرئيسى للجيش كان العربات الحربية ، ففي عهد الملك آشور بانيبال أرتفع عدد طاقم العربى من اثنين إلى أربعة^(٢) . وأصبحت العربى نفسها أثقل ويجرها أربعة خيول .

أما قوات المشاة فكانت تتكون من حملة الحراب والرماة ورماة المقلاع . ويرتدى حملة الحراب أردية مصفحة وخوذات .

وقد أجرى الآشوريون عدة تجارب على الدروع للحصول على الحجم والشكل والوزن المناسب بحيث يعطى درجة كافية من الحماية مع سهوله الحركة للمقاتل ولكنهم لم يتوصلوا لنموذج ثابت .

وعادة كان حملة الحراب هم قوات الصدمة التى تقود الهجوم بالمواجهة ، وكانوا أيضاً ذوى أهمية كبيرة فى مهاجمة المدن المحصنة . وتتكون القوة الرئيسة للمشاة من الرماة لأنهم العناصر الهامة لكل أنواع الهجوم بما لديهم من أقواس متقدمة الصنع من النوع المركب . وفى العهود الأولى كانوا يرتدون أردية طويلة مصفحة ، ثم فى عهد طجلاط بلنزر الثالث قام بتغييرات جذرية فى جميع الأسلحة ومنها أستخدام دروع كبيرة^(٣) ، وقلنسوات للجنود ووحدات من الرماة خفيفة الحركة وأدخل تحسينات على القوس بحيث أصبح طرفا القوس مائلين قليلا إلى الخلف مما يؤدى إلى سهولة جذب الوتر وبالتالى سهولة وقوة الرمى ، كما أستعمل المقلاع لأول مرة فى عهد طجلاط بلنزر الثالث وكان ذا فاعلية وتأثير شديدين أثناء مهاجمة المدن الموجودة فوق المرتفعات ، وكان المشاة يحملون بالإضافة إلى سلاحهم الخاص ، سيفاً طويلاً مستقيماً محمولا فى غمد على الفخذ الأيسر . ولم يهزم الآشوريون طوال ٤٠٠ سنة من القتال المتواصل وكانت جيوشهم فى ازدياد مطرد وكان لأعدائهم السوريون والأورارتيون والعيلاميون جيوش مماثلة ، ولكن يرجع نجاح الآشوريون إلى أن ملوك آشور كانوا قادة ميدانيين من

(١) يقوم بالهجوم كل اثنين من الخيالة أحدهما للرمى بينما يمسك الآخر أعنة الحصان ويحمل درعا كبيرا يحمى الاثنين . أما وقاية الخيول فيضعون لهم دورعا جلدية .

(٢) يتكون الطاقم من سائق ورامى واثنين من حملة الدروع لوقاية الطاقم .

(٣) كانت الدروع أطول من قامة المقاتل ولها شخص خاص لحملها « العرب »

الدرجة الأولى ولهم اليد المطلقة في توجيه جميع إمكانات الدولة في حالة الحرب علاوة على دقة وتنظيم قواتهم ، فكان هناك جيش نظامي يخدم فيه جميع البالغين لفترة محددة، وكان الأغنياء يدفعون المال أو يرسلون العبيد بدلا من أبنائهم إذا أرادوا ذلك ، وعلى الشعوب المهزومة إرسال كتائب للخدمة في الجيش الآشوري . ويجرى أمداد القوات والضباط من الحكومة المركزية أو من الجزية التي تفرض على المناطق التي يحتلونها ، وبعد الانتهاء من المعركة تقسم الغنائم بين القوات . وكان يدعم الجيش نظام كفاء من المخابرات ، وكذا أجهزة من المسؤولين المدنيين المنتشرين في المقاطعات للحصول على ما يمكن الاستفادة به من المعلومات العسكرية .

العمليات البرمائية

كانت القوة الضاربة للجيش الآشوري لا تعطى أى فرصة للشعوب الأخرى للوقوف أمامها في معركة مفتوحة ، فأعتمدت في الشعوب الدفاع على الأماكن المحصنة . ولا يوجد لدينا سجلات توضح بالتفصيل المعارك المفتوحة للآشوريين ، فأصبح من المستحيل معرفة الاستراتيجية والتكتيك الذين أستخدمها الآشوريون في عملياتهم . ويحتمل أن تكون العربات هي التي لعبت الدور الرئيسى في الحروب فكانت تقوم بالهجوم من جميع الاتجاهات وتشترك في القتال بجميع أبعاده أما باقى التشكلات فتقوم بعد ذلك بتطهير الفلول التي تبقى على أرض المعركة بعد هجوم العربات ، وأقوى دليل على ذلك تلك النقوش البارزة للملك آشور بانيبال والتي تصور معركته مع الغيلاميين والعرب عند نهر أولاي ويظهر موقف الجيش العيلامى العصيب المكون من وحدات رماة خفيفة ومشاة وبعض الفرسان ، أمام الجيش الآشورى ذى الوحدات المجهزة والمناسبة للمنطقة التي يحارب فيها ، وكانت هذه الوحدات تتكون من الفرسان المسلحين بالآقواس والحراب والمشاة من حملة الحراب ومعظم هؤلاء يلبسون دروعا ثقيلة ، علاوة على وجود مجموعات إضافية من الرماة الخفيفة ينتشرون في أرض المعركة لأحداث أكبر قدر من الخسائر وتبين الرسومات المنحوتة على الجدران سير المعركة التي تبدأ بهجوم كاسح وينتهى بدفع بقايا العدو إلى الخلف نحو النهر وذبح الأسرى . ومن الواضح أن الفرسان والمشاة كانوا يدخلون المعركة بعد ما تحدته العربات الحربية من فوضى في قوات

العدو وكان الفرسان يعملون على أجناد العدو لمنعه من الهرب ويدفعونه للخلف نحو النهر ثم ذبحه . وكان الآشوريون محاربين ممتازين في جميع أنواع الأراضي من جبال أورارتو^(١) . حتى مستنقعات بيت يا كين وفي الصحراء أيضاً .

وهناك نقوش للملك سينا خريب توضح تقدم المشاة خلال مدينة كثيفة الأشجار ويوضح الرسم المشاة المترجلة من حملة الحراب وهي تتقدم في صفوف منتظمة بينما يتبعها مجموعات صغيرة لتأمين الأجناد والمؤخرة . وكانت الفرسان من حملة الحراب وحملة الأقواس يلعبون الدور الرئيسي بمعاونة المشاة في مناطق الغابات أو الجبلية . فكانوا يتقدمون إلى الأمام في صفوف منتظمة بينما تحمي المشاة أجنادهم ، وأصدق مثال يوضح مقدرة الآشوريين في التغلب على صعوبة أرض المعركة ، تلك العمليات البرمائية التي قام بها الملك سينا خريب في منطقة مستنقعات دلتا نهر دجلة ، فقد ظهر في الرسم المشاة وهم يعملون كجنود بحرية ، ويقومون بهجومهم من داخل قوارب خفيفة وبالمناورة بين أعواد البوص باحثين عن العدو ومشعلين النيران في ملاجئهم ، كما كان الجيش الآشوري له القدرة على تحريك تشكيلات كبيرة لمسافات طويلة عبر المدن الجبلية ، كما وصلوا إلى مستوى جيد من البراعة والمهارة الفنية في التغلب على العقبات الطبيعية وخاصة الأنهار ، ويظهر في نقش آخر مجموعات كبيرة من العربات تعبر نهراً واسعاً بجميع معداتها الثقيلة ، وكانت هذه العربات تعبر النهر على قوارب كبيرة تعمل بالمجاديف ويساعدها من الشاطئ الآخر فريق يشد القوارب بالجبال ، بينما تسبح خيول العربات خلف القوارب وهي مربوطة بجبال في القوارب ، أما الجنود فكانوا يسبحون بمساعدة جلود الماعز المنفوخة محافظين إلى أقصى حد على أسلحتهم من المياه ، كما كان يقيم المهندسون العسكريون في بعض الأحيان الكبارى العائمة عبر مجارى المياه الصغيرة .

الحرب النضمية قبل الميلاد

قامت الدول الصغرى مثل سوريا وفلسطين بتطوير أساليب التحصينات لكي تواجه الآشوريين ، وبالتالي قام الآشوريون بتطوير فن حرب الحصار ، وكان نجاحهم في ذلك راجعاً بدرجة كبيرة إلى تنسيق واستغلال إمكانياتهم العسكرية إلى أقصى حد ، وأستخدموا

(١) جبال أورارتو (أنظر اللوحة رقم ١) « العرب »

معظم أساليب فن الحصاد ^(١) مع أستخدام الحرب النفسية .

وكان الكباش في بداية عهدهم كبير الحجم وغير متقن الصنع إلى حد ما ، ومحمولا على ستة عجلات وطوله يصل إلى ١٥ قدما كما كان يوجد في مقدمته ما يشبه البرج بارتفاع ١٨ قدما ، ويحتوى بداخله على المنجانيق مربوطاً بجبل ليسهل قذفه ، وكان رأس المنجانيق يشبه البلطة التي تفحشر بعد إنطلاقها من العربدة في بوابة أوسور الحصن ثم بعد ذلك يقوم الجنود بتحريكه ليخلخل السور وينهار . وقد أرجع طجلاط بلير الثالث نجاحه إلى أستخدامه نوع جديد من المنجانيق ذا وزن خفيف ومحمول على أربع عجلات . وكان أطقم المنجانيق معرضين لخطر جسيم لتعرضهم للسهم المنطلقة من أقواس رماة العدو ، ولذلك كانت هناك وحدات من الرماة تتحرك في أبراج متحركة لتحميهم ، ويجرى الهجوم على الأسوار بواسطة حملة الحراب الذين يحملون سلالم التسلق ، محولين أهتمام المدافعين عن أطقم المنجانيق الذين ينتهزون هذه الفرصة للبحث عن النقط الضعيفة في الحصن . وفيما بعد عندما أصبحت الحصون أكثر قوة ، فضل المهاجمون السلالم على المنجانيق ووصل طول السلم إلى ٣٠ قدما . وكانت تشترك في الهجوم على الحصن في وقت واحد جميع وسائل الأقتحام ويؤازرها رماة السهم النارية . وفي عهد سينا خريب أصبحت هجمات الآشوريون أكثر تخريبا ودمارا وقوة عند أستخدامهم للسلاح الجديد وهو المقلاع . وفي بعض الأحيان كان يصطدم الآشوريون بقوات للعدو كبيرة أو بتحصينات قوية لا يمكن دكها فكانوا يحاصرون الحصن أو يستخدمون الخداع . ومثال لذلك ما جاء في الأنجيل في وصف الطريقة التي نادى بها رابشا كيه على المدافعين عن حصن القدس مستخدما لعتهم طالبا أستسلامهم وعدم أطاعة أوامر قائدهم حزقيا ، وكان هذا عبارة عن مثال للحرب النفسية المبكرة إلا أن حصن القدس نجا من الحصار نتيجة لما يتمتع به حزقيا من بعد النظر ، بتوفير مصدر للمياه داخل الحصن وذلك بتحويل المجرى العلوى لنهر جيحون إلى أسفل نحو الجانب الغربى من القدس . فقد حفر بمهارة هندسية فائقة قناة في الصخر الصلب ولمسافة ٦٥٠ ياردة بحيث تصب في

(١) مثل أجتياح المتاريس والقلاع ، النفاذ خلال الحوائط والبوابات والتساق ، والنفاذ عبر الأنفاق

« المعرب »

خزان داخل المدينة وقام أيضاً ببناء مخازن احتياطية لتخزين الزيت والدقيق والنبيد. ويعد سور مجدو الضخم مثال لفن تطوير التحصينات ، فقد بنى في بداية القرن التاسع عشر ق . م وسمكه ٧ أقدام عند القاعدة ، ومزود بشرفات بارزة عرضها ١٨ قدماً بها فتحات للضرب منها ، ربثوا سوراً آخر منخفضاً ليزيد من قوة السور الكبير . وتبين النقوش هجوم الملك سينا خريب على لا كيش وظهر المدافعون عن الحصن على طول الفتحات التي يدافعون من ورائها ، وقاموا بتزويد هذه الفتحات بأطارات خشبية خاصة ليعلقوا عليها دروعهم بحيث تصبح ساتراً يمكن للرماة العمل من خلفه بحرية .

وفي عام ٦٣٩ ق . م أستطاع الملك آشور بانيبال أن يحقق الاستقرار في إمبراطوريته فقد ساد السلام الجزء الجنوبي الغربي بعد أن أصبحت لبيديا حليفة له بينما سحق العيلام ثم وقعت الكارثة ٠٠٠ فنحن لا نعلم على وجه الدقة ماذا حدث ، ولكن من المؤكد أنه بموت الملك حدثت خلافات ومنازعات طويلة على من يخلفه . وقد تحالف كل من نابو بلصر ملك بابل مع سايا كساراس ملك ميديا على تدمير الآشوريون الذين أستنفدت الحروب الأهلية قوتهم في عام ٦٢٠ ق . م وكان قادة الأعداء رجالاً أكفاء ، فوجد الآشوريون أنفسهم عاجزين عن مقاومتهم إلى أن تمكن نابو بلصر من إلحاق هزيمة ساحقة بهم في كابلينو في عام ٦١٦ ق . م ، وبعد ذلك بعامين وصل سايا كساراس إلى نينيفة (نينوى) ثم تحول جنوباً وأشترك مع البابليين للاستيلاء على آشور . وحتى هذا الوقت لم تكن الإمبراطورية الآشورية تحطمت تماماً ولكن في عام ٦١٢ ق . م شارك السيثيين والبابليين والميديين في الهجوم على نينيفة . وأخيراً سقطت الإمبراطورية الآشورية أمام تحالف القوى وقد ألقى ملكها سين شار أشكون بنفسه في النيران المشتعلة في عاصمته وكان آخر ملوك الآشوريين .

وانتهى بذلك تاريخ شعب أشعل الحروب في الشرق الأدنى لأكثر من ٦٠٠ عاماً بدون هوادة وكان يخرج دائماً منتصراً .

الفصل الرابع الأغريق القدامى

النصر أو الموت (أنظر اللوحة رقم ٣)

خلال الصفحات السابقة ، قمنا بعبور ما يقرب من سبعة آلاف سنة من تاريخ الحروب والتي أنهت بأنهييار الدولة الآشورية في عام ٦١٢ ق . م وبينما كانت هذه الأحداث تقع في الشرق الأدنى كانت سحب الحرب تتكاثف متجمعة بعيداً فوق الغرب .

ويمكن القول بأن عصر البطولة الأغريقية بدأ في عام ١٤٠٠ ق . م عندما سيطر على بحر أيجه القادمين من كريت . وفي عام ١٢٠٠ ق . م بدأ هؤلاء وبعض شعوب إيجه في الأغارة على كل من الأمبراطورية المصرية والحديثة مما أدى إلى أنهاك قواها . وقد تحدث هومر عن إحدى هذه الغارات على مدينة طروادة .

وكانت المعارك في هذا الوقت عبارة عن سلسلة من البطولات والشجاعة بين المقاتلين الأبطال أمثال أجاكس وديوميديس وهيكتور والآخر كان أعظمهم جميعاً . وقال هومر : —

— وقف أشيلس عالياً فوق مسرح الموت . . .

— الجميع يغطيهم التراب . . . ويملاً الرعب قلوبهم . . .

كان المحاربون يذهبون إلى ميدان القتال في العربات الخفيفة ثم يترجلون ويخوضون قتالاً فردياً (فرد ضد فرد) بين هتافات أتباعهم وكان تسليحهم بسيطاً لتسهيل حركتهم فيحمل كل منهم درعاً مستديرة ورمحين للقفز وسيفاً مستقيماً ، أما القوس فأصبح سلاحاً محتمراً ولا يستخدمه إلا الجبناء ، فإذا لم تحسم الرماح الأمر تتبع بمبارزة بالسيوف لإنهاء الصراع . وظلت الرماح السلاح الرئيسي للأغريق بالرغم مما حدث من تغيير .

وبعد أنقضاء جيلين على حرب طروادة ، قامت الهجرة الدورانية بغزو اليونان (١) وتلا

ذلك أربعة قرون من الصراع العنصرى إلى أن تم الاندماج بين الغزاة والمقهورين ودخلت اليونان فى ذلك الوقت العصر الحديدى .

وحتى القرن الثامن ق . م كانت أرجوس^(١) تحكم كل منطقة البيلوبونيز الشرقية ، وبعدها بدأ عصر أسبرطة^(٢) . وفى الفترة ما بين ٧٤٠ — ٧١٠ ق . م قام الملك ثيوبومبس ملك أسبرطة بضم كل من ميسينا ولا كونيا إلى مملكته ، وبذلك ضمن لنفسه موارد الحديد والقوى العاملة من العبيد^(٣) .

وفى عام ٦٦٩ ق . م مرت أسبرطة بفترة مؤقتة من التداعى والأنهاك على أثر هزيمتها بواسطة فيدون ملك أرجوس فى وادى هيسيا علاوة على ثورة العبيد التى أستمرت ١٩ عاماً . ومع بداية القرن السادس ق . م أستعادت أسبرطة قوتها ثانية ودخلت فى طور السيادة العسكرية فى اليونان لمدة ٢٥٠ عاماً .

وفى الفترة ما بين ٦٢٠ — ٦٠٠ ق . م أدخل ليكورجس المؤسس الشهير لدستور أسبرطة نظاماً اجتماعياً وآخر سياسياً جديدين وهكذا أصبحت أسبرطة دولة عسكرية ، فأقتصر التعليم على إنتاج جنود أكفاء فقط ، بينما يقتل الأطفال المتأخرين جسمانياً أو عقلياً . ويتم تدريب الشباب من سن ٧ إلى ٣٠ على النظام وتحمل المشاق داخل ثكنات خاصة ، لذلك نجد أن جميع الذكور كانوا يخدمون فى الجيش وبهذا كونوا جيشاً محترفاً مدرباً قوياً ويدين بقانون « النصر أو الموت » وكان يقود هذا الجيش ملك أسبرطة شخصياً ، بينما يقوم العبيد بسد جميع الاحتياجات الإدارية الأخرى .

وعاشت أسبرطة فى استقرار سياسى بفضل هذا النظام بالرغم من تعدادها القليل إلا أنها كانت قوية فسيطرت على البيلوبونيز وعلى العبيد . وفى عام ٥٦٠ ق . م تحالف الملك نيكساندريد مع مدينة تيجيا^(٤) فى البيلوبونيز الوسطى لأقامة نوع من الاتحاد تحت القيادة السياسية لأسبرطة .

(١) إحدى مدن الدورانية

(٢) تقع هذه المدينة فى البيلوبونيز الجنوبى (المورة)

(٣) وكان يطلق عليهم أسم الأقتان ومفردها قن أى عبد

(٤) مدينة أدكارية فى وسط المورة « العرب »

وفي عام ٥٤٦ ق. م. هزمت أسبرطة أرجوس في معركة الأبطال ، إلا أن الأسبرطيين
في عام ٤٩٥ ق. م. تحت قيادة كليومينيس أستطاعوا تحطيم أرجوس نهائياً في معركة سديا .
ولكن في هذا الوقت بدأ يلوح في الأفق أول حرب كبرى بين اليونان والفرس .

الهوبليت

ففي عام ٥٥٢ ق. م. أنهز قورش العظيم مؤسس الإمبراطورية الفارسية فرصة زوال
دولة آشور، وقام وبعده أبنة قبيز على مدى ثلاثين عاماً بفتح كل من ميديا وبابل وليديا ومصر .
وفي عهد الملك دارا الأول عام ٥١٢ ق. م. امتدت الإمبراطورية الفارسية غرباً حتى
وصلت الدانوب. وفي عام ٥٠٠ ق. م. طلبت المدن اليونانية في جزر أيونيا^(١) الحماية من اليونان
الأم ، وبناء على ذلك قرر دارا الأول غزو جميع المدن اليونانية ، وأمام هذا الخطر
الأول من نوعه ، اتحدت كل المدن اليونانية تحت قيادة أسبرطة وتمكنوا من صد الغزو
الفارسي الأول في ماراثون في عام ٤٩٠ ق. م. وكذا الغزو الثاني في سلاميس وبلاطيا في الفترة
بين ٤٨٠ — ٤٧٩ ق. م .

وقد حقق الأغريق هذه الانتصارات العظيمة على قوات الفرس الجرارة لأستخدامهم
أثنين من أروع وأفضل أدوات الحرب وهي فرق الهوبليت^(٢) والسفن الثلاثية المجاديف .
وقد اعتمد تكتيك الهوبليت على مواجهة العدو بخطوط^(٣) صلبة كثيفة من مختلف
أنواع الدروع والحراش وكانت متتالية ، وعند الالتحام مع العدو يضرب كل مقاتل خصمه
بالحربة في رقبتة .

وكان واجب الصف الخلفي الأسراع لملأ الثغرات التي تحدث في الصفوف الأمامية
بالإضافة إلى حمل الأسلحة الاحتياطية وتضميد جراح جنودهم وقتل جرحى الأعداء .
وأصبح من الأهمية والحوية أن تصمد وتماسك هذه الخطوط لأن كل مقاتل في الخط

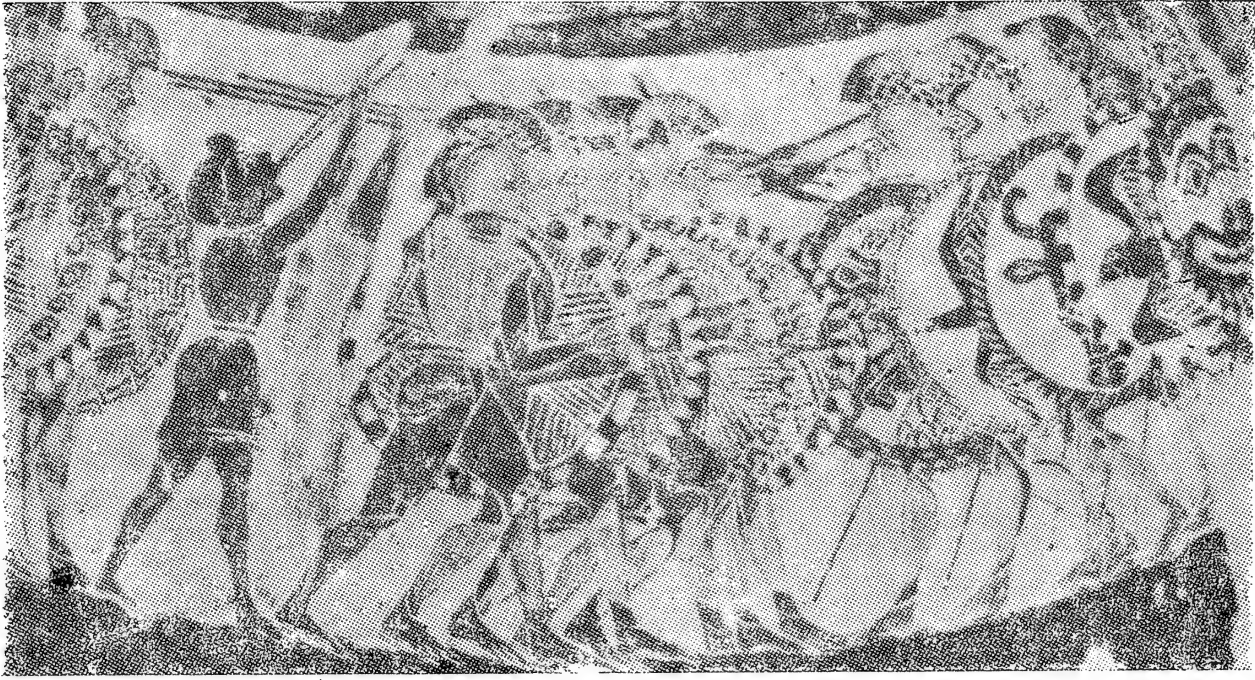
(١) كانت تحت الحكم الفارسي

(٢) الهوبليت : — وهم عبارة عن المشاة المدججين بالسلاح أو المشاة الثقيلة ويحمل الجندي رماحاً
طوله ٨ أقدام وسيفاً ودرعاً واقياً للصدر ، ودروعاً لوقاية الأرجل ودرعاً قطره ؛ أقدامهم مثبت بالذراع
الأسير وخوذة متوجة بشعار .

(٣) كانت السرية المشاة في بلاطيا تتكون من ثمانية صفوف « العرب »

يعتمد اعتماداً كلياً على جاره . ولم يحاول المقاتلون أظهار مهارتهم الفردية أثناء القتال ولكنها كانت تظهر في المجال الرياضي فقط .

وكان النظام والضبط والربط من العوامل الرئيسية للحفاظ على تماسك قوات الهوبليت وذلك لتفادي حدوث الثغرات في الصفوف الأمامية وكان هذا يعتمد على الروح المعنوية للجنود .



الهوبليت تقوم بالهجوم على نفقات الفلوت

وكانت المعارك عادة قصيرة وتتقرر نتيجتها على عدد القوات ورباطة جأشهم وتماسكهم وكان نجاح المعركة يتوقف على من يقوم بالضربة الأولى ، لذلك كانت الهوبليت تبدأ الهجوم على الفور بكل قواتها وفي حشد ، ولو حدث وكسر الخط الأول فالهوبليت يتراجعون ويفرون لعدم وجود احتياطي وبالتالي كان من المستحيل القيام بهجوم مضاد ، ولم تكن هناك مطاردة للعدو المهزوم ، لأن هذا النوع من الحروب كان يقضى بل يستهلك قوى القوات المحاربة . وكان المهزومون يرضخون للأمر الواقع بسرعة ، وجرت العادة على أن يرسل المهزوم رسولاً يعترف بالهزيمة ويطلب التصريح بجمع قتلاه لدفنهم .

وهكذا نجد أن التكتيكات الحربية كانت محدودة جداً ، فلم يكن هناك أى نوع من المناورة بل أكتفوا بالهجوم المباشر فقط وأصبحت أسبيرة سادة هذا النوع من الحروب لتمتع

قواتها بالتدريب والنظام الراقى ، وقد أدخلوا على أسلوب الهجوم تحسينات طفيفة وهذا أدى إلى تحقيق النصر عبر ثلاثة قرون .

كانت القوات المتقدمة تميل بطريقة طبيعية نحو اليمين ، فكل جندى يريد الإحتماء بدرع زميله الذى يجاوره ، وينتج عن هذا أن الجناح الأيمن للقوات يطوق تلقائياً وإلى حد ما الجانب الأيسر للعدو ، وقد أستغل الأسبرطيون هذا الميل ، فبعد تطويق العدو ، يحاصرونه فى مكان واحد ، ثم يقومون بهجوم ثابت بطيء على نغمات موسيقى الفلوت للقضاء عليه .

وأدى هذا الإستخدام التكتيكى المحدود إلى الحد من الإستراتيجية والإبتكار .

وكانت الأرض المفضلة للمعارك هى الأرض المنبسطة لأن الأرض الوعرة تؤدى إلى تكسر صفوف القوات المتقدمة فتضعف من صلابتها .

وكانت معركة حربية واحدة قصيرة كفيلة بحسم أمر الحملة العسكرية كلها . وعلى أى حال فقد أدت الطرق الوعرة والبلاد الجبلية والقوات الصلبة إلى الحد من التطور التكتيكى والإستراتيجى وعدم تحقيق المفاجأة . وكان يفضل فصل الصيف لشن الحروب ، فكان ذلك الوسيلة الوحيدة لإجبار العدو للخروج من أسوار المدينة للدفاع عن مزارعهم وقطعانهم والذى أخذ المهاجم فى إتلافها . أما عمليات الحصار فكانت نادرة ، ومثال لذلك عام ٤٩٥ ق.م فشل الأسبرطيون فى الإستيلاء على مدينة أرجوس ، ولا توجد أى سجلات أو آثار تدل على أن مدينة ماتم أحتياحها قبل عام ٤٢٤ ق.م . وعلى كل لم يقاتل الهوبليت أى سلاح آخر غير المشاة ، وكان من الممكن أن تكون الخيالة ذات تأثير فعال لو كان لدى الأغريق الجياد القوية ، ولكن بلاد الأغريق لم تكن بالبلد الملائمة لتربية الخيول لاقتنارها إلى المراعى ، أما فى أثينا فكان لديهم مجموعة من فرسان النبلاء الأرستقراطيين وقد أعتمد الثساليون على الفرسان فى قتالهم للهوبليت عام ٥١١ ق.م . ولكن الهوبليت هزمت وكانت هزيمة فريدة من نوعها . ولم تستطع العربات الحربية والرماة صد هجوم الهوبليت ، لأن العربات الحربية فى الواقع كانت تستخدم فى اليونان للاحتفالات والمهرجانات الرياضية . أما الفرس الذين فتحوا آسيا باستخدام فرسانهم ورماتهم أستخدموا أسلوباً جديداً للحرب مع الأغريق ، إلا أنهم تلقوا هزيمتهم على أيدي الهوبليت فى موقعة بلاتيا فى عام ٤٧٩ ق.م .

فقد أستخدم بوسانياس توقيتاً مناسباً، فبعد أن أمطر الفرس المدينة بالسهم وأخذوا يعيدون
تجميع قواتهم قام هو بالهجوم بالهوبليت .

القيادة بين الفرس والأغريق

لقد عرفت اليونان عن قريب وقت بأستكشاف معالمها أثناء خدمتي في منظمة حلف
شمال الأطلنطي . وأستطيع أن أعلق على النظام العسكري الأغريق خلال عصوره القديمة
بأنه بالرغم من أن هذه البلاد أكثر من ثلاث أرباعها جبلية إلا أن الأغريق أستخدموا
أسلوباً تكتيكياً وتشكيلات تصلح فقط للقتال في الأراضي المنبسطة ، ولذلك أصبحت المعارك
عبارة عن مباريات باطشة ليس فيها مناورة أو نيران أو حركة ولا حتى فرصة لأظهار مهارة
القائد، وكان على القائد أن يرسم خطة المعركة ويضع أفضل رجاله في المكان المناسب ويشجعهم
على القتال ببسالة ، وبعد ذلك يخوض معهم القتال مثله مثل أى مقاتل آخر. ولم يكن هناك
هيكل قيادي ولا رتب متوسطة بين الضباط .

والجدير بالذكر أن الأغريق لم يكن لديهم أى دافع لتطوير نظم ووسائل الحرب، فالجميع
ماعداء الأسبرطيون مقتوا النظام وكرهوا الحرب، ولكنهم كانوا يقاتلون بكفاءة إذا اضطروا
لذلك فقط وكانت فلسفتهم في هذا أن الإنسان الشجاع الذى يتحدى بأحاسيس نقية لا تؤثر فيه
آلام أو مباحج الحياة ، لذلك لن يتداعى أمام الخطر ، وعندما سمع بيركاز نبأ مقتل شباب
يونانى في ساموس شعر وكأن فصل الربيع قد أنتزع من السنة ، أما بالنسبة للفرس فكانت
نظرتهم للحرب مختلفة ، وعليه فأختلف تنظيمهم أيضاً ، فلم تكن المشاة هي السلاح
الرئيسى في جيوشهم ، لأن المشاة كانت غالبيتها من عبيد الأرض ورجال القبائل التى
تسكن الهضاب ولم تكن في قوة المشاة الأغريقية ، ولكن الفرس أعتمدوا على الفرسان
وذلك يرجع إلى مجتمعاتهم الذى يقوم على الأرستقراطيين وكبار ملاك الأرض وأتباعهم وكانوا
هؤلاء يشكلون سلاح الفرسان الذى خشاه الأغريق كثيراً . ومثال لذلك في مدينة ماراثون
عام ٤٩٠ ق.م أستطاعت المشاة الأغريقية القضاء على مشاة الفرس بسهولة علاوة على أن
فرسان الفرس لم يستطيعوا تقديم العون لمشاتهم أو القيام بالمناورة أو حتى الهجوم لأن
المعركة دارت في أرض ضيقة على الشاطئ . وحدث مرة أخرى في ثيرموبيليا في عام ٤٨٠ ق.م

أن مشاة الفرس رفضت الالتحام مع مشاة الهوبليت الذين تقدموا تحت غطاء كثيف من رماة السهام من الأمام والخلف .

ونلاحظ أن انتصارات الأغريق على الفرس تمت باتباعهم مواقف دفاعية أو القتال على أرض من اختيارهم يصعب فيها استخدام فرسان الفرس، وفي هذه الظروف كان هذا التكتيك والأسلوب غاية في الحكمة .

استراتيجية الحرب البحرية

لم يكن هناك أسطول حربي في عصر البطولة الأغريقية ، فالسفن كانت تستخدم فقط في النقل .

ولكن في القرن السابع ق.م ظهرت السفن الحربية ذات المقدمة الحادة التي يمكن بها اختراق سفن الأعداء وكانت مجهزة أيضاً بأسطح ليقصف منها الجنود سفن الأعداء أو يصعدون إليها إذا اقتربت منهم . وفي عام ٦٥٠ ق.م كان أهم أساليب التكتيك البحري هي الاختراق^(١) ولذلك أصبحت السفن أطول وأسرع ومنها السفينة بنتكوتر التي يقوم بالتجديف فيها خمسة وعشرون رجلاً على كل جانب من جوانبها . وفي الفترة بين ٥٥٠ — ٥٠٠ ق.م أدت المنافسة بين اليونان والأسطول الفينيقي التابع للفرس إلى تطوير السفن اليونانية وأصبحت قوية وتمثل في السفن ثلاثية المجاديف^(٢) والتي سيطرت على مياه شرق البحر الأبيض المتوسط لمدة قرنين من الزمان، وأصبحت فيما بعد النموذج الذي تطورت منه باقي السفن الحربية والتي سيطرت على الحرب البحرية حتى موقعة ليبانتو في عام ١٥٧١ ق.م. وقد قدمت هذه السفن مجالا كبيراً للملاحين ليقوموا بالمناورة لتمييزها بالسرعة الفائقة وأول معركة أشترك فيها أسطول من هذه السفن كانت معركة « ليديا » عام ٤٩٤ ق.م عندما سحق الفرس الثورة الأيونية .

وخلال الأعوام السابقة لعام ٤٩٠ ق.م كان واضحاً أن الفرس على وشك القيام بغزو

(١) الاختراق : — يقصد الكاتب أن السفينة الحربية تصدم بمقدمتها الحادة، سفن الأعداء فتحطمها
(٢) السفن ثلاثية المجاديف يقوم بالتجديف فيها ١٧٠ رجلاً كل منهم يعمل على مجذاف واحد وتلك المجاديف مركبة فوق بعضها على شكل صفوف متدرجة مزودة بمساند ممتدة بطول صفوف هذه المجاديف لمساعدتهم
« العرب »

اليونان براً وبحراً ، مما دفع ملتيادس^(١) إلى تحصين مدينة بيزايوس (بيريه) وجعلها قاعدة أثينا البحرية .

في عام ٤٩٠ ق . م نزل الفرس في ماراثون وتبعد عشرين ميلاً إلى الشمال الشرقى من أثينا ، وكان ذلك جزءاً من الاستراتيجية البحرية المخططة لخداع الجيش اليونانى ، ليندفع نحوهم تاركاً أثينا التى يتم الاستيلاء عليها بواسطة الطابور الخامس من داخل المدينة تعاونهم عملية أنزال بحرى أخرى فارسية فى مدينة فاليرم وكان هذا يتطلب من الهوبليت الأثينية السير جنوباً بأقصى سرعتهم من ماراثون بعد انتهاء المعركة هناك لـكى يحولوا دون عملية الأنزال فى فاليرم ، وأستطاعت بشق الأنفس أن تلحق الأنزال الفارسى عند فاليرم .

وقد أدرك تيممستو كليس القائد الأثينى فى عام ٤٨٠ ق . م احتمال حدوث غزو آخر ، إذا لم تصبح لأثينا أعظم وأقوى أسطول بحرى فى منطقة بحرأيجه ، وسيكون ذلك نذيراً بهلاك أثينا بل اليونان بأسرها .

أسطول من ١٢٠٠ سفينة حربية

وصرت اليونان بفترة هدوء عند تمرد مصر على فارس ، وبعدموت ملك الفرس دارا الأول عام ٤٨٦ ق . م إلا أن خليفة دارا وهو سيركسوس بدأ أستعدادات على نطاق واسع لغزو اليونان من البر ويساءلده فى نفس الوقت أسطول حربى . وقد كلف الفرس هاربالوس^(٢) ببناء كوبرى خشبى محمل على السفن على خليج هليسبونت (الدردنيل) بين أبيدوس وسستس وكان هذا الكوبرى محملاً على ٣٠٠ سفينة من النوع الثلاثى المجاديف ومن نوع بنتكونتر والمتصلة ببعضها بواسطة ستة سلاسل قوية . وفى ربيع ٤٨٠ ق . م تقدمت القوات الفارسية تحت قيادة سيركسوس نحو شمال اليونان بقوة بلغ عددها ١٦٠٠٠٠ سرية ، وطبقاً لما كتبه هيرودوت نقلت القوات فى ١٢٠٠ سفينة حربية و ٣٠٠٠٠ سفينة نقل إلى شمال اليونان .

وفى مجلس عام أغريقى تحت رئاسة أسبرطة وضعت الخطة الدفاعية عن اليونان ، قرروا

(١) ملتيادس : — قائد من أثينا .

(٢) هاربالوس المهندس اليونانى الذى يعمل لحساب الفرس « العرب »

مقابلة الفرس في الممر الضيق بالقرب من ثرموبيليا شمال أثينا بـ ٨٠ ميلاً وإلى الشرق من قناة يوبيا وذلك للتقليل من تأثير التفوق العددي للعدو . وكان الغرض من عملية ثرموبيليا هو أغراء سيركسوس بتطويق وتدمير الأسطول الأغريقى في معركة بحرية واحدة . وحيث أن كل شيء كان معداً من قبل فأرسل جزء من الأسطول اليونانى مكوناً من ٣٢٤ سفينة ثلاثية المجاديف و ٩ من نوع بنتكونتر تحت قيادة الأدميرال يوريبيداس الأسبرطى إلى قناة يوبيا ، أما القوة الضاربة للأسطول فكانت تحت قيادة تيميستوكليس الأثينى . وكان الفرس يهدفون السيطرة على ممر ثرموبيليا وحصار الأسطول اليونانى في قناة يوبيا ، إلا أنه عندما كان الأسطول الفارسى يبحر شرق شاطئ مغنيسيا قامت عاصفة هوجاء وحطمت معظم سفنه ، وهذا أغرى تيميستوكليس لهاجمة أسطول العدو وهو في حالة فوضى . وعلى الفور قام بالهجوم ودارت بينهما معركة قاسية وغامضة أمام رأس أرتيميزيوم ، وبعد يومين من القتال أصبح الفرس قريبين من النصر ، وبينما كان اليونانيون يفكرون فى الانسحاب وصلهم خبر سقوط ثرموبيليا بعد أن صمد الملك الأسبرطى ليدنيداس ومعه ٧٠٠٠ من الهوبليت (من بينهم ٣٠٠ أسبرطى) أمام جيش الفرس الجرار إلا أن أحد الخونة أرشد الفرس على طريق يمكن تطويق الممر منه ، وكانت النتيجة المحتومة أن جميع المدافعين قتلوا عن آخرهم وأستولى الفرس على الممر المتجه جنوباً ثم تحركوا نحو أثينا ، وما كان من الأسطول اليونانى إلا أن أبحر خلال الليل فى قناة يوبيا ثم ألتف حول أثينا متجهاً إلى الجنوب .

وقد قمت بزيارة ثرموبيليا عام ١٩٣٣ وشاهدت النصب التذكارى المقام هناك لتخليد ذكرى الأسبرطيين الذين ماتوا دفاعاً عن الممر وقد نقشت عليه العبارة التالية : —
« يا من تمرون من هذا الممر . . . أذهبوا وبلغوا أهل أسبرطة أننا هنا راقدون . . .
ولقوانينهم منفذون . . . » .

سقوط سيركسوس فى الفخ (أنظر اللوحة رقم ٤)

لقد سبق أن ذكرنا فى بداية هذا الفصل القانون الأسبرطى « النصر أو الموت » لذلك لم يصبح أمام الأسبرطيين غير الأسطول الذى أتهجه إلى الجنوب لأتقاذ اليونان ، ولكن

ظهرت مشكلة كيف يمدن أغراء الأسطول الفارسي للقتال في معركة بحرية مع اليونانيين
وفي منطقة من اختيارهم ؟

وقد وجد تيمستوكليس أن المياه أمام شواطئ جزيرة سلاميس هي أنسب مكان للمعركة ،
لأنها تقع عند مصب خليج أيليوسيس ولهذا الخليج مدخلان ، فالمدخل الغربي يقع بين كل من
ميجارا وسلاميس أما المدخل الشرقي فيقع بين كل من بيرايوس (بيريه) والبروز الناشئ من



سينورسورا ، وكان المدخل الشرقى للخليج مقسماً إلى قناتين ضيقتين جداً بواسطة جزيرة بيستياليا ، وعرض كل منهما لا يزيد عن $\frac{3}{4}$ ميل ومن الطبيعى أن الأسطول الفارسى الضخم سيتقيد فى هذه القنوات الضيقة بينما ستتاح للسفن اليونانية فرصة أفضل للقتال بواسطة ملاحيتها الماهرة . وعلى العموم لم يكن الفرس محتاجين إلى معركة بحرية أخرى ليؤكدوا انتصارهم ، ولكن ياترى هل سيتجاهلون أسطول اليونان . . . ؟

وعلى كل فكانت الروح المعنوية لليونانيين سيئة جداً بعد قيام سيركسوس بأجتياح أتيكا وذبح جميع المدافعين عن أكروبوليس الأثينية ، أما يوربيادس فأصابه التردد والحيرة . . . ولكن تيميستوكليس اتخذ قراراً جريئاً وربما يكون خطيراً ، فقرر اتباع خطة لأغراء الفرس لأسر الأسطول اليونانى ، فقام بالإبحار وترك القناة الواقعة بين سلاميس وميجارا بدون حراسة ثم بعث برسالة إلى سيركسوس فى ٢٢ سبتمبر عام ٤٨٠ ق. م يخبره فيها « لقد تملك الرعب من قلوب اليونانيين ، وبدأوا يفكرون فعلاً فى الانسحاب . . . » .

وسقط سيركسوس فى الفخ .

مهركة سلاميس (أنظر اللوحة رقم ٤)

فى تلك الليلة نفسها قام أسطول سيركسوس بغلق مضيق سلاميس وبدأت القوات الفارسية فى النزول إلى جزيرة بيستياليا ، ومع خيوط الفجر كان معظم الأسطول الفارسى منتشراً فى ثلاثة خطوط متتالية بين سينورسورا وبيرايوس (بيريه) .

بينما أرسل اليونانيون الأسطول الكورنثى لمواجهة السفن المصرية^(١) فى القناة الغربية ، بينما أسرعوا فى نشر باقى الأسطول^(٢) اليونانى فى القناة الشرقية بين مدينة سلاميس وهيراكلين بالتنظيم الآتى يوربيادس فى اليمين ومعه ١٦ سفينة أسبرطية ، وتيميستوكليس فى اليسار ومعه أكثر من نصف عدد السفن الثلاثية المجاديف ، أما باقى الأسطول فأخذ مكانه فى الوسط بين القائدين ، وحتى الآن لم يكن الأسطولان الفارسى واليونانى قد رأيا بعضهما ،

(١) كان ضمن الأسطول الفارسى بعض السفن المصرية

(٢) كان الأسطول اليونانى مكوناً من ٣٦٦ سفينة من نوع الثلاثى المجاديف و ٧٠

أخرى من نوع بنتكونتر « العرب »

ثم فجأة أفتتح الفرس المعركة ، وقد اضطروا بسبب ضيق القناة أن يقسموا أسطولهم إلى قولين بدلا من ثلاثة خطوط فألى اليمين كان الفينيقيون وإلى اليسار كان الأيونيون. وما هي إلا لحظات حتى بدأت الفوضى والأضطراب يشيعان في أسطول الفرس وربما نتيجة لهياج البحر أو بسبب حشدهم الزائد عن اللازم في القناة . وكانت تلك اللحظة مناسبة فاندفع فيها الأسطول اليوناني وبدأت المعركة . وكانت خطة السفن اليونانية ثلاثية المجاديف تقوم على أساس تحطيم مجاديف سفن الأعداء وبالتالي أفقادهم السيطرة عليها ، وتقوم بعد ذلك السفن اليونانية التي على الجانب الأيسر بأختراقها من الوسط والصعود على أسطحها. وبعد ذلك أقتربت هذه السفن من الشاطئ فدفعت سفن الفرس إلى الجانب الأيمن ثم إلى المنتصف مما زاد من أرباكهم وتخطيهم، إلا أن القتال كان سجالا بينهما ولكن بدا في الجانب الأيمن لليونانيين بعض المتاعب إلا أنه بعد ٧ أو ٨ ساعات من القتال المستميت بدأت تظهر بوادر النصر لليونانيين في كل منطقة القتال . فقد كان الاثينيون في الجانب الأيسر على وشك تطويق العدو من الخلف وأسرهم مما أدى أن الاثينيين كفوا عن القتال وبدأوا في الانسحاب وتم بعد ذلك تطهير جزيرة يستياليا وأنسحب الفرس إلى فاليروم ولم تعرف خسائر هذه المعركة على وجه التحديد وعلى كل لم تكن السفن اليونانية في حالة تسمح لها بمطاردة العدو فأتجهت سفنها إلى ميناء سلاميس . وإذا نظرنا مليا إلى معركة سلاميس ، لوجدنا أنها ليست بالمعركة غير العادية أو المثيرة تكتيكياً ولكنها كانت رائعة من الناحية الاستراتيجية . بعد ذلك ترك سيركسوس جزءاً صغيراً من جيشه في اليونان بدون أى أسطول يكفل له الأمن أو النقل أو الاتصال ، وبذلك تمكن الأغريق من هزيمة هذا الجيش في بلاتيا عام ٤٧٩ ق . م . وبعدها لم تتعرض ليونان لأى غزو من آسيا حتى القرن الخامس عشر بعد الميلاد .

حلف ديليان

ومن الجدير بالذكر أنه في القرن الخامس قبل الميلاد كانت أثينا من أعظم القوى البحرية . وفي عام ٤٧٨ ق . م تكون حلف ديليان يضم كلا من شعوب أيجه وأيونين اليونانية . وذلك بغرض طرد الفرس من منطقة أيجه ، وقد سمي هذا الحلف بأسم ديليان لأن أموالهم وخزائهم وضعت في جزيرة ديلوس المقدسة وكان على الدول الأعضاء في الحلف أن

تسهم أما بالمال أو بالسفن . وبعد فترة برزت أثينا وأصبحت تقود هذا الحلف .
وفي عام ٤٦٧ ق . م قام سيمون القائد الأثيني ابن ملتبادس بهزيمة الفرس هزيمة فادحة
عند نهر يوريميدون في مدينة بامفيليا ، وبعد هذا بعشر سنوات أرسل أسطول يوناني لمساعدة
الثورة التي قامت في مصر . وفي هذا الوقت اكتمل بناء الحصون في بيرايوس (بيريه) ولذا تم نقل
خزائن الأموال من جزيرة ديلوس المقدسة إلى أثينا في عام ٤٥٤ ق . م ، وبذا تحولت جميع
امكانيات حلف ديليان إلى أثينا ونتج عن هذا تكوين امبراطورية أثينية تضم أكثر من
١٥٠ ولاية تقوم كل منها بدفع حصتها في التحالف ، مما مكن أثينا من بناء أسطول عظيم .
وقد كتب توسيديدس قائلاً : —

« إن النمو الذي وصلت إليه قوة أثينا كان بمثابة جرس الأنداز للأسبرطة ، وجعله أمراً
لا مفر منه » .

وفي عام ٤٣١ ق . م اندلعت الحرب البيلوبونيسية (المورة) وكان على جميع ولايات اليونان
تقريباً أن تشترك في هذه الحرب خلال السبعة والعشرين عاماً التالية، ولكن خلال العشر سنوات
الأولى ظهرت أزمة كبيرة وأخفاق تام عانى منه أسطول أثينا في البحر بقيادة القائدين
بيريكليس وفورميو ، كما عانت منه أسبرطة وحلفاؤها تحت قيادة براسيداس وباجونداس
في البر . وبدأت هذه الحرب في الفتور في الفترة ما بين ٤٢١ — ٤١٨ ق . م ثم استطاع
الأسبرطيون أنزاع النصر في أكبر معركة برية في هذه الحرب في مانتينيا وردت أثينا على
هذا النصر بغزو صقلية عام ٤١٥ ق . م قاطعة بذلك خطوط الأمداد وتجارة العدو .

معركة « الميناء الكبير »

ولكن اللامبالاة وعدم الأكتراث التي تميز بهما القائد نيكياس الأغريقى مكنت
السيرقوصيين بقيادة جيليبوس الأسبرطى والقائد الأعلى للجيش في صقلية من محاصرة
الأسطول الأثيني وتدميره في «الميناء الكبير» في سيرقوصة ثم إبادة الجيش بعد ذلك . وتمكنت
أسبرطة بدعم من الفرس من بناء ١٠٠ سفينة حربية فكانتها من نقل مسرح الحرب إلى
شرق أيجة وهذا أدى إلى قطع خطوط الأمداد الأثينية إلا أن أثينا كانت تخطط لكسب
المعارك البحرية كيزيكس وبيزنطة وأرجينوس في الفترة ما بين ٤١٦ — ٤٠٦ ق . م ،

ولكن في عام ٤٠٥ ق.م فاجأ الأدميرال الأسبرطى ليساندر الأسطول الأثيني في أيجوسبوتامى (في الدردنيل) حيث ترسو ١٧٠ سفينة وأمكن أسرهم بدون أن يضرب سهماً واحداً. وفي عام ٤٠٤ ق.م وصل الضعف بآثينا إلى مداه وسقطت وتم للأسبرطيين الاستيلاء عليها، وأجبرت على قبول شروط السلام.. شروط ملؤها العار والذل، وهكذا أدى سقوط آثينا وإنقسام القيادات السياسية والثقافية إلى إنهاء أعظم فترة للحضارة اليونانية.

الحرب البيلوبونيزية المأورة

وأهم ما يميز الحرب البيلوبونيزية هو تاريخها الذى كتبه توسيديدس فكان أول مؤرخ واقعى، لأننا لو تصفحنا سجلات الأحداث التاريخية لآشور ومصر التى كتبها هيرودوت سنجد لها عبارة عن تسجيل غير كامل ومتحيز لهذه الأحداث، لأن هيرودوت كان بارعاً فقط فى سرد القصص والروايات، ولكن توسيديدس كان يصف ويشرح الأحداث بطريقة موضوعية وبوضوح وتعمق، وتحليله للعقلية الأثينية من «الخطبة الجنائزية» المنسوبة لبيريكلئس، علاوة على وصفه للكارثة التى حلت بآثينا فى صقلية، يعدان من أعظم التحف الأدبية والتاريخية.

وكانت فترة الحرب البيلوبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤ ق.م) بمثابة المجد للأسطول الأثيني ولذلك يمكن القول بأن بيريكلئس وضع كل ثقله وأعماده على الاستراتيجية البحرية فقط، ولم يدرك أن آثينا لن يمكنها تحقيق النصر فى هذه الحرب بدون قوات برية قادرة ومدربة، وقد أدى أهماله للتوازن بين القوى البحرية والبرية إلى الهزيمة النهائية لآثينا.

لم تحسم الصدام التقليدى بين كتائب المشاة، الحرب البيلوبونيزية، وكانت هذه الحرب أعظم الحروب القديمة التى شهدتها اليونان من حيث اتساع مجال عملياتها ومدة استمرارها. وفى هذا الوقت تطورت الحروب البرية أثناء الصراع الدائر بين أسبرطة وآثينا وثيبس (طيبة) للحصول على التفوق العسكرى والسيطرة على اليونان. وكانت ثيبس (طيبة) من أقدم المدن الأغريقية المحصنة وتقع على بعد خمسين ميلاً إلى الشمال من آثينا وقد هبأ لها أمنها العسكرى^(١) مركز قيادى، وأتاح لها أن تسود المدن المجاورة وتصبح إحدى القوى العسكرية الضخمة. وخلال الحرب البيلوبونيزية حدثت عدة حصارات، فنجد أن مدينة بلاتيا دافعت عن أسوارها ضد المقدوفات النارية الأثينية، كما

أستطاع أهل سراقوسة تدمير كبش الأثينيين بواسطة المخلوط الحارق^(١).

وفي عام ٤٢٤ ق.م كانت مدينة ديليوم اليونانية أول مدينة يستولى عليها بواسطة الهجوم وليس الحصار ، فقد أمكن حرق السياج الخشبي الذي تم بناءه حولها بسرعة نتيجة النيران المنفذة نحوه خلال أنابيب ضخ كبيرة .

أحدية الخيول

يمكن أن يقال أن هو ديونيسيوس الأول ملك سراقوسة كان أول يوناني برع في فن التخطيط للحصار (٤٠٥ — ٣٦٧ ق.م) . فقد جعل جزيرة أورتيجيا حصناً مفيماً أثناء دفاعه ضد القرطاجيين علاوة على بناءه قلعة حصينة على مرتفعات أيديولى . وفي عام ٣٩٨ ق.م أستولى على مدينة موتيا بإقامة حاجز فوق المياه^(٢) به أبراج للحصار تحتوى على كباشات ومنجانيقات وبعد عملية قذف مبدئية بدأ رجاله تسلق أسوار الحصن ليلاً . ويعتبر استخدام أبراج الحصار والمنجانيق^(٣) تطوراً ثورياً ، وكان هناك نوعان من المنجانيق : —

النوع الصغير ويقذف السهام والرمح بالإضافة إلى الأحجار التي يبلغ وزنها ثمانية أرطال إلى ارتفاع يصل إلى ٢٥٠ ياردة ، ثم النوع الكبير ويمكن قذف أحجار وزنها ٥٥ رطلاً . وحتى ذلك الوقت كان الأستيلاء على المدن لا يزال يتم بالوسائل العتيقة ومنها الحصار للتجويع والعلابور الخامس والخيانة .

وأثناء هذه الفترة أبتدأت الأسلحة في التنوع وزادت أهمية الفرسان والمشاة ذات التسليح الخفيف . وفي عام ٤١٥ ق.م أبحر نيكياس إلى صقلية ومعه ٣٠ حصاناً فقط ، ولكنه سرعان ما أكتشف حاجته الملحة لحماية قواته وبناء على ذلك جمع ٤٠٠ فارس من السكان المحليين وأرسل إلى بلاده يطلب المزيد وكان أجيلاوس الأسبرطى من أبرع قادة الفرسان في هذه الفترة ، ولكن الفرسان كانت تصطدم دائماً بمشكلاتها التقليدية عندما تكون الحملات في فصل الصيف حيث تشح المياه ويقل العلف بالإضافة إلى أن الأغريق لم يكن لديهم حدود

(١) مخلوط حارق مركب من القار والكبريت ونشارة الخشب ومسحوق الصمغ ونسالة الكتان .

(٢) كانت موتيا عبارة عن جزيرة .

(٣) أبراج الحصار والمنجانيق اخترعها الفينيقيون . (المغرب)

معدنية للخيول أو ركاب في السرج . أما أحذية الخيل فقد اخترعها سيلتس في القرن الرابع ق. م . وظهر الركاب في آسيا الوسطى في نفس الوقت . والجياد الأغريقية لم تكن قوية بدرجة كافية لتحمل ثقل الدروع ، وبالتالي كانت معرضة لضربات الحراب خاصة بعد أن انتهى الهجوم وتبدأ في الابتعاد ، وكانت الفرسان لا تلاءم أرض اليونان بل يلائمها المشاة المسلحة تسليحاً خفيفاً وليست الهوبليت . وقد تعلم الأثينيون عام ٤٢٦ ق. م درساً قاسياً عندما أريد ١٢٠ من الهوبليت تحت قيادة ديموستينس بواسطة حملة الرماح من رجال الأناضول . وبناء على ذلك قام ديموستينس بتشكيل قوات خفيفة ، وأدهش اليونانيين عندما استخدمها وتغلب بها على الأسبرطيين في سفاكتيريا عام ٤٢٥ ق. م .

المرتزقة

وكان أعداد المشاة المسلحة تسليحاً خفيفاً لا يكلف كثيراً ، وأزداد عددهم وتطورهم بزيادة نظام المرتزقة ، فالكثير من الأغريق الذين أشرعوا في حرب البيلوبونيز لم يكن لديهم أى مهنة أخرى بعد انتهاء هذه الحرب ، وبذا أصبحوا جنوداً محترفين ، علاوة على وجود مرتزقة أغريق من قبل ، وقد قاموا بحفر أسمائهم على أعمدة أبو سمبل وقد عمل بعضهم حرساً خاصاً لحكام الولايات الفارسية^(١) وزاد عددهم في هذه الفترة ، ففي عام ٤٠١ ق. م أستأجر قورش ١٠ر٠٠٠ أغريق ليقاتلوا معه عند قيامه بالثورة ضد أخيه أرتخشتر ملك الفرس . وفي معركة كوناكسا^(٢) ظهرت قوتهم وبأسهم إلا أن سوء استخدام قورش لهم أدى إلى خسارة المعركة فأضطر هؤلاء المرتزقة إلى الانسحاب من المعركة للنجاة بأنفسهم ، وقد كتب كسينوفون أحد قادتهم يصف انسحابهم المرير لمدة خمسة شهور نحو البحر الأسود ، وقد تعلموا الكثير خلال هذه الفترة عن الحرب خفيفة التسليح وخاصة حرب الرماح بقتالهم مع القبائل الجبلية أثناء شق طريقهم عبر الجبال . وفي الفترة ما بين ٣٩٥ — ٣٧٥ ق. م خدم ٢٥ر٠٠٠ أغريق كمرتزقة خارج اليونان ، وعاد الكثيرون منهم بما تعلموه من فنون الحرب مثال ذلك من عادوا من رودس بفن المقلاع ومن كريت بفن رماية السهام .

(١) يسمون بالمرزبانان .

(٢) كوناكسا بالقرب من بابل . (المعرب)

وبعد فترة وجيزة من سنة ٤٠٠ ق.م ، قام أفيكروتس في أثينا بتكوين مجموعة من المرتزة حاملي الرماح وكانوا يرتدون جركن^(١) ويحمل الجندي منهم سيفاً ودرعاً صغيرة ومدرين على المناورة السريعة ، وكانوا أكثر أنواع المشاة تأثيراً وفعالية عدا المعارك الضخمة في هذا الوقت . وفي عام ٣٩٠ ق.م . تمكنوا من إبادة ٦٠٠ من الهوبليت الأسبرطيين بالقرب من كورنيت .

الاحتياطي خفيف الحركة

وبظهور هذه الأنواع الجديدة من الأسلحة تغير الأسلوب التكتيكي وكان براسيداس الأسبرطي الذي ألتحق في موقعة أمفيبوليس عام ٤٢٢ ق.م آخر قواد الهوبليت العظام والذي أستخدم الأساليب القديمة . وفي عام ٤٢٤ ق . م أستخدم القائد الطبيي باجونداس أسلوب تكتيكي جديد هزم به جيش أثينا في ديليوم ، وذلك بتعميق الجناح الأيمن لقواته وأستخدم الفرسان كأحتياطي خفيف الحركة . وقد ظهرت اتجاهات جديدة في التكتيكات الحربية في اليونان ، فقد قام بلاتو برسم مهارة الإنسان في الحرب كما قام ثوسيديديس بتحليل الحروب التي كانت تجري من حوله ، وقد قال أكسينوفون : — « القيادة الحكيمة أن يهاجم العدو في أضعف نقطة » . وقال أفيكريتس : — « القوات خفيفة التسليح مثل الأيدي للإنسان والفرسان مثل الأقدام أما خط الجفود المدججين بالسلاح (المشاة الثقيلة) فمثل الصدر ، وعليه الدرع الواقية ، أما القائد فهو الرأس » .

وقد تكون جيش ديونيسيوس الأول ملك سراقوصة من مجموعات مندحجة من الهوبليت والمشاة الخفيفة والفرسان ، وكان يعتبر هذا تطوراً كبيراً في فن التنظيم .

الحشد في المكان والزمان المناسبين

وقد طور القائد الطبيي أيبامينونداس ، حرب المجموعات تطوراً ثورياً في معركة لوكترا عام ٣٧١ ق.م فتميز أسلوبه التكتيكي بالبساطة ، ولكنه أحتاج إلى براعة في التنفيذ ، وأعتمد أساساً على الحشد في المكان المناسب والحاسم للمعركة بدلاً من بعثرة القوات في كل مكان كما كان يحدث في الماضي عندما يوزع القائد كل قواته في كل مكان ، وبذلك يصبح ضعيفاً في أي مكان ، تماماً كالزبدة المنتشرة على قطعة من الخبز .

(١) جركن عبارة عن معطف طويل ضيق من الجلد بدون أكمام . (المعرب)

وقد علم أيامينونداس أن الجيش الأسبرطي يحشد قواته في الميمنة بغرض تطويق ميسرته ، وعلى ذلك قام أيامينونداس بمواجهة الأسبرطيين بخط مائل ، فأحتفظ بميمنته كما هي مع وضع قواته الضاربة في الميسرة على شكل طابور مكون من خمسين صفاً تحميه قوة من الفرسان ، وبذلك تمكن من مواجهة مفاجأة الأسبرطيين بمفاجأة مماثلة ، محققاً النصر في الميسرة مع أبقائه بأحتياطي كاف في الوسط والميمنة .

ونجد أنه حدث في موقعة لوكترا كما حدث في موقعة روكروى عام ١٦٤٣ ق.م ، فقد حطمت أسطورة « الجيش الذي لا يقهر » .

وفي السنة التالية حقق أيامينونداس نصراً بطريقة كانت بمثابة نظرية استراتيجية جديدة فقد تقدم بجيشه من ثيبس إلى لا كونيا محرراً ميسينيا (قاعدة القوة الاقتصادية لأسبرطة) وموحداً أركادياً ، وبذلك قام بعمل توازن لما بقي من قوة أسبرطة في الجنوب .

الاستراتيجية غير المباشرة

لقد ضعفت السياسة اليونانية بموت أيامينونداس عام ٣٦٢ ق.م ، إلا أنه في عام ٣٥٩ ق.م أصبح فيليب الثاني ملكاً على مقدونية وكان طموحاً وعلى استعداد دائم لانتهاز الفرص علاوة على وضوح بصيرته زد على ذلك أنه أدارى ومنظم من الدرجة الأولى .

وقد أدرك بفطنته أن كل دويلات اليونان التي تهدد كل منها الأخرى منذ ٧٠ عاماً ، لن تتحد لطرد أى غاز ولا سيما إذا كان جيشه قوياً . وكان أسلوب فيليب السياسى هو « الحيلة قبل القوة . . . ولكن استخدام القوة في النهاية » .

وفي عام ٣٥٠ ق.م أحتل فيليب إليريا^(١) وبعدها تراس (تراقيا) وئسالى . وفي عام ٣٣٨ ق.م أنتصر على ثيبس (طيبة) وأثينا في كايرونيا ثم بعد ذلك في بوثيويتيا التي أعطته أخيراً السيادة على اليونان ، وبعد انتصاره دعا كل دويلات الأغريق للأجتماع في كورنيث وأقترح عليهم الاتحاد تحت قيادته ، وذلك لغرضين : - أولاً لمنع أى نزاع داخل اليونان ، وثانياً للقيام بغزو الأمبراطورية الفارسية للأنتقام لما حدث في القرن الخامس ق.م من أنتهاك الفرس لليونان . وقد ظل هذا الاقتراح لوقت ما مجرد فكرة ، ورفضت أسبرطة فقط الاتحاد مع فيليب

(١) إليريا : وهى الآن يوغسلافيا . (المغرب)

عسكرياً . ولكن قبل أن يستطيع فيليب تنفيذ فكرته أغتيل عام ٣٣٦ ق. م وترك تنفيذ فكرته لمن يخلفه وهو الإسكندر أبنه .

ولم تكن هذه الفكرة هي كل ماورثه الإسكندر عن أبيه ، فكان جيش فيليب وأفكاره العسكرية هي الأساس الذى أعتمد عليه الإسكندر فى كل منجزاته فى المستقبل . وكان على الإسكندر أن يطور الفن العسكرى الذى وضعه فيليب فى الحرب ضد أثينا . وكانت الملامح الرئيسية لهذه الاستراتيجية تتركز فى اختيار الموقع الجغرافى المناسب مع خفة الحركة ، والتنسيق والتعاون بين الأسلحة المختلفة . وكان فيليب يطمع فى السيطرة على الشمال الشرقى والجنوب . وقرر تحقيق أطماع والده بأن يضرب عصفورين بحجر واحد ويحارب الأثينيين بقطع طريق الأمداد القادم من الدردنيل ، ولكنه فشل فى تحقيق غرضه لأن الفرس تنهبوا وساعدوا الأثينيين على فك الحصار الذى ضربه على كل من بيرثوس وبيزنطه ، إلا أن الاستراتيجية غير المباشرة تمت بطريقة عكسية ، فقد أستطاع التحكم فى سياسة الأثينيين بعد هزيمتهم فى كايرونيا ، فتحكم فى الدردنيل والطريق إلى أسيا الصغرى .

وتعتبر حملة فيليب فى كايرونيا نموذجاً لخفة الحركة ، فالتحركات الطويلة السريعة كانت نادرة فى عهد الأغريق ، فعندما حاول فيليب دخول بونيويا وجد أن كل من الطريق الغربى من سيتينيوم إلى أمفيسيا وأيضاً الطريق الشرقى من إلاتيا إلى كايرونيا مسدوداً ، فقام بأخفاء نواياه وتقدم أولاً إلى إلاتيا وتوقف هنا ، مما أدى أن المدافعين عن الطريق الغربى لم يأخذوا حذرهم ، وخلال الليل تحرك بمعظم قواته بسرعة نحو أمفيسيا وهاجم ١٠٠٠٠ من المرتزقة هناك وأبادهم وبذلك تخلص من الجانب الأيسر للخط الدفاعى الذى كان عائقاً أمامه لفترة طويلة ، والآن أصبح قادراً لبدء المعركة المفاصلة التى أعد لها مع أثينا وثيبس (طيبة) . ولكنه لم يتقدم فوراً نحو الشرق لمواجهة قوات العدو الرئيسية وبدلاً من ذلك أستدار بجيشه إلى الخلف إلى إلاتيا ، ثم هبط بسرعة خلال ممر بارابوتامى وأنقض على عدوه فى كايرونيا .

وقد أظهرت قيادته للمعركة ولأول مرة أن الجيش الأغريق قد تعلم كيف ينسق ويشرك كل أنواع الأسلحة فى أرض المعركة وبنجاح . وقد أصطف العدو فى هذه المعركة بخط صلب من الجنود بينما كانت المرتفعات والنهر تحمى جناحيه . قرر فيليب أحداث ثغرة فى صفوف

الأعداء ، فأصدر أوامره لكتيبة مدربة تدريباً عالياً في الجانب الأيمن بالأسحاب مما أدى أن جناح العدو الأيسر تقدم خلفها فحدثت الثغرة ، فدفع فيليب أبنه الإسكندر^(١) على رأس قوة من الفرسان في الثغرة بينما دخلت باقي قوات فيليب خلف الفرسان بسرعة وبقوة .

القوات المسلحة في عهد فيليب

كان الجيش المقدوني الذي قاده الإسكندر بعد وفاة أبيه فيليب يعد أحسن الجيوش تنظيماً وتسليحاً وتدريباً وبطريقة لم تشهدها اليونان في أي وقت سابق .

وقد وحد فيليب القوات المقدونية المحلية مع أتباعه الخاصة مكوناً قوة عظيمة تضم جميع الأسلحة وأصبحت وظيفة الجيش الأقليمي تكوين قاعدة وطيدة ينطلق منها الجيش الملكي (أتباعه الخاصة) بهجومه الحاسم ، وكان الجيش الملكي مكوناً من الخيالة المرافقة^(٢) والهيبياسبيست^(٣) وكان الفرسان المقدونيون فرساناً ممتازين ودورهم في المعركة القيام بضربات حاسمة ومفاجأة على أجنحة العدو أو في الثغرات التي تحدث بين صفوفه بعد أن تقوم القوات الأخرى بتثبيت العدو . وكان يوجد حوالي ثمانية كتائب من الفرسان المرافقة وتتكون الكتيبة من ٢٠٠ أو ٣٠٠ فارس تحت إمرة ضابط ، والفارس كان مسلحاً بدرع واقية وحرية قذف ، أما الهيبياسبيست فكانوا مشاة منتخبين وممتازين ومهمتهم الرئيسية في المعركة معاونة الفرسان وباقي الفرق ، ولكن في بعض الأوقات يتبعوا الفرسان أثناء السير الليلي السريع أو أثناء أقتحام الحصون .

وكانوا عبارة عن ٣ لواءات يتكون كل لواء من ١٠٠٠ مقاتل أما حرس الملك فيتكون من كتيبة من الفرسان المرافقة وكتيبة من الهيبياسبيست .

وكان الإسكندر يقود بنفسه الفرسان المرافقة وأحياناً يقود الهيبياسبيست أو القوات الأخرى ، وقاد ذات مرة مجموعات من الرماة .

أما الجيش الأقليمي ، فكان هيكله الرئيسي من المشاة ، ويتكون من ١٥٣٦ جندياً مقسمة إلى كتائب كل منها ٥١٢ مقاتلاً وهذه الكتائب تشكل في الحرب في صفوف كل صف مكون من ١٦ مقاتلاً ولكل كتيبة قائد . وكان فيليب أول من أدخل نظام تسلسل

(١) كان الإسكندر في ذلك الوقت عمره ١٨ عاماً .

(٢) يسمون صحابة الملك وهم الفرسان الكومبانيون .

(٣) الهيبياسبيست جنود من المشاة وتسليحهم يشابه تسليح الهوبليت . (المعرب)

الرتب بين الضباط في الجيش الإغريق ، وقام بتسليح قواته مثل الهوبليت ولكن بطريقة حديثة فجعل الدرع أصغر حجماً وأستبدل الرمح الذي طوله ٨ قدم بآخر طوله ١٣ قدماً وكان يطلق عليه أسم ساريسا . وكانت المشاة تقوم في القتال بمهمة ثانوية ولكنها حيوية جداً ، وذلك بتثبيت جيش العدو ، بينما تقوم الفرسان بتوجيه ضربات حاسمة . وقد تمكن فريق من الفرسان المرافقة التي أسسها الأسكندر من ضرب فرسان الفرس بفضل مساعدة المشاة لهم أثناء القتال . وقام فيليب والأسكندر بتكوين فرق من الشعوب المتحالفة معهم ومن أهم هذه الفرق الخيالة الثقيلة من ثيساليا والفرسان من حملة الرماح من تراشيا ورماة السهام من كريت وحملة الرماح من أجريان .

الاسكندر اول من استخدم مدفعية الميدان



ويعتبر الأسكندر أول قائد يدمج قواته الخفيفة الحركة بالأسلحة الأخرى ، وقد أثبتت مقدرتها عندما دمرت العربات الحربية للفرس ، كما أثبتت كفاءة في حرب الجبال ضد القبائل بينما أعتمد على المرتقة في حماية خطوط مواصلاته ، وفي السنوات الأخيرة من حروبه قام بتكوين قوة من فرسان البدو الفارسيين الرحل .

وأما وسائل الحصار التي قام بها الأسكندر فكانت مماثلة لوسائل ديونيسيوس الأول ، من الأبراج والمنجانيق والمقلع وأسقف الوقاية ، ولم يحدث أبداً أن خذلته هذه التجهيزات .

وكان الأسكندر أول قائد يستخدم مدفعية الميدان في جميع حملاته فكانت مقسمة إلى أقسام تحمل على ظهور الدواب . ولسوء الحظ ليس لدينا القدر الكافي عن الطريقة التي كان يتبعها الأسكندر في إمداد القوات . وعلى كل كان للأسكندر ١٣ من كبار الضباط يعملون في هيئة أركان حربه الخاصة بينما له مجلس إستشاري يتكون من ٨ آخرين . وكان يرافق جيش الأسكندر في غزواته المهندسون العسكريون ، ومهندسو التعدين والبحث عن المياه وعمال البناء وخبراء في البحرية ، ومهندسون معماريون مثل دينوقراطيس مصمم مدينة

الأسكندرية علاوة على خبراء فى المساحة والجغرافيا وعلم النبات والأطباء ومجموعة خاصة لأعمال السكرتارية بالإضافة إلى مؤرخ رسمى .

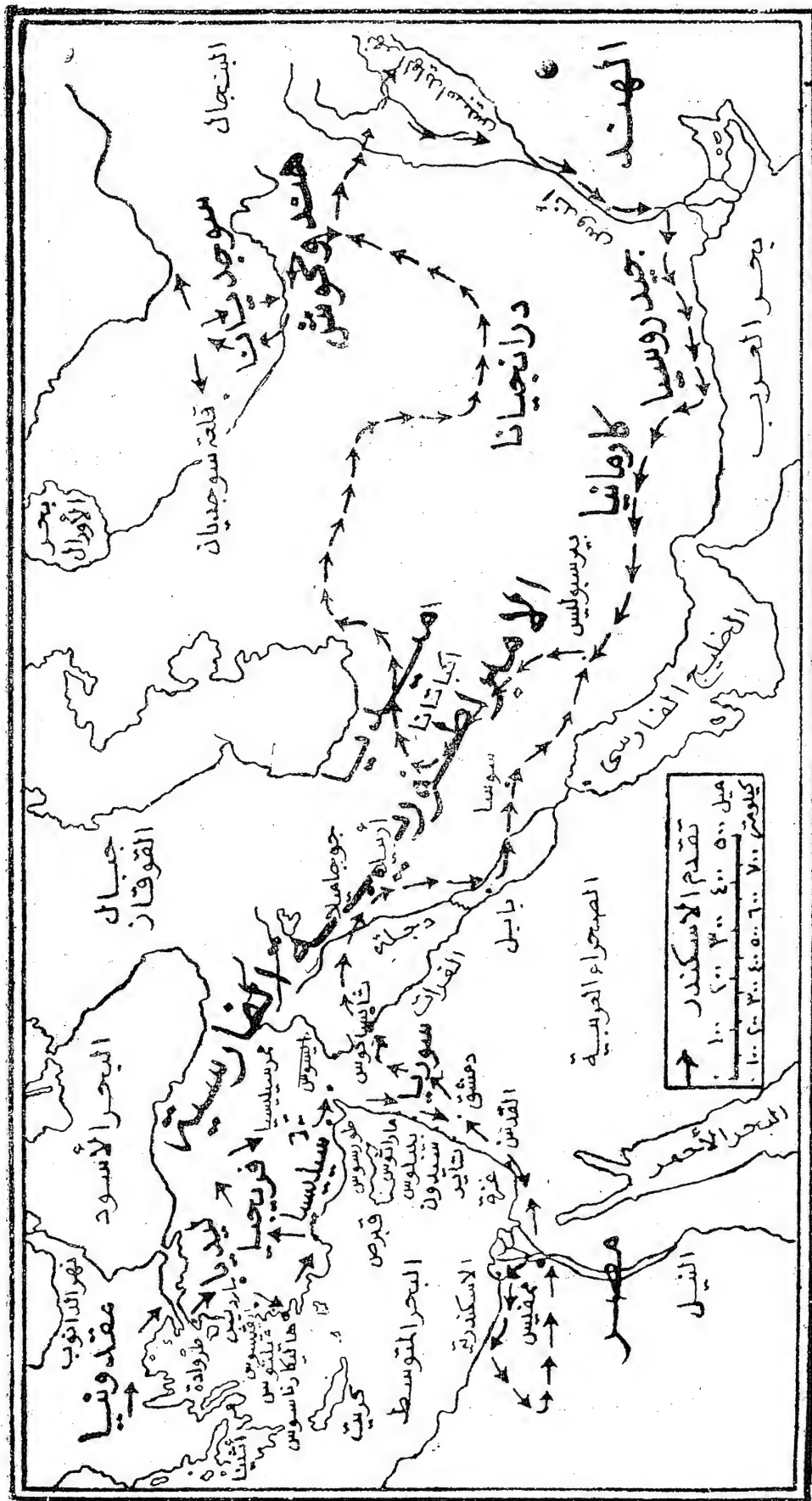
وأدت هذه الإستعدادات الضخمة أن أصبح جيشه من أقوى وأكفأ الجيوش فى هذا العصر ، فقد كان معداً للقتال فى جميع أنواع البلاد وضد أى نوع من الجيوش ويتلخص الأسلوب التكتيكي للجيش المقدوني بقيادة الأسكندر فى الترابط بين المشاة الصلبة والخيالة الخفيفة والثقيلة ، وأدى هذا إلى وجود تعاون وثيق بين القاعدة التى تقوم بها المشاة وبين القوات الضاربة المتحركة التى تقوم بها الفرسان مما أدى إلى أن أصبحت تمثل خطراً كبيراً على الفرس الذين يعتمدون فى قتالهم على الحشد العددي ولكن الأعداد وحدها لم تعد ذات جدوى فى مواجهة الثبات، والتعاون وقوة النيران وخفة الحركة والمفاجأة مع القيادة الحكيمة .

الاسكندر يغزو الامبراطورية الفارسية (أنظر اللوحة رقم ٥)

لقد أمضى الأسكندر الفترة ما بين ٣٣٦ إلى ٣٣٥ ق . م . فى تأمين قاعدته الداخلية . وأستطاع قهر البرابرة وإجبارهم على الإنسحاب إلى ما وراء الدانوب بعد أن غبره رجاله على أطواف من أغطية الخيام المحشوة بالقش ، كما أذهل الإغريق بمسيرته الطويلة من حدود الليريان حتى ثيبس (طيبة) فى ١٤ يوماً ، كما أساد به كاهن دلفى كقائد لا يقهر .

وفى ربيع ٣٣٤ ق . م قام بغزو آسيا الصغرى بواسطة ٣٠.٠٠٠ من المشاة و ٥.٠٠٠ من الفرسان و ١٦٠ سفينة ، ومن بين كبار الضباط الذين صاحبوه فى هذه الحملة ٤ من ملوك المستقبل وهم بطالميوس ليزيماخوس وسلوقوس وأنتوجينوس وكان عليه أن يغزو الأمبراطورية الفارسية من الدردنيل إلى البنجاب وقد شجعه على هذا الغزو ضعف دارا الثالث والفوضى التى كانت منتشرة فى أمبراطوريته بالرغم من وجود أعداد هائلة لدى الفرس وتعززها الثروة الطائلة . وكانت تكن مقومات نجاح الاسكندر فى قيادته الجريئة التى تفوق الخيال وشجاعته النادرة وحسن تدريب قواته مع تطويره للأسلوب الاستراتيجى الذى غطى منطقة مساحتها أكثر من ٥ مليون ميل مربع ، وقد مكنته كل ذلك من خوض أربع معارك كبرى والقيام بعملية حصاره الشهيرة .

اللوحة رقم ٥ - غزوات الاسكندر



لم يتوقع دارا أى غزو لبلادده ، ولذلك لم يلتق الأسكندر إلا بقوات فارسية ضعيفة ومعها بعض المرتزقة الأغريق وقد قام بتشكيلها بعض المسئولين الفارسيين واستطاع هزيمتهم هزيمة ساحقة عند نهر جرانيكوس وبذلك سيطر على غرب آسيا الصغرى . وكانت هذه المعركة هى أول انتصار رائع للأسكندر . وقد قاد بنفسه هجوم الفرسان المرافقة على ميمنة العدو .

وبعد ذلك واصل الأسكندر زحفه حول آسيا الصغرى عن طريق سارديس ، والمدن الساحلية (وهى ايفيسوس وميليتوس وهاليكارناسوس) ثم خلال فريجيا عندما اضطرت القبائل إلى التوجه للوديان الأكثر أمناً تحت وطأة الثلوج . وأخيراً هبط بسرعة فائقة ليفاجأ المدافعون عن بوابات سيليسيا وهم فى غفلة . وكان يهدف من وراء ذلك إلى تأمين خطوط مواصلاته قبل أن يوجه ضربته نحو الشرق البعيد مع تدمير الأسطول الفارسى القوى عن طريق إحتلال قواعده وتم له الاستيلاء على المدينة بطريقة كانت أبسط وأهدأ مما قام به من فتوحات ، وأكثر من ذلك فبعد الاستيلاء على المدينة أيدته الحركات الديمقراطية بها فدفع ذلك معظم أطقم البحرية الفارسية على الانشقاق على الفرس . وفى شتاء عام ٣٣٤ — ٣٣٣ ق. م قام الاسكندر بإيفاد جنود الأغريق المتزوجين إلى بلادهم فى أجازات ، وكانت هذه لمسة إنسانية ساعدته على كسب إخلاص جنوده وإكتساب حبههم .

ولأول مرة أخطأ الأسكندر فى تقديره عندما دفع قواته الرئيسية خلال سيليسيا إلى طرسوس مما أدى أن الملك دارا طوق الاسكندر وقطع خطوط مواصلاته ، ولكن فى نوفمبر عام ٣٣٣ ق. م وعند إيسوس^(١) تمكن الاسكندر من تحقيق نصر آخر عظيم بفضل فشل الفرس فى إستغلال تفوقهم العددي وقد انتهت مشا كل الاسكندر المالية عندما استولى على خزائن دمشق ، ولم يحاول الاسكندر مطاردة دارا بل ركز إهتمامه لتدمير ما تبقى من قواعد أسطول العدو فى فينيقيا وتم له أخضاع كل من ماراثوس ونيبلوس وسيدون بسرعة ، أما تايير (صور) فقد بدت صعبة إلى حد ما .

(١) إيسوس : تقع فى تركيا قرب أطنة . (المغرب)

حصار مدينة تاير (صور)

ويعتبر حصار مدينة صور مثال كلاسيكي لقوة وعزيمة ومهارة الإسكندر وظهرت براعته وذكائه في استخدام الأسلحة ، كما يعتبر أعظم حصار تم في العصور القديمة .

وبمقارنة ما قام به ديميتريوس ضد رودس عام ٣٠٥ ق.م فنجد أن الحصار كان على مستوى أوسع ولكن أقل في مهارته من حصار صور . فقد أوضح الإسكندر لقواده ضرورة احتلالها حتى يفقد الأسطول الفينيقي قاعدته فيضطر إلى اللجوء إلى اليونان أو يهيم على وجهه في البحر بدون وجهة معينة ، وبذلك سيتم تأمين كل من قبرص وأيجه ويصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً ، وعموماً فقد جلب حصار صور مشاكل جسيمة على الإسكندر ، لأنها مقامة على صخرة تبعد عن الشاطئ بنصف ميل ويحيطها سور طوله $2\frac{2}{3}$ ميل ويصل ارتفاعه في بعض أجزائه إلى ١٥٠ قدماً . وكان هناك ميناءان في الجانب الشرقي يطلق على الشمالي منهما ميناء صور نيان والجنوبي يطلق عليه المصري . في يناير عام ٣٣٢ ق.م . بدأ الحصار وقام الاسكندر وكبير مهندسيه ديايس في بناء سد من الشاطئ حتى الصخرة ، وكان العمل يتقدم بسهولة في أول الأمر إلا أن المياه أصبحت أكثر عمقاً وابتدأ العمال يواجهون المتاعب من العواصف والقذائف المنهمرة عليهم من الأسوار ومن السفن الحربية الصورية . وتمكن رجال الاسكندر بعد جهد شاق من تحريك برجين من أبراج الحصار حتى نهاية المرفأ . وكان ارتفاع كل من البرجين ١٥٠ قدماً ومغطى بالجلود لوقايته من السهام المشتعلة ، وقد قصفت مجموعات المنجانيق المدافعين عن الأسوار وكذا السفن المعادية ، فما كان من الصوريين إلا أن أرسلوا سفينتين حريق^(١) وأحرقوا برجى الحصار بينما أبحر بعض جنود العدو في قوارب صغيرة وأزالوا ما تبقى من السد .

وأصبح واضحاً للإسكندر أنه يحارب خصماً عنيداً قوياً ، وعندئذ أصدر أوامره ببناء سد أكبر ، ثم أبحر بنفسه شمالاً نحو صيدا لجمع الأسطول ، ولم يستغرق الأمر طويلاً حتى كون أسطولاً من ٢٢٠ سفينة لقتال الصوريين ، ولكن عندما عاد الاسكندر رفض أزميلك ملك صور أن يستأنف المعركة فحاصر الاسكندر المينائين بالرغم من صعوبة ذلك لعدم

(١) محملة بالكبريت والقار ونشارة الخشب . (المعرب)

وجود أما كن لرسو السفن . وفي ذلك الوقت تم بناء السد الجديد مع وضع بطارية مدفعية من أبراج الحصار بالمنجانيق وهذه البطارية لم تستطع قذف نيرانها إلا على بعد ٢٠٠ ياردة فقط ، ولذا قام الاسكندر بتركيب كباشات على ظهر السفن لتدور حول الصخرة القائم عليها المدينة لتقتحم الأسوار لكن للمرة الثانية كان الصوريون على أتم الاستعداد وقاموا بإلقاء الحجارة في مياه البحر حتى يصبح من المستحيل الأقتراب من الجزيرة وأمطروا المهاجمين بوابل من السهام النارية . وعلى الفور أحضر الاسكندر سفناً لتطهير المياه من الحجارة ومعها سفن حربية لحراستها ولكن الغواصين الصوريين قاموا بقطع حبال السفن المزيلة للعوائق ، وعندما أستبدل الأسكندر هذه الحبال بسلاسل حديدية ولم يستطع المدافعون الصوريون القيام بأى رد حيال هذه السلاسل وبعد ذلك أبحرت ١٣ سفينة حربية صورية من ميناء صورنيان وفاجأوا أسطول الاسكندر بينما كانت البحارة يتناولون أحدى وجباتهم على الشاطئ ، ودمروا بعض السفن ولكن الاسكندر قرر الرد على هذا الهجوم بحصار الميناء المصرى وقام بنفسه بقيادة بعض السفن ودار حول المدينة وفاجأ مؤخرة سفن العدو . وتمكنت السفن ذات الأبراج والمركب عليها الكباشات العثور على إحدى النقاط الضعيفة في السور . . . وبالتحديد جنوب الميناء المصرى . وفي الحال قام الاسكندر بهجوم شامل فدفع الأسطول القبرصى والفينيقي لتطويق الميناء وعندما وصلت هزيمة صور إلى حد مناسب ، أحضر الاسكندر سفينتي نقل محملتين بالكبارى ومجموعات أقتحام وأوصلا السفن بالسور المتصدع وقاد الاسكندر مع مساعده أدميتوس والحرس الملكى من قوات الهيبياسبيست ، وتبعهم كوينوس بكتيبة أخرى .

وسار الهجوم بنجاح حتى وصلوا إلى قصر أزميلك وتم احتلال المدينة وبذلك سقطت صور بعد حصار دام سبعة شهور .

وقد أستاء اليونانيون من الطريقة التى أتبعها الصوريون في ذبح الأسرى وقد ثأروا من الصوريين بأن قتلوا ٨٠٠٠ منهم مع بيع ٣٠٠٠ كعبيد .

سيرة آسيا

وبعد معركة أيسوس في عام ٣٣٣ ق . م . عرض دارا الصلح والتحالف ولكن

الاسكندر لم يعر هذا الاقتراح التفاتاً قائلًا لعدوه : « يجب على الملك أن يخاطبني بأننى سيد آسيا » وقدم دارا أثناء حصار صور شروطاً أكثر أغراء وهى ١٠.٠٠٠ تالنت^(١) ويد أبنته بالإضافة إلى وضع غرب الفرات تحت حكم الأسكندر .

وقد ألح بارمنيون على الاسكندر لقبول هذه الشروط ، لأن اليونانيين أعتقدوا أنهم وصلوا إلى غرضهم من الحرب وباحتلال آسيا الصغرى . ولكن طموح الاسكندر كان غير ذلك .

فقام أولاً بالتقدم خلال سوريا ومصر ، وأخضعهما بسهولة بالرغم من أصابة الاسكندر بجراح فى غزة ، ثم بعد ذلك تحول إلى فارس ليتحدى دارا على عرشه .

وفى صيف ٣٣١ ق . م أرسل الأسكندر قوة يقودها بارمنيون لقطع طريق المواصلات على الفرات عند تابساكوس مع إقامة جسر هناك وكان الاسكندر أول قائد يطبق نظام السير بمجموعات منفصلة والقتال بحشد . وفى يوليو عبر الأسكندر النهر بنفسه متقدماً نحو الشمال الشرقى إلى دجلة وتساقط أمامه الحرس الفارسى المتقدم . وفى ١٩ سبتمبر عبر باقى جيشه النهر ، وبعد ذلك بأربعة أيام أخبرته وحدات الاستطلاع بأن جيش العدو معسكر فى أحد السهول بالقرب من جوجاميل .

وكان يجب على الفرس استخدام أسلوب أنهبك العدو بالإغارة عليه بدلاً من الدخول معه فى معركة فاصلة ، إلا أن دارا قرر القتال فسر الاسكندر من ذلك قائلًا لقواته « هذه المعركة ستقرر مصير آسيا كلها » .

معركة جوجاميل (أنظر اللوحة رقم ٦)

وفى خلال العشرون شهراً التالية لمعركة إيسوس ، بذل الفرس مجهوداً كبيراً فى بناء جيش قوى ، ولكنهم نسوا منذ زمن طويل الأساليب الحربية القديمة التى ساعدتهم على إقامة إمبراطوريتهم فى القرن السادس ق . م علاوة على إنقراض الرماة المشهورين و ١٠.٠٠٠ من « الخالدين » الذين يمثلون صفوة المشاة الثقيلة مع صغر حجم الحرس الملكى . وعلى كل فقد كانت مشاتهم تضم الجنود غير المدربين أو رجال القبائل غير المنظمة . أما الفرسان

(١) تالنت عملة نقدية قديمة . (المعرب)

فكانت هي الوحيدة التماسكة في قواتهم وخاصة فرسان الحرس الملكي والكابادوسيانين وهؤلاء كانوا مسلحين برمح طاعن ودرع وسيف طويل . وأعاد دارا العربات الحربية التي لم تكن مستخدمة منذ زمن طويل ، لتسكلة فرق الفرسان ، ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت لتدريب سائقيها التدريب الكافي . وكما قال فولر فشكلة الجيش الفارسي تنحصر في وجود خفة حركة كبيرة ولكن يفقر للأثران مع تمرکز القيادة العليا للجيش في يدارا .

وقد أدى طبيعة وتشكيل الجيش الفارسي^(١) إلى التحكم في استراتيجيتهم في هذه المعركة، فقام دارا (داريوس) بتمهيد سهل جواميلا حتى تصبح الأرض ملائمة لتحرك العربات الحربية، وأستغل تفوقه العددي وأقام جبهة طويلة بجناحين قوين من الفرسان ، وقاد بنفسه منطقة الوسط المشكلة من المشاة المدربين والحراس من حملة الحراب بالإضافة إلى ٢٠٠٠ مرتزق أغريق من الهوبليت ودفع أمامه ١٠٠٠ فارس من الحرس الملكي وقوات الفرسان من الهنود والكاريانين . بينما كانت الميسرة تحت قيادة بيسوس مشكلة من مجموعات من الفرسان القادمة من المقاطعات الشرقية للأمبراطورية من بينهم ١٠٠٠ فارس مصفح يحملون دروعا ثقيلة ويطلق عليهم ساكا . أما الميمنة فكانت تحت قيادة ما زايوس ومشكلة من الفرسان الغربيين بما في ذلك الكابادوسيانين ووضعت المشاة في المؤخرة ووضعت ٢٠٠ عربية حربية في المقدمة أما في المركز فكان هناك ١٥ فيلا ، ولو عرف دارا كيف يستخدم الفيلة لأصبحت ذات فاعلية^(٢) ضد فرسان الأسكندر ، وعلى كل فليس لدينا سجلات تبين أن الفيلة أشتركت في المعركة أو لا أما الاسكندر فكان لديه جيش من أكبر ما قاده من الجيوش فقد جند عدداً من المرتزقة الأغريق ودعمهم بثلاث وحدات من الفرسان وكان مجموع قواته ٤٠٠٠٠ من المشاة و ٧٠٠٠ فارس وكان يدرك أن الفرس في بداية المعركة سيهاجموه بالفرسان والعربات الحربية ليطوقونه ، ولذلك أتخذ الأسكندر الدفاع لهجومى ، فكون جبهته من المشاة الصلبة القوية وعلى مواجهة تبلغ نصف طول جبهة العدو ومدعمة بصفوف عميقة حول الأجنحة . وكانت منطقة الوسط مقسمة إلى يمين ويسار وقلب

(١) تضمن الجيش الفارسي من ٢٤ جنسية .

(٢) من المعروف أن الخيل تخاف الفيلة وتجمج . (العرب)

وكان القلب به ستة لواءات من المشاة ولواء من الهيباسبديست أما في اليسار فكان بارمينيون يقود الفرسان الثيساليون ونصف الفرسان المتحالفين وبعض الرماة والمشاة المرتزقة أما في اليمين فكان فيلوتاس يقود القوة الرئيسية للفرسان المرافقين وفي مقدمتهم حملة الرماح ونصف الرماة المقدونيين . أما الجناح الأيسر (الميسرة) فكانت مشكلة من عدد كبير من فرسان الحلفاء أما الجناح الأيمن فشكل من الفرسان بما في ذلك الفرسان المرتزقة كسيندر المحنكين ، وبقية الرماة وحملة الرماح من أجريان وكان هناك خطر ثان من الهوبليت المرتزقة لمقاومة أى تطويق لأجنحة جيش الاسكندر . ووضع خلفهم الأمتعة ومهمات الجيش والأسرى تحت حراسة المشاة من جنود ثراسيا ، وعلى بعد ستة أميال كان يقع المعسكر الأغريقى .

وكانت خطة الاسكندر تتمشى مع مبدأ نابليون « دفاع سليم قوى وحذر جدا يعقبه

هجوم مضاد جريء وسريع » .

وفي الليلة السابقة للمعركة ، أصدر دارا أوامره بأن تبقى جميع القوات على أهبة

الاستعداد خاف أسلحتهم ، وكان هذا تصرف أحمق ، وغير ضرورى ، فقد أدى إلى أصابتهم

بالإرهاق قبل بداية المعركة . أما الأسكندر فبعد أن أعد جميع ترتيبات وتنظيمات المعركة

أمر براحة إجبارية لجنوده وناموا جميعاً نوماً عميقاً حتى صباح أول أكتوبر ٣٣١ ق . م

حيث بدأت المعركة ولاحظ الاسكندر أن فرسانه المرافقين يواجهون عربات الفرسان

الحرية ، فأمر بأنحرفهم نحو اليمين حتى تصبح مشاته في مواجهة العربات ، وهذا دفع

بفرسان الاسكندر إلى الطريق الممهد في السهل ، فقرر دارا أيقاف تقدم الفرسان من

جهة اليمين وإلا أصبح هجوم عرباته ليس له فائدة ، فدفع مجموعات من الساكا وخلفهم

الفرسان والبكتريانيون لمهاجمة الجناح الأيمن للأسكندر ونشب قتال ضار ، قام خلاله

الأسكندر بمهارة فائقة بتعزيز قواته بوحدات جديدة فأتت بنتائج فعالة في القتال وبعد قليل

حطم فرسان الاسكندر الفرسان وأجبروهم على الانسحاب وأبتدأ في ذلك الوقت هجوم

العربات الحربية الفارسية ولكنها فشلت فشلا ذريعا ، فقد قابلهم جنود الاسكندر بوابل

من الرماح مما جعل هذه العربات تتخبط وتتحرك في فوضى . وقد أصاب الخيل الفرع

والذعر وسقط معظم قواد هذه العربات صرعى ، وعندما وصل ما تبقى منهم إلى صفوف

جنود الاسكندر فتحت لهم هذه الصفوف ثغرة مروا من خلالها فاستقبلتهم مشاة الخط الثاني وعندما رأى دارا أن الاسكندر دفع باحتياطيه الموجود في الميمنة إلى المعركة ، قرر القيام بأكبر هجومين لتطويق جيش الأسكندر .

فدفع بجهة الفرسان الفارسية بالكامل للأمام ، وهنا كانت أخرج لحظات المعركة ، فبدلاً من أن يركز الجناح الأيسر الفارسي هجومه على فرسان الأسكندر المرافقين ، أندفعوا إلى أقصى اليمين حيث الجيش الأغريقي ، وترجع هذه الغلطة لسوء فهم الأوامر أو كما أرجعها فولر لرغبة الفرسان الفارسية لسلوك طريق الهجوم السابق ، كما حدث مع بعض الفرنسيين في معركة ووترلو ، أو ربما لأن الخيول لم تستطع مواجهة القذائف في المنتصف . وعلى أي حال فكانت النتيجة حدوث ثغرة في الجبهة الفارسية . وقد وصف آربان كيف أنهز الأسكندر هذه الفرصة في الحال قائلاً : — عندما كسر الخط الأمامي الفارسي على أثر إنطلاق فرسانهم لمساعدة قواتهم التي تحاصر الجناح الأيمن للأغريق ، ألتف الأسكندر على الفور نحو الثغرة ومعه فرسانه المرافقون وجزء آخر من الهيبياسبست وقادهم بنفسه في هجوم خاطف نحو دارا نفسه . وكان هجوم الفرسان المقدونيين تحت قيادة الأسكندر ضارياً وكان في بعض الأوقات يصل إلى القتال يداً بيد ، وأندفعوا بجرأة نحو الفرس يضربون وجوههم بالحرب وقد أشترك معهم بعد ذلك قوات مقدونية مساحية بالحرب الطويلة . وأصبح كل شيء مملوءاً بالرعب وقد قتل معظم جنود حرس الفرس وفر دارا من المعركة .

وعلى كل حال فالمعركة لم يتم كسبها بعد ، فعندما تقدمت القوات التي رافقت الأسكندر في هجومها الخاطف تركت ثغرة في جبهة الأسكندر مما أدى إلى أن أندفع خلالها فرسان الفرس شاطرين قوات الأسكندر إلى قسمين ، ولكن ظهرت حماقتهم عندما لم يعاونوا ما زايوس في القضاء على الجناح الأيسر للأسكندر ، وبدلاً من ذلك أندفعوا إلى الخلف ليجمعوا الغنائم . في هذا الوقت أحاطت قوات الفرس بالجناح الأيسر وحاصروا بارمينيون وقواته فأرسل نداءً يائساً يطلب العون من الأسكندر ، ووصل هذا النداء والأسكندر يتابع هجومه الناجح على يسار الفرس . وهنا ظهرت براعة الأسكندر الحربية وقيادته الحكيمة عندما قاد الفرسان المرافقين إلى الجانب الآخر من منطقة المعركة ، وهناك أشتبكوا مع قوات الحرس الفارسي

العائدين ومعهم فرسان الهنود والبارتيانيين وطبقاً لما قاله أربان : —

« وهنا حدث أعنف اشتباك بين الفرسان في المعركة كلها » وقد أدركت القوات الفارسية أن دارا قد تحلى عنها فضعت روحهم المعنوية وعزيمتهم ، وفي هذه الآونة قام الئيسالين في الجناح الأيسر بهجوم ثان ولكنه كان ناجحاً هذه المرة وسقطت الميمنة الفارسية ، بينما انسحب بيسوس بالجناح الأيسر . وفي الحال أصدر الأسكندر أوامره بالمطاردة الشاملة للفرس كما قال تارن : — « لقد أدرك الأسكندر أن العدو أصبح غير قادر على القتال » وقد ظل رجاله يطاردون الفرس لمسافة ٣٥ ميلاً حتى أربيلاً ، ولم يتوقفوا إلا لحظات قصيرة عند منتصف الليل للراحة .

نتائج معركة جوجاميل

تعتبر معركة جوجاميل من أعظم المعارك التي حدثت في العالم ، وليس هذا لأنها تعتبر مثال كلاسيكي لعبقرية الأسكندر الحربية ، ولكن لنتائجها التاريخية . فقد كشفت هذه المعركة عن قلب الأمبراطورية الفارسية وجعلت من الأسكندر سيد آسيا .

أما دارا فقد هرب في اتجاه الشمال الشرق داخل تلال ميديا ولم يفر الأسكندر ذلك ليحيد عن غرضه الرئيسي ويتبع دارا ، بل تقدم ليستولى على أهم مراكز فارس وهي بابل وسوسا وبيرسبوليس وقد استسلمت جميعها بسهولة . وعندما كان في الطريق إلى بيرسبوليس قام بحملة خاطفة ضد القبائل التي تسكن المرتفعات . ووصل الأسكندر إلى بيرسبوليس حيث أحرق قصر سيركسوس وأمضى شتاء هذا العام هناك ليؤكد أن اليونان أنتقمتم أنتقاماً كاملاً من فارس .

وفي صيف ٣٣٠ ق . م تقدم الأسكندر إلى إكباتانا في ميديا ليلحق بدارا . وهناك أنهى الأسكندر من مهمته وقام بدفع أجور من رغب من جنوده اليونانيين في العودة إلى بلادهم .

الاسكندر يهزو الشرق

شرع الأسكندر من أكباتانا في غزو الشرق ، فوصل إلى إندوس (نهر السند) في أوائل صيف عام ٣٢٦ ق . م بعد أربع سنوات من القتال . وقد قام هو وجيشه خلال الطريق بأعظم

البطولات الحربية ، فقد قطع ٤٠٠ ميل في ١١ يوما أثناء مطاردته لدارا في اتجاه كاسييا (قزوين) ثم قاد بعد ذلك ٥٠٠ من جنوده على ظهور الجياد لمسافة ٥٠ ميلا أخرى ليلا .

وفي عام ٣٢٩ ق . م هزم الأسكندر جماعات الرحل في أوكسوس بقذفهم بالمنجانيق المركب على القوارب ، ثم هاجمهم بعد ذلك بالفرسان الثقيلة ويعاونها مجموعات من الرماة وحملات الرماح لزيادة قوتهم وفعاليتهم .

وفي شتاء ٣٢٨ ق . م أسر رجال الأسكندر جميع من في قلعة سوجديان (بخارى) المقامة على صخرة عالية بتسلقهم للجبال المغطاة بالثلوج التي ترتفع ٣٠٠ قدم بواسطة الجبال . وفي عام ٣٢٧ ق . م عبر الأسكندر هندوكوش ومعه ٢٧٠٠٠ مقاتل ، وبعد قتال مرير مع قبائل باجور وصل في العام التالي إلى نهر الهاميداسيس . وهناك حقق انتصاره الرابع العظيم ، فقد عبر النهر عندما كان العدو يحشد قواته على الضفة المقابلة ، وبالرغم من فزع فرسانه من الفيلة إلا أنه تمكن من العبور بعد القيام ببعض الهجمات الخداعية ، وأخيراً حقق النصر في المعركة بعد قتال مرير .

ولكن بعد فترة وجيزة تمرد جيشه عليه عند نهر بياس ورفض التقدم أكثر من ذلك فقد مضى عليهم ثمانية سنوات منذ أن غادروا اليونان وقد قطعوا في هذه الرحلة ١٧٠٠٠ ميل وأنهكت الأمطار والحروب قواهم ، وتملكهم اليأس من احتمال نجاحهم في شق طريقهم قتالاً خلال الأعداء التي لاحصر لها من الفيلة والمحاربين الهنود ولذلك أنهارت معنوياتهم فأضطر الأسكندر إلى العودة بهم إلى الأندوس (نهر السند) ومنها إلى جیدروسيا (بلوخستان) وكارمانيا ثم إلى سوسا التي وصلها في ربيع عام ٣٢٤ ق . م . وتعد المرحلة الأخيرة لهذه الحرب أفظعها جميعاً ، فقد جرح الأسكندر ، ومات في يونيو عام ٣٢٣ ق . م . وكان عمره لايزال ٣٣ عاماً بعد حكم دام ١٢ عاماً وثمانية شهور .

الاسكندر القائد السياسي

وليس هناك شك في أن الأسكندر ينتمي إلى قادة الحرب العظام وهو معروف في التاريخ بأسم « الأسكندر الأكبر » وقد ترجمت سيرته إلى لغات معظم الشعوب من الصين حتى أيسلندا . فكان الأسكندر يقدم في كل حروبه معايير جديدة للإنسانية ، ففي ايفيسوس

عاون الديمقراطيون ، ولكنهم رفض السماح لهم بقتل الأقلية . وفي كاريبا أحترم نظام حكم المرأة في هذه البلاد فقام بتعيين امرأة في منصب الحاكم لأحدى الولايات . وكان يحرص دائماً على عدم إنتهاك الحرمات الدينية لأى شعب يحكمه ، وعلى سبيل المثال ، قام بإعادة بناء معبد ماردوك في بابل والذي دمره سيركسوس . ويقال أنه أسس ٧٠ مدينة جديدة في إمبراطوريته ، وتحمل مسئولية جعل الشرق الأدنى يعتنق الثقافة والأسلوب الأغريقى .

ولكن عظمة الأسكندر الأكبر تكمن في عدم تمسكه بفكرة أرسطو التقليدية والتي تنص على أن اليونان المتحضرة يجب أن تكون بعيداً عن باقى العالم المكون من البرابرة . وقد قال الأسكندر لكاهن آمون في مصر بأن الله هو « أب لجميع البشر » وهذا التصريح من الأسكندر يعتقد سير ويليام تارن أنه أول تصريح في العالم لمبدأ أخوة البشر جميعهم . وقد تمتعت جميع الشعوب التى حكمها الأسكندر بالأحترام والمساواة فى المعاملة وكان فى نيته أن يدمجهم فى جنس واحد . وقد تزوج الأسكندر ومعه ٨٠ ضابطاً من نساء فارسىات . وأقام الأسكندر عام ٣٢٤ ق . م فى أحد الأعياد وليمة كبيرة حضرها ما يقرب من ٩٠٠٠ ضيف يمثلون شعوب إمبراطوريته .

ولم يكتمل حلم الأسكندر فى تحقيق الأخوة الانسانية لأنه لم يستطع بناء كيان سياسى ثابت فى البلاد التى فتحها ، فعندما مات أنقصت عرى الإمبراطورية ، ولكن أصبحت وجهات نظره وآرائه من أهم وأعظم صور تطور المدنية والحضارة . وكانت أفكاره تشبه أفكار الرواقية^(١) وأفكار الإمبراطورية الرومانية وأفكار الديانة المسيحية .

وقد تبع موت الأسكندر صراع شديد بين خلفائه للاستيلاء على أجزاء من الإمبراطورية . وفى سنة ٣٠١ ق . م بعد موقعة إيسوس ظهرت أربع ممالك . ولم يتطور فن الحرب الإغريقى إلا بعد مما وصل إليه أبان عهد الأسكندر . وقد كان خلفاؤه قادة ممتازين وخاصة ليزماخوس وسالوقس ولندن جيوشهم أصبحت معقدة وصعبة القيادة ولم يعد هناك أى دروس يخرجون

(١) الرواقية : مذهب فلسفى أنشأه زينون حوالى عام ٣٠٠ ق . م ويتضمن أن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الأنفعالات ولا يتأثر بالمديح أو الذم ولا الحزن والفرح على أن يخضع للقضاء والقدر ويدون أى تدمير . «المعرب»

بها من المعارك . ففي خلال حملات الأسكندر في الهند تركت الفيلة أنطباعات مؤثرة على قاداته وذلك لفاعليتها الكبيرة على الخيول التي لم تستطع مواجهتها ، علاوة على تأثيرها المخيف على القوات التي تراها لأول مرة . لذلك أستطاع بايروس ملك إبيروس هزيمة الرومان عام ٢٨٠ ق . م في معركة هيراقلية ، ولكن يجب القول بأن النجاح في هذه المعركة لم يكن بسبب الفيلة فقط ، لأن الرومان أستطاعوا هزيمة بايروس في بينفنتوم عام ٢٧٥ ق . م وكان السبب في ذلك أن فيلا واحداً بعد أن جرح أصابه الذعر فاندفع بجنود داخل صفوف جنوده متسبباً في قتل عدد كبير منهم .

ولم ينجح بايروس في حل مشكلة تزايد وجود وعدم مورنه كتائب المشاة الأغريقية وبالرغم من الخسائر الفادحة^(١) التي تكبدتها قوات بايروس في معركة هيراقلية فلا يزال الألبانيون ينظرون إليه كأحد الأبطال القوميين .

(١) فقدوا في هذه المعركة حوالي ٤٠٠٠ جندي (المعرب)

وهكذا ينتهى الجزء الأول من الكتاب ، أما الجزء الثانى فضمنه مونتجمرى الآتى : —

- * هاننبال يغزو إيطاليا .
- * حرب العبيد الأولى .
- * صلب ستة آلاف سجين .
- * يوليوس قيصر و كليوباترا .
- * عقدة ماجينو .
- * النساء يستعدن المعارك .
- * القرابين لآلهة الألمان .
- * حائط الشيطان .
- * التنين البربرى .
- * سقوط الله .
- * حوت البوسفور .
- * النصر الخاوى .
- * ظهور محمد (عليه الصلاة والسلام) .
- * المسلمون قوم لا يقهرون .
- * الإسلام محرر الشعوب من العبودية .
- * النار الأغريقية .
- * الأمبراطور البيزنطى .
- * الملك شارلمان .
- * الفايكنج .
- * فتيات الدروع .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الثانى .

« العرب »

مؤلفات وتراجم للعميد فتحى عبد الله النمر

التمن	مؤلفات	
٢٠	التاريخ العسكرى فى ١٠٠ سؤال	*
نقد	الحرب العالمية الثانية فى شمال أفريقيا	*
نقد	فلسفة فن القتال (٥ أجزاء)	*
نقد	الروح المعنوية	*
نقد	مبدأ الحرب التعاون	*
	تراجم	
٣٠	الجزء الواحد	مذكرات روميل (٦ أجزاء) *
١٠	» »	قرارات هتلر المميته (٢ أجزاء) *
٣٠	» »	ثعالب الصحراء (٣ أجزاء) *
٢٥	» »	الحرب عبر التاريخ *

تطلب هذه التراجم والمؤلفات من مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة القراء

عدد

الجائزة الأولى : — ١٠ جنيهات مصرية ١

الجائزة الثانية : — ٣ جنيهات مصرية ٢

الجائزة الثالثة : — ٢ جنيه مصرية ٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحدها صحيح ، فعلى القارئ أن يضع علامة (✓) أمام الأجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم اختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والأجابات من الكتاب وتوضع في مظروف عليه طابع بريد وترسل في بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالي :-

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة
مسابقة « الحرب عبر التاريخ » .

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين في الجزء التالي للكتاب .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمري الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

المسابقة

٠٠٣٢٩٦

مربع

١ - النصر في المعركة يتحقق بـ

- ١ - الروح القتالية العالية للجنود والضباط في الميدان .
- ٢ - الضبط والربط والزمالة بين القوات .
- ٣ - التدريب الشاق على الأسلحة والخطوة المحكمة .
- ٤ - إذا هاجم العدو دولة ، فدقة الحرب تكون في ايدي

- ١ - العسكريين .
- ٢ - السياسيين .
- ٣ - العسكريين والسياسيين .

٣ - قبائل جوارا نديس تقيم في

- ١ - شرق أفريقيا .
- ٢ - جزر الأوقبانوس .
- ٣ - البرازيل .

٤ - في العصر القديم كانت الحرب تعتبر عند

- ١ - الشعب البولنديزى إحدى وسائل التسلية .
- ٢ - قبائل الماباي من الطقوس الدينية .
- ٣ - القبائل الهندية طاقهم ودينهم وكرامتهم .

٥ - أول من استخدم العرب الحربية

- ١ - المصريون .
- ٢ - العراقيون .
- ٣ - الآشوريون .

٦ - بدأت حرب التحرير المصرية ضد الهكسوس من

- ١ - مدينة طيبة عام ١٦٣٠ ق . م .

- ٢ — مدينة أفارس عام ٢٢٠٠ ق. م .
٣ — مدينة سيمنة عام ١٧٤٠ ق. م .

٧ — في عهد المملكة الحديثة تم توحيد النوبة وليبيا مع مصر بواسطة

- ١ — تحتمس الأول .
٢ — أمينحوتب الأول .
٣ — آمحس .

٨ — كانت معركة مجدو بين كل من

- ١ — آمحس والهكسوس .
٢ — تحتمس الثالث وملك قادش .
٣ — رمسيس الأول وملك الحيثيين .

٩ — أول من برع في فن التخطيط للحصار

- ١ — يوليوس قيصر .
٢ — الأسكندر الأكبر .
٣ — هو ديونيسيوس الأول .

١٠ — د الخيلة قبل القوة .. ولكن استخدام القوة في النهاية ، من قال هذا

- ١ — أجيلوس الأسبرطي .
٢ — فيليب .
٣ — الأسكندر المقدوني .

الاسم	_____
العنوان	_____
_____	_____
_____	_____

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	تقديم الحرب
٧	المقدمة للمؤلف
٩	مصادر الكتاب
١٢	الفصل الاول : طبيعة الحرب
١٢	* الصدام المساح وتقدم الإنسانية
١٣	* لماذا تنشب الحرب ؟
١٤	* ماهي الحرب ؟
١٧	* القيادة والخيطة الذهبي
١٩	* المخابرات والخدمة السرية
٢٢	* الحرب الشاملة
٢٤	الفصل الثاني : القيادة
٢٤	* العلم وفن القيادة
٢٩	* مشكلات الحرب
٣٠	* مناورة أفقار التوازن
٣١	* الثقة بين القائد والجنود
٣٦	* الرفاهية وتأثيرها على الدول
٣٩	الفصل الثالث : الحرب في العصر البدائي
٣٩	* حرب النمل
٤١	* العصر الحجري في القرن العشرين
٤٤	* أول صراع بين الحضارات في التاريخ
٤٧	* أكبر الأمبراطوريات التي عرفها العالم

تابع الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥١	* التاريخ السياسى للحرب
٥٢	* أحس والمكسوس
٥٣	* تنظيم القوات المسلحة المصرية
٥٤	* معركة مجدو
٥٩	* معركة قادش
٧٣	* الحرب النفسية قبل الميلاد
٧٧	الفصل الرابع : الأغريق القدامى
٧٧	* النصر أو الموت
٨٧	* معركة سلاميس
٩٠	* حرب المورة
٩٤	* الأستراتيجية غير المباشرة
٩٧	* الإسكندر أول من استخدم مدفعية الميدان
١٠١	* حصار مدينة صور
١٠٣	* معركة جوجاميللا
١٠٨	* الإسكندر يغزو الشرق
	الخارائط :
٤٥	* اللوحة رقم ١ : الأمبراطورية المصرية والآشورية والحيثية
٦٠ إلى ٦٣	* اللوحة رقم ٢ (١ ، ب ، ج ، د) : معركة قادش
٧٦	* اللوحة رقم ٣ : العالم اليونانى القديم
٨٦	* اللوحة رقم ٤ : معركة سلاميس
٩٩	* اللوحة رقم ٥ : غزوات الإسكندر
١٠٤	* اللوحة رقم ٦ : معركة جوجاميللا

الحرب عبرى التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

الجزء الثانى

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فحى عيسى النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

كتاب المخبرات الحربية

رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

رقم الايدع دار الكتب ٢٠٢٦ لسنة ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة

٥ شارع المصنع بالربيعات ٨٦٤٨٧١

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١١٣	الفصل الخامس : التوسع الروماني
١١٣	* الحشد في فرق كاملة
١١٩	* هانيبال يغزو إيطاليا
١٢٥	* هانيبال يقابل سيبيو
١٣٣	* حرب العبيد الأولى
١٣٦	* سولا الدكتاتورى
١٣٧	* صلب ستة آلاف سجين
١٤٢	* يوليوس قيصر يغزو بريطانيا
١٤٥	* يوليوس قيصر وكليوباترا
١٤٨	الفصل السادس : الدفاع الروماني .. والهجمات البربرية
١٤٨	* عقدة ماجينو
١٥٢	* النساء يستعدن المعركة
١٥٣	* القرايين لآلهة الألمان
١٥٨	* حائط الشيطان
١٦٦	* التنين البربرى
١٧٣	* أعظم الشعوب في فن الحرب
١٧٦	* سقوط الله
١٧٨	* أتيل وعروسة الجديدة
١٨١	* حوت البوسفور
١٨٢	* النصر الخاوى

تابع الفهرس

الصفحة	الموضوع
١٨٥	<u>الفصل السابع : الحروب في اوائل العصور الوسطى</u>
١٨٥	* ظهور محمد (عليه الصلاة والسلام)
١٨٦	* المسلمون قوم لا يقهرون
١٨٧	* الإسلام محرر الشعوب من العبودية
١٩٠	* النار الأغريقية
٢٠٤	* أسر الإمبراطور البيزنطى
٢٠٦	* الملك شارلمان
٢١٤	* الانفجار المثير للفايكنج
٢١٠	* فتيات الدروع
	<u>الخرائط :</u>
١٢٠	* اللوحة رقم ٧ : حملة هانيبال وسيفيو
١٢٣	* اللوحة رقم ٨ : معركة كانا
١٢٩	* اللوحة رقم ٩ : معركة زاما
	* اللوحة رقم ١٠ : الإمبراطورية الرومانية في عهد
١٤١	يوليوس قيصر
	* اللوحة رقم ١١ : حدود الإمبراطورية الرومانية والهجرات
١٥٦	البربرية ٤٠٠ ب.م
١٨٧	* اللوحة رقم ١٢ : فتوحات العرب في القرن السابع والثامن
١٩١	* اللوحة رقم ١٣ : معركة القسطنطينية البحرية
	* اللوحة رقم ١٤ : إمبراطورية الفرنجة وغارات الفايكنج
٢٠٨	والمجريون والعرب

الفصل الخامس

التوسع الروماني

الحشد في فرق كاملة

(أنظر اللوحة رقم ٧)

أننا نتحرك الآن إلى الأمام . . . نحو العصر الروماني ، وتشير لنا القصة التي نحن بصددنا إلى أن الرومان قد امتلكوا القدرة السياسية والإدارية التي مكنتهم من تعزيز فتوحات قادتهم لصالح الجمهورية التي صارت فيما بعد إمبراطورية ، والجدير بالذكر أن هذه القدرة افترقت إليها اليونان القديمة وسنرى أن كلا من التطور الاجتماعي والتنظيم العسكري الروماني قد أثر كل منهما في الآخر بعمق لذلك أخذت روما تتحول من مجرد ولاية إلى إمبراطورية ، ومن الممتع أن نلاحظ في الحروب التي شنتها روما ضد خلفاء الاسكندر الأكبر استخدامهم للكتائب المشاة اليونانية في أول الأمر ولكن ظهر لهم أهمية وفائدة القتال بحشد وبتشكيل مفتوح أكثر من التشكيل اليوناني المنظم ومن هنا ظهر أهمية القتال بفرق كاملة .

وقد لمعت روما في عام ٧٥٣ ق . م كما تقول الأسطورة ، وكانت في ذلك الوقت مجرد ولاية من بين عديد من الولايات ، ولكنها بعد مرور ٥٠٠ سنة سادت وسيطرت على شبه الجزيرة الإيطالية وبعد ذلك بـ ٧٥٠ عام حكمت كل غرب أوروبا ودول البحر المتوسط وكان ظهور روما كدولة بارزة في إيطاليا شيئاً طبيعياً وليس حدثاً عرضياً كالمثل القائل « البقاء للأصلح » فكان هذا الشعب يؤمن بنفسه وأهمية الدفاع عن كيانه ، فأدى هذا إلى أن أصبح لرومان ذوى ميول حربية ونزعات عدوانية .

وعلى مر لقرون هزموا كلا من التسكانيين والفلشييين والسمنييين ، وصدوا هجوماً الغال وردوهم على أعقابهم ، ولكن في عام ٣٢١ ق . م هزم الرومان هزيمة منكرة في كودين فوركس إلا أنهم انتقموا بالانتصار على اتحاد كل من الغال والسمنييين في موقعة سنتينوم عام

٢٩٥ ق . م ، مما أعطى روما السيادة على إيطاليا الوسطى . وفي عام ٢٧٥ ق . م هزموا الأبيروس في موقعة بينفنتوم وهذا حقق السيطرة على جنوب إيطاليا .

ولا نعرف سوى القليل عن الجيش الروماني قبل القرن الرابع ق . م ويعتقد أن سيرفيوس توليومس ملك تسكاني ، قام في القرن السادس ق . م ببناء أولى تحصينات روما مع تنظيمها لتكون قاعدة عسكرية . وأصبح الرومانيون دولة عسكرية ، فجميع الذكور ما بين سن ١٤ و ٤٦ يعتبرون صالحين للخدمة العسكرية أما الرجال ما بين ٤٦ و ٦٠ فيعتبرون الحين للاستدعاء كاحتياط .

وكان لهم مجلس^(١) يدعى للاجتماع في ميدان مارس بواسطة النداء في النفير ، وكان هذا الميدان يقع خارج أسوار المدينة . وكان المواطنون مقسمين إلى درجات . . . الفرسان وهؤلاء عبارة عن درجتين عليا وصغرى وهذا يتوقف على مسئولية الأفراد من حيث الخدمة ودفع ضريبة الحرب . وكانت الدرجات الصغرى تمثل القوة العسكرية الرئيسية وكان الأغنياء منهم يلبسون رداء الهوباييت الكامل مع خوذة برنزية ويسلحون بدرع واقية للصدر والأرجل وحربة وسيف ، أما الفقراء منهم ويطلق عليهم فيليت^(٢) .

وكان التكتيك المستخدم في ذلك الوقت مقاربا لما يستخدمه الهوبليت ، أما الفرسان فكانوا عبارة عن مشاة راكبة فقط .

وكان على الرومان أن يبدأوا من جديد في تكوين جيش متطور بعد الهزيمة الفادحة التي تلقوها على أيدي الغال عند مهر أليا عام ٣٩١ ق . م . وفي الجيلين اللاحقين وبوحي من ماركوس فيوريوس كاميليوس أعيد تحصين روما كما أعيد تنظيم جيشها الذي كان مكوناً من المجندين من السكان وتدفع لهم الأجور عند القتال الفعلي .

وقد حلت الفرق الكاملة بدلا من الكتائب وأصبحت المشاة الثقيلة هي القوة الرئيسية للفرقة ، ولكن الفرقة كانت تضم في تنظيمها مجموعات من الفرسان والفيليت .

(١) المجلس : — يقصد هنا مجلس يضم جميع الأفراد المتخصصين في الحرب من جنود وصناع للسلاح والابواق وخلافة . « العرب »

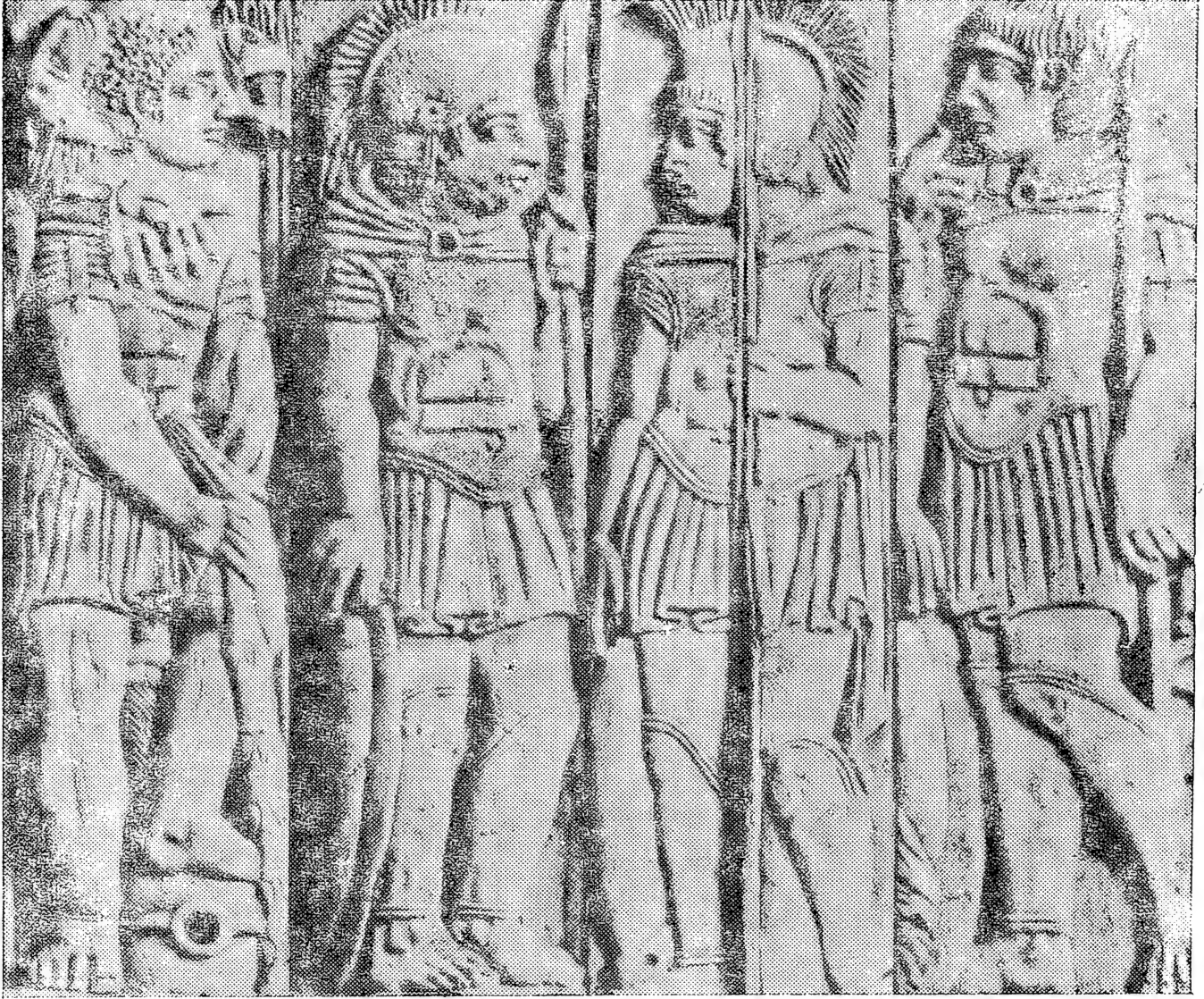
(٢) الفيليت : — هم جنود المشاة الخفية من المواطنين الفقراء وتسليحهم المقلاع والحجارة فقط بدون أي دروع . « العرب »

(د)

(ج)

(ب)

(أ)



المشاة الرومانية في القرن الرابع قبل الميلاد
(أ، ب، ج) المشاة الثقيلة . (د) المشاة الخفيفة (فيليت) .

وتشكل الفرقة المشاة الثقيلة في ثلاثة خطوط ، الخط الأمامي أو المقدمة والخط الرئيسي ثم خط المؤخرة وكل خط من هذه الخطوط الثلاثة يضم عشر سرايا ، أما المشاة الخفيفة فتنتشر بين هذه السرايا ، وكانت هذه الفرقة توزع سراياها على شكل مربع بحيث تغطي السرايا الخلفية الفواصل بين السرايا الأمامية ، وكان عمق الخط الواحد أربعة صفوف من الجنود . ويضم الخطين الأولين على ١٠ سرايا أى كل خط به ١٢٠٠ جندي بينما المؤخرة (الخط الثالث) تحتوى على ٦٠٠ جندي ، وتوضع الفرسان على الأجنحة . وكانت الفرقة بها ٣٠٠ فارس مشكلة في ١٠ فصائل ، وفيما بعد ارتفع عدد جنود الفرقة المشاة حتى وصل إلى ٦٠٠٠ جندي عندما تم تجنيد أعداد كبيرة من حلفاء الإيطاليين .

وكان الجنود في الخط الأول والثاني يحملون أنفسهم بخوذات نحاسية ودروع واقية للصدر بالإضافة إلى دروع^(١) نصف أسطوانية مثلثة الشكل ويتسلحون برمحين قصيرين وخنجر طويل وسيف^(٢) طوله قدمان مزدوج الشفرة . وكان جنود المؤخرة يتسلحون بنفس الأسلحة ماعدا الرمحين وقد حل محلها حربتان . وقد تطور تسليح الفيليت فأصبح سيفاً ورمحين قصيرين ودرعاً مستديرة قطره ٣ أقدام ويلبسون في رأسهم غطاء من جلد الذئب . ومن المحتمل أن يكون الرومان نقلوا صناعة الرماح^(٣) عن الغال . وفي بعض الأحيان كان هذا الرمح يقذف بمساعدة سير مثبت خلف مركز الثقل ، وعند تحرير هذا السير ينطلق الرمح طائراً في حركة حلزونية فزيد من مجاله ودقته ، وقد بطل العمل بهذا الجهاز في القرن الثاني ق . م عندما لم تتطلب التكتيكات سوى القذف القصير الذي لا يتجاوز ٢٥ ياردة . أما وحدات الخيالة في الفرق فكانت فقيرة التسليح ، فلم تتجاوز درعاً من الجلد وحربة وسيفاً .

(١) كان يصنع من طبقتين من الخشب ملتصقتين ببعضهما ، وعليهما غطاء من جلد القنب ، بينما الاطراف العليا والسفلى مكسوة بطبقة من الحديد حتى تقاوم السيوف الطويلة .

(٢) لقد نبه هذا السيف من أسبانيا .

(٣) الرماح : — طوله ستة أقدام ذات رأس حديدي مدبب على شكل الشوكة حيث تفقد في درع العدو ومن الصعب نزاعها مما يؤدي إلى أعاقه العدو من استخدام أسلحته « العرب »

الفرقة المشاة في الهجوم

وكانت الحكمة من تشكيل الفرقة على هيئة مربعات هي إتاحة المرونة في الدفاع والسهولة في الهجوم حتى يمكنها مواجهة المشاة اليونانية الصلبة أو جحافل الغال . ويبدأ هجوم الفرقة المشاة بدفع الفيليب لمناوشة العدو وتغطية تقدم المشاة الثقيلة ، وعندما تدخل قوات الخط الأول مجال المعركة تطلق رماحها ثم تلتحم مع العدو بالسيوف وخلال القتال تدعم قوات الخط الثالث قوات الخط الأول بالمقاتلين بدلاً ممن قتلوا أو أصابهم الإرهاق وكان قادة الفرق مدربين على إحلال خط كامل محل خط آخر مع القيام بهجوم جديد ضد العدو ، أما إذا ساءت الأمور ، فتندمج قوات الخط الأول مع قوات الخط الثاني في خط واحد ويتراجعوا خلال الفواصل بين مجموعات قوات الخط الثالث التي تقاتل في ذلك الوقت وهي ثابتة . أما الفرسان فكانت تستخدم للاستطلاع والمطاردة ولم يكن لها دور رئيسي في التكتيك الكلاسيكي للفرقة ، وفي الحقيقة كانت الفرسان تقاتل مترجلة وليس من على ظهور الخيل ، وقد استطاع الرومان تطبيق هذا الأسلوب بكفاءة نتيجة للتنظيم والتدريب العالي للقوات وكان يوضع في الخط الأول الجنود المدربين من الشباب حتى تكون القوة الضاربة أكثر تأثيراً وتركيزاً ، بينما يوضع الرجال الأكبر سناً في الخط الثالث ليكونوا بمثابة احتياطي للصفوف الأمامية عند الحاجة . وكان الرومانيون يقومون دائماً بهجوم نهائي بقوات جديدة محتفظة بنشاطها فيتحقق النصر . وكان استخدام أسلوب الثلاثة خطوط في الهجوم مفيداً جداً بالنسبة للروح المعنوية للجنود ، فهذا النظام كان يضمن للجنود بعيدين عن منطقة الخطر لأطول وقت ممكن ، كما كان يعطى فرصة كافية للجبهة المهزومة للانسحاب بأمان .

وقد وصف فولر الجيش الروماني على أنه أعظم جيش دفاعي^(١) في التاريخ فكانت للفرقة المشاة معسكر محصن يقوم بدور المؤخرة لها ، وإذا دعت الضرورة كانوا يبنون معسكراً جديداً في نهاية كل يوم حتى ولو كان ذلك على حساب إختصار وقت السير في الصباح إلى ثلاث أو أربع ساعات حتى يستغلوا فترة بعد الظهر في عمليات الحفر . وكان حجم وشكل المعسكر

(١) يقصد فولر أنه كان أعظم جيش يقيم الخنادق والتحصينات أثناء القتال « المرب »

يختلف تبعاً لطبيعة الأرض ، ولكن في الغالب يبنى على شكل مربع كبير وبدرجة تسمح باستيعاب فرقتين من المشاة ويجرى تحصينه بالأسوار والخنادق والمتاريس ، وكان الرومان يتحملون مشاقاً في بناء المعسكرات لسببين أولاً : — لأنهم عرفوا قيمة الأمن والراحة . فكانوا يعضون معظم وقتهم في تلك المعسكرات للتدريب والتمريعات الرياضية ليحافظوا على لياقتهم البدنية وينموا قدراتهم على الثبات مع الضبط والربط ، وكانت هذه الصفات ضرورية لتسكتيك الفرقة والتي كانت على أى حال صفات طبيعية في جنود الرومان .

وثانياً : — عندما تخوض الفرقة القتال يجب أن يكون بالقرب منها منطقة محصنة تستطيع الانسحاب إليها إذا ساءت الأمور ونتيجة لذلك لم تصل هزائهم إلى حد الكارثة . وكان جنود الرومان أثناء السير يحملون بخلاف أسلحتهم حملاً ثقيلاً يتضمن أدوات الحفر ومعدات الطهي . وكان غذاء الجنود الرئيسي داخل المعسكرات عبارة عن الخبز^(١) ولم يحصلوا على تغذية جيدة ، بينما القليل جداً منهم كان يتناول اللحم .

القيادة

كانت قيادة الجيش في يد قنصلين ينتخبان سنوياً وهما بصفة عامة من السياسيين وليس لهم دراية بفن القيادة العسكرية . وكان الغرض من هذا الازدواج الغريب في القيادة هو التقليل من احتمال قيام دكتاتورية عسكرية ، ولكن كان هذا النوع يعتبر من الحماقة العسكرية لأن الانتخاب السنوى أدى إلى صعوبة استمرار سياسية ، ووحدة علاوة على أن أعمال القيادة اليومية كانت تصطدم دائماً بحائط ضخمة بسبب اختلاف وجهتي نظر القنصلين المنتخبين ، وكان يحل هذا المشكل بانتخاب قائد دكتاتوري لفترة الطوارئ .

وفي القصص الشعرية لروما القديمة روى ما كولى عن معركة بحيرة ريجيللوس عندما لم تسر الأمور كما ينبغي : —

« في الأوقات العصيبة ، من الأفضل أن يتحمل شخص واحد المسؤولية ، فيجب أن يختار قائد دكتاتوري ليطيعه كل الناس ، وذلك لمدة ستة شهور فقط وليس أكثر » .

(١) كان الخمر غير مخبز ومصنوع من الدقيق ومطهى على حجارة ساخنة أو الحجر .

وتلك نصيحة ممتازة، وربما تكون أكثر سهولة في العالم اليوم، على أن ينتخب ديكتاتور لمدة ستة شهور فقط .

ولم يكن لدى الرومان القدامى طبقة من الضباط الأرستقراطيين . وكانت السرية^(١) هي الوحدة التكتيكية الرئيسية ويقودها قائدان^(٢) . أما القيادة التكتيكية للفرقة فكان يسيطر عليها ويتحكم فيها الموثوق بهم من المحترفين والذين يفهمون رجالهم جيداً ، ويصف بوليبيوس هؤلاء القادة : — « ليسوا رجالاً مغامرين أو متهورين بل كان لديهم الاستعداد الطبيعي للقيادة ، فيتميزون بالمثابرة والروح المتأصلة ويصمدون أمام جحافل العدو وضغوطه الساحقة ، ومستعدين للموت دفاعاً عن مواقعهم ، لقد كانوا مثابرين شجعان يفهمون الحرب جيداً وأنها عمل يجب أن يؤدي تماماً . وكان السبب الرئيسي لنجاح روما في معظم حملاتها أنها أنتجت ضباط صف من الدرجة الأولى وجنوداً ممتازين .

وهكذا كانت الفرقة مكونة من ثلاث خطوط من المشاة الثقيلة المسلحة بالرمح والسيوف ، ومدعمة بالمشاة الخفيفة والفرسان . وكانت المشاة مدربة على القيام بالأعمال الشاقة . وأصبح تنظيم الفرق المشاة ثابتاً لأكثر من ٧٠٠ عام بعد منتصف القرن الرابع ق . م ، بالرغم من أن بعض القادة الفرديين قاموا ببعض التغيير إلا أنه لم يحدث أى تغيير جوهري في تنظيم الفرقة المشاة ، وعندما ندرس حروب الرومان سيظهر لنا مواطن الضعف والقوة في هذه الفرق .

هانيبال يقزو إيطاليا (أنظر اللوحة رقم ٧)

لقد اتسعت مصالح روما السياسية والتجارية في منتصف القرن الثالث ق . م حتى وصلت إلى التحدي لقرطاجة أغنى دولة في الغرب فنشب أولى الحروب القرطاجية ما بين ٢٦٥ — ٢٤١ ق . م وانتهت لصالح روما ، إلا أن قرطاجة في عام ٢٢٠ ق . م استعادت قوتها مرة أخرى في إسبانيا ، وفي عام ٢١٨ ق . م قام هانيبال^(٣) بعد عدة استفزازات بعبور البيرينيز^(٤)

(١) السرية تتكون من ٦٠ إلى ١٢٠ جندي .

(٢) القائد عبارة عن جندي له خبرة طويلة ومن نفس الطبقة الاجتماعية للجنود

(٣) قائد قرطاجي عمره ٢٩ عاماً .

« المغرب »

(٤) جبال البرانس

لغزو إيطاليا وذلك لسببين أولهما بسبب النفوذ الإيطالي الذي أخذ يؤثر على التاريخ العالمى وثانيهما دورها القيادى للشرق والغرب .



هانيبال

والحرب القرطاجية الثانية (٢١٨ — ٢١٠ ق . م)
جديرة بالدراسة لأن كل من قرطاجة وروما متساويين فى
القوة، وكل منهما على يقين تام من أنه لا بد من الانتصار
والإسديم دماراً أبدياً .

وقد زرت تونس التى تقع فيها أرض قرطاجة وشاهدت
المدينة القديمة هناك وذلك بعد نهاية الحرب فى شمال أفريقيا
عام ١٩٤٣ .

لقد درس هانيبال منذ الصغر الحرب والأسلحة ، وقام بدراسة شاملة لفنون الحرب
الأغريقية والرومانية ، وقاد الجيوش لمدة ثلاث سنوات وكان واثقاً تماماً أنه سيهزم الرومان
وقد عبر جبال البرانس بجيش مكون تقريباً من ٤٠٠٠٠ مقاتل و٣٧ فيلاً وكان معظم جنوده
أتين من أنحاء متفرقة من أفريقيا وأسبانيا ، كما قام بإلحاق مجموعات أخرى وهوى طريقه إلى
إيطاليا من الغال ، وكان أغلب جيشه من المرتزقة ولم يجمعهم تحت قيادة واحدة سوى هانيبال
وخوفهم من بطشه واحتمالات النهب والسلب خلال القتال . وتمثل القوة الرئيسية لجيش هانيبال
من المشاة الخفيفة المسلحة بسيف قصير وحرية ودرع واقى صغير ، بينما كان أ كفاً قواته الراكبة
من حملة الرماح النوميديين تحت قيادة القائد المحنك ماهربال . وقال بوليبيوس « لم يكن جيش
هانيبال كثير العدد ، ولكنه ذو كفاءة عالية .. ولياقة بدنية ممتازة . »

وخلال فترة الحرب ، كان القرطاجيون يواجهون بأعداد كبيرة من الرومان الذين
رفعوا عدد فرقهم من ٥ إلى ١١ ، وفى المراحل الأخيرة للحرب وصل عدد الفرق الرومانية إلى
عشرين فرقة أى ١٠٠.٠٠٠ مقاتل . ولم تكن استراتيجية هانيبال تهدف إلى تدمير روما
ولكن ليفقدها فقط السيطرة على الحلف الإيطالى مع إجبارها على التعايش مع قرطاجة . وقد
قال هانيبال « لم أحضر لأقاتل الشعب الإيطالى ، ولكن لأحرر الإيطاليين من سيطرة روما . »
وتقدم هانيبال سريعاً حول البحر الأبيض المتوسط ، وخلال عبوره لجبال الألب تعرض

لهجمات رجل القبائل ثم لسقوط الثلج المبكر ما أدى إلى هبوط قوة جيشه حتى وصلت إلى ٢٠.٠٠٠ من المشاة و ٦.٠٠٠ من الفرسان ، وبعد اشتباك ناجح عند نهر تيسينوس استطاع هانيبال وجنوده من عبور نهر البو . وفي ديسمبر عام ٢١٨ ق . م عند نهر ترييا حقق أولى انتصاراته العظيمة الثلاث فاستطاعت فرسانه وفيلته اجبار الرومان ودفعهم إلى نهر ترييا مما أدى إلى تدمير $\frac{2}{3}$ الجيش الروماني تماما مع فرار حوالى ١٠.٠٠٠ مقاتل عبر منطقة الوسط .

وقرر الرومان في عام ٢١٧ ق . م عدم مواجهة فرسان قرطاجة المتفوقة في السهل على أن يلتفوا بهم من أقصى الجنوب عند جبال الأبنين . ومع ذلك في شهر أبريل من نفس العام استطاع هانيبال من حصر جيش فلامينيوس بين التلال والشاطئ الشمالي لبحيرة تراسيمين ، لأهل الرومان إجراء الاستطلاع والمخبرات مما أدى أن هانيبال قام بهجوم مفاجيء من سفوح التلال ، وفي خلال ثلاث ساعات تمكن من تدمير أو أسر كل قوات العدو . وبعد هذا الانتصار أعلن هانيبال تحرير إيطاليا من السيطرة والسيادة المطلقة لروما . ثم هبط إلى ساحل الأدریاتيك حيث استولى في ربيع عام ٢١٦ ق . م على قاعدة الإمداد الرومانية في كانا .

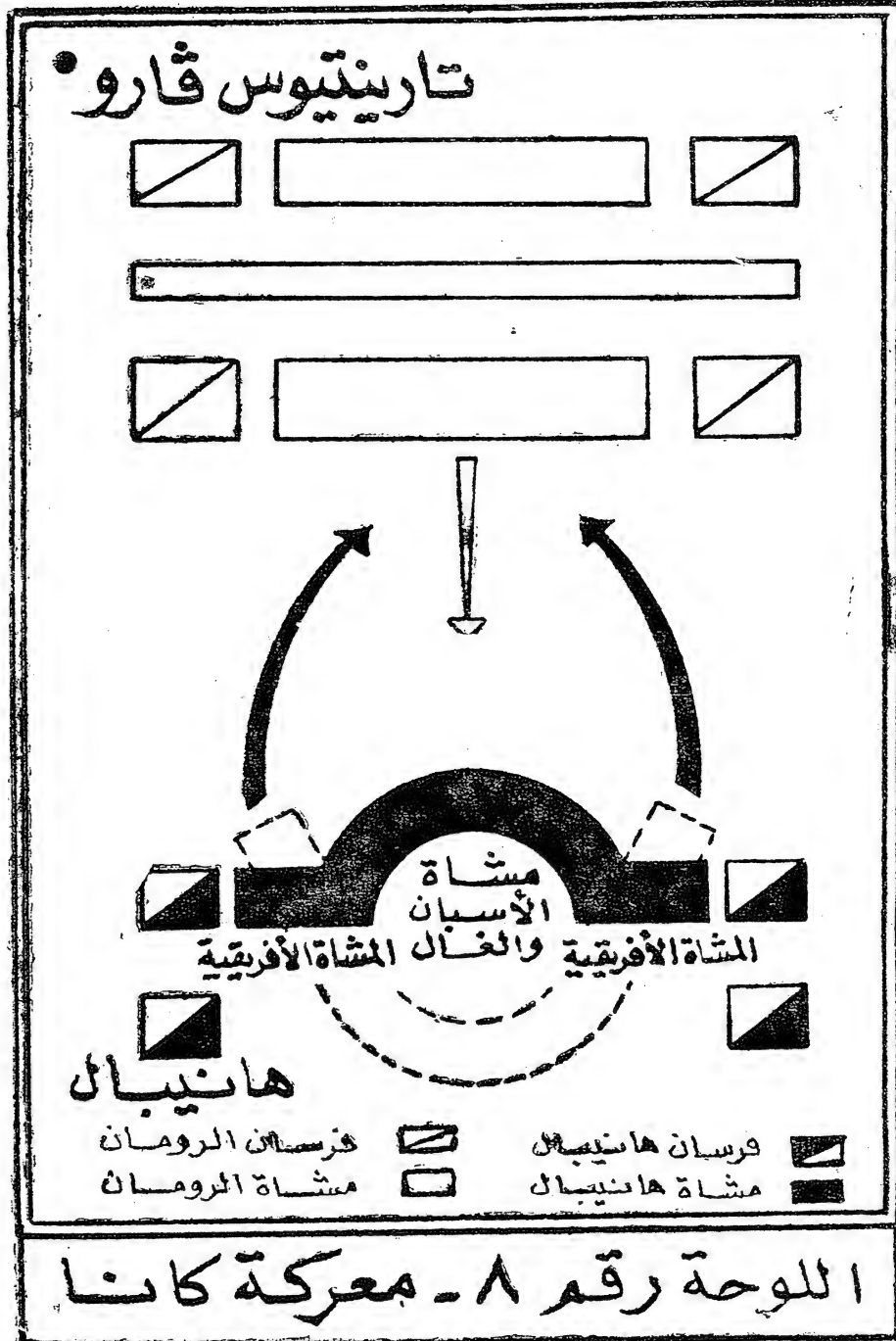
معركة كانا (أنظر اللوحة رقم ٨) .

وفي أغسطس استعد الرومان للقتال عند كانا ، فقام هانيبال بتنظيم جيشه على شكل هلال محدب ، بحيث وضع المشاة الأسبانية والغالية في منطقة الوسط ، أما القوات الأفريقية على كلا الجانبين والفرسان على الأجنحة ، أما مشاة الرومان فتشكلوا بالطريقة التقليدية على شكل صفوف متوازية ، وابتدأ هانيبال الهجوم وهزم فرسان الرومان هزيمة نكراء ، وترك مشاتهم تتقدم متوغلة داخل ححن الهلال القرطاجي حتى أخذ شكل مقعر ، وفي هذه اللحظة دفع هانيبال المشاة الأفريقية من اليسار واليمين لتطويق أجنحة الرومان ، وأكتملت المعركة عندما عادت فرسانه بعد مطاردة فرسان العدو وهاجموا مؤخرة مشاة العدو . وقد قال فولر عن هذه المعركة : « تم الهجوم من أربع جوانب فأبيد الجيش الروماني وكأن زلزالا قد ابتلعه » .

وفي معركة كانا هذه أبيض الجيش الروماني الضخم المشكل من ٧٠.٠٠٠ مقاتل وذلك

لقيادة هانيبال الحكيمة وحملة القائد الروماني القنصل هو كيوستارينتوس قارو رجل الأعمال الذي كان في منصب القائد .

وهذه المعركة تعد بمثابة أعظم وأفدح كارثة للجيش الروماني .



الحرب حتى الموت

(أنظر اللوحة رقم ٧)

أستسلمت معظم دويلات جنوب إيطاليا لهانيبال ، بما في ذلك مدينة كابوا^(١) الهامة ، ولكن النواة الكبرى^(٢) للأرض الرومانية ظلت ثابتة وظل الأسطول الروماني يحكم البحار . وألح ماهر بال على هانيبال بالزحف نحو روما في الحال ، ولكن هانيبال رفض ، لأن استراتيجيته كما قلنا لم تكن مواصلة الحرب حتى الموت ، ولكن ببساطة اخضاع روما لشروطه وعلى أي حال فكان هانيبال يفتقر إلى المواد التي تمكنه من القيام بعمليات حصار كبيرة .

بعد ذلك نشبت حرب الاستنزاف ، حيث استغل الرومان قلاعهم وأعدادهم الكبيرة التي يقودها كوينتوس فايبيوس مكسيموس وكان يطلق عليه « البطيء الحذر » واستطاع إرهاق وأضعاف قوات هانيبال ، وإبقائه في جنوب إيطاليا ولكنه لم يجرأ على مهاجمته . وفي عام ٢٠٨ ق . م . حققت روما نصراً بحرياً فأعاد لها سيادتها البحرية وسهل إمكانية غزو أفريقيا في المستقبل .

وبعد معركة كانا بعشرة سنوات ابتسم الحظ لروما وحققوا نجاحاً باهراً في أسبانيا . ففي عام ٢١٨ ق . م أرسل جيشاً رومانياً إلى أسبانيا وفي أول الأمر أبلى بلاءاً حسناً ، ولكن في عام ٢١١ ق . م تخلى الحلفاء الأسبان عن الرومان ، فلاحق بهم هزيمة نكراء فعادت فلولهم إلى شمال نهر الأبرة . وفي عام ٢١٠ ق . م أسندت قيادة الجيش الأسباني إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيو البالغ من العمر خمسة وعشرون سنة وعرف فيما بعد باسم أفريكانوس .



سيبيو

وقد وضح أن سيبيو سيصبح أعظم القادة الرومان ، وذلك أثناء حضوره كارثتي تيسينوس وكانا وأظهر فيهما شجاعة باهرة جعلته قائداً معروفاً ومحبوفاً من الشعب . فقد درس الحرب بعناية وعقل متفتح . ففي عام ٢١٠ ق . م

(١) هي مدينة كاسرنا حالياً

(٢) يقصد روما

نزل إلى أسبانيا عند أمبور يوم ومعه ١٠.٠٠٠ مقاتل بغرض جمع شتات الجيش الرومانى المبعثر هناك وإعادة تشكيل قوة تعادل أربعة فرق ، وعلى الفور شرع سيبيو فى تنظيم جيشه ورفع معنويات رجاله ثم اتخذ خطوة جريئة بإشعال الحرب القرطاجية الثانية ، وبدلاً من مهاجمة جيوش العدو الثلاثة فى أسبانيا ، اتجه فوراً إلى قرطاجة الجديدة التى تمثل القاعدة الرئيسية للعدو وتبعد ٣٠٠ ميلاً إلى الجنوب على الساحل وتحتاج إلى مسيرة عشرة أيام لكي تصل قوات العدو لنجدتها ، لذلك قرر قطع هذه المسافة بجيشه وأسطوله فى حوالى أسبوع وبذلك وجد أن لديه الوقت الكافى قبل وصول العدو . كانت القلعة هناك مقامة على نتوء صخرى ، ومدافع عنها بقوة ، ولكن سيبيو أخذهم على غرة وقام هو ورجاله بخوض المياه الضحلة حول القلعة وتسلق أسوارها فى أضعف نقطتها بالسلام ، ولم يستغرق الأمر طويلاً وسقطت قرطاجة الجديدة واستولى بذلك على قاعدة الجيش وأحتلت قواته الجناح الشرقى ومؤخرة العدو .

وفى عام ٢٠٨ ق . م تصدى سيبيو لجيش هازدروبال عند بايكولا فى الأندلس وهزمه ، وقام القرطاجيون ببناء قوتهم مرة أخرى ، وفى عام ٢٠٦ ق . م تقابل سيبيو مع الجيوش المتحدة المشكلة من جيش ماجو وهازدروبال جيسجو عند إلبا وبالرغم من التفوق العددي لهذه الجيوش إلا أن سيبيو حقق نصراً حاسماً عليهم .

فقد دفع الرومان الفرق القوية الموجودة على الأجنحة إلى الأمام مدمرة أجنحة الجيش القرطاجى قبل أن يتقابل الحصان فى منطقة الوسط ثم اتجهت بعد ذلك هذه الأجنحة الرومانية إلى الداخل لحسم المعركة ، فانسحب الأعداء وأخذ سيبيو يطاردهم حتى البحر حيث استسلموا .

وفى عام ٢٠٥ ق . م تم لسيبيو تطهير أسبانيا من جميع القرطاجيين وبعدها عاد إلى إلى روما .

هانيبال يتقابل سيبيو

أدى هذا أن فقدت قرطاجة سيطرتها على أسبانيا وتحقق السلام مع كل من صقلية وسردينيا ومقدونيا ، بينما ظل هانيبال وجيشه فى جنوب إيطاليا .

وفي روما أتجهت النية في مجلس الشيوخ إلى خنق جيش هانيبال حيث هو ، ولكن سيبيو اقترح خطة استراتيجية مختلفة ، وذلك بابقاء هانيبال كما هو في جنوب إيطاليا بينما يهاجم قرطاجة في شمال أفريقيا ، وأظهر المجلس تشككه في اقتراح سيبيو ، ولكن في النهاية سمح له بالذهاب إلى صقلية ومعه فرقتين وهناك بدأ سيبيو في تجنيد وتنظيم وتدريب جيشه وقام بالتحالف مع ماسينيسا ملك نوميديا الذي مده بفرسان من الدرجة الأولى .

وفي ربيع عام ٢٠٤ ق . م وصل سيبيو إلى أفريقيا ومعه ٢٥٠٠٠ مقاتل بالإضافة إلى ما مده به ماسينيسا . وهناك واجه جيشا قرطاجي مكون من ٢٠٠٠٠ من المشاة و٦٠٠٠ من الفرسان بالإضافة إلى ١٤٠ فيلا تحت قيادة هازدروبال وسوفاكس ملك ماسيسيللي . وبعد حصار ناجح لمدينة أتيكا اتجه شتاءً نحو كاسترا كورنيليا وهناك حاصره سوفاكس وأصبح في موقف حرج إلا أنه استخدم الخداع وتظاهر بطلب الهدنة ، فخدع أعدائه وعلى الفور أمر رجاله بإحراق معسكر الأعداء . وكان من الضروري على سيبيو أن يهاجم جيش هازدروبال قبل وصول هانيبال إلى أفريقيا ، لذلك في ربيع عام ٢٠٣ ق . م تقدم سيبيو ومعه فرقة واحدة وبعض الفرسان حيث التقى بجيش العدو عند سهل باجراداس وهزمهم بأسلوب تكتيكي جديد غير التكتيكات الرومانية المعتادة وذلك بالقيام بهجومين بالفرسان في وقت واحد على أجنحة العدو كما أسر سوفاكس .

وبدأت قرطاجة تطلب السلام واستدعت هانيبال بعد أسر سوفاكس . وفي عام ٢٠٢ ق . م عاد هانيبال إلى أفريقيا ومعه جيش مكون من ١٥٠٠٠ مقاتلا فما كان من القرطاجيون أن قرروا استئناف الحرب . وفي السنة التالية خرب سيبيو وادي باجراداس الخصب ، وفي الخريف التقى سيبيو مع جيشه هانيبال عند زاما^(١) ودارت آخر معارك الحرب القرطاجية الثانية في عام ٢٠٢ ق . م .

كان قوام كل من الجيشين حوالي ٤٠٠٠٠ مقاتل ، وربما كان هانيبال متفوقاً بعض الشيء من الناحية العددية إلا أن معظم مشاة سيبيو كانوا مدربين تدريباً جيداً ووصل عدد فرسانه إلى ٤٠٠٠ فارس وكان لدى هانيبال حوالي ٢٠٠٠ فارس . ولأول مرة في تاريخ قيادة

(١) زاما تقع على مسيرة خمسة أيام إلى الجنوب الغربي من قرطاجة « العرب »

هانيبال أن يصبح جيشه ناقص العدد بتلك الدرجة وخاصة في الفرسان ، وكان هذا يعني أنه لن يستطيع استخدام أسلوب التطويق الذي برع فيه وكما حدث في كانا.

وربما حدث نتيجة لذلك ما لم يكن في الحسبان ، فطبقاً لما قاله ليفي : - « اقترح هانيبال على سيبيو التقابل معاً بين جيشيهما لمناقشة الأمور سوياً » . وأننى أعتقد أنه من الصعب حدوث ذلك في القرن العشرين ، فلو اقترح على روميل مقابلتى بين خطوطنا قبل معركة العلمين لرفضت بالرغم من أننى كنت سأستمتع جداً بمقابلة خصمى القائد الشهير والذي لم أقابله قط .

وعلى العموم فقد تقابل هانيبال مع سيبيو في وجود المترجمين ومن المحتمل جداً أن هانيبال عرض شروط للسلام ولكن سيبيو رفضها وعاد كل منهما بعد تلك المقابلة إلى معسكره .

معركة زاما (أنظر اللوحة رقم ٩)

وفي فجر اليوم التالى استعد الجيشان للقتال ، فقام هانيبال بتوزيع قواته وكانت ندل على أنه يدرك ضعف جيشه عن جيش العدو لذلك وضع ٨٠ فيلاً في مقدمة القوات ، واصطفت مشاته في ثلاث خطوط وكان الخط الأول مكوناً من المشاة الثقيلة من الليجور والغال وانتشرت المشاة الخفيفة بين الفواصل ، أما الخط الثانى فضمنه القوات التى لا يثق فيها كثيراً وهم المجدنون الجدد من قرطاجة وأفريقيا ، أما الخط الثالث فكان مكون من المشاة الخفيفة من الإيطاليين وكان يبعد عن الخط الثانى ٢٠٠ ياردة حتى لا يعزل أو يحاصر بواسطة العدو أثناء قيامه بالضربة الحاسمة . ووضع هانيبال ١٠٠٠ فارس قرطاجى في الجناح الأيمن و ١٠٠٠ فارس نوميدى في الجناح الأيسر ، وكان هدفه من ذلك اختراق الجبهة الأمامية للرومانيين وقد اعتمد في هذا على الفيلة .

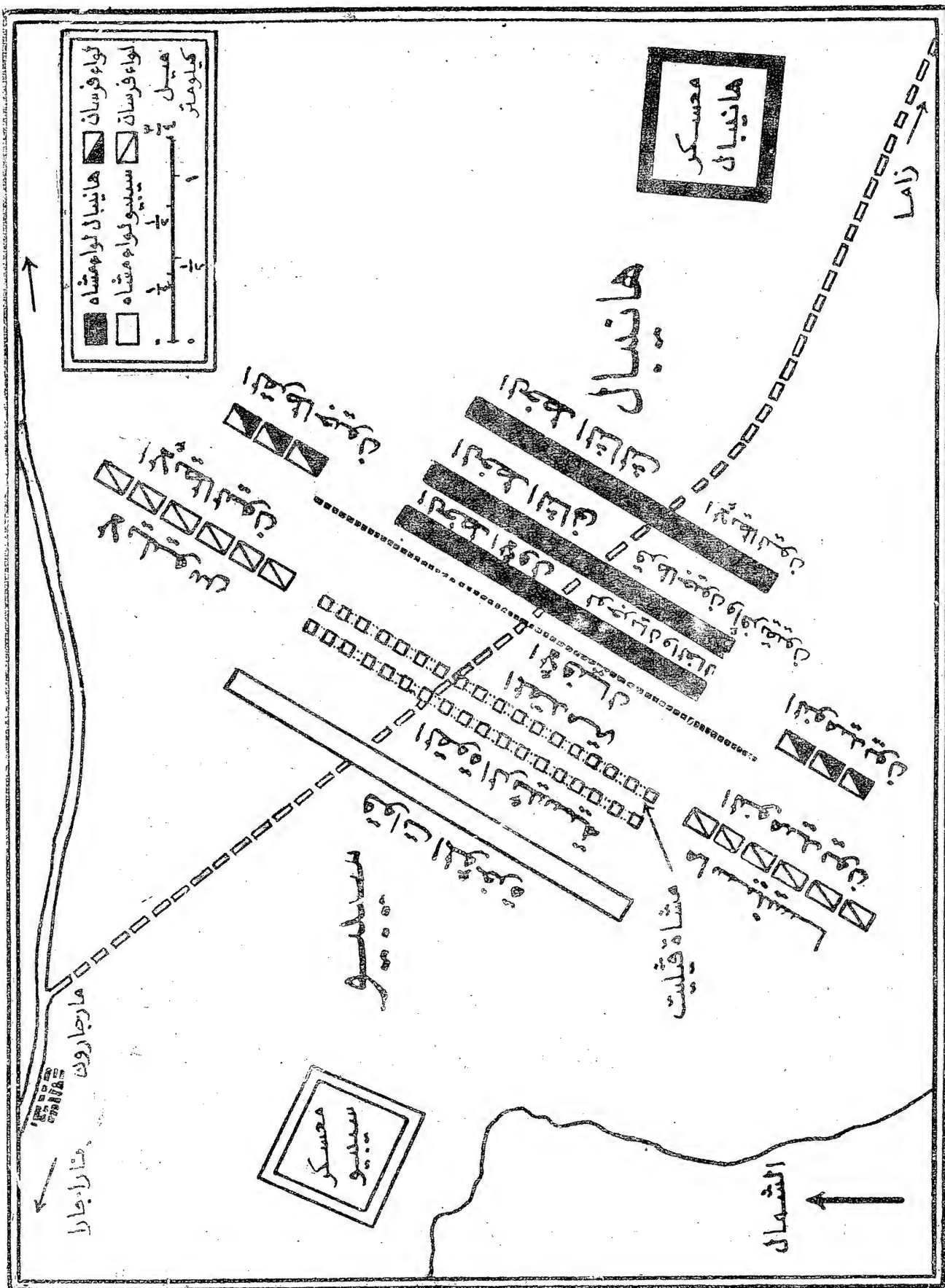
أما سيبيو فلم يوزع مشاته الثقيلة على شكل مربع بل أستغل تفوقه العددي وشكلها في طوابير بينها ثغرات لكي تمر منها الفيلة فيتعامل معها الفيليت ، وجعل المسافات بين الصفوف أوسع من ذى قبل ووضع المؤخرة بعيداً في الخلف لإيجاد المسافة المناسبة إذا اضطرت المشاة الثقيلة للانسحاب ، أما قوته الضاربة فكانت مشكلة من الفرسان النوميديين التابعة للملك

ماسينيسا وحشد لها على الجناح الأيمن، أما الجناح الأيسر فحشد فيه الفرسان الإيطاليين تحت قيادة لايلىوس .

وبدأت المعركة ببعض المناوشات التي قامت بها الفرسان النوميديين لكلا الجانبين بالواجهة ، وعندئذ بدأ هانيبال هجومه بالفيلة ، وأثناء تقدمها نحو الجيش الروماني أمر سيبيو بأطلاق الأبواق والنفائر على طول خطوطه ، وأحدثت هذه الصفارات المفاجئة ذعراً بين الفيلة الموجودة على اليسار فاستدارت عائدة واندفعت فزعة نحو فرسان هانيبال محدثه أرباكاً كبيراً فاستغل ماسينيسا الظروف وقام بهجوم أبعد به هذه الفرسان عن ميدان المعركة ، أما في منطقة الوسط فقد دفعت سرايا سيبيو الثمن فقد صبت الفيلة جام غضبها على الفيليت ولكنها لم تلمس المشاة الثقيلة ومرت خلالهم ثم قام فرسان الرومان بمطاردة الفيلة بالرمح نحو عيّن القوات القرطاجية وعلى الفور استغل لايلىوس ما حدث من أرباك في صفوف فرسان العدو ، كما حدث تماماً مع ماسينيسا في الجناح الآخر ، وأندفع بفرسانه نحو الجناح الأيمن لفرسان هانيبال وبذلك هزمت فرسان هانيبال على كلا الجناحين هزيمة منكرة وأصبح كلا الجناحين مكشوفين ، وأثبتت الأحداث بأن الفيلة من الممكن أن تكون مصدراً للكوارث .

وعلى الفور بدأت فرسان الرومان بمطاردة فرسان هانيبال إلى مسافة بعيدة وبعد ذلك بدأت المرحلة الثانية للمعركة وهي الاشتباك مع المشاة ، وفي البداية كانت الأمور تسير لصالح مشاة الليجور والغال في جيش هانيبال وذلك لخفة حركتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام واختراق الخط الروماني القوي فما كان من الرومانيين أن دفعوا المقدمة وأبتدأت تشتبك مع الخط الأول لهانيبال ولم يتمكن الخط الثاني لهانيبال من مؤازره وأمداد جبهته المتقدمة ، وعندما شعرت مشاة الغال بأنهم تركوا في الميدان وحدهم ، على الفور كفوا عن القتال وتراجعوا بعيداً هاربين تاركين خطهم الثاني ليواجه الرومان . وأصبحت أرض المعركة مليئة بالجثث وملطخة بالدماء لدرجة أنها أصبحت زلقة يصعب فيها القتال . ومرت لحظة من المعركة تراجعت فيها مقدمة الرومان تحت ضغط الخط الثاني لهانيبال ولكن ضباط الرومان تمكنوا من تجميع القوات الرئيسية وأنشاء خط أطول من خط هانيبال ، وبذلك تمكنوا من صد الخط الثاني لهانيبال ودفعه إلى الخلف وتمزيقه إلى مجموعات صغيرة ، وهرب من استطاع

اللوحة رقم ٩ - معركة زامنا



النجاة إلى الخط الثالث طالباً الحماية ولكن هانيبال رفض انضمام هؤلاء المهزومين إلى صفوف قواته المنظمة والتي لازالت في كامل نشاطها وقوتها ولم تشترك بعد في المعركة وأشهرت قوات المؤخرة حرابها مما جعل هؤلاء المهزومين يهربون إلى المناطق الجانبية لأرض المعركة واختفوا .

والآن أبتدأت المرحلة الثالثة من المعركة وكانت أعنف أطوارها فقد إستعدت جنود الخط الثالث لهانيبال للقتال في نفس الوقت كان الرومان سعداء لقضائهم على خطين من خطوط العدو ، ولكن في نفس الوقت كانت قوات الرومان في أقصى حالات الاجهاد وكان يتحتم عليهم أن يواجهوا مشاة هانيبال الموجودين في الخط الثالث وهم في أكل قوة ونشاط . ولكن سيبيو قام برباطة جأش غير عادية بالتفتيش على قواته ذات المستوى العالي من التنظيم حيث أمر بإرسال الجرحى إلى المؤخرة مع ارسال قوات المقدمة المجهدة إلى الأجنحة وقام بتكوين جبهة ممتدة قوية بعد أدماج القوة الرئيسية مع قوة المؤخرة حتى يستطيع توجيه ضربة قوية للعدو واختراق خطوطه وقد قال عنه بوليبيوس : « لقد هاجم الخطين كل على الآخر بأقصى ضراوة وأكبر كمية نيران^(١) وكان الجانبين تقريباً متساويين من حيث العدد والروح المعنوية والشجاعة والأسلحة واستمرت المعركة وقتاً طويلاً دون أن تحسم لأحد الطرفين ، فكان الرجال يقاتلون ببسالة في كلا الطرفين ويسقطوا قتلى دون أن يسمح أحد منهما بمرور الآخر عبره ولو خطوة واحدة » .

وأخيراً عادت فرسان ماسينيسا ولايليوس الرومانية بعد أن انتهت من مطاردة فرسان هانيبال ، وقامت بضرب مؤخرة مشاة هانيبال فقتلوا وقتلوا في أما كنهم وتمكن القليل جداً منهم الفرار بجلده وانتهت المعركة . انتهت بنصر سيبيو ويرجع الفضل أولاً وأخيراً للفرسان الذين أكدوا النصر بالمرور خلال المدينة كلها بتنظيفها من فلول الأعداء ، أما هانيبال نفسه فقد هرب .

أما سيبيو فلم يحاول الزحف نحو قرطاجة لافتقاره لوسائل وإمكانات الحصار ، بالإضافة إلى رغبته في فرض شروط معتدلة للسلام أكثر من رغبته في فرض شروط إنتقامية .

(١) كمية نيران يقصدها أقصى استخدام للأسلحة . « العرب »

التعليق على هانيبال وسيبيو

والآن سوف نناقش ونقارن بين مزايا كل من القائدين هانيبال وسيبيو وقد علق ليدل هارت على معركة زاما بقوله :— «في تلك المعركة تقابل سيد الحرب مع أعظم منه» وحقيقة هذه العبارة أن سيبيو فاز على هانيبال في المعركة الوحيدة التي تقابلا فيها ، ولذلك فليس من السهل تقييم المزايا القيادية لهذين القائدين ، ولكن من الواضح أن هانيبال كان أفضل كقائد تكتيكي لأن عبقريته التكتيكية في معركة كانا لا يمكن مقارنتها بقيادة أى معركة عبر التاريخ الحربى كله . والجدير بالذكر أن جيش هانيبال في معركة زاما كان أقل في نوعيته من جيش سيبيو نتيجة لوجود عدد كبير من مشاته غير مدربة بالإضافة إلى أن فرسانه كانت نصف فرسان سيبيو مما أدى أنه لم يستطع استخدام تكتيكات الالتفاف التي حقق بها انتصاراته السابقة ولذلك كان عليه استخدام الفيلة واعتمد كل شيء في سير المعركة على سلوك هذه الفيلة ، وقد أحدثوا له كارثة فادحة ، ونرى بعد ذلك أنه في نهاية المعركة أبقى على أحسن قواته من المشاة فنجح في التصدي للمشاة الرومانية وكاد أن يفوز بالمعركة .

أما سيبيو فلم يبدو منه أى خطأ أثناء معركة زاما ويكفيه أنه قام بإعادة تنظيم قواته أثناء سير المعركة ، فكان ذلك يؤكد سيادته على مجرى القتال . ومهما كانت مقدرة سيبيو وسيادته فقد ساعدته العناية الإلهية التي أعادت فرسانه في اللحظة الحرجة لمعاونة مشاته وقاما الإثنين بالحصول على النصر الذي يستحقانه بمجداه .

أما هانيبال فقام بكل ما كان في وسعه ، ولكنه في عام ٢٠٢ ق . م بعد ١٦ عاماً من قيادة مستمرة عظيمة ، ألقى بنفسه في هوة النسيان في نفس الوقت وصل سيبيو وبدون منازع إلى القمة .

وقد كان سيبيو بالتأكيد أعظم التكتيكيين الرومان ، وأدرك أن الافتقار إلى الفرسان هي نقطة ضعف الجيش الروماني ، بينما كانت فرق المشاة الرومانية متفوقة على أى مشاة أخرى شهدها العالم ، ولكن بدون فرسان أصبحت هذه الجيوش عاجزة إلى أبعد حد ولهذا السبب لم يكن الرومان يمثلون خصماً قوياً للجيوش المقدونية في القرن الرابع ق . م . وقد قام

سيبيو بإصلاح ذلك النقص محققاً النصر في كل من باجراداس وزاما ، ولكن يجدر هنا أن نقول أن سيبيو بادراكه الحاجة إلى الفرسان مع استخدام أسلوب جديد لهما ما هو إلا اعتراف بسيادة هانيبال في هذا المجال ، لأن استخدام سيبيو للفرسان كان مماثلاً للأسلوب الكلاسيكي الذي وضعه الإسكندر وهانيبال ، وتشكيل الهلال الذي طبقه في «اليبا» كان يشبه لدرجة كبيرة لتشكيل هانيبال في كانا .

ولسوء حظ سيبيو أنه اعتمد بالنسبة للفرسان على حلفائه والمرتقة بدلاً من اعتماده على الرومان المدربين . وفي حروب القرن الثاني ق . م (بعد سيبيو) وجد الرومان أنفسهم يواجهون بأعداء من المشاة فقط فنسوا تماماً دروس سيبيو التكتيكية . ولقد كان واضحاً أن كل من هانيبال وسيبيو أمتازا بقدرتهما على التعامل مع الجنود ، فقد قام هانيبال بغزو إيطاليا بجيش مشكل من عناصر مختلفة من كل أجزاء غرب البحر المتوسط . وقام بتدريب هذا الجيش وقاده نحو أعظم الانتصارات . كما قال بوليبيوس : — « استمر هانيبال في إيطاليا يحارب روما لمدة ١٦ عاماً متواصلة دون أن يسرح جيشه ولو مرة واحدة بل احتفظ بأعداده الكبيرة تحت سيطرته بدون أن تظهر أي علامة استياء أو تضرر بين هذه القوات » . ولقد كان بارعاً في علم النفس ، ليس فقط لحفاظه على معنويات جنوده مرتفعة بل أيضاً

لخداع وإرباك خصومه .

وكان كلا القائدين شجاع ومحبوب من جنوده وأظهر سيبيو تفهما وإدراكه العميق للعامل الإنساني في الحرب فأخذ يجوب بين صفوف رجاله يثير فيهم الحماس ، وفي نفس الوقت أمر هانيبال ضباطه بالمرور على الجنود وتشجيعهم . وعلى أي حال ربما يرجع عدم قيام هانيبال بمثل عمل سيبيو إلى مشكلة اختلاف اللغة في جيشه المتعدد الجنسيات .

وإذا كان هناك تفوق إمتاز به سيبيو على هانيبال هو بلاشك الاستراتيجية التي حسمت الأمر في النهاية ، وقد أظهرت سيبيو على أنه واحد من القادة العظام في التاريخ ، بينما كانت إستراتيجية هانيبال في إيطاليا بمثابة الفشل الكامل ، لأن انتصاراته الثلاث المتوالية في الفترة من ٢١٨ — ٢١٦ ق . م لم تحقق ما كان يأمله من حدوث شقاق وتصدع في الشعب الروماني ، وقد كان ماهر بال على حق عندما قال لهانيبال بعد معركة كانا أنه لم يحسن استغلال النصر

ومن العجيب أن هانيبال لم يحاول قط التدريب على أعمال الحصار فلم يفكر في اختلال روما ولكن كان يجب أجراؤها على الأقل ليخضع القلاع التي تعتمد عليها الاستراتيجية الرومانية الفايبة^(١) . وبعد معركة كانا فقد هانيبال المبادأة فأعطى الفرصة لفايوس ليحول دفة الحرب

ضده ، ووجد نفسه فجأة محاصراً في جنوب إيطاليا ومن الواضح أنه لم يفهم أهمية القوة البحرية وعلى النقيض منه فقد أظهر سيبيو عظمتة الحربية وبعد نظره في الاستراتيجية ، بضرب قواعد العدو مباشرة عندما يكون ذلك ممكناً ، وفي كل مرة يقوم بذلك يحصل على نتائج باهرة . فكان استيلاءه السريع على قرطاجة الجديدة هي نقطة التحول للحرب في أسبانيا .

نخطته في إبقاء هانيبال في جنوب إيطاليا مع توجيه ضربه إلى إفريقيا لتقديم عقور دار العدو لإجباره على وقف نشاطه في إيطاليا كان ذلك عبارة عن استراتيجية رائعة لقائد عبقري ، وقد كان سيبيو على قدر كبير من الذكاء عندما استدرج هانيبال إلى المعركة النهائية في زاما وذلك بالسير خلال وادي باجراداس الخصب وتدميره ، فهدد بذلك أهم موارد قرطاجة وفي نفس الوقت سحب هانيبال بعيداً عن قرطاجة نفسها بينما قصر المسافة التي سيقطعها ماسينيسا بفرسانه لينضم لفرسان الرومان فيتحقق التفوق في الفرسان التي سيكون لها دوراً حاسماً .

ويرجع النصر المطلق الذي فاز به الرومان على قرطاجة في الحرب القرطاجية الثانية إلى

صمود شعبها في أعقاب كارثة كانا عام ٢١٦ ق . م وإلى تفوقها في البحر وإلى

استراتيجية سيبيو .

حرب العبيد الأولى

لقد كان كلا الجانبين في زاما يعلم تماماً بأهمية هذه المعركة وكما كتب ليفي : — « قبل حلول الظلام سيعرف من سيضع القوانين للدول . . . روما أو قرطاجة ، ولن تدون هذه القوانين لأفريقيا أو لإيطاليا . . . بل سيكون العالم كله غنيمة للمنتصر » .

فمن المؤكد أن تلك المعركة حددت مصير غرب البحر الأبيض المتوسط ، مع وضع

(١) الاستراتيجية الفايبة هي الاستراتيجية التي تعتمد على الحذر وتجنب الاشتباك بقدر الامكان .

شروط للسلام تضمنت نزع سلاح قرطاجة مع دفعها تعويضاً، وأصبحت نوميديا محمية رومانية وقسمت أسبانيا إلى مقاطعتين رومانيتين ويقم فيهما جيش روماني بصفة دائمة ، كما خضع السكان هناك للضرائب والخدمة العسكرية الرومانية ، وهكذا انبثقت الإمبراطورية الرومانية بعد الحرب القرطاجية الثانية .

وخلال القرن الثاني ق . م خاضت روما حرباً متواصلة لمدفوذها في منطقة البحر الأبيض المتوسط والمحافظه عليها . وفي عام ١٤٦ ق . م دمرت قرطاجة تدميراً نهائياً ، وقامت في مقدونيا ثلاثة حروب . وفي معارك سينو سيفالا عام ١٩٧ ق . م وبيدنا عام ١٦٨ ق . م انتصرت فرق الرومان التي تتمتع بخفة الحركة على فرق الاغريق القوية ، ولكن ظهر في بعض هذه الحملات عدم كفاءة القيادة وسوء تنظيم الفرق وأكثر من ذلك تفشى الفساد في الشخصية الإمبريالية الرومانية وعلى سبيل المثال ، فقد ذبح أو استعبد الكثير من ضحايا معركة بيدنا . وفي عام ١٦٧ ق . م ألغيت جميع الضرائب المباشرة في إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت روما تعيش على الجزيات الإمبريالية وتجارة الرقيق ، ويحتم مثل هذا الإقتصاد إخضاع وإستعباد مناطق إضافية أخرى . وأصبحت أفريقيا ومقدونيا واليونان وآسيا الصغرى مقاطعات رومانية . وأصبح الرومان مكروهين بسبب حكمهم الإبتزازي وقامت ثورة في أسبانيا في عام ١٥٤ ق . م ضد الحكم الروماني القاسي ، وبعد قتال ٤ سنوات استسلم بعض الثوار للقائد الروماني « جالبا » الذي أمر بذبحهم ، ومع ذلك استمر الأسبان في القتال بحرب العصابات بقيادة فيرباتوس ، ولكن في عام ١٣٣ ق . م وبعد ثمانى سنوات من الحصار الروماني لهم سقط معقلهم في نومانتي ، وكما حدث مع قرطاجة ومع كورنيت ، فقد أيدوا عن آخرهم .

وفي عام ١٣٥ ق . م قامت ثورة العبيد في صقلية والتي عرفت بحرب « العبيد الأولى » ، والتي استمرت وقتاً طويلاً ومضطرباً من التمرد والحرب الأهلية وانتهت الحرب في نوميديا وقضى عليها كل من جايوس ماريوس وسولا في الفترة بين ١١٢ — ١٠٦ ق . م .

ماريوس وتعديلات الجيش

وقام ماريوس في الفترة ما بين ١٠٢ — ١٠١ ق.م. بصدد غزوات القبائل الجرمانية وقام بتعديلات هامة في الجيش في الفترة بين ١٠٤ — ١٠١ ق.م. وبصفة خاصة تنظيم الفرق ونظام التجنيد والتطوع وكان يهدف من ذلك إيجاد تنظيم للجيش يلائم كل الظروف . وقد مهد قواد كثيرون من قبله لهذه التعديلات مثال لذلك ما قام به أميليوس باولوس في بيدنا بتجميع السريا في مجموعات أكبر .

وقام ماريوس برفع مرتب الوحدة التكتيكية الرئيسية بدلا من السرية (بها ١٢٠ جندي) إلى الكتيبة (بها ٦٠٠ جندي) لكي يعطى الفرقة أكبر قدر من التماسك مع احتفاظها بالمرونة وفي نفس الوقت قام بتحديد عدد جنود الفرقة ليكون ٦٠٠٠ مقاتل وبذلك صار هناك ١٠ كتائب في الفرقة الواحدة ، وكل كتيبة مقسمة إلى ستة مجموعات كل منها بها ١٠٠ رجل وكل مجموعة يقودها قائد يدعى « قائد المائة » وألغيت حربه القذف التي ظلت مجموعات المؤخرة تستعملها لأمد طويل وتم تسليح الثلاث خطوط بنوع متقدم ومتطور من الرماح ، واختفت مجموعات الفيليت وكذا فرسان الفرقة ، ومن الآن فصاعداً أصبح الحلفاء هم مصدر الفرسان والمشاة الخفيفة وأصبحت الفرقة المشاة الثقيلة أكثر تعاوناً وقوة والتي كانت وسيلة يوليوس قيصر في فتوحاته كما أعطى ماريوس لكل فرقة علماً مميزاً به سر لتستخدمه في إعطاء الإشارات وكنقطة للتجمع وأصبحت هذه الأعلام بمثابة شعارات للفرق وفقدتها في المعارك يعتبر عاراً كبيراً . وكانت تشابه الأعلام التي تستخدم في وقتنا الحاضر في كثير من الجيوش أو الفسور التي أعطاها نابليون لألويته ، وأهم ما قام به ماريوس من تغيير في الجيش هو التوسع في نظام التجنيد والتطوع . ولما كان ماريوس نفسه من أصل فقير فكان نجاحه السياسي يدين للتأييد الشعبي ، فلم يرض أن يكون جيشه من طبقة الأغنياء فقط ولذا فتح باب التجنيد والتطوع لكل من يرغب في الالتحاق بالجيش وأدى هذا التغيير إلى سرعة إحتراف الجندي ، أما على السياسة فكان تأثيره ثورياً فقد إمتلأت العاصمة الامبريالية بأعداد غفيرة من الجنود الكسالى الذين تطوعوا في الجيش وجعلوه مصدر رزقهم . وكان ولائهم كبيراً لقائدهم الذي أدخلهم الجيش وليس للدولة ، لأن الدولة لم تكن قادرة على دفع أجورهم . ولذلك كان قائدهم يسلمهم ويتبعوه طالما كان ناجحاً ،

ويسمح لهم بسلب الغنائم من الأعداء . وقد أدى هذا إلى ظهور عدد من الساسة العسكريين في القرن الأول ق . م ومنهم ماريوس وسولا وبومبي ويوليوس قيصر . وكانت هذه البدعة أكثر من أى شيء آخر والسبب الرئيسى فى الصراع ، وقد كتب ساليست : — « لقد ألقوا كل شيء . . . البشر والكهنة فى بحر من الفوضى والارتباك حتى وصلوا إلى درجة الجنون ، فأسفرت هذه الفوضى الأهلية عن حرب ودمار إيطاليا . »

وقد أدى تطور نظام المرتزقة عند الرومان أنهم هزموا أعدائهم كثيراً فى الخارج ، ويعنى أيضاً أن سياسة روما الداخلية أصبحت تعتمد على القوة .

وقد اتسع مجال التطوع فى الجيش عندما منح الحلفاء حق التجنيس بجنسية روما .

سولا الدكتاتورى

ومنذ عام ١٠٦ ق . م أصبحت العلاقات على غير ما يرام بين كل من ماريوس وسولا ، واضطدمت أطماعهما السياسية ، وفى عام ٨٨ ق . م قام ميتريدتس الرابع ملك بونتس (١) بغزو إقليم آسيا ، بينما ثار الرعايا الأحرار فى اليونان وقتلوا حاكمهم الرومانى . وعلى الفور انتخب سولا قنصلاً ومنح القيادة الشرقية ، فامتلاً ماريوس غيرة عندما وصله هذا النبأ وكان يسحق تمرداً فى كامبانيا ، فما كان منه أن توجه فى ثورة غضبه إلى روما ، منتهكاً التقاليد التى تنص على عدم دخول الجيش العاصمة ، وأطلق رجاله فى العاصمة وانتشر الماريانيون فى الشوارع يحاربون وأصبح ماريوس نفسه خارجاً عن القانون فانطلق هارباً .

وفى أوائل عام ٨٧ ق . م بدأ سولا التقدم شرقاً ومعه خمسة فرق حيث استولى على أثينا ونهبها ، ثم هزم بعد ذلك أرشيلوس القائد البونتي عند كايرونيا ثم أوركومنيوس أيضاً . وفى تلك المعارك استغل سولا التشكيلات الجديدة للفرق إلى أقصى حد . وأضاف إلى تكتيك المشاة مرونة وقوة دفع جديدتين . فى ذلك الوقت غدرت عليه روما وقررت عزله ولكنه لم يرض بالتخلي عن قيادته .

وفى عام ٨٣ ق . م عاد بجيشه إلى جنوب إيطاليا وكان ماريوس قد مات ، وفى نوفمبر عام ٨٢ ق . م دخل سولا إلى روما وهزم آخر خصومه فى معركة خارج بوابة كلين ، وقام

بقتل جميع الاسرى في المدرج الرومانى ، ونصب سولا نفسه حاكما ديكتاتورى ، وقام بتأمين حكمه بالتخلص من ٣٥٠٠ من أعدائه بقتلهم وظل يحكم حتى اعتزل عام ٧٩ ق . م .

وأثبتت حكومة سولا بأنها حكومة مفيدة ، ولكن الحقيقة المؤلمة أنها كانت حكومة ديكتاتورية تؤيدها القوة العسكرية .

صلب ستة الاف سجين

كانت القوة الأساسية للفرق الرومانية مشكلة من الجنود المتطوعين الفقراء والكسالى وكانوا على استعداد لبيع أنفسهم لأى قائد حتى لو كان عديم الضمير ومجرد من المبادئ والأخلاقيات .

وقد استطاع جنايوس بومبيوس^(١) أن يصبح أحد قادة المرتزقة .

وخلال للسبعينيات انفجرت ثلاث ثورات خطيرة ضد روما ، ففي عام ٧٦ ق . م أرسل بومبي إلى إسبانيا ليخمد التمرد الذى قام به القائد الرومانى السابق كونيوس سيرتوريوس وكان هذا القائد من تلاميذ ماريوس ، وقام بتدريب جيشه على البراعة فى كل من تكتيك الفرق المشاة وحرب العصابات ، وكان يسيطر على كل أسبانيا واستطاع فى أول الأمر التفوق على بومبي ولكن فى عام ٧٢ ق . م أخذت هذه الثورة .

وفى عام ٧٢ ق . م قام ماركوس لوسينيوس كراسوس بإخماد ثورة قام بها العبيد تحت قيادة المصارع سبارتكوس وقد حوضر العبيد بواسطة زلزال على أطراف إيطاليا واقتيدوا ليقوموا بأعمال الحفر على طول الطريق (من روما إلى كايوا) حيث صلب ٦٠٠٠ منهم . فى ذلك الوقت كان لوسيوس لوكولاس مشغولا فى إخماد الاضطرابات التى قام بها ميتريدس واستطاع فى الفترة بين عام ٧٣ — ٦٩ ق . م من تطهير آسيا الصغرى . ولكن عندما بدأ التقدم نحو أرمينيا قام جنوده بالتمرد فاضطر إلى العودة قبل أن يكمل النصف الثانى من مهمته .

وكان لوكولاس قائداً كفأً وشجاعاً كما كان إنساناً يعترف بالقيم الإنسانية أكثر من

(١) جنايوس بومبيوس : - وهو أحد ضباط سولا وقد عرف باسم بومبي « العرب »

أن يكون قاهرًا وغازيًا ، كما كان في نفس الوقت غاية في الصرامة والنظام حتى يضمن ولاء المرتزقة وجنود روما المحنكين . وبعد عودته اعتزل الحياة العسكرية ليقضى بقية حياته في هدوء وترف ونعيم .

وكانت أقوى شخصية في روما خلال الستينيات هو بومبي ، وخلال حروب ميتريدس أصبحت القرصنة مصدراً للازعاج والخطورة ، فكانوا يعملون في جميع أنحاء البحر الأبيض في تعاون قريب ، متخذين كريت وسيليسيا قاعدة لهم . وكانوا يمتلكون حوالي ١٠٠٠ سفينة مطلية بالذهب والفضة والأرجوان .

وكانوا يعاونون كل من سيرتوريوس وميتريدس ، وأصبحت غاراتهم تتميز بالجرأة فسببت خسائر فادحة ، واستولوا على مدن وجزر منطقة بحر إيجه وقاموا بغارات على سواحل إيطاليا لاختطاف الأغنياء وعلى سبيل المثال اختطفوا يوليوس قيصر وهو صغير ، وأخطر من ذلك كله هو قطع واردات القمح عن روما لذلك وضع على عاتق بومبي عملية تصفية هؤلاء القراصنة .

القضاء على القراصنة

وقام على الفور بحشد ٢٧٠ سفينة وتكوين عشرون فرقة وقدرًا كبيرًا من المال (٦٠٠٠ تالنت) وقسم كل من البحر الأبيض والأسود إلى ثلاث عشرة قيادة كل منها تحت أمرة قائد يسمى ليجاتوس . وكان كل ليجاتوس عليه أن يحاصر سفن القراصنة مع إخضاع قلاعهم الموجودة في منطقتهم . وكان هؤلاء القادة يعملون متعاونين لمنع سفن القراصنة من مساعدة بعضها البعض . وفي ربيع عام ٦٧ ق . م قام بومبي ومعه أسطول مكون من ستون سفينة وأخذ يجوب البحر المتوسط من الغرب إلى الشرق . وكان يستخدم أسلوباً تكتيكياً مستحدثاً بأن يجبر سفن القراصنة للدخول في مدى الضرب لسفنه الأخرى المنتشرة في المنطقة . وفي خلال أربعين يوماً تم تطهير المنطقة الواقعة غرب إيطاليا . وقام بزيارة سريعة لروما لتنفذ الأمور السياسية ثم استأنف عملياته من برونديزيوم^(١) . ومع تحرك الرومان شرقاً تحول حصار موانئ سيليسيا إلى هجوم شامل بينما كان الغرب في حالة من الأمان ، وأخذت

القراصنة في الاستسلام عندما شاهدوا المعاملة الحسنة للأسرى. أما القراصنة الأقوياء المتهورين فقد هربوا إلى حصون مختلفة. فأعد بومبي قوة كبيرة معززة بأدوات الحصار وبعد أن هزم آخر القراصنة أمام شواطئ كوراسيزيوم ، قام بحصار معقلهم الموجود على الشاطئ وكان عبارة عن قلعة مقامة على صخرة عالية منحدرة بحدة على البحر وتتصل بالشاطئ عن طريق برزخ ضيق ، وباستسلام المدافعين في هذه القلعة استسلمت باقي القلاع في سيليسيا ، وقد استغرقت عملية التطهير من بدايتها إلى نهايتها حوالى ثلاثة شهور . وقد أظهر بومبي مقدرة رائعة كقائد بحرى ليس لأنه من قادة الحرب البرية بل أيضاً لأن الرومان كانوا قليلي الخبرة في معارك البحر . ولكن عندما استدعت الظروف لذلك ، عادوا إلى قتال البحر ولكن عندما انتهت تلك الظروف عادوا ثانية إلى حياة الأرض واضعين السياسة الخارجية والاستراتيجية في إطار يمكنهم من تحقيق أغراضهم من هناك . ولم يبنوا أسطولا كبيراً إلا عند اضطروا للقتال مع القوة البحرية الكبيرة القرطاجية . واستطاعوا في خلال ستون يوماً بناء ٢٠ سفينة من النوع ثلاثى المجاديف و ١٠٠ أخرى من السفن السريعة . وكانت الخطة التى اتبعوها هى وضع السفن الرومانية على طول خط سفن الأعداء بحيث يمكن لجنودهم من العبور بعد ذلك إلى سفن الأعداء عن طريق ممرات خشبية توصل بين السفينتين .

وحقق ديليوس نصراً مثيراً بالأسطول الجديد فى صقلية فقد أغرق أو أسر أربعة وأربعون سفينة معادية .

بينما ضاع النصر الثانى أمام رأس أيسكونامس عندما فقد الأسطول على أثر عاصفة هوجاء وفقدت روما خلال تاريخها البحرى سفناً نتيجة للعوامل الطبيعية أكثر مما فقدته نتيجة للعدو ، وكان انتصار دريبانا البحرى عام ٢٤١ ق . م خاتمة للحرب القرطاجية الأولى . وفى الحرب القرطاجية الثانية ، (٢١٨ — ٢٠١ ق . م) ساهم تفوق روما البحرى فى تحقيق انتصارها الكامل ، فضاعت الفرصة من هانيبال لإعادة تقوية نفسه فى جنوب إيطاليا فى الوقت كان الرومان يغزون أفريقيا . وقد أهملت روما أسطولها خلال القرن الثانى ق . م واعتمدت على أسطول حلفائها من رودس وبرجاموم . وعندما أصبحت روما المسيطرة على جميع بلاد البحر المتوسط ، أهملت سيادتها للبحار ونتج عن ذلك إنتشار القراصنة .

أما في نهاية عام ٥٩ ق . م وصلت أنباء الى روما بقيام هجرة من سويسرا عبر الجنوب الغربي للغال .

يوليوس قيصر يظهر على مسرح السياسة : — (أنظر اللوحة رقم ١٠)



كلف يوليوس قيصر حاكم أليريكوم والغال بهذه المهمة . وبمجرد أن انتهى من واجباته كقنصل في هذا العام تحرك بسرعة فائقة إلى جنيف في ذلك الوقت كان عمره ٤١ عاماً وتجربته العسكرية السابقة محدودة ، ففي عام ٨١ ق.م خدم في آسيا الصغرى ، وفي حرب ميتيلين حصل على وسام الوطنية لإنقاذه لحياة جندي من زملاءه ، ولكنه بعد ذلك ركز اهتمامه على الأعمال السياسية وضمن لنفسه مركز قنصل بعد أن توصل في عام ٥٩ ق . م لإتفاق م كل ع من بومبي وكراسوس لأنه ابن عم لماريوس . وقد شق يوليوس

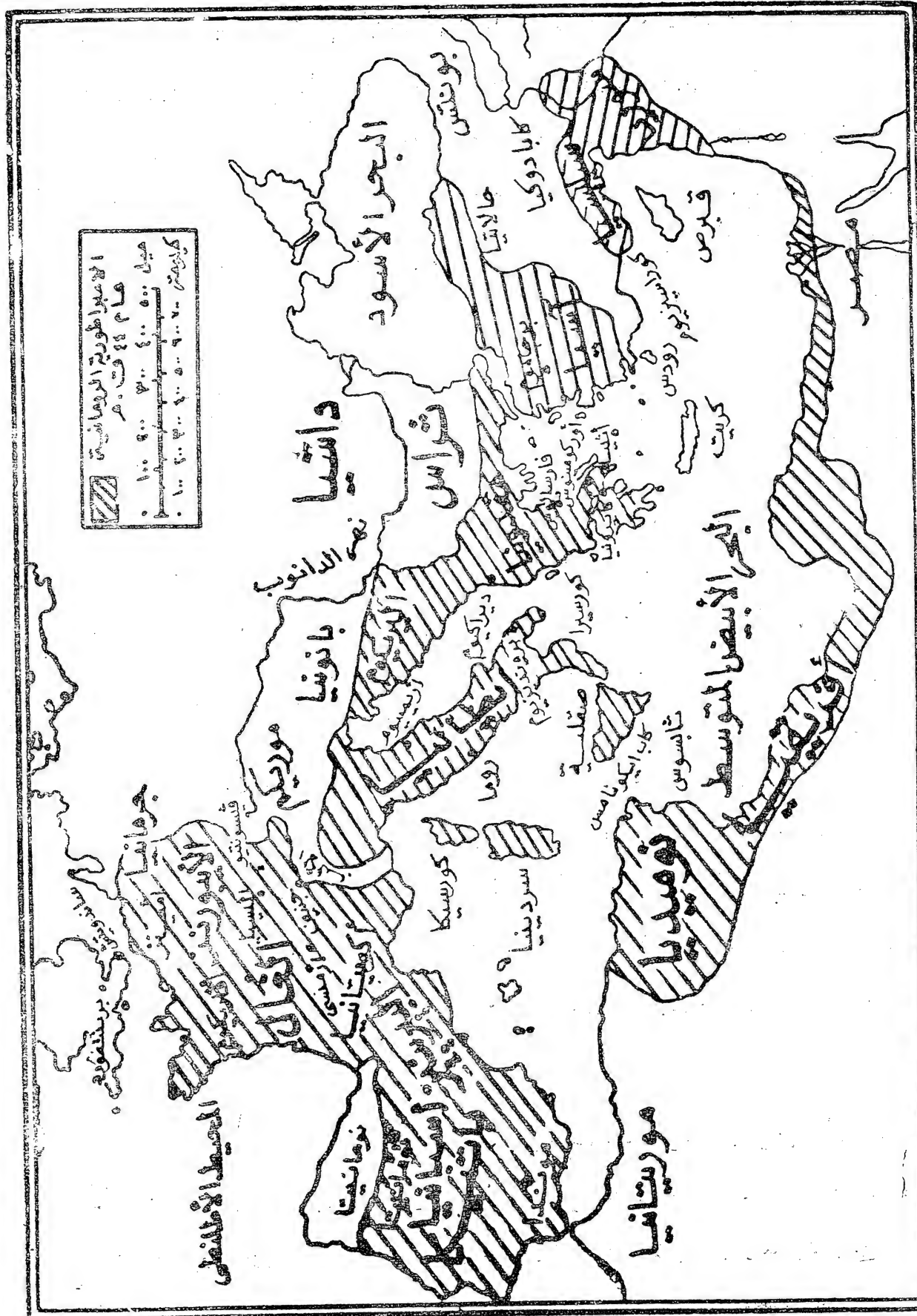
يوليوس قيصر

طريقه وأصبح قنصل عن طريق النفوذ السياسي وجمعه بين التهديد العسكري والقدرة على الخطابة والتعامل مع طبقات الدنيا وعامة الشعب . ومن المحتمل عندما أسرع إلى جنيف عام ٥٨ ق . م مع تيتس لا بينوس لم يكن في نيته غزو الغال ، ولكنه كان طموحاً ويريد إكتساب شهرة ويكون لديه جيشاً قوياً حتى يستطيع البقاء متربعا على قمة السياسة الرومانية .

وفي بداية صيف عام ٥٨ ق م أقام سلسلة من الحصون في وادي الرون لمسافة ١٩ ميل ثم هزم السويسريين بعد ذلك عند أرميسي وتحول بعد ذلك إلى الغال في صورة منقذ وليس فاتحاً ، ثم واصل تقدمه شمال الحدود القديمة لروما لتطهير الألزاس من الغزاة الجرمان الذين استوطنوها حديثاً واكتسحت ستة فرق ليوليوس في تشكيل الخطوط الثلاثة سبعة قبائل جرمانية بالقرب من فيسوننتيو .

وفي شتاء ٥٨ — ٥٧ ق . م ترك يوليوس فرقة في تلك المنطقة مما أدى إلى حقد بيلجا^(١) لهذا الاختراق للجيش الرومانية . وفي ربيع ٥٧ ق . م هرع يوليوس قيصر شمالاً ليواجه الجيش البيلجي المكون من ٣٠٠.٠٠٠ مقاتل بقيادة جاليا عند نهر إيسن . وقد اتبع الجيش البيلجي أسلوباً بدائياً بربرياً فقاتلوا بجماعات غير منظمة من المشاة ، ومعظمهم غير مسلحين

(١) بيلجا . — إحدى أجزاء التحالف الجرمانى للقبائل التي استوطنت شمال الغال . «المعرب»

[illegible]

إلا بسيف طويل ودرع من الخشب أو الوتل^(١) وكانوا يقاتلون وهم نصف عرايا، في نفس الوقت قادتهم يلبسون دروع واقعية للصدر من البرونز وعلى رؤوسهم خوذات مزخرفة . وقد كان أسلوبهم الوحشي البربري في القتال ينجح دائماً، ولكن عندما طبقوه مع الرومان كما قال فوللر : « تحطمت الشجاعة على صخرة النظام » واستغل يوليوس الانشقاق بين قبائل البلجية فخارب كل قبيلة على حدى وفي نهاية عام ٥٦ ق . م تم له فتح كل الغال فيما عدا « ماسيف الوسطى »

يوليوس قيصر يغزو بريطانيا

وفي خريف عام ٥٥ ق . م قام يوليوس قيصر بأول رحلة له إلى بريطانيا وفي الواقع كانت رحلة استطلاعية . وفي يوليو عام ٥٤ ق . م أبحر سطول يمكن أن يقال عنه من أضخم ما شهدته بحر المانش لما قبل حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ متجهاً نحو ساندويتش ويحمل خمسة فرق و ٢٠٠٠ فارس من الغال وكان البريطانيون منزعجين جداً من مواجهة هذا الحشد الضخم عند نزوله إلى الشاطئ فما كان من يوليوس أن طاردهم داخل البلاد ولكنه سمع خلال أربع وعشرين ساعة بأن سفنه دمرت نتيجة للطقس السيء وهنا تشجع البريطانيون وبدأوا حرب العصابات وكانت عنيفة يقودها كسفيلونس . وعموما فقد هزمهم يوليوس في معركة بالقرب من بريننفورد واستولى على قلعة كسفيلونس على الجانب الآخر من نهر التيمز . وحين الوقت ليعود إلى الغال لذلك فرض شروطاً معتدلة على البريطانيين ثم انسحب ولم يعد الرومان بعد ذلك إلى بريطانيا لمدة مائة عام . ولم يحدث مطلقاً أن دفع البريطانيون ما فرض عليهم من الجزية . ويجب النظر لعملية الغزو الذي قام بها يوليوس لبريطانيا بشيء من العمق ويمكن تفسيرها بأنها مجرد تغطية للفشل .

ولم يكن عامل الوقت هو الاعتبار الوحيد لعودة يوليوس إلى الغال ولكن لأعتبارات أخرى أكبر وهى قيام الثورات التي تفجرت في عدة أماكن هناك . وفي عام ٥٣ ق . م ظهر أمبيوريكس قائد للمتمردين وكان يقود الأيبورنز وقد أباد فرقة رومانية كاملة

بالقرب من أمينز ثم حاصر معسكراً رومانياً مستخدماً الأسلوب الرومانى فى الحصار . وقد قام يوليوس بفك هذا الحصار . فاضطر يوليوس أن يقضى باقى السنة فى سحق الأيبورونز . أما أمبيوريكس فقد دفع به نحو الأردن ، كما جلد قائداً آخر للمتمردين حتى الموت . وبنفس النمط تمت تصفية الأيبورونز بتدمير محاصيلهم وماشيتهم كما يقول يوليوس : --

« لقد تم حرق كل ما يمكن أن يراه المرء من قرى صغيرة ومنازل وما حولها » وقد ساعد الانشقاق العميق بين المتمردين أن استطاع يوليوس النيل منهم ، ولكن فى عام ٥٢ ق . م ظهر قائد جديد لهم .. وتمكن بقسوته ونظامه أن يوحد بين ثوار الغال وكان يدعى أئتوى فرسنجتر كس قائد الأرفيرنى .

فى بداية العام قام يوليوس بتقدم مفاجئ عبر التلال الثلجية ، مما أدى إلى ارباك العدو حتى أمكن محاصرة القلعة التى يحتلها أفاريكوم (بوج) وهنا قرر فرسنجتر كس استخدام أسلوب حرب الانهباك والاستنزاف وتجنب مواجهة فرق يوليوس بقتال سافر ، وذلك باستخدام حرب العصابات . وحاول فك حصار أفاريكوم بأشعال النيران فى المنطقة حول المدينة كلها لحرمان الرومان من الطعام ، ولكن يوليوس أستولى على المدينة وقتل جميع سكانها واستولى على مخازن القمح بها . وأخيراً استطاع يوليوس محاصرة القلعة التى يحتلها فرسنجتر كس نفسه فى باليسيا ولكنه هوجم بجيش قوى من الأعداء من الخلف وحاصره هو وقواته ، وبذلك أصبح يوليوس محاصراً بينما هو يحاصر القلعة إلا أنه سيطر على مساحة خمسة وعشرون ميلاً من الخنادق والمواقع الدفاعية ، وفى النهاية تمكن من هزيمة الجيشين المعادين داخل وخارج القلعة وكان هذا الانتصار الرائع بمثابة تحطيم السلسلة الفقرية للثورة الغالية وتم وضع سلام مبنى على الحرية وبذلك لم تعد الغال تمثل أى خطر على روما .

وفى نفس الوقت تغير الوضع السياسى فى إيطاليا تغييراً كاملاً .

كارثة روما

وفى ربيع عام ٥٣ ق . م عبر كراسوس^(١) نهر الفرات حيث اصطدم بالعدو عند كارا ،

(١) كان جيش كراسوس مكوناً من ٢٨٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاة الخفيفة

وكان جيش العدو يتكون من ١٠٠٠ مقاتل من الرماة الثقيلة و ١٠٠٠٠ من الرماة
الراكبين وخلف هؤلاء يوجد ١٠٠٠٠ رجل يحمل بأعداد كبيرة من السهام كاحتياطي للقوات
تحت قيادة سورناس . اتخذت القوة الرئيسية لجيش كراسوس تشكيل مربع وصمدوا أمام
وابل من السهام الذي ظل ينهمر عليهم حتى هبط الليل . وخلال الليل بدأ كراسوس في
الانسحاب نحو التلال ، ولكن الدليل الذي كان يقوده ضل الطريق ... وسقط كراسوس
في الفخ ، ثم اغتيل هو وأركاناته حربه أثناء اجراء مفاوضات الاستسلام مع سورناس
وفى حوالي ١٠٠٠٠ مقاتل من جيش كراسوس الذي يقدر بحوالي ٣٦٠٠٠ مقاتل وكانت
معركة كارا بمثابة كارثة للرومانين إذا قورنت بكل من كودين فوركس و كانا .

وفى خريف عام ٥٠ ق . م عندما عاد يوليوس إلى إيطاليا ، لم يكن هناك سواء ...
وبومبي يتصارعان على السلطة . وقد ذاع في روما قسوة يوليوس قيصر في الغال ، ونحوف
الجميع أن يصبح سولا آخر وقد صرح بعض الشيوخ علانية بأنهم سيتهمونه بالخيانة العظمى
بسبب عودته ، وفى هذه الظروف لن يكن هناك مفرأ من حرب أهلية وخاصة أن يوليوس
له جيشاً يدين له بالولاء والإخلاص ويتكون من تسعة فرق أما بومبي فله جيشاً مكوناً من
عشرة فرق منها سبعة في أسبانيا علاوة على سيطرة بومبي على الأسطول . وكان يوليوس
يحظى بولاء شعبي أكثر مما يحظى به بومبي .

وفى يناير عام ٤٩ ق . م تأهب يوليوس للحرب وعبر نهر روبىكون^(١) زاحفاً نحو
الجنوب ، أما بومبي فلم تكن لديه الرغبة في الدخول في معركة سافرة مع فاتح الغال وقواته
المحترفة المحنكة وذلك لأنه لم يشهد أى عمل حربي منذ عام ٦٢ ق . م علاوة على ضعف قواته
من الناحية العددية والتدريب ، ولذلك قام فى نهاية شهر مارس بترحيل جيشه بحراً من
برونديزيوم ، فى الوقت الذى كان يزحف فيه يوليوس وجيشه نحوه . وفى خلال عشرة أسابيع
من عبور يوليوس لنهر روبىكون تمكن من السيطرة على إيطاليا ودخل روما دون
أى قتال .

وفى أبريل عام ٤٩ ق . م رحل يوليوس إلى أسبانيا ، وهناك خلال سبعة شهور أخضع

الفرق السبعة التابعة لبومبي دون أراقة أى دماء وضمن ولائهم . وبعدها زحف سريعاً وعند نهر سيكوريس بالقرب من إليردا أوقع خصمه فى شرك فى إحدى المرات الضيقة حيث استسلمت هذه القوات .

يوليوس قيصر وكليوباترا

وفى يناير عام ٤٨ ق . م عبر يوليوس وجيشه إلى مقدونيا ، حيث تسلل خلف سفن دوريات بومبي وأنزل سبعة فرق شمال كورسيرا . وحاصر جيش بومبي فى ديرا كيوم مدة من الوقت حتى بادر جيش بومبي بالقتال فى ٩ أغسطس ودارت أعنف المعارك فى الحرب الأهلية وخاضها الجيشان عند فارسالوس فى بتيسالى . وكان بومبي يرغب قبل وقوع هذه المعركة فى تجنب القتال ولكن ضباطه نفذ صبرهم ، وأدى هذا أن لحقت الهزيمة بجيش بومبي منذ البداية لاختفاق لاينوس فى دفع فرسانه الموجودين فى اليسار إلى المعركة . وفى اليوم التالى استسلمت جميع القوات المتبقية من جيش بومبي بينما فر بومبي إلى مصر . وبعد ذلك كان على يوليوس أن يتخلص من أتباع بومبي الموجودين فى مختلف المقاطعات ، فقام أولاً بالسير فى أثره إلى مصر حيث قتله ووقع فى حب الملكة كليوباترا ، وبقي فى مصر تسعة شهور . وفى يوليو عام ٤٧ ق . م تمكن من هزيمة الفارناس المتمردين فى زيبلا وأرسل بعدها رسالة إلى روما موجهة إلى أعضاء مجلس الشيوخ يبلغهم بانتصاراته العظيمة . مر حوالى عام على معركة فارسالوس فى ذلك الوقت وحد أتباع بومبي صفوفهم فى أفريقيا تحت قيادة لاينوس . وفى ديسمبر عام ٤٧ ق . م نزل يوليوس قيصر إلى أفريقيا بفرقة واحدة و ٦٠٠ فارس ، وفى البداية إصطدم بمقاومة عنيفة ، ولكن وصله فى الربيع التالى الإمدادات والتعزيزات فساعدته على إنهاء حملة أفريقيا بانتصاره فى ثابسوس .

وفى عام ٤٥ ق . م هزم آخر ما تبقى من أتباع بومبي فى أسبانيا عند موندرا^(١) وبذلك أصبح يوليوس قيصر سيد العالم كما أصبح دكتاتور روما الدائم .

وبالرغم من أن حكمه لم يكن بغيضاً إلا أنه اغتيل فى نهاية الأسبوع الثانى من مارس عام ٤٤ ق . م على يد كل من الجمهوريان بروتس وكاسيوس .

يوليوس قيصر كقائد وسياسي

بالرغم مما حققه يوليوس من نجاح وانتصار كبير ، إلا أنه كان عرضة للنقد ، فقد فشل في إجراء التغييرات الضرورية لإعادة تنظيم جيشه فكان يفتقر للمشاة الخفيفة مما استغرق وقتاً أطول في هزيمة الغالين ، علاوة على أنه لم يهتم بتدريب فرسانه للوصول إلى المستوى اللائق ، بل اعتمد على البرابرة في الخيالة . وقد كان الاستطلاع في جيشه رديئاً جداً وأهمل خطوط مواصلاته وأدى هذا الإهمال أن أسطوله كاد أن يفقد مرتين عند الساحل البريطاني ولم يكن لديه هناك أجهزة لإجراء الإصلاحات اللازمة ، علاوة على سوء الإمداد وقطع خطوط المواصلات عند كل من إيرادا وديراكيوم لدرجة أن الكثير من جنوده كانوا يموتون جوعاً .

علاوة على ذلك كان يوليوس قيصر شاذاً في تفكيره الاستراتيجي ، فبعد أن قضى على الغال قام بقضاء الصيف في جزيرة نائية ، ليس لها أى أهمية اقتصادية أو سياسية أو استراتيجية ، بينما كانت تندلع خلفه ثورات كثيرة . ولم يظهر يوليوس أى أبداع كرجل تكتيكي وتنظيمي ، فأهمل قوات الفرسان ، وقاتل في جميع حروبه ضد مختلف أعدائه بالفرق المشككة على ثلاث خطوط وهو التشكيل التقليدي المحض ولكنه بالرغم من ذلك كان أعظم قادة الرومان في قيادة المشاة علاوة على قيامه بتطوير الفرق المشاة بعض الشيء .

وكان نهجه في السياسة كنهجه في القتال ، فعندما وصل إلى قمة السياسة كانت قراراته وأعماله سريعة . وكان جريئاً لأبعد الحدود ومندفعاً بل ومتهوراً ، وعلى العموم ساعدته خفة الحركة والمبادأة في جميع حروبه .

وكانت شخصية يوليوس مميزة ومن أكبر عوامل نجاحه ، فجرد أن يشعر جنوده بوجوده بينهم كان هذا يعطيهم التأكد والثقة في النصر . وكانت بشاشته وذكائه من العوامل التي أدت إلى إخلاص رجاله له حتى النساء لم تستطع مقاومته . وكان في نفس الوقت سياسياً ماهراً وله شعبية وموهبة خطابية فذة . وكان السبب الرئيسي في أن الشعب الإيطالي تبعه في الحرب الأهلية هي شعبيته وحبه لعامة الشعب . وكان يعتمد دائماً على القوة والبطش ومثال لذلك ما قام به في الغال من بشاعة وقتل وانتقام بالرغم من ذلك فعندما

انتصر في الحرب الأهلية كان متسامحاً ومتساهلاً مع أعدائه ، ولذلك أصبح من المشكوك فيه أن يكون مختل العقل .

وبعد موته . . . تصارع مختلف السياسيين طمعاً في إمبراطوريته ، إلى أن تمكن أخيراً ابن أخيه أوكتافيان من هزيمة أنطونيو وكليوباترا في موقعة أكتيوم البحرية عام ٣١ ق. م وبذلك أصبح أول أباطرة روما .

الفصل السادس

الدفاع الروماني ... والهجمات البربرية

عقدة ماجينو

لقد ظهر أن أوكتافيان^(١) كان يفتقر إلى الصفات العسكرية التي يتمتع بها يوليوس قيصر إلا أنه كان يتميز بصفات رئيس الدولة والتي يفتقر إليها يوليوس .

وقبل أن نتكلم عن عهد أوكتافيان سنلقي نظرة سريعة على الأمبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط بعد أن توسعت أبان عهد القيصر ، فنجد أنها كانت محصنة ومدافع عنها جيداً لتركز الجنود على طول حدودها فأدى هذا أن إستمرت قوية لأكثر من ٤٠٠ عاماً، إلا أن القوات إستمرت في الدفاع مدة طويلة واستخدمت بطريقة سيئة فأثر ذلك على قدرتها القتالية ، وهذا يحدث دائماً في جميع الجيوش التي تبقى قوتها مدة طويلة في أوضاع الدفاع فتموت الروح الهجومية لديها ممهدة بذلك الطريق لما يسمى بعقدة ماجينو^(٢) ،

وعلى مر السنين كثر دخول البرابرة الجيش الروماني نتيجة لبطوط التعداد السكاني في إيطاليا مع بغض الإيطاليون أنفسهم للخدمة العسكرية ، فأدى هذا أن أخذت التقاليد العسكرية الرومانية العريقة في الانحلال تدريجياً ، لأن البرابرة قضوا على الضبط والربط والكفاءة التي تميزت بها الفرق الرومانية في الماضي ، فتغيرت شخصيتها تغييراً جذرياً. فأخذت الأمبراطورية تتآكل ببطء من الداخل وفي نفس الوقت من الخارج نتيجة للهجمات الغازية للشعوب البربرية حتى اضمحلت الأمبراطورية الرومانية في الغرب سريعاً .

(١) أوكتافيان : لقد أطلق عليه اسم أغسطس .

(٢) ماجينو : هو الخط الدفاعي المحصن التي أنشأته فرنسا على حدودها مع ألمانيا وذلك قبل الحرب العالمية الثانية وقد اعتمدت عليه تماماً في الدفاع عن أراضيها معتقدة أنه لا يمكن اختراق هذه التحصينات القوية ، فأدى هذا أن سيطرت فكرة الدفاع على جميع القوات الفرنسية متغاضين عن فكرة الهجوم ، فنتج عن هذا أن أجتاحت فرنسا في أيام معدودات . « المغرب »

نعود ثانياً إلى أغسطس الذي تنبه إلى الحالة السيئة للجيش الروماني والتي أصبحت أبعد ما تكون عن المستوى المطمئن ، فنجد أن الجيش كان مكوناً أساساً من الحاشية الخاصة للامبراطور ومعظم جنودها قليلي الخبرة ومدد خدمتهم قصيرة .

رأى أغسطس من الضروري تحصين حدود إمبراطوريته المترامية الأطراف والسيطرة على المناطق التي فتحت حديثاً مع صد غارات وأعمال الغزو من الخارج ، فوجد أن كل هذا يتطلب وجود جيش منظم وجنود أكفاء ولهم مدد خدمة طويلة وفي نفس الوقت يدينون بالولاء للدولة أكثر من ولائهم للقادة العسكريين .

وفي عام ٣١ ق . م قدر أغسطس الموقف فوجد أن لديه ستون فرقة تحت السلاح ولكن تكاليف هذه القوات كانت أكثر بكثير من إمكانيات الدولة ، في نفس الوقت تعدادها أكبر مما هو مطلوب لحماية الإمبراطورية الرومانية بالرغم من حدودها الطويلة^(١) ، في نفس الوقت درس الموقف الجغرافي والسياسي للإمبراطورية الرومانية فوجد أن الحدود الغربية والجنوبية تتمتعان بحماية طبيعية لوجود الأطلنطي والصحراء الكبرى ، أما الحدود الشرقية فوجد أن من الأفضل استخدام الوسائل الدبلوماسية لتأمينها بدلاً من استخدام القوة ، أما الحدود الشمالية فتحتم عليه وجود حامية قوية لتأمينها .

وبناءً على هذه الدراسة قام بتخفيض الفرق إلى ثمانية وعشرون فرقة ، وأصبحت قوة الفرقة حوالي ١٦٨٠٠٠ جندي مع الاحتفاظ بحوالي ١٥٠٠٠٠ جندي كاحتياط وأغلبهم من الفرسان والمشاة الخفيفة ، وقد شكلت الفرسان في كتائب يتراوح عددها من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ فارس . كما أعاد أغسطس تكوين الحرس البريتوري^(٢) وشكله في تسع كتائب وقوة الكتيبة ألف جندي إيطالي مختارين جيداً وأقوياء ، وكانوا هؤلاء يمثلون حامية روما وفي نفس الوقت الحرس الخاص للامبراطور . وكان يتقاضى الحرس أجوراً أعلى من باقي الجيش ، ولا يخرج للقتال إلا بصحبة الأمبراطور نفسه وقد شعر البريتوريون سريعا بقوتهم

(١) كانت تشمل جميع بلدان ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد امتدت أيضاً على طول الدانوب والراين و خلال اسكتلندا .

(٢) الحرس البريتوري : وهو الحرس الخاص للامبراطور « المغرب »

وتأثيرهم على سياسة الدولة حتى أصبحوا يتدخلون في جميع مصالح الدولة ويسيرونها حسب هواهم ، لدرجة أن نيرون انتحى عام ٨٦ ب . م ليتجنب الإعدام بواسطة رجال الحرس^(١) ولذلك لم يكن هذا الحرس محبوبا .

المدركات في عهد أغسطس

لو ألقينا نظرة على الأعمال التي كانت تقوم بها البحرية الرومانية لوجدنا أنها تنحصر في الدوريات وحراسة المياه الصديقة ، إلا أنها كانت قوة لا يستهان بها ، فقد أنشأ أغسطس قاعدتين بحريتين جديدتين في إيطاليا أحدهما في ميسينوم والأخرى في رافينا علاوة على وجود سفن تحت أمرة كل حاكم إقليم غير مجموعات من السفن تجوب الأنهار الموجودة على الحدود . وعلى كل فكانت مهنة البحرية في ذلك الوقت غير محترمة لأن جميع جنود التجديف كانوا من العبيد بينما كان جنود الجيش يتمتعون بالهبة والإحترام .

أما إذا بحثنا سويا في المعدات والاستراتيجية والتكتيك في الجيش الإمبريالي الروماني لوجدنا أنها لم تتغير لمدة ثلاثة قرون ونصف قرن وذلك منذ عهد سيبو وماريوس والقيصر . فالجيش الروماني كان يتحرك للقتال عادة في طابور طويل حتى عام ٦٧ ب . م ، إلا أن فسبازيان وجوديا غيرا هذا النظام بتقسيم الجيش المتحرك إلى مقدمة وقوة رئيسية ومؤخرة والمقدمة^(٢) تتحرك في تنظيم معين فكانت تدفع في الأمام مجموعات من مشاة وفرسان الفرق ثم وحدة من المهندسين فأمثلة الضباط الكبار تحت حراسة من الفرسان فالقائد العام وتصحبه نخبة منتقاة من المشاة والفرسان كحرس خاص له . يتبع المقدمة القوة الرئيسية للقوات بقيادة الفرسان فوحدة تحمل معدات وأجهزة الحصار على ظهور البغال ثم قائد الفرقة وأركان حربهم ثم الأعلام وعازي الأبواق ثم جنود الفرقة نفسها في تشكيل ستة صفوف ، أما المؤخرة فيسير فيها حرس المؤخرة من القوات المرتقة وجميع أمثلة الفرقة . وكان التشكيل المتبع للقوات هو ستة صفوف إلا أنه يتغير في الأرض الوعرة أو عند توقع هجوم العدو ويصبح أربعة

(١) لقد كان قائد الحرس سيجانوس من المقربين إلى تيبيريوس .

(٢) المقدمة تتشكل من مشاة خفيفة ورماة سهام من القوات الأجنبية . «المعرب»



الحرس البريتوري (الحرس الخاص للأمبراطور)

صفوف متوازية ليسهل إتخاذ تشكيل المعركة وبسرعة . وقد إستمر تشكيل القتال كما هو^(١) حتى القرن الأول ب . م ، وخلال القرن الثاني ب . م عاد الجيش مرة ثانية إلى تشكيل كتائب المشاة الثقيلة ، وأصبحت القوات الاحتياطية المتحالفة في ذلك الوقت على جانب كبير من الكفاءة وكان عليها القيام بمهمة الاستطلاع الأولى وتقدير الموقف بينما تقوم القوة الرئيسية من المشاة الثقيلة بخوض غمار المعركة وتحمل وطأة القتال الفعلي . وقد أستخدم في ذلك الوقت تشكيل آخر وهو التشكيل المدرع^(٢) ويستخدم في التقدم والانسحاب لوقاية القوات من القذائف المتساقطة عليهم . وخلال القرن الثالث ب . م ظهر سلاح جديد وهو اللانسا^(٣) وحل محل الحربة القديمة التي كان يطلق عليها بيلوم .

النساء يستخدمون المعركة

(أنظر اللوحة رقم ١١)

وبالرغم من قوة وازدهار الإمبراطورية الرومانية إلا أن حدودها الشمالية لم تحدد معالمها تماماً وذلك لأن أغسطس كان يهدف من ذلك الزحف إلى الأمام نحو نهر الدانوب والألب . وفي الفترة ما بين عام ١٧ — ١١ ق . م قام تيبيريوس^(٤) بتأمين خط الدانوب ، وفي نفس الوقت قام درسوس^(٥) بإقامة معسكرات محصنة على الراين مع تولى مهمة التقدم نحو الألب ، وبعد مسيرة طويلة وشاقة في المناطق الجبلية والغابات وصل إلى نهر الألب في عام ٩ ق . م وهناك مات ، وعليه اسندت قيادة الحملة في ألمانيا لتيبيريوس إلا أنه في خلال الفترة ما بين عام ٦ ، ٩ ق . م استدعى إلى بافونيا لإخماد ثورة خطيرة قامت هناك وخلال هذه الفترة تراخت سيطرت الرومان على ألمانيا وبطريقة خطيرة . وكان الشعب الألماني لا يرضى إستعراض القوى الرومانية ، ولذلك عندما تراخت القبض على الرومانية حول الجرمان نظامهم العسكري الفطري على الفور إلى طاقة هائلة وجبارة ولم يعتمدوا على أحد في تكوينها ولم

(١) كانت الفرقة المشاة تشكل للقتال في ثلاثة خطوط .

(٢) التشكيل المدرع عبارة عن سائر متحرك من الجنود الذين يحملون الدروع ، بحيث يرفع جنود الصف الأول الدروع حتى تصبح أمامهم ، بينما يرفعها جنود الصفوف التالية فوق رؤوسهم وبذلك يصبح هناك غطاء من الدروع يحمي جميع القوات .

(٣) اللانسا عبارة عن حربرة خفيفة .

(٤) تيبيريوس هو الأخ الربيب لأغسطس .

(٥) درسوس هو شقيق تيبيريوس . « العرب »

يكلوا مطلقاً . وقد وصف تا كيتوس في كتابه « جرمانيا وسجلات التاريخ » الحرب بين الرومان والجرمان بطريقة واقعية وحية وشاملة ، فكانت فلسفة الجرمان كما يقول : —

« أعمل ببطء وتأن ومجهد لتحصل بعرقك ما يمكن أن تحصل عليه بأراقة دمك »

وقد وصف أسلوب حربهم كما يلي :

« كان القليل من الجرمان مسلحين بالسيوف أو الرماح الطويلة ، أما الغالبية العظمى فيحملون الحراب القصيرة وكانت تسمى في لغتهم « فراميا »^(١) وهي سهلة الاستخدام وتستعمل في الالتحام القريب وأيضاً من المسافات البعيدة . أما تسليح الجندي الراكب فكان الدرع والفراميا أما المشاة فكانوا لا يرتدون أى ملابس للقتال ولكن في بعض الأحيان يرتدون معاطفا ويحملون دروعا ذات ألوان مختلفة والقليل منهم لديهم دروعا واقية للصدر ونادراً ما يلبسون خوذات معدنية وعند القتال يطلقون قذائفهم من مسافات بعيدة ولذلك افتقروا إلى الشجاعة . أما الجياد فكانت هي الأخرى تفتقر إلى الجمال والسرعة وهذا أدى أن أصبحت القوة الرئيسية لقواتهم تتكون من المشاة ويعاونها الفرسان . وكان تشكيل القتال لديهم عبارة عن خطوط متداخلة فكنهم هذا من الانسحاب ثم متابعة الهجوم ثانية وبطريقة تكتيكية سليمة . وكان يعتبر ترك الجندي لدرعه أعلى درجات الخزي والعار ومن يفر من ميدان القتال ينهى عاره على جبل المشنقة . وكان لهم رموزاً معينة وشعارات تحمل أثناء المعركة لرفع معنويات الجنود . وكانت روابط الأسرة والنسب من أقوى الحوافز للشجاعة والأقدام ونجد أن بعض المعارك الخاسرة إستعادتتها النساء بصلواتهن الدائبة وأصرارهن على المحافظة على أعراضهن » .

القرابين لآلهة الألمان

بعد رحيل تيبيريوس أظهرت ألمانيا ولفترة من الوقت الهدوء الخادع ، ولكن آرمينيوس قائد تشيروسي عام ٩ ب . م نصب كميناً لثلاثة فرق رومانية في غابة تويتو بور جرفالد^(٢)

(١) فراميا : عبارة عن حربة قصيرة ذات رأس حديدية مدببة وحادة .

(٢) تقع غابة تويتو بور جرفالد شمال غرب ألمانيا . « المغرب »

أثناء سيرهم خلال أدغال ومستنقعات الغابة في يوم عاصف راعد وقد قام الألمان باطلاق وابل من رماحهم على القوات الرومانية مع مهاجمتهم بكل قوتهم طوال هذا اليوم العاصف حتى لم يعد في مقدور الرومان دفع الألمان بعيداً عنهم .

وأدى هذا أن انتحر كل من بوبليوس كوينتيوس^(١) وأركان حربيه، أما الجنود الذين لم يلقوا مصرعهم أثناء المعركة ، فقد صلب بعضهم أما البعض الآخر فقد دفن حياً أو قدم قربانا لآلهة الألمان .

وفيما بين عامي ١٤ ، ١٧ ب . م قام جيرمانيكوس بمحاولة لاختضاع المنطقة الواقعة بين الرين والألب ولكن واجهته صعوبات حمة بسبب طبيعة المنطقة المماوءة بالغابات والمستنقعات وقد استغلها قائد الأعداء آرمينيوس استغلالاً كاملاً ولصالحه ، إلا أن جيرمانيكوس استطاع أخيراً إلحاق الهزيمة بآرمينيوس عند أديستافيسو^(٢) ، وقبل هذه المعركة قام جيرمانيكوس بمثل ما قام به هنري الخامس في اجينكورت ، فأخذ يطوف بجنوده متنكراً تحت إسم مستعار وقد اكتشف بالرغم من هبوط معنويات قواته إلا أنهم يكتفون له كل اخلاص وولاء . وقد تسلسل بعض رجال العدو إلى خطوط قواته وأخذوا يغرون القوات بالهروب والانضمام إلى الألمان وبذلك يضمن كل منهم زوجة ألمانية ومالا وفيراً وأرضاً يمتلكها ، إلا أن الجنود ردوا على هذا العرض بقولهم : - « أننا لن نعجز على الحصول على النساء الألمانيات بعد معركة الغد » .

وفي صباح اليوم التالي وقبل خوض المعركة تحدث جيرمانيكوس إلى جنوده وأصدر لهم تعليماته وأوامره بخصوص المعركة وما سيتبعونه من تكتيكات مع العدو وقد وعدهم بالنصر مما أدى إلى رفع معنوياتهم .

(أنظر اللوحة رقم ١١)

معركة اديستافيسو

تقع أديستافيسو في سهل منحني بين نهر الويزر والتلال مع وجود غابة في مؤخرتها وقد وصف تاكتيوس المعركة : -

(١) قائد القوات الرومانية .

(٢) على نهر الويزر غرب هانوفر .

« لقد إحتل الألمان السهل ومخارج الغابة بينما إحتل الشيروسيكيون وحدثهم التلال للقيام بالهجوم عند بدء المعركة . وقد تحرك الجيش الرومانى بدفع احتياطي من الغال والجرمان فى الامام يتبعهم حملة الأقواس المترجلين ثم أربعة فرق^(١) رومانية فخير مانيكوس نفسه ويحيط به كتيبتين من الحرس والفرسان ثم أربعة ألوية^(٢) أخرى .

وكانت تسير القوات فى حالة إستعداد كامل لاتخاذ تشكيل المعركة عند اصطدامها بالعدو . وعند إقتراب الرومان من أديستافيسو قامت وحدات الشيروسى بهجوم خاطف مركز عليهم ، وهنا أمر جيرمانيكوس أفضل فرسانه بمهاجمة أجنحة العدو بينما تلتف باقى فرسانه لمهاجمة مؤخرة العدو ، بينما بقى جيرمانيكوس على رأس باقى الجيش ينتظر اللحظة الحاسمة للهجوم ، وأثناء ذلك رأى فالاحسنا ، فكان يطير ثمانية نسور نحو الغابة ، فعلى الفور صاح « إلى الأمام .. إتبعوا نسور روما .. » فعلى الفور إندفعت المشاة بالهجوم بينما كانت الفرسان تهاجم أجناب ومؤخرة الألمان ، فما كان من الشيروسيين أن فروا من المنحدرات بينما حاول أرمينيوس الأبقاء على سير المعركة ولكن قواته أصبحت بأكملها فى مواجهة رماة جيرمانيكوس وتعرضت لوابل الرماح ، فما كان من أرمينيوس أن فر هو الآخر وأخفى معالم وجهه بتلطيفه بالدماء حتى يتجنب التعرف عليه بينما واجهت باقى قواته مذبحة مروعة ، فمن حاولوا عبور نهر الويزر تكفلت بهم رماح الرومان أو جرفهم تيار النهر ، أما الذين إرتضوا الخزى والذل وهرعوا يتسلقون الأشجار ليختبئوا بأغصانها مرتعدين فقد واجهوا أسوأ مصير لأنهم أصبحوا أهدافا سهلة وأخذت رماة جيرمانيكوس يلهون برميهم بالسهم وإسقاطهم من فوق الأشجار وقد إستمرت عملية الذبح من الظهر حتى الغسق . »

وكان من الممكن أن يتقدم الرومان بعد ذلك نحو الألب ، ولكن وضح أن الألمان لن يقبلوا أبداً المهانة تحت حكم الرومان ، ولذلك تراجع الرومان بعد حملات جيرمانيكوس شبه المنتصرة نحو الرين حتى يستطيعوا الاحتفاظ بحدود يسهل الدفاع عنها نسبياً .

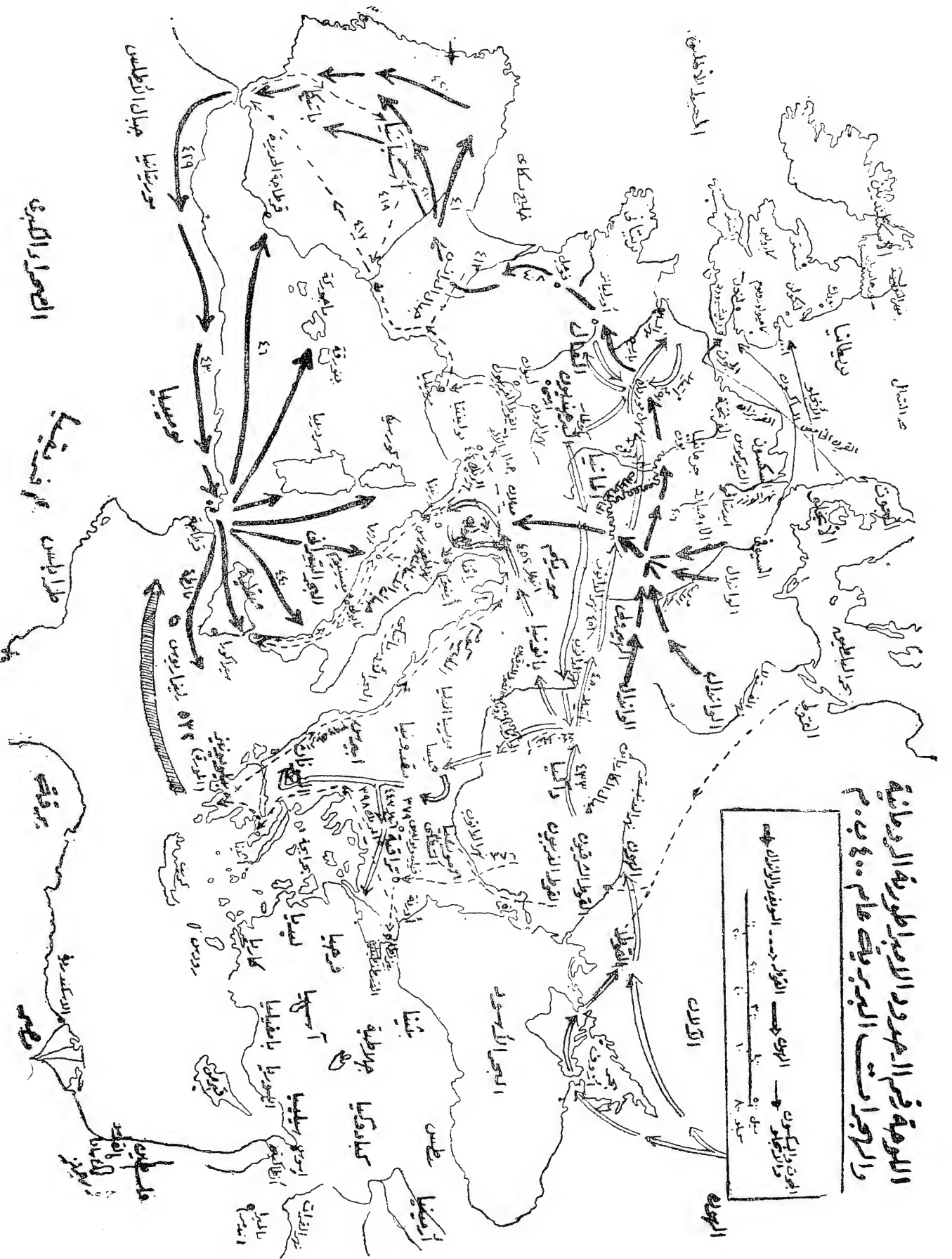
(١) كانت الفرقة تتشكل من المشاة الخفيفة وحملة الأقواس الراكبين .

(٢) بانضمام المشاة الخفيفة ورماة الأسهم الراكبة إلى كل لواء فأدى هذا أن وصلت قوة اللواء

إلى قوة فرقة . « العرب »

والله اعلم بضم الـ خبر و الـ خبر ا طو رة الـ و ط ا نية
والسراج است السراج و يجه عالم ٤٠٠ ب. ب. م.

البحر واليابسون
والأرجاس —
البرق —
الغولم —
السيف والراية —



ومن المظاهر العميقة لتطور تاريخ ألمانيا وبالتالي تاريخ أوروبا هو فشل الجيوش الرومانية في البقاء بألمانيا مما أدى أن الحضارة الرومانية لم تنفذ إليها .

الرومان يواجهون بريطانيا ورومانيا (أنظر اللوحة رقم ١١)

في عام ١٤ ب . م توفي أغسطس ومن بعده لم تتوسع الإمبراطورية الرومانية إلا بغزو بريطانيا وداشيا^(١) . وفي عام ٤٣ ب . م قام أولوس بلوبتوس بالنزول على الشاطئ البريطاني عند ريتشبورو ومعه أربعة فرق وقوات إحتياطية حليفة ، وبعد قتال إستمر يومين استطاع دفع القوات البريطانية إلى الغرب عبر نهر التيمز واستولى على مدينة كومبولودونوم^(٢) وفي الفترة ما بين ٤١ — ٥٤ ب . م حضر الإمبراطور كلاديوس بمزيد من القوات وعدد من الفيلة ، واستطاع تدريجيا إخضاع جنوب بريطانيا من لينكولن إلى أكستر^(٣) . وفي عهد دوميتيان أصبحت قوة الدايشيان تحت قيادة القائد دكياليوس تشكل خطراً كبيراً على جبهة الدانوب ، فقد أبادوا في عام ٨٧ ب . م قوة رومانية كبيرة ، وأدى هذا أن قرر الإمبراطور تراجان^(٤) (٩٨ — ١١٧) مهاجمة دكياليوس ، وقام بحملتين ضده الأولى عام ١٠١ والثانية ما بين عامي ١٠٥ — ١٠٦ .

وكانت مقاطعة داشيا من المقاطعات التي يصعب السيطرة عليها لوقوعها على الضفة الأخرى لنهر الدانوب وفي المسار الطبيعي للتحركات البربرية ، مما أدى أن قرر الإمبراطور أورليان في عام ٢٧٣ تركها نهائياً .

الثورة في فلسطين

وفي الفترة بين عام ٦٦ ، ٧٣ م اشتعلت الثورة في فلسطين وكانت تتمتع بتحصينات منيعة ، وقال عنها سيدني توني : « لقد كانت من أروع الأعمال الهندسية العسكرية » . ولذلك سخرت روما جميع إمكانياتها المتاحة من مهارات وموارد لإخماد هذه الثورة فكانت مدينة القدس محصنة بثلاثة أحزمة من الأسوار ، الخارجى منها سمكه ١٥ قدماً وإرتفاعه ٣٠ قدماً ومزوداً بفتحات للرماية ومنها ومدعم بأبراج مربعة الشكل وعلى أبعاد مختلفة . وكانت

(١) داشيا : هي رومانيا حالياً . (٢) هي كولشستر الآن .

(٣) يسمى بطريق فوس . (٤) الإمبراطور تراجان أسباني الأصل . « العرب »

معدات الحصار الرومانية تستطيع التعامل مع هذا المستوى من الأسوار .. وقد استعمل تيتوس آلات يمكنها قذف الحجارة زنة ١٠٠ كيلو لمسافة ربع ميل ، كما كان لديه ثلاثة أبراج حصار ارتفاع كل منها ستون قدماً ومغطى من أعلى بشرائح من الحديد .

وقد أستطاع الاستيلاء على الأسوار الواحد تلو الآخر ، وفي أغسطس ٧٠ تمكن من الاستيلاء على القدس وذبح جميع سكانها ، وبالرغم من كل هذا فلم يتم سحق التمرد بالكامل فكان يوجد حتى عام ٧٣ فول من هؤلاء المتمردين في ما سادا^(١) التي تعتبر معقلهم الحصين ، لأن هذه المدينة تشبه إلى حد كبير حصون العصور الوسطى وبالرغم من ذلك هاجمها الرومان ودخلوها إلا أنهم لم يجدوا بها أحداً من المدافعين أو المقاتلين بل وجدوا بدلاً من ذلك جثث الجنود وعائلاتهم متناثرة في أنحاء المدينة ، فقد قتل بعضهم البعض حتى لا يأخذهم الرومان أسرى وهم على قيد الحياة .

حائط الشيطان (أنظر اللوحة رقم ١١)

في القرن الأول بعد الميلاد أستتب الأمن على الحدود ، وتحول الجيش الروماني من جيش هجومي إلى حاميات دفاعية ، وأدى هذا أن أصبحت المعسكرات دأمة وزاد تعقيدها ، ففي عهد أغسطس كانت المعسكرات في منطقة الراين لها أسوار عالية مبنية من اللبن ، إلا أنها بعد ذلك بنيت من الحجارة في الفترة ما بين ٧٠ — ٩٦ . وكان التصميم العام للمدينة العسكرية أو المعسكر مثيراً ، لأنها تحاط بأسوار عالية وبخندق مائي أو أكثر مع تزويدها بالأبراج ولها بوابة رئيسية توجد في مواجهتها مباني الشؤون الإدارية وكذلك مقر إقامة قائد المعسكر بالإضافة إلى المخازن الرئيسية للمعسكر . ويوجد داخل المعسكر طريقين متقاطعين وعموديين ، علاوة على طريق آخر يدور حول سور المعسكر من الداخل . أما ثكنات الجنود فتحتل الجزء الأكبر من المعسكر علاوة على وجود سوق عام بجوارها .

وفي الفترة ما بين عام ٧٠ — ١٣٠ وخلال عهد كل من فيسبازيان ودوميتيان وهادريان إستمر العمل في تقوية تحصينات الحدود وبالرغم من ذلك لم يكتمل الستار الحديدي الروماني

(١) كانت قلعة ماسادا محاطة بمساحة كبيرة من الأرض ومسورة بمحائط ضخمة يعتبر كواقي للقلعة .

إلا في السنوات الأولى من القرن الثالث ، فإذا ألقينا نظرة على الجبهة الألمانية فنجد أن خط التحصينات إمتد ٣٠٠ ميل بين نهري الراين والدانوب ، وكان الجزء الغربي من هذا الخط عبارة عن متاريس مبنية من اللبن ومحاطة بالخنادق ، أما الجزء الشرقي والذي أطلق عليه « حائط الشيطان » فكان عبارة عن سور حجري يبلغ سمكه ٤ أقدام وتم تقوية كل من الجزئين بأبراج عديدة للمراقبة والأشارة ومعسكرات مبنية من الحجارة . وقد أنشأت أسوار مماثلة على طول الحدود الشرقية والجنوبية للإمبراطورية وكذلك في شمال بريطانيا .

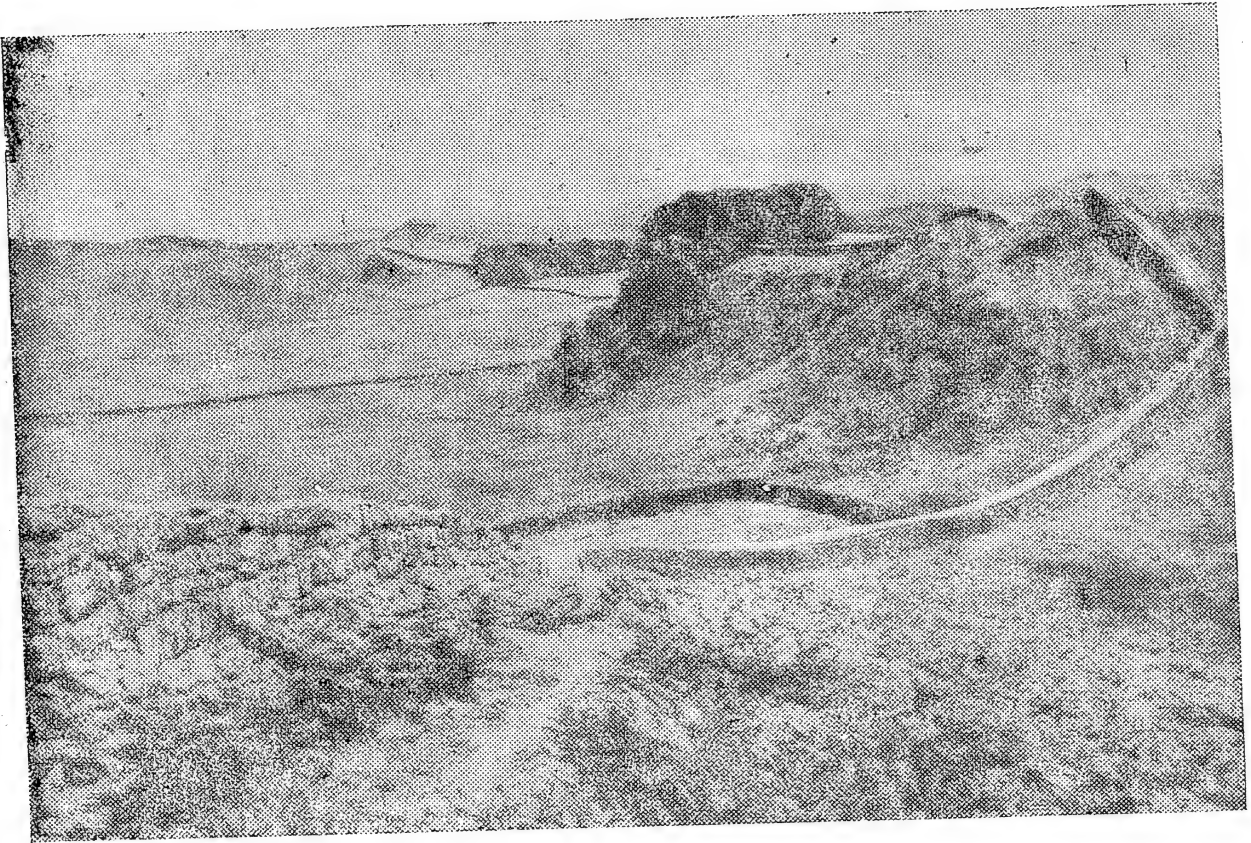
بودكيا تنتحر بالسلم

يعتبر إحتلال وتحصين بريطانيا مثلاً حياً للسياسة العسكرية الرومانية وتأمين حدودها المترامية الأطراف . وعلى كل لم يلق الرومان إلا مقاومة طفيفة في الجنوب الشرقي لبريطانيا وقد اعتبر الرومان طريق فوس الخط الدفاعي الرئيسي لهم بالرغم من أنه مجرد طريق عادي، وكانت بريطانيا عامة تعتبر من الجبهات الهادئة بالنسبة للإمبراطورية الرومانية ، وبالرغم من ذلك لم يستطع الرومان التقدم ما بعد طريق فوس . وقد قام شعب ويلز بمقاومة الرومان مدة ثلاثون عاماً تحت قيادة كاراكتا كوس . وفي عام ٦١ قادت بودكيا^(١) ثورة وحشية ضد الرومان في شرق بريطانيا حتى هذه الثورة قمت بطريقة غاية في القسوة، مما أدى أن بودكيا انتحرت بالسلم وفيما بين عام ٨٠ — ٨٤ زحف القائد الروماني أجريكولا نحو شمال بريطانيا حتى وصل إلى قلب اسكتلندا حيث حقق نصراً حاسماً على القبائل الكاليدونية المتحالفة عند مونس جرايبوس، وقد أظهرت هذه القبائل حماقة كبيرة بدخولها مع الرومان في معركة مفتوحة ، ولم يقاتلهم بحرب العصابات ، وبعد ذلك عاد أجريكولا إلى بلاده مما أدى إلى انسحاب الرومان إلى جنوب نهر التويد وحتى ذلك الوقت لم ينشأ الرومان جبهة دفاعية متماسكة في شمال بريطانيا .

وفيما بين عام ١١٥ — ١٢٠ قامت ثورة عارمة في شمال بريطانيا هزت الرومان بعنف مما أدى أن حضر هادريان نفسه إلى بريطانيا ليخمد الثورة ، واستطاع إخمادها وإقامة جبهة دفاعية رومانية في شمال بريطانيا . وقد أقام هادريان سوراً سمي باسمه وقد تم بنائه في الفترة ما بين ١٢٢ — ١٢٥ ويمتد مسافة ٧٣ ميلاً من نهر تاين إلى سولواي ومبنى من الحجارة ويبلغ

(١) بودكيا أرملة زعيم قبيلة الأيسيني . « المارب »

سمكه ٧ ¼ قدما وفي أجزاء أخرى كان سمكه يزيد عن ذلك ، والجزء المخصص لسير الجنود على السور كان يقع على ارتفاع ١٥ قدما تقريباً ، وعندما يقترب السور من المدن يلتف حولها وقد تم إختيار مكانه بحيث يستفاد من الهياكل الطبيعية مثل قمم التلال أو الجروف الحادة ، وروعى أن تقع هذه الموانع الطبيعية دائماً شمال السور ، أما فى الأراضى المنخفضة فيتم حفر خندق بجوار السور لزيادة فاعليته وتم إنشاء ستة عشر حصناً^(١) على طول السور ووزعت القوات عليها علاوة على وجود قلاع مقامة على السور تبعد عن بعضها ميلاً رومانياً^(٢) ويوجد بين كل قلعتين ثلاثة أبراج تستخدم كراكز للمراقبة والإشارة . وكان يعتبر سور هادريان ما نغاً أكثر من أنه خط دفاعى ، وعلى كل لم يتعرض هذا السور لعمليات غزو على مستوى



سور هادريان فى شمال بريطانيا

(١) كانت المسافة بين كل حصن حوالى أربعة أميال .
(٢) الميل الرومانى ألف خطوة . « المغرب »

كبير إلا أنه كان يشكل عائقاً صعب الاجتياز أمام الغارات الصغيرة ويمثل مركز جيد للحراسة فقط .

وإذا ألقينا نظرة على شمال بريطانيا خلال القرن الثاني لوجدنا أن الفوضى أستمزت ونخص بالذكو ثورتان الأولى في الفترة ١٥٨ — ١٦٠ والثانية في ١٨٣. وفي الفترة ٢٠٨ — ٢١١ حضر الإمبراطور سيبتيميوس سيفيريوس إلى بريطانيا وأقام بها واستطاع السيطرة على الموقف وإعادة الأمن إلى شمال بريطانيا .

وقد أتم أخضاع بريطانيا بواسطة أربعة فرق رومانية ، ولكن بعد عام ٨٥ بقي بها ثلاثة فرق ومعها قوات إحتياطية ضئيلة تقدر بحوالى ٣٥ — ٤٠ ألف جندي ، ووزعت هذه القوات على ثلاثة حصون ، وهي حصن كارولين وشستر ويورك . وتدفع هذه القوات من هذه الحصون إذا استدعى الأمر لأخماد الثورات التي تنشب ، وعلاوة على هذه الحصون كانت توجد حصون صغيرة يبلغ مساحة الحصن الواحد من ٧ هكتار^(١) ويدافع عن هذا الحصن^(٢) من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ جندي من القوات الإحتياطية . وقد أقيمت معظم هذه الحصون في شمال بريطانيا وويلز على طول الطرق الهامة وفي المراكز الاستراتيجية . وقد أقام الجيش الروماني شبكة كبيرة من الطرق لخدمة الأغراض العسكرية وعلى سبيل المثال أنشئ في شمال بريطانيا ثلاثة طرق رئيسية تربط بين المدن الرئيسية بها . وكان أنشأ الطرق الرومانية من أهم المنجزات التي حققها الجيش الروماني والتي بقيت على مر الزمن حتى وقتنا الحالى ، ولم تتوان الإمبراطورية الرومانية في هذا المضمار وفي جميع البلدان التي تحكمها وبذلك أستطاع الجيش الروماني من توحيد جميع هذه البلدان والماليك تحت الحكم الروماني علاوة على نشر وبث الحضارة الرومانية .

قرعة العشرة

خلال القرنين الأولين للإمبراطورية لم تحدث إلا تغييرات طفيفة في الجيش الروماني وكانت هذه القوات توزع على أنحاء الإمبراطورية حسب الموقف العسكرى والسياسى للمناطق .

(١) الهكتار . عبارة عن ٤٠٠٠ متر مربع

(٢) كانت المسافة بين هذه الحصون حوالى ١٥ إلى ٢٠ ميلا .

وفي الفترة من ١١٧ إلى ١٣٥ قام هادريان ببعض التغييرات الهامة في الأسلوب والنظام العسكري والذي وضع أساسه من قبل أغسطس فقام أولاً بتكوين قوات أجنبية ومجندة محلياً مع دفعها للأمام وأستخدامها في الخط الدفاعي الأول ، أما الفرق الرومانية فكانت تتمركز في الخطوط الخلفية وفي الحاميات ، وهذه الفرق تربط بالخطوط الأمامية بواسطة طرق جيدة ، ثم قام ثانياً بأذابه الفوارق التي تميز قوات الفرق الرومانية عن القوات الأجنبية المجنده محلياً وثالثاً وجد أن الفرق كانت تشكل من الناحية النظرية من الجنود الرومان فقط على أن يخدموا في مناطق غير التي جندوا منها ولكنه وجد من الناحية العملية أن الفرق تجند من المناطق التي ستمركز فيها ، وقد أثبتت الظروف أن هذه الطريقة ملائمة تماماً للدفاع عن الحدود المكشوفة وذلك بأستغلال قوات من أهل المناطق المتاخمة لهذه الحدود للدفاع عنها لأن ذلك يعنى أنهم سيزودون عن أراضيهم وبيوتهم ولذلك غير هادريان هذه النظرية وأصبحت الفرق تضم مجندين من نفس المنطقة وكانت الجنسية الرومانية تمنح فوراً لمن يقيد اسمه في سجل المجندين .

إلا أن هذه السياسة كان يهددها خطران : —

١ — احتمال ضياع فكرة الوحدة الأمبريالية لعدم وجود ترابط بين القوات في الجبهات المختلفة وأسوأ مثال يثبت ذلك ما حدث عام ٦٩ عندما ثارت الجيوش لمؤازرة ثلاثة مرشحين لمنصب الإمبراطور وذلك قبل أن يتمكن المرشح الرابع فيسبازيان من تأمين الموقف بواسطة جيوش الشرق والدانوب التي كانت تؤازره .

٢ — أنحلال قوات الحاميات وتحويلها إلى ميليشيا^(١) محلية من الفلاحين الكسالى غير الأكفاء في القتال ، فكانوا واثقين من دوام السلام الإمبريالي ومعتمدين على الحياة السهلة ، وقد حدث أكثر من مرة أن جنود المناطق رفضت الأنتقال إلى مناطق أخرى ، وأشتهرت فرق الحدود الشرقية بضعف كفاءتها وسوء تنظيمها إلا أن كوربيولو^(٢) جاء وأستطاع إستعادة النظام وال ضبط وال ربط بواسطة إجراءات غاية في القسوة ، فكان عقاب

(١) ميليشيا : — قوات الحرس الوطني .

(٢) كوربيولو قائد روماني في الشرق .

السركة وعدم الكفاءة الجسمانية الجلد وينفذ بأوامر من قادة السريا ، أما الهروب من الخدمة العسكرية فعقابه الموت ، وأدى هذا أن أحدى جيوش الحماميات إكتسبت قدراً كبيراً من الصلابة بالتدريب المستمر الشاق فى المرتفعات الأرمينية فى فصل الشتاء .

وكان أقسى عقاب يمكن تطبيقه ما يسمى « قرعة العشرة^(١) » وكان ذلك يحدث نادراً ولكن فى عام ٢٠ طبقت هذه القرعة بواسطة أبرونيوس^(٢) بأن اختار واحداً من كل عشرة رجال من الكتيبة التى هربت أثناء المعركة وتم جلد كل من هؤلاء حتى الموت .

أما الوحدات التى ترتكب ما يلحق بها العار فكانت تسرح بأكملها ، فقد قام فيسبازيان بتسريح أربعة فرق فقدت نسورها أثناء المعركة أو اشتركوا فى التمرد الذى حدث فى الراين والذى قاده الزعيم كفيليس عام ٦٩ ، وقام على الفور بتشكيل فرقتين جديدتين حلا محلهم . ومن ضمن قوانين الضبط والربط أن يعزل قائد السرية المذنب من رتبته .

الخدمة العسكرية عشرون عام

وقد قام هادريان بصفة خاصة بمهاجمة ما فى الجيش من رفاهية وضعف المستوى القتالى للقوات ولكنه فى نفس الوقت قام بإعادة تنظيم وقت فراغ الجنود وجعل حياتهم أكثر صفاءً ، كما قام بتحسين وضعهم القانونى وحالتهم الاجتماعية .

وعلى كل كانت الحياة فى الجيش تتصف بالاستقرار ولكنها كانت مملة وكئيبة ، فمثلا كان من الشروط الرئيسية للخدمة العسكرية أن مدتها عشرون عاماً يتم بعدها تسريح الجندى من الجيش وخلال الأربع سنوات الأخيرة من الخدمة كان يعفى الجندى من جميع أعمال العسكر المرهقة لأنه يعتبر محارب قديم محنك ويخدم فى الإحتياط .

وكان الجندى مجبراً على صرف ٧٥ ٪ من مرتبه ، فعليه أن يشتري طعامه وسلاحه وزيه العسكرى ويساهم أيضاً بمبلغ يدفعه سنوياً للمعسكر مع دفع مبلغ آخر يخصص لدفن الموتى من الجنود ، ولذلك كانت الفرصة ضئيلة أمام الجندى ليدخر من مرتبه إلا إذا قام بأعمال تجارية

(٣) قرعة العشرة : — اختيار الرجل الذى يقع فى قرعته رقم عشرة من بين عشر رجال وقتله

« العرب »

(٤) أبرونيوس حاكم أفريقيا

غير مشروعة ، وكان يوجد بنك في المعسكر ليشجع الجنود على الإدخار به لتزداد مدخراتهم من المنح الإمبراطورية في المناسبات وكان يتعامل معه قلة . وكان ممنوع على القوات من رتبة نقيب فأقل الزواج ، ولكن الكثير منهم كانت لهم علاقات نسائية وكان مسموح بها .

وكان يوجد بالجيش الروماني عديد من المكافآت والقلادات والأنواط العسكرية ، فمثلا كان القائد المنقصر يسمح له بالسير على رأس موكب النصر في شوارع روما تكريماً له ، ويمنح « إكليل الغار » للبطولة الفائقة في الجيش الروماني ، وتعتبر أكبر جائزة في الدولة . وقد قام تيريوس بتقديم « إكليل الغار » لريفيوس هلفيوس^(١) عام ١٩ ، كما كان هناك نوط أطلق عليه « كورونا فالاريس^(٢) » وتمنح لأول جندي يتسلق سور العدو ، أما نوط « كورونا أوريا^(٣) » فتمنح للنقباء الذين يبلون بلاءاً حسناً في ميدان القتال ، كما كان هناك أنواع أخرى من القلادات تمنح للضباط منها « رأس الحرب المصنوع من الفضة » علاوة على أوسمة أخرى .

أما الجنود فيمنحون أساور أو عقود أو أقراص مزخرفة .

الصراع من أجل العرش

لقد وصف فيجيتس الكاتب العسكري الأسلوب التي تتبعه الفرقة في وقت السلم فقال : « كانت مشاة الفرقة تسير مسافة عشرة أميال ثلاث مرات في الشهر وتزداد هذه المسافة بالتدريج حتى يكتسب الجنود اللياقة والسرعة في التقدم والإنسحاب . وكانت الأوامر تعطى شفويّاً أثناء التدريب في الميدان ويختار الأسلوب التكتيكي المناسب للرد على هجوم العدو المفاجيء والكمائن غير المتوقعة . وكان هناك تركيز ملحوظ على التدريب على جميع أنواع الأسلحة والأسلوب التكتيكي المناسب للمعركة وذلك للوصول إلى مستوى عالٍ من الضبط والربط بين القوات » .

(١) ريفيوس هلفيوس جندي في الجيش الروماني أنقذ حياة زميل له في إحدى المعارك في أفريقيا .

(٢) عبارة عن قلادة مزدوجة من المعدن تلبس على الصدر .

(٣) القلادة المنفردة

ولم يهدأ النشاط العسكري في الإمبراطورية الرومانية على مر السنين وقد شهد القرن الثانى التطبيق الكامل لأهداف وتعاليم أغسطس وقد أكد جيبون قائلاً : « لو أردنا تحديد الفترة التى تمتع فيها الجنس البشرى بقمة السعادة والرفاهية لوجدنا أنها تنحصر بين موت دوميتيان حتى إرتقاء كومودىوس العرش (٩٦ — ١٨٠) » .

وقد تغيرت الأمور فى نهاية القرن ، فبعد موت كومودىوس عام ١٩٢ كان الصراع على أشده على العرش ، فقام الحرس البريتورى بقتل بيرتيناكس وأحلوا محله ديدىوس بوليانوس ولكن كان هناك مرشحاً ثالثاً وهو سيبتيميموس سيفيروس^(١) .

وكان سيفيروس أفضل العسكريين الذين يطمعون فى كوسى العرش واستطاع هزيمتهم عند كل من إيسوس وليونز واستولى على العرش . وفى عهد سيفيروس سيطر الجيش بالقوة على مقاليد الأمور مما أدى أن حلت الكوارث بسياسة روما الداخلية والخارجية لأنه خلال القرن الثالث تحتم على كل أمبراطور يريد الاحتفاظ بعرشه أن يرشو ويشبع جميع رغبات العسكريين ، ولذلك رفع سيفيروس أجور الجنود بنسبة الثلث كما صرح لهم بالزواج وزراعه ما يمتلكونه من أراضى بجوار معسكراتهم ، كما منح قادة السرايا مميزات مادية واجتماعية . وقبل موته أوصى ابنه كاراكلا بأن يعتنى بالعسكريين ويهمل باقى الشعب فيضمن السلطة ، وقد نفذ كاراكلا وصية والده . وفى بحر الستون سنة التالية ارتفع وهوى ما يزيد على واحد وعشرين من الأباطرة .

وتميزت هذه الفترة بالفوضى والبؤس ، فقد أشاع الجيش الرعب فى جميع أوجه الحياة المدنية فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، فى نفس الوقت كان هذا الجيش يهوى هو الآخر فى متهاترات الانحطاط حتى فقد كفاءته القتالية ، ففقدت الحدود أمنها إلى الأبد وحدث تضخم مالى وصل إلى حد الكارثة نتيجة للارتفاع المتزايد والمستمر فى الأجور والتى أجبر عليها الأباطرة لتقديمها للجيش إذا أرادوا الاحتفاظ بعروشهم وتمييزهم . وفقدت التنظيمات والاصلاحات التى قام بها هادريان فى الجيش قيمتها وفائدتها . فأصبحت القوات المتمركزة باستمرار على الحدود تكون أساساً من فلاحى هذه المناطق وأصبحوا لا يهتمون ولا يعيرون أى اهتمام بواجباتهم

العسكرية ، وأكثر من ذلك أصبحت القوة الدفاعية على الحدود غير فعالة فكان الضعف متفشى فى كل مكان ، واختفت القوة والعزم فى جميع الأمبراطورية فلم يكن هناك دفاع فى العمق أو قوات احتياطية لتقوم بالهجوم المضاد ضد المعتدى . وفى عام ٥٢٠ بدأت الروح القتالية للفرق فى التدهور ، وأصبحوا فى حاجة ملحة لتكتيك جديد ومستحدث ليستخدم ضد الأعداء الجدد الذين يقاتلون بأسلوب تكتيكى جديد ، أصبح غريباً بالنسبة للرومان . وقد كشف هذا عوامل النقص الموجودة فى القوات الرومانية وأساليبهم التكتيكى .

وعلى العموم فقد قام ثلاثة^(١) من الأباطرة فى النصف الثانى من القرن الثالث بإعادة تنظيم الجيش الرومانى مع دفع الأمبراطورية للإمام مرة أخرى ، وقد نفذ هذا العمل بطريقة بغيضة ولا تقبل التردد أو الشك ، ولذلك استطاعت الأمبراطورية من الصمود أمام النهاية المدمرة لمدة قاربت على القرنين .

التنين البربرى

لقد اتخذت إجراءات صارمة لاستعادة النظام فى كل مكان من المحيط العسكرى والمدنى ، وفى عهد دقلديانوس اضطبغت الحكومة المدنية بالصبغة العسكرية فأصبحت أقوى من ذى قبل . وفى عهد أورليان انتشر الطاعون فتسبب فى خفض القوى البشرية ، فاتخذ أورليان خطوة خطيرة جداً بتكوين القوات الاحتياطية من قبائل الواندال والألمان^(٢) ، وبذلك قهر البرابرة الأمبراطورية عن طريق التسلل أكثر منه عن طريق الحرب . وفى ذلك الوقت اتخذ الأباطرة حرس خاص لهم من الجنود الألمان ، وقد سمح للجنود الألمان بالاحتفاظ بزيهم الوطنى وبتقاليدهم ، واختفى شعار النسر الرومانى وحل محله شعار التنين البربرى .

حاول دقلديانوس رفع حجم الجيش إلى ستون فرقة ، ولكن كان معظم هذه الفرق دون المرتب^(٣) ولكنه نجح فى إنشاء شبكة طرق وإقامة التحصينات ، لأن العمل فىهما كان على قدم وساق . وأصبح الجيش فى هذه الفترة جيش طبق يورث للابناء ، فكان يتحتم على أبناء

(١) الأباطرة الثلاثة هم جالينوس وأورليان ودقلديانوس

(٢) كانت هذه القبائل الجرمانية تزحف بكثرة وبصفة خاصة على الحدود الشمالية للأمبراطورية .

« العرب »

(٣) مرتب الفرقة المعتاد ستة آلاف جندى

الجنود ، أن يتبعوا أباءهم ليصبحوا جنود المستقبل ، وعادت قوانين التجنيد الماضية مرة أخرى إلى الحياة .

ملكة ميدان المعركة

لقد أدرك جالينوس الخطأ الاستراتيجي الممثل في سياسة الحاميات والتي استمر العمل به على الحدود لمدة ٢٥٠ عاماً فقام على الفور في تشكيل الجيوش الاحتياطية وكان ذلك على حساب قوات الحدود التي أصبحت ضعيفة ، وأقامت هذه الجيوش الاحتياطية في قاعدة في شمال إيطاليا لتوفر الدفاع في العمق مع قدرتها على القيام بالهجوم المضاد في حالة الطوارئ ، كما ألغى الأسلوب التكتيكي القديم وأدخل بدلاً منه أسلوباً جديداً يتناسب مع أعدائه الجدد الذين يستخدمون الهجوم المفاجئ بالفرسان مع استعمالهم للقذائف النارية بعيدة المدى .

وقد قام جالينوس بخطوة حاسمة فجعل فرق المشاة في المرتبة الثانية ، بينما أخذت الفرسان الصدارة ، وبذلك أصبحت الفرسان ملكة ميدان المعركة .

وتشكل في عام ٢٥٨ فرقة من الفرسان سميت بـ « دالمتيان » وفرقة من حملة الرماح^(١) سميت بـ « موريش » ، وكان الرماة الشرقيين^(٢) هم عمادها وعلاوة على وجود فرق تستخدم حراب القذف الايرانية الطويلة ، وفرق أخرى من مشاة البربر^(٣) ، وفرق من راكبي الجمال والفرسان الثقيلة ، علاوة على إدخاله لبعض الأنواع الجديدة من الأسلحة ، فاستبدل كل من حرب القذف والسيف القصير^(٤) بالرمح والسيف البربري^(٥) .

فراغ القوى (أنظر اللوحة رقم ١١)

لقد أعاد تجهيز القوات سريعاً جداً وتحت الضغط المتزايد للعدو على الحدود ، فنجد مثلاً أن الأمبراطورية الساسانية الفارسية هددت روما بجرمانها من جميع مقاطعاتها الشرقية ، وفي عام ٢٦٠ ستط فاليزان في الأسر بواسطة الحاكم الفارسي سابور ، فضاعت هبة

(١) كانت هذه الفرقة من المغاربة وتركب الخيول بدون سروج

(٢) هؤلاء الرماة يستخدمون الأقواس القوية المركبة

(٣) يستخدمون هؤلاء البربر التشكيلات المتداخلة في القتال

(٤) كان يستخدمه جنود الفرق

(٥) يتولى هذا السيف من ثوب المقاتل



الفوسان الرومانية تأخذ الصدارة في الجيش

الأمبراطورية الرومانية وظهر ضعفها بوضوح ، ولكن لحسن الحظ أن إستطاع أوديناتوس^(١) صد هجمات القوات الفارسية ، ولكن الموقف ساء جداً على الحدود الشمالية أيضاً وبدأ الهجرات البربرية .

ولو عدنا سوياً إلى الوراء فسنجد أن القيصر بعد أن هزم الغال والتي تعتبر القوة الرئيسية لكل من وسط وغرب أوروبا أحدث بذلك ما يسمى بفراغ القوى في كل من شمال وشرق الحدود الرومانية ، لذلك بدأت شعوب جديدة في التحرك داخل هذه المنطقة ، وجاءت أولى هذه التحركات من أسكندنافيا تحت وطأة تغير المناخ هناك وزيادة السكان ، إلا أن هؤلاء أنفسهم بدأوا التحرك في القرن الثالث وبدرجة أكبر نحو الجنوب والغرب أمام التدفق الجديد للشعوب المهاجرة من آسيا ، بينما اندفع الفرنجة والألمان عبر نهر الراين وزحف القوط جنوباً عبر الدانوب وأجتاح القوط الشرقيون مناطق البلقان ونهبوا مدينة فيليبوبوليس وهزموا الأمبراطور ديكيسوس ، وقد قتل في إحدى المعارك عام ٢٥١ ، بينما فقدت روما مقاطعة داشيا إلى الأبد .

ولكن في عام ٢٦٨ استطاع كلوديوس الانتصار على القوط عندنا «يسوس» (فيشى) وبذلك أوقف تقدمهم .

وفي أقصى الغرب عبر الألمان نهر الراين واندفعوا جنوباً داخل إيطاليا نفسها إلا أن جالينوس هزمهم عند ميلانو عام ٢٥٨ ، إلا أنهم قاموا بهجوم آخر في عهد أورليان إلا أنه هزمهم ولكن لم تكن هزيمة كاملة ، فعلى الفور كون جيشاً جديداً قوياً وهزم الألمان هزيمة ساحقة عند نهر ميتادروس ، واستطاع إيقاف هؤلاء البربر بعد مجهود شاق وصل إلى الذروة وقد أدى وجود هذا الجيش الروماني الجديد المدعم إلى تأمين الأمبراطورية لمدة قرن آخر تقريباً .

انشاء القسطنطينية

خلال القرن الرابع وفي عهد قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧) حدث تطوران هامان ، أولهما عندما نودي به أمبراطوراً في يورك وقد تحتم عليه أن يهزم أولاً جميع منافسيه

السياسيين قبل أن يحصل على عرش روما ، ويقال أنه في أحد أيام عام ٣١٢ وبعد الظهور أثناء تقدمه نحو إيطاليا وفي مكان قريب من كولمار رأى في السماء صليبا لامعاً وظهر فوق الصليب هذه الكلمات « من هنا يبدأ الفتح » ويقال أن المسيح ظهر له في الحلم أثناء تلك الليلة وقال له أن يتخذ من العلامة التي رآها شعاراً له ، وبهذا الإلهام وباستخدامه أسلوب الألقاف حول جناح خصمه ماكسنطيوس استطاع تحقيق نصراً ساحقاً ، اتخذ بعده تلك العلامة التي رآها شعاراً ووضعها على خوذته الشخصية وعلى دروع جنوده ، ونادى بعدها بإباحة المسيحية ، وفي نهاية القرن (٣٧٩ — ٣٩٥) جعل ثيودوسيوس الديانة المسيحية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية ، وقد أدى موضوع الديانة المسيحية إلى إزدياد حدة العداء بين البربر وشعب الإمبراطورية الرومانية ، لأن جميع البربر كانوا تقريباً من المسيحيين الآريوسيين المنشقين (١) .

أما التطور الثانى الذى حدث فى ذلك الوقت هو إنشاء العاصمة الثانية للإمبراطورية على يد قسطنطين وأطلق عليها اسم القسطنطينية أو بيزنطيوم وكانت ذات موقع استراتيجى هام وخاصة فى مقاومة الغزاة البربر . ومن ذلك الوقت حتى عام ٤٧٦ كان يوجد عادة إمبراطوريان ولكن فيما بعد أصبحت القسطنطينية العاصمة الوحيدة للإمبراطورية الرومانية .

وإذا بحثنا سوياً فى أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية لوجدنا أنها ترجع لأسباب كثيرة منها ضعفها الاقتصادى ودمار المدن وهبوط تعدادها السكانى وتشعبها بالثقافة البربرية مع إنشاء عاصمة ثانية للإمبراطورية فساعد كل هذا على زوال روما القديمة ويمكن القول بأنه أدى فى النهاية إلى الضعف العسكرى ، ولكن الأسباب الرئيسية فى إنهيار روماء عسكرياً تكمن فى هزيمة الإمبراطور فالنس أمام القوط (٢) عند أدريانوبل (أدرنة) عام ٣٧٨ . وقد تعرضت روما للنهب مرتين أولهما على يد أليك (٣) عام ٤١٠ ، وثانيهما على يد الواندال (٤)

(١) كانوا من أتباع آريوس وهو أسقف من انطاكية وتوفى عام ٣٣٦ .

(٢) ينحدر القوط من الجنس الألماني

(٣) أليك أحد قادة القوط الغربيين

(٤) الواندال قبيلة جرمانية واجتاحت فرنسا وأسبانيا وشمال أفريقيا فى القرن الخامس الميلادى كما

« العرب »

أحتلت روما ونهبها عام ٤٥٥

بقيادة جيسريك عام ٤٥٥ أو في عام ٤٧٦ قام القائد أودكر بعزل روميوس أغسطس
آخر أباطرة روما .

وقد أجتاحت الشعوب البربرية^(١) المقاطعات الرومانية ودفعها إلى ذلك سببين الأول
الطمع في الغنى والحضارة الرومانية وثانياً ضغط الهون^(٢) عليهم ، وبذلك أصبح واضحاً أن
القوة الرومانية قد قربت نهايتها في الغرب

سيف ارثر

أما مصير بريطانيا فقد تميز بما حدث للمقاطعات النائية الرومانية في هذا العصر ،
فبعد الهدوء الذي خيم عليها أبان عهد سيفيروس ما بين ٢٠٨ — ٢١١ ، وظلت في سلام
لم يعكره أى غازى لمدة مائة وخمسون عاماً إلا أنها كانت من المقاطعات الثائرة المتمردة خلال
القرن الثالث ، ولكن قبل عام ٣٥٠ أصبح كل من البكت في الشمال والاسكتلنديون في
الشمال الغربي مصدر للزعاج ولكن في عام ٣٦٨ أستطاع ثيودوسيوس أخمد هذا الأزعاج
وتقدم حتى أقصى الشمال عند سور هادريان ، في ذلك الوقت ابتدأت غارات السكسون على
بريطانيا عبر بحر الشمال وكانت في أول الأمر مجرد إغارات للسلب والنهب ولكنها وتحولت
سريماً إلى عمليات غزو بهدف الإستيطان ولكن القوات الرومانية الموجودة في بريطانيا
قاومتهم مقاومة عنيفة ولكن بدون جدوى . وفي الفترة ما بين عام ٤٠٦ ، ٤٠٧ عبر حشد
هائل من البربر نهر الراين إلى داخل الغال وبذلك عزلت بريطانيا من الاتصال بالبحر
المتوسط فأدى هذا تخلى روما عنها مع إيقاف إرسال أى مسئولين عسكريين أو
قوات إليها .

ولو ألقينا نظرة على شعوب البربر لوجدنا أن مصدرها واحد للأسلحة الحديدية ؛
فكانت هذه الأسلحة تأتي من على ضفاف الراين والدانوب ، فكانت السيوف مزركشة
برسومات كثيرة متشابهة على شكل طيور مفترسة أو ثعابين طويلة ملتفة حول نفسها أو
حيوانات مفترسة تزود عن نفسها الأذى . وكان السيف طويلاً ويتدلى من ثوب المقاتل

(١) يقصد هنا الواندال والقوط.

(٢) الهون هم شعب مغولي في ترحال دائم سيطر على جزء كبير من أوروبا الشرقية والوسطى

« المغرب »

بقيادة قائدهم أتيل .

ويعتبر سلاحه الرئيسى ، ولكن لندرة المعادن كان يحمل هذه السيوف القادة فقط . أما باقى الأسلحة فكانت تنتقل من جيل لآخر ، ومن أشهر هذه الأسلحة سيف آرثر وقد أطلق عليه «أكسكاليبور» ، وكان يستخدم أيضا السيف ذو الحد العريض والرماح القوية الصلبة لدرجة أن الضحايا كانت تبقى معلقة على الجدران أو الأشجار بعد اختراق الرماح أجسادهم .

وكان هناك سلاح شائع وهو الساكس عبارة عن سيف قصير عريض مقوس بدرجة طفيفة وذو حافة واحدة مسننة ويعتبر السلاح التالى للسيف . وقد حاربت شعوب الشمال بالحرب التى وصل طولها إلى ١١ قدما ، أما دروع القادة فكانت عادة غاية فى الزخرفة ، أما الخوذات فلم تكن لها أى قيمة أكثر من مجرد غطاء للرأس وتصنع من الشرائح المعدنية ، وكان بعض هذه الخوذات مزوداً بواق للرقبة والبعض الآخر مزوداً بقناع متحرك فى مقدمتها ، كما كان البعض منها محلى برسوم لرؤوس الحيوانات الضارية ، وكان الفرنجة لديهم سلاح آخر وهو بلطة القذف القصيرة الخفيفة . وكانت هذه الأسلحة لا يحملها كل القوات ، فمعظم الجنود يخوضون القتال على رؤوسهم واق من الجلد ودرع مستدير من الخشب أو الأملود^(١) المغطى بالجلد المدبوغ ، وكان سلاحهم الرمح أو الهراوة .

وكان معظم شعوب البربر تفضل القتال من فوق ظهور الخيل ، أما الفرنجة فكانوا يقاتلون فى حشود غير منتظمة من المشاة هزيلة التسليح ، أما ركوب الخيل فكان قاصرا على حرس الملك فقط .

والجيش يتشكل من وحدات كل وحدة بها مائة جندى ، ووحدات أخرى بها ألف جندى والوحدات تكون العشائر والجماعات ، وكان تشكيلهم للمعركة الشائع هو تشكيل حرف ٧ وكانوا يقيمون تحصينات دائرية على التلال ، بينما يقيمون فى السهول تحصينات من العربات المقلدة ، ويتمتعون بلياقة جسمانية ممتازة تفوق جميع شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وقد كتب عنهم سيدوفىوس بأن الرجل منهم يبلغ طوله سبعة أقدام بينما يدهنون شعورهم بسائل رائحته كريهة ويأكلون كميات كبيرة ويتحدثون بطريقة جوهريّة ، وبعض هذه الشعوب

(١) الأملود عبارة عن أغصان صغيرة مرنة

كانوا ملاحين مهرة ، وقد أرعبت سفن السكسون ذات الأشعة الجلدية الشواطئ البريطانية وقد صنع القبائل المجاورة للبحر زوارق من تجايف الأشجار وتحمل ثلاثون رجلا .

وقد تطورت إلى سفن شراعية كبيرة مصنوعة من ألواح خشبية مثل الفاكنج^(١) وتحمل أكثر من مائة رجل .

(أنظر اللوحة رقم ١١)

اعظم الشعوب في فن الحرب

لقد وصل الواندال إلى أبعد ما وصل إليه باقى الجماعات ، ففي بداية القرن الأول تحركوا من البلطيق خلال الغال وأسبانيا ثم إلى شمال أفريقيا مع عام ٤٢٩ مسيطرين بأسطولهم على غرب البحر الأبيض المتوسط .

وفي عام ٤٥٥ قاموا بالإبحار تحت قيادة جيسريك حيث نهبوا روما ، وقد فقد الرومان في ذلك الوقت السيطرة على البحر الأبيض المتوسط . كما أن الوقت من ناحية أخرى كان قد فات على صدور قانون في القسطنطينية يحظر على شعوب البربر تعلم بناء السفن وكان عقوبتها الأعدام .

وفي عام ٢٥٣ — ٢٦٧ قام القوط بغاراتهم عن طريق البحر على كل من اليونان وآسيا الصغرى وكانوا أول من وجهوا الضربة إلى قلب الأمبراطورية الرومانية فكانوا أعظم الشعوب في فن الحرب .

وفي عام ٣٧٦ وتحت ضغط شديد من الهون توسل القوط الغربيون إلى الامبراطور فالينس للسماح لهم بالإستيطان داخل الامبراطورية الرومانية ، وأذن لهم الأمبراطور بعبور الدانوب من داشيا والإقامة في موسيا السفلى^(١) بشرط نزع سلاحهم ، إلا أن القوط الشرقيون تقدموا بنفس الطلب ولكن الأمبراطور رفض هذا الطلب خوفاً من كثرة عدد البربر في الأمبراطورية إلا أنهم قاموا بعبور الدانوب عنوة وهم مدججون بالسلاح ، فما كان من القوط الغربيون أن انضموا إليهم . وفي عام ٣٧٨ اصطدم فالينس مع القوط عند أدريانوبل وكانت

(٢) الفاكنج هم قراصنة من أسكندنافيا

(١) موسيا السفلى بلغاريا حالياً

معركة رهيبه ، فقد فاجأ الجيش الرومانى القوط وهم معسكرين داخل نطاق كبير مسور بالعربات .

وبالرغم من التغييرات التى حدثت فى شخصية الجيش الرومانى وبالرغم من كل التجارب السابقة فى المعارك مع البربر التى كان يجب أن يتعلم منها الجيش الرومانى إلا أن فالينس قاد قواته بنفس الطريقة الكلاسيكية الرومانية ، فقام بحشد فرق المشاة فى الوسط ، ووضع القوات الإحتياطية الرأسة الحليفة على الأجناب ، وقد وصل إلى علمه بأن جميع قوات العدو موجودة داخل ذلك المعسكر ولذلك قام بمهاجمتها ولكنه لم يعلم بأن فرسان القوط كانوا يطوفون بعيدا عن المعسكر بحثاً عن علف للخيل ، ومع بداية المعركة استدعوا على عجل وقاموا بمهاجمة الجناح الأيسر للرومان ، وقد وصف هجوم الفرسان بأنه كان كالصاعقة المنقضة من فوق قمم الجبال وقد سحق كل ما أترض طريقهم ، وقد تفرقت فرسان الرومان وأكمل القوط اندفاعهم لسحق المشاة التى هرب جناحها الأيسر ونجحوا فى سحق الفرق الموجودة فى الوسط^(١) المندفعة من اليسار بمشاتهم المندفعة من الأمام وبذلك أصبحت الفرق الرومانية تواجه قدرها بعد أن أصبحت عاجزة عن الحركة .

وهذه المعركة ذات دلالة كبيرة تتمثل فى النصر الذى حققته الفرسان الثقيلة على المشاة وتلقى الضوء على المستقبل المظلم الذى ينتظر الجيش الرومانى ، وعلى كل فكان فرسان القوط أسبق من غيرهم فى عبور عقبه حروب العصور الوسطى ، ومن ذلك الوقت وما بعده حتى ظهور الرماة الإنجليز والرماحين السويسريين الذين تحدوا القوط فى القرن الرابع عشر ، فقد ظلت الفرسان الثقيلة طوال هذه المدة صاحبة المرتبة العليا فى أوروبا .

وعلى كل فيرجع بداية فن حروب العصور الوسطى إلى البربر أكثر منه إلى الرومان ، فالفرسان المثل بالدرع ويحمل حربته ومن وراءه اتباعه فقد تبع هذا من البربر ، وقد اشتقت المظاهر المميزة لهذه الحرب (من الفروسية والشعارات) من البربر أيضاً ، بينما كان كل هذا يتعارض مع تقاليد مشاة الرومان .

(١) أجبرت فرسان الرومان فى الجناح الأيمن على الانضمام على المشاة الموجوده فى الوسط فأصبحت قوة واحدة .

وعلى كل كان هناك سببان رئيسان وراء تطور الفروسية القوطية ووصولها إلى هذه القوة والعظمة ، أولهما أنه خلال هجومهم الطويل في السهول الجنوبية لروسيا ووسط أوروبا اكتسبوا خبرة كبيرة فأصبحوا فرساناً ممتازين ، وثانيهما أنه يوجد بحوزتهم الركب الذى يستطيع الفارس أن يحتفظ بتوازنه على ظهر حصانه وهو جالس على السرج الذى يتحمل ثقل دروعه والصدمات عند استعماله لحربته . ومن المحتمل أن يكون أصل مصدر الركب هو الشرق ، فقد ظهر مع بداية القرن الرابع قبل الميلاد ، ففي بعض صور النحت البوذية للقرن الثانى قبل الميلاد فرسان هذا العصر وهم يستخدمون عقداً من الحبال على شكل الركب . وقد دخل الركب إلى الغرب مع الجياد القوية القادمة من آسيا فى القرن الأول قبل الميلاد مع الأسكوذيون وقد حل القوط محل الأسكوذيون وخرجوا بين الأسلوب العسكرى الأسكوذى وما يتمتعون به من طاقة ، فأصبحوا يتصفون بالضراوة والكفاءة التى أتبعوها فى هجومهم على الأمبراطورية الرومانية .

وقد طور البيزنطيون أسلوب قتالهم بعد معركة أدريا نوبل وأصبح على نمط أسلوب قتال القوط مما أدى أن الأباطرة اضطروا إلى نبذ أسلوب قتالهم^(١) وحل فرق المشاة .

ولم يستطع الرومان مقاومة القوط بالقوة فاضطروا السماح لهم بالاستيطان بشروط مناسبة مع دفعهم للقتال ضد الشعوب البربرية الأخرى .

ولكن فى عام ٣٩٧ نجحت الجيوش الغربية الرومانية تحت قيادة «ستيليكو»^(٢) من دحر القوط الغربيين تحت قيادة أريك وطردهم من اليونان ، إلا أن أريك أتجه نحو إيطاليا ولكن ستيليكو استطاع الانتصار على أريك بجيش عماده من المشاة عام ٤٠٢ عند بولينيتا فى شمال إيطاليا ، وبعدها بأربعة سنوات حاصر عشرون ألفاً من رجال اللومباردى فى فلورنسا وأجبرهم على الاستسلام . وتحت ضغط الهون زحفت جماعات من قبائل السوفى والواندال والهيرول وعبروا جبال الألب إلى المناطق الجنوبية للأمبراطورية الرومانية ، وبكل حماسة

(١) أسلوب القتال الذى يعتمد على فرق المشاة

(٢) كان قائد وندالى على مستوى عال من المقدرة والكفاءة

قام الإمبراطور هونوريوس بقتل ستيليكو وذبح عدد كبير من القوط في الجيش الروماني مما أدى إلى تمرد ثلاثون ألفاً من المرتزقة القوط .

سوط الله (أنظر اللوحة رقم ١١)

في عام ٤١٠ سقطت روما في يد ألييك ونهبوا المدينة إلا أنهم احترموا المقدسات الدينية^(١) ، ولكن بعد عام ٤١٠ خيم الهدوء المؤقت للحروب وأقام الواندال في أفريقيا والبورجند في بورجندى والفرنجة في شمال فرنسا ، أما القوط الغربيون بعد سلبهم لإيطاليا أقاموا علاقات مع الإمبراطور ثم واصلوا زحفهم وكونوا مملكة في أسبانيا وجنوب غرب الغال ، وبدأ أن أوروبا أخذت تلتقط أنفاسها . ولكن في منتصف القرن الخامس حدث أفضع غزو في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، فقد كون الهون جيشاً جراراً من الفرسان تحت قيادة خان عظيم وهو أتيل^(٢) وواصلوا غزوهم لعدة قرون واتجهوا نحو الغرب^(٣) وقد خافهم جميع شعوب الغرب سواء أكانوا رومانيين أو البربر ، كما شعروا بنحوهم بأشمزاز وبنقض عميقين . وإذا ألقينا نظرة على أسباب غزو البربر والجرمان للإمبراطورية الرومانية لوجدنا أن السبب هو الاستمتاع بها وخيراتها ، أما السبب الرئيسي لغارات الهون فكانت للتدمير فقط .

وكان الهون في الماضي غير منظمين ومحاربون في صفوف البربر، وكان هناك أعداد كبيرة منهم في الجيش القوطي أثناء معركة أدريا نوبل ، كما كان الهون يشكلون أحياناً الاحتياطيات في الجيش الروماني نفسه . وقد أدى التزايد السكاني بينهم إلى دفعهم للقتال فنظموا جيشاً وهاجموا أوروبا .

وقد وصف أميانوس مارسيلينوس^(٤) انطباعاته عن الهون قائلاً : « كانت دولة

(١) لقد احترموا المقدسات الدينية لأنهم يدينون بالدين المسيحي

(٢) كان يطلق على أتيل « سوط الله »

(٣) فيما بين ٢٠٧ ق.م و ٣٩٠ م. حاول المغول غزو الصين ولكن الصينيين أجبروهم على الاتجاه غربا

(٤) أحد الجنود الذين عاصروا هذه الحروب « المغرب »

الهنون تفوق كل دول البربر في وحشيتها ، فالجميع يتميزون بسيقانهم الملتصقة وأعناقهم القصيرة وملاحظهم القبيحة التي تنذر بالشر ، أما إذا نظرت إلى ظهورهم المحدبة فستعتقد لأول وهلة أنك أمام إحدى الضواري التي تمشي على قدمين وكانوا مدربين منذ طفولتهم على تحمل أقصى درجات البرد والجوع والعطش ، وملتصقين باستمرار بخيولهم التي تتميز بالجرأة وقوة الاحتمال وبشكلها الكئيب . وكل رجال هذه الدولة يعيشون ليل نهار على ظهور خيولهم حيث يتناولون طعامهم وشرابهم فوق سروجهم وعندما يأتي الليل يميلون إلى الأمام فوق عنق خيولهم ويذهبون في سبات عميق .

وفي بعض الأحيان يقاتلون بأسلوب منظم ويمثلون الجو بصيحات مرعبة ، وكانوا يستخدمون المفاجأة وخفة الحركة في تحركاتهم ، فيتفرقون ويتجمعون مرة أخرى بسرعة فائقة في مجموعات مرنة ، ويجب أن نعرف أنهم كانوا من أكفأ وأسرع أنواع المحاربين في ذلك الوقت .

لم يكن جيش الهنون بتلك الضخامة العددية التي كانت تبدو عليه ولكن وحشيتهم ودمايتهم جعلتهم أشبه بالشياطين أو المخلوقات الدنيا من البشر . وكانت هذه الصفات تعتبر سلاحاً نفسياً رهيباً أثناء قتالهم . أما الصفة التي تميزوا بها فهي في مقدرتهم الفائقة في الحركة، سواء في حركتهم كدولة محاربة رحالة مهاجرة وفي حرب متواصلة أو كقوة تكتيكية رهيبة وعلى كل فهذه القدرات جعلتهم قوماً مدمرين ، وساعدتهم في ذلك خيولهم التي تعدو بسرعة ٢٠ ميلاً في الساعة فكانت تقطع مائة ميل في اليوم الواحد .

وكان فرسان الهنون ذو مقدرة فائقة في الهجوم والانسحاب علاوة على سهامهم المنقضة وقد أثبتوا فاعلية كبيرة في مواجهة فرسان القوط وكان سلاحهم الرئيسي القوس^(١) وكانوا من أبرع الرماة . وقد استخدموا السيوف الحديدية^(٢) أيضاً .

(١) كان الفارس يحمل القوس المركب القصير القوي ويصنع من القرون الفوية والقطع القصيرة المحدولة من الخشب المشدود إلى بعضه على شكل مزدوج .
(٢) يحتمل أن القوط سلبوها أو حصلوا عليها بطريق الماينة من الشعوب الأوروبية ، فلم يكن لديهم الفرصة للقيام بأي صناعات معدنية .
« العرب »

وقد استخدموا أسوباً جديراً بالملاحظة في القتال المتلاحم وذلك بقيام أحد رجالهم برباك مقاتل العدو بواسطة الوهق^(١) أو بواسطة شبكة ، وفي نفس الوقت يتفادى ضربات سيف مقاتل آخر من العدو ، وعلى كل كانوا لا يحبون استخدام الدروع ، والقليل جداً منهم من تحملها .

أتيلا وعروسه الجديدة

في عام ٤٣٣ أصبح أتيلا حاكماً للإمبراطورية الهون وسرعان ما فرض نفوذه على القوط الشرقيين والسلاف الموجودين بين الدون والدانوب وأيضاً على قبائل الجرمان في الدانوب وفي أقصى الغرب . وأستمر أتيلا ينهب شعب الإمبراطورية الرومانية فكان يحصل على الجزيات والرشاوى من الجماعات التي تستوطن أطراف الإمبراطورية كما كان يؤجر الهون أنفسهم كمرتزقة في الجيوش الأخرى ، وفيما بين ٤٤٠ — ٤٤٧ قام بغزو البلقان ولكن قوبل بمقاومة عنيفة فتحول إلى أقصى الغرب . وفي عام ٤٥١ عبر الهون الرين الأدنى على ظهر أطواف وتقدموا نحو أورليانز ، ولكن القوط الغربيين أنضموا إلى الرومان تحت قيادة إيتيوس وأستطاعوا صد الهون^(٢) بعد معركة دارت على سهل موريالك (شالون) ، ولا يوجد سجلات دقيقة عن تلك المعركة فيما عدا ما كتب عنها : « لقد كانت معركة وحشية وعنيدة ومعقدة وضخمة . » وعلى كل لم يواصل إيتيوس أنتصاره فقد خشي أزياد قوة القوط الغربيين بعد القضاء على الهون ، ونتج عن ذلك أن أتيلا غزا إيطاليا في العام التالي ولكن أوقفته في هذه المرة الجماعة والمرض التعزيزات التي وصلت للرومان من الشرق ودبلوماسية الأب ليو الأول . وفي عام ٤٥٣ أقترن أتيلا بزوجة جديدة وفي ليلة عرسه مات نتيجة أنفجار إحدى أوعيته الدموية ، وقد علق شو كبير على ذلك قائلاً : « أنظروا ... أتيلا ، الفاتح العظيم ، لقد مات أثناء نومه مصحوباً بالخزي والعار . لقد نزع من أنفه زيف الكسول ، ويجب على القائد أن يحيي متزناً ووقوراً » .

(١) الوهق عبارة عن حبل في نهايته أنشودة .

(٢) لم يكن الهون وحدهم بل كانوا معهم اللامبوردي والميرون والقوط الشرقيين « العرب »

وبالرغم من الخاتمة المثيرة لغزوات الهون إلا أنها اتخذت شكلا درامياً ، لأن الحشد الكبير لقوات الهون هز دائماً القوات الأوروبية التي كانت تجمع على عجل لقتالهم ، فالجيوش التي تصدت للهون في البلقان والتي هزمت كانت كلها خليط من قوات مختلفة . وقد قاتل آتيلا في سهل مورياك في أرض من اختياره وكانت ملائمة لأسلوب القتال التي ينتهجها الهون وعلى كل فكان آتيلا شخصية فريدة وبارزة وقد مكّنه هذا من توحيد مثل هذا الشعب وقيادته طوال هذه المدة الطويلة ، وواضح أنه كان قائداً عسكرياً ممتازاً لهذا الشعب الأسوي ولكن عندما واجهته قوات منظمة فشل أسلوب قيادته لذلك لا يمكن أن يعد من القادة العظام مثل جنكيز خان .

ولا تعد هزيمة الهون بأنها أنقذت روما ، لأنه في عام ٤٧٦ قام أودوكر^(١) بعزل رمولوس أغسطولوس وبذلك أنهى الأمبراطورية في الغرب ، أما أودوكر فقد عزل هو الآخر بواسطة ثيودوريك^(٢) . وعندما مات ثيودوريك قام جوستينيان^(٣) ٥٢٧ — ٥٦٥ بمحاولة لاستعادة الأمبراطورية الرومانية في الغرب وسعى وراء هذا الهدف الخيالي فأهمل حدود الدانوب والحدود الشرقية كما أن المقاطعات الشرقية^(٤) التي أنهكتها الضرائب تعرضت لحرب لمدة عشرين عاماً ، وقد أنتجت هذه الحروب قائداً عظيماً بارزاً هو بليزاريوس .

الطعم الحلى

ظل الجيش البيزنطي محتفظاً بمقدرته لفترة من الزمن في مواجهة حرب القوط ، وكان يتكون معظمه من المرتزقة ومن مختلف القبائل البربرية ومعظمه من الفرسان أما المشاة الثقيلة فكانت قليلة . إذا عدنا سوياً إلى القائد بليزاريوس لوجدنا أنه تخرج من المدرسة الحربية للأمبراطورية الرومانية وتعين في الحرس الأمبراطوري ، وفي عام ٥٢٠ طاب منه تدريب قوة من الفرسان الثقيلة المسلحة بالقوس والرمح حتى تصبح قوات مناوشة وأيضاً قوات صدمة ، فأضاف على تسليحهم

(١) أودوكر : قائد هيرولي لأحد الجيوش الرومانية وكانت تتشكل بالكامل من البربر .

(٢) ثيودوريك قائد من القوط الشرقيين وقد كون مملكة متمدينة في رافينا

(٣) أمبراطور القسطنطينية

(٤) لقد تحولت الجيوش منها إلى الغرب وأفريقيا وأسبانيا وإيطاليا « العرب »

السهم ذات الريش والتي تقذف باليد من مسافة قريبة ، وقد علمهم استخدام السيوف العريضة الثقيلة عندما يصبح استعمال الرمح دون جدوى ، وقد أدى هذا أن الأمر أصبح يحتاج إلى جندي قادراً وكفئاً ليستخدم هذه الأسلحة الأربعة وفي نفس الوقت يجب أن يتحكم في حصانه أثناء القتال وهذا تطلب منه مجهوداً كبيراً ليحصل على الجندي الملائم لهذه القوة الجديدة . وقد قام بتدريب رجاله على تثبيت أنفسهم على السرج بواسطة الركاب ويتحكمون في حركة الحصان بواسطة تحريك الركاب فقط لأن استعمال القوس يتطلب استخدام كلتا اليدين ، وعلى كل ساعده على ذلك أن السرج في ذلك الوقت كان عريضاً ومريحاً . وكان الفرسان يحملون دروعاً تعلق باليد اليسرى ويرتدون دروعاً على شكل قيص بدون أكمام ويمتد حتى الأنفخذ ويرتدون أحذية طويلة مصنوعة من جلود الحيوانات والقوس يتدلى من فوق كتف الفارس في حالة عدم استعماله بينما تحفظ السهم داخل جراب معلق مباشرة وراء السيف العريض وعلى الفخذ الأيسر ، وتحفظ السهم الاثنى عشر المزودة بالريش داخل جراب مشدود إلى الدرع ، أما الرمح فيحفظ داخل ما يشبه الدلو المصنوع من الجلد وعلى الجانب الأيمن للمقاتل . وقد استخدم نفس أسلوب الهون في الرماية بينما استخدم أسلوب القوط في القتال بالرمح . وأخذ يدرّب الفرسان عملياً حتى تزداد مهارتهم في التسديد والأصابة وكان يتم ذلك على أهداف على شكل دمي معلقة في عوارض خشبية ، وكان على الفارس أن يشد قوسه عندما يقترب من الهدف ، ثم يطلق ثلاثة سهام متتالية على هذا الهدف المتأرجح ثم ينهي هجومه بالرمح أو بالأثنى عشر سهماً ذات الريش^(١) وكان أجر الفارس ورتبته ومؤنه تمنح طبقاً للكفاءة في التدريب .

وقد تعلم بلزارايوس مهنة القتال عن طريق الحرب التي دارت في الدانوب والشرق ومثال لذلك أنه استنبط أسلوب تكتيكي جديد وأستخدمه ضد رماة الهون الراكبين في بلغاريا ، فكانت المشكلة كيف يشتبك مع الهون عن قرب ؟ وقد نجح بلزارايوس في أغرائهم بواسطة « طعم حي »^(٢) فيندفع الهون نحوهم في حماس حتى يصلوا إلى أرض من اختياره فيقطع عليهم خط الرجعة .

(١) كان يطلق على هذه السهم « السهم ذات الأجنحة »

(٢) الطعم الحي عبارة عن مجموعة من الفرسان يركبون جياداً سريعة جداً ، ويضعون في طريق تقدم الهون ليجذبون القوات لمهاجمتهم . « العرب »

وقد أستطاع بليزار يوس التغلب على العربات التي يستخدمها الهون كمتاريس بأن يشعل رجاله النار فيها بأطلاق السهام المشتعلة عليها وكان يطلق السهم في نفس الاتجاه التي تهب فيه الريح نحو هذه العربات .

حوت البوسفور

وقد ظل بليزار يوس يعمل مديراً للتدريب العسكري لمدة أربعة سنوات ، وقد قضى هذه المدة في الطوف بالحاميات على الحدود الشرقية لتنظيم وتنسيق أساليب تدريجها . وفي العمليات التي دارت مع الفرس كان النجاش حليفه وبطريقة بارزة ، أما الفشل الوحيد الذي لحق ببليزار يوس أنه حاول قتل حوت هائل كان يطلق عليه « بروفيري » وكان يثير الرعب في البوسفور وكان سبب هذا الفشل أن بحارته فقدوا أعصابهم ففشلوا في تصويب المنجانيق بالطريقة الصحيحة . وفي عام ٥٣٢ أسندت القيادة لبليزار يوس ليقا تل الواندال وخرج من بيزنطيوم^(١) على رأس جيش جرار يقدر بحوالى عشرة آلاف من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وكان معظمهم من المرتقة ومن جنسيات متعددة ويمثلون الفلاحين وتباع القادة ، ويعتبر هذا الجيش أول جيش أقطاعى . وكانت المشاة ذات كفاءة كبيرة ونوعية ممتازة ومن مرتفعات قلقيلية وقد درّبهم بليزار يوس ، أما الفرسان فكان من بينهم ستمائة من الهون وأربعمائة من الهيرول ، كما كان هناك وحدة مشكلة من حوالى ألف وخمسمائة من الفرسان المدرعين كحرس ملكي خلف بليزار يوس ، وكان رئيس أركان يدعى سليمان من أرمينيا وكان من ضمن أفراد قيادته مؤرخ يدعى هو بروكس وهو مؤرخ عهد جوستينيان . وقد أعتاد بليزار يوس في جميع حملاته أسطحاب زوجته أنطوانيت وكانت امرأة تتميز بالجرأة والشجاعة .

وقد أبحر الجيش عن طريق إيطاليا وصقلية بأسطول مكون من ٥٠٠ سفينة نقل مختلفة الأحجام وفي حراسة أسطول صغير مكون من ٩٢ قارباً شراعياً^(٢) سريعاً . وكان بليزار يوس يحب النظام ويقده وقد أدى هذا أن فرض نفسه على رجاله ومثال لذلك أنه أعدم اثنين من

(١) وهى القسطنطينية

(٢) كان يطلق عليه درمون ويقوم بالتجديف في كل منه ٢٠ رجلاً « العرب »

الهون قتلا أحد الرجال أثناء حفلة شراب . ولم تقابل عملية الأزال في أفريقيا أى مقاومة تذكر، وتقدم الجيش نحو قرطاجة ، وفي كل ليلة تقيم القوات معسكرا على النمط الرومانى القديم للمبيت فيه ، وعند الميل العاشر قبل قرطاجه ألتقى الرومان بالواندال^(١) الذين حشدوا ٨٠.٠٠٠ من الجنود ، ولكن جيشهم كان أقل خبرة علاوة على أفتقاره للتدريب من جيش بليزاريوس وفي بداية المعركة أصطدم فرسان الرومان مع فرسان الواندال في وادى ضيق محصور بين جبلين وأستطاع الرومان هزيمة فرسان الواندال هزيمة منكرة وقتلوا قائدهم^(٢) ، في نفس الوقت أندفع جيهر بالواندال في احدى السهول القريبة لمهاجمة العدو ولكن السيل المنهر من سهام قوات بليزاريوس أفزع الواندال وشتتهم ولكن قوات الواندال تجمعت ثانية واحتلت جميع مداخل الوديان في مواقع دفاعية ممتازة ، وأصبح بليزاريوس بالرغم من تفوقه العددي في موقف صعب للغاية ، ولكن الأمور تغيرت لصالحه عندما علم جيهر بمصرع شقيقه فمالكه الحزن الشديد ورفض الإستمرار في المعركة أكثر من ذلك ، وعلى الفور أستغل بليزاريوس هذه الفرصة لصالحه ، وقام بتقسيم قواته إلى قسمين وأرسلهم لاحتلال المضارب المحيطة بمداخل هذه الوديان . وقام القسمين وفي وقت واحد بإطلاق سهامهم على الواندال ثم أتبعه بهجوم كاسح من الفرسان والمشاة فاستطاع في النهاية إبادة الواندال . وفي اليوم التالى استسلمت قرطاجة ولكى يجنب بايزاريوس نهب المدينة ، أمر جنوده بعدم دخولها .

النصر الحادى

وبعد انتهاء الحرب في أفريقيا اشتعلت مرة أخرى في إيطاليا ، فقام بليزاريوس بغزو القوط الشرقيين (٥٣٥ - ٥٤٠) بجيش لم يتعدى ٧٥٠٠ رجلا وبالرغم من العقبات والمكائد التى كانت موجودة في البلاط البيزنطى ، وبالرغم من التردد وغيره الأمبراطور جوستينيان .

(١) كان الواندال من الفرسان المهرة ولكن فرسانهم كانت تقاتل بالرمح والسيف فقط بينما كانت رماثهم من المشاة .

(٢) كان قائد الفرسان شقيق الملك جيهر وقد أصيب باحدى السهام ذات الأجنحة في جبهته « العرب »

وكان لهذه الحرب خاتمة مثيرة فقد دافع بليزاريوس عن روما دفاعاً مستميتاً خمسة آلاف من رجاله دافعوا عن أثني عشر ميلاً من أسوار المدينة لمدة عام كامل. وفي عام ٥٤٠ إستسلمت رافينا إلا أن الثورة اشتعلت فيها ، وقام بليزاريوس ومعه نارسيس^(١) بمحاربة القوط لمدة أربعة عشر عاماً أخرى .

وعندما حل السلام ، كان عبارة عن سلام أمهاك بينما كان النصر خلوياً لأن الدمار والخراب الذي حل بإيطاليا جعلها غير قادرة عن الدفاع حتى عن نفسها ضد اللومبارد وقد قاموا باكتساح شمالها عام ٥٦٥ .

وعلى كل فقد تفانى بليزاريوس بكل قوته وطاقته لخدمة رئيس سياسي^(٢) من الدرجة الثانية لأنه طلب منه تحقيق هدف استراتيجي وهمي . فنجد أن ما حصل ووصل إليه جوستينيان يعتبر أكثر مما يمكن السيطرة عليه . ويعتبر بليزاريوس مثال الجندي الكلاسيكي الوفي الكفء .

وفي عام ٥٤٠ قام الفرس بنهب أنطاكية ، وقد تم سحب القوات الرومانية من الحدود الشرقية فأدى هذا إلى ضعف الحدود . وعلى العموم فالحصون التي بناها جوستينيان وتقدر بحوالي سبعمائة لتدل على التقدم الكبير في مجال الهندسة العسكرية .

وفي القرن الخامس أتم البيزنطيون بناء الدفاعات الكبيرة عن القسطنطينية ، وكانت على شكل حزام ثلاثي من الأسوار وخندقين مائين ، واستطاعت هذه الدفاعات مقاومة الهجمات المتكررة حتى سقطت لأول مرة عام ١٢٠٤ .

وقد ألهمت أسواوه مزاغل وأبراج القسطنطينية مهندسوا العصور الوسطى وأثرت تأثيراً كبيراً على تفكيرهم .

وفي النهاية فقد أدى فشل الأسلوب الذي أتبعه جوستينيان في فتوحاته إلى الأطاحة بالستار الغربي للامبراطورية الرومانية علاوة على ضياع المجد العسكري والحضارة الرومانية .

(١) نارسيس كان هذا القائد يبلغ من العمر ٨٠ عاماً

« المغرب »

(٢) يقصد جوستينيان

والآن وقد تبددت آخر الأوهام السياسية لأن الغزو اللومباردى لإيطاليا يعتبر آخر الهجرات البربرية .

ونعود ثانية وننظر إلى أطراف الإمبراطورية الرومانية فنجد أن شمال أفريقيا والقوط الغربيين وأسبانيا أخذوا ينتظرون غزو العرب لهم ، بينما عزز الفرنجة أنفسهم في فرنسا أما الأنجلوساكسون فقد استقروا في بريطانيا . وبالفعل نجد أن الحقبة الجديدة لحرب العصور الوسطى والتي تميزت بالفارس المدجج بالسلاح ويسير من خلفه أتباعه ، قد بدأت فعلا من قرنين من الزمان .

الفصل السابع

الحروب في أوائل العصور الوسطى

(أنظر اللوحة رقم ١٢)

ظهور محمد (عليه الصلاة والسلام)

إذا ألقينا نظرة على الأمبراطورية الرومانية لوجدنا أن غرب هذه الأمبراطورية أخذ يتفتت بينما شرقيها أخذ يزدهر وذلك بقيام الدولة البيزنطية التي أخذت تصارع من أجل البقاء مع العرب أولاً ثم بعد ذلك مع الأتراك والبلغاريين . وبعد صراع مرير استطاع البيزنطيون تحقيق النصر على العرب ، مما أدى أن غير العرب طريق فتوحاتهم فتوجهوا إلى شمال أفريقيا فاتحين أسبانيا عام ٧١٣ وبعدها بسبع سنوات توغلوا في جنوب فرنسا . في ذلك الوقت ظهرت الفرنجة^(١) مرة أخرى وبشكل ملحوظ إلا أنه في القرن الثامن بدأ الفايكنج غاراتهم على بريطانيا وغرب أوروبا من أسكندنافيا ولم يستطع الفرنجة والإنجليز من صد هجماتهم بفاعلية وكفاءة إلا مع حلول القرن العاشر .

وخلال هذه الفترة المضطربة، أنجبت أوروبا قادة كفاء بارعين ساهموا في حمايتهم وسنشير إلى بعضهم خلال دراستنا لهذه الحقبة .

إذا نظرنا إلى الفترة ما بين القرن السابع والحادي عشر والقيينا الضوء على الحرب التي نشبت في أوروبا الغربية لظهر لنا مظهرها مشيراً وجديراً بالملاحظة وهو التآلق المستمر في مضمار الفروسية ، مع ظهور نظام الأقطاع والتبعية^(٣) وبالرغم من هذا كانت توجد مناطق

(١) الفرنجة : موطنهم الأصلي شمال غرب أوروبا ثم نزحوا إلى داخل الغال الروماني وهم ينتسبون إلى القبائل الجرمانية .

(٢) كان في ذلك الوقت الفارس هو الأساس في تشكيل القتال وينتمون إلى الطبقة النبيلة ويرفعهم الملك إلى رتبة عسكرية خاصة بعد اجتيازهم مرحلة تدريب معينه ويأخذوا على أنفسهم عهداً بالقيام بالأعمال المحيطة .

(٣) نظام التبعية : وهو ان أن يتبع الفلاحين ملاك الأرض أثناء الحرب ويقاتلوا في صفوفهم .

« العرب »

عديدة استمرت في استخدام المشاة كعنصر رئيسي لقواتها . هذه مقدمة سريعة لتذكركنا بهذه الفترة ، وعلينا الآن العودة إلى عام ٦٢٢ ، في هذا العام هاجر الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) مع أتباعه من مكة إلى المدينة وبدأ في نشر الدعوة الإسلامية . وقد قاد النبي (عليه الصلاة والسلام) بنفسه ثلاثمائة من أتباعه وهاجم قافلة مكية وقد حقق أول نصر عسكري للمسلمين . وفي عام ٦٢٨ وبقوة تقدر بألف وأربعمائة من أتباعه استطاع الرسول (عليه الصلاة والسلام) فرض شروطه على مكة وبذلك ضم إلى صفوف دعوته رجالين من أعظم الرجال وقدر لهما أن يكونا من أعظم قادة الفتوحات الإسلامية وهما خالد بن الوليد .. وعمر بن العاص ..

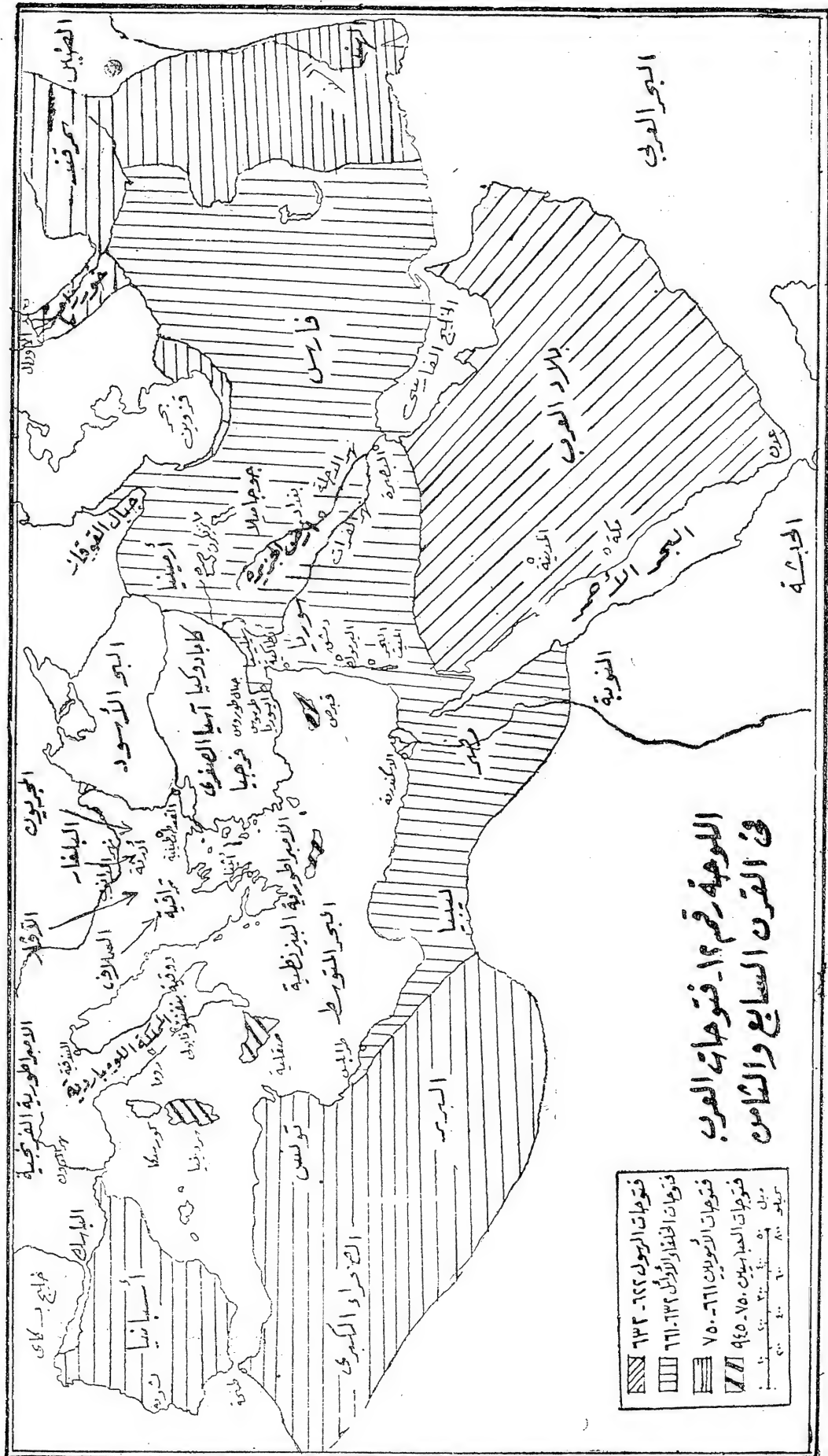
توفي الرسول (عليه الصلاة والسلام) عام ٦٣٢ وبعد اثني عشر عام أنتزع المسلمون كل من فلسطين وسوريا ومصر من الامبراطورية البيزنطية ، وبعدها تمكنوا من غزو الفرس والأطاحة بهم . وفي غضون مائة سنة امتدت الإمبراطورية الإسلامية من بحر الأورال إلى أعلى النيل ، ومن تخوم الصين إلى خليج بسكاي . ولم تكن هناك سوى قوة واحدة لديها القدرة على مقاومة المسلمين في ذلك الوقت وهي الامبراطورية البيزنطية بالرغم من فقدانها للجزء الجنوبي الشرقي من امبراطوريتها .

المسلمون قوم لا يقهرون

وفي عام ٦٣٦ حشد الأمبراطور البيزنطي هرقل جيشاً مكوناً من خمسين ألفاً ليقا تل به العرب وكان جيشهم نصف عدد الجيش البيزنطي وبقيادة خالد بن الوليد ، وألتقى الجيشان عند اليرموك^(١) ، وقد أسفرت المعركة على هزيمة الجيش البيزنطي وتشتت صفوفه ولأقوا حتفهم على أيدي أهل الصحراء وأدى هذا إلى تقلص جبهة البيزنطيين حتى وصلت جبال طوروس ، كما سقطت الأسكندرية^(٢) في قبضة عمرو بن العاص بالرغم من افتقاره لمعدات الحصار والخبرة في فن الحصار نفسه . أما ليبيا وتونس فتناووا العرب مدة ٢٥ عاما

(١) ، منطقة اليرموك من أشد بقاع العالم قيظا وغباراً

(٢) كان يحمي الاسكندرية أسوارا عالية وقوية وحامية مكونة من خمسين ألفا علاوة على الأسطول



ولكنهم فى النهاية اعتنقوا الإسلام ، ومن العجيب أن القوة الرئيسية للجيش الإسلامية فى فتح أسبانيا بين عامى ٧١٠ - ٧١٣ كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين .

وقد طبق العرب وبذكاء خفة الحركة أثناء فتوحاتهم فكانوا يقاتلون من فوق ظهور الجبال والخيول وفى المناطق الملائمة لذلك مثل الأرض المفتوحة فى شمال أفريقيا وغرب آسيا ، إلا أن تنظيم قواتهم والأسلوب التكتيكي الذى اتبع فى المعركة كان بدائياً علاوة على افتقارهم للدروع القوية ، فمثلاً كانوا يقاتلون عادة فى خط واحد كثيف ومتقارب وأحياناً يقاتلون فى خطين أو ثلاثة ، بينما تشكل كل قبيلة منهم وحدة منفصلة ، وكان أسلوب القتال عندهم أن يتحدى بطلى الجانبين كل منهما الآخر قبل بداية المعركة ، وقد يصل هذا التحدى أن يدخل سويلاً فى قتال فردى بين الجيشين ثم يتبع ذلك قتالاً عاماً للجيشين .

ومن العوامل التى جعلت العرب قوم لا يقهرون شجاعتهم وإقدامهم وحشدهم لقواتهم ، قد وصفهم القائد البيزنطى نفقور فوقاس عندما يتوقعون النصر فهم قوم غاية فى الجسارة يصمدون بثبات فى صفوفهم ، ويقاتلون بإصرار باسل فى وجه أعنف الهجمات ، وعندما يلاحظون أن وحشية عدوهم بدأت تتراخى يحشدون قواتهم ويهجمون باستماتة » .

إذا ألقينا نظرة على مشاتهم فيما عدا الرماة من الأحباش نجد أنها غير فعالة وهزيلة التسليح ، ولكن قوتهم كانت تكمن فى فرسانهم القوية التى تميزت بالتسليح الخفيف حتى مستهل القرن السابع وبالتالى أصبح لها قدرة فائقة على الحركة ، إلا أنه فى القرون اللاحقة تعلم العرب دروساً كثيرة من أشد أعدائهم صلابة وعناداً وهم البيزنطيون ، فأصبحوا يعتمدون وبدرجة كبيرة على الرماة الكبار من رماة القوس ورماة الرمح وكانوا يرتدون دروعاً على شكل قسطن من السلاسل المعدنية ويضعون على رؤوسهم الخوذات والدروع على الساق لحمايتها ، إلا أن الخيالة العربية لم تصل فى تدريعبها إلى مستوى تدريعب الخيالة البيزنطية .

الإسلام محرر الشعوب من العبودية

ومهما يكن من الأمر ، فنجد أن أهم مميزات الجيش الإسلامية لم تكن فى المعدات أو التسليح أو التنظيم بل كانت فى الروح المعنوية العالية النابعة من قوة إيمانهم بالدعوة

الإسلامية ، وفي خفة الحركة والتي ترجع إلى مهارتهم في سرعة التحرك بالجمال والخيال ،
وأيضاً في قوة احتمالهم وجلدهم نتيجة لحياتهم الصعبة في الصحراء والتي تعودوا
عليها .

وعلى كل فهناك عوامل أخرى شاركت في نجاح زحفهم غير العادي ، ذلك الزحف الذي
كان عبارة عن نجاح تلو النجاح ، فكان العرب يندفعون نحو القتال ويحركهم أقوى دوافع
الحرب ، ألا وهو الإيمان والعقيدة ، ومثل هذه النبضات المتلاحقة لم يكن من السهل أن
تخبو سريعاً .

فالكثير منهم ، وخاصة في المراحل الأولى للفتوحات الإسلامية ، كانوا يؤمنون إيماناً
راسخاً بالدعوة الإسلامية متحمسين لها والغيرة عليها ، وأدى هذا إلى إعتناقهم مبدأ صلها
هو الجهاد في سبيل الله ، وقد تغلغل هذا المبدأ في قلوب أتباع الرسول « عليه الصلاة
والسلام » .

وقد كان العامل الاقتصادي أحد أسباب الحروب التي قام بها العرب إبان القرن السابع ،
وقد تمثل هذا في القصة القديمة نلاً زحام السكاني في شبه الجزيرة العربية .
وقد ظلت مناطق جنوب الجزيرة العربية لعدة قرون تعاني من الجفاف والقحط مما أدى
أن سكان هذه المناطق زحفوا شمالاً . ويعتبر الاندفاع العربي في القرن السابع هو الرابع
والأخير ، وكان من أعظم الهجرات السامية . وقد نزع هؤلاء بطبيعة الحال نحو الهلال
الخصيب وذلك قبل أن يتدفقوا إلى وديان النيل والفرات ثم ما بعدها .

وقد وصلت الفتوحات الإسلامية مدى لم تصله في أي عهد سابق ، وذلك ليس فقط
لأنهم كانوا أكثر عدداً بل أيضاً لأنهم كانوا يستقبلوا في كل مكان يصلون إليه كححرين
للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح . . وإنسانية . . وحضارة ، فزاد
إيمان الشعوب بهم ، علاوة على تميزهم في نفس الوقت بالصلابة والشجاعة في القتال . وقد
أدى كل هذا إلى إعتناق معظم الشعوب التي انتصر عليها العرب الدين الإسلامي ، وقد
ظلت جميع المناطق التي فتحها العرب في القرن السابع حتى يومنا هذا ، ماعدا
إسبانيا تحتفظ بالدين الإسلامي وكذلك بالعادات والتقاليد والتراث الإسلامي .

النار الأخرقية

لقد أدرك العرب بعد معركة اليرموك أنه يجب الإستيلاء على القسطنطينية لأن ذلك سوف يوفر لهم أمناً محققاً ويتوجههم بالنصر والنجاح ، وبالرغم من هذا فالتهديد الأول الذي تعرض له العرب بعد ذلك كان من البيزنطيين . وإذا استرجعنا سويما التاريخ لوجدنا أن انتصار العرب المبكر في الشرق الأدنى يرجع إلى أن الإمبراطورية البيزنطية والفارسية كانتا منهكتين نتيجة للحروب التي دارت بينهما . فوجد أن الإمبراطور البيزنطي هرقل بعد عام ٦٢٣ ، وبعد قيامه بستة حملات استطاع طرد جماعات البربر من حدوده الشمالية والشمالية الشرقية ، وقد انتهرز الإمبراطور الفارسي كسرى فرصة هذا الوضع الحرج لغريمه وهاجمه من الشرق إلا أن الإمبراطور هرقل تمكن من دحره . في ذلك الوقت قام العرب بهجومهم على الإمبراطورية البيزنطية ، وكان الجيش البيزنطي في حالة من الإنهاك وكما أشرنا سابقا وانسحب الجيش البيزنطي بعد معركة اليرموك إلى خط طوروس ، وهناك أعادوا بناء قواتهم . وفيما بين القرن الثامن والحادي عشر أصبح للبيزنطيين جيشا وبحرية منظمة وعلى درجة عالية من الكفاءة وتعتبر من أعظم ما شهدته أوروبا ومنطقة البحر المتوسط .

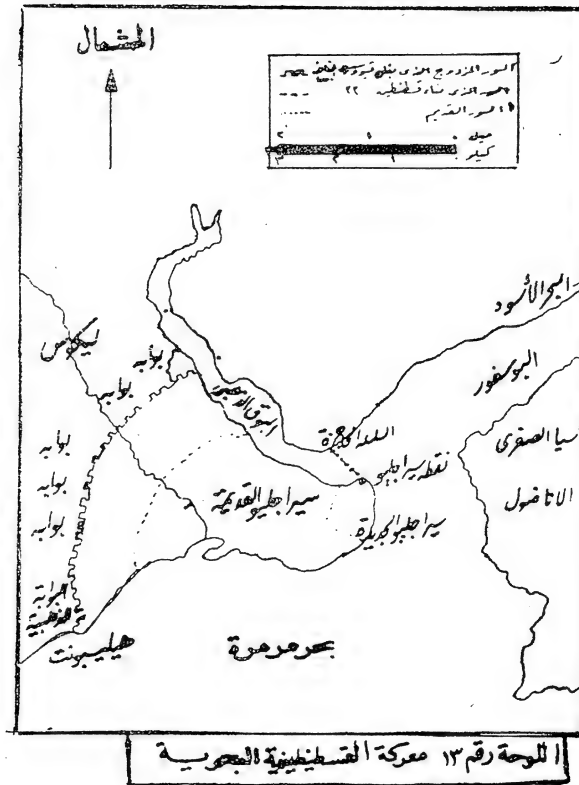
وهذا ما اكتشفه العرب عن محاولتهم التوسع في فتح هذه الإمبراطورية ، ففي عام ٦٦٨ هاجم العرب عدة مناطق من الإمبراطورية البيزنطية ولكنهم لم ينجحوا ، فأعادوا الهجوم بواقع مرة كل سنة بين عام ٦٧٢ ، ٦٧٧ ولكنهم فشلوا أمام الأسطول البيزنطي ، بالرغم من وجود تشابه كبير بين السفن الشراعية الكبيرة البيزنطية والعربية وعلى كل كان هناك نوعان من هذه السفن : — سفن صغيرة وتستخدم في أعمال الاستكشاف ، وسفن كبيرة وتستخدم في أعمال القتال وكان يطلق عليها « الدرمون » ومن النوع الكبير أيضاً سفن البامفيلية وطولها ١١٠ قدماً وعرضها ١٤ قدماً ولها دفة مساحتها ٣ أقدام ويقوم بالتجديف فيها مائة رجل موزعين على الجانبين ، وكان الرجال الذين يجدفون في مقدمة السفينة مسلحين علاوة على جنود الإنزال^(١) . وكان يوجد نوع ثالث أكبر من « الدرمون »

يبلغ طوله ١٤٠ قدماً ويقوم بالتجديف فيها ٢٣٠ رجلاً . ويرجع تفوق البيزنطيون في البحرية إلى سببين :

أولهما لأن سفنهم كانت مجهزة أفضل ومنتقنة الصنع .
وثانيهما أنهم كانوا يملكون سلاح « النار الإغريقية ^(١) » ، وكانوا يطلقون قذائف هذا المخلوط بأقواس مركبة بالسفينة من خلال أنبوبة أو ماسورة أو تقذف في بواتق بواسطة المنجانيق ، وإذا اختلطت « النار الإغريقية » بالماء تزداد اشتعالاً .

ميناء البوق الذهبى (أنظر اللوحة رقم ١٢ ، ١٣)

استمر الصراع دأراً بين العرب والبيزنطيين مدة طويلة وكان العرب منتصرين دائماً حتى وصلت الإمبراطورية العربية إلى ذروتها في عهد الخليفة الوليد (٧٠٥ — ٧١٥) وبات محتملاً أن الإمبراطورية البيزنطية سيصيبها الأضمحلال ، ولكن عجلة الحظ دارت في جانب



(٢) عبارة عن مخلوط محرق غير معروف تركيبه بالضبط ، ولكن من المحتمل أن يدخل في تركيبه الكبريت والقار والبتول والزيت ومادة صمغية والجير الحى ، وكان لدى الأغريق شيء كهذا لمدة طويلة ، وربما ترجع هذه المدة إلى الحصار المبكر لديليوم في عام ٤٢٤ ق . م ولكن فيما يبدو كان هناك سويا يدعى كاسينوس قام في عهد قريب بتحسين وتطوير هذا المخلوط . « العرب »

البيزنطيين عندما حاصر العرب القسطنطينية. ففي الفترة ما بين ٧١٧ - ٧١٨ بعد غزو العرب لآسيا الصغرى ، اضطر الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث إلى التنازل عن العرش لرجل عسكري محترف هو « ليو الأيسوريانى » الذى قام على الفور بإصلاح وتدعيم تحصينات القسطنطينية الضخمة . وكان من المعروف قبل عصر البارود أن الأسوار والحصون لا يمكن اختراقها بواسطة الهجوم ، وكانت الوسيلة الوحيدة للاستيلاء على المدينة هو حصارها حتى تستسلم فى النهاية جوعاً .

ولكن إذا ألقينا نظرة على القسطنطينية لوجدنا أنها كانت مقامة على نتوء جبلى يمتد إلى داخل البحر وتحيطها المياه من ثلاث جوانب ، ولذلك أصبح سقوط هذه المدينة يتوقف على قوة وقدرة الأسطول المهاجم .

وعلى كل لا نعرف عدد سفن الأسطول العربى بالضبط ، ولكن من المؤكد أن العرب استطاعوا الحصول على عديد من السفن من جميع موانئ شرق البحر المتوسط ومن المؤكد أن كان لهم السيادة فى هذه المنطقة والتفوق فى المعركة .

وفى أغسطس عام ٧١٧ هاجم القائد العربى مسامة القسطنطينية براً بمهاجمة السور المقام على الشاطئ ، إلا أن نيران المنجانيق أجبرته على الانسحاب ، فقام بمحاصرتها وأصدر أوامره للقائد البحرى سليمان بتقسيم أسطوله إلى قسمين ، قسم يربط عند أنثيميوس وأيتروفيش على ساحل آسيا الصغرى وذلك لقطع الأمدادات والمواصلات عبر البحر المتوسط إلى القسطنطينية ، بينما يمر القسم الثانى خلال البوسفور ويغلق الممر المائى بين القسطنطينية والبحر الأسود .

فى ذلك الوقت أقام ليو برجين على جانبى المدخل المؤدى إلى ميناء البوق الذهبى ، وعلق بينهما سلسلة حديدية تحت الماء كعائق للسفن ثم وضع أسطوله فى ميناء البوق الذهبى .

وفى أوائل شهر سبتمبر بدأت السفن العربية فى الأبحار إلى البوسفور وعندما وصلت إلى نقطة سيراجليو تقاذفتها تيارات قوية مما أدى إلى حدوث فوضى واضطراب بين سفن الأسطول العربى ، فى هذه اللحظة خفض ليو السلسلة الحديدية وأطلق سفنه لمهاجمة الأسطول العربى بقذائف من النار الإغريقية مما أجبر الأسطول العربى إلى الانسحاب بعد أن فقد ٢٠

سفينة وبعدها عاد ليو بأسطوله إلى ميناء البوق الذهبي . لم يحاول بعد ذلك العرب القيام بمحاولة لغلق البوسفور مما أدى إلى وصول الأمدادات الكثيرة للمدينة المحاصرة عن طريق البحر الأسود ، بينما أستمر العرب في حصارهم للمدينة طوال الشتاء القارص ، وكان يعتبر حصار العرب للقسطنطينية في هذا الوقت عمل جرىء لما كانوا يقاسونه من شدة البرد غير العادى في هذه المنطقة .

وفي الربيع وصل إلى العرب بعض التعزيزات من شمال أفريقيا فقرروا الأبحار نحو البوسفور لأستكمال تطويق القسطنطينية ، ولكن كان معظم أطقم سفن التعزيز من المسيحيين المجبرين على القتال فافشوا سر خطة التحرك . وفي اللحظة الحاسمة أبحر أسطول ليو من ميناء البوق الذهبي وألتقى بالجزء الأكبر من الأسطول العربى أثناء تحركه نحو البوسفور وأستطاع ليو تحقيق النصر كاملا على العرب ، وتوج هذا النصر بنصر آخر برى ، فقد حقق حلفائه البلغاريون نصراً برىا على الجيش العربى في المنطقة التى تقع بين القسطنطينية وأدرنه .

وأخذ البيزنطيون في نشر الشائعات بين صفوف العرب بأن الفرنجة يزحفون بجيوشهم نحو العرب للقتال بجانب البيزنطيين لأنقاذ المسيحية ، وعندئذ دب اليأس في قلب الخليفة العربى ، وبعد اثنى عشر شهراً من حصار القسطنطينية وبالتحديد في أغسطس ٨١٧ رفع الحصار عن المدينة وأنسحب الأسطول العربى ، فما كان من ليو أن طاردهم بأسطوله إلى ما وراء الهلسنت حيث أصطدم الأسطول العربى بعاصفة هوجاء قضت على الجزء الأكبر منه ولم يتبق إلا جزء ضئيل ، وكانت كارثة مفرجة لم ينسها العرب . وقد حقق ليو أنتصارا آخر على العرب عام ٧٣٩ عند أكرنون في فريجيا مما أجبرهم على الجلاء عن غرب آسيا الصغرى وبذلك أطمأن ليو أن الإسلام لن ينتشر في أوروبا الأخرى لعدة قرون .

الجيش البيزنطى

لقد كان الفضل الأكبر للأنتصار في القسطنطينية يرجع ليو ، فقد أستلم قيادة الدولة البيزنطية في لحظة عصيبة ، إلا أنه قادها بشجاعة وذكاء في معركة دفاعية طويلة ضد عدو عظيم له شهره وتفوق كبير في القوات ، ولكنه كان لن يحقق هذا النجاح إذا لم يكن جيشه وأسطوله قد تم تأسيسهما وتنظيمهما من فترة طويلة وفي ظل التقاليد العسكرية الصارمة

وقد أعتمد ليو على القاعدة الوطيدة من الضبط والربط والكفاءة الموجودة لدى القوات وأقام عليها صرح جيشه وأسطوله الكبيرين .

فإذا عدنا للوراء لوجدنا أن هذا الجيش قد أسسه بليزارىوس وموريس^(١) وزاد من كفاءته هيرا كليوس وأنتصر به على السلاف والفرس (٦٢٢ — ٦٢٨) ثم أثبت هذا الجيش نفسه مقدرة وكفاءة أكثر من مرة وفي أكثر من معركة ضد الجيوش العربية المتفوقة ، وكانت فرسان بليزارىوس الثقيلة تشكل القوة الرئيسية للجيش البيزنطى على مر العصور ، وكان الفارس يرتدى قميصاً معدنياً من رقبتة حتى الفخذين ويحمل درعا مستديراً متوسط الحجم وقلنسوة مزودة بخصله من الشعر ، ويرتدى فى يديه قفازاً طويلاً يمتد إلى مابعد الرسخ وحذاء من الصلب فى قدميه .

وكانت جياد الضباط وقوات الخط الأمامى مزودة بمقدمة حديدية لحمايتها .

وجميع الجياد مجهزة بسروج مريحه وبها ركاب حديدى .

وكان الجنود يرتدون فى الطقس الحار سترات خفيفة من الكتان فوق دروعهم ، وتغير هذه السترة الكتانية إلى معطف من الصوف فى الجو البارد .

وكان الفارس يستخدم أثناء الهجوم سيف من النوع العريض وخنجر وقوس قصير وجعبة مملوءة بالسهم وحرية طويلة مزخرفة ومزودة بسير جلدى عند جزءها السفلى الغليظ ، وأحياناً كان يحمل الجندى بلطة وتثبت فى سرج الجواد . وكان يرتدى الجيش البيزنطى زى موحد^(٢) مكون من معطف وعلم مثلث على رأس الرمح وخصله من الشعر^(٣) على الخوذة . وكان الفارس يجب أن يكون لاثقاً جسمانياً حتى يستطيع حمل هذه المعدات الثقيلة ويقاتل بها .

وكان يخدم كل ضابط أو أربعة أو خمسة فرسان جندى وكان هذا باهظ التكاليف ولكن

(١) الأمبراطور الذى حكم فى الفترة ما بين ٥٨٢ — ٦٠٢

(٢) تشبهاً بالجيش الرومانى ومخالفًا لجيوش الغرب قبل القرن السادس عشر

(٣) كانت هذه الحاصلات متعددة الألوان وكل لون يرمز إلى وحدة من وحدات الجيش .

الجيش كان يضحى بكل هذا في مقابل أن يركز كل ضابط أو فارس كل طاقته للقتال ويظل دائماً في حالة جسمانية جيدة وكان لذلك يمنح التغذية الصحية والجيدة . وكانت الدولة البيزنطية لا تجد هناك ضرراً في منح قوات الجيش بعض الراحة والغنى على أن يتم تنظيم ذلك جيداً أو بذلك لا يؤدي إلى آثار ضارة على المبادئ العسكرية .

أما مشاة الجيش البيزنطي فلم تكن هي « ملكة ميدان القتال » ، لأن دورها كان محدوداً في الدفاع عن الممرات والمناطق الجبلية وكذا حماية القلاع والمدن الهامة ، وكان معظم المشاة الخفيفة من الرماة ، وخاصة من رماة الرمح ، أما رماة القوس فكانوا أحياناً يرتدون سترات معدنية ولكن في أحيان أخرى يرتدون سترة قصيرة مشدودة بحزام في الوسط وينتعلون أحذية قوية ، ويحملون جعبه بها أربعون سهماً وبلطلة معلقة في أحزمتهم يستخدمونها في حالة الالتحام مع العدو على مسافات قريبة ويحمل واقياً مستديراً متدلى على ظهره لحمايته . أما المشاة الثقيلة والتي كان يطلق عليها « سكوتاتوس » فكانت ترتدي رداء معدنياً وقفازات طويلة ودروعاً للساق وخوذة حديدية مدببة من الأمام ومزودة بمخضلة من الشعر من الخلف ويحملون دروعاً مستديرة وكبيرة ، وكان سلاحهم الهجومي عبارة عن الرمح والسيوف والبلطة^(١) . وأسوة بالفرسان ، كان للمشاة أيضاً مجموعات كبيرة من تباع العسكر^(٢) ولكل وحده مكونة من ستة عشر رجلاً عربتان محملتان بالعتاد والمؤن وأواني الطهي علاوة على طاحونة يدوية للحبوب بالإضافة إلى معدات الحفر والحصار التي تتضمن المطارق والمجارف والفئوس والمناشير ، كما كان هناك جياد مخصصة لحمل الأمدادات في حالة المسيرات الطويلة .

الخدمات الطبية والمهندسون في الجيش البيزنطي

لقد أتبع الجيش البيزنطي نفس النظام التقليدي الروماني في إقامة المعسكرات المحصنة ، واقتضى هذا العديد من الأدوات والمعدات والأفراد ، فكان يسير بصفة دائمة مجموعات من المهندسين مع طليعة الجيش . وكان لهم نظام ثابت في إقامة المعسكرات بأن يخطط المهندسون

(١) كان لها حدين ؛ حد قاطع والآخر مدبب الشكل .

(٢) مجموعة من الأفراد تسير مع الجيش دون أن يكون لهم صفة الجيش الرسمية أو الجنود

« العرب »

المقاتلين .

المعسكر ويحددوه بالحبال وعند وصول القوة الرئيسية للجيش توضع الجياد والعربات في مركز المعسكر مع تنظيمها لتصبح الخط الدفاعي الداخلي ، في ذلك الوقت تقوم القوات بحفر دفاعات المعسكر تحت حراسة بعض الجنود .

وكان يصحب الجيش علاوة على المهندسين وقوافل التموين وحدات طبية للقيام بالإسعافات للجنود ، فكل وحدة تتكون من أربعائة رجل ، لها ضابط طبيب وستة أو ثمانية من حملة النقالات ، ومزودين بجياد تحمل زمازم مملوءة بالماء وسرج جانبي له ركابين في جانب واحد حتى يمكن حمل الجريح بطريقة مريحة . وكان يمنح حملة النقالات مكافآت إضافية عن كل جريح يعودون به من ميدان المعركة ، ولم تكن هذه المكافآت تمنح بدافع من الإنسانية بل كانت الدولة يهتمها أن يستعيد الجريح لياقته سريعا ليعود ثانية إلى القتال .

الأسلوب العسكري البيزنطي

لقد كانت الفكرة الرئيسية للأسلوب العسكري البيزنطي تكمن في التنظيم المثير للتكتيك الذي يخوضون به القتال في براعة وكفاءة . وكان هذا الأسلوب غير ثابت ويختلف في معركة عن الأخرى ويتوقف على الأسلوب التكتيكي الذي سيتبعه الخصم ، ولذلك درسوا بعناية جميع الأساليب التكتيكية لأعدائهم المنتظرين ثم يخرجون بالأسلوب الذي سيتبعونه مع كل خصم .

وكانت لهم كثير من الكتب العسكرية أهمها كتاب موريس بعنوان «الاستراتيجية» نشر عام ٥٨٠ وكتاب ليو^(١) الحكيم بعنوان «التكتيك» علاوة على كتب غاية في الإثارة عن حرب الحدود وقد كتبه نفقور فوكاس^(٢) .

لقد أعاد موريس تنظيم الجيش من حيث الهيكل العام مع وضع أسس للتجنيد ، فلم يكن بالجيش وحدات مستديمة أكبر من التي كان يطلق عليها «نوميروس» فرفع عدد رجال هذه الوحدة حتى وصل أربعائة وأطلق عليها «تاجا» وجعلها الوحدة الأساسية للجيش .

(١) الإمبراطور الذي حكم ما بين عام ٨٨٦ — ٩١٢

(٢) لقد أنزع كريت وسيليشيا من العرب وحكم كإمبراطور من ٩٦٣ — ٩٦٩ «العرب»

ثم قام بعد ذلك بتجميع عدد من هذه الوحدات في مجموعة واحدة يتراوح عددها ما بين ستة آلاف إلى ثمانية آلاف وكانت تسمى « ميروس » وهي الفرقة .

أما بالنسبة للضباط فكان هناك سلسلته يبدأ من رتبة أطلق عليها « ديكوريون »^(١) حتى رتبة أطلق عليها « مورارش »^(٢) . ويتم تعيين الضباط من رتبة « سنتوريون »^(٣) عن طريق الحكومة المركزية ، بينما كانت المصطلحات الفنية المستخدمة في الجيش خليط من الكلمات الرومانية واليونانية والتوتونية وهذا يوضح التنوع الذي حدث في عملية توارث الحكم في الإمبراطورية البيزنطية .

البارونات المولعين بالحرب

لو ألقينا نظرة على الجيش في عهد جوستينيان لوجدنا أن عدد المرتبة التوتونية انخفض في الجيش البيزنطي بدرجة كبيرة نتيجة للحروب الكثيرة التي خاضها جوستينيان ولم يتبق سوى ثلاثة فيالق بربرية هامة وهي « الفوديراتي والابتياتي والبكيلاري » ، وقد تولى الفيلقين الأخيرين مهمة الحرس الخاص للإمبراطور ، ولكن في أول القرن العاشر حل محلها الفايكنج وكان يطلق عليهم « قرانجيان » . وقد حاول الكثير من الأباطرة الوصول إلى تجنيد كل الذكور في الإمبراطورية ولكنهم فشلوا ، ووصلوا أخيراً إلى نظام يقضي بأن ترسل كل ولاية عدد معين من رجالها ليتلقوا التدريبات والقيام بالخدمة الفعلية في الجيش الإمبراطوري عند الحاجة لهم ، ولذلك وقع عبء الدفاع عن مناطق الحدود على عاتق سكان هذه المناطق .

وقد وصف شاعر القرن العاشر « ديجينيس أكريتاس » الحياة على جبهة الكابادوكية :
« كانت توجد قلاع ضخمة تضم بين جنباتها البارونات المولعين بالحرب ، وقد سيطروا على المنطقة المحيطة بهم بواسطة هذه القلاع ولا يكفون عن القيام بالغزوات داخل الأراضي العربية في كل من سيليشيا والعراق ، ويعتمدون في هذه المعارك على جنود أ كفاء أتو من كل من كبادوكسيا وإيسوريا ، وتراقية » .

(١) هذه الرتبة مسئولة عن ستة عشر جندياً .

(٢) هذه الرتبة مسئولة عن ألفين من الجنود .

(٣) هذه الرتبة تعادل نقيب

وفي عام ٦٥٠ بدأ الضغط العربي يتراخى على جبهة طوروس ، وفي ذلك الوقت كانت الأمبراطورية البيزنطية مقسمة إلى مقاطعات إقليمية كل منها لها إدارة عسكرية ومدنية منفصلة تسمى « ثيميس » وكل مقاطعة تقدم لجيش الأمبراطورية حوالى عشرة آلاف رجل من المقاتلين الممتازين . أما مناطق الحدود فقد قسمت إلى مناطق أطلق عليها اسم « كليسوارس »^(١).

تشكيل القتال للجيش البيزنطى

كانت النظرية التكتيكية مبنية أساساً على توجيه سلسلة من الهجمات بالفرسان الثقيلة ، وكان خط القتال يتشكل عادة من الفرسان فقط كما حدث عندما انتصر نقفور فوكاس على العرب في جبهة طوروس عام ٩٦٥ .

وقد وضع ليو الحكيم المبادئ الرئيسية لتشكيل قوات الفرسان في القتال ، فقسم القوة إلى خط قتال أمامى وخط قتال ثانى لمعاونة الخط الأول ، على أن تشكل قوة صغيرة خلف الخط الثانى كأحتياطى مع دفع مجموعات أخرى على جانبي القوات ويكون واجبها الإشتباك مع أجنحة العدو .

وكان الخط الأول يتحرك كتلة واحدة وبدون أى فواصل أو ثغرات بينما يتواجد في الخط الثانى ثلاث ثغرات لكي يستخدمها الخط الأول في حالة الانسحاب ، وكان عمق كل خط من هذين الخطين يصل إلى عشرة صفوف ، وكان يتواجد مركز قيادة القائد العام دائماً مع الخط الثانى .

ويتم دفع نصف القوة تقريباً في الخط الأول ، وعندما يتطلب الموقف التكتيكي غير ذلك، تجرى عملية موازنة للقوات التى تشكل في العمق والقوات التى ستدفع على الأجناب ، وطبعاً كان هنا تغيير مستمر لتشكيل القتال ويتوقف ذلك حسب الموقف التكتيكي ونوع قوات العدو وأسلوبه في القتال .

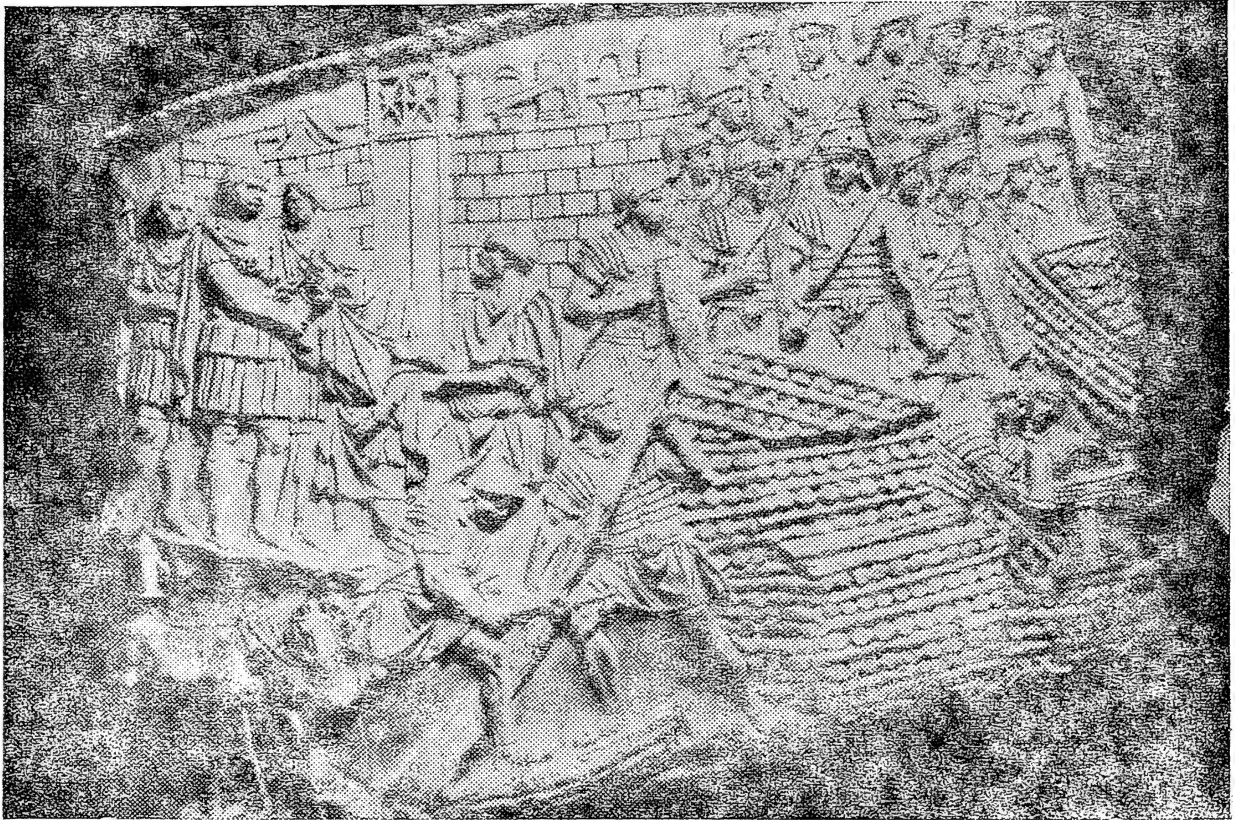
ونجد أحياناً أن الفرسان والمشاة يعملان سوياً ، وتم استخدام هذا التشكيل أثناء قتال

(١) الكليسوارس منطقة يجب أن تتحكم في ممر جيلي ويقام بها قلعة ؛ وكانت قيادة منطقة الكليسوارس هى طريق النجاح في مضمار القيادة العسكرية « العرب »

السلاف والفرنجة وذلك لأن جيوش الأعداء كانت قوتها الرئيسية تتشكل من المشاة المترجلة وقد استخدم نفس التشكيل أيضاً ضد غزوات العرب . وكانت المشاة في هذا التشكيل تسير في الوسط أما الفرسان فتعمل على الأجناب .

بينما كانت للمشاة في داخلها تشكيل خاص أيضاً ، فالمشاة الثقيلة تسير في الوسط بينما المشاة الخفيفة من الرماة وحملة الرماح تسير على الأجناب . وعندما كان ينتظر قيام العدو بالهجوم بفرسانه يتغير تشكيل المشاة وتسير الرماة وحملة الرماح خلف المشاة الثقيلة .

وكانت المشاة في حالة الهجوم تقاتل في خطين ، أما في حالة الدفاع فتقاتل في خط واحد كثيف وبالقرب من معسكرهم . وكانت المشاة تستخدم في البلاد التي يكثربها التلال والممرات والشعب لأنه يتعذر استخدام الفرسان ، وتقاتل في تشكيل هلالى حيث توضع المشاة الثقيلة في الوسط لحصر العدو في المنطقة الوسطى بينما تطلق المشاة الخفيفة من حملة الرماح والرماة الموجودة في أعلى الممرات وعلى أجناب العدو سيولا من قذائفها .



تشبيد الحصون على حدود الإمبراطورية الرومانية

المهارة تفوق القوة العددية

لقد كان البيزنطيون يعدون من أ كفاء الجنود التي شهدها أوائل عصور أوروبا الوسطى ، ولكنهم كانوا غير مثيرين للأعجاب وذلك بسبب استراتيجيتهم الدفاعية ولإستخدامهم لعقولهم قبل قوتهم أثناء القتال ، وقد قاتلوا معارك دفاعية لإبقاء العرب خارج آسيا الصغرى وأثناء طردهم للمبارد والفرنجية من المقاطعات الإيطالية ، والسلاف والبلغار والآفار والمجر والأتراك من اليونان والبلقان . وقد نجحوا إلى حد كبير في الدفاع عن حدودهم بفضل مائزوا به من كفاءة وبقظة . وكان الدفاع عن حدودهم هي المهمة الرئيسية للجيش البيزنطى ونادراً ما قاموا بالإعتداء على الدول الأخرى ، كما حدث على سبيل المثال في منتصف القرن التاسع وفي نهاية القرن العاشر .

ولم يتأثر البيزنطيون بميول معاصريهم في أوروبا الغربية نحو الحرب ، كما أنهم لم يعتبروا الشهامة والبسالة المتهورة والتي كانت سائدة في هذا العصر هما الطريق الذى يحقق النصر بأقل التكاليف .

وكانوا متحمسين للدين ، ويعتبرون المهارة أهم بكثير من القوة العددية ولذلك وصلوا إلى حد كبير من المهارة في نصب الكائن والهجمات الليلية . وفي الواقع لم يكن أمامهم سوى هذا الأسلوب ، لأن وحشية العدو وأعداده الكبيرة كانا يمثلان الخطر المحدق بهم من جميع الجوانب ، وكانوا لا يدخلون أى معركة إلا إذا تأكدوا أن النصر سيكون لهم في النهاية . وفي بعض الأحيان يلجئون لاستخدام الحيل والخدع الحربية كنشر الأنباء والمعلومات الكاذبة بين صفوف أعدائهم مع دفعهم للخيانة .

ولم يستخدموا مطلقاً القوة مع أسراهم وينفذون دائماً ما يعدون به ، وكانت الخيانة بالنسبة لهم سلاحاً استراتيجياً وقد وضع الباحثون العسكريون البيزنطيون النظريات المختلفة لأساليب القتال مع أعدائهم المتعدين وعلى سبيل المثال وضع ليو الحكيم التعليمات بأسلوب القتال الذى يتبع مع البلغار والمجر والأتراك بعد أن وجد هذه الشعوب تقاتل بالفرسان الخفيفة في السهول الشرقية والأوروبية والغربية والآسيوية وفي جماعات صغيرة لا حصر لها ، سلاحهم الرئيسى القوس ويستخدمون إلى جانبه الرمح والسيوف الحذب مع تميزهم بالبقظة والحذر

والكفاءة العالية في أعمال الاستكشاف مع ولعهم الشديد بنصب الكمائن ، وكانوا يهاجمون الجبهة من جميع الاتجاهات ويمطرونها بسيل من السهام و بهجمات قصيرة متتالية قاتلة .

وبعد أن درس ليو الحكيم كل ذلك أوصى بقيام الفرسان البيزنطية الثقيلة بالالتحام مع فرسان العدو عن قرب حتى يستطيعوا الانقضاض عليهم في أول فرصة مواتية وخاصة أن فرسان العدو تصبح عاجزة تماماً بعد فقدانها لخيولها .

وقد أوصى ليو الحكيم كل قائد بيزنطي يلتحم مع فرسان الأتراك أن يراقب أجنحته جيداً ، على أن يكون حذراً من الدخول في أى مضيق أو ممر ضيق خوفاً من الوقوع في الكمائن المنصوبة وقد أوصى أيضاً بالالتحام بالفرسان بطاردة العدو بدون تروى وعمل الترتيبات المسبقة ، لأن كثيراً ما تؤدي هذه المطاردة إلى الهزيمة ، لأن فرسان الأتراك كانوا دائماً يقومون بانسحاب مخادع حتى يجذبوا البيزنطيين إلى أرض قتل من اختيارهم ثم يتجمعوا بسرعة وينقضوا عليهم .

وكانت تعليمات ليو ذات فائدة كبرى استفاد منها الضباط والجنود على السواء .

الزباب الأعظم

وقد وضع ليو أيضاً أسلوب القتال الذي يتبع مع قبائل السلاف الذين اعتنقوا المسيحية في النصف الثاني من القرن التاسع وأصبحوا تابعين للإمبراطورية البيزنطية وسببوا لها بعض القلائل لمدة طويلة ، وبالرغم من افتقارهم للفرسان كانوا قوماً لا يقهرون إذا قاتلوا في الجبال .

فقد أوصى ليو بأن يتقدم الجيش البيزنطي بحذر في ممرات الجبال خفوا من الكمائن التي ينصبها لهم رماة وحيلة الرماح السلافيين ، أما في السهول فكان يسهل على الفرسان البيزنطية دفع السلاف أمامهم لأفتقارهم للفرسان والتسليح مع سوء تنظيم قواتهم .

أما العرب فكانوا أشد أعدائهم بأساً وزاد هذا البأس بعد القرن الأول للفتح الإسلامي عندما شكل العرب جيوشهم على شاكلة الجيش البيزنطي وأصبح رماحيهم المدرعين قوة لا يستهاب بها علاوة على فرسانهم التي كانت أخف من الفرسان البيزنطية . وقد طبق العرب بعض الأساليب البيزنطية في مجال التحصين وفي الحصار ، وبالرغم من كل هذا كان العرب

لا يقدرّون المميزات الحقيقية لتنظيم القوات وتدريبها وأنها العامل المساعد للضبط والربط ، ولم يكن لديهم قوات متخصصة باستثناء الحرس الملكي .

وقد تميز العرب بمحشد قوات كبيرة من جميع القبائل العربية ، أتصفوا بخفة الحركة والقوة والطاقة الروحانية والهجوم الخاطف الذي يشيع الرعب في صفوف أعدائهم .

وقد أثر فشلهم في فتح القسطنطينية عام ٧١٨ على قوتهم الدافعة وبالرغم من ذلك قاموا بعدها بمحاولتين جادتين لفتح ماوراء طوروس عام ٨٠٦ ، ٨٣٦ ولكنهم فشلوا في ذلك . ولذلك نجد أن نبضات الفتوحات الإسلامية أخذت تضعف بعد عام ٧٥٠ وبشكل سريع عندما أنتزع العباسيين الخلافة من الأمويين بعد معركة دات بينهما إحدى عشر يوما عند الزاب الأعظم ^(١) . وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهاراً كبيراً في عهد العباسيين ^(٢) بينما أضعفت القوة العسكرية لأن الخلفاء العباسيين كانوا لا يميلون للمواضيع العسكرية

العالم الإسلامي يتجوأ الى خلافات :

والآن ، بدأ العالم الإسلامي يتجزأ ببطء إلى خلافات متعددة ، وأصبحت الهجمات العربية على آسيا الصغرى مجرد غارات أكثر منها محاولات للفتح . وكان ذلك من حسن حظ الإمبراطورية البيزنطية التي بدأت تضعف هي الأخرى تحت تأثير النزعات السياسية والدينية في القرن الثامن والتاسع ومع بداية القرن العاشر ، في ذلك الوقت وصلت الإمبراطورية البلغارية إلى ذروتها تحت قيادة سيمون الذي حاصر القسطنطينية عام ٩٢٣ ولكنه لم ينجح في دخولها .

وفي عام ٩٤١ حوصرت المدينة مرة أخرى بواسطة أمير كييف وهو إيجور .

نعود ثانية إلى ليو الحكيم فنجد أنه وضع أفضل استراتيجية ضد غارات العرب وذلك بعد أن وجد الجيش العربي عندما حاول عبور طوروس كان يتقدم بسرعة مذهلة مع

استخدام المفاجأة على أمل الوصول إلى هدفه قبل أن يأخذ سكان المنطقة حذرهم أو حتى قبل أن يعلموا بوجوده ، وجد ليو أن قادة المقاطعات البيزنطية لديهم أساليب ممتازة في حراسة

(١) الزاب الأعظم بالقرب من جوجاميل

(٢) كان مركز هذه الحضارة عاصمة العباسيين في بغداد

حدودهم ، لذلك أوصى هؤلاء القادة بتجهيز قواتهم بمجرد وصول أنباء تحرك العرب ، على أن تقوم المشاة بسد الممرات بينما تحشد الفرسان في منطقة متوسطة وتكون على اتصال دائم بقوات العدو وتقوم بالهجوم في الوقت المناسب ، وإذا وجد القائد البيزنطي أن قوات العدو تفوقه عدداً عليه أن يتجنب الدخول معها في معركة مفتوحة وليس هذا معناه عدم الاشتباك معها إطلاقاً ولكن عليه بشتى الطرق الممكنة أن يحاول إعاقة تقدم العدو بأن يقوم مثلاً بتوجيه ضربات خفيفة للعدو كلما سنحت له الفرص بذلك ، أو الدفاع عند المناطق الضحلة على الأنهار أو عند الممرات أو الشعب الضيقة أو بتدمير آبار المياه مع إقامة المتاريس على الطرق الرئيسية ، في ذلك الوقت يمكن حشد مزيد من القوات من المقاطعات البعيدة ، والدخول مع العرب في معركة متكافئة في القوة ، وقد استخدمت هذه الطريقة وأمكن حشد حوالي ثلاثون ألفاً من الفرسان البيزنطيين في عام ٨٦٣ من عشرة مقاطعات وأمكن بذلك تطويق الجيش العربي والقضاء عليه .

وقد أثبتت الخطوط الدفاعية البيزنطية قدرتها على الصمود في وجه الهجمات المتتالية لجحافل العرب ، وكانت هذه الجحافل دائماً تتعرض لهجوم البيزنطيين أثناء تجولهم للبحث عن المراعى والعلف أو أثناء عودتها من الأراضي البيزنطية وهي حملة بالغنائم .

وقد أوصى نفقورفوكاس بالقيام بهجوم ليلي على العرب في مثل هذا المواقف فقال : « أرسلوا ثلاثة مجموعات من المشاة لمهاجمة معسكر الأعداء من ثلاث جهات ، أما إذا كان العدو متحركاً فادفعوا إليه بقوات مترجلة لمهاجمة مقدمته مع ترك مؤخرته في كلتا الحالتين السابقتين بدون هجوم حيث الطريق إلى بلاده مفتوحاً ، ودائماً وبطريقة غريزية سيتمطى العدو جياده ويهرب في أول طريق يراه ويؤدي به إلى الأمان » .

في النصف الثاني من القرن العاشر انقلب الجيش البيزنطي من مدافع إلى مهاجم ضد كل من العرب والبلغار ، واستولى نفقورفوكاس في عام ٩٦١ على كريت وفي عام ٩٦٥ على طرسوس وقبرص ، وفي عام ٩٦٩ على أنطاكية .

ومن أعظم ما شهدته الإمبراطورية البيزنطية من العسكريين البارزين كان بازيل الثاني (٩٧٦ — ١٠٥٢) ، ففي عام ٩٩٥ أخذ تمرد قام به نبلاء آسيا الصغرى ، ثم أقام جبهة دفاعية قوية في أرمينيا ثم تحول بعد ذلك ليقا تل البلغار .

أسر الامبراطور البيزنطى

وفى عام ١٠١٤ أستطاع بازيل من إبادة الجيش البلغارى عند بيلاسيتزا ، ولقب من ذلك اليوم بـ « قاتل البلغار » فقد قام بفقأ أعين ألف وخمسمائة من الأسرى وترك لكل مائة منهم رجلا بعين واحدة ليقودهم إلى قيصرهم .

وقد استمر الجيش البيزنطى فى تقدمه نحو الشرق ، وأخيراً انضمت أرمينيا عام ١٠٤٥ إلى الإمبراطورية البيزنطية ، وكان يتباهى الإمبراطور بأن رقعة الإمبراطورية اتسعت وامتدت أكثر من أى عهد سابق منذ الإمبراطور تراجان .

ولكن فى منتصف القرن الحادى عشر بدأ زحف عدو جديد على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية وهو الأتراك السلجوقيين ، ولم تختلف أساليبهم عن أساليب الأتراك القدامى الذى شرحها ليو الحكيم قبل ذلك . وتمكن البيزنطيون لفترة من الوقت صد هجمات هذا العدو ، ولكنه فى النهاية أصبح يشكل تفوقاً عددياً مخيفاً ، ولسوء حظ البيزنطيين أن تربع على عرشهم فى هذه الفترة عام ١٠٦٨ إمبراطوراً جديداً هو رومانوس الرابع وقد أغفل وبحماقة التقاليد والقواعد التقليدية البيزنطية الخاصة بالكفاءة والحذر .

ففى ربيع ١٠٧١ دفع رومانوس بستين ألفاً من الجنود إلى أرمينيا ليقا تل مائة ألف من الأتراك^(١) ، وقبل أن يلتقى بالقوة الرئيسية للعدو كان قد فقد أعداداً كبيرة بسبب تحركاته التى أتسمت بالأهال وعدم أجراء الترتيبات اللازمة لتحرك هذه القوة الضخمة . وألتقى بالعدو عند ملاز كرت واسفرت المعركة على دحر الأتراك وأجبارهم على الانسحاب ، ولكن مع حلول الظلام ، جمع الأتراك شملهم واعدوا تنظيم صفوفهم مرة أخرى ، بينما كان البيزنطيون يعودون إلى وطنهم ويسIRON بدون نظام وغير متماسكين وهم مطمئنين لتحقيقهم النصر كاملاً ومع خيوط الفجر الأولى كان الجيش البيزنطى مطوقاً ، فطلب رومانوس من القائد الخائن للاحتياطى البيزنطى تقديم العون له ولكنه رفض مما أدى إلى تمزيق الجيش إلى أجزاء صغيرة وسقط الإمبراطور نفسه أسيراً .

بذلك أباد الأتراك صفوفه الجيش البيزنطى وأصبحت العاصمة بدون قيادة ، فتدفق الأتراك داخل آسيا الصغرى وحولوها خلال عشرة سنوات إلى مساحة من الأرض القفر الخراب .

فرانسييسكا (أنظر اللوحة ١٤)

لو ألقينا نظرة في ذلك الوقت على أوروبا الغربية ، لوجدنا أن الفرنجة منذ القرن السابع وهم يتبعون منوال البيزنطيين ، فاستطاعوا صد تقدم العرب بجيش قوته الرئيسية من الفرسان ، ولكن لم يستمر الحال على وتيرة واحدة ، فبعد أزدهارهم فى السيادة العسكرية والحضارية أصابهم الوهن ، وتم ذلك لتعرضهم لهجمات شعب بربرى آخر والذي يعرف بأسم الفايكنج . فلو عدنا إلى الوراء لوجدنا بعد أن أنتصر كلوفيس فى فوييه عند بواتييه عام ٥٠٧ وسيطر الفرنجة على الغال ، لم يتغير تنظيمهم وأسلوبهم العسكرى لمدة قرنين من الزمان .

وقد وصف أجاتياس الشاعر والمؤرخ الأغريقى فى منتصف القرن السادس حرب الفرنجة فى الحقبة الميروفنجية^(١) قال : « كان تسليح الفرنجة بدائياً جداً ، فلم يرتدوا القمصان المعدنية أو دروع الساق ، بل يحمون أقدامهم بشرائط من الجلد أو الكتان ، وفى النادر كانت لهم فرسان وقليلة ، ولكن مشاتهم تميزت بالبسالة والتدريب العالى وكانوا مسلحين بالسيوف والدروع ، ولكنهم لم يستخدموا قطا القوس ، أما قذائفهم فيستخدمون فيها الفأس أو الرمح الشائك^(٢) » .

وكان من أبرز أسلحة الفرنجة فأس القذف والتي أطلق عليها « فرانسييسكا^(٣) » وكانت تشابه التوماهوك^(٤) وكانت الفرانسييسكا توزن بعناية حتى يمكن قذفها وأصابة الهدف بدقة متناهية علاوة على أستخدامها فى القتال المتلاحم . أما الدرع فكان عريضاً له شكل بيضاوى ومزود بحافه حديدية والسيوف يصل طوله إلى ثلاثة أقدام وله شفرة مزدوجة وسن مدبب وبالتالى كان ممكن أستخدامه فى القذف والقطع ، كما أستخدم أيضاً الخنجر ذو الشفرة

(١) أسم العائلة الحاكمة الأولى التى توات الحكم فى بلاد الغال .

(٢) كانت هذه الرماح قصيرة وتستخدم فى كل من الطعن والقذف .

(٣) كانت رأسها ثقيلة ولها شفرة واحد ، طويلة مقوسة .

(٤) أسم الفأس الذى يستخدمه الهنود الحمر (قبيلة لتوماهوك) .

العريضة . أما خوذة الفرنجة فكانت مزخرفة ذات قمة مستديرة ولها بروز مدبب مقدمتها ويصل جزمها السفلى حتى خلفية العنق .

وقد قاتلت جيوش الفرنجة حتى منتصف القرن الثامن بهذا المستوى من التسليح، ولكن في حشد ضخم من القوات وتسير في طوابير غير منتظمة من المشاة .

وكان الحكم الميروفنجي (٤٥٠ — ٩٥٠) حكماً ضعيفاً بربرياً مما أدى أن الفرنجة كانوا يقاتلون أنفسهم وليس أعدائهم الخارجيين لأنهم كانوا على حذر من الشعوب التي تقاتل من فوق ظهور الخيل وبدروع أكثر على الجسم . ولسكنهم أجبروا على تغيير أسلوبيهم في القتال والتسليح بعد ازدياد اشتباكهم بتلك النماذج المختلفة من هذه الجيوش .

ومع نهاية القرن السادس بدأ الأثرياء في ارتداء الدروع المعدنية على الصدر ولكن في القرن السابع أختفت هذه الدروع المعدنية للصدور وأزداد استعمال « البرونيا » (١) . ومع تطور الدروع ، تطور في نفس الوقت استخدام الخيل ، واول مرة يستخدم فيها الفرنجة الخيل في المعركة التي خاضها كلوتيد الثاني ضد السكسون ، عام ٦٢٦ ، ولكن بعد ذلك بقرن على الأقل ، كان الأثرياء فقط يستخدمون الخيل كأداة نقل فقط لميدان المعركة ، وعند القتال الفعلي يهبطون من فوقها ويقاتلون مترجلين .

الملك شارلمان : (أنظر اللوحة رقم ١٤)

في عام ٧١٨ هاجم العرب مملكة أكويتانيا ، ولم يهتم الفرنجة في أول الأمر لهذا الهجوم ولكن أتضح لهم أن الموقف بدأ يندرج بالخطر بالنسبة لهم عندما قام الخليفة عبد الرحمن عام ٧٣٢ بقيادة جيش من العرب وصل به إلى تور ، فما كان من تشارلز مارتل (٢) أن حشد قوة كبيرة من الفرنجة وتقدم بها ليقا تل العرب الذين كانوا في طريقهم إلى بواتيه ، وتقابل الجيشان عند بواتيه وأستمرت المعركة سبعة أيام وكان العرب يقاتلون بفرسانهم الخفيفة بينما الفرنجة تصارعهم بمشاتهم . وقد وصف الكاتب أسيدورس بالكينسيس هجوم الخليفة عبد الرحمن فقال : — « وقف رجال الشمال بدون حركة وكأنهم حائط ثابت ، وكانوا يشبهون حزاماً من

(١) البرونيا عبارة عن قميص مكون من شبكة معدنية

(٢) كان يشغل منصب ناظر القصر الميروفنجي .

الثلج تجمدت أجزاؤه سويًا وأصبح غير قابل للذوبان عند ألتحامهم مع العرب بالسيوف، وشق الأسترازيون طريقهم ببسالة وسط القتال الضاري للعرب حتى عثروا على الملك العربي وصرعوه» وكانت معركة دفاعية حقق فيها المشاة النصر، ولم تتم أى مطاردة لقوات العرب بعد ذلك، ولكن لا يمكن القول بأن الفرنجة هزموا العرب بنفس الأسلوب الذى أتبعه البيزانطيون سابقاً، ونجد أيضاً أن العرب لم يتوغوا داخل أراضى العدو إلا بالقدر الذى سمحت به مواردهم وأمكاناتهم.

فى عام ٧٤٣ قاموا مرة أخرى بالزحف نحو الرون للاستيلاء على ليون، فى نفس الوقت لم يجلوا عن القاعدة العسكرية فى نابون حتى عام ٧٥٩.

وعلى كل ترجع أهمية معركة تور أنها أكدت ان تشارلز مارتل أصبح أقوى شخصية فى فرنسا. وفى عام ٧٥١ قام بيبين^(١) بخلع الملك كلدريك الثالث الميروفنجى، وفى عام ٧٦٨ قام تشارلز^(٢) بأرتقاء العرش كملك على الفرنجة.

قوات الصدمة النفسية

عند دراستنا للنهضة العسكرية فى عصر شارلمان، يصعب علينا فهم الحوافز الحقيقية التى دفعته لذلك، ولكن نستطيع أن نرى بوضوح بعض العوامل الممهدة لذلك منها خوفه من الفوضى والخطر اللذان يهددان مملكته، لأن جيرانه المعادين السكسون لا يستجيبوا إلا بالقوة، علاوة على حبه لنشوة النصر والنجاح، زد على ذلك أنه كان يعتبر نفسه حاكماً على مستوى عالمى وشريكاً للبأبأ والوصى الذى أرسله الله إلى الأرض للفصل فى الأمور الدنيوية. فكان له مبشرين يسرون بين صفوف جيوشه يؤمنون أيماناً راسخاً أنهم يمثلون قوات الصدمة النفسية، وكان شارلمان يعتمد عليهم ويعتبرهم من القوات الرئيسية عند غزوه لشعب وثنى^(٣)، حتى يثبتي لهذا الشعب أعتناق المسيحية.

(١) بيبين أبى مارتل

(٢) تشارلز أبى بيبين وكان يعرف بأسم شارلمان.

(٣) كان يعتبر شارلمان تحول القوم الوثنيين إلى المسيحية، تكملة رئيسية وحيوية لغزواته الحربية.

« العرب »

وقد احتفل في روما على يد البابا في عيد الميلاد لعام ٨٠٠ بتتويج شارلمان كأمبراطور . وكان شارلمان متعصباً وقاسياً والدليل على ذلك المذبحة التي قام بها عام ٧٨٢ في فردان وراح ضحيتها أربعة آلاف وخمسمائة متمرد وثني من السكسون في يوم واحد ومثال آخر لذلك يتمثل في القانون الذي أصدره ويعتبر فيه الهروب من العهاد^(١) أو أكل اللحم أثناء الصوم الكبير من الآثام التي تصل عقوبتها إلى الأعدام ، إلا أنه تغير بعد مدة وأقلع عن قسوته وتعصبه . وكان يعتبر شارلمان عبر العصور الوسطى نموذجاً للأمبراطور المسيحي ، وكانت حكومته تعتمد اعتقاداً راسخاً بأنها تمارس سلطة مقدسة أستمدتها من الرب ، كما أنها اعتبرت جميع حروب شارلمان حروباً صليبية .

مذبحة رنسفال

(أنظر اللوحة رقم ١٤)

لقد قام شارلمان بحملات كثيرة بين عامي ٧٦٨ ، ٨١٤ قاتل فيها اللومبارد والسكسون والأسبان والمسلمين والضرب والآفار ومقاطعات جنوب إيطاليا البيزنطية وريتاني والفرزيان ودوقية بنفينتو ، وفي النهاية زادت رقعة إمبراطوريته حتى ضمت المناطق التي تتمثل حالياً في فرنسا وبلجيكا وهولندا وسويسرا وألمانيا الغربية ومعظم إيطاليا وشمال أسبانيا وكورسيكا . وقد ذاعت شهرته في الحرب التي خاضها ضد أسبانيا ، لأنها كانت حرب صليبية ضد المسلمين وسبب هذه الشهرة المذبحة التي قام بها رجال مؤخرة جيشه أثناء عودتهم إلى الوطن عند مضيق رنسفال في عام ٧٧٨ ، وأصبحت هذه المذبحة موضوعاً شعرياً عرف بأغنية « رولان » ، ولكن لو ألقينا نظرة على الحرب التي دارت بينه وبين السكسون لوجدنا أنها كانت في أول الأمر عبارة عن غارات مستمرة وجريئة لهذه الشعوب البربرية والوثنية (القائنة لسهلي ألمانيا الشمالي بين الراين والألب) على حدود الإمبراطورية مما أضطره في النهاية إلى تقوية هذه الحدود بإقامة مواقع قوية على طول نهر ليب مع إنشاء تحصينات قوية عند بادربورن وأرسبرج وسيجرج ، ومن هذه الحصون دفع قواته لمهاجمة السكسون لتأديبهم ، وكانوا يتصنعون الإستسلام والخضوع أثناء هذه الهجمات وعندما يكف عنها ينفجرون منطلقين في أراضي الراين كما حدث في عام ٧٧٨ ، ونتج عن ذلك أن قام شارلمان بغزو شامل لبلادهم فيما بين

عامي ٧٨٢ ، ٧٨٥ حيث قاد بذكاء ثلاثة جيوش تقدم على ثلاث محاور مع إستغلال خفة حركتها والتعاون بينهما أدى أن أصبح زحفاً مدمراً وانهزم السكسون وكان يقودهم ويدو كيند .

شارلمان والإقطاع

لقد كان جيش شارلمان يختلف تماماً في تنظيمه عن جيش جده تشارلز مارتل ، والفارق الأساسي كان في القوة الضاربة لجيش شارلمان التي تمثلت في الفرسان الثقيلة ، وكانت هي العنصر الرئيسي لجميع حملاته التي تنطلق لمسافات بعيدة لمهاجمة أعدائه من حملة الأقواس الرابيين من الآفار وقوات اللومبارد الثقيلة من رماة الحراب . وقد عرف أهمية الفرسان منذ عهد بيميد ، ولكن نفقات تشكيلها كانت باهظة ولذلك أصبحت مشكلة أمام الفرنجة وإستحالة عليهم تذليلها . فكان يصعب على الفارس الحصول على الجواد القوي المناسب ليحمله هو ودروعه الثقيلة ، على أن يكون مدرباً تدريباً كافياً حتى لا يفزع أثناء المعركة ويكون سريع لإستغلال خفة حركته في الهجوم ، وكان مثل هذا الجواد لا بد أن يكون من سلالة معينة ولا بد من تدريبه تدريباً خاصاً ، ومن المشكلات التي برزت أمام الفرنجة النفقات الكبيرة لأقامه الأصطبلات وتوفير العلف في الشتاء مع وجود تابعين على الأقل لكل فارس ، واحد ليعتنى بدروعه والثاني يعمل كسائس لحصانة علاوة على كل هذا كانت الدروع غالية الثمن

وأكثر من ذلك ، كان يجب أن يكون الفارس قادراً على تكريس وقتاً طويلاً للتدريب والخدمة العاملة في الجيش ، لذلك في الحقبة الميرفينجية ، لم يكن هناك حاكماً فريجياً على قدر من الثراء يستطيع تشكيل جيش من الفرسان الثقيلة . وقد حلت هذه المشكلة بإنشاء ونظام الإقطاع^(١) . وقد أستفاد تشارلز مارتل من النظام الإقطاعي ، فضم إلى جانبه بعض

(١) لقد ظهر هذا النظام لكثرة وجود اللصوص والأشهرار وفي ذلك الوقت ونشرهم الرعب بين الناس . ولم يجد هؤلاء الناس من يحميهم ، فلجأوا إلى اللورد أو الكونت صاحب النفوذ في المنطقة يطلبون منه الحماية ، وكان يكفل لهم الأمن والنظام في مقابل تخليهم له عن ملكية أراضيهم مع الإستمرار في زراعتها ، مع تعهدهم بتأدية بعض الخدمات الممينة ؛ وكانت مدينية في بعض الأحيان ولكن كانت بصفة عامة ذات طابع عسكري .

والعرب

الشخصيات الهامة في الدولة ، ثم جاء بعد ذلك شارلمان وتوسع في تطبيق هذا النظام الإقطاعي في إمبراطوريته ، فكان هذا النظام يجذب الأغنياء ومن يرغبون في الحماية في هذه الأوقات المضطربة .

وعلى كل فقد أستفاد الجيش من هذا النظام لأن ملاك الأرض كانوا يقدمون الأرض اللازمة للتدريب وخدمة الفرسان ، علاوة على تحسين نظام الجيوش بسبب نظام الالتزام المتبادل « الحماية ... والخدمة » .

ومن الوثائق التي ما زالت باقية حتى الآن والتي تدل على إستغلال شارلمان لنظام الأقطاع لصالحه ، رسالة أرسلها إلى أسقف التاش فولارد يطلب فيها أنضمامه لجيشه الملكي عام ٨٠٦ وتضمنت : —

« عليك الحضور في يوم ٢٠ مايو إلى ستاسفورت على نهر البودا وتكون مستعدا أنت ورجالك لخوض الحرب في جانبنا ، وفي أي جزء نحدده في إمبراطوريتنا ، ويكون لدى كل فارس درع ورمح وسيف وخنجر وقوس وجعبة سهام ، مع تجهيز غرباتك بالجوارف والمعاول والأوتاد الحديدية المدببة ، علاوة على الأسلحة والمعدات والأمدادات الضرورية للقوات ، على أن تكفي هذه المؤن الجنود ثلاثة شهور .

وأثناء تقدمك إلينا عليك ألا تدمر أي ممتلكات لرعايانا ولا تمس قواتك سوى المياه والعشب والأخشاب . وحتى تنال رضانا ورحمتنا ضع في حسابك دائما ألا يكون هناك أي أهمال » .

عبقرية شارلمان العسكرية

بعد أن فتح شارلمان إيطاليا قام بتجنيد قوة من فرسان اللومباردي في جيشه ، وهذا يدل على قدرته الفائقة في القيادة لاستطاعته حث أعداء التقليديين وهم اللومبار على الانخراط في جيشه مع دفعهم بعد ذلك إلى المناطق البعيدة في أوروبا الشرقية لمقاتلة الآفار .

وعلى كل فكانت الفرسان الثقيلة تمثل العمود الفقري لجيش الفرنجة بالرغم من قلة عددها إلا أن نوعيتها كانت ممتازة . وكان جميع الفرسان يزودون بالقمصان المعدنية والخوذات

والدرع والفتوس والحراب، وبالرغم من ذلك لم تختلف تماماً طريقة الفرنجة القديمة في تجنيد المشاة العنوى^(١).

ولكن بعد تطوير نوعية التسليح خفضت أعداد المشاة في الجيش . وحتى الآن لا يوجد لدينا دليل واضح على الأسلوب التكتيكي التي اتبعتها الفرنجة في المعارك، ولكن من المحتمل أن الرماة من المشاة كانت تندفع لأجاء بعض المناوشات التمهيدية ، وبعدها تنطلق الفرسان في هجوم حاسم قوى وفي حشد .

وعلى كل كان يكمن وراء نجاح شارلمان التنظيم الرائع لجيشه وجنوده المدربين تدريباً عالياً وأسلحتهم الممتازة المتطورة علاوة على عبقرية شارلمان الإستراتيجية والتي يمكن الإستعاضة بها عن أى أسلوب تكتيكي ممتاز .

ونجد أن شارلمان قام بفتوحات واسعة وكون إمبراطورية مترامية الأطراف وأستطاع المحافظة عليها بإقامة المواقع المحصنة على طول الحدود وكذلك في المناطق المضطربة مع أقامه الحصون فوق التلال المجاورة للأنهار . وكان يشيد هذه القلاع في مكان المدن الرومانية القديمة ومطابقة تماماً للمعسكرات الرومانية ولكنها لم تكن مبنية بطريقة قوية .

الفرار والمار

في القرن التاسع بعد موت شارلمان ، تولى الحكم ملوك ضعاف ، لكن الهيكل العام للجيش ظل كما هو ، ويتشكل أساساً من جيش إقطاعي من الفرسان ولكن نوعية هذا الجيش تصدعت .

فقد عادت بعض نقاط الضعف القديمة للعهد الميروفينجى في الظهور ، ونتج عن ذلك أن الفرنجة لم تستطع هزيمة البيزنطيين في شمال إيطاليا .

وقد دون ليو الحكيم بعض خصائصهم وأسباب فشلهم فقال : — « كان الفرنجة والومبارد قوم مفرطون في البسالة والجراة ، علاوة على إعتبارهم لأى إنسحاب عار كبير ،

(٧) التجنيد العنوى ، هو لجوء الشعب لحمل السلاح دفاعاً عن النفس عن تعرضه لهجوم مفاجئ ، لا مدو دون أن يجد فرصة كافية لتنظيم صفوفه وفقاً للقواعد العسكرية المقررة

وكانوا يخوضون القتال عندما تنهياً لهم الظروف المواتية . وكان فرسانهم عندما يلاقون أى صعوبة فى القتال يترجلون ويقاتلوا مترجلين ويتأزرون ضد العدو والذي يفوقهم عدداً بدلاً من الفرار من المعركة .

وكان فرسان الفرنجة يهجمون بشراسة وقوة شاهرين سيوفهم العريضة ورماحهم ودروعهم الضخمة فكثيراً ما يعدل أعدائهم عن الدخول معهم فى قتال متلاحم قبل أن يتأكدوا أن الظروف ستكون فى جانبهم فى المعركة أو أنهم سينتهزون الفرصة عندما يسود الإضطراب أو عدم النظام فى صفوفهم .

وكانت الفرنجة يهجمون دائماً بحشد كبير من الفرسان أو المشاة ، وهذه الجحافل كانت صعبة القيادة ويصعب على القائد أن يناور بها ويرجع ذلك لعدم وجود تنظيم أو تدريب عسكرى لديهم ، فلم يكن لديهم قوات منظمة فى فصائل وكتائب وفرق مثل جميع الجيوش .

وكانت الفرنجة تصاب بالاضطراب والفوضى إذا فوجئوا بهجوم على أجنابهم أو مؤخرتهم .

وكثيراً ما كان يحدث مثل هذا الهجوم المفاجئ ، لإيهامهم فى تحصين معسكراتهم وعدم وضع حراس حولها أو دفع أفراد للحصول على معلومات عن العدو مع مسح المدن التى يحتلونها .

وكانوا يقيمون معسكراتهم دون تحصينها ولذلك كان من السهل عزل أى معسكر بالقيام بهجوم ليل .

وكانت قواتهم غير صبوراء على الجوع والعطش ، ويكفى بضعة أيام من الحرمان ليكفروا بمبادئهم وقيمهم .

ولذلك كانوا يفتقرون للضبط والربط وإحترام قادتهم ، كما أن قادتهم بدورهم لم يكونوا فوق الشبهات ، فكانوا مرتشين . وبصفة عامة ، ولكل هذه الأسباب كان يسهل أنهاء جيش الفرنجة بالمناوشات والعمليات الطويلة فى المناطق المقفرة المهجورة مع قطع الإمدادات عنهم ، وهذا أسهل من محاولة تحطيمهم بضربة واحدة .

الانفجار المثير للفايكنج

(أنظر اللوحة رقم ١٤)

لقد قلنا قبل ذلك أن الإمبراطورية بدأت تتمزق بسرعة بعد موت شارلمان ، بسبب الحرب الأهلية التي سادت عصر خليفته لويس ، ولكن أهم أسباب هذا التمزق هو التأثير المشترك للغارات التي حدثت في وقت واحد على الإمبراطورية ومن ثلاث جهات خلال القرنين التاسع والعاشر من العرب والمجر والفايكنج . فالعرب احتلوا صقلية وجنوب إيطاليا وقاموا ببعض الغارات على الساحل الفرنسي المطل على البحر المتوسط ، أما فرسان المجر فقد أثاروا رعباً أشد في المناطق الشرقية البعيدة كما قاموا بعد عام ٩٠٠ بغارات متكررة بعيدة المدى خلال ألمانيا إلى داخل بروفانس وبورجندي ، واستمرت تلك الغارات حتى تمكن السكسون بقيادة هنرى من صد فرسان المجر في معركة عند نهر انستروت عام ٩٣٣ ، لكنهم هزموا تماماً عندما انتصر عليهم أوتو العظيم في ليشفيلد عام ٩٥٥ .

لم يتبق غير الفايكنج الإسكندنافيين وكانوا يشكلون الخطر الحقيقي الرهيب على أوروبا ومع هؤلاء القوم . . . الفايكنج سوف نواكب الآن دراستهم .

الفايكنج يغزون أمريكا في القرن الحادى عشر

(أنظر اللوحة رقم ١٤)

ليس هناك حتى الآن تفسير مقنع يشرح لنا أسباب الانفجار المثير للفايكنج أو الإسكندنافيين ، كما كانوا يعرفون في نهاية القرن الثامن .

وقد ظهرت من غاراتهم على كل أنحاء أوروبا أنهم يسعون أساساً وراء النهب والسلب أكثر من سعيهم وراء الإستعمار والاحتلال ، بالرغم من أن الكثير منهم استقر واستوطن في بعض البلدان التي اجتاحتها ، وقد تم استكشاف ثلاثة سفن لهم عند ورشام في إنجلترا عام ٨٧٩ .

وفي الجيل التالى نهبت أديرة لندسنارن ورموث في إنجلترا وهوجمت كل من إيرلندا وفرنسا . ومن ذلك الوقت بدأت تلك الغارات في الازدهار .

وفي عام ٨٣٢ قامت قوة كبيرة من الفايكنج تحت قيادة تورجست بغزو إيرلندا وبعدها بسنتين نهبت مدينة أوترخت .

وفي عام ٨٥١ عانت كل من لندن وكنتربرى من نفس المصير . وأصبحت تلك الغارات

خلال الحنين سنة التالية متواصلة ، وبات محققاً أن الفايكنج سينغزون شمال وشرق إنجلترا .

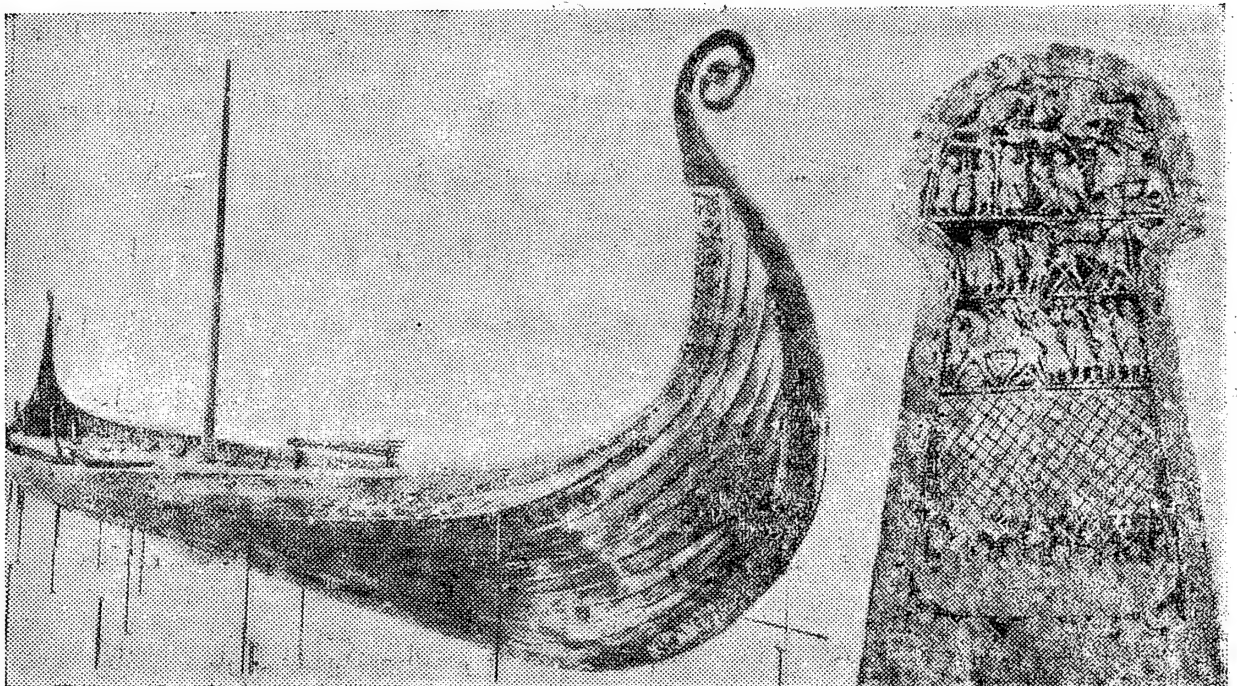
وفي عام ٩١١ استولوا على المنطقة التي صار تسميتها بـ « نورماندى » وذلك بعد أن تنازل لهم عنها الملك الفرنجى تشارلز البسيط .

وفي النهاية أصبحت إنجلترا جزءاً من الإمبراطورية الإسكندنافية ويحكمها الملك الدانمركى كنوت (٩٩٥ — ١٠٣٥) . وفي نفس الوقت قام الفايكنج بالإبحار إلى إسـلندا وجرينلاند وأمريكا وأسبانيا والمغرب وإيطاليا ونوفوجراد وكيف وبيزنطة .

سفن الفايكنج

إذا نظرنا إلى قوة الفايكنج لوجدنا أنها تكمن فى براعتهم فى فن الملاحة البحرية علاوة على أن سفنهم كانت من أعظم ما حققوه من منجزات فنية وتعتبر من أكبر مظاهر فخرهم .

وكانوا علاوة على براعتهم فى الملاحة يتميزون بالجرأة وقوة الاحتمال .



سفن الفايكنج

وقد كشف التنقيب على أنواع كثيرة لسفنهم وأكثرها إثارة النوع الذى يعرف بإسم « جوجشتاد » وهى إحدى السفن التى عثر عليها . وما زالت حتى اليوم محتفظ بهيكلها فى أوسلو وقد رأيتها بنفسى ويصل طولها إلى ٧٠ قدماً وعرضها يبلغ ١٦ قدماً وعمقها ٦ أقدام (من السياج إلى القاع) وكانت مبنية من الخشب البلوط ويصل وزنها إلى عشرين طناً ، وكانت على درجة عالية من التطور فى صناعتها .

لم يكن لهذه السفينة قاعاً على شكل ألواح مسطحة بل كان هناك عارضة قوية على شكل قطعة واحدة من الخشب تمتد فى القاع بمثابة العمود الفقرى للسفينة علاوة على أن مقدمة ومؤخرة السفينة يصنعان أيضاً من قطعة واحدة من الخشب ، وفى وسط السفينة توجد منصة يرفع عليها الصارى وطوله أربعون قدماً ومصنوع من خشب الصنوبر ، أما الشراع فن المرجح أن يكون شكله مربعاً ، أما لونه فالأساطير الأيسلندية القديمة تحكى عن أشعة حمراء وأخرى زرقاء وبها شرائط حمراء . وكان يستخدم الشراع أثناء السير فى البحار أما عند القتال يطوى الشراع وتستخدم المجاديف .

وكان هناك ستة عشر صفاً من المجاديف ويصل طول بعضها إلى ستة عشر قدماً والبعض الآخر أطول من ذلك ، وكل مجداف يعمل عليه رجلان . أما الدروع فكانت تعلق على طول سياج السفينة ومطلية إما باللون الأصفر أو الأسود . وكانت دفة السفينة عبارة عن لوح واحد من خشب البلوط مصنوعة على شكل يشبه شفرة مجداف كبير ومتصلة بجانب السفينة الأيمن بواسطة وتد على شكل حرف ٧ مثبت فى السفينة . ولم يكن هناك أى عارضات خشبية ليجلس عليها المجدفون ومن المحتمل أنهم كانوا يجلسون على صناديق أمتعتهم . ومع حلول القرن العاشر زاد حجم هذه السفن وأصبح البعض منها يحمل حوالى مائتى رجلاً وتستطيع الإبحار لمسافة مائة وخمسون ميلاً فى اليوم الواحد . أما الطعام فكان يحفظ على ظهر هذه السفن بواسطة الثلج والملح .

(أنظر اللوحة رقم ١٤)

القتال المتلاحم والفايكنج

كانت معارك الفايكنج البحرية تقع دائماً بالقرب من الشاطئ ، وتم فى ثلاث مراحل ، أولاً يقوم القائد باستكشاف قوات العدو ويتخير أفضل موقع يهاجمه منه ثم يبدأ فى الاقتراب

منه مع استخدام المناورة للحصول على الاقتراب الملائم ، وكان دائماً يوجه القائد السفينة بنفسه خلال المعركة ، ومع ازدياد تقارب الأسطولين تبدأ عملية إطلاق القذائف ، وهي عادة عبارة عن وابل من السهام ، ولكن في بعض الأوقات قد تكون كتل ثقيلة من الحديد أو الحجارة .

وفي النهاية يلقي الفايكنج بمرساة سفنهم لمسك سفن الأعداء ويبدأون في حسم الموقف بالقتال المتلاحم .

وبعد انتهاء المعركة يبقى أسطول الفايكنج في القاعدة التي شهدت المعركة البحرية وذلك إستعداداً لقيامهم بالغارات البرية . وعموماً كانت استراتيجية الفايكنج أن يبحروا في طريق مائى هام ، والعيش بعيداً عن اليابس ونهب الأديرة والمدن التي تقع على شواطئ هذا الطريق المائى .

وعندما يصلون إلى مكان من المجرى لا يصلح للملاحة بعد ذلك أو يعرفوا بوجود تحصينات قوية تعترض طريقهم ، يتجهون بسفنهم إلى الشاطئ ويتركونها في حماية حظار من القضببان المدكوكة حولها ومعها بعض الحراس ، ثم يقوموا بالإغارة براً على المدن القريبة من الشاطئ .

وكانوا في أيامهم الأولى إذا اصطدموا بقوة معادية كبيرة يعودون بسرعة إلى سفنهم وينطلقون عائدين إلى البحر ولكن فيما بعد أصبحوا أكثر جرأة .

وكان الفايكنج دائماً قليلي العدد وهدفهم الرئيسى النهب لذلك كانوا يتجنبون المعارك الكبيرة .

ولكنهم اعتادوا أخيراً بناء الحصون والمعازل والقواعد التي عادة ما يعودون إليها بعد رحلاتهم الطويلة ومنها على سبيل المثال جزيرة أوسيل على مدخل نهر السين وبالقرب من روفين ، ونوار موتير بالقرب من مدخل نهر اللوار ، وقلعة الشيرن التي استخدموها عند مهاجمة فلاندرز واستراسيا^(١) . وكانت ثاينيت (في إنجلترا) من ضمن معاقلمهم .

(١) الجزء الغربي من امبراطورية الفرنجة

وكان من الصعب جداً الإستيلاء على أحد هذه المعاقل والتي كانت عبارة عن حزام من المعسكرات المائية المحصنة بالأعمدة والخنادق ويدافع عنها جنود الفايكنج من حملة القنوس .

وقد استطاع أرنولف^(١) عام ٨٩١ الإستيلاء على إحدى حصون الفايكنج الهامة في مستنقعات لوفان وقد اعتبر نصراً بطولياً . والأسباب الرئيسية لهذه المعركة أن الفايكنج استغلوا إنشغال أرتولف في قتال السلاف على الحدود البافارية وقاموا بسلب وتخريب استرسيا مع ذبح عدد كبير من الفرنجة ، ولكن عندما وصلت هذه الأنباء إلى أرنولف عاد على الفور ويملاًه الغضب والحنق وهاجم الفايكنج في ديل وهزمهم . وبالرغم من أن معركة الديل كانت في حد ذاتها غير ذات صبغة مميزة لأنها حدثت في مستنقع وبالتالي لم تستخدم فيها فرسان الفرنجة إلا أنها كانت بالنسبة لى معركة ذات طابع مثير ، لأن مجابهة الأولى للجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية حدثت في نفس هذا المكان .

فتيات الدروع

ومن المحتمل أن الفايكنج في أول أمرهم كانوا فقيري التسليح ، ولذلك كان من أهم أهداف إغاراتهم هو الحصول على الأسلحة والدروع ، وقد استولوا في منتصف القرن على كميات غزيرة منها ، وتعلموا بعد ذلك فن صناعتها بأنفسهم .

وكان جميع محاربي الفايكنج يرتدون أردية طويلة من المعدن المجدول ، وفي بعض الأحيان كانت تماثل أردية الفرنجة . وكانت الدروع التي يستخدمها الفايكنج في البداية خشبية ومستديرة ، ولكنها تطورت حتى أصبحت رباعية الأضلاع وتطلى عادة بألوان ساطعة .

وسلاحهم الهجومى كان الفأس (البلطة) وتثبت على ساق المحارب ولكنها لم تكن التوماهوك الخفيفة التي كان يستخدمها الفرنجة . وكان الفأس سلاحاً قوياً وثقيلاً له شفرة واحدة عريضة من الحديد ومقبض طوله خمسة أقدام ، وكان يكتب على تلك الشفرة بعض الحروف التوتونية القديمة التي تنطوي على معانى سحرية .

(١) أحد ملوك الفرنجة .

«المعرب»

وكان الفايكنج يستخدمون أيضاً السيوف القصيرة والطويلة والحراب والأقواس الطويلة والسهم ، ويعتبرون القوس من الأسلحة المفيدة والمشرقة لمن يستخدمها على عكس بعض الشعوب الأخرى مثل الإغريق . أما القوات الرئيسية للفايكنج كانت تشكل من المشاة ، لصعوبة نقل الخيول على سفنهم أثناء غاراتهم البحرية ، وبمجرد نزولهم إلى الشاطئ يأخذون في جمع الخيول من المناطق المجاورة لاستعمالها كدواب النقل وتحقيق عنصر خفة الحركة . وكانت سياستهم دائماً دفاعية ، لأن قواتهم الرئيسية كانت من المشاة وتقاتل أعداء من الفرسان ولذلك كانوا يفضلون القتال في تشكيل الدرع السائر^(١) وبالقرب من معسكرهم أو خلف مجرى ماء^(٢) أو على الجانب الحاد للتلال^(٣) . وكانو يفضلون القتال مع أعدائهم من الفلاحين الذين يجندون على عجل وبذلك يستغل الفايكنج قواهم الجسمانية الكبيرة للتغلب عليهم . وكان لديهم فئتين رهيبتين من المحاربين ، الأولى ويطلق عليها «البرسك»^(٤) أما الفئة الثانية فكانت لا تقل غرابة عن الأولى لأنها كانت من فتيات الدروع^(٥) ومثال لذلك البطلة فيبجورج والتي كانت ترتدى الخوذة والرداء العذني والسيوف التي أخذت تهاجم به البطل سوكنارسوتى وتكيل له الضربات القاتلة حتى فصلت فكه السفلى عن وجهه مما أدى أن وضع لحيته في فمه وعض عليها لينع ذقنه من السقوط ، وقد قامت هذه البطلة بأعمال أخرى فذة ولكنها في النهاية سقطت متأثرة بجراحها .

القادة العسكريين الجدد لأوروبا

وفي نهاية القرن التاسع أدرك الفرنجة والإنجليز خطورة الفايكنج ، فحشد الفرنجة قوة كبيرة من الفرسان الأكفاء فكانوا الأمل الوحيد لكبح إنطلاق الفايكنج ، لأن هجوم الفرسان هي القوة التي تستطيع كسر درع الفايكنج السائر ، وعلى كل فلم يتعلم الفايكنج فن حرب الفروسية إلا بعد فوات الأوان بالرغم من أنه في القرنين الحادى والثانى عشر كانت سبلاتهم من النورمانديين من أبرع فرسان أوروبا .

(١) كما حدث عند أدينجتون عام ٨٧٨

(٢) كما حدث عند أشدون عام ٨٧١

(٣) يرجح أنهم كانوا فرقة ذات تنظيم خاص من الرجال الجانين والمختلفين عقلياً ؛ وكانوا يتميزون بالقوة والشراسة . وعلى كل فكلمة برسك تعنى المسحور شديد الهياج .

(٤) مجموعة من النساء ترافق أبطال الفايكنج ويمكن أن يتحولن إلى مقاتلات شرسات

(٥) المغرب

وفي عام ٨٦٦ أصدر شارل الأصاع مرسوما يقضى بأن كل فرنجى لديه جوداً يصبح تحت الطلب للخدمة العسكرية ، ويمكن القول أن منذ هذا التاريخ وأصبحت المشاة غير ذات أهمية في فرنسا .

وقد نجح شارل في صد هجمات الفايكنج وذلك ببناء القلاع على طول أنهار السين واللوار والأوز ، ومن أهم هذه القلاع تلك التي شيدت في باريس . وفي الفترة ما بين ٨٨٥ — ٨٧٦ قاومت باريس بنجاح حصار الفايكنج الكبير ، وقد استخدم الفايكنج إلى حد كبير نفس أسلوب فن الحصار الذي استخدمه جوستينيان منذ ثلاثة قرون ، نفس الأبراج والمنجانيق والكباش والمحاولة أحداث فتحات في الأسوار وحفر الأنفاق تحت موقع العدو . وبعد أن حاصر^(١) الفايكنج باريس مدة طويلة هاجمها ولكنهم فشلوا .

في نفس الوقت كان الفريد العظيم في إنجلترا يستخدم أسلوباً مماثلاً من التحصينات القوية لصد هجمات الفايكنج الدغركين ، وعلى أى حال فقد أعتمد على المشاة الثقيلة من الأيليت بدلا من الفرسان . وقد أثبتت تلك المشاة جدارتها ، فقد انتصرت في أشدون وإدينجتون . وقد قام باتخاذ خطوة جريئة والتي أهملها الفرنجة في ذلك الوقت ، وهي بناء أسطول قوى على غرار سفن الفايكنج .

وقد حقق أسطول ألفريد نجحاً كبيراً ، ولذلك ظلت إنجلترا لمدة ألف وخمسين سنة بعد موته تتمتع بأسطولها القوى والتي اعتمد عليه اعتماداً مطلقاً .

وعلى كل لو ألقينا نظرة على جميع المسارح في أوائل القرن الحادى عشر لوجدنا أن أوروبا بدأت في ذلك الوقت تلتقط أنفاسها وبطريقة أكثر إطمئناناً بعد أن تحررت أخيراً من غارات البربر المتتالية والتي دامت سبعة وخمسون عاماً وبدون هوادة ، أما في الشرق فقد ظلت الدولة البيزنطية لفترة قصيرة محتفظة بقوتها العسكرية التي حققها لها بازل ، أما في الغرب فقد آل نشاط الفايكنج إلى النورماندين الذين أوشكوا على أن يصبحوا القادة العسكريين الجدد لأوروبا .

وهكذا ينتهى الجزء الثانى من الكتاب ، أما الجزء الثالث فضمنه مونتجمرى الآتى : —

* صلاح الدين الأيوبي يوحّد مصر وسوريا .

* معركة حطين .

* اختطاف ريتشارد قلب الأسد .

* الحرب الصليبية .

* النساء يأكلن أطفالهن .

* عظام بايو المقدسة .

* ويليام الفاتح .

* حرب المائة عام .

* المباراة بين الجنة والجحيم .

* الصواريخ فى القرن ١٤

* ظهور جان دارك .

* القلاع المتحركة .

* الحمى الدبلوماسية .

* حرب الوردتين .

* مرجريت المجنونة .

* الملك البقال .

* القريننة .

* القراصنة المفوضين .

* الغليون .

* كنوز الأسطول الأسباني .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الثالث .

عميد

فتحي ووليد

أسماء الفائزين في مسابقة الجزء الأول

حل المسابقة :-

- ج ١ : ١ — الروح القتالية العالية للجنود والضباط في الميدان .
ج ٢ : ٢ — السياسيين .
ج ٣ : ٣ — البرازيل .
ج ٤ : ٢ — قبائل المabay من الطقوس الدينية
ج ٥ : ٢ — العراقيون .
ج ٦ : ١ — مدينة طيبة عام ١٦٣٠ ق.م .
ج ٧ : ٢ — أمينحوتب الأول .
ج ٨ : ٢ — تحتمس الثالث وملك قادش .
ج ٩ : ٣ — هو ديونيسيوس الأول .
ج ١٠ : ٢ — فيليب .

الجـ-وائز :-

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٣٣٣
باسم : الأستاذ فتحى فولى محمد
العنوان : مدرس أول اللغة الإنجليزية بمدرسة الطبرى - مشية البكرى

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

- ١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٦١٨٦
باسم : مهندس / محمد إسماعيل محمد
العنوان : مصنع السكر - كوم أمبو
٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٥٧٢٠
باسم : محمد نزار كامل زغموت
العنوان : ٨٧ ش سراى المنيل شقه ٦٦

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه و٥٠٠ ما ٣

١ - فازت بها استمارة المسابقة ١٢٧٢

باسم : رائد نبيل محمد ماهر رفعت

العنوان : ٢٤٣ ش الحجاز شقه ١٤ - مصر الجديدة

٢ - فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٩٤٧

باسم : ناني أحمد وهيدى

العنوان : ٨ ش حمزة عليش شقة ٢٣ - منشية البكرى

٣ - فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٣٥٨

باسم : عدلى فؤاد سيفين بشاى

العنوان : الشاطبي / جامعة الإسكندرية - الإسكندرية

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد
(عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لكل
جزء مسابقة وجوائز مالية ، فمن لم يسعده الحظ فالى اللقاء مع مسابقة جديدة
فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

مسابقة القراء

عدد

الجائزة الأولى : — ١٠ جنيهات مصرية ١

الجائزة الثانية : — ٣ جنيهات مصرية ٢

الجائزة الثالثة : — ٢ جنيه مصرية ٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارئ أن يضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم اختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع في مظروف عليه طابع بريد وترسل في بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالي :-

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين في الجزء التالي للكتاب .

٥ — لقد رصد الفيild مارشال مونتهجرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

المسابقة

نمرة ١٥٨٦

١ - من أشعل الحرب القرطاجية الثانية ؟

١ - سيبو .

٢ - هانيبال .

٣ - أتيل .

٢ - « تعظمت الشهادة على صخرة النظام » من قال هذا ؟

١ - بومبي .

٢ - ليدل هارت .

٣ - فولر .

٣ - الفراميا عبارة عن

١ - درع واقية للصدر .

٢ - حربة قصيرة ذات رأس حديدية مذبذبة وحادة .

٣ - خوذة معدنية تغطي الرأس والعنق .

٤ - لقد أسر فاليران عام ٢٦٠ بواسطة

١ - جالينوس .

٢ - أورليان .

٣ - سابور .

٥ - لقد هزم القوط الامبراطور فالنيس عام ٣٧٨ في معركة

١ - أدريانوبل .

٢ - بيزنطيوم .

٣ - كارولين .

٦ - اول من استخدم « الطعم الحي » .

١ - أتيل .

٢ - بلزارتوس .

٣ - أليك .

٧ - من كان يقود القوات الاسلامية في معركة اليرموك عام ٦٣٦ ؟

١ - عمر بن العاص .

٢ - خالد ابن الوليد .

٣ - أبو بكر الصديق .

٨ - لقد هوجمت القسطنطينية عام ٧١٧ بواسطة

١ - كسرى .

٢ - الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث .

٣ - القائد العربي مسلمة .

٩ - تاجها عبارة عن

١ - مجموعة من الأفراد تسير مع الجيش دون أن يكون لهم صفة المقاتلين

٢ - وحدة تتكون من ٤٠٠ جندي .

٣ - بلطة لها حدين ، قاطع وآخر مدبب .

١٠ - لقد اسفولي نيقور فوكاس عام ٩٦٥ على

١ - أنطاكية .

٢ - طرسوس وقبرص .

٣ - كريت ومالطة .

الاسم

العنوان

المحور عجمي التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

الجزء الثالث

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمري

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد النمر

رئيس مادة التاريخ العسكري بالكلية العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
في عيد العلم العاشر والحادي عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

رقم الإيداع ٣٢٩٠ / ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة
٥ شارع المنسج بالشرقية ٨٦٤٨٧١

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٢٢١	الفصل الثامن : الفتوحات النورمانية والحملات الصليبية
٢٢١	* قوم حياتهم الحرب
٢٢٤	* ويليام الفاتح
٢٣٤	* عظام بايو المقدسة
٢٣٩	* قلاع الموت
٢٤٤	* النساء يأكلن أطفالهن
٢٥٣	* صلاح الدين الأيوبي يوحد مصر وسوريا
٢٥٧	* معركة حطين
٢٥٩	* اختطاف ريتشارد قلب الأسد
٢٦١	الفصل التاسع : حروب اواخر العصور الوسطى
٢٦١	* حرب المائة عام
٢٦٦	* المباراة بين الجنة والجحيم
٢٦٧	* الصواريخ في القرن الرابع عشر
٢٧٠	* قلعة الباستيل
٢٧٥	* تشكيل القنفذ
٢٨١	* خنجر الأجهاز والرحمة
٢٩٤	* ظهور جان دارك
٢٩٤	* القلاع المتحركة
٢٩٨	الفصل العاشر : عظمة اسبانيا
٢٩٨	* بوابة الأطلنطي

تابع الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣٠٤	* القريينة
٣٠٨	* الحمى الدبلوماسية
٣١٤	* العرش المحطم
٣١٦	* حرب الوردتين
٣٢١	* صرغريت المجنونة
٣٢٦	* الملك البقال
٣٣٠	* القراصنة المفوضين
٣٣٢	* الغليون
٣٣٨	* كنوز الأسطول الأسباني
الخرائط :	
٢٢٥	* اللوحة رقم ١٥ : فتوحات النورمانديين
٢٣٥	* اللوحة رقم ١٦ : معركة هاستنجز
٢٤٩	* اللوحة رقم ١٧ : حدود الممالك العربية والصليبية والبيزنطية
٢٨٥	* اللوحة رقم ١٨ : معركة كريسى
٣٠١	* اللوحة رقم ١٩ : أوروبا الغربية فى القرن السادس عشر
٣١١	* اللوحة رقم ٢٠ : معركة جاريجليانو

الفصل الثامن

الفتوحات النورماندية والحملات الصليبية

قوم حياتهم الحرب

لقد وصلنا إلى فترة بالغة الأهمية في التاريخ العسكري... أنها الفترة الرئيسية لمنتصف العصور الوسطى (عام ١٠٠٠ - ١٢٠٠). وفي هذه الحقبة من الزمن كان النورمانديون^(١) من أبرز الشعوب في الفن العسكري ، وقد وهبتهم فرنسا عام ٩١١ دوقية نورماندى^(٢) ليدافعوا عنهم ضد الفايكنج .

لقد كانت القوة الرئيسية لجيش الفايكنج من المشاة بالرغم من ذلك أصبح النورمانديون فرسانا مشهورين ، وعندما غزى الدوق ويليام إنجلترا كانت القوة الرئيسية لجيشه مشكلة من الفرسان النورمانديين .

وقد استخدم النورمانديون أسلوب القتال المتبع في فرنسا بعد تطويره ، مع تطوير الكثير من الأساليب الأخرى ، ولذلك أصبحوا من أعظم الشعوب في الفروسية والتحصينات الإستراتيجية .

ويعتبر القرن الحادى عشر والثانى عشر من العصور الذهبية لهم ، فقد قاموا خلال هذه الفترة بفتوحات واسعة ، حتى أصبح كل من جنوب إيطاليا وصقلية والجزر البريطانية وغرب فرنسا تحت الحكم النورماندى .

وقد لعبوا دوراً رئيسياً في إعادة النشاط لأوروبا ، فكانوا قادة الحركة التي أثبتت بأن أوروبا أستعادت حيويتها ، وكانت ممثلة في الحملات الصليبية .

(١) النورمانديون شعب يرجع أصلهم إلى رجال الشمال (الفايكنج)

(٢) لقد وهبتهم فرنسا هذه المقاطعة على النظام الإقطاعى لإقناعهم بأن الطريقة المثلى للدفاع عن

فرنسا ضد الفايكنج أن يضعوا في طريقهم فايكنج آخرون . « المغرب »

وقد قال عنهم ويليام (حاكم الملبورى) : « لقد كانوا شعباً تعود الحرب ولا يستطيع أن يعيش بدونها » .

ويعتبر هذا الجزء من قصتنا مثيراً بالنسبة لى ، لأنه يملؤنى شوقاً لأمرتى التى يرجع جذورها إلى نورماندى ، فيوجد فى مدينة فاليس الكثير من النصب التذكارية لشخصيات من آل مونتجمرى ، ومنهم روبرت مونتجمرى ، ابن شقيقة ويليام الفاتح ، والذى قاتل معه على الجناح الأيمن للجيش فى معركة هاستنجز . والأكثر غرابة أن خصمى روميل أصيب عام ١٩٤٤ فى قرية سانت فوى مونتجمرى بالقرب من ليزيه ، وقد أبعده هذه الإصابة عن معركة نورماندى ، وكنت فى ذلك الوقت أقود القوات التى تغزو نورماندى .

الشخصية المهيمنة على الحرب

نعود إلى جيوش أوروبا وآسيا خلال السنوات ٤٠٠ — ١٠٠٠ ، فنجد أنها كانت تتشكل من المحاربين الراكبين وعناصر ضعيفة من المشاة ، رديئة التسليح والتجهيز ، وبات واضحاً أنه لا بد من مرور عدة قرون لتصبح المشاة مرة أخرى ملائكة ميدان القتال ، لأن الشخصية المهيمنة على الحرب كانت تتمثل فى الفارس ، وذلك بعد هزيمة المشاة من حملة الفئوس الأنجلو — سكسون فى معركة هاستنجز فى القرن الحادى عشر ، ولم تستعد المشاة مكانتها إلا بعد ظهور المشاة السويسرية والإنجليزية فى القرن الرابع عشر .

وكان النظام الإقطاعى يعتبر الفارس الرالكب الجندى المثالى والنموذجى بل والعمود الفقرى للجيش .

وإذا قارنا بين الجيوش فى ظل النظام الإقطاعى والجيوش الصليبية ، لوجدنا فرقاً كبيراً ، فكان تنظيم الجيوش الصليبية مختلفاً لوجود عدد كبير من المتطوعين فى صفوفها ، وكانت تفقر للتماسك لإختلاف أجناس الجنود ، واملؤها الغيرة والمنازعات التى كانت قائمة بين قادة الجيوش الصليبية أنفسهم .

وعلى كل فعند دراستى للمعارك الصليبية التى وقعت من تركيا إلى مصر خلال سوريا وفلسطين ، لم تثر فى نفسى أى حماس لأنها فى الواقع لم تضيف إلى التاريخ العسكرى إلا قدراً ضئيلاً من التجارب والدروس المستفادة .

مملكة صقلية النورماندية

(أنظر اللوحة رقم ١٥)

نعود إلى المغامرين النورمانديين فنجد أن فتوحاتهم وأعمالهم في منطقة البحر المتوسط لم يكتب لها الحياة طويلاً بالرغم من أنها أُنسبت بالجرأة والبراعة ، وعلى كل سنجد أن النورمانديين الأوائل الذين توغلوا داخل جنوب أوروبا كانوا من الحجاج . ففي عام ١٠١٦ قامت جماعة منهم تتألف من أربعين رجلاً أثناء عودتهم من حج بيت المقدس بالمرور على جنوب إيطاليا ، وكانت مدينة سالرنو محاصرة في ذلك الوقت بالعرب ، فعلى الفور قاموا بجمع الأسلحة والخيول ومهاجمة العرب واستطاعوا تشتيتهم .

في هذه الفترة لم يزد نشاط النورمانديين عن أعمال قطاع الطرق وأستخدموا في ذلك الوقت بعض المرتزقة من اتباعهم ، ولكن في عام ١٠٤٠ بدأت عائلة هوتيفيل^(١) السيطرة عليهم وإصدار التوجيهات المحددة لنشاطهم .

سيطر النورمانديون على جنوب إيطاليا تحت قيادة زعيمهم جسكارد . وفي عام ١٠٥٣ زحف جيش بابوى من روما لطرد النورمانديين من جنوب إيطاليا ، وإلتقى الجيشان عند كفتاني وهزم الجيش البابوى هزيمة ساحقة ، ولكن لم يستطع النورمانديون إستغلال النصر وفي عام ١٠٥٩ عرض جسكارد فروض الطاعة والولاء للبابا في مقابل تنصيبه ملكاً على جنوب إيطاليا . وخلال فترة الصراع على التنصيب قام هنرى الرابع عام ١٠٨٤ بالإستيلاء على مقاليد الأمور في روما وزج بالبابا جريجورى الرابع في السجن بقلعة سانت أنجلو ، في ذلك الوقت طلب من جسكارد القيام بتخليصه وطرد الألمان ، وعلى الفور تقدم جسكارد بجيشه نحو روما وطرد الألمان شمالاً وأطلق سراح البابا . إلا أن روما عانت في ذلك الوقت على أيدي النورمانديين وقواتهم الأهوال من مذابح ونهب يفوق الأعمال التى أرتكبتها الوندال قبل ذلك .

(١) كان نانسكرت بارون هوتيفيل عميد العائلة وقد رزق بإثني عشر ولداً ولم يستطع النهوض بأعبائهم ، فرحل بعضهم (وليام ذو الذراع الحديدى ودروجو وروبرت وروجر) إلى الجنوب بحثاً عن الثروة . وفي عام ١٠٤٦ حصل روبرت المسمى بجسكارد على ثروة طائلة بعمله كمرتزق بعض الوقت وكقطاع طريق البعض الآخر في جبال كلابريا في جنوب إيطاليا حيث استوطن هناك وأصبح من ذوى النفوذ والسيطرة على هذه المنطقة .

« العرب »

نعود إلى صقليه فنجد أنه اكتمل فتحها في ذلك الوقت ، فقد قام روجر الأول عام ١٠٦١ بمحاولة لفتحها وطرد العرب منها ولكنه تعثر فما كان من جيسكارد أن قدم له العون ، إلا أنه في عام ١٠٧٢ وصلوا إلى نقطة التحول عند حصارهم لبارمووالإستيلاء عليها ، وعلى كل لم تسقط آخر معاقل العرب هناك إلا في عام ١٠٩١ .

إذا عدنا إلى روجر الأول فنجد أنه كان يحكم ولاية إقطاعية في صقلية وله جيش إقطاعي قوى مكون من جنود من الإغريق والعرب والنورماندين ومحصنة بقلاع نورماندية لحماية المدن الهامة بها ، علاوة على إعماده على أسطوله الضخم المكون من السفن الشراعية الكبيرة ، وعلى قوة جورج حاكم أنطاكية^(١) .

وفي عام ١١٣٠ اعترف البابا روجر الثاني ملكاً على صقلية ومالطة وجنوب إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مملكة صقلية النورماندية من الممالك الأوروبية التي تتمتع بحكم عادل وثقافة واسعة نتيجة للخليط الذي تكون من نشاط أهل الشمال مع خبرة أهل البحر المتوسط .

ويليام الفاتح

يعتبر أكبر غزو للنورماندين هو غزوهم لإنجلترا في عام ١٠٦٦ والذي اعتبر عام الغزو والنصر لهم عند هاستنجز وقد مر في ذلك الوقت ٣١ عاماً على حكم ويليام لدوقية نورماندى . وقد اكتسب هذا القائد شهرة واسعة لأنه كان تكتيكي ممتاز بل وأكثر من ذلك كداهية في الإستراتيجية وحرب الخداع وقائد جريء بعيد النظر صبورا ذو مقدرة فائقة على السيطرة على رجاله ، وكان صارماً في تنفيذ سياسته ، وقد كتب عنه فيما بعد في تاريخ الأنجلوساكسون : —

« دعى الملك لبناء القلاع ، وكان شديد الصرامة مع قومه ، فارتفعت شكوى الأغنياء وتذمر الفقراء . ولكنه كان قويا بحيث لم يعرهم أى إهتمام » .

وقد كتب عنه من ناحية أخرى : « لقد حقق ويليام نظاماً وإستقراراً في الأمن

(١) تقع أنطاكية في شمال سوريا ، ويعتبر جورج من أبرع ما أنجبته صقلية من قادة البحر في العصور الوسطى . « العرب »



لا يمكن أن ينسى ، فأى إنسان يستطيع التجول فى مملكته وجيوبه مملوءة بالذهب دون أن يصاب بأذى ، ولا يجرأ أى فرد فى هذه المملكة أن يقتل زميله » .

ومن الطبيعى أن مثل هذا الوضع المشبع بالسلام لا يتحقق إلا بعد سنوات عديدة من الحرب والتمرد والصراع . وفى عام ١٠٤٧ تمكن ويليام من إخماد الثورة البارونية عند فال دى ديون بالقرب من كان ، كما دار صراع دام بينه وبين جوفرى^(١) حول الإستيلاء على « مانى » ، وفى عام ١٠٦٤ حسم ويليام القضية لصالح نورماندى بالإستيلاء على « لى مانس » .

وفى عام ١٠٦٦ بعد أن اكتسب ويليام خبرة طويلة من هذه الصراعات ، أصبح حاكماً محنكاً وقائداً ناجحاً وعلى دراية بكل أشكال وأسلوب الحرب فى عصره ، ولذلك لم تكن حملته على إنجلترا مجرد غارة حماسية للاثارة ، بل كانت زحفاً للتوسع والفتح ، تم له التجهيز سلفاً بزمى طويل . وقدواته الفرصة بعد موت إدوارد ملك إنجلترا فى الخامس من يناير عام ١٠٦٦ بالمطالبة بعرش إنجلترا من الناحية النظرية^(٢) ، فقد وجد نفسه أحق من هارولد « أمير ويسكس » والذى يعتبر أقوى شخصية فى إنجلترا ، ولكن الوتان^(٣) فى ٦ يناير أختار هارولد ملكاً على إنجلترا وتم تنويجه ، ولكن هارولد كان يفتقر إلى صفات الزعامه الوطنية .

عندما علم ويليام بذلك قرر غزو إنجلترا ، ولكنه قبل عبور بحر المانش بثمانية شهور أخذ يستعد من الناحية العسكرية مع إطلاق دعاية واسعة له ولجيشه ، وقد حصل فى ذلك الوقت على مصدر ثمين للقوة المعنوية متمثلة فى البركة التى منحها له البابا ألكسندر الثانى والترحيب والتشجيع من كل من الإمبراطور الألمانى وملك الدانمرك .

غزو إنجلترا

وعلى كل لم يكن التهديد النورماندى هو التهديد الوحيد الذى هدد هارولد فى هذا

(١) كان جوفرى يسمى بالمطرقة ويشغل منصب كونت أنجو .

(٢) لوجود روابط النسب والعهود السرية بينهما .

(٣) المجلس الوطنى الإنجليزى .

العام ، بل كان هناك خطر آخر في الشمال ... فقد تحالف شقيق هارولد ويدعى توسيتج مع ملك النرويج المسمى هارولدهار درادا^(١) . وأصبح من المتوقع أن تغزو النرويج إنجلترا . وفي شهر مايو أغار توسيتج على الحمير . ولكن هارولد كان مقتنعاً بأن تهديد ويليام هو أكثر التهديدين خطورة ، لذلك حشد قوته البحرية في بحر المانش وأخذت تقوم بدوريات طول شهر يونيه ويوليه وأغسطس ما بين دوفر وجزيرة ويت . في ذلك الوقت أصدر هارولد أوامره إلى أمراء ونبلاء وأيرلات^(٢) المقاطعات بالإستعداد وتجهيز قوات الميليشيا^(٣) للتحرك في أى وقت وكانت الميليشيا يتم تجنيدها على أساس رجل واحد لكل ستمائة هكتار^(٤) وتستدعى لمدة شهرين عند اللزوم .

وكانت هناك طبقة أخرى تعرف باسم « ثاجين »^(٥) وكلتا الطبقتين الميليشيا والثاجين يتبعان الملك بصفة مباشرة بالنسبة للخدمة العسكرية .

وكان الجيش الإنجليزي يقاتل دائماً مترجلاً ، أما تسليح جنوده فكان من الحربه والرمح وسيف مزدوج الشفرة والفأس الثقيلة الدائرية . وكانت الرماية تعتبر من الرياضات الشعبية والمحبة بين الإنجليز ولكنها كانت تستخدم قليلاً في القتال . أما الدروع فكانت مستديرة أو رباعية التضلع ، وكان الأثرياء من المقاتلين يرتدون الخوذة والرداء المعدني . وللملك حرس خاص من المحترفين علاوة على وجود مشاة مدربة تدريباً راقياً تسمى « الهاوسكارل » وقد بقي هؤلاء معه في سيوسكس خلال صيف ١٠٦٦ .

نعود ثانية إلى الموقف العسكري قبل المعركة فنجد في ٨ سبتمبر بدأت المؤن في النفاذ من الأسطول الإنجليزي الذي كان يجوب بحر المانش وأجبر على العودة إلى لندن للتزويد بالمؤن وإجراء بعض الإصلاحات التي أصابته أثناء سوء الأحوال الجوية في شهر أغسطس .

(١) كان المدو اللدود لملك إنجلترا .

(٢) لقب إنجليزي يمنح للعظماء وهو أدنى من مركز وأعلى من كونت .

(٣) قوات الحرس الوطني ويطلق عليهم في إنجلترا « فريد » ويشكلون القوة الرئيسية للجيش الإنجليزي .

(٤) الهسكتار مساحة من الأرض تبلغ ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو نحو ٤٠٠٠ متر مربع .

(٥) هؤلاء في مرتبة أعلى من المواطن العادي ولكن أقل رتبة من الطبقة الأرستقراطية .

« المعرب »

ولم يمض سوى أسبوع على وصول الأسطول الإنجليزي إلى لندن ، حتى علم هارولد بوصول ٣٠٠ سفينة نرويجية إلى ساحل يوركشير وسقوط كل من كليفلاند وسكاربورج ، وعلى الفور قرر هارولد ترك الساحل الجنوبي بدون حراسة والتحرك بكل قواته إلى الشمال ، وفي طريقه وصلته أنباء بأن اثنين من إيرلات الشمال وهما « أدوين » و « موركار » قد هزما في معركة ضارية عند « فولورد » خارج « يورك » وأن مدينة يورك على وشك الاستسلام . وقد وصل هارولد إلى يورك في الوقت المناسب لمنع كارثة الاستسلام . وبعد ظهر ٢٥ سبتمبر استدرج القوات النرويجية إلى معركة عند « كوبري ستامفورد » على نهر الدرونث والذي يبعد سبعة أميال من يورك .

وهناك حققت قوات الثاجين أعظم انتصاراتها ، وفي هذه المعركة لقي كل من هاردرادا وتوستيج مصرعهما ولحقت بقواتهما هزيمة ساحقة ، ولم يهرب منهما إلا عدد قليل عن طريق البحر .

نعود إلى ويليام فنجد أنه في ٢٨ سبتمبر أنزل جيشه على الساحل الجنوبي الإنجليزي وطبعاً بدون أى مقاومة^(١) ، في نفس هذا اليوم كان هارولد وجيشه يستريحون في يورك^(٢) ويحتفلون بالنصر الذي حققوه على النرويجيين .

وقد دأب ويليام على الاستعداد لغزو إنجلترا من شهر يناير وكان يعمل على قدم وساق لتكوين جيش قوى والحصول على أسطول يتكون على الأقل من ٤٥٠ سفينة نقل ، ولذلك أصدر أوامره بالإلتزامات والواجبات التي يجب أن يقدمها تباع النظام الإقطاعي من حكام^(٣) المناطق والمقاطعات .

علينا أن نلقى نظرة على قوات ويليام فنجد أن الفارس (الفارس النبيل) كان من أبرز جنود العصور الوسطى ويرتدى قيصاً طويلاً من المعدن وخوذة ذات حافة أمامية وأحياناً

(١) لقد كان الساحل بدون حراسة بعد أن دفع هارولد جميع قواته نحو الشمال .

(٢) كانت تبعد عن الساحل الجنوبي بمسافة ٢٥٠ ميلاً .

(٣) كان على كل بارون وكل أسقف منح أرض من ويليام أن يقدم عدداً معيناً من الفرسان أو

المحاربين الراكبين ذوي الدروع الثقيلة لخدمة الدوقية . « المغرب »

ذات شكل مخروطى مع واق للأنف ، ويحمل درعاً على شكل الشراع ، مستدير عند القمة ومدبباً عند القاع ويصل ارتفاعه من ٣ إلى ٤ أقدام ، وهذه الدروع مزخرفة ، والسلاح الرئيسى للفارس الرمح الذى يصل طوله إلى ثمانية أو تسعة أقدام وله رأس عريضة من الحديد وكان يثبت من مؤخرته العريضة فى الركاب عند عدم استعماله .

ومع منتصف القرن الحادى عشر ، وصل سيف القرون الوسطى إلى ذروة تطوره ، وظل هكذا بدون أى تغيير لمدة أربعمئة سنة ، بشفرته المزدوجة ونهايته المدببة ، ووصل طوله إلى ٤٤ بوصة من المقبض إلى الطرف .

وكان يحمل الفارس بالإضافة إلى الرمح والسيف فأساً ذات شفرة عريضة أو مقرعة ذات رأس حديدية وكان يفضلها الفارس دائماً .

ومع عام ١٠٦٦ استخدمت الفرسان النورمانديين بأسلوب ممتاز تحت قيادة ويليام ، ولكن صادفته مشكلة بالنسبة للفرسان وهو أن التقاليد الإقطاعية حددت خدمة الفارس داخل حدود الدوقية بأربعين يوماً فقط ، ولذلك أصبح واضحاً أن هذه المدة لن تكفى للقيام بغزو خارجى . ولكن لحسن حظه أن معظم البارونات كانت على استعداد للخروج معه ، علاوة على علم البابا بالغزو وموافقته عليه . وكانت توجد عوامل كثيرة دفعت كل هؤلاء على مساندة ويليام فقد أغراهم ثراء إنجلترا علاوة على الشعب النورماندى يتفجر نشاطاً ويشعر فى نفس الوقت بالضغط الاقتصادى الناتج عن إزدياد تعدد السكان ، وبذلك ضمن ويليام المقطوعين والمرترقة ليس فقط من النورمانديين بل أيضاً من جميع أنحاء فرنسا وحتى من الغاصرين النورمانديين فى جنوب إيطاليا .

وبكل هذه الإمكانيات استطاع حشد جيش بين ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ فارس من بينهم على الأقل ١٢٠٠ من النورمانديين وهؤلاء كانوا يشكلون النواة الصلبة لجيشه ، وحتى يكمل هيكل جيشه ، قام بتجنيد ما بين ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ من المشاة وحملة الأقواس وربما أيضاً من رجال القوس الشباب^(١) بالإضافة إلى الجنود الراجلين كل منهم مسلح بمخمس

(١) كان أقوى من القوس العادى ومشتق من المنجانيق والقوس العادى ، ويحتمل أنه استخدم قبل بداية القرن الحادى عشر بفترة وجيزة وكان القوس النورماندى يصل طوله إلى خمسة أقدام ، وعند استعماله يجب أن يجذب حتى الصدر .

« المعرب »

وسيف ، وجميع مشاة النورماندين يرتدون قمصاناً معدنية على عكس معظم جنود الإنجليز من الميليشيا .

القاهرة الجسيمة

في نهاية أغسطس ١٠٦٦ حشد ويليام جيشه عند مصب نهر ديفيس لعبور بحر المانش عند أول فرصة ، ولكن الرياح الشمالية القوية منعتهم من الإبحار لمدة ستة أسابيع ، وخلال هذه المدة حافظ ويليام على استقرار النظام بين صفوف قواته مع احتفاظهم بقدرتهم القتالية ومستواهم العالي في التدريب .

واستغل الرياح الغربية وتحرك بأسطوله حتى مصب نهر السوم ، وفي مساء ٢٧ سبتمبر تحولت الرياح إلى الجنوب فعلى الفور صعد الجيش إلى السفن ، وتحرك عابراً بحر المانش في هذه الليلة ، وفي الصباح المبكر لليوم التالي ، نزل ويليام وقواته على الشاطئ الإنجليزى الخالى من القوات عند خليج بيفينسى^(١) ، وعلى الفور تم تجميع وتركيب الحصن الذى جهز قبل ذلك ، في الميناء الرومانى القديم وذلك لحماية سفن أسطوله .

وفي مساء طبقاً لما قاله الشاعر «واس» : — «أكل الجميع وشربوا ما فيه كفايتهم واحتفلوا بوجودهم على الشاطئ الإنجليزى» .

وفي اليوم ٢٩ سبتمبر تقدم النورمانديون إلى هاستنجز ، وبطريقة تلقائية نهبت المدينة ، بينما بقى الأسطول النورماندى تحت الحراسة في الميناء .

في ذلك الوقت كان هارولد لازال في يورك ، يحاول تجميع قواته وإعادة القدرة القتالية لهم بعدمعركتهم التى لم يعرفوها وفقاً طويلاً عند كوبرى ستامفورد . في العاشر من أكتوبر علم هارولد بنزول النورماندين ، وفي اليوم التالى تحرك جنوباً ومعه حرسه ، ووصل إلى لندن بعد عملية الإنزال النورماندى بأسبوع .

وقد اضطر الانتظار في لندن حتى يعيد الجيش حشد وتنظيم قواته عند « شجرة التفاح

العتيقة^(١)» بعد تحركه هذه المسافة الكبيرة . ولم يصل هارولد نفسه إلى هذه المنطقة إلا في الثالث عشر من أكتوبر .

والآن ، نلقى نظرة على استراتيجية هارولد وخطته التي قررها للمعركة ، سنجد أنه كان ينوى تنفيذ نفس الخطة التي استخدمها عند « كبرى ستامفورد » ، ويتضمن ذلك التقدم بأقصى سرعة ومهاجمة ويليام بأفضل ما لديه من قوات ، آملاً في تحقيق عنصر المفاجأة ، نعود إلى ويليام فنجد أن المعلومات التي وصلته من الجواسيس تتضمن أن هارولد وجيشه على بعد ٢٥٠ ميلاً ، يستريحون من عناء معركة ضارية وبالتالي أصبح من المشكوك فيه أن يستطيع هارولد التقدم بسرعة وتحقيق المفاجأة .

ولو تخيلنا ما كان يدور في رأس هارولد ، لوجدنا أنه قدر أن النورماندين يتحتم عليهم خوض معركة حاسمة وبسرعة بقدر الإمكان ويجب أن يفتصروا فيها ، وذلك لأن ويليام وجيشه موجود حالياً على أرض إنجليزية معادية ، ويوجد خلفه بحر المانش الإنجليزي والذي يجوبه الأسطول الإنجليزي مرة أخرى ، ولذلك كلما طالت المعركة كلما زاد تعرض القوات النورماندية للاستنزاف وضعف روحهم المعنوية ، بينما ستمتاز الفرصة لهارولد طوال فترة القتال للحصول على مزيد من القوات .

وعلى كل دخل ويليام في مغامرة جسيمة ، وربما يقول البعض أنه دخل « مخاطرة محسوبة » ، وهم يستخدمون بذلك التعبير الذي كان يستخدمه أحياناً الجنرالات الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما لا تسير الأمور في إطار خططهم .

وعلى كل فالمغامرة حتى الآن في صف ويليام ، فقد ساعده الغزو النرويجي والطقس الإنجليزي غير المتوقع ، على تحقيق نزول سهلاً على ساحل إنجلترا الجنوبي ، ولكن على ويليام بعد ذلك أن يثبت مقدرته القيادية بحسابات هادئة مع استخدام البراعة والذكاء .

(١) تقع على بعد ستة أميال شمال هاستنجز بالقرب من المدينة التي تعرف حالياً باسم « باتل » .

« المغرب »

فوجد أن ويليام درس شخصية هارولد جيداً ، لذلك قرر أن يدفعه ليتبع أسلوباً متهوراً وعنيفاً معه ، فقام بتقديم سيوسكس^(١) لأنها من الممتلكات الشخصية لهارولد ومن الطبيعي لن يقف مكتوف الأيدي ويراقب بهدوء المدينة وهي تعاني هذا الدمار وبذلك يتهور ويتبع أسلوباً طائشاً .

في ذلك الوقت قدر ويليام الموقف بالنسبة لهارولد فوجد أن أفضل استراتيجية يتبعها هارولد هي الانتظار في منطقة ملائمة إلى الجنوب من لندن حتى يتم له حشد جميع قواته وفي نفس الوقت يهاجم أسطوله ، السفن النورماندية القابعة في ميناء هاستنجز ويدمرها .

بعد ذلك يحاول استدراج الجيش النورماندي للقتال في منطقة « ويلد »^(٢) والتي يكثر بها الغابات بتحقيق النصر كاملاً ، ومن دراسة ويليام لهارولد علم أنه لن يتبع هذه الاستراتيجية .

ومن الجدير تسجيله هنا ، أن الإنجليز نفذوا هذه الخطة التي قدرها ويليام بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون ، عندما تعرضوا للغزو الفرنسي عام ١٣٨٦ ، وأيضاً في الفترة ما بين ١٨٠٣ - ١٨٠٥ ولم ينجح أى من الغزوين .

شجرة التفاح الغنية

(أنظر اللوحة رقم ١٦)

نعود الآن إلى هارولد ، فوجد أنه قدر الموقف بالنسبة لخصمه ووجد أن ويليام يجب أن يبدأ المعركة بسرعة وإلا سيخاطر مخاطرة جسيمة ، قد تجره إلى كارثة مروعة وطبعاً كان خاطئاً ، بينما كان ويليام تقديره صحيحاً بالنسبة لهارولد وأنه لن يقوم باتباع الاستراتيجية الصحيحة والتي كان من الممكن اتباعها ، بل تصرف تصرفاً طائشاً متهوراً ، فقد زحف بقواته من لندن إلى هاستنجز مباشرة ، وقبل أن يصبح ثلث جيشه قادراً على القتال ولم يحقق المفاجأة التي كان يرجوها ، لأن قوات استطلاع ويليام أبلغته عن هذا التحرك .

(١) لقد دمر ويليام سيوسكس وهذا العمل يعتبر بعيداً عن الأخلاقيات ولكن في نفس الوقت يدل على الدهاء .

(٢) ويلد بين هاستنجز ولندن . « المعرب »

وفي ليلة ١٣ أكتوبر أخذ النورمانديون يصلون ويستعدون للمعركة ، وقبل شروق الشمس فكوا معسكرهم وتقدموا للأمام مسافة ستة أميال إلى « تل تيلهام » والذي يقع في مواجهة « هضبة شجرة التفاح العتيقة » ، وبذلك حقق ويليام المفاجأة على الإنجليز وخاصة أن الكثير من قوات هارولد وصلت إلى المنطقة خلال الليل وكانت متعبة وتغط في نوم عميق ، بينما الكثير من قوات الميليشيا قد وصلت لتوها إلى ميدان المعركة .

ولكي يحافظ ويليام على شرعية القتال ، أرسل مبعوثاً إلى هارولد يطلب منه التفاوض لإجراء تسوية سلمية على أن يتم ذلك خلال إحدى عشر ساعة ، وفي نفس الوقت استغل ويليام الفرصة ليشير بعض أعدائه ويخبرهم بأنهم حرموا من رضى الكنيسة لمعارضتهم غزوه .

وبالرغم من أن عنصر المفاجأة كان في جانب ويليام ، إلا أن هارولد كان يتمتع بإحتلال موقع دفاعي ممتاز^(١) ، بإحتل جيشه الهضبة بالكامل وإقامة « الدرع السائر » بجميع قواته وبمواجهة حوالى سبعمائة ياردة حتى يصبح من العسير على النورمانديين ضرب مؤخرته أو أجنابه ، بينما كانت القوات النورماندية تحتل تل تيلهام ويفصل بين الجيشين الوادي المستنقعي .

وكان تشكيل المعركة كالاتي :- حشد هارولد لوائين من أ كفاً قوات المشاة^(٢) في الوسط ووضع قوات من « الهاوسكارل »^(٣) على جانبي اللوائين بينما وضع قوات الميليشيا على الجناحين وكان يحتل كل مقاتل من قوات المقدمة مساحة قدمين من المواجهة ، أما عمق القوات فكان حوالى عشرة أو إثني عشر صفاً . وكان المجموع السكلى للقوات الإنجليزية حوالى ستة آلاف إلى سبعة آلاف مقاتل . وكان موقف قوات هارولد سيئاً للغاية ، فالكثير منهم أنهكتهم

(١) لقد استطاع هارولد هذا الموقع بنفمه خلال الصيف ، واختار أرض المعركة والتي كانت عبارة عن هضبة تبعد ميل ونصف من هضبة شجرة التفاح العتيقة ، وتحد برفق نحو الجنوب إلى وادي مستنقعي .

(٢) كانت هذه القوات تتشكل من مجموعة « المقاتل » ومجموعة « دراجون ويسكس » وهى من المشاة ذات الكفاءة العالية .

(٣) كانت قوات الهاوسكارل لها شهرة واسعة كمأرقى أنواع المشاة في أوروبا ، لأنها عندما تدخل المعركة وتستنزف عدداً تصمد وتقاتل وهى مملوءة ثقة بالنصر . « العرب »

المسيرة الطويلة من لندن في اليوم السابق للمعركة ، والبعض الآخر لم يعاد تسليحه بالسلح الملائم بعد معركة « كوبرى ستامفورد » ، علاوة على افتقار هذه القوات للرماة التي عاونت وبكفاءة في معركة « كوبرى ستامفورد » ، والتي كان من الممكن أن تحدث الفوضى والدمار بين صفوف الفرسان النورمانديين ، علاوة على أن قوات الميليشيا التي جمعت من الجنوب على عجل لم يكن لديها ما تقايل به اللهم إلا المهرات والعصى والمعاول . ولكن كانت جميع القوات الإنجليزية مؤمنة إيماناً راسخاً بهدف واحد وهو ضرورة طرد هذا الغازي الغادر .

بعد أن اتخذ الجيش الإنجليزي مواقعه في خط المعركة ، قام هارولد بالمرور خلاله مذكراً رجاله بأنه لن يحدث أى عواقب وخيمة طالما حافظ كل منهم على صلابته وتماسك هذه « الدرع الساتر » . . . ولكن دعونا نرى ما حدث .

عظام بايو المقدسة (أنظر اللوحة رقم ١٦)

وفي يوم ١٤ أكتوبر زحف النورمانديون مبكرين من هاستنجز وقسموا قواتهم إلى ثلاثة فرق ، إلى اليسار فرقة البريتانيين^(١) تحت قيادة الكونت آلان (كونت بريتانى) وإلى اليمين فرقة الفرنسيين وبعض المرتقة تحت قيادة أوستاك (حاكم بولونيا) وفي الوسط فرقة النورمانديين تحت قيادة ويليام نفسه ، وكانت كل فرقة تتشكل من ثلاثة خطوط ، في المقدمة حملة الأقواس ثم المشاة الثقيلة ثم الفرسان .

وقد حمل الشعار البابوي في مقدمة الجيش ، وقبل بداية المعركة بمدة قصيرة ارتدى الفرسان دروعهم الثقيلة وبذلك حافظوا على كامل قواهم ونشاطهم حتى اللحظة الأخيرة ، وأخيراً قام ويليام بتعليق عظام بايو^(٢) المقدسة حول عنقه وكان يصحبه في المعركة أخويه (غير الشقيقين) روبرت (كونت ماتين) وأودو (أسقف بايو) ، كما كان يصحبه أيضاً أصدقائه « ويليام جيفارد » و « ويليام ماليت » .

(١) نسبة إلى بريتانى التي تقع في شمال غرب فرنسا .

(٢) عظام رفات جثة القديس بايو .

بدأ النورمانديون تقدمهم من « تل تيلهام » وانتشرت صفوفهم بشكل مستعرض لتغطية الخط الإنجليزي بالكامل وكان يسير في مقدمة الجيش على أنعام قيثارته المغني « تيليفر » ملوحاً برمحه من فوق حصانه منشدًا « أغنية رولان » وظل كذلك حتى لقي مصرعه .

بدأ أول هجوم حقيقي حوالى الساعة التاسعة ، ومع إزدياد اقتراب النورمانديون بدأ رماتهم في إطلاق سهامهم ، ولكن معظمها كان ينطلق إلى أعلى القل ويمر من فوق رؤوس الإنجليز أو تصدها دروعهم ، وعلى الفور تولت المشاة الثقيلة الهجوم ، ولكن كانت مقاومة الإنجليز في غاية الصلابة ولذا نجحوا في صد هم .

وقد وصف ويليام^(١) هذه المعركة : — « لقد تلاشت صيحات الجانبين بين صليل الأسلحة .. وصرخات الموت .. »

واشتعلت المعركة إلى أقصى عنفها .. وأغتنم الإنجليز فرصة موقعهم القوي وحافظوا على تماسك جبهتهم وصدوا ببسالة ونجحوا في صد القوات التي أشتبكت معهم من مسافات قريبة .. »

وفي الحقيقة فشل هجوم الرماة والمشاة الثقيلة النورماندية على درع الإنجليز الساتر ، وقد أصيبت المشاة والفرسان البريقانية بالذعر وتشتتوا هاربين ، ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى بات ظاهراً أن جيش ويليام يحقق به خطر الانسحاب .

وأصبح الجيش الإنجليزي في أمان طالما الدرع الساتر ظل متماسكاً ، ولكن بعض جنود الميليشيا الجدد الموجودين على الجناح الأيمن تركوا مواقعهم بدون أوامر بطاردة فلول الفرسان البريتانية المنسحبة أسفل المنحدر^(٢) ومن الطبيعي عندما تقوم المشاة المترحلة بطاردة القوات الراكبة ، فهذا يعنى كارثة محققة لها .

في ذلك الوقت فقد ويليام جواده وارتفعت الصيحات تقول ، بأنه قد قتل ، ولكنه على الفور إمتطى جواداً آخر بسرعة وأظهر نفسه بين رجاله وأعاد أحكام قبضته على المعركة ، وقد نتج عن هذه المطاردة أن تصدع جزء من الجناح الأيمن للجيش الإنجليزي ، إلا أن

(١) لم يكن هذا الدوق ويليام الفاتح ، بل ويليام من بواتييه .

(٢) لم يكن من المعقول أن يصدر هارولد أوامره بالهجوم المضاد في تلك المرحلة المبكرة من المعركة

بأبقي الجناح الأيمن ظل صامداً وبقوة . وعلى أرض الوادى الرخوة ، بدأت المشاة التى تقوم بالمطاردة فى الترنج والاضطراب ، فى ذلك الوقت أخذ ويليام يحشد فرسانه وقام بهجوم جديد بهم ، واستمرت الهجمات المضطربة لعدة ساعات^(١) .

الخطبة البيزنطية القديمة

لقد لعب ويليام دوراً بارزاً فى القتال ، وقتل تحته أكثر من جواد ، بينما لم يصب هو بأذى ، وطبقاً لما ذكره ويليام : — « لقد سيطر ويليام على المعركة ، وأخذ يرفع الروح المعنوية لرجاله ويقاسمهم أخطارهم ، بينما قاتل الإنجليز بثقة وبكل قوة وناضلوا باستماتة لمنع المهاجمين من اختراق صفوفهم ، تلك الصفوف التى كانت متقاربة ومتلاصقة لدرجة أن من يصرع منهم لم يوجد له مكان ليسقط فيه » .

وكما قال ويس : — « ظل كل منهما صامداً بقوة ويقاوم بطريقة يصعب معها أن يخمن المرء من منهما سيكون له الغلبة فى النهاية » ومع انتصاف النهار ، قرر ويليام استخدام الخداع متذكراً ما حدث فى الصباح عندما انسحبت قواته البريتانية مما أدى أن القوات الإنجليزية قامت بمطاردتها وتفكك الجناح الأيمن للجيش الإنجليزي وفقد تماسكه ، لذلك قرر القيام بانسحاب مخادع على الجانب الآخر . وكانت هذه فكرة بيزنطية قديمة ، وقد نجحت نجاحاً باهراً ، فعظم الجناح الأيسر الإنجليزي وطبعاً بدون أوامر من هارولد هبطوا المنحدر إلى أسفل الوادى فى مطاردة لهذا الانسحاب المخادع ، وعندما وصلوا إلى وسط الوادى استدارت الفرسان النورماندية وانقضوا عليهم فى هجوم وحشى كانت له آثار بعيدة . فى ذلك الوقت ظلت قوات الوسط من الهاوسكارل وجزء من الجناح الأيسر صامدة فى أماكنها كالحائط الصلب التماسك .

وعند الغروب ، كان التعب قد أصاب الفرسان النورماندية علاوة على خوفهم من الفئوس الإنجليزية القاتلة . ومرة أخرى ظهر ويليام أنه قائد واسع الحيلة والدهاء ، فقد قرر دفع رماة

(١) كان فرسان القرن الحادى عشر لا تهجم فى حشد كبير متماسك ، بل يركبون إلى خط القتال فى مجموعات أو فرادى وأثناء القتال يستخدمون الرماح أولاً ثم السيوف والفئوس والمقارع من المسافات القريبة . « العرب »

التي فشلت في الصباح بعد أن استعادوا نشاطهم وحيويتهم إلى القتال مجرباً نوعاً آخر من الهجوم . فقام ويليام بوضع رماته وتوزيعهم على خط طويل مرن وبه عدة ثغرات حتى تستطيع الفرسان المرور منها . تقدم هذا الخط بسرعة صاعداً إلى أعلى الهضبة التي بها قوات الإنجليز بينما تسير الفرسان خلفه وبسرعة متوسطة تتلاءم مع سرعة المشاة ، وتوقف الرماة على بعد مائة ياردة من الخط الإنجليزي وأخذوا يطلقون سهامهم في اتجاه رأسى نحو السماء وبالتالى تساقطت هذه السهام كالطر فوق القوات الإنجليزية . وكما يقول ويس : — « كانت القوات الإنجليزية خائفة من فتح أعينهم أو رفع أيديهم التي تغطى وجوههم » . وبعد ثوان من الاضطراب والرعب الذى أحدثته سهام الرماة في القوات الإنجليزية شن الفرسان هجومهم مارين خلال الثغرات الموجودة بين رماتهم ، ولكن الإنجليز دافعوا باستماتة ، إلا أن الجناح الأيسر للإنجليز أخذ يتصدع أمام القوات البولونية تحت قيادة أوستاك .. وأخيراً بدأ كل الدرع السائر في التمزق ، ولذا الكثير من الميليشيا بالفرار ، أما قوات الهاوسكارل الإنجليزية فقد انسحبت بطريقة منظمة إلى أن انطلق ويليام في مطاردتهم وتمكن من بعثهم ، وعندما عاد إلى ميدان القتال بعد حلول الظلام وجد جثة هارولد عارية وممزقة ويصعب التعرف عليها .

المعركة التي غرت مجرى التاريخ الإنجليزي

والآن سوف نناقش باختصار القيادة لكلا الجانبين في هذه المعركة ، ففي رأي أن هارولد كان في إمكانه هزيمة ويليام مع إلقائه هو وجيشه في البحر ، وكان من المفروض تنفيذ هذه الإستراتيجية بأسرع ما يمكن ، ولكن كان غير ممكن تنفيذها تكتيكياً بهذه الإمكانيات التي جهزت على عجل وبدون تخطيط محكم ومسبق . وقد سار هارولد وراء إستراتيجية غير حذيمة ودقيقة ، فنتج عن ذلك أن جميع خططه كانت مملوءة بالأخطاء ومعرضة للنقد ، ومن ذلك فلم يكن حكيماً في ترك الساحل الجنوبي بدون حراسة أو حتى مراقبة ودفع جميع قواته شمالاً إلى يورك ، وأكثر من ذلك أنه لم يحسن إستخدام القوة البحرية بعد أن زودت بالئون وتم إصلاح الأعطاب التي أصابها من عواصف شهر أغسطس ، فكان عليه أن يدفع أسطوله ليهدد سفن ويليام الراسية على الشاطئ وكان هذا كافياً ليشير الاضطراب ويخفض الروح المعنوية للنورماندين ، وخاصة إذا تم ذلك في الوقت المناسب ، وعلى سبيل المثال عندما كان جيش هارولد يقترب من قوات ويليام . ويمكن القول بأن هارولد أتبع إستراتيجية

لا تلامه بل تلائم ويليام ، وكان ويليام يحركه ويجعله يرقص على نغماته . وعلى كل كان ويليام القائد الأفضل والأكثر خبرة من هارولد وكان بدون شك محظوظاً ولكنه جسوراً ... والجسارة تستحق الحظ . وقد أكمل ويليام فتح إنجلترا بعد انتصاره في معركة هاستنجز ، وهذه المعركة غيرت مجرى التاريخ الإنجليزي .. وكان هذا التغيير إلى الأفضل .. فقد كان لدى النورماندين الكثير ليقدموه إلى إنجلترا .

وقد تم تتويج ويليام الفاتح في كنيسة ويستمنستر يوم عيد الميلاد ، وأصبح مسئولاً من ذلك الوقت عن إنجاز أعمال كثيرة في إنجلترا بعضها كان قاسياً ، ومنها على سبيل المثال إخضاع إكستر وغزو الشمال ..

وقام النورمانديون من المحاربين والإداريين ورجال الدين والتجار بتكملة الفتح بكل حماس ، وبذلك اختفى العنصر الاسكندنافي من الحياة الإنجليزية ، وبدأ يرتبط تاريخ وحضارة إنجلترا بتاريخ وحضارة فرنسا ، وأصبحت إنجلترا تخضع تماماً للنظام الإقطاعي ، لصالح الملك أولاً ثم للأمراء النورمانديين ثانياً .

وفي القرن الثاني عشر أصبحت الإمبراطورية النورماندية أعظم قوة في أوروبا ، ووصلت إلى ذروتها في عهد هنري الثاني عندما أصبحت تمتد من اسكتلندا وإيرلندا خلال إنجلترا وغرب فرنسا إلى جبال البرانس على الحدود الأسبانية . ولكن في عام ١٢١٤ تسببت حماقة أبناء هنري (ريتشارد وجون) في انهيار الإمبراطورية في معركة بوفين عندما انتصر عليهم فيليب أغسطس^(١) ، وقد لحقت الهزيمة والعار بالملك جون (ملك إنجلترا) مما أدى في النهاية أن تمرد فرسانه عليه .

قلاع • الموت

إذا ألقينا نظرة على المجتمع النورماندي إبان منتصف العصور الوسطى ، سنجد أنه كان مقسم إلى ثلاث طبقات ، كما كان الحال في جميع المجتمعات الأوروبية .

١ — المقاتلين . ٢ — الرهبان . ٣ — العيال والفلاحين .

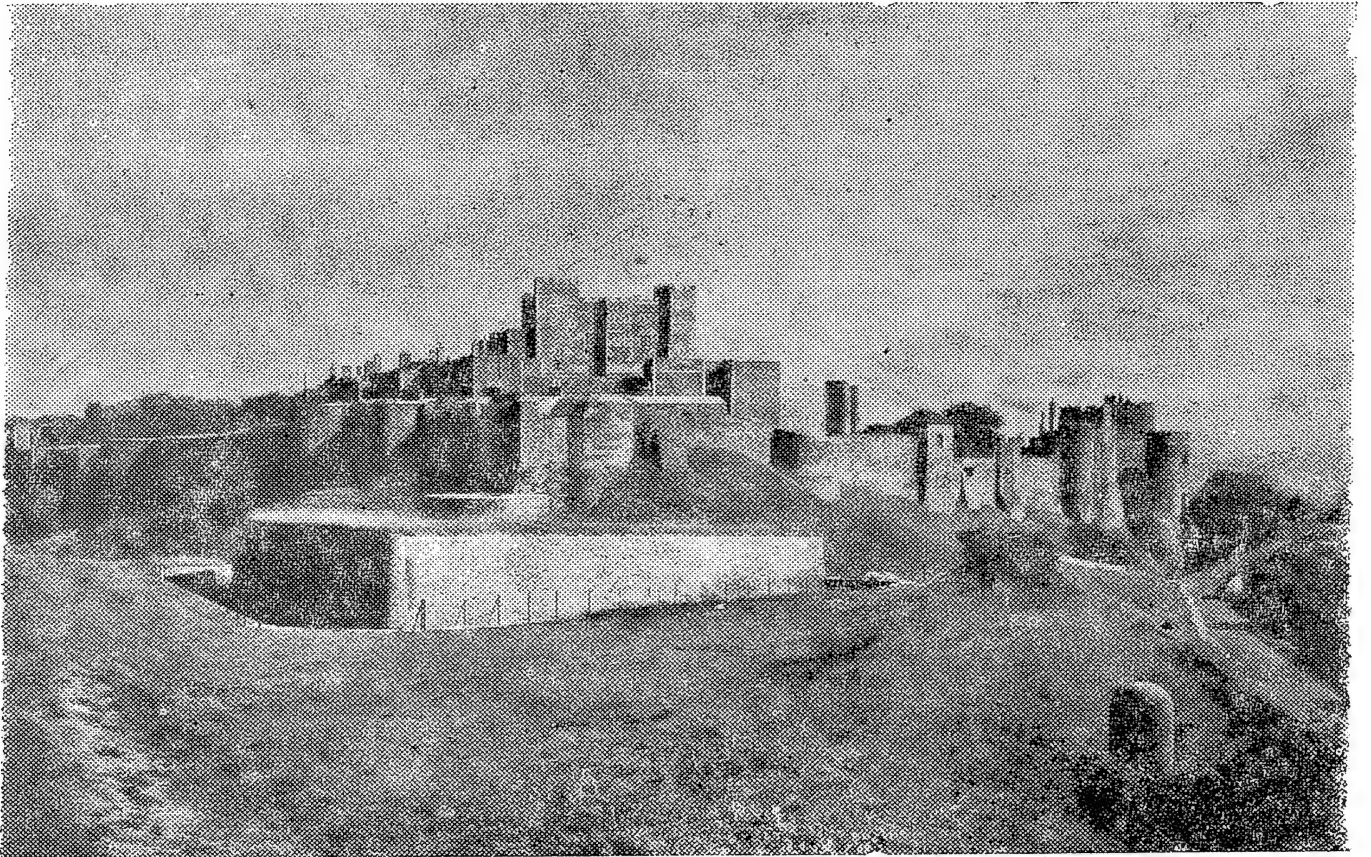
وكانت الطبقة العسكرية تتبع سياسة دفاعية وتعتمد اعتماداً كاملاً على القلاع التي ترمز

إلى قوتهم ، وكان هذا من الملامح الرئيسية للحكومة الإقطاعية ، ولذلك تطور فن هندسة المباني العسكرية تطورا كبيرا فيما بين الأعوام ١٠٠٠ — ١٣٠٠ ، ولكن لم يكن هناك تطورا مماثلا في مجال الأسلحة الهجومية وأساليب فن الحصار ، فقد أصبح الدفاع هو الأسلوب المميز للحرب في هذه الحقبة من الزمان ، وأصبح الهجوم في المرتبة الثانية ، والمعارك الهجومية الضارية واسعة النطاق أصبحت نادرة الحدوث . وكانت القوات تفضل البقاء آمنة داخل التحصينات القوية بدلا من المخاطرة والقتال في الأراضي المفتوحة . وكان الحكام الذين يمتلكون قلاعاً كثيرة مثل معظم ملوك إنجلترا يصبـحون في مركز القوى ، أما الحكام الذين لم يستطيعوا منع البارونات من امتلاك قلاع مستقلة ، كانوا معرضين دائماً لمتاعب جمّة ، مثل معظم الأباطرة الألمان .

وفي القرن الثاني عشر ، لم تحقق المفاهيم التكتيكية سوى تقدما ضئيلا ، ومن دواعي الفشل الخيب للآمال أن تطبق الدروس المستفادة خلال الحرب العظمى في الشرق على القتال الذي دار في الغرب بالرغم من اختلاف كل منهما اختلافا تاماً . وعلى كل كان ينشب على فترات معارك ذات صبغة سياسية بارزة ، مثل الانتصارات التي حققها هنري الأول (ملك إنجلترا) في تنشيري عام ١١٠٦ ، وعند بريمول عام ١١١٩ ، ولكن في الحقيقة فن الصعب أن يطلق عليها اسم « معارك » لأنها لم تكن أكثر من مجرد اشتباكات قصيرة لبضع مئات من الفرسان ولذلك لم يتأثر المؤرخ العسكري بما سمي « بالمعارك » ، بقدر ما أثر فيه معارك الحصون والقلاع .

وقد ازدهرت من جديد في كل من فرنسا وإنجلترا بناء التحصينات الخشبية وأعمال الحفر كأفضل استراتيجية ضد الفايكنج ، وقد أقيم معظمها فوق بقايا التحصينات القديمة . ولكن مع منتصف القرن الحادي عشر طور النورمانديون الحصون ، وقدموا لأوروبا طرازاً جديداً وهي القلاع المسورة أو قلاع الموت ، كانت في أول الأمر تحاط بخندق وتطور بعد ذلك الى حاجز دفاعي محاط بسور من الأعمدة الخشبية المتلاصقة والمثبتة في الأرض . وكان للقلعة فناءين أحدهما معد للخدمة وأمناء مستودعات الإمداد حيث يوجد الخبز وحظائر الدجاج والأسطبلات والورشة ، أما الفناء الثاني معد لجنود الحامية ومن حوله توجد غرفة الحرس ومستودع السلاح .

وفى مركز القلعة يوجد حصن وهو عبارة عن برج ضخيم ، ويعتبر الحصن الأخير للصمود اذا هوجمت القلعة ، ويعتبر المقر والمعقل للبارون وعائلته وأتباعه . والمدخل الرئيسى للقلعة عبارة عن كوبرى متحرك من الخشب بعرض الخندق ، ويمكن سحبه الى الخلف بواسطة المدافعين عن القلعة . وفى القرن الحادى عشر ، كانت معظم تحصينات القلاع من الخشب ، ولكن كان يوجد بعض الإستثناءات ، وعلى سبيل المثال تم استخدام الحجارة بدلا من الأخشاب عند إقامة القلعة عند برونى فى نورماندى . وقد إزداد بعد ذلك استخدام الحجارة لبناء القلاع لأن مصادر الأخشاب قد قلت علاوة على أن الخشب كان دائماً معرضا للحريق ، وأكثر من ذلك أن الأمراء استخدموا الحجارة طموحا منهم ورغبة فى أن يكون لديهم قلاعا قوية حصينة .



قاعة دوفر

برج لندن

ومنذ نهاية القرن الحادى عشر أصبحت القلاع الحجرية أكبر وأكثر تعقيداً ، وتعتبر قلعة تامورث مثالا للقلاع الحجرية الأولى التى كانت تعرف باسم (القلعة الصدفية) ، وقد

بنيت فوق هضبة محاطة بسور دائري ومزودة ببرج مربع الشكل في جزءه الشرقي . وفي القرن الثاني عشر حل طراز آخر أكثر أحكاماً من القلاع ، وهو « الحصن المستطيل » محل « الطراز الصدفي » . وكان يبنى على أرض مستوية صلبة وليس فوق تل أو هضبة ، ومنها « برج لندن » الذي لا يزال قائماً حتى الآن ، وقلعة كورف التي دافعت عنها ليدى بانكس وجنودها أكثر من ثلاث سنوات ضد جيش كرومويل وقذائفه عام ١٦٤٠ . وكانت القلاع المستطيلة تبنى بطريقة غاية في الضخامة مثل قلعة دوفر التي شيدت عام ١١٨٠ ، بحوائط إرتفاعها ٨٣ قدماً ومزودة بأبراج يرتفع كل منها ١٢ قدماً أخرى ، والحوائط مقواة بدعامات (أكتاف) بسمك ٢٠ قدماً ، وكان هناك ثلاثة أبراج أخرى لتدعيم المبنى الأمامي للقلعة . ويوجد قاعتين رئيسيتين كبيرتين في الطابق الثالث ، وكنيسيتين صغيرتين في الفناء الخلفي وبر عمقه ٣٥٠ قدماً حيث تنقل منه المياه إلى جميع القلعة خلال أنابيب من الرصاص .. وهذه القلاع المستطيلة كانت جوانبها معرضة دائماً للهجوم سواء من آلات تحطيم الأسوار (الكباش) أو بقصفها بقذائف المنجانيق ، فكان العدو يركز هجومه على جانب واحد فقط لأنه يعلم أن زوايا السور سوف تحميه من المدافعين على الأجناب الأخرى للقلعة المستطيلة وكانت هذه نقطة ضعف خطيرة ، أمكن التغلب عليها ببناء أسوار دائرية أو حوائط متعددة الزوايا وبذلك يمكن الحد نسبياً من هذا الخطر .

ومع منتصف القرن الثاني عشر تغير شكل القلعة ومثال لذلك قلعة هودان في فرنسا والتي بنيت حوالي عام ١١٣٠ فكانت مربعة الشكل من الداخل أما أسوارها فكانت دائرية من الخارج مزودة بأربعة أبراج بارزة ومستديرة .

ويوجد في السور الخارجي الدائري فتحات محفورة وأيضاً فتحات أخرى في الأبراج لإطلاق السهام ، وكانت هذه الفتحات أكثر فاعلية من الشرفات المفتوحة على أسوار الحصون ، لأن المدافعين عن القلعة كانوا يطلقون قذائفهم على العدو في الخارج من هذه الفتحات في نفس الوقت لا يستطيع العدو رؤيتهم مع توفير الحماية للمدافعين . وكانت هذه الفتحات في طورها المبكر عبارة عن شقوق طويلة ، ولكنها أصبحت فيما بعد تحفر على شكل صليب لتتيح للرامي مجالاً أفقياً أوسع .

وفي نهاية القرن الثاني عشر ، إزدادت قوة كل من القوس وآلات قذف الحجارة ، وقام المهندسون العسكريون بالرد على ذلك ببناء ستار أضخم من الأسوار ومضاعفة المساحات التي تطوقها تلك الأسوار ، وتضاءلت بالتالي أهمية الحصون والإستحكامات ، ومثال لذلك قلعة « شاتوجيلارد » التي أكلها ريتشار الأول ملك إنجلترا عام ١١٩٨ والتي تضم جميع الخصائص المميزة لأفضل أساليب التحصينات لذلك العصر .

وقد أختيرت هضبة شديدة الانحدار يبلغ إرتفاعها ٣٠٠ قدم فوق مستوى نهر السين لتشييد هذه القلعة وكان لها ثلاثة^(١) أفنية متدرجة مع سفح الهضبة وأقيمت كلها في الإتجاه المحتمل الهجوم منه .

كان الفناء الداخلي يحيط بالبرج الرئيسى المقام على أعلى حافة الهضبة ، ويطل جزء منه على المنحدر الشديد أما الجزء الآخر فيطل على الفناء الداخلي وكان هو الجزء الوحيد المعرض للهجوم ولذلك قوى بحائط سميك على شكل حرف ٧ مثل مقدمة السفينة حتى تنحرف القذائف بسبب الميل الحاد للجدران ، وكانت الدعامات المبنية تحت الأسوار تحمى المدافعين من أعمال الحفر التي يقوم بها العدو للوصول إلى داخل القلعة ، وكانت فتحات الرماة الموجودة في السور يوجد أسفلها كوة لحماية السور من محاولة العدو تحطيمه وفي نفس الوقت يلقوا من عليها المدافعون بكتل القار الملتهب والقذائف فوق رؤوس المهاجمين أسفلهم . وكان يفصل بين الأفنية خندق مائى وحائط سار ، وكانت الحوائط الساترة للفناء الخارجى والأوسط مدعمة بأبراج بارزة دائرية ، أما الفناء الداخلى فزود بسلسلة متعاقبة من النتوءات البارزة ، والتي تؤدي وبطريقة أفضل نفس عمل الأبراج ، لأنها تمكن المدافعين من تغطية كل الأسطح خارج السور وفي جميع النقط .

النساء تأكلن أطفالهن

نجد أن معظم عمليات الحصار العديدة التي تمت في العصور الوسطى لم تنجح ، باستثناء حصار فيليب أغسطس لقلعة « شاتوجيلارد » والإستيلاء عليها في الفترة ١٢٠٣ — ١٢٠٤ ، وهذا المثال سيعطينا صورة واضحة لأساليب الحصار التي كانت تستخدم في ذلك العصر ، وأنها تحتاج إلى عبقرية فذة لفجاح مثل هذه العمليات الضخمة .

وإذا ألقينا نظرة على أسلحة وأدوات وأساليب الحصار منذ سقوط الإمبراطورية

الرومانية لوجدنا أنها بقيت كما هي وبدون تغيير جوهرى ، وأقصى ماوصلت إليه لم يتجاوز بعض المزيد من القوة ، وكانت تتمثل فى الكباش وأبراج الحصار^(١) وسلام التسلق والسقيفات^(٢) والساتر المتحرك^(٣) وآلات رمى القذائف ، وكانت هذه القذائف عبارة عن أحجار أو سهام « مزودة بريش فى مؤخرتها » أو أعمدة خشبية أو قذائف نارية أو حتى كتل الجيفة^(٤) . وكانت هذه الآلات يبدأ حجمها من المنجانيق الصغير الذى يصنع من جذوع الأشجار إلى قوس النشاب ، ولكن هناك شك كبير أن هذه الآلات فى العصور الوسطى كان لها نفس قوة وفاعلية الآلات الرومانية . وقد ظل أسلوب الإستيلاء على القلعة يتركز فى محاصرة وقصف الأسوار وأحداث المجاعة فى الداخل مع إستخدام أسلوب الخداع . وقد أثبت لنا التاريخ أن أسلوب أحداث المجاعة كان أقوى أسلحة الحصار . وسنأخذ مثالا لذلك حصار فيليب أغسطس لقلعة « شاتوجيلارد » الذى بدأ فى نهاية صيف عام ١٢٠٣ ، وكان الملك جون ، ملك دوقية نورماندى الإنجليزية يعتبرها الدفاع الرئيسى له ، وكانت خطة فيليب أن يضعف حامية القلعة أولا بواسطة المجاعة ، ولذلك قام جيشه بحفر خطين من الخنادق لعزل الحامية عن النهر ، كما شيد أبراجاً خشبية على مسافات متباعدة بين الخنادق ، وأدى هذا أن نشاط القلعة أخذ يقل ببطء وبعد مرور ثلاثة أشهر بدأت المؤن تنفذ من القلعة ، فأرسل قائدها « روجردى لاس » ١٤٠٠ امرأة وطفل ورجل عاجز إلى خارج القلعة ، ولكن الفرنسيون رفضوا السماح لهم بالمرور فى نفس الوقت لم تستطع حامية القلعة أعادتهم إليها مرة أخرى خوفاً من الخديعة ، مما أدى أن هؤلاء المنكوبين أجبروا على قضاء شتاء قاسى بين القلعة وخطوط الفرنسيين ، بدون أى طعام أو مأوى ، فأضطروا إلى أكل كلابهم أولا وعندما نفذت الكلاب ، أكلوا أطفالهم .

وفى ربيع عام ١٢٠٤ بدأ فيليب هجومه الرئيسى على القلعة مستخدماً آلات ضخمة

(١) كان يطلق على الأبراج فى ذلك الوقت اسم « بيفرواس » .

(٢) كانت عبارة عن حجرة أعلى برج الحصار ومكتظة بالجنود .

(٣) حاجز وفئى متحرك يحتوى به الجنود الذين يحاصرون القلعة ضد القذائف المنهورة عليهم

ويطلق عليه « مانتليت » .

(٤) أجسام الحيوانات الميتة المتعفنة ويطلق عليها « كاريون » . « المغرب »

لرمى المقذوفات وأيضاً أبراج الحصار . وقوبل قصفه الأولى برد عنيف وبقذائف ممائلة من جانب المدافعين . وكان الأسلوب التكتيكي التي سيتبعه الفرنسيون بعد ذلك هو قصف وتدمير البرج البارز من الفناء المسور الخارجى وقد تم بنجاح ، وأندفعوا بعدة إلى الفناء المتوسط . وكان يوجد أمام الحائط لجانب القلعة الجنوبي بناء يحتوى على دورات المياه فى الطابق السفلى وفوقه كنيسة صغيرة ، وبعملية بحث على طول الخندق المائى عثر أحد الجنود الفرنسيين على نهاية المصرف الآتى من دورات المياه وزحف الجندى من خلال الأنبوبة ليخرج مباشرة تحت نافذة الكنيسة ، وبواسطة حبل أمكنه رفع بعض زملائه ، الذين إندفعوا إلى داخل الكنيسة وهم يصرخون عالياً ، وقد صعقت أفراد الحامية الضعيفة من هول المفاجأة ، ولم يبدووا سوى مقاومة ضئيلة ثم تراجعوا إلى الفناء المسور الداخلى . وبدأ الفرنسيون الآن فى تقويض حائط السور الأخير .

وردت الحاملة بإندفاعها نحو القوات الفرنسية حيث قاموا بطردهم إلى الخارج ، ولكن كانت قاعدة السور قد ضعفت الآن كثيراً . ، وماهى إلا بضع ضربات من المنجانيق القوى حتى تصدع السور وإندفع الفرنسيون من خلال الفجوة التي أنهارت من السور . وبعد قتال طويل ضار إستسلمت الحامية .

وبعد سقوط قلعة « شاتوجيلارد » أصبح من الممكن القول بأن الملك جون قد فقد نورماندى .

الحرب المقدسة

والآن فعلينا أن ندرس الحملات الصليبية ، فى عام ١٠٧١ وبعد هزيمة البيزنطيين النكراء فى ملاز كرت ناشد الإمبراطور الكسيوس الأول البابا مساعدة الغرب . ولكن حتى عام ١٠٩٥ لم يكن ممكناً للبابوية أن تستطيع تحويل إهتمامها بدرجة كافية عن نزاعها مع الإمبراطور الألماني لكي تستجيب للإمبراطور البيزنطى . . وفى ذلك العام دعا البابا أربان الثانى إلى إجتماع المجلس فى كليرمونت ووجه نداءه إلى أوروبا : — « لقد لحق العار بكل العالم المسيحى بعد إنتصار المسلمين فى الشرق ، وتدنس الأرض المقدسة العزيزة على كل قلوب المسيحيين والتي هى بحق ملك للمسيحية ، ومن الواجب انقاذ الأرض المقدسة

وأيضاً المدينة المقدسة بإزالة العار الذى لحق بالمسيحية ، وبالتالى ، فعلى الملوك المسيحيين أن يوجهوا أسلحتهم نحو هؤلاء أعداء الله بدلاً من أن يشن الواحد منهم الحرب على الآخر كما يفعلون دائماً .. وعليهم الآن أن يضعوا جانباً تأنيب العالم المسيحى ويبدأوا فى تحطيم قوة الهجوم الإسلامى .. والحرب التى أدعواكم إليها هى حرب مقدسة ولتكن صرخة المعركة « تلك أرادة الله » وهؤلاء الذين يفقدون أرواحهم سينعمون بالجنة وستمضى عنهم جميع خطاياهم » .

وقد تقرر أن يبدأ الجيش المسيحى تحركه فى يوم رفع المسيح إلى السماء فى العام التالى تحت قيادة أدهمار أسقف لبوى ، ولكن لم توضع خطط مفصلة فإلرب سوف يوفرها .

ولقد كانت هناك إستجابة هائلة لنداء البابا .. وفى عام ١٠٩٦ أرسلت فرقاً من جميع أنحاء أوروبا الغربية إلى الأراضى المقدسة عدا ألمانيا التى كانت غارقة فى حرب أهلية . وقادا كل من ريموند (كونت طولوز) وأدهمار أكبر قوة ، وخرجت من جنوب فرنسا .

بينما قادا كل من هوج^(١) وروبرت^(٢) القوة المشتركة من شمال فرنسا . ومن منطقة الراين خرجت قوة ثالثة وقادها جدفري (دوق اللورين الأدنى) وأخوه بالدوين ..

كما خرجت قوة رابعة من جنوب إيطاليا يقودها بوهمند (ابن روبرت جيسكارد) ومعه ابن عمه تانكرد .

وفى أواخر ربيع عام ١٠٩٧ عبر البوسفور مابين ٢٥٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ جندى صليبي .

لقد كان هناك أسباباً عديدة للاستجابة إلى الحركة الصليبية ، فمنذ ١٠٠ سنة وربما

(١) كونت فرماندروز وشقيق ملك فرنسا .

(٢) دوق نورماندى ابن وليم الفاتح . «المرب»

أكثر أخذ تعداد السكان في غرب أوروبا في الإزدياد .. ولم يعد الإنتاج الزراعى قادراً على مسايرة ذلك الإزدياد ، ووصل القلق الناتج عن ذلك إلى ذروته بعد مجاعة عام ١٠٩٤ ، وأكثر من ذلك فقد تحدد عدد قطع الأرض التي يمكن تقديمها كمتلكات إقطاعية . وزاد استياء وضيق الأبناء الشبان لطبقة النبلاء من هذا الموقف وأحسوا أنهم يريدون المغامرة للاستيلاء على أرض جديدة مع تطلعهم إلى حياة تمنحهم الإثارة بدلاً من الملل الذي يعيشون فيه ، وتطوع الفلاحون أملاً في كسب حريتهم من العبودية المفروضة عليهم . ورأى الكثير من الآخرين ، وعلى الأخص تجار البندقية وجنوا فرصة سانحة لتحقيق الربح التجارى الذى سيأتى إما من تفكك الإمبراطورية البيزنطية أو من بيع الإمدادات للجيش الصليبية .

ولكن الحافز الأول للأجيال الأولى للصليبيين كان بدون شك حافز الدين ، ولقد شهد القرن ١١ عودة الحياة إلى الرهبانية والبابوية والحج . وفى القرن ١٢ تغلغل هذا الحماس الدينى خلال السواد الأعظم من أهل أوروبا . وأوجد الشعور بأن أعداء المسيحية يدنسون الأرض التى شاهدت حياة المسيح حماساً متقدماً للحرب الصليبية بالإضافة إلى أنها كانت فرصة للحج إلى الأراضى المقدسة .. وقد تبلور هذا الشعور فى الأنشودة التى كانت رمزاً للحملة الصليبية الثانية .

« لقد حدد الرب لك يوماً تكون فيه عند الرها .. وهناك فلن ينجو من الخاطئين إلا من سيضرب بقوة ، ويخدمه حيث يطلب منه الخدمة » .

ولقد كانت طريقة القديس برنارد فى تجنيد المتطوعين الجدد هى أن يعظ فى صوت مدو قائلاً « إني أخبركم ... والرب يختبركم » .

ومنذ عهد شارلمان ازداد ارتباط الحروب الأوروبية بالعقيدة الدينية وتلوّثها بالحيرة والشك .

وقد نشبت أكثر من معركة فى عصر الكارولنيجيين فى جو غريب من الإثارة الدينية .

الحملة الصليبية الأولى

(أنظر اللوحة رقم ١٧)

لم تكن « معاهدة الرب » سوى محاولة تؤيدها الكنيسة من مدة طويلة لتنظيم والحد من أعمال السلب والنهب في الحروب ولحماية النساء والفلاحين ورجال الدين والحجاج بالإضافة إلى المزارع والمباني . وظهرت هذه المعاهدة في أول الأمر في جنوب فرنسا عام ٩٩٠ وكان يؤيدها نظام الرهينة ذو النفوذ القوى . وفي عام ١٠٢٧ حرم المجمع السكيسى في إلن كل الحروب في عطلات الأسبوع . وفي عام ١٠٤٢ أدخل ويليام تلك المعاهدة إلى نورماندى ثم حملها النورمانديون بدورهم إلى كثير من أجزاء أوروبا ، وألقت المجلس البابوى الفكرة ، وقرر بعد عدة إجتماعات وضع تنظيمات وتعليمات مفصلة ومتقنة . وعلى سبيل المثال في القرن ١٢ قرر الذين قبلوا الهدنة عدم القتال في ثلاثة أرباع العام وذلك خوفاً من أن تحرمهم الكنيسة من رضاها ولكنها لم تكن في مجموعها سارية إلا في المناطق التى للكنيسة سلطان عليها .

وعلى كل لم تكن هذه المعاهدة ذات تأثير واسع النطاق ، إلا عندما أصبح الملوك على درجة كافية من القوة لفرض ما يقررونه في سبيل السلام ، وبذلك أصبحت جهود الكنيسة ذات شأن عظيم .

وقد نجحت الحملة الصليبية الأولى ، بالرغم من عدم وجود علاقات طيبة مع البيزنطيين ولكن هذا النقص لم يياسهم . وتقدم الصليبيون عبر آسيا الصغرى حيث قاسوا في صبر وجلد هائلين عناء الجوع والعطش ، نتيجة لعدم كفاءة نظام الإمداد . وبعد هزيمة الأتراك عند دور دوريلارم استولى الصليبيون على أنطاكية في يونيه عام ١٠٩٨ وهناك أصيبوا بالدوسنطاريا كما حاصرهم الأتراك . وفي ذلك الموقف الحرج ترك القادة الصليبيون منازعاتهم وتناسوا منافساتهم واختاروا من بينهم قائداً عاماً للقوات الصليبية وهو بوهمند . وكما يقال ، فقد دب فيهم النشاط والحيوية وعادت إليهم القوة بأكتشاف الرمح المقدس ^(١) . وعلى

(١) يقال أن هذا الرمح الذى نفذ من جنب المسيح . . . « المورب »

الفور خرجوا من حصارهم وهاجموا الأتراك يعلونهم القديس سان جورج وبعض القديسين الآخرين الممتطين جيادا بيضاء فاستطاعوا هزيمة الأتراك . وفي أوائل يناير ١٠٩٩ واصل الصليبيون تقدمهم نحو بيت المقدس . وفي يولية وبعد حصار دام خمسة أسابيع استولوا على المدينة ، وذبحوا جميع سكانها ، وبشكل عام لم يقابل الصليبيون حتى ذلك الوقت بمقاومة فعلية من المسلمين ، فقد كان من حسن حظهم أن أعدائهم المسلمين كانوا منقسمين على أنفسهم كما أنه في ذلك الوقت ، كان خليفة مصر الفاطمي والذي يتبعه بيت المقدس ، يخشى أن يهاجمه الأتراك السلاجقة .

الرهبان المحاربين

وبعد أن أنهى الصليبيون مهمتهم بنجاح ، تحتم عليهم الدفاع عن الأراضي المقدسة ، ولكن الكثير من قادتهم ومعهم أتباعهم تركوا الجيش الصليبي الرئيسي ، وأعلن بوهمند نفسه أميراً على انطاكية ، بينما منح البعض الآخر أنفسهم لقب كونت وعينوا أنفسهم كونت للرها وطرابلس ، وفي عام ١١٠٠ أصبح بولدوين ملكاً على القدس . وفي الحقيقة كانت هذه الولايات اللاتينية كما كانت تسمى ضعيفة وخاصة في الدفاع عنها نتيجة لعودة الجزء الأكبر من الفرق الصليبية إلى بلادها بعد انتهائهم من حج بيت المقدس ، ووجد بولدوين نفسه مسئولاً عن الدفاع عن بيت المقدس وليس معه سوى ٣٠٠ فارس فقط . ولم يجر تدعيم واستكمال الجيوش الصليبية بالمرتزقة إلا بعد الحملة الصليبية الثانية . وفي المراحل الأولى جرى شراء الدعم والمعاونة من الأسطول البندقي والجنوى للمحافظة على المدن الساحلية وإبقاء الإمداد مفتوحاً إليها . وقد زاد عدد الجيش الصليبي بعد إنشاء نظام الرهبان المحاربين ، وهم فرسان مستشفى القديس يوحنا (عام ١١١٣) وفرسان المعبد (عام ١١١٩) .

وقد أنشأ نظام فرسان المعبد^(١) الفارس بوجندي « هيو دي بايان » وقد تعهد بحماية الحجاج الذين أندفعوا أفواجا إلى بيت المقدس .

وأقسم هؤلاء الفرسان على أنفسهم أن يعيشوا في طهارة وفقر وطاعة طبقاً لتعاليم القديس بندكت ، وأن يقاتلوا بروح نقية . وعندما أيدهم القديس برنارد انضم إليهم سريعاً كثيراً من المتطوعين ، كما لاقوا مساندة رسمية من جميع أجزاء أوروبا . وهؤلاء هم الذين قدموا الأبطال المسيحيين الذين برزوا في جميع المعارك الصليبية التي نشبت في القرن ١٢ ، ولكنهم تزايدوا في القرن ١٣ بدرجة كبيرة الأمر الذي أدى إلى تناقص شعبيتهم . وبناءً على ذلك ، في عام ١٣١٢ ألغى البابا كلمنت الخامس هذا النظام . أما الفرسان التيتينيون^(١) فقد كتب لهم البقاء حتى القرن ١٩ .

القلاع الصليبية في فلسطين (أنظر اللوحة رقم ١٧)

لقد تحتم على الصليبيين أستنباط استراتيجية تتلاءم مع ما يعانونه من نقص في القوة البشرية، ولذلك قرروا تجنب المعارك المفتوحة على قدر الإمكان والاعتماد على الحصون بدرجة فاقت اعتماد الغرب عليها . وقبل كل شيء كان من الواجب أولاً إنشاء علاقات طيبة مع السكان المحليين . وكان هؤلاء معتادين تماماً على التغييرات المستمرة التي تتم في حكاهم ، وبالتالي كانوا مستعدين لأن يكونوا رعايا مطيعين بالرغم من الاختلاف في الدين . وكانت الولايات اللاتينية مشابهة لتلك التي أنشأها الغزاة النورمانديين في إنجلترا ، وهي حكم إقطاعي بواسطة أرستقراطية عسكرية تركز على القلاع . وتم اختيار كثير من أماكن القلاع الصليبية مثل تلك التي بنيت على الساحل ، لأغراض إدارية وإقتصادية واجتماعية أكثر منها لأسباب استراتيجية . ولم يكن هناك محاولة للدفاع بقوة عن الحدود على الجبال اللبنانية أو على نهر الأردن ، فقد كان معروفاً أن القلاع ما هي إلا مجرد قواعد أو ملاجئ للانسحاب إليها ، وليست مدن محصنة على الحدود لمنع تقدم العدو .

وفي الواقع ترك الطريق الجبلي من دمشق وعبر الأردن عند جنوب بحيرة طبرية بدون دفاع . ولكن قام الصليبيون أخيراً ببناء عدد كبير من القلاع على طول الحدود مثل كرك معاب وكرك الفرسان وبوفرت ومونت فيراند .

وخلال مدة خدمتي في فلسطين عام ١٩٣١ ، ثم مرة أخرى عام ١٩٣٨ زرت العديد من مواقع القلاع الصليبية . وكما كان متيماً أن هذه القلاع كانت الواحدة تليها . وقد

(١) وهو نظام مشابه لفرسان المعبد وقد أنشأ عام ١١٩١ وكان نشاطهم الرئيسي في شرق

« العرب »

ألمانيا

استخدمت الإشارات المرئية للمواصلات ، ومن الواضح أن الرؤيا المتبادلة اعتبرت إحدى العوامل الهامة . وقد قرأت أن حصن الكرك عندما حاصره صلاح الدين عام ١١٨٣ كانت الحامية تتصل ليلا بالإشارات النارية عبر البحر الميت مع برج الملك داود في بيت المقدس ، أى على مسافة ٥٠ ميلا ، كما استخدم الحمام الزاجل في حمل الرسائل بين القلاع .

أما قلعة حصن كرك الفرسان والتي آلت إلى فرسان المستشفى بعد عام ١١٤٢ ، فكانت من أروع القلاع تحصيناً ، فقد كانت شاذة في حجمها وقوتها وكتب عنها سيدنى توى قائلاً : « يقع الحصن فوق تل حاد الميل من جهة الشرق ، والغرب والشمال ، بينما يتدرج الميل في الجانب الجنوبي ، وأحيط الحصن بخندق مائى ثم أحيط بخطين من الأسوار القوية المزودة بالأبراج ، وطوقت الأسوار جناحين من المباني بينما يسير الجناح الداخلى مع الارتفاع الحاد للتل ولذلك فهو أعلى كثيراً من الجناح الخارجى . وتسيطر الأبراج والشرفات على كل التحصينات » .

(أنظر اللوحة رقم ١٧)

صلاح الدين يوحى مصر وسوريا

إذا ألقينا نظرة على نجاح الصليبيين في أول الأمر ، لنجد أنه راجعاً إلى تفكك العرب أكثر من رجوعه إلى شجاعة وإيمان الصليبيين . وفي عام ١١٢٧ بدأ الفشل يحيق بالصليبيين عندما خرج « عماد الدين زنكى » لتوسيع قوته في سوريا مستولياً على الرها عام ١١٤٤ .

وقد كانت كارثة وصل مداها إلى الغرب ، فقام كل من لويس السابع ملك فرنسا والإمبراطور كونراد الثالث بالاستجابة لنداء القديس برنارد عام ١١٤٧ للقيام بحملة صليبية ثانية ، وقد فشلت تماماً هذه الحملة . ويرجع ذلك لعدم إقتناع الصليبيون الجدد بنظام الولايات اللاتينية الدينية المتسامح علاوة على الاختلاف بين القادمين والمستوطنين على استراتيجية الحملة . فقد حث الصليبيون المستوطنين على الهجوم على « نور الدين » خليفة عماد الدين زنكى والذين رأوا في قوته المتصاعدة خطراً جسيماً . ولكن صليبيوا الحملة الثانية اقترحوا مهاجمة دمشق بالرغم من أن أميرها كان يتخذ موقفاً ودياً مع الولايات اللاتينية وعلى عدا

فى نفس الوقت مع نور الدين .

وفى النهاية نفذ الهجوم على دمشق بقوات ضعيفة مما أدى إلى فشله . وبعد هذا عادت معظم قوات الحملة الثانية إلى بلادها وعاد نور الدين مرة أخرى إلى أعماله الهجومية .

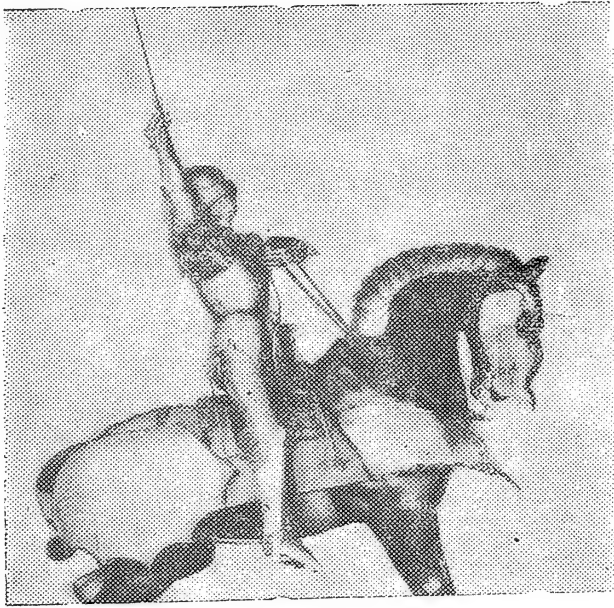
وفى عام ١١٥٤ استولى على دمشق ، وفى ١١٦٩ تحققت له السيطرة على مصر . وقد فشل الصليبيون فى تقدير الأهمية الاستراتيجية فى السيطرة على مركز المواصلات الصحراوية الممتدة شمالاً وجنوباً فى شرق الأردن ، وهذا كان سيؤدى إلى منع توحيد قوى مصر وسوريا .

وفى عام ١١٧٤ أصبح صلاح الدين بعد موت نور الدين ملكاً على مصر وسوريا . لقد كان صلاح الدين حاكماً قديراً للغاية ومسلماً تقياً واستراتيجياً بارعاً ، فقد قام ببناء قوته العسكرية تلقائياً فى نظام وترتيب سليمين . وأعد شعبه للحرب المقدسة بتوجيه المواعظ الدينية القديرة . ومن هنا أصبح الصليبيون يواجهون تهديداً حقيقياً وخطراً أكثر من أى وقت مضى ، لأن أعدائهم فى الشمال والجنوب أصبحوا يعملون بخطة مشتركة ، كما تعرضت خطوط الإمداد الصليبية للخطر من أسطول صلاح الدين المصرى .

وفى تلك الحنة بدلاً من أن يوحد الصليبيون صفوفهم ، بدأت قادتهم فى النزاع والتشاحن وخاصة ريموند (كونت طرابلس) وريجنولد (أمير قلعة الكرك) الذى وصل تشاحنهما إلى أقصى مدى ، علاوة على بعض العداءات الصغيرة بين صفوف الصليبيين . وعلى كل لم يبدأ صلاح الدين هجومه إلا فى عام ١١٨٧ عندما أثاره ريجنولد بنهبه لإحدى قوافل المسلمين ، وعندئذ زحف صلاح الدين عبر الأردن مدمراً قوة من الفرسان قوتها ١٣٠ فارساً ، وكانت تضم صفوة فرسان المعبد ، ثم قام بعدها بحصار طبرية ، وأثار ذلك كل من ريجنولد وجاى دى لوزينان اللذان حثا الصليبيين على الزحف لتحرير القلعة المحاصرة . أما ريموند فقد اعترض قائلاً بأن مثل هذا الزحف لن يؤدى إلا إلى السقوط فى فخ صلاح الدين ، لأن الصليبيين سيكونون أقل عدداً من أعدائهم بالإضافة إلى أن هذا الوقت هو أحر وقت فى السنة،

وسيعانون كثيراً من نقص المياه . وكان ريموند يفضل بقاء الصليبيين في موقف دفاعي حتى تصبح ظروفهم ملائمة وفي ذلك الوقت يقوموا بالهجوم ، ولكن أهملت نصيحته الحكيمة . وفي ٣ يولييه عام ١١٨٧ قاد جاي دي لوزينان القوات الصليبية إلى أعظم كارثة وذلك في معركة حطين .

الانسحاب المخادع



الفارس المدرع

لقد ذكرنا قبل ذلك أن النقص في القوة البشرية عند الصليبيين أملى عليهم استراتيجية جيتهم كما كانت الفرسان تمثل العمود الفقري لقواتهم سواء منهم النزلاء الإقطاعيين أو أعضاء المنظمات الدينية العسكرية ، ونتيجة للنقص في الفرسان تم استكمالهم بقوات من المرتقة أو من المسلمين المرتدين عن دينهم . وقد تطور كفاءة فرسان القرن ١٢ إلى حد ما منذ عام ١٠٦٦ ، وأصبحت دروعهم أكثر إحكاماً وإتقاناً ، ووصلت القمصان المعدنية

حتى الركبة ، كما أن أطراف الجسم أي الأيدي والأرجل ، أصبحت تحميها قطع من الدروع على شكل شبكة ، كما أصبحت القلنسوة المعدنية ضيقة لحماية الرقبة . كما أن الخوذات المخروطية الشكل قد حلت محلها الخوذات الضخمة على شكل القدر وكانت هذه الخوذة على شكل أسطوانة حديدية مسطحة من أعلاها . وغطت الخوذة كل رأس الفارس مع وجود فتحات لتمكين الرؤية والتنفس . أما حصان الفارس فكان من فصيلة خاصة يطلق عليه اسم « ديسترييه » ويحميه أيضاً رداء معدني أو قماش سميك يشبه الأحفة ، كما زاد طول الرمح زيادة طفيفة .

وإذا نظرنا إلى القوة الضاربة الرئيسية للقوات الصليبية لوجدنا أنها تتمثل في صدمة هجوم الفرسان الثقيلة بالرغم من أن هجوم الفرسان الثقيلة كان لا يزال يجمع بين عدة هجمات فردية ولم يتطور بعد إلى الهجوم في حشد .

أما جنود المشاة فكانوا يقومون بأعمال المعسكر والحصار . وأهم مجموعات المشاة كانت مجموعة رماة السهام وخاصة حملة الذئاب المرتزة من شمال إيطاليا . أما القوة الرئيسية في الجيوش الإسلامية فتمثلت في رماة السهام الرابكة وكانوا أخف تجهيزاً من الفرسان الصليبية بالإضافة أن خيول المسلمين كانت أسرع وأسهل في الاستخدام وكان الرامي الرابك بجانب قوسه يحمل درعاً صغيراً مستديراً ورمحاً قصيراً وسيفاً وهراوة . وكانت المشكلة الرئيسية لدى المسلمين هي عدم وحدة القيادة ، وعلى سبيل المثال فشل الأمراء والقادة المسلمون في عام ١١٠٤ في استغلال نصرهم عند أران نتيجة لتشاجرهم على الأسلوب مع تناحرهم على غنائم المعركة . وقد كان صلاح الدين هو القائد الأول بدون جدال لقوات المسلمين .

وكان المسلمون يقومون عادة بالمبادأة بالهجوم التكتيكي مستغلين تفوقهم وخفة حركة فرسانهم الخفيفة . وأثناء تقدم الصليبيين كان المسلمون يرهقونهم بالهجمات المتكررة ، وعند الالتحام بهم في المعركة يطوقونهم من كل جانب .

وكما ذكرنا قبل ذلك أركزت القوة الهجومية الصليبية على الفرسان الثقيلة ولذلك استخدم المسلمون تكتيكات المراوغة ليتجنبوا التعرض لصدمة الخيالة الثقيلة وأيضاً لتفتيت تماسك عدوهم . وشملت هذه التكتيكات اتخاذ التشكيلات المفتوحة والمرنة غير المنظمة مع المحافظة على البقاء على مسافة معينة من العدو تمكنهم من القيام بهجوم مفاجئ في اللحظة المناسبة ، وكانوا يقومون بعمليات انسحاب خداعية ، وفي بعض الأحيان كانوا ينسحبون لأيام وذلك بغرض جذب الصليبيين في النهاية إلى الأراضي الوعرة والضيقة لاستنزافهم وإرهاقهم ثم ينقضون عليهم بعد ذلك .

وقد حدث مثل هذا ضد قوات لويس السابع أثناء تقدمه في أسيا الصغرى ، فقد نصب المسلمون الكمائن مع القيام بأعمال القناصة طوال تقدمه .

ولما كانت أقواسهم ليست قوية بدرجة كافية تمكنها من اختراق دروع العدو فكانوا عادة يوجهونها إلى خيل العدو .

أما التكتيكات الصليبية والتي وضعها وطور معظمها بوهمند خلال الحملة الصليبية الأولى

فقد كانت في مجموعها تكتيكات دفاعية ، وقد صممت للرد على تكتيكات المسلمين . وقادت الأفكار العسكرية والتجارب البيزنطية إلى تغييرات معينة في التكتيكات الفطرية الغربية ، وعلى سبيل المثال فقد روعى الحرص واليقظة أثناء المسيرات والحذر والاهتمام أثناء التقدم والفتح للمعركة لتجنب التطويق أو المفاجأة فأصبحت القوة الصليبية تتحرك مع وجود حرس قوى على الأجناب والمؤخرة ، ويتكون من رماة السهام الذين يقومون بتغطية صفوف الفرسان حتى يحين اللحظة المناسبة لينطلق هؤلاء الفرسان بهجومهم .

وتكتيكات المضايقة التي اتبعها المسلمون كانت من أبغض ما عانى منه الصليبيون ، ولكن لم يكن من السهل كبح الفرسان الصليبية من القيام بعمليات فردية متهورة ، وكان منع ذلك ضرورياً ، لذلك وضع فرسان المعبد عقوبات قاسية على أى فارس يترك الصفوف بدون أوامر . وبالرغم من ذلك لم يستطع ريتشارد قلب الأسد أبان الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩١ في معركة أرسوف من منع فرسان المستشفى من الهجوم قبل الأوان . وعادة كان الصليبيون ينجحون عندما يكون النظام مستتباً مع وجود تنسيق وتعاون بين المشاة والفرسان . ولكن بصفة عامة كانوا يتحاشون خوض المعارك المفتوحة التي كان عددهم فيها أقل من عدد عدوهم .

وعلى أى حال ، فكان المسلمون عادة يوقفون حملاتهم في بداية الشتاء ولذلك كان هناك بعض الأمل في إمكان دفعهم بعيداً . ومع ذلك فقد كان من الأمور السيئة للروح المعنوية السماح للمسلمين باكتساح المناطق المحيطة بالحصون الصليبية .

معركة حطين

وبعد قرن من التجربة طور الصليبيون أخيراً مبدءاً سليماً للحرب ضد المسلمين . ولكن في معركة حطين ألقى جاي دى لوزينان بالخبرة والعقل السليم جانباً ، لكي يقوم بإنشاء جيش يتكون من ١٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠ فارس محلي خفيف ، و ١٠٠٠٠ من المشاة ، فقام بتجريد جميع الحصون من قواتها الرئيسية وبذلك ترك قوات قليلة وضعيفة بالحصون ، كما أهمل الاستراتيجية المتبعة في تجنب المعارك المفتوحة والبقاء بالقرب من الحصون . وقاد

جاء جيشه إلى تلال جبل الجليل الجرداء والتي ينعدم فيها الماء حيث قبع صلاح الدين ومعه ٢٠٠٠ رجل .

وعندما أبلغ صلاح الدين عن تقدم جيش جاي ، أرسل إليه وحدات خفيفة مهمتها مناوشة العدو والبدء في مضايقته وإنهاكه .

وبدأت أولى الهجمات الإسلامية في قيظ النهار . وبعد قليل أصاب الصليبيون الظماً بعد أن فقدوا جميع الماء الذي يحملونه ، وأصابهم التعب ولذلك فقدوا تماسكهم ، وبدأت طليعة جيشهم تتقدم ببطء وضعف ، ولكن القوة الرئيسية للجيش الصليبي قد فقدت الترتيب التماسك الهام لنظام السير . وأخيراً أصبح حرس المؤخرة ومعظم قوات المفتصف محاصرين بجحافل من حملة الأقواس المسلمين . في ذلك الوقت كانت القوة الرئيسية للجيش الصليبي^(١) قد أصبحت منهكة وعسكروا على ميول أحد التلال والذي يوجد على قمته تنوتين ويعرف هذا التل بإسم « قرون حطين » وهناك قضوا ليلة لم يتذوقوا فيها طعم النوم علاوة على عدم وجود ماء لهم أو لحيولهم .

فقد استمر المسلمون في قصفهم بوابل من السهام ، مع الاستمرار في مضايقة أعصابهم بالقيام بالسخرية منهم بصوت عالي مع إشعال النيران في الأعشاب والأشجار الصغيرة المحيطة بهم مما زاد الدخان الحاقق من متاعب الصليبيين .

وفي الصباح كان لا يزال صلاح الدين رافضاً الاشتباك مع الصليبيين ، واستمر رماته^(٢) في أمطار العدو وبدون توقف . وفي حالة اليأس وبتفكير طائش قرر جاي ، كمحاولة لوضع نهاية للعذاب الذي يقاسيه مشاته ، أن يطلق فرسانه في هجوم على المسلمين ، ولكن لم يتحقق من هذا الهجوم أي شيء . وعندما تفهمت قوائمه الموقف على حقيقته بدأ الفرع يتطرق لبعض الجنود ، وبدأت بعض المشاة الصليبية القيام بتصرفات مذعورة ، ولكن جاي أوقف ذلك الإنهيار برفعه عاليًا صليب الولاة ، وقام الفرسان بمعاودة الهجوم وبدأ لفترة وكأن المسلمين

(١) وهم فرسان المعبد والمسلمين المرتدين . « المغرب »

(٢) وصل لرماة المسلمين ٧٠ جملة بحملة بالسهم كأمداد لهم . « المغرب »

يواجهون المتاعب ، ولكن فرسانهم تدخلت واشتبكت في القتال بعد حصارها للفرسان وتجمعت الفرسان الصليبية المطوقة حول صليب الولا في ذلك الوقت قام المسلمون بتوجيه الضربة القاتلة . وقام ريموند مع بعض الفرسان الذين لم تخرج خيولهم بهجوم يائس لفتح طريق للهروب خلال قوات المسلمين . ولكنهم وقعوا في قبضة المسلمين وأيضا صليب الولا .

اختطاف ريتشارد قلب الأسد

وحتى الآن فكل ما حققه صلاح الدين هو تدمير القوات الصليبية . وفي نهاية ١١٨٧ كانت كل مملكة بيت المقدس تقريباً في يده . . وسقطت المدينة نفسها في أكتوبر من ذلك العام ، وعموم سكانها معاملة غاية في الرحمة . أما في الغرب ، فقد ارتفعت فوراً النداءات بحملة صليبية فورية ولقيت تلك النداءات بعض النجاح وفعلاً خرج الإمبراطور فردريك باربروسا من ألمانيا عام ١١٨٩ ولكن المسلمون قضوا على معظم جيشه في آسيا الصغرى .

أما فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا فقد وصلا إلى الأراضي المقدسة وأعاد ريتشارد الإستيلاء على عكا ويافا ولكنه اضطر للعودة قبل بيت المقدس . ويوضح الشجار المستمر بين زعماء الصليبيين درجة الإنحطاط والإنحلال التي حدثت في الفكرة الصليبية . . . هذا بالإضافة إلى تصرف الإمبراطور هنري الذي خطف ريتشارد وهو في طريق عودته إلى بلاده والاحتفاظ به كرهينة للحصول على الفدية . وأيضاً في عمل فيليب الذي انتهز فرصة غياب ريتشارد وأغار على نورماندى . ولكن في النهاية كانت عقلية البندقية التجارية والتي تستهدف الربح فقط ، هي التي منعت الصليبيين من التقدم أبعد من القسطنطينية .

حتى أنه في إبريل عام ١٢٠٤ نسي بلدوين الغرض الأساسي من دخوله القسطنطينية وقام بدلاً من ذلك بالإستيلاء على العرش وتنصيب نفسه إمبراطوراً .

ولقد كانت هناك حملات صليبية أخرى في القرن ١٣ ، كما استرد المسيحيون بيت

المقدس ولكن لفترة قصيرة . وفي الواقع أحيا القديس لويس ملك فرنسا (١٢٢٦—١٢٧٠) الأفكار السامية للحركة الصليبية بالرغم مما يقوم به الآخرون أمثال الأمبراطور فردريك الثاني وسيمون دي مونتفرت من عدم احترام هذه الأهداف والتقليل من قيمتها أكثر من أى وقت مضى . ولكن القصة معقدة ومتشابكة وتاريخها العسكرى لا يقدم إلا فائدة إضافية قليلة . أما التطورات الحقيقية والهامة فكانت تأخذ مجراها في ذلك الوقت في الغرب .

الفصل التاسع

حروب أواخر العصور الوسطى

حرب المائة عام

كانت الحرب خلال أواخر العصور الوسطى فيما بين معركة بوفين (١٢١٤) وصرات (١٤٧٦) هي القاعدة السائدة في جميع أنحاء أوروبا تقريباً . ولذلك تعتبر هذه الفترة ذات أهمية وفائدة خاصة وذات طابع مثير . فقد تلى تحلل وسقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة قيام صراع في القرن ١٣ بين البابوية وأسرة هوهنشتاوفن الإمبراطورية ، ثم حروب الاستقلال السويسرية والتي خاضتها عصبة مقاطعات أقاليم الغابات الثلاث بعد عام ١٢٩١ . وأيضاً حروب البوهيميين^(١) والمهسين والتي دارت بين عامي ١٤١٩ و ١٤٣٦ وتوحيد قوة الدولة الإنجليزية بعد قيام إدوارد الأول بفتح ويلز (١٢٧٧ - ١٢٩٥) بالرغم من فشل المحاولة الإنجليزية لفتح اسكتلندا (١٢٩٦ - ١٣٢٨) . وأخيراً جاء الصدام الكبير بين فرنسا وإنجلترا ، وقد عرفت أعمال الغزو الإنجليزي التي حدثت بين عامي ١٣٣٧ - ١٤٥٣ باسم حرب المائة عام .

ولقد كان التأثير السياسي النهائي لكل هذه الحروب هو بقاء ألمانيا في حالة أكثر تفككاً مع فقدان روما للكثير من نفوذها المعنوي والديني بينما عبرت إنجلترا وفرنسا إلى ما بعد مرحلة الإقطاع التي كانت تتميز مجتمع العصور الوسطى لكي تصبحا من الدول القومية^(٢) الرائدة في أوروبا .

ومن وجهة النظر العسكرية كانت هذه الحروب على جانب عظيم من الأهمية ، لأن المائة عام ما بين ١٢٥٠ و ١٣٥٠ كانت حقبة ثورية في تاريخ فن الحرب . فقد ترك كل من

(١) الاسم مشتق من بوهيميا أي انتسابهم إليها .

(٢) وهي الدولة المكونة من قومية واحدة لا قوميات متعددة . «المغرب»

الفارس ونظام الإقطاع أما كنهما لرجل المشاة والأسلحة النارية ونظام الاحتراف . وأصبح واضحاً من الناحية الاستراتيجية إمكان كسب المعارك الدفاعية بالأسلحة المتوفرة بشرط إغراء العدو على الهجوم ، ولكن لتحقيق النصر في الحملات كان العمل الهجومي ضرورياً . أما من الناحية التكتيكية فقد افتتحت السيادة إلى أسلحة القذف الجديدة والتي أصبحت هي العامل الحاسم في المعركة بدلاً من الصدمة .

وفي آخر الأمر كان المدفع سيثبت أنه أقوى آلة حربية للسنوات الـ ٦٠٠ التالية . وبالرغم من أن المدفعية كانت في بداية القرن ١٥ مؤثرة إلا أن القادة لم يشعروا لمدة طويلة بالتأثير الكامل للأسلحة النارية ، وقد تركز الاهتمام في هذه الفترة على التطور الثوري للمشاة ، وذلك بانتزاع كل من رماة السهام وحملة الرماح من المشاة السيادة على ميدان المعركة من الفرسان الثقيلة التي ظلت تسود الميدان لمدة ١٠٠٠ عام .

لقد أكدت معركة هاستنجز السيادة المطلقة للفرسان الثقيلة والتي كانت قد بدأت منذ معركة أدرنه عام ٣٧٨ .

وأصبحت المشاة سلاحاً محتقراً بين القادة . . ولم يدرك أى قائد في أوروبا الغربية قبل منتصف القرن ١٣ الدروس المستفادة من الحملات الصليبية والتي أظهرت أن المجموعة التكتيكية المكونة من المشاة والفرسان والتي تم تنسيق عملهما سوياً بمهارة لهو أعظم بكثير من أن يعمل كل منهما منفصلاً ، وعلى كل حتى ذلك الوقت كان هناك بعض عناصر المشاة المحنكة والمحترفة في الأراضي الواطئة وفي شمال إيطاليا . ومن الجدير بالذكر أن ويليام استخدم في معركة هاستنجز حملة الرماح الفلاندرين واستخدمهم أيضاً فيليب أغسطس في معركة بوفين عام ١٢١٤ ، واستمر حملة الرماح الفلاندرين في كسب المعارك خلال القرن ١٣ . وعلى أى حال ، ففي ذلك الوقت حل محلهم حملة الشباب من مدن إيطاليا الشمالية وخاصة من جنوا .

وارتدى الجنويون^(١) قلنسوة من الصلب وسترة معدنية للوقاية ، واستمر سلاحهم

(١) نسبة إلى جنوا .

(النشاب) في التطور المستمر حتى نهاية القرن ١٥ ، وعموما فقد استمر النشاب^(١) عبارة عن صورة مصغرة للمنجانيق . وقد كان سلاحاً ثقيلاً بطيئاً في التشغيل ولا يعمل في الطقس الممطر ، ولكن كان له بعض المزايا ، فكان دقيقاً حتى مسافة ١٠٠ ياردة كما يمكن استخدامه بواسطة رجال قليلوا التدريب نسبياً وفي نفس الوقت لا يحتاج لاستخدامه إلى رجل ذي قوة كبيرة مثل القوس الطويل وعموما كان النشاب سلاحاً جيداً وخاصة في أعمال الدفاع من وراء فتحات الرمي في الأسوار .

أنهيار نظام التجنيد الاقطاعي

وقد تواجدت على مر العصور وحدات ممتازة من المشاة ، ولكن في العادة لم يحسن استخدامها ، وعلى كل لم تستخدم المشاة في معظم المعارك الهامة التي حدثت في القرن ١٣ مثل معركة مارشفيلد^(٢) عام ١٢٧٨ ولكن كانت هناك حالات أخرى كان يستخدم فيها طرف واحد من المتحاربين المشاة مثل معركة لينانو عام ١١٧٦ . وبصفة عامة كان المجدون المشاة من الفلاحين الجهلة قليلي الخبرة ولذلك استخدموا في الأعمال الحقةرة أو كان أقصى ما يمكن استخدامهم في أعمال المناوشة كما حدث في معركة بنفنتو عام ١٢٦٦ . ومن الطبيعي إذا قارنا المشاة بالفرسان لوجدنا أنها تفتقر بوضوح إلى خفة الحركة . ولكن من الغريب أن معظم القادة لم يدركوا مقدرة المشاة الدفاعية بالرغم من أن رمح المشاة كان أطول من رمح الخيالة بالإضافة إلى خوف الخيل من السهم .

ففي عام ١٢٣٧ في معركة كورتينوفات تمكنت وحدات من مشاة حلف شمال إيطاليا المحتشدة معاً من الثبات بعناد ضد الهجوم المفاجيء لفرسان فردريك الثاني الذين لم يتمكنوا من الانسحاب إلا تحت ستر الظلام .

وعبر التاريخ ، فقد كانت تظهر أحياناً قدرات تكتيكية ممتازة للمشاة ، ومثال جيد

(١) يتكون من قوس قوى صغير مركب بالعرض على نهاية جذع شجرة ، وقد صنع القوس في النهاية من الصلب ، ويجذب إما بواسطة وتر وبكرة أو بعمود له زناد بسيط ، ومن هذا القوس ينطلق سهم قصير مربع من الخشب برأس حديدية ومزود عند نهايته بريش جلدية .

(٢) المعركة التي انتصر فيها رودلف حاكم هابسبورج وأوجد بها السلطة لعائلته في الدانوب والتي

مرة أخرى معركة لينانو عام ١١٧٦ عندما أعطت المشاة الميلانية بثباتها الفرصة للفرسان اللومباردية لتتجمع وتلحق الهزيمة بصفوة فرسان جيش باربروسا .

وإذا نظرنا إلى الفرسان الثقيلة فسنجد أنهم انقسموا إلى رتبتين الفارس والرقباء^(١) .

وفي القرن ١٣ كان الرقباء يركبون خيلاً أخف ويرتدون دروعاً أقل من الفارس ولكن في القرن ١٤ وحدثت المعدات والتجهيزات وأصبحت التفرقة في المصطلح الفني أمراً اجتماعياً محضاً ، كما أصبح جميع الرجال مجهزين بكل ما يمكن أن يجهز به الفارس الثقيل ، وأصبحوا جميعاً طبقة تستخدم للأغراض العسكرية وأطلق عليهم « الفرسان المدججين بالسلاح » . واستمرت الدروع في تطور مستمر .

وفي عام ١٢٠٠ أفسحت الخوذة المخروطية الشكل الطريق لظهور الخوذة التي تغطي الرأس بالكامل الشبيهة بالندروالتى أضيف إليها جزء متحرك أمامي لتغطية الوجه عام ١٣٠٠ كما استكملت السترة المعدنية الطويلة بمعطف يرتديه الفارس فوق دروعه وأيضاً بثوب محشو سمي « الجبوز » وبالفسبة للجنود الفقراء فكانوا يرتدون الجبوز فقط بدون درع معدني .

وفي هذا الوقت أصبحت الدروع أكثر ليناً ورقة وملائمة للجسم ، وقد سبق أن ذكرنا أن درع الصدر كان منشأ القرن الرابع ولكن في عام ١٢٥٠ بدأ الرجال في تطوير الدروع المعدنية وذلك بأن أضافوا إليها وقايات للركبة والذقن ومرفق الذراع ، ثم بعد ذلك ظهرت الحلة المصفحة الكاملة والتي كانت لا تقاوم حتى لاحظ الفرنسيون في معركة بنفيتو وجود ١٢٠٠ فارس ألماني مزودين بالحلة المصفحة وكان زحف هؤلاء لا يقاوم إلا أنهم وجهوا طعنات سيفهم المستقيمة إلى الجزء الذي لا يغطي الدروع وهو الأبط . وقد استخدمت الفرسان الخفيفة مثل البانزراتي الألمانية والهوبيلار الإنجليزية في المناوشات والاستطلاع فقط ، ولم يكن لها أبداً أى دور رئيسي في تكتيكات العصور الوسطى .

(١) كانوا في الواقع أتباع وحاشية البارونات والأساقفة ورؤساء الأديرة . « العرب »

وفى القرن ١٣ كان جيش الفرسان لا يزال يعتمد فى تحقيق النصر على عاملين هما ثقل وزن دروع الفارس وقوته الجسمانية . فكانت مجموعات الفرسان تندفع نحو العدو بقوة مع ضربه بقسوة بالسيوف أو الفئوس الضخمة . واتباع بعض القادة تكتيكاً مختلفاً بتقسيم فرسانهم إلى ثلاث فرق ويتوقف النجاح على التوقيت الذى يندفع فيه كل فرقة للهجوم فى أثر السابقة لها .

ومن الأمثلة للقادة الأكفاء فى ذلك الوقت هو سيمون دى منت فورت ، فقد كان حاسماً . . . سريعاً رابط الجأش ، وقد انتصر فى معركة لويس^(١) التى دارت ضد هنرى الثالث فى عام ١٢٦٤ ويرجع ذلك لحسن اختياره لأرض المعركة ومفاجأته للعدو مع دفع قوات

الاحتياطى فى الزمان والمكان المناسبين . وإذا أخذنا مثالا آخر فسنجد أنه فى معركة بنفنتو

عام ١٢٦٦ أضعف كلا الجانبين فرسانهم بتقسيمها إلى ثلاثة فرق كل فرقة قوتها ١٠٠٠ فارس بدلاً من حشدهم فى مجموعة واحدة ، وبدأت المعركة بمناوشة تمهيدية بين مشاة الجانبين والتى لم تؤثر على سير المعركة الرئيسة^(٢) ، وبعد ذلك دفع كلا الجانبين فرسانهما تباعاً واستطاع شارل هزيمة ماقررد لأنه وضع توقيتاً أفضل لهجوم فرق فرسانه . وقد كان هذا ومثله النظام التكتيكى العادى المتبع فى أوروبا بعد عام ١٣٠٠ ، ولكن فى نهاية هذا القرن ظهرت أفكار وتصورات تكتيكية جديدة فى سويسرا وإنجلترا .

أما فى فرنسا فقد ألزم القادة بجمود بالأساليب التكتيكية القديمة حتى لا قوا

الكوارث المتلاحقة .

ومع القرن ١٣ بدأ نظام التجنيد الإقطاعى فى الإنهيار ، بالرغم من أن الجيوش الفرنسية ظلت أساساً تتشكل وتعمل بهذا النظام الإقطاعى حتى حرب المائة عام . وعلى كل أصبحت التعهدات والارتباطات الإقطاعية مضطربة ومشوشة ، ولذلك أصبح النظام الإقطاعى نفسه لا يعتمد عليه لسوء نظامه ، فنجد أن الفرق المكونة طبقاً لهذا النظام بدأت تميل إلى طاعة سيدها الإقطاعى وليس الملك ، وأصبحت فترة خدمتها لصالح الملك لا تتجاوز ٤٠ يوماً . وكان

(١) أدى انتصاره فى هذه المعركة إلى استطاعته لإقامة البرلمان .

(٢) معظم سجلات التاريخ العسكرى لم تذكرها . « العرب »

من الأسباب الرئيسية لانهميار نظام التجنيد الإقطاعي أن المجندين من الفلاحين كانوا غير محترفين فأصبحوا غير أكفاء في استخدام أسلحتهم .

بالرغم من أن الكثير من الفرسان لم يكن لديهم أى شاغل آخر غير خوض القتال ، ولكن اتباعهم من الفلاحين كان لديهم مشاغل أخرى كثيرة ، الأمر الذى لم يتح لهم إلا وقتاً قليلاً للتدريب على استخدام الأسلحة . وعلى كل زاد الاعتماد على المرتزقة .. وفى إنجلترا كان من دواعى سرور الملك أن يسمح لرعاياه باستبدال الخدمة الإقطاعية بدفعهم ضريبة سميت (البدلية) وبهذه الأموال كان يستأجر المغامرين وقواتهم المرتزقة . وتكونت طبقة من المرتزقة فى جميع دول أوروبا من أولاد النبلاء الصغار والذين ليس لهم الحق فى إرث الأرض ومن اللاجئين الهاربين من نظام العبودية ، وفى الحقيقة كان هؤلاء الرجال محترفين متمرسين ومدرسين جيداً للعمل والقتال معاً ويخدمون من يدفع لهم أجورهم طوال المدة المتفق عليها . وكثيراً كانوا يمثلون مصدراً كبيراً للازعاج ، لأن معظم المجندين المرتزقة أصلهم من المجرمين ، وعندما يحل السلام تتحول هذه الجيوش الخاصة إلى عصابات من قطاع الطرق . وكان من أحد أسباب عدم شعبية الملك جون أنه جلب إلى إنجلترا حملة النشاب المرتزقة ، وتواجد هؤلاء الوحوش حتى عهد الحاكم التالى . كما أن فرقة روجردى فلور والمعروفة بإسم « الفرقة العظيمة » كانت تتشكل من جماعات المرتزقة التى سرحت فى نهاية الحروب الصليبية وبلغت قوتها أكثر من ١٠٠٠ رجل .

المباراة بين الجنة والجحيم

كان أفضل تدريب على استخدام الأسلحة يتم فى المباريات والمنافسات التى كانت تقام بين الفرسان (التورنامنت) .

وفى القرن ١٣ أصبحت هذه المباريات أشبه بالحروب أكثر من أنها رياضة ، وذلك لأن الفرسان كانوا يسلحون أنفسهم ويقاتلون تماماً مثلما كانوا يفعلون فى المعركة الحقيقية . وكان هناك أنواع عديدة من المباريات منها « المشاقفة ^(١) » حيث يسدد كل فارس رمحاً ثلاث مرات ضد الخصم وإذا لم يسقط أحدهما من على حصانه كانا يترجلان ويسدد كل منهما للآخر ثلاث ضربات بالسيف أو بالباطة أو بالمقرعة . ويوجد نوع آخر يسمى « المباراة أو

(١) قتال بين فارسين يهاجمان بعضهما بالمشاقف وبالرماح لإظهار الشجاعة والبراعة أو طمعاً فى الجائزة « العرب »

الدورة» ويتم بنفس الأسلوب المتبع في «المثاقفة» ولكن بمجموعة من الفرسان .
وكان ويليام الوصى على إنجلترا في عهد هنرى الثالث والملقب بـ «المارشال» من أشد
المواعين بهذه المباريات ، وقضى سنوات عديدة يخوض الواحدة تلو الأخرى ، لدرجة أنه قاتل
في أحدها لمدة ١٤ يوماً محققاً شهرة واسعة عبر شمال فرنسا ومحققاً ثروة كبيرة . وفي إحدى
المباريات استطاع أسر ١٢ فارساً و ١٠ خيول واحتفظ بهم للحصول على فديتهم . وقد كان
للعمامة أيضاً مبارياتهم الحربية وتلك إما على شكل مباريات في القتال بالنبوت^(١) أو بالسيف
والترس ، أو طعن دمي فوقها دلو^(٢) من الماء بالرمح . وكانت الحملات الصليبية توصف
أحياناً على أنها «مباراة بين الجنة والجحيم» ومع مرور الوقت وإزدياد رخاء الحياة مع إزدياد
الجرحى والمصابين في هذه المباريات ، فقد وضعت لها قواعد وأحكام متقنة ومدروسة

ومع القرن ١٥ أصبحت هذه المباريات أكثر شعبية ولكنها أقل خطورة . فأصبح
يفصل بين الفارسين المتقاتلين سور خشبي مع استخدام رماح هشة سهلة الكسر كما صممت
السروج بحيث يمكن للفارس أن ينزلق إلى أسفل من عند ذيل الحصان . وحتى مع كل
هذا ، ففي إحدى المباريات عام ١٥٥٩ لقي الملك هنرى الثانى ملك فرنسا مصرعه على يد
أحد أجدادى النورمانديين ومن الطبيعى كان على جدى أن يهرب بسرعة من البلاد ، ولقد
كان ذلك من سوء الحظ . وعلى كل أصبحت المباريات بعد ذلك مهرجانات أكثر
منها قتال .

وآخر ما شهد التاريخ من هذه المباريات تلك التى قام بتنظيمها «إيرل أجلينتون» فى عام
١٨٣٩ ، وقد سافر المشتركون إلى ضيعة اللورد فى القطار . وقد كتبت الصحافة عنها
تقول : «فى داخل القاعة القوطية انتشرت النساء الجميلات بين الفرسان المدرعين» . ولسوء
الحظ منعت الأمطار من تنفيذ الكثير من البرنامج .

الصواريخ فى القرن ١٤

من بداية القرن ١٣ أصبح وضع الفارس الشرعى مرتبطاً بفكرة الفروسية ، وقبل

(١) سلاح إنجليزى قديم عبارة عن عامود ضخيم طوله بين ٦ — ٨ قدم وفى رأسه قطعة من الحديد .

(٢) للتبارى على دقة الإصابة لدرجة لا ينسكب الماء من الدلو . «المعرب»

ذلك كان الفارس مجرد رجل يؤدي خدمة عسكرية مقابل منحه قطعة من الأرض . ولكن إذا رجعنا إلى القرن ١٢ لوجدنا أن الحروب الصليبية والأنظمة التي أنشأت مثل مجموعات فرسان المعبد قد أضفت على عمل الفارس أولا شيئاً من الاحترام ثم بعد ذلك شيئاً دينياً ومقدساً . وأصبحت النظرية القائلة بأن الفارس رجلاً ذو صفات خاصة من الشجاعة والشهامة ويؤدي شعائر معينة قبل دخوله إلى طبقة الفارس أمراً مقبولاً .

واستمرت الطريقة القديمة لمنح لقب الفروسية كما هي وذلك من أجل صالح القتال في المعركة ، وكان يتم ذلك في احتفال خاص لمنح الرجل لقب فارس ويطلق على مثل هذا الاحتفال « الاحتضان » ويعني ذلك أن الرجل أصبح فارساً يمكنه خوض القتال في ميدان المعركة . وكان المرشح يركع أمام فارس آخر حيث يلمسه بمسطح السيف على كلا كتفيه مررداً عبارة التخصيب القصيرة والتي كانت عادة تأخذ شكل الموعظة أو النصيحة . ولكن الآن أصبحت هناك طريقة أكثر اتقاناً وتفصيلاً ، ويصف سيلدون هذه الشعائر قائلاً : « كانت احتفالات منح ذلك الشرف نوعين (الرسمية) و (المقدسة) ، فالرسمية تتمثل في احتفالات التخصيب وفيها يتسلم الفارس الجديد الأردية والأسلحة ومهمازى للخيل وغيرهما ، أما المقدسة فتتمثل في الصلوات المقدسة التي تتم في الكنيسة قبل منح المرشح لقب الفارس رسمياً » .

وتتضمن الاحتفالات السابقة أيضاً صلوات المساء وتسلم الأسلحة من خدام الكهنة في الكنيسة ، والقسم على حماية كل ما هو ضعيف أو طيب أو مقدس . وقد كتب جون سالسيوري : —

« لأي غرض أقيمت الفروسية ؟ أقيمت لحماية الكنيسة وأخذ العهد الأخلاقي بحماية الفقراء والمحافظة على السلام وإراقة الفارس دمه في سبيل موطنه » .

ويعتبر الوصف الذي أورده سالسيوري للفرسان وصفاً رومانتيكياً ، أما أنشودة رولان فقد كانت أكثر واقعية في التعبير عن الصفات التي تجعل الفارس مثالياً ، وهي في الحقيقة قصة ممتازة تصور الخيانة والبطولة وتؤكد فضيلة البسالة الشخصية والإخلاص للرفاق والثقة في مساعدة القديسين . وكان ذلك أفضل تعبير عن روح الفروسية والذي يعكس مدى

الفخر والاعتزاز لما حققته الفروسية لأوروبا مع حلول القرن ١٣ . فقد حققت الفروسية ثبات الحدود ونقاء النظام السياسى وإمكانيات التقدم الإقتصادى والتي كانت فتيحة للأمان ، وعلى كل كانت الفروسية قوة دفع للأفضل ، فقد أشعرت الطبقات العليا بأنه من الضرورى وجود مستوى من الأمانة والأخلاق لديهم كشيء يعادل امتيازاتهم .

ومن تطورات القرن ١٣ ظهور شعارات النبالة ، وقد تطور هذا الأمر مع ظهور الخوذة الكبيرة التي تخفى وجه المقاتل بالكامل ، مما جعل من الضرورى أن يحمل الفارس علامة مميزة . واتخذ الفرسان شعارات متنوعة وكانت ترسم على دروعهم أو تطرز على معاطفهم (عباءتهم) ، كما وضعت شارات زخرفية فوق قمة الخوذ .

وكان ريتشارد قلب الأسد أول ملك يرسم شعار إنجلترا^(١) وكان هذا النظام مفيد فى الإرشاد والتنظيم لأن أتباع كل فارس كانوا يتجمعون حول شعاره أو رايته .

ويمكن القول أن أخطر تطور فى تاريخ الحرب كان فى اختراع بارود المدفع ، ولكن عندما نشرت المعادلة الأصلية لتركيب البارود ، مرت على العسكريين دون أن يلاحظونها . وعلى كل فغير معروف بالتأكد المكشف الأول للبارود أو الذى فكر فى استخدامه كقوة للقذف من أنبوبة ، وأيضا غير معروف متى وأين استخدمت المدافع الأولى فى القتال؟ وأول من سجل معادلة تركيب البارود فى العالم الغربى هو الراهب الإنجليزى «روجربيكون» فى كتاب له عام ١٢٦٠ . والمعادلة عبارة عن : خا ط ٧ أجزاء من الملح الصخرى (نترات البوتاسيوم أو الصوديوم) + ٥ أجزاء من الفحم النباتى + ٥ أجزاء من الكبريت .

وبمثل هذا الخليط سيمكنك إنتاج لهب اساطع وصوت مدويا . ولكن خوفا من الكنيسة أخفى بيبكون معادلته بطريقة شفرية مع تغيير حروفها . وقد مر ٥٠ عاما قبل ظهور أول مدفع ، وفى بحث قام به رجل إنجليزى عام ١٣٢٦ ويدعى « والتردى مليويكى » ظهر رسم لأول أنواع المدافع ، وعرفت هذه المدافع بإسم « قارورة القوة » أو « الفازة » ، لأنه كان يشبه فى شكله الفازة ذات جسم متنفخ وعنق ضيق .

(١) ثلاثة أسود ذهبية مرسومة على أرض حمراء . « العرب »

وظهر المدفع فى الصورة مركب على منصدة من الخشب ويعمر بسهم ذا ريش معدنية من النوع الذى تطلقه الأقواس، ويقف بجوار المدفع الجندى الذى يشغله وهو على وشك إطلاقه بدفع قضيبا ساخنا فى درجة الأحرار فى ثقب محفور لإشعال البارود منه . وقد عثرنا على وثيقة فلورنسية لنفس العام تأمر مجلس المدينة ببحث إنتاج مدافع وقذائف حديدية. وبالتحديد فالمرّة الأولى التى أطلق فيها مدفع فى قتال كان فى عام ١٣٢٤ عند « متز » بفرنسا . وازدادت أصوات المدافع عبر ١٥ سنة التالية ، ومن الأرجح أن إدوارد الثالث استخدم المدفعية ضد الأسكتلنديين فى معركة بيرويك عام ١٣٢٧ ، ولكن من المؤكد أن الفرنسيين استخدموا المدافع والماونات فى إطلاق السهام على الإنجليز فى معركة « كويسنوى » عام ١٣٤٠ .

كما استخدم إدوارد المدفعية عند حصاره لكاليه عام ١٣٤٦ . ولقد كان هناك سلاح نارى آخر هو « ريبولدكوين » ويتكون من عدة أنابيب معدنية مركبة على نوع من العربات الحربية ، وكان من الممكن إطلاقها معا فى وقت واحد ، ويبدو هذا السلاح وكأنه أحد أنواع بطاريات الصواريخ البدائية ، وهى تشبه ما استخدمه الجيش الكندى عند نهر الموز والجيش البريطانى الثانى عند عبور نهر الراين عام ١٩٤٥ .

وقد أصدر إدوارد أوامره عام ١٣٤٥ بصنع ١٠٠ من هذا السلاح ، وبالتالى فقد بدأت الأسلحة النارية فى الاستخدام بشكل منتظم فى منتصف القرن ١٤ ، ولكنها لم تحدث تأثيراً فعالاً على مجرى الحرب لعدة سنوات .

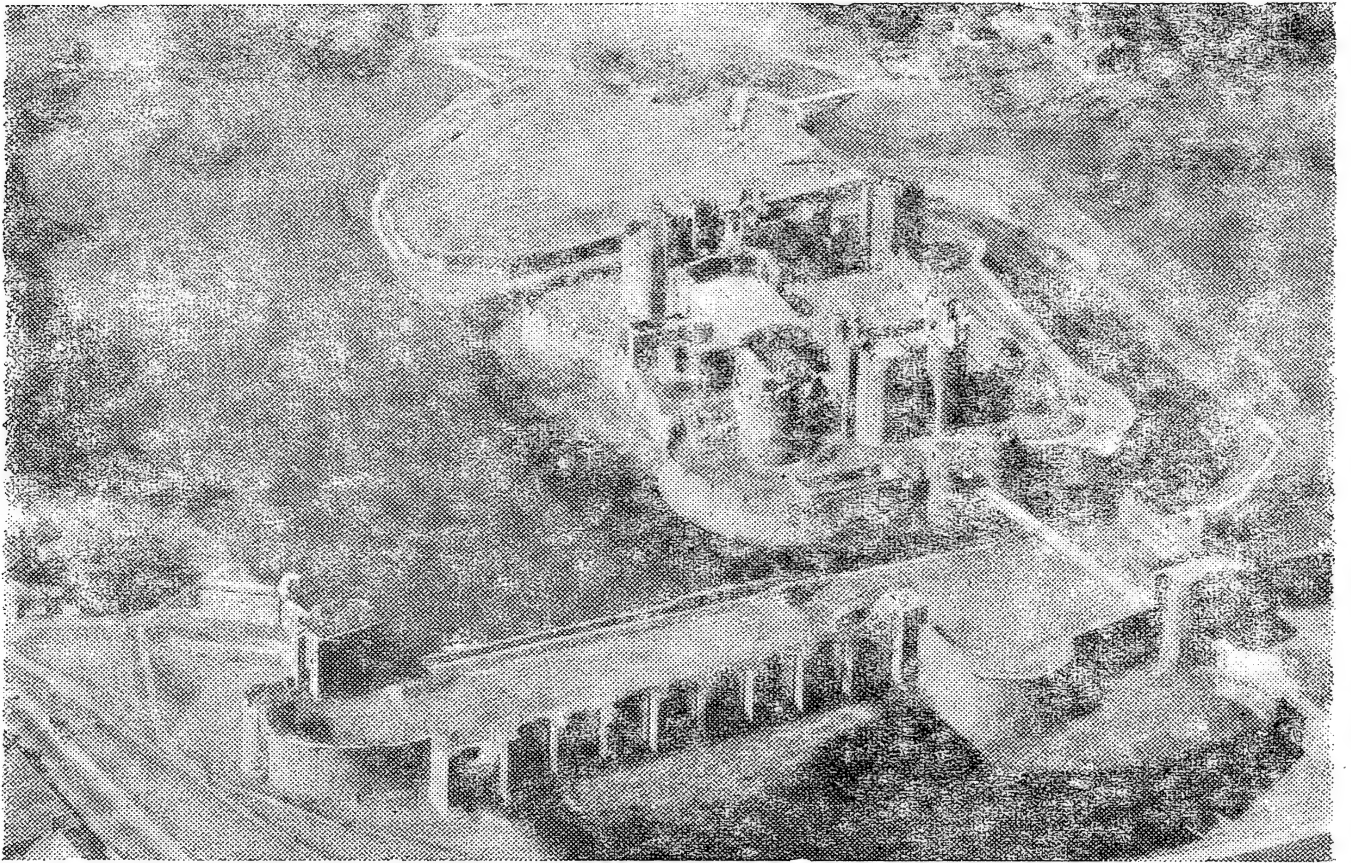
قلعة الباستيل

وأخيراً حطمت المدافع قوة ومناعة الحصون التى كانت العنصر الثانى العظيم فى فنون الحرب النورماندية .

وقد عاش الحصن كقوة يعتد بها أطول مما عاشه الفارس ، وفيما بين عامى ١٢٦٠ و ١٣٢٠ شيدت حصونا ضخمة وقوية لم يشهدا أى عصر . . ، وأصبح الآن القاعدة الرئيسية فى بناء التحصينات هو بناء سلسلة من الأسوار القوية الساترة المتحدة المركز ، كما أعطى اهتماما كبيرا بالتحصينات الخارجية . فالخندق المائى أصبح عادة على شكل بحيرة

وأصبحت بيوت الإقامة داخل الحصن على شكل مربع قوى وتكونت من ثلاث أو أربع طوابق ومحاطة من أعلى بأبراج مزدوجة ، أما عن طرق الاقتراب إلى الحصن فكان يعترضها كوبرى متحرك أو أكثر ثم البوابة والتي تحميها مجموعة من الشرفات كل منها على شكل كوة لإطلاق القذائف على المهاجمين علاوة على الأبواب المكونة من القضبان الحديدية عند مدخل الحصن ، بالإضافة إلى الفتحات المائلة إلى الخارج في السور . وعادة كان الفناء الأوسط الذى يحيط به الأسوار يضم مدينة كاملة ، مثل مدن فلينت وكونواى وكيرنارفون .

وهذه القلاع التى بنيت إبان حروب إدوارد الأول الويلزية (١٢٧٧ — ١٢٩٥) قد خدمت غرضاً استراتيجياً يشابه غرض الحصون التى شيدها الفرسان التيتونيون والتى استخدمت لصد وإبعاد البرابرة البروسيين ، ويصف سيدنى توى حصن كيرفيللى الذى شيده



قلعة كيرفيللى

في الفترة بين عامي ١٢٦٧ - ١٢٧٧ ويعتبر من أقدم وأفضل الحصون المتحدة المراكز : —
«شيد الحصن على جزيرة في بحيرة، والبحيرة يغذيها مجرى مائي ويدافع عنها سور ضخيم أو خزان مكوناً الحصن الأمامي . والجزء الرئيسي من الحصن مستطيل ومحاط بخطين من الأسوار، الداخلي مزود ببرج في كل ركن وبمخفر كبير عند البوابة ، أما السور الخارجي فعباره عن قوس يمتد شرقاً وغرباً في خط يوازي السور الداخلي .

ويوجد في السور الخارجي بوابة شرقية وجنوبية . ويوجد في أبراج السور الداخلي مسقط رؤيا واضح بدرجة أنه يمكن مسح كل الوجه الخارجية للسور إذا ما أطلقت السهام من الكوات والشرفات .

والسور الخارجي أقل إنخفاضاً وأقل سمكا من الداخلي ، وفي مكان الأبراج تأخذ الأسوار في الإمتداد الدائري حول الأركان ، والبوابة الشرقية تواجه الحصن الأمامي . ويعر طريق الاقتراب من على كوبرى متحرك ، أما البوابة الجنوبية فتواجهها تحصينات خارجية تقف في نفس البحيرة . وبالإضافة إلى البوابات الرئيسية فكان هناك ثلاث بوابات جانبية للفناء الداخلي ، ويحمي كل مدخل أبواب حديدية ترفع وتنزل . وتجلب الإمدادات للقلعة عن طريق البوابات الجانبية في السور الخارجي أو للهروب باستخدام القوراب الى خارج القلعة .

أما السور الضخم ، وهو سور الوقاية ، فمدعم على جناحه الأيمن بسلسلة من الدعامات الضخمة ، أما الجناح الأيسر فمدعم بثلاثة أبراج قوية ، ويعتبر هذا السور الضخم من أكثر الأعمال الهندسية العسكرية قوة وتأثيراً ، ويجرى من خلال هذا السور ثلاث قنوات لتنظيم مستوى الماء في البحيرة بواسطة بوابات عند مدخل كل قناة .

ولم يحدث أبداً أن اقتحمت قلعة كيرفيلي ، وليس في ذلك غرابة ، فكان من الضروري لمهاجمتها عبور خندقين مائيين وثلاث أسوار تضمنت كل التحسينات والتطورات في أساليب الدفاع .

وفي القرن ١٤ كان لا يزال يبني مثل هذه التحصينات القوية ، مثل قلعة الباستيل في

في باريس (١٣٧٠ - ١٣٨٣) ، وكانت ذات بناء مستطيل ويوجد بأسوارها ثمانية أبراج قوية .

وكانت الأسوار عالية مثل الأبراج ومتوجة بسلسلة متعاقبة من الشرفات إطلاق القذائف على المهاجمين ، علاوة على خندق مائي واسع . ولا شك أنه كان من الممكن أن يصمد الباستيل بسهولة في ١٤ يولييه ١٧٨٩ إذا توفر قليل من الروح الدفاعية .

ونجد أيضاً أن الكثير من كنائس القرنين ١٣ ، ١٤ محصنة ، مثل كاتدرائية «ألي» وقديس «ماريس» بالقرب من «أرليس» ، وحتى المدن المدنية الجديدة في إيطاليا اتخذت هندستها ظواهر دفاعية كثيرة ، ففي سان جيمجنانو كان هناك على الأقل ٢٠ منزلاً بها أبراج محصنة . وحتى خلال عصر النهضة بنيت كثيراً من منازل المدن بأسوار عريضة ونوافذ مزودة بحواجز قوية . ومع ذلك ، فمع حلول القرن ١٤ ، تغلبت متطلبات الاستقرار والرفاهية على متطلبات ودواعي الأمن .

ثورة في تاريخ التكتيك

ومن صدق القول أنه قبل المنتصف الثاني للقرن ١٣ لم يدرك أى قائد في غرب أوروبا الأماكن التكتيكية الكامنة في تنسيق العمليات بين المشاة والفرسان ، ذلك إذا تغاضينا عن ذكر أن المشاة كانت غالباً ما تستخدم وحدها كسلاح رئيسي بالرغم من الدروس التي قدمها كل من « لينانو » و « الصليبيين » . وعلى العموم فقد تغير الموقف الآن تغيراً مثيراً ، ويرجع ذلك أساساً إلى المفاهيم التكتيكية لكل من إدوارد الأول ملك إنجلترا ورودف أرلاش الزعيم السويسري .

وفيما بين عامي ١٢٨٢ و ١٣٤٦ كسبت المشاة سلسلة رائعة من الانتصارات المنطقية والتي كانت بمثابة ثورة في تاريخ التكتيك .

ففي معارك كورتراي (١٣٠٢) ومورجاتن (١٣١٥) ولوبين (١٣٣٩) استطاع حملة الرماح من المشاة هزيمة الفرسان المدججين بالسلاح ، كما هزم حملة الأقواس الطويلة ، حملة الرماح الرأكبين في قنطرة أورين (١٢٨٢) وفالكيرك (١٢٩٨) وتل هاليدون (١٣٣٣) .

وفي النهاية جاءت معركة كربسى (١٣٤٦) لتعلن لأوروبا سقوط نجم ظل يتألق في ميدان المارك زهاء الألف سنة وهى الفرسان الثقيلة. وأظهرت المعركة فوق كل شك أن الفرسان وحدها لا يمكنها تحقيق النصر ضد راماة السهام الذين يعاونهم فرسان مدججين بالسلاح ومحتلين مواقع قوية .

ففى بواتيه (١٣٥٦) وأجنكورت (١٤١٥) أكد حملة الأقواس الإنجليزية الطويلة قوة نظامهم التكتيكي . وفى نفس الوقت فى أوروبا الوسطى استمر السويسريون من حملة الرماح فى كسب الانتصارات مستخدمين فى ذلك تكتيكاً مختلفاً، وبعدهم بفترة وجيزة فى أوروبا الشرقية وضع الهسبيون والبوهميون باستخدامهم المدافع فى معركة سدمور (١٤١٩) ظهور طريقة ثالثة يمكن بها أن تتغلب المشاة على الفرسان بسهولة . وكانت معركة كورترای عام ١٤٠٢ هى أول هزة قوية تلقاها الفرسان الثقيلة بأوروبا الغربية وذلك عندما دمر جيش فلمنكى والذي يتكون من المشاة حملة الرماح ، جيشاً فرنسياً من الفرسان . وقد تحصن الفلمنكيون فى موقع قوى خلف مجرى مائى ، ولكن القائد الفرنسى أحمر فرسانه بالهجوم ، مصداً مبدأ العصور الوسطى المبتذل وهى « مائة فارس تساوى ألف رجل على الأقدام » ، وعندما وصلت الفرسان إلى المجرى المائى غاصوا فى المستنقع ، وعندما هاجتهم المشاة الفلمنكية برماحها الثقيلة كان الفرسان فى حالة عجز تام . ولقد أثارت هذه المعركة مناقشات كثيرة ، ولكن فى النهاية وقع اللوم على المستنقع أكثر مما وقع على الفلمنكيين . وتهرب الفرنسيون من المبدأ القائل بأن المشاة الجريئة المحتملة مواقع دفاعية قوية ويقودها قائد فطن وذكى يمكنها هزيمة الفرسان بسهولة .

وعندما هزم الفرنسيون بعد ذلك الفلمنكيين بدا ذلك وكأنه يؤكد أن معركة كورترای كانت خروجاً عن الطبيعة . أما الصدمة الثانية والتي تلقتها الفرسان وتشابه هزيمة كورترای ، فقد كانت فى النصر الذى حققه السويسريين الاتحاديين من حملة الرماح على سادتهم النمساويين عند مورجارتن عام ١٣١٥ . وفى هذه المعركة أهمل القائد النمساوى الدوق ليوبلد القيام بالاستطلاع قبل دفع جيشه فى ممر جبلى ضيق وشديد الإحذار ، بالإضافة إلى طبيعة أرضها الزلقة وذلك خلال شهر نوفمبر (الذى وقع فيه المعركة) . وسد السويسريون الطريق وأوقعوا النمساويين فى كمين .

وكان عدد الفرسان النمساوية أكثر ولكن أذهلتهم المفاجأة وسادهم التخبیط والتحركات العشوائية (وذبحهم رجال الجبال وسلخوهم مثل الخراف فى المجزر) . ومرة أخرى ألقى اللوم على الأرض التى كانت غير ملائمة والقيادة الضعيفة .

تشكيل القنفذ

ومهما كان فقد وضح النصر السويسرى على سادتهم الإقطاعيين عند لوبين عام ١٣٣٩ الأمور فوق كل شك . فالمركة هناك دارت بين المشاة والفرسان على منحدر مكشوف ومفتوح ، ولما كان السويسريون أقل عدداً من النمساويين فقد أتبع القائد السويسرى رودلف خطه دفاعيه فوضع فرسانه القليلة على اليمين حيث المنحدر أكثر ميلاً ، بينما وضع المشاة على اليسار فى المكان الذى يتوقع فيه الهجوم المعادى الرئيسى . وكانت خطته أن ينتظر العدو حتى يبدأ فى صعود المنحدر الحاد، وفى هذه اللحظة ينقض عليهم بهجوم مركزى . وعندما دارت المركة حالف النجاح الفرسان البرنيون^(١) فى اليمين أما فى اليسار فسرعان ماعانى رجال مقاطعات الغابات المتاعب عند اصطدامهم مع الفرسان البارونية ، وبدأ هجومهم عند سفح التل ينعثر وحاصرتهم الفرسان النمساوية ، وأضطر السويسريون للوقوف ظهراً لظهر وهم شاهرون مطردهم^(٢) ، وأشتهر هذا التشكيل بعد ذلك وسمى بالتشكيل القنفذى . ودار قتال متلاحم شديد الضراوة ، ولكنهم صمدوا بقوة حتى أتى البرنيون لنجدتهم . وهاجم البرنيون مؤخرة وأجناب الفرسان النمساوية محققين النصر فى هذه المركة . وقد كان قتال متكافئاً ، وأستطاع الفلاحون السويسريون أسر ٢٧ علماً أقطاعياً و ٧٠ خوذة مزينة .

وحتى معركة لوبين كان السويسريون لا زالوا يستخدمون المطرد ولكن كان طول المطرد ٨ أقدام فقط ، وفى هذا الوقت غير السويسريون المطرد بالرمح الطويل (المنخاس) وبلغ طوله ١٨ قدماً وينتهى برأس من الصلب طولها ١٠ بوصة ويستخدم أفقياً وكان فعالاً ضد الفرسان . وفى تلك المركة أقام السويسريون حاجزاً صلباً لا يخترق من الحراب المشهورة والى تخرج سوياء من الصفوف الأربعة الأولى . وكان هذا الحاجز مؤثراً سواء كحائط دفاعى أو أثناء التقدم فى

(١) نسبة إلى مدينة برن السويسرية .

(٢) سلاح قديم مكون من رمح ثقيل براسه منخس وفأس حرب . «المعرب»

حشد . ولقد كان هذا الأسلوب التكتيكي السويسري غاية في الكفاءة والسهولة ، ومشابها لأسلوب التكتيكي الأسبرطى والرومانى . وقد أعطتهم دروعهم الخفيفة (بسبب الفقر أصلاً) قدرة فائقة من خفة الحركة مما أدى إلى مبادأتهم بالهجوم فى أغلب الأحيان . ووصفهم ميكافيل بأنه « لا توجد قوات أبداً أسرع منهم فى السير أو فى الفتح لتشكيل المعركة » . وكانوا يسيرون فى مجموعات قتالية منتظمة ، كما كانوا أول قوات حديثه تسير وخطواتها تتبع الموسيقى . وكان أسلوبهم العادى فى الهجوم هى التقدم على شكل مجموعات متوازية وكل مجموعة عبارة عن ثلاث طوابير متوازية والتي تبعد عن بعضها للخلف بقليل . وهذا التشكيل أعظمهم وقاية للجانب ومع توفير احتياطى للطابور المهاجم فى المقدمة .

تعاقدات الالزام

ولم يلق حملة الرماح السويسريون أية هزائم جدية خلال القرنين التالين لمعركة لمورجارتن (١٣١٥) ولكن النزاع بين المقاطعات ونظامهم فى القيادة الذى يعتمد على مجلس أعاق السويسريون من متابعة انتصاراتهم إستراتيجياً ، ولم يتمكنوا أبداً من إقامة قوة سياسية من الدرجة الأولى من أنفسهم ، وتحولوا بدلا من ذلك إلى مجموعات كبيرة من الجنود المرتزقة فى أوروبا . فى عام ١٣٨٦ عند سمباك حققوا نصراً آخرأ هاما ، وفى هذه المرة كان النصر على الفرسان المترجلين . ولم يفهم القائد النمساوى خلال المعركة أن الانتصارات السويسرية السابقة كانت راجعه إلى أسلحتهم وتشكيلاتهم الخاصة ، وقدر بدلا من ذلك أن قواته لو قاتلت على أقدامها فمن المفروض أن تكون قادرة بتجهيزاتها ومعداتنا الأثقل على صرع الفلاحين السويسريين . ولكن قبل أن يحدث الأشتباك ، كان النمساويون قد أصابهم الأنهك وأستنزفت قواهم تحت ثقل دروعهم ؛ وكانت تجربة جلبت عليهم كارثة .

وفى عام ١٤٧٦ حقق حملة الرماح السويسريون أعظم انتصاراتين مشهورين على كل انتصاراتهم وهما انتصارها على شارل المتهور حاكم بورجندى عند جرانسون ومورات . وكانت إنجلترا هى المسرح الذى أعلنت فيه ثورة المشاة الأولى على نفسها . وكان المسئول عن هذه الثورة هو أدوارد الأول (١٢٧٤ — ١٣٠٧) فاتح ويلز والمنتصر فى معركة فالكيرك عام ١٢٩٨ . وكان أدوارد الأول قائداً بارعاً ومنظماً عسكرياً من الدرجة الأولى

ففي حملته عام ١٢٦٥ بأفشام برهن على ما يتمتع به من أدراك وتصور استراتيجي بارع، فقد أستطاع بسلسلة من المناورات السريعة أن يعوق جيشين معادين من الالتقاء وتوحيد صفوفهما، بينما ظل محتفظاً طوال هذا الوقت بجهة دفاعية على ساحل نهر طولها ٥٠ ميلاً، وتمكن بهذه الطريقة من تحطيم أحد الجيشين ثم دار بسرعة لاصطياد بسيمون دي مونت فورت في إحدى مخاضات النهر. ومرة أخرى في حرية الويلزية (١٢٧٧ — ١٢٩٥) أظهر أدوارد إدراكه وتفهمه للاستراتيجية الصحيحة عند بناءه شبكة منظمة من الطرق والحصون ولا حظ أنه لن يستطيع قهر رجال الجبال الويلزية بالجيش التقليدي لهذا العصر (أي بجيش من الفرسان) والذين حددوا مدة اشتراكهم في القتال بفصل الصيف فقط. ولذا قام بأبتكار فكرتين على جانب كبير من الأهمية، وهما اعتماداً على جيش محترف مؤجر ومتعاقد على القتال طوال العام، واستغلاله لإمكانيات القوس الطويل. وقد بدأ احتراف الجيوش مع تزايد اعتمادها على المرتزقة، كما أن عدم ملائمة القوات الإقطاعية العادية للحملة الويلزية أرغمت أدوارد الأول على التخلي عن هذه الطريقة من التجنيد الإقطاعي. وعلى كل حال كان النظام الإقطاعي نفسه يتحطم لأسباب اقتصادية ودستورية عديدة. كما أنه في القرن اللاحق جعلت العوامل الاقتصادية التخصص والجيوش المحترفة ضرورة أكثر من قبل وذلك عندما أصبحت الأنواع الجديدة من الدروع باهظة التكاليف بالإضافة إلى الهبوط الحاد في تعداد سكان أوروبا تحت وطأة الطاعون. وكان حل أدوارد الأول لمشكلة التجنيد هو تشجيع الكثيرين من باروناته الإقطاعيين على استبدال خدمتهم الإقطاعية بـ «البدل» والتي أشير إليها في بداية هذا الفصل، كما طلب من باروناته الآخرين إحضار قوات أقل ولكن أفضل، وتعهد على التعاقد معهم للخدمة بعد انتهاء خدمتهم الإلزامية حسب تعهدات الأقطاع، وفي سبيل ذلك سيدفع لهم أدوارد أجورهم أثناء هذه المدة الإضافية.

وأول هذه التعاقدات العسكرية عرف باسم «الألزام» وتم عام ١٢٧٧. وطور أدوارد الثالث هذا النظام خلال حروبه الفرنسية والاسكتلندية. وكانت هذه التعاقدات العسكرية عبارة عن اتفاقيات مكتوبة ومحددة بين الملوك والضباط المحترفين، وفي تلك الاتفاقيات يحدد

تماما حجم القوة التي سيتم استخدامها ومكان ونوع ومدة الخدمة ومعدلات الأجور والمفتح... إلخ... وغالبا ما كانت القوة التي تقدمها مثل هذه الاتفاقات تتكون من جميع الأسلحة وتضم في صفوفها مهنا مختلفة مثل الصناع والجراحين والقسس والمترجمين بالإضافة إلى رماة السهام والفرسان المدججين بالسلاح، وتراوحت مدة الخدمة من ٤٠ يوما (حسب قانون الإقطاع القديم) إلى ما تحدده مشيئة الملك. وعلى سبيل المثال تعاقد في عام ١٩٦٠ أبريل حاكم كنت على خدمة الملك لثلاث شهور في مقابل الأجور المعتادة للحرب، وطبقا للاتفاقية تعين على أبريل أن يقدم ٦٠ فارسا و ١٢٠ من رماء السهام على أن يمتطي الجميع الخيول. ومن عام ١٣٤٠ فصاعدا لم يعد هناك أى عناصر إقطاعية في جيوش أدوارد الثالث، وأصبحوا يتكونون تقريبا من رعاية بالإضافة إلى جماعات قليلة من المرتزقة الأجانب. وقد خدموا جميعا طبعا لتعاقدات «الألزام» وتحت قيادة ضباط محترفين وعلى جانب عال من المقدرة والكفاءة.

وخلال حرب المائة عام كان تعداد فرنسا يبلغ خمسة أضعاف سكان إنجلترا إلا أن الفرنسيين تمسكوا بنظام التجنيد الإقطاعي، وبذلك لم يتوفر لديهم مشاة مناسبة، وبالرغم من أن فرسانهم كانت أكثر عدداً من فرسان الإنجليز إلا أنهم كانوا أضعف تنظيماً وأقل تدريباً.

المركة الرهيبة

أما الابتكار الثوري الثاني لإدوارد الأول فكان في جعله القوس الطويل هو السلاح الرئيسي للإنجليز.

ففي إيفشام (١٢٦٥) كان الرماة الإنجليز لازالوا مسلحين بالقوس النشاب، ولكن في الحروب الويلزية (١٢٧٧-١٢٩٥) وصل القوس الطويل إلى مقدمة الأسلحة الإنجليزية، يعود النصر الإنجليزي عند قنطرة أورين (١٢٨٢) إلى هذا السلاح، وفي الحقيقة كان أصله من أسلحة ويلز.

وقد بلغ ارتفاع القوس الإنجليزي الطويل ستة أقدام وأربعة بوصات، وكان يتطلب لجذبه قوة عضلية تساوي حوالي ١٠٠ رطل، ويصنع عادة من خشب الطقوس^(١) وخشب الدردار.

وكان عرض القوس $1\frac{1}{4}$ بوصة وسمكه $1\frac{1}{4}$ بوصة ، ذات شكل مسطح منبسط من الخارج ومستدير من الداخل . ونهايات القوس مدببة مسكوكة بقرن لتثبيت وتر القوس . ومن المرجح أن الوتر كان يصنع من خيط القنب الملفوف عليه حبل رفيع من الكتان .

أما السهم أو القصة فكان طولها ٣١ بوصة وتنتهى برأس صغيرة على شكل معين ومثبت فى نهايته ثلاث ريش من ريش الأوز . ولا شك أن مثل هذا القوس الذى يبلغ طوله ٦ أقدام يحتاج إلى رجل قوى وطويل جداً ، ويحتاج للعمل به إلى جذبه فى حركة واحدة تقريباً حتى زاوية الفك السفلى ثم يصوب ويطلق ، وقد بلغ المدى الدقيق ٢٥٠ ياردة بينما كان أقصى مدى هو ٣٥٠ ياردة والدرع الوحيد الذى كان يرتديه حملة الأقواس الطويلة هو غطاء معدنى للرأس وعباءة ملبدة أو محشوة ، وفى بعض الأحيان ارتدوا حلة مصفحة كاملة ، وحمل الرماة إلى جانب القوس سيفاً وفى بعض الأحيان حملوا هراوة برأس حديديه ولحماية أيديهم كانوا يرتدون عليها واق من الجلد ، كما أبقوا شعرهم قصير حتى لا يمنع الوتر من الإشتباك والتعقد مع شعرهم ، وبهذا خلقوا تقليداً عسكرياً بريطانياً .

ومنذ عام ١٢٥٢ فصاعداً أصبح لزاماً على كل من يمتلك ٤٠ شلناً إمتلاكاً حراً أن يمتلك قوساً ، وبذلك أصبح جميع الفلاحين الصغار والذين يملكون أرضاً صغيرة ويزرعونها عبارة عن ميليشيا من الرماة .

وكان يتم التدريب على الرماية فى أوقات مختلفة وإجبارياً ، وكان يأخذ صوراً مختلفة مثل الرماية على تقار خشب أخضر اللون يوضع فوق برج الكنيسة وذلك بعد صلاة الأحد ، أو على شكل مباراة الروفر^(١) .

وقد عرفت الطاقات التكتيكية لنيران المقذوفات بصورتها الكاملة خلال حروب إدوارد الأول بويلز .

فالسيل النهمر من السهام كخطوة مبدئية يثير أعصاب جنود العدو ثم يدمر تلاحهم وتماسكهم ، كما يكون غطاء لتقدم الفرسان .

(١) جولف العصور الوسطى والذى يتقدم فيه الرماة من ميدان إلى ميدان ويطلقون أسهمهم على هدف بعد الهدف . « العرب »

وفي ديسمبر ١٢٨٢ عند قنطرة أورين استطاع الإنجليز بقيادة أدوارد مورتيمر وجودن جيفارد أن يهزموا أهل ويلز .

وكان حملة الرماح من أهل ويلز محتشدين في موقع قوى على أحد المنحدرات ، ولكن فاجأهم الإنجليز بإطلاق بوابل من سهام الأقواس الطويلة عليهم من الجنب ، وبعد ما تحقق الإنجليز من تأثير سهامهم أطلقوا فرسانهم لمهاجمة أهل ويلز . وبفلس الأسلوب تقريباً استخدم في القتال في معركة بالقرب من كونواي عام ١٢٩٥ ، كما أن أدوارد الأول نفسه حاول عام ١٢٩٨ أن يطبق نفس هذه التكتيكات الجديدة ضد الاسكتلنديين في فالكيرك ، وفي هذه المعركة صمد وليام ولاس في مواجهة الإنجليز بأقوى موقع دفاعي ممكن . وانتظم الاسكتلنديون في أربعة مجموعات كبيرة من حملة الرماح ، وكان الموقع الاسكتلندي على ميل حاد وفي مؤخرته غابة وأمامه أرض سبخة . أما إدوارد الذي كان بعيداً عن قاعدته وتقصه الإمدادات علاوة على أنه كان مصاباً بكسر في ضلعين من ضلوعه ، وبالرغم من ذلك فقد قرر القيام بالهجوم .

وبدأت المعركة بالتفاف الفرسان الإنجليزية من يمين ويسار السبخة ليهاجموا الاسكتلنديين من كلا الجانبين ولكن حملة الرماح الاسكتلندية صدوهم بسهولة . وبدلاً من أن يأمر إدوارد بهجوم ثان من الفرسان ، أحضر رجاله من حملة الأقواس الطويلة ، ومن مسافة قريبة جداً أطلق هؤلاء سهاماً مركزة على نقطة معينة في حشود العدو ، وسرعان ما سقط الكثير من الاسكتلنديين وشاعت الفوضى والاضطراب بين الباقين ، وفي هذه اللحظة قام فرسان الإنجليز بهجوم ثان على الأجزاء الضعيفة من جبهة العدو نتيجة للسهام الإنجليزية المركزة ، وهذا الهجوم حسم المعركة وانتهت بمذبحة رهيبية .

أما هزيمة الإنجليز على يد الاسكتلنديين بقيادة بروس عند بانوكبيرن عام ١٣١٤ ، فسببها أن إدوارد الثاني عاد إلى إتباع أسلوب القتال القديم وعدم تنسيقه العمل بين رماته وفرسانه ، ولكن ذلك لم يكن سوى ذلة مؤقتة .

ففي عام ١٣٣٢ أحدث إدوارد في معركة دبلن تطوراً كبيراً في الأسلوب الإنجليزي الجديد بإشراك الرماة مع الفرسان (بعد أن تترجل) في تشكيل دفاعي ، فوضع

الفرسان المترحلة في الوسط بينما انتشر رماة السهام على الجناحين على شكل هلالى متباعدين وغير متماسكين حتى لا تشجع العدو على الهجوم عليهم، إذا كانوا في حشد . وعند ما بدأت المعركة وتركزت في الوسط ، قام الرماة وفي وقت واحد بإطلاق سليل من سهامهم على أجنحة الطواير الاسكتلندية ، ففقد الاسكتلنديون صوابهم وأخذوا يتخبطون ببعضهم ، وهنا اندفع الفرسان الإنجليزية بهجوم حسم المعركة .

وفي العام التالى كرر إدوارد الثالث بمعاونة كبار الضباط الذين قاتلوا معه في دبلن مور ، هذه الخطة التكتيكية في معركة تل هاليدون وحصل على نفس النجاح الذى حققه في دبلن مور .

خزير الاجهاز والرحمة

(أنظر اللوحة رقم ١٨)

وفي عام ١٣٣٧ بدأت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، وقد سببت الخسومات والخلافات والعداء أن أصبح هذا الصراع الطويل أمراً ذا أهمية وطنية لكلا الجانبين . وتضمنت المشكلة الوضع الإقطاعى للدوقية الإنجليزية في جيين (في جنوب غرب فرنسا) وإدعاء إدوارد الثالث بحقه الشرعى فى عرش فرنسا ، والمعاونة الفرنسية للاسكتلنديين والنزاع حول تجارة الصوف الفلمنكى ، وحرب الحدود الطويلة بين التجار الإنجليز والفرنسيين فى بحر المانش .

وتطورت هذه الحرب من غزوات إنجليزية قليلة غير متصلة إلى حرب تدمير واستنزاف كبيرة ولكن ليست ذات معارك حاسمة .

وفي الواقع وصلت الحرب لأن تكون فى الحقيقة عبارة عن أعمال نهب متكررة للمزارع والأديرة فى كل من نورماندى وبريتانى واكويتين، وتقوم به جماعات من الجنود المحترفين المتوحشين .

وكانت أول معركة كبيرة فى هذه الحرب هى المعركة الحربية التى دارت رحاها خارج سلويز عام ١٣٤٠ .

وظلت السفن على نفس طراز سفن الفايكنج لمدة ١٥٠ عاماً بعد معركة هاستنجز ، كما لم يحدث أى عمليات بحرية كبيرة فى المياه الشمالية .

ولكن في القرن ١٣ نشبت حرباً شبيهة متواصلة في بحر المانش ذات ضراوة إلى حد ما .

وفي هذا القرن تطور بناء السفن حتى أصبحت سفينة القيادة لإدوارد الثالث والمسماة « توماس » حمولتها حوالى ٢٧٥ طن وطاقمها مكون من ١٣٧ رجلاً . كما أصبح للسفن جوانب عالية وأسطح مرتفعة عند مقدمتها ومؤخرتها . وعادة ما كانت القوة الدافعة في السفينة هي شراع مربع واحد كبير . وكانت التكتيكات المستخدمة في البحر هي نفس التكتيكات المستخدمة على البر ولم يكن الاختلاف إلا في نوع التسليح . وقد قاتل الفرنسيون عند سالويز بالسيوف والرماح وبعض من القوس النشاب ، بينما قاتل الإنجليز بفرسانهم المترجلين . ولكن اعتمد الإنجليز أساساً على حملة الأقواس الطويلة^(١) وكان إدوارد الثالث يتولى القيادة بنفسه ، وكان لدى الإنجليز ١٤٧ سفينة بينما كان لدى الفرنسيين ١٩٠ سفينة . ونظم كلا الجانبين أسطولهما في ثلاث مجموعات ، ولكن الفرنسيين ربطوا سفن كل مجموعة مع بعضها بحيث تكون لديهم ثلاث أرضيات عائمة كبيرة لجنودهم ، أما الإنجليز فاتخذوا تشكيلاً أكثر مرونة ويتكون من سفن متعاقبة تحمل الرماة والفرسان المترجلة . كان الأسلوب التكتيكي الإنجليزي في إطلاق قصف أولى للمقذوفات من على مدى بعيد بهدف إضعاف قوة العدو ، ثم بعد ذلك يتم الاقتراب منه حتى يتمكن جنودهم المسلحين بالرماح والسيوف من إعتلاء سفن العدو ومقاتلة جنوده . وبعد قتال دام ثمان ساعات انهزم الفرنسيون . وفقد الفرنسيون في هذه المعركة ثلاثة أرباع رجالهم وسبعة أثمان سفنهم .

وبالرغم من أنه لم يحدث معارك برية كبيرة إلا بعد ابتداء الحرب بحوالى ١٠ سنوات إلا أنه حدثت حملات عديدة أعطت لكلا الجانبين الفرصة ليشعر بالآخر . ولقد تشابه تسليح ومعدات فرسان كلا الجانبين ، وكانت البدلة المدرعة والتي على شكل زردات معدنية في طريقها إلى التحول إلى ألواح معدنية لها شكل ملائم للجسم ، وأصبحت الخوذة أكبر

(١) تطلق سهاماً خاصة مزودة برؤوس عريضة لتقطع الأشجرة وحبال الأشجرة والصواري للسفن المعادية . « المغرب »

وأكثر قوة ومتانة بينما صغر حجم الدرع وأصبح المهاز من المظاهر البارزة لهذا العصر . وكانت الأسلحة الرئيسية عبارة عن سيف ورمح طوله ١٤ قدماً أو خنجر طويل أو خنجر المسمى « خنجر الأجهاز والرحمة » . وتشكلت الوحدات التنظيمية من أتباع الفرسان وكانت تنقسم إلى مجموعات أو « مرافيق » كل منها تتألف من ثلاثة أو أربعة مقاتلين . وكان لدى الجانبين الإنجليزي والفرنسي بعض الأسلحة الدارية ، ولكن لم تكن لهذه الأسلحة أى فائدة تكتيكية في هذا الوقت . أما نقطة الاختلاف بين الإنجليزي والفرنسيين والتي تفوق بها الإنجليزي هي التدريب والتجنيد ونوعية المشاة ، فالمحترفون الإنجليزي كانوا على جانب كبير من النشاط والحيوية نتيجة للنجاح الذي حققوه في أسكتلندا ، بينما كان مجندوا الأقطاع الفرنسي لم يكن لديهم أى خبرة قتالية منذ ٢٥ عاماً اللهم إلا بعض الحملات القليلة في داخل جيمين . وكان لدى الفرنسيين وحدات من المشاة حملة النشاب بينما كان لدى الإنجليزي قوة كبيرة من الرماة الذين يستخدمون سلاحاً مداه ضعف مدى القوس النشاب ويعطى ستة أضعاف معدل نيران النشاب .

وقبل وقوع الصدام الكبير الأول بين الجانبين في معركة كريسى عام ١٣٤٦ ، تلقى الفرنسيون درسين قاسيين ذاقوا فيهما طعم المرارة الحادة من قوس الإنجليزي الطويل . ففي عام ١٣٤٢ عند موقعه مورليه ، وضع إيرل نورثامبتون رجاله في خنادق دفاعية على سلسلة مرتفعة خلف أحد المستنقعات ، وقد وضع في الوسط فرسانه المترجلين بينما وضع الرماة على الجناحين . وعند بدأ القتال قصف الرماة سيل منهمر من سهام الأقواس الطويلة على فرسان الفرنسيين المهاجمة مما أدى إلى حدوث اضطراب مرعب وفي هذه اللحظة إنقض عليهم من أعلى الفرسان الإنجليزية . وصرة أخرى تصيد الفرنسيون أحد الطواير الإنجليزية عند « سانت بول دي ليون » في بريتانى وحاصروه ، ولكن الإنجليزي ثبتوا وأمطروا عدوهم بوابل من السهام ونتج عن ذلك أن القتال أصبح مذبحاً حقيقية للفرنسيين .

وفي الفترة من ١٣٤٥ — ١٣٤٦ بدأ أدوارد الثالث يفكر في إستراتيجية طموحة ، وذلك بمهاجمة فيليب الرابع ملك فرنسا على خطوط خارجية أى في كل من بريتانى وغاسقونيا والفلاندر . وقام كل من إيرل نورثامبتون وسيرتوماس داجورت بحملات ناجحة في

بريتانى بينما عمل إيرل دربى فى الجنوب الغربى . وفى عام ١٣٤٦ أثير فيليب وتقدم نحو دربى ، ولكنه اضطر إلى العودة شمالاً فى يولييه عندما وصلتته أنباء نزول أدوارد الثالث قرب شربورج ومعه أكثر من ١٠٠٠٠ مقاتل ، وعلى الفور دفع من دربى بحمله خداعية فى اتجاه بوتيميه .

وبعد كل هذه الهجمات ، كان أدوارد يأمل أن يحث ذلك فيليب فيقدم شروطاً للاتفاق أو يقابله فى معركة حاسمة ، ولكن إستراتيجية كانت غير محددة المعالم . وتقدم الجيش الإنجليزى على جهة عريضة ، وكان تقدمه هذا من خلال كثير من الأراضي التى قاتلت عليها جيوش الحلفاء بعد غزو نورماندى فى يونيه ١٩٤٤ . ودمرت القوات الإنجليزية جميع قواعد السفن والسفن نفسها على طول الساحل ، وتم الإستيلاء على كان فى ٢٦ يولييه ، واستمر الزحف حتى نهر السين وبعد هذا واجهت أدوارد المشا كل ، فقد عاد الكثير من سفنه إلى إنجلترا ولم يعد لديه مواصلات مأمونة فى الخلف ، فى نفس الوقت كان يتقدم من الجنوب جيش فرنسى كبير . وهنا برز له السؤال التالى ألا يكون من الاكثر أمناً التحرك بعيداً إلى الشمال الشرقى نحو الفلاندر ، فهذا يعطيه الأمل فى الإتصال بقوة الإنجلو — فلا ندرية والتى كانت تتقدم جنوباً من أبرس ؟ ولكن لم يكن فى استطاعته كما كان يأمل عبور نهر السين عند روفن نتيجة لتدمير الكوبرى الموجود بها .

ولكن ذلك لم يشبط من عزيمته ، وبسرعة قرر التقدم بجيشه بمحاذاة نهر السين حتى يجد مكاناً صالحاً للعبور والذى وجده عند بوس بالقرب من باريس ، وعبرت القوات الإنجليزية ولحسن حظه أن فيليب فشل فى مهاجمته ، فتقدم أدوارد بأقصى سرعة فى اتجاه السوم . وفى ٢٢ أغسطس وصل إلى ابيفيل ، أما فيليب فى ذلك الوقت كان عند مدينة أمينس . وفى ٢٣ أغسطس وصلت مقدمة الفرنسيين إلى ايرينى بعد ان غادرتها مؤخرة الإنجليز بساعتين . والآن أصبح موقف ادوارد حرجاً لأن عليه عبور نهر السوم والذى يعتبر فى الواقع عائقاً كبيراً . واننى اعرف هذه المنطقة جيداً فقد خضت على ارضها غمار حربين عالميتين ، ولذا يمكننى ان اتصور بجلاء مشاعر واحاسيس ادوارد . ولكن فى تلك اللحظة العصيبة لم ينقذ ادوارد سوى شجاعته وقراره السريع الحاسم . فى ليلة ٢٣ اغسطس عرض مكافأة كبيرة

لأى شخص يده على مخاضه لعبور السوم ، وفعلًا تقدم أحد السكان الفرنسيين وخان بلده وأرشد الإنجليز ليلا عن مكان على نهر السوم عند قرية بلاشتاك التي تبعد ١٠ أميال أسفل ابفيل ... وكان النهر هناك عريضاً جداً ويحتل العدو الضفة الأخرى بقوة مكونة من ٥٠٠ فارس و ٣٠٠٠ من المشاة . وفي صباح اليوم التالي تقدم الرماة الإنجليز للعبور، وبالرغم من بلل اوتار الأقواس ووصول المياه إلى وسط الأفراد فقد استطاعوا تطهير الضفة المقابلة مما ساعد الفرسان في شق طريقهم من ورائهم . ثم بدأ حرس المؤخرة في عبور النهر وهي تقاتل في نفس الوقت القوات الفرنسية القادمة من الخلف . والأمر الغريب أن القوات الفرنسية لم تقم بعد ذلك بمطاردة تالية للقوات الإنجليزية .

ولقد كان العبور الإنجليزي وعدم وقوع قواتهم بين براثن القوات الفرنسية عند بلاشتاك عملاً ممتازاً اشتركت في ابرازه جميع اسلحتهم .

(انظر اللوحة رقم ١٨)

الحادث الإنجليزي المروع

وفي ٢٥ اغسطس استراح الجيش الإنجليزي عند حافة غاية كريسي بينما كان الجيش الفرنسي موجود عند بوئيه والتي تقع على بعد ١٠ اميال شمال ابفيل . قد قرر ادوارد ان يخوض المعركة مع الفرنسيين ، ويبدو واضحاً ان فيليب وصل ايضاً إلى نفس القرار . وكان ادوارد يشعر بأنه مضطر للدفاع عن إملاك جدته في كريسي آن بوئيه وهذا بالإضافة الى ارتفاع معنويات جيشه بعد معركة بلاشتاك . وقد علم ادوارد ايضا ان الفرنسيين أوقفوا التقدم الأنجلو/ فلا ندرى على مسافة ٥٥ ميلا الى الشمال وهذا يعنى انه لا يتوقع اى مساعدة منهم .

ولكن في نفس الوقت كان الأصدقاء من الفلاندرين على مسيرة ٣ ايام فقط إلى الشمال علاوة على عدم وجود اى عوائق طبيعية في حالة الانسحاب شمالاً .

وفي صباح ٢٦ اغسطس ١٣٤٦ أعد ادوارد الثالث جيشه للمعركة ، وكان لديه فرصة إختيار المكان وأيضاً الوقت الكافي لحشد وفتح قواته للقتال . وعلى الفور اختار موقعاً دفاعياً قويا لسببين، الأول أنه يعلم أن عدوه يفوقه عدداً والثاني أن ذلك الموقع سوف يلائم أسلوبه التكتيكي . وكان هذا الموقع الدفاعي عبارة عن سلسلة مرتفعة من الأرض تمتد حوالى

٢٠٠٠ ياردة في إتجاه الشمال الشرقى من قرية كريسى إلى مجموعة المنازل واديكورت .

وكان هناك نهر يسمى مايى يجرى من الشرق إلى الغرب مارابكريسى ، وكان هذا النهر يبعد عن نهاية السلسلة الجنوبية (الجناح الأيمن الإنجليزى) بمسافة حوالى ١٠٠ قدم وفى هذا المكان كانت السلسلة حادة الميل ولأسفل ولكن فى الشمال الشرقى كان الميل يتدرج حتى يصبح قليلا جداً عند الجناح الأيسر الإنجليزى .

وخلف السلسلة بمسافة بضعة مئات من الياردات كانت توجد غابة . وزاد من القوة الطبيعية للسلسلة وجود ثلاثة مسطحات مدرجة من الأرض فى المنتصف . وكانت هذه المسطحات والتي يبلغ طول الواحدة منها حوالى ٣٥٠ ياردة ، أقيمت أصلاً بغرض الزراعة ، ولذا كان من الصعب جداً على الفرسان أن تغلب عليها واجتيازها وبذا همت القرية والمجرى المائى الجناح الأيمن للإنجليز تماماً . أما الجناح الأيسر ولو أنه كان أضعف كثيراً إلا أن ذلك لم يكن له قيمة كبيرة نظراً لضرورة تقدم الفرنسيين على طول طريق ابيفيل — هسدن الذى يقع على اليمين . وهذا الخط الدفاعى الكبير المتد حوالى ٢٠٠٠ ياردة لم يكن لدى أدوارد أكثر من ١٢٠٠٠ — ١٣٠٠٠ مقاتل فقط لإحتلاله ، ولكن استطاع أدوارد التصرف بأن ترك المسطحات يدافع عنها عدد قليل من الرجال مما أدى أن العدد الكلى لجيشه كان كافياً للدفاع عن المنطقة كلها . وقرر أدوارد أن يستخدم أسلوب معركتى تل هاليدون ومورليكس بأن يستخدم الفرسان مترجلين ، لذلك ترك الخيل والأمتعة الثقيلة فى معسكر محصن فى الخلف بالقرب من النهر . ووضع مجموعة الفرسان الأولى والرئيسية على اليمين فى أسفل الميل وعلى مسافة حوالى ٣٠٠ ياردة فقط من قاع الوادى وكان قائد هذه القوة الأمير الأسود البالغ من العمر ١٧ عاماً ، وكان يعاونه كل من جدفري هاركورت وايرل ورويك . بينما وضعت المجموعة الثانية من الفرسان الخضرمين على اليسار وإلى حد ما فى أعلى الميل تحت قيادة ايرل نورثامبتون . ووضعت المجموعة الثالثة من الفرسان^(١) خلف منتصف الخط بقليل لتكون احتياطى للقوات .

ووضعت الرماة فى تشكيلات متداخلة ، فوضع جزء منهم فى الوسط للربط بين مجموعتى

الفرسان الأمامية بينما وضع جزء آخر على أجناب مجموعتي الفرسان الأمامية وبذا ربطوا الفرسان بالقريتين فأصبح الموقع يرتكز جانبيه على قريتي (كريسي وواديكورت) ، كما وضع جزء آخر من الرماة على جانبي المجموعة الثالثة لفرسان أدوارد . وقد بلغت النسبة بين الرماة والفرسان الإنجليزية حوالى ١ : ٢ .

وجرى حفر شرك خداعية أمام مجموعة فرسان الأمير الأسود ، أمام مركز قيادة أدوارد فكان في طاحونة هوائية تقع على أعلى نقطة على السلسلة وتبعد حوالى ٧٠٠ ياردة من قرية كريسي ، ومن هذه البقعة أستطاع أدوارد السيطرة على كل الخط الإنجليزي علاوة على طريق الإقتراب المنتظر الفرنسي وهو الطريق القادم من ابيفيل .

وبعد أن تم للقادة توزيع وتحديد أما كن قواتهم وتمركزهم في الخط الدفاعي ، أمتطى الملك أدوارد حصانه مارا على طول الموقع الدفاعي مشجعا جنوده ، لأن عرشه وملكه يعتمد على تصرف قواته في هذه المعركة ، وحتى حلول منتصف اليوم لم يكن هناك أى أثر للعدو ، وبناء عليه منح أدوارد رجاله إذنا بترك الصفوف لتناول وجبه من الطعام . وترك كل رامى قوسه وجعبة السهام في مكانه بينما ترك كل فارس خوذته . وموعد صلاة المساء أى حوالى الساعة ٤ مساءً أثمرت الأمطار فجأة ، فهرع الرماة لتغطية اوتار أقواسهم ، وكان لا يزال لا يوجد أثر للعدو .

أما فيليب والذي ضللتته مخبراته ، أعتقد أن الإنجليز بالقرب من نهر السوم ، وأصدر أوامره بالتقدم من ابيفيل عند الفجر ، ولكن افراد استطلاعهم اخذوا يبحثون عن الإنجليز في الاتجاه الخاطئ . ولم يتقدم الفرنسيون إلا بعد إنتهاء المطر مباشرة آتين من ابيفيل في اتجاه مجرى مائي . وعندما ابصرهم ادوارد من مركز قيادته في الطاحونة امر بالنفير في الأبواق وهرع الجنود الإنجليز إلى أما كنهم .

أما جيش فيليب الإقطاعي فكان تحت قيادة مجموعة لامعة من الأمراء والنبلاء ، فكان بصحبته كل من الملك جون (ملك بوهيميا) وابنه شارل (ملك الرومان) وجيمس الثالث (ملك مينوركا) والكثير من فرسان فرنسا ومنطقة الراين المشهورين . وكان أفضل قوات الجيش الفرنسي هي فرسان الحرس الملكي و ٦٠٠٠ جندي مرتزق من حملة

النشاب من جنوا ، أما العدد السكلى للجيش الفرنسى فهو غير مؤكد على وجه التحديد ولكن يتراوح بين العدد الذى أوردته السجلات الإنجليزية المعاصرة للتفاخر وهو ١٠٠٠٠٠٠ وبين العدد الذى أقترحه البروفسير لو كفظ لماء الوجه أى ١٢٠٠٠٠ . أما أنا فأعتقد أن الرقم ٤٠٠٠٠ هو الرقم الذى يمثل تقريباً الحقيقة .

وقد لوحظ من على بعد أن الجيش الفرنسى المتقدم يسوده بعض الإضطراب وسوء النظام ، ومن الممكن أن يكون ذلك سبب تغييرهم اتجاه سيرهم ، وساء الموقف أكثر عندما شاهد فيليب الحشد والنظام الإنجليزي مما أدى أن قرر من الأفضل تأجيل المعركة حتى اليوم التالى ، وأطاعت مقدمة الجيش هذا الأمر بينما لم تطعه المؤخرة . ووجد رجال المقدمة أنفسهم مجبرين على مواصلة التقدم تحت ضغط المؤخرة وبدون أوامر محددة وواضحة . وأكثر من ذلك كان الاقتراب الفرنسى نحو جبهة الإنجليز فى زاوية مائلة مما اضطرتهم إلى الدوران اليسار نصف دورة فى آخر لحظة حتى يمكنهم مواجهة الخط الإنجليزى فى شكل مباشر . ولم يمكن تجنب عدم الانتظام خلال هذا الدوران الذى وصل إلى حالة من الفوضى فى الميل الأخير . وغير معروف بالضبط التشكيل الفرنسى الذى واجه الإنجليز بل أنه من أكثر الأمور غموضاً . ولكن من المحتمل وعلى أساس نظرى أن الفرسان الفرنسية انقسمت إلى ثلاث مجموعات ، قاد المجموعة الأولى ملك بوهيميا وكونت اليكون بينما قاد المجموعة الثانية الكونت بلوزا ودوق اللورين ، وقاد المجموعة الثالثة الملك فيليب نفسه ومعه ملك الرومان ، وفى المقدمة سار حملة النشاب من جنوا . وواجهت شمس الغروب المنخفضة أعين الفرنسيين ، الأمر الذى يشكل خطراً جسيماً فى المعركة سواء أكانت معركة دفاعية أو هجومية . وقد قت باتباع هذا الأسلوب التكتيكى فى معركة خطر مارث فى مارس ١٩٤٣ حيث دفعت هجوى المضاد ضد آخر مواقع الألمان القوية عند النهاية الشمالية لتلال «ماتاتا» ليهاجم من اتجاه الشمال الشرقى بعد الظهر ، فى الوقت التى كانت فيه أشعة الشمس الإفريقية آخذة فى الرحيل ، وبكل بريقها وسطوعها ينفذان مباشرة فى أعين الألمان .

ولنعد الآن إلى فيليب وإدوارد ، فنجد أن الإنجليز أنتظروا فى سكون بينما تقدم الفرنسيون وهم يطلقون صيحات المعركة وهم واثقين على الأقل من تفوق عددهم . وعندما

أصبح رماة جنوا في مدى القوس الطويل^(١) ، أطلقت أول قصفة إنجليزية ، وما هي إلا دقائق حتى بدأ رماة جنوا في التخبط والاضطراب وساد الذعر عندما أطلق الإنجليز مدفعهم^(٢) . وتقول الوثائق « أن المدفع أحدث صوتاً كصوت الرعد » .

ولقد كان ذلك حدثاً هاماً وخطيراً بالرغم من أن تأثير المدفع لم يتجاوز مجرد أحداث صوت كصوت الرعد . وبالرغم من هذا واصل فرسان الفرنسيون تقدمهم خلال رماة جنوا التي أصابها المهرج مما أدى أن الخيل وطئت الكثير من رماة جنوا ، بينما استمر القوس الطويل في عملية إبادة الفرسان الفرنسية .

وتقول الوثائق « ترك الرماة الإنجليزية سهامهم تطير حرة كيفما اتفق ، ولم يضع لهم سهماً واحداً ، لأن كل سهم ينطلق كان يعنى نهاية رجل أو حصان . . . وهكذا سقط الفرسان الفرنسية قتلى أو جرحى دون أن يبصروا قاتليهم » .

ومن المرجح أنه لم يصل رجل واحد من المجموعة الأولى للفرسان الفرنسية إلى مسافة الالتحام مع الإنجليز ، ولكن الموجة الثانية للفرسان الفرنسية هاجمت وهي تخوض في جثث وأشلاء الموجة الأولى . ولم يكن استمرار المعركة يعنى في الواقع أكثر من مواصلة حشود الفرسان الفرنسية بهجمات انتحارية ، وقد عرف الإنجليز بعد المعركة أنهم دمروا من بداية المعركة حتى نهايتها حوالى ١٥ هجوماً فرنسياً متوالياً . وباندفاع مستميت وشجاعة يائسة أنطلق الفرنسيون إلى أعلى الميل محاولين في كل مرة الوصول إلى فرسان الإنجليز بطريقة بعيدة عن الطرق التقليدية ، ويرجع السبب الفعلى إلى أنه لم يكن في استطاعتهم أو خيلهم مواجهة سهام الإنجليز . فالرماة الإنجليزية يطلقون أولاً قصفاتهم لبعثرة العدو وإبطاء قوته الدافعة ، وبعد ذلك يقصفون أجنحة المهاجمين . واستطاعت مجموعات قليلة من أشجع الفرسان الفرنسية مثل جماعة أتباع ملك بوهيميا ، من الوصول إلى مواقع الفرسان الإنجليزية ولكن ليقتلهم رجال أكثر عدداً وراحة منهم . وقد عرقلت كل موجة هجوم فرنسية تاليه البقايا المنسحبة من الهجمة السابقة واستمرت الهجمات

(١) قبل أن يتمكن رماء جنوا من استخدام سلاحهم ضد الإنجليز .

(٢) كان أول مدفع يستخدم في معركة هامة . « المغرب »

الفرنسية لوقت طويل حتى أنها استمرت بعد حلول الظلام ، ولكن أكثرها كان عشوائياً وبدون تأثير في حين ظل الحائط الإنجليزي المدرع ثابت دون أن يضطرب أو يتذبذب .
وراقب أدوارد الواصل من أسلوبه التكتيكي سير المعركة من طاحونته ، وفي المساء دفع مجموعة الفرسان الموجودة على اليسار إلى أسفل قليلاً جاعلاً إياها تدور لتواجه الجنب الفرنسي الأيمن ولكى ترفع الضغط عن فرسان الأمير الأسود ، ولكن إدوارد لم يحتاج أبداً لإستخدام احتياطيه الذى ظل فى مكانه فى الوسط . وقد أبقي أدوارد جميع قواته فى حالة تأهب كامل طول الليل ، لأنه لم يدرك الموقف الحقيقى حتى هذا الوقت . وانتهت المعركة ولم تحدث أى مطاردة للقوات الفرنسية . وفى ٢٧ أغسطس كان الضباب منتشرأ وأمضى الإنجليز هذا اليوم فى تطهير ميدان القتال .

نهاية عصر الحصون النيهة

إذا ألقينا نظرة على معركة كريسى لوجدنا أن جيشاً إنجليزياً مدرباً ومسلحاً جيداً وواثقاً من نفسه ويقوده قائد مجرب وخبير تقريباً بمعظم أساليب التكتيك الجديد لهذا العصر ، أستطاع أن يلحق الهزيمة بالجيش الفرنسي الأكبر منه عدداً ولكنه حشد على عجل فى نفس الوقت غير مدرب ومتعدد الأشكال والجنسيات ومتأخراً عن زمانه علاوة على قيادته الغير حازمة .

وعلى كل كان السبيل الوحيد الحكيم الذى يجب أن يتخذه فيليب هو التوقف خلال ليلة ٢٦ أغسطس وفى الواقع قد أمر به فعلاً ولكن كانت لدى بعض مرؤوسيه أفكاراً أخرى . وعلى العمود فمن الواضح أن فيليب كان يفتقر إلى أحكام قبضته على جيشه وهى ضرورية جداً وخاصة فى المعركة التصادمية .

ونتيجة عن ذلك أن اندفع الجيش الفرنسي دون أن يفتح فى تشكيل المعركة المناسب وأيضاً بدون السيطرة الضرورية فى المعركة . ومن الناحية التكتيكية كانت معركة كريسى القمة المنطقية لسلسلة الإنتصارات التى حققها حملة الأقواس الطويلة منذ معركة قنطرة أروين أى منذ ٦٤ عاماً . واتباع إدوارد انتصاره فى كريسى باستيلائه على كاليه^(١) . ولكن كانت

(١) كانت رأس شاطئ عسكري وتجارى مفيد للإنجليز . ٢٠٠ عاماً مثل جبل طارق فى العصور

العالية . « العرب »

النتيجة الاستراتيجية لمعركة كريسى فى حرب المائة عام هى معنوية فوق كل شىء ، فقد برز الإنجليز فى شكل الشعب العسكرى القيادى لأوروبا ، وأصبح واضحاً أنهم لن يتخلوا عن مغامراتهم فى فرنسا حتى يتمكن الفرنسيون من إيجاد وسيلة لطردهم خارجها .

وقد ظل إدوارد الثالث قائداً عاماً للإنجليز حتى عام ١٣٦٠ وهى السنة التى هدأت فيها ثائرة الحرب بعض الوقت نتيجة لمعاهدة كاليه . ومما يذكر أن الأمير الأسود حقق نصراً عظيماً عن بوايته عام ١٣٥٦ . وظلت معنويات الجيش الإنجليزى عالية كما سبق . وقد ظل إدوارد الثالث ينتهج إستراتيجية ثابتة وواحدة لمدة ٢٢ عاماً ، وهى فترة طويلة تماثل مدة الحرب النابليونية ، بينما كان جنوده يتبعونه واثقين دائماً من قيادته . وأكثر من ذلك فكان الترابط والولاء من أبرز مظاهر أفراد قياداته العليا الذين منهم دربي ووريك ونورثامبتون وهو كود وشاندوس .

إلا أن الحرب تجددت مرة ثانية عام ١٣٦٩ ، وجرى قتال متقطع عديم الجدوى ، بل أن معظم هذا القتال كان عبارة عن قطع الطرق والسلب والنهب . واستمر هذا الحال حتى جاء غزو هنرى الخامس عام ١٤١٥ مغيراً من مظهر هذا القتال . وكانت الشخصية السائدة والمسيطرة قبل قدوم هنرى هى نبيل فرنسا « برتراند دى كويسلين » وكانت إستراتيجيته فى الحذر مع تجنب المعارك الكبيرة الضارية والتركيز على الإنقضاض على الطواوير الإنجليزية المنعزلة ، مما أدى فى عام ١٣٧٧ إلى انقاص الممتلكات الإنجليزية بجنوب فرنسا إلى مجرد منطقة لا يتجاوز نصف قطرها ٢٠ ميلاً حول بوردو . وعلى العموم لم يعتن الفرنسيون بتجديد جيشهم ليحقق بركب التطور فى نفس الوقت رفض الإنجليز الذين لم يهزموا فى معركة حقيقية التخلي عن غزوهم لفرنسا . وكثيراً ما تقدم قواد أنجليز بطابور من الرجال خلال ارض العدو ، ولم يتعدى أكثر من مرور تدميرى ، وأكثر هذه المسيرات شهرة كانت مسيرات جون جنت عام ١٣٧٣ ، فقد تحرك من كاليه ومعة ١٥٠٠٠ مقاتل ليخلص جين ولكن الشتاء هاجمه أثناء مسيرته فى السلسلة الجبلية فى وسط فرنسا ، إلا أنه أستمر فى التقدم عبر الوادى ليصل إلى بوردو وبعد أن قطع ١٠٠٠ ميل فى ٥ أشهر ونصف ، وقد فقد خلال هذا التقدم نصف جيشه دون أن يشتبك فى معركة واحدة .

وإلى حد ما فقد حدث بعض التطور في تكتيكات ودروع الفرسان الفرنسية بعد معركة كريسى ، وذلك للمحاولة للتغلب على مشكلة السهام الإنجليزية . وعلى عام ١٤٠٠ اكتملت عملية النقل من الزرد إلى الدرع المصفح وأصبح الفارس الفرنسى فى داخل الدرع من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ولكن كان معنى تحقيق مطلب الأمان والوقاية فقد عنصر خفة الحركة والذى يفوق فى أهميته أى عنصر آخر .

فالأكثر من دروع الوقاية معناه تحمل الجندى الرأى كـ أثقالاً تجعله عاجزاً عن الحركة . وفى معركة بواتييه عام ١٣٥٦ قام الملك جون (ملك فرنسا) بمثل ما قام به النمساويين فى معركة سمباك وذلك بأن أمر فرسانه بالقتال مترجلين وكانت النتيجة هزيمة نكراء له ولـ النمساويين .

وقد حاول جون أن يهزم المشاة بنفس أسلوبها ولكن بدون أن يفهم كيف تكسب المشاة ، ويعنى هذا أنه ضحى بأثمن ما لديه من عناصر خفة الحركة والصدمة . وعلى أى حال ظل الفرسان الفرنسية تعمل مترجلة لماه عام لاحقة ، كما نبذ استخدام الرمح . وفى معركة أجنكورت لم يجد رماة الإنجليز^(١) أى صعوبة فى هزيمة الفرسان الفرنسية المترجلة المنقادين معاً فى شكل قطيع أخذ يتعثرون فى الأوحال ، وفى النصف الثانى من حرب المائة عام أى من عام ١٤١٥ بدأت المدفعية تؤثر على شكل الحرب ، وتطور المدفع من شكله القديم الذى يشبه الفازة وأصبح ذو شكل إسطوانى ، كما أن تقدم طرق سبك المعادن جعل من الممكن صناعة مدافع قوية وكبيرة بدرجة يمكنها من قذف مقذوفات زنة ٢٠٠ رطل . وفى مستهل حملة هنرى الخامس ضد فرنسا عام ١٤١٥ قام بحصار هارفيلير ، وعندما فشلت الأساليب التقليدية فى تقويض الأسوار ، لجأ إلى المدفعية ، وكان لديه ١٠ مدافع ، منهم ثلاثة بصفة خاصة حجمها كبير وقد سُمى كل مدفع بأسم معين مثل « لندن » و « بنت الملك » . وفى حصار هارفيلير نظم كبير المهندسين جيليس عملية قصف منظمة وثابتة ليلاً ونهاراً ، وركز القصف بصفة خاصة على الأسوار المحيطة بالبوابة . وبعد ٣٧ يوماً كانت البوابة والحصن الأمامى قد أصبحا حطاماً ، وبعد ذلك أشعل جيليس النار فى أجزاء السور الخشبي باستخدام دانات حارقة . وعندما أقتحمت

(١) فى هذه المعركة أصيب الرماة الإنجليز بالدوسنطاريا . « العرب »

القوات الإنجليزية المدينة من مكان الصدع الذى أحدثته المدفعية استسلمت المدينة . ومع تخطيط مدفعية هنرى لأسوار هارفليير أنقضى عهد الحصون المنيعه ، ولكن لم يحدث حتى نهاية القرن ١٥ رد فعل مضاد من المهندسين العسكريين .

ظهور جان دارك

وبحلول عام ١٤١٩ ، كان هنرى الخامس قد أعاد الإستيلاء على نورماندى ، ولكنه مات عام ١٤٢٢ .

ومنذ وفاته حتى ١٤٥٣ استطاع الفرنسيون تدريجياً طرد الإنجليز خارج الأراضى الفرنسية .

وكانت جان دارك إحدى الشخصيات القائدة فى إلهام الفرنسيين ورفع معنوياتهم لاسترداد أرضهم .

وكانت جان دارك فتاة قروية قدمت نفسها إلى بلاط الملك الفرنسى الكسول شارل السابع . وعندما قابلت جان دارك الملك أخبرته أنها تعلم كيف تكسب الحرب . ويبدو أن ظهورها فى نفس الوقت الذى ضرب الحصار حول أورليانز فى عام ١٤٢١ قد أثار حمية الفرنسيين وهبوا لتطهير وسط فرنسا من الإنجليز وقد قال الدوق النيكون أن جان دارك كانت خبيرة فى تمهيد المدفعية .

وأخيراً . . أسرت القوات الإنجليزية جان دارك وأحرقت حية فى عام ١٤٣١ . وعلى كل لا يمكن الجزم ما إذا كانت لدى جان دارك مقدرة إلهية أو أنها كانت مجرد آلة فى أيدي القادة الفرنسيين ، ولكن هناك شىء واحد واضح وهو أنها أعادت بالتأكيـد الروح المعنوية للجيش الفرنسى والتي كانت حطمتها السلسلة الطويلة من الكوارث ، ويبين هذا الأمر أن جان دارك كان لديها عبقرية سيكولوجية .

القلاع المتحركة

وقد كان تفوق الفرنسيين فى المدفعية هو السبب الرئيسى لنجاحهم فى الحرب . ومن رجال المدفعية الأوائل البارزين هو « جان بيرو » الفرنسى ، وقد ذاعت شهرته لأول مرة فى الحصار الفرنسى الفاجح لمايو فى عام ١٤٣٩ ، وكما يقال أنه فى عامى ١٤٤٩ — ١٤٥٠

أى فى عام واحد قاد « بيرو » وشقيقه ٦٠ عملية حصار ناجحة خلال استعادة فرنسا لفورماندى .

وفى معركة كاستيلون عام ١٤٥٣ كان لدى الجيش الفرنسى تحت قيادة بيرو ٢٥٠ مدفعاً . وتكبد الإنجليز خسائر فادحة بسبب نيران المدفعية الفرنسية المتقاطعة والأمامية . وعلى العموم لقد استخدمت مدفعية الميدان قبل هذا الوقت بعدة أعوام فى شرق أوروبا كوسيلة ثالثة تستخدمها المشاة لهزيمة الفرسان الثقيلة .

وفى بوهيميا تولى جون زيسكا القيادة العسكرية لحركة الهسنيين^(١) عام ١٤١٩ وبعد عدة اشتباكات فى شوارع براغ انسحب زيسكا ومعه ٤٠٠ من أتباعه و١٢٠ عربية تحمل المدافع إلى معقل الهسنيين المنيع فى الجنوب عند « طابور » .

وعند قرية سدومر ألتقت قوات زيسكا مع ٢٠٠ فارس ملكى ، وهناك نشر زيسكا قواته بقدر ما أمكن أن توفر له الأرض من حماية لأجنابه ، كما نظم عرباته التى تحمل المدافع فى شكل متشابك مكونة حصناً ، وكان النصر من نصيب الهسنيين .

ومع عام ١٤٢٠ تم تنظيم مدينة « طابور » فى مجتمع يعيش فى حالة استعداد دائم للحرب . وأعلن البابا الحرب المقدسة لإستئصال جذور الهسنيين ، وتجمعت لهذا الغرض قوات كاثوليكية كبيرة .

وفى سنوات الحرب التالية ، بدأ زيسكا يظهر كمفكر عسكري ثاقب الفكر . وضرب عرض الحائط بأسلوب العصور الوسطى الذى يتضمن عدم إمكان هزيمة الفرسان وقد استطاع هزيمتهم بالموارد التى كانت تحت يديه .

وقد لمت له فكرة عمل عربية محصنة عندما شاهد الفرسان وهم بلا حول ولا قوة أمام التحصينات ، وقد استخدم فى ذلك عربات الفلاحين العادية ، وركب المدافع على ظهرها ورتبها فى شكل دائرى ، تماماً كما فعل الرواد الأوائل الأمريكيون بعده ب ٤٠٠ سنة .

(١) كانت ثورة دينية ووطنية وشعبية . « العرب »

وفي الدفاع فقد أعطى نظام العربات المحصنة المتشابكة والمدافع عنها بالأسلحة النارية مزايا القلعة الحصينة علاوة على خفة الحركة .

وكان لدى زيسكا عين ممتازة في اختيار الأرض المناسبة والتي عادة ماتكون قمة تل صغير وقد ملئت الثغرات بين العربات بجواجز تحمل معهم ، وكل عربة تحمل مدفعين صغيرين أو ثلاثة ، أما المدافع الكبيرة فركبت على عربات خاصة . ولقد كان زيسكا أول قائد استخدم مدفعية الميدان في تنظيم وأسلوب منذ تجربة الإسكندر الأكبر في « هايدباس » . وعلى كل فكان الجيش الهيسي يتكون من عدد بسيط من الفرسان للاستطلاع ومشاة من حملة النشاب ، وبالرغم من ذلك كان الجيش منظماً بطريقة تتميز بالكفاءة والفاعلية .

وفي عام ١٤٢٠ ، عندما رضى زيسكا عن مستوى تدريب جيشه بدأ التحرك إلى براغ مستخدماً نظامه الجديد ، وعند « فيتكوف » هزم الملكيين .

وفي نهاية الحملة عام ١٤٢١ كان الهسيون يسيطرون على معظم بوهيميا . واستمر زيسكا في القيادة بالرغم من إصابة بالعمى نتيجة سهم أطلق عليه ، مخططاً لمعاركه على أساس المعلومات الدقيقة الصحيحة عن قوات العدو وأماكنها والتي كان يعرفها من إجابات معاونيه رداً على أسئلته .

وفي عام ١٤٢١ هزم الصليبيين عند تل فلدار ، وفي عام ١٤٢٢ هزم الملك عند كوتناهورا .

وفي عامي ١٤٢٣ — ١٤٢٤ حدثت عدة خلاقات ومنازعات بين الهسيين ، واستطاعت مجموعة الطابوريين بقيادة زيسكا هزيمة مجموعة الكالكستين (العشاريين) ، واستمرت الحروب حتى عام ١٤٣٦ عندما اتفق الهسيون مع روما على شروط معقولة .

وفي عام ١٤٢٤ توفي زيسكا بمرض الطاعون وعمره ٤٨ عاماً فقط ، واجتاح كل الجيش حزن عميق ، حتى أن جنوده بعد موته أطلق عليهم « اليتامى » . وبدون شك فقدوا

قائداً عظيماً ، فقد كان زيسكا رجلاً شجاعاً ذا شخصية فذة وعلى خلق عظيم ، وقد حرر

نفسه من قيود التقاليد القديمة ، واستطاع بعبقريته أن يستغل مصادر قوته المحدودة لإنتاج

أسلوب تكتيكي منظم جديد ناجح .

وقد أثر تأثيراً فعالاً على الأسلوب التكتيكي والاستراتيجي في شرق أوروبا لمدة ٢٠٠ عاماً .

انقضى القرن ١٥ في تناقل بينما بدأ البارود في قلب كل التقاليد والأساليب التكتيكية رأساً على عقب .

ومن الأسلحة الثلاثة التي دمرت النرسان الثقيلة (الرمح الطويل والقوس الطويل والمدفعية) ولكن الأخيرة ظلت على قيد الحياة فترة أطول من الباقيين . وانتهى العمل بالقوس الطويل كسلاح رئيسي للإنجليز بمرسوم من مجلس شوري الملكة أليزابيث الأولى عام ١٥٩٥ . أما حملة الرماح الطويلة السويسرية فقد ظلوا على حالهم لفترة من الوقت في الجيوش النظامية الأوروبية حتى القرن ١٧ .

وعلى أي حال فقد تساوى كل من حملة الأقواس وحملة الرماح الطويلة في كونهم أجداد رجل المشاة الأوروبي لما بعد العصور الوسطى ، فالبنديقية ذات السونكي جاءت من التزاوج بين مبدأ القذف والرمح . كما أن التحالف بين البارود والمواد الأخرى للدولة أدى إلى بدايات الحرب الحديثة .

الفصل العاشر

عظمة أسبانيا

بوابة الأطلنطي

(أنظر اللوحة رقم ١٩)



كانت أسبانيا خلال القرن ١٦ هي الدولة القائدة في تاريخ الحروب الأوروبية بعد أن كانت بلداً غامضة ومتخلفة خلال العصور الوسطى .

ففي بداية القرن حصلت أسبانيا تحت حكم فيليب وإيزابيلا على وحدتها كما توفر لها هدف واضح جرىء . ووصلت إلى ذروة بأسرها في ١٥٥٠ تحت حكم شارل الأول ، وظلت محتفظة بأهميتها تحت

حكم فيليب الثاني بالرغم من أنه في عام ١٦٠٠ بدأت الشمس في الأفول عن إمبراطوريتها المتنامية .

وقد كان لأسبانيا دوراً رئيسياً في كل الحروب الوراثة — الوطنية العظمى والتي دارت في أوروبا أبان القرن ١٦ مثل الصراع بين الملواز والهييسبرج (١٤٩٤ — ١٥٥٩) والحروب الدينية الفرنسية (١٥٦٢ — ١٥٩٨) وحرب الاستقلال الهولندية (١٥٦٨ — ١٦٠٩) ، وأكثر من ذلك ففي الهجوم التجارى الجديد للاستعمار الأوروبي ، فكانت السفن الأسبانية وفي أعقابها السفن الإنجليزية هي المسئولة عن التطور والتوسع الهائلين للأفق الاستراتيجى والسياسى الأوروبى والذي شمل كل من الأطلنطي والقارة الأمريكية المستعمرة حديثاً . ومرة أخرى أخذت أسبانيا الدور القيادى فى التطور الذى ساد الأسلوب العسكرى البرى والبحرى سواء من الناحية التكنولوجية أو التكتيكية . وفى ذلك الوقت برز سؤال هام وهو ماهو مستقبل المدفعية وأثرها على القتال ؟ .

وفي معركة جركينولا عام ١٥٠٣ أظهر بوضوح جونز الفو القرطبي والمعروف لدى الأسبان بالقائد العظيم أن المدفع اليدوي (بندقية اليد) والمعروف في ذلك الوقت بإسم « القربينة » سيظل لسنوات عديدة هو السلاح الرئيسى المسيطر على المعركة .

وفي تلك الحقبة ، أدى تطور السفن الشراعية الكبيرة المسلحة بالمدافع أن استطاع الأوروبيين القيام بغزوات لا تقاوم في بحار العالم .

وهذه السفن وصفها البروفسير كيولا بأنها عبارة عن «جهاز متكامل سمح لطاغم صغير نسبيا أن يسيطر على هذه الحشود من الطاقة الساكنة ويحولها إلى طاقة حركة وتدمير» وهنا فسوف نجد أن سير فرانسيس دريك كان من أعظم المبدعين في كل من مجالى الملاحة والتكتيك لهذه السفن الثورية .

وقد أصبحت الحروب البرية بالكامل تقريباً بعد عام ١٥٢٥ عبارة عن أعمال حصار ومناورة مع تجنب المعارك المفتوحة ذات المدى الكبير . وقد برز في الجزء الأخير للحروب الأوروبية من القرن ١٦ ثلاثة قواد من أعظم قادة هذه الحروب وهم : — اسكندر بارما وأمبروجيو سبينولا وموريس ناسو وكان الإثنان الأولان في خدمة أسبانيا .

وعادة ، يكون التفسير الذى يوضح كيف ارتقى أى شعب إلى العظمة العسكرية في جوهره أمراً غامضاً ومبهماً ، ولكن بالنسبة لعظمة أسبانيا فكان هناك سبب أو سببين لذلك .

فقد كانت قسطة^(١) أرضاً قاحلة جرداء تنتج قوماً أقوياء في صلابه ، كما أن الأسبان قد انتهوا تموهم من عمل استغرق ثلاثة قرون وهو إعادة فتح بلادهم من العرب . وفي عام ١٢٤٨ أستولى الأسبان على ميناء سيفيل والذى يعتبر بوابة الأطلنطى ، وفي عام ١٤٩٢ سقطت غرناطة ، آخر مرا كز المقاومة المغربية .

وبذلك أصبح وراء الأسبان قوة دافعة تدفعهم للنجاح العسكرى . وقد ركز الاسبان كل طاقتهم للحرب ، ولم تؤثر احتياجاتهم الاقتصادية على ذلك ،

(١) قسطة لإحدى مقاطعات أسبانيا . « العرب »

لأن معظم التجارة كانت لا تزال في ذلك الوقت في أيدي المغاربة ، علاوة على أن الاقتصاد الريفي في أنحاء البلاد لم يكن في حاجة إلا لقدر ضئيل من العملة ، يضاف إلى ذلك أن الأسبان كانوا يتوقعون أن الحرب ستكون أمراً مريحاً .

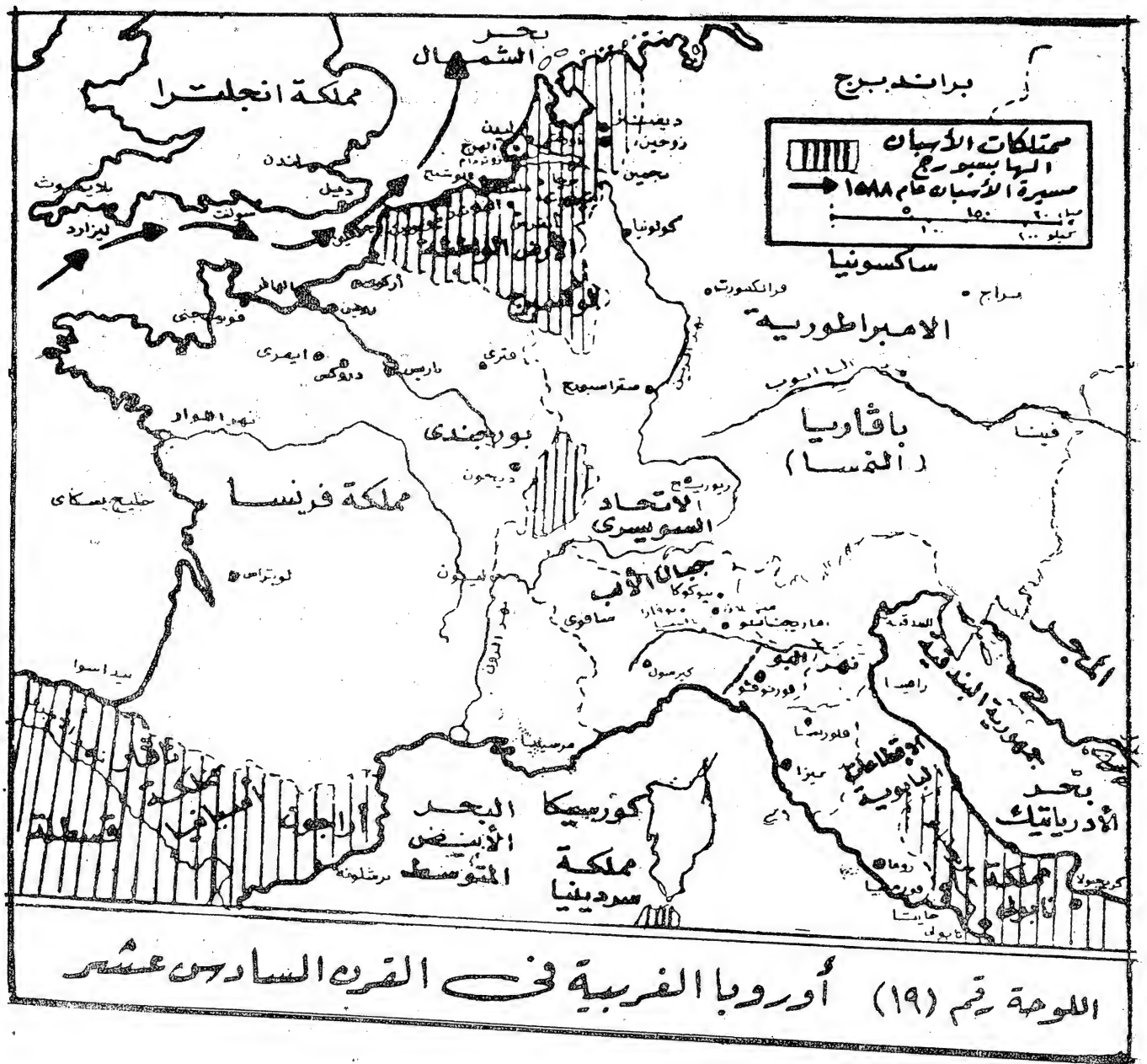
اضرب واهرب (أنظر اللوحة ١٩)

وخلال الحرب الإيطالية والتي نحن الآن على وشك مناقشتها ، فقد أمكن ولأول مرة ظهور اتجاه أوروبي عصرى واضحاً ومميزاً نحو الحرب ، فقد كان هذا عصر الواقعية السياسية وعصر ميكافيلي ومبدأ « مصلحة الدولة العليا » . وحدث تطور بالنسبة للفصل في المنازعات والتي كانت قاصرة على الكنيسة وأنشأت عدة قوانين دولية ودبلوماسية مع عودة الخدمة السرية ، وبالرغم من كل هذا فقد إندرت الأساليب القديمة بصعوبة بالغة . وعلى كل فقد ظلت الأسلحة النارية ينظر إليها ولدة طويلة على أنها خطر يهدد بجبن وبصورة لا أخلاقية مبادئ الكنيسة المسيحية والنظام الاجتماعي ، وبالرغم من هذا فقد استخدمت هذه الأسلحة وصنعت .

وفي عام ١٥٠٢ لخص روبرت بلزاك في نظريته العسكرية الاتجاه الجديد ، وتم ذلك من وراء ستار من التفسير الملطف ولكن بطريقة أخلاقية ، فائدة استخدام الأسلحة النارية والتشكيلات الحديثة ، وضرورة القسوة في مثل هذه الأمور للحفاظ على النظام . وقد شجع بلزاك المحافظة على المعاهدات ، ولكنه حذر قرائه ألا يعتمدوا على خصومهم من القوى الأخرى . وقد قال بنفس التحرر من العاطفة « إن العجاج في الحرب يعتمد على أن يكون لديك أموالاً كافية » .

وفي عام ١٤٩٤ قام شارل الثامن ملك فرنسا بغزو إيطاليا ، وقد ألتقى بمقاومة طفيفة قبل احتلاله لفلورنسا .

ويرجع سبب ضعف مقاومة الشعب الإيطالي للفرنسيين أن « سافونارولا » وصفهم بأنهم مثل الأشوريين القدامى أى أنهم « سيف الله » . وتقدم شارل إلى روما ، وفي العام التالي وبعد أن استولى على نابولي قرر أن يخلص نفسه من إيطاليا . وأثناء تقدمه شمالاً مزق الفرنسيون جيشاً إيطالياً عند « فورنوفو » .



ومهما كانت الحجج والتفسيرات ، بأن الدوافع التي حركت شارل في الفترة (١٤٩٤-١٤٩٥) وكذا خلفاءه من بعده لويس الثاني عشر وفرانسيس الأول كانت الزهو بقوتهم العسكرية مع إمكانيات سلب الغنائم ونهب الثروات من أمة غنية متفرقة سهلة المنال .

وتفاصيل حروب ٦٠ سنة التالية ستكون في النهاية قصة مملة تروى غزوات على طريقة «إضرب ثم أهرب» وأشكال من التحالفات المعقدة متغيرة الألوان وتحالفات مضادة تصل إلى أن يقتل الأخ أخاه .

وهذا العدوان الفرنسي لم يؤدي فقط إلى دفع كل الدول الإيطالية الصغيرة إلى الحرب ولكن أثار أيضاً ملك أسبانيا الذي ادعى أن نابولي من ممتلكاته وكذا الإمبراطور الذي كانت له مصالح تجارية تعتمد على تأمين المواصلات في شمال إيطاليا والألب . وانتعز السويسريون الفرصة التي ستجلب لهم مالا وفيراً بعملهم كمرتزقة ، وقاتلوا مع الجانبين بدون تمييز .

وبعد عام ١٤١٩ تطورت الحروب الإيطالية إلى صراع أوسع بين الفلواز والهابسبورج وذلك عندما أصبح الملك شارل الأول ملك أسبانيا أيضاً الإمبراطور شارل الخامس بالإضافة إلى كونه حاكماً للبلاد الواطئة ولديه إدعاء يجعله يطالب بحكم بورجندي وشمال إيطاليا . ولكن من وجهة النظر العسكرية فالإهتمام بهذه الحروب مركز على بعض المعارك والحملات المعينة خلال المرحلة الأولى في الصراع الإيطالي .

خدام الوطن

وفي عام ١٤٩٥ أنهى النصر الفرنسي تحت قيادة شارل الثامن عند فورنوفو على جيوش البندقية وميلان المجموعة تحت قيادة كوتزوجا ، عصر حروب المرتزقة ، فعبر ٢٠٠ سنة السالفة أدبرت الحروب بين المدن الإيطالية بواسطة عصابات من فرسان العصور الوسطى تحت قيادة جنود محترفين بأسم « الكوندتيري^(١) » . وأصبح الكثير من حملات تلك الفترة ذو مظهر

(١) الكوندتيري يعنى قائد جماعة من الجنود المرتزقة وقد أطلق عليهم هذا الاسم في أوروبا بن القرن ١٤ و١٦ . « العرب »

« علمي » إلى حد كبير لدرجة أن المعارك لم تكن أكثر من مجرد مناورات تستسلم فيها الجيوش عندما ما يظهر من الناحية الفنية أنها قد طوقت أو أصبحت معزولة عن قيادتها . وكانت تلك الحملات ، كما كان يطلق عليها سير تشارلز أومن « مباريات في الشطرنج تقبل فيها الهزيمة التامة من العدو وبالنذر اليسير من الدماء المسفوفة » ولذلك تلقى الإيطاليون صدمة عنيفة ووحشية عندما عبر الفرنسيون ومعهم المرتزقة السويسريون الألب بنيه الأستيلاء على المدن بأقتحامها وذبح الأسرى . وقد نصب الإيطاليون كميناً محكماً عند « فورنوفو » ، ولكن عندما تلقى الإيطاليون الضربة التي وجهها إليهم الفرسان الفرنسية الراكبة^(١) عزقوا كما يحدث للقص تحت ضربات شوكة الدراس ، ولكنهم تعلموا درساً قاسياً . وبالرغم من أن بعض قادتهم مثل « بروسبير كولونا » كان يفضل المناورة المعقدة وقد أحتفظ بها إلا أن الإيطاليين لجأوا الآن إلى الأسلوب الواقعي والعمل للحر ، كما جهزوا أنفسهم بالأسلحة الحديثة والأسلوب التكتيكي العصري لحملة الرمح وحملة القرايين .

وفي الفترة ما بين ١٤٩٤ — ١٤٩٥ فقد أظهر التقدم الكاسح لشارل الثامن على طول إيطاليا صعوداً وهبوطاً ما يمكن أن يعمل جيش حديث مزود بمعدات حديثة للحصار . وخلال السنوات القريبة من ذلك الوقت أدخل « جال دي جويتلاك » تطورات فنية معينة على أسلحة المدفعية ، وقد بهت الإيطاليون عندما رأوا المدفع الجديد^(٢) . ولكن كانت أهم هذه التطورات هي إدخال عربة المدفع والأكتاف ومركز الدوران لرفع المدفع وأيضاً في استخدام المقذوفات المعدنية بدلا من القواذف الحجرية . وفي ذلك الوقت كانت أسوار المدن لا زالت عالية حسب نظام العصور الوسطى ، كما كان يدافع عنها حملة القوس النشاب بصورة رئيسية وبالطبع لم يكن في استطاعة المدن الإيطالية أن تقوم بأي دفاع في مواجهة الحصار الذي ضربه شارل .

(١) مرة أخرى امتطى الفرسان الخيول ليقاتلوا بها بعد مرور قرن من الكوارث نتيجة

لقتالهم وهم مترجلين

(٢) كان المدفع أخف وزناً ومصبوب جميعه من البرونز وتجده الخيول ، مما أمكن لهذه المدافع

الحفاظة على سرعة تقدم مساوية لسرعة تقدم باقي الجيش ، كما أن النيران كانت تطاق على فواصل زمنية قصيرة جداً . « العرب »

وكان الفرنسيون أيضاً في مقدمة الدول الأوروبية في مجال إستخدام مدفعية الميدان ،
ففي معركة فومنى (١٤٥٠) أجبر القصف الغير محتمل لمدفعين فرنسيين (من نوع كولفيرن)
حملة الأقواس الطويلة من الإنجليز على يبعثرة تشكيلهم ، كما أن الانتصار الفرنسى عند
« رافينا » (١٥١٢) كسب بطريقة مشابهة ، فقد كان الجيش الأسبانى البابوى مخندقا في
مواقع دفاعية ولكنه أجبر نتيجة قصف المدفعية إلى ترك الموقع الدفاعى والقيام بالهجوم
مسبباً لنفسه كارثة مروعة . وفي معركة مارنيانو (١٥١٥) لعبت مدفعية الميدان الدور الحاسم
في أنتصار الفرنسيين تحت قيادة فرانسيس الأول على السويسريين ، وأبان ذلك الوقت كان
للسويسريين شهرة كبيرة في اوروبا ، أضف إلى ذلك أن أنتصارهم على الفرنسيين عند نوفارا
(١٥١٣) قد عزز ما حققوه من أنتصار على البور جنديين عند كل من جرانسون ومورات
وقد أنتصروا على الفرنسيين بالقيام بهجوم مخادع لأخفاء تقدم ثلاثة طواير من حملة الرماح
الطويلة في تشكيل متوازي حيث باغتت فرسان الفرنسيين محدثة دماراً وفوضى شديدة ،
وتابع السويسريون أنتصارهم حتى ديجون وهناك أشتري الفرنسيون توقعهم بثمن خيالى .
وكتب المؤرخ الفلورنسى جويكاردينى يقول : — « لم يحدث قط في تاريخ الأمة السويسرية
أن قررت شيئاً بمثل هذه العزيمة والتصميم ، وقد حقق النصر قوات قليلة وبدون فرسان
أو مدفعية على قوات كبيرة ومنظمة . وغامر الكثيرون وليس في اعتبارهم سوى الجرأة والبسالة
ليجعلوا من عملهم هذا أعظم بكثير من أعمال البطولة الخالدة المسجلة للرومان » .

وفي ذلك الوقت قرر الإمبراطور مكسيميليان أن الطريقة الوحيدة لهزيمة السويسريين هي
التعامل معهم بنفس طريقةهم ، فأدخل في جيوشه فرقاً من حملة الحراب والتي سماها « خدام
الوطن » . وكان الاختلاف الوحيد بين الألمان والسويسريين هو في طريقة إستخدامهم للحربة ،
فالألمان يحملونها في وضع منخفض ثم يوجهونها عند الطعن الأعلى ، بينما أمسكها السويسريون
في وضع متوسط وعند الطعن كانوا يوجهونها لأسفل قليلا . وسرعان ما كشف الألمان النقاب
عن نزعاتهم للقتال كمرتزة مثل السويسريين تماما .

القربينة

وعلى أى حال ، كانت نوفاراً آخر نصر بارز لحملة الرماح الطويلة السويسرية ، كما عرفتهم

حملة فرانسيس الأول (١٥١٥) بمستقبل مختلف . فقد عبر فرانسيس الأول وجيشه جبال الألب ماراً بمنطقة كول دى أرجنتير العالية ليفاجىء عدوه بظهوره بغته فى مؤخرته ومعه ٣٠٠٠٠ مقاتل و ٧٢ مدفع . وعند ماريجنانو كانت لديه قوة متفوقة جداً للصمود أمام مرتزقة ميلانو الذين يعملون فى صفوف السويسريين ويرجح أن السويسريين لم يكن لديهم أكثر من ١٥٠٠٠ مقاتل ، وكالعادة بدون فرسان . وعلى أى حال كان تنظيم السويسريين يسوده الاضطراب نتيجة لأضاعتهم يوم أو يومين فى مناقشة اقتراح فرانسيس بضرورة تسليمهم دوق ميلانو له ، وكان هناك نسبة كبيرة من قادتهم موافقين على ذلك ، فى ذلك الوقت كان جزء كبير من القوات أنسحب ، أما الباقى فقد جمعوا قبل المعركة مباشرة . وقد دارت هذه المعركة على مدى يومين ولم تكن سوى عملاً عشوائياً مضطرباً ، ولكن المبدأ الرئيسى الواضح والذى أستطاع الفرنسيون هزيمة السويسريين به هو إيقاف هجوم حملة الرماح السويسرية ثم صدّهم بقصفات متعاقبة من مدفعية الميدان وهجمات الفرسان .

وكانت « ماريجنانو » قاسية للسويسريين ، ولكنها لم تكن معجزة حربية بارزة لأن الفرنسيين كانوا متفوقين عددياً بنسبة ٢ : ١ أضف إلى ذلك قيام السويسريين بأنسحاب ماهر من الميدان .

والآن علقت آمال عريضة على مدفعية الميدان ، ولكنها كانت آمال غير مدروسة أو ناجحة . ولقد كان ميكافيللى على حق عندما أشار إلى جمود مدفعية الميدان وعدم توفر خفة الحركة لديها الأمر الذى يجعل أى قائد تكتيكى ذكى قادراً على التعامل معها . وحتى تصبح المدافع أكثر قوة وضراوة فقد صنعت بأحجام كبيرة ، وكان هذا أمراً سليماً إذ كان الغرض تحطيم الأسوار ، ولكن لم يكن هناك حتى الآن فرق مميز بين المدافع التى تستخدم فى الحصار . وحتى القرن ١٧ لم يطرأ أى تطور على مدفعية الميدان سواء من حيث الحركة أو سرعة النيران .

أما فى بداية الحروب الإيطالية ، فقد تطور أخيراً المدفع اليدوى (القرينة) إلى سلاح ذو طاقة كبيرة جداً . وفى حرب المائة عام كان هذا السلاح غير عملى وغير مؤثر^(١) ولكن

(١) كان السلاح ضخماً وثقيلاً ويتطلب رجلين لنشغيله .

أدخلت عليه الكثير من التطورات والتحسينات ، فأنقص وزنه بحيث أصبح ٣٠ رطل ، وأصبح الدبشك قصيرا بحيث يمكن لرجل واحد أن يسندده إلى كتفه ، كما زادت طول الماسورة إلى أكثر من ثلاثة أقدام كما أنقص العيار^(١) ، وأعطى هذا بالتالى مدى أبعد ودقة أكثر . ولكن أكثر التطورات أهمية هو اختراع فتيل الأشعال الذى يعمل بالزناد . وقبل ذلك كانت طريقة إطلاق السلاح هى نشر مادة ليفية منقوعة (تسمى الفتيل) فتحترق من غير دخان ، وبما أنها ملامسة للبارود فيشتعل هو الآخر فيقذف بالطلقة . ويتطلب أنجاز هذا العمل إلى ثلاث أيدي وثلاثة عيون على الأقل لأمسالك البندقية فى وضع التنشين الصحيح مع أشعال الفتيل . أما الفتيل الذى يعمل بالزناد فقد أعطى المستخدم الفرصة لتزويد قدرته القتالية نتيجة عملية الإطلاق الأوتوماتيكي . واصبحت هذه العملية تتم بمجرد جذب الزناد والمثبت بمشبك الفتيل مما يجعله يضغط إلى أسفل ويشعل البارود فى الماسورة . وقد عرف مدفع اليد المزود بهذه الوسيلة بأسم « القربينة » .

أهم مقاتل فى المعركة

وأول رجل قدر الأمكانيات التكتيكية لرجل المشاة الذى يستخدم القربينة ثم أقام بتكلمة هذه الإمكانيات بنظام تكتيكي ناجح هو « جونز الفو القرطى الأسباني » . ففي عام ١٤٩٥ أرسل جونز الفو ليدافع عن المصالح الأسبانية فى جنوب إيطاليا ، وكان جيشه مشكلا من حملة القوس النشاب والفرسان الثقيلة وأخرى خفيفة تدعى « جنيتور » مسلحة بالرماح القصيرة . وعند سمينارا هزم بواسطة جيش فرنسي مشكل من الفرسان الثقيلة وحملة الرماح الطويلة وأجبرت هذه الهزيمة جونز الفو على التفكير ملياً ، وخلال بضعة أعوام كان قد غير من طبيعة جيشه بصورة جوهرية .

وقد وصل إلى إستنتاج بأن مفتاح النصر يقع فى إستخدام حملة القرايين ، وبناء عليه زاد من عددهم زيادة كبيرة فى جيشه ، وزودهم بأحدث القرايين كما كان لدى كل رجل يستخدم القربينة أدوات نظافة وكيس رصاص وفتيل وقضيب للتنظيف وبارود فى أنابيب

(١) يقصد تصغير حجم القذيفة .

(٢) أنشأت هذه الفرسان الخفيفة أصلا لقتال المغاربة فى أسبانيا الجنوبية . « العرب »

صغيرة معلقة على خزام عريض للكتف دوجيوب بالإضافة إلى ذلك سلاحهم بالسيف وقد لبس الجنود بغرض الوقاية خوذة ولكن لم يستخدموا الإدرعاً قليلة أخرى على الجسم وقدر جونز الفو أنه باستخدام عدد كافى من الجنود المسلحين بالقرايين ومحتلين مواقع دفاعية مضيعة يمكنهم صد هجوم أى عدد من حملة القوس النشاب أو الرماح الطويلة أو الفرسان ، تماماً مثل ما قام به حملة الأقواس الطويلة من الإنجليز . وقد كان جنود القرايين يحتاجون إلى تدعيم من حملة الحراب والذين كانوا أحسن المقاتلين فى القتال المتلاحم فى هذا الوقت ، فإذا حدث ونجح العدو فى الإقتراب من حملة القرايين كان على حملة الحراب تدعيمهم ، كما أنهم كانوا ضروريين فى الهجوم المضاد . ووجد أن أهم أنواع الخيالة هى الخيالة الخفيفة والتي تفيد فى الإستطلاع ومناوشة ومضايقة العدو ، فاحتفظ بعدد منها فى جيشه . وعند « كريجنولا » فى عام ١٥٠٣ اختبر جونز الفو نظامه الجديد ضد الفرنسيين . وفى هذه المعركة تخذلت وحدات المشاة الأسبانية^(١) فى الميول السفلى لقتل مرتفع نوعاً . وأسفل هذه المنحدرات مباشرة كانت تجرى قناة ترتفع ضفتيها وقويت حافتيها بالتراب وأكوام النفايات المعترش ليكون فى شكل المتاريس .

وأغوى « جونز الفو » العدو للقيام بالهجوم بأرساله أعداداً وفيرة من الخيالة الخفيفة لمضايقة الفرنسيين وسحبهم للامام . وقامت الفرسان الفرنسية وحملة الحراب بهجوم متهور طائش ظانين أن قوى أندفاعهم سوف تحطم الخط الأسباني الثابت والذي بدا ضعيفاً ، وعندما دخلوا فى مرمى القرايين الأسبانية فتحت عليهم نار حامية ، وقد لقي قادة الطوابير المتقدمة من الفرنسيين مصرعهم تحت وابل الطلقات ، ومن أفلت من الطلقات سقط فى القناة . وكرر الفرنسيون هجماتهم ، ولكنهم كانوا يحصلوا على نفس النتيجة بالإضافة إلى أن إحدى الطلقات أودت بحياة قائدهم « نيمور » . وعندما بدأ النصر الأسباني يتضح معاملة ، أصدر جونز الفو أوامراً لرجال المقدمة بالخروج من مواقعهم والتقدم ليكملوا تدمير العدو .

وكانت معركة كريجنولا ذات مغزى سياسى قليل ، لأن الجيوش المستخدمة كانت صغيرة

(١) وضعت صفوف قليلة من حملة القرايين فى الأمام وخلفهم حملة الحراب . « العرب »

نسبياً ولكنها كانت نقطة تحول رئيسية في تاريخ الحرب . فقد رفع جونزالفو القرطبي مركز جندى المشاة المسلح بالقربينة حتى أصبح أهم رجل مقاتل في المعركة . وهذا المركز ظل يحتفظ به رجل المشاة لأكثر من ٤٠٠ سنة ،

وقد سبب الجمع بين مدافع الماكينة والأسلاك الشائكة في حرب ١٩١٨/١٤ إلى إهتزاز مراكز الجندى المشاة بعض الشيء ولكنه عاد مرة أخرى إلى مركزه في حرب ١٩٤٥/٣٩ عندما أخذت مركبة القتال المدرعة تجول في ميدان المعركة معاونة أياه في كسب الأرض في مواجهة الأسلحة الصغيرة . ومن ثم فقد فهم الدرس القائل بان المارك تكسب بالجمع الماهر لكل الأسلحة ، ولو أن واحداً منها قد يكون في فترات معينة أكثر أهمية من الآخرين وسيظهر دروس مثل هذا وأكثر في السياق التالي لسردنا .

الحملات الدبلوماسية

(أنظر اللوحة رقم ٢٠)

وفي نهاية عام ١٥٠٣ أظهر جونزالفو مرة أخرى وبوضوح قدرته العسكرية الرائعة ، وذلك في حملة ومعركة جاريجليانو .

وكانت الفلول الفرنسية لمعركة كريجنولا قد تم تدعيمها بقوة ، وفي أكتوبر تعقب جونزالفو جيشاً فرنسياً ضعيف حطم جيشه إلى أسفل وادى جاريجليانو ، وكان العدو متجهاً نحو نابولي ، ولكن نتيجة لأمطار الخريف الغزيرة فقد قرر بدلا من محاولة التقدم عبر الطريق الجبلي أن يتجه إلى الساحل ثم يتقدم على طول الساحل ، وعندما أدرك جونزالفو ذلك ، دفع جيشه عبر الجبال بأقصى سرعة ليصل ويعبر النهر قبل العدو .

وفي أوائل نوفمبر حدثت المواجهة بين الجيشين وبينهما اللسان المنبسط السفلى لنهر جاريجليانو . أنشأ الفرنسيون كوبرى عائماً ولكن نيران المدفعية والقرايين الأسبانية منعتهم من العبور ، وخلال ذلك الوقت ازداد الطقس سوءاً ، وقام الفرنسيون بمحاولة أخرى لعبور النهر ولكنهم فشلوا فتوقفوا بعدها عن أى محاولة للعبور .

ونهر جاريجليانو معروف جداً لجيوش الحلفاء التي حاربت في إيطاليا في شتاء ١٩٤٤/٤٣ ، ويصب النهر في البحر جنوب كاسينو ، وكان يشكل جزءاً من الطرف الجنوبي للخط الدفاعي الألماني

المسمى « خط الشتاء » والذي يمتد من أرتونا على الأدرياتيك ثم خلال الجبال في اتجاه الجنوب إلى مصب نهر جاريجليانو واللسان المنبسط العلوى لما يسمى في هذه الأيام بنهر « ليرى » .

ومن المعروف أن في فصل الخريف والشتاء تصبح الأنهار في إيطاليا عبارة عن بحار من الطين ، وذلك ما أعرفه جيداً ، فالجيش الثامن الذي كنت أقوده كان مجبراً على عبور نهر « سانجرو » قبل أن يتمكن من الإستيلاء على أرتونا ، وقد تعودنا على القول بأن الطقس كان عدواً أشد صعوبة وقسوة من الألمان .

ولنعد الآن إلى معركة جونزالفو ، فيجد أن بعد محاولة الفرنسيين الفاشلة لعبور النهر توقف كلا الجيشين لمدة ستة أسابيع يحرس كلاهما الضفة الموحلة لنهر جاريجليانو ، واستمر الطقس رطباً وبارداً وبصورة غير عادية .

وكان جونزالفو يعلم بأن الإنسحاب ولو حتى إلى الأرض الأجدف في أسفل التل سيكون مميتاً لأن القوات الفرنسية المتفوقة لو تمكنت من عبور النهر فيصبح مصير نابولي محتوماً ، وفي ذلك الوقت لعبت الروح المعنوية الدور الحاسم .

وقد أقام جونزالفو نفيسة في كوخ يبعد حوالى ميل عن شاطئ النهر وكان يزور المواقع

الأمامية يومياً ناصحاً وحاضاً ومبقياً جيشه العاطل المبتل في روح معنوية عالية .

أما على الجانب الآخر فقد فقد الضباط الفرنسيين ما كانوا يتمتعون به من أثمار ، وتراجع الكثير منهم ليعيشوا في منازل مريحة بالمدن القريبة .. أما القائد العام المركز مانتو فقد أصيب بحمى « دبلوماسية » جعلته يسلم القيادة إلى المركز « سالوزو » وسرعان ما انحلت الجنود الفرنسية ، وترك الكثير منهم خطوطهم التي أنتشرت في غير نظام بعيدة في الخلف (١) .

وفي مثل هذا الجو كان يبدو من غير المحتمل تماماً قيام الأسبان بالهجوم حيث كان عددهم أقل كثيراً ولذلك السبب إتخذوا موقف الدفاع وبالتالي فقد أهملت اليقظة الفرنسية

(١) بعيدة عن جانب النهر الموحد . « المغرب »

كأرثة سويسرا

(أنظر اللوحة رقم ٢٠)

وأدرك جونزالفو التدهور الفرنسي وخطط هجوماً مفاجئاً ، وتم تجهيز أجزاء كوبرى عام خلف الخطوط الأسبانية بمسافة كافية وتحت إشراف إخصائي المدفعية والهندسة العسكرية « بدرونا فارو » ، وصنعت أجزاء الكوبرى صغيرة وخفيفة بدرجة مناسبة ليتمكن حملها على البغال ، وكذا يمكن تجميعها وتركيبها بسرعة .

وفي عيد الميلاد أقيمت هدنة لمدة يومين ساد فيها بعض الشعور من الصداقة والمودة بين الجيشين ، ولكن الجنود الفرنسيين إستمروا في الإحتفالات لعدة أيام

وفي ٢٧ ديسمبر ، حرك جونزالفو الجزء الأكبر من الجيش الأسباني وأجزاء الكوبرى إلى النهاية الشمالية للموقع الأسباني ، وكان ذلك في مواجهة أقصى يسار الفرنسيين عند قرية « سوجو » حيث يضيق النهر قليلاً والأرض أقل تشعباً بالمياة علاوة على إمكان أخفاء التجهيزات . وحدد جونزالفو موعد بدأ الهجوم في فجر ٢٩ ديسمبر .

وتولى ألفيانو المقدمة وبناء الكوبرى بينما تولى جونزالفو قيادة المعركة الرئيسية . بينما إحتلت قوات المؤخرة الخنادق على طول النهر وفي مواجهة القوة الفرنسية الرئيسية على أن تعبر هي الأخرى من نفس مكان القوة الرئيسية إذا سارت الأمور سيراً حسناً .

وسارت الخطة طبقاً لما هو مرسوم ، فعند الفجر تم إقامة الكوبرى ، وكانت المشاة الفرنسية الضعيفة في « سوجو » غير مستعدة لمقاومة الطليعة الأسبانية من الفرسان الخفيفة عندما أنقضت عليها . واندفع ألفيانو بسرعة وعنف على طول مجرى النهر ومن خلال عدة قرى محتلها المشاة السويسرية والتي لم يعطها ألفيانو الفرصة والوقت لتفتح للمعركة . في ذلك الوقت كان معظم الفرسان الفرنسية في الخلف بعيداً عن النهر ، وإستطاع سالوزو بجهد كبير جمع عدد ضئيل منهم ولم يقوموا إلا بهجوم واحد ولكن كان بدون جدوى .

وقامت الفرسان الأسبانية الخفيفة بمطاردة العدو لمسافة ١٠ أميال قبل أن تتمكن قوة فرنسية كبيرة من إيقافهم عند مضيق فورميا . ولكن في ذلك الوقت كانت مشاة

جوزالفو أصبحت مستعدة للمعركة الرئيسية كما أن وحدات المؤخرة قد عبرت النهر هي الأخرى .

ويمكن القول بأن المعركة الحقيقية في جاريجليانو هي التي دارت في ممر فورميا . ولكن بعد ساعتين من القتال الشاق أخترق الموقع الفرنسي واستمرت المطاردة حتى « جاتيا » وأسر عدد كبير من الفرنسيين وتم الإستيلاء على عدد من المدافع .

وكانت معركة جاريجليانو آخر حملات جوزالفو ، وفي نفس الوقت كانت التتويج المناسب له كقائد عظيم .

وفي عام ١٥١٥ مات جوزالفو القرطبي وهو مكمل بالمجد والشرف ، ومن بعده فقد اعترف بأسلوبه التكتيكي في العالم . واستمرت أسبانيا في زيادة نسبة حاملي القرايين . وقد وضع باستمرار وبصورة مذهلة كفاءتهم وتأثيرهم .

وفي عام ١٥١٣ في معركة لاموتا ضد البندقية طردت الفرسان الأسبانية في الواقع خارج المعركة ، ولكن حملة القرايين وحمله الحراب الأسبانية استطاعوا أنتزاع النصر في هذا اليوم بطريقتهم .

ففي الوقت الذي وصل فيه العدو إلى خط المشاة الأسبانية ، قد أصبح محطماً ويتعثر تحت وابل من نيران القرايين الأسبانية لدرجة أنه لم يتمكن من الصمود أمام الهجوم النهائي الذي شنه حملة الرماح الطويلة الأسبانية .

وبانتهاج أسلوب جوزالفو ، حقق الأسبان نصرهم^(١) على السويسريين عند بيوكا عام ١٥٢٢ .

وقد جهز كولونا موقعاً دفاعياً جيداً عند ممر ضيق مغمور يجري بين حافة حديقة وبعض الأراضي المزروعة وأمامه ممر مائي .

وحول حافة الحديقة إلى إستحكامات مع وضع بعض المدافع خلفها ، واحتلت حملة القرايين مواقع خلف الاستحكامات في أربعة صفوف بينما وضع كولونا خلفهم وحدات متتالية من حملة الرماح الطويلة .

وتقدم حملة الحراب السويسرية فحصدتهم أولاً نيران المدفعية ثم نيران القرايين ، أما الذين أستطاعوا مواصلة التقدم أضطروا لخوض مياه المجرى ليجدوا أنفسهم وقد وقعوا في مجزرة ، فقد أخذ حملة القرايين الأسبانية في أصطيادهم حيث كان الأسبان في مكان مرتفع لم يسمح لحراب السويسريين حتى من لمسهم .

وقد قتل عدد كبير من السويسريين وهم يقومون بهذا الاقتحام اليائس ، وفي نهاية المعركة ، هبط عليهم حملة الحراب الأسبانية حيث أجهزوا عليهم . ويعتبر يوم بيوكا كارثة مروعة للسويسريين ولم يتمكنوا من بعدها من استعادة ثقتهم وحبهم للقتال السابقة وقد كتب جوكورديتي عن ذلك : -

« لقد عادوا إلى جبالهم وقد نقصت أعدادهم ، ولكن الأهم من ذلك نقصت جرأتهم . »
وفي زيورخ وجد المصلح زوينجلي^(١) جمهوراً متعاطفاً ومؤيداً لإستنكاره لتجارة المرتزقة المفسدة وعلى أي حال عندما لم يجد السويسريين بديلاً لحرفتهم كمقاتلين داخل وطنهم أضطروا على الاستمرار في توفير المجندين لكل جيوش أوروبا خلال القرن ١٦ . وقد ظلوا



المشاة الأسبانية تهاجم الجيش الفرنسي في معركة بافيا

(٢) كان قسيساً في الجيش عند أول هزيمة سويسرية في مارينيانو . « المغرب »

محتفظين بسمعتهم كقوات جيدة تتميز بالثبات ولكن في المستقبل أصبح الدور التكتيكي لحملة الحراب عبارة عن الخدمة في وحدات صغيرة مع عدد مساو تقريباً من حملة القرايين وبيطاء وعلى مضض عود السويسريون أنفسهم على هذا العمل الثانوي الأقل مرتبة وشأناً عما كانوا عليه ، ولم يكن لديهم فيه بناءً قيادياً مناسباً . وقد كان هناك نوع من سوء التقدير والخطأ في مراعاة العرف الديمقراطي ، فالقيادة لم تكن في يد فرد واحد بل كانت في يد لجنة من العسكريين القدامى ، ولذلك لم يكن هناك سوى عدد ضئيل من الضباط والصف ضباط .

ونتيجة لذلك أستمر السويسريون ممتازين في عدد بسيط من أساليب المناورات القديمة والمدربين عليها جيداً ، ولكن كانت تنقصهم المرونة والقدرة على التحسين والتطور ، وبالتالي كانوا غير قادرين في المعركة على تغيير خططهم لتوافق المواقف التكتيكية المتطورة .

العرش العظيم

(أنظر اللوحة رقم ١٩)

أما الأسباب ، فكان الأمر بالنسبة لهم على عكس ذلك ، فقد أثبتت معركة بيو كوكا صلاحية أسلوبهم الجديد .

فالهزيمة التي ألحقها حملة القرايين الأسبانية بمعظم المشاة المشهورة في أوروبا أعطتهم دليلاً واضحاً آخر على بسالتهم ومثال لذلك النصر الذي حصلوا عليه تحت قيادة المركز بسكارا على الفرسان الفرنسية خارج بافيا عام ١٥١٥ . وفي هذه المعركة لم ينتصروا بالانتظار خلف ساتر يمكنهم منه صد الهجوم المعادي ، ولكنهم حققوا النصر بقيامهم بمفاجأة الفرنسيين في أرض مفتوحة مطوقين جناحي الجيش الفرنسي ثم أمطروا صفوف الفرسان المحتشدة بقصفات من النيران غير المتوقعة ، كما دمروا المشاة الفرنسية وأسروا فرانسييس الأول ملك فرنسا .

والآن لم يعد هناك شك في مدى النجاح المتواصل الذي حققه أسلوب جونزالقو القرطبي ضد الفرسان وجميع أنواع المشاة .

وبدأ رماة السهام والفرسان الثقيلة في الاختفاء بسرعة من جميع الجيوش الأوروبية تقريباً ليحل محلها حملة القرايين وحملة الحراب . ولما كان معظم الجنود تفضل بالطبع

أن تقوم هي بإطلاق النيران عن أن يطلق عليها النيران ، لذا كان من السهل تجنب حملة القرايين ، أما حملة الحراب فقد تأقلموا على عملهم التكتيكي الجديد ألا وهو تدعيم حملة القرايين بدلا من قيامهم هم أنفسهم بالهجوم في أنفاق . ويجدر القول هنا أن دروع الجسم لم تعد توفر أى وقاية ضد الرصاص الجديد علاوة على أنها تسبب عرقلة الحركة وتفقد خفة الحركة ولذلك فبد إستعمالها تقريبا بعد المرحلة التي لم تعد أكثر من أنها أشكال للزينة والزخرفة .

وأصبحت القوة الدفاعية لحملة القرايين هي الاعتبار التكتيكي المهيمن في أذهان القادة ، لذا أصبح الدفاع مرة أخرى هو صاحب اليد العليا في الحرب ، مما نتج عنه أنه بعد معركة بافيا أصبحت معارك الأرض المفتوحة شيئا نادر الحدوث جداً ، أما معركتي كيرسول (١٥٤٤) ونيوبورت (١٦٠٠) كانتا فقط المثالين الوحيدين لذلك في نهاية هذه الحقبة . وظل حملة القرايين في النظام الذي أنشأه جونزالفو القرطبي أقوى أنواع القوات بأساً ، وكان الأسباب أفضلهم جميعاً . ولكن بعد عام ١٥٢٥ كانت الفرصة ضئيلة أمام حملة القرايين عموماً لكي يثبتوا مقدرتهم في ميدان القتال اللهم إلا في بعض الاشتباكات الصغيرة الثانوية .

في الثلاثة أرباع الأخيرة من القرن ١٦ أنجبت الحرب في أوروبا بعض القادة العسكريين القادرين ، ولكن لم يكن هناك حملات حتى يمكن عمل مقارنة معها كما حدث في الحروب الإيطالية . وفي المرحلة الثانية من الصراع بين أسرة فلواز وأسرة هابسبرج أى فيما بين عام ١٥٢٥ ، ١٥٥٩ مرت في الحقيقة ١٤ سنة لم يحدث فيها أى قتال على الإطلاق . وبمقتضى معاهدة كاتو — كبرسيس عام ١٩٥٩ أستولت فرنسا على بورجندي وبعض قلاع الحدود والتي منها كاليه . وفي سبيل ذلك تنازلت فرنسا عن أديائها في سافوى وإيطاليا . ومن وجهة النظر السياسية فكانت تلك الفترة الطويلة من الأحداث المتلاحقة ذات طابع سلبي على نحو فريد ، فجميع الأطراف أمتنعت عن توجيه أتباهها لأمر أكثر أهمية . وربما كان عبور آلاف من الرجال ذهاباً وإياباً من خلال الألب قد ساهم في نقل أفكار ومعلومات المقاومة الإيطالية إلى شمال أوروبا . أما فرنسا فقد تركتها الحروب وقد

ذهب هيبة عرشها وهى محطمة تعاني الأفلاس والانقسام الدينى وملية بالجنود العاطلين . وهكذا كان المسرح معداً لتجدد القتال ، فى عام ١٥٦٣ بدأت الحرب الفرنسية الدينية وكانت عبارة عن تسعة مراحل من الحروب الأهلية . وقد نشبت هذه الحروب بعناد مزعوم حول حق العبادة بناءً على ما يمليه الضمير ، ولكن كانت أهم النتائج هى نجاح هنرى السادس فى المحافظة على السلطة المطلقة للتاج . وقد وصف ف . ه . هـ . جرين هذه الحروب فى عبارات يمكن أن تكون مناسبة لمعظم حروب هذه الفترة :-

« حروب مشوشة ومعقدة ، وإذا فحسناها لوجدنا تفاصيلها مملّة ، ولكن فى بعض المناسبات مثيرة ومفعمة بالحركة . . وفى بعض الأحيان تظهر أخلاصاً زائداً للعبداً . . ولكنها عادة ينعدم فيها الإخلاص تماماً . وفى كثير من الأحيان تتجلى فيها أعماق غدر الإنسان وطمعه فى أشرس صورها وأكثرها إثارة للاشمئزاز » .

حرب الوردتين

فى نفس الوقت ، أى بعد عام ١٥٦٨ حارب الهولنديون ليحصلوا على استقلالهم من أسبانيا . وقد منعت التعهدات الملاحية الأسبانية من تركيز كل قوتها لتدمير الثورة الهولندية وقد أدى هذا أن خسرت أسبانيا الحرب . وتخلص الهولنديون من عبوديتهم بعد صراع بطولى .

وفى عام ١٥٨٤ بدا وكأن كل شىء يهوى نحو الضياع ، فقد أستسلمت الولايات الكاثوليكية فى الجنوب (بلجيكا) ، ومات أول زعيم وطنى هولندى وهو « ويليام الصامت » ، فى نفس الوقت كان القائد الأسبانى العظيم اسكندر دوق بارما يزحف فى صورة قاسية للاستيلاء على « أنفرس » و « جنت » ولكن الصراع انتقل إلى البحر وإلى المقاومة اليائسة لسكان المدن ضد أعمال الحصار الأسبانى . ومع عام ١٥٩٠ بدأ المد فى التحول ، وتحول دوق بارما نفسه لياخذ دوراً فى الحروب الفرنسية ، فى نفس الوقت عثر الهولنديون على قائد ممتاز هو موريس ناسو . وقام الهولنديون بحملتى حصار رائعتين مضافاً إلى ما حققوه من انتصارات فى « تيرنهوت » (١٥٩٧) و « نيوبورت » (١٦٠٠) مما كان له أكبر الأثر فى دفعهم إلى الأمام . ولم تستطع القيادة الباهرة « لامبريجيو

سبينولا « الأسباني من منع الهولنديين من الحصول على الإستقلال نتيجة الأمر الواقع والذي حدث في هدنة عام ١٦٠٩ . ويمكن القول بأن هذه الحروب شهدت تجديداً للابتكارات التي ظهرت خلال الحروب الإيطالية .

كما أن المرتزقة كان لهم دوراً رئيسياً في خوض هذه الحروب ، ويضاف إلى ذلك أن جميع الجيوش أصبحت خليطاً متعددًا من جنسيات وأمم مختلفة . واستمر الطلب على السويسريين في إيطاليا وفرنسا حيث إعتبروا مصدراً للضباط الممتازين ولحملة القرايين . وفي ألمانيا كان هناك سلاماً داخلياً في الفترة ما بين ١٥٥٥ و ١٦١٨ ، لسبب واحد وهو أن أى شقاق في الرأي لمواجهة التهديد التركي سيكون حدثاً قاتلاً ومدمراً . وقد حارب أعداد كبيرة من الفرسان وحملة الرماح الألمان كمرتزقة خارج ألمانيا وخاصة مع الجيوش البروتستنتية في فرنسا والأراضي الواطئة . أما دور إنجلترا في تاريخ الحرب البرية خلال القرن ١٦ فقد كان بصفة عملية معدوماً ، فكانت إنجلترا بلداً متخلفاً نسبياً ويبلغ عدد سكانها ٤ مليون بينما كان تعداد أسبانيا ٧ مليون وفرنسا ١٠ مليون . وبعد قتال تافه في حرب الوردتين (١٤٥٥ — ١٤٨٥) أهتمت عائلة تيودور الجديدة بالأمور الداخلية للبلاد والتي كانت تتلخص في إدخال المذهب البروتستنتي وإحلال حكومة برلمانية بدلا من الحكومة الإقطاعية . وبخلاف بعض المغامرات القليلة الفاشلة تماماً تجنبت إنجلترا التورط في السياسات الأوروبية .

وقد أدى عدم إحتفاظ أسرة تيودور بقوات وطنية على تخلف الإنجليز وبشكل كبير ولمدة طويلة في الفنون العسكرية ، حتى أن حاملي الأقواس الطويلة لم يخلوا أما كنهم لحملة القرايين إلا في عهد الملكة إليزابيث الأولى (١٥٥٨ — ١٦٠٣) . وعلى أى حال فكانت القوات الإنجليزية المرتزقة والمغامرون مثل « فرانسيس فير » مشهورين في الحروب الهولندية .

وقد جعلت أسطورة جونزالفو القرطبي التكتيكات الدفاعية هي الأمر الطبيعي . وفضل القادة المناورة والهجمات الخداعية أو محاولة الهجوم على العدو أثناء التقدم أو قطع مواصلاته أو إجاعته عن أن يقوموا بهجمات مباشرة وبالمواجهة ولم تتغير التطورات الفنية

التي حدثت في الأسلحة الفارية من هذا الموقف . وعلى أى حال ، فقد نشبت الحرب الهولندية على أرض تكثر بها المستنقعات والقنوات والسدود الأمر الذى يجعلها قلائم إلى حد كبير المعارك الدفاعية .

وفي فرنسا فقد أدى القيادة الضعيفة والنظريات العسكرية الغير سليمة إلى وجود أسلوب قتالى سيء . وقد عبر الجندى الفرنسى « لانوى » عن إستيائة من مواطنيه قائلاً : - « منذ مدة طويلة ويقرأ الشباب الكثير من الروايات عن المغامرات الطائشة المملوءة بالغراميات والقتال بدون هدف ، أما كبار السن فهم أيضاً يقرأون منذ مدة ويعيدون القراءة لميكافيلي وبدون ملل » .

وفي الواقع اشتهرت القيادة في السنين الأولى للحروب الفرنسية بعدم القدرة المستمرة والقصور والعجز .

ففي معركة دروكس (١٥٦٢) إستطاع كل طرف أمر قائد الطرف الآخر . كما نفذت حملات صغيرة جداً في نفس الوقت ولكنها لم تكن منسقة في أية إستراتيجية شاملة . ولم تكن هناك أى دولة خلاف أسبانيا تستطيع أن تجند أو تتحمل دفع أجور أكثر من جيش وطنى عامل وصغير جداً

وسببت النسبة العالية من القوات المرتزقة في كل الجيوش إلى أفئقارها إلى المبادأة والروح الهجومية ووحدة الهدف الإستراتيجى ، وحتى القوات الأسبانية الوطنية كانت تمتنع عن الخروج للقتال عندما يلوح لها أنها لن تحصل على أجورها .

وقد أدى التمرد الأسبانى عام ١٥٧٦ إلى تدمير مروع لأفرس ، كما كانت قلة الأموال سبباً في ضياع حملات عديدة ، فكان بخل وشح كل من فيليب الثانى واليزابيث الأولى يثيران سخط قادتهم ويثبط من عزيمتهم .

وكان أقدر رجل عسكرى في ذلك الوقت هو بارما الأسبانى ، ولكن نادراً ماتوفرت لديه أموال كافية . وكثيراً ما وصلته أوامر من ملك أسبانيا لم يضع فيها أى إعتبار للاستمرار الإستراتيجى ، ومثال ذلك الأوامر بالوقوف على أهبة الإستعداد لغزو إنجلترا عام ١٥٨٨م

نقله إلى فرنسا فيما بين عامي ١٥٩٠ — ١٥٩٢ . وقد منعه هذه الأوامر من تنفيذ مهمته الأساسية وهي هزيمة الهولنديين الثائرين .

وخلال القرن ١٥ أستطاع فن الحصار التغلب على الحصون ، وأستمر ذلك حتى الفترة من ١٤٩٤ — ١٤٩٥ التي قام بها شارل الثامن ملك فرنسا بحملته ، إلا أن الموقف تغير في القرن ١٦ عندما قام المهندسون العسكريون برد فعل بنائى على وجود المدفع ، وبسرعة سارت التحصينات العلمية على طول خطوط جديدة ، ومرة أخرى أصبحت التحصينات عالية ومغنية وقد أدى هذا العامل بالإضافة إلى النظام التكتيكي الدفاعى وقلة الأموال لدى كل حكومات أوروبا إلى سيطرة الإستراتيجية الدفاعية بعد الحروب الإيطالية ؛ أو بالأحرى إلى ذلك النوع من الإستراتيجية طويلة الأمد والمناورات السياسية ، وفضلت هذه عن إستراتيجية الحصول على نتائج سريعة بقوة السلاح . ومن الطبيعى إلتجاء الناس إلى قلاعهم الحصينة ، أما القادة فإن لم يكن هناك ظروف قاهرة تجبرهم على الخروج ليواجه كل منهم الآخر ، فكانوا لا يجرون على الخروج كل من قلعته . ونجد بعد بافيا (١٥٢٥) كثر ذكر الحصارات فى سجلات الحرب والتي توجت بحصار « سبينولا » لأوستند والذي أستمر ثلاثة أعوام (١٦٠١ — ١٦٠٤) .

وأصبح المبدأ الرئيسى فى التحصينات الجديدة من عام ١٥٢٠ فصاعداً هو بنائها فى شكل مندمج ومنخفض ، وكان الإنخفاض فى الواقع يصل إلى مادون مستوى سطح الأرض وذلك لتصبح هدفاً صعباً للمدفعية ، كما كانت الأسوار والجدران سميكة بدرجة كافية لتتحمل القصف المعادى وكذا إرتداد مدافع الحصن بعد إطلاقها . وقويت التحصينات الأمامية مع عمل ممرات مغطاة ومنحدرات خفيفة وخنادق أكبر ، وإستخدم المدفع فى الدفاع ، وبنيت الأسوار بنتوءات بارزة وريدانات^(١) وقم بغرض السيطرة على أوسع مدى ممكن ، وفى معظم الحالات كان يعاد تجهيز حصون العصور الوسطى ، وكمثال رودس والذي أعيد بنائها فى شيء مختلف على البناء السابق .

ويعتبر حصن ديل مثالا للحصون الجديدة فى هذه الفترة ، وهو واحد من سلسلة حصون

(١) جداران يشكلان زاوية بارزة • « العرب »

بناها هنرى الثامن للحراسة خوفاً من أن الرياح قد تقذف بأسطول معادى نحو الساحل الجنوبي الإنجليزي .

بينما يكون الأسطول الإنجليزي محجوزاً فى الميناء . وكان حصن ديل يتكون من بنائين داخل بعضهما كل منهما شكل وردة ذات ستة وريقات مع وجود برج دائرى فى المنتصف وكان هناك ما يقرب من ١٤٥ مدفع مركب على طول الأسطح المطوقة للحصن وبالتالى يمكن



حصن ديل

لهذه المدافع السيطرة على جميع طرق الأقتراب المؤدية إلى الحصن بشكل متدرج . وكان البحر يلتفت حول جزء من السور الخارجى ، كما كان باقى الحصن محاط بمخندق مائى عميق ولذلك كان الدخول عن طريق كوبرى متحرك . وفى فرنسا كانت قلعتى الهافر والفيتري أمثلة لكثير من الحصون الجديدة التى بنيت فى القرن السادس عشر . وفى هولندا كانت الحصون بصفة خاصة قوية نتيجة إحاطتها بالماء من جميع الاتجاهات . وفى عام ١٥٧٤ أمكن فك الحصار المضروب حول ليدن بقطع السدود مما سبب إغراق الماء للمحاصرين .

مرجريت المجنونة (أنظر اللوحة رقم ١٩)

لم يكن هناك تطور فى المدفعية يلاحق الزيادة فى قوة التحصينات ، فى القرن ١٥ حقق المدفع البرونزى ذو العيار الكبير سيادة لاحد لها ، كما صنع مدفعاً فى الفلاندر سمي « مرجريت المجنونة »^(١) . وقد تحسنت بعض الشئ كفاءة المدفعية فى الأعوام التالية لعام ١٥٢٠ بأنتاج بارود خشن كان أحتراقه أسرع وقوة دفعه للمقذوف أكبر ، كما زاد من دقة المدافع أدخل فنون أكثر دقة لصب وثقب الماسورة . ومنذ ذلك الحين ظل تصميم المدفع الذى يعمر من الفوهة لا يتغير لمدة ٣٠٠ سنة التالية . ولم يكن هناك توحيد فى شكل قطع المدفعية ، فى عام ١٥٥٠ وصلت المدفعية البريطانية إلى ١٦ نوعاً ابتداء من « المدفع الملكى » زنة ٤ طن والذى يطلق قذيفة زنة ٧٦ رطل إلى « الرايبنت » زنة ٣٠٠ رطل والذى يطلق قذيفة زنتها ١٥٠ جراماً . وكان المدفع المستخدم فى السفن من نوع « كولفيرن » و « الصقر » ذات المدى الصغير . وفى مستهل القرن ١٦ عندما قرر هنرى الثامن الرغبة فى الحصول على مدفع قوى بدرجة كافية « لقهر الجحيم » تعين عليه أن يطلب مثل هذا المدفع من صانعها الفلمنكى « هانس بوبينرتير » ، وهذه علامة على التخلف العسكرى الإنجليزى فى ذلك الوقت .

ولكن فى عام ١٤٥١ حدث تطور هام وهو أن « ويليام لافيت » بدأ فى صنع مدفع حديدى فى غابة « أشدون » وبالرغم من أن المدفع الحديدى ثقيل جداً وسريع الكسر وأقل كفاءة من المدفع البرونزى إلا أنه كان أقل ثمناً وأكثر مطلباً وشيوعاً . وفى الواقع فى عام

(١) كان طول هذا المدفع ١٨ قدم وعيار الماسورة ٣٣ بوصة ويزن أكثر من ١٥ طن .

« العرب »

١٥٧٤ جرى تصدير عدداً كبيراً من المدافع الحديدية بدرجة أن هذا الأمر أفزع السياسيين وجعلهم يمنعون هذه التجارة . وكان أفضل المدافع في ذلك الوقت المدافع الألمانية المصنوعة في مصانع « بيك » بمدينة أوجسبورج و « وساتلر » بمدينة نورمبرج ، كما أن الألمان اخترعوا أيضاً المورتر^(١) (القاذف القصير) ، أما أسبانيا فلم يكن لديها مصانع على مستوى جيد لبناء المدافع ، وبالتالي فقد عانت معاناة مريرة بسبب ذلك النقص .

وبشكل عام ، في الفترة التي تلت الحروب الإيطالية كانت الخيانة والخداع والتجويع أكثر أساليب الحصار نجاحاً عن أسلوب القصف بالنيران . ولم يكن معدل نيران المدفع قد فاق حتى ذلك الوقت المنجانيق والمعروف بأسم « باليستا » والتي ظلت تستخدم أحياناً . وفي عام ١٥٤٦ نشر « نيكولوتارتاجليا البندقى » بحثاً هاماً عن علم حركات المقذوفات ، وفيها علم رجال المدفعية كيفية تقدير المدى والأرتفاع باستخدام آلة الربع دائرة . وبالرغم من الحصار كان عملاً مجهداً ، بالإضافة إلى تراكم المزايا ضد القائم بالحصار ، فإن حروب تلك الحقبة قد أنتجت أستاذين عظيمين هما « أسكندر بارما » (أسبانيا) و « موريس ناسو » (هولندا) . وفي عام ١٥٨٦ أستولى « بارما » على أنقرس بعد حصار دام ٤ شهور ، وذلك ببناء كوبرى من القوارب على مصب « نهر شلدات » قطعاً بالتالى اتصال المدينة بالبحر ، الأمر الذى سهّل له الاستيلاء عليها . وبعد ذلك بأربعة سنوات كان « بارما » بعيداً عندما بدأ خصمه « موريس ناسو » في سلسلة من الحملات الناجحة .

وقد بدأ بمدينة « بريدأ » ، وفي هذا المدينة أستخدم « ناسو » الخداع بأحضار رجاله الخبثين في قوارب مكسوة بالأعشاب حتى رصيف الميناء مباشرة . وخلال شهر يونيه ويوليه ١٥٩١ أستولى على مدن ديفينتروزوخن وكلاهما شمال نجمين .. وبعد ذلك دفع موريس قواته بأقصى سرعة مستخدماً قوارب نقل البضائع إلى هلست (غرب أنقرس) أى على النهاية الأخرى لخط التحصينات الأسبانية . وسقطت هلست بعد ٥ أيام ، وأستدار بعد ذلك موريس منطلقاً نحو نجمين وأستولى عليها في ستة أيام أخرى . وكانت الطريقة العادية لموريس هي تركيز نيران مدفعية شديدة على قطاع صغير من سور الحصن ، وبهذا يحدث صدعاً في التحصينات ،

(١) وهو مدفع قصير مصمم ليقذف القذيفة في خط مرور عال أشبه بالخط المقوس على العدو .

كما كان يفرض ضحاياه على التسليم بمعاملتهم بالأحترام الكامل وبتحريم عمليات النهب . وفي العام التالي ، بينما كان بارما مشتبكا في قتال في فرنسا حيث أصيب هناك بجرح قاتل ، أستولى موريس على حصنين رئيسيين آخرين في الأراضي الواطئة . وقد ساعدت حملات موريس الهولنديين في السنوات التالية على طرد الأسبان كلية خارج البلاد الواقعة شمال نهر الرين الأدنى ونهر الوال ، وبالرغم من مهارة سبيغولا في فن الحصار فلم تتمكن أسبانيا من استعادة هذه المناطق ثانية .

اختفاء فرسان المصور الوسطى (أنظر اللوحة رقم ١٩)

وحتى عام ١٦٠٠ على الأقل كانت المشاة الأسبانية^(١) يعتبرون من أفضل الجنود في أوروبا في أى قتال مفتوح يحدث . وكانت ثقتهم بأنفسهم ومهاراتهم في الأسلوب التكتيكي التقليدى لذلك الوقت شيئا بارزا ورائعا .

وبالرغم من بعض الظروف الصعبة ، فقد تمكنوا من إكتساح كل ما أعترض طريقهم خلال الأشتباكات الصغيرة التى نشبت في بداية الحرب الهولندية . ويحدثنا التاريخ عن أحد أهمهم الفذة والتي فاقت في بطولتها ما قام به ويلنجتون في عبور نهر بيداسو في عام ١٨١٣ ، وهو تقدم ٣٠٠٠ مقاتل أسباني تحت قيادة « موندرجوان » لتحرير مدينة « تيرجوس » في عام ١٥٧٢ .

فقد خاضت المشاة الأسبانية ستة أميال خلال ماء يصل إلى وسط الجنود بل إلى أعلى من ذلك عالين في نفس الوقت بأنه إذا وصل المد قبل تمام عبورهم فسوف يغرقون جميعا . ولم يحدث ظهور المسكيت^(٢) أى تغيير في أسلوب التكتيك ، بالرغم من أن المسكيت كبنديقة كانت مداها ودقتها أكبر من القريبه ، ولكن كانت لها عيوباً منها ثقلها الكبير حتى أنه كان من الضروري وضعها على سببية ، كما أن معدل نيرانها أقل من معدل القربينة^(٣) . وفي الأعوام التالية لعام ١٥٧٠ كان لدى الأسبان ١٥ حامل مسكيت لكل ١٠٠ حامل قربينة . ولكن في عام ١٦٠٠ كانت النسبة متساوية في معظم الجيوش .

(١) يقصد هنا حملة القرابين وحملة الزماج .

(٢) المسكيت مشاة أسبانية تستخدم بنادق من الطراز القديم .

(٣) كان معدل النيران ٤٠ طلقة / ساعة . « العرب »

ومن الصور المميزة لهذا العصر أنه في عام ١٥٣٤ كان يوجد في اللواء^(١) الأسباني ١٣ قسيساً بينما كان الطاقم الطبي يتكون من ثلاثة فقط . وخلال تلك الحقبة لم تنتج فرنسا أى مشاة جيدة ، ولكن بعد عام ١٥٩٠ قام موريس ناسو بتدريب عدد من صفوف المشاة الهولندية . وفي معركة نيوبورت (١٦٠٠) كانت المشاة الهولندية مع رجال « فير » الإنجليزية نداً قوياً للمشاة الأسبانية . وعبر هذه السنين كان هناك ميل إلى خفض حجم وحدات كل من المشاة والفرسان . وظهر في الجيش الأسباني بدلا من الوحدات الكبيرة أيام جونزالفو القرطبي ، كتائب أصغر حجماً يقود كل منها ضابط برتبة عقيد .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأت فرسان العصور الوسطى الثقيلة تختفي بسرعة . وقد سخرت قصة « دوت كيشوت » والتي طبعت عام ١٦٠٥ من الفارس المدرع المنقرض وعصر الفروسية المندثر .

واستبدل الرمح القصير بالمسدس^(٢) وأصبح السلاح الرئيسي للفرسان .

وبالطبع اختلف المسدس عن القربينة في الحجم بالإضافة إلى أنه يعمل بالزناد الدولابي والذي كان تطوراً هاماً في الأسلحة النارية ، فبدلاً من الحصول على النار من مادة سريعة الإلتهاب كان يحصل عليها بنفس طريقة قذاحة السجائر ، فعند جذب الزناد تتحرك عجلة دأرياً لتشغل لهاً من قطعة من كبريتور الحديد والتي استبدلت بعد ذلك بالصوان^(٣) ، وحيث أن هذه الطريقة غالية علاوة على ضعفها فلم تستخدم للقرايين أو المسكيت .

وسرعان ما اتجهت جميع الجيوش في استخدام المسدس كسلاح رئيسي للفرسان ، وكان أفضل مستخدمى المسدسات هم فرسان الألمان المعروفين بإسم « ريتز » ، وكان يحمل كل فارس ثلاث مسدسات ويرتدى درعاً أسود .

وكانت المناورة التكتيكية الخاصة بهؤلاء الفرسان هي التي تعرف بإسم « الكرا كول »^(٤)

(١) يتكون اللواء الأسباني من ٣٠٩٦ مقاتل .

(٢) المسدس سلاح ألماني كان أول ظهوره في وضوح في معركة موهاجر عام ١٥٤٧ .

(٣) حجر القذاحة .

(٤) تشكيل الخط نصف دائري . « المغرب »

وتنطلق تلك الخطوط بشكل متعاقب نحو العدو ، كل منها يطلق نيرانه ثم ينحرف بحصانه بعيداً ويتجه إلى الخلف ليعيد التعمير ويتشكل ثانية ، ولكن كانت لهذه الطريقة أخطارها الكثيرة فكان من الممكن أن تؤدي هذه المناورة المعقدة إلى الاضطراب ، كما أنها احتاجت لرجل شجاع يستطيع أن يصل بحصانه قريباً بدرجة كافية من العدو ليكون في داخل المدى المؤثر لمسدسه .

وهذا التشكيل العميق يتناقض مع مبدأ تكتيكات الصدمة حيث تضع القوة الدافعة للصفوف الخلفية في هذا التشكيل ، بالإضافة إذا توافر للعدو مدافع أو حتى قرايين فسوف يعنى ذلك خسارة جسيمة في صفوف هؤلاء الفرسان .

وعلى أى حال فقد انتصر القائد الفرنسى البروتستنتى هنرى نافر خلال الحروب الدينية في معركة كوتراس عام ١٥٨٧ باستخدامه حملة المسدسات في ثلاث مجموعات يتكون كل منها من ٦ صفوف .

أما أعدائه من الفرسان فقد أصطفوا في خط طويل من صفين ، واستطاع حملة المسدسات التابعة لهنرى نافر بالرغم من قلة عددهم أن يحطموا خط العدو الضعيف في ثلاث نقاط هاجمت فيها الثلاث مجموعات ، ثم درات فرسان نافر إلى الجنب حيث طوقت في هجمات جانبية بقية قوات العدو .

وفي الحقيقة ، قررت الفرسان مصير معظم معارك الحروب الفرنسية ، لأن نوعية المشاة كانت رديئة بصفة عامة وبالرغم من ذلك لم يكن مستوى الفرسان المقاتلة عالياً لأن كثيراً جداً من الضباط النبلاء كانوا مهملين وغير منظمين ومشاكسين . وبصفة عامة لم تصلح أرض هولندا لعمليات الفرسان .

ولكن كانت أبرز الحوادث خلوداً في الحروب الهولندية عندما قتل «سير فيليب سيدنى» أثناء هجوم بطولى ١٠٠٠ فارس انجليزى^(١) عند «دار نسفيلد» بالقرب من «فلوشنج» عام ١٥٨٦ .

وخلال الأعوام الأولى من هذه الحروب لم يكن هناك أى شيء ند للفرسان الأسبانية ولكن موريس ناسودرس هذه المشكلة وبالتالي لم يهمل عنصر الفروسية أثناء تطويره للقوات الهولندية .

(١) لقد كانت مأساة بالنسبة للانجليز في ذلك الوقت . «المعرب»

وفي معركة تيرنهوت (١٥٩٧) استطاعت الفرسان الهولندية طرد الفرسان الأسبانية خارج ميدان القتال ، وتحولت بعدها لتنضم على المشاة ليحطوا سوية المشاة الأسبانية .

وفي معركة نيوبورت عام ١٦٠٠ وضع تفوق الفرسان الهولندية والذي قرر نتيجة أكبر معركة بعد معركة بافيا عام ١٥٢٥ . . بينما لم يتعد صراع المشاة عن الكشبان الرملية ، قامت الفرسان الهولندية بهجمات متكررة على الأسبان على الطريق الساحلي حتى تمكنوا في النهاية من دحرهم تماماً .

وأثناء ذلك وخلال الصراع المحتدم بين مشاة الطرفين بدا أن عجلة الحظ أخذت تتأرجح بعيداً عن الهولنديين ، ولكن قامت فرسانهم بهجوم آخر من خلال الكشبان على خط المشاة الأسباني الثالث الضعيف واخترقته مما حقق لهم النصر في كل أنحاء الميدان .

وقد كان هنري نافار جريئاً ومتهوراً ولكنه بشكل عام كان قائداً ناجحاً للفرسان مؤمناً بأن الوسيلة لتحقيق النصر هي القيام بهجمات مندفعة من نوع مورات .

ويعتبر دفاعه عن مضيق أركوى عام ١٥٨٩ ممتازاً في نوعه ولكنه كأستراتيجي فكان من الدرجة الثانية ، فبدلاً من متابعة انتصاره في إيفري عام ١٥٩٠ بتقدم سريع نحو باريس أخذ أجازة لمدة أسبوعين لكي يضع ٢٢ علماً تحت أقدام عشيقته في بيرن .

وقد فاقه بارما في المناورة ، ففي عام ١٥٩٠ أجبره بارما بالمناورة على سحب قواته بعيداً عن باريس ، وفي عام ١٥٩٢ خلص «بارما» «روبن» بنفس الطريقة ، وعموماً ففي أي مكان تصادما فاق «بارما» «نافار» ، فقد كان بارما سيد المناورات الاستراتيجية علاوة على علمه الغزير بفن الحصار والهندسة العسكرية .

الملك البقال

وننتقل الآن إلى تاريخ الحروب البحرية والتي ستعطينا فائدة أكبر من التطورات العسكرية التي حدثت فيما بين أعوام ١٥٢٥ - ١٦٠٩ .

وفي القرنين ١٥ ، ١٦ حطمت أوروبا أخيراً حصار الشعوب الأجنبية مثل القوط والعرب

والفايكنج والمغول والأتراك والذي استمر طوال العصور الوسطى . وليس هناك أى تغير للزحف الأوروبى الجديد خلال بحار العالم ، ولكن يمكن أن نقول أن الملاحين والفايكنج كانوا يشعرون بدافع أدخل المسيحية إلى العالم الوثنى ، علاوة على قيامهم بأعمال مجيدة لأنفسهم ولبلادهم ، ودفعهم الفضول والشوق إلى المضى قدما ، ولكن كان أقوى دافع لديهم جميعاً هو الرغبة فى الثراء والاستعمار الأوروبى كان عملاً تجارياً يموله المضابون وينفذه المغامرون .

ويعتبر وصف فرانسيس الأول لمانويل ملك البرتغال على أنه « الملك البقال » وصفاً صلفاً وفضلاً ولكن من الناحية التاريخية كان تحليله لهذا الملك صحيحاً .

فكانت التجارة هى التى وفرت الطاقة ، والدين هو الذى وفر الذريعة ، وقد اعتمدت

الوسائل التنفيذية على التطورات الحديثة فى التكنولوجيا فى السفن والمدافع .

وجاء أول اندفاع هجوى من أسبانيا والبرتغال .

وفى عام ١٤٩٣^(١) تقرر رحلة كولمبس إلى باهاما ، ويوحى هذا الأمر بأنها كانت

لخلق منفذ عادل ومريح للطاقة القسطنطينية نحو عالم جديد .

وفى عام ١٥٠٩ أقيمت أول مستعمرة أسبانية فى أمريكا . وفى هذا الوقت كان يوجد

فى القارة الأمريكية دولتين وطنيتين فقط ذات قيمة وهما الإمبراطورية الأزتيكية^(٢) فى

المكسيك وإمبراطورية الإنكا^(٣) .

وقد تم الإستيلاء على هذه الإمبراطورية الواسعة فى أقل من ٥٠ عاماً وظلت سليمة

٣٠٠ سنة .

أما الإمبراطوريات الأوروبية^(٤) التى ظهرت فى القرن ١٦ فقد بقيت أساساً إمبراطوريات

بحرية تجارية حتى القرن ١٨ .

ولم يكن تعداد أوروبا كبيراً بدرجة تكفى لاحتلال الأعماق الداخلية للقارة الجديدة

بالمعنى الحقيقى ، كما لم يكن لديهم نفس التفوق الساحق فى تكتيك الحرب البرية

مثل ما كان لهم فى حروب البحر ، وكانت الشعوب غير الأوروبية تفوقهم

فى الحرب البرية .

(١) فى السنة التالية بالذات لسقوط غرناطة .

(٢) وقد قهرها هرناو كورتيز فيما بين عامى ١٥١٩ و ١٥٢٢ .

(٣) وقد ضمها إلى أسبانيا فرانسيسكو بيزارو خلال الأعوام من ١٥٢٢ إلى ١٥٣٢ .

(٤) وهى الأسبانية والبرتغالية والإنجليزية والهولندية . «المغرب»

الكارافيل

وكانت السفن الكبيرة المزودة بالأشرعة الرباعية والمسلحة بالمدافع والتي يعمل عليها بحارة مهرة ولديهم معلومات ملاحية متقدمة هي المفتاح الرئيسى لكل هذه المغامرات . والبرتغاليون هم الذين نفذوا أول الاكتشافات الملاحية الحاسمة ، وكان الأمير هنرى (الملقب بالملاح) يرعى بحارته ويجمع لهم الكثير من المعرفة عن طريق بلاطه فى مدينة بساجريس فيما بين أعوام ١٤٣٠ — ١٤٤٠ .

وقد قام فاسكودى جاما برحلته الشهيرة إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح فى عامى ١٤٩٧ — ١٤٩٨ .

وقد كان بحارة العصور الوسطى فى الواقع مرشدين ، وليسوا ملاحين فكانوا يسIRON بمحاذاة الساحل ويحددون اتجاهاتهم بالبوصلة على العلامات الأرضية المعروفة ، ولكن عندما ظهرت الآلات والخبرات الجديدة فى القرن ١٤ ، ١٥ حولتهم إلى ملاحين . وأدى التحسين فى صنع الأشرعة إلى إمكان تغيير اتجاه السفينة طبقاً لاتجاه الريح ، وقد حافظت الدفة على مسار السفينة المضبوطة أثناء هذه المناورة .

وفى عام ١٤٥٦ كان البرتغاليون يستخدمون الاسطرلاب^(١) ، والربع دائرة لقياس الارتفاع الزاوى للنجم القطبى وكوكبه صليب الجنوب فوق الأفق ، وذلك بغرض تحديد خط العرض .

وأنشأت مدارس للملاحة فى لشبونة وسيفيل . وعلى أى حال ، فلم يكن يوجد حتى الآن طريقة لقياس خط الطول ، وبقيت الخرائط بالتالى بدائية غير متطورة .

وكان على البحارة فى القرن ١٦ الاعتماد فوق كل شئ على التخمينات المحسوبة إلى حد ما طبقاً لحساب خطوط العرض وعلى المعلومات المتوفرة لديهم عن الرياح والتيارات البحرية . وقد استخدمت الكارافيل فى الأيام الأولى للاستكشافات وشكلت بعض التقدم عن سفن العصور الوسطى التجارية .

وكانت الكارافيل سفينة قصيرة بدينة ذات ثلاث صواري ومزودة بأشرعة رباعية ،

(٥) آلة فلكية قديمة لقياس ارتفاع الشمس والنجوم . « العرب »

وبمدافع مركبة في مقدمة ومؤخرة السفينة . وبالتدريج تحسنت ونظمت خطوط تصميمها وبنائها كما زادت منطقة الشراع لتعطي سرعة أكبر . وكان المدفع صغير الحجم أو متوسط ولكنه عموماً كان من نفس النوع المستخدم في البر .

وبطبيعة الحال كان الأمر لا يزال محتاجاً لمزيد من التطورات ، ولكن لم توجد في ذلك الحين أى سفينة أخرى في العالم تستطيع منافسة هذا التجميع القوى لخفة الحركة وقوة التدمير .

وفي عام ١٥٠٩ مزق الأسطول البرتغالي تحت قيادة « فرانسيسكو دى أليدا » الأسطول المصرى خارج ميناء ديو^(١) ، وهكذا حل البرتغاليون محل العرب ، وسيطروا على المحيط الهندى .

ولم تكن الفتوحات الأسبانية فى المكسيك وبيرو مجرد سلسلة من الأعمال العسكرية فقط بل كانت أعمال خداع كبيرة . فلم يكن مع كل من كورتيز وبزارو أكثر من جماعة من المغامرين لا تزيد قوتهم عن ١٠٠٠ رجل ، كما لم يكن مع أى منهم إلا بعض الخيل والأسلحة النارية العتيقة ، ولكنهما استطاعا تكوين الإمبراطورية الأسبانية باستغلال معتقدات أعدائهم الخرافية لإدخال الخوف إلى قلوب أعدائهم .

وقدر صور بيتر شافير هذا بقوله : « لم تكن الطاقة المتهبة لحديد^(٢) أسبانيا ضد سهام البيرويين الضعفاء المسالمين تمثل صورة تاريخية ، بل كانت صورة مأساة دامية وكان الخوف من آلهة بيضاء غريبة تغطى خيولاً وتطلق من آلات صغيرة جداً رعداً وبرقاً هو السبب الحقيقى لاستسلام زعماء الهنود ، وفى نفس الوقت رحبت الشعوب المذعورة لهذه المناطق بالفاتحين البيض كحررين لهم من قبضة حكامهم . كما لعب إدخال الجدرى عمداً بواسطة الأوروبيين إلى القارة الأمريكية والتي لم يكن لدى سكانها الهنود أى حصانة ضد هذا المرض ، دوراً فى كسر شوكة مستوطنى القارة الأمريكية .

ولكن مهما كانت الظروف ، فإنها قصة تستحق مكاناً بارزاً فى سجلات الشجاعة والقيادة واساليب الحرب النفسية .

(١) تقع جنوب كراتشى بحوالى ٣٠٠ ميل .

(٢) يقصد بـ « الحديد » الأسبان .

القراصنة المفوضين

وفى المناسبات التى تصادمت فيها الأسلحة الأسبانية مع هنود جنوب أمريكا ، كان التفوق الأسباني الفنى يظهر فى صورة مذهلة ، فلم يكن لدى الهنود من الأسلحة إلا المقلاع والقوس والحراب ذات الرأس السبجى^(١) والفئوس ، بينما كان لدى الأوروبين مدافع وسيوف من الصلب ويركبون الخيل .

وعندما حاصر كورتيز عاصمة الأزتيك^(٢) الحصار الأخير فى عام ١٥٢١ قام بصنع ١٣ سفينة شراعية لمعاونة قواته أثناء هجومها على طول ثلاث ممرات من الطرق المرتفعة والى تربط المدينة بالخارج .

وبلغ طول السفينة ٤٢ قدماً وأقصى عرض لها ٩ أقدام والجزء الطافى منها من ٤—٧ قدماً . وزودت بعض هذه السفن بصارى واحد بينما زود الباقى بصاريين وكان عدد طاقمها ٢٥ فرداً مسلحين بالقرايين والنشاب ، كما ركب مدفع صغير على مقدمة السفينة . واعتبر كورتيز هذه السفن هى « مفتاح الفصر فى الحرب » ولذا خصص ثلث قوته الإجمالية و ٨٠٪ من مدفعيته لهذه السفن .

وقد لعبت هذه السفن فى الواقع دوراً حاسماً فى الحصار والقصف مما أدى إلى إضعاف مقاومه تنوختيلان .

كما دمرت هذه السفن أسطولاً كبيراً من القوارب الهندية سواء باختراقها بمقدمتها القوية أو بنيران المدافع .

وقد أدت هذه السفن المهمة التكتيكية للفرسان وذلك بمعاونتها لجنب ومؤخرة القوات المهاجمة على الطرق الثلاث ، كما أنها فى الليل تقوم بحراسة الرجال أثناء راحتهم ، بالإضافة إلى حمل الأمدادات وقطع خطوط مواصلات العدو مع قيامها بواجبات الاتصال ، وعملت أيضاً كوبرى عائماً .

(١) السبج زجاج بركاني ذو لون أسود .

(٢) كانت تسمى تنوختيلان وتقع فوق جزيرة على بحيرة تكسكوكو ، وهى فى مكان المكسيك الحالية .

وفي النهاية تمكنت قذائفها من تدمير تحصينات المدينة مخترقة طريقها وتقدمت على طول القنوات المؤدية إلى قلبها .

ولقد كان حصار كورتيز لتنوخيتلان عملية برمائية جديدة في مفاهيمها ونفذت في براعة فائقة . وهي حتى وإن بدت كعملية ارتجالية إلا أنها أوضحت بجلاء القوة الساحقة المتولدة من تجميع المدافع والسفن .

أما المنافسة المسلحة بين القوى الإستعمارية الأوروبية نفسها فقد بات مؤكداً أنها ستحدث إن عاجلاً أو آجلاً . ويعود ذلك لسبب واحد وهو أن التوسع في المصالح الأوروبية في المناطق الجديدة كان يعتبر توسع في الأفق السياسي والاستراتيجي الأوروبي . وخلال الحروب بين الفلواز — الهبسبرج أى بعد حوالى عام ١٥٢٠ ، أغار الفرنسيون والأسبان على مستعمرات وسفن بعضهما البعض ، كما أن شروط معاهدة كاتوا — كبرسيس أستبعدت من المسرح كل ما هو ليس أوروبى . وقد حدث بعد الفترة الأولى من الأستكشافات من أعمال الماضى وفتور الاهتمام « بالقارة الجنوبية العظمى » و « بالمر الشمالى الغربى » أن أصبحت اهتمامات الحكومات الأوروبية تجارية بحتة . أما المناطق الغنية وخاصة منطقة الكاريبي ، فقد أصبحت مناطق تنافس بين القوى الاحتكارية المعادية . وقد نجح البرتغاليون بصفة عامة في تجنب الحرب ، فلم تكن لديهم أى مطامع سياسية في أوروبا ، هذا بالإضافة إلى وجود اتفاق بينهم وبين الأسبان على العمل في مناطق مخصصة لكل منهما . وفي عام ١٥٨٠ أتحده العرش الأسبانى والبرتغالى ونتج عن ذلك قوة بحرية متحدة واحدة رهيبة . وفي نهاية القرن ١٦ فقط بدأت الأمبراطورية الهولندية البحرية في ارتقاء سلم التطور بعد حصولها على استقلالها من أسبانيا ، بينما كانت إنجلترا هى المنافس الرئيسى لأسبانيا في هذه الفترة . وقد لخص سير « والتر رالى » الغرض الاستراتيجى لجميع أطراف التنافس في مضمار البحرية قائلا : « من يسيطر على البحار سيطر على التجارة ، ومن يسيطر على تجارة العالم سيطر على ثروات العالم وبالتالي سيطر على العالم قاطبة » .

وفي الأعوام التالية لعام ١٥٤٠ طور الأسبان مناجم الفضة في جنوب أمريكا ، وفي وقت قصير تضاعف عدد السبائك العابرة للأطلس . وأصبحت التجارة الأسبانية الراجحة

منغرية لكل من التجار المتطفلين وأيضاً لكثير من القراصنة المفوضين^(١) . وفي الأعوام التالية لعام ١٥٦٠ ازداد بسرعة حجم النقل البحري التجارى الأسباني فى الباسفيك ، وبالرغم من أن إنجلترا كانت فى الجزء الأول من القرن متخلفة تجارياً ، ولم تلعب إلا دوراً بسيطاً فى الاستكشافات الأولى والتوسع التجارى ، إلا أن ما حدث من هبوط مفاجئ للأسعار فى سوق أوروبا الشمالية فى حوالى عام ١٥٥٠ ، أثار الإنجليز وحشهم على استكشاف وأستغلال العالم الجديد .

وفى أول الأمر أهتموا بشمال الأطلنطى ولكن فى الأعوام التالية لعام ١٥٦٠ تواجدت المصالح البريطانية بقوة فى الكاريبي .

وقد سار تطور القوة البحرية البريطانية فى القرن ١٦ بطريقة عفوائية ، وكان أهم عامل مؤثر منذ التاريخ هو وجود بريطانيا على حافه الأطلنطى ، الأمر الذى جعل تفكيرها البحرى يتجه إلى الشراع وليس إلى المجداف . وأستخدمت السفن الشراعية فى القتال ونقل البضائع نظراً لقدرتها الأكبر على البقاء فى البحر وتحمل الأحوال الجوية . وجاء هنرى السابع (١٤٨٥ — ١٥٠٩) ليزيد من حجم السفن الشراعية إلى حوالى ١٠٠ طن كما وسع منطقة الشراع . وقد جعل بورتسموث القاعدة البحرية البريطانية وأنشأ فيها أول حوض جاف . وشجع هنرى السابع الملاحين ، وأيضاً كسياسة مرسومة شجع طبقة جديدة من الأثرياء ، الذين قامت مؤسساتهم ببناء القوة البحرية البريطانية فى الأعوام التالية .

ولكن ظلت السفن الإنجليزية التجارية الكبيرة المسلحة المعروفة باسم « القرقور » هى سفن القتال أيام حكم هنرى ، ولكنها لم تكن أكثر من نقطة قوية متحركة ، ولم تكن لديها خفة حركة كبيرة .

الغليون

لقد كانت أعظم خطوة فى تكوين القوة البحرية البريطانية تلك التى قام بها هنرى الثامن (١٥٠٩ — ١٥٤٧) ، فبعد أن حصل هنرى على بعض الأنواع الجديدة من المدافع وجد أنها أثقل من أن توضع فى المقصورات الضعيفة الرقيقة المعدة للمدفع فى سفن القرقور ،

(١) قرصان يفوس من قبل الحكومة لمهاجمة سمن الأعداء والإستيلاء عليها . « العرب »

ولذا فقد ركبها على طول السطح وأيضاً في مكان نقل الحمولة بعد شق فتحات خاصة في الجزء الطافي من السفينة .

وبذلك أصبحت سفن هنرى الثامن هي أول سفن مسلحة بالمدافع على جانبيها . وزود المدفع بعربة ذات عجل حتى يمكن إدارة المدافع إلى الداخل لإعادة التعمير ، وأيضاً لإمكان ارتداد المدفع فيما بين السفنات على السطح ، وأمكن بذلك التغلب على مشكلة نقص القوة الضاربة للسفينة الشراعية . كما أن هنرى الثامن جعل سفنه أكثر قدرة على المناورة بإزالة جميع مقصورات المدافع جاعلاً جسم السفينة أنسيابياً ، وبذلك كان يمكن للسفينة الأبحار في اتجاه معاكس للريح تقريباً . وذلك النوع الجديد من السفن المتطورة من حيث قدره الهجومية ومرونة المناورة كان يطلق عليها اسم « الغليون » .

وفي عام ١٥٥٠ كانت هناك غلايين ذات حمولة وصلت إلى ٦٠٠ طن ، وفي الأعوام التالية لعام ١٥٨٠ كانت هناك بعض الغلايين مثل « النصر » والتي وصلت حمولتها إلى أكثر من ١٠٠٠ طن .

ولقد كانت هذه سفن « هوكنز » و « دريك » وأُستُخدمت أيضاً سفن شراعية مسلحة صغيرة كانت تعرف باسم « البيناك » .

وقد أنشأ هنرى الثامن نظاماً بيروقراطياً ليكمل به قائد البحرية ، وهو مجلس البحرية ومراقبة الحسابات . أما الأسبان في الأعوام التي تلت عام ١٥٥٠ أدخل الأدميرال الأسباني « الفارودى بازان » الغليون للخدمة في الأسطول الأسباني ولحماية النقل البحري لبلاده عبر الأطلنطي . وفي الأعوام التالية لعام ١٥٦٠ أنشأ الفارو أول نظام ثابت للقوافل البحرية المسلحة .

وحتى عام ١٥٦٩ ، ظلت العلاقات المتجاول — أسبانية ودية في شئ من التجاوز ، وكان الأدميرال « سير جون هوكنز » من أبرز شخصيات هذه الفترة ، وأدخل بعض التحسينات على الغليون . وفي عامي ١٥٦٢ ، ١٥٦٤ أنشأ عن طريق الاكتتاب والتبرع أساطيل جابت أرجاء الكاريبي بنجاح كبير . وعندئذ أعد هوكنز رحلة ثالثة قامت بتمويلها اليزايت نفسها ، وفي تلك الرحلة بدأ ظهور « فرانسيس دريك » في الكاريبي .

وفي عام ١٥٦٨ بينا كان الإنجليز يقومون بإصلاح سفنهم في « سان جوان دي أليا » في (خليج المكسيك) باغتهم قوة أسبانية كبيرة بهجوم عنيف لم ينجو منهم سوى جزء صغير جداً استطاع العودة إلى إنجلترا .

وكانت هذه نقطة التحول . . ومنذ عامي ١٥٦٩ — ١٥٨٠ بات واضحاً أن هناك عداءً شبه رسمي بين إنجلترا وأسبانيا في مياه الكاريبي . وأعلنت اليزابيث صراحة أنها تؤيد أعمال القراصنة الإنجليز طالما لم تؤدي أعمالهم إلى إثارة حرب علانية ، ومما زاد من حدة هذا العداء الاختلافات الدينية وتزايد معاملة الأسبان السيئة للأسرى .

وفي ذلك الوقت ، برز فرانسيس دريك كقائد بحري بارز في عصر الغليون . وأصبح

اسمه بعد ٢٠ عاماً من المغامرات الناجحة يثير الرعب في قلوب الأسبان ، كما صار يتردد اسمه كقول مأثور على ألسنة المواطنين الإنجليز ، وقد جلب هذا عليه غيره بعض المنافسين الأقل تألقاً . ومن أهم ما قام به دريك من أعمال تطويره لفن واستراتيجية وتكتيك البحرية البريطانية . وفيما بين عامي ١٥٧٢ — ١٥٧٣ أُنقِمَ لكارثة « سان جوان دي أليا » وذلك بقيامه بسفينتين و ٧٥ رجلاً بغارة ناجحة على « نومبري دي دواس » ذلك المرفق الحيوي



لهواصلات البحرية الأسبانية . واستمر لعدة شهور بعدها سير فرانسيس دريك

في نهب سواحل المستعمرات الأسبانية وتدمير سفنهم ، حتى أنه في أحد المناطق نزل إلى البر ليتحالف مع المواطنين واستولى على قافلة أسبانية هامة محملة بالفضة . . وفيما بين عامي ١٥٧٧ و ١٥٨٠ قام دريك برحلته الشهيرة حول العالم ، واستمر طوافه على متن السفينة « جولدن هيند » بعد أن فقد سفينتين في مضائق مجلان .

ثم أغار على الشاطئ الباسيفيكي لجنوب أمريكا حيث أكتشف أن الموانئ بهذا الشاطئ غير مجهزة للوقوف في وجه مدفعية سفينته ، وضمن باستيلائه على سفينة نقل الفضة الضخمة « كافييج » النجاح المالي للرحلة . كما كانت هناك ثروات أكبر كثيراً تتلص

طريقه خلال جزر « مولو كاس » . وعندما عادت السفينة « جولدن هيند » إلى نهر التيمز ألقى دريك مراسيها خارج « دبتفورد » . وأعلنت اليزابيث عزمها على منح فرانسيس دريك رتبة « السير » على ظهر السفينة ، وتم ذلك في ٤ أبريل عام ١٥٨١ . وجعلت اليزابيث دريك يركع أمامها ثم أعطت السيف لديبلوماسى فرنسى ليقوم بالمس أكتاف دريك ، ومن المحتمل أن يسكون هذا العمل بغرض توجيه أهانة مباشرة للملك أسبانيا وأيضاً لتوريث الفرنسيين معها .

ولكن يبدو أن الستار قد بدأ يرخى سدوله معلناً على نهاية ذلك العهد من الرخاء والاطمئنان .

فقد كانت السفن والبحارة الإنجليزية في وضع أفضل من أى وقت مضى ، ولكن الأسبان أيضاً اتخذوا الإجراءات التي تكفل لهم التعامل مع المغيرين الإنجليز ، فانشأت أسبانيا سفناً أكبر للنقل وجهازها بالمدافع ، كما ألزمت بنظام دقيق للإبحار القوافل . فكان يغادر أمريكا إلى أسبانيا أسطولان كبيران في أوقات محددة من العام يصحبهما أسطول من الغلايين لحمايتهما .

وظل الأسبان لمدة طويلة يرفضوا التخلي عن السفن الشراعية المزودة بالمجاديف^(١) .

وعلى كل إذا كانت قوة التحمل هي مفتاح الاستراتيجية ، نخبة الحركة

ضرورية للتكتيك .

وفي الفترة التي شهدت المعركة البحرية العظمى « لياتو » في البحر المتوسط ضد الأتراك عام ١٥٧١ ، كان الأسطول الأسباني يتكون كله من القواديس^(٢) ، وعلى أى حال فقد أعترف في الأعوام التي تلت عام ١٧٥٠ بمزايا السفن الشراعية ، كما عملت التجارب لإنتاج سفينة سميت « الغلياس »^(٣) ، وكانت تطلق نيرانها من الجنب من فوق رؤوس المجدفين . ونتيجة لاتحاد البرتغال وأسبانيا عام ١٨٥٠ حصلت أسبانيا على عدد

(١) كان سبب ذلك أنهم من أهالي البحر المتوسط الذين اعتادوا على السفن ذات المجاديف .

(٢) سفن شراعية كبيرة ذات مجاديف .

(٣) سفينة جامعة لحصائص الغليون والقوارس .

كبير من الغلايين . وأخيراً في عام ١٥٨٧ عندما ثبت الفشل التام للغلياس تحول الأسبان كلية من القوادس إلى الغليون .

إحراق حية ملك أسبانيا

وفي عام ١٥٨٠ كانت لا تزال اليزايث غير راغبة في التعجيل بقيام حرب علنية وقد ضيعت الفرصة لتوجيه ضربة كبيرة للقوة الأسبانية البحرية برفضها الانضمام إلى فرنسا للقيام بغارة على جزر الأزور ، وبالرغم من ذلك فند تدهورت العلاقات بسرعة ، وفي عام ١٥٨٥ أستولى فيليب ملك أسبانيا على معظم التجارة الإنجليزية في أسبانيا ، كما خرجت الأخبار الصادقة ، بأنه يخطط لغزو إنجلترا وذلك أعلنت الحرب رسمياً بين الطرفين .

كان الإنجليز يستخدمون الأساطيل في العهود الماضية لمجرد نقل ومساعدة القوات في قتالها البرى ولكن الآن أصبحت هناك استراتيجية بحرية خاصة مع عدم إرتباطها بالقتال البرى ، فاستخدمت السفن البريطانية في نظام وترتيب لقطع المواصلات البحرية الهامة للعدو ، وهى استراتيجية الأقتراب غير المباشر والتي تشبه ما اتبعته أسبرطة لهزيمة أثينا في الحروب البيلويونيز . وهاجمت السفن الإنجليزية خطوط المواصلات التي تربط الجيش الأسباني في الأراضى الواطئة وقاعدته في أسبانيا .

وكانت الحملة العسكرية الإنجليزية التي أرسلت لمعاونة الهولنديين في عام ١٥٨٥ جزءاً مكملًا لهذه الاستراتيجية . وفي نفس الوقت أستمرت إنجلترا في اتباع سياسة دريك في قطع الموارد الأمريكية عن أسبانيا . وفي عام ١٥٨٥ ابجر دريك ومعه ٢٠ سفينة و ٢٣٠٠ رجل إلى الكاريبي للاستيلاء على هافانا^(١) ، وقد نجح في إلحاق الدمار بالسفن والمنشآت الأسبانية هناك ، ولكن لم يكن معه قوات تكفى لتحقيق النجاح كاملاً .

وهذا يدل على تردد الملكة لحرمانها دريك من الرجال التي تكفى لنجاح مهمته بالكامل .

وكان من الأفضل بدلا من إرسال قوات بريطانية كبيرة إلى الأراضى الواطئة ، التأكد

(١) كانت هافانا المركز التجارى الأسباني الرئيسى فى الكاريبى . العرب .

فقط أن المهولنديين يثبتوا القوات الأسبانية هناك ، بينما توجه إنجلترا مجهودها الرئيسى إلى الكاريبي . منذ عهد هنرى الثامن والبحرية البريطانية تتضاءل بطريقة ملحوظة ، وكانت أليزابيث تعاني من النقص المالى ، وفضلت أن ترسم سياستها البحرية على أساس مشاركة المؤسسات التجارية الخاصة ذات رأس مال مشترك لهذا الأمر ، وقد مولت كل رحلات دريك بهذه الطريقة ، وبذلك أعيد بناء الأسطول البريطانى .

وقد كانت إستراتيجية الأسبان فى هذا الحرب تدمير مخربى الأمبراطورية فى عقر دارهم وذلك بتوجيه ضربة ضد إنجلترا بغزوها بأسطول كبير بالتعاون مع جيش بارما المتمركز فى الأراضى الواطئة . ومنذ وقت طويل كانت تجرى الإستعدادات اللازمة لذلك حتى أنه فى عام ١٥٨٨ رفضت خطتان للغزو .

وانتشرت الشائعات عن الإستعدادات الأسبانية فى كل أوروبا ، وفى عام ١٥٨٧ قام الإنجليز بمحاولة للقضاء على الغزو فى مهده ، فقد ترك دريك أسطولاً صغيراً لمراقبة الساحل الفلمنكى وأبحر هو ومعه ٢٣ سفينة فى مهمة تعتبر من أبرع ما قام به على الإطلاق : — «إحراق لحية ملك أسبانيا» . وكانت تعليمات دريك كما يلي : —

« تدمير تجمع أسطول ملك أسبانيا فى مرا كزه المتعددة ، ومنعه من التزود بالمؤن وتتبع سفنه فى حالة إتجاهها نحو إنجلترا » .

وفى ميناء كاديذ وجد حوالى ٨٠ سفينة من مختلف الأنواع يجرى تجهيزها ، ولكن لم توجد سوى ١٢ قاذس فى حالة إستعداد للقتال ، واستغل دريك المفاجأة ودخل بسفنه إلى داخل الميناء ، وحاربت القواديس بشجاعة مثالية ولكن هزمها نيران مدفعية الغلايين ، ثم دمر دريك كل ما أمكن العثور عليه فى الميناء ، وخسر الأسبان ٣٠ سفينة ، وأمضى الأسطول الإنجليزى وقتاً طويلاً على الساحل الأسبانى ، ولكن الأمراض وقلة المؤن أجبرته على العودة لإنجلترا .

ولقد كانت حملة دريك عبارة عن المثل الأول للسياسة الإستراتيجية البحرية الرئيسية البريطانية المقبلة ، وهى مهاجمة العدو على نفس ساحله .

وأهم النتائج المباشرة لهذه المعركة هو قرار الأسبان بالتخلي عن القواديس والإتجاه إلى

الغلايين واضطر الأسبان إلى البدء من جديد في التجهيز للأرمادا^(١).

وفي عام ١٥٨٨ ألح دريك على تكرار هذه الإستراتيجية الدفاعية الهجومية ولكن تردد الملكة ثم قيام ريخ غير موالية أبقت الأسطول الإنجليزي في مياه بلاده.

كنوز الأسطول الأسباني (أنظر اللوحة رقم ١٩)

وبدت الأرمادا الأسبانية التي أبحرت أخيراً للمانش في مايو ١٥٨٨ كقوة رهيبة.

وقد أستطاع فيليب بقدرته الإدارية من بناء ٦٥ غليون بعد كارثة كاديز. ولم يكن مع الأرمادا سوى ٤ قوادم ومثلها من نوع الغلياس، ولكن الحجم الكلي للأرمادا وصل إلى ١٣٠ سفينة عندما أشتراك حشد من سفن البينك الصغيرة وسفن النقل معها.

وقد جمعت هذه السفن من كل من أسبانيا والعالم الجديد. وكان إجمالي الأسطول البريطاني في بلايموث ١٩٧ سفينة بينها ٣٤ من سفن الملكة أما الباقي فكانت سفناً خاصة، وتضمن الأسطول حوالي ٢٥ غليوناً من الدرجة الأولى و ٤٠ سفينة قتال أخرى جيدة جداً، أما الباقي فلم يخض القتال. وبلغت حمولة أكبر السفن في كلا الجانبين حوالي ١٠٠٠ طن، وبالتالي فقد تساوت القوة القتالية للجانبين إذ بلغت لكل منهما من ٦٠ — ٧٠ غليوناً منهم ٢٠ سفينة بالغة القوة.

ومهما كان فقد كانت السفن الأسبانية أكثر إرتفاعاً عن سطح الماء ومقدمتها أكبر الأمر الذي جعلها أقل في المناورة عن الغلايين الإنجليزية. كما كان هناك عامل غاية في الأهمية وهو أن الإنجليز كان لديهم بحارة أكثر خبرة في الملاحة بالشرع علاوة على تفوق نوعية القيادة في الجانب الإنجليزي.

وكان القائدان العامان الشرفيان هما «دوق مدينا سيدونيا» «والورد هواردا فنجهام» وهما سيدان من النبلاء يمتازان بالكياسة والدوق ولكن تنقصهما الخبرة البحرية، أما القائدان الحقيقيان فكانا «دييجو دي فالديز» الأسباني وهو أحد رجال البحر ذو الخبرة العظيمة ولكن كان عاجزاً على السيطرة على مؤوسية، «ودريك» الإنجليزي والذي كان في ريعانه.

(١) الأرمادا هي الأسطول الأسباني الكبير.

ولقد كانت هناك فوارق ملحوظة في تسليح كلا الأسطولين والتي ترجع إلى اختلاف المفهوم التكتيكي لكل منهما

وكان الهدف التكتيكي الأسباني هو قصف العدو من مدى قصير حتى يتم تدمير أشيعته وصوارية وأيضاً إضعاف القدرة القتالية لرجاله ، ثم الإقتراب بعد ذلك من سفن العدو والأمساك بهائم أعتلاها ، ولذلك فقد سالحوا كل غليون بحوالى ٤٠ مدافع ثقيل قصير المدى .

أما الهدف التكتيكي الإنجليزي فكان يتركز في قصف جسم سفن العدو على أن يتم ذلك من أبعد مدى ممكن بهدف أغراقها ، ولذا سالح الإنجليز سفنهم بمدافع أخف ولكن ذات مدى أطول .

وهكذا تفوق الأسبان في الوزن وتفوق الإنجليز في المدى .

وفي ١٩ يولييه عام ١٥٨٨ ظهرت الأرمادا أمام مياة ليزارد ، ولبعض الوقت فقد لزم الأسطول الإنجليزي ميناء بلايموث بسبب الرياح الجنوبية الغربية ، وقضى الضباط ذلك الوقت في ممارسة لعبة البولنج (١) .

ولكن في ٢٠ يولييه خرجت السفن الإنجليزية من الميناء في اتجاه الأرمادا .

وصمم دريك على أنتزاع المبادأة من الأسبان بالوصول إلى مهب الريح بالنسبة للأسبان ، وجاءت أولى لحظات تفوق الملاحه البريطانية عندما شق أسطولهم طريقه في حركات متعرجة قصيرة في مواجهة الأسطول الأسباني ليعبر من جانب إلى آخر ويصبح في مهب الريح بالنسبة للأسطول الأسباني . وانتشرت الأرمادا على شكل هلال متجه غربا ، وهكذا أصبحت الأرمادا محبسة على خوض القتال من مؤخرتها حسب الوضع الملائم لسفن الإنجليز على طول المانش .

وقرر الإنجليز إستغلال خفة حركتهم المتفوقة ومدى نيرانهم الأطوال ، وساروا لمدة خمسة أيام في أثر العدو ، ويوماً بعد يوم يتصيدون أقوى سفن المؤخرة الأسبانية .

(١) لعبة تدحرج الكبرة على مسطح لتصيب عدد من القوائم الخشبية وتسقطها .

وفي أول الأمر كان الإنجليز يقومون بالهجوم في مجموعات صغيرة ولكن الأسطول بعد ذلك نظم في أربعة مجموعات ، وكان ذلك بمثابة البداية التكتيكية المتأسكة للأسطول^(١) . ومرة بعد الأخرى تفوقت السفن الإنجليزية في الملاحة على سفن الأسبان .

ولكن لم تؤدي تكتيكاتهم المختارة أكبر مما أدت إليه تكتيكات عدوهم .

وقد أظهرت التجربة العملية أن المدفع الإنجليزي كان أخف من أن يلحق دماراً جسيماً من المسافة التي اعتبرت مسافة الضرب المؤثر ، وعلى كل لم يجرؤ الأسطول الإنجليزي على الإقتراب من الأرمادا إقتراباً كافياً الا في ٢٩ يولييه بعد فراغ الذخيرة من الأسبان .

وفي النهاية أغرق الإنجليز ١١ سفينة فقط من الأسطول المهزوم ولم تكن التكتيكات الأسبانية سوى فشلاً ذريعاً ، لأنها كانت مجرد تطبيق لنظام سفن القوادم في القرون الوسطى ، ولذلك لم تقترب أى سفينة أسبانية إقتراباً كبيراً من السفن الإنجليزية لتتعامل معها الفند بالنند كما كان مرسومًا في الخطة .

وحصل الإنجليز على الأفضلية في الصراع ، وقد حققوا أغراضهم في كل مرة بتفوقهم في فن الملاحة الذي دعمه عجز عدوهم وضعف كفاءته الواضحة .

فبعد أن انتزع دريك المبادأة الأولى بقي محافظاً عليها بالأبحار في مهب الريح بالنسبة للأسبان ، وقد عاونه على ذلك ثبات هبوب الريح البروتستنتية .

وفي ٢٥ مايو أجبر دريك الأسبان على عبور السلونت والتوجه إلى المانش مباشرة وبالتالي منعهم من الدخول في أى مرفأ آمن ، الأمر الذي كانوا يحتاجونه ، وساعد على ذلك عدم وجود توقيتاً زمنياً لتجمع جيش بارما على الساحل الفلمنكى .

وفي ٢٩ يولييه جاءت اللحظة الحاسمة عندما تبعثرت الأرمادا بنيران مدافع السفن الإنجليزية أمام مائة جرافلين قبيل الفجر ، وهنا تملك الذعر الأسبان . وفي النهاية استطاع الإنجليز التوغل بين سفن العدو نتيجة لعدم كفاءة الأسبان والتي تسببت في

(١) لم يكن قد ظهر بعد مبدأ تقدم المجموعة في خط واحد الأمام بحيث يمكن لكل سفينة فيه أن تعطي جنبها بالتماقبات اتوجيه النيران المعرب

نقاذ الذخيرة . وعلى كل كانت أكبر الخسائر التي لحقت بالأرمادا من العواصف التي قابلتها أثناء فرارها حول شمال إسكتلندا .

وقد أنقذت هزيمة الأرمادا إنجلترا البروتستنتية وعرشها الوطني . ولكن تبذرت كل نتائج هذا النصر خلال ١٥ سنة الباقية للحرب . وحلت المتاعب مرة أخرى بسبب تكرار رفض اليزابيث لإنتهاج إستراتيجية ذات عزم وتصميم .

وقد كتب رالي قائلاً : — « لقد عملت الملكة كل شيء بالنصف ^(١) ، أدت غزواتها الضعيفة السريعة أن تعلم الأسبان كيف يرون موطن ضعفهم وبالتالي كيف يدافعون عن أنفسهم » .

ولم تعد من سفن الأرمادا ١٣٠ سوى ٥٢ سفينة معطبة . ولكن في وقت قصير وغريب إستطاع ثراء أسبانيا أن يبني أسطولاً جديداً وعظيماً من الغلايين .

وفي نفس الوقت وكما يحدث كثيراً بعد أي نصر باهر ، خفضت نفقات الأسطول البريطاني ، وأصبحت هناك حملات ضعيفة وغير ملائمة ترسل خارج مياه بريطانيا . فكان يجب ألا يحدث مطلقاً تلك العملية التي إشتباك فيها جرينفيل خارج جزر الأزور عام ١٥٩١ مع الأسطول الأسباني ، ففي هذا الإشتباك كان الأسطول البريطاني يتكون من حوالي ١٦ سفينة بينما كان لأسطول الأسباني مكوناً من ١٤٠ سفينة . وإستطاع الكثير من السفن الإنجليزية الهرب ولكن السفينة « ريفنج » أسرت بعد أن ظلت تقاتل طوال اليوم وأغرقت إحدى سفن العدو .

وأخيراً إستطاع الأسبان الأمساك بها ثم الإستيلاء على هيكلها الضخم وقد أصبح غير صالح للعمل . وعندما حل السلام في ١٦٠٣ كانت إنجلترا قد فقدت السيطرة على البحار التي حققها لها دريك .

ولم يحدث مرة أن حقق القراصنة الإنجليز حلمهم بالإستيلاء على كنوز الأسطول الأسباني . وهكذا خسرت إنجلترا الحرب البرية والبحرية لوقت طويل . وبالتالي الحرب التجارية ضد أسبانيا .

(١) يقصد أنها كانت تعمل شيء بعد أن تهبط به إلى النصف أولاً . : المغرب :

ولم يكن ذلك يعنى كثيراً ، لأنّه فى هذا الوقت كانت هناك عوامل أخرى كثيرة أدت إلى أفول نجم أسبانيا ، وكان السبب الرئيسى لذلك التضخم المالى الذى أوجده التدفق غير المنظم لسبائك الذهب والفضة من العالم الجديد .

وعلى أى حال ، فكان حكم مثل هذه الأباطورية المترامية الأطراف والدفاع عنها ضد السلب والنهب من جميع الأمم مهمة مرهقة . وسرعان ما أدى ضعف الكفاءة السياسية إلى الحيرة والتردد بل إلى الإضطراب

وكانت هزيمة الأسبان على يد الهولنديين ضربة قاسية . ولكن مع ذلك ولوقت ليس بقصير ، وحتى بعد هزيمة الأرمادا ومعركة نيوبورت ، ظلت كفاءة الأسلحة الأسبانية فى البر والبحر ولوقت طويل تتمتع بسمعه كبيرة وإخترام جميع الدول .

وهكذا ينتهى الجزء الثالث من الكتاب ، أما الجزء الرابع فضمنه مونتجمرى الآتى : —



- * الموت الأسود .
- * الأنكشارية .
- * مدفع أربان الوحشى .
- * العثمانيون يحاصرون فينا .
- * مؤذن وقائد أسطول .
- * بيع القوة البشرية .
- * الحظ يفضل الرجل الجرىء .
- * قتل جوستاف .
- * اغتيال والنشتين .
- * نهاية حرب الثلاثين عاماً .
- * عاهرة بابل الصغيرة .
- * الملك الهازم لنفسه .
- * حرب الأثر الأسباني .
- * نصف القمر .
- * اختراق عالم الخوف .
- * المبارزة بالمدفعية .
- * لا يعرفون سوى كيف يموتون .
- * رسالة إلى الزوجة « سارا » .
- * عملاق عصره .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الرابع .

عميد

فتحي أسير القصر

مسابقة القراء

عدد

الجائزة الأولى : — ١٠ جنيهات مصرية ١

الجائزة الثانية : — ٣ جنيهات مصرية ٢

الجائزة الثالثة : — ٢ جنيه مصرية ٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارئ أن يضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم اختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع في مظروف عليه طابع بريد وترسل في بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالي :-

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لاختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين في الجزء التالي للكتاب والذي يظهر في أول كل شهر .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتهجرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

أسماء الفائزين في مسابقة الجزء الثاني

حل المسابقة :-

- ج ١ : ١ - سيبويه .
- ج ٢ : ٣ - فولر .
- ج ٣ : ٢ - حربة قصيرة ذات رأس حديدية مدببة وحادة .
- ج ٤ : ٣ - سابور .
- ج ٥ : ١ - أدريانوبل .
- ج ٦ : ٢ - بلنزارتوس .
- ج ٧ : ٢ - خالد بن الوليد .
- ج ٨ : ٣ - القائد العربي مسلمة .
- ج ٩ : ٢ - وحدة تتكون من ٤٠٠ جندي .
- ج ١٠ : ٢ - طرسوس وقبرص .

الجـ-١-وا فز :-

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٦٠٠٧

باسم : عبد الحميد رشاد سيد أحمد

العنوان : عمارة رقم ٦ شقة ٦٠٩ / مدينة نصر

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات و٤٥٠٥

١ - فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢٦٠٥

باسم : محمد عبد المنعم أحمد جودة

العنوان : ٣٣٣ ش رمسيس العباسية طالب بالمعهد العالى للفنون الجميلة

٢ - فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢٧١٥

باسم : حسام أحمد، فؤاد كامل

العنوان : ٨٨ (أ) شارع العباسية شقة ٢

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيهه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة ١١١١

باسم : مصطفى محمد عبد العزيز حسن
العنوان : ٧ شارع الصباغ بعابدين / القاهرة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٧١٥

باسم : محمد عبد الموجود محمد إسماعيل
العنوان : مساكن القللى الشعبية بلوك ٣ مدخل ٢ شقة ٢

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٧٠٤

باسم : ملازم أول محسن محمود محمد أبوريا
العنوان : ١٠٨ ش ترعة الذمر — أول الهرم — الجيزة

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد
(عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لكل
جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة
جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

المسابقة

٠٠٤٣٢١

- ١ — لقد لقي كل من هاردرادا وتوستيج مصرعهما في معركة
١ — الهمبر .
٢ — كوبري ستامفورد .
٣ — هاستنجز .
- ٢ — نزل ويليام الفاتح وقواته على الشاطئ . الانجليزى في يوم
١ — ٢٨ سبتمبر ١٠٦٦ .
٢ — نهاية أغسطس ١٠٦٦ .
٣ — ١٣ أكتوبر ١٠٦٧ .
- ٣ — لقد استولى على قلعة «شاتو جيلارد» في الفترة ١٢٠٣ - ١٢٠٤ بواسطة
١ — فيليب أغسطس .
٢ — ريتشارد الأول .
٣ — كرومويل .
- ٤ — في ٣ بوليه عام ١١٨٧ قاد جاي دي لوزيدان القوات الصليبية الى اعظم كارثة في
١ — معركة بيت المقدس .
٢ -- معركة حيفا .
٣ — معركة حطين .
- ٥ — الاحتفال الخاص لمنح الرجل لقب فارس يطلق عليه
١ — الجبوز .
٢ — الهسية .
٣ — الاحتضان .
- ٦ — اول من سجل معادلة البارود في العالم هو
١ — الراهب الإنجليزي روجر بيكون .

٢ - والتر دى مليويكى .

٣ - سيلدون .

٧ - اول مرة يطلق فيها مدفع فى القتال

١ - فى عام ١٣٢٤ عند « متر » .

٢ - فى عام ١٣٢٧ عند « بيرويك » .

٣ - فى عام ١٣٤٠ عند « كويسنوى » .

٨ - اول قائد قدر الامكانيات التكتيكية حملة القرابين هو

١ - فرنسيس الأول .

٢ - جونزالفو .

٣ - مكسيميليان .

٩ - مرجريت المجنونة هى

١ - أسم ملكة إنجلترا .

٢ - أسم ملكة هولندا .

٣ - أسم مدفع .

١٠ - قام دريك برحلته الشهيرة حول العالم

١ - فى ٤ أبريل ١٥٨١ .

٢ - بين عامى (١٥٧٧ و ١٥٨٠) .

٣ - بين عامى (١٥٠٩ و ١٥٤٧) .

الاسم

العنوان

المحكمة عيسى التاي

A HISTORY OF WARFARE

الجزء الرابع

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجيري

تأليف

تأليف

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد النور

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكلية العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
في عيد العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

رقم الإيداع ٣٢٩٠ / ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة

٥٠ شارع الميمنة بالربيعية ٨٦٢٨٧١

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣٤٣	الفصل الحادى عشر : الاتراك العثمانيين
٣٤٣	* الموت الأسود
٣٤٤	* أرطغرول
٣٤٦	* الأنكشارية
٣٥١	* مدفع أربان الوحشى
٣٥٨	* سليم الأول يغزو مصر
٣٦١	* سقوط جزيرة رودس
٣٦٣	* العثمانيون يحاصرون فينا
٣٦٤	* مؤذن وقائد أسطول
٣٦٧	* قطع رأس على باشا
٣٧٣	الفصل الثانى عشر : الحروب الاوروبية فى القرن السابع عشر
٣٧٣	* بيع القوى البشرية
٣٨٣	* الحظ يفضل الرجل الجرىء
٣٩٢	* قتل جوستاف
٣٩٤	* اغتيال والنشتين
٣٩٧	* نهاية حرب الثلاثين عاماً
٣٩٩	* عاهرة بابل الصغيرة
٤٠٣	* الملك هازم لنفسه
٤٠٦	* سيدة البحار
٤١٠	* منقذ البحرية

تابع الفهرس

الصفحة	الموضوع
٤١٣	الفصل الثالث عشر : هجر مارلبورو
٤١٣	* حرب الأوث الأسباني
٤١٧	* نصف القمر
٤٢١	* الجيش الدولي
٤٢٤	* اختراق عالم الخوف
٤٣٦	* المبارزة بالمدفعية
٤٣٩	* لا يعرفون سوى كيف يموتون
٤٤١	* رسالة إلى الزوجة « سارا »
٤٤٥	* عملاق عصره
	الخرائط :
٣٥٩	* اللوحة رقم ٢١ : الإمبراطورية العثمانية
٣٦٢	* اللوحة رقم ٢٢ : تخطيط رودس
٣٦٨	* اللوحة رقم ٢٣ : (أ ، ب) معركة لبانتو
٣٨٢	* اللوحة رقم ٢٤ : ألمانيا أثناء حرب الثلاثين عاماً
٣٨٦	* اللوحة رقم ٢٥ : تشكيلات المشاة للمعركة لجيش جوستاف
٣٨٩	* اللوحة رقم ٢٦ : معركة بريتنفيلد
٤٠٢	* اللوحة رقم ٢٧ : إنجلترا في نهاية الحرب الأهلية
٤١٨	* اللوحة رقم ٢٨ : حملة مارلبورو
٤٣٤	* اللوحة رقم ٢٩ : معركة بلنهم

الفصل الحادى عشر

الأتراك العثمانيين

الموت الاسود

إذا تأملنا فى النطاق الذى ضربه البرابرة حول أوروبا فى العصور الوسطى ، لوجدنا أن هذا الحصار رفع أسرع فى الشمال والغرب عنه فى الجنوب الشرقى . ومع حلول عام ١٠٠٠ امكن أمتصاص واستيعاب المعتدين القادمين من الشمال . وفى عام ١٥٠٠ مكن التقدم التكنولوجى أوروبا الغربية من انتهاج إستراتيجية هجومية عالمية . ولكن الهجوم التركى على الجنوب الشرقى كان أكثر شراسة ورعباً وأطول أمداً . وقد نعتبر الحملات الصليبية سلسلة من التحركات الدفاعية ، وقد نجحت الحملات الأولى لأنها فاجأت العدو ، ولكن فيما بعد إزداد التردد والحيرة خلال هذه الحملات . وعلى كل فالفشل الذى منى به أعنف هجوم مضاد قامت به أوروبا فى العصر الوسيط ليؤكّد بأس وقوة هذا العدو .

ولقد كان للأتراك ، قبل كل شىء ، التفوق العددي الساحق ، فهم عبارة عن مجموعة ضخمة من الشعوب شبه الرحل ، والذين يتميزون بلغتهم الخاصة ، وقد زحفوا نحو منطقة شرق البحر الأبيض قادمين من آسيا الوسطى تحت ضغط التوسع المغولى ، وتحت إغراء ضعف العرب .

وكان لدى الأتراك فى الغرب^(١) أعدادا لا تحصى من القوة البشرية ، على عكس أوروبا الذى أخذ التعداد بها يتناقص بطريقة مخيفة فى الفترة ما بين ١٣٤٧ ، ١٣٥١ تحت ضربات منجل الموت الأسود^(٢) ، وأكثر من ذلك فكانت معنويات الأتراك مرتفعة ، بل أنها كانت تفوق معنويات خصومهم الأوروبيين . ولم يكن الأتراك شعباً بدائياً بل كانوا الورثة

(١) لقد اعتبر الأتراك فى الغرب رأس الحربة لهذا الشعب التركى النازح من الشرق .

« العرب »

(٢) الطاعون .

لإنصهار وإندماج حضارتين ناضجتين ، هما حضارة الإسلام وحضارة السهول . ولم يكن هناك أى أمل فى إمكان نزع سلاح المقاتل التركى المسلم العنيف والمملوء بالقوة والنشاط وتحويله عن عنفه سواء أ كان ذلك بواسطة الفروسية والتي أصبحت اندفاعاً خالياً من المتعة والتشويق أو بتأثير سلبية العقيدة الأرثوذكسية والتي كانت نتاج الحضارة البيزنطية المشرفة على الموت .

ولكن السبب الرئيسى فى فشل أوروبا الطويل فى القيام بأى تقدم ضد مهاجميها الآسيويين كان مرجعه أسباب تكنولوجية . فعبر المراحل المتعددة للتاريخ ، كانت التكنولوجيا الحربية الآسيوية تتفوق على مثيلتها لدى الأوروبيين ، فيما عدا مرحلة واحدة عندما شكل الإسكندر فرسانا خفيفة الحركة بالإضافة إلى قوة احتمال عالية مع توفر هدف تكتيكى واضح . ما عدا هذا فقد انتصرت خفة الحركة الآسيوية فى كل صدام كبير حدث فى الشرق ، كما حدث فى « كارا » و « حطين » ، بل وحتى فى العصور الوسطى المتأخرة عندما أصبح الفارس الأوروبى مدجج بالسلاح والدروع ثقيلة ، فوجد الفارس الآسيوى الممتطى حصان المراعى الخفيف من السهل عليه الدوران حول الفارس الثقيل بل وتطويقه . ويمكن أن نرجع النجاح المستمر للأتراك ، فى العصر الذى كان الأوروبيون يتوسعون على جبهات أخرى ، إلى إدراكهم السريع وقبل الأوروبيين للتأثير الثورى لإستخدام الأسلحة النارية .

وبالرغم من أن الأتراك من أصل آسيوى ، إلا أنه لا بد من ربط تاريخهم العسكرى مع الأوروبيين . ففى الفترة ما بين ١٣٠٠ ، ١٥٠٠ وهى الفترة التى وصلت فيها القوة العسكرية التركية إلى أوجها ، فقد زحفوا نحو أوروبا على جبهتين هما الدانوب والبحر المتوسط ، أما جبهتهم الشرقية فقد اعتبروها كمؤخرة لهم . وقد وجهوا استراتيجيتهم فى ذلك الاتجاه بناءً على اعتبارات أوروبية . وفى الحقيقة كانت الإمبراطورية العثمانية هى القوة السياسية والحربية القائدة فى منطقة جنوب شرق أوروبا .

ارطغول

فى عام ١٠٧١ انتصر الأتراك السلاجقة على البيزنطيين فى معركة « مانزكيرت » ، وقد أدى هذا النصر إلى فتح الطريق للتقدم التركى عبر آسيا الصغرى . وكان هذا التقدم فى أوله مجرد استغلال فرصة سانحة وليست سياسة مخططة . وقد اهتم الأتراك السلاجقة بالجزيرة العربية أكثر

من اهتمامهم بالدولة البيزنطية ، ولكن الكثير من المحاربين الأتراك كانوا يفضلون أراضى الأناضول لجاذبيتها وخلوها من الوسائل الدفاعية ، ولذلك تحرك القادة الأتراك وأتباعهم نحو الغرب ، فكانوا يبحثون عن موطن لهم وفي نفس الوقت كانوا متأثرين بعقيدة الجهاد في سبيل الإسلام ، ويدينون بالطاعة لقواعد « الفتوة »^(١) . وعلى كل لم يعترفوا بسلطة السلطان السلجوقي عليهم إلا بقدر ضئيل ، لذلك عندما قضى المغول على السلاجقة عام ١٢٤٣ لم يؤثر هذا على الغزاة الأتراك المندفعين نحو الغرب . وفي نفس الوقت لم تستفد أوروبا على الإطلاق من هذا الحدث . وسرعان ما رحل المغول ولكن ضغطهم القوي كان هو السبب الرئيسى في تدفق الأتراك نحو الغرب ، وبالتالي فقد حث كل من الضغط المغولى والإيمان بالعقيدة الإسلامية الغزاة الأتراك على مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية المتداعية .

وقد نشأت الدولة العثمانية من ضمن عدة قوى غازية صغيرة ، وقد أسسها القائد الشبه أسطورى أرطغول ، وواصلت مسيرتها على طريق الشهرة والمجد بواسطة خلفائه عثمان (١٢٨١ — ١٣٢٩) وأورخان (١٣٢٩ — ١٣٦٢) . ولم يمض وقتاً طويلاً على سقوط السلاجقة حتى برز العثمانيون كزعماء للأتراك ، ويرجع ذلك بصفة مبدئية إلى موقعهم الغربى الذى مكنهم من البقاء على قيد الحياة بعد التدمير والمذابح المغولية ، كما أصبح موقعهم هذا منطقة تجمع للمجاهدين الآخرين . ولكن رجع ذلك أيضاً إلى عبقرية زعمائهم الأولين والذى عرفوا كيف ينظمون ويقودون الطاقة التركية المندفعة غرباً . ولم تكن أوروبا إبان ذلك الوقت أو حتى بعده فى حالة تسمح لها من صد الخطر التركى . كما أن نهب القسطنطينية على يد الصليبيين عام ١٢٠٤ كان إعلاناً بتلاشى القوة السياسية والحربية البيزنطية . واكتملت الكارثة عندما استولى الأتراك على منطقة غرب الأناضول والى كانت أهم مصدر للطعام والقوة البشرية للإمبراطورية البيزنطية . وقد أدى انشقاق أعدائهم إلى سهولة التقدم التركى العثمانى . وكان الاختلاف الدينى بين الغرب والإمبراطورية البيزنطية هى المشكلة الأولى ، لأن بيزنطة كانت تحتضن العقيدة الأرثوذكسية المنشقة ولذلك أصبح لدى أوروبا عذرها فى عدم مساعدة بيزنطة .

(١) مجموعة مبادئ وعقائد روحية عسكرية تشبه قواعد الفروسية ولكنها أكثر منها قوة ونشاطاً .
« العرب »

وقد أدى السعى الدائب لبیزنطة من أجل الاتحاد مع روما إلى إضعاف معنويات الشعب البیزنطی . زد على ذلك أن البلغار والصرب لم یکن یکنون لبیزنطة أى حب ، أى أنه من أول الأمر قد فشل أهل أوروبا الغربية فی فهم أن مصیر بیزنطة سیکون محتوما بدون مساعدتهم ، وحتى عندما أدركوا ذلك أخیراً أغلظوا قلوبهم وواصلوا اختلافهم معها . كما كتب البابا بیوس الثانی : — « من الذی یوحد أهل البندقية وأهل الأرجوان .. ؟ ومن الذی یصالح الألمان على الهنغاریین (المجر) والبوهیمین .. ؟ وإذا قدت جیشاً صغیراً ضد الأتراك فسوف تلحقك الهزيمة بسهولة ، أما إذا کان جیشك کبیراً فسرعان ما سیتخبط فی خضم الفوضى والاضطراب . » وعلى أى حال کان الأوروبيون یعلمون أنهم یواجهون قوة حربیة متفوقة . وعندما تصدوا للتقدم العثماني ، لم یفعلوا أكثر من إعادة التجربة المحزنة للحملات الصلیبیة ، فهذا التصدی لم یجر علیهم سوى سلسلة متعاقبة من الهزائم المدویة .

الانكشارية (أنظر اللوحة رقم ٢١)

فی عام ١٣٠١ بدأ العثمانيون فی طرد البیزنطیین من آسیا الصغری ، ولم تلتق فرسانهم بأى مقاومة فعالة أثناء أكتساحها لطول البلاد . وبالرغم من صمود بعض المدن لبضع سنوات ، مثل الجزر المعزولة ، إلا أن الأتراك أخضعوا وبسرعة جمیع التخوم الداخلیة . ومع حلول عام ١٣٥٦ کان الأتراك مستعدين للعبور إلى أوروبا . وفى ذلك الوقت قبل الأتراك الالتفاف حول مدينة القسطنطینیة العظيمة ، واستولوا على «أدرنة» وبدأت الحشود التركیة الهجرة إلى البلقان . وفى نفس الوقت نشر «أورخان» قوته ونفوذه فی آسیا ، مكملاً بذلك عملیة الإلتحام الكلى لكل أترك آسیا الصغری فی قوة واحدة . وبعد ذلك أندفع العثمانيون إلى الأمام نحو الدانوب ، وتحددت معالم هذه الانتصارات التركیة على الصربیین عند نهر «مارتيزا» (١٣٧١) وعند « قوص أوه » (١٣٨٩) ، وبتدمير « بازید الأول » لجیش صلیبی مكون معظمه من الهنغاریین عند « نیکوبلی » (١٣٩٦) . أما القسطنطینیة فقد حوصرت وأصبح مصیرها أمراً محتوماً . وقد جهز الأتراك أنفسهم ثلاث مرات لدخولها ولكن كانت أحداث أخرى هامة تغير هذا التهجیز . ولقد كانت هناك فرصة عظيمة لأوروبا لکی تحطم القوة العسکریة العثمانیة وذلك عندما غزا « تیمور لنگ »^(١) آسیا الصغری وهزم « بازید » عند

(١) تیمور لنگ خان المغول وهو نصف تركى بالمولد . « العرب »

أنقرة ، ولكن لم تتحرك أوروبا . وسرعان ما انتعشت القوة العثمانية من جديد وحقق العثمانيون انتصارين ساحقين آخرين عند « فارنا » (وارانته) (١٤٤٤) وعند « كوسوفو » (قوص أوه) (١٤٤٨) ، مما أدى أن محمد الثانى أخذ على عاتقه عملية الإستيلاء على القسطنطينية بعد أن تأكد أن أوروبا لن تحاول التصدى لهذه العملية .

وإذا نظرنا إلى النظام العسكرى العثمانى ، فسوف نجد أنه كان أساساً من خلق قائدين هما « أورخان » و « مراد الأول » ، ولم يكن هناك أى تمييز أو اختلاف بين الوظائف المدنية والعسكرية فى الدولة العثمانية فتلك الدولة تدين فى نشأتها إلى الزحف وراء الفتوحات ثم تطورت ونظمت للقيام بمزيد من الفتوحات . وكان السلطان هو القائد العام للجيش أكثر من وضعه كإمبراطور ، أما هيئة قيادته العسكرية فتكونت من رؤساء الإدارات الحكومية . وإذا تأملنا جنود الجيش التركى لوجدنا أنهم يدينون بالولاء للسلطان أكثر من ولائهم للدولة ، ويشبه هذا النظام نظام أوروبا الإقطاعى ولكنه نفذ فى صورة أفضل كثيراً . ولقد كان معظم الجيش يتكون من الميليشيا النظامية والتى تستوطن الأرض لقاء الخدمة العسكرية وحسب ما يطلب منها .. وهؤلاء الذين يمنحون الإقطاعيات كانوا يتدرجون فى الألقاب ابتداءً من ملاك المقاطعات الصغيرة مثل « التيمارا » و « السنجق » ، حتى تصل إلى أعلى لقب وهو « البكرل بكوات »^(١) . أما القوات ذات النظام الإقطاعى فكانت ممثلة فى الفرسان ويشكلون القوة الرئيسية التى يتركز عليها الجيش ، وتواجد أيضاً جماعات من القوات الغير نظامية من المشاة التى أطلق عليها « بالباشبوزق » والفرسان التى أطلق عليها « الأكيبي » وهؤلاء لم يكن يدفع لهم أجراً بل يخوضون القتال من أجل الغنائم والنهب .. أما صفوة قوات الجيش التركى فكانت ممثلة فى فرق الحرس الشخصى للسلطان ، وسميت المشاة فى هذه الفرق بالإنكشارية^(٢) بينما سميت الفرسان « بالسباهى »

وكانت الإنكشارية بحق هى أكثر القوات شهرة فى الجيش التركى ، فقد كانوا مشاة محترفة . وهذه حقيقة ملفتة وجديرة بالملاحظة إذا راعينا الظروف التى نشأت فيها هذه الفئة

(١) كان البكرل بكوات يحكمون مقاطعات كبيرة ويقودوا الوحدات القادمة من مقاطعاتهم فى الحرب .

(٢) لقد سماهم الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية « بنى تشارى » وبالتركية « تليجارى » أى الجيش

« العرب »

الجديد ثم حرف فى العربية فصار إنكشارى .

وعادات الأتراك فنجد أنه قام بتنظيمها قوم لا يعرفون في حياتهم سوى تقاليد الفروسية وفي وقت مثل القرن ١٤ حيث كانت المشاة محترقة في معظم دول الغرب .

ومن الممكن أن تكون آخروقة ضارية للفرق البيزنطية والتي طال تدهورها قد علمت « أروخان » أن يقدر إمكانيات الطاقة الكامنة في قوة المشاة الجيدة . وكانت طريقة تجنيد الإنكشارية شاذة ولكنها كانت سليمة كما ظهر بعد ذلك .

فقد كانوا يأخذون وهم أطفال من العائلات المسيحية وغالباً ما كانت من مدن البلقان ، ثم يجرى تدريبهم في مجتمعات خاصة ، وبعد ذلك ينضمون إلى نظام الدراويش الديني حيث يتلقون في معسكراتهم الشبيهة بالأديرة بالتعاليم التي تجعلهم مسلمين متعصبين ، كما كانوا يتلقون أيضاً أفضل ما يمكن لرفع لياقتهم البدنية علاوة على تدريب عالي على إستخدام الأسلحة . ولما كانوا هم الحرس الشخصي للسلطان فقد إحتلوا مكانة مميزة في الدولة الأمر الذي جعلهم لا يتبعون إلى أى إدارة حكومية أخرى بالإضافة إلى أنهم مسئولون عن المحافظة على النظام في العاصمة وبالرغم من ذلك لم يكونوا مدللين وأجرهم كان ضئيلاً ، في نفس الوقت كان عليهم إتباع القوانين الإسلامية والخاصة بضبط النفس في شكل صارم والإمتناع عن شرب الخمر وكبح الشهوات .

وعليهم تكريس ولائهم المطلق للسلطان مع التمسك الكامل بإحترافهم كجنود للسلطان .

وعلى كل كان الإنكشاريون القدماء يتلقون شرفاً عظيماً ومعاشات كافية .

وفي النصف الأول من القرن ١٦ وصات الإنكشارية إلى أوج تألقها وأصبح عددها يتراوح ما بين ١٢ر٠٠٠ ، ١٥ر٠٠٠ .

وفي وقت السلم كان يتمركز نصف هذا العدد في المقاطعات بينما يتمركز النصف الآخر في العاصمة . وكانت « الأورطة » هي الوحدة التكتيكية الرئيسية وقد تراوح حجمها في فترات مختلفة من ١٠٠ إلى ٣٠٠٠ مقاتل . وإتخذت ألقاب الضباط ، ألقاب المشرفين على الأعمال في قصر السلطان ، فهي كانت تدل على أنهم يعيشون على إنعامات السلطان وأنهم

أولاده مثل « رئيس طهارة الحساء » و « كبير حراس الدموم »^(١) و « شوربجي باشى » و « عشى باشى » و « سقا أغاسى » و « أودة باشى » .

أما قائد الإنكشارية فكان يطلق عليه « أغا » ولم يكن ضرورياً أن يكون هو نفسه إنكشارياً ، ولكن الترقيات الأخرى داخل الإنكشارية فكانت أما بالجدارة أو بالأقدمية .

وتنوعت دروع الإنكشارية مع مضي الوقت ، وكان سلاحهم الرئيسى هو القوس المركب الصغير والذي كان يفوق مداه كل الأنواع الأخرى من الأقواس .

وكان من الضرورى على طائفة الرماة التى أسسها « مراد الثانى » أن يطلق الرء الذى يريد الانضمام إليها سهما لمسافة ٦٣٠ ياردة ولم يكن ممكناً تحقيق هذا المدى إلا بإستخدام قوس خفيف مع وجود ربح خلفية .

ومن المعروف أن الرمح المؤثر لسهم أثناء القتال أقل من ذلك بكثير ، وعندما ظهرت القرايين وثبت أنها عملية سلحت بها الإنكشارية ، ولكن ظلت السيوف والخناجر الطويلة من الأسلحة الثابتة .

وفى أوقات متفرقة كانت هناك أنواع أخرى من الأسلحة إستخدمتها الإنكشارية وأيضاً « الباشبوزق » وتضمنت المقلاع والقوس النشاب والرمح القصير والسيوف المستقيم والمنخاس والبلطة والنبوت والمنجل والمدرس والسوط ، ولكن إستمرت الأسلحة النارية هى الأسلحة الرئيسة .

ولم تكن الرجال مثقلة بالدروع الواقية ، ففى القرن ١٥ ، ١٦ كانوا يحملون درعاً صغيراً مستديراً على رؤوسهم خوذة معدنية على شكل الطربوش ذات سن مدببة فى قمتها وفى النادر يلبس نوع خفيف من الدروع على الجسم .

وكان لكل قسم فى الجيش زى خاص مألون ، كما كان الجنود يضعون على ملابسهم رمز فرقتهم ، فمثلا كان رمز الإنكشارية « معلقة خشبية » ، كما أحبوا لدرجة كبيرة الوشم .

(١) الدموم هى الكلاب التى تستخدم فى مطاردة الجرمين • « العرب »

السلطان محمد الثاني

وكانت الغالبية العظمى للجيش التركي من الفرسان ، وكانت « السباهى » هى صفوة هؤلاء الفرسان وكانت تعمل كنواة للباقي .

وفى الأعوام التالية لعام ١٥٢٠ تراوح عدد « السباهى » بين ١٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠ فارس . وكان كل فرد من السباهى مسئولاً عن تجنيد وتدريب ما بين ٢ — ٦ فارس إضافي ، وكان هؤلاء يسرون معه إلى المعركة فى شكل شبيه بالفارس الغربى وصاحبه من حملة « الرماح » .

وكان السباهى هم الحرس الشخصى للسلطان ، كما كانوا يمنحون أجوراً عالية ، ولم يكن يسرى عليهم نظام تجنيد وتدريب الإفكشارية .

وكان القوس والرمح والسيف القصير من الأسلحة الرئيسية للفرسان ، ولكن لم يحمل الفرسان أى دروع دفاعية ، وإلى جانب الفرسان كان هناك أسلحة متخصصة مثل المدفعية ومشاة الأسطول وصانعى الأسلحة والدروع والحدادين والمسؤولين عن امداد الجيش بالطعام والفرق الموسيقية ، وفى فترة معينة قام « تثار القرم » بتزويد الأتراك بوحدات من لديهم . وبلغ المجموع النهائى لكل الرجال فى كل أسلحة ووظائف الجيش التركى وذلك فى ذروة مجده أى أيام محمد الثانى (١٤٥١ — ١٤٨١) وسليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠) وسليمان العظيم (١٥٢٠ — ١٥٦٦) فى حدود ٣٠٠٠٠٠ رجل .

وكانت الدولة العثمانية دولة هائلة العدد بحيث سارت عملية التعبئة فيها بمنتهى السرعة وكاملة وبدرجة ملفتة للنظر .

أما القوات المخترفة من المشاة والفرسان والى تعتبر النواة للجيش التركى فقد بلغ عددها حوالى ٢٥٠٠٠ رجل ، وكان هؤلاء غاية فى القسوة والوحشية مع أعدائهم ولكن كانوا أيضاً على مستوى عال من التدريب والضبط والربط ومشبعين بالحماس الدينى ويدينون بالولاء المطلق للسلطان .

وقد تأثر المراقبون الأوروبيون وبشكل عميق جداً بالجيش التركى وكتب جيوفيو غنهم : — « لقد فاق جنود الأتراك جنودنا لأسباب ثلاثة ، الطاعة الفورية لقادتهم — عدم الإهتمام

بأرواحهم أثناء المعركة - إماكنهم العيش ولمدة طويلة بدون الخبز والنبذ قانعين بالشعير والماء فقط » .

وفي عام ١٤٥١ أصبح محمد الثاني سلطاناً ، وعمـره ١٩ عاماً ، وبالرغم من أنه كان قاسياً قليل الكلام يميل إلى الشرب إلا أنه كان طموحاً ثابت العزم وجهدياً قديراً .

وعندما تولى العرش جعل هدفه الرئيسى استكمال فتح الإمبراطورية البيزنطية بالإستيلاء على القسطنطينية ، ونجاحه فى ذلك عام ١٤٥٣ لم يكن شيئاً مثيراً وغير عادياً ، فقد ظلت المدينة محاصرة منذ أمد طويل بالأتراك الذين جلبوا جيشاً قوياً بلغ أكثر من ١٠٠.٠٠٠ رجل ، فى ذلك الوقت كان يدافع عن أسوارها البالغ طولها ١٤ ميلاً ٧٠٠٠ فرد فقط . وإذا كان هناك عنصر إثارة رئيسى فى سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك فهو فى زوال الحضارة اليونانية نهائياً .

وقد أظهرت هذه العملية بوضوح وجلاء إنقضاء عصر الفروسية . ولم تحاول أى قوة مسيحية رفع الحصار .

ومن وجهة النظر العسكرية فإن النقطة الرئيسية الجديرة بالملاحظة فى هذا الحصار هى أنه كان حدثاً يمثل نقطة تحول فى تاريخ المدفعية .

مدفع اربان الوحشى

كان السبب الرئيسى فى عجز أوروبا على صد الأتراك هو أن الغزاة العثمانيين كانوا متقدمين فى إستخدام الأسلحة النارية عن أى شعب آخر فى أوروبا . وقد انتقل وانتشر فن المدفعية من المسيحيين إلى المسلمين فى أسبانيا ومنها على طول شمال أفريقيا .

ومع عام ١٣٦٤ كان العثمانيون يصنعون مدافعهم فى آسيا الصغرى ، وفى عام ١٣٨٩ إستخدم الأتراك مدفعية الميدان عند كوسوفو (قوص أوة) . وعموماً فى القرن ١٥ كانت المدفعية تناسب هدم الأسوار فقط وسرعان ما أدرك الأتراك هذا واستمروا يعتمدون فى القتال على خفة الحركة والفرسان وتفوقهم العددي ولكن فيما يتعلق بأعمال الحصار فقد تعلموا سريعاً كيف إستخدموا السلاح الجديد (أى المدفعية) وبتأثير جيد . وقد كانت الأسوار

الثلاثية للقسطنطينية تعد من أقوى تحصينات العصور الوسطى . وقد ظهر خلال حصار عام ١٤٢٢ أن المنجانيق لن يكون مؤثراً ضد هذه الأسوار .

وفي الحقيقة قبل ظهور المدفعية كانت التحصينات البيزنطية هي الوحيدة التي توفر الراحة والطمأنينة للبيزنطيين ، ولكن عندما قام محمد الثاني بتجهيز معدات حصار ثقيلة لحصار القسطنطينية ، أيقن سكانها أن نهايتها قد قربت .

وفي عام ١٤٥٢ حضر مهندس هنغاري اسمه أربان^(١) إلى الإمبراطور قسطنطين وعرض خدماته ، ولكن لم يكن بمقدور قسطنطين أن يدفع له ما طلبه أو يقدم له ما يلزمه من المواد الخام المطلوبة .

وعلى ذلك قام أربان بعبور البوسفور والاجتماع بالسلطان وعرض عليه خدماته ، فقدم له محمد الثاني أربعة أضعاف الأجر الذي طلبه كما أعطاه كل المعاونة الفنية التي يحتاجها وبالتالي أصبح أربان أول الغربيين الخائنين الذين كثروا بعد ذلك ليدبوا خدماتهم للأتراك كخبراء فنيين .

ومع بداية ١٥٤٣ وفي مدينة أدرنة أنتج أربان أكبر مدفع شوهد حتى ذلك الوقت الذي وصل طول ماسورته ٢٧ قدماً وذوقدرة على إطلاق كرات من الحجارة زنتها أكبر من ١٠٠٠ رطل .

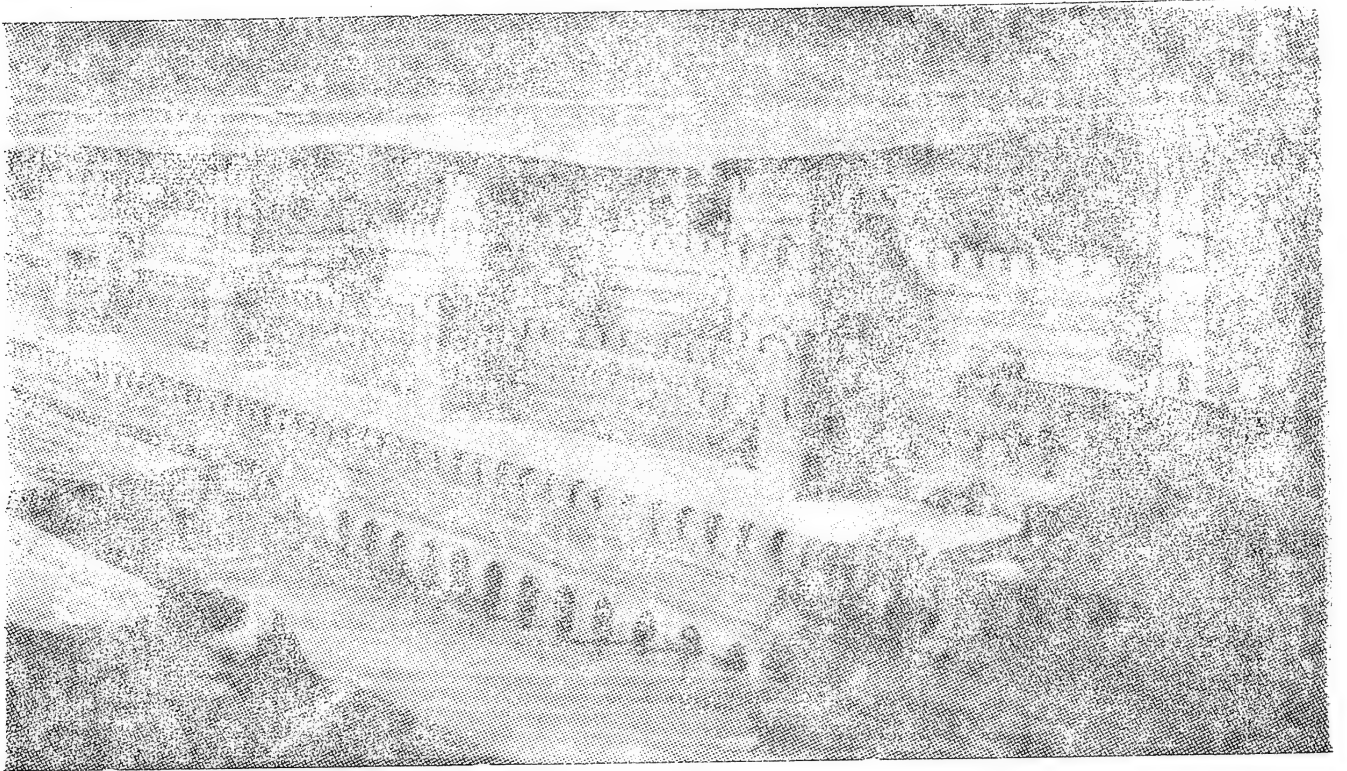
وعندما جرب المدفع انطلقت القذيفة لمسافة ميل ، ويقال أن دوى المدفع بلغ من الشدة بحيث تسبب في إجهاض الحوامل حتى مسافة ١٢ ميل . وقد سر محمد الثاني بهذا المدفع ودفع مدفع أربان الوحشي إلى القسطنطينية بحره ٦٠ ثوراً .

وخلال الحصار تحطم هذا المدفع ولكن لم يهزم هذا كثيراً بسبب كفاءة وتأثير باقي المدفعية التركية . وواصل الأتراك القصف بدون توقف لمدة ٦ أسابيع مركزين نيرانهم على أكثر النقاط المعرضة في الأسوار . وكانت مدافعهم تتميز بالضخامة غير العادية ، وكان من الصعب جداً وضع هذه المدافع في مريضها وخاصة عندما حولت الأمطار الأرض اليابسة إلى أرض رخوة .

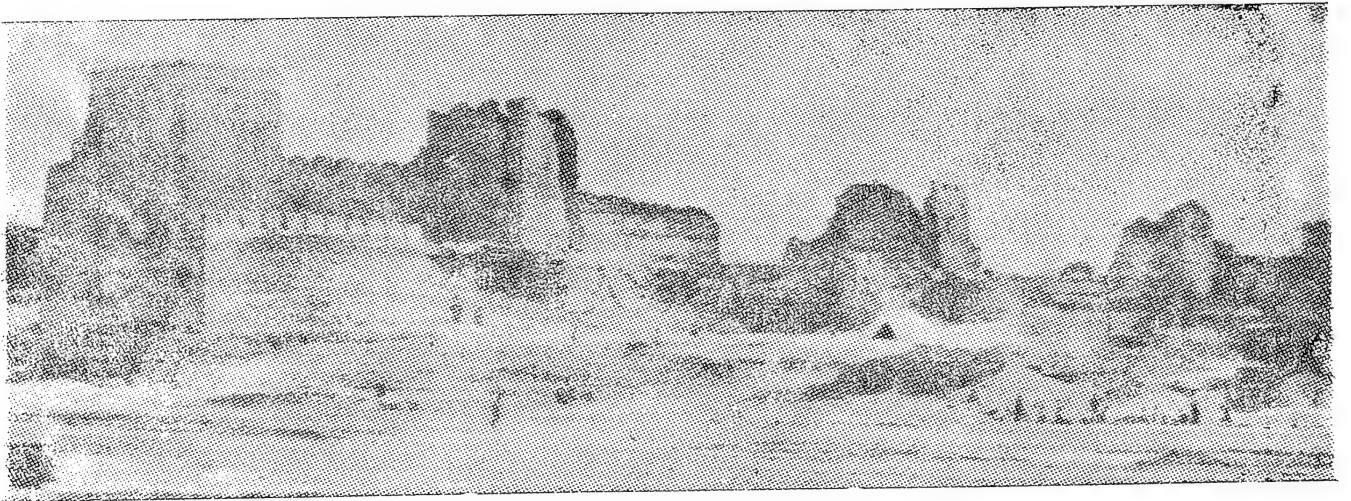
(١) كان أربان يمد من أحسن وأكفأ صناع المدافع في العالم . « المارب »

وحيث أن مواسير المدافع كان يصيبها التشقق إذا لم تترك لتبرد بين الطلقات فلم يكن من الممكن إطلاق المدفع الكبير أكثر من سبع مرات يومياً . ولكن القذيفة الواحدة منها كانت تسبب دماراً هائلاً .

وفي غضون أسبوع كان السور الخارجى للقسطنطينية قد دمر بالكامل في عدة نقاط ،



أسوار القسطنطينية الثلاث لمقاومة نيران مدفعية الأتراك



بقايا أسوار القسطنطينية اليوم

ولكن المدافعين بدأوا في شجاعة نادرة في إقامة متاريس ترابية وحواجز من القضبان المغروزة خلف السور الخارجى واستمر العمل به ليل نهار ولكن القصف التركى المنهمر دمر تدريجياً جميع التحصينات .

وبرهن الأتراك على عبقريتهم الفنية بتعويهم المدافع على أرضيات مربوطة بكوبرى عام عبر مياه البوق الذهبى ، معززين بذلك عمليات قصفهم من زاوية جديدة • وقد أخطأ محمد مرتين عندما أعتقد بأن القصف التركى قد أحدث تدميراً كافياً ، مما أدى أن الهجوم الأول والثانى التركى لم ينجح ولكن نجح محمد فى الهجوم الثالث .

وكان الإستيلاء على القسطنطينية مقدمة لتقدم تركى عنيف ملىء بالإثارة والذى أدى إلى عظمتهم العسكرية .

وتم غزو اليونان والصرب خلال ١٥ سنة التالية ، وفى عام ١٤٦٨ إنهارت مقاومة الألبانيين تحت قيادة جورج اسكندربك .

وفى الغرب توقف التوسع التركى بسبب فشل محمد فى الإستيلاء على بلغراد ، أما فى الشرق فقد طهرت « طرابزون » فى عام ١٤٦١ وكانت آخر منطقة مسيحية ذات قيمة فى آسيا الصغرى ، ولم تواصل القتال سوى بعض المعاقل القوية البعيدة والمعزولة فى المورة وآسيا الصغرى مثل قلعة كوردیل^(١) ولكن تم تصفية هذه المعاقل تدريجياً . وبالرغم من قسوة محمد على الأفراد وصرامته فى انتزاع الجزية من المسيحيين بأن يقدموا أطفالهم إلى الإنكشارية ، فإنه كان فى نواحي عديدة يعتبر فاتحاً متسامحاً غير متعصب . فقد سمح بالديانة الأرثوذكسية ، باستثناء تحول بعض العابد اليونانية إلى مساجد فى نفس الوقت لم يمس البناء الهندسى للأثار اليونانية والبيزنطية الرئيسية .

وقد ظل البارثون^(٢) قائماً حتى الحصار البندقى للاكروبوليس (عام ١٦٨٧) عندما انفجر لأن الأتراك استخدموه كمخزن للذخيرة فتحول إلى انقاض .

(١) لقد دافعت عنها فتاة قروية لعدة أسابيع .

(٢) هو هيكل لآلهة أثينا الموجود فى أثينا نفسها . « العرب »

الحرب بين الأتراك والبندقية

وخلال هذا الوقت ، فإن التطور في القوة البحرية في شرق البحر المتوسط أحدث توارنا مع تقدم القوة التركية على البر .

وفي أول الأمر وكامتداد طبيعي للزحف الغازي المتأصل في الأتراك فقد نزل بعضهم إلى البحر كقراصنة .

وعندما بدأ التوسع داخل أوروبا فقد بات من الضروري أن يكون للعثمانيين قوة بحرية ولو حتى لحماية عملية عبور البوسفور .

وفي عام ١٣٥٢ أنشأ العثمانيون رأس جسر عند غاليبولي والتي استغلت بعد ذلك كقاعدة بحرية لهم .

وبعدها أخذت القوة البحرية التركية في النمو ، وأصبحت هناك سياسة محددة وواضحة لغرض السيطرة على التجارة بين البحر الأسود والغرب وأيضاً لضرب الحصار على القسطنطينية .

وفي هذا الوقت كانت البندقية هي القوة البحرية الأوروبية الرئيسية في البحر المتوسط . وقد دمر « بيترو لوريدانو » جزءاً كبيراً من الأسطول التركي خارج غاليبولي ، فأصبح الأتراك بصفة مؤقتة محصورين في شرق تندوس . ولكن كانت التجارة هي الشاغل الأول للبندقية ولذا بذلت جهداً كبيراً للحفاظ على السلام في الشرق .

وفي عام ١٤٣٠ انشغلت البندقية في صراع مع الدول الإيطالية المنافسة ، ومرة أخرى تمكن الأتراك من التقدم غرباً بسبب تفكك أعدائهم . وفي الواقع ، ومع حلول عام ١٤٥٣ كانت السفن التركية قادرة على ذرع الأدرياتيك ذهاباً وإياباً بدون أى عقبات . وكان من الأسباب الحكيمة التي أعطت الثقة لمحمد الثاني لمحاصرة القسطنطينية هو وجود أسطول قوى لديه يمكنه من قطع المواصلات البحرية للمدينة . وبالطبع لم يكن لدى الأتراك أى تقاليد بحرية محلية خاصة بهم ، ولذا عندما وصلوا إلى البحر المتوسط اتبعوا بدون أى نقد أو تعديل التقاليد البحرية العتيقة لسفن القوادس .

ولم يأخذوا تصميم السفن فقط بل أخذوا أساليبها التكتيكية أيضاً . وبشكل جوهري

فلم يحدث أى تغيير رئيسى فى الأسلوب التكتيكى للسفن فى الفترة ما بين معركة ليديا عام ٤٩٤ ق . م ومعركة لبانتو عام ١٥٧١ بعد الميلاد .

وعلى كل فقد اقتبس البيزنطيون فكرة السفن ثلاثية المجاديف عن الرومان والأغريق وجعلوها السفينة الرئيسية لأسطولهم وأطلقوا عليها اسم « الدرmon » وزادوا من حجمها حتى وصلت حمولتها الطافية من ٧٨ إلى ١٧٥ طن ، كما زاد عدد المجاديف من ١٠٠ إلى ٢٠٠ .

وعندما أفل نجم الدولة البيزنطية أصبحت كل من جنوا والبندقية القوتين البحريتين القائدتين فى البحر المتوسط ، وأطلقوا على سفنهم اسم « القوادس » واستخدموا فيها صفاً واحداً فقط من المجاديف ، ولم يستخدم الشراع إلا فى الإبحار فقط ، أما فى القتال فكان عادة ما ينخفض الصارى .

وفى البندقية كان هناك بعض الانتباه الحاسد للتطور الأوروبى فى الأشعة ، وعليه ظهر الغلياس^(١) فى القرن ١٤ .

ولكن نتيجة لعدم الخبرة ومقاومة التجديد استمرت السفن ذات المجاديف فى السيطرة على مياه البحر المتوسط . وكانت تكتيكات القوادس بسيطة ، وقام أمهر ممارسيها وبدعى « روجريو دى لوريا » بتطبيقها حرفياً خلال الحروب الصقلية والتي دارت فى العشرين سنة الأخيرة من القرن ١٣ .

وكان المبدأ الرئيسى فى هذه التكتيكات هو التقدم فى خط أو تشكيل هلالى والاصطدام بسفن العدو بأمل تحطيم أو إعطاب مجاديفها .

وكان يتم قصف السفينة بوابل من القذائف وبعدها يتم اعتلاء السفينة بالصعود على سطحها والإستيلاء عليها وأسرها .

وكان أغلب المقاتلين من حملة المقلاع وحملة القوس النشاب . وقد أدخل بعض التحسينات لمقاومة وسائل إقتحام سطح السفن مثل استخدام صابون سائل لجعل أسطح السفن منزلقة ، وأيضاً استخدام أسهم مشتعلة ذات النصل العريض لتدمير الصواري والأشعة . أما التغيير

(١) الغلياس عبارة عن هجين للقوادس والغليون . « العرب »

الوحيد الذى تم بعد ذلك هو زيادة طفيفة فى حجم سفن القوادم ، وإحلال مدفع صغير محل المنجانيق فى مقدمة السفينة ، ولكن لم تتغير التكتيكات ، واستمرت نتيجة القتال تتوقف على أسلوب الالتصاق بسفن العدو وتسلق أسطحها .

وعندما استولى الأتراك على القسطنطينية ، فقد حصلوا بذلك على مركز كبير لبناء السفن ، وبذلك فىمكن القول بأن عهد محمد الثانى قد شهد نموا هاما فى القوة البحرية التركية . وسار التقدم للسيطرة التركية على البر ، تقدماً آخرأوموازياله وهو التقدم والتفوق البحرى حتى وصل إلى أبعد مدى فى الجنوب وذلك بالسيطرة على مياه بحر إيجه وباحتلال العديد من الجزر والسواحل فى شرق البحر المتوسط .

واستولى الأتراك على تجارة البحر الأسود ومنعوا تصدير الإمدادات الحربية والبحرية إلى الغرب .

وقامت الحرب بين الأتراك والبندقية فيما بين عامى ١٤٦٣ ، ١٤٧٩ والتي منيت فيها البندقية بالهزيمة لأنها لم تدرك مقدار سرعة نمو الأسطول التركى ، بالإضافة إلى التفوق العددي للأتراك وعدم معاونة الدول الإيطالية الأخرى لهم نتيجة لحسد ثم لثراء البندقية . وفى تلك الحرب ، فكان أعظم المكاسب التى حصلت عليها الأتراك هى استيلائهم على نيجور وبونت عام ١٤٧٠ والتي كانت قاعدة البندقية فى الدردنيل ، ثم احتلالهم للساحل الألبانى بعد ذلك بثمانى سنوات .

وفى عام ١٤٨٠ فشل محمد الثانى فى الاستيلاء على رودس والتي كان يدافع عنها فرسان سان جون .

وعندما توفى عام ١٤٨١ كان يجهز الغزو على نطاق أكبر لجنوب إيطاليا . ومن حسن حظ الأوروبيين أن السلطان التالى بايزيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) كان رجلا سلام لأن الأوروبيين خلال ٣٠ سنة التالية أخذوا يتناحرون من أجل سلب الغنائم الإيطالية مهملين تماماً مسألة الشرق . وبالرغم من ذلك ظل تطور القوة التركية فى البر والبحر مستمرا خلال حكمه .

سليم الاول يغزو مصر

(أنظر اللوحة رقم ٢١)

وبالرغم من أن الشعب التركي قد جاب البحار إلا أنه كان يجب المحافظة على القديم وغير مجدد ، ولم يكن لديه أى طموح لمشاركة أوروبا فى التوسع بالمحيطات والذي حدث منذ حوالى عام ١٥٠٠ .

وفى نفس الوقت كان يطمع فى السيطرة على شعوب وتجارة منطقة البحر المتوسط ، لكن لا يمكن أن يتجاهل ازدياد قوة أسبانيا والبرتغال ، لأن القوة الأسبانية أخذت تمد مخالبها على طول ساحل شمال أفريقيا وبطريقة تنذر بالخطر .

فى عام ١٥٠٩ استولى بدر على «نافار» و«أوران» ، وفى العام التالى سقطت طرابلس . وأكثر من ذلك عندما دخلت البرتغال المحيط الهندى بدأ هناك خطر حقيقى فقد أصبح من الممكن أن يطوق الغربيون الأتراك إذا سيطروا على مؤخرتهم وربما يتمكنوا من الانضمام إلى الفرس^(١) أعداء الأتراك .

وفى الحقيقة لم يخطر هدف تطوير الأتراك بخلد الساسة الأوروبيين ، ولكن كان السماح بمثل هذا العمل يشكل خطراً عظيماً على الدولة العثمانية .

وعلى كل فقد أعطى سليم الأول القاسى كل إهتمامه خلال حكمه القصير (١٥١٢ — ١٥٢٠) للجبهات الشرقية والجنوبية لإمبراطوريته ، وتم هذا فى وقت كانت فيه أوروبا معرضة أكثر من أى وقت آخر لتلقى طعنة من الخلف ، وهكذا أتيحت لأوروبا فرصة هدوء أخرى على الدانوب والأدریاتيك وعلى كل كان هذا التحول بالتأكيد يتمشى مع هدف الأتراك فى التوسع فى اتجاه أوروبا ، ولذلك لى ضمن سليم الأول تأمين ظهره ، فقد بدأ أولاً فى التعامل مع الفرس واستطاع هزيمتهم عند سهل جان دران الواقع غرب عاصمتهم تبريز ، ولكنه لم يستغل النصر والتقدم داخل الأراضي الفارسية الشرقية ، وبدلاً من ذلك فقد بدأ فى تحقيق غرضه الرئيسى ألا هو غزو المماليك فى سوريا ومصر . وإذا ألقيا نظرة على المماليك لوجدنا أن أعدادهم كانت قليلة وليس لديهم أى مشاة كما لم يكن لديهم فى الواقع أى أسلحة نارية بالرغم من أن البندقية حاولت أن تباع لهم المدافع .

(١) أصبح الفرس فى ذلك الوقت على درجة من القوة . « المغرب »

اللوحة رقم ٢١ - الامبراطورية العثمانية



وفي عام ١٥١٦ حقق سليم انتصاره الأول على المماليك عند مرج دابق في سوريا ، وقد ساعده في ذلك الخونة في صفوف أعدائه .

وكما حدث في « جان دران » فقد حقق له النصر صلابة وثبات مشاته والتأثير الفعال للمدفعية .

وفي عام ١٥١٧ حقق النصر الثاني ودخل مصر . وكان غزو سليم لمصر جزءاً من استراتيجية شاملة تهدف إلى تحقيق السيطرة على شرق البحر المتوسط والشرق الأدنى ، ولتحقيق هذا الهدف كان يجب على القوة البحرية التركية أن تلعب دوراً حيوياً ، ولذا قرر سليم أنه من الضروري مقابلة التحدى الأسباني على طول الساحل الشمالى لأفريقيا . وكان احتلاله لمصر هو المرحلة الأولى من هذه الاستراتيجية . وأمكن تعزيز هذه المرحلة في عام ١٥١٩ عندما استطاع السلطان سليم استمالة « خير الدين باربروسا^(١) » إلى جانبه وعينه السلطان حاكماً على الجزائر .

وقد حقق أيضاً الأتراك السيطرة على البحر الأحمر حتى يستطيعوا صد أى تهديد برتغالى قادم من الجنوب الشرقى . ولكن حتى الآن لا يزال هناك ضعفاً بالغاً في خطوط المواصلات التركية في منطقة البحر المتوسط ، ذلك الضعف الذى كان مصدره استمرار سيطرة فرسان القديس جون على جزيرة رودس .

ولم يلق الحصار الكبير لقلعة رودس عام ١٤٨٠ بواسطة محمد الثانى سوى الفشل ، ومنذ ذلك الوقت تحسنت دفاعات الجزيرة كثيراً مع تقوية التحصينات بحيث يمكنها الصمود أمام قصف المدفعية .

وأصبح هناك حائطاً ارتفاعه حوالى ٣٠ قدماً وسمكه ٤٠ قدماً وأقيم في مكان السور الأصلي السائر .

وكان يوجد بهذا السور شرفات ركبت عليها المدافع ، كما عمق وعرض الخندق المائى المحيط بالقلعة .

أما النقط الخارجية للقلعة في الجانب الغربى والجنوبى فقد قويت باستحكامات أمامية

(١) كان أبرز قراصنة ساحل شمال أفريقيا . « المغرب »

تحميها خنادق أخرى مائية وميول حادة . وبلغ عدد القوات المدافعة ٧٠٠ فارساً بالإضافة إلى عدد آخر من القوات الأخرى والتي رفعت القوة الإجمالية للمقاتلين في القلعة إلى ٦٠٠٠ رجلاً ، كما كان هناك مخزوناً كبيراً من الذخيرة .

ولم يكن هناك أى فرصة للمدافعين عن القلعة لتلقى الإمدادات والتعزيزات من أى مصادر خارجية في حالة حدوث حصار بواسطة قوة لديها السيطرة البحرية .

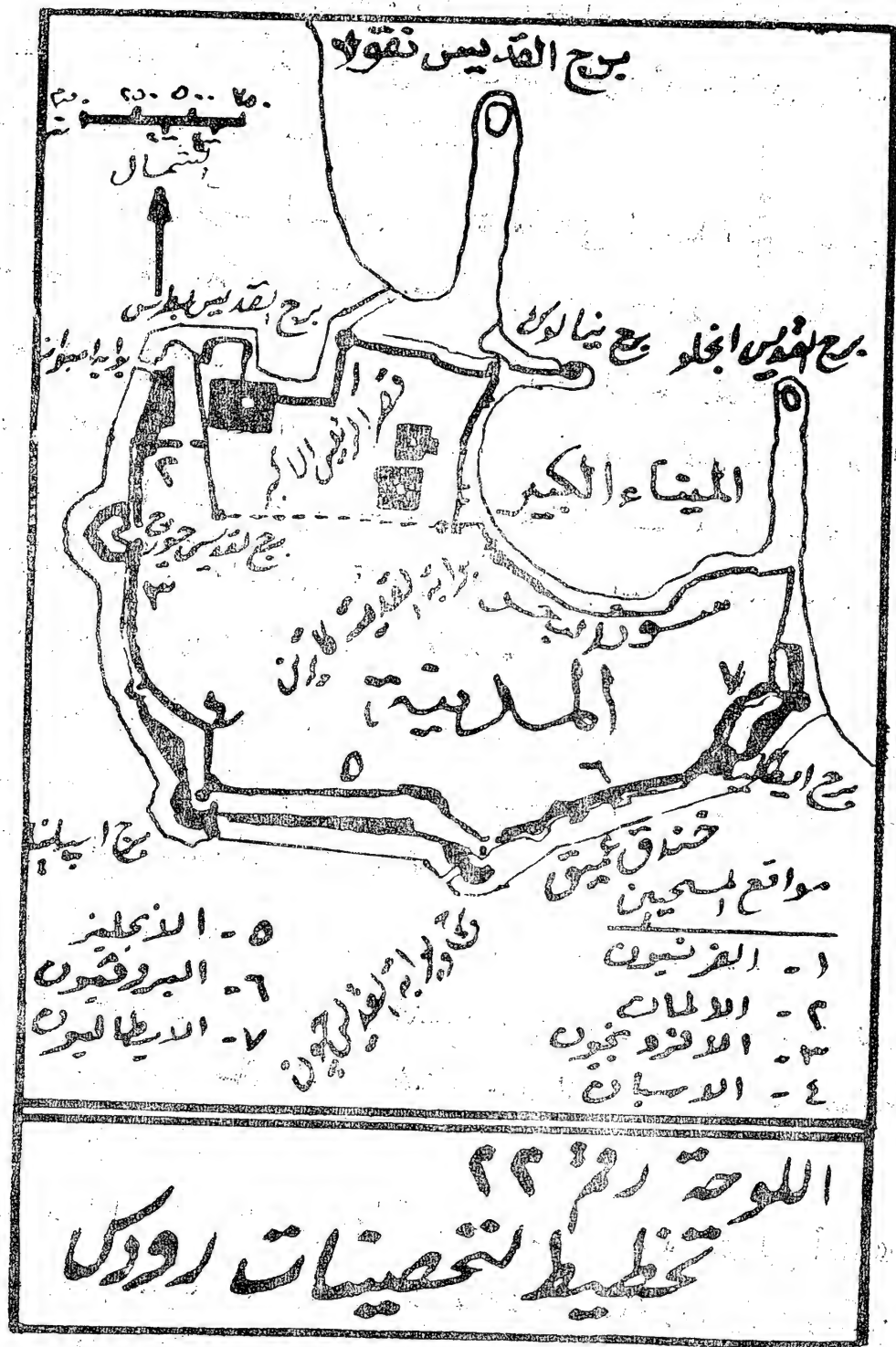
سقوط جزيرة رودس (أنظر اللوحة رقم ٢٢)

في عام ١٥٢٠ توفي سليم الأول ، ولا بد أنه كان واضحاً لدى خليفته «سليمان العظيم» أن مهاجمة رودس والإستيلاء عليها ستكون مهمة بالغة الصعوبة ، ولكن الاستراتيجية التركية كانت تتطلب أن يكون لديهم قلاع في شرق البحر المتوسط لتأمين خطوط مواصلاتهم ، لذلك قرر سليمان في يونيو ١٥٢٢ القيام بهذه المهمة .

وبدأ الحصار بإزالة قوة بلغت حوالى ١٠.٠٠٠ مقاتل على الجزيرة ، وكانت هذه القوة مقدمة للقوة الرئيسية للجيش ، وكانت مهمتهم القيام بالتجهيزات للقوة الرئيسية مع إستطلاع مواقع المدفعية الموجودة في الجزيرة .

وأخيراً تشكلت قوة الحصار من ٥ فرق تركية ، وحوصرت القلعة من البر ، وحفرت الخنادق على أقرب ما يمكن من أسوار القلعة وخارج مرمى نيران المدافعين بقدر الإمكان ، وانتشرت قوة كبيرة من المدافع التركية الثقيلة حول القلعة بينما أبحرت القوادم التركية لكي تكمل عملية الحصار .

وقد كان قائدا الدفاع هما الرئيس الأكبر للفرسان « فيليه دى ليل أدام » والمهندس الإيطالى « جبرائيل مارتينيو » . وظلت مقاومة القلعة صامدة وبإصرار ، ولكن مع نهاية شهر أغسطس كان الأتراك قد ردموا الخندق الأمامى واندفعت مجموعات منهم نحو الاستحكامات الرئيسية تحت ستر قصف المدفعية ورد عليهم المدافعون بقصف مضاد . وظل هدير المدافع ينطلق من الجانبين ، ثم دار اشتباك متلاحم مستميت بين جنود الطرفين ، وقد فقدت مواقع ثم استردت ثم فقدت ثانية . وبشكل عام صد المدافعون أربع هجمات للأتراك خلال شهر سبتمبر .



وفي أكتوبر أطلق الأتراك بثلاث هجمات أخرى ، ثم قاموا في نوفمبر بهجوم عام ضخم ، ولكن كانت كلها غير ناجحة . ولكن بالرغم من ثبات المدافعين عن القلعة إلا أن عددهم نقص حوالى النصف بالإضافة إلى نقص الذخيرة والطعام بشكل خطير .

وفي الجانب التركي بدأت تثبط عزيمة سليمان ، كما سأم جيشه القتال . وإقرب الشتاء ولذلك قرر سليمان عرض شروط سخية إذا استسلمت القلعة ، وقبلت القلعة عرضه . وأقيمت هدنة لمناقشة التفاصيل والتي كانت تتلخص في إمكانية الحامية الرحيل بكل ممتلكاتها ، كما وعد سليمان للسكان الذين يرغبون في البقاء بمعاملة طيبة . وفي ٢١ ديسمبر أى بعد الحصار بستة أشهر تم التصديق على معاهدة الاستسلام . ولم يبق على قيد الحياة في القلعة بعد هذه المعركة سوى ١٨٠ فارس و ١٥٠٠ من باقى الرتب الأخرى . وقد نفذ سليمان وعده ورحل الفرسان إلى مالطة وعومل من بقى من السكان معاملة كريمة . وقد كان دفاعا عظيما ونيلا .

وقد أنقذ قبول الرئيس الأكبر للفرسان شروط سليمان الكريمة ، سكان الجزيرة من النهب والقسوة التركية . وقد حقق الأتراك ما كانوا ينشدونه من ضمان السيطرة التركية على شرق البحر المتوسط والتي توافقت تماما استراتيجيتهم .

العثمانيون يحاصرون فيينا

والآن وبعد أن إنتهى السلطان من مهمته فى رودس ، فقد أصبح شاغله الرئيسى تطوير النظام الداخلى للامبراطورية وبالرغم من ذلك فكانت فترة حكمه أيضاً فترة توسع بحرى وعسكرى . وفى عامى ١٥٢٥ — ١٥٢٦ قاد حملة تركية رئيسية على جبهة الدانوب ، والتي كانت الأولى من ضمن سلسلة حملات تركية كثيرة خلال الخمسين سنة التالية . ولم تلق تلك الحملة أى مقاومة موحدة سواء من بارونات الحدود ولا من دول شرق أوروبا . وبالرغم من توفر فترة إنذار كبيرة ، فالهنغاريون لم يحجزوا جيشاً قويا فى الوقت الذى وصل فيه الأتراك إلى بلغراد فى يولية ١٥٢٦ . وعلى طول الدانوب فقد دافعت بعض القلاع دفاعا مستميتاً ، ولكن الجحافل التركية كان تعدادها أكبر بكثير من العدو . وفى ٢٩ أغسطس تقابلت جيوش سليمان والملك لويس ملك هنغاريا عند سهل موها كس . واصطف جيش

سليمان البالغ تعدادده ٧٠.٠٠٠ رجل في تشكيل عميق . وكان الأتراك يشكلون قواتهم بهذا العمق في جبهاتهم الشرقية . وكان التشكيل يتكون من خطين من الفرسان يدعمهما الانكشارية والسباهي وانتشرت المدفعية خلف هذه القوات . أما الجانب المسيحي فكان الجيش يتكون من ٣٥.٠٠٠ رجلاً وقد اصطف في خطين طويلين كل منهما عبارة عن خليط من الفرسان والمشاة .

وقامت الفرسان الهنغارية بهجومها الأول مما أدى إلى بث الفوضى والاضطراب بين صفوف فرسان الأتراك ، فعلى الفور أمر لويس بالتقدم العام ولكنه أساء تقدير عمق الجيش التركي ، وكان نتيجة هذا الخطأ أن الانكشارية دمرت بسهولة صفوة الجيش الهنغارى والتي اخترقت مؤخرة الفرسان التركية واكتمل النصر ، ولقى الكثير من الزعماء الهنغاريين والبوهيميين مصرعهم . والآن، لم يعد هناك أى عائق يقف في طريق الأتراك إلى فينا . وفي عام ١٥٢٩ زحف الأتراك بالسيف والنار وحاصروا فينا . ولكن الدفاع المستميت عنها وهجوم الشتاء جعلاً سليمان يرفع الحصار ، خاصة وأنه أصبح الآن بعيداً جداً عن الوطن . وعلى ذلك فإن الحدود الفعلية الغربية للإمبراطورية العثمانية ، لم تمتد أكثر من خط يمتد من زناج على الأدريناتيك ثم إلى الشمال الشرقى حتى جران على الدانوب .

مؤذن وقائد اسطول

(أنظر اللوحة رقم ٢١)

بينما قام سليمان بتوسيع جبهة الإمبراطورية الجنوبية الشرقية حتى البصرة ، فكانت العراق (أرض الجزيرة) في حد ذاتها مكسباً ثميناً ، لأن حصوله على ميناء يطل على الخليج الفارسي قد دعم الاستراتيجية البحرية التركية في الصراع ضد البرتغاليين والذي ورثه سليمان من سليم الأول . وفي عام ١٥٢٦ تحالف سليمان مع « باهادور »^(١) . وفي عام ١٥٣٨ أنطلق أسطول تركي كبير لحصار البرتغاليين في « ديو » ولكن الحملة لم يقدر لها النجاح ، مما أدى أن الأتراك نبذوا سياسة اعتراض سبيل البرتغاليين في المحيط الهندي ، وعلى أى حال فقد وجد الأتراك أنهم قد بالغوا في تقدير الخطر في هذا الاتجاه حيث أن البرتغال لم

(١) هو ابن طاهر الدين محمد الشهير ببابر صاحب دلهي وكان أميراً لولاية جوجارات الهندية .

تكن مهمة بإقامة إمبراطورية برية بل كان يهملها أكثر من ذلك تحقيق مكاسب سلمية والتي تجلبها تجارتها البحرية .

ولكن كانت المنافسة على قدم وساق في البحر المتوسط بين الأتراك وأسبانيا بعد أن حلت أسبانيا محل البندقية كقوة بحرية أوروبية عنيفة ورهيبة ، ولذلك تابعت القوة التركية البحرية في حكم سليمان توسعها غربا بقوة ونشاط . وكان وكلاؤها الرسميين هم القراصنة من البربر وخاصة خير الدين باربروسا ، الذي سرعان ما بنى أسطوله ووسع من نشاطه . أما الأدميرال الشهير « أندريا دوريا »^(١) كان في خدمة أسبانيا وقاد أسطولا مسيحياً مشتركاً ولكنه هزم عند « بريفا » أمام الساحل الألباني في عام ١٥٣٨ . ومن ثم اعترفت البندقية بالسيطرة التركية على البحر المتوسط شرق إيطاليا ، ولم يحدث بصفة فعلية أن استطاعت أى قوة بحرية أن تقف أمام خير الدين باربروسا في الفترة من ١٥٤١ حتى وفاته عام ١٥٤٦ . ومع حلول عام ١٥٥١ كان لدى الأتراك قائداً جديداً هو القرصان « طرغول » والذي استولى على طرابلس كما ألحق بـأندريا هزيمة نكراء . وأخيراً تم الصلح بين فرنسا وأسبانيا عام ١٥٥٩ ، ولكن الحرب لم تتوقف بين أسبانيا والقراصنة الأتراك . ولقد جاهد أيضاً فيليب الثاني ملك أسبانيا لزيادة قوة وحداته البحرية وذلك في كل من الأطلنطي والبحر المتوسط .

وفي عام ١٥٦٥ بدأ المد في التحول أخيراً ، ففي هذا العام بذل الأتراك محاولة ضخمة للاستيلاء على مالطة ، والتي تعتبر المركز الحيوى الحاكم للمواصلات بين شرق وغرب البحر المتوسط والتي كان لا يزال يتشبث بها فرسان القديس جون . واستطاع الفرسان الصمود حتى وصل الأسطول الأسباني لتحرير الجزيرة . وقد لقي طرغول مصرعه خلال القتال . وكم كان ابتهاج الغرب بذلك ، ولكنه كان ابتهاجاً حذراً لأنه كان يبدو من المؤكد أن الأتراك سينتقمون انتقاماً رهيباً في العام التالى .

ولكن في عام ١٥٦٦ مات سليمان وخلفه سليم الثانى السكير . وفي عام ١٧٥٠ حول سليم اهتمامه إلى قبرص والتي كانت أهم وآخر معقل بندقى ، وهرعت البندقية تطلب العون

من روما وأسبانيا . وفي مايو ١٥٧١ شكلت القوى الثلاث^(١) تحالفاً دائماً ، وأنفقت القوى الثلاث على تجهيز أسطول مشترك تحت قيادة دون جوان^(٢) البالغ من العمر ٢٦ عاماً ، وفي نهاية أغسطس عام ١٥٧١ تجمع الأسطول المسيحي تحت قيادة دون جوان في مسينا ، وفي ١٦ سبتمبر أبحر في اتجاه « كورفو » . وفي نفس الوقت كان يتجمع أسطول تركي عند ليبانتو في خليج كورنثه ، تحت قيادة الأدميرال « علي باشا »^(٣) . وكان الأسطول المسيحي مكوناً من أكثر من ٢٠٠ قاذس و ٦ غلياس و ٢٤ سفينة نقل كبيرة و ٥٠ سفينة خفيفة تعمل بالمجاديف ، أما إجمالي البحارة فقد وصل إلى ٥٠.٠٠٠ بحار ، وقد عمل هؤلاء تحت ظروف قاسية ومروعة ، فقد قيد معظمهم بالأغلال في مقاعد التجديف ، أما عدد المقاتلين فقد وصل إلى ٣٠.٠٠٠ وكان معظمهم وأفضلهم من الأسبان .

أما الأسطول التركي ، فكان أكبر بعض الشيء إذ بلغ ٢٥٠ قاذس و ٤٠ غليون و ٢٠ سفينة تجديف صغيرة وكان إجمالي المقاتلين حوالي ٢٥.٠٠٠ رجل ، والتغيير الوحيد الذي طرأ على القوادس منذ القرن ١٣ هو زيادة الحجم والتسليح ، وأصبحت حمولة القاذس ١٧٠ طناً بينما كانت حمولتها قبل ذلك ١٤٠ طناً ، بينما زاد طولها من ١٢٨ قدماً ليصبح ١٣١ قدماً كما أصبح بها ٧٥ مجدافاً بدلاً من ٦٠ مجدافاً .

وكانت سفن الجانبين متماثلة أساساً في النوع ولكن يوجد بعض الاختلافات الفنية الهامة ، فقد كان بالقاذس المسيحي ٥ مدافع مركبة في المقدمة وتطلق نيراناً مباشرة للأمام بينما كان بالقاذس التركي ٣ فقط .

ولم تكن هناك سفن من نوع « الغلياس » إلا في الأسطول المسيحي والتي تحمل ٢ مدفع في الأمام و ٦ في المؤخرة و ١١ مدفع أخف على كل جانب . كما كان جنود الأسطول المسيحي أفضل تسليحاً إذ يحمل معظمهم القرايين ، ولكن في نفس الوقت كان القوس

(١) النندقية وروما وأسبانيا .

(٢) وهو الأخ الغير شقيق للملك أسبانيا .

(٣) كان يعمل مؤذنًا وأعجبت بصوته إحدى زوجات السلطان ، فارتفع بمساعدتها حتى أصبح ثدًا للآف أسطول .

التركي سلاحاً قوياً وذو معدل أسرع من النيران . وهكذا كان لدى الأتراك سفناً أكثر وهيبة أكبر ، ولكن من المؤكد أن المميزات الفنية كانت في الجانب المسيحي .

(أنظر اللوحة رقم ٢٣ ، ب)

قطع رأس على باشا

وفي صباح ٧ أكتوبر عام ١٥٧١ شاهد الأسطولان بعضهما أمام مينا « سكروفا »^(١) وتأهب الطرفان للقتال . وكان الأسطول المسيحي يتشكل في ثلاثة مجموعات تسير جنبا إلى جنب في خط وينتشر على مواجهة حوالى ٤ أميال وكان دون جوان في الوسط ويقود ٦٣ قادساً ، وإلى اليسار كان « أجستينو بارباريجو » يقود ٦٣ قادساً أيضاً وإلى اليمين كان « جيوفانى أندريا دوريا » يقود ٦٤ قادساً ، أما في الاحتياط فقد كان المركيز « سانتا كروز » يقود ٣٥ قادساً . وإلى الأمام على مسافة ٦ ميل انتشرت ٦ غلباس في مقدمة جميع الأسطول .

أما الأتراك فقد تشكلت في ثلاثة مجموعات رئيسية ، ٩٠ قادس في المنتصف تحت قيادة على باشا وفي اليمين ٥٥ تحت قيادة محمود باشا وفي اليسار ٦٠ تحت قيادة علوش باشا ، أما في الاحتياط فكان يوجد ١٠ قوادس و ٢٠ فوستا^(٢) ، ولكن تشكيل الخط التركي كان أطول من الخط المسيحي .

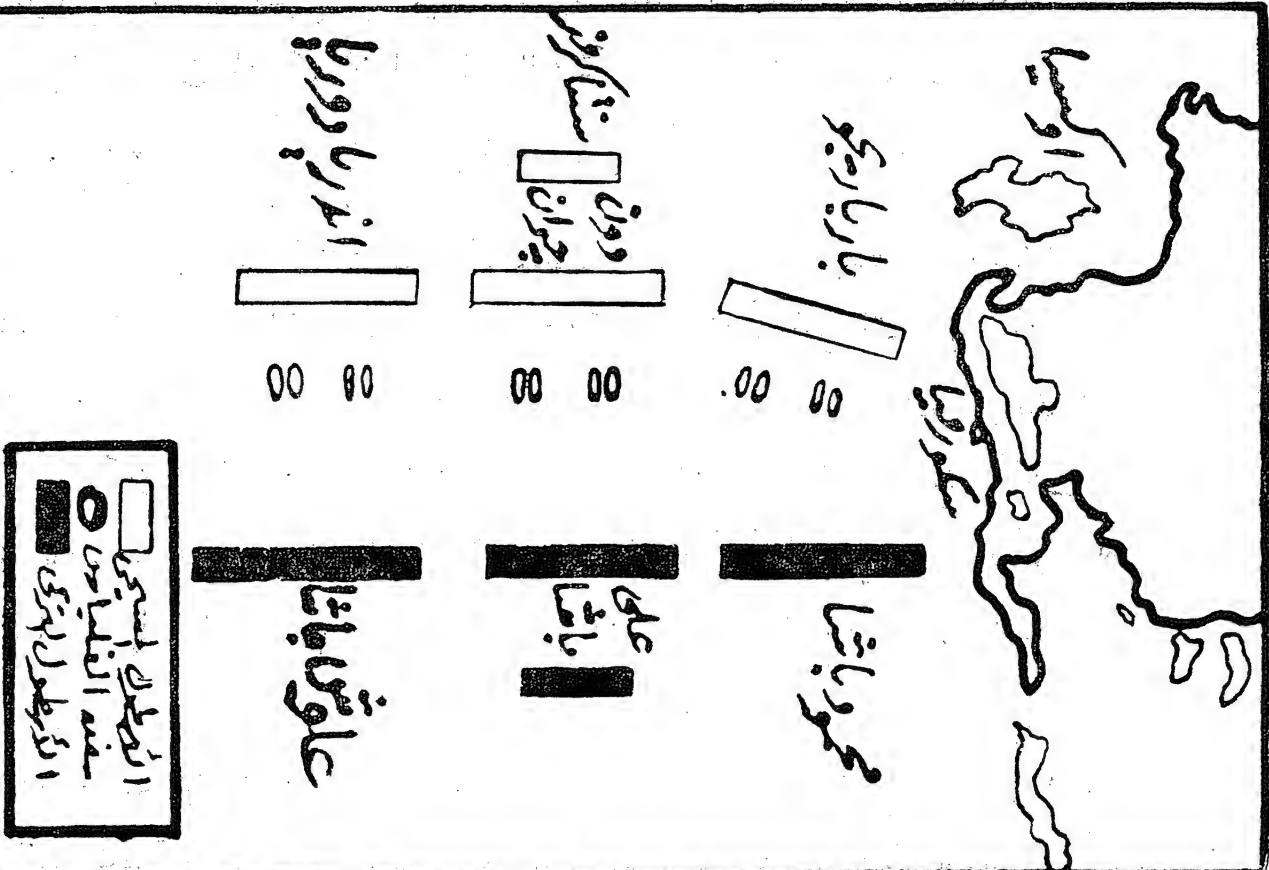
وقام قائد كلا الجانبين بالتفتيش على أسطوله ، حاضن رجالهم على الاستبسال في القتال موقدين حماسهم الديني ومثيرين جشعهم وحبهم للمال . ومن على سطح سفينة القيادة نادى دون جوان على عازفى الأبواق وأخذ يرقص بمرأى من الجميع وهو يرتدى كامل دروعه رقصة الغليارة^(٣) .

وماهى إلا لحظات حتى اندلعت المعركة في الساعة العاشرة صباحاً . ووقع الاشتباك الأول في الشمال قرب الشاطئ حيث دفع للأمام كل من اليسار المسيحي واليمين التركي . وأطلق غلباسان مسيحيان النيران ثلاث مرات وبعدها غرق قادس تركى . وكانت سفن

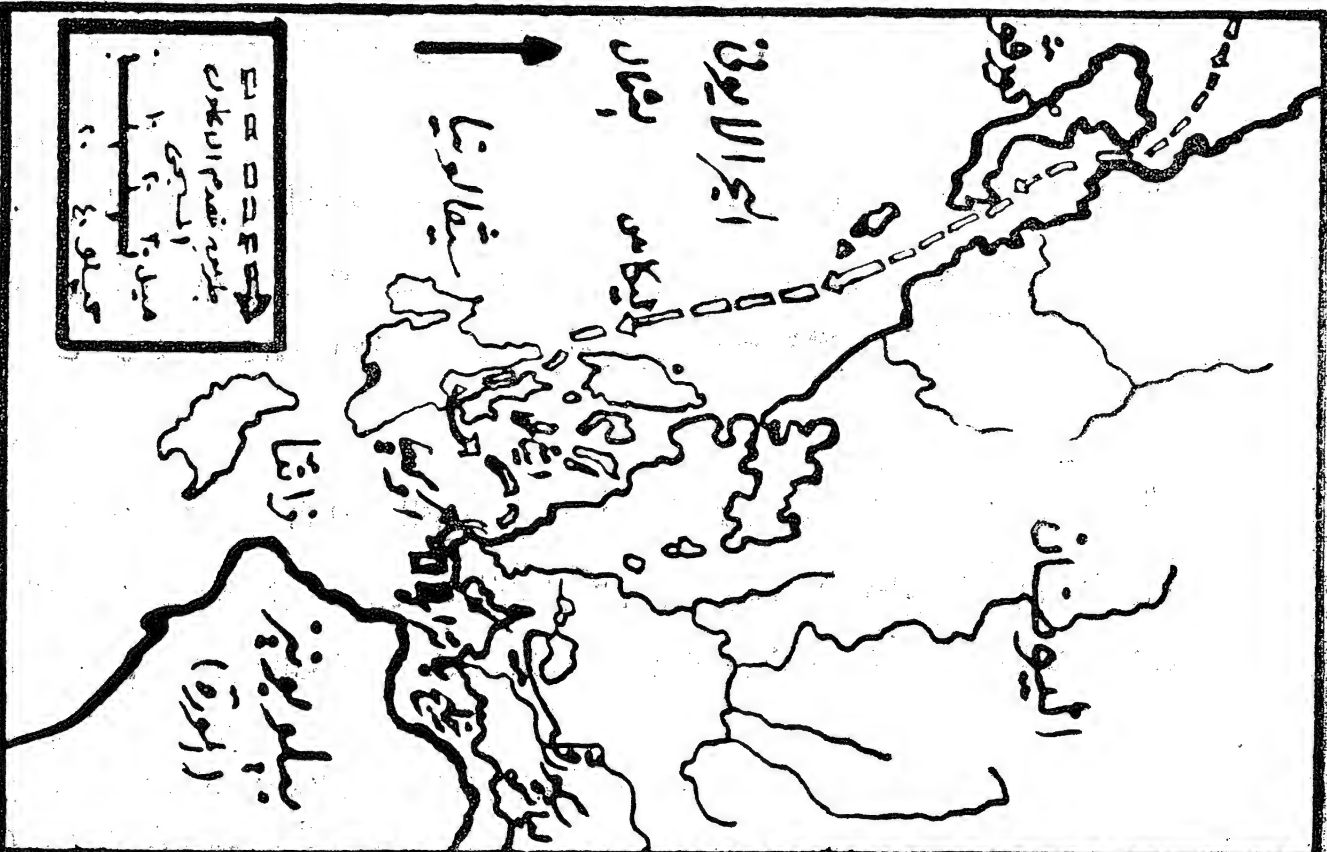
(١) في فم خليج كورنثة وتقع غرب لباتنو بحوالى ٢٥ ميلاً .

(٢) سفينة خفيفة تعمل بالمجاديف .

(٣) رقصة مرحة قديمة . « المغرب »



卷之四



البركة

الغلياس المسيحية مسلحة بدرجة كبيرة ومرتفعة عن سطح الماء بحيث أصبح من الخطورة والصعوبة أن يتسلقها الأتراك . وكان أمل الأتراك أن يقوموا بعملية مرور سريعة خلال الأسطول المسيحي . ولكن عندما تقدمت سفن الغلياس التركية تراجعت سفن الغلياس المسيحية إلى الخلف ودارت ببطء في الاتجاه الآخر وأخذت تصب بنيران مدافعها حشود القوادس التركية ، مما نتج عنه عندما تقابلت مع المجموعة الرئيسية المسيحية كان معظم السفن التركية قد أصابها العطب وانتشرت الفوضى بالخط التركي .

وعندما تقابل الطرفان دار قتال يائس صاحب لمدة ساعة ولقى بارباريجو مصرعه ولكن المسيحيين لم يفرغوا لذلك واستمروا في القتال بينما بدأ الضعف يحل بالأتراك . ويبدو أن بعض العبيد المسيحيين تمكنوا من الإستيلاء على بعض الأسلحة وحطموا بها أغلالمهم وانضموا إلى القتال ضد الأتراك . وقد أغرى قرب الشاطئ الكثير من الأتراك على الفرار إلى الشاطئ حيث تعقبهم المسيحيون ، واكتمل النصر في اليسار ، حيث أسرت أو أغرقت جميع السفن التركية هناك .

في نفس الوقت ، كانت المعركة قد اندلعت في المنتصف ، واشتعل القتال بصورة خاصة حول سفينتي القيادة لكلا الجانبين ، وتوجهت كلا منهما نحو الأخرى لتمسكا ببعضهما ، وتعال الصيحات وارتفع الضجيج من طلقات القرايين ووابل السهام وضرب المدفعية . ودار قتال بشكل عام بالسيوف يحاول كلا الجانبين إعتلاء سفينة الآخر ، وانتشر القتال حتى شملت حوالي ٢٥ إلى ٣٠ سفينة في منطقة لا تتجاوز مساحتها ٢٥٠ × ١٠٠٠ ياردة . وأكثر من مرة وصل رجال على باشا واحتلوا مقدمة سفينة دون جوان ، ولكن « سانتا كروز » الذي لم تغب عينيه عن المعركة قد أرسل ٢٠٠ رجل مسيحي إلى سطح سفينة دون جوان لتعزيزها ، واستمر القتال عنيفا لأكثر من ساعة ونصف ، وبيطء بدأ المسيحيون يمسكون بالزمام ، ولكنهم طردوا ثلاث مرات خارج سطح قادس على باشا إلا أنهم نجحوا في إجتياحها وتحطيمها وقتل معظم الأتراك بنيران القرايين ، واستولى دون جوان على العلم التركي وسحب سفينة قيادة على باشا مربوطة في سفينته ، أما على باشا فقد قطعت رأسه في نهاية القتال . وفي الساعة الواحدة بعد الظهر كان المسيحيون قد حققوا النصر كاملا في المنتصف .

ومنذ البداية وقد أدرك « جيوفاني أندريا » أن هناك خطورة من أن يطوقه الحطال التركي الأكثر إمتداداً ولذا أخذ يتحرك تدريجياً نحو الجنوب ، وبدأت المعركة وهو لا يزال يناور بمجموعته ، وقد أدى تأخير « جيوفاني » في الاشتراك في المعركة أن بعض قادته الرؤوسين شكوا في شجاعته . ولكن دارت للخلف ١٥ سفينة من التي على يسار مجموعته لتنضم إلى معركة المنتصف ، وبالتالي ترك علوش باشا محاولة تطويق المسيحيين وأسرع خلف السفن المنسقة ، وسرعان ما أغرق ١١ سفينة من هذه السفن المنسقة نتيجة لتفوقه العددي بنسبة ١:٥ . ولكن أفسد هذا النصر إلى حد ما القائد المسيحي « هوبندو سورانزو » عندما فجر مخزن ذخيرة سفينته مدمراً بالتالي العديد من السفن التركية بالإضافة إلى سفينته .

والآن تحرك علوش إلى المنتصف ، ولكنه عندما وصل وجد أن المعركة قد انتهت وخسرها الأتراك . وهناك هاجمه جيوفاني من الخلف بينما هاجمه إحتياطي « سانت كروز » من زاوية أخرى ، فعلى الفور ترك علوش الصراع الغير متكافئ وخلص نفسه بكل سرعة وانطلق بعيداً عن المعركة .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر كانت المعركة قد انتهت ، وبدأ الطقس يسوء بطريقة تنذر بالخطر ، وركز المسيحيون جهودهم في تأمين غنائمهم والبحث عن ميناء أمين . وبلغ مجموع السفن القوادس التركية التي وقعت في الأسر وفي حالة صالحة للاستعمال ١١٧ قادس بالإضافة إلى ٢٧٤ مدفعا .

وتعتبر معركة لبانتو مفيدة لأسباب عديدة ، وقد كتب أوليفر وارنر في « معارك البحر العظيمة » قائلاً : —

« في معركة لبانتو ، وكما هو في معظم المعارك البحرية الأولى ، كانت الأساطيل مثل الجيوش ، فقد كانت تشكيلاتها جامدة بينما كان القادة عسكريين ، وقد بنيت التكتيكات على الخبرة المستمدة من التجارب على الأرض .

أما البحارة فكان واجبهم فقط توجيه السفن إلى حيث يطلب منهم ، أما القتال فكان يخوضه القادة والجنود . »

موت النظام العسكري التركي

إذا عدنا إلى « دون جوان » لوجدنا أنه تلقى تدريبه الأول كجندى . وفي الواقع كانت معركة لبانتو أول وآخر معركة بحرية رئيسية له ، ولكنه كان قد اكتسب خبرة أثناء قتاله ضد القراصنة الجزائريين وكذا ضد المغاربة في غرناطة . وتوفي دون جوان بعد معركة لبانتو بسبع سنوات في الأراضي الواطئة . ومهما كانت الآراء حول مقدرته على قيادة الأسطول في المعركة ، فإنه بالتأكيد كان قائدا عظيما .

فقد كان عليه أن يتغلب على مشاكل ومصاعب أسطوله المشاكس المحب للنزاع والخصام . فقد كان الجنويون والإيطاليون منافسين قداماء ، كما بدأت المتاعب والمصاعب عندما سد النقص الموجود في القوة البشرية بسفن البندقية بقوات إيطالية وأسبانية وأدى هذا إلى حد التضارب والتقاتل مع حلفائهم . واحتاج الأمر إلى دبلوماسية وحزم من جانب دون جوان لكي يستطيع جمع الأسطول في جهاز مقاتل ثم الإبقاء عليه هكذا . وكان تلقينه لقادته الرؤوسين شاملا ولاذعا ، وكان يستخدم سبورة في شرح الأساليب التكتيكية التي ستستخدم في مختلف الاحتمالات في المعركة .

وفي النهاية ، أبحر يطوف حول أسطوله في سفينة شراعية سريعة مظهرها نفسه لرجاله رافعا من روحهم المعنوية .

ولقد كانت لبانتو نصرا سلبيا ، فهي وإن كانت قد منعت وجود سيطرة تركية كاملة على غرب البحر المتوسط إلا أنه لم يتبعها هجوم إستراتيجي من القوى المسيحية ولذلك سرعان ما بنى الأتراك أسطولا جديدا . واستمر الأتراك في بث الرعب في مياه البحر المتوسط حتى الأعوام التالية لعام ١٦٥٠ عندما بدأت الأساطيل الإنجليزية والهولندية العمل في هذه المنطقة .

وعلى أي حال فقد تدهورت القوة البحرية التركية وكان السبب الرئيسي في ذلك الفشل في متابعة التقدم والتطور التكنولوجي في أوروبا . فقد استمر الأتراك والإيطاليون في استخدام القوادس حتى بداية القرن ١٩ .

ولم يصب التصدع القوة البحرية التركية فحسب ، بل كان هناك تصدع أكثر خطورة

في الجيش التركي نفسه وكان لنفس سبب التخلف التكنولوجي . وكثال عندما تطورت الأسلحة النارية في أوروبا الغربية بإدخال أنواع جديدة من مدفعية الميدان علاوة على إدخال السونكي . فقد فشل الأتراك في ملاحقة هذا التطور وتطويعه بما يلائمهم ، بل ظلوا على ضعفهم التكنولوجي القديم والمثل في إنتاج مدافع ضخمة يصعب تشغيلها ، علاوة على وجود ضعف كبير في القيادة التركية ، فإن سليم السكير الذي حكم في الفترة ما بين ١٥٦٦-١٥٤٠ كانت تعوزه المقدرة ، ومن بعده جاء الكثير من السلاطين الذين تركوا مسئولياتهم كحكام وكقادة ميدانيين ، وانغمسوا في الملذات تاركين نظام الدولة ينهار . وجاءت لحظة حاسمة في عام ١٥٨٢ عندما أجبر مراد الثالث الانكشارية على أن يقبلوا في صفوفهم المصارعين والبهلوانات الذين أدخلوا البهجة والسرور على الشعب أثناء إحتفالات ختان ابنه .

وكانت النتيجة انهيار الضبط والربط والروح المعنوية والكفاءة القتالية . وفي عام ١٦٦٤ عند « سان جوثار » في هنغاريا ألحق الألمان تحت قيادة « مونت كوكوللي »^(١) هزيمة ساحقة بالأتراك .

وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول حاسمة في التاريخ العسكري التركي ، كما أن حصار فينا عام ١٦٨٣ كان آخر إستعراض عدواني يقوم به الأتراك في أوروبا والذي لم يلق سوى الفشل . ومع حلول القرن ١٨ وصل الحال بالأمبراطورية العثمانية إلى أنها أصبحت غير فادرة حتى على حماية حدودها .

وفي النهاية مات النظام العسكري التركي عام ١٨٢٦ وذلك عندما تمردت الإنكشارية مما دفع السلطان محمد الثاني أن يحمل العلم المقدس للواء محمد (عليه الصلاة والسلام) ويقود بنفسه أهل القسطنطينية لقمعهم .

وإستمرت سلالة أرطغول في إحتلال العرش التركي من بعده حتى عام ١٩٢٢ . ولكن منذ عام ١٨٢٦ فيمكن أن نقول أن الجيش التركي أصبح من نفس نوع جيوش أوروبا .

وإلى هذا الحد . . وحتى هذا التاريخ ، فسوف نترك الأتراك ، ولكن سوف نقابلهم مرة أخرى .

(١) لقد تعلم كل دروس حرب الثلاثين واستفاد منها في قتاله مع الأتراك . « المغرب »

الفصل الثاني عشر

الحروب الأوروبية في القرن السابع

بيع القوى البشرية



جوستاف أدولف

يتناول هذا الفصل موضوع فن الحرب في فترة كل من حرب الثلاثين عاماً والحرب الأهلية الإنجليزية والحروب البحرية الأنجلو-هولندية. وهي مرحلة غير قادمة بذاتها تماماً ، لأنه كان هناك تطوراً متواصلاً منذ حرب « موريس ناسو » إلى الحروب التي حدثت في عصر « مارلبورو » .

ولكن من المفيد دراسة سنين القرن ١٧ في حد ذاتها . وقد أنجبت هذه الفترة شخصية لامعة

واحدة هو « جوستاف أدولف » ملك السويد وهو أحد القادة العظام ، كما كانت أيضاً غنية بالقادة البرين والبحريين ولكن كانوا أقل تألقاً بكثير من جوستاف ولكنهم كانوا ممتازين وهم « والنشتين وبابنهايم وروبرت وكونديه وتورني وكرومويل وترمب وبلاك » .

وقد رأينا أن الفترة السابقة لهذه الفترة بزغت الأسلحة النارية وثبت نجاحها ، ولكن فترتنا الحالية أنبثقت فيها التكتيكات الحديثة والوسائل التكتيكية لإستخدام الأسلحة النارية ، بالإضافة إلى ذلك التوسع الكبير ومدى مجال الحرب ممثلة في التنظيم والاستراتيجية وكذا التأثير السياسي والاجتماعي والإقتصادي على الحياة القومية .

وكان من التطورات المذهلة للقرن ١٧ هو الزيادة الضخمة في حجم الجيوش . ونذكر هنا أن الجيش الذي سيطر به فيليب الثاني على غرب أوروبا كان تعداداه ٤٠.٠٠٠ رجل

بينما إحتاج لويس الرابع عشر إلى ٤٠٠.٠٠٠ رجل لتحقيق نفس الغرض. وكان أساس هذه الزيادة يرجع لإتساع مدى الإستراتيجية وتزايد ثروات الدول .

وكان على كل الدول التي ترغب في البقاء أن تنضم إلى سبق الكمية ، فحتى الدول الصغيرة إنضمت إلى السباق مثل براندبرج التي زادت عدد جنودها من ١٩٠٠ إلى ٨٠.٠٠٠ وذلك خلال مائة سنة فقط .

وأصبحت تلك الجيوش إلى جانب زيادة حجمها ، جيوشاً دائمة . وأصبحت عادة معظم الدول الإحتفاظ بأفضل قواتها في إطار نظام ثابت على طول مدار السنة وذلك لسببين : —

- ١ - أن التكتيكات الجديدة تحتاج إلى مدة أطول للتدريب .
 - ٢ - أن هذه الطريقة أكثر إقتصاداً بالنسبة للدول .
- زد على ذلك أن هذه القوات كانت تحمي الحدود وتكون مستعدة لحملات الشتاء .

ومع زيادة نطاق الحرب ، فقد كبرت بالتالي إلزاماتها الإقتصادية وأصبح الأمر باهظ التكاليف. ولكي تكون الدولة العسكرية ذات كفاءة قتالية عالية كان ذلك يكلفها كثيراً ، لذلك خصص جوستاف أودلف أكثر من نصف ميزانيته للإنفقات العسكرية ، أما بالنسبة للمناطق التي يقيم فيها الجيش سواء أ كانت معادية أو صديقة ، فكانت موارد من الطعام والوقود والإحتياجات الأخرى تمتص حتى الجفاف .

ولكن كانت هناك فوائد بالرغم من ذلك ، فالحاجة إلى إطعام الجيوش الكبيرة كان حافزاً لتنشيط الزراعة ، كما أدت مطالب التسليح إلى خلق مجال للتوسع الصناعي . فالسويد على سبيل المثال وجدت إستخداماً مربحاً لثرواتها الطبيعية من النحاس والقصدير والحديد ، وغاباتها الشاسعة المنتجة للفحم النباتي وأنهارها التي يمكن أن تقدم الطاقة وتوفير النقل .

وقد لعب التاج دوراً فعالاً في تطوير صناعة الأسلحة ، وأصبح الخبراء الأجانب من أصحاب النفوذ في هذه المشاريع .

وفي الفترة بين ١٦٢٦ و ١٦٤٦ إرتفعت صادرات السويد من المدافع الضخمة المصنوعة من الحديد المسبوك من ٢٢ طن متري في السنة إلى ١٠٠٠ طن متري . وساعد هذا التصدير أيضاً على تطور صناعة السفن السويدية ووسائل الشحن . وأكثرت من ذلك فقد وفرت الحرب مصدراً رئيسياً للعمل ، سواء في القوات المسلحة أو في الوظائف الحكومية كما أصبح من الممكن للبلاد الصغرى والفقيرة مثل سويسرا واسكتلندا أن تبيع القوى البشرية للدول العظمى .

وكانت هناك التزامات اجتماعية مثيرة تضمنتها الحرب ، فقد أصبحت الحرب أحد الوظائف بل الحرف الرئيسية للجماهير ، فنجد أن كتائب الفرسان قد فتحت أبوابها على مصراعيها لكل من يستطيع امتطاء ظهر الحصان واستخدام السلاح الناري . ومع ذلك لم يسمح ببناء الجيش بأي تحرك اجتماعي إلا بصعوبة بالغة .

ففي كل مكان في أوروبا نجد أن الطبقات الفقيرة من النبلاء والأسر الأرستقراطية فرصة سانحة لحفظ ذاتها ، وذلك بالانخراط في سلك الضباط وجعلوه حكراً مقصوراً على طبقتهم منشئين مبادئ وقواعد خاصة بالشرف والمبارزة والواجبات والمزايا .

ومن هنا ولد التسايط العسكري أي سيطرة الطبقة العسكرية وتقديس الفضائل والمثل العسكرية .

وكانت المعاني الضمنية لكبر الجيوس والقوات البحرية في الشؤون الإدارية والسياسة أيضاً ذات مغزى فأصبح من الصعب وجود جيش كبير إلا إذا كانت لدى الدولة القدرة على جمع كمية كبيرة من المال وأدى هذا إلى تضاعف الوظائف المختصة بالأمور العسكرية .

وأصبحت بالتالي المجالس البيروقراطية أقوى وأطول في البقاء . وقد كتب ج . ن . كلارك « لما كانت الدولة الحديثة محتاجة لجيش عامل ودائم ، فأدى هذا أن خلق الجيش الدولة الحديثة ، وهذا طبعاً لأن كلاهما محتاج للآخر » .

وقد أدت المطالب المالية الكبيرة الحاجة للتجنيد والمعدات أن زاد تدخل الحكومات في شؤون رعاياها ، ومثلاً فالاحتياج إلى صنع البارود والمدافع على مختلف الأعيرة ، جعل من

الضرورى إقامة شركات إحتكارية لصناعة الأسلحة وتحت إشراف الدولة . وفى معظم الدول ، فقد أدى إزدياد قوة الحكومات إلى كبت الديموقراطية ، كما فى فرنسا على سبيل أو بشكل أبرز فى بروسيا ، حيث أصبحت القيادة العامة للجيش هى قلب لكل حكومة .

وكانت ثورة إنجلترا الكبرى هى محاولة ناجحة لكبح الميل المتزايد للملوك المحتاجين للمال مما أدى إلى إنتهاك الحريات العامة .

وقد كانت معظم جيوش القرن ١٧ جيوش دول وليست جيوشاً وطنية . فيما عدا إنجلترا ، لم يكن القائد الأعلى للجيش (الملك) مسئولاً أمام الشعب . وفى هذا العصر ، عصر الحكم المطلق أو الاستبداد^(١) زاد مدى الاستراتيجية بالرغم من سوء المواصلات والاتصال . وعلى كل حال تطلب الأمر قدراً كبيراً من بعدالمدى وخفة الحركة مما أدى إلى تطور أسلوب التكتيكات الهجومية مما شجع القادة على المضى فى أثر العدو والبحث عنه وتدميره فى ميدان القتال . ولكن ارتبط هذا التطور بتطور أوسع مدى للسياسات الاقتصادية وأيضاً بطموح الحكام المطلقين فى السيطرة على جيوش كبيرة . ومثل هذه الجيوش كان من الصعب أن تعيش فقط على حساب البلاد التى تعمل فيها ، وبالتالى فقد أصبح من الحيوى حراسة خطوط إمدادها وتجارتها الخارجية ، بينما كان مرغوباً فى حرمان العدو من خطوط إمداده وتجارته . وأصبح فى الحقيقة الحروب عبارة عن وسيلة للأثراء . والنظرية الاقتصادية التى تتضمن « بأن الدولة تصبح غنية إذا ضمنت لنفسها أكبر قدر من موارد العالم المادية حتى ولو تم ذلك بالوسائل الشريفة أو القذرة » ، فقد اعتنقها معظم السياسيين فى هذه الفترة .

وقد امتدت عمليات حرب الثلاثين عاماً عبر جميع أنحاء وسط أوروبا . فقد خطط الأسبان للاستيلاء على جوتبرج ولذا فقد زحف الأمير بيكولومينى^(٢) من الفلاندر إلى بوهيميا .

(١) النظرية السياسية لذلك ، أن الساطة الكاملة يجب أن تكون فى يد فرد واحد ليدبر شئون الدولة كما يحلو له .

(٢) قائد غساوى .

وكان جوستاف أودلف أستاذاً قديراً في الجمع بين الاستراتيجية القصيرة المدى والتي تسعى وراء معركة فاصلة، والاستراتيجية طويلة المدى والتي تسعى لدفع العدو إلى الخلف ودحره على جميع الجبهات .

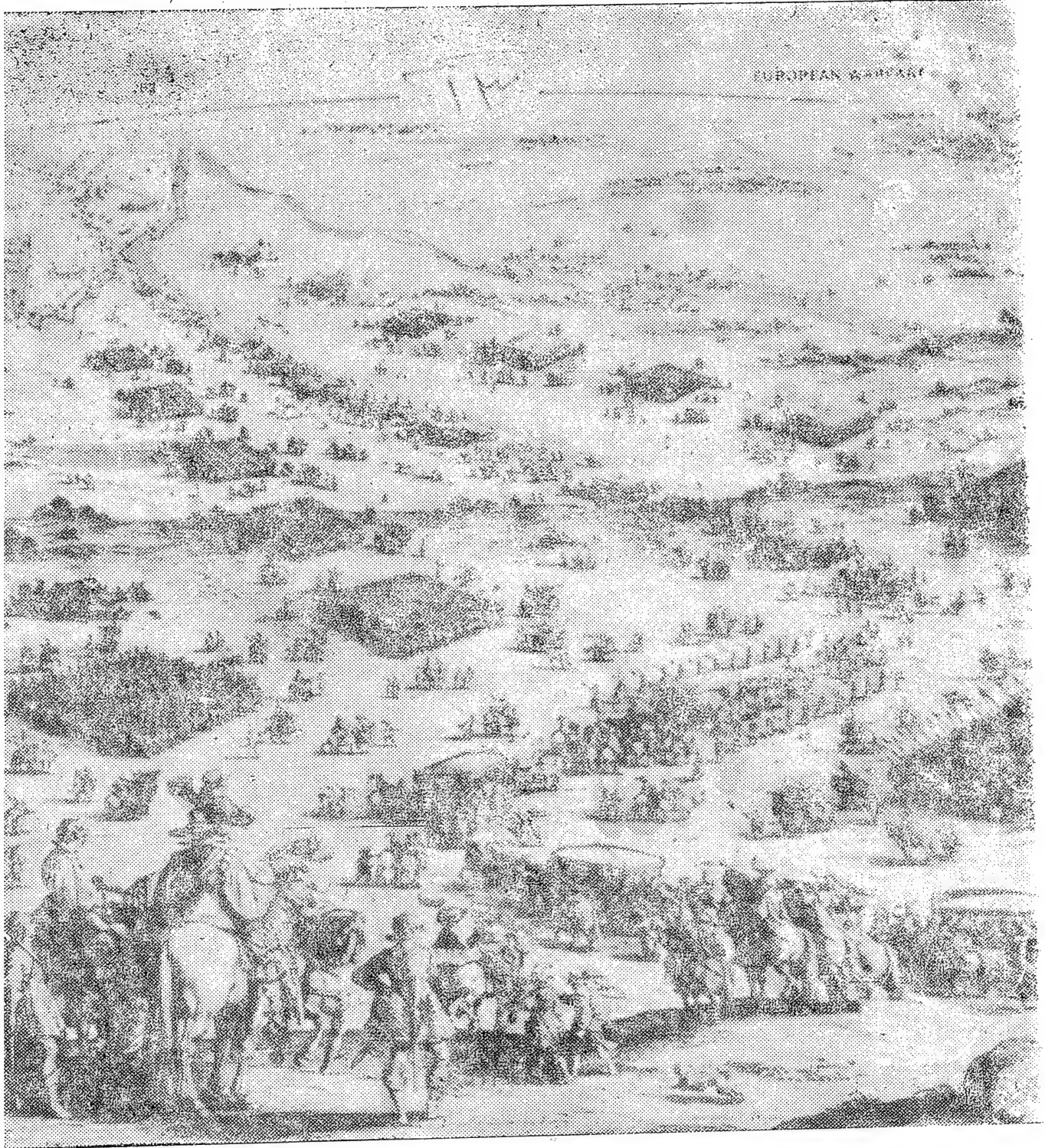
أول جيش وطني

وفي عام ١٦١٨ بدأت حرب الثلاثين عاماً في ألمانيا، وكان سببها في الأصل الاختلافات الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولكن تشابكت السياسة مع الدين . وزاد تدخل فرنسا بالرغم من أنها لم تعلن الحرب علانية حتى عام ١٦٣٥ . ومع اتساع نطاق الحرب أصبح مظهرها السياسي يمثل مركز الصدارة ، وقد تطورت هذه الحرب بعد ذلك إلى صراع للسيطرة على أوروبا وذلك بين كل من الإمبراطور الروماني المقدس « فرديناند الثاني » وتعاونه أسبانيا وبافاريا ، وبين فرنسا وتعاونها دول بروتستانتية مختلفة بالإضافة إلى تأييد البابا . وإذا ألقينا نظرة على تفاصيل هذه الحرب لوجدنا أننا أمام صورة بالغة التعقيد وذلك بسبب ما أصاب أوروبا من التفتت السياسي .

وكانت هذه الحرب تهدف إلى تحطيم وسط أوروبا سياسياً ولكن قام « ريشيليو »^(١) في عام ١٦٣٠ بضربه معلماً عندما أغوى « جوستاف أودلف » ملك السويد بالدخول في الحرب ضد الإمبراطور « فرديناند الثاني » . فقد كان « ريشيليو » يدرك تماماً أن « جوستاف » بلا شك أفضل القادة العسكريين في أوروبا .

وفي ذلك العام (١٦٣٠) كان عمر « جوستاف » ٣٦ عاماً ، وقد توج ملكاً وعمره ١٧ عاماً ، ومنذ توليه العرش خاض حروباً كثيرة مع الدنمرك وبولندا وروسيا وذلك لمنع أي منها من السيطرة على البلطيق . وقد اتبع دراسته النظرية لفن الحرب بالخبرة العلمية لهذا الفن في ميدان المعركة . وتضمنت دراساته كتابات « اكسانوفون » والتي قال عنها ليدل هارت « ربما كانت من أعظم ما كتب عن الحرب » .

وقد ظل « جوستاف » على اتصال دائم مع كل تطور علمي وتكنولوجي يظهر في ذلك الوقت . وفي الحقيقة كان « جوستاف » أول قائد عالٍ فن الحرب بحيث تتمشى مع عصر



الجيش الوطني في حرب الثلاثين عاماً ، ويظهر كبر حجم الجيوش في ذلك الوقت

النهضة ، كما أن آرائه عن التنظيم والتدريب والتكتيك كانت كلها آراء أصيلة وعلى قدر كبير من الذكاء . وأكثر من ذلك فقد كان قمة من النشاط والمهارة فى استخدام وتطبيق هذه الآراء ، علاوة على أنه شجاعاً وعاطفياً وملتهب حماس ، ويتمتع بكل حب واحترام من كل شعبه .

وقد كان إنساناً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ويحركه إيماناً راسخاً ولكن دون أى تعصب . وقد قيل عنه : — « كان يسبح للرب أولاً ثم بعد ذاك ينهض بكل الأعباء من أجل رجاله وكانت عيناه تتركز على الفور على احتياجات جنوده الحالية وخطط أعدائه القادمة » .

وكان من أسباب نجاح « جوستاف » هو فهمه العميق للتنظيم والإدارة ، ولما لم تكن السويد فى إمكانها توفير جيشاً كبيراً من المرتزقة يكفى لمواجهة جيوش أعدائها الكثيرة ، لذلك أوجد « جوستاف » نظاماً جديداً للتجنيد ، والذي أصبح فى النهاية أول جيش وطنى تتولى الدولة الإتفاق عليه من تجهيز وإطعامه وصرف الرواتب . وقد استخدم القسوس والمحلفين المحليين كمندوبين للتجنيد ، وبذلك استطاع تجنيد أكثر من ٤٠٠٠٠ سويدي . وكانوا لهم أجسام قوية ويتميزون بشجاعة نادرة ، وكانت أعمارهم تتراوح بين ١٨ — ٣٠ سنة .

أما أعمال الصناعات الخاصة مثل صناعة الذخيرة والنقل فقد أعفوا من الخدمة العسكرية . وفضلاً عن أن الجيش بهذه الطريقة كان أكثر اقتصاداً ، فقد ظل أساسه جيشاً وطنياً . وكنتيجة لذلك كانت الروح المعنوية للجيش مرتفعة عن الروح المعنوية لجيوش الأعداء والتي كانت تتكون أساساً من الجنود المرتزقة .

وكان الجيش السويدي يختلف فى تكوينه وتجهيزه عن باقى جيوش أوروبا ، لأنه كان يسير وفقاً للأفكار والمفاهيم التكتيكية للملك السويدي والتي كان أهمها قوة النيران وخفة الحركة . وجعل من المسكيت^(١) السلاح الرئيسى ، كما زاد عدد حملة المسكيت إلى حملة الرماح . وفى نفس الوقت سار « جوستاف » على غرار « موريس ناسو » وأنشأ وحدات صغيرة

وحدات فرعية . وبالتالي فكانت السرية تتكون من ٧٢ حامل المسكيت و ٥٤ حامل الرماح . وكانت الكتيبة تتكون من ٤ سرايا ، والآلى يتكون من ٨ كتائب ، واللواء يتكون من ٢ إلى ٤ آلى .

أما نفس المسكيت فقد أصبحت أقصر وأخف بحيث لم تعد هناك حاجة إلى وجود المسند ، كما أصبحت عملية تعميمها أكثر بساطة ، وأصبحت هناك مواصفات قياسية للأجزاء الميكانيكية وذخيرة المسكيت . وقصر الرمح من ١٦ إلى ١١ قدماً كما قل حجم الدرع .

أما الخيالة فتكونت من الفرسان المدرعين «الكوراسير»^(١) و «الدراجون»^(٢) . وكان «جوستاف» أول قائد عظيم يدرك أهمية مدفعية الميدان جاعلاً منها سلاحاً رئيسياً ثالثاً ، وعاونته في ذلك قائد عبقرى في المدفعية وهو «تورستنسن» ، والذي كان عمره في عام ١٦٣٠ حوالى ثلاثين عاماً .

وكانت مدافع الميدان تصنع في ذلك الوقت بشكل أقصر وتوضع في عربات أخف وزناً لزيادة خفة الحركة بحيث أصبحت مميزة عن مدافع الحصار ، وقد أنقص عدد الأعيرة كما وحدت المدافع ونظمت سوياً ، وعلى ذلك فقد تراوح وزن مدافع الحصار السويدي ما بين ١٥ إلى ٦٧ هندردويت^(٣) ، بينما كان وزن مدافع الميدان ما بين ١٢ ، ١٨ أو ٢٧ هندردويت .

أما القطع الأصغر فكانت على شكل مدافع ميدان حوالى أربعة أرتال ، وتعمل بذخيرة متصلة وقد سمي هذا النوع بمدفعية الآليات .

وكان من الممكن تحريكه بحصان واحد أو بثلاث رجال ، وأمكن استخدام طلقات المسكيت كذخيرة لها وهي أما ٨ طلقات في قنبلة عنقودية أو علبة صغيرة بها ٦ طلقات . وبالإضافة إلى كل ما سبق كان يوجد في جيش «جوستاف» سلاح للمهندسين وكانت أفرادهم

(١) الكوراسير فرسان مسلحة بالسيف والسمس .

(٢) الدراجون فرسان مسلحة بالمسكيت .

(٣) الهندردويت وحدة وزن تساوى ١١٢ باوند في إنجلترا ، والباوند يساوى حوالى ٥٣ : جرام .

من الخبراء المدنيين الذين يطلبون عند الحاجة ، وكان يوجد بالجيش معدات قياسية ومساعدات جديدة مثل الخرائط ونظارات الميدان ، وعلى ذلك فقد كان العلم والتكنولوجيا في جيش جوستاف يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالحرب . واستخدم التدريب الأولى كوسيلة لبناء الضبط والربط وزيادة كفاءة الرتب الصغيرة وبث روح الاستبسال في الجيش . ولا شك أن الضباط في مثل هذا الجيش الكبير المشكل من وحدات صفرى كانوا أكثر عدداً وأهمية من الماضى ، ولذلك انبثقت فكرة الرتب والتسلسل القيادى . كما قال ميخائيل روبوت : - « لم يعد الجيش ينظر إليه كمجموعة متوحشة أو مجموعة من الأفراد العدوانيين ، بل كتنظيم معقد يتعين على كل جزء فيه أن يستجيب بدقة إلى النبضات القادمة من أعلى » . فأصبح لا بد أن يكون للضباط الكبار معرفة تامة بالعلوم والجغرافيا بل وحتى الدبلوماسية ، ولهذا أنشأت عدة أكاديميات حربية في أوروبا خلال القرن ١٧ .

وكان جوستاف لا يستطيع أن يتحمل ضعف الكفاءة ، ولذا كان على استعداد ليرقى الضباط نتيجة لجدارتهم . فى نفس الوقت ألقى مسئولية كبيرة على ضباط الصف ، لم تحدث منذ أيام الرومان . وتطلبت الأساليب التكتيكية مناورات مرنة وضبط وربط جيد للنيران والذي كان التدريب ضرورياً لتحقيقه .

وقد تعين على الضباط أن يقولوا تدريب جنودهم نظرياً وعملياً على طول مدار السنة . ومن الخطوات الهامة التى حققت الانتظام والتماثل هو إدخال الزى الرسمى الموحد وعلامات الأسلحة ، مما أدى إلى ازدياد الروح المعنوية وحب الوحدة .

وساعد الزى العسكرية الذى أدخله جوستاف كثيراً فى تأكيد وجود ضبط وربط جيد مع روح معنوية عالية . وعلى كل حال ليس هذا بالشئ الغريب على الجيش السويدي والذي أختير رجاله من أفضل شباب الأمة ويقودهم ضباط أصغر لأمعين تحت قيادة قائد أعلى ملهم . ولكن لم يترك كل ذلك للفرصة أو المصادفة أو السير كيفما اتفق ، ففي « مقالات عن الحرب » والتي كتبها جوستاف بنفسه ، فقد منع شرب الخمر والدعارة وأمهان المقدسات . أما المخالفات البسيطة فكان عقوبتها إنسانية ، فقد حرم عقوبة الجلد ، بينما كان عقاب النهب

والاغتصاب واحتقار الطقوس والتعاليم الدينية المقدسة ، الموت ، بينما كانت طقوس الكنيسة تعقد بانتظام والتي كان المقصود منها خلق تأثير حضارى مهذب .

الخط بفضل الرجل الجرى (أنظر اللوحة رقم ٢٤ ، ٢٥)

وقد أصبح من الضرورى بسبب إزدياد حجم الجيوش وإتساع مدى الإستراتيجية أن ينظم المسئولين عن الأمداد أعمالهم فى صورة شبيهة أكثر بطريقة رجال الأعمال .

وأصبح من الضرورى على الدولة توحيد السلاح المستخدم وتزويد الجنود بدلا مما كان يحدث فى الماضى بأن يترك ذلك للجنود أنفسهم . وكما ذكرت ، فقد كان من المستحيل عمليا على جيش فى القرن ١٧ أن يعيش على حساب قوت الدولة ، ولأسباب إنسانية فقد كان ذلك من الأشياء الغير مستحبة . وتضمنت إصلاحات جوستاف نظاما بارعا لمصادرة المؤن وجمعها فى مخازن إمداد وفى أما كن ملائمة . وكبدأ أيضا فقد تركز جيشه فى معسكرات محصنة على غرار الرومان ، وأدت هذه الإصلاحات إلى خفض درجة الفقدان والخسارة كما قللت من الفظاعة والوحشية .

كما ساعدت الجيش فى الإستقرار ، لأنه لم يعد محتاجا للانتشار على طول البلاد للبحث عن المراعى والمأوى .

كما زادت خفة الحركة نتيجة لإنقاص عدد كبير من تباع المعسكر . وعمليا لم يعمل بهذا النظام دائما فكثيرا ما اضطّر السويديون إلى النهب وأيواء جنودهم فى مساكن المواطنين بالإكراه . ولكن كان هذا النظام خطوة عظيمة للأمام فى مبدأ الإمداد الحربى والإدارة العسكرية ، كما أدخل جوستاف أيضا أفكارا جديدة وحيوية فى مجال الخدمات الطبية بتوفير طبيب جراح لكل آلاى ، كما خصص عشر غنائم من الحرب للانفاق على المستشفيات العسكرية .

أما فى مجال السياسة الخارجية ، فقد كان أمام جوستاف هدفين توأمين هما تدعيم النفوذ السويدي والدفاع عن البروتستنتية .

وفى عام ١٦٣٠ اضطّر لدخول حرب الثلاثين عاما ، نتيجة لقيام الجيشان الإمبراطوريان

الكاثوليكيان والليدان يقود كل منهما والنشتين وتبلى بإحتلال كل ألمانيا حتى البلطيق بالإضافة إلى الإجراءات الوحشية التي اتخذت ضد البروتستنتيين . وقرر جوستاف أن أفضل طريقة للدفاع عن البلطيق هي قيامه بالهجوم وذلك بفرض نقل الحرب بعيداً عن السويد ، وخاصة أنه سيكون من الصعب الدفاع عن سواحلها الطويلة ، بالإضافة أن الملك لا يرغب في أن يرى شعبه يقامى ويلات الحرب . كما أنه في بلد كالألمانيا والتي مساحتها واسعة فإن التفوق العددي للعدو لن يكون له أثر كبير . وقد قدر جوستاف الموقف .

« كان لدى العدو بلداً واسعة يريد إحتلالها ، ومدنا عديدة ليحرسها .



وهذا يتطلب منه عدداً كبيراً من القوات . كما أنه ليس من الحكمة الإندفاع وراء الحقيقة القائلة بأن قوة العدو هي أكبر في شهرتها عنها في حقيقةها . وأن مجرد خسارة معركة كبيرة واحدة مع العدو ستضعه في مركز حرجاً جداً . وكان على جوستاف أن يثبت صدق إدراكه وبصيرته ، ولكنها كانت حسابات غاية في الجراءة والشجاعة ، وذلك بنزوله عند مصب نهر الأودر في صيف ١٦٣٠ ومعه ١٣٠٠٠ جندي فقط ، بينما بلغت قوات العدو المشتركة في مواجهته ١٠٠٠٠٠ جندي . وفي ذلك الوقت كان الإمبراطور مفرط في ثقته بنفسه وفي جيشه ، ومن الأرجح أن ريشيليو خدعه ودفعه لطرده والنشتين والذي كان الإمبراطور يخشى قوته المتزايدة . وبذلك أزيل نصف أعداء جوستاف من المسرح بدون أن يطلق طلقة واحدة .

بل أن جيش جوستاف استطاع تجنيد عدد من جنود والنشتين والذين أصبحوا بدون عمل بعد عزل قائدهم ، وعادة مايفضل الحظ الرجل الجريء .

أما الأمراء البروتستنتيين في ألمانيا فقد ظلوا متشائمين وخائفين من أن يقدموا العون لـجوستاف .

وكانت إستراتيجية جوستاف هي التقدم بحذر وفي تشكيل منتظم ، أي جعل

إستراتيجيته تتلائم مع موارده . وأمضى العام الأول فى القيام بعمليات على الساحل الجنوبى للباطيق مؤمناً قاعدته وخطوط مواصلاته ، وجالبا بالتدريب الزيد من الرجال إلى ألمانيا . وفى مايو ١٦٣١ كان مستعداً للمعركة ، فتحرك جنوباً بهدف حصار « مجد بوج » التى يحصارها « تيلي » . وتقدم الجيش السويدى الجيد التنظيم وتحت إدارة حازمة وتوفر الإمدادات ، ولكن فى اللحظة الأخيرة قلب الأمير السكسونى البروتستنتى « جون جورج » هذه الإستراتيجية رأساً على عقب ، وذلك برفضه السماح لجوستاف بالمرور من داخل ساكسونيا . وسقطت مجد بوج فى أيدي القوات الإمبراطورية التى قامت فى الحال بتدمير المدينة بعد الإستيلاء عليها وهذا أفسد نجاح تيلي مما أدى أن حصل جوستاف على تأييد الساكسونيين . ومرة أخرى وفى يوليه إنطلق الجيش السويدى سالكا طريقاً آخر نحو « ليبزج » ، وما أن حل شهر سبتمبر حتى تقابلت قوات جوستاف مع جيش تيلي عند « بريتنفيلد » التى تقع شمال ليبزج بخمسة أميال . وكان تيلي يأمل فى تفادى خوض المعركة . ولكنه كان تقريباً قد دفع إليها بسبب تهور نائبه فى القيادة « بابنهايم » ، الذى إنطلق للاستطلاع فى الأمام وعاد ليبلغه بأن العدو يتقدم بسرعة كبيرة نحوهم وأنه لامناص من المعركة ، ولم يكن هذا صحيحاً .

هجوم الصدمة الخاص

وكانت هذه الصورة عكسية تماماً للإستطلاع ملك السويد الماهر الكفاء ، فكان جوستاف فى الظروف الهامة يقوم بالإستطلاع بنفسه ، وكان لديه نظام يقوم بمقتضاه القادة الرؤوسين بإمرار المعلومات إليه وإلى زملائهم فى سرعة ووضوح . كما كانت الأوامر بالجيش السويدى هى الأخرى مثالا يحتذى به ، فكل فقرة مرقمة تنطى نقطة واحدة وباختصار ووضوح وبتسلسل منطقي .

وهذا النظام ساعد تأمين الحماية المتبادلة وفى نفس الوقت حقق مبدأى حشد القوى

والإقتصاد فى القوى أثناء الهجوم . وكانت الإستعدادات والإستطلاع السويدى

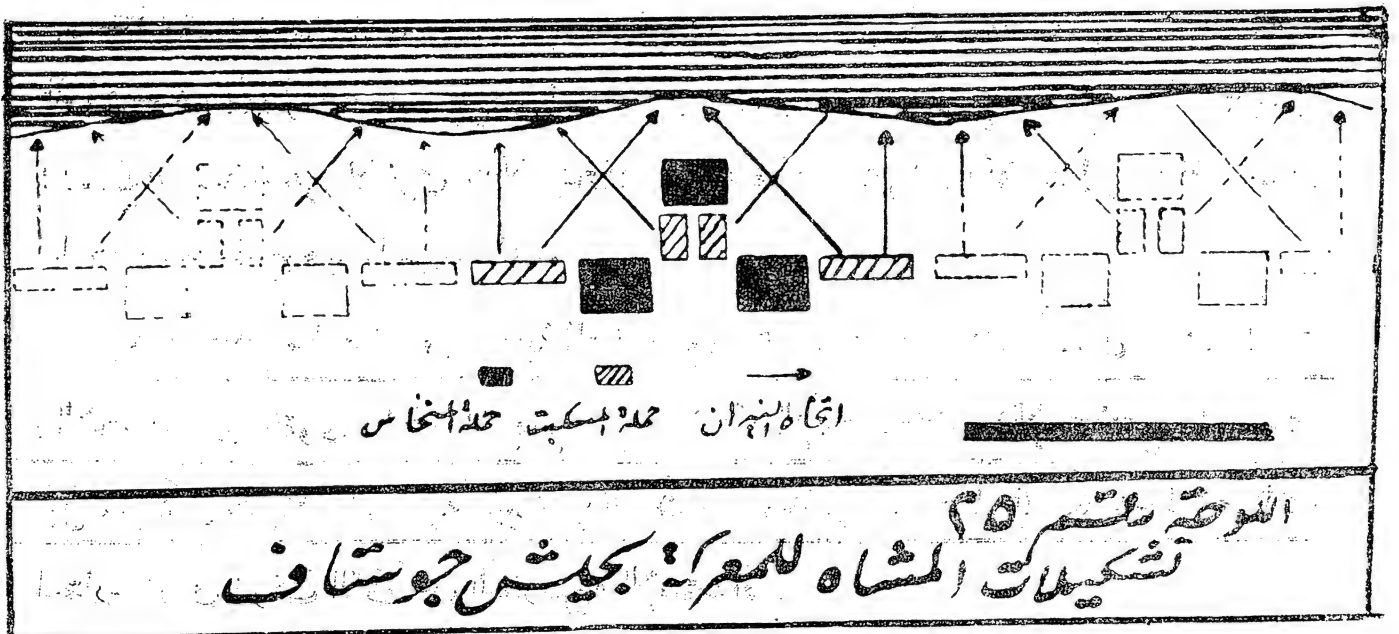
قبل معركة بريتنفيلد على درجة كبيرة من الكفاءة . وخاض جوستاف المعركة فى الوقت الذى

اختاره أو فى الوقت الذى كان العدو سىء الإستعداد .

وكان لدى جوستاف ٤٧٠٠٠ جندي ، منهم ١٠٠٠٠ سكسوني ليست لهم خبرة كافية بالحرب ، ولكن الباقون كانوا جنوداً سويدياً وقد وضع جوستاف ثقته فيهم . وقد غرس فيهم خلال خدمتهم الطويلة معا كل آرائه التكتيكية سواء أثناء التدريب أو في المعركة الفعلية .

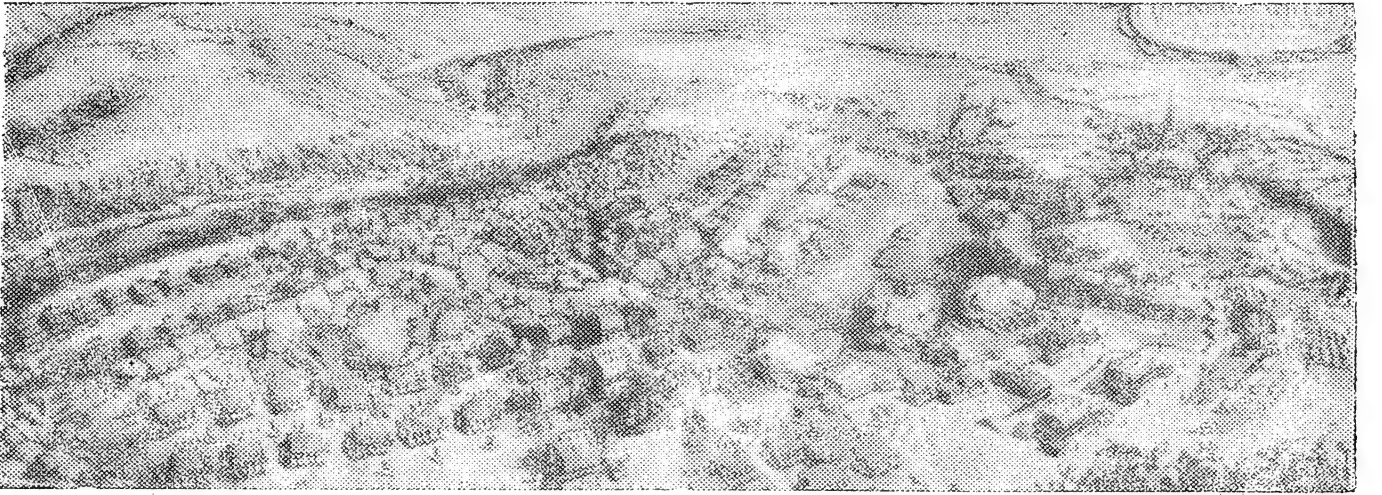
وقد بدأ جوستاف من حيث توقف موريس ناسو وفي مجالات كثيرة في الحرب . فقد أتبع نظام ناسو الخاص بتشكيل الوحدات الصغيرة ، ولذا ألغى جميع أسلحة المشاة عدا المسكيت والمنخاس . ولكن كان موريس قائداً من طراز القرن ١٦ وكان هذا أقصى ما وصل إليه . وقد استمرت مشكلة إيجاد تكتيكات هجومية تلائم عصر الأسلحة النارية ، وحل هذه المشكلة يعتبر من أهم وأعظم ما شارك به جوستاف في تصوير الفن الحربي الحديث . وقد وفرت الأسلحة النارية في هذا الحل القوة الضاربة الرئيسية للمشاة ، وبالتالي زاد عدد حاملي المسكيت .

ومرة أخرى أصبح الرمح سلاحاً هجومياً ، ولكن ظل الواجب الرئيسي للرمحين هو تغطية جنود المسيرة وحمايتهم من أي هجوم أثناء تعمير بنادقهم . وقد تم اختراع تشكيل مرن وكفء للواء المشاة وهو على شكل (٢) ويظهر ذلك في اللوحة رقم ٢٥ ، وجمع هذا التشكيل بين حاملي المسكيت وحاملي المنخاس للقيام بواجباتهم المختلفة وفي صورة أكثر



إقتصاداً . وكانت وحدات حملة المنخاس المتقدمة في الوسط تمثل جداراً أو حاجزاً للوقاية في الدفاع ، وفي نفس الوقت تصبح رأس حربة في الهجوم ، في نفس الوقت حمت وحدات حملة المنخاس الأخرى أجناب حملة المسكيت ، بذا كان يمكن لحملة المسكيت وهم محميون تماماً أن ينقضوا على جبهة العدو بوابل من قذائفهم من أى نقطة مواجهة للعدو ، ويمكنهم أيضاً حشد النيران وضرب العدو من زوايا مختلفة .

وكما لوحظ أن اللواء المشاة بهذا التشكيل أصبح يمثل « قلعة صغيرة متحركة بأسوارها وإستحكاماتها الأمامية » وإلى جانب نيران حملة المسكيت فكان في إستطاعة جوستاف أن يحدث صدمة أخرى بالنيران ، بما لديه من مدفعية الميدان والتي تميزت بخفة حركتها وبمعدّلها العالي من النيران ، زد على ذلك أن دخان المدافع يمكنه إلى حدما من إخفاء تحركات القوات التي في الخلف .



تشكيلات المعركة لتتوات جوستاف

وقد أعاد جوستاف تنظيم الفرسان ، فقد ألغى نظام النصف دورة (الكرا كول) والذي كان يقوم به الفرسان المسلحين بالسدسات واستخدم بدلا منه الهجوم بأقصى سرعة مع إستخدام السيف كسلاح رئيسي ، وإستخدم السدس كسلاح مكمل للسيف خلال الإشتباك . وقد كان ذلك العودة إلى الإستخدام الصحيح والذي يحقق أكبر فائدة من سرعة وقوة صدمة الفرسان .

وقد حققت الفرسان واجباً تكتيكياً مزدوجاً ، فكان عليها القيام بأعمال التطهير الأولى في المواجهة لإفساح الطريق لإقتحام المشاة ثم القيام بعد ذلك بما يطلق عليه بهجوم الصدمة الحاسم .

وقد كان جوستاف على يقين تام بأن التشكيل الكثيف المحتشد ما هو إلا مضيعة للقوة البشرية ويشل القدرة على المناورة كما أنه معرض بصفة خاصة لنيران المدفعية ، وعلى ذلك إستخدم جوستاف التشكيل الخطي للقتال أى على شكل خطوط ، مكرراً فيها الألوية والتي فتحت على شكل حرف (T) مع مجموعات صغيرة من الفرسان .

وفي نفس الوقت دعم هذا الخط بالإحتياطيات . وكان عمق حملة المنخاس ٦ صفوف والفرسان ٤ صفوف مع وجود فواصل بين الصفوف . أما حملة المسكيت فكان عمقهم ٣ صفوف ، وبهذا الشكل كان يمكن ضبط وتنظيم قوة النيران والحركة والصدمة وتوجيهها بحرية وبطريقة أكثر إقتصاداً .

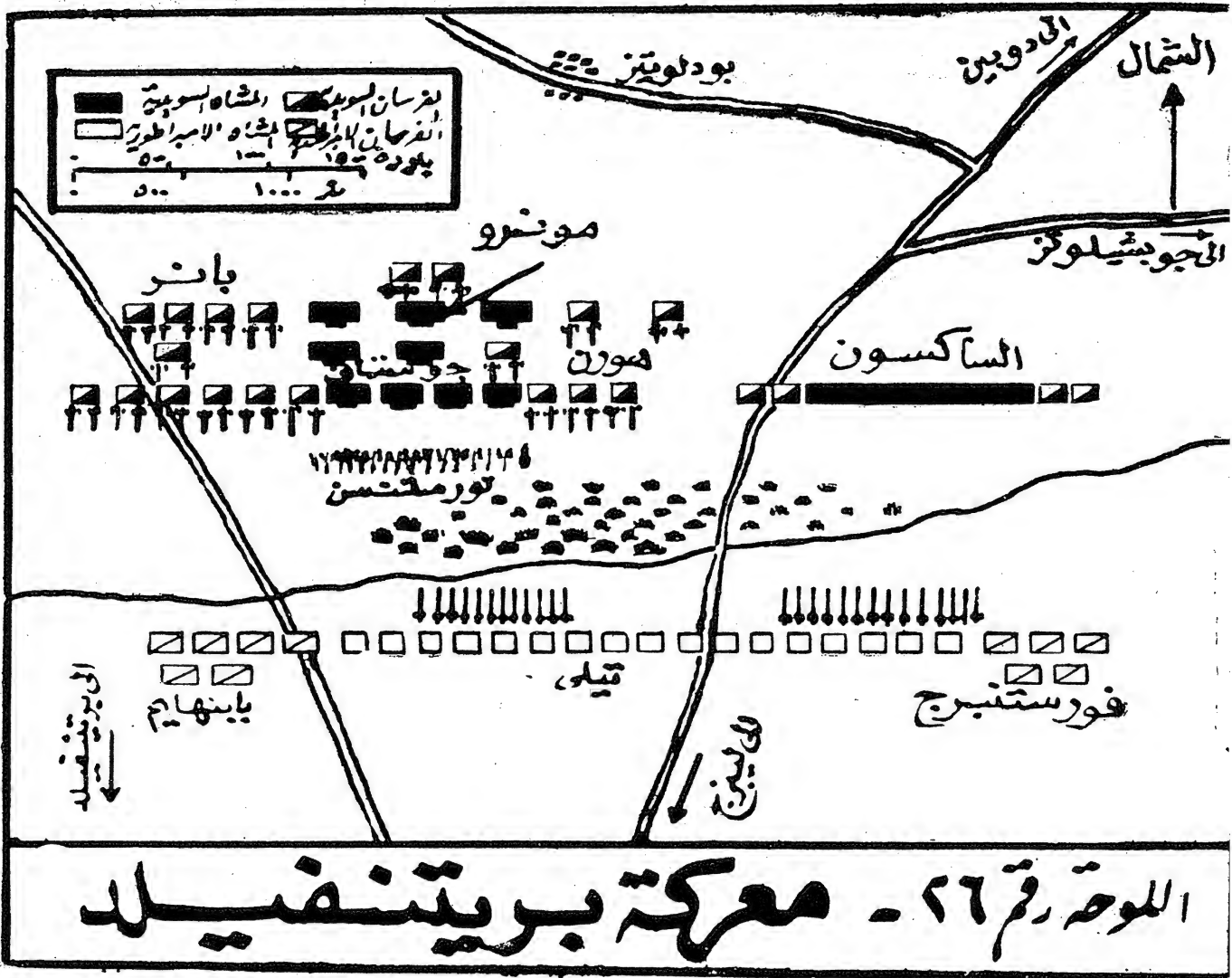
المناورة المصغرة (أنظر اللوحة رقم ٢٦)

كانت أرض المعركة في بريتنفيلد عبارة عن سهل قليل التموج وعارى من الأشجار . وقد وضع جوستاف الجنود السكسون^(١) في أقصى اليسار ، ثم يليهم اليسار السويدي تحت قيادة هورن ، والذي يتشكل من ٣ آلايات من الخيالة تنتشر بينهم جماعات من حملة المسكيت ويدعمهم آلايين من الخيالة في الخط الثانى .

أما قوات المنتصف فكان يقودها جوستاف وكانت مشكلة من الخط الأمامى وبه ٤ ألوية من المشاة في تشكيل حرف (T) ، والخط الثانى وبه ٢ لواء مشاة وآلاى فرسان ، وفي الخط الثالث وبه ٣ ألوية مشاة وخلفهم ٢ آلاى فرسان . أما قوات اليمين فيقودها « بار » ويتكون خطه الأمامى من ٦ آلايات من الفرسان وتنتشر بينهم جماعات من حملة المسكيت ، وفي الخط الثانى آلاى من الفرسان ، وفي الخط الثالث ٤ آلايات من الفرسان وكان أمام كل آلاى مدفعيته^(٢) .

(١) كان لا يعرف تشكيلهم على وجه التحديد .

(٢) كانت تتكون من مدفعين ٤ رطل . « العرب »



أما مدفعية الميدان الثقيلة فكانت تحت قيادة « تورستنسن » وحشدت أمام منتصف القوات .

وكان في مواجهة ذلك ، جيش الحلفاء ويتكون من ٤٧٠٠٠ جندي ، فكان جيش تيلي الإمبراطوري يتكون من ٤٠٠٠٠ رجل^(١) . وكان تيلي البالغ من العمر ٧٠ عاماً قائداً جيداً في مجال الأساليب التقليدية الأسبانية ، وكانت شخصيته مثيرة ومهيبية بوجنتيه الغائرتين ورداءه الضيق ذو اللون الأخضر القاتم . وقد شكل تيلي جيشه في خط واحد أو خطين من ١٧ آلاي من المشاة . وشكل كل آلاي منها مربعاً عمقه ٥٠ رجلاً . أما الفرسان فقد وضعها تيلي على الأجناب وهكذا فتح الجيشان في تشكيل القتال يواجه كل منهما الآخر وعلى مواجهة طولها أكثر من ٢ ميل . وارتدى السويديون زيهم الأخضر بينما ارتدى الإمبراطوريون رمزهم والذي كان وشاحاً أبيض . وبالرغم من وجود اختلاف بسيط في العدد بين الجيشين إلا أن السويديين تفوقوا بشكل واضح في المدفعية^(٢) . وكان كلا القائدين ذو خبرة وتجربة ووائتقاً من نفسه . وعلى كل حال فقد توقفت نتيجة المعركة على أي من الأسلوبين التكتيكيين سيثبت تفوقه على الآخر ، فأحدهما يعتمد على الحشد والآخر يعتمد على خفة الحركة .

وقضى جوستاف الليلة السابقة للمعركة في عربته يناقش المعركة القادمة مع كبار ضباطه . ومع بزوغ شمس ١٧ سبتمبر ١٦٣١ ، وبعد انتهاء شعار الصلاة وانتهاء جوستاف من إعطاء تعليماته الأخيرة لضباطه ، بدأ الجيش السويدي يتقدم للهجوم . وكان لابد عليه من عبور مجرى مائي موحل أولاً ، وهنا فشل « تيلي » في استغلال هذه الفرصة ليهاجم السويديين أثناء عبورهم المجرى المائي . وتمت عملية العبور بدون حوادث بخلاف مصادمة صغيرة جرت بين بعض الفرسان الإمبراطورية وقوات استطلاع جوستاف . وكانت المرحلة الرئيسية الأولى للمعركة هي معركة تراشق بالمدفعية ، وقد بدأت هذه المعركة عند الظهر واستمرت لأكثر من ساعتين وتفوق السويديون على خصومهم نتيجة لإطلاق مدافعهم ٣ طلقات بينما يطلق العدو طلقة واحدة . وأخيراً ، انهارت قوة احتمال الفرسان الإمبراطورية الموجودة في اليسار تحت

(١) ٣٠.٠٠٠ رجل مشاة و ١٠.٠٠٠ فارس

(٢) كان لدى السويديون ٥٤ مدفعاً بينما كان لدى عدوهم ٢٦ مدفعاً . « العرب »

وطأة نيران المدافع السويدية لدرجة أن بابنهايم قائد هذا الجانب لم يستطع البقاء أكثر من ذلك في مكانه ، وبدون أى أوامر من « تيلي » تحرك ومعه ٥٠٠٠ مقاتل إلى مسافة أبعد قليلاً إلى اليسار ، ثم قام بهجوم على الجناح السويدى الأيمن .

ووجد جوستاف فرصة قيمة لإظهار وتطبيق مادرب به قواته على المناورة وخفة الحركة ، وبسرعة دفع الفرسان الاحتياطية لتشكيل زاوية قائمة مع الخط الأمامى . وبعد سبع هجمات على هذا المعقل المكون من خليط من الفرسان وحملة المسكيت تبعثرت وتحطمت فرسان بابنهايم المدرعة .

وعندئذ قام « بانر » بهجوم مضاد دفع به الجناح الأيسر من فرسان الإمبراطور إلى خارج الميدان .

وفى نفس الوقت كان الموقف فى الجناح الأيمن على عكس ما عليه فى الجناح الأيسر لقوات « تيلي » ، فقد قامت الفرسان على الجناح الإمبراطورى الأيمن بقيادة « فورستنبرج » بهجوم ، وفى خلال نصف ساعة أجبرت الساكسون على الفرار . ونتيجة لذلك أصبح اليسار السويدى مكشوفاً علاوة على نقص عددهم . وكان « تيلي » يسيطر على جيشه بمجد جهيد ، أما الآن فقد أدرك الفرصة المواتية التى ظهرت أمامه . وبعد أن لاحظ أن يمينه قد تخطى ليسار العدو الذى ضعف بهرب الساكسون ، فقد أمره بالالتفاف حول السويديين ومهاجمة مؤخرتهم ، بينما تحركت مشاته الموجودة فى المنتصف لمهاجمة الجنب الأيسر السويدى . ولكن مع بداية هذه المناورة الضخمة ، أظهر جوستاف إمكانه القيام برد فعل ناجح فى معركة متقلبة ومتطورة على الأقل بنفس ما يقوم به « تيلي » ، كما كان تشكيله المترابط والمنظم يفوق بدون شك حشود عدوه .

وعلى الفور أصدر جوستاف أوامره إلى « هودن » بأن يلتف يساراً لمواجهة الجهة الجديدة التى أقامها « تيلي » ، وفى نفس الوقت جلب جوستاف لوائين من المشاة من المنتصف لتدعيم اليسار .

ولما كانت وحدات جوستاف الأصغر لديها قدرة على المناورة وخفة الحركة أكبر بكثير من المربعات الإمبراطورية ، لذلك فقد خسر تيلي ما ظنه فى لحظة مكسباً أكيداً .

وقد وصف مونزو^(١) كيف دار القتال : — « وقفت مجموعات العدو بثبات تنظر إلينا من مسافة قريبة ، وشاهدت لوائنا الآخر وهو يلتف ويتخذ مواجهته ضدهم ، واستعدوا في تصميم لأستقبالنا بقصفه من المدفعية والمسكيت . ولكن بتقدير ألهى أطلقت عليهم النيران مرتين قبل أن يعكروا صفوفنا . وأمطرهم جنودنا بوابل من نيران المسكيت والتي قوبلت بالرد بالمثل ، ولكن ذلك لم يستطع أن يوقف تقدم لوائنا داخل صفوفهم والتي كانت تتساقط تحت طعنات حملة المنخاس » .

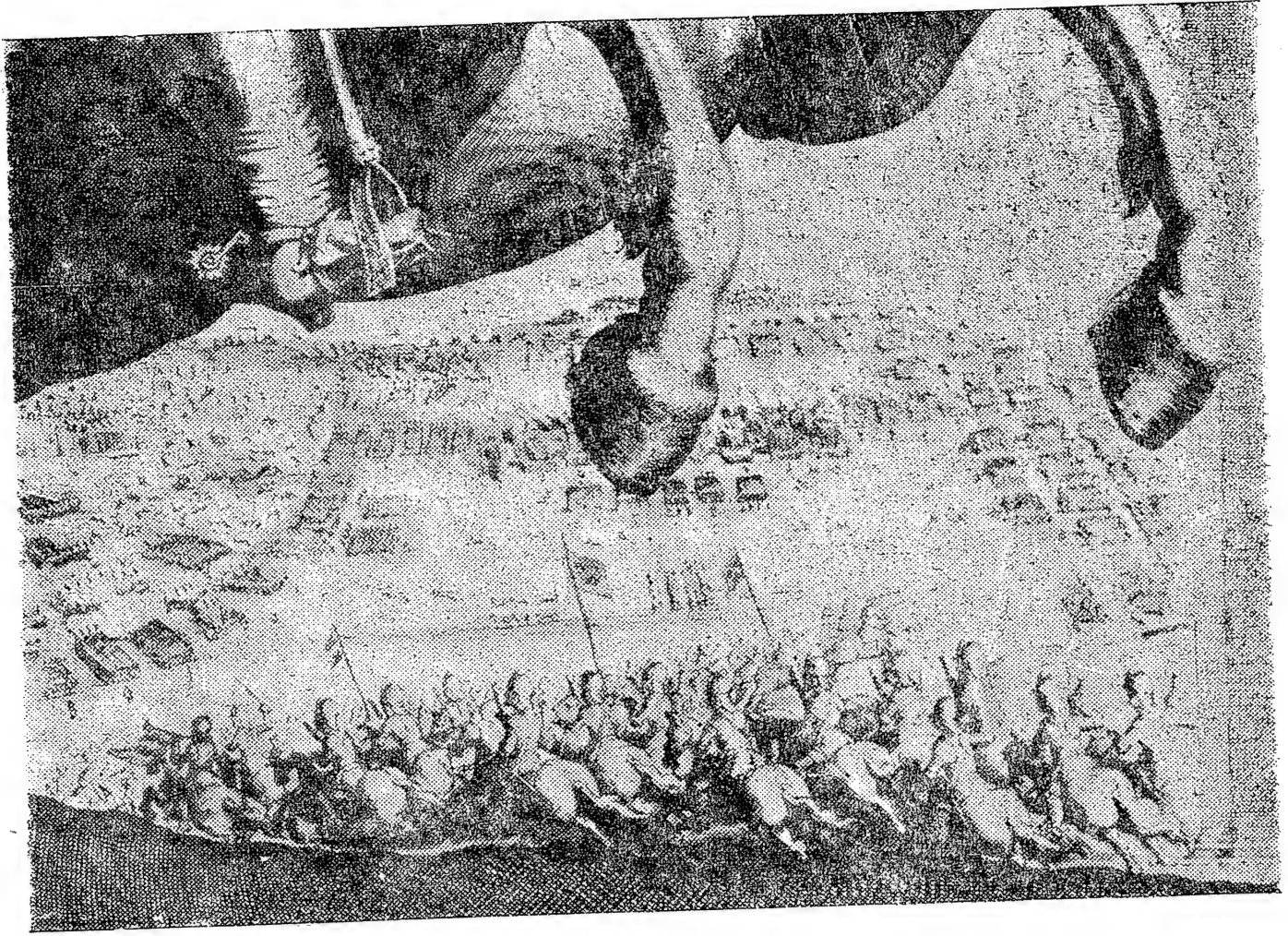
قتل جوستاف (أنظر اللوحة رقم ٢٤ ، ٢٦)

وكانت هذه أصعب وأقصى مرحلة في القتال ، وتأرجحت نتيجة المعركة حسب سيرها ، وقرر جوستاف المخاطرة بكل شيء وتوجيه ضربة حاسمة . فقد أصبح جناحه الأيمن آمناً الآن بعد هزيمة بابنهايم ، فعلى الفور جلب جوستاف من هذا الجناح ٤ آليات من الفرسان وقادهم بنفسه في هجوم عظيم في اتجاه أعلى المنحدر أى في اتجاه مدفعية العدو . واستخدم جوستاف المدفعية الإمبراطورية ثم أنطلق من خلالها حول اليسار الإمبراطوري . واستخدم «تورستنسن» المدفعية الإمبراطورية بعد أسرها ضد القوات الإمبراطورية وبالتالي صب عليهم نيراناً مركزة من اليمين ومن المدافع السويدية التي في المنتصف . وبينما كان يجري هذا أستمروا هجوم اليسار السويدي ضد منتصف « تيلي » . وقد أستمروا الحشد المتصق من المشاة الإمبراطورية تقاتل في شجاعة بالرغم من الهجوم عليها من المواجهة واليسار بالمدفعية والمشاة والفرسان السويدية ولكن في النهاية تحطم وهزم جيش « تيلي » . ولم يطاردهم السويديون طويلاً ، وقد بلغت الخسائر النهائية لجيش « تيلي » ١٣٠٠٠ جندي علاوة على فقدته كل مدفعية وقوافل أمتعته .

ولقد كانت معركة برينفيلد ذات مغزى سياسى كما كانت لها مغزى عسكرى أيضاً ، فقد أنقذت هذه المعركة شمال وغرب ألمانيا من السيطرة الهيسورية والكاثوليكية . ولم يتابع جوستاف نصره بالتقدم إلى فيينا عاصمة الإمبراطورية البعيدة حيث كان عليه أن يمر من خلال بلاد تحف بالمخاطر . وقام جوستاف بدلاً من ذلك بتعزيز موقفه بالقرب من وطنه وذلك بأحتلاله لمنطقة الراين وتمكن بالتالى من قطع الاتصال الأسبانى مع الأراضى الواطئة وكبح

(١) القائد الاسكتلندى لأحد الألوية السويدية التي جلبت من المنتصف لتدعيم اليسار

« العرب »



فرسان جوستاف تقوم بالهجوم في معركة بريتنفيلد

خطط ريشيليو . وما أن حل ربيع عام ١٦٣٢ حتى كان نبلى قد كون جيشاً جديداً وباغة جوستاف عند نهر ليش بجيش منظم تظليماً ذكياً ، وفي عبقرية حشد جوستاف قواته وأستطاع أن يستر عملية العبور للنهر . وفي المعركة التي تلت دمر جيش تيلي وقتل تيلي نفسه . وبعد ذلك تقدم جوستاف إلى جنوب نهر الدانوب . وقد دعر «فرديناند» وأستدعى « والنشتين» . وأستطاع والنشتين دفع السويديين إلى الخلف قرب مدينة ليزج . وهناك حقق جوستاف بالجيش السويدي نصره العظيم الثانى ، وذلك في معركة عند « لوتزن » والتي دارت بينه وبين جيش والنشتين في نوفمبر ١٦٣٢ . ولكن كان نصراً سلبياً نتيجة لقتل جوستاف في هذه المعركة . وقد قام جوستاف بأعمال كثيرة خلال مجرى حياته والتي بدأت في نفس عمر الأسكندر ولم تدم إلا وقتاً قصيراً ، ولكن أقل ما توصف بها هو أنها كانت مثيرة ومذهلة ومؤثرة .

جوستاف هو مؤسس التنظيم العسكري الحديث وبشكل خاص فيما يتعلق بنظام التجنيد والامداد وكذا التدريب الحربى الحديث . كما أنشأ التسلسل القيادى الكامل للضباط وأيضاً تعليمات الحركة . وقد يكون هناك آخرون من أصحاب العبقریات الإستراتيجية أو الوسائل التكتيكية الماهرة إلا أن جوستاف قد دخل التاريخ كأعظم صانع للجيش فى عصره .

فقد كان يشكل السلاح طبقاً لما يريده ثم يستخدمه فى المعركة بمنتهى الكفاءة كما رأينا . وكان جيشه بتشكيله الخطى المكون من وحدات صغيرة مسلحة بأسلحة مختلطة ، يعتبر أول جيش فى عصر الأسلحة النارية يجمع بين التأمين والهجوم الناجح ، أى يجمع بين القوة للحماية مع القدرة على الحركة وأيضاً القوة فى الضرب .

وقد سار تطور الجيوش الأوروبية الحديثة وبطريقة مباشرة مع أسلوب وتنظيم الجيش السويدي الذى خلقه جوستاف .

اغتيال والنشتين

وبالرغم من هزيمة « والنشتين » فى معركة لوتزن إلا أنه أصبح الآن أقوى رجل فى شمال أوروبا ، ويعتبر والنشتين شخصية غاية فى الإثارة ، فقد أستطاع كسب عطف الإمبراطور والحصول على لقب « دوق » ، بالرغم من أصله المتواضع بفضل علاقات غرامية سرية قوية ، وطموحه الضخم وموهبته الطبيعية فى أنتهاز الفرص . وفى أوائل الحرب عندما كانت الأمور يشوبها السوء بالنسبة لفرديناند ، عرض والنشتين عليه أن ينشأ ويجهز له وبدون تكاليف جيشاً من ٥٠٠٠٠ جندي ليكون فى خدمة فرديناند وفى وقت قليل أستطاع والنشتين جمع الجيش الذى وعد به من المرتزقة نتيجة لسمعته العسكرية الطيبة التى حصل عليها فى جنوب شرق أوروبا وأيضاً لمعرفة الناس بأنه اقطاعى كريم . وفى عام ١٦٢٧ تمكن والنشتين واقمياً من نزع سلاح البروتستانت فى شمال ألمانيا واكتسح البلاد حتى البلطيق .

وعندئذ رأى أن هناك احتمال دخول السويد الحرب ولم يسيء تقدير قوتها . وقد حاول بناء أسطول إمبراطورى فى البلطيق وهذا يدل على ما يتمتع به من بصيرة إستراتيجية متميزة . وكان هذا هو التهديد الذى واجه جوستاف عند نزوله فى ألمانيا بأسطوله الصغير فى

صيف عام ١٦٣٠ . وبالتالي لم يكن طرد فرديناند لوالنشتين في ذلك الوقت إلا « ضربة حظ » رائعة للسويديين .

وقد قبل والنشتين طرده بدون أى تبرم . وعاد إلى إدارة ممتلكاته وإدخال الحضارة إلى « مولدافيا » . وفي أثناء ذلك أرسل لفرديناند خطة ترمى إلى عقد تحالف مع الدانمرك لتوجيه ضربة من البحر إلى قاعدة جوستاف ، ولكن فرديناند رفض هذه الخطة . وظل والنشتين ينتظر الفرصة الملائمة . ومع حلول عام ١٦٣٢ كان فرديناند قد فقد كل ما كسبه والنشتين لصالح الأمبراطورية ، وعليه فقد أستدعاه فرديناند للخدمة . وللمرة الثانية أنشأ والنشتين جيشاً من ٤٠.٠٠٠ رجل على نفقته الخاصة ، ولكنه أصر في هذه المرة على أن تكون له القيادة العليا لجميع قوات الأمبراطورية أى حتى أعلى من الإمبراطور نفسه . وقد كانت حملة والنشتين في « لوتزن » عملية استراتيجية بارعة . ففي صيف ١٦٣٢ كان السويديون يحتلون « بافاريا » والساكسون يحتلون « بوهيميا » ولم يوجه والنشتين ضربة مباشرة إلى عدوه الرئيسى ولكنه ركز أولاً على تسديد ضربة للساكسون . وتمكن من طردهم من بوهيميا كما أجبر أميرها على الانضمام إلى الجانب الأمبراطورى . وبعد أن حرم والنشتين جوستاف من حليفه الرئيسى لم يهاجمه بل تحرك شمالاً مهدداً خطوط المواصلات السويدية فأجبر جوستاف على مغادرة بافاريا وفي أعقابها مكسميليان^(١) لتتبع والنشتين . وعند « نورمبرج » أخذ الجيشان مواقع دفاعية قوية في مواجهة بعضهما . حيث يسعى كل منهما إلى تجويع خصمه . حاول جوستاف الدخول في معركة مع والنشتين الذى رفض الاشتباك . وفي النهاية قام جوستاف بهجوم كثيف على مواقع العدو بالرغم من نقص الإمدادات القاتل . وصد هذا الهجوم وانسحب جوستاف تحت وطأة جوع قواته وقوة إرادة والنشتين .

وقد علق والنشتين على هذا الانسحاب بقوله : « لقد تثلثت قرون الملك (جوستاف) وفقدت حداثتها » . وتحرك جوستاف جنوباً إلى الدانوب ، ولكن تجددت المعركة بين الإرادتين ، ومرة أخرى كسبها والنشتين . وتحول والنشتين شمالاً وتقدم إلى ساكسونيا وبدأ أنه سيهدد خطوط مواصلات جوستاف على البلطيق . ونجحت الخطة وسحب

والنشتين مرة أخرى جوستاف من الأراضي الأمبراطورية . ولكن جوستاف عوض فشله بإجبار والنشتين على الدخول معه في معركة عند « لوتزن » في وقت كان لا يتوقعه والنشتين .

ومع حلول عام ١٦٣٣ أعاد والنشتين بناء جيشه معوضاً خسارته في « لوتزن » ، وبدأ وكأنه سيحصل على نصر مؤكّد للأمبراطورين . وهزم والنشتين السويديين عند « ستينو » وأصبح على وشك عزلهم تماماً عن البلطيق ، ولكن فرديناند أستدعاه في غضب لحماية الجنوب . وفي عام ١٦٣٤ طرد فرديناند والنشتين مرة ثانية خوفاً من أن تطغى شخصيته عليه بالإضافة إلى الغيرة لنجاحه والريبة في شخصيته التي تشبه الغز . ولم يمض بعدها وقتاً طويلاً حتى أغتيل والنشتين . وليس من السهل تقييم والنشتين ، فقد كان ضعيفاً في الناحية التكتيكية ، وبالرغم من أنه كان منظماً عسكرياً جيداً إلا أنه لم يكن بدرجة جوستاف . ولكنه كان إستراتيجياً قديراً للغاية ، وكان لديه هدفاً سياسياً واضحاً وهو الحصول على السلام الدائم .

وربما كان والنشتين أقل فائدة إذا درسناه كجندى عنه إذا ما درسناه كشخصية مغامرة وبدرجة ملفتة للنظر سواء في الناحية العسكرية أو السياسية . ولا شك أن الأمر كان يتطلب شخصية قوية تستطيع التفوق على دهاء جوستاف وحنكته وفي نفس الوقت لتجذب في سهولة آلاف من الرجال لتتبعه وتجعل الأمبراطور الروماني المقدس يقبل تعاقداً مهيناً . وقد استطاع والنشتين عمل كل هذا ، كما قال ريشيليو : — « إن مجرد وجوده وصرامته بالإضافة إلى صمته جعل الرجال يطيعونه » . وقد ذهب إلى الحرب لجمع المال ونجح في ذلك حتى أنه أصبح ملكاً من ملوك المال وزعيماً حزبياً قوياً ، وكان مثالي في تطبيق فكرة التسامح الديني علاوة على أنه سمى إلى توحيد ألمانيا .

وكان يعتقد أيضاً في نجمه وحسن طالعهِ ، وربما كان هذا الخط المنحرف الخيالي هو الذي دمره في النهاية .

نهاية حرب الثلاثين عاما

وربما إذا كان قد عاش والنشتين أو جوستاف كانا قد نهما الحرب بسرعة وبطريقة أو بأخرى .

ولكن لم يكن ريشيليو أو مازرين^(١) يستطيعا الوصول إلى هذه النهاية قبل أن تتمكن فرنسا من السيطرة على الضفة اليسرى لنهر الراين . وبعد موت والنشتين تأرجحت عجلة الحظ ، ولكن منذ ١٦٣٩ أستطاعت كل من فرنسا والسويد الحصول تدريجياً على الأفضلية على النمسا وأسبانيا . وبالرغم من أن فرنسا لم تشتبك في حرب منذ أيام هنري الرابع إلا أنها منذ عام ١٦٤٣ أصبح لها جيشاً عسرياً على يد « ليتيلير » وزير الحرب ، مسيراً الكفاءة التي تسير بها باقي خطوط الدولة .

إلا أن في عام ١٦٤٣ بدد دوق « كوندى »^(٢) ما تبقى من الهيبة الأسبانية العسكرية محققاً في نفس الوقت مكسباً استراتيجياً عظيماً وذلك بانتصاره عند « روكروا » بالقرب من « سيدان » في منطقة الأردن الغربية . وقد واصل الجنود الفرنسيين تحت قيادة « كوندية » في تعلم التكتيكات الجديدة في مجال كل من النيران والحركة . وتوفر لفرنسا قائداً ممتازاً آخر وهو « تورين » .

وقد أكملت قدرته كاستراتيجى بارع ، عبقرية كوندية التكتيكية . وظل الجيش السويدي أيضاً قوياً للغاية والذي يقوده « تورستغسن » والذي كسب نصراً هاماً عند « جانكاو » في عام ١٦٤٥ . وبعد مفاوضات طويلة ومعارك عديدة ، وضعت حرب الثلاثين عاما أوزارها بماهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨ .

وعندما تحقق السلام فيمكن أن يقال أن فرنسا هي التي خرجت من الحرب بنصيب الأسد ، فقد أصبحت حدودها ثابتة وتمتد على طول البرانس وجزء من الراين ، كما أصبح جيشها من أقوى جيوش أوروبا . وبرزت أيضاً كل من السويد وبراندبرج كقوتين كبيرتين . ومنذ ذلك الوقت وأصبح تاريخ ألمانيا السياسى والعسكرى هو تاريخ دويلاتها التقدمية .

(١) الذى خلف ريشيليو في عام ١٦٤٢ .

(٢) كان يعرف بدوق دانجيان وكان عمره ٢١ عاما « العرب »

وأصبح الأمبراطور الرومانى المقدس لا يسيطر عمليا إلا على النمسا . كما حول الهيسبورجيون اتبائهم فى السنوات التالية وبدرجة متزايدة نحو الشرق معوضين أنفسهم عما أصابهم من انهيار فى أوروبا الغربية وذلك على حساب الأمبراطورية العثمانية المتداعية .

وربما يكون أسوأ عاقبة لحرب الثلاثين عاما هو مصير أهل ألمانيا . فقد دارت على أرضها المعارك بين الجيوش الكبيرة المتعادية ، وكان النهب والتدمير لمدة ثلاثين عاما ضرورة إدارية ، فلم يكن لدى الجيوش القدرة الإدارية التى تستطيع بها بحجارة نوايا قادتها بالرغم من مجهودات جوستاف ووالدشتين . وحتى قبل أن تبدأ هذه الحرب تنبأ « هيو جويتوز » بهذا الموقف مسبقاً . وقد كتب كتابا قدم فيه مجموعة من القواعد والمبادئ التى تصلح لتكون إتفاقاً دولياً ، وكان الغرض منها تخفيف ويلات الحرب بعض الشيء . ولكن كان حتى حدود التصرفات التى اقترحها مرعبة إلى حد كبير . ومثال فقد قبل قتل أسرى الحرب والمدنيين . كما لاحظ أن الحياة الإنسانية قد اتخذت اتجاهها « بغيضاً ووحشياً وقصيراً » ولم تكن العاطفة الدينية ضرورية كعامل مؤثر إنسانى كما كان يأمل جوستاف . ولم يصلح أى عقاب روحى يمكن أن يسود فى مواجهة الضروريات السياسية والإدارية . ويمكن أن نصور فى حالة فردية فظائع هذه الحرب عندما أحرقت « مجدبورج » وبها ٣٠.٠٠٠ شخص حتى الموت . ولكن إذا جمعنا فظائع الحرب الثلاثين عاما لوجدناها أسوأ كثيراً من ذلك فقد مات ٨ مليون شخص فى ألمانيا ، بينما بقى فى بوهيميا حوالى ٦٠٠٠ قرية فقط من مجموع ٣٥.٠٠٠ قرية ، وقد قاست المناطق الغنية أكثر من المناطق الفقيرة . وحقيقة بقيت البروتستانتية الألمانية ، ولكن قاست الحضارة الألمانية فى نواحي أخرى بعمق بل وربما دمرت تماماً .

أما أنجلترا ، فلحسن الحظ ، بقيت بقدر الأماكن بمنأى عن حرب الثلاثين عاماً . . . ولكن فى أغسطس ١٦٤٢ بدأت فيها الحرب الأهلية . فكان يوجد خلاف قديم بين الملك شارل الأول وبين بعض القطاعات المينة من الأثرياء والبارزين من رعاياه . ومنها مجموعات البيروتية^(١) والبرلمانيين^(٢) . وقد تطور الأمر وظهر لشارل أن معظم مؤيديه من

(١) كانوا يطالبون بحرية العقيدة وبأن تصبح كنيسة الدولة أقل كاثوليكية فى ميولها .

(٢) كانوا يطالبون بحريات عامة أكثر وبطريقة حكم أكثر كفاءة من حكم شارل

المناطق البعيدة عن لندن ، أما مؤيدوا الثورة الكبرى فكان معظمهم في المراكز الصناعية والموانئ وخاصة لندن . ولم ينحاز غالبية الشعب الإنجليزي إلى أى الطرفين مقدماً . واعتبر كلا الجانبين أن السيطرة على لندن هي مفتاح النصر . وفي مستهل الحرب لم يتمكن أى منهما من تكوين أكثر من حفنة من القوات ذات النوعية الجيدة . وتوفر للبرلمانيين ميزة في مواردهم المالية والتي استمرت طوال الصراع ، أما الملكيين فكانت لهم ميزة كبيرة في وجود فرسان يقودها « روبرت » أمير الراين ، ولكن سرعان ما ضاعت هذه الميزة لإرتفاع مكانة « أوليفر كرومويل » .

عاهرة بابل الصغيرة (انظر اللوحة رقم ٢٧)

وكان كرومويل من ملاك الأرض في شرق إنجلترا .



وفي عام ١٦٤٢ كان عمره ٤٣ سنة وبالرغم من ذلك لم يشغل منصباً قيادياً في البرلمان أو حتى لديه خبرة عسكرية سابقة . وكان كرومويل يروتانيا نشيطاً ، حاد المزاج لا يتردد في أبداء رأيه بصراحة وبشكل مباشر . وقد انضم إلى جانب البرلمانين كقائداً للفرسان . وحضر القتال عند « أدجهيل »

كرومويل

في أكتوبر ١٦٤٢ . وأدت تجربته في هذه المعركة

الدموية ذات التخطيط الأحمق إلى سخطه مع الإستغراق في تفكير عميق . وقد رأى كرومويل ضرورة إنشاء البرلمان قوة من الفرسان لتكون قادرة على هزيمة فرسان الملك .

وكان روبرت يسير على نهج جوستاف في إحلال هجوم الفرسان بالسيف كالسلاح الرئيسي محل مناورة الفرسان المسلحة بالمسدسات والمعروفة باسم « النصف دورة » كما كان روبرت نفسه قائداً ممتازاً وشجاعاً ، عنيداً جامعاً . وقد عرف بمعطفه القرمزي الكثير لزعزعة وجواده الأسود وقرده المدلل والذي سماه البيروتانيون « عاهرة بابل الصغيرة » .

ونتيجة لتفكير كرومويل أنشأ في شتاء عامي ١٦٤٢ ، ١٦٤٣ في شرق إنجلترا آلايا من الفرسان . وقد أختار كرومويل أفراد هذا الآلاي بعناية فائقة فكان يقول : « لن يصلح لجنود هذا الآلاي الفاسدون والسكران ولا من يطلق عليهم أسم الجنتلان » وكان مبدأه يتضمن : — « قليل من الرجال المخلصين أفضل من مجرد الأعداد الكبيرة ومن الأفضل أن يرتدى القائد معطف بسيط غير مزخرف في نفس الوقت يعرف ويؤمن بالهدف الذي يقاتل من أجله ، ويكرس حبه وإخلاصه لكل ما يتعلمه » .

وكان الدين أساس الضبط والربط ، أما التدريب فكان صارماً وقاسياً . وسلحت رجاله بالسيف والقرينة^(١) وزوج من المسدسات ، وكانوا مدربين على كيفية استخدام هذه الأسلحة بمهارة باهرة ، أما دروعهم الوقائية فكانت عبارة عن لوحة معدنية للصدر وأخرى للظهر وخوذة ومعطف من جلد الجاموس ، وكانت تدفع لهم الأجور بانتظام . كما حوفظ على الضبط والربط وفي صرامة متناهية ، وكانت عقوبة النهب قاسية . وفي مايو ١٦٤٣ دخل الآلاي أولى تجاربه في صدام دام مع الجيش الملكي عند جرانتم . وقد عبر عنها كرومويل بقوله : —

« هبطنا عليهم مندفعين ، بينما وقفوا بصلابة لأستقبالنا ، ولكن رجالنا أنقضوا عليهم بعنف وقد هزمناهم على الفور بفضل ما حالفنا من العناية الإلهية » .

وبمدها كتب كرومويل إلى صديق يقول له : — « إن لدى صحبة محبة لنفسى من المسيحيين المخلصين التزنين وهم بحق جنود ممتازين » .

وفي إحدى المرات ذكر لى السير ونستون تشرشل بأننى شخصية كرومولية لأننى على حد قوله : —

« أننى أسعى دائماً إلى شيئين . . . تمجيد الله . . . واستخدام الذخيرة » .

أما الإختبار الحقيقي لفرسان كرومويل « فو الأجناب الحديدية » (وقد سماوا بهذا الإسم في يولية عام ١٦٤٤) عند « مارستون مور » ، ولم تكد المعركة تبدأ حتى اكتسح روبرت بهجومه ثلاثة أرباع جيش كرومويل وأطاح بهم خارج ميدان القتال ، وقام بمطاردتهم

لمسافة كبيرة ، أما ربع الجيش البرلماني الذي ثبت كان من ضمنه الآلاى الذى شكله كرومويل وتقدم هذا الآلاى ليهاجم والركبة فى الركبة وبسرعة مناسبة وليس فى اندفاع متهور بينما لم يمسك الصف الأمامى بذيرانه إلا فى اللحظات الأخيرة ، وفى هذه اللحظة أنقض الآلاى على جناح المشاة الملكية محطماً إياه بعد قتال ضارى طويل . وإذا كان روبرت هو الذى أدخل تكتيكات الفرسان السويدية إلى إنجلترا ، فكرومويل هو الذى استطاع وضعها فى أفضل استخدام .

والآن فقد ذاعت شهرة كرومويل سواء كمدرّب أو كقائد للفرسان ، بينما حالت المكائد ومظاهر التردد من أن يستغل البرلمانيون النصر عند «مارستون مور» حتى نهاية الحرب . ولكن فى الشتاء التالى استطاع كرومويل إقناع البرلمان باصلاح الجيش . وأصبح «فيرفاكس» وليس كرومويل ، قائداً للجيش النظامى الجديد ، الذى شكل على غرار النظام الذى وضعه كرومويل فى شرق إنجلترا .

وفى ذلك الجيش الجديد تكونت الفرسان من ١١ آلاى وضم كل آلاى ٦٠٠ فارس مسلح ومدرّب ومجهز على نفس طريقة «الأجناب الحديدية» فيما عدا القربينة التى نبذ استخدامها بشكل عام . وكان هناك آلاى واحد من الدراجون وقوتهم ١٠٠٠ مقاتل ومسلحين بالمسكيت والسيف ، واستخدموا الخيل للانتقال أو لأعمال المناوشة ، ولكن كانوا يقاتلون عادة وهم مترجلين .

أما قوات المشاة فتكونت من ١٢ آلاى ، وبلغت قوة كل آلاى أكثر من ١٠٠٠ رجل ، وكانت نسبة حملة المسكيت^(١) إلى حملة المنخاس فى الآلاى نسبة ١:٢ . وقد أستبدل الفتيل كطريقة للأشغال بالزناد الدولابى الدوار الذى يشتعل باحتكاك حجر الصوان بلوحة معدنية الأمر الذى ينتج لهباً . وأصبح هذا السلاح أكثر شيوعاً لرخصه وأمنه وضمانه . ووصل مدى المسكيت إلى ٤٠٠ ياردة ولكنها إستخدمت فى المعركة على مسافات أقصر من ذلك . وفى الجيش الجديد لم يرتد حملة المسكيت أى دروع للوقاية بل أرتدوا معاطف حمراء



وأصبح الزى الرسمي حتى نهاية القرن ١٩ . ونبت استخدام الخوذة المعدنية وحل محلها قبعة من اللباد عريضة الحافة .

وأصبح حملة المنخاس مسئولين عن الدفاع عن حملة المسكيت وكانوا يستخدمون منخاسا طوله ١٦ قدماً وذو رأس على شكل معين، وتزودوا أيضاً بسيوف ودروع وقائية ثقيلة . وكان يقاتل مشاة « الجيش الجديد » في تشكيل خطى بعمق ٦ صفوف . أما بالنسبة لتنظيم المدفعية فكان هناك أربع فئات لمدافع الميدان ، وتتراوح هذه الفئات من « الكولفيرن » والذي يقذف كرة زنتها ١٨ رطلاً لمدى يصل إلى ٢٠٠٠ خطوة بواقع مرة في كل ستة دقائق إلى « الدريك » والذي كان زنة كرة القذوف ٣ أرطال بواقع مرة في كل أربع دقائق . ومن الأرجح أن مدفعية الميدان الإنجليزية كانت أقل في خفة الحركة ولكن أكثر دقة من مثيلتها السويدية . وقد تم تشكيل وحدات لديها معدات قوية للحصار . وكان طاقم المدفع يتكون من المدفعجي و ٢ مساعدين يتولون أمر البارود والقذيفة .

الملك الهازم لنفسه (أنظر اللوحة رقم ٢٧)

كانت سلطة القائد العام في الجيش البرلماني مطلقة ، كما كان الترقى للضباط بالأقدمية بينما يرفت غير الصالحين منهم وبدون رحمة . وكانت هذه الفترة هي الوحيدة من نوعها في الجيش البريطاني لما قبل نهاية القرن ١٩ حيث كان من الممكن أن يترقى رجل ممتاز ومن أصل متواضع إلى رتبة الضباط . وكان التطوع هو أساس نظام التجنيد بشكل عام . وكان المسئول عن التدريب « سكيبون » ، بينما احتفظ الضبط والربط بطابعه الديني ، وكان منصب « رئيس إستطلاع الجيش » أو « مدير المخابرات » من المناصب الكبيرة في الجيش ، كما اعتبرت الإدارة الحكيمة من الأهمية بمكان وفي المرتبة الأولى . فقد أصبح وليام كلارك والذي بدأ كسكرتير للجنرال مونك ، سكرتيراً لشئون الحرب^(١) حتى بعد عودة الملك إلى عرشه نتيجة لعدم إمكان الاستغناء عنه في توجيه إدارة الجيش .

وفي يونيو عام ١٦٤٥ تمكن الجيش الجديد من هزيمة الملكيين عند « نسي » ، وكان أسلوب المعركة تكراراً لما حدث في « مارستون مور » . ففي أول الأمر إكتسح روبرت

الميدان ولكن كرومويل صمد في موقعه لما كان يجيش في نفسه من حماس ديني ، ثم هاجم في اللحظة المناسبة محتفظاً بسيطرته على جنوده حتى النهاية . .

ونخرج من «مارستون مور» و «نسي» بأن كرومويل قائد ممتاز للفرسان . ويرجع ظهوره كقائد ناجح إلى الفترة التي تلت هزيمة شارل الأول ، أي في الفترة التي استمر فيها القتال ضد الإسكتلنديين والملكيين وكان فيها كرومويل قائداً عاماً .

وفي عام ١٦٤٨ عند «برستون» أستطاع كرومويل أن يهزم عدواً أكبر عدداً ولكنه غير مستعد وتقوده قيادة هزيلة . وإذا كانت هناك مظاهر جديرة بالملاحظة في هذه المعركة ، فهي مظاهر حدثت قبل المعركة وبعدها . فقبل المعركة قطع كرومويل ٢٥٠ ميلاً خلال أرض صعبة وطقس سيء في ٢٦ يوماً بغرض مفاجأة العدو قبل أن ينظم صفوفه . وبعد أن هزم كرومويل عدوه قام بمطاردته بدون هوادة حتى يتأكد أنهم لن يستطيعوا إعادة تنظيم أنفسهم كجيش مقاتل مرة أخرى .

وفي عام ١٦٥٠ عند «دنبار» فاجأ العدو كرومويل وهو في موقف لا يحسد عليه ، فقد حاصره قوات العدو بقيادة قائد قدير هو «ليسلي» في وادي يطوقه البحر وكانت قوات «ليسلي» تفوق جيش كرومويل بنسبة ٢ : ١ . وبدأ الضعف يتسلل إلى معنويات رجال كرومويل تحت وطأة الطقس الرديء والتكتيكات الفايبة^(١) ، ولكن كان ليسلي مشاكلاً هو أيضاً ممثلة في الطقس وعقول رجال الكنيسة الغير عسكرية والذين ألحوا عليه طوال الوقت بالهبوط ومهاجمة كرومويل . ورضخ ليسلي لرغبتهم وترك موقعه أعلى التل وتحرك بجيشه إلى أسفل منتشراً على شكل قوس يمتد ٣ ميل من سفح التل إلى البحر . وهنا أدرك كرومويل أن هذا التحول من جانب ليسلي قد أعطاه الفرصة لكي يهاجم ويشق طريقه قتالاً إلى خارج الوادي .

وأصبح الجيش الأسكتلندي هدفاً معرضاً وممتداً بدون نظام ، وهذا ساعد الجيش الإنجليزي المنظم والأكثر إحكاماً على مفاجأة جناح العدو الأيمن الأقرب إلى البحر بالهجوم ثم الدوران بعدها إلى الداخل موجهاً ضربته إلى المنتصف . وكانت هذه هي خطة كرومويل .

(١) التكتيكات التي تتجنب الاشتباك بقدر الأمكان . «المعرب»

وقد أمضى الجيش الأسكتلندى الذى لم يتوقع حدوث أى شىء فى ليلة عاصفة ، فاطمأن ولم يستعد للمعركة .

وعند الفجر انقضت عليهم مقدمة^(١) الجيش الإنجليزى ولمدة دقيقة أو دقيقتين لم يكن بمقدور الأسكتلنديون حتى الرد على النيران الإنجليزية نتيجة لعدم اشتعال فتائل بنادقهم وتبع هذه الفترة قتالا عنيفاً وصدت أول موجتين للمشاة الإنجليزية ، وعندئذ دفع كرومويل باحتياطيه إلى ميدان المعركة ، وقد وصلوا فى الوقت المناسب لحسم المعركة . وعلق شاهد عيان قائلاً : — « لم أشهد قط هجوماً رهيباً للمشاة مثلما رأيت » . ثم هاجمت الفرسان الإنجليزية وأصبح الأسكتلنديون كما وصفهم كرومويل : — « لقد جعلهم رب الجنود كالجدامة^(٢) أمام سيوفهم » . وانتهت المعركة فى غضون الساعة ، وقتل ٣٠٠٠ اسكتلندى بينما أسر ١٠٠٠٠ آخرين ، واستولى الإنجليز على ١٥٠٠٠ قطعة سلاح وجدت فى أرض المعركة .

وقد تم هذا النصر نتيجة لعملية المفاجأة التى حسبت بعقريّة ، فقد كان انتصاراً

للاّ عصاب الأقوى والضبط والربط الأعلى .

وربما يكون من أعظم مآثر كرومويل العسكرية والتى لفتت الأنظار ، تلك الإستراتيجية التى قادت إلى معركة « وركستر » عام ١٦٥١ .

فى يونيه من ذلك العام عثر كرومويل على ليسلى ومعه قوة كبيرة من الأسكتلنديين المتمركزين بقوة فى التلال الواقعة جنوب « ستيرلنج » وكان كرومويل تواقاً لاستدراجه للقتال ، فعلى الفور لم يهاجم كرومويل قاعدته وعبر خليج « فيرث » مهدداً بذلك مواصلات ليسلى مع الشمال . وأصبح ليسلى يواجه الآن أحد أمرين : إما القتال فى موقعه الضعيف الآن عند ستيرلنج أو التحرك جنوباً . وسقط ليسلى فى الشرك المنسوب له وغزا إنجلترا . وقد قدر كرومويل أن الجيش الملكى الأسكتلندى لن يجمع امدادات كثيرة لما سيلقاه من تأييد شعبي ضعيف ، بينما سيستطيع كرومويل جمع قوات احتياطية وإمدادات كثيرة من إنجلترا .

(١) كانت مشكلة من ٦ آلاى من الفرسان و ٣ آلاى من المشاة .

(٢) الجدامة ما تبقى من الزرع بعد الحصاد . « المغرب »

وتقدم الملكيون حتى «وركستر» وبدأت قواتهم تتضاءل تدريجياً حتى وصل مجموعها إلى ١٢٠٠٠ رجل فقط ، أما كرومويل الذى تحرك جنوباً ثم اتخذ مساراً أكثر ميلاً نحو الشرق فى اتجاه «وركستر» وأخذ يجمع قوات كثيرة من مختلف الجهات أثناء تقدمه .

وقام «لمبرت» و «هاريون» ومعهما ١٢٠٠٠ رجل بهجمات متكررة على مؤخرة الملكيين حتى أنهمكهم ، بينما قام «فليتوود» بسد الطريق إلى لندن فى مواجهتهم . وأخيراً سقط الملكيون فى الفخ عندما وصل كرومويل إلى «إيفشام» والتي تقع على بعد عدة أميال من «وركستر» حيث استطاع فى نهاية أغسطس أن يشكل جيشاً قوامه ٢٨٠٠٠ رجل . ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى نشبت المعركة ، وكم كانت معركة قاسية ولكن نتيجتها كانت محتومة . وقد أنهت معركة «وركستر» المقاومة الملكية المسلحة . وأصبح كرومويل من هذا الوقت حتى أموته عام ١٦٥٨ حاكماً على إنجلترا . وخلال حكمه ، فقد تحول نجاحه السياسى تحولاً غير عادى ليصبح هازماً لنفسه ، لأنه بينما كان يتطلع لإعطاء بلاده حكماً دستوريا مقبولا ، فقد ظل الجيش هو السند الوحيد لقوته . وكان هذا مشكلة أجهدته فلم يستطع إرضاء أى من العسكريين أو المدنيين ، وتحولت شجاعته ومهارته العسكرية لتصبح تردداً وعنفاً سياسياً . وشعوره المطلق بصلاحيته ورغبته المتقدمة فى عمل الصواب خدمته كرجل عسكرى ، ولكن خانه هذا الشعور وتلك الرغبة الآن .

ومن المحزن أن كرومويل سوف يذكر أكثر لدكتاتوريته السيئة الحظ عن تذكركه لمثاليته وشجاعته وعبقريته كمدرب وكقائد للفرسان وكاستراتيجى . ولكن هناك ظاهرة واحدة من أعماله برهنت على فاعليتها وقدرتها على البقاء ألا وهى تطوير القوة البحرية وإنشاء الإمبراطورية .

سيادة البحار

فى النصف الأول من القرن ١٧ ، كان الشعب الهولندى هو أمهر الشعوب فى فن البحر ، ذلك الشعب الذى استطاع استغلال موقعه الجغرافى الممتاز وزرعته الوطنية للتجارة ولأعمال البحر ، ووصل فى عام ١٦٥٠ إلى ذروة الثراء نتيجة لسيطرته سيطرة فعلية على النقل

البحري الليرلي وعلى مستعمرات في أجزاء كثيرة من العالم . وعلى أي حال فقد بنى الشعب الهولندي نجاحه في الفترة التي انشغلت فيها إنجلترا وفرنسا في كبح قوة أسبانيا مما عاد بالكسب على هولندا . ولكن عندما تلاشى التهديد الأسباني وجدت هولندا نفسها تواجه شبح المافسة من عدة دول على رأسها إنجلترا .

ومن الناحية الاستراتيجية كان لإنجلترا موقعا لا يبارى إذا سارت في سياسة بحرية طموحة .

أما فرنسا فكان عليها أن تركز قبل كل شيء على المشا كل في داخل أوروبا وحماية حدودها .

أما إيطاليا فكانت لا تزال تجوب مياه البحر بسفن القوادم . وكانت هولندا دولة صغيرة ، ومفكرة إلى حد ما ويجب عليها أن تتحد وتحمي حدودها البرية .

أما إنجلترا فكانت عبارة عن جزيرة ذات موقع ممتاز ، فهي تستطيع من موقعها خارج ساحل أوروبا أن تراقب خصومها في الشمال كما يمكنها من موقعها الداخلي اعتراض أساطيلهم . وتوفر أيضا لإنجلترا موانئ جيدة وسواحل آمنة بالرغم من أنها كانت محتاجة للدفاع عنها .

وقد بدأ التحدي الإنجليزي لهولندا في عهد شارل الأول الذي كون أساطيله من ضريبة السفن^(١) الشهيرة وذلك في الثلاثينيات من القرن ١٧ .

وبعد فترة الإنشغال نتيجة للحرب الأهلية جدد كرومويل السياسية البحرية الهجومية يؤيده في ذلك رأى عام تجارى . وقد كانت النقطة الرئيسية في النزاع مع هولندا هي الميول الاحتكارية ومشكلة حقوق الصيد في بحر الشمال . وأوجدت المصادمات العرضية على خلق شعور عنيف بالعداوة والتعصب .

وفيما بين عامي ١٦٥٠ ، ١٦٥٢ أقر الإنجليز ثلاثة قوانين بحرية تهدف إلى اقضاء

(١) ضريبة تفرض على المرافئ وغيرها لتمييز الأسطول الوطني .

هولندا من إحتكار النقل البحري . وقد خشي الإنجليز أن ترد هولندا على هذا بالانتقام وقطع وصول أخشاب بناء السفن من الباطيق، ولذا فتح كرومويل استيراد الخشب من أمريكا الشمالية ، كما أرسل حملة للاستيلاء على جاميكا . وفي نفس الوقت عمل برنامج ضخيم لبناء السفن ، وفي عام ١٦٥٢ كان قد أضيف ٣٠ سفينة قتال جديدة إلى الأسطول الإنجليزى المتكون من ٣١ سفينة والذي ورثه كرومويل من شارل الأول . وفي تلك الفترة تطور تصميم السفن الحربية من غليون الأرمادا ، وأصبح الاختلاف الرئيسى للسفن الحربية فى عهد شارل الأول فى الحجم فقط .

وقد صنعت آنذاك أول سفينة إنجليزية من ثلاثة أسطح وتحمل ١٠٢ مدفع أى تزيد ثلاث مرات تقريباً عن عدد مدافع سفينة دريك . ولكن سرعان ما تبين أن هذا النوع والذي سمي « سيدة البحار » به من المدافع ما يفوق حجمه لذا كان إبحاره سيئاً . وفي فترة الخمسينيات بنيت سفن أصغر وكانت تحمل ما بين ٣٠ — ٦٠ مدفعاً . ولكن عادت السفينة ذات الأسطح الثلاثية مرة أخرى إلى الوجود .

وفي الفترة ما بين ١٦٦٠ — ١٦٧٠ بنيت ٩ سفن كان حمولتها أكثر من ١٠٠٠ طن . أما هولندا فلم تستطع بناء سفن ذات حمولات كبيرة لضحالة مياه سواحلها وبالتالي لم يكن لديها سفن ذات الأسطح الثلاثية ، ولم يكن فى إمكان سفنها حمل أكثر من ٨٠ — ٩٠ مدفعاً على الأكثر ، وكانت هذه السفن أقل كفاءة عند الإبحار ضد اتجاه الرياح . ولكن هولندا طورت منذ القرن ١٦ الشراع والصارى بدرجة كبيرة ، فقد كبرت منطقة الشراع مع إضافة شراع ثانى مزينى^(١) وأيضاً شراعاً مثبتاً فى كل من مقدمة ومؤخرة السفينه . ولم يطرأ على هذه الأشرعة إلا القليل حتى معركة الطرف الأغر .

وفي عام ١٦٧٠ وصلت المدافع إلى الشكل الذى ظل محتفظة به لحوالى ٢٠٠ سنة بدون

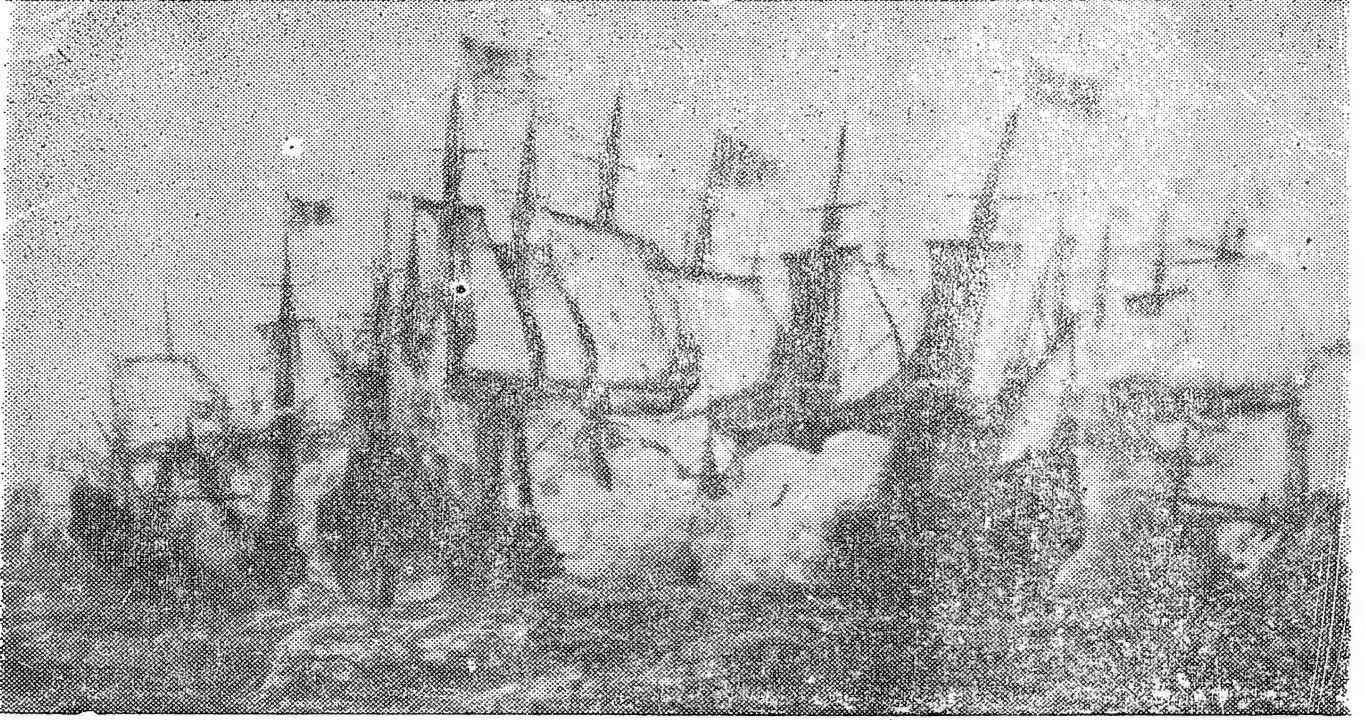
تغيير . وأصبح المدفع يسبك كقطعة واحدة وبماسورة ذات تجويف أملس ، أما السطح الخارجى للماسورة فتناقص عرضه تدريجياً من الترابس حتى فم الماسورة ، ومحور ارتكاز المدفع كان مثبتاً فى جسم الماسورة ويوضع كراسى تحميل فى عربة المدفع . وأصبح رفع وخفض المدفع يتم برفع الماسورة إلى أعلى بواسطة مسامير ضخمة ثم بعد ذلك بإيلاج أوتاد خشبية معاملة فى درجات أسفل الماسورة . وكان المدفع يوجه يميناً ويساراً بواسطة تحريك العربة بالكامل حركة دائرية .

والآن أصبحت المنافسة بين الإنجليز والهولنديين صريحة وعنيفة ، وفى عام ١٦٥٢ نشبت الحرب ، وعبء كل منهما أسطولاً من حوالى ٨ سفينة ، وكانت سفن الأسطول الإنجليزى أفضل فى التسليح والنوع ، أما السفن الهولندية ذات الغاطس القليل أستطاعت استخدام الملاحىء ذات المياه الضحلة فى المانش كأوى لها ، وكان الأدميرالان الهولنديان «مارتين ترومب» «وميشيل دى ريتير» يعتبراً كفاء قادة البحر فى العالم . فكان «ترومب» قائداً بارعاً سريعاً هادئاً التفكير بينما كان «ريتير» رياضياً ورساماً للخرائط وداهية واسع الحيلة . وكان ضباط الجانب الهولندى قباطنة تجاريين لديهم خبرة كبيرة ، بينما كان الضباط الكبار فى الأسطول الإنجليزى فى الأصل جنوداً ومقاتلين جيدين ولكن لم تكن لديهم أى خبرة بالبحر .

وكان القائد الإنجليزى عقيداً فى المدفعية اسمه «روبرت بلاك» وانخرط فى الحرب البحرية وعمره ٥٠ عاماً .

أما غرض إنجلترا من الحرب ، فقد عبر عنه ببساطة «جون مونك» قائلاً : -- «إن ما تريده هو أكثر من مجرد التجارة التى يتطلع إليها الهولنديين» . وأصبحت استراتيجية إنجلترا بالتالى هى الحصول على السيطرة البحرية فى مياه المانش الإنجليزى ، وحماية قوافلها التجارية فى هذه المياه .

وكان على الهولنديين تسديد ضربة لهذا التحدى الإنجليزى ، ولذلك سعى كلا الجانبين لتدمير أسطول الآخر فى المعركة .



معركة بورتلاند بين الأسطولين الإنجليزي والهولندي

منفذ البحرية

ومن الناحية التكتيكية استخدم الإنجليز تشكيلات الخط المتقدم ، ولكن الخبرة والنظام لم يتوافرا بشكل كاف لتحقيق هذا التشكيل ، ولذا من الناحية العملية قاتلت السفن الإنجليزية في مجموعات محشودة تعتمد كل منها على مؤازرة الأخرى وتسعى إلى عزل مجموعات العدو وقصفها ثم إعتلائها . وكان الطرفان يدركان ميزة الإبحار مع اتجاه الرياح خلال المعركة وكان الهولنديون أفضل في استغلال هذه الميزة لكونهم ملاحين أفضل من الإنجليز .

واستغل الهولنديون ميزتهم ووجهوا قذائف مدافعهم إلى أعلى بغرض تدمير صواري وأشرعة العدو حتى يصبح من المستحيل عليه الهرب في عكس اتجاه الرياح . ونجحت هذه التكتيكات الهولندية في المعارك الأولى .

وعلى سبيل المثال في نوفمبر ١٦٥٢ استقطاع « ترومب » ومعه أسطول متفوق من هزيمة « بلاك » أمام مياه « دنجينس » .

وبعد هذه المعركة علق « ترومب » مكنسة في أعلى صاري سفينته دلالة على أنه كمنس

ونظف البحار من عدوه . ولكن في فبراير عام ١٦٥٣ أنقلب الوضع بانتصار « بلاك » أمام مياه « بورتلاند » . وفي هذه المعركة كان « ترومب » يحرس أسطولاً تجارياً بـ ٧٥ سفينة قتال عندما أعترضه « بلاك » ومعه ٥٥ سفينة قتال . وفي الحقيقة كان الإنجليز أقل عدداً ولكن سفنهم الحربية أفضل كما لم تكن معهم قافلة تجارية تعوق تحركاتهم . ودار قتال متواصل بين « جريسنيز » و « بورتلاند » وكان القتال في اليوم الأول غير حاسم نظراً لأن الأسطول الإنجليزي كان لا يزال متفرقاً . ولكن في صباح اليوم التالي تجمع الأسطول الإنجليزي وفي نفس الوقت بدأ البارود في التناقص لدى الهولنديين . وخاض « ترومب » عملية إنسحاب رائعة ، قامت فيها سفنه بالقتال في معركة مؤخرة عنيدة إلى أن نفذت الذخيرة وتحولت عملية الإنسحاب إلى هزيمة منكرة . ولكن « ترومب » نتيجة لمهارته الملاحية العالية تفادى الكارثة الكاملة لقواته ، فقد استطاع التخلص من المعركة في النهاية بعد أن خسر ١١ سفينة قتال و ٣٠ سفينة تجارية . ومنذ ذلك الوقت أصبح الإنجليز أكثر مراناً على تكتيكات الخط المتقدم . وقد أجبر انتصارات آخران للإنجليز وموت « ترومب » أن تتفاوض هولندا من أجل السلام في أوائل عام ١٦٥٤ . وأدرك الإنجليز الآن أن الحرب البحرية تتطلب إدارة حديثة وسفنًا ملائمة وبحارة محنكة ، وتطلب هذا في الواقع إشراف الدولة على الأسطول . وسار برنامج بناء السفن بخطى واسعة للامام ، ومع حلول عام ١٦٦٠ كان الأسطول الإنجليزي يتكون من ٢٣٠ سفينة قتال . كما أصبحت الدولة هي التي تعين القادة وتوفر ما كن بناء السفن وتجهيزها وترميمها ، كما أصبحت الدولة مسئولة عن أعالة الأسطول وتجنيد أفرادها . وكان التجنيد يتم أساساً بواسطة كنييسة التجنيد^(١) .

وأدخلت الدولة التحسينات على أحوال البحارة من رعاية صحية للعرضي والجرحى والعجزة منهم كما منح البحارة رواتب شهرية .

وفي عام ١٦٦٠ أصبح شارل الثاني ملكاً على إنجلترا واستمر في إتباع سياسة كروموويل البحرية وقد أعطى الأسطول لقب « البحرية الملكية » . وفي عام ١٦٧٣ أصبح « سمبول بيز »

(١) كنييسة يقودها ضابط مكلفة بإكرام الأفراد على الانتماء للجيش أو الأسطول .

سكرتيراً لمكتب البحرية^(١) والمسيطر على إدارتها ، فقام بأدخال إصلاحات هامه تضمنت إختبارات للضباط وتحديد حد أدنى لمدة خدمتهم .

واضحاً بذلك قواعد الخدمة الدائمة للضباط البحريين المحترفين . وقد أطلق عليه مؤرخ حياة « صمويل بينز » « السير آرثر برنيانت » لقب « منقذ البحرية » .

ومرة أخرى عام ١٦٦٥ دخلت إنجلترا الحرب مع هولندا ، ولم تتغير الإستراتيجية في هذه الحرب عما كانت عليه في الحرب السابقة (١٦٥٢ — ١٦٥٤) وكان القائدان الإنجليزيان هما « جيمس » دوق يورك شقيق الملك و « جورج مونك » وهومن العسكريين . أما الأسطول الهولندى فكان يقوده « دى ريتير » . وفي عام ١٦٦٧ قام « دى ريتير » بعملية رائعة إذ أبحر في مياه نهر التايمز حيث أستولى ودمر أفضل قطع الأسطول الإنجليزى الذى أصابه الشلل .

وبعدها ، جاءت معاهدة « بريدا » ولكنهما لم ترضى الإنجليز بالرغم من تخلى هولندا عن إقليم « نيو أمستردام »^(٢) وأعطاء إنجلترا كل ساحل أمريكا الشمالية المطل على الأطلنطى . وإندلعت الحرب الثالثة الإنجليزية الهولندية في الفترة ما بين ١٦٧٢ — ١٦٧٤ ، وفي هذه الحرب تحالفت فرنسا مع إنجلترا . وبعد أربع معارك بحرية ضارية فضلت إنجلترا السلام ، ولكن القتال استمر بين هولندا وفرنسا من عام ١٦٧٤ حتى عام ١٦٧٨ . وخلال فترة الحياد بالنسبة لإنجلترا أستطاعت إنجلترا أن تتخطى هولندا وتسبقها في القوة البحرية والتجارية .

ولكن أصبح على إنجلترا الآن أن تواجه فرنسا وسوف نرى في الفصول التالية باقى المسيرة .

(١) وزير الحربية .

(٢) لقد أعيد تسميته إلى نيويورك على اسم الأدميرال الإنجليزى .

الفصل الثالث عشر

عصر مارلبورو

حرب الارث الاسباني

في عام ١٦٥٠ ولد « جون تشرشل » وهو ابن السير « ونستون تشرشل » أحد أصحاب الأرض في « دورست » . وفي عام ١٧٢٢ مات « جون تشرشل » كأول دوق لمارلبورو . ومن بين جميع الشخصيات العسكرية التي ظهرت على مسرح الأحداث في ذلك الوقت ، والذين سنتناولهم بالدراسة ، سنجد أن مارلبورو كان أعظمهم جميعاً ، فقد كان عبقرية في المواضيع العسكرية مع تمتعه بمهارة دبلوماسية فذة . ودائماً كنت أعتبره صاحب الفضل في رفع الجيش البريطاني حتى أصبح في المقام الأول بالنسبة للجيش الأوروبية . وقد رأينا في الفصل ١٢ ظهور السويد كقوة رئيسية بقيادة « جوستاف » كما أصبح الجيش الفرنسي أقوى الجيوش في أوروبا ، أما في هذا الفصل سوف نرى أفول نجم السويد خلال حكم شارلز الثاني عشر والتدهور المؤقت لفرنسا .

وسوف نرى أيضاً تأثير التحصينات على الحرب والذي طورها فوبان . وجاء « مارلبورو » لينزع هذا العامل (تأثير التحصينات) من شلل مقدرة القيادة العسكرية . وكان ذلك العصر هو عصر الفرسان ، ولكن عندما ظهر السونكي المجوف في النصف الثاني من القرن رفع من منزلة جندي المشاة ووضع نهاية لحاملي الرماح .

وبعد حرب الثلاثين عاماً ، كان العامل الرئيسي في سياسة أوروبا هو النزعة العدوانية لفرنسا خلال حكم الملك لويس الرابع عشر . وفي الفترة ما بين توليه سلطاته الملكية الكاملة في عام ١٦٦٠ ووفاته عام ١٧١٥ لم يسبب أحداً إزعاجاً لمدة أطول مما فعله لويس الرابع عشر ، فقد أشعل أربعة حروب كبرى هي : —

١ — حرب الأيلولة : -- (١٦٦٧ — ١٦٦٨) وهو الاسم الذي أطلق على الحرب

التي نشبت نتيجة لمطالبته ببعض الأراضي الأسبانية .

٢ — الحرب الهولندية : — (١٦٧٢ — ١٦٧٨) .

٣ — حرب التحالف الأعظم : — (١٦٨٨ — ١٦٩٧) .

٤ — حرب الأثر الأسباني : — (١٧٠١ — ١٧١٣) .

ر فيما بين فترات توقف القتال ، ظل نشاط لويس السياسى موجهاً لتحقيق مطامعه من الحرب وهى المجد .. والثروة .. وتوسع فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية على نهر الراين وجبال الألب والبرانس وكذلك كسر الحلقة التى يكونها المسبرج . واتحدت جميع دول غرب أوروبا لمقاومة الفرنسيين ، ولكنهم لم يصمدوا فى الحروب الثلاث الأولى قبل عام ١٧٠٠ ، فقد كان لدى فرنسا قوة بشرية كبيرة وموارد طبيعية أكثر من أى دولة أخرى .

علاوة على أن لديها خطوطاً إستراتيجية داخلية وحكومة مركزية مطلقة . وأكثر من ذلك فكان بعض رجال لويس ذوى قدرات غير عادية . مثل « كولبرت » و « لوفوا » كانا إداريين من الطراز الأول ، و « كوندى » و « تورين » كانا من أبرز قادة العصر ، ثم يأتى « فوبان » عبقرى الهندسة العسكرية .

وكان « كولبرت » و « لوفوا » وزيرين لدى لويس وقد قدما له خدمات حيوية من حيث التبرير المنطقى لسياسته وتوفير الوسائل لتحقيقها . وقد وجه « كولبرت » أهتمامه بشكل أساسى بالموارد المالية والأسطول . وبعد الحروب الهولندية لم يطرأ أى تغيير فى التصميمات الرئيسية للسفن الحربية . فالدولة يمكنها تحقيق السيطرة والتفوق البحرى بمجرد زيادة عدد سفنها وقواعدها وتحسين وتطوير تنظيمها . وقد طور « كولبرت » البحرية الفرنسية بزيادة حجم الأسطول من ٢٠ سفينة حربية فى عام ١٦٦١ إلى أكثر من ٢٧٠ سفينة فى عام ١٦٩٠ . وهذا الأسطول أستطاع هزيمة الأسطول الأنجلو هولندى المشترك فى يونيه ١٦٩٠ عند « بيتشى هيد » إلا أن الحلفاء أخذوا بشأهم فى مايو ١٦٩٢ فى معركة « لا هوج »^(١) . ومن ذلك المعركة وأصبحت إنجلترا من أقوى الدول البحرية ، وأصبح لها السيطرة المطلقة على البحار فى حرب الأثر الأسباني .

(١) بالقرب من سانت فاست على الشاطئ الشرقى من شبه جزيرة كوتنتين بنورماندى « المغرب »

النصر الفاجي . (أنظر اللوحة رقم ٢٨)

وكان اختصاص « لوفوا » في إدارة الجيش ، وقد سار على نفس النزعه التي بدأت في عصر جوستاف نحو زيادة الحجم والمركزية والتماثل والأحتراف . ففي معركة « ركروا » حقق « كوندى » النصر على الأسبان عام ١٦٤٣ بجيش مكونا من ٢٣٠٠٠ مقاتل . وفي عام ١٦٧٢ قام لويس بغزو الأراضى الواطئة بقوة تعدادها ١٢٠٠٠ مقاتل ، وكان ٧٥٪ منهم من المشاة ولهم مدفعية ميدان خاصة بهم . أما في نواحي التجنيد والتنظيم فقد أمكن القضاء على الفساد والتقاليد الإقطاعية بقدر الإمكان ، بوجود مراقبين من ذلك الطراز الشهير الذى كان يطلق عليه « مارتينت » (ويعنى الضابط الصارم المتشدد) . وكانوا يشرفون على التدريب وفرض النظام الصارم بالقوة ، كما أنشأ نظام المستودعات للأمداد . ودرب الجيش تدريباً شاقاً . وحل الزناد محل الفتييل في البنادق والتي أصبحت السلاح الرئيسى للمشاة ، وأنشأت وحدات لقذف القنابل اليدوية وزادت أهمية المهندسين ، وأدجت المدفعية بصورة أوثق مع باقى الجيش . وفي تلك الحقبة كان الأساس الحقيقى للقوة هو القدرة العسكرية ، وكان أمن السلطة الحاكمة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحجم وقوة الجيش العامل . وقد أدت كفاءة وزارة الحرب الفرنسية إلى نجاح الجيوش الفرنسية في ميدان القتال قبل تسعينيات القرن ١٧ . وفي النهاية فإن القيادة العسكرية الماهرة لكل من « كوندى » و « تورين » هي التي



تورين

أحرزت تلك الانتصارات . وكانت موهبه هذين القائدين متعادلة ، فكان « كوندى » تكتيكياً بارزاً بينما كان « تورين » استراتيجياً ممتازاً ومنظماً فريداً . وبروح الأقدام ولكن بهدوء وسعة الإدراك كان « كوندى » مصدر الإلهام لرجاله في معارك حربية كثيرة وعلى مدى ٣٠ عاماً بعد معركة « ركروا » .

وعلى العموم ، ففي حرب هذه الحقبة التي كانت فيها المواصفات رديئة والتحصينات القوية التي توفر النجاح

لطرارز معين من القادة ، برز « تورين » الذى يتميز بالصبر وبعد النظر ولمع اسمه في الحروب

الأهلية عام ١٦٥٠ حينما قاتل ضد « كوندى » فقد أثبت أنه جندى أفضل من « كوندى » .
وإذا ألقينا نظرة على تورين لوجدنا أن قدرته تكمن في المناورة . فقد كان هدفه دائماً
خلق موقف للقتال في أكثر الظروف ملائمة وفي الوقت والمكان الذى يختاره . ولتحقيق هذا
الغرض ، درب رجاله على السير لمسافات طويلة ، وكان يضع خططه دائماً بمنتهى الحرص
وحسن التصور . وكان جنوده يعرفون ذلك جيداً ويثقون فيه ثقة عمياء ، لأنه كان يحرز
انتصاراته بأقل الخسائر في الأرواح . وفيما بين ١٦٥٣ — ١٦٥٨ خلال الحروب الأهلية وفي
مواجهته جيش يفوقه عدداً وعدة وتحت قيادة « كوندى » ، نجح « تورين » في المحافظة
على جيشه متماسكا وعوض النقص في العدد بخفة الحركة ، وبمداومة الاتصال بالعدو وأعاقة
نشاطه حتى توفرت له القوة الكافية لقمعه في المعركة .

وفيما بعد ، زاد تورين من مجال نشاطه ، أما جرائه فقد قال عنها نابليون « أنها زادت
بالخبرة على مر السنين » . ومع اتساع رقعة الأرض الألمانية ، أستطاع أن يستفيد أستفادة
كاملة من عامل الوقت والمسافة . وكان أعظم منجزاته هي حملة « تورخيم » عام ١٦٧٤ —
١٦٧٥ . ففي عام ١٦٧٤ كان واجب تورين هو تثبيت قوات العدو المتحالفة على جبهة نهر
الراين الألماني بينما كانت القوات الفرنسية تهاجم في مكان آخر . وبعد أنتصاره في معركتين
صغيرتين أضطر للأسحاب في نوفمبر بعد أن تلقى العدو أمدادات كبيرة . وأثناء أرتداده
للخلف إلى اللورين ، تحركت قوات العدو إلى معسكرات الشتاء وأنتشرت في الألزاس .
وكان الطقس سيئاً ونقصت الأمدادات ، ولم يتوقع العدو نشوب قتال في ذلك الوقت ولا
حتى في باريس . ولكن تورين وجد الفرصة سانحة لتحقيق نصر مفاجئ . وقام بتجميع
قوات إضافية بصعوبة بالغة حتى أصبحت قوته ٣٣.٠٠٠ في مواجهة قوات العدو التي تتألف من
٥٧.٠٠٠ مقاتلا .

وفي نهاية ديسمبر تحرك عبر الجبال لتطويق العدو ، وخرج من ممر « بلفورت » الجبلى
إلى الألزاس ولم يستطع الحلفاء حشد سوى جزء صغير من قواتهم بسرعة بالقرب من « كولمار »
حيث هاجمهم تورين في « تورخيم » ونتج عن أنتصاره أنه في بحر ١٠ أيام لم يعد هناك أى
جندى ألماني على الضفة اليسرى لنهر الراين . وكان هذا هو آخر عمل بطولى ناجح لتورين

حيث لقي مصرعه في الحملة التالية عام ١٦٧٥ . وعلى أى حال ففي هذا العصر فرضت قوة التحصينات قيوداً على القيادة العسكرية الإيجابية الماهرة .

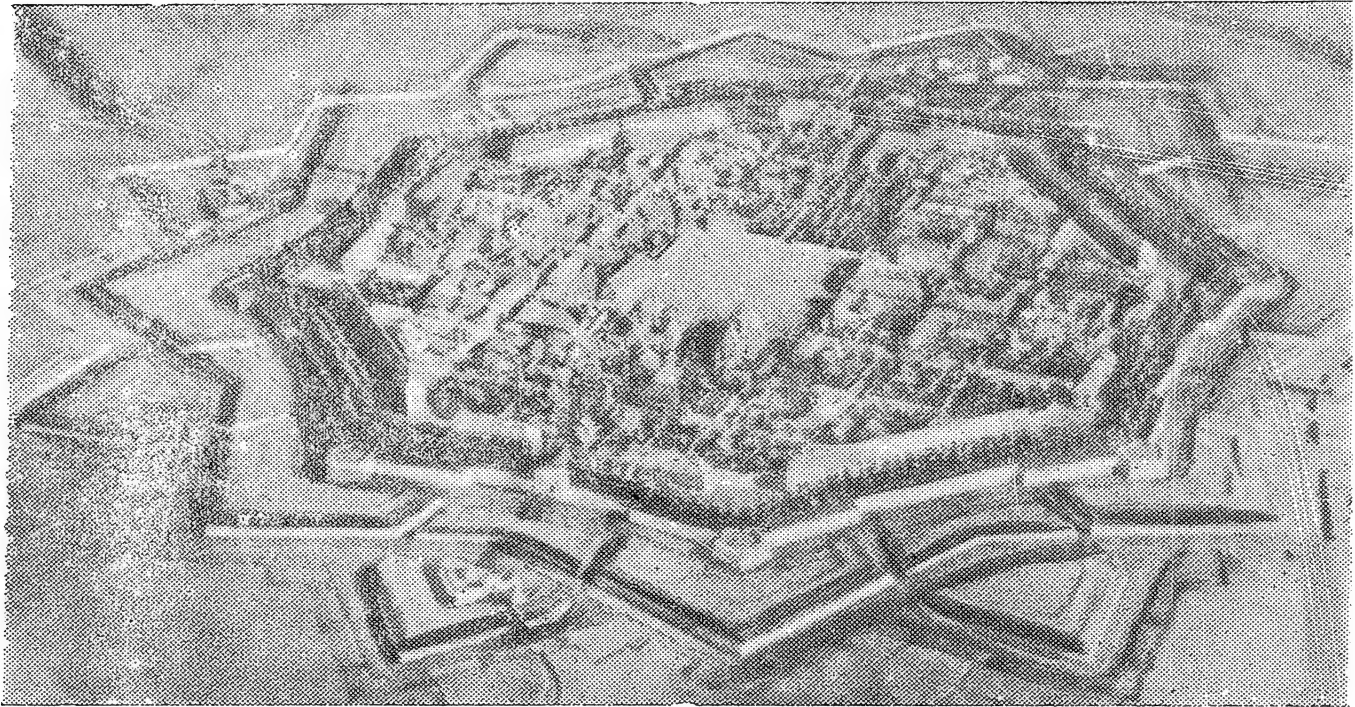
نصف القر ((أنظر اللوحة رقم ٢٨))

بعد اختفاء كوندى وتورين من مسرح الأحداث عام ١٦٧٥ ، كانت الشخصية العسكرية البارزة هي المهندس « سباستيان دى فوبان » . وكان فوبان هو المسئول عن إقامة التحصينات المنسقة للأجزاء المعرضة من الحدود الفرنسية طول فترة تزيد عن ٣٠ عاماً من العمل النشط . فقد قام بتقوية الثغرة بين « الجورا » والفوسيجس والتي تضمنت « بلفورت » و « نيف بريساش » وأما كن أخرى . وخلال سنواتى العشرة التى قضيتها فى منظمة دفاع الاتحاد الغربى وفى منظمة حاب شمال الأطلنطى ، قت عدة مرات بأستطلاع جبال « الجورا » و « الفوسيجس » وتحركت بالسيارة عبر ممر « بلفورت » بغية التعرف جيداً على المنطقة . وفى تلك الحقبة التى أكتب عنها الآن وربما قبلها ، كان هذا الممر يعتبر طريق اقتراب جيد إلى المنطقة من جهة الشرق وكان لابد الدفاع عنه جيداً ، أما اليوم فليست له قيمة أستراتيجية لوجود القوات الجوية وأزدياد مدى وقوة الأسلحة الحديثة ، وبصفة عامة وسائل القرن العشرين فى شن الحرب .

وكانت « ثيوفيل » و « مترز » من المناطق الرئيسية فى النظام الدفاعى الآخر على امتداد نهر « المورل » ، وفى الأتراس الشمالية . وكانت الفلاندرز منطقة ذات أهمية خاصة للفرنسيين ويجب عليهم التحكم فيها وإغلاقها ، لأنها عبارة عن سهل حصباً تستطيع أى دولة بحرية معادية لفرنسا أن تجمع قواتها فيه وتدفعها منه دون أن يعترضهم أى عوائق طبيعية . ولم يكبد محل عام ١٧٠٢ حتى كان لدى فرنسا أكثر من ٣٠ حصناً من الدرجة الأولى وحوالى ٥٠ مدينة وقلعة أقل تحصينا فى تلك المنطقة بحيث أصبحت عبارة عن حاجز فرنسى هائل لا يمكن أختراقه . وقد طور فوبان عدة أفكار حديثة فى التحصين ، ومنها بناء متاريس من الطين بدلا من الحجارة التى تتحطم وتتحول إلى شظايا خطرة قاتلة ، فى حين أن الحوائط الطينية أرخص وأكثر أمناً ، كما كان من السهل بناء حوائط ضخمة منها . أما الفكرة الثانية أن جعل حوائط الحصون على شكل زوايا بدلا من الشكل

التقليدى الدائرى ، مما يجعل من الممكن تغطية جميع أجزاء الأسوار بالزيران الجانبية ضد المهاجمين . وقد طبقت هذه الأفكار الجديدة إلى حد ما فى حروب منتصف القرن ١٦ ، ولكن حتى هذا الوقت لم يحاول أحد أن يتناولها بتفكير عميق وتطبيقها على أوسع نطاق . وقد حولت أساليب فوبان هذا النوع من فن الحرب إلى تمارين هندسية وجعلت الدفاعات أضخم من أن تتيح للعدو القيام بالهجوم بالمواجهة . وقد استنفاد فوبان دائماً وإلى أقصى حد من طبيعة الأرض لمساعدة الدفاع . وقد التزم فوبان ببعض القواعد الأساسية فى التحصين ، ولكنه لم ينتهج تخطيطاً ثابتاً . وظل مبقياً على التصميم الأساسى التقليدى للحصن من سياج داخلى ومتراس وخندق مائى ومتراس خارجى . وكان الحصن يظل سليماً حتى يتمكن العدو من كسر الجزء الأكبر من تحصيناته .

ولذلك فكانت نتيجة الحصار تتوقف إلى حد كبير على قدرة هذا الجانب أو ذاك على الصمود أكثر من الآخر . وكان فوبان يميل إلى مد التحصينات الخارجية إلى أقصى بعد ممكن ، طالما توفر الوقت والمكان والمال ، وبذلك سوف يجبر العدو على أن يبدأ عمليات الحصار من مسافات بعيدة كما ضاعف الموانع فى طريقه ، وهكذا كانت العقبات تقف دائماً



حصن من تصميم فوبان

حجر عثرة في طريق حصول العدو على أرض . فإذا سقطت التحصينات الخارجية في يد العدو ، فسوف تظل السيطرة عليها مستمرة بواسطة النيران من التحصينات المركزية الرئيسية .

وقد مكنت مهارة فوبان الهندسية وعينه الخبيرة بالأرض من تصميم التحصينات بطريقة تجعل أى مواجهة محمية من الجنب ومدعمة بواسطة التحصينات التى خلفها وعلى أجنابها . وكان العنصر الرئيسى فى التصميم أياً كان حجمه أو مكوناته عبارة عن مثلث رأسه للخارج وبلا ضلع داخلى .

وكانت الرأس الخارجية للحصن تشكل هدفاً صعباً للعدو وتجبره على تركيز قواته بطريقة تعرضها للخطر ، بينما كان كل ضلع يصنع زاوية مع الآخر بحيث يمكن تغطية منطقة الحائط فيما بينه وبين مواجهة العدو التواء التالى .

وكانت هذه هى القاعدة فى الحصون الكبيرة التى تقام عند كل زاوية من الهيكل الأساسى المخطط للتحصين والذى كان متعدد الأضلاع . وكانت تنتشر حصون أخرى صغيرة بين الحصون الكبيرة وعلى امتداد مواجهة التحصينات بحيث تكون متقاربة من بعضها بقدر كافى يجعل كلا منها قادرة على تغطية الآخر بنيران الأسلحة الصغيرة .

وكان هناك مثلثات أخرى تعددت فى الحجم ، أطلق عليها « نصف القمر » وتحيطها خنادق جافة تبرز للأمام وتغطى كل منها الأخرى ومحمية من الخلف . وكانت التحصينات المتكررة من هذا الطراز تمتد عادة إلى مسافة ٣٠٠ ياردة من مركز التحصينات الرئيسى ، وكانت تشكل مواقع قوية أمام قوات الحصار . وأحسن مثال لأعمال فوبان فى التحصينات هى « نيف بريساش » و « ليل » . كما كان فوبان أيضاً أستاذاً بارعاً فى فن الحصار الهجوى فكانت الطريقة المضادة للحصار قبل عصر فوبان ، عبارة عن الاقتراب من الأسوار بواسطة خنادق متعرجة إلى أن تصل المدافع إلى مدى الضرب المؤثر . وطالما أن العدو المحصور لديه القدرة على تركيز النيران على خندق الحصار ، فكان الهجوم يصبح قليل الفاعلية وباهظ التكاليف فى الأرواح . والابتكار الذى قدمه فوبان هو استخدام خنادق تصل بينها خنادق متعرجة ، وبذا أصبح فى إمكان المهاجم تركيز نيرانه ضد نقطة معينة فى

الدفاع وكذا شن هجمات متفرقة في وقت واحد . كما أن فوبان هو الذي أدخل استخدام نيران السكترما ، بإطلاق الطلقات فوق الدروة الأمامية لتسقط على المدافعين المخندقين خلفها . وكان من المعتاد بمجرد أن تحدث ثغرة في الدفاعات ، يطلب من المدافعين الإستسلام في أحتفال عسكري ، وإذا لم يذعنوا ، يقتحم المهاجمون الدفاعات بلا هوادة . وعند دراسة تحصينات فوبان فسوف يبدو أنه إذا أريد مهاجمتها فيجب أن يتولى التخطيط للهجوم مهندسون حتى يمكنهم من خلال تطبيق المعادلات الرياضية أن يوصلوا خنادقهم ويضعوا بطاريات المدفعية في أما كن معينة بحيث يجد القائد المدافع عن الحصن وقد وقع في ورطة .

وظلت أساليب فوبان في التحصينات والحصار شائعة الإستعمال حتى أواخر القرن ١٩ عندما غيرت زيادة مدى المدفعية من مشا كل الدفاع والهجوم ، وكان ذلك النوع من التحصينات يمكن التغلب عليه بشكل عام . ولم يكن الحصار الناجح كان يتطلب دائماً وقتاً طويلاً ومهارة خاصة في الرياضيات كما ذكرت . وكانت النتيجة أنه في نهاية القرن ١٧ أدت التحصينات الكثيفة والقوية للحدود الفرنسية إلى أبطاء سرعة الحرب حيث أعاقه الحركة ووفرت الحماية بملاجئها وسواترها ، وأمتصت القوة البشرية .

الجيش الدولي

أثناء حرب التحالف الأعظم (١٦٨٨ — ١٦٩٧) حدث عدد قليل من المعارك



مارلبورو

ذات الأهمية ، ولكن حدث الكثير من عمليات الحصار ، وبدأ أن الفرنسيين ينتهجون استراتيجية ناجحة ، ففي الحرب التالية التي بدأت في عام ١٧٠١ قاموا بإعادة تطبيقها مرة ثانية . ولكن في هذه الحرب (حرب الأثر الأسباني) كان يقود جيش الأعداء المتحالفين ضد فرنسا أحد عباقرة قادة الحرب وقد أظهر مقدرة عظيمة عندما وافته الفرصة ، وقد تخطى كل القيود التي كانت تفرضها الحرب في ذلك الوقت .

وكان هذا الرجل هو مارلبورو .
بدأ مارلبورو خدمته العسكرية عام ١٦٦٧ وكان أمامه المجال فسيحاً ليحصل على
خبرة واسعة ، فقد أستفاد من خدمته كعقيد في سلاح المشاة تحت قيادة تورين عام
١٦٧٤ — ١٦٧٥ .

وكان مارلبورو يميل إلى الصمت ، ويصعب معرفة ما يجول بنفسه ، وكان له
بعض العيوب ، ولكنه كان يكرس جهده في جميع الأوقات للعناية بالرجال الذين تحت
إمرته ولخدمة بلاده بلا كلل . ومن صفاته الظاهرة أنه كان هادئاً قادراً على ضبط نفسه ،
كثير الجمالة وشخصيته جذابة .

وكان جندياً متمكناً تماماً من مهنته ، وكان ينظر إلى مشا كل الحرب في صورة
شاملة ككل وعلاقتها ببعضها في نفس الوقت لا ينسى التفاصيل الجوهرية التكتيكية
أو الإدارية . وأكثر من ذلك كان ذا مزاج معتدل . في ذلك العصر واجه فن القيادة
تعقيدات متزايدة ، فبينما أستمرت الزيادة السريعة في حجم الجيوش وفي مدى الأستراتيجية
فتنظيم الجهاز الإداري لم يساير هذه السرعة . علاوة على ذلك كانت وسائل المواصلات في
أوروبا بطيئة ، والسياسة معقدة لدرجة أن القائد وخاصة في الجيش المتحالف ، كان يتحمل
مسئوليات عديدة كدبلوماسي ، وفي نفس الوقت كان عليه أن يتعامل مع الساسة في وطنه
وقد كتب ونستون تشرشل^(١) في موضوع ممارسة القيادة : —

« إنها عبارة عن الحصيلة الديناميكية للقوى المتعددة الدائمة التغير والتي يتعين
أستيعابها باستمرار ، لأنه يوجد عوامل مؤثرة كثيرة منها أعداد ونوعيات الجنود وروحهم
المعنوية وأساحتهم وثقتهم في قادتهم وطبيعة الوطن وحالة الطرق والوقت والطقس ومن
خلف كل هذا تقف سياسة الدولة ، والمصالح الخاصة ذات الأهمية والتي يتعين على
الجيش حمايتها » .

وكانت القيادة شخصية ومباشرة ، أما نظام قادة وأركان الفيلق والفرق فقد جاء
بعد ذلك . وكان القائد العام في ذلك الوقت يجب أن يكون قادراً على فحص كل منطقة

معركته وإرسال أوامره بواسطة نظام من الندائين والسعاة . وكان عادة ما يقف بحصانه في المعركة وفي أكثر مناطق القتال نشاطا ويكون غالبا تحت تأثير النيران واضعا نصب عينيه موقع وظروف كل وحدة وعلى مواجهة من ٤ إلى ٥ أميال ، مراقبا العدو ، ويتصرف تبعا لتطور الموقف التكتيكي .

وكان الأمر يتطلب قائداً على مستوى رفيع في فن الحرب ليتمكن من السيطرة الكاملة على كل هذه العوامل بالوسائل التي كانت متيسرة في تلك الأيام .

وفي تلك الحقبة ، كانت الجيوش تتكون من جنسيات مختلفة ، كما لو كان « جيشادوليا » . فمن بين ٤٠٠٠ رجل الذين أقرهم البرلمان البريطاني كنصيب إنجلترا في القوة المتحالفة في بداية الحرب ، كان هناك فقط ١٨٠٠٠ منهم بريطاني . وكان يسود بريطانيا شعور قوى ضد العسكريين حيث كان ينظر إلى الجيش المستديم ، بعد تجربة القرن ١٧ ، على أنه تهديد للحرية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان المجتمع الفرنسي يميل إلى النزعة العسكرية .

وكان البرلمان البريطاني يناقش بتدقيق ، وبشيء من الغيرة ، مشروعات إنشاء الجيوش قبل إقرارها ، كما كان التجنيد صعبا . ولم تغير الانتصارات الباهرة التي كان يحققها الجيش البريطاني من موقف إنجلترا . وكان هناك تجنيد إجباري في أضيق الحدود وكان الغرض منه على وجه العموم هو تشغيل المجرمين في أعمال مناسبة . وكانت الأفواج تنشأ وتجهز بواسطة زعماء المقاطعات وتسمى بأسمائهم . وكان الفوج يتكون عادة من كتيبة واحدة مكونة من ٧٠٠ — ٩٠٠ رجل . وكان هناك دائما قدر كبير من الإحتيال في النواحي الإدارية ، مثل الضباط الذين يسحبون أجورا ومؤون ومهمات لتسليمها إلى قوات لا وجود لها ، بينما تختلس مرتبات وتموينات ومهمات الوحدات الموجودة فعلا . وفي الواقع ، فإن ما حدث في عام ١٧١٢ هو أن خصوم مارلبورو في البرلمان أثاروا ضده إتهامات بالاختلاس ، عندما فقد مركز القوة وبناء على ذلك طردته الملكة « آن » من جميع مناصبه ، ولكن ثبت بعد ذلك أن كل هذه التهم كانت باطلة كلها . كما أعلن ج . م . ترافليان : « لم يحدث في تاريخ إنجلترا أن استفادت بريطانيا من أحد أكثر من مارلبورو مقابل كل جنيه تقاضاه . . » وفي الحقيقة فإنه فعل الكثير لكي يقضى على ظاهرة الاختلاس بين صفوف جيوشه .

اختراق عالم الخوف

وحرب الأثر الأسباني لجديرة بالدراسة من الناحية الاقتصادية ، إذ أنه في هذه الفترة كانت مؤسسات البنوك والائتمان تجتاز تطورا سريعا ، فبنك إنجلترا أسس عام ١٦٩٤ ، وفي هذا المضمار كان الإنجليز والهولنديون يتفوقون على الفرنسيين^(١) . وكانت هذه الحرب حافز للنمو والأزدهار المالى ، وكذا أضفت النشاط والتنوع فى مختلف مجالات التجارة والصناعة مثل صناعة المنسوجات وتربية الخيول والتعدين والعتاد الحربى . ولكنها لم تسبب تدميرات لالزوم لها لأن ذكريات حرب الثلاثين عاما جعلت الرجال تلتطف من أهوال حرب الأثر الأسباني على قدر الإمكان .

وقد حدثت بعض أعمال السلب ولكن التدمير المنظم كان قليلا جدا . وكان النظام صارما بالرغم من تأخر المرتبات عادة ، ولكن مستودعات الأمداد أصبحت الآن منظمة بكفاءة ، مع إعطاء عناية خاصة لتدبير الأصناف الجيدة من المهمات مثل الأحذية والملابس الثقيلة . وكان الجيش يشكل نسبة صغيرة جدا من مجموع السكان فى الدولة ومنفصلا عنها وقد كتب ج . م . ترافليان يقول : « كانت أوروبا سيئة التنظيم وأفقر من أن تدفع ضريبة دم كبيرة ، وكان نظامها المالى أضعف من أن تنفق منه مقادير كبيرة على حساب ثروة وسعادة الأجيال القادمة » .

وفى هذه الفترة ازدهرت الفرسان أزدهارا عظيما بالرغم من أن المعارك التى حدثت فى الأراضى المفتوحة كانت قليلة نسبيا وبالرغم من أن القادة كانوا يضعون ثقتهم الرئيسية فى المشاة . وقد أستمرت الفرسان الفرنسية متمسكة بتقليد الدوران نصف دورة^(٢) والذى كان سائدا فى القرن ١٦ ، والذى يعتمد فيه الفارس على الأسلحة النارية أكثر من سيفه . أما الفرسان الإنجليزية والتى دربها مارلبورو ، فقد أتقنت تكتيكات كل من جوستاف وكرومويل ، فقد دربت على الهجوم فى خط بعمق ثلاثة صفوف ثم الاندفاع بأقصى سرعة نحو العدو مع إستخدام السيف فقط . وكانوا يسلحون بالمسدسات ولكنهم لا يستخدمونها إلا فى الأغارة

(١) لم يؤسس بنك فرنسا حتى عام ١٨٠٠ .

(٢) لقد حدث ذلك فى معركة بلنهم

أو عند التعرض لهجوم مفاجئ . . وفي البداية كان الفرسان لا يرتدون أى دروع على أجسامهم . ولكن فى عام ١٧٠٧ أدخل مارلبورو الدروع الواقية للجزء الأمامى لجسم الفارس . وكان رجال الدراجون يقوموا بالهجوم وهم ممتطين جيادهم أو يترجلون عند الوصول إلى ميدان المعركة والقتال من على الأرض كحمة بنادق . وقد حدث تغييران هامان بعد ذلك فى معدات المشاة ، التغيير الأول عام ١٦٥٠ حيث حلت البنادق ذات الزناد محل البنادق ذات الفتيل كسلاح نموذجى للمشاة ذى جهاز تفجير أكثر ضمانا ويعمل بصورة أفضل فى الجو الرطب ويعطى معدلا أعلى من النيران . أما التغيير الثانى والذى حدث فى نفس الفترة تقريبا ، فهو ظهور السونكى . وفى أول الأمر كانت المدية تثبت فى فم ماسورة البندقية . وجاء التغيير الحيوى الهام بإختراع السونكى ذو الحلقة عام ١٦٧٨ ، وكان يثبت بإحكام على الماسورة من الخارج مما كان يتيح للجندى إطلاق النيران مع وجود السونكى . وبذلك أصبح حملة الرماح رائدين عن الحاجة لأن حملة البنادق أصبحت قادرة على أداء نفس عمل الرماحين .

وفى عام ١٧٠٤ إختفى حملة الرماح من الجيش البريطانى أما الفرنسيون ، فبالرغم من إدخالهم للسونكى ، إلا أنهم كانوا أكثر بطأ فى إستخدامه . وكان على جنود المشاة على مدى ١٥٠ عاما التالية القتال وهم مسلحون فقط بالبنادق ذات الزناد والسونكى ويحملون أكياسا من الجلد تحوى كل منها على ما بين ٤٠ ، ٦٠ خرطوشة من الورق ولا يرتدون أى دروع لوقايتهم .

أما الكتائب الجديدة فتميزت بخفة حركة أكبر من ذى قبل فلم تعد مثقلة بحمل الرماح وفتائل الأشغال . وقد أدت خفة الحركة والأعتماد على قوة النيران أكثر من قوة الصدمة إلى زيادة احتمال إنتصار القوات جيدة التدريب على القوات المتفوقة عدديا ، وهذا ما أعطاه مارلبورو حق قدره وكرس له كل اهتمامه فى شهور الشتاء الستة^(١) ، لتدريب مشاته على الضرب المؤثر والتشنج بدقة وإطلاق النيران بالفصائل المجمعة التى تتكون من ٥٠ رجلا . ودربت الأفواج أيضا على أن تتشكل فى مربعات إذا تعرضت لهجوم الفرسان . وكان كل فوج يتضمن إلى جانب حملة البنادق ، سرية من قاذفى القنابل اليدوية ، وكانوا يختارون من الرجال الذين يتمتعون بلياقة

(١) فى غير موسم المعارك

بدنية جيدة ، وكانوا يعتبرون إلى حد ما قوات عاصفة .

وأصبحت التشكيلات الخطية في ذلك الوقت أمراً مألوفاً حيث أن الغرض منها كان إستغلال قوة النيران الجديدة إلى أقصى حد ، وقد أستغرق تدريب الجندي وقتاً طويلاً لكي يتفوق في التكتيكات الخطية ، لأن ذلك يتطلب شجاعة وخبرة ومرونة . وأصبحت المواجهات أوسع لتفادي تزايد قوة نيران الأسلحة الصغيرة وأدى هذا أن الجندي يجد نفسه غالباً منعزلاً عن رفاقه ، وعندما يحدث ذلك يظهر الخوف ، ومن هنا يبرز أهمية الضبط والربط الذي يكون هدفه اختراق عالم الخوف .

خداع أوروبا (أنظر اللوحة رقم ٢٨)

وقد أيد مارلبورو مزج المدفعية مع الأسلحة الأخرى والذي بدأ منذ عهد جوستاف ، وقد أدى العقيد « بلود »^(١) وضباطه وجنوده خدمات جليلة له . وقد تغلبوا على صعوبات الأرض في عام ١٧٠٤ عند السير عبر الغابة السوداء إلى الدانوب ، وقد قاتلوا خلال مستنقعات بلنهم وهذا يدل على أنهم كانوا خبراء في مهنتهم . وكانت مدفعية الميدان تطلق على المسافات البعيدة قنابل على شكل الكرات ، أما على القطاعات القريبة فكانت تطلق قنابل عنقودية ، والتي كانت تسمى في ذلك الوقت « الحجل » . واختلفت الأسلحة الثقيلة للحصار عن مدفعية الميدان ، فكانت مواقع الحصار الثقيلة عادة ما تنقل خلال المجارى المائية . وكان مارلبورو يهتم إهتماماً كبيراً بالإستخدام التكتيكي لمدفعية الميدان ولذا كان يختار مواقع بطارياته بعناية واهتمام . وواجه مارلبورو موقفاً إستراتيجياً صعباً في حرب الأثر الأسباني عندما كان هو القائد العام للجيش المتحالفة لبريطانيا والمقاطعات المتحدة الهولندية والنمسا وبادن وكذلك قوات صغيرة ألمانية ، وكانت فرنسا وأسبانيا متحدتين وقادرتين على العمل على خطوط إستراتيجية داخلية ، وفي عام ١٧٠٣ أنضمت إليهما يافاريا ، وامتدكت فرنسا في الجهة الشمالية سداً قوياً من الحصون القائمة في الأراضي الواطئة الأسبانية .

وكان يحمي هذه الحصون جيش مكون من ٩٠.٠٠٠ رجل ، وفي الجنوب كان الأسبان في إيطاليا ، أما في الشرق في عام ١٧٠٣ فلم يوجد سوى بعض الخلافات التي منعت الفرنسيين

(١) كان يقود مدفعية مارلبورو .

والبافاريين تحت قيادة فيلرز ، (وهو من أقدر القادة) من التقدم إلى فيينا بقوة كبيرة .
وانقسم الحلفاء إلى جبهتين تفصلهما مسافة واسعة ، كما كانوا غير متفقين في سياستهم .
وأول مشكلة واجهت مارلبورو كانت مع الساسة والقادة الهولنديين والذين رغبوا في الاحتفاظ
بجيشهم بالقرب من وطنهم . ومراراً وتكراراً طوال فترة الحرب كان ينظر إلى خطط
مارلبورو بحذر بل وقد صوت الهولنديون ضده وأصبح مارلبورو في موقف لا يحسد عليه
بسبب موقف الهولنديين المعوق بالإضافة إلى عدم معاونة الساسة البريطانيين له أحياناً ، بينما كان
قائد العدو وهو لويس الرابع عشر توفرت له سلطة مطلقة وجهازاً مركزياً للحرب .

والإستراتيجية التي إتبعته في الجنوب هي إرسال حملة حربية إلى أسبانيا وأسطول
إنجليزى في البحر المتوسط للسيطرة على البحار المحيطة بمسرح الحرب مع حصر العدو داخل
نطاق الإستراتيجية البرية .

وفي عام ١٧٠٤ تم الإستيلاء على جبل طارق ، ومنذ ذلك الوقت وصاعداً إهتمت
بريطانيا بالبحر المتوسط .

وقد خطط مارلبورو والذي كان في الأراضي الواطئة ، لنقل الحرب إلى أقصى الشرق
لكى يبعد التهديد الذى كان على وشك الإنقراض على هولندا ، فى نفس الوقت لكى
ينسق العمليات مع النمسا ويهاجم فرنسا فى أكثر مناطقها تعرضاً أى فى الركن الشمالى
الشرقى .. وقد نجح مارلبورو فى عامى ١٧٠٢ — ١٧٠٣ فى طرد الفرنسيين من وديان الماس
والراين السفلى بالرغم من أعاقه الهولنديين له . فى ذلك الوقت أصبحت النمسا فى خطر داهم ،
لذلك كانت إستراتيجية مارلبورو هى السعى وراء معركة فاصلة مع الفرنسيين على الدانوب
وبالتالى يدفع خطرهم عن النمسا .

ولم يكن هناك ما يعوق تنفيذ فكرة القيام بحملة على الدانوب ، فقد كان كل شىء
مجهزاً لذلك ، فقد هدد فيينا من اتجاه أو لم (على الدانوب) ممثلاً فى جيش مشترك فرنسى
بافارى يتكون من ٥٠٠٠٠ (١) رجل تحت قيادة الأمير « ماكس أمانويل » والمارشال
« مارسين » .

وكان من الضروري والحيوى إنقاذ فينا لأنه لو قدر وهزمت النمسا وخرجت من الحرب فيصبح في أمكان الفرنسيين تجميع كل قواتهم على الجبهة الشمالية . ولما كانت الحرب الدفاعية أو البطيئة الحركة تلاءم لويس الرابع عشر لموقعه المتوسط المحصن القوى ، فقد بات واضحاً أنه لا بد للحلفاء من القيام بالهجوم . ولكن كان هناك عتبتان من الناحية العملية أمام الحلفاء ، فكان الساسة الهولنديين في حالة ذعر وهلع كبيرين ، وكان على مارلبورو التغلب على شكوكهم وترددهم .

وثانياً كان يجب على الجيوش المتحالفة لتصل إلى الدانوب أن تشق طريقها خلال وسط الفرنسيين الذى سيعرض جانبهم للهجوم .

وكانت طريقة مارلبورو لتحقيق غرضه هو العمل بسرعة واستخدام الخداع مع الصديق والعدو ، وعلى الفور أخبر الهولنديين بأن حملته ستكون على نهر الموزل ، وبعد معارضة شديدة زودوه بوحدة هولندية . أما الغرض الحقيقى فكان سرّاً لا يعرفه سوى القليل من الشخصيات السياسية البارزة .

ووعده مرغريف (حاكم بادن) لويس بمساعدته كما خرج الأمير يوجين من فينا لمقابلة مارلبورو .

وبدأ التحرك رسمياً فى ١٦ مايو عام ١٧٠٤ من « بدبورج » والتي تقع غرب كولونيا بـ ٢٠ ميلاً .

وكان مجموع قوات مارلبورو ٤٠.٠٠٠ رجل ، وبفضل العمليات التي تمت عامى ١٧٠٢ — ١٧٠٣ أمكن للحلفاء التقدم بدون عتبات عبر وادى نهر « الموسيقى » (أسفل نامور) وعلى طول نهر الراين حتى نقطة تقابله مع « نهر النكار » قرب ماننهايم ، ولكن كانت عملية نقل الجيش إلى منطقة « هايدلبرج » يحفها المخاطر ، فكان عليه عبور مواجهة الجيش الفرنسى بقيادة « فالروى »^(١) ، وكانت السرعة هى سر النجاح .

وقد ساعد فى ذلك كثيراً ، نقل المدفعية الثقيلة والإمدادات بواسطة النقل المائى ، كما كتب ترافاليان : — « كانت هناك مرحلتين لخداع أوروبا » . المرحلة الأولى حتى كوبلنز

(١) كان فالروى ليس بالفائد الماهر ذو الخبرة فقد هزمه مالبور وهزيمة منكرة فى راميلز فى مايو ١٧٠٦

حيث كان متوقعا أن يتحول الجيش عندها صاعداً نهر الموزل ، ولكي يعطى هذا الانطباع شونت هناك مخازن ضخمة من المؤن والذخائر . ولكن عند وصول الجيش إلى « كوبلنز » واصل سيره جنوبا ونقلت المخازن خلفه عبر الراين . وحتى ذلك الحين كانت الوجهة الظاهرية للجيش ليست الدانوب ، بل الألزاس . ولكي يتمم مارلبورو هذه المرحلة من الخداع ، أقام كوبرى من القوارب عبر الراين عند « فيلبسبورج »^(١) . وفعلا ، حدث رد فعل على الفور فقد حرك « فالروى » جيشه أولا من الأراضي الواطئة لتغطية نهر الموزل ، ثم بعد ذلك لينضم إلى مارشال « تالارد » في الدفاع عن الألزاس . وأرسل الهولنديون تدعيمات لمارلبورو وبشكل ظاهر ، وفي ٣ يونيو فقط كشف السر . وفي هذا التاريخ عبر الفرسان نهر النكار عند « لادنبورج » في منتصف الطريق بين « مانهيم » و « هايدلبرج » وبدلا من تقدمهم إلى « فيلبسبورج » واصلوا التحرك في اتجاه الجنوب الشرقى إلى « سنشيم » ومنها في اتجاه نهر الدانوب ، وتم التقدم في براعة واتقان . وقد اثار انتباهى دائما هذا التقدم ، ولقد طرت فوق طول الطريق متمعنا من الجو مسالكة ، وقد حصلت على منظر جيد للأرض من أعلى وهناك أجزاء معينة من الطريق أعرفها جيدا حيث قت بأستطلاعها من قارب بخارى في الراين وكذا بالسيارة ، وخاصة المناطق القريبة من « كوبلنز » و « مانهيم » و « نهر النكار » . وقد أدى هذا التقدم التكتيكي إلى أرباك وحيره المارشالات الفرنسيين . وهذا التحرك العظيم للأعداد الغفيرة من الجنود عبر مسافات طويلة ليعتبر مثالا جيدا للقدرة الإدارية . وقد عمل مارلبورو بأقصى سرعة منذ بداية الربيع ليجهز الترتيبات الدبلوماسية والإدارية لحملته ، ليضمن السماح له وقواته بالمرور والمساعدة من كل الحكام الألمان المعنيين . وكانت الكبارى كلها في حالة جيدة وفي أما كتبها الصحيحة ، وكانت المؤن متوفرة وجاهزة وفي أما كن الاحتياج إليها . أما النواحي المالية فقد رتبت مع أصحاب البنوك الألمانية ، وكان كل شئ يدفع في الحال وبدون أى تأخير . ونتيجة لسكل ذلك أستقبل جيش مارلبورو من الأهالى أستقبالا حسنا ، وعند مدخل بافاريا كانت هناك أحذية جديدة فى أنتظار الجيش .

وظهر الجيش فى شكل جيد والجنود فى نظام ممتاز بفضل الضبط والربط القاسى والتدبير

المسبق للعناية باحتياجات الجنود خلال تقدمهم سواء من غذاء أو ملابس أو وسائل الراحة والترفيه .

ومع بداية تقدم الجيش بدأت الوحدات الألمانية الحليفة تنضم إليه وعلى مراحل؛ وعند « مندلسيم »^(١) في ١٠ يونيو لحق الأمير « يوجين » بركب مارلبورو ، وكانت المقابلة الأولى لهذين القائدين العظيمين . كان يوجين أصلاً من مقاطعة « سافوى » ، وتلقى ثقافته في بلاط لويس الرابع عشر ثم حول خدماته إلى الإمبراطور الروماني المقدس بعد أن لقي الأهوال والأزدراء من الملك لويس ، وخلال مهنة الجندية عبر ٥٠ عاماً كان هدفة المهيمن عليه هو إلحاق هزيمة ساحقة بفرنسا . وكان يوجين تكتيكياً ماهراً وقائداً شجاعاً ، وربما كانت شهرته في هذه الأيام أكثر من شهرة مارلبورو لأنه حارب ضد الأتراك سنين عديدة وعند انتصاره عليهم في « زنتا » عام ١٦٩٧ أستطاع طردهم من المجر . وكان يعتبر يوجين الرجل الثاني لمارلبورو لما لديه من مهارة وخبرة عسكرية كبيرة وروح تواق للمغامرة ، في نفس الوقت كان خياله إلى حد ما محدوداً ولذلك كان على أستعداد للأذعان لمن يفوقه من ناحية العبقرية . ولم يمض يوم أو يومين على لقاء القائدين عند جروس هيباش حتى أنضم إليهما قائد ثالث هو « مرغريف بادن لويس » وقد سبق ذكره ، وكان أيضاً جندياً محنكاً ، ولكنه غير محب للمغامرة وعنيد .

النصر باهظ التكاليف : (أنظر اللوحة رقم ٢٨)

وحدد القادة الثلاثة الإستراتيجية المستقبلية وتضمنت تحرك يوجين إلى الراين ليثبت « فاليري » و « تالارد » ، بينما يتقدم مارلبورو والمرغريف لويس شرقاً في بافاريا لـ « ما كس أمانويل » على تغيير وجهته . وقد أاتفق مارلبورو والمرغريف لويس على تبادل ممارسة القيادة على جيشهم المشترك يوماً بعد يوم ، وتلك طريقة غريبة ومن الصعب أنها راقت لمارلبورو . وعلى أي حال ، وطبقاً لما ذكره السير ونستون تشرشل « لقد كان هناك فهماً أكيداً بأن الإدارة المسيطرة على الحملة كانت في يد مارلبورو ، الذي كان لديه الجيش الأكبر بالإضافة إلى أنه حضر مجازفا بنفسه لأتقاد الإمبراطورية » . ولسوف نرى فيما بعد على كل حال ، كيف أستطاع

مارلبورو التخلص من لويس قبل بلنهميم . ورحل يوجين في اتجاه الراين ، بينما واصل الجيش الرئيسي طريقه في اتجاه الجنوب الشرقى أى في اتجاه الدانوب وذلك خلال أرض غير مرتفعة . أما الجزء الصعب الوحيد في المسيرة كان في مستجمع مياه الأمطار في الممر الشديد الانحدار بعد « جيسلنجن » شمال « آولم » بحوالى ٢٠ ميل ، وهناك أنهمرت الأمطار على الجياد التى أخذت أقدامها تنزلق على الأرض ففقدت قدرتها على الأتزان ، بينما كافح الرجال لتحرير المدافع والعربات فوق الأرض التى تحولت إلى بركة من الطين . ومع نهاية يونيو هبط إلى وادى الدانوب ٧٠٠٠٠ رجل . وفى أول يولييه كان مارلبورو فى « امردينجن » بينما كان « مارسين » و « ماكس » على الضفة الجنوبية وعلى بعد ١٠ أميال أعلى النهر عند « ديلينجن » وأصبح الآن يقف مارلبورو إلى الشرق من عدوه . وفى نفس الوقت أقرب من عدوه إلى فينا . وكان مارلبورو قد عقد العزم على أن يكون أول تحرك له للاستيلاء على « دونورث » على الدانوب وتقع على مسافة ١٥ ميلا فى اتجاه مجرى النهر وإلى الشرق منه لأن الاستيلاء عليها سيؤمن له خطأ جديداً لمواصلاته فى اتجاه الشمال عبر « نوردينجن » إلى منطقة وسط ألمانيا الصديقة والمضمونة ، كما تضعه فى مكان مفتوح على الدانوب ويصبح له رأس جسر إلى بافاريا . ولم يكن لديه وقت ليضيعه . فقد كان « تالارد » ومعه ٦٠٠٠٠ رجل على وشك التحرك شرقاً عبر الراين من « ستراسبج » . بينما لن يكن فى أماكن يوجين ومعه ٣٠٠٠٠ رجل فقط من أيقافه . وما هو أكثر أهمية من ذلك أن « مارسين » فطن للأهمية الحيوية لدونورث ، وأرسل فعلاً ١٤٠٠٠ مقاتل للاستيلاء عليها فى ٣٠ يونيو ، فى نفس الوقت كان جيش مارلبورو على استعداد للتحرك . وكان مارلبورو فى وضع يسبق مارسين بعشرة أميال إلى المدينة . وفى فجر ٢ يولييه تحرك شرقاً للاستيلاء على « دونورث » ، وكان على القوات أن تقطع ١٥ ميلا فى طريق مرعب ، ثم فى نهايتها تقهقهم تحصينات منيعة ، وكان المفتاح إلى دونورث هو التل الحصين سسلنبرج ذو القبة المرتفعة والذى يمر بجوار حائط المدينة . وقد تم الاستيلاء عليه فى نهاية النهار بعد ساعة ونصف من القتال الوحشى والدموى . وقد ذكر عن هذا القتال : « كان الرجال تذبج أو تتمزق عند فوهات المدافع ، بينما كانت السونكيات تخرق الأحشاء . »

وقد اندفع الحرس الأمامي للجيش ليقترحم على الفور وعلى مواجهة حادة ضيقة ، مجبراً المدافعين على التركيز على هذه النقطة بينما ألقت باقي الجيش للهجوم من الخلف ، ونجحت الخطة ، وكان النصر باهظ التكاليف . ولكن كان مارلبورو يعلم متى تصبح الأهداف جدرة بالتضحيات والخسائر الجسيمة ، ويعرف أيضاً أن الجنود سوف يتقبلون هذه الخسائر بشرط أحرازهم للنصر . ولكن هناك حدود للتضحية بأرواح الرجال . وأتذكر الآن بعض القادة الذين كان يطلق عليهم « الجنرالات البارعين في القتال » ! أبان حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وكانوا يستخفون أستخفافاً كاملاً بالأرواح البشرية وسوف أعالج هذا الموضوع في تفصيل أكثر في الفصلين ٢٠ ، ٢١ .

الاحتياطي الاستراتيجي

(أنظر اللوحة رقم ٢٩)

والآن أصبحت الطرق مفتوحة كما كان يريد مارلبورو سواء من الأمام أو الخلف ، كما أصبح يتركز في موقع قوى بين الفرنسيين وبيننا . ولم يمضِ يومان على عبور « تالارد » لنهر الراين حتى كانت هذه المعلومات بين يدي مارلبورو . وبات ضروريا وبسرعة فصل « ما كس أمانويل » عن تحالفه مع الفرنسيين . ولتحقيق ذلك قام الجيش المتحالف لمارلبورو باجتياح وتدمير بافاريا في يوليه . ولكن كان الأمير ما كس على إستعداد لترك شعبه يعاني أهوال الحرب لفترة وجيزة حيث كان يتوقع أن يقوم تالارد لنجدة . ولم تخدم هذه الوسيلة الحربية البغيضة والتي كرهها مارلبورو بشدة أى غرض مفيد . وفي أوائل أغسطس انضمت قوات « تالارد » مع قوات « مارسين » « وما كس أمانويل » . وفي ١٠ أغسطس تحركوا شمالا لعبور الدانوب عند « ديلينجين » .

وكان « تالارد » القائد العام ، ويتمتع بذكاء وبقدر أكبر من الإحترام ، ولكنه كان دبلوماسيا أكثر منه جندياً محترفاً ، كما لم تكن لديه السلطة الكاملة على جيشه ، والتي كانت من الأمور الضرورية جداً خلال الحرب . وفي اليوم الثاني أى يوم ١١ أغسطس وصل يوجين إلى الشرق في نفس الوقت الذي وصل فيه « تالارد » . وقد كتب يوجين من « ميونستر » إلى مارلبورو شارحاً الخطوط العريضة للموقف وناصحاً له بالإضمام عليه بأسرع ما يمكن . وقد أسرع مارلبورو للاستجابة لطلب يوجين بالإضمام عليه لأنه كان منذ ثلاث

سنوات وهو يحترق شوقاً حتى يجد فرصة لمقابلة الفرنسيين في معركة مفتوحة كاملة . وفي ١٢ أغسطس كان الفرنسيون والبافارون يعسكرون عند بلنهم الواقعة على الدانوب وإلى الشرق من « هوتشستادت » وعلى مسافة حوالى خمسة أميال أعلى النهر من « ميونستر » . ولم يكن لديهم رغبة أكيدة في القتال ، ولا يتوقعون أن ينشب الحلفاء معركة نظراً لقوة موقعهم . وأكثر من ذلك ، كما تناهى إلى علمهم ، بأن لويس بعيداً عنهم ويقوم بحصار أنجولستادت ومعه ١٥٠٠٠ جندي ، وفي الحقيقة أن مارلبورو تعتمد التخلص من ذلك الزميل البطيء حتى يعطى لنفسه الحرية في القتال . وخلال ذلك اليوم أستطلع مارلبورو ويوجين الموقف من فوق برج كنيسة تابفهنم ووضعاً خططهما .

وعسكر الجيشان الفرنسى والبافارى فى سهل مفتوح أنهى منه الحصاد حديثاً ، وكان يقع مباشرة خلف مجرى سيل يسمى « فيبيل » ويصب فى الدانوب من الشمال . وانتشر الجيشان على مواجهة أربعة أميال ؛ وتمركز جيش تالارد نفسه فى الميادين الواقعين بين قرية « بلنهم » على ضفة الدانوب وقرية « أوبرجلو » ، بينما تمركز جيش مارسين وماكس من « أوبرجلو » وشمالاً حتى قرية أخرى تسمى « لوتزينجين » وإلى الشمال من « لوتزينجين » كانت هناك تلال مكسوة بالغابات ، وبالتالى فقد كانت هناك حماية طبيعية لكلا جانبي الموقع الدفاعى للقوى للفرنسيين والبافارين ، علاوة على أن القرى كانت عبارة عن حصون قوية ويمر مجرى الفيديل من أمامها ، كما كانت هذه الحصون لديها تفوق فى المدفعية . ومهما كانت قوات الطرفين أكثر وأقل كفاءة ، فكان تعداد كل قوة متضادة من الجيشين من ٥٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠ رجل .

لقد وضع مارلبورو ويوجين أن توزيع جيوش الأعداء غير سليم ، فكانت موزعة بشكل غير متصل ، وقد تم وضع الفرسان على الجناحين طبقاً للعرف الجارى فى كل جيش ، عدا جيش تالارد الذى وضع فرسانه على يساره لعدم وجود مكان على يمينه نظراً لوجود النهر . وكان هذا يعنى فى الواقع أن مركز الجيوش المشتركة حول « أوبرجلو » يتكون بشكل سائد من الفرسان ، ومن المسلم به أن الأرض كانت مناسبة لمعركة الفرسان .



الجمعة ٢٩ - معركة بلنهم

ومظهراً آخر من مظاهر ضعف تخطيط الفرنسيين ، فكان جيش تالارد يبعد حوالى ١٠٠٠ ياردة إلى الخلف من النيبيل . ولسوف تكون من المفيد فى هذه المرحلة أن ندرس بشيء من التفصيل توزيع القوة الفرنسية البافارية ، لأن تفكير تالارد يحتاج إلى شيء من التعليق . وقد جاء فى بعض المراجع الرسمية بأن سبب وجود جيش تالارد على مسافة ١٠٠٠ ياردة خلف مجرى النيبيل ، لأنه لم يتوقع حدوث هجوم عليه فى ١٢ أغسطس أو حتى فى ١٣ أغسطس ، لذلك أعتقد أنه لا حاجة تدعوه لإتحاذ الحذر من المفاجأة والتي تعتبر من أهم العوامل المؤثرة فى الحرب . وكان هناك قاعدتين تكتيكيتين رئيسيتين تشكلان دائماً جزءاً من تفكيرى العسكرى .

١ — يجب على القوة الموجودة فى حدود مسافة الهجوم من العدو أن يتم توزيعها وتنظيمها فى تشكيل قتال ملائم ، بحيث تكون مستعدة فى جميع الأوقات للقتال بسرعة إذا فوجئت .

٢ — يفقد المانع ٥٠٪ من قيمته إذا ما وضعت القوات بعيدة عنه وإلى الخلف منه ، وهذا سيمتتح للعدو إستطلاع طرق الإقتراب المؤدية إليه وبالتالي يستطيع العبور بدون أى تدخل .

وقد أفادنى هاتين القاعدتين فى أكثر من مناسبة فى الحرب . وقد يكون من المفيد أن أذكر مثالين لذلك ، فالمثال الأول فى أفريقيا ، فقد قاتل الجيش الثامن تحت قيادتى شاقا طريقه من العلمين حتى واجه فى مارس ١٩٤٣ خط ماريث المشهور على الحدود التونسية . وهناك أوقفنا روميل ثم قام بمهاجمة جيش أيزنهاور ودفعه إلى أقصى الشمال موقعا هزيمة فادحة بإحدى الفيالق الأهرىكية فى منطقة « جافصة » . وبدأنا نضع فى اعتبارنا عدم الاستخفاف بخصمنا روميل ، وكان لديه قوات قوية فى الشمال وفى المدى المؤثر للضرب على قواتى ، وكان من الممكن أن يستدير ويتحول جنوبا ليشن هجوما مفاجئاً ضدنا ، والذى إذا نجح فسوف يؤخر نهاية الحرب فى أفريقيا ، وهذا هو ما فعله تماما . ولكن قواتنا كانت موزعة فى تشكيل ملائم وعلى استعداد للقتال بسرعة ، فما كان من روميل أن انسحب .

أما الشمال الثانى فكان فى شمال غرب أوروبا ، فى ديسمبر ١٩٤٤ كانت جيوش الحلفاء على عتبة ألمانيا تخطط لعبور الراين ، فى ذلك الوقت كان هتلر نجح فى بناء وإعادة تجهيز احتياطى استراتيجى من بعض الفرق المدرعة ، وكما نعلم ذلك ، ولكننا لم نستطع أن نتحقق من مكان تمرکز هذه القوات .

وكانت الجيوش الإنجليزية والكندية تحت قيادتى فى القطاع الشمالى من مواجهة الحلفاء وحالتها جيدة من التوازن التكتيكى ، ولذلك لم تتواجد لدى أى مخاوف . ولكن لم يكن الحال كذلك على الجبهة الأمريكية ، لأن جيوشهم كانت موزعة فى تجمعين رئيسيين ، وقد فتح كل منهما فى تشكيل المعركة للهجوم وكان يوجد بينهما ثغرة حوالى ١٠٠ ميل عبر الأردن والتي كان يغطيها فيلق واحد فقط مشكل من ٤ فرق ضعيفة .

وبعد أن درس هتلر الموقف أختار هذه الثغرة بالذات ليدفع فيها بهجومه الكبير ، وفوجئت الجيوش الأمريكية ، وأنشطرت جبهتهم إلى قسمين ، وتكبدوا خسائر فادحة تتراوح بين ٨٠.٠٠٠ مقاتل ولى كلمة عن المواقع والموانع ، فخلال عملية الانسحاب من بلجيكا إلى دنكرك فى مايو ١٩٤٠ كمت فى ذلك الوقت قائداً للفرقة الثالثة البريطانية . وكنت دائماً أحرص كل الحرص فى التأكد من أن نيران ودوريات قواتى تعوق الألمان من الاستطلاع القريب للمواقع والموانع التى أنشأتها على النهر ، ونتيجة لذلك لم نجد صعوبة فى الاحتفاظ بمواقعنا حتى حان وقت الانسحاب فانسحبنا إلى مواقع أبعد .

المبارزة بالدفعبة

(أنظر اللوحة رقم ٢٩)

لنعد الآن إلى أحداث قصتنا التى أدت إلى معركة بلنهم . كان الجيش الفرنسى بقيادة تالارد فى المدى المؤثر للجيوش المتحالفة والتى يقودها القائدان العظيمان مارلبورو ويوجين . ولم يأخذ تالارد أى احتياط ضد المفاجأة ، ولو أنه دفع بقواته إلى الأمام حتى حافة النهر فى يوم ١٢ أغسطس لأصبحت عمليات جيش مارلبورو صعبة جداً فى إقامة الجسور وما سيتبعها من عبور الجيش . وكما ذكرت قبل ذلك أن تالارد كان ذكياً ، ولكن فى هذه المرة كان فى غاية الغباء بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .

أما مارسين وما كس فقد عملاً بتعقل أكثر بكثير فى الجزء الشمالى من الجبهة . فقد

أحتفظنا بالأرض الصلدة الملائمة للحافة السبخية للنهر حتى يمكنهما تدمير قوة العدو قبل أن تستجمع نفسها بعد خوضها لهذا النهر الضحل الذي يشبه المستنقع . لاحظ مارلبورو ويوجين ذلك وقررا نتيجة لتحمسهم للقتال ولثقتهم في مهارة رجالهم مهاجمة العدو ومفاجأته في الصباح التالي الموافق ١٣ أغسطس (١) .

بدأ تحرك جيوش الحلفاء قبل الفجر ، ومع شروق الشمس كان هناك تسعة قولات من الجنود قد تدفقت داخل السهل على شكل مروحة متخذين تشكيل القتال ، وتحركت جميع المشاة الدانمركية والبروسية والفرسان النمساوية تحت قيادة يوجين شمالا في اتجاه لوتزينجين لتشكيل الجناح الأيمن للهجوم .

أما القوة الرئيسية المكونة من الإنجليز والهولنديين والهانوفرين والهسبين تحت قيادة مارلبورو فقد تقدمت مباشرة إلى الضفة الشرقية من النييل . وبالرغم من أن تالارد لم يكن يتوقع الهجوم ، إلا أنه في الساعة السابعة لم يعد لديه أدنى شك في أن هجوماً سيقع لا محالة . وهب الفرنسيون على عجل يستحثون أنفسهم للعمل بسرعة . وأضطرب تفكيرهم بسبب هذه المحنة والخطر الجاسم عليهم ، ونجحت المفاجأة ، ووجد مارلبورو ما كان يأمله ، فكانت مواقع العدو موزعة بمحاذاة خيامهم .

وقد كان هناك دفاع قوى عن بلنهم ممثلا في ٩ كتائب مشاة ويعاونها ٧ كتائب أخرى بالإضافة إلى ١١ كتيبة في الإحتياطى . وفي المنطقة بين بلنهم وأوبرجلو كان لدى الفرنسيين ٤٤ سرية فرسان في خطين تدعمها ٩ كتائب مشاة وأربع سرايا من الفرسان المترجلة بينما دافع عن أوبرجلو ٣٢ سرية فرسان و ١٤ كتيبة مشاة . وإلى اليسار كان هناك ٣٢ سرية فرسان و ١٧ كتيبة مشاة وأخيراً كان يوجد في لوتزينجين ٥١ سرية فرسان و ١٢ كتيبة مشاة .

وبينما كانت طوابير يوجين تشق طريقها نحو لوتزينجين فوق الأرض المشجرة والمكسرة ، كان مارلبورو يراقب أوضاع أنتشار الفرنسيين والبافارين ، وكان الجناح الأيمن

(١) في نفس التاريخ الذى تولى فيه مونتهجورى قيادة الجيش الثامن في الصحراء الغربية في مسير عام ١٩٤٢ ، وقد سجل سيرونستون تشرشل في مذكرات هذا التطابق ارمى الغريب . « الم - ٥ »



معركة بلنهم

للعـدو قويا وبشكل خاص لوجود قوات كبيرة فى قريتى « أوبرجلو » و « بلنهم » . بينما كان على يوجين أن يقاتل العدو بقوة فى الشمال محاولا بقدر الإمكان تطويقه من الخلف . وكان الجزء الحاسم من المعركة قد أصبح وشيك الوقوع بين مارلبورو وتالارد فى أقصى الجنوب ، وتوقع مارلبورو مقاومة تالارد له أثناء عبور النييل ، وبناءاً عليه فقد نشر مارلبورو جنوده فى تشكيل غير عادى من أربع خطوط .

فى المقدمة كان هناك ١٧ كتيبة مشاة واجبها عبور النييل والإستيلاء على الضفة الغربية ، ويأتى من خلفهم خطين من الفرسان ، الخط الأول مشكل من ٣٦ سرية والخط الثانى مشكل من ٣٥ سرية وكان مهمتهما القيام بالهجوم الرئيسى . ثم جاء تشكيل الخط الأخير المكون من ١١ كتيبة من المشاة وكان عليه البقاء على الضفة الشرقية لنييل لتغطية أى إنسحاب محتمل للفرسان . ومع بداية المعركة ، كان على المجهود الرئيسى للهجوم أن يوجه إلى القريتين ، وكان هذا سيفاجأ العدو ، كما حدث قبل ذلك ضد أقوى جزء من سسلنبرج . وإذا أمكن تطويق حاميتى القريتين ، فلن يستطيعا القيام بهجوم مضاد على أجناب تقدم الفرسان التى ستتمكن من اختراق منتصف الخط الفرنسى البافارى . وبدأت أول أحداث المعركة فى الساعة العاشرة صباحاً بتحريك قولات اللورد « كتس » المشكلة من المشاة عبر النييل فى مواجهة بلنهم حيث كانت ضفة المجرى متماسكة إلى حد ما ، ولكن كان لا يمكن بدء الهجوم الرئيسى حتى يصل الجناح الأيمن بقيادة يوجين إلى المكان الملائم . وعلى مدى أربع ساعات وحتى الظهر جرت مبارزة بالمدفعية مسببة خسائر فادحة ، بينما مضى المهندسون العسكريون فى جيش مارلبورو فى تركيب ستة كبارى فوق المجرى المائى . وأثناء ذلك كان الرجال يقومون بالصلاوات والتضرع إلى الله ، وأخذ مارلبورو يتفقد الخطوط ، وعند إحدى النقاط أختفى عن الأنظار نتيجة للأتربة والدخان المنبعث عن سقوط قبلة بالقرب منه . وكانت الشمس حامية ، وانتظر الجميع فى توتر ولكنه ظهر ولم يصبه خدش .

لا يعرفون سوى كيف يموتون

وأخيراً وبعد الظهر بقليل وصل رسول من قبل يوجين ليبلغ مارلبورو بتمام الإستعداد ، وعليه أصدر مارلبورو أوامره بالتحرك للهجوم . وعلى اليسار تقدم للأمام أول ألوية كتس

نحو بلنهم ، وكانت الأوامر تقضى ألا يطلق النيران حتى يصلوا إلى السياج المحيط بالفرنسيين .
وعندما كان المهاجمون على مسافة ٣٠ خطوة من العدو ، وإذا بقصفه نيران فرنسية تدمر
ثلث قوة المهاجمين ، ولكن على الفور تدعم الهجوم بلوائين آخرين .

في ذلك الوقت كان المركيز « دى كليرا مبولت » قائد الفرنسيين في بلنهم قد أرسل
يستدعى السبع كتائب لمعاونة كتائبه التسعة الأولى . واستمر القتال بوحشية كما حدث
في سشلنبرج .

وعندئذ فقد « كليرا مبولت » صوابه واستدعى احتياطيه الأخير المكون من ١١ كتيبة .
وواصل جيش مارلبورو هجومه ولكنه لم يستطع اختراق طريقه إلى داخل القرية ، ومع
ذلك فقد استمروا في تنفيذ مهمتهم وهي كسر مقاومة العدو . وبوصول ١٢٠٠٠ جندي
فرنسي لمؤازرة قوى الحامية الأصلية أصبحت القرية مكتظة بالفرنسيين بدرجة أن أصبحت
حرية الحركة مستحيلة . وهنا أمر مارلبورو بتثبيت ومحاصرة القوات في بلنهم حتى لا تكون
لديهم القدرة على المشاركة في المعركة في أى مكان آخر . وبينما كان هذا القتال العنيف يجرى على
الجانب الأيسر طوال اليوم ، كان يوجين يقوم بدور مماثل على مواجهة أوسع في الجانب
الأيمن . وخاض قتالا ضاريا طوال اليوم لحصار وكسر مقاومة العدو بين « أوبرجلو »
و « لوتزينجين » مراقباً في نفس الوقت المعركة الرئيسية التي تدور بعيداً إلى الجنوب وعلى
أستعداد لأمداد هذه المنطقة بالقوات إذا دعت الضرورة لذلك ، وربما يحتاجها مارلبورو
بالرغم من أنه كان يصعب عليه شخصياً توفيرها .

وأخذت التطورات الحاسمة مكانها في الوسط عند قرية « أوبرجلو » وجنوبها ،
وكان مارلبورو يقود بنفسه القوات في هذا المكان وفي نفس الوقت يراقب ما يجرى من
أحداث عند بلنهم . وقد ركز مارلبورو أهتمامه بالعمليات في الوسط والتي طأونه فيها قاده
المرؤوسين بكفاءة رائعة وخاصة لورد « أوركني » وشقيقه « تشارلز تشرشل » . وعلى
العكس من ذلك أخذ « تالارد » في التحرك ذهاباً وإياباً عبر مختلف أجزاء جبهة القتال ،
دون أن تكون له السيطرة الكاملة على أى منها وغير مدرك في الحقيقة لما يدور .

وبدا واضحاً الآن أن تالارد قد ارتكب خطأ فادحاً في بداية المعركة في السماح للخطوط

الأولى من مشاة وفرسان العدو في منطقة الوسط بعبور النيبيل دون أن يتصدى لها فيما عدا نيران المدفعية . وقد تكون فكرته أنه كلما زادت قوات العدو التي تعبر المجرى المائى إلى حد معين كلما زادت القوات التي يمكن تدميرها ودفعها للخلف فيه وذلك عندما يطلق فرسانه الأكثر عدداً في هجوم مضاد .

وإذا كان ذلك فعلاً قد دار برأسه ، فذلك يعنى أنه أساء تطبيق ذلك التكتيك عملياً لأن ما حدث أنه لم ينفذ الهجوم إلا بعد أن تشكلت قوات الحلفاء على الضفة المجرى التي يتمركز عليها قواته . وبينما كان القتال داراً على أشده ، ترنح واضطرب قوات الحلفاء في عدة نقاط إلا أن تالارد لم يتمكن من دفعها إلى الخلف .

وفي الواقع فقد أستطاع المزيد من قوات مارلبورو العبور وبدأوا في كسب الأرض بأعدادهم المتفوقة وبتكتيكهم الأفضل . وبفضل الترتيبات الطويلة السابقة عملت المشاة والفرسان في تعاون وثيق .

فدفعت الفرسان في المقدمة حيث انقضت على العدو ، بينما وضعت المشاة خلفهم كأحتياطي ومشكلة في صفوف بينها فواصل حتى تستطيع الفرسان في حالة الإنسحاب المرور من خلالها وإعادة تشكيل وتنظيم نفسها في الخلف ثم القيام بهجوم تالى ، وفي ذلك الوقت تقوم المشاة بستر فرسانهم بإطلاق وابل من النيران المركزة على فرسان العدو التي تكون في أثر فرسانهم .

وكان يستطيع أيضاً رجال المشاة المدربون على استخدام السونكى الوقوف والتصدي لفرسان العدو في قتال متلاحم بشكل أكثر كفاءة من قبل .

بينما لم تؤدى المشاة الفرنسية دورها كما يجب في هذه المرحلة من المعركة ، فقد كانت عبارة عن ٩ كتائب من المجندين صغار السن والذين قال عنهم ترافيليا : — « لا يعرفون شىء عن المارك سوى كيف يموتون في مواقعهم » .

رسالة الى الزوجة « سارا »

وفي وقت مبكر من بعد الظهر جاءت ذروة المعركة ، عندما تقدمت ١٠ كتائب مشاة من الحلفاء بقيادة أمير « هولستين بيك » لاقتحام قرية أوبرجلو ، وهنا قامت ٩ كتائب

من المشاة الفرنسية والإيرلاندية بقيادة الماركيز دى بلانفيل يهجوم مضاد يائس من القرية واستطاعت رد المهاجمين على أعقابهم حتى مجرى النيبيل مرة أخرى .

وفجأة أصبح الجانب الأيمن فى وسط قوات مارلبورو معرضاً للهجوم ، ولاح خطر إنشطار جيش مارلبورو ، ولاحظ مارسين ذلك ، فقام على الفور بتجميع قوة من الفرسان بالقرب من أوبرجلو . وأدرك مارلبورو ذلك الخطر فأرسل رسالة عاجلة إلى يوجين يطلب منه تدعيمه بالفرسان .

وعندما بدأ رجال مارسين فى الإندفاع نحو مجرى النيبيل لشئ الهجوم ، فإذا بلواء الفرسان الذى أرسله يوجين قد وصل فى اللحظة الحرجة وأشتبك معهم ووجه ضربته نحو جنبهم واستطاع طردهم ، وعلى الفور استجمعت مشاة هولستين بيك قواها وعادت الهجوم مجبرة خصمها على العودة للخلف داخل أوبرجلو وتثبيتهم داخلها . ومن الأرجح أن يكون مارلبورو هو القائد الوحيد من الحاضرين الذى فهم أن النصر فى المعركة أصبح يتوقف على نتيجة هذا القتال .

وأصبح هناك أعداد كبيرة من قوات العدو محصورة فى بلنهم وأوبرجلو ، كما استطاع يوجين تثبيت جناح العدو الأيسر ، ولم يعد الآن أمام جيش مارلبورو إلا أن يركز قوة ساحقة فى الوسط لتحقيق النصر كاملاً .

ولكن مارلبورو أخذ ينتظر الفرصة المناسبة ، وثبت الموقف فى الوسط لكى يعطى لرجاله فسحة من الوقت لتأخذ أنفاسها ويعيد تنظيم القوات والتكتيكات على كل جبهة القتال ، مع تجهيز التشكيلات التى ستقوم بالضربة الحاسمة .

أما يوجين فكان لا يزال أمامه الكثير من العمل الشاق فى الجانب الأيمن . ولم تكده الساعة تعلن الرابعة بقليل حتى كان رجال يوجين يقاتلون حول وخلف « لوتزينجين » . وفى ذلك الوقت أحضر مارلبورو آخر قواته عبر النيبيل ، ووضعها على الجبهة الواقعة بين بلنهم وأوبرجلو ، وشكلها كالاتى : — خطين من الفرسان وصل مجموعهم إلى ٩٠ سرية ومن ورأهم وضع ٢٣ كتيبة مشاة فى خطين آخرين .

وكان فى الجانب الآخر وفى مواجهتهم يوجد لثالارد ٦٠ سرية فرسان على الأكثر وتسع كتائب مشاة .

وعندما أترك تالارد أخيراً تكتيكات مارلبورو ، أحضر مشاته ودفعهم مباشرة إلى جنوب أوبريلو لصدم الهجوم .

أما مارلبورو فلم يكن قد أكمل بعد فتح فرسانه في تشكيل القتال ، ولذا أرسل ٣ كتائب مشاة وبعض المدفعية للتعامل مع مشاة تالارد .

ولفترة وجيزة ، كانت المشاة الفرنسية لها الأفضلية في الصدام ، ولكن فرسانهم لم ينمّزوا هذه الفرصة للقيام بالهجوم .

وما أعلنت الساعة الخامسة والنصف حتى كان مارلبورو مستعداً . وقد دمرت مدفعية مارلبورو تقريباً آخر ماتبقى من التسع كتائب الفرنسية الباسلة ، ثم انقضت بعد ذلك فرسان مارلبورو في هجوم كاسح .

ومن فوق أرض لوزينجين المرتفعة كان مشهد السهل على مرأى من أعين قوات الجانبين . ومع تحرك فرسان الحلفاء للأمام في خط كبير والفخذ في الفخذ وبسرعة متوسطة وهي تكسب الأرض ، فما كان من الفرسان الفرنسية أن انطلقت هي الأخرى لتقابلها . والفرسان الفرنسية كانت هزيمتهم محققة حتى ولو كان أعدادهم أكثر من فرسان مارلبورو ، لأن هجوم الفرنسيين كان عبارة عن إندفاع لسرايا فرسان فردية تقف وقفة قصيرة في اللحظة الأخيرة لتطلق نيران مسدساتها ، وفي هذا التوقف للفرنسيين يزيد فرسان مارلبورو سرعتهم ضاربين خصومهم بأقصى ما يمكن أن تحمقه الصدمة الناتجة من سرعتهم وثقل تشكيلهم المجمع ، معتمدين على السيف في قتالهم .

أما الثغرات التي حدثت في خط جبهة مارلبورو نتيجة تحرك الفرسان للقضاء على الفرنسيين كانت تملأ على الفور من الحلفاء ودفع الفرنسيون للخلف بسرعة ، وأخذوا يتراجعون ولكن سرعتهم زادت حتى وصلت إلى سرعة الهروب .

وتحت ضغط قوات مارلبورو اندفع الشاردون من الوسط الفرنسي نحو الدانوب وأخذوا يتساقطون من فوق المنحدرات ويتخبطون في المستنقعات .

أما المارشال تالارد والذي كان يشق طريقه إلى بلنهم إحساساً منه بالواجب فقد وقع

في الأسر وأحضر إلى القائد العام للحلفاء ، في تلك اللحظة كلن مارلبورو يخط رسالة^(١) إلى زوجته سارا وهو على ظهر جواده : — « لا يتسع لي الوقت لأقول أكثر ، ولكن أرجو أن تبلغني إحترامى للملكة ، وتحيطينها علماً بأن جيشها قد حصل على نصر باهر . وأن السيد تالارد وجنرالين آخرين موجودين في عربتي وأنا في أزلت في أثر الباقي » .

وفي اللحظة التي تحطم فيها وسط الفرنسيين ، غير اللورد « أركنى » اتجاه قواته المشككة من الإنجليز والاسكتلنديين وانضم إلى كتس وتشرشل في تطويق بلنهم لمنع أى انسحاب من القرية إلى ضفاف الدانوب .

أما « كايرو مبوات » ، فقد أصابه الذعر وقفز في النهر حيث غرق ، ولم تكد الساعة تعلن التاسعة مساءً حتى استسلم جميع الضباط الفرنسيين الموجودين في بلنهم .

وأمكن أسر ٩٠٠٠ رجل غير جريح من قوات العدو الموجودين في القرية . أما أوبرجلو فقد تم اجتياحها في زحف كبير . وبقي الآن كل من مارسين وماكس واللذان شهدا ما كان يجري في المعركة بالرغم من بعدها عن مركز الهزيمة ، ففي حوالى الساعة السابعة قاما بعملية انسحاب منظمة نحو الغرب ، ولم يتم مطاردتهما لعدم وجود إحتياطى عند مارلبورو ، علاوة على حلول الظلام وتحتم عليه التعامل مع عدد كبير من الأسرى بالإضافة أن جيش مارلبورو قد خسر حوالى ٤٥٠٠ قتيل و ٧٥٠٠ جريح أى ٢٠ ٪ من قوته . بينما كانت خسائر الفرنسيين حوالى ٤٠٠٠٠ من بينهم ١٤٠٠٠ أسير أى ٧٠ ٪ من قوتهم بالإضافة إلى فقد ٦٠ مدفع .

وكانت معركة بلنهم معركة حاسمة وعميقة النتائج .

ففي بداية عام ١٧٠٤ كان لويس الرابع قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مطامعه للسيطرة على أوروبا ، فقد كانت أسبانيا والأراضي الأسبانية الواطئة وإيطاليا في حوزته ، كما أن إمبراطور النمسا بدا على وشك أن يتهوى تحت قدميه .

ولكن لويس بعد الحملة التي قام بها هذا العام ، قرر اتخاذ موقف الدفاع نتيجة لعلمه بأن

جيشه أصبح أقل تفوقاً علاوة على أن اقتصاده أصبح مجهداً . وكان يلتمس فقط سلاماً محترماً لكي يحافظ على حدوده .

وبتلك الحملة التي سار بها مارلبورو إلى الدانوب ، وعلى الأخص تلك الساعات الثلاث التي استعاد فيها زمام الموقف في أوبرجلو وأطلق بعدها هجوم الفرسان ، فقد بدد بذلك السحابة التي كانت تخيم كالسيف المساط على أوروبا لمدة أكثر من أربعين عاماً . أما الجنود البريطانيون الذين ظلوا في طي النسيان حوالى القرنين والنصف الماضيين في أوروبا ، قد حققوا الآن مكانة مرموقة كأفضل جنود في العالم .

علاقات عصره

ولكن حتى الآن فالحرب لم تضع أوزارها بعد ، وقد تعين على مارلبورو أن يخوض القتال في الأراضي الواطئة في الفترة من ١٧٠٥ — ١٧١١ ، بكل المشاكل القديمة والخاصة بجبن الهولنديين وتحصينات الفرنسيين .

وكان من الصعب خلق المعارك بالرغم من تحقيقه لثلاثة إنتصارات كبرى في راميلاز (١٧٠٦) وأودينارد (١٧٠٨) ومالبلاكويت (١٧٠٩) . وكانت الحرب في معظمها حرب حصار ومناورات صغيرة ، ولكن على الرغم من هذه الحرب التي لا تلائم طبيعته إلا أن عبقرية مارلبورو تفوقت . وعلى سبيل المثال ففي عام ١٧٠٨ اقترح أن يتبع إنتصاره في «أودينارد» بتقدم مباشر إلى باريس ، ولكن هذا الاقتراح لم يوافق عليه القادة الآخرون الذين أصروا على محاصرة «ليل» .

وبينما كان يوجين يقوم بالحصار الفعلي ، غطى مارلبورو عملياته ، وذلك لحمايته من تلك القوة الأكبر منه والتي يقودها كل من المارشال «فيندوم» و «بيرويك» . ومن يولييه حتى ديسمبر ظل مارلبورو يصد ويبعد القوة الفرنسية التي أخذت تحاول نجدة المدينة ، وذلك بالقيام بالمناورة التي تجلى فيها الإقتصاد وبعد النظر بشكل غير عادي ، وفي كل مرة كان يتجنب الضربة القاتلة للعدو قبل أن يقوم بها .

ولم يمض على ذلك وقتاً طويلاً حتى بدأت العلاقات بين مارلبورو ورؤسائه السياسيين تسوء ، لأن استراتيجيته لإنهاء الحرب لم تتفق مع سياسة أى حزب من الأحزاب السياسية

فى إنجلترا ولذلك فى نهاية عام ١٧١١ أعفى من القيادة .

وقد استحوذ مارلبوروا انتباه جميع المؤرخين العسكريين لأنه كان عملاق عصره ، ولكن كان هناك قائدین أقل منه بعض الشيء فى حرب الأثر الأسباني يستحقان الذكر ، الأول هو « أيرل من بترورو » والذي قاد الحملة البريطانية على أسبانيا عام ١٧٠٥ ، وفى العامین اللاحقین أخضع وقهر كل من برشلونه وفالينسيا والشاطيء الشرقى فاتحاً بذلك الطريق إلى مدريد . ويرجع تحقيق هذه المكاسب المثيرة وبقدر قليل من القوات إلى الجسارة والجرأة والمهارة فى الخداع ، كما أنها رجعت أكثر من أى شيء آخر إلى سوء القيادة والضعف الغير عادى فى المهارة العسكرية لدى الجانب الآخر .

وقد استولى « بترورو » على فالينسيا دون أن يطلق قذيفة واحدة حيث أقنع الجنرال الأسباني « لاس تورى » والذي كان معه ٧٠٠٠ رجل بالانسحاب لمدة تقرب من شهر أمام قوة لم تزد أبداً عن ١٣٠٠ رجل بل لم تزد فى أحد النقط عن ١٥٠ رجلاً .

وقد قام « بترورو » بخداع « لاس تورى » بأن دفع بعض ضباطه عمداً لكي يأسره « لاس تورى » حيث قاموا بتحذير القائد الأسباني من خطورة وضخامة جيش « بترورو » ونجحت المكيدة .

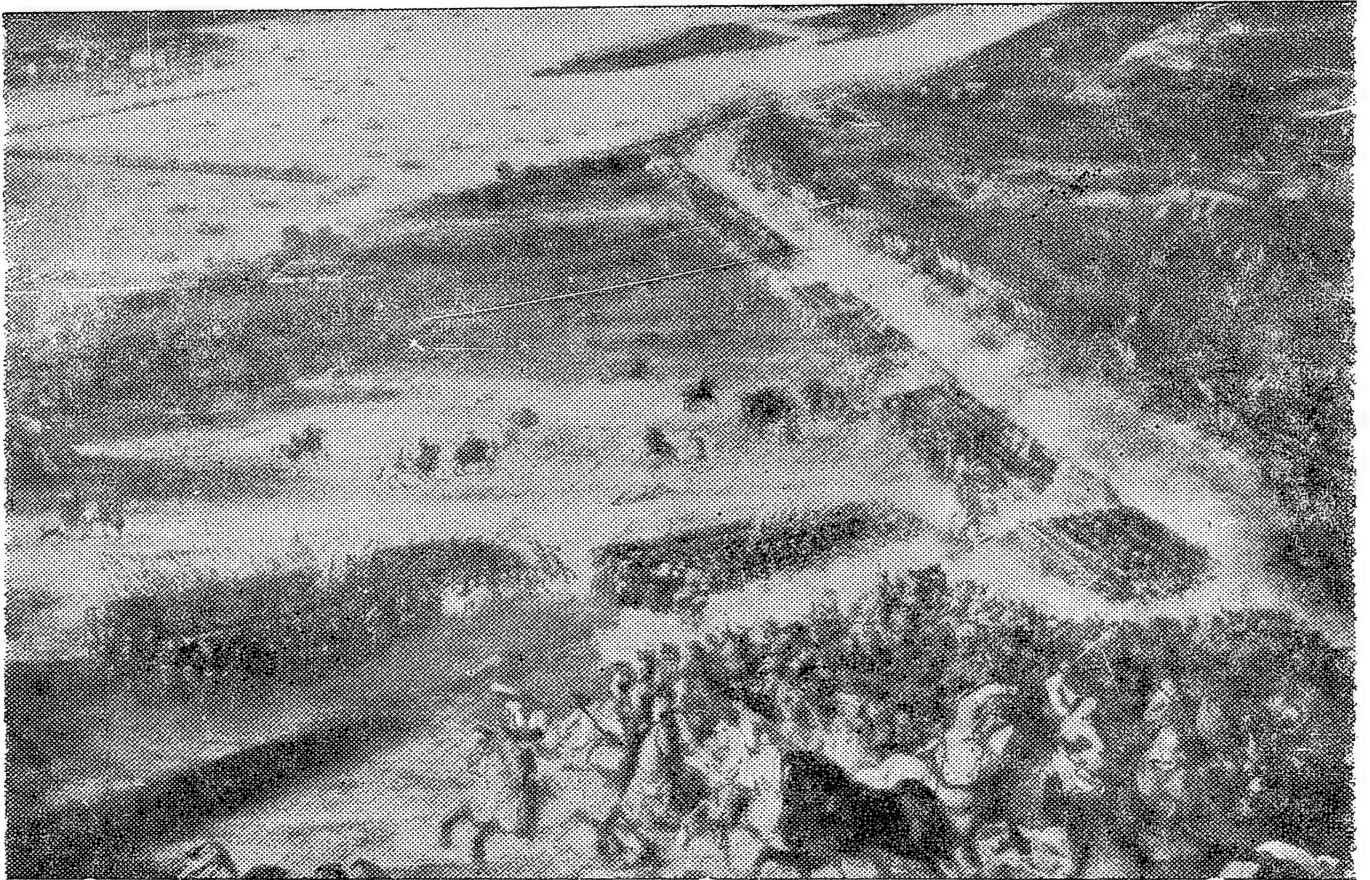
وأثارت أعمال بترورو الرائعة فرحاً فى لندن وذلك فى الوقت الذى كانت الحرب فى الأراضى الوطئة تتقدم ببطء شديد ، ولكنها كانت فى الحقيقة شيئاً خيالياً أكثر من كونها واقعاً حقيقياً .

أما الشخصية الثانية والتي كانت أكثر أهميته هى المارشال « فيلارز » والذي كان إلى حد بعيد أقدر جنرال لدى لويس الرابع عشر بعد « كوندى » و « تورين » . وهو الذى وضع فينا فى خطر عند انتصاره فى ألمانيا عند « فريد لينجين » عام ١٧٠٢ وعند « هونشستات » عام ١٧٠٣ . وكيفما كان فقد كان فيلارز جندياً محترفاً أكثر من كونه أحد رجال البلاط ، كما أن سرعة إحتياجه وفضاضته قد جعلاه محبوباً بين رجاله أكثر من حب رؤسائه السياسيين له . ولبعض الوقت فقد أجبر « فيلارز » على الإنزواء وعدم الظهور على مسرح الأحداث .

ولكن فى عام ١٧٠٩ تولى القيادة الرئيسية على الجبهة الشمالية ، وفى الواقع لم يستطع أن يكون أفضل من مارلبورو ، ولكنه أقام دفاعاً قوياً جداً . وكان مغامراً لا يتردد فى خوض المعارك ، ولكن كان فى نفس الوقت حذراً بدرجة مناسبة .

وفى عام ١٧٠٩ عندما كان جيشه يشكل الخط الدفاعى الأخير الفرنسى قبل باريس وكان قوام جيشه أقل من عدد أعدائه إلى حد كبير ، وبالرغم من أنه كان يعانى شخصياً من جرح خطير حدث له فى المعركة إلا أنه أدار معركة « مالبلا كويت » وجعل انتصار مارلبورو وجيوشه فى هذه المعركة نصراً باهظ التكاليف .

وفى عام ١٧١٠ استمر فى صد العدو ، وأيضاً فى عام ١٧١١ عندما شيد فيلارز خطه الدفاعى الشهير « خط الذروة » والذى امتد من شاطئ سكاردى إلى نامور . وقد استغرق مارلبورو طوال مدة حملته وهو يحاول إختراق هذا الخط .



الجيش السويدى يهاجم الجيش الروسى

وعندما رحل مارلبورو عن المسرح ، استطاع فيلارز النيل من يوجين والتفوق عليه في عام ١٧١٢ ، وهزمه في معركة دينين^(١) دافعاً الحلفاء للخلف . وهكذا بعد أن خسرت فرنسا كل حملات الحرب ، جاءت في النهاية وانتصرت . وشكراً لقوة ومناعة تحصينات فوبان وقيادة فيلارز ، وبذلك حصلت فرنسا على شروط معقولة في المعاهدة الأخيرة «معاهدة أوترخت» عام ١٧١٣ . وقد عاصرت الحرب الشمالية العظمى بين السويد وروسيا (١٧٠٠ — ١٧٢١) حرب الأثر الأسباني ، بل استمرت فترة أطول منها . وكانت الدولة الموسكوفية^(٢) مجبرة على التوسع إلى أن تجد لنفسها حدوداً يمكن الدفاع عنها . وحدث بالفعل صداماً بينها وبين السويد في خمسينات القرن السابع عشر ، تلك القوة الكبيرة الراسخة في الشمال . وسوف أتعرض في هذه الحرب لشخصية عسكرية واحدة وهي شخصية شارلز الثاني عشر . ففي عام ١٦٩٧ أصبح ماركاً على السويد وعمره خمسة عشر عاماً . ومن المؤكد أنه كان يتمتع بصفات شخصية استثنائية ، كما أنه ورث التقاليد العسكرية التي حوفظ عليها منذ عصر جوستاف . وكان مغرمًا بالحرب بكل ما فيها من قسوة ومخاطر كما كانت لديه قوة احتمال كبيرة . وتوفرت لديه الرغبة أيضاً في القيام بنفسه بكل الأعمال البطولية ذات الطابع التهور والتي كان يطلبها من جنوده . ولكنه كان غير حكيم فيما يتعلق بالتورط في الحرب مع روسيا .

وقد أتبع « بطرس الأكبر » الاستراتيجية المتمثلة « بقداسة القدم » والتي تتضمن تجنب المعركة وأغراء العدو بالتقدم إلى قلب المناطق المترامية والمفتوحة في روسيا وبالتالي يجعل العدو يواجه مشاكل المسافة والطقس والدمار والغارات المتكررة التي تشن عليه عبر خطوط المواصلات الطويلة . وكما علق نابليون : « لقد أنهك شارلز معظم مبادئ القيادة » .

وكان شتاء عام ١٧٠٨ — ١٧٠٩ قاسياً وبشكلاً غير عادي ، جعل الجيش السويدي يعاني منه بطريقة مرعبة .

وجاءت الطامة الكبرى في يونيو ١٧٠٩ عندما كان السويديون يحاصرون « بلتافا »

(١) في فرنسا جنوب غرب فالينسيينز .

(٢) نسبة إلى موسكو .

في أوكرانيا وأطبق بطرس عليهم بقوات كبيرة متفوقة ، وجرح شارلز شخصياً وفر جنوباً ملتجئاً لحماية الأتراك ، ولم يجد جيشه ما يفعله سوى الاستسلام . وفي الوقت المناسب عاد مرة أخرى إلى السويد وحيداً . ولكنه استمر في خوض القتال إلى أن لقي مصرعه على يد أحد القناصة خلال حملته في النرويج عام ١٧١٨ .

وانتهت حرب الشمال العظمى عام ١٧٢١ بمعاهدة « تايسنات » ، وكانت هذه علامة أضحلال السويد وأنشاق روسيا كقوة كبيرة جديدة في أوروبا .

وقد أعتبر بعض الكتاب شارلز الثاني عشر على أنه أحد القادة الكبار نظراً لقيادته وانتصاراته في ميادين القتال ، وأنا لا أوافقهم على هذا لأن هذا كثير بالنسبة له . فلم يبدو أن كان لديه أبدا استراتيجية محددة واضحة ، فقد غالى في تقدير القوة العسكرية للحلفاء وقلل من قيمة القوى الكبرى لمقاومة الروس ، كما فعل كل من نابليون وهتلر فيما بعد . ولم يفهم ماهي السياسة الدولية . . ؟ كما كان يفتقر إلى الحكمة والذكاء . وسيكون تعليقي الأخير عليه أنه لم يكن لديه أى اعتبار بالنسبة لأرواح جنوده ، كما أنه هو الذي أوصل السويد إلى حافة الدمار .

مسابقة القراء

عدد

الجائزة الأولى : — ١٠ جنيهات مصرية ١

الجائزة الثانية : — ٣ جنيهات مصرية ٢

الجائزة الثالثة : — ٢ جنيه مصرية ٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحدها صحيح ، فعلى القارئ أن يضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم اختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع في مظروف عليه طابع بريد وترسل في بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالي :-

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين في الجزء التالي للكتاب والذي يظهر في أول كل شهر .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتهجمري الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

أسماء الفائزين في مسابقة الجزء الثالث

حل المسابقة :-

- ج ١ : ٢ — كوبرى ستامفورد .
ج ٢ : ١ — ٢٨ سبتمبر ١٠٦٦ .
ج ٣ : ١ — فيليب أغسطس .
ج ٤ : ٣ — معركة حطين .
ج ٥ : ٣ — الاحتضان .
ج ٦ : ١ — الراهب الإنجليزي روجر بيكون .
ج ٧ : ١ — فى عام ١٣٢٤ عند « متر » .
ج ٨ : ٢ — جونزالفو .
ج ٩ : ٣ — أسم مدفع .
ج ١٠ : ٢ — بين عامى (١٥٧٧ و ١٥٨٠) .

الجوائز :-

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٩٠٤
باسم : ناجى عبد المطالب
العنوان : ١٤ ش الدكتور عبد العزيز إسماعيل / مصر الجديدة

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

- ١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٤٢٧
باسم : بدر محمد على
العنوان : ٦٦ ش الفراغة بالإسكندرية
٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٨٤٠
باسم : حسن عبد الجواد
العنوان : شارع النادى بطنطا

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه واعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٥٥٧

باسم : وجيه زكى محمود

العنوان : شارع البحر بدمياط

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٩٥٢

باسم : حسن ممدوح

العنوان : بيروت ص . ب ٢١٣

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣١٢٨

باسم : فواز على جوشه

العنوان : العراق — بغداد ص . ب ٤٢٣

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد
(عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* ونظراً لوجود بعض القراء خارج جمهورية مصر العربية سيتم إرسال جوائزهم
عن طريق البريد الموصى عليه .

* هذا الكتاب يقع في سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتهجرى لكل
جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة
جديدة في الأجزاء التالية التي تظهر في أول كل شهر .

هكذا ينتهى الجزء الرابع من الكتاب ، أما الجزء الخامس فضمنه مونتجمرى الآتى : —



- * حرب جفكينزار .
- * شراء الرتب العسكرية .
- * المرض والقيـادة .
- * المعركة التى خالفت كل قواعد الحرب .
- * الحرب تحسم بالمعارك .
- * حرب العبقرية الفردية .
- * معركة أبوقير البحرية .
- * الرجال تستخرج من أحشاء الأرض .
- * نابليون يحتل نصف مليون ميل مربع .
- * إمساك الثور من قرنيه .
- * جانكينز خان .
- * اختراق سور الصين العظيم .
- * رسالة صن — تزو .
- * حرب الأفيون .
- * اليابان وفن الحرب .
- * ضحية بشرية لآلهة الحرب .
- * التنين الأصفر .
- * ملحمة الحرب .
- * الطبقة الكهنوتية .
- * بايور النمر .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الخامس .

عميد

فتحي حسين

المسابقة

مرة ١٥٠٠

- ١ — مؤسس الدولة العثمانية هو القائد
١ — عثمان .
٢ — أرطغرول .
٣ — أورخان .
- ٢ — في مدينة أدرنة عام ١٥٤٣ انتج أكبر مدفع شوهد حتى ذلك الوقت بواسطة
١ — أربان .
٢ — قسطنطين .
٣ — البارثون .
- ٣ — حوصرت فينا بالجيش العثماني تحت قيادة السلطان سليمان وكان تعدادها
١ — ١٠٠٠٠٠
٢ — ٣٥٠٠٠
٣ — ٧٠٠٠٠
- ٤ — كان يقود الاسطول المسيحي في معركة ليبانتو عام ١٥٧١
١ — بارباريجو .
٢ — دون جوان .
٣ — أندريا دوريا .
- ٥ — دارت معركة بريتنفيلد بين القائدين
١ — جوستاف وتيلي .
٢ — تورستنسن وبارنهام .
٣ — فورستنبرج وموترو .
- ٦ — « لقد تملكت قرون الملك جوستاف وفقدت حمتها » من قال هذا ؟
١ — مكسميليان .

٢ — ولنشتين .

٣ — فرديناند .

٧ — كانت خصائر حرب الثلاثين عاما في المانيا

١ — ٤ مليون فرد .

٢ — ٩ مليون فرد .

٣ — ٨ مليون فرد .

٨ — لقد أطلق البيرتانيون اسم « عاهرة بابل الصغيرة » على

١ — أمير الراين .

٢ — قرد كرومويل .

٣ — جوستاف .

٩ — لقد تم تحصين الثغرة بين « الجورا » و « الفوسيجس » بواسطة

١ — تورين .

٢ — كوندى .

٣ — سباستيان دى فوبان .

١٠ — كان يقود جيش الحلفاء ضد فرنسا في حرب الارث الاسباني

١ — مارلبورو .

٢ — روبرت بلاك .

٣ — جون مونك .

الاسم
العنوان

المحج عبي التايخ

A HISTORY OF WARFARE

الجزء الخامس

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمري

تعريب وتعليق العميد

فحي عبي التمر

رئيس مادة التاريخ العسكري بالكلية العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
في عيد العلم العاشر والحادي عشر

التصديق بالفهر

خطاب رقم ن / م ث / ١٦ / ٢٠٢١

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٤٥١	الفصل الرابع عشر : الحروب الاوروبية القرن الثامن عشر
٤٥١	* حرب جنكينزاي
٤٥٣	* شراء الرتب العسكرية
٤٦٠	* عصر العقل والرضا الذاتي
٤٦٣	* المرض والقيادة
٤٦٩	* المعركة التي خالفت كل قواعد الحرب
٤٧٨	* الحرب تحسم بالمعارك
٤٨٠	الفصل الخامس عشر : عصر نيلسون و نابليون ويلنجتون
٤٨٠	* حرب العبقرية الفردية
٤٨٢	* معركة أبو قير البحرية
٤٩٢	* الرجال تستخرج من أحشام الأرض
٥٠٢	* نابليون يحتل نصف مليون ميل مربع
٥١٣	* أمساك الثور من قرنيه
٥١٨	* نابليون
٥٢١	* ويلنجتون
٥٢٣	* نيلسون
٥٢٥	الفصل السادس عشر : الغول - الصينيون - اليابانيون
٥٢٥	* جانكينز خان
٥٣١	* اختراق سور الصين العظيم
٥٤١	* رسالة صن - تزو

تابع القهرس

الصفحة	الموضوع
٥٤٣	* حرب الأفيون
٥٤٦	* اليابان وفن الحرب
٥٤٩	* ضحية بشرية لآلهة الحرب
٥٥٣	* التفين الأصفر
٥٥٦	الفصل السابع عشر : الهند
٥٥٦	* ملحمة الحرب
٥٦١	* الطبقة الكهنوتية
٥٦٦	* القائد بابور النمر
٥٧٢	* الفراش والاهب
الخرائط :	
٤٥٦	* اللوحة رقم ٣٠ : أمريكا الشمالية في القرن الثامن عشر .
٤٦٧	* اللوحة رقم ٣١ : وسط أوروبا في عهد فريدريك الأكبر .
٤٧٠	* اللوحة رقم ٣٢ : معركة لوثن
٤٨٤	* اللوحة رقم ٣٣ : معركة أبوقير البحرية
٤٩٧	* اللوحة رقم ٣٤ : حملة أوستر ليتز عام ١٨٠٥
٥٠٢	* اللوحة رقم ٣٥ : معركة أوستر ليتز
٥٠٥	* اللوحة رقم ٣٦ : إمبراطورية نابليون
٥١٠	* اللوحة رقم ٣٧ : حرب شبه الجزيرة
٥٣٢	* اللوحة رقم ٣٨ : آسيا
٥٥٨	* اللوحة رقم ٣٩ : الهند

الفصل الرابع عشر

الحروب الأوروبية في القرن الثامن عشر

حرب جنكيزاير

يتضمن هذا الفصل ثلاث موضوعات رئيسية عريضة عن الحرب في القرن الثامن عشر. ونبدأ بالتنافس على الإمبراطورية بين بريطانيا وفرنسا والذي كان أساساً مسألة إستراتيجية بحرية وحرباً اقتصادية وعلى المستوى العالمى لأول مرة. وكانت الشخصيات الرئيسية هي « جورج أنسون » والذي كان بحاراً ممتازاً وخبيراً في التنظيم البحري ، و « ويليام بيت » والذي كان من كبار قادة الحرب السياسية، و « جيمس وولف » الرجل العسكري. ثم يأتي الموضوع الثانى وهو بروسيا ، وسوف نتبع تطور الدولة العسكرية البروسية وتأثير ذلك على المجتمع ، كما سنحلل صفات وأفكار فريدريك الأكبر (١٧٤٠ - ١٧٨٦) مستندين في ذلك وبشكل خاص إلى إنتصاره في « لوثن » في سilesia عام ١٧٥٧. وأخيراً سوف نفحص عملية الإنتقال من الحروب ذات العلاقة بالسلالات الحاكمة ، إلى الحرب القومية ، كما حدث عام ١٧٩٢ في حروب الثورة الفرنسية عند « فالى » حيث حارب الجيش الشعبى الفرنسى ضد البروسيين والنمساويين كأمة مستعدة للقتال دفاعاً عن ديموقراطيتها. وأنهت معاهدة أوترخت عام ١٧١٣ محاولة فرنسا للسيطرة على أوروبا ، ولكنها تركت المصدر الآخر للاحتكاك مفتوحاً على مصراعيه ، ألا وهي مسألة التجارة والمستعمرات. وكان التنافس وبشكل رئيسى بين بريطانيا وفرنسا، بينما تورطت أسبانيا فترة من الوقت كحليفة لفرنسا ، أما هولندا ففضلت في ذلك الوقت الابتعاد عن الصراع.

وكانت الأعوام بين ١٧١٣ - ١٧٣٩ أعوام من التوسع العام في السفن والتجارة والقواعد ، ومن الناحية النظرية كانت فترة سادها السلام. ولكن التوتر أخذ يزداد في مناطق حيوية ومعينة وهي : — جبل طارق ومينورقه وغرب أفريقيا وشمال أمريكا والهند.

وبعد سلسلة من الاشتباكات الصغيرة أندلعت الحرب « حرب جنكيزاير » (١٧٣٩ — ١٧٤٤) في البحر الكاريبي والتي أندجحت مع الحرب الأوسع نطاقا وهي حرب « التتابع النمساوي » (١٧٤٠ — ١٧٤٨) . وبعد وقفة قصيرة لتجميع القوى أندلعت الصراع مرة أخرى في حرب « السبع سنوات » (١٧٥٦ — ١٧٦٣) ، ثم استمرت ثانية في حرب « الاستقلال الأمريكية »^(١) (١٧٧٥ — ١٧٨٣) .

وكانت لكل هذه الحروب مظاهر سياسية أخرى كما تشير أسماؤها ، ولكن كانت الظاهرة الرئيسية منها جميعا هي التنافس الإستعماري الإنجليزي الفرنسي . وذلك ما أدركه « ويليام بيت » ، كما أدرك أيضاً حلول عصر الحرب العالمية وذلك عندما تحدث عن « كسب كندا على ضفاف الألب » وقام بتنفيذ ذلك عمليا باستخدام حليفته بروسيا لتجذب إليها فرنسا بأعداد كبيرة حتى أصبحت فرنسا ضعيفة في أمريكا . وقد ورد سؤال في الفصل الأول من الكتاب وهو « لماذا تنشب الحرب ؟ » وقد درسنا العديد من أسبابها ، وألقينا الضوء على صفات معينة في الطبيعة البشرية وظروفها التي تجعل الرجال يلجأون إلى الحرب ، ولكننا لم نتعرض لتلك الحرب التي أندلعت بسبب « أذن رجل » ومهما كان من أمر ، فذلك هو ما حدث في حرب جنكيزاير^(٢) ، وربما تكون القصة غير معروفة لبعض القراء . ففي عام ١٧٣١ بينما كانت إحدى السفن الشراعية الإنجليزية « ريبیکا » عائدة إلى إنجلترا من الهند الغربية ، هاجمتها سفينة حراسة أسبانية ، حيث قام قائد السفينة بنهب مخازن السفينة وقطع أذن الربان الإنجليزي « روبرت جنكينز » . وفور وصوله إلى إنجلترا ، قدم جنكينز بشكواه إلى الملك الذي لم يهتم كثيرا بهذا الأمر . ولكن بعد سبع سنوات أعاد جنكينز قصته أمام لجنة من مجاس العموم ، وهنا تسببت روايته في حدوث هياج سياسي كبير ، وزادت الصحافة من اشتعاله إلى الحد الذي جعل هذا الحادث سببا مساعدا للحرب بين بريطانيا وأسبانيا عام ١٧٣٩ ، والتي تحوات في النهاية إلى حرب « التتابع النمساوي »

(١) انتهت هذه الحرب عمليا باستسلام كورنواليز في بوركناون عام ١٧٨١ .

« المعرب »

(٢) أي أذن جنكينز .

شراء الرتب العسكرية

وفي القرن ١٨ كان تعداد الشعب الفرنسي حوالى ٢٠ مليون نسمة ، بينما كانت إنجلترا خمسة ملايين فقط ، إلا أن ميزة الموقع الجغرافى لبريطانيا فاقت قيمة الميزة العددية فى الصراع على البحار . وكان على فرنسا أن تعطى إهتمامها السياسى والعسكرى الأول إلى أوروبا ، بينما كانت إنجلترا فى الجانب الآخر يمكنها أن تكتفى فى هذا المسرح بأن تقدم العون لحلفائها (النمسا وبروسيا) لتناوش فرنسا . وأدى هذا إلى إنقاص جيش مارلبورو وهبوط قوته ، ولم يعد يرسل إلى أوروبا إلا قوات صغيرة فقط مما أدى أن هذه القوات لم تعد تلعب إلا أدوارا تافهة . وكان الأسطول هو القوة الرئيسية لبريطانيا فى القرن ١٨ ، وقد أعطاها موقعها كجزيرة فى المحيط الغربى ميزة إستراتيجية كبيرة منذ البداية . وكما كان يحدث دائما فى سنوات السلم ، فقد ترك الأسطول البريطانى يهبط مستواه إلى حالة سيئة قبل عام ١٧٣٩ ، بالرغم من أنها كانت تملك من الناحية النظرية ١٢٤ سفينة حربية إلا أنه فى الحقيقة كانت هناك ٨٠ فقط صالحة للخدمة ، ومن هذه ٨٠ لم يكن هناك سوى ٣٥ سفينة فى الخدمة بشكل فعلى ، بينما كانت السفن الفرنسية متفوقة فنيا على السفن البريطانية ولديهم ٥١ سفينة حربية مشيدة حديثا . وفى عام ١٧٤٤ كتب أحد الخبراء الإنجليز فى المدفعية قاتلا : « لقد ظهر بشكل واضح أن سفننا ذات ٧٠ مدفعا كانت متفوقة قليلا عن سفنهم ذات ٥٢ مدفعا . » ولم يحدث فى القرن ١٨ سوى تقدم طفيف فى تصميم السفن فيما عدا إختفاء السلوقية^(١) المرتفعة ، بالإضافة إلى إدخال تغايف قاع السفن بالحساس عام ١٧٦١ لزيادة سرعتها واحتمالها . وحتى منتصف القرن ١٩ تقريبا ، كان الفرنسيون فى الحقيقة أفضل بناة للسفن فى العالم . وكان هناك تنافس كبير بين ضباط البحرية الإنجليز على قيادة السفن الفرنسية المأسورة مثل السفينة « تريبل^(٢) » . وفى تلك الحقبة استخدمت الفرقاطة كطراد سريع . وقد بنيت الاستراتيجية الفرنسية لتتمشى مع قلة سفنهم ، فكانوا يتجنبون المعارك أثناء حماية تجارتهم مع التوسع فى ممتلكاتهم الاستعمارية البرية . بينما كانت الاستراتيجية البريطانية على النقيض من ذلك لأنها هجومية ، هدفها قطع مواصلات العدو وتدمير أسطولها فى البحر . أما الأسلوب التكتيكى

(١) السلوقية هى أعلى مقدم السفينة .

(٢) حوّلها ١٥٩٠ طن ولها سطحين وثلاثة صواري و ٧٤ مدفعا . « العرب »

فقد اتبع الجانبان تشكيل الخط المتقدم . كما أن تعليمات القتال المستديمة للأدميرالية البريطانية نصت على عدم خروج أى سفينة من ذلك التشكيل للإشتباك مع العدو في جميع الظروف والأحوال . ففي المعركة ، كان البريطانيون دائماً أكثر ميلاً للمبادأة بالهجوم ، وعلى أى حال فكان جهود تكتيكات الخط دائماً تعوق تحقيق النصر الحاسم . أما الانتصارات البحرية البريطانية في الفترة ما بين ١٦٩٢ — ١٧٨٢ فقد تحققت بواسطة الرجال الذين تجاسروا على تجاهل التعليمات المستديمة للقتال وكسروا الخط لإصطياد وتدمير العدو . وفي عام ١٧٣٩ ظهر أن كلا من أفراد البحرية الفرنسية والبريطانية كانوا متساويين تقريباً في نوعيتهم الرديئة ، وقد دب الفساد في القيادة العليا لبحرية كل منهما نتيجة لنظام شراء براءات الرتب العسكرية وكذلك التعيين في الوظائف تبعاً للمركز الاجتماعي . أما أطقم السفن فقد جند معظمها بالإكراه ، وكان أفضل رجال البحرية هم الذين يجلبون من البحرية التجارية ، وأسوأهم المجرمين والعاطلين . وقد اعتبر الدكتور جونسون أن الرجل الذي يتطوع في البحرية ، قد تطوع ليذهب إلى الجحيم . وعلى العموم ، أثناء القتال فقد أثبت البحارة البريطانيون أنهم أفضل نوعية من الفرنسيين والأسبانيين . وفي عام ١٧٣٩ استولى الأدميرال إدوارد فيرنون على قلعة وميناء « بورت بلو » في برزخ « بناما » بعملية برمائية رائعة . وفيما بين عامي ١٧٤٠ و ١٧٤٤ قام الكومودور جورج أنسون برحلته البحرية الشهيرة .

التجارة هي الخندق الأخير

وكان أنسون قد أرسل عام ١٧٤٠ كقائد سرب من ست سفن للإغارة على الأسبان في أمريكا والبحار الجنوبية . وكانت هذه الرحلة تشبه كثيراً لرحلة سير دريك وتغلب أنسون بقوة شخصيته في القيادة على عقبات ضعف نوعية رجاله ومعداته . وأستطاع أن يلحق دماراً جسيماً بالأسبان ، بما في ذلك إستيلاءه على الغليون « مانيل » المحمل بالكنوز . وفي النهاية وبعد مخاطرة عظيمة عاد إلى إنجلترا عن طريق « الكاب » بسفينة واحدة ، بعد أن طاف حول الكرة الأرضية جالبا معه أثمان شحنة غنمها أحد في

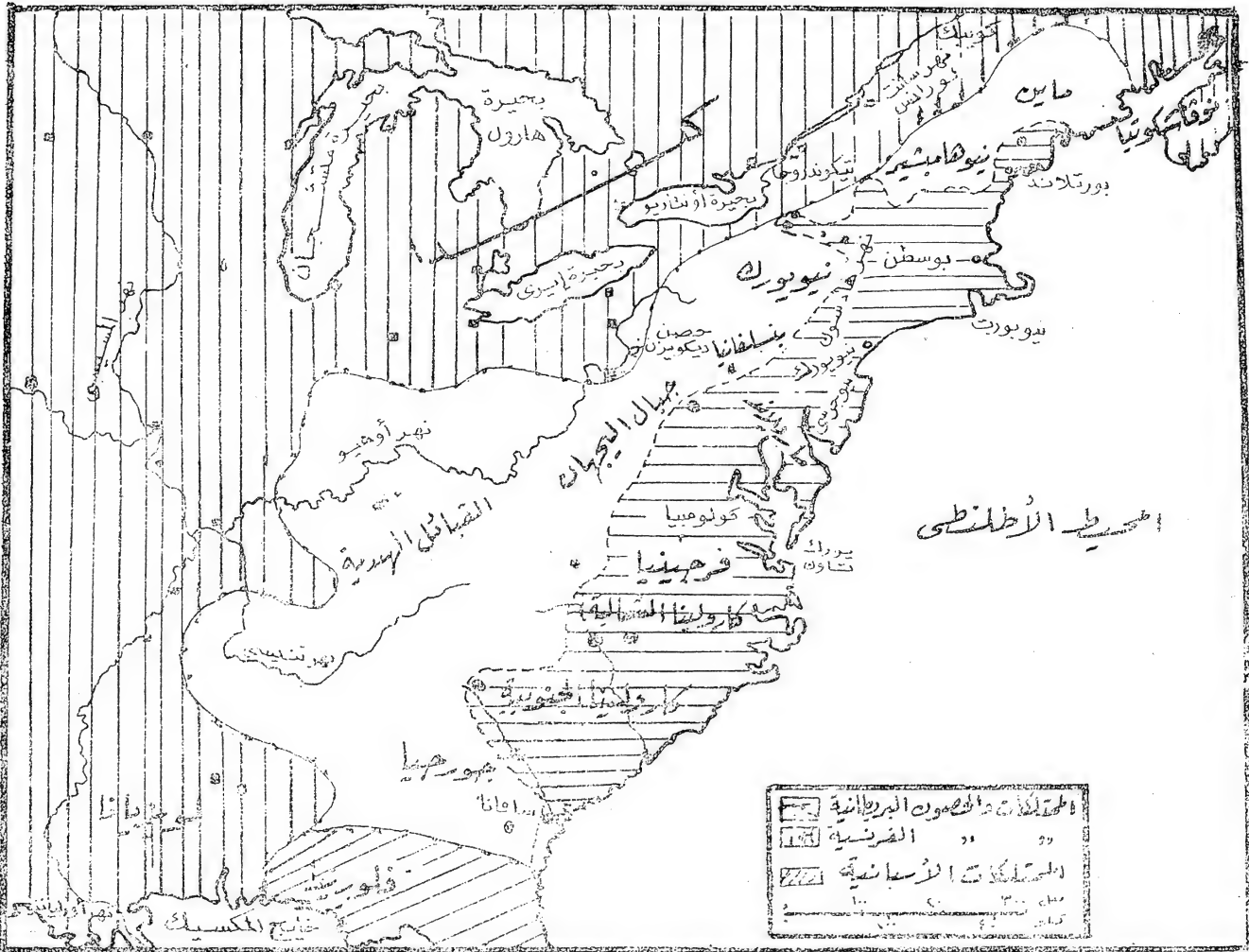


جورج أنسون

التاريخ . وقد كانت هذه الرحلة ميدانا لتدريب العديد من مشاهير رجال البحر في المستقبل ، والذين منهم : - « كيبييل » و « هايد باركر » و « ساوندرز » . وفي عام ١٧٤٧ تولى أنسون القيادة في أول معركة أمام مياه « كاب فاينستر » حيث حقق النصر بكسر خطه في اللحظة المناسبة . وكان تفكيره الاستراتيجي الجديد يتضمن تدمير العدو في البحر مع فرض الحصار على موانئه الرئيسية . ومن عام ١٧٤٥ حتى وفاته عام ١٧٦٢ ظل لورد أنسون في الأدميرالية ، حيث أدخل إصلاحات هامة ، كما انتشلت البحرية البريطانية تحت رعايته من حالتها الفاسدة . وقد أعيد تنظيم الترسانات البحرية ، كما تحسنت حالة السفن التي ارتفع عددها إلى ١٠٠ سفينة أى ضعف مالدى فرنسا وتكاد تساوى قوة الأسطولين المشتركين لفرنسا وأسبانيا . وقد دعم نظام تجنيد البحارة بتقديم المنح المالية لهم ، كما أصبح هناك ضبط وربط جيد ومحكم ، وقضى إلى حد بعيد على الفساد الناتج عن ملكية وتوارث المصالح والسلطات ، وأعطيت الفرصة لعدد كبير من الشباب النابه للوصول إلى أعلى رتب ومراكز الخدمة . في ذلك الوقت أيضاً كان الفرنسيون لا يزالون يشيدون السفن ، ولكن لم تحدث الإصلاحات الأخرى الضرورية في أسطولهم .

ولذلك عندما بدأت حرب « السنوات السبع » عام ١٧٥٦ كان وضع إنجلترا أقوى من فرنسا في البحر ، وبالرغم من ذلك كانت الأحداث الأولى للحرب نتيجة لعدم إتقان الإجراءات كارثة لبريطانيا ، وقد فقدت جزيرة « مينورقة » بسبب الأسطول البريطاني الضعيف ، وقدم الأدميرال « بينج » ككبش الفداء حيث حوكم أمام مجلس عسكري ليعدم رمياً بالرصاص . وكان تعليق فولتيرا « هذا لتشجيع الآخرين » ولم يذهب موت بينج هباءاً لأن ذلك شجع أخوانه الأدميرالات على إهمال تعليمات الأدميرالية عندما تستدعى الحاجة . وفي الحقيقة قد أهملت أنا شخصياً تعليمات وزارة الحرب ، ومع ذلك فقد بقيت على قيد الحياة ، لأن النصر في كل مرة تحقق في المعركة ، وقد يكون هذا هو الفارق . وعلى أى حال ، فالتشجيع الحقيقي لبريطانيا جاء عندما تسلم « ويليام بيت » السلطة عام ١٧٥٦ . وقد كان « بيت » زعيماً حربياً عظيماً ورجل دولة من الطراز الأول ، ومثل تشرشل جاء « بيت » إلى الحكم في ساعة حلكة من تاريخ بريطانيا ، وكتشرشل أيضاً قام بتوحيد القوى وقيادة

الشعب البريطاني بخطبه الرائعة . وكما قال بنروز ولكن في صدق : — « أعرف
إني أستطيع إنقاذ هذا البلد ، وأنه لا يوجد أحد آخر يستطيع ذلك » وقد يقول البعض أنه
كان أفضل من تشرشل كرجل إستراتيجي لحرب عالمية ، ولكني أشك في هذا . وقد رأى
« بيت » أن المصلحة الحقيقية لبريطانيا تكمن في السيطرة التجارية ، وأن التجارة يجب
أن تكون « الخندق الأخير » ، وأن الحرب في أوروبا سوف تفيد إنجلترا كثيرا لأنها ستحول
إنتباه وموارد فرنسا عن الحرب في باقي أنحاء العالم ، ولهذا الغرض قدم « بيت » مساعدات
مالية لبروسيا ، ولكنه لم يعطى إلا قدرا قليلا من التدخل العسكري المباشر ، وبذلك
إستطاع المحافظة على قوة بريطانيا سليمة ؛ وأمكنه في ذلك الوقت أن يلقى بجهدا الأكبر



اللوحة رقم ٣٠ أمريكا الشمالية في القرن الثامن عشر

في الهند ، وأكثر من ذلك في أمريكا الشمالية . وسوف يكون هناك فصلا كاملا من الكتاب عن الحرب في الهند ، ويكفي أن نذكر الآن أن بريطانيا نجحت نجاحا عظيما في الهند تحت قيادة « روبرت كليف » . والآن سنركز الانتباه على أمريكا الشمالية .

(أنظر اللوحة رقم ٣٠)

أربع العمليات البرمائية في التاريخ

يجب أن نفهم الموقف الإستراتيجي في أمريكا الشمالية في ذلك الوقت ، فالمستعمرات الإنجليزية كانت محصورة في شريط ضيق يمتد من الشمال إلى الجنوب بين جبال اليجيهان والمحيط الأطلنطي ، وكان لدى الفرنسيين كندا في الشمال ولوزيانا في الجنوب . وكان هدف الفرنسيين إحتلال وادي نهري الأوهيو والميسيسيبي لكي يوصلوا بين مستعمراتهم ومنع التوسع الإنجليزي غرباً . وسعى الإنجليز لإفساد هذه الإستراتيجية بقطع مواصلات الفرنسيين في الأطلنطي وشق طريقهم بالقوة نحو الغرب . ولكن لم يقدر لهم النجاح حتى ذلك الوقت .

وفي عام ١٧٥٤ خرجت حملة من « فرجينيا » إلى « أوهيو » تحت قيادة جورج واشنطن ولكن هذه الحملة هزمت .

وفي السنة التالية لاقت قوة أكبر نفس المصير ، وأصبح واضحاً « لبيت » في عام ١٧٥٧ أنه يجب بذل مجهوداً كبيراً في أمريكا لأنه قرر غزو كندا . وقد تم إبعاد الأسطول الفرنسي من الحرب وذلك بحصار « برست » و « طولون » وبالغارات الإنجليزية على طول إمتداد الساحل الفرنسي على الأطلنطي . ووضع « بيت » خطة هجوم ذو ثلاث شعب على الفرنسيين في أمريكا وساعده في وضعها قاده المساعدون وهم : — لورد أنسون (القائد العام للبحرية) ولورد ليجونير (القائد العام للجيش) . وكانت العملية الرئيسية من هذه العمليات عبارة عن هجوم برمائي على كندا الفرنسية من الشمال حتى نهر سانت لورانس ، وكان طريق الإقتراب المؤدى إليها تسيطر عليه مدينة لويسبرج المحصنة على طريقة فوبان وبها ٤٠٠ مدفع . وقد قاد حملة ١٧٥٨ ضباط من الشاب نسبياً وعلى جانب عظيم من المقدرة ، فقد قاد « أمهرست » و « وولف » ١١٠٠٠ رجل بينما قاد « بوسكاون » ٢٢ سفينة .

وسقطت لويسبرج أمام أول عملية مشتركة من الدرجة الأولى . أما الشعبة الثانية للهجوم

التي تمت في نفس الوقت في ذلك الصيف كانت حملة من القوات النظامية ومن الميليشيا بقيادة «جون فوريس» للاستيلاء على قلعة «ديكوزن» وفتح الطريق إلى أعلى وادي أوهيو . وبعد أعمال بطولية فذة نجحت هذه الحملة وأعيد تسمية قلعة «ديكوزن» بقلعة «بيت» ثم بعد ذلك «بيتزبرج» . أما الشعبة الثالثة من الهجوم ، فكانت حملة «أبركروبي» من الجنوب في اتجاه «نيكوند روجا» و «كوبيك» والتي فشلت . وفي عام ١٧٥٨ تم إنجاز ما فيه الكفاية للمضى نحو فتح كندا . وفي عام ١٧٥٩ ركزت بريطانيا كل جهودها للزحف إلى أعلى نهر سانت لورانس في اتجاه كوبيك ، وتولى القيادة الميجر جنرال جيمس وولف البالغ من العمر ٣٢ عاماً . وإذا استعرضنا تاريخ حياته فنجد أنه بدأها في ١٤ عاماً في مشاة البحرية ، ثم نقل وهو ملازم إلى البحرية وعين في فوج سفولك وعمره ١٥ عاماً ، وعندما بلغ ١٦ عاماً حضر القتال في معركة «ديتنجن» .

وعمره ١٨ عاماً حضر معركة «كلودين» ، وعمره ٢٣ عاماً قاد فرقة رماة اللانكشير . وكان جندياً محترفاً وطالباً مجداً في دراسة فن الحرب ، كما كانت لديه خبرة كبيرة في الفن العسكري من عمر مبكر ، وكان أيضاً مثقفاً وبارعاً في ميادين أخرى ، فكان كاتب نثر جيد . وبالرغم من إخلاصه لرؤسائه ووطنيته العميقة ، فقد كان ميالاً للصراحة الجريئة والنقد . وكان وولف من حسن حظه أنه دائماً كان على صواب ، كما كان محظوظاً بنفس القدر لأن «بيت» كان يشجعه ولا يقف في طريقه بسبب امتعاض وحقد الضباط الأعلى منه .

ويعتبر الإستيلاء على كوبيك عام ١٧٥٩ من أبرع العمليات البرمائية في التاريخ ، وكان الجزء الخاص بعملية المرور الأولى للأسطول الذي يقوده «شارلس ساوندرز» خلال التيارات والمياه الضحلة لنهر سانت لورانس هو أبرع هذه العمليات ، ففي نهاية يونيه نزل وولف ومعه ٩٠٠٠ جندي على الجانب الجنوبي من النهر ، وكانت كوبيك في مواجهتهم فوق مرتفعات «أبراهام» ويدافع عنها حوالي ١٦٠٠٠ رجل تحت قيادة قائد قدير هو «مونتكالم» وتعاونهم مدفعية قوية . وكان مصدر قوة وولف هو تحكمه في النهر ، مما مكنه من تحقيق المفاجأة . وقد استقر الفرنسيون في الحصن ثابتون وقد يكون ذلك أحكم . في ذلك الوقت ظل وولف يبحث لعدة أسابيع عن طريقة للاستيلاء على كوبيك بحيث لا تكون عملية

إنتحارية ، وعند نهاية يوليه بدأ ييأس ، وكانت صحته سيئة للغاية . وفي أغسطس وصله تدعيم من ١٢٠٠ رجل وفي أوائل سبتمبر قرر المخاطرة بهجوم عبر ممر صغير متعرج يصعد الجرف نحو أعلى النهر على مسافة ميل ونصف من كويبك . وكان هذا الممر يبدو من المتعذر تسلكه بدرجة جعلت الفرنسيون يدافعون عنه بقوة صغيرة فقط . وفي ليلة ١٢/١٣ سبتمبر عبر الجيش النهر وقام بعملية إنزال مفاجئة ، وعند الفجر بدأ يظهر الجيش فوق المرتفعات . وباختصار قررت هذه المعركة نهاية كفدا نتيجة قصفة نيران واحدة أطلقت في توقيت ملائم تماماً ، أما وولف فقد قتل .

أكبر قوة أمريالية في العالم .

لقد كان وولف جندياً عظيماً ولسوف أجد من الصعوبة وضعه ضمن « القادة العظام » لأن شهرته بنيت على منجزات سنة واحدة ، وكما كتب عنه ليدل هارت « لقد لمع عبر سماء التاريخ مثل الشهاب » .

وعلى العموم ، فالدارس للحرب وللطبيعة البشرية سوف يجد قيمة كبيرة في سنين كفاح وولف الأولى عندما كان يعد نفسه ليكون مستعداً للفرصة عندما تسنح ، وعندما جاءت الفرصة كان مستعداً .

وفي « وسترهام » حيث ولد عام ١٧٢٧ أقيم له تمثال في المروج بالقرب من الكنيسة ، وكنت دائماً أفأف أطلع إليه عند زيارتي لشارتويل حيث منزل السيرونستون تشرشل . ولم يكن وولف قوى الجسم بل كان في الواقع مثل نيلسون ضئيل الجسم ولكنه لا يعرف الخوف في القتال . وأثبت أن الروح العظيمة يمكن أن تتواجد في الجسد الضئيل . وكنت عادة أناقش ويفل في موضوع القيادة وكنت أؤكد أنه لا يمكن كسب المعارك إذا كان القائد في حالة صحية سيئة ، وكان ويفل يرد على ذلك بقوله بأن نابليون كان دائماً يشعر بالمرض ولا يمكن مقارنة وولف بالقادة العظام مثل مارلبورو أو ويلينجتون لأنه لم يخض معركة على مستوى معاركها الكبيرة ، أما المعركة التي أدت إلى الإستيلاء على كويبك فقد نشبت بين قوات توازي في مجموعها فرقة واحدة من فرق منتصف القرن ٢٠ . والمعركة الفعلية لم تتعد سوى ربع ساعة تقريباً ، ولم يكن هناك أدنى شك في نتیجتها بعد أن أطلق الإنجليز قصفتهم الأولى المروعة ،

أما الخسائر فكانت طفيفة حوالى ٦٥٠ من الإنجليز وحوالى ١٥٠٠ من الفرنسيين . وبالرغم من نطاقها الصغير ومدتها القصيرة ، فقد غيرت من تحالف كندا الذى انتقل من فرنسا إلى إنجلترا وبالتالي فقد كانت من أعظم المعارك فى العالم .

ومن المثير بشكل خاص دراسة الثلاثة أو الأربعة أشهر للحملة والتي أدت إلى هذه المعركة ، وكذا صفات قادة الجانبين ، والذى كان وولف أهمهم ، ولكن كان هناك أيضاً « بواجينفيل » والذى كان أركان حرب « مونتكالم » ، و« جيمس كوك » الملاح الذى طاف البحار بعد ذلك . ولم يكن الإستيلاء على كويبك سوى أحد مظاهر نجاح الجيوش البريطانية عام ١٧٥٩ . وفى هذا العام أثمرت إستراتيجية بيت ليس فقط بفتح كندا ، ولكن بسلسلة من الإنتصارات فى جميع أنحاء العالم . ففي « ميندن » بأوروبا ساهمت المشاة البريطانية فى نصر للحلفاء . وفى لاجوس هزم « بوسكاون » أسطول طولون الفرنسى ، كما حطم هوك أسطول « برست » فى خليج « كويبرون » ، ونتيجة لذلك بقى الفرنسيون بدون قوة بحرية حتى نهاية الحرب .

واستولى الإنجليز على « جوادلوب » فى الهند الغربية و«جورى » فى غرب أفريقيا . وفى مستهل عام ١٧٦٠ كانت معركة « داندواش » بمثابة ضربة قاضية للفرنسيين فى الهند . ومن وجهة النظر الإنجليزية فقد إستمرت الحرب حتى عام ١٧٦٣ .

وفى عام ١٧٦٣ تم التصديق فى معاهدة « سلام باريس » على جميع مكاسب إنجلترا من الحرب تقريباً عدا مكاسبها فى الهند الغربية . وبالرغم من إقصاء بيت من منصبه عام ١٧٦١ على يد ملك جديد وحقد خصوم سياسيين ، خرجت إنجلترا من الحرب فى شكل أكبر قوة إمبريالية فى العالم .

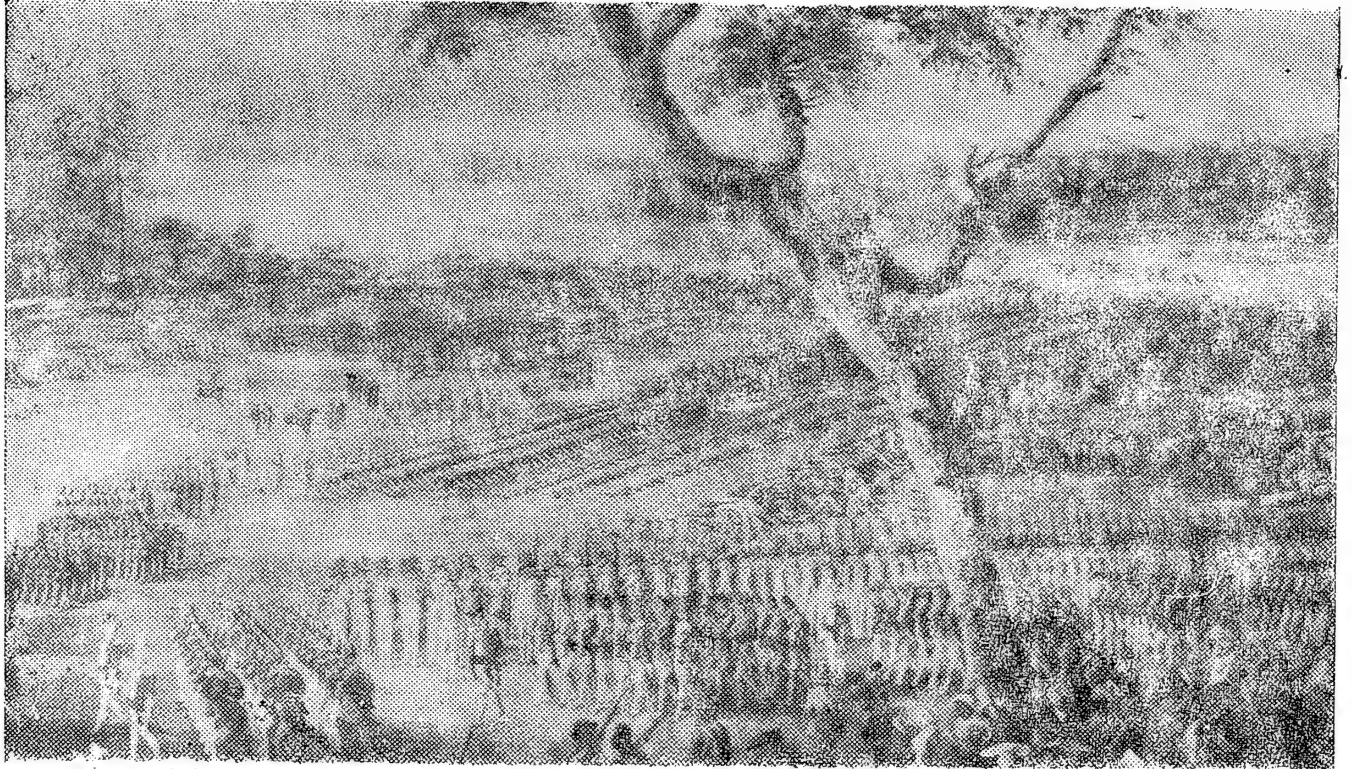
عصر العقل والرضا الذاتى

وكالمعادة ، بعد أن انتصرت إنجلترا فى هذه الحرب العظمى أهملت قوتها العسكرية والبحرية . وقد كان هناك تناقضاً واضحاً بين إدارتها لحرب « الإستقلال الأمريكية » (١٧٧٥ — ١٧٨٣) وبين ماسجل عن حرب « السبع سنوات » ، فقد ظهرت المشاكل الإدارية للقتال على مثل هذه المسافة الضخمة ، ولكنها لم تكن أسوأ مما كانت عليه فى

الحرب ضد الفرنسيين. وأهم من كل هذا، مشكلة النقص الكامل للقيادة العسكرية والسياسية الجيدة، مما أدى أن إنجلترا لم تستطع أن تسحق بسرعة ذلك التمرد الذي بدأ في أول الأمر كجرد ثورة بسيطة وتلقى تأييداً ضعيفاً.

وقد كانت هناك نقطة طريفة في هذه الحرب، أيهما كان أسوأ في المعدات وأسوأ في القيادة؟ القوات الأمريكية أو القوات الإنجليزية...؟ وحتى أي حال فقد نضج جورج واشنطن كقائد بالرغم من أنه لم يكن سوى جندي متوسط الكفاءة، كما أن الأمريكيين أنفسهم لم يتعودوا إلا هذا النوع من القتال والتي يتمشى مع طبيعة أرضهم.

بينما كان الإنجليز يقاتلون وهم مرتدين الأردية الحمراء وفي تشكيلات منضمة عقيمة، كان الأمريكيون هم أيضاً يموهون أنفسهم باللون الأخضر ويقاتلون كجنود غير نظاميين. وكان العامل الحاسم في الحرب هو تدخل فرنسا ثم أسبانيا والولايات الهولندية المتحدة ضد إنجلترا في عام ١٧٧٨، ولم يكن في استطاعة الأسطول البريطاني كبح الأسطول الفرنسي الذي أعيد بناءه من جديد ومعه أساطيل حليفة تعاونه، وأصبحت الحرب نوعاً آخر من الحروب



القوات البريطانية تستسلم في مدينة يورك تاون في أمريكا

العالمية . واستماتت إنجلترا في الحفاظ على مستعمراتها المترامية الأطراف . وفي عام ١٧٨١ أجبر الجنرال « كورنواليس » قائد القوة البريطانية الرئيسية في أمريكا على التسليم في مدينة « يورك تاون » وذلك عندما أصبح جيش واشنطن الكبير خلفه وبذلك أصبحت مواصلاته البحرية مقطوعة .

وقد أنقذ الأدميرال « رودنى » الموقف إلى حد ما بانتصاره على الأسطول الفرنسى خارج دومينيكا عام ١٧٨٢ ، مما أدى إلى إنقاذ « جامايكا » وفي نفس الوقت حطم هيبة الأسطول الفرنسى . ومع ذلك فكانت بريطانيا محظوظة لأنها بموجب معاهدة فرساي في السنة التالية لم تخسر أكثر من مستعمراتها الأمريكية فقط . ومن الطبيعى أن يكون فن الحرب في القرن ١٨ محدوداً على الأرض ، بنفس القدر في البحر . وتميزت الحرب بفقدانها عنصر الإثارة والعنف ، فقد كان هذا العصر هو عصر العقل والرضا الذاتى . وقد وقع هذا العصر بين عصر التعصب الدينى في القرن ١٧ وعصر التعصب القومى في القرن ١٩ .

وقد حدثت معظم حروب أوروبا نتيجة لأسباب تتعلق بالسلالات الحاكمة ، ولذلك كانت أهدافها محدودة .

وكانت إدارة الحرب مقيدة بالتقاليد والعادات المتبعة ، كما كان التركيز في الإستراتيجية والتكتيك منصباً على المناورة وتجنب الإفراط في القتال ، بمعنى عدم البحث عن العدو لتدميره . أما حرب الحصار فقد كان لها نصيب كبير في ذلك العصر . وأصبحت الجيوش نتيجة لنموها وكبرها جامدة وقد فقدت خفة الحركة وفي نفس الوقت باهظة التكاليف . وبقدر الإمكان منع تأثير الحرب من أن يمتد إلى الحياة المدنية . وكان تجنيد الجيوش يتم من النبلاء والصعاليك وهى الطبقات الوحيدة المستعدة والمتيسرة في ذلك الوقت .

وكانت القومية تأثيرها ضعيفاً على ولاء الجنود لها ، ولذلك كان من الضروري التركيز على التدريب الشاق والضبط والربط والقواعد الجامدة والفاسية حتى على الأقل لغرس الكفاءة ومنع الهروب من الخدمة ، أما الضباط فقفش فيهم الفساد وتجنب العمل مع وجود هوة عميقة تفصلهم عن الجنود ممثلة في تعاليهم وتكبرهم وعدم كفاءتهم . وبكل هذه الأبعاد ، كانت حرب القرن ١٨ في مجملها عادية وضعيفة . ومهما كان فلم يكن من المستحيل أمام الرجل

العبقري أن يحقق شيئاً في هذه الظروف ، ويبرهن على ذلك وبوضوح سيرة أعمال المركز
« دى سا كس » « وفر يدريك الأكبر »

الأرض والقيادة



كان سا كس يخدم تحت قيادة يوجين وبيرتر الأكبر ،
وحقق شهرته الأولى بهجومه الليلي المفاجيء والإستيلاء
على براغ . وأصبح أبرز القادة الفرنسيين في حرب «التتابع
المنسوى» (١٧٤٠ — ١٧٤٨) . وفي عام ١٧٤٥ أحرز
أشهر انتصاراته على البريطانيين في «فونتنوى» . وفي العام
التالى إكتسح الأراضي الواطئة . وفي عام ١٧٥٠ توفي
تاركا عدداً كبيراً من الأبناء غير الشرعيين ، والتي كانت
منهم واحدة هي أم جدة جورج صائد . وعلى العموم فقد أهملت

المر كيزدى سا كس
دراسة سيرته العسكرية ، ويرجع ذلك لأن المؤرخين كانوا
يميلوا لتوجيه إهتمامهم بفريدريك الأكبر ملك بروسيا ، والذي كان معاصراً له . وفي أربعينات
القرن ١٨ وخلال سنوات توليه القيادة العليا في الميدان ، كان يعتبر أحداً واثلاً قادة عصره .
والسبب الرئيسى الذى يجب أن يذكر سا كس من أجله هو كتابه الذى نشر بعد وفاته بتسعة
أعوام « أفكارى الخيالية » وسبق لى فى جزء متقدم من هذا الفصل ذكر وجهة نظرى
والخاصة بعدم إمكان كسب المعارك إذا لم يكن القائد فى صحة جيدة . ولكن يبدو أن
سا كس مثله فى ذلك مثل وولف لا يوافق على رأى لأن صحته كانت متدهورة وكان يعانى
كثيراً من الإستسقاء . وفى الحقيقة أعجزه هذا المرض فى معركة « فونتنوى » بدرجة لم
يستطع إمتطاء حصانه ، واضطرا إلى التفتيش على قواته وهورا كباً عربية مكشوفة . وقد قرأت
أن مغامراته الغرامية فى شبابه ساهمت فى إعتلال صحته . أنه لثال أضعه أمام كل من يطمع
للوصول إلى القيادة العليا فى مهنة الجندية .

وفى كتابه « أفكارى الخيالية » أدان سا كس تقريباً كل مواطن الضعف فى حرب
القرن ١٨ ، ودافع عن المبادئ الصحيحة والتي نسيت كلها منذ العصر القديم ، والتي أيضا

لم تطبق عمليا حتى مجيء نابليون . وقد استنكر العبودية للعرف والتقاليد واستنكر فوق كل شيء الجمود وعدم الحركة . وأعلن أنه قد أضعاف وقتا طويلا جدا في تحصين المدن وكان من الأفضل الدفاع عن المواقع ذات القوة الطبيعية .

وأكد أن خفة الحركة وسهولة المناورة وكفاءة الأمداد هي المتطلب الرئيسي للنصر الحاسم ، « وأن الدور الرئيسي يعتمد على الأرجل وليس على الأذرع » . ورغبة في أن يكون جيشه نموذجي في القرن ١٨ فشككه من ٤٦٠٠٠ جندي فقط ، « لأن العدد الكثير يزيد فقط من الارتباك والتورط في المناعب .

ومثل هذا الجيش يجب أن ينظم بشكل مرن أى في نظام ألوية أو فرق ، مع الاستفادة من القوات الخفيفة التسليح ، وعلى القائد أن يخلق الفرصة المناسبة ولا ينتظر ظهورها ، ويجب أن يركز قوته ضد مواطن الضعف ، وعليه مطاردة العدو لتدميره . وأدرك ساكس بوضوح عامل الروح المعنوية والتوازن الحساس بين عزيمة الاندفاع إلى الأمام وغريزة العودة للخلف . وأكد أن هناك أشياء صغيرة يمكن أن تكون من العوامل المساعدة الكبيرة لرفع الروح المعنوية مثل استخدام الدرع والموسيقى ، والشارات ، وتسميه الكتب بأسماء مستديمة بدلا من تسميتها بإسم القائد الحالي ، والخدمة الوطنية ، والترقية بالجدارة . وكل هذه الأشياء مطبقة ومألوفة الآن ولكنها كانت في ذلك الوقت غير طبيعية ، وهذا يدلنا على ندرة نوعية وكفاءة العقلية العسكرية لساكس .



فريدريك الأكبر

فريدريك الأكبر (أنظر اللوحة رقم ٣١)

وفي عام ١٧٤٠ أصبح فريدريك الثاني والملقب «بالأ كبر» ملكا على بروسيا وترجع الخلفية التاريخية الأساسية لمنجزات فريدريك العسكرية إلى التنظيم الإداري والاجتماعي والذي تمت بواسطة اثنين من أسلافه من عائلة « هوهنزولين » وهما « الأمير الأكبر فريدريك ويليام » (١٦٤٠ - ١٦٨٨) والملك « فريدريك ويليام الأول » (١٧١٣ - ١٧٤٠) .

وكانت الأرض الأصلية المبعثرة لبراندنبرج وبوميرانيا فقيرة اقتصادياً ولا تتوفر فيها دفاعات طبيعية ولذا إذا أراد حكام عائلة هوهنزوليرن^(١) الاحتفاظ بمركزهم السياسى قوى وجب عليهم إنشاء حكومة وجيشاً قويين . وهذا ماحدث ، فقد جعل الأمير الأكبر من نفسه سيداً مطلقاً لجهاز حكومى واحد مركزاً على تنظيم إمداد الجيش وأمكن تنفيذ هذه العملية بواسطة الاتفاق الذى تم بين الحاكم والنبلاء والذى كان يطلق عليهم « الجونكرز^(٢) » .

وفى عام ١٦٥٣ منح هؤلاء النبلاء الأمير السلطة المطلقة والإمكانات المادية لتكوين جيش دائم ، على شرط أن يقصر سلك الضباط عليهم ، ويخضع الفلاحين فى ضياعهم لعبودية الأرض .

أما الطبقة المتوسطة فى شرق نهر الألب فكانت ضعيفة لتقاوم هذا الاتفاق . وكان هذا بداية الاستبداد والعسكرية فى بروسيا . وكان دليل ظهور الجيش البروسى الجديد فى أوروبا هو انتصارهم على السويديين فى « فربلن » عام ١٦٧٥ .

وفى عهد فريدريك وياليم الأول زادت قوة الدولة البروسية زيادة هائلة ، فقد تضاعفت الميزانية ورفع حجم الجيش من ٣٨.٠٠٠ إلى ٨٠.٠٠٠ رجل . أما فريدريك الثانى قبل أن يصبح ملكاً عام ١٧٤٠ كان مولعاً بالأدب الفرنسى والعزف على الفلوت أكثر من ولعه بالتدريب على القتال ، ولكنه ما أن أصبح ملكاً حتى تحول سريعاً إلى واقعى قاسى ومخلص بشدة للتقاليد البروسية التى أخذت تستقر . وكانت الأوراء الراجحة لبروسيا هى جيشها ومليكها . وكان تعداد سكانها بين الدول الأوروبية يأتى فى المرتبة ١٣ .

وبالرغم من أن نواة أفواج الجيش البروسى قد جندت من مقاطعات بروسيا ، إلا أن غالبية رجال هذا الجيش جندوا من الخارج ، وباختطافهم عند الزوم . وكانت الوظيفة الأولى للبورجوازيين البروسيين والفلاحين هو الإنتاج الإقتصادى . وفى الجيش كان معظم الضباط

(١) لقد انخفض قيمة عائلة هوهنزوليرن فى حرب « الثلاثين عاماً » .

(٢) الجونكر هو عضو الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية الروسية . « المرب »

بروسيين من أصل نبيل ، وقد اعتمد عليهم فريدريك أكثر من اعتماده على رجاله ، وقد سر هؤلاء النبلاء بالخدمة العسكرية مقابل ما يتمتعون به من امتيازات . وكانت كل أسرة نبيل ترسل على الأقل أحد أبنائها إلى المدرسة الحربية . وقد تم غرس في نفوس الضباط حب الوحدة الوطنية بالإضافة إلى الضبط والربط ، كما تلقوا تعليماً عسكرياً عملياً . وكان فريدريك يعتبر أن أفضل ما يمكنه عمله لرجاله هو تدريبهم حتى يصبح كل منهم إنساناً آلياً على الكفاءة « يخاف من ضباطه أكثر من خوفه من الأخطار المعرض لها » . وقد كان لهذا التدريب العسكري القاسي هدفين أساسيين : —

أولاً : ففي الجيش المكون أغلبه من العناصر الأجنبية التي تفتقر إلى العزيمة الصادقة والروح المعنوية العالية فكان الإكراه والقسوة فقط هما اللذان يخلقان الضبط والربط واليقظة والتماسك .

ثانياً : كان فريدريك يدرك تماماً أن خفة الحركة هي مفتاح النصر في ظروف ذلك العصر ، وأن طابور المعركة التماسك هو وحده الذي يحققها ويجب أن تكون التشكيلات والتقدم في أراضى الاستعراض مثل تلك التي تتم في ميدان القتال . وصحيح كان النظام صارماً وحياة الجنود قاسية ولكن فريدريك نجح مع رجاله ، لوجوده بينهم فاكسب معرفة وخبرة كبيرة بهم .

أما السلاح الرئيسي للجيش البروسي هو السونكي^(١) وبمضي الوقت طور فريدريك نوعية الجيش البروسي، ولكن الإدارة التي آلت إليه عام ١٧٤٠ كانت جيدة ما فيه الكفاية مما جعله يشعر بالثقة الكاملة في استخدامها . وفي هذا العام غزا أراضى سيليزيا النمساوية المجاورة وكان تبريره الوحيد لذلك أن « سيليزيا » سوف تكون مكسباً اقتصادياً واستراتيجياً نفيساً لبروسيا . وبهذا العدوان بدأت حرب « التابع النمساوى » في أوروبا ، وسرعان ما اتسعت الأبعاد السياسية لهذه الحرب ، ولكن فريدريك ظل يضع هدفه الرئيسي نصب عينيه ، واحتفظت روسيا بسيليزيا بعد انتصارها في « مولوتيز » (١٧٤١) و « هوهنفر مدبرج »

(١) السونكي المركب على البندقية من أيام مارلبورو ولكن أدخل الجيش البروسي تعديلاً طفيفاً مثل استخدام القضيب الحديدي لتنظيف البندقية (حربي التنظيف) . « العرب »

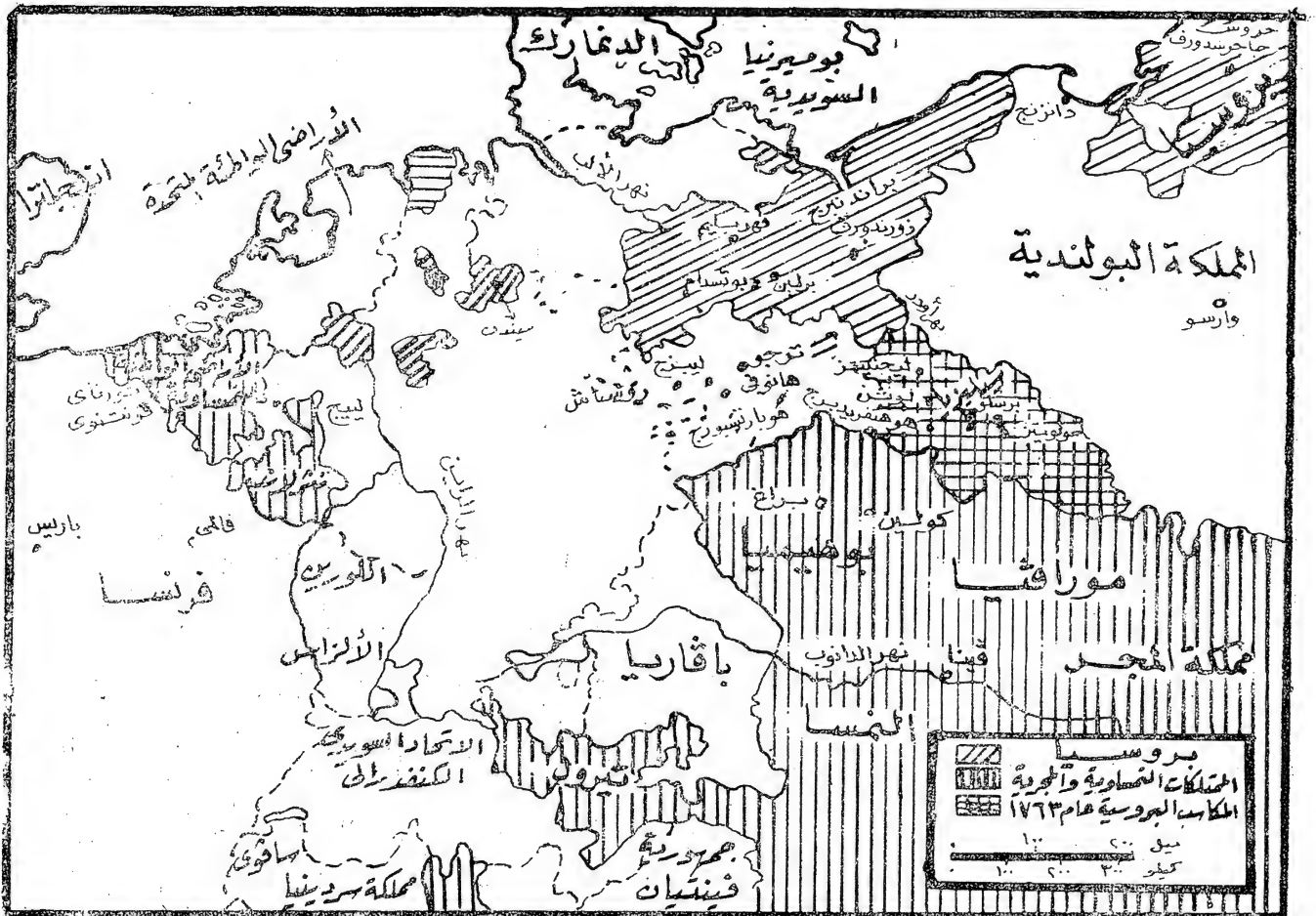
(١٧٤٥) . ولم يحل السلام إلا في عام ١٧٤٨ ولكنه لم يكن أكثر من هدنة ، لأن النمسا لم تكن راضية عن هذا الوضع .

وفي عام ١٧٥٦ دخلت بروسيا الحرب مرة أخرى ، وقدمت إنجلترا لها العون المالي ولكن كان عدوها هذه المرة النمسا وفرنسا وروسيا وسكسونيا . وكانت هذه الحرب هي حرب « السبع سنوات » (١٧٥٦ — ١٧٦٣) .

المبادأة والمفاجأة

(أنظر اللوحة رقم ٣١)

ومرة أخرى ، كان فريدريك القائد الأعلى للقوات في هذه الحرب ، وكان يتمتع بمصدر قوة ضخم عند تخطيط وتنفيذ استراتيجيته وذلك لأنه الحاكم المطلق لحكومة ذات كفاءة عالية واتجاه عسكري علاوة على قيادته لجيش كفء .



اللوحة رقم ٣١ وسط أوروبا في عهد فريدريك الأكبر

وكان يؤمن بأن هدف الاستراتيجية هو تدمير قوات العدو وليس فقط إحتلال أو الدفاع عن قطعة من الأرض ، وهذا الرأي يخالف كل معاصريه عدا ساكس و وولف . وكان جوهر استراتيجيته يكمن فى عاملين — القوة . . وخفة الحركة . وإذا قامت بروسيا بهجوم قوى حاسم على أرض العدو فسوف يعطيها هذا عنصر المبادأة كما سيَجبر قائد العدو على إخضاع تحركاته لتحركات فريدريك . وإلى جانب ذلك كان لفريدريك أعداء كثيرين فى هذه الحرب فإذا انتظرهم ليهاجموه فى تنسيق فيعنى هذا تعرضه أكثر من أى وقت للتدمير . وحيث أن فريدريك يتميز بخطوط مواصلات داخلية جيدة داخل بلاده ، فقد كان أسلوبه هو التحرك بسرعة وضرب أحد أعدائه بقوة ثم بعد ذلك التحرك بسرعة مرة أخرى لمواجهة عدو آخر .

وهكذا أفتتح الحرب بنفسه بغزو سكسونيا بدون إعلان الحرب عليها ، ثم بعد ذلك هزم النمسا فى معركة براغ عام ١٧٥٧ ولكن بعد ذلك فى هذا العام هزمه النمساويون والذين كانوا يتفوقون عليه عددياً بدرجة كبيرة عند كولن ، ثم هزمه الروس أيضاً عند « جرس جاجر سدورف » .

وعلى أواخر خريف عام ١٧٥٧ بدا أن نجم بروسيا أخذ يافل ، ولكن نوعية الحكومة وشجاعة الملك وجودة الجيش مكنهم من الاستمرار قدمافى الحرب . وفى نوفمبر كسب فريدريك والذي كان لا يزال فى موقف الهجوم ، نصراً كبيراً على الجيش النمساوى الفرنسى المشترك عند « روسباش » فى سكسونيا .

وفى ديسمبر دار على القوات النمساوية الأخرى بقيادة الفيلد مارشال « دون » و « تشالز » حاكم اللورين وهزمهم عند « لوثن » فى سيليزيا . وكانت تكتيكات فريدريك وكذا استراتيجيته دائماً هجومية ، ويرجع ذلك لاعتقاده بأنه إذا حصل على المبادأة ، فيمكن لقواته ذات التدريب العالى وخفة الحركة واستخدام أسلحتها جيداً فتستطيع هزيمة أى عدد من قوات أعدائه البطيئة ، وكان هذا ممكناً نتيجة لإتقان جنوده طابور المعركة . وكان دائماً يردد فريدريك : — « الكتيبة البروسية هى بطارية متحركة لأن سرعة تعمير الجنود للبندق تجعل النيران المنتجة تعادل ثلاثة أضعاف نيران العدو » . وهذا أعطى البروسيون التفوق على العدو بنسبة ٣ : ١ . واستخدم فريدريك «الوضع المائل» استخداماً

جيداً في المعركة ، ولكن ليس هناك دليل يثبت أنه مبتكر هذا الأسلوب التكتيكي .
وأكثر الاحتمالات أنه طور من طريقة « أيامينونداس » القائد الطبي . ويعتمد نجاح هذه
الطريقة على خفة الحركة وقد شرح فريدريك هذا الأسلوب التكتيكي كما يلي : —

« ثبت جناحاً واحداً أمام العدو وقوى الجناح الآخر الذي سيقوم بالهجوم ، وبهذا الجناح

الأخير تقم بأقصى ما يمكنك من العمليات ضد جناح واحد للعدو على أن تفاجأ بالهجوم

من الجنب . ويمكن بهذه الطريقة أن جيشاً مكوناً من ٣٠٠٠٠ مقاتل أن يهزم جيشاً

من ١٠٠٠٠٠ مقاتل في وقت قصير جداً ، ومزايا هذه الطريقة هي :

- ١ — يمكن لقوة صغيرة قتال قوة أكبر منها بكثير .
- ٢ — يمكنها الانقضاض على العدو في نقطة حاسمة .
- ٣ — إذا ما هزمت ، فيهزم جزء واحد فقط وباقي $\frac{2}{3}$ الأخرى لا تزال غير مجعدة ويمكنها
ستر إنسحاب القوة التي هزمت » .

وبشكل فعلي ، كان فريدريك في جميع معاركه أقل عدداً من عدوه . وفي الواقع كانت كل
أوروبا بالفعل تحارب ضده خلال حرب « السبع سنوات » ، وعندما يهاجم جيشاً معادياً
ضخماً في موقع دفاعي قوي ، فقد كان يحاول تحقيق المستحيل ، كما حدث في « لوثن » .
ولكن انتصاراته في « روسباش » و « لوثن » أثبتت صحة أساليبه في القتال ، كما كانت من
الأعمال التكتيكية الممتازة .

المعركة التي خالفت كل قواعد الحرب (أنظر اللوحة رقم ٣١ ، ٣٢)

وفي معركة « لوثن » كانت احتمالات الفوز بعيدة بشكل كبير عن جيش فريدريك .
فمنذ معركة « روسباش » في أوائل نوفمبر تمت هزيمة قوتين بروسيتين أخريتين ، مما رفع
الروح المعنوية للنمساويين وبشكل ملحوظ . وكان الجيش النمساوي في معركة « لوثن »
بقيادة « دون » و « تشارلز الموريني » يتكون من ٨٤ كتيبة مشاة و ١٤٤ أورطة
فرسان و ٢١٠ مدفع وكان عددهم يتراوح بين ٦٠.٠٠٠ و ٨٠.٠٠٠ رجل . أما جيش
فريدريك فكان يتكون من ٢٤.٠٠٠ رجل مشاة في ٤٨ كتيبة ، ١٢.٠٠٠ من الفرسان في ١٢٨
أورطة و ١٦٧ مدفعاً ويتراوح عددهم ٣٦.٠٠٠ رجل فقط . ولكن فريدريك بالرغم من

بمواجهة خمسة أميال ونصف وقد امتد من مستنقعات « نيرن » في الشمال إلى قرية « لوثن » ومنها جنوباً حتى « ساجشوتز » . وكان موقعاً دفاعياً قوياً بالرغم من طوله بعض الشيء . في الخامسة من صباح ٥ ديسمبر عام ١٧٥٧ تقدم فريدريك من الغرب مباشرة وعلى امتداد طريق « برساو » ، وكانت خطته القيام بهجوم مخادع على الجناح الأيمن النمساوي لتثبيته بينما يحشد قواته ويتحرك أمام مواجهة العدو الطويلة ليضربه بقوة كبيرة في الجناح الأيسر . واصطدم الحرس الأمامي البروسي^(١) تحت قيادة فريدريك نفسه مع العدو عند قرية « بورن » وسط ضباب الفجر . وانقض البروسيون على الفور بالرغم من عدم تأكدهم من القوات المعادية هل هي قوات أمامية أو جناح العدو الأيمن . وقد ظهر بعد ذلك أنها لم تكن سوى تشكيل متقدم للعدو يتكون من خمسة أفواج وسرعان ما أمكن تمييزه وسقطت « بورن » . ومنها وبعد تبدد ضباب الفجر استطاع فريدريك رؤية كل مواجهة مواقع العدو . أما أرض المعركة فكانت تنحدر لأسفل خلف بورن وبذلك أمكن إخفاء تقدم الأرتال البروسية الأربعة الرئيسية عن النمساويين .

ومع وصول جيشه الرئيسي أرسل فريدريك الحرس الأمامي لمطاردة أوائل الشاردين النمساويين مع القيام بهجوم مخادع على الجناح الأيمن للعدو ، ونتيجة لاعتقاد « لوشيشي » قائد الجناح الأيمن النمساوي أنه على وشك أن يواجه هجوماً شاملاً ، فقد قام بطاب نجدة سريعة من الجناح الأيسر ، وأرسلت له مع بعض الفرسان التي تعمل في الجناح الأيسر . وقد كان ذلك نجاحاً كاملاً للخطوات التمهيدية لفريدريك والذي بدأ بعدها يضع الجزء الرئيسي من خطته موضع التنفيذ . فقام بتشكيل أرتاله الأربعة في رتلين وألّف بهما إلى اليمين في اتجاه الجنوب ثم دفعهما إلى يمين العدو ، وتم كل هذا وهما مختلفيان عن الأنظار نتيجة لانحدار الأرض . ووصف أحد الذين حضروا هذه المناورة للجيش البروسي : — « أنه من المستحيل على المرء أن يشاهد منظراً أكثر جمالا من تقدم الجيش البروسي ، فكانت كل رؤوس الأرتال موازية كل منها للأخرى ، وعلى مسافات متساوية من الخط الذي يسرون بمحاذاته ، والفرق كلها تسير بدقة حتى أنها بدت وكأنها في استعراض عسكري » .

(١) كان يتكون من ١٠ كتائب مشاة و ٦٠ أورطة فرسان . « المغرب »

وكان القادة النمساويين يتوقعون هجوماً مباشراً بالمواجهة ، وعند ما لم يحدث ذلك وصلوا إلى إستمتناج أن الجيش البروسي قرر عدم الهجوم . وفجأة ، صخوا من وهمهم عندما أصبحت رؤوس الأرتال البروسية على مدى البصر وهي تلتف حول جناحهم الأيسر ، ما بين « لوبتينز » و « ساجشوتز » ، وطلب « ناداستي » قائد الجناح الأيسر النمساوي العون ، إلا أنه بعد منتصف النهار بقليل أفتحمت المقدمة البروسية تحت قيادة « ويديل » وفي معاونتها بطارية من ست مدافع والتي سرعان ما تبعها « موريس » أمير ديسسو ومعه ست كتائب مشاة دفاعات « ساجشوتز » . وأشتبك « ناداستي » مع طلائع الفرسان البروسية والتي تتكون من ٤٣ أورطة تحت قيادة « زيسين » ، ولكن بعد قتال متأرجح هزم الجناح الأيسر النمساوي هزيمة منكرة . وأكتظ الميدان بين « ساجشوتز » و « لوثن » بالشاردن النمساويين والذين طاردتهم الخيالة البروسية الخفيفة ويتقدم خلفها المشاة والمدفعية البروسية . أما تشارلز اللوريني والذي أصابه الفزع الشديد وهو في الوسط فقام على الفور بأستدعاء القوات التي كان أرسلها إلى الجناح الأيمن ، وأخذ يرسل المشاة ، كتيبة تلو الأخرى للدفاع عن « لوثن » ، حتى أصبحت القرية مزدحمة جداً بالمدافعين مما أدى إلى أنتشار الفوضى والأضطراب بين صفوفهم ومواقعهم ، ومع ذلك فقد قاوموا الهجوم البروسي بشجاعة مستهتة ، مما أدى أن فريدريك أضطر لدفع قوات أكثر مما كان محدداً لهذه المرحلة ، ولكن تم الأستيلاء على القرية أخيراً بهجوم بارع قام به حرس « موليندورف » . وكان التقدم التالي للبروسيين شمالاً لازال صعباً ، لأنه أثناء الدفاع عن « لوثن » كان لدى الجناح النمساوي الأيمن الوقت لوضع بطارية مدفعية على التل الواقع أعلى القرية . وتحت ستر نيران المدفعية أستطاعت المشاة النمساوية أن تتشكل في اتجاه ملائم أى بزوايا قائمة على مواجهتهم الأصلية . وأصدر فريدريك أوامره لرنله الأيسر بالتقدم ، المشاة بقيادة « رتزو » والفرسان بقيادة « دريسن » ، ولكن نيران المدفعية أوقفهم . وعلى الفور رد فريدريك على ذلك بتنظيم نيران مدفعية^(١) من فوق ربوة إلى الغرب قليلاً من لوثن تسمى « بتربرج » .

وقد أجبر تأثير نيران هذه المدفعية وبمعاونته هجوم القوات البروسية الجناح الأيمن النمساوي

على التقهقر للخلف . ومع الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم ، أخذت القوات النمساوية في الإنهيار ، وقام « لوسيشيسى » بأخر محاولة ، فلبرهة من الوقت أصبحت مشاة « رتزو » في موقف حرج ، جعل « لوسيشيسى » يتأهب لأطلاق فرسانه للهجوم على جانبيه الأيمن . ولكن كانت أورطة فرسان « دريسين » الأربعين مخفية خلف قرية « رادا كسدورف » وأنطلقت في اللحظة الحاسمة تحت ستر نيران بتربرج وأنقضت على قوات « لوسيشيسى » من ثلاث جهات وأزلت بهم هزيمة نكراء . أما باقى المشاة النمساوية فقد هوجمت بنفس الطريقة من جميع الاتجاهات ، وبحلول الظلام كان الجيش النمساوى يلوز بالفرار بأقصى سرعته ، بينما تابع فريدريك أنتصاره في هذه الليلة حتى « ليزا » فقط . وفي ٦ ديسمبر أعطى فريدريك جيشه قسطا من الراحة ، وبعد ذلك وعلى مدى ثلاثة أيام قام بتطهير بقايا جيش العدو في الريف المجاور . وفي ١٩ ديسمبر سلمت برسلو ، وبذلك أصبح أستيلاء البروسيين على سيليزيامؤمناً . ووصف نابليون معركة لوثن بأنها : — « معركة عظيمة في حركتها .. ومناوراتها .. ونتائجها . » وأضاف قائلاً : — « إنها وحدها لكافية لتخليد فريدريك ووضعه في مصاف أعظم القادة » . ولكن بالرغم من أن هذا النصر كان نصراً تكتيكياً باهراً إلا أنه لم يكن استراتيجياً حاسماً ، لأن الحرب استمرت خمسة سنوات أخرى ، خاضت فيها بروسيا الحرب وحدها ضد خصوم أكبر بكثير مما سبق ، وفي أحد المراحل عام ١٧٥٩ احتل الروس بالفعل برلين .

ولكن درأ فريدريك الهزيمة بشجاعته التي لا تقهر وبالأنتصارات التالية في « زورندورف » (١٧٨٥) وفي ليجنيتز (١٧٦٠) وفي ترجو (١٧٦٠) . وفي عام ١٧٦٢ غيرت روسيا موقفها ، وفي معاهدة « سلام » هوبرتسبرج « في العام التالى أحتفظت بروسيا بسيليزيا والتي تعتبر أحد أكبر الفتوحات التي حدثت في أوروبا .

خفة الحركة وقوة النيران

لقد خرج الجيش البروسى بعد حرب « السبع سنوات » منهكاً ولكن راضياً عن نفسه ، فقد أحتفظ بنظمه وعقائده الراسخة . في الناحية الأخرى كانت هناك فرنسا حيث صدم الكثيرون فيها من أحداث الحرب ، وبدأت فترة جديدة من إعادة التفكير وإعادة التنظيم .

وكان إستخدام فريديريك للمدفعية التي تجرها الخيول أبتكاراً بالغ الأهمية ، وذلك الابتكار انعكس على التحسينات الفنية التي أدخلت على المدافع الثقيلة التي صنعت في السنوات اللاحقة ، كما انعكس أيضاً على خفة الحركة والأهتمام بها .

وقبل حرب ١٧٤٠ أبتكر « جان دي ماريتز » طريقة جديدة لثقب مواسير المدافع بمثقاب جاعلا بذلك الماسورة أكثر قوة والقذيفة أكثر دقة بالنسبة إلى محيط المقذوف . وأثبت فيما بعد عالم الرياضيات البريطاني بنيامين روبينز أن عبوة أصغر ومدفع أخف يمكن الانطلاق إلى نفس المسافة التي تطلق إليها عبوة كبيرة من مدفع ثقيل . وأدى كل من هذين الاكتشافين إلى أنقاص حجم المدافع بدون فقدانها فاعليتها . وجاء « جريوفال » المفتش العام للمدفعية الفرنسية ليطبق هذه الطرق بعد عام ١٧٦٥ ، جاعلا مواسير المدافع أقصر طولا بغرض أن يجعل المدفعية سلاحاً أكثر في خفة الحركة . وصنعت أيضاً عربات المدافع لتسير بشكل أكثر نعومة ، وحلت الخيول محل الثيران لجر هذه العربات . وهكذا أصبحت المدفعية قادرة على السير جنباً إلى جنب مع قوات المشاة كما لم يعد هناك فاصل كبير في السرعة بينها وبين الفرسان . وأكثر من ذلك فقد أصبحت أكثر قدرة الآن على المناورة في المعركة . ولم يمنع ذلك تزايد أعداد المدافع ، وقد ساعد على هذا التطور اكتشاف صهر المعادن بفحم الكوك والذي جعل من المتوفر مدافع من الحديد أحسن وأرخص بدلا من البرونز كما كان سابقاً .

ولم يطرأ تطور فني مشابه في الأسلحة الصغيرة ، ولكن زادت قوة النيران نتيجة للخبرة والتدريب . وأوحت دروس حرب « الاستقلال الأمريكية » للأوروبيين بمزايا المشاة خفيفة التسليح . وقد ثبت أن مثل هذه القوات لو دربت تدريباً عالياً على المناورة وإستخدام الأرض فأنها سوف تصبح عنصراً مكملًا للارتال الملتصقة للقوة الرئيسية وبذا تزيد كثيراً من فاعلية الجيش في المعركة .

وقد أوحت التطورات في المدفعية والقوات الخفيفة بالابتعاد عن الأفكار التكتيكية التقليدية للقرن ١٨ . وفي عام ١٧٧٨ أقترح « دي تيل » في كتابه عن « أستخدام المدفعية الحديثة » نظاماً لعمل المدفعية المتحركة والمشاة معا . وطبقاً لهذا الاقتراح كان على المدفعية أن

تبدأ المعركة بفتح النيران على مسافة ١٠٠٠ ياردة حيث تقصف من الجنب كل أمتداد خط العدو . وجاء الجنرال « جريبوفال » بحث على استخدام المدافع الخفيفة الجديدة ذات المواسير القصيرة ، بالرغم من أنها سوف تكون أقل دقة على المسافات البعيدة إلا أنها ستكون أكثر قدرة على الحركة وأكثر فاعلية في المسافات القصيرة . وكان هناك جدل كبير فيما يتعلق بالجمع بين خفة الحركة وقوة النيران ، وأثار ذلك ما يمكن تسميته بمشكلة تركيز القوى . وأقترح « نولارد » نبذ نظام التشكيل الخطي واستخدام الأرتال المتوازية ، والتي يمكن بالهجمات المركزة اختراق خط العدو في نقاط مختلفة ، على أن تملأ الفواصل بين الأرتال بالمشاة الخفيفة . وقد تطلبت تشكيلات الأرتال نوعاً جديداً من التدريب العملي للمعركة ، وكتاب جوبرت في عام ١٧٧٢ المسمى « بحث عام في التكتيك » شرح قواعد مبسطة للتحركات التي يمكن بواسطتها القوات أن تتشكل بسرعة وبدون أرتباك من تشكيل الخط إلى تشكيل الرتل وبالعكس . وأوحت المبادئ التكتيكية الجديدة للهجوم وخفة الحركة ، بأستراتيجية السعي وراء المعركة بدلاً من المناورة ، ويمكن بتطوير قوة النيران إجراء عمليات التثبيت بأعداد أقل من القوات . وهكذا أصبح بإمكان القائد أن يقسم قواته الرئيسية إلى أرتال هجوم منفصلة ، مع شبكة متقاربة من المجموعات المنتشرة ، والتي إذا أستطاعت التحرك بسرعة كافية ، فتصبح قادرة على إيقاع العدو في الشرك وأجباره على الدخول في المعركة . واقترح جوبرت بأن القائد البارع هو الذي يتجاهل القلاع والتي أقلقته الكثير من قادة القرن ١٨ ، والتحرك مباشرة نحو عاصمة العدو ، والتي هي الهدف الرئيسي . وأدت التحسينات الكبيرة في المواصلات خلال النصف الثاني من القرن ١٨ وخاصة بالنسبة للطرق والقنوات أن جعلت هذه الإستراتيجية أكثر واقعية . كذلك كان هناك تزايد في الإنتاج الصناعي والزراعي وبالتالي أصبحت الجيوش قادرة على العيش في الدولة التي تقوم بالعمليات بها ، ومن ثم تستغنى عن أثقال كبيرة من الذيل الإداري . ومن ناحية أخرى فإن هذه الأفكار الإستراتيجية الأكثر طموحاً وتعقيداً تطلبت تحسيناً ضخماً في التنظيم الإداري في وقت السلم .

الثورة الفرنسية

وظلت هذه المبادئ العسكرية الجديدة مثاراً للمناقشة لأنها أبحاث غير مجربة حتى قيام

حرب « الثورة الفرنسية » عام ١٧٩٢ لتحطيم كل القديم في كل المجالات وخاصة في القوات المسلحة ، بتطهير سلك الضباط . فقد كان على الأقل ثلثي ضباط الجيش الفرنسى قبل الثورة من النبلاء ، وهذا كان في حد ذاته سبباً هاماً للسخط الثورى . وفى عام ١٧٨٩ ألغيت امتيازات النبلاء ، وما أن حل عام ١٧٩٤ حتى ترك في الضباط النبلاء الجيش .

وبذلك فتحت أبواب الرتب العليا لذوى المقدرة العسكرية . وقد أشعلت الثورة الفرنسية الحماس فى الأمة الفرنسية للديموقراطية ، فتغيرت تماماً السمة المميزة للجيش وأصبح الحرس الوطنى الجديد ، والذي كان نظام تجنيده بالتطوع هو قلب الجيش الجديد القوى ، وبعد فترة وجيزة أصبحت غالبية المجندين من المتطوعين . وكانت الصفة الجديدة والمميزة لهذا الجيش الوطنى القائم على التطوع هى اندفاع الجنود خلف ضباطهم بدلاً من دفعهم بواسطة ضباطهم . وتفجرت الحرب فى أبريل ١٧٩٢ بين فرنسا من ناحية والنمسا وبروسيا من ناحية أخرى . وكان سبب أندلاعها خشية حكام النظام القديم من اثورة ، وكره زعماء الثورة الفرنسية للنظام القديم .

ومن أجل ثورة الشعب على الطغیان والاستبداد ، فقد هب الفرنسيون ليتطوعوا للقتال . ولم يحقق الفرنسيون سوى نجاح طفيف فى المراحل الأولى من الحرب ، فقد كانت أساليبهم السياسية مضطربة ، كما تفشى التضخم المالى ، كما كان الجيش يفتقر إلى القادة والنظام والتدريب والأمدادات . فالقوة الفرنسية الأولى التى أرسلت لملاقاة العدو عند « تورناى » و « لياج » أُنقِبت على أعقابها هاربة . ولكن مع ذلك فقد كان لدى الفرنسيين الشجاعة والحماس والأفكار الصائبة وبالتالى فقد تحسّنوا بسرعة . ودخلت بكثرة أفكار « جريموفال » و « جوبرت » و « دى نيل » فى كتاب التدريب الرسمى والذي صدر للجيش عام ١٧٩١ . وجاء الاختبار بين الجديد والقديم ، عندما واجه الجيش الفرنسى بقيادة « دوموريز » البروسيين والنمساويين بقيادة « برنزويك » عند « فلى » فى شمال شرق فرنسا وذلك فى شهر سبتمبر ١٧٩٢ . وكان الدوق « برانزويك » قائد الجيش البروسى النمساوى يعتبر إلى حد بعيد من قادة المدرسة القديمة وفى نفس الوقت أحسن قادة العصر ، نظراً للمناورة الغير مصحوبة بإراقة الدماء والتي قام بها خلال حملته الناجحة فى هولندا عام ١٧٨٧ . أما

« دو موريز » فكان نهازا للفرض في نفس الوقت رجلا شجاعا وأفكاره تقدمية. وقد ير في القيادة . وكان كلاهما يطالب بأحقته في الحصول على لقب القائد العظيم ، وفي الحقيقة فإنه لا يحق لأى منهما المطالبة به ، لأن القوات المتضادة أخذت تناور حوالى شهر ضد بعضها . وقد تميزت عمليات الفرنسيين بالتهور والتضارب وعدم الفاعلية ، أما التحركات البروسية فكانت بطيئة للغاية ، تخضع لنظام إمدادات عقيم . وقد ضاع من برزويك على الأقل ثلاثة فرص للوصول خلف عدوه أو تدميره . وعلى أى حال فعلى ٣٠ سبتمبر بلغ دوموريز إلى موقع دفاعى عند « فالى » حيث وضع قرائنه كما كان يرغب تقريبا . وساد الجيشين بعض الإضطراب ، وفي الواقع لم تكن معركة « فالى » أكثر من تراشق هائل بالمدفعية . وبعد التراشق بالمدفعية في فترة الصباح أصر « برزويك » مشاته بالتقدم ، ولكنه سرعان ماسحبهم من أمام نيران المدفعية الفرنسية ، وتوقف فجأة عن القتال بعد أنتصاف النهار بالرغم من أن المعركة لم تكن قد بدأت بشكل فعلى .

وبالرغم من أن معركة فالى ليست معركة رئيسية إلا أنها كانت إنتصارا فرنسيا لأن « برزويك » قرر قراراً صائبا ، بأنه لن يستطيع أن يزحف إلى باريس بمثل هذا الجيش وخط المواصلات الطويل وفي هذا الوقت من السنة . وكسبت الثورة الفرنسية فترة راحة حيوية ، كما كان النجاح في صد العدو يعتبر عاملا نفسيا ذات أهمية كبيرة للفرنسيين . ودعم ثقة الفرنسيين بأنفسهم نصر آخر حققوه عند جيماييس . ومع حلول عام ١٧٩٣ كانت جميع القوى الكبرى تقريبا في أوروبا تتجمع ضد فرنسا ، وكان رد الفرنسيين على ذلك هو قانون ٢٣ أغسطس ١٧٩٣ . وهو البيان الذى أعلن بدء عصر الحرب الشاملة : — « سوف يقاتل الشباب ، وسيقوم الرجال المتزوجين بصنع الأسلحة ونقل الإمدادات وستصنع النساء الخيام والملابس وتخدم في المستشفيات وسيقوم الأطفال بتحويل خيوط الكتان القديمة إلى ضمادات وسيحمل كبار السن من الرجال إلى الميادين العامة لإثارة وإذكاء روح البسالة والشجاعة في المقاتلين ، ونشر الكراهية للملوك والحث على وحدة الجمهورية . وسوف تتحول المباني العامة إلى ثكنات ، والميادين العامة إلى مصانع للعتاد الحربى وسوف تسلم كل الأسلحة النارية ذات الأعيرة المناسبة إلى القوات ، وسوف يحافظ على الأمن الداخلى بواسطة بنادق الصيد والأسلحة البيضاء ، وسوف تأخذ كل الخيول المرسجة للفرسان ، وكل خيول الجر

الغير مستخدمة في الزراعة لتجبر المدفعية وعربات الإمداد .

الحرب تحسم بالمعارك

وأحب أن أختتم هذا الفصل ببعض الملاحظات عن فريدريك الأكبر القائد العسكري البارز .

ومن المفيد أن نتأمل إذا كان فريدريك قد تأثر بكتابات ساكس الذي كان يكبره بستة عشر عاماً ، والاجابة على الأرجح بالنفي ، حيث أن كتاب « أفكارى الخيالية » طبع عام ١٧٥٧ أى في العام التي تمت فيه معركة لوثن ، وكان ذلك بعد موت ساكس بحوالى ٧ سنوات ، وبعد تولى فريدريك الملك بـ ١٧ عاماً .

وفي القرن ١٨ ، كان هناك اختلاف بسيط بين الجيوش الأوروبية من حيث الأسلحة والتكتيك وتنظيم الإمداد وبالتالي أصبح إدارة الحرب تتطلب قيادة ذات كفاءة .

وفي هذه الظروف تطلبت الاستراتيجية الحربية قائداً ذات صفات عقلية كبيرة ، وهذه الصفات لم تتوفر في ذلك الوقت إلا في إثنين فقط هما « مارلبورو » و « فريدريك الأكبر » وكلاهما جمع بين المهارة في المناورة مع الإيمان بأن المعركة هي العنصر الحاسم في الحرب .

وبالنسبة لفريدريك فكانت مرتبطة بظهور قوة بروسيا العسكرية وأضحلال الجيش الفرنسى . ويعود ذلك أيضاً إلى نجاح جيش بروسيا ولكن قبل كل شيء إلى الحقيقة التي تعتبر الواجب الرئيسى للملك هو أن يكون جندياً قبل كل شيء . ويمكن تفسير إنجازات فريدريك الكبيرة بخروجه على الاستراتيجية العادية للقرن ١٨ . وكان يؤمن بأن « الجوع ينهك الرجال أكثر مما تنهكهم الشجاعة » وركز على أهمية تجويع قوات العدو (القوات وليس المدنيين) وذلك بالمناورة التي تبعدهم عن مصادر إمدادهم . ولكنه رأى أيضاً أن المناورة وحدها لا يمكن فقط أن تضع الحكم الحاسم بل « تحسم الحرب فقط بالمعارك » ولا تحسم إلا بها .

وكانت رغبته في المعركة هي التي جعلته فريداً عن القادة العسكريين الآخرين في عصره .

وحصل على نجاح مبكر فى وقت الحرب المحدودة لأنه كان يختلف عن الآخرين ، فقد كان مستعداً للمخاطرة ودفع جنوده للمعركة فى أى وقت يجده مواتياً . وكان هذا مشابهاً لإقتراب نابليون إلى الحرب الذى سنبجته فى الفصل التالى . ويمكن القول أن ظمأ فريديريك للمعركة ، كان سيكون انتحاراً لو كانت جنوده ومعداته الحربية أقل من تلك التى لدى خصومه أو حتى مساوية لهم .

ولكن البروسيون ركزوا إهتمامهم على التدريب للقتال وعلى النظام والضبط والربط فكان ذلك يعد مكسباً كبيراً لهم . وقد أنتج هذا جنوداً يمكنهم السير أسرع ، وتغيير تشكيلهم من رتل إلى خط أكثر سرعة ، والتعمير وإطلاق النيران بسرعة وفاعلية أكثر من جنود أى جيوش أخرى . وقد أعطت خفة الحركة والدقة لفريديريك مجالاً كبيراً للبراعة العسكرية ، على عكس نابليون لم يكن لديه رصيذاً لا ينضب من أرواح الرجال . وكان فريديريك مجبراً على القتال فى عدة جبهات خلال حرب « السبع سنوات » علاوة على عدم تساويه مع أى خصم من خصومه الثلاث سواء فى المال أو فى القوة البشرية ، فقد كان عليه التحرك بسرعة من موقع إلى آخر موجهاً سلسلة من الضربات لكى يمنع إنصلاً مميتاً بين الجيوش المضادة له . وإذا كان قد نجح فى ذلك ، فيرجع إلى مقدرته وكفاءته الذهنية ، وإلى قوة تحمل جنوده . وقد قاتل حرباً دفاعية متخذاً مظهر الحرب الهجومية . ونستطيع أن نختم القول بأعلاننا بأن فريديريك كان القائد المتفوق فى الحقبة التى تناولناها فى هذا الفصل .

الفصل الخامس عشر

عصر نيلسون و نابليون و وولينجتون

حرب العبقرية الفردية

لم يكتف الثوار الفرنسيون بطرد أعدائهم خارج أراضي فرنسا ، بل واصلوا الحرب في أوروبا من أجل الديمقراطية والسلب والمجد. واستمرت أوروبا تعاني من الحرب من عام ١٧٩٢ حتى ١٨١٥ .

وهذه الفترة شهدت العديد من أشكال التحالف وانتقال الدول بين الجانبين . وكانت الدولة الثابتة في القتال ضد فرنسا هي بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وكانت كل مرة تكون تحالفاً يضم اثنين أو ثلاثة منها في كل وقت على حدة ، وكانت بريطانيا هي الدولة المتزعمة للقتال ضد فرنسا في جميع الأوقات. وفي الطرف الآخر ، كرس الفرنسيون كل استراتيجيتهم في البر والبحر بقيادة القائد السياسي والعسكري العظيم نابليون لإلحاق الهزيمة ببريطانيا وتميزت الحرب بالعبقرية الفردية أكثر مما تميزت بالأنظمة أو العوامل الفنية العسكرية . وقد ظهرت خلالها شخصيات تميزوا بالذكاء والبراعة ؛ ولكن سوف نركز دراستنا على ثلاثة منهم : — نيلسون . . . و نابليون . . . و وولينجتون .

وكان من الطبيعي أن يبدأ المجهود الرئيسي لبريطانيا في حربها مع فرنسا في البحر .

وقد ساعد على ذلك أن البحرية الإنجليزية كانت في حالة أفضل من جيشها . وفي الواقع نادراً ما كان الأسطول الإنجليزي في حالة جيدة من التجهيز والاستعداد ، فكان لديه ٥٥ سفينة حربية مستعدة للقتال ، كما تم القضاء وبدرجة كبيرة على الفساد وعدم الكفاءة الإدارية . وعلى العكس نجد الأسطول الفرنسي ضعيفاً ، بينما كان في الحرب الأمريكية منافساً

قويا للأسطول البريطاني . ومع حلول عام ١٧٩٣ وصل الأسطول الفرنسي إلى حالة من عدم الإستعداد واللياقة لم يشهد لها من قبل نتيجة لعملية التطهير الثورية والتي جردته من أحسن عناصره ، وما تبقى بعد ذلك لم يكن على المستوى الجيد ، علاوة على السفن غير المصانة جيداً . واستعاض عن ذلك بالجيش الذي كان يعتمد على الحماس والكثرة العددية . وكان لدى الفرنسيون ٤٢ سفينة قتال فقط يفتقر معظمها إلى الضباط الأكفاء والبحارة المدربين . واستخدم الفرنسيون أسطولهم لمهاجمة السفن التجارية البريطانية والتهديد بغزو إنجلترا . أما الإستراتيجية البحرية البريطانية في الحرب فكانت ذات ثلاث سمات وهي : تأمين الملاحة للسفن البريطانية ، مهاجمة السفن المعادية ، حماية شواطئها من الغزو . كما حاولت بريطانيا أيضاً استخدام القوة البحرية لتمنح جيشها خفة الحركة ، وبناءً عليه فقد قامت بعدة عمليات عبر البحار في « الفلاندرز » و « الهند الغربية » و « الساحل الفرنسي » . ولكن هذه العمليات فشلت فتخلى الإنجليز عنها ، وركزوا جهودهم على حصار الساحل الفرنسي لخنق التجارة الفرنسية ، وإجبار الأسطول الفرنسي على الدخول في معركة إذا جروء على مغادرة الميناء .

وفي الفترة من عام ١٧٩٤ إلى عام ١٨٠٥ أحرزت البحرية البريطانية ست انتصارات رئيسية ، وهكذا كانت هذه الفترة على تقيض فترة المائتي عام السابقة منذ هزيمة الأرمادا ، حيث كانت المعارك البحرية ذات المدى الواسع والحاسم نادرة الحدوث . وظلت السفينة الحربية القديمة محتفظة بنفس صفاتها الفنية تقريباً ، ولكن البحارة البريطانيون اكتشفوا أخيراً طريقة فعالة لاستخدامها بكفاءة . وأحد العوامل وراء ذلك هو إدخال نظام الإشارات الشامل ، والذي صممه « كبنفلت » و « هو » .

وقد استطاعت القادة بكفاءة الإشارات من الانتقال من التشكيلات الجامدة والسابق وصفها ، إلى التشكيلات البحرية الواسعة والمعقدة والمرنة ولكن مسيطر عليها بواسطة القادة .

أما العامل الثاني فهو القدرة الفائقة التي تميز بها بعض قادة البحر البريطانيين وخصوصاً « هو » و « نيلسون » . وتم إحراز أول نصر إنجليزي بفضل « ريتشارد هو » في « أول يونيه

المجيد» عام ١٧٩٤ . وكان « هو » يقود ٣٤ سفينة داخل المحيط الأطلنطي حينما أبصر على بعد ٢٥ سفينة فرنسية . وحصل على المبادأة باستخدام نظام الإشارات مع إستخدام تسكتيكا جديداً ، وهو إفتحام خط العدو في اتجاه مضاد للريح . وأصبح بحصوله على موقع مضاد للريح قادراً على اختيار اللحظة المناسبة للانقضاض على العدو في تشكيل مائل ، واستطاع قطع خط العدو في نقط متتالية ، وبعد ذلك تشتبك كل سفينة بريطانية مع إحدى السفن المعادية في قتال متلاحم من اتجاه الريح ، أى من الموقع الذى يمنع هروب العدو في اتجاه الريح . وقد سهل نظام الإشارات التنسيق التام للأسطول البريطانى والتي تطلبها مناورات هذه المعركة .

وكانت معركة « أول يونيه المجيد » نقطة انطلاق في تطور تسكتيكات السفن . وقد نجح « هو » في إدماج خط الاقتراب التقليدى مع نظام تدمير السفن بالقتال المتلاحم معها . واستولى على ست سفن معادية كغنائم مع تدمير سفينة معادية واحدة . ونتيجة لهذه المعركة ولعركتين أقل منها عام ١٧٩٥ سلم الفرنسيون لبريطانيا بالسيادة في البحر ، ومنذ ذلك الحين والأسطول الفرنسى قابع في موانئه متخذاً موقف الدفاع .

معركة أبوقير البحرية (أنظر اللوحة رقم ٣٣)

وبالرغم من ذلك ، ففي عام ١٧٩٧ انخفضت معنويات الإنجليز وآمالهم في الحرب فكان الفرنسيون متفوقين تماماً على البر في الأراضي الواطئة (هولاندا) وأيضاً في إيطاليا ، ولم يعد هناك أى قوات بريطانية في أوروبا . بينما انضمت أسبانيا إلى فرنسا ، واضطرت بريطانيا إلى التخلي عن البحر المتوسط .

وفي شتاء عام ١٧٩٦ — ١٧٩٧ تمكن أسطول « برست » الفرنسى من اختراق الحصار البريطانى ولم يمنعه سوى العواصف من غزو أيرلندا . ولكن « السير جون جريفيز » أنقذ الموقف في فبراير ١٧٩٧ بانتصاره على الأسطول الأسباني أمام مياه رأس « سانت فنسنت » . ولكن مرت بريطانيا بفترة غاية في الخطورة ، وذلك عندما تمردت البحرية الإنجليزية في أسطول المانش عند « سبتهد » وبعد ذلك في أسطول بحر الشمال عند « نور » . فقد ساد الإستياء بين البحارة نتيجة لعدم العدالة في التجنيد والأجور المنخفضة والنظام

الصارم - وقد أجيبت طلباتهم للعقولة والخاصة برقع الأجور وحسن المعاملة ، وبالرغم من ذلك فقد استمرت كتيبة التجنيد الإجبارى والسجون فى إمداد البحرية بأغلب المجتدين . وأخفيت أنباء هذا التمرد عن العدو فترة طويلة كافية لكي لا يتم فك حصار « تكسيل (١) » .

وفى أكتوبر حقق الأدميرال البحرى « دونكان » النصر الرئيسى الثالث فى الحرب . أعوام مياه « كمبردان » (جوتلاند) مكررا تكتيكات « هو » الجديدة . وأصبح « جريفز (٢) » اللورد الأول فى الأدميرالية عام ١٨٠١ . وكرس نفسه لإصلاح وإعادة تنظيم الترسانات البحرية وجعل الإدارة سهلة واقتصادية ، وقد وفر بهذه الطريقة القواعد الرئيسية للقوة البحرية البريطانية حتى عام ١٨٠٦ . وكان « جريفز » ضابطاً بحرياً عظيماً ، ومقاتلاً واستراتيجياً وقائداً وإدارياً ، وكان له عين خبيرة فى الحكم على الرجال ، وكان هو أول من تعرف على « نيلسون » وشجعه .



نيلسون

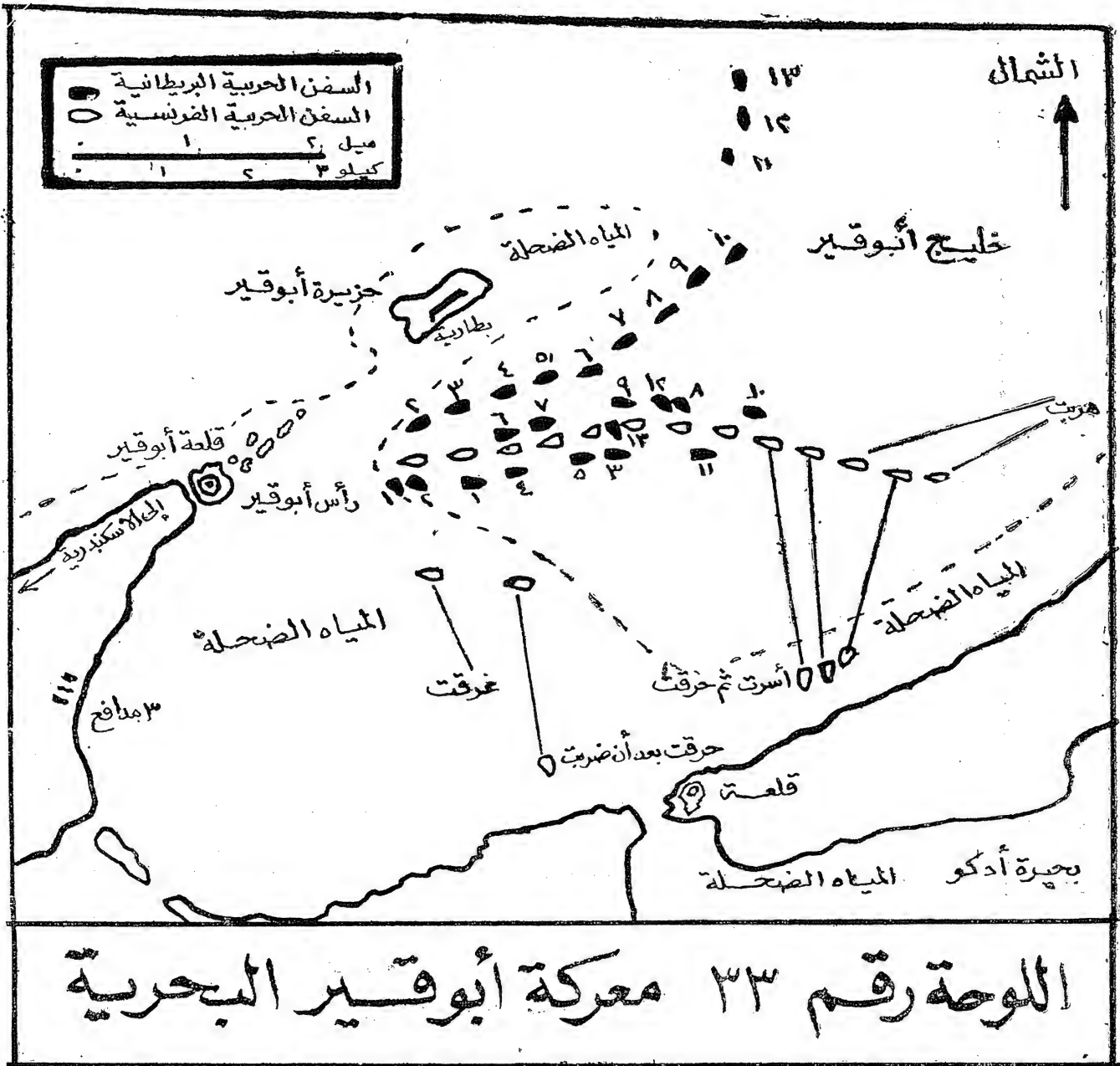
لقد ولد « هوارشيو نيلسون » عام ١٧٥٨ وألتحق بالبحرية عندما بلغ ١٣ من عمره وسرعان ما بدأ الطموح يملأه ، ولم يحل عام ١٧٩٣ حتى أصبح قائداً للسفينة حربية ، وفى عام ١٧٩٧ أشترك فى معركة رأس « سانت فنسنت » وكانت خطة جريفز فى هذه المعركة هى أختراق خط العدو ، ثم التحول للهجوم قبل أن يستعيد العدو ترابطه . وكان مواقع نيلسون فى الخط الإنجليزى قرب المؤخرة ، ومن هذا الموقع أستطاع رؤية سفن المقدمة البريطانية وأنها لن تتمكن من العودة بعد تغيير اتجاهها قبل أن يغلق العدو الثغرة التى أحدثها الأسطول البريطانى وساءل نفسه : — هل يترك الخط بدون أوامر ويحاول منع وقوع هذا الخطر

(١) غرب جزيرة فريزيان .

(٢) كان فى ذلك الوقت لورد سانت فنسنت . « المغرب »

الدام وأخيراً قرر أن يفعل ذلك ؛ وإن دفع بسفينته بمفردها داخل الثغرة وأشتبك نيلسون بمفرده وبمدافعه ٧٤ مع سبع سفن للعدو ، حتى انضم إليه بقية الأسطول البريطاني . وكان نتيجة قرار نيلسون الرائع والواقعي والشجاع هو تحقيق النصر كاملاً ، مما أدى أن «جرفير» قام بتهنئته .

وفي أوائل ١٧٩٨ ، ترددت الأنباء عن الحملة التي يجهزها نابليون في طولون . في نفس الوقت قرر البريطانيون العودة إلى البحر المتوسط وذلك بعد الانتصارات التي حققها البريطانيون



في العام السابق . وأرسل أسطولاً من ١٣ سفينة بقيادة « نيلسون »^(١) إلى البحر المتوسط إلا أن نابليون أنهز فرصة هبوب عاصفة هوجاء وأبحر بجيشه البالغ حوالى ٣٥.٠٠٠ رجل وبأسطول طولون المكون من ١٣ سفينة إلى مالطة وبعدها إلى مصر . وبعد مطاردة طويلة ذهاباً وإياباً شملت نصف طول البحر المتوسط عثر نيلسون على الأسطول الفرنسى فى خليج أبو قير وكان ذلك فى وقت متأخر من بعد ظهر أول أغسطس عام ١٧٩٨ . قرر نيلسون الهجوم فى نفس الليلة ، وجرى تخطيط المناورة المؤدية إلى المعركة بعناية تامة ، كما وضع ثقته فى جميع قادة السفن . وأيقن أنه يستطيع الإعتماد على قدرتهم ، وطلب منهم إستخدام مبادئهم الشخصية فى إطار الخطة التكتيكية الموضوعة . وكان خط الفرنسيين مكوناً من ١٣ سفينة حربية راسية فى الخليج ، وكانت مقدمة الأسطول راسية بالقرب من رأس أبو قير الصخرى ولا يفصلها عنه سوى المياه الضحلة ، وقد اعتقد الأدميرال « برونز » أنه لا يستطيع أى سفينة المرور بين أسطوله والشاطئ . أما البريطانيون ففكروا بأسلوب مختلف ، فما أن بدأ الليل يرخى سدوله حتى قاد الكابتن « فولى » أربع سفن خلال المياه الضحلة إلى مؤخرة الفرنسيين بينما بقي نيلسون فى الخارج مع بقية الأسطول . وتم الهجوم على السفن الفرنسية الجامدة فى أماكنها من كلا الجانبين فى وقت واحد . وبدأ الفرنسيون يتخبطون فى حالة إضطراب وفوضى فى الظلام ، ولم يعملوا سوى انتظار الهجوم عليهم . وعند الفجر كانت المعركة قد أنهت ودمر الأسطول الفرنسى بالكامل ماعدا سفينتين أستطاعتا الفرار . ونتيجة لهذا النصر ، فقد سقط عدد كبير من القوات الفرنسية فى الشرق فى الفخ وأصبح البحر الأبيض المتوسط بحراً بريطانيا ، ودعم السيطرة البريطانية أحتلالهم « لينورقه » عام ١٧٩٨ و « مالطة » عام ١٨٠٠ .

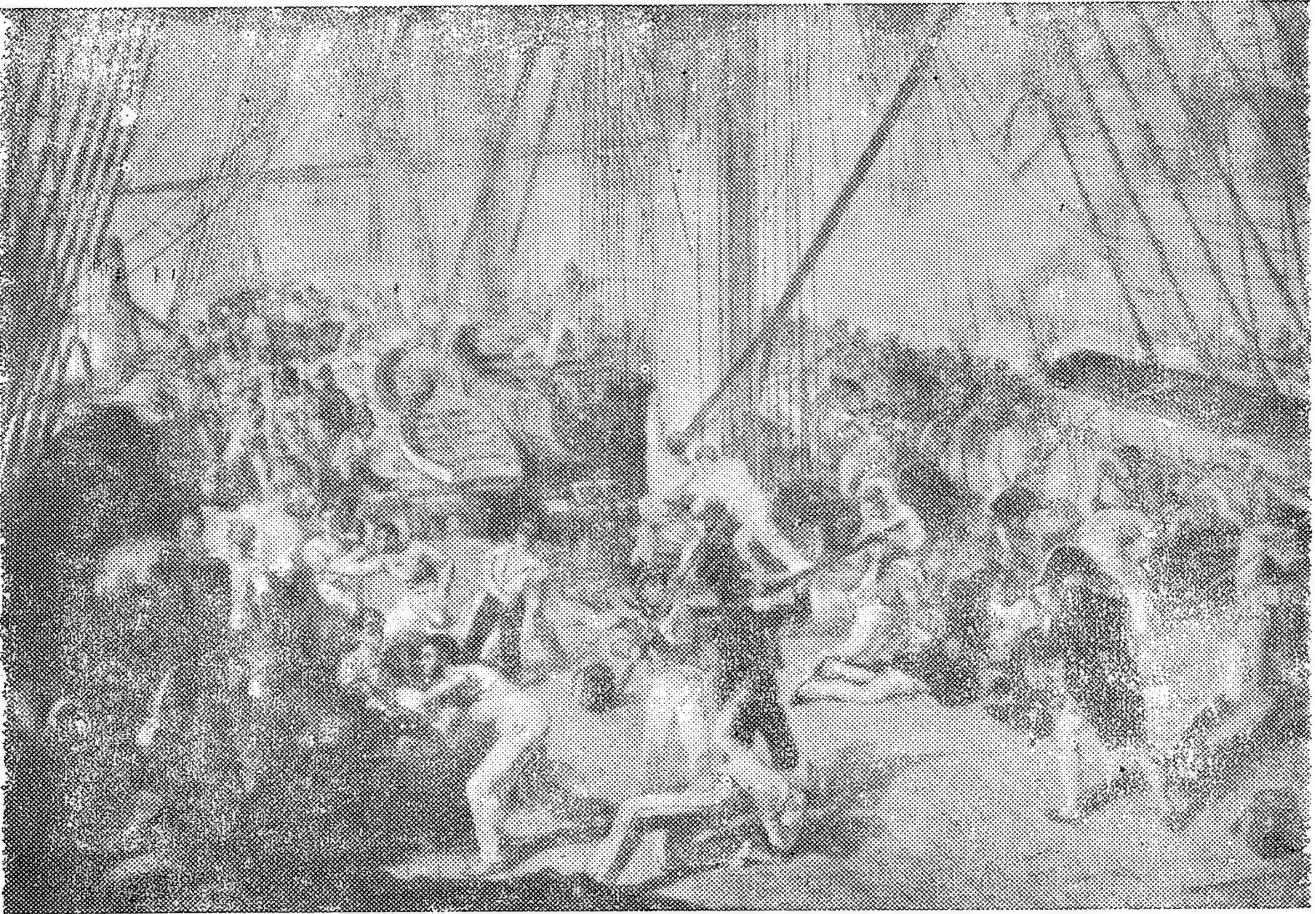
(أنظر اللاوحة رقم ٣٦)

معركة الطرف الاغر

وكانت عملية نيلسون التالية فى « كوبنهاجن » عام ١٨٠١ ، فكانت بريطانيا تعتمد إلى حد كبير على أسكندنافيا فى موارد ولوازم بحريتها ، وقد أدرك نابليون هذا جيداً ، وكانت له السيطرة على البر و حاول أخلاق الملاحة فى وجه السفن الأسكندنافية المتجهة إلى بريطانيا .

وبناء عليه ، أرسلت حملة إنجليزية إلى « كونهاجن » بقيادة « سير هايد باركر » ورافقه نيلسون نائباً له ، وأرسلت هذه الحملة في وقت كان الفرنسيون غير مستعدين . وأستطاع نيلسون إقناع باركر ليسمح له بقيادة أسطول من السفن الخفيفة ضد الأسطول الدانمركي ، والذي كان راسياً وغير مستعد ولكنه في حماية مدافع قلعة « كونهاجن » .

وبعد حسابات دقيقة للوقت والتيارات البحرية والمد أبحر نيلسون ليصب نيراناً دقيقة على العدو . وفي ذروة الأحداث فقد باركر أعصابه وأرسل إشارة إلى نيلسون يطلب منه الانسحاب . وضع نيلسون التلسكوب أمام عينه التي لا يرى بها وأعلن أنه لم ير أي إشارة ، وأستمر في عملياته بأعصاب هادئة حتى أستسلم له كل الأسطول الدانمركي . في ذلك الوقت أستمر النجاح العسكري الفرنسي في البر ، بينما أفسد هذا النجاح وهدده الخطر المتزايد للقوة البحرية البريطانية والتي لم تقهر . بين عامي ١٨٠٣ ، ١٨٠٥ وضع نابليون عدة خطط لغزو



معركة الطرف الأغر حيث قتل نيلسون

بريطانيا ، وتمركز جيش كبير عند بولوني ، ولكنه كان لا يستطيع مهاجمة لندن إلا بعد أن يسيطر على بحر المانش . وبحلول صيف عام ١٨٠٥ تخلى نابليون عن أمل القيام بغزو فعلى لبريطانيا ، ولكنه ظل مؤمنا بأهمية تحطيم السيطرة البريطانية على البحار ، ولذلك فقد احتفظ بالجزء البحري من خطة الغزو . وكان السبب في ذلك هو محاولة تحطيم حلقة الحصار على كل من « طولون » و « بريست » ثم يوحد الأسطولين ضد أسطول المانش . وكانت هذه الخطة غير واقعية . وعلى أى حال فقد أستطاع أسطول طولون الفرنسي بقيادة « فيليطوف » أختراق حلقة الحصار ، وانطلق نيلسون في أثره وأجبره على الدخول في معركة عند « الطرف الأغر » في ٢١ أكتوبر . وقد دار القتال عند « الطرف الأغر » طبقا للأسلوب التكتيكي المستحدث ، وهو أختراق خط العدو ثم الدوران والدخول معه في قتال متلاحم شديد . وكانت هذه المعركة من أنجح المعارك سواء في التنسيق بين السفن أو في التطبيق الكامل للأسلوب التكتيكي المستحدث . وقد تم فيها أسر وتدمير ١٨ سفينة من بين ٣٠ سفينة معادية . وفي مثل هذا النوع من المعارك ، فإنه لامناص من وقوع خسائر فادحة بسبب ما يحدثه القصف المتلاحق وما يؤدي إليه تلاصق السفن ووجود القناصة من مذاح كبيرة بين الأفراد حتى أن نيلسون نفسه لقي مصرعه في هذه المعركة . وقد اكتسب نيلسون شهرة مؤكدة كقائد ملهم وبحار بارع ومقاتل مبدع شجاع ، وقد قال عنه « جوزيف كوزاد » : — « لقد كان بطلا في أدائه لواجبه » .

وكانت معركة « الطرف الأغر » أحد المعارك الرئيسية الأخيرة في تاريخ الشراع ، وأكثرها دقة وكلا . وكان من أعظم نتائجها أن بريطانيا أصبحت مهيمنة تماما على البحار وليس للفترة التي تلت المعركة فقط ، بل أيضا لبقية القرن ١٩ ، الأمر الذي أمن وزاد من تجارتها . وأكثر من ذلك فقد أستطاعت بريطانيا أن تدعم أوروبا بالأمدادات مع تأمين المواصلات وبذلك ساهمت مساهمة كاملة في الجهود الحربية لأوروبا ضد نابليون والذي أصبح الآن مقيدا باستراتيجية برية ، وبالتالي أصبح مؤكدا أن هلاكه النهائي محتوما .

استعد بحار واضرب كالصاعقة

(أنظر اللوحة رقم ٣٦)

وفي نوفمبر ١٧٩٢ أى بعد شهرين من معركة « فالى » و « جيبايس » أعلنت الجمعية

الفرنسية أنها سوف « تمنح التأييد والمساعدات لجميع الشعوب التي ترغب في إستعادة حريتها » وبناءاً عليه أعلن الفرنسيون الحرب على أوروبا ، تدفعهم الرغبة في تأكيد أمنهم القومى والتوسع وتحقيق المبادئ المثالية . وكانت مصادر قوة فرنسا في شعبها الذى يبلغ تعدادة أكثر من ٢٥ مليون^(١) نسمة و ٧٣٠.٠٠٠ بندقية من طراز عام ١٧٧٧ ، وأكثر من ٢٠٠٠ قطعة مدفعية من تصميم « جريبوفال » وقدر كبير من الحماس الذى يلهب صدور الجماهير وعدد من القادة المخلصين الأكفاء .

وكان أقدر هؤلاء القادة والذى برز في الفترة من (١٧٩٢ حتى ١٧٩٧) هو « لازاركارنوت » عضو لجنة الأمن العام والذى رأى أنه : — « يجب تنظيم حماس و طاقة الشعب . » وكان رجلاً إدارياً وعبقرياً ويستطيع العمل لستة عشر ساعة يومياً . وقد أستطاع معالجة المشكلات الرئيسية ومنها أدماج المجندين الجدد من المواطنين مع الجنود النظاميين القدامى ، وذلك في جيش قومى واحد ، كما نظم هذا الجيش في شكل وحدات ، وأنشأ نظام تدريب الضباط على الأسلحة المتخصصة ، مع ربط الصناعة والزراعة بالحرب . وأرتفع عدد الأفراد تحت السلاح من ٣٠٠.٠٠٠ في بداية عام ١٧٩٣ إلى أكثر من ٢ مليون في عام ١٧٩٤ . وفي عام ١٧٩٨ أنشأ نظام الخدمة الوطنية ويسرى على جميع الشباب غير المتزوج والبالغ عمرهم من ٢٠ إلى ٢٥ عاماً . وهكذا حقق « كارنوت » نجاحاً في تنظيم القوات بحيث أصبحت هذه الأعداد الكبيرة منذ البداية مصدراً للقوة أكثر منها عبئاً معوقاً . وتم تدريب الجيش على القواعد الجديدة لكل من « جويبرت » و « بوارست » ، وكانت الأسلحة كافية . وحلت مشكلة الأمداد بإنشاء نظام يعتمد فيه الجيش على موارد الأرض التي يقاتل أو يتواجد بها . وفي الفترة بين عامى ١٧٩٣ — ١٧٩٤ كان « كارنوت » مسئولاً أيضاً عن الاستراتيجية ، بمعنى أنه كان ينسق ويربط بين تحركات ١٢ جيشاً . وكان يؤمن بأن « الصفة القومية المميزة للرجل الفرنسى هي أن يهاجم طوال الوقت . » وقد تم الإستفادة من الأعداد الغفيرة الفرنسية والحماس لديها إلى أقصى حد ، وكذلك بخفة الحركة التي زادت بإختفاء الذيل الإدارى . ومنذ مارس عام ١٧٩٣ كانت هناك سلسلة متعاقبة من الانتصارات

(١) يعادله في ذلك الوقت مجموع تعداد شعوب النمسا وبريطانيا . « المغرب »

الفرنسيه . وتحولت النجيدات الحربية لتكون إبتهاجات بطولية بالنصر . وقد كتب « مارمونت » عن ذلك فيما بعد قائلا : — « لقد مرنا ونحن محاطون بنوع من الأشعاع الذي لازلت أشعر بدفئه كما كنت أشعر به منذ ٥٠ عاما مضت . » وكتب جندي مشاه من الحرس : — « كنا نقاسى ولكن كنا نفخورين بما نعانيه ، وكنا نحاول أن نضحك مما نقاسيه . وشاركنا ضباطنا في متاعبنا . » وكانت تكتيكات هذا العصر بسيطة ولكنها مكلفة في الأرواح ، ولكنها كانت أيضاً تلائم الأعداد الجاراة من القوات المتحمسة ويقودها ضباط في مقتبل العمر لديهم طاقة وشجاعة أكثر مما لديهم من خبرة ومهارة .

وكان يبدأ الهجوم بتقدم حشد مندفع غير مترابط من الرماة المهرة ، ثم تستعد المدفعية لستر التقدم الرئيسى ، حيث تشكل المشاة في أرتال عميقة يتقدمهم ضباطهم ثم تندفع وسنا كيهام مثبتة في بنادقهم ، بينما يصرخ الجنود للمحافظة على روحهم المعنوية . وقد برز في تلك الفترة عدد كبير من القادة الممتازين وكان عمرهم يتراوح بين ٢٠ ، ٣٠ عاما وهم : — « هومش » و « جوردان » و « أوجيرو » و « مودات » و « ماسينا » و « نابليون » وآخرين .

وتعتبر حياة « هومش » نموذجا مميزا لهذا العصر ، فقد استرعى إيتباه « كارنوت » مبكرا ، فقد حقق إنتصارات في « فروسشويلر » و « ويزيمبورج » بأتباعه حكمته الشخصية التالية : « أستعد بحذر . . وأضرب كالصاعقة . » وفي عام ١٧٩٧ أصبح قائدا لواحد من أشهر جيوش الجمهورية الفرنسية وهو . — « جيش سامبروموس » . وقد دفع النمساويين للخلف حتى « فرانكفورت » ولكنه توفي في هذا العام وعمره ٢٩ عاما . وكانت وفاة « هومش » إيذانا بإنهاء عصر الثورة وبداية العصر النابليوني .

الدكتاتور العسكري لفرنسا

(أنظر اللوحة رقم ٣٦)

ولد « نابليون بونابارت » عام ١٧٦٩ في « كورسيكا » ، وفي الفترة بين عام ١٧٧٩ وعام ١٧٨٥ ألتحق بالكليات العسكرية في فرنسا وبعد ذلك ، خدم كعالم مدفعية في « أوكون » و « فالينس » ، وقد تعلم على كتابات « روينز » و « بورست » و « دى نيل » و « جريبوفال » و « جويبرت » . وكان نابليون يدين بفضل كبير إلى كتابات جويبرت الخاصة أفكاره عن الأهمية العسكرية للشعور القومي وخفة الحركة وتكتيكات الأرتال وموضوعات أخرى كثيرة .



نابليون

وكان نابليون دارساً متحمساً للتاريخ
العسكري شديد الإيمان بقيمة دراسة هذا التاريخ،
كما قرأ أيضاً كتابات « روسو » وكان يؤيد
أكثر حزب متطرف في الثورة ، وكانت أول
شهرته العسكرية في فك حصار طولون عام
١٧٩٣ ، عندما هاجم بطارية مدفعية إنجليزية
وخرج منها بجرح في فخذه من طعنة سونكي .
وقضى بعدها بعض الوقت في إيطاليا ، ثم

توجه إلى باريس حيث كون صداقات مع ذوى النفوذ ، متجنباً في نفس الوقت القيام بالأعمال
التي لا ترجى منها فائدة . وتزوج هناك من « جوزفين دي بوهارنى » عام ١٧٩٦ ، والتي
كانت أرملة لجنرال ثورى . وبعد الزفاف بيومين عين نابليون ليقود جيشاً في إيطاليا .
وكان عمره آنذاك ٢٦ عاماً . وفي بداية حملته كان معه ٣٨٠٠٠ مقاتل لكي يواجه بهم
٤٧٠٠٠ من النمساويين والسردينين ، وإلى جانب قلة عدد جيشه كان ضعيف التجهيز . وبعد
سنة أسابيع من القتال ، أمكن لنابليون أن يقول لجنوده وبدون مبالغة كبيرة : « لقد
كسبتم المعارك بدون المدافع ، وعبرتم الأنهار بدون الكبارى ، وقمتم بمسيرات
قهرية بدون أحذية ، وعسكرتم كثيراً بدون طعام . » وفي الحقيقة لقد تم إحراز ١٢ إنتصارات
في ١٢ شهراً والتي كان أشهرها « لودى » و « كاستيلون » و « وباسانو » و « أركولا »
و « ريفولى » وتم تطهير شمال ووسط إيطاليا من النمساويين . وتقدم نابليون إلى مسافة حوالى
٨٠ ميلاً من فيينا قبل أن يبدأ مفاوضات السلام . وإذا نظرنا إلى عوامل نجاحه لوجدنا أنها
تكمُن في سرعة التحركات والمرونة في المناورة والقدرة على حشد القوات والقيام بأقوى
إندفاع في أضعف نقاط العدو . وقد رفعت هذه الإنتصارات المستمرة الروح المعنوية
للفرنسيين بدرجة خيالية كما أدارت رأس نابليون بدرجة كبيرة وقد قال في سانت هيلانه :
« لقد أدركت فقط في المساء بعد معركة « لودى » بأننى مخلوق متفوق ولديه القدرة والطموح
على القيام بأعظم الأعمال : » وقد لاءمت المرحلة التالية والتي كانت الحملة المصرية عام ١٧٩٨

ميول وشعور نابليون . ولم تكن هذه الحملة من الناحية الاستراتيجية ذات معنى ، كما أفسد نصر نيلسون في أبي قير أى قيمة للنصر في معركة الأهرام . وفي عام ١٧٩٩ ترك نابليون جيشه وأسرع عائداً إلى فرنسا حيث تعين عقب إنقلاب سياسى فى منصب « القنصل الأول للدولة » ، وكان ذلك يعنى بأنه أصبح الدكتاتور العسكرى لفرنسا . وفى الحقيقة كان كقنصل أول ، حاكماً قديراً وعلى درجة عالية من الثقافة . ومن بين الكثير من منجزاته وأهمها فى القيمة قيامه بعمل الإدارة المدنية الفرنسية والقانون والتعليم والكنيسة أكثر عدلاً وكفاءة . وقد إنتهت حرب « التحالف الثانى » فى أوروبا بعد هزيمة النمساويين عند « مارنبو » و « هوهينليندن » عام ١٨٠٠ . وفى عام ١٨٠٢ تمت هدنة مع بريطانيا .

لقد كان نابليون رجلاً ذكياً جداً ونشيطاً وقوى الإرادة ، حتى أنه سيطر على جميع المحيطين به ، كما كان يتمتع بأكتفاء ذاتى مستقل فى رأيه عن الآخرين ، وقد قال عنه « كولينكورت »^(١) : « كان دائماً يستغل كل وسائله وكل مميزاته وكل إنتباهه فى كل لحظة يقوم فيها بالعمل أو المناقشة ، وقد وضع الأثارة والإهتمام فى كل شىء . » وكان نابليون أستاذاً فى الإستراتيجية ، وكان مدى وسرعة وتنسيق عملياته فريدة وفذة . وعندما أصبحت الطرق أحسن حالا قرر أن يتحرك بسرعة ، وبالمناسبة كان هو شخصياً عبقرياً فى إنشاء وشق الطرق . وعند وضع الخطط كان يعتمد على المعلومات التى يزوده بها هيئة قيادته ، والتى رأسها رئيس أركانها « بيرثير » و « كونت دارو »^(٢) ، وكان براعى أن تكون هذه المعلومات حديثة ، فكان يسهل الحصول فوراً على كل ما يختص بأى موضوع مطلوب . وكان يسبق تنظيم أى حملة بحث تفصيلي دقيق . أما الأوامر النهائية فكان يصدرها نابليون بنفسه ، وكانت تتضمن كل شىء مثل مسافة وطريقة التحرك لكل فيلق .

وكان نابليون يهتم جداً بالأسلحة والذى والأعداد والموارد المالية وإدارة المناطق المحتلة . وكان من عاداته إملاء عدة سكرتاريين فى وقت واحد وأيضاً كان لا ينام لعدة أيام متوالية ، وكان يعتبر الفترة الطويلة التى تستنفذ فى تحضير وتجهيز الحملة على أنها ذات أهمية بالغة .

(١) لقد رافقه عن قرب لمدة عشرة سنوات .

« المغرب »

(٢) كان ضابط إدارى عبقرى .

الرجال تستخرج من أحشاء الأرض

كانت إستراتيجية نابليون دائماً هجومية ، وقد دارت حملاته الأولى في إيطاليا خلال مناطق ضيقة نسبياً وبأعداد صغيرة نسبياً . ومن الممكن في إيطاليا نشر ٣٥٠٠٠ مقاتل على مواجهة ٢٠ ميلاً ، بينما كان نابليون يناور لحشد قوة متفوقه عند النقطة الضعيفة للعدو والتي تكون فيها مواجهته أكثر إمتداداً . وكان دائماً يضع نصب عينيه ما يطرأ من تطورات في المناطق المجاورة . كما كان يخطط لحملاته بحيث تعطى أقصى مميزات سياسية يمكن الحصول عليها مباشرة بمجرد إنتهاء القتال الفعلي بنجاح . وقد قال وزير خارجيته « تاليران » بأنه كان يستغل إنتصاراته بطريقة تامة بحيث يحولها بشكل شامل إلى إنتصارات سياسية . وبعد عام ١٨٠٥ أبتكر نابليون أسلوب إستراتيجي جديد يلائم الجيوش التي تتكون من ٢٠٠٠٠٠ مقاتل وتتناسب مع المدى المتزايد لأغراضه السياسية . وقد إستخدم لأول مرة تشكيل الفيلق ذو الـ ٣ كتفء الذاتي والذي يتكون من فرقتين أو ثلاثة . وظلت السرعة والتحرك الدقيق من سر نجاحه . وكان إستخدم فيلقاً قوياً كحرس أمامي ليثبت العدو ، بينما يناور بالفيالق الأخرى لتشتيت قوات العدو ، أو الإلتفاف على جانبها أو تطويقها أو توجيه ضربة قاضية مدمرة نهائية . وكانت تكتيكات نابليون هجومية أيضاً وتستغرق تحضيراً طويلاً . وكان يعمل أقصى ما في وسعه لتحديد سير المعركة مقدماً ، كما كانت لديه حاسة دقيقة في تقدير الوقت خلال القتال . كما قال : — « أن لحظة واحدة يمكنها أن تحدد

مصير المعركة . » و « خلال الإشتباك توجد لحظة تصبح فيها أقل مناورة عملاً حاسماً وتحقق النصر ، إنها مثل نقطة الماء التي تجعل الأناء يفيض » . وكانت نظريته للأرض بارعة . وكتب « كولينكورت » : — « كان يبدو وكأنه إستخرج الرجال والحياد والمدافع من أحشاء الأرض . » ، وكانت المشاة هي السلاح الرئيسي في جيوش نابليون ، ومن حيث المبدأ أستخدمت المشاة في تشكيل مختلط^(١) . وكان التشكيل الخطي^(٢) له مزايا هو إنتاج أقصى قوة نيران من القوات ، بينما في تشكيل الأرتال لا يستطيع إستخدام سوى صفين من البنادق أو نحو ذلك .

(١) تشكيل مكون من بعض الكتائب في تشكيل الخطوط وآخر في تشكيل الأرتال .

(٢) كانت تستخدمه معظم الجيوش الأخرى . « العرب »

ولكن من ناحية أخرى فالقوات التي ينقصها التدريب لا تطلق نيرانها بثبات ، كما أن الصدمة النفسية الناجمة عن القوات المحتشدة في أرتال كانت كبيرة . وقد دافع « جوبرت » عن الأرتال في أحوال معينة ، كما أنها أثبتت جدارتها في حروب الثورة . ومنذ الحملات الإيطالية وما بعدها أستخدمت الجيوش الفرنسية التشكيل المختلط بنجاح كبير ، مغيرين تكتيكات هذا التشكيل تبعاً للأرض ومقاومة العدو . وكان الأسلوب الرئيسى للمعركة هو قيام مجموعات من الرماة الماهرة بمناوشة ومضايقة العدو ، ثم تتقدم الكتائب في تشكيل الخط لتحتوى ذلك العدو وتضعفه إلى حد ما وتمنعه من تجميع قواه ، وعندئذ تندفع الأرتال لإختراق خط العدو والذي أستنزف وفقد رابطته . وقد أثبتت هذه التكتيكات نجاحاً دائماً في المعارك .

وكان تسليح المشاة هو البندقية^(١) ذات الماسورة المساء والتي تعمر من أمام ولها زناد ذو صوانة ، ولم تكن لها فاعلية كبيرة لأن الصوان كان يحتاج باستمرار إلى تغييره ، كما أن الماسورة تصبح شبه مسدودة نتيجة لإستعمال البارود الخشن . أما البارود نفسه كان يصبح عديم القيمة إذا ما أدركته الرطوبة . وكان الجندى المدرب تدريباً عالياً لا يستطيع أن يطلق سوى طلقتين في الدقيقة . وفي الحقيقة لم يشغل نابليون نفسه كثيراً بتطوير قوة نيران الجيش بواسطة التدريب ، في نفس الوقت كان المرمى المؤثر للمقذوف لا يتجاوز ٢٠٠ ياردة ، وهذه المسافة تكون نسبة الخطأ فيها يصل إلى ٩ أقدام . ولذا اخترعت البندقية الأكثر دقة ، ولكنها كانت بطيئة في العمل وغالية الثمن ، وبالتالي كان إستعمالها نادراً . وبما أن نابليون كان ضابط مدفعية ، فكان دائماً يجعل المعاونة الرئيسية للتشكيلات من المدفعية ، وقد كان سعيد الحظ لأن التقدم التكنولوجى والصناعى في عصره وصل إلى الحد الذى مكن القائد من إستخدام المدفعية بإسراف . وحتى ذلك الوقت ، كانت المدفعية توزع على طول مواجهة التشكيل لتعرقل قوات العدو أثناء تشكيلها وتضعف مواجهته قبل أن يبدأ المعركة الرئيسية . وقام نابليون بأعادة تنظيم المدفعية في آليات ، واستغل خفة الحركة للمدفعية التي تجرها الخيول والذي وضعه « جريبوفال » . وفي المعركة كان نابليون يحشد مدفعيته ، ففي معركة

« برودينو » كان لديه ٢٠٠ مدفعاً ، وأستخدمها في فتح الثغرات في صفوف العدو قبل دفع أرتال المشاة .

ومع مرور الوقت ، بدأت نوعية قوات نابليون في الهبوط ، لذلك أصبح يعتمد بشكل كبير على المدفعية معلقاً عليها أهمية تكتيكية متزايدة في نفس الوقت لم يكن هناك جديد في المدافع ذاتها ، فكانت مواسيرها مأساء وتعمر من الأمام وتستخدم البارود الخشن ، كما أن نيرانها لم تكن سريعة أو دقيقة ، فكان من الممكن إطلاق مقذوفين في الدقيقة ويصل المقذوف زنه ١٢ رطلاً إلى مسافة ٣٥٠٠ ياردة .

أما الفرسان ، فظلت محتفظة بوظيفتها السابقة وهي الإستطلاع وتوفير الحماية في التقدم والإنسحاب والقيام بعمليات صغيرة وعلى مسافة من الجيش الرئيسي . وقد أستلزم الأمر وقتاً طويلاً لبناء قوات الفرسان بعد الثورة ، لأن ذلك الأمر كان باهظ التكاليف كما كان أفراد آلايات الفرسان تتألف من الطبقة الأرستقراطية . وقد جاء نابليون وغير تنظيم الفرسان وكلفها بمهام هامة في المعركة . وبظهور نظام الفرقة ، كوحدة مستقلة وتشكل من جميع الأسلحة وبقوة ٦٠٠٠ إلى ٩٠٠٠ رجل ، فقد أصبح الأمر يحتاج إلى وحدات من الفرسان أصغر مما كانت عليه في الماضي وتكون مرتبطة أكثر وذات مرونة مع قوات المشاة ، ولذلك شكلت الفرسان الخفيفة « الشوسير »^(١) و « الهوسار » فرسان الفرق والفيالق .

أما الفرسان الثقيلة فقد خفضت إلى النصف ، وسلح هذا النوع بالسيوف ودرع للصدر ودرع للظهر . ولكنها لم تخصص للفرق بل احتفظ بها في تشكيلات جمعة للقيام بالهجمات القوية في اللحظة المناسبة في القتال .

أما الفرسان المتوسطة (الدراجون) فأصبحت مجرد مشاة راكبة وشكلت هي وبعض الفرسان الخفيفة لتكون الإحتياطى الرئيسى للفرسان ، والتي كانت مهمتها متابعة النجاح بمطاردة نشطة للتأكد من القضاء على فلول الجيش المنهزم تماماً ، كما حدث في حملتى « ألم » و « جينا » . وكان من أعظم ضباط فرسان نابليون هو « مورات »^(٢) والذي جعله بعد ذلك ملكاً على نابولى .

(٢) هم القناصة من الفرسان .

(١) زوج أخت نابليون وكان متهوراً وله نزوات ولكنه كان قائداً ، لمهياً . « المغرب »

الطريق مفتوحاً للنايفين

وكان أحد مبادئ الثورة « الطريق مفتوحاً للنايفين » ، وقصة حياة نابليون لتؤكد حقيقة هذا المبدأ ، وقد قيل أنه يمكن لكل رجل في الجيش الفرنسي حمل «عصا المارشالية» لو ثبت كفاءة وإمتهاناً .

ومثال لذلك فمن بين ٢٦ مارشالا الذين صنعهم نابليون لم يكن من بينهم سوى اثنين فقط من طبقة النبلاء .

وعلى أى حال ، بالرغم من أيمان نابليون بالنبوغ أكثر من الأصل ، إلا أنه سرعان ما فقد أيمانه بمبدأ المساواة .

فقد كانت المارشالات غارقين في الإمتيازات ابتداءً من وسام الشرف الجديد إلى كرسي العرش في مملكة .

وكانت المدارس العسكرية مثل مدرسة «سانت كير» مخصصة للنايفين . وشكلت آلايات ممتازة وخاصة آلايات الحرس الجمهوري ، ولم يكن مسموحاً بعمل أى مقاتل في الحرس الجمهوري إلا إذا كان قد إشتراك في أربعة حملات على الأقل أو يكون قد جرح مرتين أو قام بأعمال مجيدة تميزه عن غيره .

وكان المقاتل في الحرس الجمهوري يحصل على مرتبة أعلى من أى مقاتل في أى آلاي آخر علاوة على المعسكرات والتعيينات الأفضل ، كما كان له شرف حراسة الأمبراطور . وتعددت المناصب والرتب في الجيش ، كما كان هناك أزياء فاخرة للاحتفالات ، وقد أساء كل ذلك للمبادئ الأصلية للثورة ، ولكنها كانت مفيدة لرفع الروح المعنوية . وكان الكثير من المارشالات وآخرون غيرهم جنوداً أ كفاء ، فإلى جانب « بيرثير » و « مورات » والذين سبق الإشارة إليهما ، فكان هناك أربعة آخرون يستحقون الذكروهم «دافوت» و«ماسينا» و« نى » و « سوات » . وقد حارب « دافوت » أولاً مع نابليون في مصر ، حيث كرس نفسه تماماً لخدمة سيده . وكانت صفاته هذه هي التي تميزها ضباط وحدته ، وكان منظماً على الضبط والربط ، تهابه القوات ولكنه محترم بينهم ، وإلى جانب ذلك كان مقاتلاً صلباً ، وأستطاع أن يفهم عقلية نابليون تفهماً عميقاً وتاماً . وفي عام ١٨٠٦ أحرز إنتصاراً هاماً على

البروسيين عند « أورستادت » بالرغم من المصائب الكثيرة التي قابلته ، كما قام بعمله بشكل خارق في روسيا .

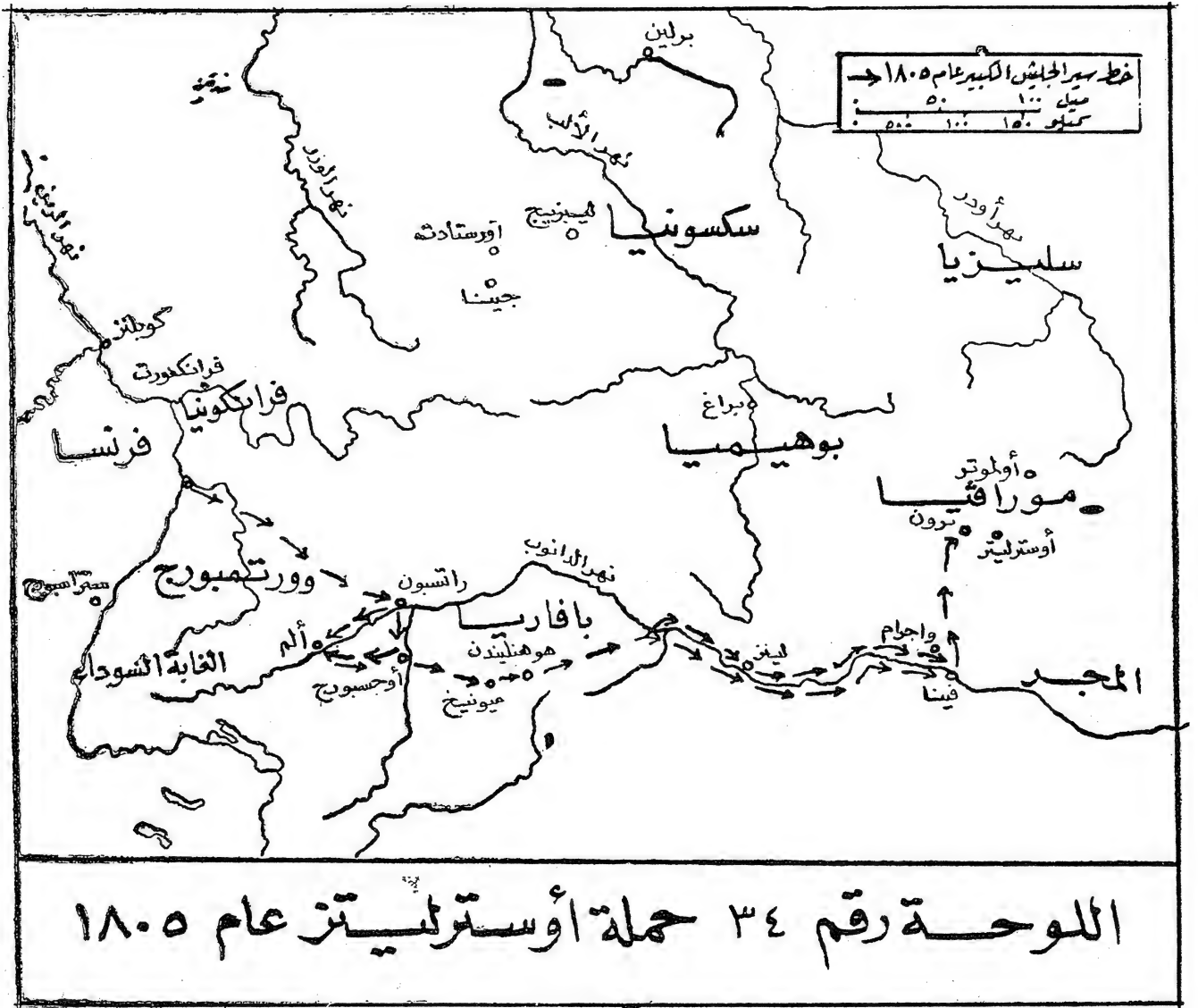
وقد قال نابليون عن « ماسينا » : — « أنه يتميز بصفات عسكرية ، لا يملك الفرد أمامها إلا أن يركع » .

وكان مساعداً مفيداً لنابليون في إيطاليا عام ١٧٩٦ ، واستطاع صد جحافل جيش « سوفوروف » الروسى الرهيب في سويسرا ، ولكن هزمه ويلنجتون في أسبانيا . والآن فقد وصلنا إلى القائد الثالث « نى » وكان قائداً عظيماً للفرسان ، وعندما تولى قيادة حرس المؤخرة أثناء الانسحاب من موسكو عام ١٨١٢ ، أثبت جداره تستحق وسام نابليون « أشجع الشجعان » ، ولكن جاءت معركة « ووترلو » لتظهر ضعف « نى » ، فقد أخفت حكمته عندما فقد كل شيء ، وقد حوكم بعد ذلك أمام مجلس عسكري وأدين وأعدم رمياً بالرصاص في ٧ ديسمبر عام ١٨١٥ في باريس . أما « سولت » فكان منظماً بارعاً وتكتيكياً قديراً . وهناك آخرون يستحقون الإشارة إليهم أمثال « مارمونت » خبير المدفعية و « أوجارو » القائد الشجاع المقدام . وعلى أى حال فإن جميع هؤلاء ساروا تحت ظل نابليون ، ولولا عبقرية وألهام نابليون لما أصبحوا في هذه المكانة العالية .

نابليون ينصب فخامضاداً (أنظر اللوحة رقم ٣٤ ، ٣٥)

وفي عام ١٨٠٥ شرع نابليون في إنشاء إمبراطوريته ، وفي صيف هذا العام تحالفت كل من بريطانيا والنمسا وروسيا ضده . وفي ذلك الوقت أصبح واضحاً له أنه لا أمل له في غزو إنجلترا ، ولذلك وجه انتباهه إلى الشرق . ومع حلول أغسطس كانت هناك قوات ضخمة تحشد ضده ، ولكنها كانت لا تزال متفرقة . وكان محور القتال الرئيسى سيكون وادى الدانوب ، الذى يجرى عبر النمسا ممتداً نحو روسيا . وكانت قوات « ماسينا » البالغة ٥٠.٠٠٠ مقاتل تستطيع حجز ٨٤.٠٠٠ نمساوياً في إيطاليا ، وكان يقودهم « الأرشيديوق شارلز » أقدر قادة العدو . ومن ناحية أخرى كان على نابليون أن يتعامل مع جيش نمساوى يتكون من ٥٨.٠٠٠ مقاتل على جبهة الدانوب تحت قيادة « ماك » ، وكذلك جيشين روسيين ، أحدهما تحت قيادة « كونوسوف » والذى كان على وشك التقدم خلال « غاليسيا » والآخر

كان يحشد في بولندا ، كما كان هناك عمليات أخرى تنذر بالخطر في الأراضي الواطئة وفي جنوب إيطاليا ، ولكنها لم تكن ذات أهمية رئيسية ، كما كان في إمكان نابليون السيطرة عليها . قدر نابليون موقفه فوجد أنه إن لم يقم بتوجيه الضربة أولاً فمن المحتمل أن يحشد العدو حوالى ١٤٠.٠٠٠ مقاتل في أوائل الشتاء في « آلم » للاندفاع داخل فرنسا ، وقدر نابليون مسافة تحركه إلى « آلم » من « بولوني » ^(١) فوجدها أقل مما لدى الروس ، وبناءً عليه قرأ أن يضرب مبكراً وبسرعة مسدداً الضربات لأعداءه قبل تجمعهم ، وذلك بالقيام أولاً بالقضاء على الجيش النمساوى عند « آلم » وبعد ذلك يتحرك هابطاً الدانوب ليسدد ضربة إلى الروس . وقد



عاونت نابليون هيئة قيادته إلى أقصى حد ، عند تخطيطه لتحرك ١٥٠ر٠٠٠ مقاتل من ساحل المانش إلى الدانوب في أواخر صيف ١٨٠٥ . وحتى يخفي قوته ونواياه عن النمساويين ، فتجنب سلوك الطريق المباشر خلال الغابة السوداء ، بل تحرك خلال « فرانكونيا » و « وورتمبرج » في اتجاه الجنوب الشرقي ، حتى وصل إلى الدانوب خلف « آلم » مطوقاً ومفاجأ مؤخرة النمساويين . وتحرك « جيشه الكبير » في سبعة أرتال متفرقة ، ويحمي جنب المشاة المتحركة ٢٢ر٠٠٠ من الفرسان و ١٠٠٠ مدفع تجرها الخيول ، وكان يقودها « مورات » . وأنطلق في الأمام مع الفرسان ٧٠٠٠ رجل من الحرس تحت قيادة « بيزيرى » ومعهم نابليون . وقد دفع مختلف أنواع القوات بشكل تدريجي في المسافة بين « مانهيم » حتى « ستراسبورج » وفي ٢٤ مسيرة بحيث تتحرك شمال الغابة السوداء ثم تتقدم بعد ذلك سويا على مواجهة ٨٠ ميلا وقد وضعت الأمدادات في أماكن الوقفات المخططة سالفاً .

وقد أغوى أنحراف الفرنسيين في الغابة السوداء « ماك » للتقدم إلى أعلى الدانوب ليقطع إتصالهم مع الخلف ، إلا أن « الجيش الفرنسي » تابع برنامج مسيرته بكل دقة . وكان نموذج التقدم اليومي مشابهاً لتقدم جيش مارلبورو إلى الدانوب عام ١٧٠٤ ، وذلك ببدأ المسيرة عند الفجر ، وقطع مسافة ٨ إلى ٢٥ ميلا في اليوم ، ويتم التوقف عند منتصف النهار في معسكر معد . وكانت الروح المعنوية عالية في الجيش الفرنسي حتى المراحل النهائية عندما أصبحت الأمدادات أقل انتظاماً والطقس رديئاً .

وفي ٧ أكتوبر عبرت الأربع فيالق الأولى نهر الدانوب ، وفي ٩ أكتوبر طوقت القوات الفرنسية « آلم » .

وقامت الفرسان الفرنسية بمطاردة ١٨٠٠٠ نمساوي حاولوا الهرب ، وتم استسلام ماك بعد عشرة أيام ومعه ٣٠ر٠٠٠ رجل والذين بقوا من جيشه ، وهكذا حقق نابليون المرحلة الأولى من استراتيجيته بانتصار كامل وبدون أراقة للدماء .

والآن بدا احتمال تعبئة البروسيون أنفسهم أيضاً للحرب ضد فرنسا . وقد عزز ذلك من رأى نابليون بأن العمل الهجومي الجريء والسريع هو أنسب خطة . وفي ٢٦ أكتوبر أنطلق الجيش الفرنسي سريعاً في اتجاه فينا ، ولكن الرجال قد أدركهم التعب علاوة على الطقس



معركة أولم وهي قمة لعبقرية نابليون العسكرية والاستراتيجية

الشتوى الممطر ، وأهم من كل ذلك وجود جيش « كوتوسوف » المكون من ٦٥٠٠٠ روسي أمامهم .

وأصبحت الحملة الآن قتالا أكثر منها مسيرة للنزهة . قرر نابليون تطويق « كوتوسوف » ، ولكن الروس واصلوا محاولة عرقلة تقدم الفرنسيين وذلك بالقتال التعطيلي ثم الانسحاب للخلف ، وفي أحد المواقع كاد الروس أن يقطعوا تقريبا الاتصال بين فيالق

« مورتير » . ودخلت القوات الفرنسية فينا في ١٤ نوفمبر واستولت على مستودعات عسكرية قيمة ، ولكن في هذا الوقت تلقى نابليون أنباء « الطرف الأغر » وكان جيشه قد أصبح في وسط أوروبا المعادية .

ووجد نابليون نفسه أنه لن يستطيع اللحاق بكويتسوف قبل أن يدعمه الجيش الروسي الثاني ، ومن المحتمل أن يعزز بجيش بروسي أيضاً . وفي الواقع بدا كما لو أن نابليون قد وقع في الفخ . ولكنه نصب فخاً مضاداً في « مورافيا » حيث كانت أرضها تصلح للدفاع لوجود موانع طبيعية بها ، فتوقف هناك ليريح جيشه ، وأخذ يحاول إيجاد طريقة لاستفزاز العدو ودفعه لمهاجمته . وقد وصلت أنباء بأن الجيش الروسي النمساوي الموجود عند « أولوتز » يتزايد حجمه بشكل مستمر وقد بلغ تعداده حالياً ٨٥٠٠٠ ويتوقع أن يلحق بهم ٦٠٠٠٠ من بولندا مع احتمال وصول ٨٠٠٠٠ نمساوي من خلال جبال الألب لمساعدتهم ، أما البروسيون فكانوا في ذلك الوقت قد بدأوا في تعبئة قواتهم وأصبح أمام نابليون حوالى شهرًا ليلعب بهم . وكانت خطته هي إغراء الروس لمهاجمته وذلك بأن يظهر أمامهم بجمهة ضعيفة ، بحيث لا يسمح لكويتسوف بأن يرى أكثر من ٥٠٠٠٠ مقاتل عند « برون » وهي فيالق « لانز » و « سولت » و « الحرس » وثلاث فرق من الفرسان ، ولكن في الحقيقة كان يوجد أكثر من ٢٠٠٠٠ الف آخرين تحت قيادة « برنادوت » و « دافوت » في الاحتياط ، وقد انتشروا في فيالق على مسافة من ٤٠ إلى ٦٠ ميلاً في الخلف ، ولكنهم مستعدون للتحرك في ظرف ٢٤ ساعة من إصدار الأمر لهم ، وبذلك سوف يعتقد العدو أن لديه تفوقاً عددياً بنسبة ١:٢ بينما في الحقيقة كانت الأعداد متساوية تقريباً .

واعتباراً من ٢١ نوفمبر كان نابليون واثقاً تماماً بصلابة الأرض التي يقف عليها ، وقرر في ذهنه المدخل التكتيكي العام للمعركة التي كان يخطط لخوضها . وكانت المنطقة بين « بدون » و « أولوتز » ذات شكل رباعي ، بحيث يحد هذه المساحة من الشمال خط مستقيم من المرتفعات ذات الغابات وتعرف بإسم جبال مورافيا ويسير إلى جنوبها مباشرة الطريق الرئيسي ويتفرع منه في اتجاه الجنوب الشرقى وصلة إلى قرية أوسترليتز وذلك على مسافة ٣ أميال .

ويوجد مجريان مائيان يهبطان من الجبال ويلتقيان إلى الجنوب قليلا من الطريق ليكونا مستنقع نهري يسمى «جولدباش» والذي يجري في اتجاه الجنوب إلى أن يصل إلى بحيرات ضحلة سبخة تحدد الطرف الجنوبي للمنطقة. وكان هناك سبع قرى على نهير الجولدباش والموضع أسماها على الخريطة .

ولم يكن المجرى المائي يشكل مانعا ولكنه كان يحدد قسما تضاريس الأرض إلى الغرب منه سهل منبسط يمتد إلى مدينة « برون » المحصنة جيدا ، والتي كانت محتلة بالفرنسيين وإلى شرق « الجولدباش » هضبة ، تسمى « براتزن » وترتفع تدريجيا ٣٥٠ قدما من المجرى ثم تنخفض بانحدار شديد في الجانب الآخر .

واستقر قرار نابليون أن تتركز قواته على الجانب الشرقى « لجولدباش » ومتمخذا « برون » قاعدة له .

وقد كان من الصعب على الحلفاء المجتمعين عند « أولوتز » مقاومة أغراء محاولة قطع طريق الفرنسيين إلى فيينا وقطع أيضا طريق انسحابهم إلى الجنوب الغربى وذلك بمهاجمة جناح الفرنسيين الأيمن .

وتعمد نابليون أن يعرض طريق مواصلاته مع فيينا لخطر القطع ، وجمع قواته مع بعضها على الطريق وعند سفوح الجبال لكي يزيد من إغراء الحلفاء لطفى جناحه الأيمن بقواتهم الرئيسية . وقد كان واثقا لوأنهم بلعوا الطعم فسوف يتمكن من هزيمتهم هزيمة ساحقة في أرض من اختياره .

وفي معسكر الحلفاء دار نقاش كثير ، حول تولى « القيصر الكسندر الأول » القيادة العامة وحول صواب المحوم من عدمه . وجادل « كوتوسوف » في إرجاء أى خطوة لحين وصول التعزيزات وفي نفس الوقت يزداد استنزاف الفرنسيين . ولكن الكسندر الشاب المتكبر والمنساق وراء تملق حاشيته ، اقتنع بأن نابليون قد وقع فعلا في الفخ . وكانت القوات الروسية منهكة نتيجة للسير المستمر لمدة شهور ، ولكنها كانت مع ذلك تضم جنودا ممتازين .

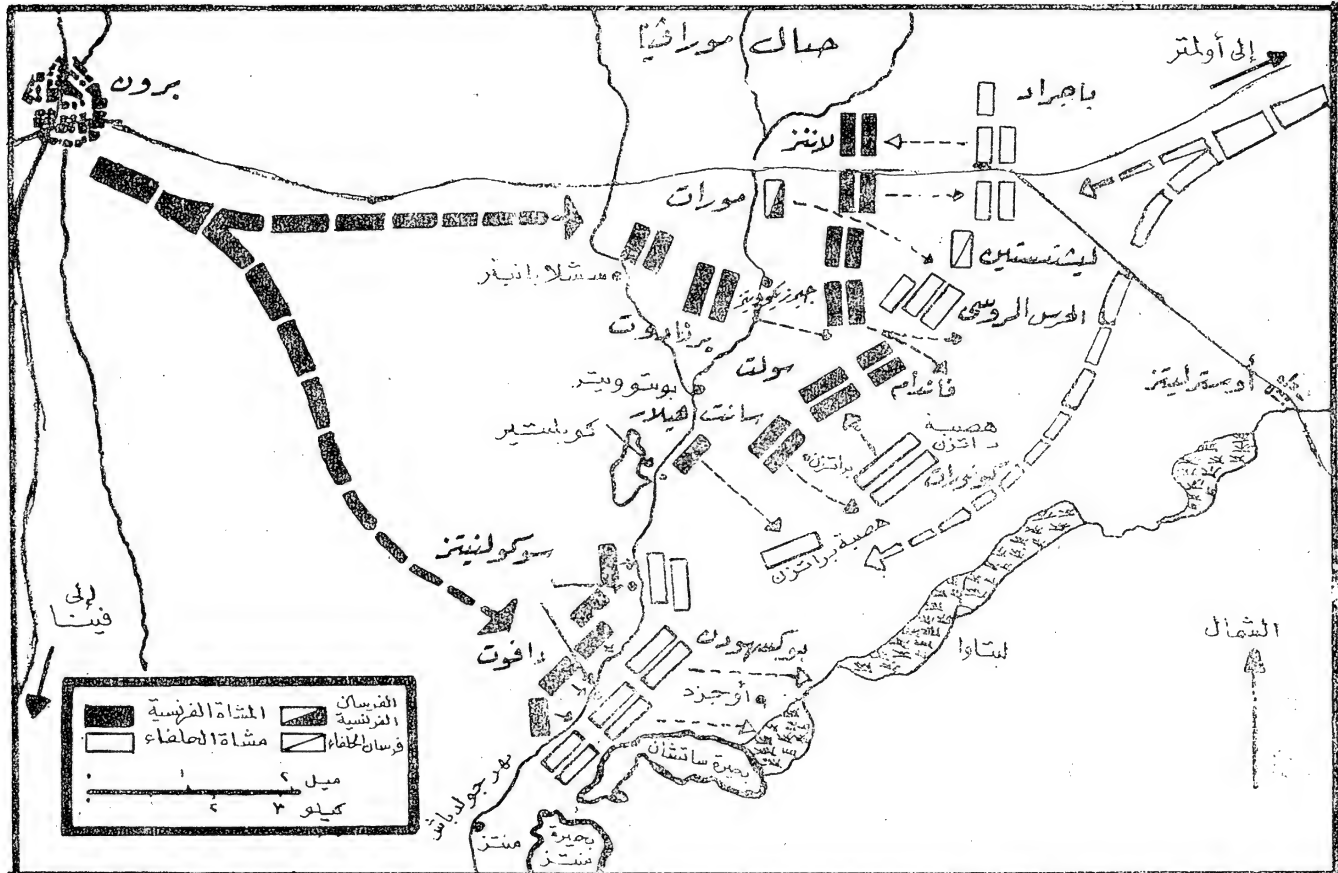
وفي عام ١٧٩٩ وتحت قيادة « سونوروف » طهر الروس شمالى إيطاليا ، حيث قاتلوا

في حشد وكنهم آلات هدم الأسوار . ولسوء الحظ أن أقدر قائد في جانب الحلفاء كان غير موجود وهو «الأرشدوق شارلز» ، وقد عهد بوضع تفاصيل خطة الهجوم إلى «ويروزر» رئيس الأركان النمساوي .

نابليون يحتل نصف مليون ميل مربع (أنظر اللوحة رقم ٣٥ ، ٣٦)

وبدأ تقدم الحلفاء في أول ديسمبر ، وفي المساء أوجز «ويروزر» مخططة التكتيكي .

وكان جيش الحلفاء يتكون من ٩٠.٠٠٠ مقاتل أغلبهم من الروس ، ٢٧٨ مدفع . وكانت الخطة تقضى بالاقتراب من جناح الفرنسيين الأيمن من الشمال الشرقي ، وتعتبر مقدمة الجيش نهر «الجولد باش» فيما بين «تلمتيز» و«سوكوليتز» ثم تغير اتجاهها في ثلاثة أرتال وتهاجم الفرنسيين من الجنوب من اتجاه الجنوب . وكان على الرتل الرابع الاشتباك مع مواجهة



اللوحة رقم ٣٥ معركة أوسترليتز

الفرنسيين الممتدة أمام « البراتزين » بينما يقوم فيلق آخر في الشمال بتثبيت الفرنسيين الموجودين على جانبي الطريق .

وفي ليلة أول ديسمبر كان « كوتوسوف » وعدد من كبار الضباط الروس سكارى وكم كانت بداية سيئة للمعركة .

وفي أول ديسمبر تأكد نابليون أن العدو يتحرك ، وكان فيلق « برنادوت » قد انضم إليه فعلا ، بينما كان « دانوت » في الطريق ، وخلال فترة بعد الظهر تفقد نابليون جيشه ممتطياً حصانه على رأس مجموعة من قادة الفيالق وضباط أركانحربه ، مرتدياً زياً أخضر وأبيض وأحمر وكان مدركا لصورة أسطوريته ، وتجاهل مظهر جنوده القذر ، ولكنه اهتم فقط بالفحص المتكرر للأسلحة للتأكد من صلاحيتها للعمل . وكان من المفروض أن يكون قلقاً لعدم وصول فيالق « دانوت » بعد ، ولكن في الحقيقة كان يعتمد على تنسيق وخفة حركة جيشه ، لأنه في الرابعة بعد الظهر وصلته أنباء أن أمام « دانوت » تسعون ميلا وسوف يقطعها في يومين .

وكان تعداد القوات الفرنسية مجمعة ٦١.٠٠٠ مقاتلا و ١٣٩ مدفعا . وبالرغم من تفوق الحلفاء عدديا إلا أن قوات نابليون كانت محتلة أوضاع سليمة للمعركة القادمة بالإضافة إلى الميزة الكبرى لدى نابليون وهو معرفته بخطة عدوه وعلمه بأنها رديئة ، والسبب بسيط وهو أنه فرضها عليهم . وتولى « سولت » قيادة الوسط أى في مواجهة « برانزين » ، وتواجدت مع سولت قوة كبيرة كأحتياطي ، وتواجد « لانز » على اليسار مع « مورات » ومعهم معظم الفرسان .

أما « دانوت » فكان على اليمين . ومع غروب الشمس أعلن نابليون بيانا على قواته رافعا الستار فيه عن مخططه : « إن المواقع التي نحتلها قوية ، وعند تقدمهم لطي جناحي الأيمن فإنهم سوف يعرضون جانبهم لى » . وأثناء الليل وعندما أبلغ بأن الروس لازالوا متحركين جنوباً ، دفع بعض قواته التي في الوسط إلى اليمين قليلا .

وبعد حلول الظلام وقع حادث مثير ، فقد شبت النيران في القش ، فقام بعض الحنود الفرنسيين بنشر النيران ، اعتقاد منهم بأنها بعض الألعاب النارية احتفالا بذكرى

تتويج الإمبراطور ، ولعدة دقائق اشتعل اللهب بعنف ، وفي موجة عارمة من الحماس والإخلاص هتف لنا بليون ٣٠٠٠٠ رجل من قلوبهم . وطبقاً لما كتبه نابليون بعد ذلك : - « إن معركة « أوسترليتز » لم تكن سوى نتاج للخطة التي وضعت لحملة مورافيا » . ودارت المعركة في ٢ ديسمبر كما كان يرجو . وكان هجوم الحلفاء قوياً ومستمراً بالرغم من أنه كان غير متقن التنظيم ، وكانت قيادة الحلفاء أثناء الهجوم في حالة يرثى لها . وقد صمد « دافوت » بقوات قليلة بالجنح الأيمن الفرنسي طول النهار . كما حجب وسط الفرنسيين بموجة من الضباب إلى أن هاجم رجال « سولت » في « تشكيل مختلط » ، المشاة والمدفعية الروسية من الجنب عند « براتزين » محققين مفاجأة تامة . وأثناء الصباح وصل الحلفاء هجومهم على الجناح الأيمن الفرنسي ، ولكن الفرنسيين عززوا أنفسهم أفضل في المنتصف وقطعوا جيش العدو إلى جزئين .

وأصبح الشمال هو آخر منطقة سيدور فيها القتال ، وقد ساد الصراع بشكل متكافئ وصعب . وما انتصف النهار حتى كانت فرسان « مورات » والتي تعمل بين اليسار والوسط وقد عزلت الجناح الأيمن للحلفاء عن وسطهم . وعندئذ بدأت القوات الروسية هناك بالانسحاب ببطء .

وكان نابليون نفسه في ذلك الوقت عند « براتزين » وقامت فرقتين من الوسط الفرنسي بقيادة « سانت هيلار » و « فاندام » بضغط مضاد على البقايا المهزومة لوسط الروس على المنحدر الشرق . وكل ما تبقى عمله الآن هو معاونة ونجدة الجناح الأيمن للفرنسيين وتأكيده هزيمة الحلفاء التامة في جميع المواقع . وتم صد آخر هجوم مستميت للحرس الإمبراطور الروسي على « براتزين » ، عندئذ تحول الوسط الفرنسي لتدمير الجناح الأيسر للحلفاء ، وشقت بعض المشاة الروسية طريقها في اتجاه الجنوب ، ولقي البعض الآخر حتفهم غرقاً عندما بدأت البحيرات المتجمدة في الذوبان تحتهم ، وقد تم أسر غالبيتهم .

وبالرغم من اقتناص الجناح الأيسر للعدو فقد استطاع جناحه الأيمن الانسحاب بانتظام . وتردد « مورات » والذي لم يتلاقى أي أوامر في ترك الوسط لتطويق جناح

وفي يونيه عام ١٨٠٧ هزمهم نابليون مرة ثانية عند «فريدلان» مكبدهم خسائر فادحة حوالى ٢٥٠٠٠ رجلا ، وقد فكر بعدها القيصر أنه من الأفضل الوصول إلى تفاهم مع نابليون . وأدت الانتصارات فى عام ١٨٠٥ — ١٨٠٧ من رفع نابليون إلى ذروة المجد . ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٨١٢ ظل نابليون سيداً على كل غرب أوروبا ، وامتدت إمبراطوريته من «سيفيل» إلى «وارسو» ومن «نابولى» إلى «البليطيق» أى حوالى نصف مليون ميل مربع يعيش فوقها ٤٤ مليون من الرعايا ، وقد تمت إصلاحات قيمة ودأمة فى كثير من هذه المنطقة مثل : — المساواة أمام القانون ، وإلغاء الرق ، والتسامح الدينى ، والتعليم العام ، وتوحيد نظم القضاء ، وإنشاء الطرق ، والرسوم الجمركية فى المناطق ، والجيش القومية وهذا قليل من كثير .

القرحة الأسبانية

وعلى أى حال ، فقد ظلت مشكلة بريطانيا بدون حل ، وفى نوفمبر ١٨٠٦ عندما كانت أوروبا تحت سيطرة نابليون ، بدأ نابليون حرباً اقتصادية شاملة ضد عدوه الرئيسى بريطانيا . وكان غرضه هو إغلاق القارة الأوروبية فى وجه السفن والتجارة البريطانية . وقد أعلن «مرسوم برلين» أن الجزر البريطانية «فى حالة حصار» وحظر تبادل كل أنواع التجارة معها ، والإستيلاء على كل البضائع التى تنقل بين بريطانيا ومستعمراتها . ولو استطاع نابليون تحقيق ذلك فلا خلاف فى أنه سوف يخضع البحر بالقوة البرية . إلا أن الإنجليز قابلوا هذا العمل بالمثل ، فعلى الفور وسع نابليون نطاق هذه العمليات . ولكن فى الحقيقة طالما سيطرت بريطانيا على البحار ، فلن يستطيع نابليون تجويعها حتى الهزيمة ، لأنه لن يتمكن من قطع الإمدادات من الطعام والمواد الخام القادمة من مستعمراتها إليها . ومن الممكن التنبأ ببداية سقوط نابليون ، وفى أى مرحلة من حياته تقريباً ، ويمكن أن نعتبرها قد بدأت مع لحظة طموحه الزائد المميت فى ذلك المساء بعد معركة «لودى» عام ١٧٩٦ . وقد يرجع الخطأ الفعلى إلى عام ١٨٠١ عندما فرض نابليون معاهدة السلام المهين على النمسا بدلاً من الاتفاق معها وتوحيد قواتهما لهزيمة إنجلترا . وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما كان يتمتع به نابليون من عبقرية ، فمن الممكن القول بأنه لم يصدر منه أى تصرف غير منطقى أو شاذ ،

إلى أن بدأت رأسه تدور بنشوة الانتصار في « أوسترليتز » و « جينا » وأصبح طامعاً في السيطرة على العالم ، ومن ثم ذهب إلى أسبانيا وموسكو . ولكنه طرد من روسيا بشكل مشين في عام ١٨١٢ ، ولكنه في عام ١٨١٣ كون جيشاً جديداً .

وفي عام ١٨١٣ عانى من أول هزيمة شخصية ورئسية في معركة عند « ليزج » ، وفي عام ١٨١٤ كان عليه الدفاع عن حدود فرنسا نفسها . وفي ذلك الوقت أدت مطالب التجنيد الأجرى والأناية الواضحة في أطماعه ، إلى فقد تأييد الأمة الفرنسية له ، ولكن النمسا في ذلك الوقت عرضت شروطاً طيبة للسلام والصلح ، وحتى هذه المرحلة لم يكن قد تحطم نابليون بعد ، لأن الحملة التي قام بها في هذا العام كانت من أبرع حملاته ، فقد أعاد أسلوبه في تقسيم أعدائه وهزيمتهم على أجزاء . ولم تفشل عبقرية نابليون العسكرية حتى عام ١٨١٥ ، ولا يوجد خط واضح للسقوط السياسي ، ولكن نابليون أرجع ما أصابه من انهيار إلى القرحة الأسبانية .

حرب شبه الجزيرة (أنظر اللوحة رقم ٣٧)

وفي الانتصار الذي حققه عام ١٨٠٦ ، وقع خطأ صغير تلتته سلسلة من الأحداث التي قوضت قوة نابليون ، وبعثت المشجاعة في صفوف أعدائه . ففي هذا العام رفضت البرتغال قبول « نظام نابليون الأوروبي » وشأنها شأن معظم دول أوروبا لا ترغب في الخضوع لفرنسا ، كما كانت ترغب في التجارة مع بريطانيا ، وخالفت وقاومة الأغلبية . وفي عام ١٨٠٧ أرسل نابليون جيشاً بقيادة « جونوت » إلى شبه الجزيرة ، وفي العام التالي عزل ملك أسبانيا على أثر حركة خيانة .

وقد بدأ كل من الشعبين الأسباني والبرتغالي يثور ويرفض الفرنسيين ، ومنذ هذا الحين وبدأت الجيوش الفرنسية تتعرض لهجمات رجال العصابات وانتقادات رجال الدين ، وصعقت أوروبا عندما سلمت فرقتين فرنسيتين للأسبان عند « بيلين » ، وأدى هذا التسليم إلى خفض الروح المعنوية « للجيش الكبير » . وكان هذا هو الموقف في شبه الجزيرة في عام ١٨٠٨ عندما نزلت بها الحملة البريطانية بقيادة « سير جون مور » . وفي أول الأمر تولى نابليون القيادة في أسبانيا ، ونجح تقريباً في اصطيد قوات « مور » عند « كورونا » ولكن الأحداث في أوروبا أبعدت نابليون عن شبه الجزيرة ، وكان ذلك الأمر مؤلماً لدرجة أن

« ويلنجتون » عبر عن ذلك بقوله بأن نابليون يعادل وجوده على رأس جيشه ٤٠٠٠ رجل . ولم يعد نابليون بعد ذلك مطلقاً إلى شبه الجزيرة . وحتى ذلك الوقت كانت المساهمة الفعالة البريطانية للمجهود الحربي لحلفائها في أوروبا قاصراً فقط على المعاونة المالية ، ولكن الآن نتيجة للتأييد العام القوى ضد الفرنسيين وتوفير مواصلات بحرية آمنة ، أصبح البريطانيون أنفسهم قادرين على أن يطأوا بأقدامهم أرض أوروبا . وفي أغسطس عام ١٨٠٨ نزل إلى البر « سير آرثر ويليسلي »^(١) في البرتغال ومعه ١٣٠٠٠ مقاتل وهزم الفرنسيين عند « فيميرو » وبالرغم من ذلك وبغباء رؤساء « ويلنجتون » أستطاع « جونوت » من تخليص جيشه بمعاهدة « سنترا » .



لقد ولد ويلنجتون من أسرة إيرلندية أرسقراطية عام ١٧٦٩ أى فى نفس عام مولد نابليون ، وتلقى تعليمه فى « أيتون » حيث أظهر تفوقاً يبشر بالنجاح فى العلوم الرياضية والموسيقى ، ولكنه ترك هذه المدرسة وهو فى سن ١٥ عاماً ، وفى عام ١٧٨٧ ألتحق بالجيش ولم يكن ذلك نتيجة الاختيار أو الطموح ولكن نتيجة لرغبة العائلة لأنها المهنة العادية للأبن الأقل ذكاءً فى العائلة . ولم يقيم إلا بالقليل من الخدمة النظامية فى وحدته ، ولكنه فى عام ١٧٩٦ ذهب إلى الهند وكان عمره ٣٠ عاماً ، وهناك بدأ يزاوّل مهنته

دوق ويلنجتون

بشيء من الاحتراف ، بدراسة كل المراجع القيمة فى العلم العسدرى وكل ما كتب عن الهند . وفى ذلك الوقت يقال عنه : — .. أنه مشرق ، ومرح ، وغير متحفظ بين أصدقائه الخصوصيين ، ولكنه متحفظ فى العلاقات العامة ، وكان محتفظاً دائماً بسرعة الخاطر ولكنه كان يخفى حساسيته تحت مظهر خارجى فقط ، وكان يسيطر بقوة على فتوره الطبيعى وعواطفه الجياشة بضبط نفسه القوى . وفى الهند تلقى تدريباً عسكرياً وحقق لنفسه سمعة محلية ضخمة .

ولم يسبق لأى قائد بريطانى أن استنبط أسلوباً تكتيكياً للتعامل مع جماعات فرسان

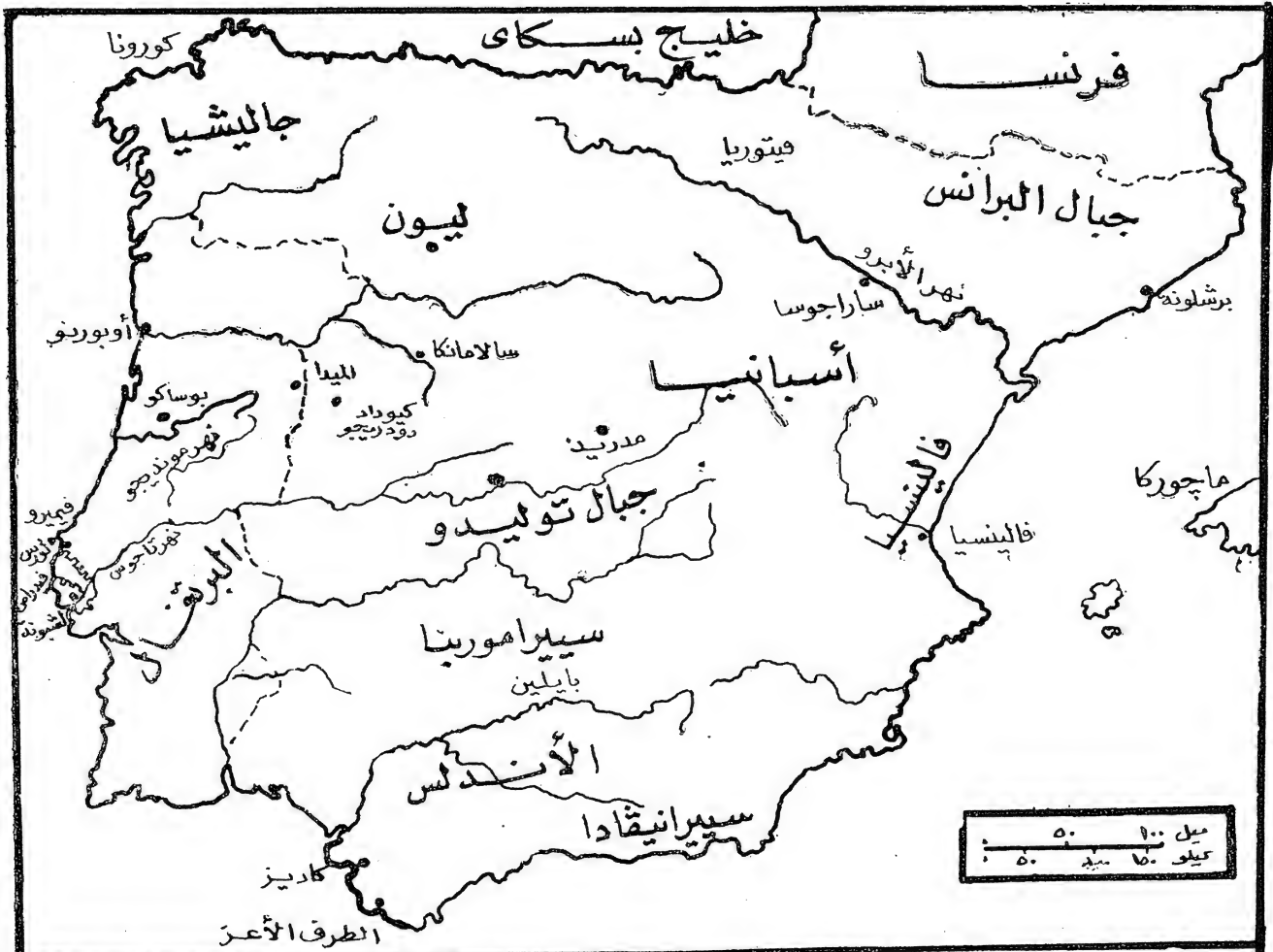
« المرثا » ، ولكن ويلنجتون وجد الحل بالتشكيل الخطى . وكانت خطوط أمداده جيدة التنظيم فأستطاع الدخول إلى مسافات طويلة فى قلب أراضى العدو ، وفى نفس الوقت تيسر له خفة الحركة داخل خطوط العدو . ومن أبرز معاركه هى أقتحامه لأحد الحصون الهندية الجنوبية المنيعه المسمى « أحمد ناجار » ، وأنتصاره أيضاً فى معركة « أسامى » الدموية عام ١٨٠٣ . ولم يمض وقتاً طويلاً حتى تحقق السلام بشروط فى مصلحة بريطانيا ويرجع الفضل فى ذلك لانتصارات ويلنجتون . وفى عام ١٨٠٥ عاد ويلنجتون إلى إنجلترا بعد أن مضى تسع سنوات فى الهند . وبالرغم من أن الشهرة التى أكتسبها فى الهند لم تكن لها قيمة فى إنجلترا ، إلا أنه أصبح يمتلك قدراً كبيراً من الخبرة والتجربة فى الممارك الضارية ضد عدو يفوقه عدداً علاوة على تنظيم الأمداد والتحرك الإضطرابى وفن الحصار وأستماله الحلفاء الذين يصعب التعامل معهم . وفيما بين عام ١٨٠٥ وعام ١٨٠٨ شغل نفسه بالسياسة وأصبح السكرتير الأول لإيرلندا . وأهتمامه بالسياسة هو الذى أمن له مناصبه التالية أكثر من وظيفته فى الجيش . وفى عام ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ أشترك فى الحملات العقيمة على شمال غرب أوروبا ، وبعد ذلك فى الحملات فى شبه الجزيرة ، وحقق نجاحاً كبيراً هناك عام ١٨٠٨ ، ولكنه فى أبريل عام ١٨٠٩ عاد ليقود ٢١٠٠٠ مقاتل .

فى الجانب الآخر من التل

وفى هذه الحقبة اختلف الجيش البريطانى فى نواحى كثيرة عن الجيش الفرنسى ، ومن أبرز هذه الأختلافات أن الجيش البريطانى لم يكن جيشاً قومياً ولكنه كان محترفاً صغيراً من الطراز العتيق ، كما كان هناك تناقض بارز بين حياة ويلنجتون ونابليون ؟ وكانت الرتب العسكرية فى الجيش البريطانى يتم الحصول عليها بالشراء أو الغفوذ الشخصى ، وكانت لا تقيس إلا لهؤلاء من أصل رفيع . وبصرف النظر عن فترة التدريب الأساسى لمدة ستة شهور وبعض القرارات الأجبارية لنشرات وزارة الدفاع ، فلم يكن هناك أى تدريب آخر للضباط . ولا يمكن القول بأن الجنود كانوا يجندون من طبقات المجرمين ، ولكنهم على العموم لم يكونوا من أحسن عناصر الشعب ، وعلى أى حال فقد نجح النظام ، بالرغم من عدم وجود عنصر البراعة والفوارق الاجتماعية . وعمل الضباط والجنود معاً بشكل مرضى فى معظم الأحيان ، كما تحقق

الضبط والربط بالمعاملة والعزيمة الممتازة ، بالرغم من أنه كان قاسياً في بعض الأحيان ، وبشكل عام كان الجيش في حالة جيدة من الكفاءة القتالية . وقد كان ذلك تحسناً ملحوظاً عما كان عليه الوضع في الماضي ، والذي يعتبر من منجزات كل من « الجنرال مور » و « دوق يورك » و « يلنجتون » .

وفي عام ١٨٠٣ ، في معسكر عند « شور نكليف » أحدث « مور » ثورة في الضبط والربط والتدريب ، وذلك بتعمده الاعتماد على التعاون بدلا من الاعتماد على الأجبار ، مؤكداً بالنتائج التي وصل إليها من الروح المعنوية العالية والكفاءة بأن ذلك كان أفضل الطرق . وكان « دوق يورك » الرأس المدبرة للجيش ، وكان رجلاً كفأ وقد أنشأ الأكاديمية العسكرية وكلية أركان حرب ، كما شجع إرتقاء الضباط الصغار الموهوبين . وقد أهتم ويلنجتون نفسه



اللوحة رقم ٣٧ حرب شبه الجزيرة

في شبه الجزيرة بالعناية بقواته وتدريبها . أما النواحي المالية والنقل والأمداد فقد تولاهما ضابط
الأمداد القدير الجنرال « كندى » والذي نادراً ما فشل في توفير الأمدادات السكافية للقوات
من ملابس ومأكل وأوعيه للطهي وخيام وبطاطين وأحذية ومرتبات . على عكس الفرنسيين
فقد أستخدم الإنجليز نظام مستودعات الأمداد ، كما كانوا يدفعون ثمن الأمدادات المحلية .
وتلك السياسة كانت حكيمة لأنها تسكسبهم تأييد المواطنين سكان مناطق العمليات كما حدث
في منطقة جنوب غرب فرنسا نفسها عام ١٨١٤ .

وكان من أهداف الضبط والربط القاسى لويلنجتون هو منع إفراط الجنود مثل
السكر الزائد والذي يؤدى إلى الضرر بصحتهم ، ومرة أخرى على عكس نابليون إعتقد
ويلنجتون أن من المفيد جداً إعطاء جنوده تدريباً كاملاً في إستخدام أسلحتهم . وكانت
الوحدة الأساسية في الجيش البريطانى قبل « حرب شبه الجزيرة » هو اللواء والآلاى .
وكان الزهو في تقاليد الآلايات القديمة عاملاً هاماً في المحافظة على الروح المعنوية العالية
وعلى كل كانت المشكلة أن الجيش البريطانى لم ينجز سوى نجاحاً قليلاً في الميدان منذ حرب
« السبع سنوات » .

ولكن جاء ويلنجتون ليضع نظام الفرق . وكانت الفرقة عبارة عن تشكيل يضم جميع
الأسلحة والخدمات ، ولديها إكتفاء ذاتى ، ويمكن فصلها عند الضرورة من القوات الرئيسية ،
وأصبحت قادرة بالتدريب على المناورة الواسعة . وقام ويلنجتون بأدماج قوات برتغالية في
الفرق البريطانية لزيادة أعداد قواته في شبه الجزيرة ، وكان يتم ذلك عادة بمعدل لواء برتغالى
واحد يضم بعض الضباط البريطانيين إلى لوائين بريطانيين ، كما كان لديه فرقة واحدة مكونة
من البرتغاليين فقط . وتولى الجنرال « بيرسفورد » تدريب وتنظيم القوات البرتغالية بمجدارة .
وكان ويلنجتون يشكل أحياناً فيلقاً ، ولكن كان هذا الأمر إستثنائياً ، بينما ظلت الوحدة
الأساسية للجيش هي الفرقة . وفي النهاية كان لديه عشر فرق ، ومن بين أحسن قادة الفرق
المعروفين كان : — « هيل » و « جراهام » و « بيكتون » و « جروفارد » . ويعتبر
ويلنجتون أيضاً المسئول عن ادخال أول سلاح للمهندسين والشرطة العسكرية في الجيش .
وأصبحت هيئة قيادة ويلنجتون وجهاز مخابراته أكثر كفاءة مع ازدياد خبرتهم في شبه

الجزيرة . وكان هناك تفاهاً وثيقاً بين ويلنجتون « وموري »^(١) والذي لم يهتم فقط بتنظيم المعسكرات وبتحرك القوات ولكنه كان مسؤولاً أيضاً عن المخابرات الطبوغرافية ، كما كان مساعداً هاماً لويلنجتون في التخطيط الإستراتيجي والتكتيكي . وكان هناك أعضاء آخرون في هيئة قيادة ويلنجتون ويزاهم يومياً وهم : — مدير التعيينات ورئيس إدارة الجيش ومدير الخدمات الطبية وقائد المدفعية وقائد المهندسين . ولم يختلف ويلنجتون عن نابليون كثيراً في إهتمامه بالتفاصيل الهامة للتحضيرات ، وفي قدرته على إنجاز كمية كبيرة من العمل ؛ كما كان أفضل من نابليون في التفاوض . أما مساعدوه فكانوا أسعد حالاً من مساعدي نابليون . ولم يكن لويلنجتون رئيساً للأركان على عكس « نابليون » و « بلوتشر » . وفي أعمال أركان حرب^(٢) فقد أشترك ثلاثة في إدارتها وهم : — السكرتير العسكري ورئيس إدارة الجيش ورئيس الأمداد والتموين . ولم يكن ذلك ليناسبني على الإطلاق ، ولكن يبدو أن ذلك كان مناسباً منذ ١٥٠ عاماً مضت عندما لم تكن الحرب معقدة كما أصبحت عليه في منتصف القرن العشرين . وكان ويلنجتون يعلق أهمية كبيرة على معلومات المخابرات عن العدو ، إلى جانب الإستعداد بين القوات خلف الخطوط .

وقد قال بعد ذلك أن من أسباب نجاحه يرجع إلى إهتمامه بدراسة ما يحدث : — « في انجانب الآخر من التل . » وبناءً على ذلك أنشأ نظام مخابرات جيد . وفي بداية حرب « شبه الجزيرة » لم يكن هناك خرائط يعتمد عليها المنطقة ، ولكن مساعداً « موري » عالجوا تدريجياً هذا الموقف ، في المناطق التي تدور عليها العمليات . وكانت تسبق تحركات الجيش عمليات استطلاع ذات كفاءة ممتازة ، ويرسل كل يوم إلى الأمام دوريات من الفرسان وضباط فردين ، ولم تكن مهمتهم استطلاع الأرض فقط بل اكتشاف أوضاع قوات العدو أيضاً . وكان من الممكن الحصول على المعلومات الجيدة بالثمن من مجموعات الفدائيين ومن سكن القرى ، لأن الأنباء تنتقل بسرعة وبدقة بين المواطنين . وقد أنشأت شبكة من الأشخاص الموثوق بهم في كل شبه الجزيرة . وهكذا كانت معظم

(١) مدير الأمداد والتموين .

(٢) عادة يشرف على عمل أركان حرب ومديره رجل واحد « المغرب »

المعلومات التي تجمع يتلقاها ويلنجتون شخصيا وكان يطلب دائما معلومات على أعلى مستوى من الدقة .

امساك الثور من قرنية (أنظر اللوحة رقم ٣٧)

وكانت إستراتيجية ويلنجتون في شبه الجزيرة مقيدة بالتفوق العددي لأعدائه . فقد بدأ ومعه ٣١٠٠٠ رجل ولم يتجاوز جيشه في أى وقت عن ٨٠٠٠٠ رجل ، في حين لم يقل الجيش الفرنسي عن ٢٥٠٠٠٠ رجل تحت قيادة « ماسينا » أو « مارمونت » أو « سولت » . وأعتمد ويلنجتون على البرتغال كقاعدة رئيسية لعملياته ، وكان يجب عليه التمسك بالبرتغال أولا ثم الزحف منها إذا استطاع . أما « مور » فقد اعتبر البرتغال يتعذر الدفاع عنها ، ولكن خالفه ويلنجتون في ذلك .

وكان هناك خمس ثغرات في حدود البرتغال الجبلية ، ولكن ويلنجتون أيقن أنه يستطيع تنظيم منطقة دفاعية بمساعدة الأسبان والبرتغاليين ، وكانت الضرورة الأولى هي تطهير البلاد من الفرنسيين بسرعة في ذلك الوقت بأى شكل من الأشكال حتى يتوفر الوقت لتجهيز الدفاعات . وفي « أبورتو » هوجم « سولت » ، وتقدم ويلنجتون إلى داخل أسبانيا ، وبحمافة وقع حلفاءه الأسبان في براثن الهزيمة مما أدى إلى فقد أسبانيا الجنوبية ، ولكن ويلنجتون أستطاع احراز النصر عند « تالافيرا » ثم انسحب عائدا إلى البرتغال . ومع حلول شتاء عامى ١٨٠٩ — ١٨١٠ أصبح متوقعا أكثر من أى وقت مضى قيام الفرنسيين المنتصرين في أسبانيا والنمسا بمحشد قوات ضخمة لانزال ضربة قاضية بجيش ويلنجتون في البرتغال . ومن إنجلترا أرسل لويلنجتون تعزيزات بلغت حوالى ١٠٠٠٠ رجل ولكن لم يكن متيسرا أكثر من ذلك . وقرر أن يكون موقعه عام ١٨١٠ بالقرب من الحدود ، ولكنه جهز أيضا موقعا دفاعيا فويا بدرجة كبيرة للحماية لشبونة^(١) . وأنشأ العمال البرتغاليون الدفاعات تحت إشراف المهندسين البريطانيين ؛ وكانت عبارة عن خطين من الحصون المتبادلة المتعاونة علاوة على مقاريس تمتد لمسافة ٣٠ ميلا عبر التلال فيما بين

« تاجوس » والبحر . وفي عام ١٩٥٦ ، خلال خدمتي في حلف شمال الأطلسي ، أستطلعت الموقع على طول « التورس فيدراس » وقد راعيتي قوته الطبيعية الكبيرة . وفي مايو ١٨١٠ تولى « ماسينا » قيادة « الجيش البرتغالي الفرنسي » . وبدأ الزحف ليقذف بويلنجتون في البحر . وقاوم ويلنجتون الإغراء بمحاولة إنقاذ حصون الحدود الأسبانية وهي « كيوداد » و « رودريجو » و « الميدا » . وفي سبتمبر تقدم « ماسينا » على رأس ٧٢٠٠٠ رجل داخل البرتغال على ثلاثة محاور ، مما أدى أن ويلنجتون انسحب أمامه ومعه ٤٩٠٠٠ رجل . وعند نهر « مدنيجو » أيقن ويلنجتون أنه قادر على خوض المعركة ، وهناك على مرتفعات « بوساكو » هزم « ماسينا » . وكان ويلنجتون ممتازاً في مجال التكتيك بنفس القدر من الأمتياز في المجالات الأخرى للقيادة . وكان كل من نابليون وويلنجتون يؤمنان تماماً بقوة الفيران ، وقد أستخدمت قواتهما بشكل عام نفس البندقية والسونكي ، والتي كان البريطانيون يسمونها « براون بس » ، أما الاختلاف بينهما أن قوات ويلنجتون كان لديها ضبط وربط عالي ومدربة تدريباً راقياً يجعلها تستطيع الصمود في خط واحد أمام أرتال الفرنسيين ، وكان من السهل إجراء الحسابات التي تحقق أنهم سينتصرون ، لأنهم كانوا يستطيعون إنتاج قوة نيران تعادل على الأقل أربعة أضعاف ما للعدو . وكانت تكتيكات ويلنجتون العادية تتضمن وضع قواته الرئيسية في خط مزدوج من المشاة والذي يشكل على المنحدر الخلفي للمرتفع ، حتى يصبح محتفى عن نظر ومدفعية العدو ، ويدفع أمام الخط مناوشين بينما تحمي الفرسان البريطانية والمدفعية الأجانب . وكانت هذه هي أوضاع قواته عند « بوساكو » ، ولم يستخدم حشد المدفعية على طريقة نابليون على الرغم من أن خفة حركة مدفعيته المحمولة على الخيول كانت تفوق مثيلتها الفرنسية وأثرت عليها ، وحيث أن فرسانه لم تكن وفيرة العدد ، فلم يتبع ويلنجتون إنتصاراته بالمطاردة . وقد وصف « بوجداد »^(١) التأثير الذي أحدثه جيش ويلنجتون على أعدائه بقوله : — « تخير الإنجليز بشكل عام مواقع دفاعية جيدة ولها سيطرة مؤكدة ، ولم يظهر منها إلا جزءاً قليلاً من قواتهم .

وبدأت المدفعية العادية العمل ، وسرعان ما نقوم نحن على عجل وبدون دراسة للموقف ، بالتقدم مباشرة لمسك الثور من قرنيه ، وعلى مسافة ١٠٠٠ ياردة من الخط الإنجليزي يهتاج الرجال وينادى كل منهم على الآخر ويسرعون في السير لدرجة أن الأرتال بدت في إضطراب قليل . أما الإنجليز فيظلوا ساكنين تماماً بينما أسلحتهم معدة ، ومن فرط إنقظامهم فكانوا يبدون كحائط أحمر طويل ، وبدون شك فهذا الثبات يحدث تأثيراً على الجنود صغار السن ، وسرعان ما اقتربنا منهم وصحنا : - (يحيا الإمبراطور . . إلى الإمام . . إلى السونكي . .) وترفع الجنود قبعاتها العسكرية من على أفواه البنادق ، ويبدأ الرتل في العدو ، وتعم الفوضى بين الصفوف وتحدث الإثارة إضطراباً ، وكانت النيران تطلق أثناء تقدمنا . وظل الخط البريطاني صامتاً وثابتاً راسخاً بينما أسلحته معدة ، حتى عندما أصبحنا على بعد ٣٠٠ ياردة منهم ، وبدأ وكأنهم يتجاهلون العاصفة التي على وشك الهبوب . وكان التناقض صارخاً ، وشعر كل منا في أعماق أفكاره ، وكما لو أن العدو يطلق نيرانه منذ مدة طويلة ، وأن هذه النيران التي حبست لمدة طويلة سوف تكون غير سارة عندما تأتي ، وفتر حماسنا ، وتغلب على أذهاننا القوة المعنوية للثبات الذي لا يهزه أى شيء (حتى لو كان مظهره فقط) . وفي اللحظة من الهياج الشديد وضع الحائط البريطاني أسلحته في الكتف ، وثار شعور لا يوصف في نفوس كثير من رجالنا ، وبدأ الإنجليز في إطلاق النيران . واكتسحت دفعات نيران العدو المركزة والثابتة صفوفنا ، وهلك معظمنا ، وحاولنا إستعادة التوازن ، وعندئذ أنطلقت ثلاث هتافات تصم الأذان مزقت صمت عدونا . وعند الهتاف الثالث كانوا فوقنا ، مطاردين إنسحابنا الغير منظم » .

نفى نابليون

وبعد الانتصار في « بوساكو » ، أثار ويلنجتون دهشة أعداءه وكذا جيشه بمواصلة الانسحاب و « ماسينا » يتبعه حتى خطوط « التورس فيدراس » حيث توقف في النهاية هناك .

وخلال شتاء ١٨١٠ - ١٨١١ واجه الجيشان بعضهما ، وكان البريطانيون في وضع آمن وإمدادهم جيد ، بينما الفرنسيون كانوا بعيدين عن قواعدهم وليس في إستطاعتهم التأثير على الخطوط الدفاعية .

وفي مارس ١٨١١ انسحب « ماسينا » وبدأ ويلنجتون الزحف الطويل البطيء والذي أدى في ثلاث سنوات إلى النصر في عام ١٨١٤ . وقد تم استعادة مناطق الحدود «الميدا» و « كيودار » و « رودريجو » و « باراجوت » في عامي ١٨١١ ، ١٨١٢ ، وتم هذا بالناورات الكثيرة والحرص المستمر الدائم على المحافظة على قاعدة العمليات البرتغالية . وقد نجح الإنجليز بسبب الخلافات بين المارشالات الفرنسية في أسبانيا والعمليات المضللة التي يرسلها نابليون لقواته عن موسكو ، ولكن ذلك لا يمنع القول بأن نجاح العمليات يعود إلى إنجازات ويلنجتون وجنوده . وعبقريته الدفاعية ومهارته في المناورة لا تعني أنه لا يضرب بشدة عندما تحين اللحظة المناسبة للحركة . وبعد إنتصارين كبيرين عند « سالامانكا » في عام ١٨١٢ وعند « فيتوريا » في عام ١٨١٣ طهر ويلنجتون شبه الجزيرة من الغزاة الفرنسيين .

وإن الاستعراض الذي قام به نابليون في أسبانيا والذي حاول جاهداً أن يقنع به نفسه كان ذو تأثير بالغ الدمار على مسار حياة نابليون ، لأنه كان استنزافاً خطيراً لقوته ، وعلى سبيل المثال ، فلو أنه لم يرسل قوات إلى شبه الجزيرة في عام ٨٠٩ فإنه كان من الممكن تجنب الفشل عند « اسلينج » .

وكانت أسبانيا بمثابة أرض تدريب يمارس فيها مارشالاته العصيان وتقبل الهزيمة . وقد جاء إختراق جيش ويلنجتون لجنوب غرب فرنسا عام ١٨١٤ في نفس الوقت الذي ضغط فيه نابليون إلى الخلف أي إلى داخل حدود فرنسا الشمالية الشرقية . وأكثر من ذلك فإن شجاعة ونجاح شعبي أسبانيا والبرتغال أثار الشجاعة في شعوب أوروبا . فكان الألمان قد خضعوا نتيجة الخوف والبطش ، ولكن في عام ١٨٠٨ ظهرت موجة قوية من القومية ضد الفرنسيين الأجانب ، والتي مثلها بطريقة مصغرة « فيتش » في روسيا « وهوفر » في النمسا ، وخلاف الكسندر مع نابليون . وفي عام ١٨١٢ أوقع الروس هزيمة كبرى بنابليون في حملة موسكو حيث دبروا معظم « الجيش الكبير » الأصلي ، وتبعها هزيمة « لينزج » عام ١٨١٣ . وفي عام ١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش ، وفي مايو من نفس السنة وصل الامبراطور المخلوع إلى جزيرة « إلبا » ، حيث أعترف به ملكاً عليها ، وأصبح السيد المطلق



تقهقر نابليون وجيشه من موسكو

لأوروبا يحكم قليلا من الأميال المربعة ، ولم يتجاوز عمره ٤٥ عاماً . وننقل كلمات سير ونستون تشرشل في المجلد الثاني من (الأزمة العالمية ١٩١١ — ١٩١٨) : — « فربما كان بوسع أوروبا أن تقول « حقاً أيها الفرنسيون إن هذا كافياً للتاريخ ، ولكنه لم يكن كذلك » .

وفي عام ١٨١٥ عاد نابليون ، ليتاقى هزيمته النهائية الحاسمة على أيدي الجيوش المتحالفة بقيادة « ويلنجتون » و « بلوخر » عند « ووترلو » بالقرب من « بروكسل » . وكانت هذه أول مرة يتقابل فيها القائدان الكبيران وجهاً لوجه في معركة ، ولم يكن أى منهما في أحسن حالاته في هذه الحملة .

وكانت المعركة متكافئة إلى حد كبير للطرفين ، ولكن النتيجة كما وصفها ويلنجتون هي أن « نابليون لم يفعل شيئاً سوى أنه تحرك للأمام على الطريقة التقليدية القديمة أى فى أرتال ، وقد هزم بالطريقة القديمة أيضاً » . وحل السلام بأوروبا بعد ٢٣ عاماً ، ونفى نابليون إلى « سانت هيلانه » حيث توفى هناك عام ١٨٢١ . وعاد ويلنجتون ليواصل طريقه السياسى حيث أصبح رئيساً للوزراء من عام ١٨٢٨ إلى ١٨٣٠ وحصل فيها على الحقوق المدنية للكاتوليك . ومثل عدوه المهزوم المتوفى ، أصبح ويلنجتون أسطورة أكثر فأكثر ، إلى أن توفى عام ١٨٥٢ .

لقد تعرضنا فى هذا الفصل إلى ثلاثة من القادة الذين ستظل أسمائهم تعيش عبر التاريخ . وأنه من الغريب أن أكثر إثنين شهرة فى عصرهم هما نابليون وويلنجتون وقد ولدا فى نفس عام ١٧٦٩ ، وأنه من الغريب أيضاً أنه خلال الصراع الطويل بين الحىوش البريطانية والفرنسية فى عصرهم لم يلتق الاثنان فى معركة مطلقاً إلا عند « ووترلو » فى يونيه ١٨١٥ ، وهى آخر معركة حاربها كل منهما . وقد قمت بدراسة كل منهم بعمق منذ كنت طالباً بالكلية الحربية الملكة « بساندهيرست » فى عام ١٩٠٧ . ولكى أختتم هذا الفصل سوف أعطى رأي الشخصى عن جوانب معينة فى سيرتهم .

نابليون

لقد كتبت الملايين من الكلمات فى محاولة لكشف النقاب عن سر نجاحه ، والكثير من الكتاب كانوا ناقدين بقسوة . ولكن عندما يقال كل شيء ، فلا بد من الاعتراف بأنه لا يوجد إلا نادراً جداً من أمثال نابليون ولا يوجد أفضل منه . وكانت له شخصية ساحرة ، وكل ما أتصل به كان يبهز فى الحال بالمقدرة والذكاء الخارق له ، فمثلاً عندما تولى قيادة الجيش الفرنسى فى إيطاليا عام ١٧٩٦ لم يكن قد تجاوز بعد ٢٦ عاماً ووجد أن الجيش لم يتقاضى مرتباته ويفتقر إلى الملابس والأحذية وجائع وقارب التمرد ، ولم تمضى سبعة أيام حتى تحول السخط الغاضب إلى تعاون تلقائى ، فلقد أعاد نابليون للجيش روحه ، وتعتبر الحملة التى تلت ذلك فى إيطاليا عامى ١٧٩٦ — ١٧٩٧ من أبرع الحملات التى شهدتها العالم فى ذلك الوقت .

وكان نابليون بمثابة عبقرية عسكرية ضخمة انطلقت من عقالها لتبسط يدها على العالم ، ذلك العالم الذى لم يعد كما كان عليه قبل مجيء نابليون . وكان نابليون أستاذاً فى الإستراتيجية بنظرة تكتيكية رائعة للأرض . أما أسلوبه فكان بسيط فى جوهره ، خفة الحركة والحشد والروح المعنوية ، وكلها واضحة فى حملاته فى أوروبا « بالجيش الكبير » ، وبالرغم من انه كان دائماً يواجه قوات تفوقه عدداً فى مسرح الحرب إلا أنه نادراً ما كان يخوض معركة دون أن يتوفر له التفوق المحلى فى نقطة الصراع . وقد كتب المارشال « ساكس » فى « أفكارى الخيالية » : — « إن الحرب يجب أن تدار بحيث لا يترك أى شئ للفرصة » ومن خبرتى فى القيادة العامة فى الحرب فإننى لا أوافق على هذا رأى . وكان نابليون أكثر حكمة فقد كتب فى إحدى حكمه : — « أمن نفسك جميع الفرص الممكنة للنجاح عندما تقرر القيام بمعركة هامة . » وعند هذا الحد يبرز سؤال : — إذا ما إتخذت كل الإجراءات المنطقية لتأمين النصر ، فما هو القدر الذى يترك للفرصة ؟ .

ومن هنا يتدخل الحظ ، ولكنك يجب ألا تتوقع الحظ إذا لم تكن جسوراً .

وعلى كل لم تكن كل أحكام نابليون سليمة ، فقد ارتكب أول أخطاءه الكبرى بغزو أسبانيا عام ١٨٠٨ .

وقبلها بزمان طويل قال أحد ملوك فرنسا عن أسبانيا : — « إنها الدولة التى تهزم فيها الجيوش الصغيرة ، بينما تموت فيها الجيوش الكبيرة جوعاً . » وقد عهدت الحملة إلى سلسلة من المارشالات ، ولكن ذلك لا يمنع من إلقاء المسؤولية عليه على الأقل فى بعض الكوارث التى حلت بالجيوش الفرنسية . وإن السبب وراء هزيمة الجيش الفرنسى الكبير بصرف النظر عن ويلنجتون وجنوده ، هى حرارة وأشعة الشمس المحرقة والمقاومة المتعصبة للأسبان غير المظاميين ، فكانوا يقتلون حوالى ١٠٠ بمدى فرنسى يومياً ، فى نفس الوقت كان نابليون مشغولاً فى شمال أوروبا بشكل عاقه عن التدخل شخصياً فى أسبانيا ، وقد أفرط فى نفس الوقت فى توسعه . وفى عام ١٨١٣ ترك الفرنسيون أسبانيا .

ننتقل الآن إلى كارثة نابليون فى روسيا عام ١٨١٢ . ولم أفهم مطلقاً منطق نابليون فى ذلك الوقت . وفى رأى توجد أحد القواعد الرئيسية للحرب تقول : — « لا ترحف إلى

موسكو » . وقد كسر هتلر هذه القاعدة وعاش ليندم عليها . ولم يكن الطقس وحده هو الذى أدى إلى هزيمة نابليون فى روسيا ، بل كانت أخطاء نابليون نفسه ، وما نتج عن ذلك من فقد الضبط والربط فى « الجيش الكبير » ، فقد بدأت أعمال السلب والنهب فى اليوم الأول لدخول موسكو .

وقد حدث أيضاً ضعف فى الروح المعنوية فى الجيش الفرنسى عندما علم الجنود بإضمحلال صحة^(١) قائدهم . وفى روسيا ، وجد نابليون ظروفًا لم يكن معتاداً عليها ، أراضى مترامية الأطراف مع طرق قليلة ورديئة وبدون إمدادات ، ونظام لدولة ممتدة بدون قلب يمكن أن يسدد له ضربة حاسمة . ويعتقد الكثير من النقاد أنه فشل فى تكييف نفسه لهذه الظروف ، وهذا دليل على أن عبقريته لم تكن عبقرية خلاقة ، فكان يستطيع اقتباس جهاز عسكرى ويحسنه ويتلاعب به بمهارة لا تصدق ، ولكنه لم يستطع إختراع جهازاً جديداً . وفى كتاب « السير والتر سكوت » عن « حياة نابليون »^(٢) . قصة طريفة عن رحيله إلى جزيرة « إلبا » ، فقد أعطى طاقم السفينة منحة ، ونهض القبطان ليشكره مضيفاً : — « إننى واثق أننا جميعاً نتمنى لك حظاً أسعداً فى المرة القادمة » ، ولكن لم يقدر لهذه المرة القادمة أن تأتى . وأخيراً نأتى إلى معركة « ووترلو » ولم يكن نابليون فى هذا الوقت مثل ما كان عليه سابقاً .

ويمكن للمرء أن يخمن ما الذى كان يحدث لو أنه قابل ويلنجتون فى معركة وكان نابليون فى كامل قوته ونشاطه ...؟؟

وعلى كل لن أتعرض لمعركة « ووترلو » إلا عند الحديث عن « ويلنجتون » . ولقد صدر الكثير من الأحكام على نابليون وأعماله . وكان يبدو لى دائماً أنه كان طموحاً جداً . وقد صمم أن يعرف فى العالم على أنه أعظم القادة على الإطلاق .

إلا أن هذا الطموح دفعه إلى الهزيمة النهائية . ولكن بقى هناك شيء واحد يمكن

(١) لقد عاود لمرض السرطان نابليون فى ذلك الوقت . وقد كان السرطان أخيراً سبباً فى القضاء على حياته بعد ذلك .

(٢) لقد نشر بعد بضع سنوات من موت نابليون .

أن يقال دون أى ريب : — « إن إنتصاراته لم تباريها أى إنتصارات أخرى ، وطالما بقيت هناك جنديه فيظل يذكر نابليون كواحد من أعظم القادة » .

ويلنجتون

كان « ويلنجتون » رجلاً مختلفاً كثيراً عن نابليون . فبينما كان الأخير مدفوعاً بطموح أنانى ، فكان المبدأ الرئيسى لحياة ويلنجتون هو « الواجب » ، ولم يهتم بأى طموح شخصى ، ولم يبدو أنه يتحرك بدافع الرغبة لكسب الأطراء والثناء أو رفع نفسه إلى مناصب الشرف والقوة . وكجندى ، فكان حذراً ، وعلى درجة عالية من المقدرة الإستراتيجية . وفى الهند تعلم فن الحرب على المستوى البدائى ، وكان واثقاً متزناً ثابتاً أكثر من كونه ذكياً . وكرجل تكتيكى فقد جمع بين الثبات والذكاء ، وفوق ذلك كان أستاذاً فى الدفاع ، ولكن عندما تحين له الفرصة يتحول إلى مهاجماً جسوراً ، كما حدث على سبيل المثال عند « سالامانكا » فى يولييه ١٨١٢ .

وإنه لمن الغريب والذى يدعو للتساؤل لماذا كان فى بعض الأوقات يبدى كثيراً من الملاحظات التى تنتقص من مقدرة جنوده؟ ، وعلى سبيل المثال كتب قبل « ووترلو » : — « إن لدى جيشاً سيء السمعة » ويزعم أنه قال أيضاً بعد « ووترلو » : — « لقد كسبت معركة « ووترلو » فى ميادين الألعاب الرياضية فى أيتون » . وأنه لمن الخطأ والتحقيق من شأن ويلنجتون أن تنسب هذه الجملة إليه ، وفى الحقيقة فهذه الكلمات أستخدمها لأول مرة الكاتب الفرنسى « مونتالمبرت » فى كتاب نشر بعد سنوات من موت « ويلنجتون » . وتضمن الكثير من الإساءة إلى سمعته . وعلى أى حال فإن من أبعد الأشياء عن تصورى أن يستخدم ويلنجتون هذه الكلمات على الإطلاق بعد المعركة ، لأنه لا يوجد أحد يعلم أفضل منه ، الدور الذى ساهم به الإنجليز من ضباط وصف وجنود من جميع الرتب لتحقيق النصر . وإننى أوافق « جون لافين » عندما قال فى كتابه « روابط القيادة » من أن الجيش البريطانى هو الذى كسب تلك المعارك العديدة التى فتحت الطريق أمام ويلنجتون من أسبانيا إلى فرنسا عبر جبال البرانس . وأنا أقول ذلك دون أى محاولة منى للتقليل من عبقرية ويلنجتون التكتيكية والقيادة وصفاته العسكرية التى ظل يقسم بها طوال الحملة . وإن كلمات « لافين » لهى تقدير رائع للجندى البريطانى فى تلك الأيام .

وسوف أختتم ببعض الملاحظات عن « ووترلو » ، لأن دارس التاريخ سوف يجد أنه لا يستطيع دراسة معركة « ووترلو » والتي نشبت في ١٨ يونيه عام ١٨١٥ ، دون الأخذ في الاعتبار لما وقع من أحداث في كل من « لجني » و « كوارتر براس » في ١٥ ، ١٦ يونيه ، وبدون هذه الإعتبارات سيصبح ذلك كمن يدرس قصة شكسبير « هاملت » دون الإلتفات إلى شخصية « الأمير » ، ولا يمكنني أتصور معركة نشبت في منتصف القرن ٢٠ بتلك الطريقة التي تم القتال بها في ووترلو . وأنها لنقطة جيدة للتساءل عن من أرتكب أخطاء أسوأ .. ويلنجتون .. أو نابليون ؟؟ .

في ليلة ١٥ يونيه ، كان ويلنجتون يرقص في حفلة راقصة في « بروكسيل » أقامها دوق ودوقه « رشيमوند » ولم يكن جيشه قد فتح بعد لتشكيل المعركة ، كما أنه غير مستعد للقتال بكفاءة إذا فوجيء بهجوم ، بالرغم من أن نابليون وجيشه كانا على مسافة قريبة ، وذلك بعد عبوره الحدود البلجيكية في هذا الصباح . وأحرز نابليون مفاجأة كاملة ووضع جيشه بين جيش « ويلنجتون » و « بلوخر » واللذان كان جيشاهما بعيدان عن بعضهما بدرجة كبيرة لتمكنهما من القيام بمقاومة مؤثرة مشتركة فيما لو أستخدم نابليون بسرعة المبادأة التي حصل عليها ، ولكنهما لم تستخدم .

ولم يحدث قط أن كان هناك نصراً في متناول قبضة أى قائد مثل ما كان موجود في ١٥ يونيه ، فالنصر كان موجوداً على طبق من الفضة في إنتظار نابليون ليأخذه . وكان على ويلنجتون أن لا يلوم إلا نفسه لسماحه بوجود هذا الموقف . وبالنسبة لى ، فإننى لأصدق أن يحدث مثل هذا الإهمال من قائد عظيم مثل ويلنجتون . ومع ذلك وبالرغم من كل شيء ، فقد تحول النجاح الفرنسى الساحق بعد ثلاثة أيام إلى كارثة ، ويرجع ذلك إلى سلسلة من الأخطاء والإهمال ، والتي يجب أن يقع اللوم فيها على نابليون . ولقد تساءلت أحياناً كيف كان نابليون يفكر في كل ما حدث في منفاه في « سانت هيلانه » حيث كان لديه كثير من الوقت لإعادة التأمل ؟

وقد قرأت أنه قال : — « بالرغم من كل شيء فكان يجب على كسب هذه المعركة . » ومن المؤكد أنه كان سيكسب لو أنه تعقب البروسيين بعد « لجني » بكل جيشه وأرهمق جيش بلوخر بالدرجة التي تجعله غير قادر على الظهور مرة ثانية في ميدان القتال كقوة مقاتلة مؤثرة

لفترة من الوقت وعلى وجه التحديد ليس في ١٨ يونيو لمساعدة ويلنجتون عند ووترلو .
ترى ما الذى سيقوله ويلنجتون لو قدر لى أن أخاطبه اليوم وأعرض عليه الموقف في ١٥
يونيه كما أراه أنا ، وأقول له أن استراتيجية نابليون قد ضلته . ؟
ترى هل سيكون جوابه صفة من يده ؟ ... ربما ...

وعلى أى حال وبالرغم من تعليق على أخطائه في « ووترلو » ، فإنى دائماً أعتبر ويلنجتون
أفضل من أحبته بريطانيا لحقبة طويلة من الزمن ، ولازلت على نفس نظرتى إليه اليوم وأنا
أسطر صفحات هذا الكتاب .

نيلسون

منذ صباى ونيلسون يحتمل فى خيالى منزلة أبطال الأساطير ، وعندما بدأت دراسة
الحرب تبين لى مدى ماقدم هذا البحار لبريطانيا . وأن السر وراء قوة نيلسون هو فهمه
للرجال وبالتالى تفهمهم له . وكان يعرف كيف يكسب قلوب الرجال . وكان يبدو أن لديه تأثير
مغناطيسى على كل الذين يخدمون معه ، فكان يقود بالحب والقدوة . وكان لا يوجد شىء
لا يقوم به من أجل الذين يخدمون تحت قيادته .

فى نفس الوقت يتفانوا جميع قباطنته وبحارته فى خدمته . ونجد أن الانتصارات الكبيرة
فى البر والبحر تسبب الإعجاب والاحترام للقائد الأعلى المقتصر ، ولكنها لا تستثير دائماً العاطفة
أو الحب . والمقدرة على كسب الولاء ، والخدمة النابعة من صميم قلوب المرؤوسين لم يكن
ينظر لها دائماً كصفة ضرورية للقائد البحرى ، فقد قرأت أنه كان هناك أدميرالات ناجحين
يحققون النصر من خلال جنود يعملون تحت وطأة الخوف من الفشل . إلا أن التأثير المذهل
لنيلسون على رفاقه ربما يكون هو السبب فى تحقيق إنتصاراته الفريدة علاوة على إستخدام
ذكاءه أيضاً . فى اللحظة التى كان يخطو فيها فوق ظهر السفينة ، كانت تشع منه قوة مغناطيسية ،
فتصبح المجموعة المتنافرة من الرجال الذين ليس لديهم غرض مشترك ، رابطة من الأخوة ،
ولا يقتصر هذا الإشعاع على سفينته فقط بل كانت تنتشر فى كل سفينة فى الأساطيل التى
يقودها . إن صفات القيادة التى لدى نيلسون أعجبتنى دائماً وكثيراً .

والقيادة البحرية تشبه قيادة الجيوش البرية فى أن المادة الخام التى يتعامل بها القائد

البحرى هي . . الرجال ، وأنها أساساً مشكلة إنسانية كبيرة . . هي كيف تكسب قلوب بحارتك ؟ ولقد كانت تلك هي مشكلتي في القيادة . . . كسب قلوب الجنود ، ومنذ قيادتي لفصيلة من ٣٠ رجلاً في إحدى معارك عام ١٩١٤ . وعلى كل فكانت قيادة البحرية تختلف كثيراً في أيام نيلسون .

فبمجرد إشتباك سفينة في القتال الضارى فلا يمكن عمل شيء لها ، حيث لا يمكن رؤية الإشارات من خلال دخان المعركة ، ولا يمكن للسفن ذات الصواري المكسورة والأشرعة الممزقة أن تستجيب لسفينة القيادة حتى لو سمح الهدوء المؤقت للمعركة برؤية الإشارات . وكانت مهمة نيلسون في البحر أصعب بكثير من القادة التاليين له والذين قادوا سفناً سريعة الحركة في عصر البخار ، لأن لو فرض أنه يريد تعديل خط الاقتراب فكان لا يستطيع معالجة ذلك بالإشارة . وإننا معشر الذين نعيش في عصر الوقود والمواصلات اللاسلكية ميالين لأن نتناسى الظروف المختلفة التي كانت تسود عصر الشراع .

أما عن إنتصارات نيلسون ، فهناك آخرون أكثر قدرة على الكتابة بعمق في مجال البحر ، ولن أقوم بمجرد المحاولة . ولو كان مقدراً لنيلسون أن يموت في معركة ، فاني يكون هناك مكاناً أكثر ملائمة من سفينته التي تحدل عليه كقائد عام للبحرية . وقد مات وهو يعلم أن الأسطول الذي قاده في المعركة والرجال الذين أحبهم قد كسبوا نصراً كبيراً . وعندما سقط في ٢١ أكتوبر عام ١٨٠٥ ، يوم إنتصاره الساحق في الطرف الأغر ، ترك بريطانيا ولها السيادة المطلقة على بحار العالم بدرجة أن نهاية نابليون أصبحت مؤكدة ، بالرغم من أن ذلك إستغرق عشر سنوات أخرى والسبب في هذه الفترة الطويلة أن نابليون كان محصوراً في إستراتيجية برية .

ولا يسعى في النهاية إلا أن أنادى بنيلسون كأعظم قائد بحرى لكل العصور .

الفصل السادس عشر

المغول — الصينيون — اليابانيون

جانكيز خان

(أنظر اللوحة رقم ٣٨)



جانكيز خان

حتى الآن لم تأخذ دراستنا للحرب إلى وراء ما يطلق عليه « الشرق الأدنى » لذلك فسوف ننتقل بعيداً إلى الشرق الأقصى ، لندرس كما يشير عنوان هذا الفصل تاريخ الحرب لثلاثة شعوب آسيوية . وبالرغم من أنهم جميعاً ينتمون إلى جنس واحد إلا أن كل منهم يختلف عن الآخر إختلافاً كبيراً . وقد طفت كثيراً في الصين واليابان وإستطعت مشاهدة عن قرب الشعوب التي تعيش اليوم في هذه البلاد ، وسوف أتحدث عنهم بتفصيل أكثر في السطور القادمة .

ودراسة الخريطة سوف تتيح للقارئ رؤية دولة (المغول) والتي سوف ندرسها أولاً . وإننى لأعرفها جيداً ولكنى طفت « بمنغوليا الداخلية » وحلقت بالطائرة فوق طول سور الصين العظيم والطرف الجنوبي لصحراء جوبي ، وشاهدت جزءاً من منغوليا الخارجية من الجو . وكان (المغول المنغوليون) في الأزمنة الغابرة مجتمعاً يتألف كله من المحاربين ، وربما كان أكثر مجتمعات العالم نجاحاً . وقد أنجبوا « جانكيز خان » أحد القادة والفاثحين العظام النادرين .

أما الصينيون فكانوا على العكس من ذلك ، شعب بطبيعته غير ميال للحرب وكانوا

يشعلوا الحرب على مضض وتحت ضغط الظروف التاريخية ، ولم يسهموا مساهمة رئيسية في فن الحرب ، اللهم فيما عدا آراء أحد كبار العسكريين النظريين مثل « صن تزو » ، وعلى أى حال فإنه من المفيد دراستهم كشعب مسلم فريد . أما المجتمع اليابانى فكان مجتمعاً يغلب عليه الطابع العسكرى . وأنجبت اليابان طرازاً مميزاً ورثاً عن المحاربين من نوع « السامورى »^(١) كما قدموا على الأقل جنراً واحداً يستحق الذكر هو « هيدىوشى » .

ومن الحقائق المثيرة أنه فى الفترة التالية للقرن ١٦ ، عندما واجه المغول والصينيون واليابانيون التطور الجديد للتكنولوجيا العسكرية المتفوقة فى أوروبا هجرت كل من هذه الشعوب الحرب تقريباً ، واستمرت النظم الحربية فى تدهور حتى القرن ١٩ ، أى إلى النقطة التى سوف نبحثها هنا . وستتم دراسة التاريخ العسكرى للشعوب الآسيوية من منتصف القرن ١٩ وما بعده أى عندما بدأت تضاف السمة الغربية على حروبهم . وقد جاء المغول من سهول وسط آسيا الواسعة ومن الضرورى ان يكون سكان هذه المنطقة والتى تعيش على المراعى من راكبي الخيول ، وزاد من صلابتهم قوة المناخ الشديد الحرارة والبرودة ومعيشتهم طول حياتهم فى الخيام وعلى ظهور الخيل . وأصبح محتم عليهم أن يكونوا مقاتلين لأن الأرض جدباء وبالتالي كان هناك سعى دائم للبحث عن بقاع جديدة ، ولذا فلا بد من تنافس القبائل والشعوب المختلفة من أجل البقاء ، علاوة على التقلب اللانهاي للانتقال من أجل المراعى والصراع عليها ، وكان يبرز من حين إلى آخر ، قائداً قوياً بدرجة يستطيع ان يحجب الرؤساء الآخرين مع توحيد قبائل الأتراك والمغول^(٢) . مثل السكريات والنايمان والميركيت وآخرين .

فى القرن الرابع كان اتيلا قائد « الهون » او « الهينج نو » كما كانوا يعرفون فى هذه الأطراف النائية من العالم ، وهم أنفسهم الذين إنحدروا منهم القبائل المجرية فى القرن التاسع . وقد أستطاع جانشين خان أن يوحد هذه القبائل الرحل فى اتحاد كامل ولكن كان اتحاداً كله شرور عام (١١٦٢ — ١٢٢٧) . وعند مولده أطلق عليه والده والذى كان أحد الزعماء

(١) هو المحارب الأرستقراطى

(٢) لقد تلاحظ أن مونجوى يذكر كلمة المغول مرة ويذكر المغول مرة أخرى وهو يعنى

أنهما واحد

« العرب »

المغوليين الثانويين أسم « تموشين » . وعندما خلف والده وهو فى الثالثة عشر من عمره كان عليه أن يقاتل من أجل إرثه ، وكان من الناحية البدنية متينا وشجاعا وواسع الحيلة لجميع أبناء جنسه ، وكان يتميز بثقته فى نفسه وطموحا وبلغا ، كما أظهر تفوقا غير عاديا فى كسب الأتباع الأوفياء وإنهاء الخلافات لتطاعه إلى وحدة أكبر . وفى عام ١٢٠٦ وعندما كان فى الرابعة والأربعين وبعد عمل وقتال متواصل إستطاع الحصول على لقب « خان » على جميع القبائل ، وعندئذ إتخذ إسم « جانكيز خان » . وأنه لمن المثير التأمل فى أن عدداً قليلا جداً من قادة الماضى كانوا « قادة عظماء » بالرغم من أن الجنس البشرى كان يشن الحروب منذ نشأته ، ونتيجة لعدم وجود قادة بارعين فى أوروبا خلال العصور الوسطى لبس المقاتلون الدروع ، ونسوا خفة الحركة ، وأهملوا قوة النيران ، وأصبحت المفاجأة مستحيلة عمليا . ولكن فى هذا الوقت بالضبط ظهر فى آسيا رجل عسكري عبقرى وعظيم ، وهو « جانكيز خان » ، والذي كان مكانه فى الصف الأول من العسكريين العظام ، وزعيما عظيما ، والذي تعتبر حملاته نماذج فى فن الحرب ، ولسوف نرى الآن كيف قام بأعماله . كان الشعب المنغولى بدائياً وهمجيا . وفى الماضى كانت القبيلة التى تنتصر على الأخرى يتبع هذا النصر عادة التخریب والمذابح . وسرعان ما جاء « جانكيز خان » وأظهر تفوقه فى تفكيره باستخدام إنتصاره بطريقة بناءة وذلك بتوحيد شعبه ورفع ضحاياه ليصبحوا من رعاياه ، وكان هذا الطابع من القيادة يجعل هؤلاء فخورين بوضعهم الجديد .

وقد وحد هذه القبائل الرحل بقوة عزيمته وأرهابهم بقوته ، وفى نفس الوقت بتقديم المكافآت الكبيرة لهم . كما قام بتنظيم رابطة الأخوة بين جميع القبائل من أجل الحرب . ولم يكن خضوع القبيلة لجانكيز خان شكلياً ، فكان كبار رجال القبيلة يحضرون للخدمة فى هيئة أركانه أو فى حرسه ، كما كانت الجزية تدفع لخزينته . وعلى القبيلة أيضاً تجهيز نفسها لتكون وحدة فى القوة المقاتلة الكبيرة . وكانت القبائل تحصى بعدد خيامها ، ويخصص لها أراضى للرعى . أما السلطة داخل القبائل فكانت تعطى بالإختيار أو التأييد ، وكان هناك نظام يكفل الحفاظ على أمن الأفراد ، وهو نظام عادل ومرن وضع قوانينه جانكيز خان عام ١٢٠٦ تحت اسم « ياسا » . وتحت ظروف الحرب كان الأمراء والشيوخ ورؤساء القبائل

يقودون وحدات «التومان»^(١) وأيضاً يقودوا الألوف أو المئات . وكان النظام العشري سائداً
إعتباراً من « التومان » حتى الرتل المكون من عشر رجال . وكان رئيس القبيلة مسؤولاً
على المحافظة على رجاله مدربين بصفة دائمة ومجهزين بالمهمات والمعدات طبقاً للنظام الموضوع
لذلك ، وكان عليه أن يجيب فوراً على إستدعاء الخان للحرب . وكان الخان لديه « تومان »
خاص به مكون من نخبة « التومانات » . وكان أعلى الضباط درجة في قيادة الجيوش يطلق
على الواحد منهم « أورلوك » وكان عددهم حولى ١١ . وعندما توحدت القبائل الرحل عام
١٣٠٦ كان جانكيز خان يحكم إمبراطورية تمتد لمسافة ١٠٠٠ ميل من الشرق للغرب ، أى
من جبال خنجان (شرق صحراء جوبي) إلى سلسلة جبال الطاي (شمال شرق بحيرة بلكاش)
والتي ضمت ٣١ قبيلة . وكان السلم بالنسبة لهذا الشعب ماهو إلا إستعداد للحرب .

راكبو السهام

وكان كل رجل فى الجيش المغولى فارساً ، وكان بعضهم أثقل تسليحاً من الآخرين .



قوات المغول وتستخدم الحربة المعقوفة

(١) وحدة تتكون من ١٠.٠٠٠ رجل وهى أكبر وحدة فى الجيش «المغرب»

وتحسنت معداتهم جميعاً عندما أصبحوا أكثر خبرة وثراء . أما الدروع فكانت قليلة ، فالرجال يرتدون ثياباً من جلد الغنم ، وسترات فضفاضة من الجلد المدبوغ ، ودروع من شريحة جلد مصقول .

وكان البعض يرتدون قمصاناً من الحرير الخام الذى لا يخترقه رؤوس السهام ولكن ينغمس معه فى اللحم ، مما يخفف من خطورة الجرح . وكانت تستخدم الدروع المستديرة بواسطة الجنود الذين يقومون بواجب الحراسة ، وقوات الصدمة فى الخط الأمامى وأيضاً بواسطة حرس الخان فقط .

وكانت الأسلحة الرئيسية للمغول هى الخربة المعقوفة والسيوف المعقوفة ، والذى له سن مدبب الأمر الذى جعله مناسباً لكل من الطعن والقطع ، وقوسين ، أحدهما للاستخدام من فوق ظهر الخيل والآخر للضرب الأكثر دقة من على الأقدام . وكان هناك ثلاثة أنواع من السهام كل منها يلائم حالة معينة من حيث المدى وضد مختلف الدروع . وإلى جانب هذا توفر لكل رجل بلطة تتدلى من حزامه ، ووهق^(١) وصندوق يحتوى على شمع وأوتار احتياطية للقوس ، مبارد لشحذ السهام وإبرة خيط ، وقربة مانعة للماء لحمل الملابس الاحتياطية والتي يمكن نفخها لعبور الأنهار . وأخيراً يحمل معدات للطعام كالآتى : — نخلة لفرسه ووعاء شخصى لطهى طعامه ، وتعيينه الرئيسى من الطعام والذى يتكون من اللحم المقدد والدخن وكمثلة من اللبن المجفف . وأصدر جانكيزخان أمراً بمسؤولية الزوجة فى وقت السلم ويتضمن رعاية مؤن وملابس زوجها تكون جاهزة على الدوام . وفى فترات السلم احتفظ بلياقة الرجال مع تدريبهم على استخدام أسلحتهم بصيد الحيوانات المتوحشة . وبالتدريج تعلم المغول من أعدائهم سكان المدن فن الحصار ، وحملت جيوشهم فيما بعد بعض آلات إطلاق القذائف والمنجانيق وذلك فى أجزاء على ظهور الدواب . وكانت الصفات المميزة لقتال المغول هى خفة الحركة والتنسيق .

وعند وصف الحملات التى قام بها هؤلاء الفرسان الذين زحفوا خلال أراضى ليست لها

(١) عبارة عن قطعة من الخشب تستخدم فى تقييد الجواد وفى اصطيد المدو أو لسحب الأمتعة

خرائط من الصين حتى البحر المتوسط ، ويصعب قياس المسافات بالأميال ويرجع جزء من سر ذلك التنسيق الذي كان يسود حملاتهم إلى الموهبة الغريزية لهؤلاء القوم الرحل في معرفة العلامات الأرضية والاتجاهات .

وكان لديهم جهازاً على التنظيم للتجسس والاستطلاع والاتصال ، وكانت المعلومات العامة ترسل باستمرار إلى جانكيزخان من أتباعه الحكام المرؤوسين ، أما الرسائل الخاصة للخان ورسائل الجواسيس فكان يعهد بتوصيلها إلى سعاة الخان الخصوصيين ؛ والذي يطلق عليهم « راكبوا السهام » وكانوا يحصلون في كل مكان على الأولوية وأيضاً على المساعدات المتمثلة في تقديم أجود الخيول والمؤن المتوفرة .

وكان في إمكان هؤلاء السعاة قطع مسافات في أيام تتطلب عادة أسابيع . وكانت أجسادهم تلف بالضمانات لمساعدتهم في ركوبهم الطويل ، كما كانوا ينامون على ظهور خيولهم . ومع توسع فتوحات المغول ، أصبح جزءاً هاماً من سياسة الخان المحافظة على الطرق وحمايتها وخاصة طرق القوافل القديمة التي ضمها إلى شبكة الطرق الآسيوية حيث وضع عليها مخافر دائمة . وفي وقت الحرب ، يتقدم مسيرة الجيش بعض عناصر الاستطلاع ويبدأوا سيرهم قبل الجيش بـ ٥ أيام .

وقد أستفاد جانكيزخان في إستفادة كاملة من الجواسيس ، وهنا كان الباعة المتجولون ذو نفع كبير له .

وتحت إلحاح الرغبة في السيطرة ، وتحت ضغط الحاجة للبقاء على جذوة الحرب متوهجة في شعبه حرض المغول ضد الصينيين . وكانت أسرة كين الحاكمة في الصين ضعيفة سياسياً ، ولم يحاولوا التدخل (كما كانت السياسة الصينية الماضية) ، لمنع اتحاد القبائل الرحل في الشمال والغرب .

وعلى أي حال كان « جانكيزخان » إستراتيجياً حذراً ، فلم يكن لديه معلومات مؤكدة عن قوة الصين ، ولكنه اكتشف أن جيوشها مكونة من عدد ضخم من الجنود المترجلين وأنها تعتمد إلى حد كبير على الحصون القوية . وكان فن الحرب الصيني غير مألوف للمغول .

وفي عام ١٢٠٧ قام الخان بتجربة ، بأن قاد جيشاً مغولياً قويا إلى ولاية «هسي هسيا»^(١). وفي ميدان القتال هزم فرسان المغول كل ما وقف أمامهم ماعداً المدن المحصنة . وقد إستفاد « الخان » من هذه التجربة ودرب في السنين القليلة التالية بعض ضباط المغول على حرب الحصار ، باستخدام المنجانيق والنفط والسلام وأكياس الرمل .

ومع حلول عام ١٢١١ وبعد أن تعلم جيشه الكثير وقهر ولاية «هسي هسيا» ، وبعد أن أمن أجنابه قام بمغامرته الكبرى ضد الصين الكبرى .

اختراق سور الصين العظيم

وفي هذا الوقت برز وتطور نموذج غزوات المغول ، إلا أن هذا الغزو الذي سنتحدث عنه الآن يعتبر أكبرها وأعظمها جميعاً ، والذي كان موجهاً ضد الصين . وقد دعى المجلس للانعقاد في مقر قيادة « الخان » ونوش الموقف بحضور جميع كبار الضباط ، وتم وضوح الهدف ، واختيرت المحاور لسير القوات ، وتحدد شكل المجموعات التي ستستخدمها الفرق ، كما وضعت الخطوط العريضة للخطّة .

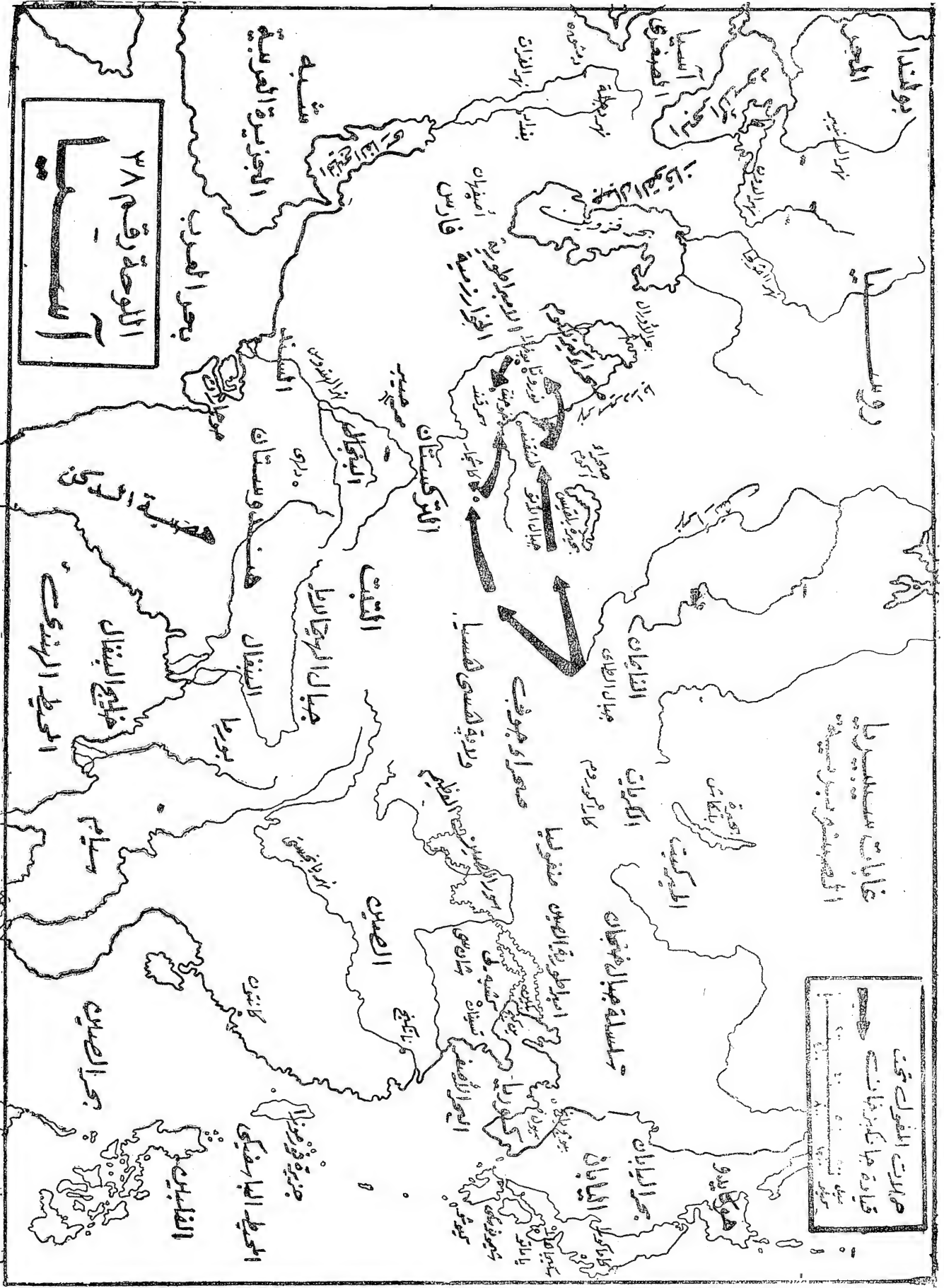
وكانت المحاربات قد عكفت على دراسة الموقف لفترة من الوقت قبل إنعقاد المجلس . وبدأ « الهورد»^(٢) التحرك ، وكانت أول قوات تحركت هي عناصر الاستطلاع والتي تكونت من حوالي ٢٠٠ فارس يسرون في أزواج حيث انتشروا فوق المناطق المجاورة ، وسار بعدهم الحرس الأمامي المكون من «ثلاث تومانات» أي ٣٠٠٠٠ محارب منتقن جيداً ومجهزين ومع كل منهم جواد إحتياطي ، غير الذي يركبه . وكان قادة « التومانات » الثلاثة في عام ١٢١١ هم « موهولي » و « سابوتاي » و « شبي نوبون » ، وتولى الأخيران منهم القيادة العليا قبل بلوغهما سن ٢٥ . وتولى الحرس الأمامي القوة الرئيسية والتي تكونت من ثلاث فرق بلغ مجموعها الكلي ١٦٠٠٠ مقاتل .

وكان جان-كينزخان على رأس الفرقة الوسطى والتي تتكون من ١٠٠٠٠ مقاتل . وكان علم جان-كينزخان الخاص عبارة عن تسع ذيول « قوناسن»^(٣) بيضاء . وخلال الحملة

(١) وهي جزء شبه مستقل من الإمبراطورية الصينية في الشمال الغربي .

(٢) يطلق هذا الأسم على غزاة المغول

(٣) نوع من الثيران الضخمة والتي تقطن في وديان التبت



بولندا

رومانيا

غابات سيبيريا
المياه الجوفية في سيبيريا

صارت المفردات تحت
قيادة جاكيز خاتون
سنة ١٩١٩
سنة ١٩٢٠
سنة ١٩٢١
سنة ١٩٢٢

المغرب

البحر المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر العربي

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأسود

البحر الكاسبي

البحر البلطيق

البحر البaltic

البحر الأسود

البحر الكاسبي

البحر البلطيق

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر العربي

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأسود

البحر الكاسبي

البحر البلطيق

البحر البaltic

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر العربي

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأسود

البحر الكاسبي

البحر البلطيق

البحر البaltic

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر العربي

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأسود

البحر الكاسبي

البحر البلطيق

البحر البaltic

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر العربي

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأسود

البحر الكاسبي

البحر البلطيق

البحر البaltic

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

البحر العربي

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأسود

البحر الكاسبي

البحر البلطيق

البحر البaltic

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الهندي

كان القائد الأعلى على إتصال مستمر بكل قادة الفرق بواسطة سعاة « را كبي السهام ». وكان يوجد عدة طرق إقتراب تستخدمها القوافل للدخول إلى الصين^(١)، وفي عام ١٢١١ اخترقت الفرق المتقدمة طريقها خلال « سور الصين العظيم » وعلى خطوط منفصلة تقدم « شان-سى » و « تشيه-لى » على محور « بكين ». ولم يكن لدى جيش « جانكيز خان » أى احتياطي من المؤن عدا ما يمكن العثور عليه فى الطريق ، ولكن كان ذلك كافياً . وكان لكل قائد فرقة حرية التصرف للمناورة والإشتباك مع العدو فى قطاعه ، ولكن الهدف الرئيسى كان واضحاً وهاماً . وكانت تأتى رسالة من القائد الأعلى فى أى لحظة تستدعى هؤلاء القادة للقيام بعمل معين . وكانت هذه القولات المنفصلة تستطيع أن تتحول بسرعة لتعاون بعضها نتيجة لخفة حركتها .

وكان الجيش المغولى يطبق تماماً المبدأ القائل « سر مجزأً وقاقل متحداً » . وفى الحقيقة هذه حكمة « فون مولتكه » رئيس أركان حرب الجيش أيام قيادة بسمارك . أما تكتيكات المغول فكانت بسيطة ، ولكنها شديدة الفاعلية والتأثير . وقد خططوا دائماً لمفاجأة العدو ، وتحركوا نهائياً ولبلاً بسرعة ، كما كانوا يجمعون « توماناتهم » بدقة مطلقة . وإذا لم يحقق لهم هذا التخطيط النصر ، فيقومون على الفور بتطويق العدو بالالتفاف حول أحد أجنابه . كما استخدموا أيضاً تكتيكات الفرس القديمة الخاصة بالانسحاب الخداعى ، فكانوا ينسحبون لأيام ، ثم يستديروا مرة أخرى وينشروا قواتهم على شكل المروحة ليطوقوا أجناب العدو . وعادة ماتهاجم فرسان المغول فى تشكيلاتها تحت ستر وابل من قذائف أقواسهم وحراهم . وكانوا يسيطرون على تحرك التشكيلات بواسطة الإشارات^(١) . وفى الواقع كان طابور المعركة عندهم جيداً ، وتقسم القوات فى خمس صفوف ، ورجال الصينيين الأماميين كانوا تدريهم ثقيلاً .

وبعد حدوث حادثة الهجوم الأولى ، يصبح الصراع مائلاً وغير منتظم ، كل رجل يقاتل من أجل نفسه مستخدماً سيفه ، ويحاول إيقاع خصمه على الأرض باستخدام حبله ذى الأنشودة أو خطاف حربته .

المغول يهاجمون الامبراطورية الاسلامية (أنظر اللوحة رقم ٣٨)

وبهذا الأسلوب إنطلق الزحف السريع الأول إلى داخل الصين ، وتم التغلب على كل المقاومات ، ولكن ظل المغول على ضعفهم أمام التحصينات . وأخذ السكان الصينيين يتحصنون داخل مدنها ، مما أدى إلى تعثر سير القتال المغولي حتى وصل إلى التوقف . وسقطت بعض المدن بالخداع والذي كان المغول خبراء فيه . ولكن كما حدث لهانيبال أمام روما ، توقف جانكيزخان وقواته أمام « ين كنج »^(١) العاصمة وإستمر هذا الموقف مدة خمسة سنوات من ١٢١١ إلى ١٢١٦ .

وكان المغول ينسحبون في كل خريف ويعودون في الربيع التالي مكتسحين كل ما في طريقهم في تشكيل أرتال منفصلة تتقدم عبر الأرض المفتوحة . وفي كل عام كان تدميرهم يزداد ويستولوا على مدن أكثر ، إلا أن المدن الرئيسية واصلت الصمود بالرغم من إضطراب السياسيين المحليين . ولكن في النهاية في عام ١٢١٦ ، أذل الإمبراطور الصيني « كين » نفسه ودفع جزية كبيرة جداً ، للتخلص من المغول . وحصل « جانكيزخان » على زوجة من الدم الإمبراطوري الصيني ، بينما ترك « موهولي » والذي كان قائد تومار ، كنائب للملك وحاكم عسكري للصين . وعاد « جانكيزخان » إلى عاصمته « كارا كوروم » والتي تقع في شمال صحراء الجوبي ، ومعه الغنائم الثمينة التي وعد بها رجاله ، كما جلب معه الحرفيين والتكنولوجيين والمدرسين الصينيين ، أما الأسرى الذين ليس لهم قيمة فقد ذبحهم . والآن ، وقد تم له إخضاع الشرق ، وتأكد من هدوء الموقف في قلب مقاطعاته ، حول إنتباهه إلى الغرب ، إلى القوة الإسلامية الكبرى إلى « إمبراطورية الخوارزميين » والتي تقع خلف جبال الهيمالايا .

وكان الشاه « علاء الدين محمود » من الفاتحين والذي كان حكمه يمتد من الخليج الفارسي وبغداد حتى جبال الهيمالايا .

وكانت هذه الفترة من أخطر الفترات التي مرت بها القوة الإسلامية حيث كان الصليبيون ينسحبون من كل مكان في أقصى الغرب . ولم يكن جانكيزخان يعلم إلا القليل

عن العالم الإسلامي ، سوى أن التجار من حين إلى آخر يحضرون منه ببضائع قيمة من المنسوجات والجياد والمصنوعات المعدنية الممتازة مثل السيوف والدروع . وربما كانت معلومات علاء الدين محمود أقل من المغول ، ولكنه لم يخشاهم فكان لديه جيشاً جراراً يقدر بحوالى ٤٠٠٠٠ مقاتل .

وفي ربيع عام ١٢١٩ ، أصدر جانكيزخان^(١) أوامره إلى قبائله بالتجمع في الجنوب الغربى أى عند منابع نهر « أرتش » . وتجمع في هذه البقعة ما يقرب من ربع مليون رجل ومعهم تجهيزات أحسن مما كانوا عليه في أى وقت مضى ، فتواجد مع كل رجل ثلاثة خيول ، كما كان هناك قافلة من المدفعية المحملة على ظهور ثيران التبت الضخمة . ولكى يحول الخان الأنظار عن تجمعه ، أرسل قوة بقيادة « جوجى » في اتجاه السهول السفلى لنهر « سير داريا » حيث نهبوا الأراضى المنخفضة الواقعة بين صحراء « أ.كوم » وسلسلة جبال « الأتو » ، وإعتقد الشاة أن هذا هو الغزو الرئيسى ، وأرسل ابنه « جلال الدين » لتسديد ضربه لهذا الغزو ، وناوشه المغول ثم إختفوا خلف حشائش السهل التى إندلعت فيها النيران . وتحير الشاة ولكنه خدع بهذه العمليات وقام بدفع قواته على طول خط نهر « سير داريا » ، وبذلك لم تعد دفاعات الخوارزميين قوية في أى مكان . وهذه الفرصة قد تمناها جانكيزخان وقد إستغلها عندما بدأت العمليات الفعلية . وبدأ المغول زحفهم في الخريف ، وقد أعترض طريق تقدمهم أعلى جبال في العالم وهى هيمالايا ولذلك تحرك الجيش المغولى الرئيسى في اتجاه الغرب في مسيرة طويلة وشاقة إلى بوابات « زونجاريان^(٢) » ولكى يبقى الرجال على أجسادهم دافئة إرتدوا جلد الغنم مع تناول « السكومس^(٣) » .

ولخداع العدو طبقاً لاستراتيجية « السكاشة » ، أرسل جانكيزخان مجموعة من ٢٠٠٠٠ رجل بقيادة « شيبى نويون » للالتفاف حول الجبال والاقتراب من مقاطعات الخوارزميين من اتجاه الجنوب الشرقى أى من « كاشجار » حتى « خوجنت » . وكان توقيت وتنسيق

(١) كان يبلغ من العمر في ذلك الوقت ٥٦ عاماً .

(٢) المر المؤدى إلى داخل شمال التركستان .

(٣) لبن أنثى الخيل بعد تخميرة

أعمال المنول دقيقة لدرجة أن القوتين^(١) وصلتا إلى نقطتهما المختلفة على الحدود الخوارزمية في شهر يناير وفبراير عام ١٢٢٠ .

وقد شككت مجموعة « شيبى نويون » تهديداً مباشراً لمدينتين خوارزمتين رئيسيتين وهما « طشقند » و « سمرقند » في المنطقة الغربية من « توكستان » . ورد الشاة على ذلك بتحريك قوات إضافية إلى الجنوب ، وفي نفس اللحظة عبر جانسكيزخان ومعه القوة الرئيسية الحدود الشمالية في ثلاث أرتال .

وفي فبراير ظهر على الجانب الأيسر للشاة رتلان قوة كل منهما ٣٠.٠٠٠ مقاتل بقيادة « جوجى » و « جاجاتاي » وشرعا في العمل أسفل نهر « سير داريا » مدمرين القوات المتفرقة للخوارزميين عن آخرها ، مواصلين زحفهم بعد ذلك للانضمام إلى قوة « شيبى نويون » . في نفس الوقت تحرك الرتل المتبقى وقوته ٤٠.٠٠٠ بقيادة « جانسكيزخان » جنوباً إلى بوخارا ، وكان السبب إكتشاف عبوره إلى صحراء « كيزلكوم » فكان رتلى « جوجى » « وجاجاتاي » يحجبانه . ولم يعلم الشاة عن ذلك إلا في أوائل أبريل بعد أن خرج الخان وقواته من الصحراء في الجنوب حيث أستولى على « نوروتا » ثم أقرب من « بوخارا » . وفي ١١ أبريل أستولى على « بوخارا » . وقد ذهل الشاة من هول المفاجأة ، فقد حوصرت قواته بواسطة ثلاثة أرتال تجمعت من ثلاث اتجاهات ، كما قطعت إتصالات الشاة مع مقاطعاته الغربية ، وفر هو شخصياً في اتجاه الغرب ، بينما أعيد تجمع المغول عند « سمرقند » .

وحملة جانسكيزخان قد توجهها النجاح الكامل . وكان جوهر إستراتيجية هذه الحملة يكمن في خفة الحركة الغير عادية ، والتنسيق البارع لتحركات أربعة أرتال كل منها يستر ويكمل الآخرين ، وقد فوجئ العدو في كل قتال بقوات متفوقة . وإستغرق الأمر وقتاً طويلاً لقمع أمبراطورية الشاة ، فقد قام « سابوتاي » « وشيبى نويون » بمطاردة الشاة نفسه ليل نهار حتى انتهى به المطاف على إحدى جزر بحر قزوين ، حيث توفي . أما بقية حملة المغول فقد سارت ببطء غرباً ، يستولون على المدن الواحدة تلو الأخرى . وكانت السياسة

المتبعة هي سياسة الإرهاب والرعب . وأعلن جانكيزخان نفسه في جميع المساجد بأنه « سيف الله » .

وفي الإمبراطورية الخوارزمية لم يبق المغول إلا على الأفراد الفنيين والخبراء أو ماشابه ذلك ، وما عدا ذلك من السكن والحضارة فكان نصيبها الإبادة ، وعندما لم يتبق بشر ذبح المغول الحيوانات . ولكن بالرغم من ذلك كانت المقاومة شديدة والتي استمرت حتى ديسمبر ١٢٢١ عندما فقد « جلال الدين » الإبن الشجاع للشاه آخر قواته في معركة عند نهر السند . في نفس الوقت إلتف كل من « سابوتاي » و « شيبى نويون » حول بحر قزوين عبر القوقاز في اتجاه نهر الدنيبر وأوروبا قبل أن يستدعيهما جانكيزخان . وأثناء عودتهم للوطن أتموا أكبر حملة فرسان في التاريخ بشق طريقهم بصعوبة ، عابرين شرقاً وجنوباً خلال أراضي القبائل الروسية الرحل .

القائد تيهور المغولي

وبعد أن فتح جانكيزخان المنطقة الواقعة بين التبت وبحر قزوين والخليج الفارسي قرر العودة إلى أرض الوطن ، لأنه إعتقد أنه لم يعد هناك مناطق أخرى ليفتحها ، ولكنه في الحقيقة خاض حرباً واحدة أخرى عندما تحرك ليخمد ثورة « هيسا » ومنها إلى جنوب الصين . وقد توفي جانكيزخان عام ١٢٢٧ ، وقد جعل من نفسه وبقوته الشخصية حاكماً مطلقاً للسلالة العسكرية ، فقد أستطاع قهر أعظم إمبراطورية في العالم التي إمتدت من الخليج الفارسي إلى المحيط الهادى ، ومن غابات سيبيريا إلى جبال هيمالايا . ولا يوجد أى خطأ في سجله العسكرى ، وبالتأكيـد كان قائداً عظيماً شأنه في ذلك شأن أى قائد أو زعيم عظيم آخر سجله التاريخ ، إلا أنه وحشياً وبربرياً ، ومن أشرس الشخصيات في تاريخ عصره ، وليس هناك فائدة من محاولة إخفاء الحقيقة . وقد كان مغرماً بالسيطرة وليس بالحضارة ، وعندما لا يروق له شيء يدمره على الفور . ومن ناحية أخرى ، فإنه كان من المستحب أن يكون المرء مغولياً في عصر جانكيزخان . وقد قال جانكيزخان : — « إن قمة السعادة للإنسان عندما يهزم أعداءه ويدفعهم أمامه » .

وكان له صفات سياسية خلاقة ، فقد قام بتوحيد القبائل المتوحشة ، ووضع لها قوانين

عادلة ، وعلى أى حال فقد تلت موجة غزوات المغول المربعة موجة من السلام فى آسيا ، وتميزت بالتسامح الدينى والعنصرى ، ومواصلات سهلة وطمأنينة إقتصادية . وفى عهد « أجوتاي »^(١) ، عاد « سابوتاي » إلى أوروبا ، وإكتسح فى حملات بارعة^(٢) أوروبا حتى الأدریاتيك وبولندا . وبعد عام ١٢٤١ انسحب المغول من أوروبا فيما عدا روسيا . وتميز عهد « كوبلاي خان »^(٣) بأكبر توسع للسيطرة المغولية . ولكن بعده بدأت الامبراطورية المغولية فى الانحلال . ومع حلول النصف الثانى من القرن ١٤ ، ظهر فاتح مغولى كبير آخر وهو « تيمور » الذى إستعاد السيطرة على جنوب آسيا غرب جبال الهيمالايا . ولكن بعد ذلك لم يظهر من بين فرسان المغول قائداً آخر مطلقاً ، وعادوا بسرعة أقل قليلاً عما ظهروا بها ، إلى خمولهم وضآلة شأنهم الأصلية .

الأمة المحبة للسلام

نأتى الآن إلى الصينيين ، وقبل دراسة أسلوبهم فى الحرب يجب علينا أن نعرف بعض الشئ عن الملايين المحتشدة التى تعيش فى هذه الدولة الشاسعة ، أنه جنس يبلغ تعدادهم اليوم حوالى ربع سكان كوكبنا والذى يحتل رقعة من الأرض أكبر من أوروبا ، ويتكون من شعوب مختلفة كثيرة وتتحدث لهجات محلية مختلفة مع كل مدينة وكل مقاطعة على أرض هذا البلد ، وللصين حضارة عمرها آلاف السنين قبل مولد المسيح . وليست الصين الحقيقية هى الصين ذات الموانى والمعاهدات السابقة ، التى جعلها الأجانب عملياً ملكهم ، ولا هى المدن الكبرى ، ولكن فى الحقيقة هى الأرض التى تضم آلاف القرى المتناثرة فى جميع أنحاء الدولة ، والأسرة هى الوحدة الأصلية ويأتى بعدها القرية .

والتاريخ السياسى للصين فى الأيام الغابرة إنما هى قصة طويلة من أعمال النزاع الداخلى والعصيان ، مما أدى إلى ضعف الدولة فى صراعها المتصل لحماية حدودها ضد القبائل الرحل القادمة من الشمال والغرب . ولكن القرون المتعاقبة من القتال على الحدود أحدثت تغييرات

(١) أبى جانكيزخان

(٢) تشابه تقريبا حملات جانكيزخان

(٣) حفيد جانكيزخان

هامة فى التنظيم العسكرى ومهارة عسكرىة معينة لهذا الشعب . وهذا ما سنراه عندما نبسط قصة هذا الشعب .

نستطيع أن نلخص صفات هذا الشعب الضخم المتنوع بفاء عما جاء فى تاريخهم القديم بأنه شعب فى جوهره « محباً للسلام » ، وكان هناك مبرر قوى لتفضيل الصينيين للسلام ، فكانوا فى قارة آسيا يحتلون منطقة غنية وصالحة للمعيشة . وفى تاريخهم المسجل الذى يصل إلى ثلاثة آلاف سنة ، إندلغ الكثير من الحروب ، ولكنها كانت حروب ترجع إلى وجود أعداء طامعين على حدودهم مثل المغول أو الثورات بسبب عدم الاستقرار السياسى . وقد كان الشعب الصينى شعباً خلاقاً فى فنون السلم وليس فى فنون الحرب ، فكانت دياناتهم الكبرى « الكونفوشيوسية » و « البوذية » و « الطاوية » ، كلها أساسها المحبة والسلام . وفى اناواق فإن حبهم التقليدى للسلم إزداد بالتدريج رسوخاً ، مما أدى أنهم لم يذكروا إلا القليل فقط من الجانب الحربى فى تاريخهم . وإن أقدم الحقب التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة تاريخ الصين هى تلك الحقبة الخاصة بحكم سلالة « شو » (من عام ١١٢٢ إلى ٢٥٦ ق . م) . وقد كان المجتمع الصينى القديم مجتمعاً إقطاعياً . وكان طبقة النبلاء والكبار يستحوذون على ولاء وخدمات جميع الفلاحين الذين على أرضهم فى السلم والحرب .

وكانت الحروب التى سمع عنها قبل عام ٥٠٠ ق . م . ذات صفة « بطولية » تذكرنا بحروب الإغريق القدماء التى صورها « هوميروس » . وتوفر للأرسطقراطيين وقت فراغ ليقيموا فيه المباريات الحربىة ، وخاصة الطبقات الأدنى من هذه الطبقة التى يطلق عليهم « شيه » وكانوا شبيهين بأبطال « هوميروس » ، وفرسان القرون الوسطى ومغامروا الهنود الحمر .

وإن مجرد وجود عرف بآداب وقواعد الحرب لدى الصينيين والذى يطلق عليه « لى » ليشير إلى أن الحرب لم تكن أمراً خطيراً ، بل كان قتالهم مجرد التسليمة أو الشرف أو التفاخر . وقد أستهجنوا التكتيكات الدنيئة مثل مهاجمة العدو أثناء عبور النهر أو إقتناص

خصم أكبر سنًا . وفي عام ٦٣٢ ق . م تحدى أحد جنرالات « شو » ، حاكم مقاطعة « تش » فقال : —

« هل تسمحوا سعادتك بمباراة بين فرساننا وفرسانكم ؟ » . وتذكرنا هذه الطريقة بـصور القتال الذي ذكره « هو ميروس » عن الأغريق . وكان البطل الإرسقراطي يتجه للمعركة مكسوا بدرع من الجلد راكبا عربة قتال ذات أربعة خيول ، وكان سلاحه قوس قوى ، ويرافقه سائق للعربة ، وأحيانا يصحبه حامل رمح أيضا ، ويتبع كل عربة سرية من الجنود المترجلين والمسلحين بأسلحة خفيفة .

ومن المرجح أن هناك تغييرات هامة حدثت في أوائل القرن السادس ق . م ، وأدى تهاوى أسرة « شو » إلى نزاع على السلطة بين النبلاء الكبار ، في نفس الوقت كان يتطلب منهم صد غارات القبائل المعادية على الحدود ، وسوف يتكرر مثل هذا الموقف في تاريخ الصين . وعرفت الفترة من ٤٠٣ إلى ٢٢١ ق ، م بفترة « الحرب بين المقاطعات » . وكانت الحرب في ذلك الوقت آبتعدت عن طابع التسلية وأخذت طابع الجد رهيب . وبقيت العربات الحربية لبعض الوقت كأقوى قوة ضاربة ، إلا أن المشاة التي كان أغلبها من الفلاحين الصليبي العود أخذت تزداد أعدادها بشكل كبير حتى أصبحت لها أهمية تكتيكية كبيرة .

وقد قاتل الجنود المترجلين بالرمح والسيوف القصيرة والأقواس والسهام . وأدى ظهور الحديد في حوالى هذا الوقت إلى إدخال التحسينات على الأسلحة والدروع . وفي عام ٢٤٩ ق . م سقط حكم أسرة « شو » ، وتولت أسرة « تشن » السلطة . وتحتم على الصين توحيد جبهتها لمواجهة الأعداء الخارجيين ، ولهذا كان يجب عليهم القضاء على النظام الإقطاعي . وأصبحت الصين آنذاك أمة تحت السلاح ، ووجد الإمبراطور « شى — هونج — تى » جميع أجزاء الدولة المختلفة في إمبراطورية في عام ٢٢٨ ق . م . أما شعب مقاطعة « تشن » على الحدود الشمالية الغربية ، فقد تعلموا دروسا كثيرة من القبائل المجاورة حتى تشربت دماهم بالطابع القبلي لدرجة أن الشكل القبلي للفروسية تجلى واضحا في الحرب الصينية بشكل بدأت معه العربات الحربية في الإختفاء تدريجيا .

رسالة صن — تزو

وشهدت نفس الفترة تطوراً في التحصينات وأعمال الحصار . وكانت أجهزة الحصار هي المنجانيق وسلالم التسلق وغيرها . وظهرت في هذه الفترة التحصينات ذات القوة الرائعة ، ومن أشهرها سور الصين العظيم والذي أمتد في أجزاء منه فوق الجبال وعبر الممرات الضيقة ، ولمسافة ١٦٠٠ ميل على طول الحدود الصينية المتاخمة للقبائل الرحل جنوب صحراء جوبي . وبشكل عام فكان عرضه عند القاعدة حوالى ٢٥ قدماً و ١٧ قدماً عند القمة ويصل إرتفاعه ما بين ٢٥ إلى ٣٠ قدماً ، وترتفع شرفات إطلاق القذائف خمسة أقدام فوق السور ، كما توجد على إمتداده أبراج على مسافات منتظمة . وتقول الأساطير أن الإمبراطور « شى - هونج - تى » من أسرة « تشن » (٢٤٦ — ١٠ ق . م) هو الذى بنى هذا السور . ونظراً لأن الصينيين كانوا بناء عظاماً للمدن ونظراً لآتخاذهم باستمرار موقف الدفاع فى حروبهم ، فقد بنوا كثيراً من التحصينات الكبيرة .

وهذه الحصون ، كما ذكرنا آنفاً هى التى صدت المغول بعد ذلك بألف عام . أما حصون المدن التى تشيدت فى عهد أسرة « منج » (١٣٦٨ - ١٦٤٤ ميلادية) فكانت أكبر حجماً وفيها الكثير من مئيلتها الأوروبية فى ذلك الوقت . وعلى سبيل المثال فكانت أسوار مدن « نانكنج » و « سيان » و « تسينان » يصل عرضها من ٥٠ إلى ٧٠ قدماً ، وإرتفاعها ٧٠ قدماً فى بعض الأماكن ، ولم تكن البوابات قوية بدرجة كبيرة ولكن كان يحمىها عدد كبير من الجنود . وقد فحست بنفسى أجزاء من سور الصين العظيم سيراً على الأقدام وقت بدراسة تحصينات كل من « نانكنج » و « سيان » .

ومنذ حوالى عام ٥٠٠ ق . م ، عبر « صن — تزو » عن الخبرة الصينية العسكرية فى رسالته العسكرية الشهيرة والتى كان اسمها « فن الحرب » . وكان « صن — تزو » ضابطاً ناجحاً ويرجح أنه وصل إلى رتبة عالية ، ولكنه لم يكن قائداً بارعاً . ويتألف كتابه من ١٣ فصلاً ، كل منها يحتوى على عدد من الحكم والمبادئ . ومن الجدير بالملاحظة وبصرف النظر عن أهمية الكتاب العسكرية ، فإنه يعتبر من أعظم الأعمال الأدبية الصينية الكبيرة . وظل هذا الكتاب لمدة ٢٥٠٠ عاماً يفتن أعظم العقليات الصينية . ومن بين الكثيرين^(١) الذين

كتبوا تعليقات عليه « توفو » أحد كبار شعراء عهد « تانج » . ونجد أن الجمل في هذا الكتاب محكمة ، وفي بعض الأحيان مبهمة ، وفي أحيان أخرى بسيطة بدرجة مخادعة ، ولكنها دائماً حافلة بالحكم العسكرية المدروسة والتي لم يحاول الأوروبيون تعلمها حتى عصر نابليون . وتبحث رسالة صن - تزو في أسس الإستراتيجية واستيادة ، وتناقش الاعتبارات التي يجب أن يضعها القائد في ذهنه عند بدأ أى حملة سواء أ كانت عوامل سياسية عريضة أو خاصة بالأمداد ، وأيضاً التحركات الإبتدائية . ويوضح هذا البحث أن الهدف الاستراتيجي الصحيح هو الإسراع بتحقيق الهدف السياسي من الحرب ، وتحقيق السلام المضمون ، وليس الهدف هو الحرب الطويلة المدمرة . ويجب الحصول على النصر بأقل التكاليف في الأرواح وبأقل تدمير ممكن ، ولذلك يبرز أهمية المخابرات أو « المعرفة المسبقة » .

وإذا كانت الخدع الحربية ستساعد في تحقيق الهدف ، فيجب عدم أغفالها . ويبدو أن الصينيين مثل المغول كانوا مغرمين على وجه الخصوص بالحيل ، والتي تضمنت إستخدام النار ، مثل إشعال النار في الحيوانات وإرسالها نحو العدو . وأعطى « صن - تزو » قيمة كبيرة للقائد المستقيم المتكامل ، إلا أنه كان يسلم في النهاية بأن « كل الحروب مبنية على أساس الخداع » وتذكرنا هذه الفقرة بسياسة نابليون في خداع وتضليل العدو ، الأمر الذي ظهر بوضوح في تكتيكاته عند « أوستر ليتز » في ديسمبر ١٨٠٥ . ومهما كان الأمر ، فلا يوجد أمامي دليل على أن نابليون درس كتابات « صن - تزو » . وقد خصص « صن - تزو » فقرات كثيرة من كتابه للتحركات فوق الأنواع المختلفة من الأراضي ، وكيفية إستخدام الأرض ومعرفة المواقع الضعيفة والقوية لدى العدو . وكان يرى الحرب على أنها صراع بين القيادة : — « القائد البارع هو الذي يفرض إرادته على العدو ولا يسمح للعدو بفرض إرادته عليه . »

وقد أورد « صن - تزو » في كتابه بعد الملاحظات السيكلوجية التي تتسم بالتبصر عن العلاقة بين الضباط والجنود ، مثل كيف يعرف القائد العلامات التي توضح حالة الروح المعنوية بين قواته وظروفهم . والجمل الآتية تبين السمة المميزة لحكمة « صن - تزو » وهي جزء من نصيحة يوصي بها القائد : —

« إن قرار القائد يشبه بالضبط التوقيت الجيد والصحيح لإقتضاض الصقر على ضحيته

ليضربها ويقضى عليها». وكنت أتمنى التحدث مع « صن- تزو » ، ومن المؤكد أننا كنا سنتلاقى في الكثير من وجهات النظر في موضوع إدارة الحرب كما أنه كان متفهماً للعامل الإنساني . وقد درس ويفل آراء سقراط (٤٧٠ — ٣٩٩ ق . م) وكان يناقش دائماً ويؤكد ما وضعه هذا الرجل الحكيم بالنسبة للشئون الإدارية ، وكان ويفل يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الشئون الإدارية من النقط الرئيسية والحقيقية في فن القيادة وإنها تأتي قبل التكتيك . وإنني لا أعتقد أنه قد درس « صن- تزو » . وعلى كل فوجهات نظر سقراط وويفل ذات أهمية كبيرة لي . وقد تعودت أن أفكر وأنا في الصحراء عامي ١٩٤٢ — ١٩٤٣ أن روميل كان سيء الحظ في أنه كان مجبراً في أغلب الأحيان على القتال في الوقت الذي لا يتناسب مع شئونه الإدارية في الحلف ومع ما يرغب في إنجازه في المعركة في المنطقة الأمامية ، ذلك بسبب القصف الجوي للحلفاء الذي أغرق السفن التي حملت له المؤن والوقود عبر البحر المتوسط .

حرب الافيون

وتشهر فترة ١٤٠٠ سنة التالية لسقوط أسرة « شو » بأنهم — أنجبت بعض الجنود الممتازين في الصين ، وعلى وجه الخصوص في فترات الحروب الأهلية والتي حدثت أثناء سقوط وإرتقاء الأسرة الحاكمة . ولكن الصعوبات التي تكثف البحث التاريخي لما يجري في تلك الأيام يجعل من الصعوبة الكتابة عنها بشكل مرضي وقد قيل أن « يوشى » قد خدم أسرة « تشن » كقائد عسكري نظامي لمدة ٣٥ عاماً أي فيما بين عام (٢٩٤ — ٢٦٠ ق . م) وكانت أهم أعماله هي إفتصاره على جيش « شو » المكون من ٤٥٠.٠٠٠ مقاتل عند « شانج بنج » . وفيما بعد جرد من رتبته وأُنزل إلى رتبة جندي وذلك لرفضه قيادة عملية غزو كان يعرف أنها سوف تفشل . ومن الشخصيات المشهورة الأخرى كان « شانج شين » و « هان هسين » و « تسو كونج » . وأصبحت الصين تحت حكم أسرة « هان » قوة ضخمة متحدة ، وخصوصاً في العهد الزاهر لـ « ووتى » (١٤٠ — ٨٦ ق . م) ، ثم مرة أخرى بعد ذلك تحت حكم أسرة « تان » في القرن السابع الميلادي .

ولكن لا يوجد دليل على أن فن الحرب الصيني ، قد تطور تطوراً هاماً أبعد من المرحلة

التي وصل إليها تحت حكم أسرة « تشن » ، فقد كان الميل العام نحو السلام يزداد رسوخا ، كما أن التوسع كان يتم بالمحالفات والإلتقاء الحضارى أكثر من أن يتم بقوة السلاح . وقد غزا المغول الصين فى القرن ١٣ وواجهتهم مقاومة عسكرية ضعيفة فهزموا الصينيين بسهولة . وبمجرد إستقرار المغول فى الصين ، أخذت صفاتهم وشخصيتهم العسكرية تقل نتيجة للسكره العميق والمتأصل فى الحضارة الصينية لكل شىء عسكرى . وبالرغم من أن الجيوش المشتركة من المغول والصينيين قد أعتدت على اليابان وبورما وجاوة فى عصر « كوبلاى خان » (١٢٥٩ — ١٢٩٤) إلا أنها لم تنجح فى النهاية . وفى عام ١٣٦٨ طردت أسرة « مينج » المغول .

وقد أدت فتوحات المغول إلى فتح أول طرق الإنصال بين أوروبا فى القرون الوسطى والصين ، إلا أنه من وجهة نظر التاريخ العسكرى فإن أول إنصال هام حدث عندما وصل البرتغاليون إلى بحار الصين فى نهاية القرن ١٥ . وفى عام ١٥١٧ وصل أسطول برتغالى إلى ميناء « كانتون » حيث أطلقت مدافعه طلقات لتحية الميناء . وقد بدأ الصينيون إستخدام البارود منذ القرن العاشر ، ومن المعروف أنهم إستخدموا المدافع عام ١٣٥٦ . ولكن فى القرن ١٥ ، جاء التفوق الأوروبى التكنولوجى الكبير المفاجىء فى مجال المدافع والسفن ليضع الأوروبيين فى المقدمة بكثير على الآسيويين فى إدارة الحرب . وقد أستجاب الصينيون لهذا التقدم بتشكك بعض الشىء ، وبالرغم من علمهم بضعفهم الحربى فى مواجهة العالم الخارجى ، فقد أصروا على مبدأ السلام ، وتجاهلوا بقدر الإمكان الموقف الجديد فى أوروبا ، ومؤمنين أنفسهم خلف ستار من الخوف من الأجانب وكذلك خلف ستار من العجرفة الثقافية . ومن ناحية أخرى فقد حاولوا بجدية إكتشاف السر العسكرى لأوروبا لكي يصلوا إلى مستواهم . وكانوا دائما على إستعداد لدفع أى ثمن من أجل المدافع . ولفترة من الوقت كانت سياسة أوروبا هى عدم البوح بسر تفوقهم الفنى ، ولكن كان يمكن دائما العثور على رجال يبيعون الأسرار ، وفى الواقع قد علم « الجزويت » الصينيين صناعة وإستخدام الأسلحة النارية . كما قام الأب الإيطالى « الفونسو فاجنوتى » (١٥٦٦ — ١٦٤٠) بتعليم « هان لين » ، والذي كتب بحثين عن إستخدام الأسلحة النارية . وفى أربعينات القرن ١٧ ،

أقام عضو الجزويت الألماني « تشال » مسبك للمدافع بالقرب من القصر الإمبراطوري بشرط أن يسمح له بمتابعة عمله التبشيري . ومع ذلك كان الصينيون بطاء في فهم وإتخاذ الفنون الغربية للحرب . لم يرغب هذا المجتمع المحافظ المحب للسلام والذي يتكون من الحكماء والفلاحين في التحول إلى الصناعة من أجل القوة العسكرية فحسب . وأخذ رد الفعل السلمي يزداد مع زيادة الإتصال بالأوروبيين .

وفي القرن ١٧ كتب الأب « ريكي » : — « كانت العسكرية أحد الأوضاع الاجتماعية التي تاتي كل إحتقار بينهم . » وكان ينطبق نفس الشيء على البحر والبر ، فكانت سفنهم الشراعية المعروفة باسم « الينك » صالحة للأبحار والملاحة في جميع الأجواء، ولكنها لم تكن سفينة صالحة للحرب ، ولم يقدر لها أن تستخدم لذلك . وفي نهاية القرن ١٦ أقتنع الصينيون بوضع مدافع على سفنهم ، ولكنهم لم يجروا التعديلات المنطقية الضرورية لذلك . وقد علق البرتغالي « جرونيمو رومان » على ذلك بقوله : — « كانت مدافعهم رديئة الصنع بدرجة أن الطلقة لم تستطع إختراق الدرع العادي ، وهذا بالإضافة إلى أنهم لا يجيدون التصويب » . وأستمر هذا الوضع حتى منتصف القرن ١٩ ، والصينيون لم يكن لديهم الرغبة فقط بل كانوا غير قادرين على القيام بحرب حديثة . وفي النهاية وبتأثير العدوان الجشع للقوى الأوروبية وخاصة بريطانيا وجد الصينيون أنفسهم مجبرين على تحويل فن حربهم ليكون غربيا . وقد أدى الذل الذي عاناه الصينيون في « حرب الأفيون » ضد بريطانيا ، إلى إيقاظها ومعرفة الواقع مع دفعها إلى تقليد الغرب . وكلمة أخيرة عن الصين اليوم ، فكانت مشتاقا ومهتما بالقراءة عنهم لأعرف إلى أي مدى وضعت الحرب سماتها على تاريخهم ، وخاصة أنهم بطبيعتهم شعب غير محب للحرب . وكانت الصين أمة تقتضي تقاليدھا القديمة إلى تقدير طبقة المحاربين تقديراً تافهاً إلا أنها اليوم تبدو وقد كرسست موارد هائلة ووقت كبير وجهد ضخم للقتال . ومن ملاحظات الشخصية على الصينيين فيوجد في تركيبهم إتحاد غريب ، فهم شعب صناعي يتسم بالصفاء الشديد في مجموعه ، ولكن هناك البعض منهم يميل إلى المشاكسة وأشك في أن أي مؤرخ لأي دولة قد سبق له ودون بأن سباحة زعيمهم في نهر كبير ، هي عامل من عوامل الزعامة !!

وقد فقد الملك جون أمتعته في نهر « واش » ولكن هل سباح كرومويل في نهر التايمز وبسرعة ٩ أميال في الساعة ؟ وأنه لمن المثير أن نفكر لماذا تفرط الصحف الصينية في الأطراء على سباحة الرئيس « ماو » ، وهي نوع من الرياضة البدنية والتي لم تكن شهيرة في المعتقدات الصينية وكأحدى العلامات التي توضح البراعة والحيوية في الزعيم .

وقد قمت بنفسى بالسباحة مع « ماوتسى تونج » في نهر « يانجتسى » في سبتمبر ١٩٦١ ، وبقدر ما أذكر فقد سباح لامتعة وكل ما فعله تقريبا هو الطفو فحسب مع التيار وهذا أقصى ما يمكن أن يفعله في مثل سنه . ويوجد تضارب غريب في مكان ما . . . إلى أين تتجه الصين . . ؟ . . أنه حقا للغز . . لغز صيني . . .

(أنظر اللوحة رقم ٣٨)

اليابان وفن الحرب

وأخيراً نأتى إلى اليابان . . . فبينما الحضارة الصينية قديمة قدم الزمن ، وليس معلوما بالتأكيد من أين أتت أصل هذه الأمة . . ؟ إلا أننا سوف نجد أنفسنا عند دراسة اليابان متأكدين من المعلومات الحقيقية . فقد جاء اليابانيون من الهضبة العليا للقارة الآسيوية حيث وجدوا هذه الجزر يحتلها « الأينو »^(١) . ودار صراع في الجنوب مع هذا الشعب إتهى بإخضاعه وهروبه إلى موطنهم الحالى في أقصى الشمال في جزيرة « هو كايدو » . ولم يتم إخضاع هذا الشعب بشكل نهائى إلا في حوالى عام ٨٠٠ ميلادى . وقد نتج من هذا القتال القاسى المستمر عبر السنين سلالة يابانية عسكرية تتصف بالنظام الصارم والضبط والربط ، ومن المرجح أن ذلك كان نابعا من أصلهم وتعاليمهم المغولية .

وعبر التاريخ اليابانى كانت العلاقات مع كوريا وثيقة ، وقد جلبت سلسلة من الهجرات من هذه الدولة إلى غربى اليابان عائلات ومجموعات والتي كانت غير راضية عن الحياة في موطنها الأصلى ، وقد وصلت الحضارة الصينية عن طريق كوريا ، والتي بدأت بالحضارة البرونزية ثم بعد ذلك الحديدية . وبالتالي فقد أكتسبت هذه الدولة الأسلحة والأدوات الحديدية ، مما زاد من قوتها العسكرية مع تحسن طرق الزراعة بها . ومع ظهور النظام الإقطاعى ، إنتشرت دراسة علم الحرب بشكل سريع ، وإتجه الشعب اليابانى نحو الصين للاستفادة بكثير من

فنون الحرب ، وبالتدرج أخذوا يحسنوا ويطوروا هذه العلوم المستوردة. وبما أنهم من شعوب الجزر ، فقد قاموا بعملية تطوير لموهبتهم الطبيعية القوية في الأعمال البحرية .

ويتناقض تاريخ اليابان مع تاريخ الصين في أن الحرب كانت دائماً عنصراً بارزاً ، وكان ذلك إلى حد كبير نتيجة للبيئة . وتمتد مجموعة جزر الأرخبيل اليابانية لأكثر من ١٠٠٠ ميل ، ولكن الجزء الأكبر من الأرض كان جبلياً ومجدياً . ويمكن أن يعزى إلى حد بعيد ، كثرة الحروب بين سكانها إلى التنافس من أجل المناطق القليلة من الأراضي الصالحة لزراعة الأرز . ولم يحد التأثير السلمى للبوذية في اليابان من الشعور بالحاجة إلى القتال . وهناك عامل ثان رئيسي وهو أن الجزر تزرع بالموافى الطبيعية الجيدة . ولهذا أصبح الشعب الياباني من البحارة وسكان الجبال الحشنين وعودهم صلب . وقد أدت الرياح والتيارات السائدة في بحر الصين ، إلى صعوبة الإتصال مع الأراضي الآسيوية الرئيسية ، بالرغم من أن اليابانيين كانوا دائماً يهتمون بشبه الجزيرة الكورية ، للمحافظة على نفوذهم هناك ، ولمنع إحتلالها بواسطة القوى المعادية الكبرى وخاصة الصين . وعلى العموم فقد طور المجتمع الياباني نفسه في عزلة عن العالم وبشكل مميز في إتجاه عسكري قوى . وفي القرن الأول ق.م كان يوجد في اليابان حوالي مائة قبيلة . وفي هذا الوقت بدأ رؤساء القبائل الطامعين في إستيراد السيوف الحديدية والدروع من الصين . وأستمر التنافس بين القبائل ، ولكن في القرن الرابع الميلادي نجح شعب « كيوشو » في إخضاع باقي العشائر ، وأنشئت حكومة مركزية في « ياماتو » والتي تقع في الجزيرة الرئيسية . وفي عام ٣٦٩ تم غزو كوريا الجنوبية بنجاح ، وفي عام ٣٩١ تقدمت القوات اليابانية شمالاً حتى « بيونج يانج » . وعلى أى حال فكانت هذه الفترة هي الذروة بالنسبة لليابانيين ، لأنه بعد ذلك بوقت قصير انسحب اليابانيون من كوريا ، ولم تظهر قوتهم العسكرية لمدة ١٢٠٠ سنة . وخلال القرون القليلة التالية فكر حكام « ياماتو » في مدحهم على كل شعوب مجموعة جزر الأرخبيل ، وتذكر الأساطير أن هذا الوقت كان عصر طويل من الفوضى والإضطراب . وبإنهاء هذه الفترة ، ظهر أسلوب عسكري ياباني مميز ، وفي عام ٧٠٢ أعلنت قوانين محددة لإنشاء جيش دائم كفاء . وكان المقاتل الياباني القديم فارساً أرسقراطياً ، مدرع تدريباً قوياً ويمتطى ظهر جواده ، وبالرغم من مرافقة الأتباع

للفارس إلا أنه كان يقاتل بمفرده . وكان سلاحه الرئيسى هو القوس .

أما فى القتال المتلاحم فكان يستخدم السيف . وفيما بعد فى القرن الثامن ، وتحت تأثير البوذية تواجدت إتجاهات لرفض إستخدام السلاح بين الطبقات العليا ، وبذلت محاولة لتنظيم الفلاحين كاحتياطى ضخيم للدفاع القومى ، على النمط الصينى . إلا أن هذه المحاولة فشلت لأستياء المجندين الفلاحين من هذا الأمر بالإضافة إلى إفتقارهم إلى المعدات ، وبالتالى فقد ألغيت هذه الفكرة وبدلاً من ذلك ، طلب من كل مقاطعة الإبقاء على قوة من الجنود النظاميين المدربين .

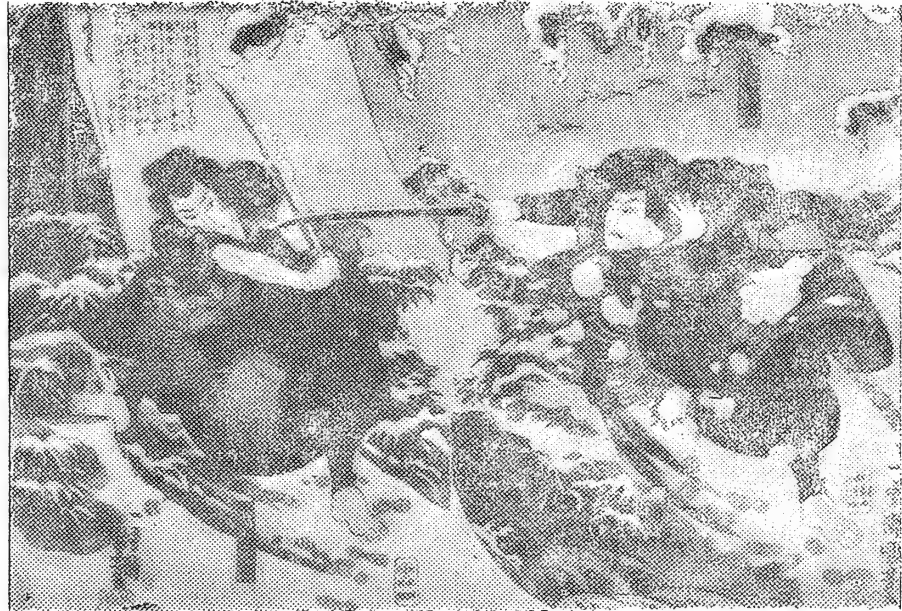
وعندئذ ، كان المقاتلون الحقيقيون يجلبون من الطبقات العليا . وبدأت عملية عزل الفلاحين وظهور الطبقات المحاربة فى اليابان تظهر بشكل متزايد وواضح . وفى القرن التاسع الميلادى دخل المجتمع اليابانى فى مرحلة طويلة من تطوير النظام الإقطاعى . فالحكومة المركزية الضعيفة كانت تعنى إستقلال الطبقة الأرستقراطية ، ويعنى أيضاً عدم الإستقرار لطبقة الفلاحين . فى نفس الوقت كان يجرى إعادة الإستيلاء على الأرض ، وأقوى الرجال هم الذين أستطاعوا إقطاع أرض خاصة لهم فى شكل مقاطعات ، وتركزت مظاهر التبعية والولاء حول الإقطاعيات الكبيرة بما فى ذلك الأديرة والعشائر ، وشكلت الحىوش الخاصة ، وإنطلقت المنافسات والإنتقام بدون قيد . وفى هذا المجال برزت عشيرتين على وجه الخصوص وفى مقدمة المتنافسين ، وهما عشيرة « التايرا » وعشيرة « الميناموتو » ، واستمر الصراع بينهما فى شكل حروب خاصة ومنتالية وثورات لمدة ٢٥٠ عاماً .

إلى أن أصبحت لـ « الميناموتو » السيادة على البر ، بينما تسمدت « التايرا » فى البحر . وأخيراً فى عام ١١٨٥ نجحت « الميناموتو » فى هزيمة « التايرا » فى البحر فى معركة « دان نويورا » فى مضائق « شيمونوسكى » ، وقد حشدت « الميناموتو » عدداً كبيراً من السفن واستغل قائدهم « يوشيتسن » عودة المد إستغلالاً بارعاً . وفقدت « التايرا » منذ ذلك الوقت القيادة واكتسحت « الميناموتو » كل ما يعترضها . وبعد عام ١١٩٢ أقام زعيمهم

« يوريتومو » نظام « الباكوفو »^(١) في « كاماكورا » . واتخذ لنفسه اسماً « شوجن »^(٢) . وظل الأمبراطور في مقره بمدينة « كيوتو » لا يزيد عن العوبة فقط .

ضميمة بشرية لآلهة الحرب

وعلى مدى قرنين ونصف من القتال المستميت فوق بلاد وعرة ، تعلم اليابانيون الكثير عن الحرب . وأصبح المحاربون يكونون طبقة لها إمتياز خاص ، وقد عرفوا بإسم « ساموراي » ، وكان سلاحهم الرئيسى هو القوس والذي اختلف حجمه تبعاً لطول الفرد ، ولكن كان أقصى طول حوالى ٧٢ قدم ، ويصنع من خشب البتش أو الخيزران مع لف حبل حوله . وعلى القوس فى الأهمية فى القتال السيف ذو الحد الواحد والمحدب قليلاً . ومع حلول القرن العاشر كان فن صناعة السيوف قد وصل إلى مستوى عال ، وفى القرن ١٣ وصل إلى حد الكمال على يد اثنين من مشاهير صناع السيوف وهما : — « مسامون » و « هوشيمتسو » اللذان قد ماسيوا متقنة التوازن مصنوعة من صلب ممتاز ومقوى . وكان « السامور » يكرس وقتاً طويلاً ليكتسب مهارة كبيرة فى إستخدام السيف .



اكتسب الساموراي مهارة فائقة فى القتال بسيوفهم المقوسة الحادة

(١) وهو شكل من أشكال الحكومات العسكرية

(٢) وهو القائد العام الذى يخضع البرابرة

وكان لديهم نوعان من السيوف ، سيف طويل ، طوله ٣ أقدام أو أكثر ومخصص للقتال ، وآخر أقصر لإستخدامه فى قطع رأس الضحية أو للانتحار به ، وكان السيف يعتبر مساوياً لروح المقاتل . وقد درب السامور على المصارعة اليابانية أيضاً ، وهى فن تعجيز أو صرع العدو ، بإستخدام كف اليد بأقل جهد عضلى لتحويل العدو إلى مجرد كتلة وقوة عاجزة عن الحركة .

أما الدرع الواقى للسامور فكان عبارة عن ثوب من الحديد والجلد متصلة ببعضها بأربطة من الحرير أو الجلد ، وخوذة معدنية ذات قرون ، وزينت بعض الدروع وطعمت بمعادن نفيسة . ولم يكن لدى اليابانيون أبداً خيول حرب أصيلة ، وأمتطوا فى المعركة خيولا صغيرة وقوية ، والتي كانت فى بعض الأحيان مدرعة . وعادة ماتضمنت الخطط التكتيكية على المفاجأة والكائن ، وفى أغلب الأوقات كان الجيشان يسعىان إلى معركة مفتوحة . وكانت كل حملة لابد أن تبدأ بقربان بشرى لآلهة الحرب . كما كانت هناك مراسيم ذات طابع خاص وقوى تميز معارك الساموراي ، وعلى سبيل المثال فإن علامة الإنقباه للانتقضاى على العدو كانت إطلاق سهم واحد متبوعاً بأنشودة تصدر بنبرة حادة .

وكانت الإشارات تتم بواسطة أعلام مزينة بصور مثل « التنين » ، وكذلك بقرع الطبول والأجراس . وقبل القرن ١٥ كانت المعركة تشابه مباراة ضخمة لمبارزات متعددة بالسيف . وكان كل سامور يختار خصما واحداً ، وعليه أن يعلن اسمه وألقابه ومآثره وربما يندد بعده . ثم يدخل الأثنان فى مبارزة حتى الموت دون تدخل أحد . وكان يعتبر شرفاً خاصاً للمقاتل الذى يكون أول سامور فى المعركة . وفى النهاية يقدم كل سامور رؤوس ضحاياه إلى قائده . ويتضح لنا من هذا أن فى هذه المرحلة من تطوره لم يكن لديهم أى تنظيم للفرق أو أى مناورات تكتيكية تقوم بها الوحدات ، فكان المقاتل الفردى هو كل شىء . ولهذا فإنه ليس بمستغرب أن هذا العصر لم يظهر فيه أى قادة يستحقون الذكر .

وظهرت مجموعة من مبادئ السلوك الفردى فى طبقة الساموراي وذلك للآداب الشخصية وللارتباط والإلتزام مع بعضهم ومع رؤسهم الإقطاعى ، والتي عرفت باسم

« ببوشيدو »^(١) ، وكانت تختلف عن تقاليد الفروسية ، والتي لم يكن بها تركيز قوى على الإحترام المطلق ، بعكس الساموراي فكان يصل الإحترام إلى درجة أن الساموراي يموت في سبيل سيده ، وكان عليه أيضاً أن يقاتل حتى الموت بدلاً من التسليم . وإذا حدث وأستسلم فيصبح هدفاً لأقصى أنواع الإزدراء ، حتى يصبح غير جدير بأن يعامل معاملة آدمية ، ولهذا السبب كانت معاملة اليابانيين لأسراهم في حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ سيئة للغاية . وإذا لحق هذا العار بالساموراي فيجب عليه الانتحار على طريقة « هارا كيري »^(٢) .

وأعتباراً من القرن ١٢ أصبحت الهارا كيري ظاهرة متزايدة وسائدة ، وأصبح ينتحر مئات من الساموراي معاً بدلاً من الإستسلام .

اليابان تصنع الدافع

وقد أثبت « يوريموتو » القائد المنتصر للميناموتو عام ١١٨٥ ، أنه رجل دولة عسكري جدير بالاعتبار ، فقد نجح في إقامة حكومة مركزية قوية في نفس الوقت احتفظ بالإقطاع الياباني في الصورة العسكرية .

ولذا كانت اليابان في القرن التالي قوية بالقدر الكافي لمواجهة المغول ، وكانت الأمة على أهبة الاستعداد عندما قام « كوبلاي خان » بأول غزو مغولي عام ١٢٧٤ . وقد قاوم اليابانيون لمدة يوم واحد طويل وبعزم الإنزال المغولي على جزيرة « كيوشو » وهبت عاصفة في اليوم التالي فانسحب المغول إلى كوريا . ولم تكن التجربة على أي حال مشجعة ، لأن القوات المغولية كانت متفوقة عددياً ، وأثبتوا أنهم أفضل في القتال من اليابانيين . وأصبح من المحتم قيام المغول بغزو آخر ، واستعد اليابانيون لمجابهته لمدة سبع سنوات ، فقاموا ببناء سور حجري على امتداد شاطئ خليج « هاكوزاكي » ، وعندما عاد المغول مرة أخرى عام ١٢٨١ كانت القوات اليابانية بكل احتياجاتها قد حشدت في هذه المنطقة . وعلى مدى سبع أسابيع ظل المانع صامداً ، بينما ألحقت السفن اليابانية الدمار بالعدو بعيداً عن الشاطئ ، وأخيراً وكما حدث من قبل أجبر المغول على الإنسحاب وتحطمت سفن أسطولهم بفعل العواصف .

(١) تعني طريق المحاربين .

(٢) أن يطعن نفسه بسيفه الخاص بذلك .

ومنذ أن أنقذت هذه الرياح المواتية اليابان مرتين ، سميت « كاميكازا^(١) » . وقد سمي الطيارون الانتحاريون اليابانيون والذين هاجموا السفن الأمريكية في المحيط الباسيفيكي في حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ « كاميكازا » أيضاً . ولم يحاول المغول بعد ذلك التحرش باليابان ، ولكن بدأت فترة أخرى من الفوضى الوطنية عندما جاءت إلى السلطة صف جديد من « الشوجنز^(٢) » عام ١٣٣٨ ولم يكن لهم حق المطالبة بولاء الأمراء الإقطاعيين والعسكريين ، وتجددت الحرب الداخلية . وكما يحدث في العصور الأخرى من عدم الاستقرار العام ، فقد أخضع الرجال الأقوياء من هم أضعف منهم .

وأنشئت جيوش خاصة وكبيرة من الساموراي . ويعد تاريخ اليابان في القرن ١٤ ، ١٥ ، ١٦ قصة متكررة مملة من أعمال النزاع والشقاق دون أى أحداث أو أشخاص غير عاديين ، إلا أنه هناك شيئاً يمكن أن يثير الانتباه في هذه الحقبة هو إعادة ظهور طبقة من الجنود الفلاحين وتدعى « أشيجارو » ، وقد قاتل الكثير منهم في مجموعات وذلك ببساطة من أجل أنفسهم فقط ، ولأنهم فقراء كان تدريبهم ضعيف ودروعهم قليلة ولم يستخدموا سوى سلاح واحد فقط أما السيف أو الحربة أو المطرد . وكانوا في أغلب الأحيان يميلون إلى أعمال الحريق والنهب . إذن فقد كان هذا هو الحال في اليابان شقاق وإضطراب وغلين عظيم في أول إتصال لها بالعالم الغربي .

ففي عام ١٥٤٣ دفعت الرياح بثلاثة من البرتغاليين كانوا في سفينة شراعية صينية بعيداً عن طريقهم حيث نزلوا في اليابان . وكانوا يحملون البنادق من نوع المسكيت ، وبالرغم من أن اليابانيين بدون شك كانت لديهم من قبل بعض المعلومات عن المدافع والبارود الصيني إلا أنهم دهشوا لرؤيتهم هذه البنادق .

وبما أن الشعب الياباني لم يكن يؤمن بحب السلام والحضارة المحافظة المزدهرة كما كان الشعب الصيني ، لذلك كان متشوقاً لتعلم أى وسيلة فعالة للقتال . وقد علق « مهندس بينو » : — « شعب آدم من الحرب بطبيعته ، وفي الحرب تتباهىهم نشوة لا تنقأ أى دولة نعرفها » .

(١) تعنى الرياح الألهية

(٢) القادة العسكريون

وسرعان ما أدرك اليابانيون والكوريون مدى تفوق الأسلحة النارية الأوروبية على أقواسهم وأسهمهم . وكتب أحد قادتهم ويدعى « إياسو » إلى ملك سيام يقول : « إننى فى إحتياج إلى المدافع والبارود أكثر من إحتياجى إلى القماش المطرز بالذهب » . ولم يمض وقتاً طويلاً حتى كان البرتغاليون وغيرهم من التجار يبيعون الأسلحة لليابان . وقبل نهاية القرن كانت اليابان تصنع الأسلحة بنفسها .

التنين الأصفر

وقد أتاحت الفترة الطويلة من الفوضى والصراع الداخلى ، الفرصة للرجال ذوى المقدرة من ارتقاء مراكز السلطة بالرغم من إحدارهم من أسر مغمورة غير أرستقراطية . ومرة أخرى ، بحلول النصف الثانى من القرن ١٦ أخذ الشكل السياسى فى اليابان يبدد المجموعات الرئيسية الإقطاعية ، وأخيراً أصبحت الدولة تحت سيطرة سلطة سياسية واحدة قوية . وكان السبب فى تحول اليابان من الصراع والفوضى إلى الوحدة يرجع إلى ثلاثة رجال هم : -

« نوبوناغا » و « هيدىوشى » و « إياسو » . وولد « نوبوناغا » عام ١٥٣٤ ، وبدأ أعماله بالدفاع عن مقاطعته الصغيرة ، ثم نقل الحرب بعد ذلك إلى أراضى أعدائه ، وبحلول عام ١٥٥٩ كان قد حقق السيطرة على مقاطعة « أروارى » .

وقد أثرت شجاعة وقدره « نوبوناغا » فى رجلين هما « هيدىوشى ^(١) » و « إياسو ^(٢) » مما أدى إلى دخولهما فى خدمته . واستطاعوا سوياً من السيطرة على الدولة . وفى عام ١٥٧٣ أصبح « نوبوناغا » قائداً عاماً بالرغم من عدم وجود موهبة عسكرية غير عادية لديه ، أما « هيدىوشى » و « إياسو » فأصبحا من قواده . وكان « نوبوناغا » مستعداً للتعلم بذكاء من الأوروبيين ، وعلى يديه بدأ التطور الرئيسى لصناعة الأسلحة النارية اليابانية وأيضاً إدخال التحصينات وبناء السفن على الطراز الأوروبى .

(١) كان أبن خطاب

(٢) كان زعيماً فى شرقى اليابان

وفي عام ١٥٨٢ أغتيل « نوبوناجا » وبدأ التقدم الذي أحرزه نحو الوحدة يتعرض للخطر، إلا أن « هيديوشى » و « إيباسو » هبا للثأر لمقتله ولإستكمال عمله. وهنابرز « هيديوشى » كرجل عظيم سواء كقائد عسكري أو كرئيس دولة ، وكان من أبرز صفاته « الصبر والتنظيم والقيادة » . وجاءت اللحظة الرئيسية لنجاحه في عام ١٥٨٧ عندما سحق جزيرة « كيوشو » والتي تعتبر زعيمة المنشقين ، وكانت عائلة « شيازو » على رأس عشيرة « ساتزوما » ، وطلبت عائلة « شيازو » السلام ، وهنا أظهر « هيديوشى » شهامة وإدراكاً سياسياً عندما سمح لهم بالإستسلام بشروط معقولة . إلا أن « هيديوشى » لم يكن قد أشبع طموحه بعد ، وكان حلمه في ذلك الوقت فتح الصين ، وبدأ فعلاً هذا العمل عام ١٥٩٢ بغزو كوريا ، وتنجحت العمليات البرية نجاحاً كبيراً ، فقد قطعت القوات اليابانية مسافة ٢٠٠ ميل إلى « سيول » عاصمة كوريا في ظرف ثلاثة أسابيع . وبينما كان اليابانيون في قمة نجاحهم في البر ، لاقوا كارثة كبرى في البحر . فكان الشعب الكورى يجيد مهنة البحر ، كما كان لديهم أدميرال بارعاً وهو « يى - صن » والذي كان رجلاً استراتيجياً وتكتيكياً وقائداً ذات صفات غير عادية، وكان أيضاً موهوباً في الاختراع الميكانيكى . وكانت التكتيكات البرية الآسيوية لازالت عبارة عن الرمح بالسهم وإختراق السفن وإعتلائها ، ولم تكن المدافع قد ركبت بعد على السفن . إلا أن « يى - صن » أخترع سفينة يمكنها مقاومة كل أساليب الهجوم السابقة وفي نفس الوقت توفر لديها أيضاً قوة هجومية كبيرة . وكان جسم سفينته مصمماً على أساس السرعة الكبيرة والقدرة على المناورة ، كما غطى السطح بدرع من صفائح الحديد « كالسليحفة » ، لا يتأثر بالنار أو السهم أو المقذوفات ، مع وجود خوازيق على السطح لإعاقة المهاجمين . أما مقدمة السفينة فقد قواها لدرجة يمكن إستخدامها في الاصطدام بالسفن المعادية ، كما توجد فتحات لرمي السهم على طول دوران جسم السفينة . وقد قاتل البحارة اليابانيون بشجاعة إلا أن سفن « يى - صن » المدرعة بالحديد أحدثت تدميراً تاماً للأسطول اليابانيين . وأدى الانتصار الكورى في البحر إلى شل هجوم « هيديوشى » البرى . وفي عام ١٥٩٧ عاد مرة أخرى لغزو كوريا إلا أن الكوريين والصينيين قاتلوا هذه المرة بفاعلية أكبر في البر ، كما حاقّت كارثة مماثلة باليابانيين في البحر .

وتوفى « هيديوشى » عام ١٥٩٨ بعد أن أنجز أعمالاً عظيمة عسكرية وإدارية في بلاده

على الرغم من مغامراته الفاشلة والتي اتسمت بعدم التعقل، والتي أدت إلى نهاية محزنة لقصته وبعد موت « هيدوشي » حدث صراع قصير على السلطة ، ولكن في عام ١٦٠٠ كسب « ايباسو » مملكة « سكيجاها » وأسس أسرة « توكوجاوا ». وكانت سياسة « توكوجاوا » غريبة وقد استمرت في السلطة حتى عام ١٨٦٧ ، وتضمنت تجميد المؤسسات الاجتماعية والسياسية لليابان وعزلها عن باقي العالم ، وبذلك أتاحت الفرصة للسلام لمدة ٢٥٠ .

ولكن خلال هذه الفترة تأخرت تكنولوجيتها كثيراً ، وكثيراً جداً عن باقي العالم ، وأصبح جيشها من الساموراي لا يلائم العصر بشكل كبير ، وأيضاً قوتها القتالية الغير فعالة . وعلى أي حال ففي عام ١٨٥٣ وصل إلى اليابان أسطول من السفن الأمريكية بقيادة العميد البحري « بيرى » ، وأضطر اليابانيون إلى الإستجابة الإيجابية لحضارة العالم الغربي الحديث . ترى ما الذى يمكننا أن نخرج به من هذه الدراسة القصيرة للشعوب الآسيوية ..؟؟ نجد أن المغول في العصور الغابرة ، واليابانيين في القرن العشرين تظهر لنا أنه من الممكن أن تأتى لنا قوات شجاعة وجيدة التدريب من الشرق . والدرس الذى يجب ان نتعلمه هو ألا نحتقر أو نقلل من شأن القوى الآسيوية ، لأن ما حدث فى الماضى ممكن أن يحدث ثانية . فمن الممكن أن تأتى قوة غازية من مناطق آسيا الشاسعة مرة ثانية ، والتي سيتعين على العالم الغربى قتالها . ولكن لن يكون هناك داع لحدوث مثل هذا العمل لو استخدمت الحكمة والتعقل فى تناول المشكلات العالمية فى القرن العشرين ، وخاصة إذا أمكن تفهم التنين الأصفر .. أو الدولة الصينية تفهما جيداً وعميقاً .

الفصل السابع عشر

الهند

ملحة الحرب

(أنظر اللوحة رقم ٣٩)

تبلغ مساحة شبه القارة الهندية ١٦ مليون ميل مربع وقد أستوطنها على مر العصور القديمة شعوب من ثمانية أجناس مختلفة على الأقل وأعتنقوا ديانات عديدة مختلفة ويتكلمون مايقرب من ٢٠٠ لغة ولهجة مختلفة ولهذا فإنه غير مجدى محاولة كتابة تاريخ عام لفن الحرب في الهند خلال فصل واحد . ولذلك قررت تركيز الضوء على صور معينة من فن الحرب والتي كانت سائدة وبارزة في فترات معينة من هذا التاريخ . وأخترت فن الحرب للهندوس القدماء في الفترة ما بين عام ٥٠٠ ق . م و ١٢٠٠ بعد الميلاد ، وأيضاً تلك الفترة الخاصة بالشعوب التركية الإسلامية التي فتحت الهندوستان فيما بين عام ١٠٠٠ — ١٦٠٠ ميلادية وأقاموا إمبراطورية المغول ، وكذلك فترة إمبراطورية المارثيون في القرن ١٨ . أما قصة فن الحرب الهندي بعد القرن ١٨ ، فسيكون له فصل خاص مثلها في ذلك مثل بقية آسيا ، حيث أن التأثير الأوروبي أصبح سائداً .

وهناك عدة عوامل معينة تراود أفكارنا يجب أن نتفهمها . فقد أثر على سير الحرب في الهند وبدرجة كبيرة العوامل الطبيعية والجغرافية وتحرك السكان والمناخ . وتقع الهند وستان بين جبال الهمالايا وسلسلة جبال فنديا وهي عبارة عن سهل واسع خصب وبدون أى دفاعات طبيعية . وربما يكون عدم كفاية المواصلات هو السبب في أن الهندوستان كانت باستمرار تقريباً مسرحاً لصراع سياسى مضطرب بين المقاطعات الصغيرة . وكانت الممالك تتآكل عادة لأسباب داخلية ؛ إلا أنه كان هناك عامل هام أدى إلى عدم الاستقرار السياسى وهو التحرك المستمر للسكان من الشمال إلى الجنوب . وأصبحت الحدود الشمالية الغربية بدون قوات لحراستها حتى فرضت السيطرة البريطانية نفوذها فاختلف الأمر . ومنذ العصور

الأولى والشعوب المهاجرة تعبر ممرات هذه الحدود . فنجد أن الأغريق ثم الأتراك ثم الهون ثم المغول ثم الإيرانيون قد سلكوا نفس الطريق ونفس الممرات . وفيما بين عام ٢٤٠٠ ق . م وعام ١٥٠٠ بعد الميلاد هزم السكان الأصليون للهند على أيدي الغزاة الأجانب مما أدى إلى فرارهم جنوبا . وعموما فكانت جبال « فنديا » تعوق تحركات الغزو إلى حد ما ، علاوة على ذلك توجد مناطق جافة ومملوءة بالتلال في جنوب الهند مثل هضبة « الدكن » و « الفيحاهاناجار » وهي غير ملائمة لتحرك قوات كبيرة بها وتلائم حرب العصابات . والعامل الرئيسي الأخير الذي أثر على الحرب في الهند هو المناخ ، فكانت الأمطار الموسمية (بين يونيه وسبتمبر) تجعل تحرك الجيوش من الناحية العملية مستحيلا . وأفضل الفصول لإجراء الحملات هو شهرى أكتوبر ونوفمبر عندما تنضج المحاصيل ويخضر العشب ويكون من الممكن المعيشة داخل المنطقة . ومن الجدير بالذكر أن سلاطات الخيول في الهند كانت دائما من نوع أقل جودة من مثيلاتها في غرب ووسط آسيا . وكانت الحرب من أكثر الموضوعات إنتشاراً في سياسة وأدب الهندوس القدماء . وظهر أنه كان هناك صراع لا ينتهى بين القوى المختلفة في الهندوستان ، ولكن أحيانا ما كان ينجح رجل واحد من « الموريا » أو « الجوبتا » أو « الهارشا » في إخضاع وتوحيد كل أهالى المنطقة ، ولكن كان لا يستمر هذا طويلا . وليس هناك أى مراجع عن التاريخ السياسى للهند في الفترة ما بين ٥٠٠ ق . م وعام ١١٠٠ بعد الميلاد ، وكان ذلك غير ممكن لأن الهندوس ليسوا مؤرخين ، إلا أنه كانت هناك أضواء يلقمها كاتب أجنبي^(١) على بعض الفقرات من تاريخ الهندوس . وبالرغم من هذه الصعوبة ، فمن الممكن إكتشاف قدر معين من مواقف الهندوس من الحرب والأسلوب المستخدم فيها وذلك عن طريق كتب فن الحكم مثل كتاب « الأرازاساسترا » والذي وضعه « كوتيليا » والذي يضم الفترة بين ٣٠٠ ق . م و ١٠٠ بعد الميلاد يشير فيه إلى شهرة الحرب وإنتشارها .

وكان الجيش يعتبر سادس السبعة عناصر الرئيسية المكونة للدولة . وإذا نظرنا إلى

(١) لقد كتب عن الهندوس الرحالة الصينى البوذى « هسون تسانج » عام ٦٣٥ ميلادية « المغرب »



تعاليم مذهب « ماندالا » لوجدنا أنها نموذج مصغر لأفكار الهندوس من حيث العلاقات بين الدول . وفي الواقع هي تعاليم لا كفاح والنضال من الدرجة الأولى . وإذا جنح ملك للمسلم فهو في النهاية كاذب مناقض لنفسه ، فقد ذكرت التعاليم : « لاهيبة ولا إحترام للملك الذي لا يقهر أعدائه لأنه إذا لم يقم بهذا سيفرق كالبقرة في مستنقع من الطين » . وفي سطور أخرى للتعاليم : « لا يوجد مطلقا شيء اسمه حكم أو قاعدة ، بل هناك فقط الصراع من أجل المكانة التي يسعى إليها المقاتل » ويعتبر « كوتيليا » من المصادر المفيدة والهامية ، لأنه ضمن نظريته السياسية بحثا عسكريا . أما الاعتماد على ملاحم اللغة الأدبية الهندية القديمة أمثال « المهاباراتا » فهو مشكوك فيه ، وتكمن الصعوبة هنا في إمكانية التمييز بين ما هو حقيقى من الناحية التاريخية وبين ما هو خيال جامح من الناحية الأدبية . ويمكن مقارنة « المهاباراتا » « بالألياذة » و « النبلونجليلد » في أنها ملحمة شعرية كبيرة عن موضوع الحرب .

ومن المحتمل أن يكون هناك « عصر بطولى » في الحرب الهندية شبيه بعصور البطولة في حرب الإغريق والصينيين عندما كانت المعارك عبارة عن مبارزات بين راكبوا العربات الحربية من النبلاء يصاحبهم توابع على الأقدام . ولكن أصبح المقاتلون يتبعون قائدا أعلى في جيش منظم وقد ظهر ذلك في الحقائق الأولى للتاريخ السياسى الهندى وذلك في غزو الاسكندر الأكبر فيما بين عام ٣٢٧ ق . م وعام ٣٢٥ ق . م حيث عبر الاسكندر جبال « الهندوكسن » وأستولى على مدينة « تاكسيلا » ثم هزم الملك « بوراف » (بورش) في معركة نهر « جهلوم » (هيداسبس) . وكانت العربات الحربية لاتزال تمثل قوة ذات شأن في جيش « بوراف » ، وأقدم هذه العربات كان خفيفا ومصنوعا من دعائم خشبية مربوطة إلى بعضها بسيور جلدية ويجرها زوج من الخيول ، وطاقم العربدة مكون من سائق ورامي القوس .

وفما بعد أصبح للعربة أربعة خيول كراكبها ستة رجال^(١) . ولقد عجزت العربات الحربية

(١) أثنتين حاملى الدروع وأثنتين رماء السهام وأثنتين لقيادة العربدة والأخيرين يركبان العنان ليصبحا حملة للرماح أثناء القتال والحاجة إليهما .
« العرب »

الهندية في معركة « جهلوم » عن التحرك في الوحل ، ولكن على أى حال ظلت العربات الحربية تستخدم في الهند حتى القرن الثامن ميلادى ، وكانت لها ثمانية أحجام ولها أطقم يتراوح عددها بين رجلين وأثنى عشر رجلا .

فيلق من الفيلة

وفي المعركة بين الإغريق والهنود دخل الملك « بوراف » المعركة راكباً فيلاً . وفي هذا الوقت كان ينظر للفيلة في الجيوش الهندية على أنها قوة هجومية رئيسية . واحتفظت الفيلة بهذا المقام عند الهندوس ثم عند المسلمين بعد ذلك ، إلى أن بدأ تأثير الأسلحة النارية في القرن ١٧ يطغى عليها ويثير الشكوك عن صلاحية إستخدامها . وفي معركة « جهلوم » تشكل الخط الأمامى الهندى من ٨٥ فيلاً ، يفصل بين كل فيل وآخر ١٠٠ قدم ، واحتلت هذه الفواصل بمشاة من حملة الحراب . وقد كان لدى « ساندرا جوبتا موريا » (٣٢٢ — ٢٩٨ ق.م) فيلقاً من الفيلة مكوناً من ٩٠٠٠ فيل ، وقد إستمر العدد في التزايد .

وعلى ظهر كل فيل يوجد قائد وثلاثة مقاتلين مسلحين بالأفواس والنسهم ، وأحياناً كانت تستخدم الحراب والرماح والمدى والقدر المملوءة بالزيت والحجارة ، وكانت الفيلة مكسوة بدروع معدنية متقنة الصنع وتحمل صناديق الذخيرة . كما كانت توضع على ظهرها السجاد الفاخر وتلف العقود حول رقبتها وتعلق صور شعارات النبلاء .

وكانت أجود سلالات الفيلة توجد في شرق الهند ، كما كان هناك برنامجاً كاملاً ورسمياً لترويض الفيلة وتدريبها عسكرياً ، ويبدأ هذا التدريب من المراحل الأولية من الرقود على الأرض والجلوس ثم الركوب عليها ثم قيامها بعد ذلك ، إلى « الساميانا »^(١) و « فدهافدها »^(٢) و « هستيودها »^(٣) وغيرها من الوسائل التي تقتضيها الحاجة .

وبدون شك كان « بوراف » قائداً شجاعاً ، بل ربما كان أقدر القادة الهنود ، إلا أنه في

(١) التحرك للإمام والاجناب أو القيام بتحركات متعرجة

(٢) ألقاء الضحية أرضاً وسحقها بالقدمين .

(٣) القتال في تشكيلات

معركة « جهلوم » واجه جيشاً ظافراً محمداً ويقوده قائد عبقرى متفوق (الاسكندر الأكبر) وبالتالي كان من الصعب عليه أن يأمل في النصر ، وعلى كل وضع « بوراف » قواعد سيئة للجيش الهندي باعتماده على الفيلة في تحقيق النصر . ومن الغريب إعتقاد خلفاء « بوراف » إلى حد كبير على الفيلة بالرغم من أنها لم تؤد أى عمل له قيمة في معركة « جهلوم » . ومن المؤكد أن للفيلة قوة ومظهراً مرعباً ، فهي تستطيع وطء الرجال تحت أقدامها وسحق الموانع ، وإلقاء الرعب في قلوب الجنود القليلي الخبرة والخيول الغير مدربة . وقد أستخدمها الأغريق بعد الاسكندر في غرب آسيا وأوروبا ، وقد سبق لنا تتبع دورها الضئيل . وقد يكون للفيلة بعض القيمة ، ولكنها مملوءة بالعيوب ، وخاصة عند الإعتماد عليها كتوة هجوم رئيسية في المعركة . فمن الصعب السيطرة عليها دائماً ، وخاصة عند ما تخرج حيث تستدير وتنطلق مذعورة وتسبب إضطراباً في قواتها . وقد رأينا في الفصل الخامس كيف سببت فيلة هانيبال في معركة زاما عام ٢٠٢ ميلادية الفوضى والاضطراب في الجيش القرطاجي نتيجة لذهرها . والقائد الذي يركب فوق الفيل يراه جنوده جيداً وبذلك يثير همهم ويرفع معنوياتهم ، ولكنه في نفس الوقت يكون هدفاً واضحاً ومعرضاً للعدو ، وخاصة بعد ظهور الأسلحة النارية .

الطبقة الكهنوتية

وكانت الغالبية العظمى في الجيوش الهندوسية تتكون من جنود المشاة المترجلة . ومن الواضح أنه كان هناك إختلافات كبيرة في المهام والمفاهيم التكتيكية بين محترفي مهنة الحرب وبين المتوحشين وقطاع الطرق من قبائل الأدغال .

وكانت جنود المشاة الأقل درجة يوضعون في وحدات خاصة لتستخدم كقوة عمال ولحمل المهمات وجمع الطعام وحفر الخنادق . وفي « عصر البطولة » لم تقم المشاة بدور إلا بغير أكثر قليلاً من المتفرجين ، ولكن من الجاز أن الشعراء كانوا مغرمين فقط بوصف قتال الأبطال . وعلى أى حال ، ففي تاريخ لاحق بدأ الإعتماد يتزايد وبشكل كبير على المشاة وخاصة في الأراضي الوعرة وفي الدفاع عن الحصون وفي المعارك التي يكون فيها التفوق العددي عاملاً حاسماً . ومنذ الفترة المظلمة أى قبل الميلاد بأربعة آلاف عام وحتى

القرن ١٩ ميلادى ، كان القوس هو السلاح الرئيسى فى الهند . وصنعت الأقواس القديمة من الخشب ، أو فى أكثر الحالات من الخيزران والذى كان فى متناول اليد بسهولة علاوة على قوته ومرونته الكبيرة . وفيما بعد ظهر القوس المركب المصنوع من المعدن والقرون والخشب وبه وتر من خيوط القنب أو الحرير أو جلد الحيوان ، أما السهم فتصنع من سيقان البوص أو الخشب ومزودة بالريش فى مؤخرتها ومثبت فى مقدمتها مستدق من القرون أو العظام أو الخشب أو المعدن فى أشكال مختلفة مثل « أردها — كاندرا » (رأس هلالية الشكل) أو « سو كيمو خا » (رأس مدببة الشكل) أو « كا كا — توندا » (رأس على شكل منقار الغراب) . واستخدمت أحياناً السهم المشتعلة ، ولم يكن هناك طول ثابت للقوس ، وهناك أدلة على وجود أقواس قصيرة . وقد وصف أريان الأقواس الهندية فى عام ٣٢٦ ق . م كالآتى : —

« كان طول القوس فى مشاة الجيش الهندى يساوى طول حامله ، وكان الرجل يثبت القوس على الأرض ويخطو فى مواجهته بالقدم اليسرى ثم يطلق السهم بأن يشد الوتر كثيراً . وكان طول هذا السهم يقل قليلاً عن ثلاثة أذرع ، ولا يوجد أى شىء يستطيع مقاومة السهم الهندى سواء أكان درعاً أو الصفايح الواقية للصدر . وحيث أن الراى يحتاج إلى كلتا يديه لذلك كان لا يحمل أى درع » .

والمشكلة التى تغلب بها الإنجليز على الهنود فى معركة « أجينكورت » هى نفسها التى أعجزت الهنود عند « جهاوم » وهى إرتقاء وتر القوس بفعل مياه الأمطار . وقد تسلح جنود المشاة الهندية إلى جانب الأقواس بأسلحة أخرى وبالتدريج أخذ السيف ينافس القوس فى الأهمية ، وقد اشتهرت السيوف الهندية فى الأدب العربى كما كان الإقبال على اقتنائها كبيراً ، وظهرت أشكال كثيرة نتيجة لتخصص مناطق مختلفة فى صناعتها . وطبقاً لما قاله أريان كانت السيوف المستخدمة فى القرن الرابع ق . م . من النوع القصير عريض النصل . كما ان « كوتيليا » ميز بين ثلاثة أنواع : — الأول مقوس الشفرة وحاد من الداخل وهو النوع الذى سبق « الكوكرى » ، والثانى سيف طويل مستقيم ، والثالث له رأس على شكل ورقة الشجر .

أما غمد السيوف فيصنع عادة من الجلد . وإرتقى فن إستخدام السيف إلى مستوى بارع ، وفي « المهابهارتا » يوجد وصف لـ ٢١ حركة تؤدي بالسيف .

وكان هناك أيضاً نماذج عديدة من الحراب والرماح مثل « الكونتتا » ذات النهايات الست الحديدية ، وغيرها من ذات الرؤوس المتعددة الزويا . ولم يصل طول الحربة الهندية قط طول الحربة المقدونية « الساريسا » أو الرمح الأوروبي في القرن ١٧ . وفي الحقبة القديمة كانت المقرعة والمراوطة لهما نفس أهمية السيف ، وكان يمكن قذفها أو إستخدامها للطعن أو للضرب بعنف .

وظهرت البلطة كسلاح « أرستقراطي » ، بينما استخدمت أحياناً المقلع وحلقة الرمي وقرص الرمي . أما الدروع فكان الجميع يحملونها فيما عدا رماة الأسهم والفقراء جداً . وكان الدرع يصنع من جلد الثيران أو النمر ومن الخيزران أو النباتات المتسلقة المجدولة ، كما زينت بالشعارات وإختلفت اختلافاً كبيراً في الشكل والحجم .

وكان الأغنياء فقط هم الذين لديهم درع للجسم ، بينما كان لدى الآخرين بعض أشكال من الدروع المصنوعة من السلاسل ، ولكن كانت الأردية المحشوة بالقطن المضروب أكثر شيوعاً في الاستخدام .

وكان الهندوس القدماء ينظرون إلى الفرسان على أنها متفوقة على المشاة ولكنها في مرتبة أدنى من العربات الحربية والفيلة . والسبب الرئيسي في ذلك هو نقص الخيول الممتازة في الهند . ومن المرجح أن فرسان « بوراف » كانوا يمتطون خيولاً صغيرة الحجم^(١) ، ولذا كان من السهل على فرسان الأعداء هزيمتهم لأنهم يمتطون خيولاً متفوقة في القوة البدنية .

وقد سرد « كوتيليا » بعض وظائف فرسان الهندومنها « إزعاج العدو أثناء تقدمه وعند توقفه وتجميع القوات والقيام بالتطويق وأعمال أخرى متنوعة ، ومهاجمة مؤخرة العدو والإنقضاض على الجيش المهزوم وحماية قواتهم إذا هزمت » . وعلى كل عندما تطور معرفة الاستخدام

الصحيح للفرسان إرتفع المستوى تدريجياً . وكان هناك نوعين من الفرسان ، الثقيلة ، والخفيفة ، الأولى تتمركز في وسط الخط للقيام بالهجوم ، وبينما وضعت الثانية على الأجناب لحراستها وللتطويق والمطاردة ، وأستخدم الرمح الطويل في الهجوم كما أستخدم السيف أثناء الالتحام ، ولكن لم يستخدم الهندوس مطلقاً رماة راكبين . وكانت صفات خيولهم الضعيفة هي نقطة ضعفهم الكبيرة ، ويمكن تعليل الكوارث التي حلت بالهندوس على أيدي الأغريق والآتراك ، بأن سببها جيوش يمتطي فرسانها خيولا جيدة ويسيطرون عليها جيداً ، فهزمت جيوشاً يمتطي فرسانها خيولا ضعيفة .

وكانت القوات الهندوسية المجندة تنقسم إلى ستة فئات : — القوات التي ترث مهنة الجندية والمرتزة ، والحرس المحلي ، والفرق التي تمثل رؤساء الإقطاع والحلفاء ، والقوات المأسورة أو التي أغريت من العدو ، ورجال قبائل الغابات .

ولم يكن هناك أي تمييز بين هذه الفئات ، ولكن التمييز الحقيقي كان موجوداً بين القوات النظامية المحترفة والتي يبقونها الحكام ، وبين القوات الإضافية المجندة أو الإقطاعية التي تقضى الحاجة لتجنيدها .

ومن الوجهة العملية كان من الممكن على أعضاء أي طبقة الخدمة في الجيش ، ولكن الرجال من الطبقات الدنيا كانوا يقومون بالأعمال الحقةرة . ومن الجدير بالذكر أن «البراهمة» وهم الطبقة الكهنوتية ، كانوا يشكلون عدداً من كبار القادة البارزين ، والذين منهم على سبيل المثال «بوسياميترا» القائد العام في عهد آخر ملوك أسرة «الموريان» ، «برهادراسا» ، وكان الجيش مقسماً إلى وحدات على أساس عشري .

ويؤكد كوتيليا بأن الشجاعة يمكن غرسها حتى في الجبناء بالضبط والربط والتدريب .

وكانت المرتبات كافية وتدفع بانتظام ، كما كانت تمنح المكافآت في المناسبات من الأراضي والنقود والأوسمة . وكقاعدة عامة كانت الدولة تتكفل بمعاونة من كان يعولهم الجندي الذي قتل أو من يصاب بعجز .

هناك السند

وكان أكثر الأوقات شيوعاً للقيام بالحملات الحربية هو شهر أكتوبر بعد إنتهاء

الرياح الموسمية ، وكثيراً ما يتغير هذا التوقيت بفعل الظروف السياسية . وكانت الجاسوسية على درجة عالية من التنظيم سواء الدبلوماسية أو العسكرية .

ويصف كوتيليا كيف كان الجواسيس يتقصون مواقع العدو وتعداداته ، ويذكر أيضاً كيف كان هؤلاء يرسلون بالرسائل للخلف مكتوبة بالشفرة ويحملها الحمام الراحل ، وكانوا ينشرون المعلومات والإشاعات الكاذبة لخفض الروح المعنوية للعدو ، كما يقومون باستماله وإغواء الشخصيات المهيمنة على الجيش بجميع الوسائل الغير مشروعة . وهنا أمثلة كثيرة في التاريخ الهندي عن عمليات فرار بالجملة والتحول من جانب إلى آخر . وقبل التحرك كانت تجري إستشارة مفصلة مع المنجمين ، وبعدها يقوم الملك أو القائد بأداء طقوس دينية لاسترضاء آلهة الحرب .

ووسيلة النقل في الجيش كانت الفيلة والجمال والخياد الصغيرة والثيران والعربات التي تجرها الثيران .

وكان هناك حشد ضخم من توابع المعسكرات مثل الرهبان والمنشدين والتجار والعاهرات . وكان منظر الجيش الهندي أثناء تحركه يستحق المشاهدة ، فكانت تسير الفيلة الملكية والفرسان من النبلاء تكسوهم الدروع الكاملة الفخمة والجواهر الثمينة والرياش والحرار والأحزمة والمظلات الكبيرة .

وكان الحشد كله يتحرك ببطء ، ومع قدر كبير من الموسيقى والصياح ، ويصف مؤلف « كالينجاتوباراتي » المشهد فيقول : « أخذت الأبواق تدوى والطبول الكبيرة تهدر وأطلقت المزامير » والقرب « أصواتاً حادة حتى صمت أذان الفيلة .

وإنتشرت مجموعات كبيرة ومتجاورة من المظلات والأعلام حتى حجبت ضوء النهار ومن المرجح أنه لم يكن هناك تخطيط ثابت للمعسكرات الحربية ، ولكن وعلى العموم كانت تختار الأرض بجوار نهر حيث تقام الخيام في صفوف وتعين الحراسات . ومن الصعوبة بمكان أن نقرر التشكيلات والتكتيكات التي كانت مستخدمة في المعركة من المراجع المختلفة .

فقد أطلق « المهابهارتا » العنان لشعره الخيالي في وصف التشكيلات المتعاقبة والتي

تسمى « المالك الحرين »^(١) و « شبه المعين » و « الصقر » و « التمساح » . أما « كوتيليا » فقد تحدث بطريقة أكثر واقعية عن أربعة تشكيلات أساسية وهي « العارضة » و « الأفعى » و « الدائرة » و « المجموعة المستقلة » وكل منها لها طابع خاص . وكان هناك العديد من أشكال الفتح للمعركة ، ومن المحتمل جداً أنه كان يبذل جهد ووقت كبيرين في القيام بالتشكيل المطلوب كما إستازم الأمر براعة كبيرة . ولكن بمجرد بدء القتال يفقد النظام بين القوات ، وقد قرأت أن طبقة الأبطال كانت تندفع نحو بعضها ، بينما يلتحم باقي حشود الرجال في صراع مع الأعداء .

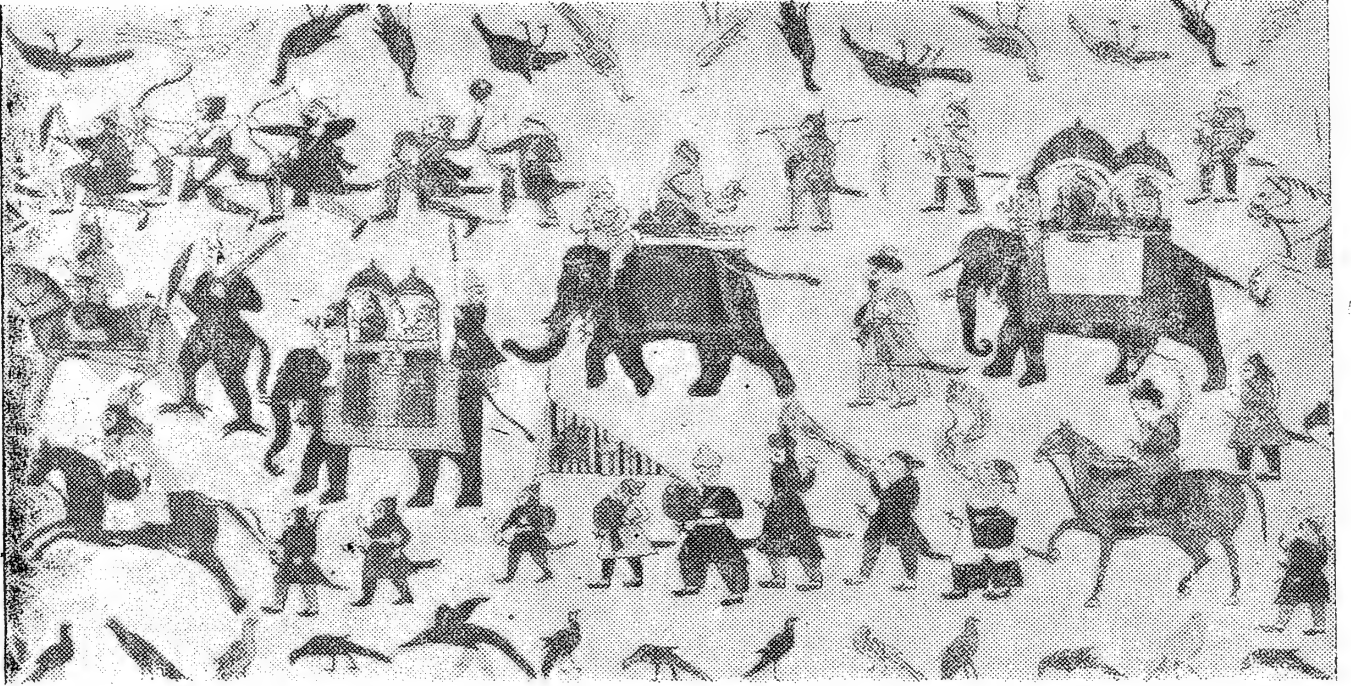
ولاشك أن التكتيكات الأولية كانت معروفة لديهم وخاصة مهاجمة أضعف النقط ، ولكن لا توجد دليل مباشر على ذلك ، كما لم أعثر على وصف لمعركة هندية كتبها رجل عسكري .

وقد إستخدمت الآلات الموسيقية لإثارة حماس المقاتلين ولقطع الوقت أثناء السير ، وإصدار إشارات بالأوامر .

وبذلت عناية كبيرة من أجل تقوية روح الشجاعة والوطنية وعبر عن ذلك في الأمثال مثل : « إن النصر هو مصدر الفضيلة الدينية وأعظم أنواع السعادة » . وإذا حدث وسقط أحد قائد الجانبين ، كما حدث للملك « داهير » ملك السند في عام ٧١٢ ميلادية ، فجيسته يصبح عرضة للتفريق . وإننا نعلم أن الجراحين كانوا يرافقون الجيش ، وكان أسرى الحرب يعاملون معاملة حسنة .

بابور النهر (أنظر اللاوحة رقم ٣٩)

وسوف يشعر القارئ مما كتب أن هناك الكثير من المعلومات المشوشة عن الحرب الهندية القديمة ولكن الحقيقة الثابتة أنهم كانوا قوماً مولعين بالحرب إلا أنهم لم يصلوا إلى مستويات رفيعة . وأهم نقط ضعفهم في تكوين وتنظيم جيوشهم وتكن في إعتادهم الزائد على الفيلة وفرسانهم الضعيفة والنظام الإقطاعي في التجنيد مما أدى إلى فقد وحدة القيادة وتوحيد المهمات والتنظيم .



الجيش الهندي أثناء التحرك للقتال

وكان جنود الهنود وقادتهم لا ينقصهم الشجاعة ، ولكن يبدو أن الشخصيات العسكرية الكبيرة مثل « شندراجوبتاموريا » الذي طرد الإغريق ، و « سكفنداجوبتا » و « ياسود هارمان » اللذان طردا الهون ، كانوا يفتقرون إلى بعد النظر وعدم الفهم القوى للاستراتيجية والتكتيك .

وعلى سبيل المثال لم تكن هناك قبضة هندية محكمة على ممرات الحدود الشمالية الغربية ، كما أن الجيوش كانت تتحرك بشكل بطيء وكسول. ولم يكن هناك إمبراطورية هندوستانية واحدة ظلت على حال ثابت ، حتى ولا في أزهي العصور ، ولم يكن هناك شخصيات كبيرة استطاعت تحقيق الأمن لكل المقاطعات ، ذلك الأمن الضروري للوحدة الحقيقية وللثقة العسكرية ، وقوة السياسة الخارجية .

وكانت الحروب الهندية عبارة عن أعمال صغيرة ودارت فيها القتال بحذر ، وكانت هذه الحروب من شأن السياسيين بينما كان يجهاها الفلاحين الذين يزرعون الحقول .

ومع حلول عام ١٠٠٠ ميلادية بدأت الحضارة الهندوسية تأخذ شكلا مرضيا محافظة على الطابع القديم . وقد كشف الغزاة المسلمون كل نقاط الضعف هذه . لقد تطور الفتح التركي

الإسلامي للهند في شكل محدد واضح ، وسار بشكل تدريجي ابتداءً من القرن العاشر وتم في القرن السابع عشر فقط . وقد أغرت بلاد الهند الغنية المنقسمة على نفسها رجال القبائل التركية .

وبدأ الأتراك بالقيام بغارات متكررة عبر الحدود ، والتي تحولت إلى غزوات إنهزم فيها أقرب ملك هندي في معركة ضارية . وكان الفتح الأول نقطة إنطلاق للتقدم التالي ، وأخذت المقاطعات الهندية الواحدة بعد الأخرى ، بتقدم قوات المسلمين جنوباً وشرقاً .

وإستمر هذا المنوال حتى القرن ١٧ ، عندما بدأ رجال قبائل الغابات « آسام » في كبح جماح قوات المغول التي بدأ يسودها التحلل والتمزق . وكان غزاة الموجات الأولى تستقر وتتحول إلى هنود ، ولكن كان يتم إجتياحهم بواسطة موجات تالية آتية من الشمال الغربي .

وإستمرت سلسلة الغزو والفتح بدون عائق لمدة ثمانية قرون ، وكان كل من يتعدى لهؤلاء الغزاة لا يستمر طويلاً ، ومن حين لآخر كان يقوم فاتح بارع من المسلمين باجتياح كل ما هو أمامه في موجة مدمرة .

وهنا يبرز لنا أربعة أسماء من هؤلاء الفاتحين ، وأول هؤلاء ، وربما كان أعظم الأتراك المسلمين الفاتحين للهند ، هو السلطان « محمود غازي » (٩٩٧ — ١٠٣٠) والذي يقال أنه قاد ١٧ حملة في الهند . وهو الذي عبر بالمسلمين نهر « الهندوس » الذي يعتبر العائق الطبيعي الوحيد أمام سهول « الهندوستان » الغنية .

وحقق السلطان محمود أعظم انتصاراته على قوات « انانديال » فيما بين « أند » و « بيشاور » عام ١٠٠٨ .

وفي النهاية كانت إمبراطوريته تمتد من فارس حتى نهر « الجانج »^(١) ، وقد كان قائداً

(١) الجانج أحد الأنهار العظيمة في الهند وينبع من جبال الهيمالايا ويصب في خليج البنغال وطوله حوالي ١٥٠٠ ميل وهو من الأنهار المقدسة عند الهندوس « العرب »



الأتراك المسلمون يهزمون الهندوس على نهر الجانجس

بارزاً ، قادراً على أثر جنوده وإكتساب أخلاصهم ، كما كان هو شخصياً مقاتلاً شجاعاً .

أما الفاتح العظيم الثانى فهو « شهاب الدين غورى » ، والذي زحف عام ١١٩٠ نحو « تارين » بالقرب من « دلهى » حيث هزمه الملك الهندوسى « برزفراج » بجيش يفوق كثيراً جيش شهاب الدين . ولكن الشئ الغريب أن الهندوس لم يستغلوا انتصارهم بشكل فعال ؛ أو بأى منطق إستراتيجى . ولكن بعد ١٨ شهرا إستطاع شهاب الدين أن يأخذ بثأره فى معركة « تارين » الثانية .

وفى النهاية تم له فتح كل السهل الشمالى الهندى . وصر قرنات قبل أن يظهر فاتح عظيم آخر من الشمال الغربى وكان « تيمور المغولى » والذي إجتاح الهندوستان فى خمسة أشهر فى عام ١٣٩٨ ، ناهباً مدينة دلهى ، إلا أنه عاد بعدها إلى عاصمته فى « سمرقند » . وأخيراً

هبط على الهند الحفيد السادس « لقيمور » وهو « بابور النمر » في عام ١٥٢٥ . وهزم السلطان الأفغانى فى « دلهى » عند « بانىبات » فى عام ١٥٢٦ . وقبل وفاته عام ١٥٣٠ ، كانت مقاطعات « بابور النمر » تمتد من نهر « الأوكسوس » حتى حدود البنغال ، ومن جبال « الهيمالايا » إلى « جوالور » . وقد وضع « بابور النمر » أسس أمبراطورية المغول والتي آتم تكوينها حفيده « أكبر » .

الصاروخ سلاح هندي قديم

وكان الأتراك قادرين على هزيمة الهندوس ، لتمتعهم بشكل خارق بالصفات الحربية الضرورية والتي كان يفتقدها الهندوس . وقد وجدوا فى الهند الرضا والتسامح والذي قابله بالإخلاص المتعصب للدين الإسلامى .

وبصرف النظر عن حماسهم كمعتنقين لهذا الدين والذي ينبع من أعماقهم ، فكان الأتراك يتسمون بصفات المجتمع التماسك المؤمن بالقضاء والقدر والمحتقر للموت ، كما تميزوا بالجديه والاعتدال فى كل نواحي الحياة ، الشيء الذى ينقص كل الهندوس .

وكان الأتراك قوم ذوى طاقة ونشاط ، وتوفر لديهم خفة الحركة بركوبهم خيول « تركمانية وعربية » سريعة وقوية . وكانت جيوشهم فى الواقع عبارة عن حشود من حاملى الأقواس الرابكين ويستخدمون نفس الأسلوب الفعال للإيرانيين والهنود والمغول . وكان قوسهم المركب لا يقل جودة عن أى سلاح لدى الهندوس وإستخدموه بشكل أكثر تأثيراً ، وتوفرت لديهم الشجاعة مثل الهندوس ، وعلى عكس الهندوس كان الأتراك قادرين على إنتاج الضباط الكبار وعلى درجة عالية من البراعة العسكرية ، ومن حين لآخر ، قادة عباقرة .

أما جوهر الاستراتيجية التركية فكان فى خفة الحركة المسيطر عليها عبر مناطق شاسعة ، أما تكتيكاتهم فكانت عادة كما فى الغرب ، هى قيام حاملوا الأقواس الرابكون بإزعاج وإرهاق العدو بأعمال التطويق والمراوغة من على بعد ثم بعد ذلك إقتناص النصر بهجوم كبير بالفرسان الثقيلة .

وكانت التكتيكات التركية فى معركة « تارين » الثمانية طبق الأصل من تكتيكات معركة « مانزكرت » ، وهى نفسها التى اتبعت فى عهد « تيمور » وكان لها أيضاً نفس الأثر .

وكان الأتراك فقدوا باستقرارهم في الهند تلك الصفات العسكرية التي يتميز بها سكان السهول الواسعة ، وإلى حد ما تأقلموا على ظروف الحياة في الهند ، وهي حياة القدماء الغير متغيرة . وأكثر من ذلك أن أثر ظهور الأسلحة النارية على حربهم .

وكان جيش « بابور » في معركة « بانيبات » يختلف عن جيوش أسلافه ، فكان لديه عددا أقل من الفرسان الأتراك بالرغم من أنهم ظالوا يحتفظون بمكانتهم كصفوة القوات ، وكان لديه بعض الواحدات من الهنود المحليين ، والذين قاتلوا بأقواسهم وسيوفهم وحرابهم التقليدية ، كما كان لديه أيضاً مشاة مسلحة ببنادق ذات الفقل ومدافع صغيرة تحملها على عربات ، بينما بقي إستخدام الفيلة . وبالرغم من أن الفرسان أصبح ينظر إليهم بأهمية أكثر من ذي قبل إلا أن خفة الحركة قد إنخفضت .

ومع حلول القرن ١٨ لم يكن الجيش المغولي يختلف في مسيرته عن طراز الجيش الهندي القديم . وقصة الأسلحة النارية في الهند تختلف إلى حد ما عن مثيلتها في الصين واليابان . فالمواد الحارقة مثل النفط فقد عرفت من زمن بعيد ، كما أن الصواريخ سلاح هندي قديم وقد أستخدمت في الجيش المغولي وأيضاً في جيوش « المارسا » في القرن ١٨ . وكان الصاروخ عبارة عن أنبوبة من الحديد طولها قدم واحد وقطرها بوصة واحدة ومثبتة إلى عصا من الخيزران ، ويصل مدى الصاروخ إلى ١٠٠٠ ياردة ، ومن الطريف أن هذا الصاروخ كان خطراً على مستخدمه بنفس خطورته على العدو . ولكن إذا حدث بطريق الصدفة وأنفجر بين صفوف العدو فقد يشيع الفرع بين القوات الغير مدربة وتجعل الخيل تفر مذعورة أو ربما تتسبب في إضرار النيران في معدات العدو . ودخلت المدافع الخفيفة إلى جنوب الهند في تاريخ مبكر . ففي ستينات القرن ١٤ أستخدمت في هضبة الدكن بواسطة « راجا فيجاها ناجار » ، وكان طاقمها من الأتراك والأوروبيين . وبعدها أحضر البرتغاليون والأتراك المدافع إلى الهند وبأعداد كبيرة ، ولم ينجح الهنود مثل باقي الآسيويين في أجادة إستخدام المدافع في الحرب البحرية (لا يعرف سوى القليل عن البحرية الهندية بدرجة أنها لا تستحق محاولة مناقشتها) . أما في الإستخدام البرى للمدفعيه ، فقد أتبع الهنود الأساليب الصغيرة والتي كان يتبعها الأتراك الغربيين . واستخدم « بابور » المدافع بمهارة ومن الأرجح أنها كانت أول مدافع تظهر في شمال الهند

وكان ذلك في معركة « سكرى » حيث أستدرج « الرجبوتيين »^(١) ليهاجموا موقع محصن تحتله المشاة والمدافع^(٢). وكان لدى « بابور » في عام ١٥٢٦ هاون ضخمة والذي أطلق ثلاثة مرات فقط في المعركة ثم انفجر بعد ذلك .

وكان الأتراك في الهند يشاركون أولاد عمهم الغربيين في ميلهم للمدافع الضخمة ، وقد صنعت بعد ذلك بعض المدافع في الهند والتي بلغ وزنها ٤٠ وأحياناً ٥٠ طن متري . وفي النهاية نجح الهنود في صناعة مدافع متينة ، وأدخلوا في تكتيكاتهم إستخدام المدافع الخفيفة المحمولة على الفيلة والجمال ، وكانت بعض القوات الهندية حتى تمرد عام ١٨٥٧ لازالت تستخدم القوس والسهم بفاعلية مثل البنادق .

وبعد موت « بابور » كان لا يزال هناك بعض الهندوس مثل « الراجبوتيون » والمسلمون مثل « الأفغاغنيون » والذين لم تضعف معنوياتهم بوفاته ، وكانوا على إستعداد لمواصلة القتال للحصول على الاستقلال عندما تظهر أى بارقة ضعف في قوة المغول . وبعد مدة بدأت تحدث عملية إستيعاب للأجناس وعمليات مختلفة للتحالف السياسى ، وبدأت الجيوش المتقابلة تشابه كل منهما الآخر . ولكن عندما تمسك الاتراك المسلمون بتقاليدهم المميزة كان تفوقهم دائماً واضحاً ، ولكن عندما بدأوا يفتقدون للعناصر التكتيكية البارعة وأعتهدوا على الفيلة كقوة رئيسية ، بدأوا يلاقون المتاعب .

الفراش والذهب

وفي عام ١٥٦٥ وقعت معركة « تاليكوتا » في هضبة الدكن ونتج عنها سقوط « فيجها هاناجار » وقيام سلطنة للمسلمين على الهندوس وظهور جيش إسلامى هندى فى أفضل صورة .

وكان « حسين نظام شاة » قائداً بارعاً ولم يرهبه تفوق عدوه عليه بأربعة أضعاف ، وعلى كل وضع مدفعيته المتفوقة كثيراً فى الأمام وحجبها عن أعين العدو بواسطة فرسان

(١) هم أفراد الطبقة الهندوسية العسكرية الحاكمة وملاك الأرض

(٢) تشبه الخطة التكتيكية وأسلوب جوائز الفو القرطبي « العرب »

الأتراك من حاملي السهام والذين كانت مهمتهم إغراء العدو بمهاجمتهم . وكانت فرسانه جيدة التجهيز والتدريب ومشكلة في فرق ولها إحتياطي قوى لتوجيه الضربة الحاسمة الأخيرة . وفي « أورا نجذب » في عامي ١٦٥٨ — ١٦٥٩ حقق ثلاثة إنتصارات^(١) على جيوش مشابهة لجيشه ، وكانت مدفعيته المتفوقة وإدراكه التكتيكي يحسمان الموقف لصالحه . كما تكشف إنتصارات الملك نظام في (« راتانبور » و « بالابور » عام ١٧٢٠ و « شكارخيرا » عام ١٧٢٤) نواحي القوة والضعف في الجيش المقابل . وكان لدى الملك « نظام » مدفعية جيدة وتنظيم فعال وفرسان ممتازين ، وكان أفضلهم حقاً هم المسامون . وكان لديه أيضاً ضباط متمرسين وبارعين ، أما هو فكان تكتيكياً بارعاً . وفي معركة « راتانبور » طوى موقع جيش « سيد ديلاور على » حتى قبل بدء القتال ، كما نصب شركاً بارعاً بالمدفعية . وكان « الراجبوتيون » على درجة كبيرة من الشجاعة ، ولكنهم في نفس الوقت كانوا على نفس الدرجة من الغباء . وكان تكتيكهم الوحيد هو الأندفاع للأمام في حشد ، وأكثر من ذلك كانوا مجهزين تجهيزاً بدائياً . وبسبب هذه الشجاعة وذلك الأندفاع ، فكانوا عندما يتقدمون نحو عدو مجهز تجهيزاً جيداً بالمدفعية ، يضحون بأرواحهم مثل الفراش الذي يندفع نحو اللهب . وكانت قوة صدمه هجوم الراجبوتيون يحتاج دائماً من أعدائهم تركيز كل قوتهم الدفاعية ضد فيلتهم ودروعهم ومدفعيتهم .

وعندما تفقد القيادة البارعة في الجانب التركي ، فكان الميزان يتأرجح فترة طويلة بين الجانبين ، إلا أنه في النهاية يتحقق النصر بالتفوق في الأسلحة والإدراك التكتيكي . وحتى جيش « الملك نظام » فقد تشرب بقدر كبير بالصفات الهندية التقليدية . وقد ظهر ذلك عندما هزم « المارسيون » قوات « الملك نظام » نتيجة لقتال « المارسيون » بأسلوب مماثل إلى حد كبير لأسلوب المغول والأتراك الأصليين غزاة الهند ، وكان المارسيون من جنوب غربي الهند وفقراء جداً على عكس سكان الشمال الأغنياء .

وفي منتصف القرن ١٧ شكاهم « سيفاجي » في قوة عسكرية جديدة وعندما قاتل ويلينجتون المارسيين عام ١٨٠٣ لم يكونوا على نفس الحال التي كانوا عليها من قبل . وكان المارسيون في أفضل

حالاتهم في القرن ١٨ ، وتعتبر حملة « بالحد » في عامي ١٧٢٧ ، ١٧٢٨ والتي تفوق فيها « باجي راو الاول » على « الملك نظام » رائعة في خفة الحركة الاستراتيجية ، فكان جيش « باجي راو » يتكون كله من قوات راكبة ، ومسلحة بالسيف فقط عدا بعض الوحدات والتي سلحت برمح وقوس ودرع مستدير . وكان لكل فارسين جواد احتياطي . وتحرك جيشهم بدون أثقال من المدفعية أو المؤن أو حتى المدافع الخفيفة أو الدروع الدفاعية ، وأعتمدوا في معيشتهم على النهب . وقد حقد « باجي راو » على حكم « الملك نظام » على الدكن ، كما كان متخوفاً من سياسته .

وقد قام « باجي راو » بالضربة الأولى ، ففي أكتوبر عام ١٧٢٧ بمجرد إنتهاء موسم الأمطار ، إقتحم مقاطعة « أساف جاه » المؤيدة لحكم الملك نظام . وتحرك المارسيون الخفاف التجهيز بسرعة كبيرة متجنبين المدن الرئيسية والحصون ، يتعيشون على المنطقة التي يمرون بها فينهبوها ثم يحرقوها . ولم يهزموا سوى مرة واحدة على يد « أيواز خان » (نائب نظام) القائد القدير وذلك في أوائل نوفمبر .

ولكنهم في خلال شهر إستعادوا قوتهم كاملة وواصلوا تقدمهم بسرعة شرقاً وشمالاً وغرباً بتغييرات مفاجئة في إتجاههم . في ذلك الوقت دفع « الملك نظام » بقواته وتبعهم بعض الوقت ، ولكن أربكته التحركات الخاطفة والغير متوقعة للعدو حتى أجهدت رجاله . وفي نهاية يناير غير « الملك نظام » من استراتيجيته ، فأوقف تتبع قوات المارسيون المواجهة واتجه مباشرة إلى قلب أراضيهم حول « بونا » التي إستولى عليها وخربها . وتلقى « باجي راو » رسالة عاجلة للعودة . ولكنه بفهم إستراتيجي جيد لم يعر أى إهتمام لنداءات بلاده وبدلاً من العودة قابل حركة « الملك نظام » بحركة مضادة إذ هدد بدورمه عاصمة « الملك نظام » وهي : « أورانج أباد » ، وكما كان متوقعاً ترك « الملك نظام » إقليم « بونا » وعاد لينقذ « أورانج أباد » ولم يستولى « باجي راو » على العاصمة تماماً ولكنه نهب المنطقة المجاورة . وحاول الملك نظام مرة أخرى إقتناص « باجي راو » حتى هرع المارسيون وطوقوا قواته . وظل « الملك نظام » محافظاً على تماسك قواته ، إلا أنه إستسلم في مارس ١٧٢٨ لليأس ، وعاد المارسيون إلى ديارهم ، محملين بالغنائم ، وكان من شروط السلام التسليم لهم ببعض مطالبهم الإقليمية .

نهاية الاستعمار الفرنسي في الهند

ومن الواجب ذكر الحصون في الهند ، حيث كان بعض حصونهم تماثل في القوة أفضل حصون أوروبا في القرون الوسطى .

وأكثر هذه القلاع شهرة التي كانت مقاومة فوق التلال والتي منها على سبيل المثال حصن « ماندو » (في جوجارات) ويرتفع التل الذي يقع عليه « ماندو » إلى ١٠٠٠ قدم فوق سطح السهل . ويعطى الحصن منظراً قوياً ورهيباً عند النظر إليه من أسفل ، بأسواره القوية ومزاغله وبواباته وخاصة جانبه الجنوبي شديد الإحذار .

وقد بنيت التحصينات بواسطة « شاه هوشانج غوري » (١٤٠٦ - ١٤٣٥) . ومن الواضح أن تشييدها كان صعباً للغاية نظراً لارتفاع التل ووعورة الأرض .

وتتمثل القوة الرئيسية للحصن « ماندو » في سورهِ القوي المزود بشرفات لإطلاق النيران والمبنى من البازالت الرمادي المقام على حافة التل في نهاية الجرف فوق الخندق المحيط بالحصن وقوى في نقطة منه بتنوءات وبعدهد البوابات المدافع عنها بالقوة الرئيسية لماندو .

ومن أعلى الشرق كانت تجرى قناة واسعة عميقة إلى داخل وسط المدينة ، وكان يحميها ممر مرتفع أطلق عليه « الدرجات السبعائة » والذي بنى على طول مصبها . أما المدخل الرئيسي فيقع في الجانب الشمالى حيث يخترق المنحدر الحاد ممر يقع عليه ثلاثة بوابات متتالية .

وأعلى هذه البوابات كانت « بوابة دلهى » وهى قنطرة ضخمة مبنية من الحجر الجيري الأحمر ، أما البوابتان الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية فكانتا قويتان ، كما أن ممر « تارابور » كان ضيقاً وعميقاً ، وقد ساعد على سهولة الحراسة وجود منعطفات على شكل زاوية قائمة وفى نطاق البوابات .

وكانت الأبواب مصفحة بالحديد وبصفوف من المسامير الحديدية لحمايتها من إقتحام الفيلة . وإذا قدر لمهاجم ودخل الحصن ، فسيعرض لهجوم من المؤخرة متمثلاً فى المدافعين عن السور الغربى .

وتحتوى قلعة « ماندو » نفسها على أما كن ومساجد جميلة وكثيرة ، وكان القرن ١٥ من أبهى وأعظم أزمنتها .

وفي عام ١٥٦٧ استولى عليها « باهادور^(١) » ، ومع حلول القرن ١٧ بدأت مبانيها في التصدع وإحتاجت إلى ترميم . ومن بين القلاع العديدة المشهورة في الهند « أجرا » و « داوالت آباد » و « مادورا » . ولم يكن فن الحصار الهندي يزيد عن إستخدام المنجانيق ، والمدفعية الثقيلة فيما بعد . وكان دائماً أعظم الاستراتيجيين الذين مروا على الهند كانوا يتجنبوا التعرض لحصونها الهائلة ويقومون بالالتفاف من حولها .

وأخيراً يجب علينا أن نتعرف على الأوروبيين الأوائل في الهند . وكان البرتغاليون هم أول القوات التي قدمت إلى الهند . وفي السنوات الأولى من القرن ١٦ ، أنشأ « البوكورك » أول سلطنته برتغالية واسعة في الهند معتمداً على التفوق البحري ، وفي القرن ١٧ حل الهولنديون محلهم كأبرز قوة أوروبية في الهند . وفي ذلك الوقت تزايد عدد الأوروبيين المتطوعين للقيام بخدمات للحكام المحليين الهنود ، وبشكل خاص كصناع للمدافع أو كرجال مدفعية . وفي منتصف القرن ١٨ أصبح الطريق خالياً للصراع الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا ، حيث أصبح الهولنديون في ذلك الوقت ضعفاء ، كما أن الجيش المغولي أصبح ثقيلًا وبطيئًا ويفتقر للقيادة البارعة . كما أن أسلوب المارسيون في الحرب فقد حيويته ، ولم يعد قادراً على الصمود في وجه قوات مدربة ومجهزة بأحدث الأسلحة النارية . وأستغل الفرنسيون والبريطانيون في صراعها التفكك السياسي في الهند .

وكانت القواعد الرئيسية لبريطانيا في الهند هي « مدراس » و « بومباي » و « كالكوتا » ، أما القواعد الفرنسية الرئيسية فكانت « بوندشيري » . وكان الفرنسي « جوزيف دوبليكس » أول أوروبي يقوم بتدريب قوات هندية على الطريقة الأوروبية للحرب ، وذلك بأعداد كبيرة وبنجاح كبير . وكان بارعا أيضاً في الدبلوماسية بين الحكام المحليين الهنود ، وذلك بأكتساب حلفاء له ، وفي نفس الوقت يوقع بين الحكام وبعضهم لصالح فرنسا .

وجاءت حرب الأرت النمساوى فى أوروبا (١٧٤٠-١٧٤٨) لكى تعطى الفرنسيين المبرر لمهاجمة البريطانيين فى الهند . وأستولى « دوبليكس » على « مدراس » . وعلى أى حال لعبت « شركة الهند الشرقية البريطانية » دور الفرنسيين . وبدأ الإنجليزى « سترنجلورنس » فى تكوين قوات من السباهيين^(١) . وبرز بعد ذلك الإنجليزى « روبرت كليف » كدبلوماسى وكعسكرى أقدر من « دوبليكس » . ولم يقطع السلام فى أوروبا الصراع الاستعمارى فى الهند . وقد نجح كل من « دوبليكس » و « دى يوزى » لفترة فى الدكن .

ولكن فى عام ١٧٥١ أثبت « كيف » شجاعته وبراعته فى القيادة بدفاعه البطولى عن « أركوت » ب ٢٠٠ من البريطانيين و ٦٠٠ من السباهيين . وبحلول عام ١٧٥٦ تغير الموقف ، فقد أستدعى « دوبليكس » للعودة إلى فرنسا ، وأصبح الفرنسيون بدون قائد بارع . ولاح فى الأفق تهديد ، كان فى نفس الوقت فرصة سانحة عندما جلس « سراج الدولة » على عرش البنغال ، والذي كان ضد البريطانيين ، وأستولى على كالكوتا بجيش قوته ٥٠٠٠٠ رجل ، وقد سجن أسراه فى « القلعة السوداء » المشهورة ، وعاملهم معاملة سيئة . وأنطلق « كيف » على رأس حملة لنجدة المدينة ، وأعلنت الحرب مرة أخرى فى أوروبا ، وصمم « كيف » على إستغلال الفرصة ومتابعة التقدم وأستطاع الإستيلاء على « تشاندرا ناجار »^(٢) ، وبعدها بدأ يعمل على إضعاف مركز « سراج الدولة » فى البنغال بأثارة نزاع بين حاشيته .

وكانت النتيجة إغراء أحد الأمادة الكبار وهو « ميرجافار » الذى وعد بمعاونة الإنجليز . وفى بلاسى تقابل « كيف » مع جيش « سراج الدولة » وكان لدى « كيف » حوالى ٨٠٠ أوروبى و ٢٠٠٠ من السباهيين و ٨ قطع من المدفعية فى مقابل ٣٤٠٠٠ جندى مشاة و ١٥٠٠٠ فارس و ٥٣ مدفعا . وكانت الأعداد التى يواجهها « كيف » تدعو إلى اليأس ، إلا أن البريطانيين تمركزوا فى مواقع جيدة فى ستر مزرعه للمانجو ، وحدث بطريق الصدفة أن سقط المطر غزيرا مما أدى تعطيل المدفعية الهندية ، ولجأة أصاب الذعر « سراج الدولة »

(١) القوات الهندية المدربة بواسطة الأوربيين والى بقيت فى خدمتهم .

« العرب »

(٢) قلعة فرنسية

وأنطلق هاربا . وتولى « ميرجافار » (والذي كان يجلس على الحاجز يراقب الأمور) قيادة عملية الإنسحاب المجهز من قبل .

وكانت القيادة في الجانب الهندي رديئة لدرجة أن معركة « بلاسى » كانت مجرد مناوشة وبعض أعمال الشغب من حشد مضطرب . وأعقب ذلك إنتصارين آخرين حققهما كل من الأدميرال « بوكوك » و « السير أيركوت » قضيا تماما على الوجود الفرنسى وفتح الطريق أمام توسع السيطرة البريطانية على الشعوب الوطنية في الهند .

ترقبوا

القرارات المميته

بقلم : — الجنرال س . ل مارشال

ومجموعة من الجنرالات الألمان

تعريب وتعليق : — العميد فتحى عبد الله النمر

يتضمن هذا الكتاب

* شرح الأخطاء العسكرية التكتيكية والأستراتيجية التي أرتكبها هتلر في الحرب العالمية الثانية وأدت إلى هزيمته .

* لأول مرة في التاريخ يشترك الجنرالات الألمان مع الجنرالات الأمريكان في تأليف كتاب .

* ترجم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة لأنه المصدر الوحيد الصادق والحقيقى عن أمرار الحرب العالمية الثانية .

* يقع الكتاب فى ستة أجزاء يصدر على أجزاء فى أول كل شهر مع

جوائز للقراء . الثمن ١٠ ^٢ للجزء الواحد

هكذا ينتهى الجزء الخامس من الكتاب ، أما الجزء السادس فضمنه مونتهجمرى الآتى : —



العميد فتحى النمر

- * أعمدة المجتمع الجديد . . .
- * كلاوزفيتز وجومينى . . .
- * الآلة الجهنمية . . .
- * حرب القرم . . .
- * الجرثومة العسكرية . . .
- * الحرب الأهلية الأمريكية . . .
- * الموت فى سبيل المبدأ . . .
- * بؤرة المشاعر الوطنية . . .
- * التكنولوجيا العسكرية . . .
- * حرب البوير . . .
- * الجنرال الأبيض . . .
- * الحرب الروسية اليابانية . . .
- * حرب لإنهاء الحرب . . .
- * خطة شليفن . . .
- * غاز المستردة . . .
- * صرخات الموتى الأخيرة . . .
- * حرب الغواصات . . .
- * التخبط الروسى . . .
- * سر القطار المغلق المتجه إلى روسيا . . .
- * مصطفى كمال أتاتورك . . .
- * لورنس والعرب . . .

فإلى اللقاء مع مونتهجمرى على صفحات الجزء السادس .

عميد
فتحى حميد النمر

مسابقة القراء

عدد

الجائزة الأولى : — ١٠ جنيهات مصرية ١

الجائزة الثانية : — ٣ جنيهات مصرية ٢

الجائزة الثالثة : — ٢ جنيه مصرية ٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحدها صحيح ، فعلى القارئ أن يضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم اختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع في مظروف عليه طابع بريد وترسل في بخر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالي :-

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لاختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين في الجزء التالي للكتاب والذي يظهر في أول كل شهر .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمري الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

أسماء الفائزين في مسابقة الجزء الرابع

حل المسابقة :-

- ج ١ : ٢ — أطفول .
ج ٢ : ١ — إربان .
ج ٣ : ٣ — ٧٠٠٠٠ .
ج ٤ : ٢ — دون جوان .
ج ٥ : ١ — جوستاف وتيلي .
ج ٦ : ٢ — ولنشتين .
ج ٧ : ٣ — ٨ مليون فرد .
ج ٨ : ٢ — قرد كرومويل .
ج ٩ : ٣ — سباستيان دي فوبان .
ج ١٠ : ١ — مارلبورو .

الجوائز :-

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢١٢٣ .

باسم : شريف عادل عبد العاطي

العنوان : ٨ شارع الجوهري جسر السويس / الزيتون

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٨٧٨

باسم : الفقيب محمود رضا عبد المطلب

العنوان : الوحدة رقم ٢٦٨٨ ج ٥٨

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٥٠٤

باسم : أميره مفير صالح

العنوان : ١٥ شارع محمد يوسف سليم — مصر الجديدة

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعدادها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٤٨٩

باسم : سعد إبراهيم ميخائيل (القوات المسلحة سابقا)

العنوان : ٥ شارع باسيلى حنا الله — المأظة — مصر الجديدة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٤٤٢٩

باسم : محمد أحمد اللبى

العنوان : ص . ب ٨٤٤ — بنى غازى — ليبيا .

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٤٣٠٨

باسم : سعيد إبراهيم الأصبغ

العنوان : ص . ب ١٤٢١ الكويت

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد

(عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* ونظراً لوجود بعض القراء خارج جمهورية مصر العربية سيتم إرسال جوائزهم

عن طريق البريد الموصى عليه .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتهجرى لكل

جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة

جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

المسابقة مرة ٠٠٢٨١٢

١ — كان أبرز القادة الفرنسيين في حرب « المتابع النمساوي » (١٧٤٠ - ١٧٤٨) هو

١ — المركيز دي ساكس .

٢ — لورد أنسون .

٣ — لورد ليجونير .

٢ — من قال هذا : — « ان لحظة واحدة يمكنها ان تحدد مصير المعركة »

١ — ويلنجتون .

٢ — نابليون .

٣ — فيلسون .

٣ — كان تعداد القوات الفرنسية في معركة أوسترليتز .

١ — ٦١٠٠٠ مقاتل + ١٣٩ مدفعا

٢ — ١٠٠٠٠٠ مقاتل + ٢٠٠ مدفعا

٣ — ٩٠٠٠٠ مقاتل + ٢٧٨ مدفعا

٤ — التقى ويلنجتون مع نابليون لأول مرة في معركة

١ — كورونا .

٢ — ووترلو .

٣ — أولم .

٥ — « التوهان » هي

١ — قوانين جانكيز خان .

٢ — معركة بين المغول والصين

٣ — وحدة تتكون من ١٠٠٠٠ رجل

٦ — انتشرت الديانة « الكونفوشيوسية » في

١ — اليابان .

٢ — الهند .

٣ — الصين .

٧ — يهتد سور الصين العظيم حوالى

١ — ١٦٠٠ ميل .

٢ — ٨٠٠ ميل .

٣ — ٢٠٠٠ ميل .

٨ — هضبة الدكن تقع فى

١ — تركيا .

٢ — الهند .

٣ — اليابان .

٩ — كتاب « الارزاساترا » فى الحكم والف

١ — الموريا .

٢ — الجوبتا .

٣ — كوتيليا .

١٠ — « فدها فدها » عبارة عن

١ — ألقاء الضحية أرضا وسحقها بالقدمين

٢ — التحرك للأمام وللأجناب أو القيام بتحركات متعرجة

٣ — القتال فى تشكيلات

الاسم

العنوان

رقم الايداع ٤٠٣٨ لسنة ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة
٢ شارع المنصور بالبحرية - القاهرة

المحج عبيد النمر

A HISTORY OF WARFARE

الجزء السادس

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمري

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبيد النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكلية العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
فى عيد العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

الفرس

الصفحة	الموضوع
	الفصل الثامن عشر : بدايات الحرب الحديثة
٥٧٩	أعمدة المجتمع الجديد *
٥٧٩	كلاورفتيز وجوميني *
٥٨٤	آلة الجهنمية *
٥٨٩	حرب القرم *
٥٩٥	فون مولتكه *
٦٠١	الجرثومة العسكرية *
٦٠٢	التخبط الدامى *
٦٠٨	الحرب الأهلية الأمريكية *
٦١٥	الموت فى سبيل المبدأ *
٦١٨	الفصل التاسع عشر : الدروس القاسية
٦٢٤	بؤرة المشاعر الوطنية *
٦٢٤	التكنولوجيا العسكرية *
٦٢٧	ظهور الغواصات *
٦٣١	الحروب الصغيرة *
٦٣٣	حرب البوير *
٦٣٦	الجنرال الأبيض *
٦٣٩	الحرب الروسية اليابانية *
٦٤٢	تأثير القوة البحرية على التاريخ *
٦٤٧	

تابع الفهرس

الصفحة	الموضوع
٦٥٢	الفصل العشرون : الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . .
٦٥٢	* حرب لإنهاء الحرب
٦٥٦	* خطة شليفن
٦٧٢	* غاز المستردة
٦٧٤	* صرخات الموتى الأخيرة
٦٨٦	* حروب الغواصات
٦٨٩	* التخبط الروسى
٦٩٣	* القطار المغلق المتجه إلى روسيا
٦٩٥	* مصطفى كمال أتاتورك
٦٩٦	* لورانس والعرب
٧٠٤	* اليوم الأسود للجيش الألماني
	الخرائط :
٦٠٥	* اللوحة رقم ٤٠ : وسط أوروبا فى القرن ١٩ . .
٦١٠	* اللوحة رقم ٤١ : معركة جرافيلوت - سانت بريفات .
٦١٩	* اللوحة رقم ٤٢ : الحرب الأهلية الأمريكية . .
٦٤٠	* اللوحة رقم ٤٣ : البلقان (١٨٧٦ - ١٨٧٨) . .
٦٤٤	* اللوحة رقم ٤٤ : الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤ .
٦٥٥	* اللوحة رقم ٤٥ : خطة شليفن والجهة الغربية . .
٦٦٠	* اللوحة رقم ٤٦ : معركة تانبرج
٦٦٦	* اللوحة رقم ٤٧ : الحرب فى شرق وجنوب شرق أوروبا.
٦٩٩	* اللوحة رقم ٤٨ : الحرب فى الشرق الأوسط . .

الفصل الثامن عشر

بدايات الحرب الحديثة

أعمدة المجتمع الجديد

وصلنا الآن في دراستنا للحرب إلى المرحلة التي أصبحت الحرب فيها مهنة إحتراف ومعقدة بدرجة كبيرة . ومع حلول القرن ١٩ بدأت الدلائل تشير إلى إزدياد حدة الحرب وتأثيرها المتزايد على المجتمع . وقد أدت الثورة الصناعية والكثافة السكانية أن المجتمعات نظمت نفسها من الناحية الحربية وبطريقة أكثر تكاملاً ، وأصبحت الجيوش مجهزة وأسلحة أكثر قوة عما قبل .

وقد تطور هذا النوع من الحرب بشكل رئيسي بأوروبا وأمريكا ، إلا أنه إنتشر بنفس الشكل بعد ذلك في جميع بقاع العالم . وفي الواقع شهدت الفترة من ١٨١٥ — ١٨٤٨ سلام نسبي في أوروبا . وعلى أى حال ، فقد حدثت خلال هذه الفترة تطورات عامة أثرت تأثيراً مباشراً على ظهور الحرب الحديثة . وبدأت الأفكار الإستعمارية والقومية تقوى ، كما إنبثقت التغييرات الثورية في الجيوش والمعدات مع كبر التعداد السكاني وظهور الوسائل الفنية الجديدة في الصناعة . وأدت وسائل المواصلات الجديدة إلى زيادة سرعة تقدم الحياة بشكل شامل . وظهر المفكرون العسكريون والسياسيون والذين إستغلوا هذه العوامل بعد أن وضعوا لها مختلف التفسيرات والمبررات . وقبل عام ١٨٤٨ لم تكن هذه التطورات سوى أفكار تجريبية ، إلا أن جرب الكثير منها في القتال الذي دار في السنوات العشر اللاحقة تقريباً . وأخيراً حددت الوسائل الجديدة والتي استخدمت في الصراعين الرئيسيين الكبيرين الذين حدثا في القرن ١٩ وهما الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) والحرب الفرنسية — البروسية (١٨٧٠ — ١٨٧١) الطريق إلى ما هو محتمل

حدوثه في الصدام بين القوى الكبرى ، وهو الإحتمال الذي تحول إلى حقيقة في النصف الأول من القرن ٢٠ .

وربما كانت أكثر الجذور الإجتماعية أهمية في التطورات الجديدة هي الزيادة في تعداد السكان . ففي الفترة من ١٧٥٠ -- ١٨٠٠ زاد سكان أوروبا من ١٤٠ مليون إلى ١٧٠ مليون ، وفي عام ١٨٥٠ وصل تعداد سكان أوروبا إلى ٢٧٤ مليون . وفيما بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٧٠ زاد التعداد بنسبة ٣٠ ٪ . وفرضت هذه الزيادة الهائلة من السكان ضغوطاً كبيرة على الحياة الوطنية ، وتواجد سيل متدفق من الهجرات إلى خارج أوروبا ، غرباً إلى أمريكا الشمالية حيث وصل التعداد إلى ثلاثة أضعافه بين عامي ١٨٣٠ ، ١٨٧٠ وشرقاً إلى آسيا ، وبدون شك قللت هذه الهجرات من التوتر في أوروبا ولكن من ناحية أخرى أعطت حافزاً للاستعمار . أما الأعداد التي بقيت في أوروبا فقد وفرت الأيدي العاملة للمصانع الجديدة . وجاء الإنتاج الضخم لهذه المصانع ليحدث تطوراً ثورياً في صناعة السلاح ، وبالإضافة إلى ذلك توفر عدد كبير من الرجال الصالحين للتجنيد حيث قبل وأقر مبدأ التجنيد العام . ولم يكن تزايد أعداد المجندين بالأمر الهين والسهل لأنه خلق معه مشاكل في النقل والإمداد وأيضاً في التحرك التكتيكي للجيش ، أضف إلى ذلك تزايد تأثير ونفوذ الرأي العام في تصريف وإدارة الأمور ، والذي برز كعامل جديد تعين على القادة العسكريين والسياسيين أن يضعونه في حساباتهم . وقد وفر السلم النسبي في أوروبا بين عامي ١٨١٥ ، ١٨٤٨ الفرصة لأن تحل الأمور سلمياً . وكانت أوروبا تحكم بواسطة حكام محافظين وخاصة مترنيخ (النمسا) والذي تأمر ليحافظ على التسوية الدبلوماسية التي وصل إليها مؤتمر فيينا ، وليخدم شعلة القومية والحرية والتحول الإجتماعي . وكان الشاغل الأول للدول الكبرى هو تطوير صناعاتها وتجاريتها ، وحلت التجارة الحرة محل النظام التجاري المركنتلي^(١) في الشؤون الاقتصادية .

وبدا أن مصالح جميع الشعوب المادية تتطلب المعاشة السلمية مع بعضها . وتميزت

(١) نظام إقتصادي نشأ في أوروبا خلال أضمحلال الإقطاع ليميز ثروة الدولة عن طريق التنظيم الحكومي الصارم لكل الإقتصاد الوطني .
«المغرب»

العلاقات الاقتصادية بين الدول المنافسة مثل ما تميزت بالاعتماد المتبادل . وفي بريطانيا أعلن الأمير « ألبرت » عند إفتتاحه « المعرض الكبير » في عام ١٨٥١ عن إعتقاده بقرب تحقيق « الوحدة البشرية » ، وخطط أتباع الفيلسوف « سان سيمون » إلى إعادة تنظيم المجتمع الأوروبي ، ونادوا بالمهندسين ورجال المال على أنهم أعمدة المجتمع الجديد والذي هو مجتمع السلام الطبيعي الجديد . وهنا برزت بريطانيا ، كأقوى قوة بعد خروجها منتصرة من الحروب النابوليونية بالإضافة إلى كونها الدولة القائدة في الثورة الصناعية ، وكان يلاحظ تماماً أن يسود السلام بقاع العالم . وتكفلت البحرية البريطانية والتي لم يتحداها أحد منذ معركة « الطرف الأغر » بالحفاظ على السلم البريطاني بحراستها للبحار والتدخل لمساعدة القضايا التي تستحق التدخل وعلى سبيل المثال إزالة الرقيق من البرازيل .

الحروب الاستعمارية

وعلى أى حال فلم يتجنب القتال كلية بين عامى ١٨١٥ ، ١٨٤٨ ، فوجدت القومية التي اتخذت من الحرية والرومانسية مخارج في ثورات عديدة ، ولكن هذه الثورات قهر معظمها على يد القوى الكبرى الإستبدادية . وعلى سبيل المثال ، فقد أخذت النمسا في عام ١٨٣١ ثورة في الولايات البابوية ، وفي نفس العام حطم الروس البولنديين بعد مقاومة مستميتة يائسة في « أوسترو لنكا » . وفي عام ١٨٤٨ اندلعت موجة كبيرة من النشاط الثورى ، وعادت المتاريس للظهور مرة أخرى في شوارع معظم مدن أوروبا ، وذلك لتوقعات ماركس بحرب طبقية ومبادئ « لامارتين » الجمهورية .

ولكن القوى الرجعية سحقها بحسم بعد الكثير من حمامات الدم ، وبالرغم من ذلك ، فقد كان هناك تعاطفاً مع بعض الحركات . وقد أيدت الإمبراطورية العثمانية كفاح اليونانيين من أجل الإستقلال ، ولم يكن ذلك التأييد من « بيرون » فقط بل أيضاً من الأسطول البريطاني بقيادة « سير إدوارد كودرنجتون^(١) » ، كما كان هناك تعاطفاً مع ثورة بلاد أمريكا الجنوبية لتحرير أنفسها من الإرتباطات الأسبانية والبرتغالية . وكانت هناك حرب لمدة ١٥ عاماً في جنوب أمريكا والتي حدث خلالها قتال ضارى على الهضبة

(١) الذى دمر القوى البحرية لتركيا وحلقتها مصر في خليج نافارين عام ١٨٢٧ . «المعرب»

العالية « بيرو » و « بوليفيا الحديثة » ٠ وفي عام ١٨١٦ بدت أسبانيا وكأنتها على وشك إستعادة سيطرتها ، ومن ناحية أخرى كان هناك محرران عظيمان هما « جوزيه دى سان مارتين » و « سيمون بوليفار » يجهزان جيوشهما .

وبعد أكثر من عامين من التدريب والتخطيط غزا « سان مارتين » شيلي وذلك من خلال مرتفعات « الأنديز » ، ونفذت هذه العملية في أكثر الظروف مشقة وعلى مواجهة ٥٠٠ ميل . وبعد أن حشد قواته في إحكام ودقة فاجأ عدوه عند « شاكابوكو » في فبراير ١٨١٧ . وبعدها حررت « بيرو » بمساعدة أسطول بقيادة بحار بريطاني غريب الأطوار ولكنه جرىء وهو « توماس كوشران » . وفي نفس الوقت في الشمال ، زحف « بوليفار » ومعه قوة مختلطة من المرتزقة الأجانب خلال السهول الحارة والموحلة « لأورينكو » ، ومن فرق القمم العالية الكئيبة القارسة البرد لجبال « الأنديز » .

ويمكن كتابة قصة مثيرة عن هذه المغامرات وعن بطولة المحررين ، ولكن كان القتال بعيداً جداً عن ذلك النوع الخاص بالحرب الحديثة . وبصفة عامة فإن نفس الشيء ينطبق على الحروب الإستعمارية ، كما توضح السطور التالية .

ففي هذه الفترة إستأنفت الولايات المتحدة تنفيذ هدفها الجلى وهو مد حدودها إلى الحافة الغربية لقارة أمريكا الشمالية ، إلا أن ذلك أدى إلى حدوث الكثير من القتال وخاصة ضد الهنود الحمر والمكسيكيين . ومن أشهر ما وقع من أحداث خلال هذا القتال ، الدفاع عن « الامو » في تكساس (١٨٣٦) و صمود اللواء السابع الخيالة الأمريكى بقيادة « كستر » عند نهر « ليتل بيج هورن » في « مونتانا » (١٨٧٦) ضد قبائل « سيو كس والشينى » .

وفي جنوب أفريقيا خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن ١٩ أجبر البريطانيون قبائل البوير على ترك « الكاب » والإتجاه شمالاً ، وبذلك تورط البوير في قتال مشوش مضطرب مع قبائل « البانتو المحاربة » .

وقد إلتهمت قبائل « الزولو » في شكل قوة محاربة رهيبة بواسطة « شاكا » ، ولكن أمكن في النهاية للبوير بقيادة « بيت رتف » سحق خليفته « دينجان » عند نهر

« بلود » . وحدث قتال دامي قبل أن يتمكن البريطانيون من قهر « المورى » فى نيوزلندا وذلك فى ستينات القرن ١٩ . وقد إنشغلت القوات البريطانية فى الهند بصفة مستمرة . وفى عام ١٨٣٧ نشبت الحرب الأفغانية الأولى وبدأت معها حقبة جديدة من الحرب والغزو وإستمرت لمدة ٢٠ عاماً . وكان لابد من تأمين الحدود الشمالية الغربية ، ولذا وضعت السند تحت السيطرة فى عام ١٨٤٣ ، وذلك عندما إستطاع « شارل ناير » ومعه ٣٠٠٠ مقاتل من سحق ٢٠٠٠٠ بلوخستاني عند « ميني » وقد اعتبرت من أروع إستخدام للأسلحة فى التاريخ الهندى .

وفى عام ١٨٤٩ هزم السيخ عند « جوجرات » ، إلا أن موقف بريطانيا فى الهند تعرض للخطر نتيجة للتمرد الذى قام به الجيش الوطنى فى ما بين عامى ١٨٥٧ — ١٨٥٨ . وحقت الحملات التى كلفت بقمع هذا التمرد بعض الاستخدامات الرائعة للأسلحة وخاصة فى تطهير وسط الهند بواسطة « سير هيوروز » . وأخذ البريطانيون أيضاً السبق فى المنافسة العامة التى دارت بين القوى الأوروبية لإستغلال الصين حيث وقعت حرب الأفيون بين عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، وفى ثورة « التماى بنج » فيما بين عامى ١٨٥٠ ، ١٨٦٤ . وبينما هاجم البريطانيون والفرنسيون الصين من الجنوب والشرق ، إختطف الروس ما يمكنهم خطفه فى الشمال والغرب . ولم يعق روسيا ويؤخر عملياتها فى الصين سوى إنشغالها فى البلقان والمقاومة العنيفة لرجال العصابات المساحين فى القوقاز تحت قيادة الزعيمين المسلمين الباهرين « كاظم الله » و « شاميل » ، إلا أن روسيا كانت تتبع الآن أيضاً خطاً واضحاً للتوسع إلى داخل التركستان وسيبيريا . وتعطى قصة الحروب الإستعمارية فى القرن ١٩ الكثير من الدروس المستفادة وليس فقط فى وصف الشخصيات العظيمة وأعمال البطولة ، بل تروى أيضاً الكثير من الأحداث المثيرة ، فقد أظهر التصادم بين الحروب الأوروبية والبدائية بجلاء أنه لا يمكن للأعداد أو الشجاعة أن تصمد أمام الأسلحة والنظام المتفوقين . ويمكن ملاحظة أن الأهالى الوطنيين فى بقاع العالم بدأوا فى التعلم من تجاربهم الغير سارة ، وأخذوا يصنعون حروبهم بالصيغة الأوروبية .

كما أن هذه الحروب الإستعمارية كانت أيضاً فرصة للأوروبيين أنفسهم لي تجربوا

فنونهم وأفكارهم الحربية الجديدة ، ولكن ظل تيار التطور الرئيسى محصوراً فى أوروبا وفى الجزء القديم من الولايات المتحدة الأمريكية .

كلاوزفيتز وجومينى

ومع حلول عام ١٨٤٨ إنتهت فترة السلام فى أوروبا وذلك عندما سقط رجال الحزم الذين صنعوا إتفاقية فينا ، وإنتقل زمام الأمور الآن إلى أيدي رجال أمثال « بالمرستون » و « نابليون الثالث » و « كفور » و « بسمارك » .

ومرة أخرى بدأ نجم القومية يتألق ، وإختل التوازن السياسى عندما بدأت القوى تتطلع بحقد وغيره إلى الإمبراطورية العثمانية المتداعية . ومن عوامل إختلال التوازن أيضاً اتحاد وألمانيا الذى كان بمثابة التحدى لموقف فرنسا وخلال ١٧ عاماً حدثت أربعة حروب هامة : — حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) التى وقعت بين كل من إنجلترا وفرنسا وتركيا متحالفين ضد روسيا ، والحرب الإيطالية فى عام ١٨٥٩ والتى كان الخصمين الرئيسيين فيها هما فرنسا والنمسا ، والحرب بين بروسيا والنمسا فى عام ١٨٦٦ ، والحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ — ١٨٧١) .

وبدأت الحرب الأوروبية الآن تشعر بتأثير النظريات العسكرية التى وضعها كل من « جومينى » و « كلاوزفيتز » ، وأيضاً بتأثير الثورة الصناعية والإنتفجار السكاني . وفى القرن ١٩ كان على الفكر العسكرى أن يأخذ فى الاعتبار التطورات الجديدة ذات الأهمية الرئيسية ، ألا وهى الزيادة الهائلة للسكان وإزدياد وقوة القومية وإنتشار المواصلات السريعة وظهور الاختراعات الفنية والإنتاج الغزير . ويمكن القول بأن الأعوام التالية لعام ١٨١٥ تعتبر فى الحقيقة فترة تفكير عسكرى أصيل ومبدع وحاسم .

وفى عام ١٨٣٢ صدرت الطبعة الأولى من كتاب « فون كلاوزفيتز » (١) فى الحرب .

وفي عام ١٨٣٧ ظهر كتاب « هنري جوميني » « ملخصات لفن الحرب » . وقد أدلى هذين المفكرين بتأملات عميقة لما شاهداه في الحروب النابوليونية . وقد أصدر « جوميني » السويسري المولد ، كتابه الأول عن النظريات العسكرية وهو في سن ٢٥ عاماً ، ثم انضم في عام ١٨٠٥ إلى هيئة أركان المارشال « ناي » وحضر معركة « أوسترلز » . وأثارت عبقريته وغروره حسد « بيرثير » ولذا فقد ترك الفرنسيين لينضم إلى الروس حيث ظل في خدمتهم لعدة سنوات .

وبعد عام ١٨٢٩ عاش في بروكسل بقية حياته حيث كتب أعظم كتبه ، وظل بروكسل حتى توفي بها عام ١٨٦٩ .

أما « كلاوزفيتز » فقد انضم إلى الجيش البروسي في عام ١٧٩٢ وعمره ١٢ عاماً ، وتولاه بالرعاية « شارنهورست » في أكاديمية برلين للضباط . . وبعد معركة « جينا » (١٨٠٦) تولى كلاوزفيتز دوراً رئيسياً في إصلاح الجيش البروسي . وفي عام ١٨١٥ كان من ضمن ضباط الأركان في معركة « ووترلو » . ومن عام ١٨١٨ حتى وفاته في عام ١٨٣٠ ظل مديراً للمدرسة الحربية البروسية . وبالرغم من أن تجارب « كلاوزفيتز » و « جوميني » كانت متماثلة إلا أن كلا منهما استخلص مدخل نظري مختلف إلى الحرب . وحيث أن آراء هذين المفكرين كان لهما تأثير عميق على التفكير العسكري في عصرهما ، وكذلك في الأعوام الأولى للقرن ٢٠ ، فربما يساعد القارئ الغير العسكري أن يلم ببعض المعلومات عن ميولهما المختلفة نحو الحرب .

فالكتاب الذي وضعه « جوميني » يعتبر أساساً تحليلياً فنياً لإدارة الحرب ، يعتمد فيه على دراسته لحملات فردريك الأكبر و نابليون ، إلا أنه لم يوفق في إدراك أنه بحدوث الثورة وظهور نابليون فقد بزغ عهد جديد على فن الحرب ، كما فاته تفهم ما استجد من عوامل جديدة في عصره ، وبالتالي فقد رجع بالفكر العسكري إلى الوراء أي للقرن ١٨ ، وعلى كل فيعتبر مدخل إلى الفكر العسكري ، وقد وجد فيه الكثير من العسكريين المحترفين في القرن ١٩ راحة وأمناً .

وقد ركز كتابه تركيزاً شديداً على الرياضيات أكثر من العوامل المادية والنفسية .

وطبعاً لا يمكن للمرء ، كما تعلمت أنا شخصياً ؛ أن يدير حرباً ناجحة بمثل هذه الطريقة .
ورأى أن « جوميني » فشل في إدخال العوامل الغير معروفة والغير متوقعة ؛ وبذلك
فلم يتمسك بالحقيقة القائلة بأنه « لا يوجد شيء مؤكد في الحرب سوى شيء واحد فقط ألا
وهو أن كل شيء بها غير مؤكد » .

أما كلاوزفيتز فقد دخل بطريقة عكسية ، فبالرغم من تعامله بالرياضيات ، إلا أنه كان
أكثر تعمقاً في الحرب كظاهرة إجتماعية ونفسية ، ويرجع ذلك إلى أنه كان لديه تفهم عميق
لهذه العوامل . كما بدا له الشعور الإنساني أكثر إثارة وأعظم أهمية من مجرد الخطوط والزوايا .
وقد أدرك أن الحرب لا يمكن فهمها بل لا يمكن عزلها عن حليفتها الاقتصادية

والاجتماعية وأيضاً عن دوافع السياسة وحوافز البشر . وكان يؤمن بأن تدمير قوات العدو
المسلحة هو الهدف الأول للقيادة ، وأن أفضل وسيلة للوصول إلى ذلك هو بالهجوم المباشر ،
(ودعنا من القادة الذين قهروا أعدائهم بدون إراقة دماء) . وقد أكد أهمية الحشد والتركيز
في وسائل نابليون ، ولكنه فاته أهمية الفتح المرن والذي فهمه جيداً نابليون . وقد أرجع
الكثير ، المذابح الدموية^(١) التي حدثت في الجبهة الغربية في حرب ١٤-١٩١٨ إلى تفكير
كلاوزفيتز العسكري . كما فات على كلاوزفيتز مثل « جوميني » بعض النقاط الهامة في تحليله
العملي للعمليات ، وربما كان السبب أنه كان يكتب من وجهة نظر بلده ألمانيا . وأيضاً غفل
عن عامل القوة البحرية ، وفشل في إعطاء الاهتمام الكافي بعنصر تحرك القوات لتحقيق الحشد
وفضل عليه الحشد الفعلي المبدئي .

وفي هذا الصدد كتب : « لا يوجد في الاستراتيجية قاعدة أكثر بساطة من المحافظة
على حشد القوات » .

وفي الفترة التي سبقت مباشرة عصر الآلة ، فإن هذه الملاحظة ، مقترنة بملاحظة أخرى
وهي : — « التفوق العددي يصبح كل يوم أكثر حسماً » قد أدت إلى الطريق المدمر والذي
قاد إلى الأساليب المربعة والعنيفة الخاصة بحرب ١٤ ، ١٩١٨ . ولكن عندما يتقرر ثم
ينفذ كل شيء فإنى اعتبر ليدل هارت على حق عندما أشار إلى أن الكثير من اللوم يجب
أن يوجه إلى هؤلاء القادة العسكريين العديدين المؤهلات والذين ترجحوا تفكير كلاوزفيتز خطأ

آخذين بدون تغيير جملة المروعة كقرائن وأدلة لهم دون فهم سياق معانيها أو دراسة مبرراتها إلا أنه يجب أن نضع في الاعتبار أن لغة كلاوزفetz في الكتابة كانت صعبة الفهم ، وأنا نفسي قد ذكرت في الفصل الثانی أنني لم أستطع فهمه ولذا لجأت إلى المؤرخين من بلدى . ومن المؤكد أن كلاوزفetz قد أدرك أن القوة العسكرية ترتبط جزئياً بالقوى الاقتصادية .

وفي الدولة الحديثة فإن كلا من القوة العسكرية والقوة الاقتصادية أمر ضرورى ، ويجب أن يكون هناك توازن دقيق لهاتان القوتان ، وهذه الحقيقة كثيراً ما كنت أثيرها لرؤسائى من السياسيين عندما كنت رئيساً لأركان حرب الجيش البريطانى فى الفترة ١٩٤٦ — ١٩٤٨ ، وأيضاً عندما خدمت فى منظمة الدفاع الغربية خلال الأعوام ١٩٤٨ — ١٩٥٨ .

مباراة فى اختراق السفن

ومع ظهور الثورة الصناعية ، بدأ تيار دافق من الاختراعات فى الأسلحة والمدركات ووسائل الاتصال والمواصلات . وفى مجال الحرب البحرية ، شهد القرن ١٩ التحول من الشراع إلى البخار . وقد قاوم البريطانيون^(١) عملية التحويل هذه لأنه كان لديهم أقوى أسطول شراعى فى العالم ، وبالتالى فسوف يتعرضون لخسارة رهيبه لحدوث أى تغيير . وهكذا فنجد أن الذى قاد هذا الاتجاه الجديد فى تسيير السفن بالبخار هى القوى البحرية الأضعف أى فرنسا والولايات المتحدة .

وحاول المهندس السويدي «جون أريكسون» إثارة إهتمام الأدميرالية البريطانية بالمروحة الدافعة ولكنه لم ينجح ، إلا أن هذه الأداة أخذتها أمريكا ، وفى عام ١٨٤٣ دشنت الولايات المتحدة أول سفينة حربية تسييرها المروحة الدافعة وهى السفينة «البرينكتون»^(٢) . وأعطاها المحركات البخارية قوى تساوى ٤٠٠ حصان بينما بلغت سرعتها ١٣ عقدة .

(١) لقد كان البريطانيون قادة العالم فى تطبيق واستخدام فن البخار فى نواح أخرى غير البحرية .

(٢) وهى سفينة شراعية ذات صار واحد ومجهزة بمشرفة مدافع بينما مروحتها بستة ريش . «المعرب»

وتبع ذلك في أربعينيات القرن ١٩ تغير نظرة كل من فرنسا وبريطانيا للحرب البحرية .

وفي عام ١٨٤٤ أنزلت إلى البحر أول سفينة بريطانية بمروحة دافعة وهي السفينة « الدوينتلس » .

وفي عام ١٨٥٠ أنزلت إلى البحر كل من بريطانيا وفرنسا سفناً من هذا النوع للخدمة مع أساطيلهما . وكانت السفن الحربية الأولى التي تسير بالبخار سفناً ذات مروحة دافعة وبمحركات غير جيدة الصنع وتستهلك كميات كبيرة من الوقود تجعلها دائماً شبه معتمدة على الشراع .

ومع ظهور السفن الحديدية أصبح الأمر محتاجاً إلى محركات أكثر قوة . وفي خمسينيات القرن ١٩ ظهرت المحركات المزدوجة التي تتألف من أسطوانتين أو أكثر ، ومع حلول عام ١٨٧٠ كانت قوة المحرك قد تضاعفت تقريباً ، وفي ذلك العام تخلت البحرية البريطانية تماماً عن السفن الشراعية .

وفي عشرينيات القرن ١٩ أدرك ضابط مدفعية فرنسي وهو العقيد « بيكسانس » أن أفضل طريق لجعل الأسطول البريطاني الخشبي بدون قيمة هو تسليح السفن بمدافع تطلق قذائف متفجرة بدلاً من الطلقات المصمتة .

وكانت هذه القذيفة الجديدة تشبه قذيفة الهاون ، مملوءة بالبارود وتنفجر بواسطة طابة زمنية ، وكانت تطلق من مسار مسطح من مدفع ، وبالتالي فقد كانت أكثر دقة ، وأظهرت التجارب كفاءة هذه القذيفة الجديدة واستخدمتها البحرية الفرنسية عام ١٨٣٧ وتبعتها البحرية البريطانية والأمريكية . وكان العمل المضاد لإدخال هذه القذيفة هو تزويد السفن بدرع لحمايتها . وأثبتت هذه القذيفة في « سيستابول » عام ١٨٥٤ في حرب القرم تأثيراً كبيراً ضد السفن الخشبية حتى أن الفرنسيين والبريطانيين قاموا ببناء بطاريات عائمة مغطاة بألواح حديدية .

وفي عام ١٨٥٧ سار الفرنسيون شوطاً أبعد وبدأوا في بناء أسطول حديدي . وبنيت أربع سفن من نوع « جلوار » وكانت سفن بخارية خشبية حولت إلى حديدية وذلك بتغطية

جسم السفينة بحزام من الحديد سمكه ٥ سم . وواصلت فرنسا تقدمها في مجال تطوير السفن التجارية المصفحة ، ومضت بريطانيا في أثرها . وحيث أن قذائف المدافع المتفجرة أدت إلى ظهور السفن الحديدية ، فقد كان لابد بالتالى من جعل نيران المدافع أكثر قوة . ولهذا صمم اريكسون برجاً دائرياً للدفع ، ومع حلول عام ١٨٧٠ ظهر المدفع ٧ بوصة . والآن أصبحت تكتيكات عصر الشراع عتيقة لا تلائم التطورات الجديدة .

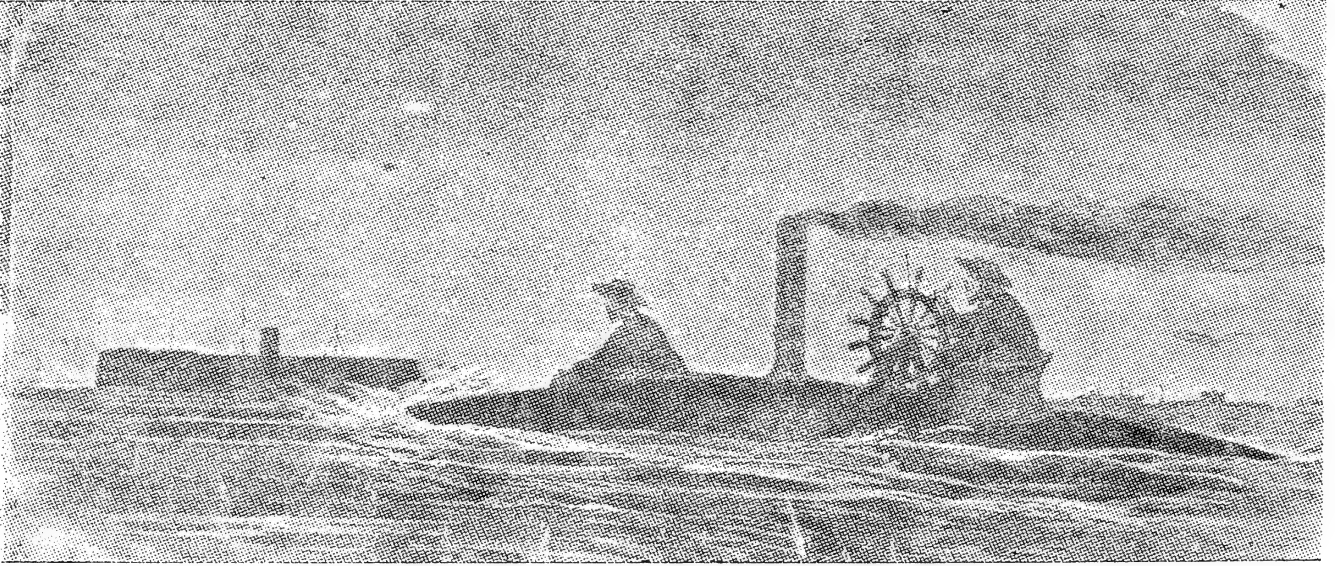
وقد أظهر القتال في « هامبتون رودس » عام ١٨٦٢ خلال الحرب الأهلية الأمريكية بين السفينتين « الميرماك » و « المونيتور » قيمة أبراج المدافع التي تدور وذلك في تحقيق إطلاق النيران من جميع الاتجاهات .

وفي عام ١٨٦٦ تقابل أسطولى إيطاليا والنمسا المتكونان من السفن الحديدية في معركة « ليسا » في الأدرياتيك . وجعلت دروع السفن نيران المدافع غير مؤثرة ، وتحولت المعركة لتصبح مباراة في إختراق السفن وإغراقها أى على نفس نظام الغلايين القديم . وكنتيجة لهاتين العمليتين أدخل الفرنسيون إلى سفنهم برج المدفع الدائرى والعامود المحترق ، وخلال وقت قصير تبعت بحريات أخرى مسار الفرنسيين . وقد تم التغلب على مشاكل الصدا وبطء الحركة ، ولذلك جاءت نتيجة ربع قرن من التطوير في السفن الحربية ، السفينة البريطانية « ديفستيشن » والتي دشت عام ١٨٧٥ . وقد وصفت هذه السفينة بأنها قطعة من التحصينات الغابية لا يمكن إختراقها ، فكأنها أبراج مركبة على منجم فحم مقاتل . وبلغت حمولتها ٩٣٣٠ طن ، والتي كان الدرع يمثل ٢٧ ٪ منها ، وتواجد بها عامود إختراق قوى ، كما حملت ٤ مدافع زنة المدفع ٣٥ طن وذلك في برجين أماميين وبرجين خلفيين ، وبذلك كان يمكن توجيه النيران لجميع الاتجاهات . أما سرعتها فقد بلغت ١٥ عقدة . وبذلك لم تكن « الديفستيشن » بالهدف الكبير أمام العدو ، وكانت عبارة عن منصة مدافع عائمة لإطلاق النيران .

الالة الجهنمية

كما ظهرت ثلاثة إختراعات أخرى في الحرب البحرية جديدة بالذكر . ففي عام ١٨٥٥ قام الروس في البلطيق بأول إستخدام جدى للألغام العائمة . وفي عام ١٨٦٣ أنزلت إلى البحر أول غواصة إختراعها « برون ليمبولنجير » .

وفي عام ١٨٦٤ خلال الحرب الأهلية الأمريكية ، ظهرت الغواصات النصف طافية مع الجنوبيين وأنزلت بسفن الشماليين خسائر فادحة، وكانت تسمى «دافيد». وجرب الأمريكيون في كلا الجانبين أيضاً استخدام الطوربيدات والتي ظهر أولها والمسمى « السمكة » في عام



الغواصة « دافيد » نصف طافية التي ظهرت في الحرب الأهلية الأمريكية مع الجنوبيين ١٨٦٦ . وقد استغلت هذه الاختراعات في أول الأمر بواسطة دول بحرية صغيرة ، ثم أخذها البريطانيون بعد ذلك . وهكذا في الوقت الذي كانت فيه الحرب البحرية آخذة في التغير في منتصف القرن ١٩ ، حافظت بريطانيا على مكانتها كأقوى قوة بحرية ، إلا أن التغيرات في التكتيكات البحرية ، لم تكن قد جرت تماماً في صراع رئيسي وفي معارك بحرية كبيرة .

وفوق كل ذلك ، فقد بدأ يحدث ما يطلق عليه بسباق التسلح . فكان معظم القرن ١٩ ، ومثله في القرن ٢٠ ، لم يكن ، كما عبرت عنه كلمات «أوزوالد سبنجلر» سوى «حرب بدون حرب» أي حرب المزايدة في المعدات والاستعداد ، حرب الأرقام وخفة الحركة والوسائل الفنية . فالتقدم في المادن وعلم حركة المقذوفات والهندسة الدقيقة أدى إلى إمكانية إدخال التحسينات على الأسلحة النارية .

وقد كانت بنادق القرن ١٨ وعصر نابليون ذات القذح الصواني والتي تعمر من الماسورة بطيئة في التعمير ولا يعتمد عليها في الجو الممطر ، كما أنها كانت غير دقيقة . وجاءت أول

مرحلة من التحسينات عند التحول من القذح الصوانى إلى الطابة الطرقية والتي كان لا يؤثر فيها البلبل . وقد أدخلتها معظم الدول فى بنادقها على عام ١٨٤٢ ، وفى نفس الوقت فُهِمَت وقدرت الدقة الكبيرة الممكن الحصول عليها من المواسير المششخنة . وبدأت التجارب فى كل مكان لإنتاج طلقة مخروطية لتلائم تعمير البندقية المششخنة بحيث تنزلق مرة بالمششخنة قبل خروجها من الفوهة .

وفى عام ١٨٥٠ صمم ضابط فرنسى يدعى « ميني » طلقة ذات تجويف عميق فى قاعدتها والتي تملأ بغلاف من الحديد .

وعندما كانت البندقية تطلق الطلقة كانت الأخيرة تتمدد لتملأ جروف ششخنة الماسورة خالقة بذلك أحكاماً ضد تسرب الغاز وكانت هذه الطلقة سهلة التعمير لأنها لا تتطلب حشر الطلقة .

وفى عام ١٨٥٣ إستخدم البريطانيون البندقية « الأنفيلد » والتي تطلق رصاصة « ميني » المعدلة ، ولكنها كانت تعمر من فوهة الماسورة ، وقد إستخدمت هذه البندقية فى حرب القرم وفى عام ١٨٥٧ كان أحد دوافع التمرد الهندى ، هو إشاعة بأن الطلقات التي صرفت حديثاً للبندقية الأنفيلد كانت مشحمة بدهن البقر^(١) . وفى ذلك الوقت أصبحت البنادق ذات مدى أكبر ودقة أكثر بكثير مما قبل ، إلا أن معدل نيرانها ظل بطيئاً لأنها تعمر من فوهة الماسورة .

وفى عام ١٨٦٩ جاء إختراع « جوهان دريزى » فى تعمير البندقية من الخلف خطوة هامة جداً . وفى عام ١٨٤٢ إستخدم البروسيون النوع المعدل من بندق « دريزى » والسماه « بندقية الأبرة »^(٢) فى الحرب مع الدانمرك على أرض « سشلسويج — هولستين » (١٨٤٨ — ١٨٤٩) وسروا منها . وأهم ظاهرة للتعمير من الترابس هى إمكان إطلاق نيران أسرع والعمل بسهولة أكثر من وضع الرقود . واكتمل تطور هذه البندقية بإضافة خزنة للطلقات والتي نفذت أولاً فى أمريكا خلال الستينيات .

وفى عام ١٨٦٦ إستخدم الفرنسيون بندقية متطورة من النوع الذى يعمر من الخلف .

(١) البقر يقدسه الهندوس .

(٢) لقد سميت هكذا بسبب طريقة التفجير وإطلاق الرصاصة . « العرب »

وقد سميت هذه البندقية على اسم مخترعها « مسيوشا سيبوت » وقد حقق هذا النوع مدى أكبر لعيارها الأصغر وتراسها الأكثر إحكاماً للغاز . وبعدئذ اخترع العقيد الإنجليزى « بوكسر » مضروف نحاس لطلقة والذي يتمدد ليسد الترابس تماماً . وإستخدم البريطانيون فى عام ١٨٧١ هذه الذخيرة للبندقية « المارتينى — هنرى » ، ولم يمض وقتاً طويلاً حتى كانت جميع دول أوروبا تقريباً تستخدمها . وفى الحرب الفرنسية — البروسية كانت الجيوش مجهزة عادة ببنادق أكثر دقة ووصل مداها ٤٠٠٠ ياردة^(١) ، كما كان فى إمكان هذه البندقية الجديدة إطلاق معدل عالى من النيران بواسطة الجنود فى وضع راقداً أو وهم واقفين فى الخنادق . وشهدت هذه الفترة تطورات كبيرة فى مضمار الأسلحة المتكررة^(٢) الإطلاق وخاصة فى أمريكا .

وفى عام ١٨٣٢ سجل صمويل « كولت » تصميمه لمسدس الذى تدور فيه الساقية عند تعمير الطارق . وفى عام ١٨٣٥ أى خلال القتال ضد الهنود « السيمينول » فى فلوريدا ظهرت بوضوح مزايا هذا السلاح . وعرض « كولت » مسدساته المختلفة فى المعرض الكبير بلندن عام ١٨٥١ وباع بعضاً منها للبحرية البريطانية والتي أشتريتها من أجل حرب القرم . وفى حوالى نفس الوقت صمم مدفع رشاش فى باجيككا وكان « مدفع آلى » . وبدأت فرنسا فى استخدامه قبل نشوب الحرب « الفرنسية — البروسية » بقليل . وفى الحقيقة إنحدر هذا المدفع الرشاش من سلفه المعروف باسم « الآلة الجهنمية » ، وتكون هذا السلاح من عدة أسلحة مركبة معاً وتعمل فى وقت واحد عن طريق إدخال شريط حديدى مثقوب مملوء بالطلقات داخل « مغلاق المؤخرة »^(٣) ،

وفى عام ١٨٦٢ صمم « ريتشارد كاتلنج » فى أمريكا مدفعاً رشاشاً أفضل ، ويتكون

(١) كان المدى المؤثر سابقاً ٦٠٠ ياردة .

(٢) وهى المسدس والبندقية التى يمكن إطلاق النار منها عدة مرات دون الحاجة إلى إعادة التعمير .

(٣) كلمة ترابس مشتركة لكلا . « العرب »

هذا المدفع الرشاش من عدة مواسير تدور حول محور مركزي . وكانت الخزنة عبارة عن خزان فوق المدفع يغذيه بالطنقات التي يدفعها داخل جهاز إعادة التعمير وقذف الطنقات الفارغة ، وذلك بتشريك المستخدم ليد إدارة المواسير .

ويمكن لهذا المدفع أن يطلق ٦٠٠ طلقة في الدقيقة ، وقد استخدم خلال الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) بواسطة كلا الطرفين المتحاربين .

الطلقة ذات المخاب

وقد أحدث التطور في البنادق من الطابة الطرقية والششخنة والتعمير من الترباس تأثيراً بالغاً في نفوس رجال المدفعية . وبعد عام ١٨١٥ أجريت تجارب في أوروبا وأمريكا لإنتاج أسلحة مدفعية مششخنة تعمر من الترباس ، ولكن كانت مشا كل أجهزة التعمير من الترباس ذات ثلاثة أوجه ، فهي أولاً تجعل المدفع أثقل وبالتالي أقل في خفة الحركة ، وثانياً كان إنتاج نظام يحكم ويمنع تسرب الغاز عند الترباس أمراً صعباً ، وأخيراً كان القيام بتغيير أساسي في المدفعية أمراً مكلفاً للغاية ، إلا أنه أمكن تخطي هذه العقبات تدريجياً في النصف الثاني من القرن ١٩ . ومع حلول عام ١٩٠٠ كان قد تم تطوير المدافع وهي نفسها التي استخدمت في حربي ١٤ — ١٩١٨ ، ٣٩ — ١٩٤٥ . وليست قصة هذا التطور هي سرد لتقدم مندفع ولكن كانت عبارة عن سلسلة من الخطوات المترددة والتي عادة ما كانت تنكص على أعقابها .

وفي فرنسا إحتفظ نابليون الثالث لأسباب تتعلق بالتكاليف وخفة الحركة بمدفعه البرونزية القديمة والتي كانت تعمر من الماسورة ، بعد أن عدلهم العقيد « دي بولي » عام ١٨٤٢ وذلك بزيادة عمق الششخنة وإستخدام الطلقة ذات المخلب . وإستخدم هذا النوع المعدل بنجاح في معركتي « ماجينيتا » و « سلوفرينو » عام ١٨٥٩ . وإستخدمت بعد ذلك معظم الدول الأوروبية المدافع التي تعمر من الماسورة عن تلك التي تعمر من الخلف . وفي إنجلترا صمم أخيراً « ويليام أرمسترونج » نظاماً لصنع مدفع يعطى قوة إضافية ولكن بدون إضافة وزن جديد ، وجعل ذلك من السهل التحول للتعمير من الترباس . وكانت طريقة « أرمسترونج » هي تركيب قميص حديدي أسطوانى ساخن فوق الماسورة ، فعندما يبرد

تصبح الماسورة تحت ضغط وبالتالي يسمح للماسورة بتحمل عبوة أكبر . وإستخدمت بريطانيا هذا الإختراع عام ١٨٥٩ ، كما إستخدمت مدافع أرمسترونج عيار ٩ رطل و ١٢ رطل خلال العمليات في الصين عام ١٨٦٠ . أما روسيا وبروسيا ففضلتا إستخدام المدافع المصنوعة من الصلب والتي تعمّر من الخلف والتي صنعت في مصانع « كروب » بمدينة « آسن » . وفي عام ١٨٧٠ أعيد تجهيز المدفعية البروسية والتي كانت تعاني الضعف عام ١٨٦٦ عند قتالها مع النمسا ، بإدخال مدافع « كروب » بواسطة المفتش العام الجنرال « فون هيندرسون » ، ولكن حتى مدافع كروب هذه لم يثبت صلاحيتها تماماً .

وفي نفس العام وصل البريطانيون إلى أن التعمير من الخلف باهظ التكاليف ومعقداً جداً ولذا فقد عادوا إلى التعمير من الماسورة . وتأكدت صحة النتيجة التي قررها البريطانيون عندما سببت أجهزة الترايبس الخاطئة خسارة فادحة في هذه المدافع عندما تعطلت عن العمل خلال الحرب الفرنسية — البروسية .

وهكذا كان القرن ١٩ فترة إختراعات في الأسلحة والدروع وأكثر من ذلك ، فالإختراعات الجديدة إنتشرت في أوروبا بشكل أسرع من أي وقت مضى . فقد كان الإنتاج الجديد للأسواق المتعددة ظاهرة أساسية للعصر الصناعي الجديد ، كما كان الإنتاج من الفحم والصلب قد أرتفع إلى درجة كبيرة جداً .

وكان « صمويل كولت » مثالا جيداً لنوعية الصانع الجديد ، فقد أنتج بضاعته على نطاق واسع علاوة على أنه كان بائعاً ماهراً . وخلال الحرب الأهلية الأمريكية أشتري منه الشماليين ٣٥٠٠٠ مسدس و ٩٨٠٠٠٠ مسكيت و ٧٠٠٠٠ بندقية . وكان هناك مظهر آخر للثورة الصناعية وهو تطور المواصلات ، وقد إستمرت عمليات تحسين الطرق والتي بدأت مع نهاية القرن ١٨ كنتيجة لإزدياد سفر الأهالي للعمل والمتعة . ومع منتصف القرن ١٩ كانت أعمال إقامة خطوط السكك الحديدية تسير بخطى واسعة في كل من أوروبا وأمريكا ، وفي فرنسا كملت معظم الخطوط الرئيسية للسكك الحديدية على عام ١٨٥٩ . أما في ألمانيا ، فقد تم إقامة خط حديدى طوله ٥٤١٠ ميل طبقاً للتخطيط دقيق وضعته الحكومة وتم في عام ١٨٥٥ . وفي الفترة ما بين ١٨٣٠ - ١٨٦٠ إنتهت أمريكا من إنشاء خطوط للسكة الحديدية طولها ٣٠٠٠٠

ميل . وأخذت شركة السكة الحديدية أيضاً مسئولية خطوط التلغراف والذي اخترعه « مورس » في عام ١٨٣٢ ، وعلى الخمسينيات تطورت بسرعة شبكة الخطوط في أوروبا وأمريكا .

حرب القرم

وفي منتصف القرن ١٩ بدأت فترة جديدة من الحرب ، وكان لابد بالتالى من إيجاد حلول عملية لبعض المشكلات الأساسية المعينة منها : — ماهى القواعد التى ستكون عليها مبادئ التجنيد والتدريب مع التزايد الكبير فى أعداد الرجال ؟

هل يتعين تزويد كل هذه الأعداد بالأسلحة الجديدة ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما هو الدور التكتيكي للمشاة المسلحة بالبنادق وأيضاً المدفعية ؟ وما هو الدور الذى ستلعبه الفرسان ؟ كيف يتم تدريب الضباط ؟ كيف ستؤثر المواصلات الجديدة على التخطيط الإستراتيجى وخاصة السكة الحديد ؟ تلك المشا كل انتى واجهها القادة العسكريين لأوروبا ، بينما تحركوا إلى العصر الحديث ببطء وعلى مضض . ففي الفترة السابقة لعام ١٨٤٨ ، لم يحدث أى حرب كبيرة ، حيث التهديد الرئيسى للحكم كان يأتى من الداخل فى شكل ثورات تحررية ، وكانت مهمة الجيوش بالتالى هى المحافظة على السلام فى داخل البلد .

فقد كان يفضل إبقاء الجيوش صغيرة حتى لاتعديها الأفكار الثورية . وهكذا أنقص الحجم الكبير للقوات الوطنية التى عملت خلال الفترة النابليونية لتصبح الآن جيوشاً محترفة صغيرة . ومن كل القوى الكبرى لم تحتفظ سوى روسيا وبروسيا فقط بعبداً الجيوش الضخمة ، وكانوا يؤمنون ، كما أو من أنا ، بأنه لا يمكن أن يكون لديك جيشاً جيداً بدون مشاة جيدة . وأكثر من ذلك ، فطالما ظل الطراز القديم للجيش يحقق نجاحاً فى ميدان القتال فى أى صورة ، كلما زاد ذلك من تأييد نزعة مقاومة التجديد . وعلى أى حال فلم تكن السنوات ما بين ١٨٣٠ — ١٨٦٠ خالية من العسكريين الأكفاء . وفى الحرب الإيطالية (١٨٤٨ — ١٨٤٩) أظهر الفيلد مارشال راديتزكى (القائد النمساوى) أنه وجيشه أ كفاء وقادرين للغاية . فعندما انفجرت الثورة فى شمال إيطاليا فى عام ١٨٤٨ كان لدى « راديتزكى » قوات قليلة نسبياً علاوة

على تفرقها في مناطق مختلفة ، ولكنه تفادى بتحركات سريعة ونشطة تكتيكات العدو لتطويق قواته ، ثم جمع قواته لمواجهة عدة ضربات متتالية للقوات المعادية .

وبعد إخلائه لميلانو تجنباً الوقوع في الفخ ، تعمد الحفاظ على بقاء قوات البيدمونتيين في مربع المدن المحصنة : — « مانتو » و « بيسشيرا » و « فيرونا » و « ليحنانو » . وعندما تم له تعزيز قواته أبقى « البيدمونتيين » مقيدين وخاضعين للمراقبة بينما تحرك شرقاً ليدمر القوات البابوية والنابولية والمتركة على خط مواصلاته بالقرب من فسينزا ، ومن ثم طهر وادي ريفتا ، ثم تحول ثانية ضد « البيدمونتيين » بعد حشده لقوات كبيرة وبسرعة لاختراق جبهتهم عند « كوستودا » . ولم يكتف بهزيمتهم على هذه الجبهة بل تابع إنتصاره بدفعهم أمامه إلى منطقتهم وأعاد إحتلال ميلانو بعد ٤ شهور لتركه لها . وإنتفجرت الثورة مرة أخرى في العام التالي ، ونفذ « راديتزكي » سلسلة مشابهة لتلك المناورات المؤثرة التي مكنته من إخماد الثورة . وإنتهت مناورات هذا العام أيضاً بانتصاره عند « نوفارا » . وربما كان الأثر أكثر إثارة من هذه الإنتصارات أن الفيلد مارشال النمساوي كان يبلغ من العمر ٨٢ عاماً . وقد أظهرت أيضاً إنجازات « جاريبالدي » وفرقة القمصان الحمراء التابعة له ، أنه لا يزال الأفضل العمل بدون الجيوش الكثيفة ، ومنها : — إنتصارات « سيرو » و « سانت أنتونيو » في ١٨٤٦ والتي أكدت إستقلال « أرجواي » ، وتقهره الماهر خلال وسط إيطاليا في ١٨٤٩ والإستيلاء على صقلية و نابولي في ١٨٦٠ .

أما الجيش الفرنسي ، فقد كان لديه أسطورة نابليون ، وسجل حافل بالنجاح على مدى ٣٠ عاماً في أفريقيا الأمر الذي جعله يقنع نفسه بأنه لا يقهر . وقد أرسلت أول حملة فرنسية إلى الجزائر عام ١٨٣٠ والتي كانت منظمة بطريقة بطيئة وعلى شكل قولات ، وقد واجهت المتاعب عند إصطدامها بالقوات الوطنية الخفيفة الحركة والتي قادها الأمير « عبد القادر » ، ولكن تحول المد في عام ١٨٣٦ نتيجة لحملة « بوجود » في غربي الجزائر والتي إستغرقت ستة أسابيع .

وكانت طريقة القائد الفرنسي « بوجود » هي القيام بأندفاعات هجومية سريعة بأرتال سريعة ومجهزة بمعدات خفيفة وتحمل إمداداتها على ظهور الدواب . وبعد عام ١٨٤٠ عندما

أصبح كما عاماً طبق وسيلته هذه بتركيز أكبر ونجاح أكثر . ووفرت أفكاره عن الحرب في أفريقيا كتيب نفع أجيالا من الجنود الفرنسيين المستعمرين . وظهرت في أفريقيا أنواع جديدة من الكتائب مثل : — «زواي»^(١) و«يتر كوس» و«سباهي»^(٢) و«شوسيردي أفريك»^(٣) . وحافظ جنود فرنسا على سمعتهم نتيجة لشجاعتهم .

وناقضت أيضاً وسائل القادة النشطة أمثال «بوجود» و«كاروبورت» و«ما كاهون» و«يوربا كي» عقلية القادة البريطانيين والألمان لتلك الأيام والتي نقصها الأفكار الحية . وأبليت القوات الفرنسية في حرب القرم بلاء احسنا أفضل من بلاد باقي الأمم . وأظهرت المشاة الفرنسية في تشكيلات إشتبا كها بطريقة القناصة خلال الحرب الإيطالية عام ١٨٥٦ خفة حركة وذكاء مثيرين . وبالرغم من إضطراب القيادة في «سولفرينو» فقد أكتسحت المشاة الفرنسية المهاجمة النمساويين أمامهم قبل أن تتمكن الأخيرة من إطلاق نيران بنادقها . ومع ذلك فحرب القرم، والحرب الفرنسية — النمساوية لعام ١٨٥٩ في إيطاليا كشفت النقاب عن حالة غير مرضية للأمر في كل الجيوش والتي كان لا يمكن تجاهلها لمدة أطول . وفي الحقيقة وفرت حرب القرم درساً هادفاً في كيفية إشعال الحرب بدون إستعداد . فقد كان التنظيم الإداري في كلا الجانبين مهلكا . وأرسل الحلفاء حملة بحرية للاستيلاء على سيبياستبول بدون عمل أستطلاع مقدما للماء على كلا جانبي البرزخ والذي كان ضحلا بدرجة لا يسمح لسفنهم بالرسو . ولم يكن لدى البريطانيين أى وسائل لنقل الطعام والذخيرة ، وعانت القوات بشكل واضح من نقص التجهيزات اللازمة لحملة شتوية

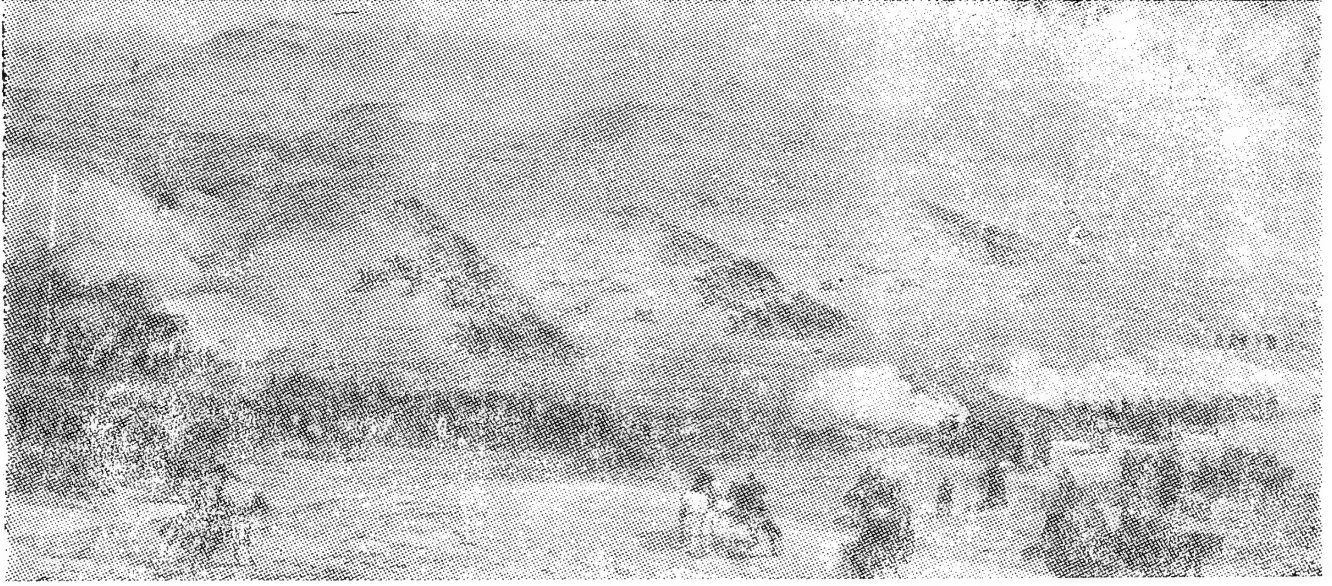
وكانت حرب القرم أول حرب أستخدم فيها التلغراف ، إلا أنه لم يخفف من التخبط في الشؤون الإدارية والاستراتيجية . وقد كشفت هذه الحرب الضعف المذهل في الجيوش المحترفة للقوى الكبرى . وفقد أدى التخبط التكتيكي إلى واحد من أكبر الكوارث

(١) مشاة فرنسية كانت مشكلة في الأصل من جنود جزائريين يرتدون ملابس شرقية مزركشة

(٢) فرسان بجيش السلطان العثماني الخاص

والمعرب

(٣) قناصة أفريقيا



هجوم اللواء البريطانى على « با كلافا »

العسكرية شهرة على مر الزمن ، وهو هجوم اللواء البريطانى الخفيف عند « با كلافا » بينما المدفعية الروسية تقصفه من ثلاثة جهات ، والتي علق عليها الجنرال الفرنسى « بوسكيت » والذي شاهد عملية الهجوم بقوله : — « كان ما حدث رائعا ولكنه لم يكن حربا على الإطلاق » . وكانت حرب القرم واحدة من أكثر الحملات سوءا فى الإدارة فى كل التاريخ المسجل ، ولم يقدم الفرنسيون تحت قيادة نابليون الثالث فى عام ١٨٥٩ عرضاً أفضل . فى الحقيقة حركوا قواتهم إلى إيطاليا بسرعة مستخدمين السكة الحديد ، ولكن بدون تجهيز الأمدادات الملائمة فلم يكن لدى الوحدات الأولى أغذية ولا معدات للطهى أو ذخيرة .

وإحتاج الأمر لتمزيق القمصان لربط الجروح عند « سولفرينو » ، بينما كانت المعدات الطبية فى نفس الوقت مكدسة على أرصفة جنوة . وكان أحد الأسباب وراء الخسائر الفادحة فى الأرواح عند « سولفرينو » هى أنها كانت ببساطة معركة تصادمية . وهو حدث نادر الحدوث فى تاريخ الحروب فى ذلك الوقت ، فلم يتوقع كلا الجانبين أن يضطروا للقتال الفورى . وقد كان المعدل الرهيب للخسائر فى الأرواح فى هذه الحروب بمثابة النداء الذى أحدث الثورة فى الخدمات الطبية .

وفى القرم ، أرسلت بريطانيا وفرنسا جيوشاً وصل عددها إلى ٤٠٥.٠٠٠ رجل ، قتل

منهم في الحرب ٢٥٦٠٠ بينما مات ٣٨٨٠٠ من الأمراض. وهرعت « فلورنس نيتيانجل » تاركة عزلتها من شارع هارلى لتذهب ومعها ٣٨ ممرضة مدربة ليمرضن القوات في القرم ، وتلك كانت من أحد النتائج الملحوظة لهذه الحرب وهي التقدم الكبير نحو تحرير المرأة . وقد شاهدت كل حرب منذ ذلك الوقت مكسباً ملحوظاً للنساء في موضوع التحرر الاجتماعي والمسئولية العامة . و كنتيجة لجهود أحد رجال البنوك السويسرية المحبين للسلام وخير البشرية وهو « هنرى دونانت » والذي تأثر بعمل « فلورانس نيتيانجل » وروعه المذبحة التي حدثت في « سولفرينو » فقد أسست « لجنة الصليب الأحمر الدولية » . ووافقت ١٢ دولة على إتفاقية جنيف الأولى في عام ١٨٦٤ . وخلال الحرب الفرنسية — البروسية عنى الصليب الأحمر بأكثر من نصف مليون مريض وجريح .

مدرسة لتدريب كل الدولة على الحرب

وفي الفترة التي تلت عام ١٨٥٩ ، كان أكثر الجيوش في سرعة الإصلاح والكفاءة هو الجيش الألماني . ولم تقورط بروسيا في الحرب الإيطالية عام ١٨٥٩ ، ولكنها راقبت سير الحوادث باهتمام . وكان من المنتظر أن تكسب كسباً سياسياً نتيجة إنهيار أحد الأطراف الرئيسية في الصراع وهما فرنسا والنمسا . وكان الكثير من البروسيين يدركون أن حالة جيشهم لن تمكنهم من ذلك نتيجة لصغر الجيش البروسي المحترف ، كما أن الميليشيا كانت مستاءة سياسياً ومدربة جزئياً . وعلى أي حال ، ففي عام ١٨٥٨ أصبح الأمير ويليام وصياً على شقيقه المجنون ، وأدخل ويليام إلى الحكومة البروسية حماساً بعقله المحترف والذي يهوى الأمور العسكرية ويمكن مقارنته بالنظام الذي وضعه فريدريك وويليام الأول .

وتحت حكم ويليام ظهر ثلاثة رجال وصلوا إلى السمو ، وحافظ هؤلاء الرجال على بروسيا كدولة عسكرية إستبدادية ، كما حققوا لها السيادة السياسية في التحالف الألماني . وهؤلاء الثلاثة هم : — « فون رون » وزير الحرب بعد عام ١٨٥٩ ، و « فون مولتكة » رئيس الأركان العامة ، ورئيسهم السياسي « فون بسمارك » والذي شغل منصب رئيس الوزراء من عام ١٨٦٢ . وقرر « ويليام » و « رون » زيادة قوات بروسيا عددياً مع إحترافها . وكانت وسيلتهم في ذلك جعل الخدمة العسكرية لمدة طويلة وإجبارية مع إنفاق أموال أكثر

على المعدات والتدريب. وقرر الوصي: « إن الضبط والربط والطاعة العمياء أمور يمكن غرسها وإعطائها الدوام بواسطة طول التعود فقط ». وأخذ الأمر منهما عدة سنوات حتى حصلنا على ما يرغبان فيه من الجمهور. وتعهد بسمارك إستخدام الحرب كأداة لسياسته . وكانت نتائج حروبه المتعمدة مع الدانمرك (١٨٦٤) والنمسا (١٨٦٦) وفرنسا (١٨٧٠) وحيد ألمانيا تحت القيادة البروسية ، كما أنها أصبحت أيضاً قوة صناعية رئيسية . وفي عام ١٨٦٨ ظهر إلى الوجود جيش الاتحاد الألماني الشمالي . وقد أقنعت الدول العديدة والمستقلة إسمياً والتابعة للاتحاد على تتبع الخط البروسي ، وكان إلزام ولكن لم يكن الحماس له متكافئاً بين دول الاتحاد على أى حال ، وكانت نسبته مرضية . ووضع العهد الإلزامي العام بالخدمة العسكرية موضع التنفيذ ، ووصف الجيش بأنه « مدرسة لتدريب كل الدولة على الحرب » . وكانت الخدمة في القوات المسلحة العاملة ثلاث سنوات تبدأ من سن ٢٠ ، يقضى بعدها المجندون أربع سنوات أخرى في خدمة الإحتياط ، ثم ينقلون بعدها إلى صفوف الجيش الدفاع الشعبي أو الميليشيا . وكانت مدة الخدمة في جيش الدفاع الشعبي خمسة سنوات .

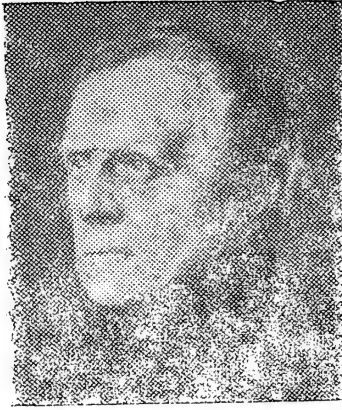
وقد أشرفت القوات المسلحة إشرافاً كبيراً على جيش الدفاع الشعبي وكان الأخير في الحقيقة جيشاً إحتياطياً ثانياً . وعندما جاءت التجربة العملية عام ١٨٧٠ وضع « رون » في الميدان أكثر من مليون ضابط وجندي ، وسلحت المشاة بالبندقية « دريزي » والتي ظهرت كفاءتها في عام ١٨٦٦ أى عندما أطلق البروسيون ستة طلقات مقابل كل طلقة واحدة أطلقها النمساويون ، وبالتالي فقد أكتسح البروسيون النمساويين في الميدان عند « سادوا » ، كما سلح الجيش أيضاً بأحدث مدافع أنتجتها مصانع كروب ، وكانت هذه مدافع تعمر من الترابس . وعلى أى حال فلم يكن حجم الجيش ميزة بدون التنظيم الكفء . وكانت عمليات التدريب والتعبئة وفتح القوات وإمدادها تمثل مشا كل ضخمة . ولذلك فقد أصبحت القيادات على جانب كبير من الأهمية وفي شكل لم يعهد من قبل . كما كان على التنظيم القيادي أن يأخذ في إعتباره المساحات المتزايدة والتي أصبحت تجري عليها العمليات نتيجة لكبر حجم الجيوش وتوزيع القوات الإستراتيجية وهي أمور جعلته السكة الحديد ممكنة ، هذا بالإضافة إلى

الإنتشار التكتيكي الشيء الذى جعلته نيران البنادق ضرورة ملحة . وأصبح ولا بد من تفويض القادة المرؤوسين مسئوليات أكبر ، كما أنه أصبح من الضروري أن يستجيب هؤلاء لأفكار ووسائل قادتهم الأعلى وفى نفس الوقت دون إعاقة لمبادئهم .

وأصبحت الآن مشا كل الأمداد والمواصلات مشكلات فنية مما أستلزمت الإحتياج إلى خبراء فى كل ميدان ، ولكن كان لدى الجيش البروسى فى رئاسة أركانها مجموعة من الخبراء المهرة القادرين على التعامل مع كل المشا كل المتعلقة بالتدريب والتخطيط والمواصلات .

فون مولتكة

وفى عام ١٨٥٧ ، عين فون مولتكة رئيساً لأركان الجيش البروسى .



وكان ذكاه وفطنته لامعين ، بالإضافة إلى فهمه العميق لمهام وأعمال الأركان حرب ، ووجه كل إهتمامه الشخصى إلى عمله مستغلاً مستواه العالى .

ونظر إليه مرؤوسية كمثلهم الأعلى ، وكان رجلاً على ثقافة عالية وعلى درجة عنيفة من الضبط والربط . ودرب

مولتكة ضباط الأركان حرب فى الجيش الألمانى حسب فون مولتكة مأوحت له مخيلته . وكان يختار كل عام ١٢ من خيرة خريجي أكاديمية الأركان ويدربهم تدريباً خاصاً ؛ بحيث يعملون بعد ذلك تحت إشراف مولتكة الشخصى ، وكل من لا يثبت جدارته ينقل إلى الوحدات .

ولكن كان يتعين على كل ضباط الأركان حرب أن يمضوا فترة بسيطة مع جنود وحداتهم قبل حصولهم على أية ترقيات ، وبذلك لم تكن الصلة مقطوعة بين ضباط الأركان حرب وجنودهم . وقد نفذت أفكار مولتكة إلى عقول كل أفراد الجيش ، حتى أنه مع عام ١٨٧٠ وصل الجميع إلى ما كان يسعى إليه . كما أتم تدريب معظم قادة الألوية والفرق تحت إشرافه ، هذا علاوة على وضع رئيس أركان مؤهل بجوار كل قائد جيش أو فيلق .

ولقد كانت عملية تدريب الأركان حرب وقادة الجيش من أعظم الأدوار التي شارك بها مولتكه في الحروب التي تعين على بلاده أن تخوضها ، وكان لهذا التدريب أهمية كبيرة عندما جاء الوقت لوضع خطط الحرب . وتضمنت هذه الخطط التعبئة السريعة الفعالة للجيش ، والعمل الكفء المنتظم للسكة الحديد ، والفتح التعبوى للجيش لمقاومة أى أخطار خارجية . وعلى عام ١٨٦٦ كان مولتكه قد حقق درجة عالية من اللامركزية في خطط التعبئة ، وعلى عام ١٨٧٠ كان جهاز التعبئة قد بلغ حد الكمال ، فقد كان قد تم تلقين قادة الفيالق تماماً .

وتوفرت لدى كل وحدة في الجيش العامل والدفاع الشعبى وإدارات الأمداد والمواصلات أوامر كاملة والتي لا تحتاج للبدء في تنفيذها إلا بمجرد توقيت وكلمة كودية فقط . وأدرك البروسيون منذ وقت طويل أهمية السكة الحديد ، ولذا كانت الإعتبارات الإستراتيجية في ذهنهم عند إنشائهم الكثير من شبكات السكة الحديد .

وفي حملة النمسا عام ١٨٦٦ ، وقع البروسيون في نفس الأخطاء التي وقع فيها من قبلهم الفرنسيين في إيطاليا عام ١٨٥٩ حيث فشلوا في التنسيق بين تحرك القوات والإمدادات بالسكة الحديد ، إلا أن مولتكه تعلم من هذه الأخطاء .

وأقيمت إدارة خاصة (إدارة خطوط المواصلات) في رئاسة الأركان تحت قيادة أحد معاونيه الرئيسيين .

وفي عام ١٨٧٠ كانت التعبئة بوسائل السكة الحديد ناجحة بدرجة كبيرة بالرغم من تشابك خطوط الأمداد وإزدحامها في بعض النقاط . ومن عام ١٨٥٨ إلى ١٨٨٠ لم يكف مولتكه عن تطوير وتعديل خططه باستمرار وجعلها حديثة مع تنسيق في نفس الوقت أعمال أركانه وإداراته . وفي الواقع كانت بروسيا قادرة في أى دقيقة على التعبئة وفتح جيشها لتسديد ضربة إتجاه أى من أعدائها الرئيسيين وهم فرنسا والنمسا وروسيا .

الجرثومة العسكرية

أما في فرنسا ، فبدأ الإصلاح العسكرى متأخراً عن بروسيا . وحاول الفرنسيون بعد

حملتهم الإيطالية عام ١٨٥٩ إقناع أنفسهم لفترة بأن كل شيء في حالة جيدة وبدرجة كافية ، على الرغم من أن ضعف الجيش الفرنسي في تلك الحملة كان واضحاً جداً أمام أعين الألمان خلف الراين . ولم يمضِ فترة طويلة حتى جاءت لحظة اليقظة من ذلك الوهم عندما شاهد الفرنسيون ما قام به البروسيون ضد النمسا عام ١٨٦٦ ، بالإضافة إلى الظواهر الأكثر سوءاً وضعفاً للتدخل الفرنسي في الشؤون المكسيكية فيما بين عامي ١٨٦١ و ١٨٦٧ . ومن عام ١٨٦٦ عمل نابليون الثالث والمارشال نيل وزير الحرب لتوصيل الجيش الفرنسي إلى المستوى البروسي ، إلا أن عمليات الإصلاح هذه تعين عليها مواجهة معارضة داخلية وكان ذلك بدرجة أكثر مما حدث في بروسيا حيث كان نظام الحكم في فرنسا أكثر تحرراً ، وبالتالي كان لا يمكن تجاهل الرأي العام الفرنسي بنفس طريقة بروسيا . وقد أدت الأزمات الزاهية وانتقال القوات الرومانتيكي إلى أنحاء العالم البعيدة ، إلى بعث بعض مشاعر عصر نابليون الأول . ولكن ظل الرأي العام الفرنسي حذراً . وإهتمت الطبقات المتوسطة قبل كل شيء بالثراء والسلام وبالتالي لم يكن الجيش مقبولا إلا إذا كانت نفقاته لا تحتاج إلى أموال إضافية ، وأيضاً إذا كان يمكن لمن يرغب في تجنبه فعل ذلك .

ومنذ عام ١٨١٨ كان مسموحاً للمجندين في فرنسا بارسال بديل ، وكنتيجة لذلك أصبح الجيش بمعزل عن الأمة بينما كان عنصر الضباط في نفس الوقت محتقراً . وفي عام ١٨٦٦ تنبّهت السلطات الفرنسية إلى المشكلة ووجدت أنه بينما تستطيع بروسيا إدخال ٢٠٠٠٠٠ جندي مدرب إلى القتال ، كانت فرنسا لا تستطيع دفع سوى ٢٨٠٠٠٠ رجل فقط ، كما يجب سحب جزء من هذه القوات الصغيرة لمقابلة الإحتياجات في الجزائر وإيطاليا والمكسيك .

إلا أنه عندما اقترح « نيل » تطبيق نظام التجنيد العام بنفس النظام المتبع في بروسيا إهتمته الجمعية التشريعية بأنه يريد تحويل فرنسا إلى معسكرات . وكان رده على ذلك بأنه إذا لم يأخذ الفرنسيون حذرهم فسوف تتحول فرنسا إلى مقابر . وفي يناير ١٨٦٨ سن قانون جديد يستدعى بمقتضاه إلى الخدمة العسكرية سنوياً ١٧٢٠٠٠ رجلاً ولمدة خمسة سنوات عاملة وأربعة سنوات في الخدمة الإحتياطية

وكان هذا النظام من المفروض أن يوفر على عام ١٨٧٥ قوة معبأة للجيش مقدارها ٨٠٠.٠٠٠ رجل ، كما سيدرب أيضاً ٥٠٠.٠٠٠ فرد آخر والذين سيأخذون ممن هربوا من الاستدعاء للعمل في « الحرس المتنقل » وهؤلاء كانوا يعادلون جيش الدفاع الشعبي البروسي . ودار جدل طويل حول إقترح المارشال « نيل » ولكن خفف النواب إقترح نيل بدرجة أن الشبه بين القانون المقرر وإقترح نيل أصبح ضعيفاً . وظلت مدة الخدمة خمسة سنوات ، ولكن فترة التدريب السنوية كانت أسبوعين فقط ، وحتى هذه كان يمكن بسهولة تجنبها . ولتجنب جرثومة العسكرية فقد حدد بأن يكون تدريب الرجال يوماً واحداً فقط في كل مرة وفي بعض الظروف كان يمكن للمجندين من العودة إلى منازلهم في المساء . وبعدموت نيل عام ١٨٧٩ نبذ خلفه الجنرال « ليبوف » موضوع « الحرس المتنقل » .

ومع حلول ١٨٦٠ أصبح لدى فرنسا جيشاً محترفا قوامه حوالى نصف مليون جندي . وبالتأ كيد كان الجيش مجهزاً جيداً ، ونواجذت كميات وافرة من الملابس والطعام والذخيرة . وتم صنع مليون بندقية من نوع « شاسيبوت » ، وبالرغم من أن المدفعية لم تكن قد أعيد تجهيزها إلا أن ما تواجد منها لم يكن بأى حال سيئاً . ومن ناحية أخرى وبالرغم من التحذيرات المستمرة من الملحق العسكري الفرنسي في برلين ، فلم يبدأ الفرنسيون إلا بشق الأنفس العمل على تطوير مجالات الأعمال الأركان حرب والتي أصبح الجيش البروسي فيها الآن ممتازاً ، وعلى سبيل المثال ، تدريب الضباط وتنظيم الأمداد والمواصلات بالسكة الحديد وأجهزة التعبئة ونظام الفتح القمبوى . وكانت شجاعة الجنود الفرنسيين معروفة ولكن كان معروف أيضاً عدم نظامهم . كما كان مستوى التعليم في الكليات العسكرية (سانت كلير ومتاز وسامور) ضعيفاً . هذا علاوة على أن الذين كانوا يحضرون هذه الدورات التعليمية ، كانوا قلة من النوابغ أو الضباط الأغنياء فقط ، وقد كان معظم الضباط الفرنسيين وجالا شجعان كبار السن والذين أرتفعوا في الحروب الإستعمارية نتيجة لشجاعتهم وإندفاعهم أكثر من خبرتهم الفنية في مهنتهم . وفي عام ١٨٧٠ كان الجيش الفرنسي معداً بصورة أفضل للحرب عن أى وقت مضى منذ الحروب النابوليونية ، ولكنه لم يكن معداً لحرب حديثة .

الألمان وضمهم إلى برنامج الخصاص بوحدة ألمانيا ، أما مولتكة ورون فكانا واثقين من إمكان هزيمة الجيش الألماني للفرنسيين ، وأخيراً تواجدت الفرصة .

وفي ١٩ يولية أعلن نابليون الحرب ، وبعد أسبوع في « متر » أمر بنفسه بتقديم القوات الفرنسية عبر الراين بالقرب من « ستراسبورج » بغرض منع إتصال الوحدات الألمانية الموجودة في الشمال والجنوب ، ولكن لم تسر تعبئة الفرنسيين بسرعة إستراتيجيةهم ، وفي أول الأمر لم تكن هناك جيوش فرنسية في الألزاس وعلى نهر الموزل . وأمكن فقط تجميع ٣٠٠.٠٠٠ رجل ولكن بعد أن أصبح الوقت متأخراً جداً . أما التعبئة البروسية والتي نظمها مولتكة بعقريّة من قبل فتمت بكفاءة عالية ، وكانت كل وحدة وكل تشكيل تسير وفقاً لتعليمات محددة ودقيقة لما سيتم بالضبط . وإلى اليمين وعلى طول نهر الراين تقدم الجيش الأول والذي يتكون من فيلقين وفرقة فرسان تحت قيادة الجنرال فون « ستينمتر » نحو الموزل بين « تريير » و « ويتليش » . أما الجيش الثاني تحت قيادة الأمير فريدريك تشارلز والذي يتكون من أربع فيالق وفرقتي فرسان تجمع على الرين بين « متر » و « مانتهم » ثم يتحرك بعد ذلك بقليل هذا الجيش ليمتصل بالجانب الأيسر للجيش الأول وذلك حول « همبورج » . وتجمع الجيش الثالث تحت قيادة ولي عهد بروسيا والذي تكون من ٤ فيالق وفرقة « ورتمبرج » وفرقة « بادن » وفرقة فرسان عند الراين على الجناح الأيسر . واحتفظ بفيلقين إضافيين كاحتياطى للجيش الثاني . وتم تعبئة الجيوش الثلاثة وبلغ أجمالها ٣٨٤.٠٠٠ رجل ، وتم نهبها إلى المنطقة الأمامية غرب الراين في ١٨ يوما . هذا بالإضافة إلى توفر السكك الحديدية والتي كانت ستجلب ٣ فيالق أخرى في ثلاثة أسابيع تالية .

وقد أدرك مولتكة مبكراً المحاولة الفرنسية التي تستهدف إحداث الاضطراب في تعبئة قواته ، ولكن بتفوق إستراتيجيته وبعد نظره الإداري أزيل هذا الخطر تماماً كما أعطى البروسيين المبادأة الأفتتاحية . وأنتهت خطط مولتكة التفصيلية للتقدم عند هذه النقطة أى عند نقطة فتح جيوشه في مواجهة عاصمة عدوه وبطريقة تمكنها من مهاجمة العدو المقرب في أى صورة وبقوة . وكانت ترتيبات مولتكة بسيطة ومرنة . وكان يأمل في خوض معركة فاصلة في منطقة « السار » حيث يحشد الجيوش الألمانية الثلاثة لتحطيم الفرنسيين الأقل

عدداً . ولكنه أعتقد أن من الخطأ محاولة وضع خطط تفصيلية سابقة كثيرة لمدد بعيدة ، حيث أن الموقف بعد الصدام الأول مع العدو لابد سيتمخض عن عوامل لا يمكن التمكن بها .

وعلم قادة الجيوش بخطته العريضة ، كما توفرت لديهم تعليمات للعمليات ولكنه أعطى لهم حرية التصرف في نطاق الهيكل العام للخطة كما توقع منهم أن يحصلوا على المبادأة . أما الفرنسيون فقد ظهر فشل خططهم الأولى وأصابهم شيء من الحيرة فيما يفعلونه .

ولكن عندما حشدوا حوالي ٢٠٠.٠٠٠ رجل في المنطقة الأمامية بدأوا القتال الذي أخذ صورة إستطلاع بالقوة في ٢ أغسطس عند «ساربروكين» ولكن لم يحقق هذا إلا القليل . والآن أعتقد مولتسكة أن الفرنسيين على وشك القيام بهجوم قوى ، ولذلك فقد قرب الجيش الثانى الموجود في المنتصف من مواقعه المتقدمة وأمر الجيش الأول والذي كان أضعف الجيوش الثلاثة وأبعدها للأمام بالتوقف . بينما حرك للأمام الجيش الثالث ، والذي لم يكن قد كمل تمر كيزه عبر الحدود أى إلى داخل الألزاس الشمالية عند « ويزمبورج » حيث نشب أول إشتباك جدى للحرب في ٤ أغسطس ، وبعد يومين طوق الجيش الألمانى الثالث والمدفع أماما إلى « وورث » جزء من الجناح الفرنسى الأيمن الذى يقوده « ما كاهون » . ودار قتال وحشى ، فكان يعاود كل جانب الهجوم مرة بعد الأخرى وتكبد الأثنين خسائر فادحة . وقامت الفرسان الفرنسية بهجومين بطوليين ولكن بدون فائدة .

وفي النهاية سبب إستخدام الألمان المتفوق لمدفعيتهم وأيضاً نظامهم الجيد في فتح النيران أن أضطر الفرنسيون إلى إيقاف القتال والأنسحاب . وفي هذه المرحلة توقف تمام سير الأمور كما رسمها مولتسكة . ففي ٦ أغسطس أى في نفس يوم معركة « وورث » ، إشتباك بتهور «ستينمتر» وجيشه الأول ضد قوات فرنسية مخندقة في مواقع قوية عند « سبيشيرين » وتبعد ٣٥ ميلا إلى الشمال ، وبسرعة حضر قادة التشكيلات الألمانية المجاورة لمعاونة الفرقة القائدة المهاجمة ، وعلى بعد الظهر أجبر الألمان الفرنسيين على الأنسحاب ، ولكن كانت الخسائر الألمانية في «سبيشيرين» أكثر من خسائر الفرنسيين ، كما أن مجموعة الإستطلاع الألمانى فقدت كل أثر لتحرك الجناح الأيمن الفرنسى بقيادة « مكماهون » ، وإفترض مولتسكة أن اليمين

الفرنسي يتحرك إتجاه الشمال الغربي لينضم إلى اليسار الفرنسي تحت قيادة « بازين » بالقرب من « متر » على نهر الموزل .

بينما كانت الحقيقة هي أن « مكماهون » كان يتحرك إلى الوراء في إتجاه الجنوب الغربي . وفي الواقع لم يكن الإستطلاع الألماني المعتمد على الفرنسيان جيداً ، وخلاصة النتيجة أن القوات الألمانية كانت تجرب ضباب المعركة أثناء تحركها للأمام . وفي ١٤ أغسطس وقعت المعركة الثانية الغير متوقعة عند « كولومبي » شرق « متر » والتي كسبها الألمان كما حدث من قبل . وعلى مساء ١٥ أغسطس لم يعد هناك أى شك في أن « بازين » ينسحب من « متر » ، ولكنه لم ينسحب نحو « فردون » بالسرعة التي توقعها مولتكة ، لأنه عندما دفع في ١٦ أغسطس بالجيش الألماني الثاني عبر الموزل جنوب « متر » لمطاردة « بازين » وجد أن قواته متجمعة بقوة على مسافة أقل من عشرة أميال غربا . وحدث ما هو متوقع للجيش الثاني ، فقد أخذ يتخبط لدرجة أصبح معزولاً ، وكانت تلك فرصة ذهبية لبازين ليهاجمه من الجنب بقوات متفوقة ، ولكنه ترك الأحداث تتحول . فقد أصطدم فيلق ألماني بقوة فرنسية قوية عند « مارس — لا — تور » عبر الموزل وإلى الغرب من « متر » ، وجرى الاشتباك على نفس طريقة « سبيشرين » فقد قاتل الألمان بعناد حتى جاءت قوات إضافية لمعاونتهم ، وأستطاعوا مع نهاية اليوم كسب بعض الأرض ، وخسر كل جانب في هذا القتال حوالي ١٦٠٠٠ مقاتل .

التخبط الدامي

(أنظر اللوحة رقم ٤٠ ، ٤١)

الآن قرر « بازين » الصمود وخوض القتال ، وأصدر أوامره لقواته بالتخندق في مواقع قوية غرب « متر » مباشرة .

وهذا الموقع عبارة عن سلسلة مرتفعة تمتد حوالي ٧ أميال بين قريتي « جرافيلوت » إلى الجنوب و « سانت — بريفات » إلى الشمال ، وتنحدر السلسلة برفق إلى الغرب ، بينما تنحدر بحدة إلى الشرق .

وفي ١٨ أغسطس كانت الدفاعات الفرنسية قد كملت ، فقد تم حفر الخنادق لإطلاق النيران وخنادق المواصلات ، كما كانت بطاريات المدافع محمية بالدشم . وحولت بعض بيوت

المزارع إلى ما يشبه القلاع الصغيرة . وواجه كل جانب في الواقع خلال المعركة والتي كانت على وشك الحدوث مؤخرته الاستراتيجية . فنجد أن الألمان ، قاموا بتحريك واسع في الجزء الجنوبي الغربي منذ ٦ أغسطس ، وعندما لم ينسحب الفرنسيون كما كان متوقعاً ، فقد وجد الجيشان الألمانيان الأول والثاني أنهما قد طوقا بالكامل الجانب الأيمن لقوات «بازين» . ومع الأضواء الأولى لفجر ١٨ أغسطس ، وبينما كان الأمير «فريدريك تشارلز» لا زال يعتقد أن بازين ينسحب غرباً ، فقد دفع الأمير بحيشه شمالاً في أرتال متوازية قوية غرب السلسلة المرتفعة والتي تقع خلفها قوات «بازين» وعلى ذلك فقد عرض فريدريك قواته لخطر مروع إلا أن «بازين» أخفق في القيام بالهجوم عندما حانت له الفرصة كما حدث تماماً في «مارس-لا-تور» .

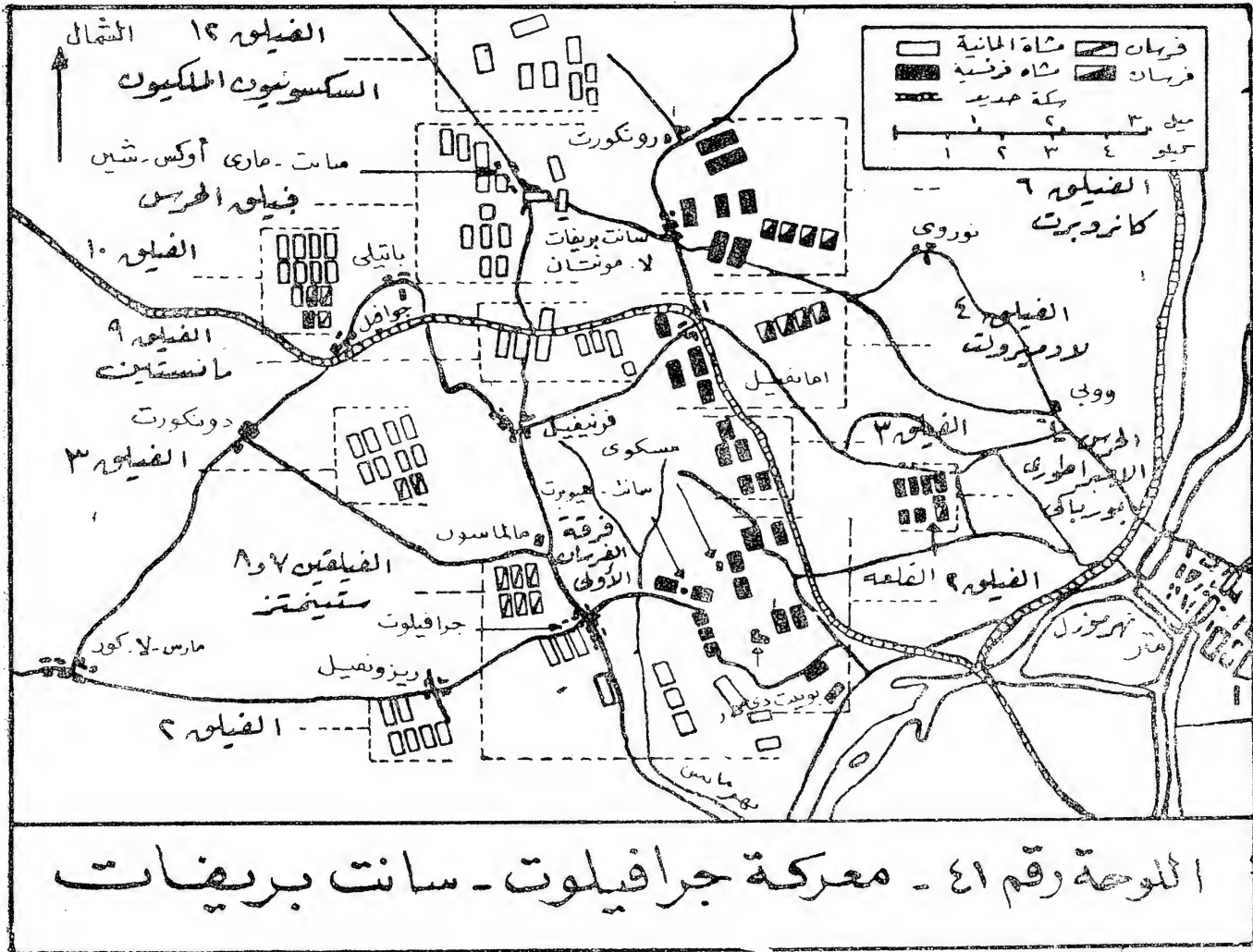
وفي هذه المرة نوى الألمان خوض القتال بمجرد اصطدامهم بالعدو ، ولأول مرة إشتباك الجانبان بكل ما لديهم من قوات في معركة واحدة . وكان لدى الألمان ، بعد إزالتهم الجناح الأيمن الفرنسي وإبعاده عن الميدان بالانتصار في «وورث» ، ١٨٨٣٠٠ رجل و٧٣٢ مدفع وذلك ضد ١٢٨٠٠ جندي فرنسي و٥٢٠ مدفع . وحدث عند «أمانفيل» الاشتباك الأول بين الفيلق القائد للجيش الثاني مع الفرنسيين .

وفي البداية أعتقد الألمان أن هذا هو أقصى يمين الموقع الفرنسي ، وقبل إنتصاف النهار بقليل هاجم فيلق «مانستين» التاسع المواقع الفرنسية والتي يقودها «لادميرولت» ومخندقة خلف «فرنيفيل» .

وعلى الفور أدرك «مانستين» أن الفرنسيين متحصنين بسانت بريفات بقوة وقد يهاجمون أجناب القوات الألمانية . وبات الوقت متؤخراً جداً لمولتكه ليغير أوامر الهجوم ، وهي الأوامر التي أعطيت على أساس افتراض إمكان طي الموقع الفرنسي المتمركز على «جرافيلوت» من الشمال .

وفي الساعات الأولى للقتال حول «أمانفيل» صدت نيران البنادق الفرنسية الألمان في الأرض العراء كما فقد الألمان بعض المدفعية في هجوم مضاد ، وتحولت المعركة في هذه المنطقة لتصبح تراشقا بالمدفعية والتي تحملتها بصمود كلا الجانبين ، بينما جلبت قوات أكثر من الجيش الألماني الثاني لمعاونة يسارهم .

ومع الساعة الثالثة كان « مانستين » قد عزز بقوات إضافية وسرعان ما طرد الألمان الفرنسيين من قرية « سانت — ماري — أو كس — شين » وعلى الساعة الخامسة كانت المشاة الفرنسية بدأت تخرج بأعداد كثيفة من « سانت — بريفات » وقامت المدفعية الفرنسية بعمل أقصى ما يمكنها لحمايتهم من النيران المركزة عليهم من ١٨٠ مدفع ألماني . وفي نفس الوقت حول « جرافيلوت » من الشمال والجنوب فتحت المدفعية الألمانية للفيلقين ٧ ، ٨ منذ الظهيرة نيراناً متواصلة من ١٥٠ مدفعاً على المواقع الفرنسية وإستمر القصف حتى حلول



الظلام ، ولم يتمكن الألمان من مشاهدة تأثير نيرانهم إلا في اليوم التالي وكانت كالاتي : —
 « في « مسكوى » و « بوينت دي جور » وجد بعض الجنود الفرنسية وهم محترقون في مواقعهم الدفاعية ، كما كان هناك عدد كبير من الجرحى الذين شوهتهم النيران الناتجة من القصف .
 وفي كل مكان كانت هناك بنادق وسيوف مبعثرة ، وأعداد من الجرنديات والخراطيش وبقايا عربات المدافع التي نسفت علاوة على مدافع محطمة وعدد كبير من الخيول النافقة

والمقطعة» . وعلى الرغم من ذلك ، فلم تستطع المدفعية أو هجمات المشاة من زحزحة الفرنسيين عن المواقع المواجهة « لجرافيلوت » في ١٨ أغسطس . وصدت جميع الهجمات الألمانية ضد تلك المنطقة عدا الموقع المتقدم في « سانت - هيوبرت » والذي سقط قبل الغروب ، وكان هذا المكسب الوحيد الذي تم بواسطة الجيش الألماني الأول تحت قيادة « ستينمتر » .

وفي الوادي الضيق لنهر « مانس » وعلى بعد قليل إلى الجنوب قام « ستينمتر » بسلسلة من الأخطاء الفاضحة ، فقد اعتقد أن سقوط سانت - هيوبرت هي علامة لتحلل المقاومة الفرنسية ، فأمر كل المشاة المتوفرة والمدفعية التابعة للفيلق السابع بالهجوم على طول محور طريق ضيق والموصل إلى الوادي الضيق .

فأرسل معهم الفرقة الاولى فرسان والتي كانت ستطارد الفرنسيين المهزومين حتى « متز » مسددة بذلك الضربة القاضية . ولم يتمكن سوى عدد ضئيل جداً من الالمان من شق طريقهم إلى « سانت - هيوبرت » ، ولكن توقف الباقون نتيجة الاضطراب والتشوش الدامي اللذين حدثا في الرادي الضيق .

وعلى الساعة الخامسة أصبح واضحاً فشل هجوم الجيش الألماني الأول وبدأ الالمان بالتالي في الانسحاب .

وفي خلال ساعة تعرض المكسب الألماني في « سانت - بريفات » أيضاً للخطر عندما أمر الامير أغسطس أمير « وورتمبرج » فيلق الحرس بالتقدم إلى « سانت - بريفات » وقبل أن يتم التنسيق مع هجوم السكسون في الشمال .

وعندما تقدمت مجموعات المناوشة لفيلق الحرس صاعدة المنحدر نحو الخط الفرنسي حتى وقعت مذبحه البنادق الفرنسية ، وسقط الضباط من على خيولهم بينما قتل الرجال وهم يحاولون صعود الميل ، وأخيراً توقف الهجوم عندما وصل إلى مسافة حوالى ٦٠٠ ياردة من « سانت - بريفات » وذلك بعد أن خسر الالمان ٨٠٠٠ رجل في ٢٠ دقيقة . وهكذا على الساعة السادسة كان الفرنسيون قد صدوا الالمان على طول كل الخط من « جرافيلوت » إلى « سانت - بريفات » . وأصبحت اللحظة مواتية الآن لقيام الفرنسيين بهجوم مضاد إلا

أنه للمرة الثالثة على مدى أربعة أيام أخفق بازين في الإمساك بفرصته ، ويبدو أن قوة إرادته وقوته الدافعة قد شلنها ثقل المسؤولية ، أما هو فقد أدعى بأنه كان منهكاً . ورفض التقدم للامام من مركز قيادته عند « بلايفيل » قائلاً بأن الخطوط الدفاعية تقوم بعملها بنجاح ، وبدا له هذا كافياً .

وعندما سأله قاده المرووسين عن أوامر جديدة أظهر تردداً وعدم قدرة على الوصول إلى قرار ، بينما كان قاده المرووسين أنفسهم يفتقرون إلى المبادأة اللازمة لتكملة النصر .

وحتى بالرغم من عدم قيام الفرنسيين بهجوم مضاد ، فقد كان موقف الألمان في الجنوب على وشك الإنهيار التام . وبعد أن ألقى « ستينمتز » بجميع قواته في التخييط الدامي في وادي المانس ، فقد أرسل يطلب من القيادة الملكية السماح له بإلقاء قوات جديدة من الفيلق الثاني والتي وصلت لتوها إلى المعركة .

وكان ستينمتز قد ضلل الملك بتقرير ذكر فيه أنه إستولى على كل المواقع الفرنسية عدا المرتفعات ، وحيث أن مولتكه ظل صامتاً أثناء طلب « ستينمتز » فقد صودق على طلبه . وكان الفرنسيون في ذلك الوقت قد استعدوا لمقابلة أعدائهم ، فكانوا يرون خوذ أعدائهم وهي تلمع تحت أشعة شمس الغروب .

وقبل الهجوم الألماني بنيران قاتلة من المدى المؤثر ، وتراجعت المشاة الألمانية بدون نظام ثم بدأت بعض الخيول تجمع ، وفجأة تحطم النظام في الفيلق السابع والثامن . وإنطلقت الفرسان وعربات المدفعية تعدوا هاربة إلى الخلف خلال « جرافيلوت » وجرت المشاة الألمانية إلى الخلف أي إلى أسفل الوادي ، ولكن ظل الفرنسيون لا يقومون بهجوم مضاد وإستطاع الفيلق الثاني مقاومة هذه الموجة من الذعر ، ولكن وجد الجنود في الظلام أنفسهم يطلقون نيرانهم على القوات الألمانية التي فقدت النظام . ولم تفعل قوات الفيلق الثاني أكثر من التمسك بمواقعها ، وعلى الساعة التاسعة والنصف أوقفت القوات نيرانها . وشق الملك وهيئة قيادته طريقهم إلى « دوفيل » في الخلف في إنتظار سماع هزيمة الجيش الاول ، ولم يتبدد نصف الليل عندما علم مولتكه أخيراً من الأمير « فريدريك تشارلز »

بانهيار اليمين الفرنسي ، وفي الواقع ساعد الضغط القوي لفيلق الحرس الموقف الالمانى بشكل كبير ، فعندما قام السكسون بهجومهم الجانبي من الشمال لم يكن الفرنسيون على استعداد لمواجهةهم بعد .

وفي نفس الوقت حطمت نيران المدفعية كل المحاولات الفرنسية للتحرك للأمام بين «أمانفيل» و«سانت بريفات» . وبناء عليه قرر «كانزوبرت» قائد اليمين الفرنسي أنه لا بد من التراجع ، وطلب من «بورباكي» قائد الحرس الإمبراطوري والذي كان في الاحتياط ستر انسحابه ، الأمر الذي لم يكن في مقدور «بورباكي» عمله .

أما الهجوم الأخير للفرسان الفرنسية فقد منى بالفشل تحت وابل نيران البنادق الألمانية . وبعد الساعة الثامنة إستولى الألمان بسرعة والذين بلغت قوتهم ٥٠.٠٠٠ رجل على «سانت — بريفات» ، وتم ذلك باقتحام الألمان الموقع الفرنسي بالسونكي . وأنسحب اليمين



معركة سانت — بريفات وقد أقتحمها الألمان بعد دفاع مستميت للفرنسيين
الفرنسي في رتل متعثر على طول طريق «ووي» ، وعند «أمانفيل» أي في اليسار الفرنسي

البعيد رفض «بورباكي» في ثورة من الهياج معاونة «لادميرولت» ، في الوسط ، وهنا أيضاً بدأ الفرنسيون في الانسحاب .

وكان انسحاب اليمين الفرنسي ! انسحاباً منظماً إذا قورن بهزيمة الألمان عند «جرافيوت» ، كما كان الألمان أيضاً غير منظمين بدرجة تمكنهم من مطاردة الفرنسيين ، ولكن كانت الهزيمة كافية لتقرير نتيجة «حركة» «جرافيوت» و «سانت — بويقات» لصالح الألمان . وعلى ١٩ أغسطس انسحب باقي جيش بازين إلى داخل دفاعات «منز» وقد خسر الألمان حوالي ٢٠.٠٠٠ من الأرواح أى أكثر مما تكبده الفرنسيون ، ولكنهم كسبوا ميزة إستراتيجية حاسمة عند نهاية المعركة ، فقد أصبحوا قادرين على خنق جيش بازين في منز ، أى إلغائه هو وجيشه تماماً من باقى الحرب .

ولا يحتاج فشل بازين في القيادة إلى مناقشة أخرى ويكفى القول بأن القوات الفرنسية أظهرت كفاءة قتالية والتي كانت تستحق قيادة أفضل . وكان مولتكة محظوظاً بتحقيقه هذا النصر لأنه في الواقع لم يسيطر على الأحداث في أى وقت منذ ٦ أغسطس منذ معركتي «وورث» و «سبيشرين» ، كما أنه في يوم ١٧ أغسطس لم يفعل الألمان شيئاً أكثر مما فعله الفرنسيون بحيث يستحقون عليه النصر . وقد أظهرت المعركة أن مولتكة كان يتصف بخصائص المدرب والمنظم للجيش الكبيرة أكثر من خصائصه كقائد عام في ميدان القتال ، وقد أدت سنوات العمل السابقة المضنية إلى غرس الفهم التلقائي والذي أظهره الضباط الألمان المرؤوسين في هذه الحملة ، وقد أدى هذا إلى إصلاح أخطاء «ستينمتر» و «فريدريك تشارلز» مراراً نتيجة السرعة والذكاء والإخلاص الذي أبداه قادة التشكيلات والوحدات الألمانية في معاونة بعضهم وأيضاً نتيجة لضبط وربط وشجاعة القوات التي كانت ثقتها مطلقة في ضباطها . وفي هذه الأثناء انسحب «ماكاهون» بعد هزيمته في «وورث» في اتجاه باريس ، حتى وصل إلى «شالون — سير مارن» ، وهناك توفر له الوقت ليبنى جيشه في أربعة فيالق ، وفي ٢٣ أغسطس أمر بالتقدم في اتجاه الشمال الشرقي لتخليص بازين . وكما أشار ليدل هارت فقد جنى مولتكة الفائدة الناتجة من المناورة الواسعة . وقد واصل الجيش الألماني الثالث تقدمه بعد «وورث» ودار جنوباً وبالتالي فقد عبر الحدود ولم يشترك في

مرحلة العمليات التي وصلت إلى قمتها عند « جرافيلوت » و « سانت — بريفات » ، وقد وضعته هذه المناورة في موقع ممتاز ، فقد أصبح في إمكانه الدوران ومهاجمة جانب أو مؤخرة جيش « ماكاهون » إذا تقدم .

وفي نفس الوقت بدأ « ماكاهون » يواجه بعض القوات الألمانية المتحركة خارج « متز » وعلى نهاية أغسطس وقع « ماكاهون » في المصيدة بالقرب من الحدود البلجيكية ، ودارت معركة عند « بومنت » في ٣٠ أغسطس . وحتى الآن كانت القيادة الألمانية تعمل في جوهر واضح إلى حد ما . وفي سبتمبر دارت معركة « سيدان » على نهر الموز ، وحوصر الفرنسيون في قطعة ضيقة من الأرض ، وبدأ الألمان في قصفهم بالمدفعية من خارج مدى البنادق الفرنسية ، وفي اليوم التالي أستسلمت القوات الفرنسية ، ووقع منهم في الأسر ١٠٤٠٠٠ منهم الامبراطور نابليون الثالث بينما خسر الألمان ٩٠٠٠ فقط . وقد تمكن الألمان من هزيمة الفرنسيين في عمليات دارت على مدى شهرين ، نتيجة لعدم وجود جيش منظم آخر لدى فرنسا . وعلى أي حال ، فقد امتدت الحرب لسنة أشهر أخرى قبل الوصول إلى نهايتها .

وفي هذه الاثناء أعلنت الجمهورية في فرنسا ، وأثار وزير الحرب « كامبيتا » المقاومة . و طال حصار « متز » و « باريس » وبدأ الفرنسيون يضحون بأرواحهم في شجاعه باسلة ضد محاصريهم من الألمان ، وفي الريف أثار الفدائيون الفرنسيون حرب عصابات ضد الألمان . وهرب « كامبيتا » من باريس ببالون لتنظيم جيش في اللوار . و فقط في يناير وفبراير ١٨٧١ أستسلم آخر الفرنسيين في باريس وفي اللور . وأعلن ويليام نفسه إمبراطورا في قاعة المرايا بفرساي . وفي ١ مارس سار الألمان في زهو خلال شوارع باريس . وخلال حكومة باريس الإشتراكية (١٨ مارس — ٢٧ مايو ١٨٧١) قاتل الفرنسيون بعضهم البعض ودارت بينهم المذابح على مرأى من الألمان .

الحرب الاهلية الامريكية (أنظر اللوحة رقم ٤٢)

وحدثت حرب عظيمة « حديثه » أخرى في أمريكا الشمالية . وترجع جذور الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) إلى التوتر المتزايد بين نوعين مختلفين تماما من المجتمع تربطهما معاً حكومة واحدة . وجاءت مشكلة الرقيق خلال خمسينيات القرن ١٩ إلى زيادة كره النظامين لبعضهما . وفي إنتخابات الرئاسة عام ١٨٦٠ فاز الجمهوريون بالرئاسة والذي كان

برنامجهم مرتبطاً بالمصالح الاقتصادية في الشمال ، وبالتالي فصلت ١١ ولاية جنوبية نفسها من الاتحاد .

وفي فبراير ١٨٦١ أُنْتُخِبَ « جيفرسون دافيز » أو « رئيس » للولايات الأمريكية الكندفدرالية في الجنوب . وأقيمت العاصمة في « مونتجمري » بولاية « الباما » . وفي الشمال تولى « لينكولن » منصب رئيس « الولايات المتحدة الأمريكية » وظلت العاصمة كما هي في « واشنطن » .

وكان تعداد سكان الشمال أكثر من ١٨ مليون ، أما الجنوبيين فلم يزد عددهم عن ٩ مليون ، ثلثهم من الزنوج العبيد .

وكان الشمال يمتلك ٩٠ ٪ من القدرة الصناعية للبلاذ وثلاثي خطوط السكة الحديد ، وأيضاً السيطرة على البحار ومعظم موارد المناجم . واحتاج الجنوب بالأخص للأسلحة ، فمن ١٣٥٠٠٠ قطعة سلاح ناري أستولى الجنوب عليها بالتوالي من ترسانات الحكومة كان منها ١٠٠٠٠ بندقية حديثة فقط ، أما الباقي فكانت من الأنواع الملساء القديمة التي تعمر من فم الماسورة . وبعد وقت أستطاع الجنوبيون الشحمان الاستيلاء على أسلحة أكثر ولكنهم بقوا في نقص خطير .

ولكن كان الجنوب يقاقل من أجل الدفاع عن الحياة ويوتهم من الغزاة ، بينما قاتل جنود الشمال من أجل فكرة تجريدية ألا وهي مبدأ الاتحاد ، ولهذا السبب إستطاع الجنوب بسهولة خلق مقاتلين متحمسين . علاوة على ذلك كانت نسبة كبيرة من الجنوبيين من الفرسان المهرة والذين أعتادوا الحياة في الجو الطلق المفتوح وفي العراء . ولكن يجب فهم بعض الحقائق المعينة ، فقد أعتبر لينكولن أن مشكلة الرقيق سوف يحلها الوقت والفكر السليم ، ولكن إذا حدث إنشقاق الاتحاد إلى دولتين ، فلن تعود الوحدة أبداً . وفي هذه الحالة سوف تصبح شمال أمريكا مثل أوروبا التي تمزقها الخلافات والغيرة والمنافسة الاقتصادية والحرب . وناضل لينكولن للابقاء على الاتحاد ، وبعد توليه منصب الرئاسة ، أجل مشكلة الرقيق لأطول فترة ممكنة . وفي إبريل عام ١٨٦١ أنفجرت الحرب عندما قامت قوات من « الولايات الكندفدرالية » بالهجوم

على إحدى حاميات « الولايات المتحدة » عند « فورت سميتر » بكارولينا الجنوبية . وأطلق الجنوبيون النار على علم الولايات المتحدة ثم أنزلوه ، ووضعوا مـكانه علما أبيض ، وإستسلمت الحامية الشمالىة .

وكان ذلك شىء زائد عن الحد ، وهرع الشمال إلى السلاح ، وفعل أهل الجنوب نفس الشىء . وبدأت الحرب الأهلية الأمريكية أو كما يفضل الكثير فى هذه البلاد أن يطلقوا عليها « الحرب بين الولايات » . وقد كتب الكثير عن هذه الحرب ، وهى بالتأ كيد تستحق الدراسة ، ولكنى أنوى تناولها بشكل مختلف إلى حد ما عن الطريقة التى تناولها بعض الدارسين ، وذلك بدراسة الشخصيات والقيادة والجيش أكثر من التكلم عن سير الحرب وتفاصيل المعارك التى دارت ، وكثيراً ما أهملت مثل هذه الدراسة ، والتى من المحتمل أن تكون ذات فائدة وبالأخص للقارىء الغير عسكرى . وعلينا أن نتناول أولاً الرئيسين ، فقد كان « دافير » فى الجنوب مؤهلاً تأهيلاً ممتازاً للتصرف فى الأمور ، فقد تخرج من « وست بوينت »^(١) ، وخدم لعدة سنوات فى الجيش النظامى ، وبعدها أصبح وزيراً للحرب فى واشنطن ثم رئيساً للجنة الشؤون العسكرية بمجلس الشيوخ بعد ذلك . كما كان على علم تام بجيش الولايات المتحدة وكان دافير أيضاً قادراً على إختيار الرجل المناسب للمناصب الأكثر مسئولية . ولم يختار فقط الرجال المناسبين بل أيدهم فى أوقات محنتهم ، فلم يحدث مطلقاً أن عزل قائداً بسبب ملاقاته المهرىمة ، ولذلك ظل نفس القادة الذين تولوا القيادة فى بداية الحرب فى مناصبهم حتى النهاية ، فيما عدا القادة الذين قتلوا مثل « جونسون » و « جاكسون » . وأكثر من ذلك فقد كان لدى « دافير » أعظم مفكر ومنظم عسكرى أمريكى فى تلك الايام هو الجنرال «لى» وقد إحتفظ به خلال سنوات الحرب الاولى كرئيس للأركان وكان مقره العاصمة ، وفى رأى أن هذا القرار كان له علاقة كبيرة بالنجاح الاولى للجنوبيين ؛ وفيما بعد ، فى يونيه ١٨٦٢ عهد إلى الجنرال « لى » بقيادة جيش فرجينيا الشمالى .

أما فيما يتعلق باينكولن ، فالصورة مختلفة تماماً ، فقد كان محامياً وسياسياً ممتازاً ،

إلا أنه لم يكن لديه أى خبرة عسكرية عملية ، ولا يعلم أى شىء عن الجيش ، ولم يكن يعرف سوى عدد ضئيل جداً من ضباط هذا الجيش . وكثيراً ما تمت تعييناته للمناصب القيادية على أسس سياسية . وعندما كان الرأى العام يصرخ مطالباً بإقالة قائد مهزوم كان لينكولن عادة يوافق ، ولذا كان من النادر إعطاء القائد الذى فشل مرة ، فرصة ثانية ، ولذلك نجد أن قادة الجيش فى نهاية الحرب لم يتولوا قيادة عليا فى بدايتها . وفى الواقع تعتبر هذه الطريقة قاسية فى التخلص ، بالرغم من الجأز أن أفضل الرجال هم الذين وصلوا إلى القمة فى نهاية الأمر ولكن من تخلص منهم كان بعضهم جيداً جداً ، وبذلك إختفى العديد من الرجال الجيدين أثناء ذلك العملية ، وكان الشمال هو الخاسر بفقدهم . وبالنسبة لى فإن دراسة محاولات لينكولن لإيجاد القائد الذى يستطيع تحقيق النصر فى المعارك لذات أهمية كبيرة ، لأن هذا الأمر كان هو السبب الرئيسى لوجود القادة وخلقهم .

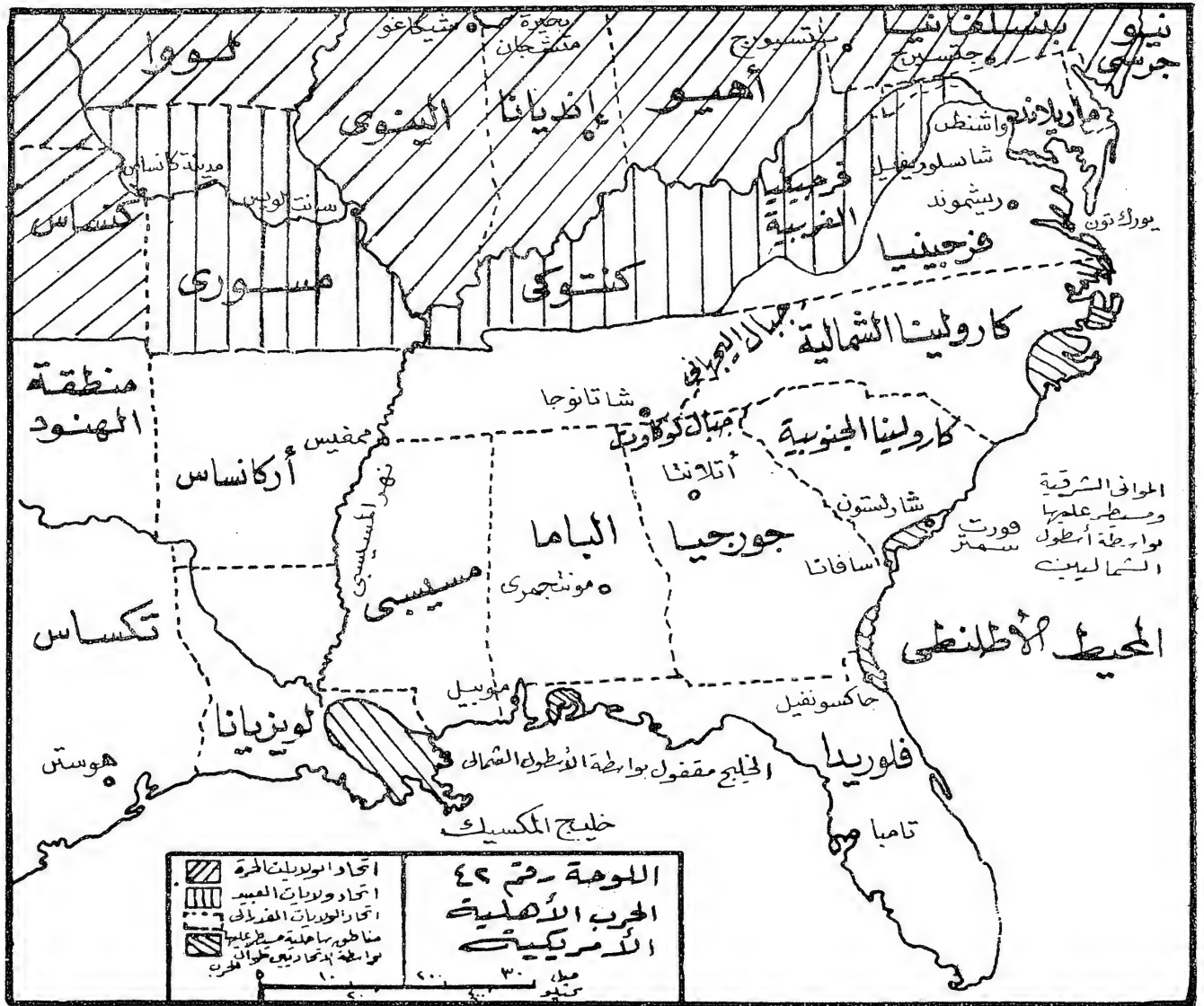
وفى هذا الصدد بدأ لينكولن بـ « سكوت » وهو رجل مريض يبلغ من العمر ٤٤ عاماً وبعد سكوت توالى الشخصيات الآتية على المسرح العسكرى وهم : « ماكدويل » و « ماكلين » و « هاليك » و « بوب » و « بيرنسيدي » و « هوكر » و « ميدى » .

وأخيراً عثر لينكولن على ضالته وهو الجنرال « يوليسبس جرانت » والذى وصل إلى منصب القيادة عبر الطريق الصعب ، بادئاً حياته كقائد آلاى وإنتهى كقائد عام . وكان « جرانت » جندياً وقائداً بحق فهو من النوع الذى يهتم برؤوسيه ويصدر أوامره بما يتلائم مع خبراتهم ومهاراتهم . ومن بين جميع قادة الجانبين ، فقد تميز « جرانت » بمقدرته على قيادة قوات صغيرة يمثل قيادة القوات الكبيرة فى المعركة وتحت أى ظروف صعبة أو متقابلة ، وأخيراً له مقدرة عظيمة على قيادة وإدارة عمليات عدة جيوش مختلفة . ولم يكن يؤمن بهيئة قيادة كبيرة ، ونجده فى عام ١٨٦٤ كان يقود خمسة جيوش تعمل فى منطقة مساحتها تعادل نصف مساحة أوروبا بينما كانت هيئة قيادته تتكون من ١٤ ضابطاً . وهكذا وجد لينكولن أخيراً القائد الذى يحتاجه ولكن ليس قبل فبراير ١٨٦٤ ، وعين لينكولن جرانت لقيادة جيوش الشمال . ويعتبر كلا من جرانت وشيرمان أفضل قائدين ميدانيين أنجبتهم الحرب بين الولايات . وخدم كلاهما تحت لواء لينكولن .

الموت فى سبيل المبدأ (أنظر النوحة رقم ٢٢)

وعندما بدأت الحرب ، كان على كلا الجانبين القيام بإنشاء جيش ، والذى كان فى كلتا الحالتين

لا بد أن يتكون من المتطوعين . وفي عام ١٨٦٠ كان إجمالى جيش الولايات المتحدة النظامى حوالى ١٦٠٠٠ رجل فقط ، وكان الجزء الأكبر منه منتشراً وموزعاً فى وحدات صغيرة على الحدود الهندية ولا يمكن سحبها . وفى الشمال والجنوب كانت هناك وحدات كثيرة من المليشيا ، إلا أنها تفتقر إلى التدريب والضبط والربط . ولقد كانت هناك ميزة

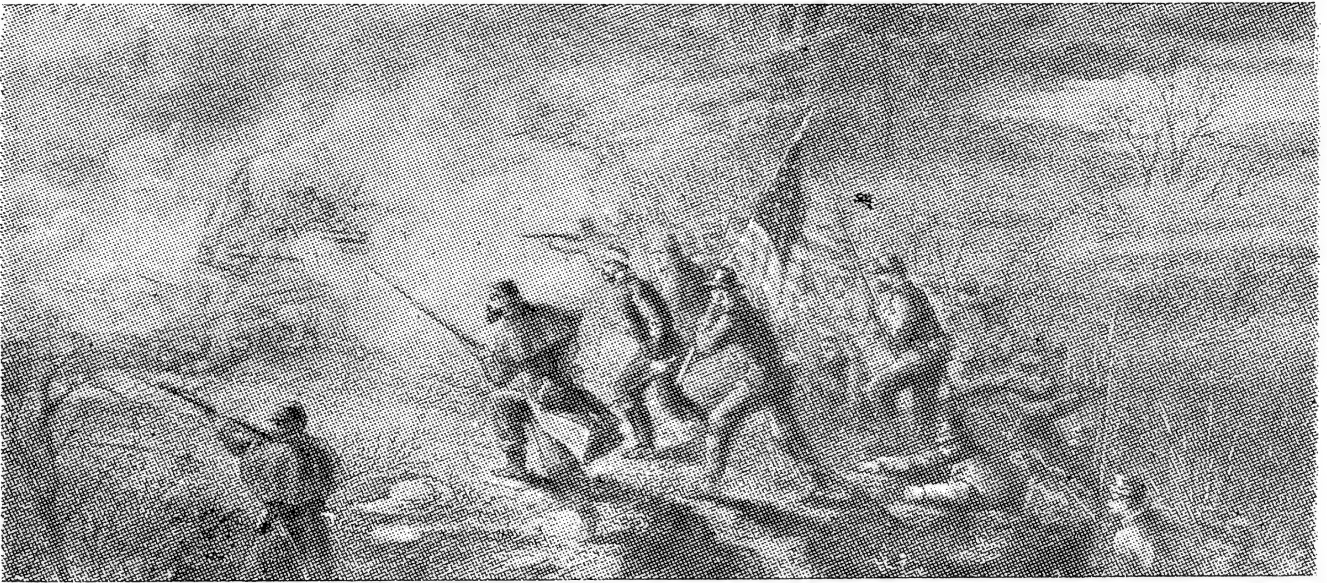


كبيرة للجنوبيين هو إستطاعتهم التحرر من الروتين الحكومى لوزارة الحرب فى واشنطن كما توفر لدافيز الجنرال « لى » ليساعده فى تنظيم قواته خلال سنوات الحرب الأولى ، بينما لم يكن لدى لينكولن مثل هذه الميزة . وقد لعبت فى هذه الحرب الجغرافيا والإستخدام الإستراتيجى للسكة الحديد والقيادة والتكتيكات دوراً كبيراً . كما أن الحرب فى المسرح الغربى كانت أكثر مرونة وخفة حركة من الشرق حيث أنها دارت على مناطق واسعة . وكانت

السيطرة على الأنهار من الأهداف الإستراتيجية الرئيسية وبالأخص بالنسبة للشمال حيث كان لديه معظم السفن التجارية والبحارة المدربين ومؤسسات بقاء السفن والإصلاح .

وعندما أنضمت فرجينيا إلى الجنوبيين ، جعل دافيز من مدينه « ريشموند » العاصمة للجنوب . وكم كان ذلك خطأ جسيماً باختيار العاصمة قريبة جداً من الحدود ويسهل الوصول إليها من البحر خصوصاً وأن القوة البحرية كانت لدى الشماليين . وقد كانت مدينة أتلانتا أكثر ملائمة أو من الأفضل أن تظل العاصمة كما هي في « مونتجمري » . وأصبحت العاصمتان بالتالى على مسافة حوالى ١٠٠ ميل من بعضهما . وكانت النتيجة أن وجه كل جانب مجهوداً مضاعفاً للاستيلاء على عاصمة الآخر ، ولو نجح أحدهما في ذلك فسيكون ذا أهمية معنوية كبرى . ولو قدر أن سقطت واشنطن يوماً ما ، لأنهارت عزيمة الشماليين في الحصول على النصر ، وكما أظهرت الأحداث فقد هددت واشنطن أكثر من مرة .

ولكن كان لدى الشماليين في شخصية لينكولن الرجولة الحقة والشجاعة الهائلة والعزيمة القوية والذهن الخالص . وربما أن الشماليين بدون لينكولن كانوا توقفوا عن النضال . وفي الأسابيع الأخيرة للحرب سقطت « ريشموند » .



قوات الشمال تحت قيادة جرانت تهاجم الجنوبيين
وقد شاهدنا في بداية هذا الفصل التقدم الهائل الذى طرأ على الأسلحة النارية والذى

حدث خلال الخمسين عاماً التالية لمعركة « ووترلو » . وقد أحدثت هذه التحسينات ثورة في الاسلوب التكتيكي ، وإختفت تشكيلات المشاة الجامدة وذلك الطراز العتيق من حرب الفرسان وهو إحداث الصدمة في الصفوف بالفرسان .

وأصبح الفأس والجاروف أدوات ضرورية للمعركة واستخدمت كل من المتاريس والتي كانت بارتفاع الصدر ، وحفر الخنادق لتوفير الحماية والوقاية للجندي . وقد خرج من الحرب الأهلية الامريكية كثير من الدروس المستفادة ، ولكن العسكريين المحترفين في أوروبا لم يعيروها اهتماماً قائلين أنها كانت حرباً لم يخضها محترفين . وكان عليهم التعلم من الطريق الصعب ، وهذا بالتأكيـد ما حدث كما سنرى في الفصلين القادمين .

لقد تناولنا بإيجاز الشخصيات المختلفة لدا فيز ولينكولن الزعيمين السياسيين . وسوف أختتم هذا الفصل ببعض الملاحظات عن « لى » و « جرانت » القائدين العسكريين . ورأى في « لى » أنه لم يكن حازماً بما فيه الكفاية مع قادة فيالقه ، ولم يكن أيضاً جيداً في إنتقاء الرجال . وبعد مصرع « جاكسون » في معركة « شانسلور سفيل » كان لديه ثلاثة مختلفين من قادة الفيالق وهم « أويل » و « هيل » و « لونجستريت » والذين فشلوا في أن يكونوا على مستوى مسؤولياتهم في « جتسبرج » ، وبشكل عام فقد كان حكمه صائباً دائماً ، ولكنه لم يكن يحب إصدار الاوامر المشددة لرؤوسيه ، وظهر هذا بوضوح تام عند « جتسبرج » وهى المعركة التى كان « لى » فيها فى أسوأ حالاته . وأنا أوافق مع المؤرخ الامريكى « دوجلاس فريمان » الذى كتب أنه لم يكن لدى جيش الجنوب فى « جتسبرج » قائداً عاماً . وبعد ذلك فلم يكن لدى « لى » أية مميزات تجعله يأمل فى النصر عندما أستدعى لمواجهة جرانت ، أعظم قادة الشمال المنتصر ، وخاصة أن « لى » فى ذلك الوقت كان بطلا للقضية الضائعة . ومهما كان الحال ، فلم يكن فى إمكان « لى » التغلب بنجاح على قائدين مثل « جرانت » و « شيرمان » ، فى وقت واحد . ومن الصعب فهم لماذا توقف الجنرال « لى » هذه المدة الطويلة عند « ريشموند » وقد أدرك جرانت أنها كانت مسألة شرف بالنسبة « لى » لدرجة أن الصمود الاخير هو للدفاع عن العاصمة

الجنوبية . وفي مقابل ذلك ، فقد ذكر فولر بأن الجنرال «لى» كان خائفاً من سحب جنوده من خنادقهم حتى لا تفر الجنود .

وطالما ظل الجنوبيون يواجهون العدو فلم يتوقفوا عن القتال ، ولكن حالما تراخى الضغط الخارجى فقد يصبح إغراء قوى بالفرار . وأننى لأجد هذا رأى صعب التصديق . وقد كشفت دراستى للحرب عندما تواجدت قيادة على المستوى الرفيع ، بأن ما يسمى « بالجنديّة » كانت من الدرجة الأولى . وعلى كل حال كان الجنود فى الجانبين جنوداً ممتازين بالفطرة ولديهم العزيمة والاستعداد للقتال فى سبيل المبدأ الذى يؤمنون به ، والموت عند الضرورة فى سبيل هذا المبدأ . ولى كلمة أخيرة عن « الحرب بين الولايات » فهى تستحق أن يدرسها العسكريين فى أيامنا الحالية .

ولقد كان نصر الشمال فى الحرب الاهلية الأمريكية نصراً للقومية والحرية والصناعة . ومن وجهة النظر الحربية فقد أخرجت هذه الحرب الكثير من التجارب والدروس تماماً مثل ما فعلت الحرب الفرنسية — البروسية . وقد ظهر تأثير نيران البنادق فى « سانت — بريفات » وفى « جتيسبورج » فى قوة الدفاع الجديدة .

وبدا أن مصير هجوم الفرسان على النمط القديم كما حدث فى « وورث » معلق للعثور له على مهام تكتيكية جديدة ، وهو الشئ الذى لم يلق اهتماماً فى أوروبا . بينما قدر تماماً فى أمريكا ، حيث كيف قائد الفرسان فى الجنوب « ناثان ب فورست » الموقف التكتيكي لفرسانه باستخدامهم أساساً كمشاة راكبة . وفى هذا الوقت كان يجب أن توضع فى الميزان القوة الدفاعية للمدافع الرشاشة إلا أن القوة التدميرية للمدفعية الثقيلة الحديثة بدأت تحس بشكل أكبر . كما ظهر فى هاتان الحربان أن وجود السكة الحديد قد يكون ميزة أو خسارة وذلك حسب إستخدامها . ويرجع النصر الخاطف البروسى عام ١٨٧٠ إلى التعبئة الممتازة والرائعة لمولتسكة والتى تمت بوسائل السكة الحديد . وكان هذا العامل يساوى أى عامل آخر من العوامل التى سببت المفاجأ .

ومن ناحية أخرى فإنه من أحد الاسباب التى جعلت الشماليين غير قادرين على القيام بتقدم سريع لفترة طويلة هو أن الجيش كان مقيداً وبشكل قاس بالخطوط الثابتة

المؤدية لرؤوس السكة الحديد. ولم يحقق الشماليين نصرا سريعا إلا عندما قطع شيرمان إعماده على رؤوس السكة الحديد. وأدى تزايد أحجام الجيوش إلى إزدياد صعوبة خفة الحركة ، وأدى هذا إلى زيادة أهمية الأركان حرب وقادة الفرق والفيالق ، وهى أمور ظهر أن الألمان تعودوها بشكل أفضل من الفرنسيين. أما التطورات الفنية فى الحروب البحرية ، فلا يمكن الحكم عليها فى هذه الفترة ، حيث لم يكن لها أى دور تقريبا فى الحرب الفرنسية — البروسية إلا أن الحصار البحرى الذى فرضه الشمال على الولايات الجنوبية قد ساعد الشمال بدون شك فى هذه الحرب التى كانت بشكل جزئى حربا بين إقتصاديين . وفى الواقع كانت الحرب الأهلية حافزا قويا لزيادة وكبر القوة الإقتصادية فى الولايات الشمالية .

ومع عام ١٨٧١ ، جرت الحرب الحديثة ولكن بشكل واسع وفى مظاهرها المختلفة ، وبقي أن نرى هل الدروس المستفادة من هذه التجارب قد استخدمت أو استفاد منها ! لقد استخدمت ولكن لم يحدث هذا سريعا . . .

الفصل التاسع عشر

الدروس القاسية

بؤرة المشاعر الوطنية

لقد قررت إعطاء هذا الفصل هذا الإسم لأن القوى الكبرى كان عليها تعلم الكثير بعد إنتهاء الحروب الثلاثة التي أشرت إليها فى الفصل السابق وهى : - « حرب القرم » و « الحرب الأهلية الأمريكية » و « الحرب الفرنسية البروسية » . وخلال الربع الأخير من القرن ١٩ إنشغلت القوى الأوروبية كثيراً لإكتساب مناطق فى أفريقيا وآسيا مما ورطها فى « حروب محدودة »^(١) فى هذه القارات . وقد أدت هذه الحروب المحدودة إلى أهمال هذه الدول دراسة الدروس المستفادة من المعارك الرئيسية المذكورة عالية ، وأكثر من ذلك فشلت الدول الكبرى فى تفهم دروس « حرب البوير » . وتحضرني هنا كلمات « ميتزلنك » التى تقول : « إن الماضى مفيد لى عندما أفكر فى الغد حتى أرسم مستقبلى »
وبمعنى آخر : يجب على الأمم أن تتعلم من الماضى لى تخطط للمستقبل بحكمة .

ويعنى إهمال هذا المبدأ أن السبيل إلى الفجاح فى المستقبل سوف يمر بطريق شاق وصعب ، يكون الثمن فيه هى أرواح الرجال . وقد كانت السنوات فيما بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ سنوات من « السلام المسلح » فى أوروبا كما تخللها حروبا صغيرة متعددة فى أماكن متفرقة من أنحاء العالم . وفى البداية ساد السلام أرجاء أوروبا بواسطة السياسة الإيجابية لدبلوماسية بسمارك إلا أنه عندما سقط فى عام ١٨٩٠ زاد التوتر داخل أوروبا ولكن على أى حال حوفظ على بقاء السلام بسبب الجهود الذى نشأ عن توازن القوى بين العسكريين المسلحين . وأثناء هذا الوقت زادت القوى الأوروبية من مصالحها ، ووجدت متنفساً لتوترها فى مناطق أخرى

(١) هى الصراعات المحددة الهدف أو المنطقة بسبب عجز المنافسين عن أنسراك كل قواتهم

من العالم ، ومن تلك المناطق التي كان مجال المنافسة فيها كبيراً هي شرق آسيا وشمال أفريقيا والبلقان. وطالما كان هناك متسع من الأرض ، كان المستعمرون الأوروبيون يتجنبون قتال بعضهم البعض ، ويركزون عملياتهم العسكرية ضد الأهالي الوطنيين . وعلى أي حال ، ففي خلال هذه الفترة وجد الاستعمار أنه يتعين عليه أن يقلص بعض الشيء بسبب ظهور قوتين صناعيتين وكبيرتين على المسرح العالمي خرج أوروبا . ففي عام ١٩٠٤ - ١٩٠٥ أستطاعت اليابان هزيمة روسيا في حرب خاض غمارها عدد من الرجال أكثر من أي حرب سابقة في التاريخ ، وحدث نفس الشيء عندما حرمت الولايات المتحدة الأمريكية أسبانيا من آخر مستعمراتها الهامة على كوبا في حربهما عام ١٨٩٨ ، وكان ذلك إشارة إلى أنه لم يعد بمقدور القوى الاستعمارية الأوروبية أن تجد متنفساً لتوترها في حلبة صراع إستعماري واسعة . فقد بدأ العالم خارج أوروبا يزدحم بالشعوب والقوى الصناعية والعسكرية . ومن الملاحظ أنه أمكن بنجاح تفادي حدوث الحروب واسعة النطاق في هذه الفترة ، بالرغم من الضغط العنيف الذي ساد أوروبا من العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، فقد ارتفع تعداد سكان أوروبا بمعدل ١٠ ٪ كل عشرة سنوات ، بينما استمر التصنيع في النمو ، مع زيادة الإنتاج العالمي إلى أربعة مرات فيما بين ١٨٧٠ و ١٩٠٠ . كما أن التفاعل المتزايد بين نمو السكان والوسائل الصناعية والعلوم النظرية قد أدى إلى ظهور صناعات جديدة كلية مثل الصناعات الكهربائية والكيمائية ومصادر جديدة للطاقة مثل ما كينة الاحتراق الداخلي .

وأدى هذا إلى ظهور الألمنيوم والإطارات المملوءة بالهواء المضغوط واللاسلكي . وفي تلك الفترة أيضاً دخلت الصناعات الحربية بصفة خاصة مرحلة من النمو حيث سيطرت على السياسات في نفس الوقت تأثرت هي بالسياسة .

وترجع على قمة صناعة السلاح في العالم الشركات الكبيرة مثل «أرمسترونج» و «كروب» و «كريسوت» .

ونظراً لأن الدول الكبرى لا تسمح عن طيب خاطر لبعض منها لتصبح أقوى من الأخرى ، ونتيجة للاختراعات الجديدة وتزايد القدرة الإنتاجية فقد أدى هذا أن إندفع

الجميع بسرعة في سباق عالمي للتسليح ، مع التنافس في إنشاء السكك الحديدية والتبارى في أحجام الجيوش .

وفي الفترة التي تلت ١٨٧٠ أدخل نظام التجنيد الإجبارى (على الطريقة الألمانية) في كل مكان فيما عدا بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

وفيا بين عام ١٨٧٠ — ١٨٩٨ تضاعفت المؤسسة العسكرية الألمانية إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه أى إلى أكثر من ثلاثة ملايين رجل ، بينما وصلت فرنسا إلى نفس الرقم ، وفي روسيا إلى أربعة ملايين ، وفي النمسا إلى أكثر من مليونين .

وبوجه عام في خلال ٢٥ عاما أصبح مجموع ما يمكن أن تدفعه دول أوروبا إلى ميدان القتال حوالى ١٠ ملايين رجل .

وتم تعديل طريقة التجنيد بصعوبة بالغة خوفا من السياسة الشعبية وخاصة مشاعر الطبقات المتوسطة .

وفي الواقع أصبحت القوات المسلحة بؤرة للمشاعر الوطنية الكثيفة في كل الأمم ، وقد ظهر ذلك بوضوح في فرنسا في قضية « دريفوس » خلال تسعينيات القرن ١٩ .

على كل حال كان هناك إعتراض عملي بخصوص الحجم الكبير للجيوش لأنها لا تلأئم الحروب الاستعمارية ، ولهذا السبب فضلت بريطانيا الاحتفاظ بقوات صغيرة محترفة والتي تستخدم مدة طويلة .

ولكن بريطانيا لم تكن أقل شعوراً بالقومية عن القوى الأخرى ، فقد كان سلاحها البحري رمزاً قومياً للبريطانيين كما مثلت الجيوش بالنسبة لشعوب أوروبا .

وفي الفترة ما بين عام ١٨٧٤ — ١٨٩٦ زادت نفقات القوى الأوروبية على الدفاع بنسبة ٥٠٪ .

وأدت السرعة في سباق التسليح إلى وجود هواجس كبيرة مما دعا إلى عقد مؤتمر^(١) لنزع السلاح في « الهوج » عام ١٨٩٩ .

(١) لقد دعى قيصر روسيا إلى عقد هذا المؤتمر متأثراً بكتاب وضعه سي. بلوش عن أهوال حرب المستقبل .
« المغرب »

وتم الموافقة فيه على بعض القواعد البسيطة للتخفيف من أهوال الحرب ، إلا أنه لم يتم الاتفاق على تقييد التساح . وبدلاً من ذلك ذكر ممثل الولايات المتحدة أن حكومته : - « لا تعتبر تقييد استخدام الاختراعات العسكرية أمراً موصلاً للسلام العالمى » .

التكنولوجيا العسكرية

وحدث تنظيم للجيش الأوروبى جميعاً بنىل ما حدث للاعداد والمعدات . وكانت الفروق بين هذه الجيوش مجرد تفاصيل أو تنازلات صغيرة للتقاليد أو روح الفريق . وظلت المشاة الفرنسية محتفظة بسر ويلها الحمراء ، إلا أن معظم القوات فى الميدان كانت ترتدى الملابس الكاكي ، وقد استخدم أولاً بواسطة البريطانيين فى الجبهة الهندية عام ١٨٤٨ .

وقد وضح للجميع مدى الحاجة إلى هيئة الأركان على مستوى عالى من الكفاءة . وكانت هيئة الأركان العامة الألمانية لإجراءاتها المنظمة هى النموذج ولكنها فى نفس الوقت مرنة علاوة على سيطرتها على التدريب ورئيسها القوى . وظهرت أكاديمية نيقولاس للأركان فى بطرسبورج ، وكلية أركان حرب فى كامبرى ، وكانا يعادلان الأكاديمية الحربية البروسية .

ووصلت هذه المنشآت التعليمية إلى مستوى أعلى من ذى قبل ، وذلك بتشديد شروط القبول فيها بالتوسع فى المناهج الدراسية . وإزداد التخصص بشكل كبير فى الجيوش مع الاعتماد على الطبقات المتوسطة فى ضباطها .

وفى بريطانيا جاء إلغاء شراء الرتب العسكرية كأحد الإصلاحات العظيمة والكثيرة والتي أدت إلى كفاءة الجيش خلال الفترة التى كان فيها « إدوارد كاردويل » فى وزارة الحربية وفيما بعد عندما كان كل من « السير جانت » و « ولسلى » و « اللورد روبرت » قائداً عاماً للقوات المسلحة .

وكان الفيلق^(١) هو الوحدة الرئيسية فى الجيوش الأوروبية ، ومنظماً ولديه الاكتفاء

القاتل بحيث يمكنه القتال بكفاءة في حالة إتصاله عن الجيش الرئيسى وعادة ما يرتبط الفيلق بمنطقة إقليمية معينة ومن ثم لم يكن قائده مسؤولاً فقط عن تنظيم وتدريب وحداته ولكنه كان مسؤولاً أيضاً عن التجنيد والإمداد والنقل .

وإذا نظرنا إلى أحد الفيالق فنجد أنه يتكون من فرقتين تضم كل منها لواءين من المشاة ولواء من الفرسان وآلاى مدفعية ميدان ، علاوة على وجود وحدات تحت القيادة المباشرة للفيلق وهى آلاى مدفعية ثقيلة ووحدات مهندسين وإمداد ، ووحدات طبية ، ووحدات تلغراف ، وأطقم للسكة الحديد والبالونات وراكبي الدرجات والكبارى وبعض الخدمات الأخرى الإدارية والمساعدة .

وأصبح التسليح فى نهاية القرن قريباً من أن يكون موحداً ، فقد سلحت أفراد المشاة بالبندقية عيار ٨ مم أو ٩ مم ذات الخزانة ، وسلحت مدفعية الميدان بمدافع من الصلب من عيار ٨ سم بينما سلحت مدفعية الحصار والمدفعية الثقيلة ، بمدافع وهاونات وهاوتزرات بأعيرة من ١٥ سم إلى ٢١ سم .

وفى الفترة ما بين ١٨٧٠ — ١٩١٤ ضمن سباق التسليح استمرار تطور التكنولوجيا العسكرية والبحرية .

وفى عام ١٩٠٠ وصلت البنادق والمسدسات والقربينات ومدافع الماكينة إلى درجة من التطور بحيث أستخدمت هى نفسها خلال حرب ١٤ — ١٩١٨ . وكانت التطورات الرئيسة فى البندقية هى طريقة التعمير من الخزانة التى اخترعها « جامس لى » والعيار الصغير للطلقات التى أصبحت أخف وزناً وبالتالى سارت فى خط مرور مسطح وبسرعة أكبر . وقد استخدمت بريطانيا هذا النوع من البنادق الذى يجمع بين الخاصيتين فى عام ١٨٨٧ ، ثم استخدمتها القوات الأخرى بعد ذلك بوقت قصير .

وفى عام ١٨٨٤ استخدم الفرنسيون البارود عديم الدخان والذى كان العنصر الرئيسى فيه هو « المتروسيلوز » فى شكل حبيبي ، وأدى هذا التطور فى الواقع إلى تغيير شكل ميادين المعارك .

وكان هناك أيضاً تطورات رئيسية فى المفرقات ، عندما اخترع « ألفريد نوبل »

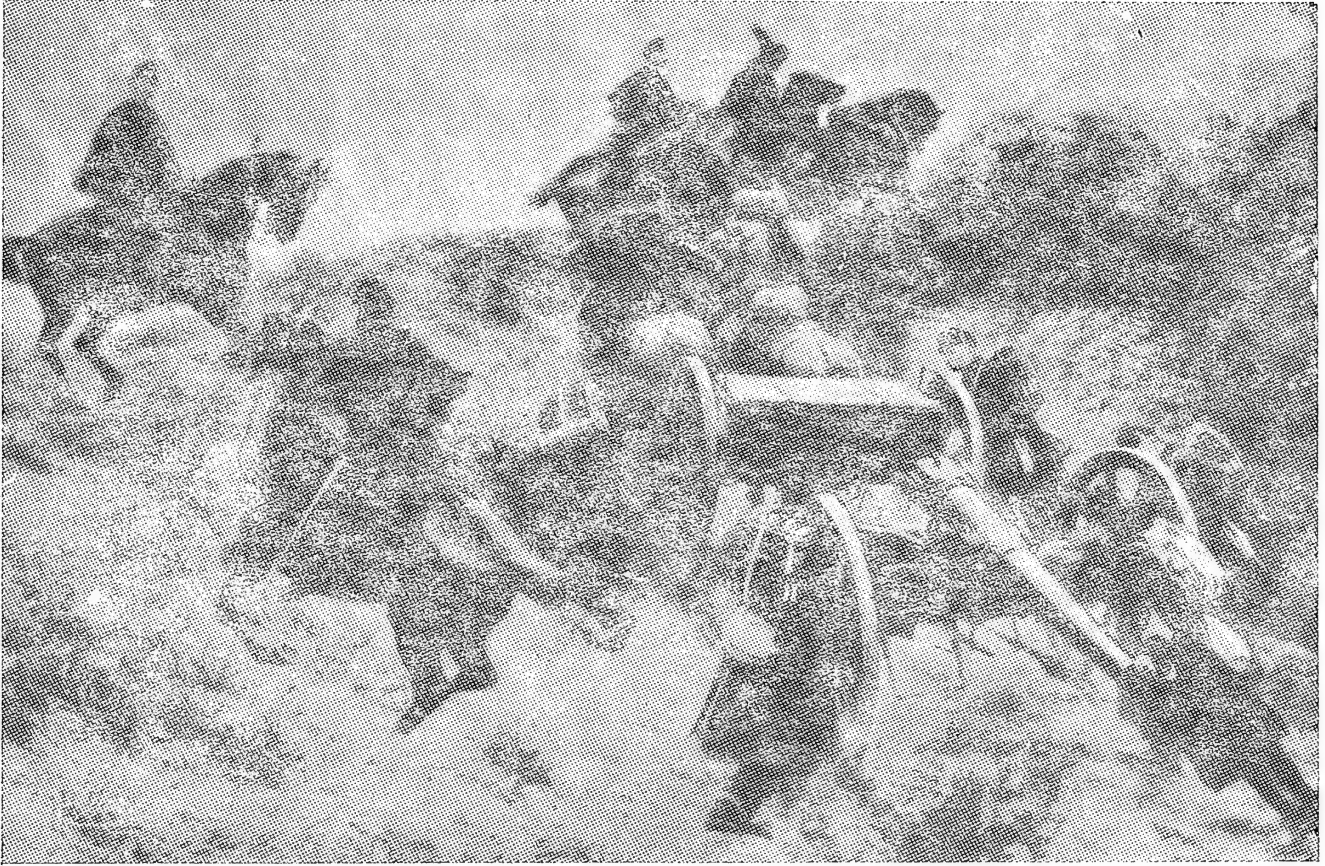
الديناميت عام ١٨٦٠ ثم صناعة « الكوردايت » في عام ١٨٩٠ . أما أبرز التطورات في المسدسات فقد كان في ظهور مسدس « بورتشاردت » الأتوماتيكي في عام ١٨٩٣ ، والذي كان البشير بظهور المسدسات الحديثة التي تستخدم الغازات الناتجة من الإطلاق في تشغيل الحركة الميكانيكية أوتوماتيكياً .

وفي عام ١٨٩٨ ظهر نوع مبسط من هذه الأنواع صنعه « ماوزر » ، وكان هذا أول مسدس أوتوماتيكي شائع وموثوق فيه ، وإستخدم في حرب البوير في جنوب أفريقيا على نطاق واسع مع تعديله ليصبح كالتقاربينة بإضافة ماسورة طويلة وخزنة تسع عشر طلقات . وتم إنتاج وتجربة مدافع ما كينة متعددة حتى توصل « هيرمان س ما كسيم » في عام ١٨٨٣ إلى تصميم تم الموافقة عليه . وقد استخدم في هذا النموذج خاصية إرتداد المدفع في عملية التعمير الآلى ، وكان الإطلاق والتعمير يتمان بصفة مستمرة طالما كان الزناد مضغوطاً عليه . ووضعت الطلقات في شريط مرن بينما بردت الماسورة بواسطة الماء ، وعلى الفور عرفت مميزات هذا السلاح .

وفي عام ١٨٩١ أقر الجيش البريطاني طراز خاص خفيف الوزن وكان وزنه ٤٠ رطل فقط ويطلق ٦٥٠ طلقة في الدقيقة . وبتعديلات طفيفة أصبح مدفع « ما كسيم » هو المدفع الرشاش فيكرز ، والذي استخدم في كلا الحربين العالميتين . وأصبح هذا المدفع أكثر المدافع إستخداماً في حرب الخنادق ، ومن المحتمل أن يكون هذا السلاح هو السلاح الوحيد الذي سقط أمامه أكبر عدد من الجنود قتلاً .

وفي عام ١٨٧٠ إنقسمت الآراء حول أيهما أفضل ، المدافع التي تعمّر من الأمام أم التي تعمّر من الخلف ، إلا أنه بعد مرور عشر سنوات لم يعد هناك مجالاً للشك في أن المدافع التي تعمّر من الأمام غير مرضية سواء في البر أو البحر ، نظراً لخطورة إحتمال التعمير المزدوج ونظراً للاحتياج إلى المواسير الطويلة للحصول على أكبر قدر من سرعة القذيفة ومدى أكبر . واستخدمت المدافع عيار ١٢ رطل في مدفعية الميدان البريطانية وكان المدفع يزن ٣٨ هندردويت ويحمله ست خيول .

وفي عام ١٨٩٠ إستخدمت عربات للمدافع ذات الإرتداد الهيدروليكي .



عربة مدفع ذات أرتداد هيدروليكي تتحرك في ميدان المعركة

أما الفرنسيون فكان لديهم ما يشابه ذلك ولكن بتحسينات أكثر وهو مدفع الميدان ٧٥ مم .

وفي عام ١٨٩٠ كانت معظم الجيوش الأوروبية مجهزة بالمدافع التي استخدمتها في حرب ١٤ — ١٩١٨ مع تعديلات طفيفة عليها. وفي هذه الفترة إتجهت الحرب لأول مرة إلى الجو . فقد أدركت الدول قيمة عمليات الاستطلاع الجوي ، وفي بريطانيا وفرنسا وألمانيا تم صنع بالونات ومناطيد ، كما أنشأت أول مدرسة للبالونات الحربية في « وولوتش » عام ١٨٧٨ ، بينما صنع الألمان منطادهم الشهير « زبلن » .

ومنذ عام ١٩٠٩ إتسع سباق التسليح بجد في مجال الحرب الجوية . وبعد نجاح طيران الأخوين « رايت » بالطائرة ، كانت فرنسا هي أول دولة قدرت قيمة قوة الطائرة في الأغراض العسكرية .

ومن عام ١٩٠٨ حدث تقدم سريع في تصميم الطائرات من حيث السرعة والمدى والكفاءة .

وفي عام ١٩١٤ وصلت سرعة الطائرات إلى ٧٥ ميلا في الساعة ، ويمكنها القدرة على البقاء في الجو لمدة ساعتين أو ثلاث ، ولكنها لم تكن قد استخدمت بعد في الحرب ، إلا أن الرأي العسكري كان يميل إلى وجهة النظر التي تقول أنها قد تكون مفيدة أساساً في الاستطلاع .

وفي عام ١٩١٤ كانت القوات الجوية البريطانية مشكلة من قسمين ، جناح بحري وهو للخدمات الجوية للبحرية الملكية ، والفيلق الجوي الملكي وهو خاص بالجيش .

ظهور القواصات

وخلال سبعينات القرن ١٩ تزايدت قدرة الدانات على الاختراق ومن ثم بدأ الاتجاه في بناء السفن يميل إلى تغطية بدننها بدروع حديدية وصلت في بعض الأحيان إلى ٢٤ بوصة . وعلى أى حال فإن التقدم الكبير الذي طرأ على صناعة الصلب في السنوات العشر اللاحقة أدى إلى توفير ألواح مدرعة رقيقة من الصلب ولكن أخف وزناً وقوية بدرجة كافية . وظهرت مشكلة توفير الأمان وخفة الحركة ، وهما مطلبان متعارضان .

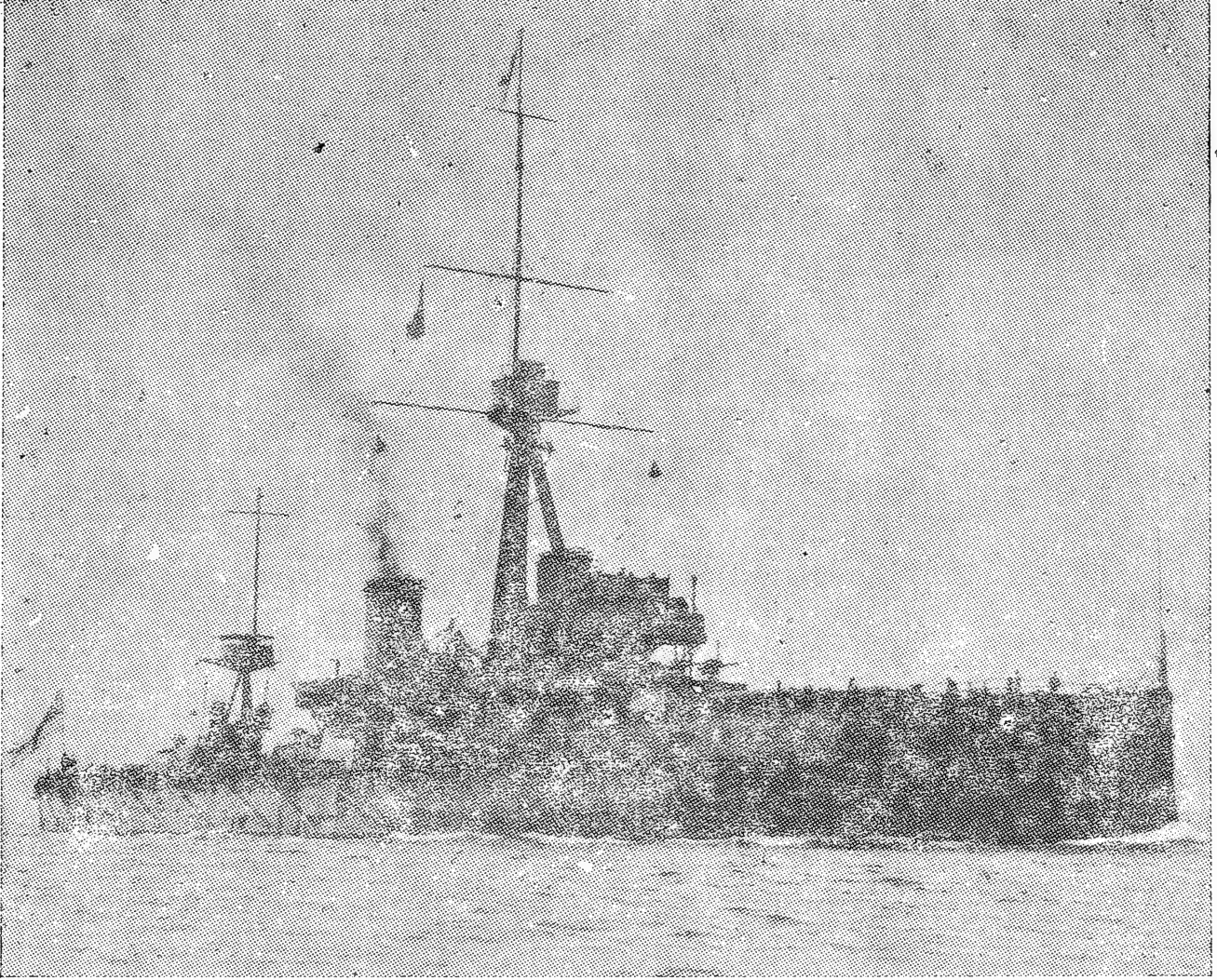
وفي عام ١٨٩٠ نبذت بريطانيا استخدام المنصات العامة المركب عليها المدافع وذلك عندما بنت في نفس العام سفينتها الحربية «رويال سوفرين» ، والتي بنيت على نظرية إرتفاع الجزء الطائي من السفينة . وتبعت البحرية البريطانية البحرية الأخرى .

ومع تزايد حدة سباق التسلح العالمي عام ١٩٠٠ ، وصلت حمولة السفن الحربية إلى ١٥٠٠٠ طن وسرعتها إلى ١٨ عقدة ، كما حملت مدافع عيار ١٢ أو ١٣ بوصة ذات سرعة إطلاق عالية .

وإنزعجت بريطانيا من تحالف روسيا وفرنسا ، إذ أن أسطولهما المشترك كان أكبر من أسطولها ، مما جعلها تنفذ برنامجاً ضخماً لبناء السفن في عام ١٨٩٩ ، مما زاد من حدة السباق البحري .

وفي عام ١٩٠٤ استطاعت أن تبني نموذج «الديرنوت» للبوارج الحربية وكان تسليحها

الرئيسى ١٠ مدافع من عيار ١٢ بوصة . وقد تفوقت هذه السفينة فى تصميم جميع البوارج الحربية السابقة ، وظلت نموذجاً للسفن الحربية الرئيسية حتى حرب ٣٩ — ١٩٤٥ .



بارجة حربية من نوع «الدريدنوت» المسلحة بـ ١٠ مدفع عيار ١٢ بوصة

وأدى إدخال التوربين البخارى والتحول من الفحم إلى النفط إلى زيادة السرعة من ١٨ عقدة إلى ٢٥ عقدة، وأصبح من الممكن للسفن البقاء فى البحر مع السير بسرعات عالية لفترات طويلة .

وفى السنوات التى سبقت عام ١٩١٤ أصبحت كل من بريطانيا وألمانيا على قمة المتنافسين فى السباق البحرى .

وخلال عام واحد صنعت بريطانيا وحدها ثمان سفن جديدة . وكان على القوى الأوروبية

أيضاً التنافس على القواعد فى جميع أرجاء العالم ، وقد تلائم ذلك تماماً مع ميولهم الاستعمارية .

وفى عام ١٨٧٧ إستخدم الروس الطوربيدات بفاعلية ضد السفن التركية الثابتة ، ومن بعدها أصبحت زوارق الطوربيد من العناصر العادية فى الحروب البحرية . أما التطور الحقيقى الذى طرأ على الغواصة فقد بدأ عام ١٨٧٧ باختراع الدفة الأفقية والى جعلت من الممكن السيطرة على قيادتها .

وأصبحت الغواصة فى النهاية سلاحاً ذا قوة مؤثرة كبيرة بفضل البطاريات القابلة للشحن والمالكينات التى تعمل بالبترول . وكان الفرنسيون هم الرواد فى هذا المجال ، وفى عام ١٨٩٩ أبحرت الغواصة « جوستاف زيدى » بسرعة ٨ عقدة وعلى عمق ٦٠ قدم تحت السطح . وفى عام ١٩٠١ كان لدى فرنسا ٢٣ غواصة بما فيها الغواصات الجارى بناؤها . وأمرت بريطانيا ببناء خمسة غواصات فى هذا العام ، أما ألمانيا فلم تقتنع بفاعلية هذا السلاح . ولكن بحلول عام ١٩١٢ فان تجربة مناورة الغواصات أقنعت المفكرين البحريين فى جميع الدول ، بقيمة الغواصات كسفينة مهاجمة ، ولم تعد هناك بحرية رئيسية تخلو منها .

الحروب الصغيرة

ومن بين المؤلفات العسكرية الغزيرة التى ظهرت فى هذه الفترة، كتاب الميجور جنرال «سير تشارلز كولويل» إسمه « الحروب الصغيرة مبادئها وتطبيقها » عام ١٨٩٦ . وقد إهتم هذا الكتاب بالحملات العديدة التى قامت بها القوى الاستعمارية .

وكانت معظم هذه الحملات فى شكل عمليات غير نظامية . وقد استخدمت أحدث المعدات العسكرية وموارد الثروة للمجتمعات الصناعية ضد قوات الشعوب البدائية . أما العمليات المدبرة فكانت نادرة ، لأنه مهما كانت شجاعة المواطنين فان النتيجة النهائية لمثل هذا القتال ستكون هزيمة منكرة للمواطنين .

وهذا الطراز من الحرب كان له مشا كل غير عادية منها صعوبة الإمداد والنقل فى الأحرش والمستنقعات والصحراء ، كما أن الطقس وحده يعتبر عدوا لا يقهر . وعندما يتجنب العدو القتال المفتوح ويعتمد على المراوغة والاختفاء والكماؤ وأعمال القناصة ، والإغارة ، فسوف

يصبح من الصعوبة الحفاظ بالروح المعنوية عالية . وبصفة خاصة فلم يكن من السهل العثور على هدف معادى محدد ، فلا يوجد تشكيل رئيسى للعدو للبحث عنه وتدميره ، فى نفس الوقت لن تفيد توجيه ضربة إلى العاصمة ولهذا كانت القوات النظامية مضطرة إلى تناسى تدريبها التكتيكى المناسب للحروب الأوروبية وإتباع أسلوب حرب العصابات ، والحرب الوحشية . والحل لمشكلة عدم توفر الهدف فى مثل هذا النوع من الحروب هو توجيه الضربات لمصادر إمداد العدو وأما كنى مأواه وملاذه ، ولا شك أن إفساد المحاصيل وتدمير القرى وحرمان العدو من قطعان ماشيته ، له تأثير كبير ، ولكن من الناحية الأخرى جعلت هذه الطريقة الحرب وحشية ومكروهة .

وقد عارض القادة العسكريون من نوع حكام المستعمرات أمثال « لياوتى » و « كيتشنر » اللجوء إلى هذه الطرق ، نظراً لأنهم كانوا ينظرون إلى الإدارة المستقبلية للمنطقة عندما يتم إخضاعها .

وقد يكون من المفيد تجنيد السكان المحليين فى جانب الأوروبين ، نظراً لاستطاعتهم التعرف على الأرض وعلى عادات العدو ، هذا بالرغم من أنهم قد يكونوا غادرين . ومن ناحية أخرى كانت الأفضلية التكتيكية فى جانب التشكيلات المرنة الغير ملتصقة ومن لديه خيول أفضل ومدفعية ميدان خفيفة وبنادق ذات خزن ومدى طويل . أما من الناحية الإستراتيجية فكانت هناك قاعدة هامة وهى مواصلة الهجوم لأن الجانب الجرى سوف يحرز المبادأة ويثبط همّة العدو ، لأن العدو سيرجع عدم الهجوم عليه إلى الخوف منه . وكان أقدر القادة فى هذه الفترة هو « ميخائيل سكوبليف » (١٨٤٣ — ١٨٨٢) الفاتح الروسى

لتركستان . وفى عام ١٨٧٧ كان سكوبليف قد خدم سبع سنوات فى هذه المنطقة ، والنتيجة التى خرج بها من تجربته فيها هى : — « أن السيد المطلق فى آسيا هو الذى يقبض على رقبة الشعب بدون رحمة » . وفى عام ١٨٨٠ قاد حملة ضد التركمانين الذين يفوقونه عددا وبشكل كبير ، بينما كانت الأرض لم تزد عن كونها صحراء قاحلة خالية من المؤن . وقد تحرك ببطء وبصبر ولكن دون أن يمنح العدو على الإطلاق أى فترة راحة ، وحققت هذه الحملة نجاحاً



ميخائيل سكوبليف

كاملاً . وفي ١٨٩٨ قام كتشنر بنفس العمل ولم يتخل قط عن الإستراتيجية الهجومية ضد الدراويش، ومن الناحية التكتيكية لم يكن الهجوم حيويًا ، وعندما وصل كتشنر الخرطوم إتخذ موقفاً دفاعياً ضد هجمات الدراويش الوحشية والتي حطمتها نيران القوات الإنجليزية المصرية . وقد كان من المحتمل وقوع كارثة دائماً ، أمام المقاتلين الشجعان أمثال أهالي نيوزلندة والدراويش وسكان الجبال في الجهة الهندية ، وقبائل الزولو المنظمين تنظيمًا عاليًا ويتمتعون بعقلية تكتيكية .



قبائل الزولو في إحدى هجماتها الوحشية

وكان الحل المناسب هو إقامة دفاع صلب لإغراء قوات العدو لمهاجمتها وبالتالي يسهل تدميرها ، أو الهجوم بعزم ، إلا أن التردد كان قاتلاً . ففي « مايواند » في الهند عام ١٨٨٠ تمحرت قوة بريطانية من مواقعها الدفاعية ، ولكنها فشلت في الهجوم وكانت النتيجة إبادة . وفي عام ١٨٩٦ في « أدوا » ارتكب القائد الإيطالي كثير من الأخطاء في مواجهة الأحباش ، فقد استخف بقوة العدو وسمح لقواته بالامتداد والانتشار من غير نظام ، وكانت النتيجة هي هزيمة رجاله ١٥٠٠٠ هزيمة منكرة . وقد كان رجال « الزولو » مقاتلين ممتازين

يجمعون بين التنظيم والتدريب والمرونة والضبط والربط مشاهير في ذلك قوات فريدريك الأكبر . وكانت لديهم خفة حركة مذهلة ، نظراً لتحركهم على الأقدام بقفزات سريعة تقارب سرعة الخيل ، علاوة على معرفتهم التامة بالأرض ، وكان أسلوب هجومهم في المعركة هو تحرك المنتصف ببطء نسبياً ، حتى تعطى الفرصة للأجناب لتطويق العدو . وفي عام ١٨٧٩ إكتسح جيش كبير من الزولو قوة بريطانية مكونة من حوالي ٦٠٠٠ رجل بقيادة اللورد « تشلسفورد » عند « أسندلوانا » حيث تمكنت قوات الزولو إخفاء تقدمها تماماً عن البريطانيين . وبعد ذلك في نفس العام ، إنتقم تشلسفورد لهزيمة السابقة بانتصاره عند « الوندي » حيث أثبتت البندقية تفوقها الساحق على « الإسيجاي »^(١) . وفي عام ١٨٦٥ إجتاحت قوة روسية قوامها ٢٠٠٠٠ رجل مدينة طشقند والتي كان بها ٣٠٠٠٠ من المدافعين وهذا يظهر ما يمكن عمله عندما تشترك الأسلحة الحديثة مع التكتيكات الهجومية الحازمة . وعلى أى حال فقد كان الدفاع على وجه العموم أفضل الأساليب التكتيكية إذ أنه أكثر ضماناً وأقل تكلفة في الأرواح .

حرب البوير

وعلى الرغم من أن حرب البوير (١٨٩٩ — ١٩٠٣) حدثت على نطاق يفوق درجة الحروب الصغيرة إلا أنها تضمنت للكثير من الصفات التي ميزت الحروب الإستعمارية الغير نظامية . فقد إتحّد البيض من سكان إفريقيا وأصبحوا يعارضون بريطانيا بعنف ، بسبب السياسة الإستعمارية التي إتبعها أساساً « سيسيل رودس » ، والتي تهدف إلى مد السيطرة من الكاب حتى القاهرة .

ولم يكن الأمر يقتصر على ذلك ، بل كانت هناك بعض المناوشات السابقة لحرب البوير عام ١٨٨١ ، وحملة جامسون عام ١٨٩٥ . أما حرب البوير في شكلها ونطاقها الكاملين فقد بدأت في أكتوبر عام ١٨٩٩ . وقد كان رجال البوير فلاحين أقوياء ورمّة مهرة باستخدامهم بنادقهم الماوزر علاوة على أنهم غير مقيدين ولذلك لم يعقهم طرق الحرب التقليدية . وكانوا يعرفون أرضهم معرفة وطيدة وهذا جعلهم خصماً عنيداً صعباً حتى بالنسبة

لأمة لها موارد كبريطانيا. ولجأ البوير إلى حرب العصابات على نطاق واسع ، وكانت فكرة الحرب الشعبية منفذة إلى أقصى حد لدرجة أنه كان مدون في قائمة الفدائيين البوير ٨٥٠٠٠ اسم . وكان جميع المقاتلين أشداء وفرسان من الدرجة الأولى ولكنهم كانوا يقاتلون مترجلين ويتميزون بحاسة طبيعية للأساليب التكتيكية البسيطة . وكانوا على نحو غير متوقع ، أقوىاء في المدفعية ، فقد ساعدتهم في هذا المجال وغيره عدد من المغامرين والخبراء الأوروبيين .

وكان نقطة ضعفهم تكمن في عدم التنظيم والضبط والربط ، حيث كانوا يكرهون النظام . فلم يستطع ضباطهم الاعتماد على ما هو مدون من الرجال في السجلات للدخول بهم المعركة لأنهم كثيراً ما يتخلفون . ولم يعانون من مشكلة الإمدادات وذلك لقتالهم على أراضيهم .

وفي عام ١٨٩٩ لم تكن القوات البريطانية في جنوب أفريقيا تتعدى ١٠٠٠٠ رجل وكانت هذه القوات جيدة التسليح بأسلحتهم الصغيرة، ولكن كان لدى البوير مدفعية أفضل . كما لم يكن الجنود البريطانيون مدربين تدريباً كافياً للتعامل مع مقاتلين جيدي التسليح ولهم مقدرة مثل البوير ، فقد كان التدريب البريطاني غير كافٍ ليخاق المبادأة الذكية ، كما كتب أحد الضباط الأركان حرب يقول: « لقد جعلنا الجندي غيباً في نواح كثيرة ، وذلك لأننا نبدأ بالافتراض بأنه غيب وبالتدريج نعلمه أنه كذلك وبالتالي فإنه يعتبر نفسه غيباً » .

وفي هذه الحرب أتبع البوير مبدأ الهجوم، ومع حلول الخريف كانوا قد حققوا نجاحاً سريعاً حيث دفعوا القوات البريطانية إلى الأحياء في مدن «ليديسمث» و «كبرلي» و «مافيكنج» . وحاول « بولر » القائد العام البريطاني إقحام نهر «توجلا» عنوة ، وكان سينجح لولا نظرتة الغير عميقة للامور وأعتقد أن خسائره من الأرواح كانت كبيرة جداً . وفي ديسمبر هزم « بولر » على يد « بوثا » عند « كولينسو » .

وفي ٢٤ يناير ١٩٠٠ حلت « ببولر » كارثة عند «سبيون كوب» ، وقد أطلق الأستاذ « سيريل فولز » على هذا اليوم «أعظم يوم في تاريخ البندقية» . ففي ذلك اليوم خاض البوير هجومهم من مسافات قريبة جداً بواسطة نيران البنادق فقط هازمين القوات البريطانية حتى

بدون الحاجة إلى القيام بإقتحام نهائى . ومثل هذا النجاح هو شهادة تقدير للسلاح الذى أستخدموه فى نفس الوقت يرجع لمهارتهم فى الرماية . فقد كان البوير يصيبون الهدف حتى ولو تعرض الجندى لحظه بسيطة أمامهم ويقتلونه بطلقة واحدة فقط . وفى أوائل عام ١٩٠٠ وصلت أخيراً التدعيمات البريطانية إلى جغوب أفريقيا .

وكان التنظيم الذى وضعه « كاردويل » للجيش مصمم على أساس إمداد حاميات إستعمارية صغيرة وليست كبيرة ، مما أدى إلى صعوبة إنشاء قوات كبيرة بسرعة ، لتصبح مناسبة لقتال مثل هذا العدو المراوغ العنيد . والدرس المستفاد التى خرجت بد بريطانيا من هذه الحرب هو يجب الإحتفاظ باحتياطى كبير جيد التدريب فى هذه المناطق .

ومع حلول عام ١٩١٤ كانت بريطانيا فى موقف مناسب تستطيع معه القيام بحرب كبرى . وإلى جانب التدعيمات وصل قائد عام جديد هو الفيلىد مارشال « روبرتس » ^(١) . وقد أحضر « روبرتس » معه منظم من الطراز الأول كرئيس للأركان وهو الجنرال كيتشنر ، وكذا مهندس سكك حديد بارع وهو العقيد « جروارد » ^(٢) . وأعيد تنظيم المواصلات والنقل ، وفى فبراير بدأ « روبرتس » حملته بمخداع العدو أولاً ثم بحشد قواته فى النهاية فى الغرب ، جنوبى نهر « مودر » ، وإستطاع فك حصار المدن المحاصرة . وعلى نهاية الصيف كان قد تم الإستيلاء على جميع المعاقل الرئيسية للبوير ، مع دزيمة قوات البوير عند « دايموند هيل » فى « بلفاست » حيث هرب رئيس البوير إلى أوروبا ، وبدأ أن الحرب قد أنتهت عملياً ، وعاد « روبرتس » إلى إنجلترا تاركاً كيتشنر لينهى بقاياها .

وفى الحقيقة لم تكن الحرب قد إنتهت بعد ، فقد واصل البوير حرباً غير نظامية لمدة حوالى عامين تحت قيادة قائد حرب عصابات بارع يدعى « كرستيان دى ويت » ، وقام البوير بغارات غاية فى المهارة لتحركهم بسرعة وبسرية ونجحوا فى تدمير السكك الحديدية ، وقطعوا الطرق فعزلوا القوات البريطانية عن بعضها ، متجنبين فى نفس الوقت المطاردة ، واضطر كيتشنر فى تكرار طلب التدعيمات التى وصلته من المستعمرات البريطانية ومن

(١) أنه قائد معنك وكان يقود الجبهة الغربية فى الهند

(٢) كان كندى الجنسية .

بريطانيا نفسها . ولكي يحصل كتشنر على خفة الحركة ، فقد جعل مشاته راكبة على نفس طريقة البوير ، ولكنه لم يتمكن من القضاء عليهم . وقرر كتشنر قطع سبل الحياة على البوير باتباع تلك الطريقة المنبوذة الخاصة باتلاف الحقول وإعتقال المدنيين في معسكرات حيث ظروف الحياة لا تطاق . وحتى ذلك الأسلوب لم يفلح في إنهاء مقاومة البوير . وأخيراً توصل كتشنر إلى الحل ، فقد تسم القطر بانتظام إلى حظار كبيرة محاطة بالأسلاك الشائكة وبها حاميات في حصون صغيرة في مناطق مختارة . وتقدمت القولات البريطانية ببطء . ولكن يتمكن عبر كل قسم ، حيث تقضى على جميع قوات العدو في القسم . وفي مايو ١٩٠٣ تم الصلح في « فرينجنج » بتقديم شروط سخية وأمكن المحافظة عليها . وكانت الكفاءة متساوية لدى الطرفين ، ولكن تفوقت مهارة كتشنر وتنظيمه الشامل على البوير .

الجنرال الأبيض (أنظر اللوحة رقم ٤٣)

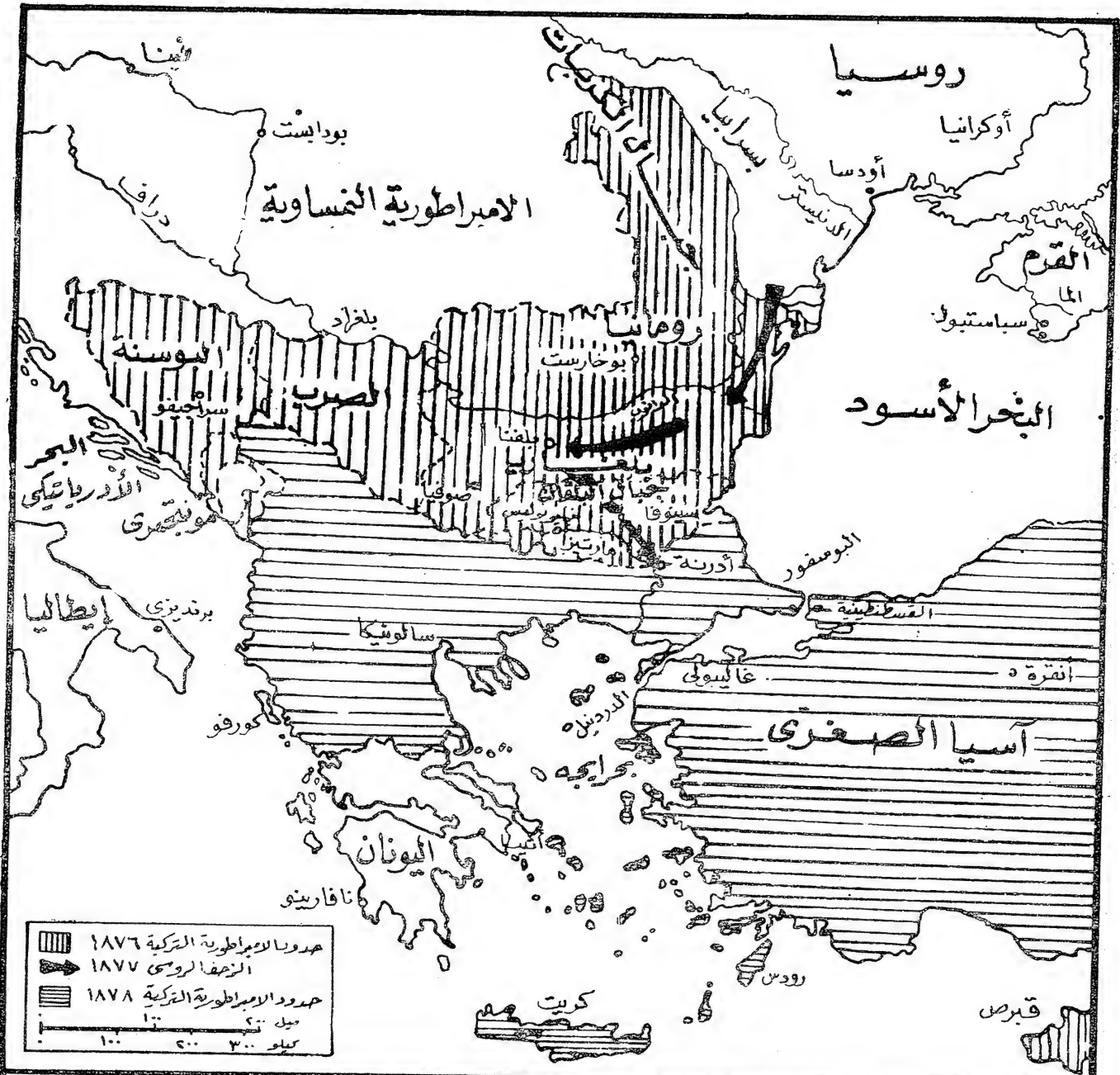
ومع وصول الأمبراطورية العثمانية إلى المراحل الأخيرة من الإضمحلال ، أصبحت البلقان مركزاً متزايداً من الخطر .

فقد أدى الفراغ الذي ترتب على ضعف الأتراك إلى إختلال الميزان السياسي لأوروبا في القرن ١٩ . كما أن القومية والوطنية بعثت النشاط والحيوية في شعوب البلقان ، بينما كانت روسيا والنمسا تتطلعان بنهم إلى الأمبراطورية العثمانية المضمحلة ، أما ألمانيا ففكرت في توسيع مجال نفوذها ، بينما كانت بريطانيا مهتمة بالمحافظة على مصالحها في الدردنيل وقناة السويس . وفي الفترة (١٨٧٦ — ١٨٧٨) حدثت أزمة ذات طابع مميز ، فقد تمرد البلغار على الأتراك وسرعان ما تم سحق هذا التمرد ، إلا أن الفظائع التي إرتكبها الأتراك في سحق التمرد أثارت موجة من الكره والسخط في جميع أنحاء أوروبا . واثارت كل من الصرب ورومانيا .

وفي مايو ١٨٧٧ إنتهز الروس الفرصة وهاجموا تركيا . وعبر الروس نهر الدانوب ولكن إستطاع الأتراك إيقافهم عند مدينة « بلفنا » .

وكان الروس مجهولون خلال تقدمهم وجود فيلق مساوى لضعف قوتهم بقيادة عثمان باشا يسد عليهم الطريق .

وقدر عثمان باشا بأنه يستطيع إيقاف العدو عند « بلفنا » بينما تحشد القوات التركية



اللوحة رقم ٤٣ : البلقان (١٨٧٦ - ١٨٧٨)

للدفاع الرئيسى عن الإمبراطورية ، وعلى سبيل المثال عند « أدرنه » . وإختار لذلك موقعاً دفاعياً ممتازاً كما دعمه بتحصينات ميدانية .

وكانت القوات التركية بما لديها من بنادق المرتينى ومدافع الميدان كروب والتي تعمر من الخلف أفضل تسليحاً من أعدائهم .

وسرعان ما أصبح عددهم يتزايد بدرجة ملحوظة ، حتى تمكنوا من صد الهجوم الروسى الأول على « بلفنا » فى ٢٠ يولييه ، وبلغت خسائرهم ٣٥ ٪ من قواتهم المهاجمة . ولقد كان هجومهم الثانى أكثر حذراً ، بالرغم من أنه تم بشجاعة إلا أنه كان غير بارع فى فكرته ، ولم يجد الأتراك أى مشقة فى الاحتفاظ بمواقعهم .

وفى سبتمبر كان لدى عثمان ٥٦٠٠٠ رجل كما تمكن من إقامة ١٨ معقلاً حصيناً . أما الروس فكان لديهم ٨٤٠٠٠ رجل وقد مهدوا لهجومهم بقصف لمدة أربعة أيام . ولم ينجح سوى قسم واحد من هجوم الروس وهو الذى يقوده « سكوبليف » فى قطاع التلال الخضراء ، والذى قام بنفسه بأجراء عملية إستطلاعيه .

وكانت خسائره فى الهجوم فادحة ولكنه أشرك الاحتياطيات بمهارة ، وفى اللحظة الحاسمة قاد رجاله بنفسه إلى أهدافهم .

وعلى أى حال لم تسقط « بلفنا » بعد . وبعد أن وصلت قوات روسية كبيرة وأحكمت حلقة الحصار قدر عثمان أنه لن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك . ولذلك إضطّر الأتراك فى ديسمبر إلى الانسحاب ، وتم توقيع هدنة فى نهاية يناير ١٨٧٨ ، عندما أصبح الروس فى ذلك الوقت بالقرب من القسطنطينية .

وإذا تمعنا فى هذه الحرب فسنجد أنها تقدم لنا الجديد من السمات المثيرة والهاممة ، وأحداها هو مهارة وقيادة «سكوبليف» المهمة ، فقد تنكر فى زى تركمانى ذات مرة فى التركستان وإستطلع بدون خوف أرض العدو ، والطريق الذى كان على رجالة سلوكة أثناء الهجوم .

والآن بعد إتمام مهمته فى الهجوم على « بلفنا » ، عبر فى شهر يناير جبال البلقان وسط عواصف ثلجية ليهزم الأتراك عند « ستوفا » حيث أسر ٣٦٠٠٠ رجل و٩٠ مدفع . وقد

كان رجال سكوبليف يحبونه إلى درجة العبادة ، هذا الجنرال ذو الرداء الأبيض ويمتطي جواداً أبيض والذي يشاركونهم دائماً أعنف مراحل القتال ضراوة .

وفي عام ١٨٨٣ توفي سكوبليف بمرض في القلب وكان عمره ٣٩ عاماً . وإلى جانب قيادته الماهرة ، فهناك جانب آخر يستحق الإشارة به وهو شجاعة الجنود الروس الذين كانوا يعاودون مهاجمة أقوى مواقع الأعداء المرة تلو الأخرى ويسيطرون طوال الليل فوق الجبال وتحت الثلوج .

وقد أثار نجاح المقاومة التي أقامها الأتراك دهشة أوروبا المعاصرة ، وأشارت تحصينات عثمان باشا الميدانية إلى طبيعة القتال في المستقبل بين الجيوش المسلحة بالبنادق . وتعلم الروس من الأتراك أن البندقية يجب أن يكملها الجاروف .

وقد أدت فترة صعود الأتراك إلى دفع خصوم روسيا وأساساً بريطانيا ، لتقديم التأييد السياسي في آخر لحظة للإمبراطورية العثمانية ، وكمنتيجة لذلك حدث نوع من الاضطرابات اختلفت مظاهرها في دول البلقان وأوروبا .

الحرب الروسية اليابانية

أما الموقف في الشرق الأقصى فكان مضطرباً بسبب قلق الدول الأوروبية بانفتاح اليابان والتي تابعت يقطتها بخطى سرية نحو التقدم منذ وصول أسطول « بيرى » لها عام ١٨٥٣ .

ففي عام ١٨٧١ ألغى نظام الإقطاع ونتيجة لذلك تقاعد حوالي مليونين من الساموري ، وأنشئ جيش وطني عام ١٨٧٣ . وبدأ تجنيد كل الذكور من السكان ، بدلا من قصر الخدمة العسكرية على الساموري .

وقد وفرت ألمانيا المعدات والتدريب للجيش الياباني بينما وفرت بريطانيا الأسطول الياباني .

أما التصنيع فقد تقدم بسرعة وفي عام ١٩٠٣ وصل تعداد اليابان حوالي ٣٥ مليون نسمة . ومع تطور قدرات اليابان نمت أيضاً أطعمها ، وبدأت تنشد فرض نفوذها على شرق آسيا ، وكان من الطبيعي أن يكون أول إهتمامها بكوريا ، نقطة الانطلاق الرئيسية إلى أرض آسيا .

وقد جربت اليابان قواتها بنجاح ملحوظ في الحرب الصينية اليابانية عامي ١٨٩٤ — ١٨٩٥ ، إلا أنه في نفس ذلك الوقت كانت روسيا تمد خط سكة حديد سيبيريا إلى الشرق الأقصى ، وأجبرت الصين لتأجر لها شبه جزيرة « لياوتونج » .

ووجدت روسيا واليابان نفسيهما وقد دخلا في تنافس مباشر ، وقد تمكن اليابانيون من معرفة عدم فاعلية منافسيهم ، وذلك بملاحظة دور الروس في معالجة ثورة « جماعة البوكسر الصينية »^(١) عام ١٩٠٠ .

وساءت العلاقات بسبب موضوع « مجالات النفوذ » في أشباه الجزر ، وفي النهاية ، في فبراير ١٩٠٤ بدأت اليابان الحرب مع روسيا بدون إعلان رسمي . وكان شيئاً مثيراً للدهشة أن تقوم قوة ناشئة مثل اليابان وحدها ، بتحدى أكبر قوة في تعدادها في قوى أوروبا القديمة ، ولكن اليابان قدرت الأمور جيداً .

ففي عام ١٩٠٢ وقعت معاهدة مع بريطانيا تعهدت فيها بمساعدة اليابان لو تدخلت قوة ثالثة ضدها .

وكان اليابانيون يقاتلون بغرض محدد للغاية وهو تأمين السيطرة على نطاق معين . وكانت هذه الحرب في صالح اليابان ، فقد كانت المسافة بين القاعدتين الروسيتين « موسكو » و « بورت آرثر » أكثر من ٥٥٠٠ ميل ، وبالطبع كان الروس يمتلكون موارد أكبر في الرجال والمواد ، ولكن كان لديهم مشكلة رهيبية وهي كيف يمكن جلبهم إلى مسرح الحرب .

وعندما بدأ القتال كانت هناك ثغرة في سكة حديد سيبيريا وهي التي حول بحيرة « بيكال » ، وعلى الرغم من الجهود الجبار للمهندسين الروس في السكة الحديد ، فكان يستغرق نقل كتيبة من موسكو إلى « بورت آرثر » شهراً .

وفي عام ١٩٠٤ استطاعت اليابان أن تدفع على الفور إلى الميدان بحوالي ٣٠٠.٠٠٠ رجل يشكلون ١٣ فرقة ، علاوة على ٤٠٠.٠٠٠ رجل مدرب في الاحتياط ، بينما زادت القوات الروسية المتيسرة من ٨٣.٠٠٠ رجل إلى ٢٥٠.٠٠٠ مقاتل في نهاية هذا العام .

(١) كانت هذه الثورة تهدف إلى طرد الأجانب من الصين دفعة واحدة وإلى الأبد ، « الحرب »

وكانت القوة البحرية عاملاً حيوياً ، نظراً لأن طرق المواصلات اليابانية مع آسيا تعتمد على السيطرة البحرية .

وقد تفوق الأسطول الياباني قليلاً في الحجم والخواص على الأسطول الروسي في الشرق الأقصى ، المتمركز في « بورت آرثر » مع وجود قسم منفصل في « فلاديفوستك » ، بينما كان لدى الروس أسطولاً آخر في بحر البلطيق والذي يمكنه الوصول إلى مسرح العمليات على الرغم من الوقت الطويل الذي تستغرقه الرحلة البحرية .

وكان هدف اليابان توجيه ضربة حاسمة لبورت آرثر وبالتالي يزيلوا أى تهديد لليابان نفسها وتأمين حرية تحركات قواتها البرية ، وبذلك تلتصر في معركة رئيسية ضد روسيا فتقتنع روسيا باحترام اليابان في الشرق الأوسط .

وجرت العمليات الأولى الهامة في البحر . ففي بداية الحرب ، أخذ الأسطول الياباني الرئيسى بقيادة الأدميرال « توجو » المبادأة ، ففي ليلة ٨ فبراير فاجأت زوارق الطوربيد اليابانية الأسطول الروسي في بورت آرثر ، ملحقه دماراً جسيماً ببارجتين وطراد روسي ، وفي نفس الليلة أغرق طراد روسي وأعطب آخر في ميناء « شولبو » في كوريا ، بينما كانت السفن الروسية في ميناء « فلاديفوستك » محصورة بالجليد .

وأقام اليابانيون حصاراً محكماً على « بورت آرثر » . وقد سمح لهم ذلك بإزالة قواتهم بدون إعاقة في كوريا حيث دفعوا الروس للخلف حتى نهر « يالو » . وقد كان حصار « بورت آرثر » في الشتاء بمثابة اختبار للأسطولين ، فقد اشتبكت البوارج اليابانية مع البطاريات الساحلية ، كما حاول كل جانب تدمير سفن الآخر باستخدام الطوربيدات والألغام .

وفي مارس تولى الأدميرال « مكاروف » قيادة الأسطول الروسي وقام بسلسلة من الغارات المفاجئة خارج الميناء مما سبب قلقاً شديداً « لتوجو » .

ولكن في منتصف شهر إبريل نسب لغم سفينة القيادة الروسية ، وقتل الأدميرال « مكاروف » ، وكان موته كارثة للروس .

وفي أغسطس أدى خروج الأسطول الروسى من الميناء إلى نشوب معركة ولكنها لم تكن حاسمة من الناحية التكتيكية نظراً لأن القتال تم فيها من مسافات بعيدة ، ولكن انسحاب الأسطول الروسى ثانية إلى بورت آرثر ؛ كان بمثابة نصراً إستراتيجياً لليابانيين . وحافظ اليابانيون على حصارهم وحققوا هدفهم باستمرار بإقصاء القوة البحرية الروسية عن دائرة العمليات والذي كان أمراً حيوياً بالنسبة لليابانيين .

وفي يونيو ١٩٠٤ تم نقل قوات برية يابانية كافية لعملية حصار «بورت آرثر» من البر . وكان «أوياما» قائد القوات البرية اليابانية ، جندياً على الكفاءة وجسوراً ويشجع قادة جيشه الرؤوسين على إستخدام مبادئهم الشخصية فى حدود توجيهاته العريضة . وكان منهم الجنرال «توجى» الذى كان قائداً موهوباً فى المعركة .

أما فى الجانب الروسى فكان «كوروباتكين»^(١) القائد البرى الروسى ، ذكياً ولكنه كان يميل إلى الحذر بشكل غير مناسب وتنقصه الثقة بنفسه . وقد كان الحصار الطويل لبورت آرثر صراعاً صيرافاً ، إستخدم فيه اليابانيون الديناميت ووصلت الخسائر ٢٠٠٠ رجل ، وفى النهاية إنتصر اليابانيون .

وفي أول يناير ١٩٠٥ سلم الروس ميناء «بورت آرثر» ووقع منهم فى الأسر ٢٤٠٠٠ رجل و٤٦ مدفع ، بالإضافة إلى ما تبقى من أسطولهم . وفى نفس الوقت كانت اليابان تسعى إلى المعركة الكبرى التى ستجعل الروس يوقفون الصراع وذلك بعد معركة «لياو-يانج» والتى إستمرت أسبوعين فى أغسطس .

وبعد معركة «شا - هو» فى أكتوبر ، قرر «كوروباتكين» الانسحاب إلى «موكدين» فى مارس ١٩٠٥ والتى كانت آخر الحروب على البر ، ومن حيث حجم العمليات فكانت أكبر المعارك التى تمت حتى ذلك الوقت ، فقد وصلت قوة كل من القوتين المتقابلتين حوالى ٣١٠٠٠٠ رجل فقد إنتشروا على جبهة طويلة لأكثر من ٤٠ ميلاً وكانت محصنة تحصيناً قوياً ومنيعاً .

وفي هذه المعركة بدأ اليابانيون الزحف ، وكان أسلوب تكتيكهم عبارة عن القيام بفتح نيران البنادق من على مسافة حوالى نصف ميل على الموقع المراد مهاجمته ، بينما ينطلق

(١) كان واحد من بضاط أركان حرب سكوبليف «المعرب»

الجنود في دفعات يعدون للأمام وأجسامهم منحنية ، ثم ينبطحون أرضاً بإشارة من اليد ، مع المحافظة على النظام والضبط والربط الصارم . وإستغرقت الكتيبة أكثر من ثلاثة ساعات للوصول إلى مسافة ربع ميل من الهدف ، حيث يبدأ الاقتحام من هذه المسافة . وعند « موكدن » نجح « توجي » في إجبار الجناح الروسى الأيمن على الإنسحاب للخلف كما فشل هجوم مضاد قوى قام به الروس ، وبعده قام الروس بانسحاب منظم مسيطر عليه جيداً .

تأثير القوة البحرية على التاريخ

أما أسطول البلطيق الروسى بقيادة الأدميرال « روز هستفنسكى » فقد كان في رحلته الطويلة حول نصف العالم، ومشغولاً إلى حد كبير بمشا كل الحياض والتزود بالفحم. وبعد سقوط « بورت آرثر » أعاد « توجو » سفنه إلى اليابان لإعادة تجهيزها . أما الأسطول الروسى^(١) فكان لا يقهر ... على الورق فقط ، على الرغم من الشائعات القائلة بعدم كفاءة هذا الأسطول وسوء ضبطه وربطه ، لذلك كان قلقاً .

وفي ٢٧ مايو ١٩٠٥ عندما أقرب الروس من مضائق « تسوشيا » كان أسطول « توجو » في إنتظارهم ، ولم يكن لدى « توجو » سوى أربع بوارج فقط ولكن كان هذا النقص يعوضه التفوق في الطرادات .

وفي الواقع تميزت السفن اليابانية بالسرعة ، إذ أن بعض السفن الروسية كانت قديمة وبالتالي كان على الأسطول الروسى السير بسرعة السفن القديمة البطيئة . ودخلت السفن الروسية إلى المعركة ، والفحم مكسداً عالياً على أسطحها الأمر الذى خفضها فى الماء ، وأفقدتها الكثير من قدرتها على المناورة ، وعلى العموم كان الأسطول به بعض الاضطراب . وبدأ القتال بالاشتباك مع الطرادات ، ونتيجة لتفوق سرعة اليابانيين إستطاع خط الأسطول اليابانى عبور مقدمة الخط الروسى وذلك فى التكتيك المعروف باسم « T » . وأصبحت السفن الروسية القائدة واقعة تحت تأثير نيران متشابكة من كل سفينة يابانية وبالدور ، بينما كانت السفن الروسية التى فى الخلف فى موقع لا يمكنها من الرد ، وتفوقت المدفعية اليابانية .

ولم يمض أ كثر من أربعين دقيقة حتى خرج من الصراع بارجتان روسيتان وطراد . وبعد الساعة بقليل إفترق الأسطولان ، إلا أن توجو عاود الهجوم مرة ثانية عند الغروب حيث أغرق ثلاثة بوارج وطراد روسى . وهكذا دمر الأسطول الروسى تقريباً . أما ما تبقى فقد هاجمته المدمرات اليابانية خلال الليل والتي ظلت تصارده بدون هوداة فى اليوم التالى . ولقد كانت معركة « تسوشيا » أول معركة بحرية كبرى منذ معركة « الطرف الأغر » ، كما أن عبور توجو بتشكيل (I) يعتبر إنجازاً رائعاً فى تاريخ التكتيكات البحرية . وفى الواقع كانت الهزيمة البحرية الساحقة هى التى أقنعت الروس أ كثر من الموقف البرى بعد « موكدن » على ترك الحرب وقبول وساطة الرئيس الأمريكى . وحصلت اليابان بمقتضى معاهدة صلح « بورتسموث » (سبتمبر ١٩٠٥) على أهدافها المحدودة وبإحكام فى كوريا أى فى شبه جزيرة « لياو — تونج » والنصف الجنوبى « لساخالين » ، ولكن ليس أ كثر . ومن الناحية السياسية ، فلم يحدث سوى تغيير طفيف نتيجة للحرب الروسية — اليابانية .

وقد أدى شعور روسيا بهزيمتها من اليابان إلى نذير سوء ، وفى روسيا إنتابت الحركة الثورية لعام ١٩٠٥ شعوراً بالإستياء وبالتالى فقد زادت من قلق الشعب وأضعفت من النظام القيصرى ، بينما بدأ الفلاحون فى اليابان بل عبر كل أرجاء آسيا بالتأثر لهذه الأنباء وبالرغبة فى التخلص من السيطرة الأوروپية .

وقد برزت لنا دروس مستفادة من الحروب التى دارت فى العام بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ ، فقد ثبت بوضوح فى القتال البحرى ، بأن الفحم والطوربيد والغواصة من أ كثر الأسلحة أهمية .

وأوجد « توجو » فكرة لأ سلوب تكتيكى جديد يناسب عصر الدفع بالبخار والمدفعية البعيدة المدى . وقد وضع المؤرخ البحرى الأمريكى « ا. ت. ماهات » عام ١٨٩٠ كتاب اسمه « تأثير القوة البحرية على التاريخ » وقد لقي إهتماماً واسعاً لتحليله العميق والقوى للدور الاستراتيجى للقوة البحرية ، لأن الدولة الحديثة أصبحت تعتمد على الثروة ، وهذه الثروة عادت عليها أصلاً من التجارة والمستعمرات ، وهذا يتطلب ربط كل جزء من العالم إقتصادياً بأوروبا .

لذلك كان على كل دولة طموحة الإحتفاظ ببحرية قوية ، مع وضع إستراتيجية بحرية لنفسها يكون مجالها العالم أجمع .

وهكذا أصبحت الحرب الأوروبية فى العصر الحديث لا يمكن أن تكون سوى حرب عالمية .

أما الموقف بالنسبة للحرب البرية فلم يقدر جيداً مثل ما قدر للحرب البحرية. وفى هذا الوقت كان أكثر خواص هذه الحروب هى القوة التكتيكية للدفاع. وقد أدى إستخدام البنادق والمدفعية والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية من داخل الخنادق والحفر الأرضية المحاطة بالأسلاك الشائكة ، إلى صعوبة الهجوم إذا حاول المهاجمون الإقتراب مع تكبيدهم خسائر فادحة .

وأصبح الجاروف أداة عسكرية حيوية فى التجهيز العسكرى ، لأن الدفاع الوحيد ضد نيران المدافع الرشاشة ونيران المدفعية هى حفر الخنادق للاحتباء بها . ولفترة من الوقت بعد عام ١٨٧٠ حاول المفكرون العسكريون وضع نظريات على أساس التجارب التى خرجت بها من الحروب الفرنسية — البروسية .

وكانت فرنسا وألمانيا تميل إلى التخلي عن «رياضيات» جومينى مع التفكير فى مفاهيم «كلاوزفيتز» الخاصة بالقوة والتى تخفف منها طريقة مولتكة الأكثر عملية . وقد تلقى التكتيك إهتماماً أكثر من الاستراتيجية .

وقد أصبحت النظرية العسكرية أقل واقعية عندما تقدم المجال التكنولوجى وتقلصت تجارب الحرب الواقعة فى أوروبا .

وفى ألمانيا وضع الكونت فون شليفن الرئيس الأركان العامة من ١٨٩١ إلى ١٩٠٥ «خطة شليفن» لغزو فرنسا والتى ستناقش فى الفصل ٢٠ .

وفى فرنسا أدى الكبرياء الوطنى إلى التركيز على الهجوم حيث كتب فوش قائلاً : — « مهما كانت الظروف، فإن النية من التقدم هو الهجوم » ، ثم أصبح الأمر كما وصفه دكتور «لوفاس» : — « أصبح النهور من أفضل جوانب الشجاعة » . وبدأ أكثر من أى وقت من

قبل « أن الطريق للنصر هو السعى لتطويق جانب العدو » ، وعندما أصبح هذا غير عملي فقد تبعه توقف وجمود .

ومن أفضل الكتب التي ظهرت في إنجلترا كتاب وضعه « كالويل » ، إلا أن موضوعه لم يكن في إطار الخط الرئيسي للتطور الأوروبي .

وقد أدى إهتمام الجيش البريطانى بالمصالح الراسخة إلى الاقتراب الغير واقعى للحرب ، فقد أنشأ آلايات معينة كتبت عنها « جريدة الفرسان » عام ١٩٠٦ وكان الهدف منها هو تعزيز الفكرة بأن هجوم الصدمة للفرسان لا يزال عملاً تكتيكياً رئيسياً فى مواجهة قوة نيران المشاة . وحيث أن شعب البوير كانوا حملة بنادق راكبين فقد كان ذلك عذراً للبقاء على القوات الرأكبة لجيل آخر ، وذلك بعد فترة طويلة من المناقشة سلموا بفاعليتهم فى القتال . وقد تجاهل أكثر قواد أوروبا معركة « بلفنا » واعتبروا جنوب أفريقيا حرب عصابات لاعلاقة لها بفن الحرب ، واعتبروا النصر اليابانى ما هو إلا إنتصار لأسلوب مولسكة ، ولم يلاحظوا تأثير الخنادق والأسلاك الشائكة والأسلحة الصغيرة الحديثة على القتال . وفى هذه الأثناء كانت بلاد جنوب شرق أوروبا فى حرب مع بعضها مرة أخرى فى الفترة من (١٨٨٥ و ١٨٩٧) ومن (١٩١١ إلى ١٩١٣) وزادت حدة المنافسة الصناعية من سباق التسلح بين القوى العظمى كما زاد التوتر فى النسيج السياسى . وقد أعطى كتاب نشر فى ١٨٩٨ ألفه « ي . س . بلوش ^(١) » إشارة واضحة لما سوف يحدث مستقبلاً .

وفى هذا الكتاب قدم « بلوش » تنبأً دقيقاً إلى حد كبير لطبيعة الحرب الشاملة ، فقد وضح فى ذهنه أن حدوث حرب عظمى لن يتأخر كثيراً . وناقش فى حالة حدوث حرب ذات مجال واسع فى أوروبا فسيحدث لا محالة ، جمود وتوقف بين القوات المسلحة للدول المتصارعة ، وذلك بسبب التطورات الفنية للأسلحة مع إستخدام جميع القوى السياسية والاقتصادية للدول القوية فى الحرب . وستكون النتيجة الوحيدة لذلك هو وقوع أقصى الحزن الخيفة للمدنيين ، كما أن المنتصر سوف يعانى بنفس القدر الذى سيعانى منه المهزوم ، مع الإنهيار الكامل للتنظيم الاجتماعى .

ولم تلق تحذيرات « بلوش » إلتفاتاً من القادة العسكريين في أوروبا لأنه لم يكن عسكرياً محترفاً .

وعلى أى حال فقد كان هناك على الأقل رجل واحد وهو « بلوش » الذى لم يخش الإشارة بيده إلى ما سيحدث في العالم ، الشيء الذى حدث فعلاً كما سنرى في الفصلين القادمين .

الفصل العشرون

الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

حرب لانها - الحرب

لقد تطور القتال الذى بدأ فى أوروبا فى أغسطس ١٩١٤ ليصبح أدمى حرب فى التاريخ؟ وكانت النتائج المؤثرة والمثيرة فى هذه الحرب هى الخسائر الفادحة والتي أثرت على تفكيرى العسكرى بعمق. فلم يتوفر لعدد كبير من القتلى أى قبور معروفة لأن نيران المدفعية نسفتهم وحولتهم إلى أشلاء مبعثرة. وفى بعض الأحيان كانت هذه الجثث تكون جزءاً من الخنادق، وكانت فى النهاية تلتهم الفران هذه الجثث.

وعلى كل حال يجب أن نفحص بعناية كل من القيادة السياسية والعسكرية فى ذلك الوقت، لأنه قد ثبت أن مسئولية هذه الحرب تقع على عاتقهم. فقد ظهر لى أن القيادة فى الجبهة الغربية فى أوروبا قد سيطرت عليها وبطريقة خيالية، فلسفة الجنرال الفرنسى «فوش» والتي تتضمن «الحرب تعنى دائماً الهجوم مهما كان الموقف والظروف». وكانت هذه هى الإجابة الوحيدة للقادة، عندما رأوا القوى الضخمة التى منحها المدفع الرشاش والأسلاك الشائكة والخنادق والمدفعية للموقع الدفاعى، فلم يعد أمامهم سوى الهجوم المباشر بالمشاة^(١) فى تشكيلات منضمة خلال الأرض الحرام لإقتحام الموقع الدفاعى للعدو. وقد شاهدت وقاسيت من هذا، ووضح لى أنه لا يمكن أن يكون مثل هذا الأسلوب التكتيكى هو مفتاح النصر. ولسوف يلاحظ القارىء أن كتابة قصة حرب ١٤ - ١٩١٨ فى فصل واحد ليعتبر عمل ضخيم، لأن معظم الكتب تناولوا هذه الحرب إما فى كتاب كامل أو فى عدة أجزاء، وعلى كل حال فهذه مشكلتى، لكن سأحاول عرض بعض صور هذه الحرب والتي تتمشى وتنطبق مع دراستنا للحرب عبر التاريخ. وسنرى أن لوحة هذه الحرب كئيبة لأنها لا تحتوى إلا على

(١) كان يحمل جندي المشاة ما يقرب من نصف وزنه معدات وأسلحة وخلافه. «المعرب»

تقط لأمعة قليلة جداً . وقد إشتكرت في هذه الحرب جنباً إلى جنب مع شباب صغير يانع لا يعرفوا لماذا يقاتلون؟ وعلى الرغم من ذلك ضحوا بأرواحهم لأن زعمائهم السياسيين أفهموهم أنها ستكون « حرب لإنهاء الحرب » .

وعلى كل حال نرى أولاً لماذا حاربت هذه الأمم ؟ وهل كان من الممكن تجنب هذه المأساة ؟ .

في ٢٨ يونيه ١٩١٤ أعتيل الأرشيدوق فرانز فرديناند^(١) في «سراجيفو» «بالبوسنة»، وأيقنت النمسا أن سبب الحادث هو الشعور الموالي للصرب في البوسنة ، وعلى الفور قدمت النمسا إنذاراً للصرب في ٢٥ يولييه، وفي اليوم التالي أعلنت الحرب عليها . وفي ٣٠ يولييه عبأت روسيا^(٢) قواتها ضد النمسا ، في ذلك الوقت كانت ألمانيا حليفة النمسا بينما كانت فرنسا وبريطانيا حليفتين لروسيا . وفزع العالم من سرعة تطور الاحداث ، عندما أصرت كل قوة من هذه القوى على موقفها وتأييدها لحليفها.

وفي أوائل أغسطس كانت ألمانيا والنمسا^(٣) قد إنضمتا للحرب ضد فرنسا وبلجيكا وبريطانيا وروسيا^(٤) .

وفي سبتمبر ١٩١٤ خرجت تركيا من الخفاء لتعلن عن إنضمامها إلى قوى الوسط ، وبعد ذلك دخلت دول أخرى الحرب . وهكذا تسببت جريمة قتل في البلقان في إشعال حرب ١٤ — ١٩١٨ ، وفي الحقيقة لم يرغب كل من ساسة أوروبا ولا شعوبها في الحرب، ولم يتعمد أحد منهم تدبيرها . وتبع هذا سلسلة من قطع العلاقات الدبلوماسية وكان الهدف منها أن يحافظ السياسيون على سلامة بلادهم ، ولكنهم أخطأوا جميعاً الحساب ، فقد أدت القلميحات المقصود بها الخداع والردع إلى إثارة أعمال مضادة عنيفة وكانت غير مقدرة أو

(١) كان المفترض العام للجيش النمساوى — الهنغارى .

(٢) كانت روسيا هي النصير الحامى للشعوب السلافية .

(٣) كانت تسمى بقوى الوسط .

(٤) كانت تسمى بقوى الحلفاء .

محسوبة . لذلك نجد أن السياسيين لعبوا بالدبلوماسية في جو كان سريع الاشتعال بدرجة عالية . وعلى كل حال كانت المنافسة قائمة بين القوى المختلفة ، فنجد أن إنجلترا كانت مدركة في الواقع التحدى الألمانى لقوتها التجارية والصناعية وذلك بقيام ألمانيا بنشاط كبير لبناء أسطولها الحربى التجارى .

وقد إستغل حزب المحافظين الشعور المعادى لألمانيا فى الحملة الإنتخابية العامة عام ١٩١١ . أما فرنسا فكان يوجد حقد دفين نحو ألمانيا نتيجة لحوادث (١٨٧٠ — ١٨٧١) وإحتلالها للالزاس واللورين ، بينما تنافست كل من ألمانيا وروسيا على فرض نفوذها على البلقان . أما الأمبراطورية العثمانية المتداعية فلم يكن هناك أى شىء مقنع تكسبه من معادتها لأحد الجانبين ، ولكن الألمان حاولوا إغرائها لتنضم إليها لتصفى حسابها مع كل من بريطانيا وروسيا ، القوتان التى تنمرت عليها خلال القرن ١٩ .

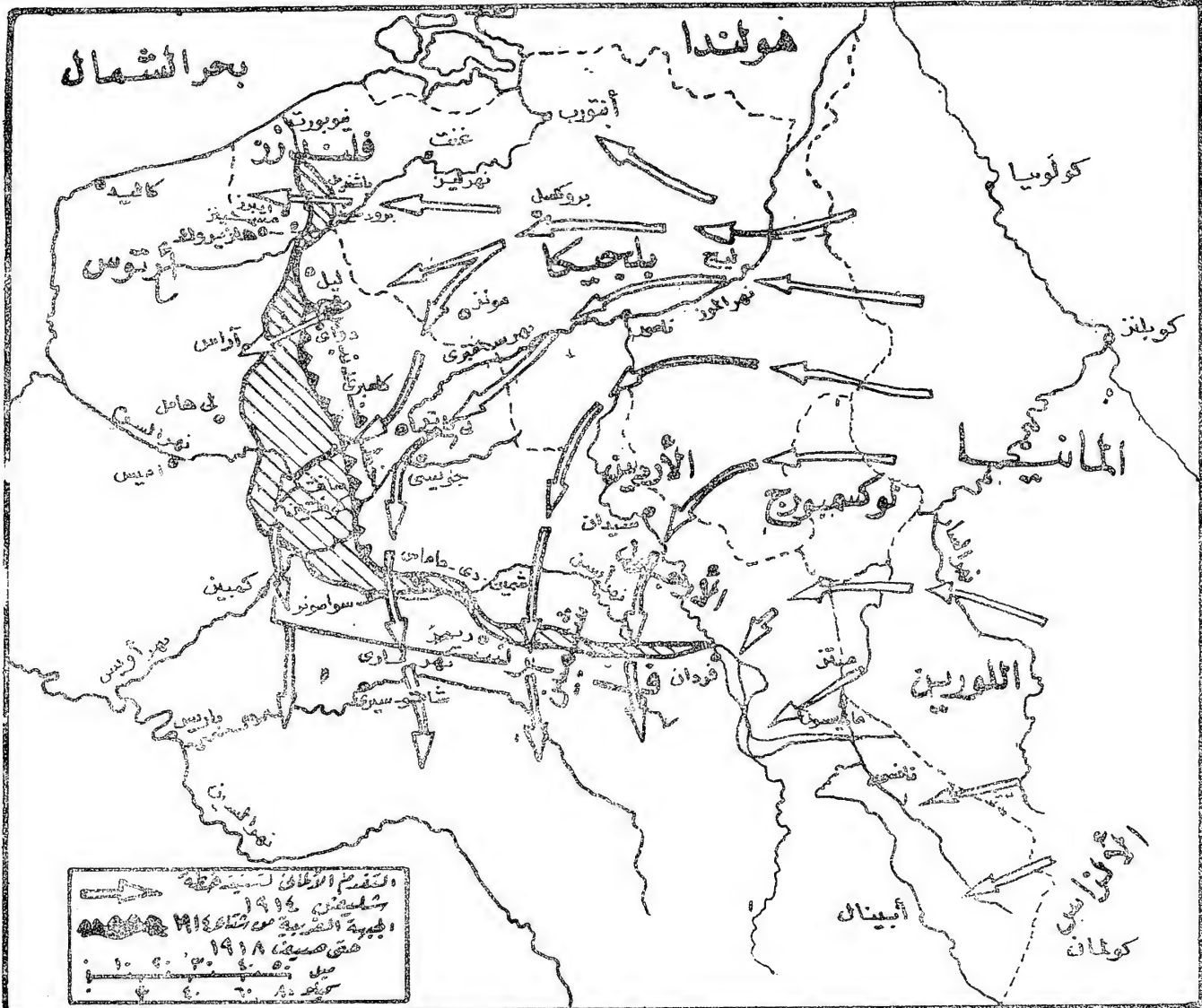
وعلى أى حال لم تكن كل هذه الخلافات تؤدى إلى إشعال الحرب ، ولكن ظهر أن الجو كان معبأ بدرجة عالية ، مما أدى إلى إشعال الحرب .

وفى الواقع لم يدرك المسئولون فى هذه الدول ماستؤدى إليه الحرب من خطورة ، بينما كان يدرك هذا عدد قليل جداً من الرجال .

وقد أخذت فكرة الحرب عامة بالإستخفاف وعدم المسئولية ، لأن المسئولين لم يتخيلوا هذه الحرب غير أنها حرب حديثة صغيرة فى البلقان .

وكانت أوامر التعبئة هى الخطوة الأولى المهيئة ، لأن من هذه النقطة خرجت الأحداث من سيطرة الأفراد وأصبحت تملأ الخطط الحربية لرئاسات الأركان المختلفة ، والتى تتبع العقيدة العسكرية لذلك الوقت وهى « الهجوم » . وقد تبع الجنون الدبلوماسى تصاعداً عسكرياً ، وقد كتب ا . ج . ب . تايلور : — « لقد أدت الجيوش الجبارة التى جمعت لتوفر السلام وتضمن الأمن إلى حمل الأمم للحرب نتيجة لثقلها » . وقد أثارت حادثة البلقان هذه ذعراً واسع الإنتشار ، وأدت إلى إتخاذ وسائل متطرفة من الدول . وعلى كل لو أدرك الزعماء السياسيين المشتركين حقيقة ونتائج ما يفعلونه ، وقدموا إنذاراً واضحاً فى الوقت المناسب ، لكان من الممكن تجنب هذه الكارثة الرهيبة فى عام ١٩١٤ . وقد كتب سيريل فوللر

يقول : — « لقد رفضت بريطانيا أى إرتباطات حتى الدقيقة الأخيرة فى عام ١٩١٤ ، إلا أنها بعد ذلك قبلت إرتباطات محددة ، لذلك لو أن الحكومة البريطانية تولت أعمالها بحزم فى عام ١٩٠٦ لكنت تستطيع منع قيام الحرب إذا وقفت بقوة وبسياسة أجراً بجانب فرنسا » . وقد ناقشت هذا الموضوع كثيراً مع سير ونستون تشرشل ، وكان رأيه أنه عندما



اللوحة رقم ٤٥ - خطة شليفن والجهة الغربية

تبدأ الأحداث تتطور فى البلقان وتدخل ألمانيا ، فلا يمكن لأى قوة بشرية أن تمنع الحرب ، وبذلك فقيام الحرب أصبح أمراً حتمياً . وهذه الآراء مفيدة وهامة ، ولكن كما يبدو لم يحاول أحد منع قيام الحرب .

خطة شليفن

(أنظر اللوحة رقم ٤٥)

وفي الحال وضعت خطط التعبئة في حيز التنفيذ وزالة سيطرة الأفراد على الأحداث .
ومن ضمن خطط الدول المختلفة ، الخطة الألمانية الممتازة التي تتضمن الجرأة في الهجوم ،
وكانت ألمانيا تأمل أن تحقق المبادأة بهذه الخطة .

وقد أملت هذه الخطة الألمانية المثيرة في الواقع سير الأحداث الرئيسية في المراحل الأولى
للحرب خلال خريف ١٩١٤ ، في نفس الوقت ثبتت باقي المسارح الرئيسية التي كانت تقاتل
بها باقي القوات . وقد وضعت هذه الخطة بواسطة « كونت فون شليفن » رئيس الأركان
العامة الألمانية من عام ١٨٩١ إلى ١٩٠٦ ، وقد توفي قبل عام ١٩١٤ ، وكانت فكرته
تتضمن دفع جيوش قوية لمهاجمة فرنسا بسرعة والقضاء عليها في ستة أسابيع وذلك قبل توجيه
الضربة لروسيا . وكان من الصعب القيام بغزو مباشر لفرنسا لأن الحدود الفرنسية —
الألمانية كانت محصنة بخط من القلاع ذات الحاميات القوية . وكانت خطة شليفن الأصلية
تتضمن سحب الفرنسيين للأمام ودفع الجناح الأيسر الألماني في اللورين لإيقافهم وتثبيتهم
بينما تدفع القوة الرئيسية الألمانية الموجودة في اليمين لتقوم بالتفاف واسع من خلال بلجيكا ثم
تدور في اتجاه الجنوب الشرقي لمهاجمة فرنسا ، ولكن خليفته « مولتكة الثاني » عدل
هذه الخطة بتقوية الجناح الأيسر الألماني ، وعندما كان يحتضر شليفن تفوه
بهذه الكلمات : —

« لا بد وسيحدث قتال ، عليكم فقط تقوية الجناح اليمين » . وقد ناقشت الخطة في
إطالة مع ليدل هارت .

وقد وصف الخطة بأنها « كاللباب الدوار » وكان صائباً في وصفه . « فكما كان إن دفاع
الفرنسيين قوياً خلال هجومهم الأول كان التفاف الجانب الألماني من حولهم أشد وأكثراً
أثراً ليضربهم من الخلف » .

وقد كتب الكاتب الألماني ج . ريتير في مقدمة كتابه عن خطة شليفن قائلاً : —
« كانت خطة شليفن تتمشى مع جرأة نابليون » . ثم ينتقل الكاتب إلى النقطة القاتلة ، بأنه بالرغم
من ملائمة الخطة لعصر نابليون إلا أن وجود السكة الحديد مكن الفرنسيين من نقل قواتهم

وإحباط ما كان يرغبه شليفن في حصد الفرنسيين بالمنجل ، وأعطى ذلك احتمالات قليلة لنجاح الخطة لوقوعها في عصر أكثر حداثة. وفي الحقيقة فشلت خطة شليفن عام ١٩١٤ لأسباب إدارية . وقد استطاعت التحركات الفرنسية السريعة بالسكة الحديد من مقاومة تقدم المشاة الألمانية التي تسير على أقدامها ومعها حملتها التي تجرى الخيل علاوة على أن هذا التقدم الألماني تعثر أكثر من مرة بواسطة الكبارى وخطوط السكة الحديد الفرنسية المدمرة . وقد لا يوافق البعض على هذا التعليق ولكنه في رأي تعليق مفيد كثيراً ويستحق الإهتمام .

وفي عام ١٩١٤ ، وجدت القوى الأخرى نفسها وهي تدخل الحرب دون أن يكون لديها سوى خطط سطحية غامضة. وكانت النمسا تأمل أن تحطم الصرب بسرعة ثم تتقدم إلى الشمال الشرقي لملاقاة الروس .

أما فرنسا فقد قال جوفر : — « لم تكن هناك خطة للعمليات موضوعة ومكتوبة ، ولم أتبع أى فكرة أو خطة تم وضعها مسبقاً بل كان كل تفكيرى وتصميمى القيام بالهجوم بكل قواتى » . وفي الحقيقة فقد قرر الفرنسيون بعكس الألمان إحترام حياد بلجيكا . ولم يكن لدى بريطانيا جيش كبير ولكن كان في إمكانها إجراء حصار بحرى على العدو ، بينما يقوم جيش بريطانى صغير بتغطية اليسار الفرنسى . أما الخطة الروسية فكانت تتضمن الهجوم بإرسال جيشين إلى بروسيا الشرقية ، مع إرسال قوات أكثر لتتعمق في الجنوب لتطويق النمساويين شمال جبال الكروبات .

وفي الحقيقة بدأت الأحداث في الظهور في الاتجاه الذى حددته خطة شليفن ، فاستطاع الألمان إصابة الهدف بسرعة ، فقد تحرك ٣٥٠.٠٠٠ جندي إلى اللورين و ٤٠٠.٠٠٠ إلى الأردن .

وفي ١٤ أغسطس دفعت ثلاث جيوش ألمانية^(١) خلال لوكسمبرج وبلجيكا لتطويق الفرنسيين ، بينما دفع الفرنسيون بقواتهم الرئيسية في شمال شرق فرنسا^(٢) : — ٤٥٠.٠٠٠

(١) كان أجبالها ٧٥٠.٠٠٠ مقاتل .

(٢) بالضبط كما أمل وتوقع الألمان .

مقاتل في اللورين و ٣٦٠.٠٠٠ مقاتل في الأردين . وبحلول ٢٤ أغسطس كان الفرنسيون تسكبدوا خسائر فادحة في هذه المناطق وإضطروا إلى الانسحاب إلى خلف الحدود . وفي هذا الوقت لم تستطع بلجيكا مقاومة التقدم الألماني خلال أراضيها . وفي ٢٠ أغسطس إلتف الألمان من خلال بروكسل ففاجأوا القوات الفرنسية عند الحدود الفرنسية — البلجيكية والتي كانت تحت قيادة « لانزراك » . ووجد لانزراك أن القوات الألمانية تتفوق عليه بنسبة ١:٢ لذلك حاول التمسك بموقع على نهر الساميري ولكنه فشل في ذلك . وأخذت القوات الفرنسية تنسحب تحت ضغط القوات الألمانية المتفوقة ، بينما وصلت الحملة البريطانية في ٢١ أغسطس وكانت تتكون من ١٠٠.٠٠٠ مقاتل تحت قيادة « سيرجون فرنش » إلى منطقة الموز وفي الحال هوجمت بالقوات الألمانية المتقدمة ، إلا أن الحلفاء قاتلوا بشدة وتراجعوا ببطء . وفي ٢٣ أوقف الألمان عند « الموز » وفي ٢٦ عند « لى كاتو » وفي ٢٩ عند « جويسى » .

وأصبح الآن الألمان متأخرين عن برنامجهم بينما فوجئوا بقوة المقاومة التي قابلتهم ، فأخذ يضطرب التقدم الألماني الذي وصل متأخراً أمام باريس .

وفي ٣٠ أغسطس أدار « فون كلوك » جيشه الأول (١) في اتجاه الجنوب الشرقى ماراً من شرق باريس بدلاً من تطويق المدينة . وعلى الفور جمع الحلفاء شعثهم ، وخرجت القوات الفرنسية من باريس لتضرب جانب جيش فون كلوك مما أدى أنه بدأ في الانسحاب اتجاه الشمال الشرقى في ٥ سبتمبر . وفي الحقيقة منذ ذلك الوقت وأصبحت الأمور تسير خارج الخطة الألمانية . في نفس الوقت تحرك « جوفر » ومعه قوات كبيرة من اللورين ، وهاجم جيش « بلو » على « المارن » .

وقد توقف الجيشان حتى يتقدم الجيش البريطاني إلى داخل الثغرة الموجودة في الجبهة الألمانية على يمين « بلو » والتي سببها انسحاب « فون كلوك » ، وبالتالي إضطروا « بلو » أيضاً إلى الانسحاب . وقد سميت المعركة التي أجبرت الألمان على الانسحاب خلف نهر « الأيسن » : « معركة المارن » ، وتعتبر هذه المعركة من المعارك القليلة جداً في حرب ١٤ — ١٩١٨ والتي لها قيمة

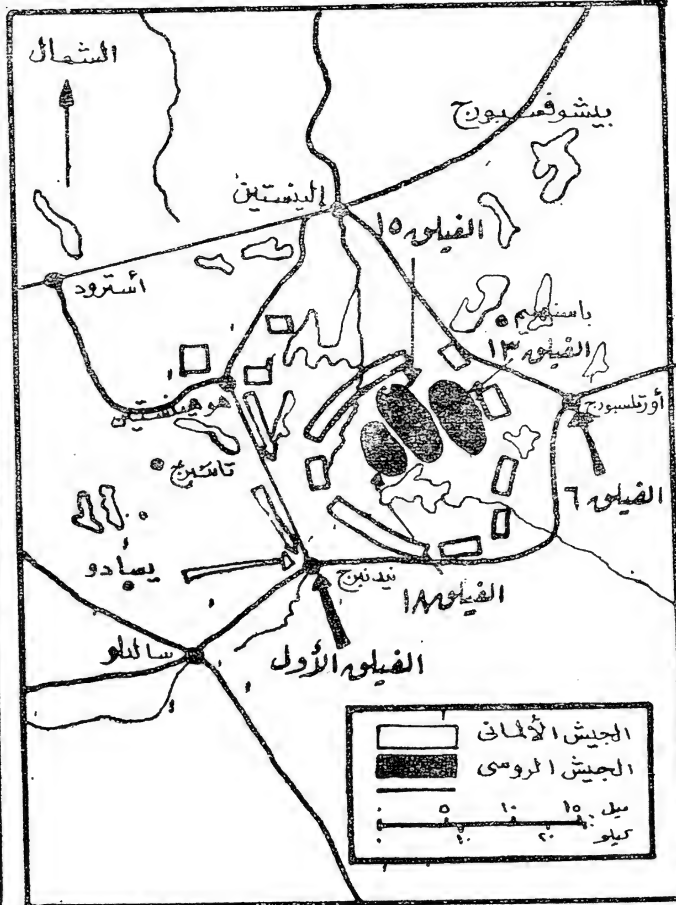
إستراتيجية هامة ، بالرغم من عدم إدراك ذلك في هذا الوقت ، لأنها في الواقع منعت الألمان من كسب الحرب . بعد ذلك أخذ الألمان يعيدون تنظيم مواجهتهم خلف « الأيسن » مع تجهيز موقع دفاعي ، وفي ١٧ سبتمبر صدوا الهجوم الفرنسي الذي تم عليهم . وأخذ كلا الجانبان في التسابق لتطويق جانب خصمه الشمالي المفتوح . وإمتدت خطوط الحصنين شمالاً من « الأيسن » مارة « باميدس » و « أراس » ثم أخذت تضيق وتضيق حتى وصلت إلى البحر عند « نيوبورت » في « الفلاندرز » . حاول الألمان تطويق جبهة الحلفاء في معركة « أيبير الأولى » ، ولكن فشلت الهجمات الألمانية المتكررة المركزة والمنفذة بإعداد متفوق من دفع الحلفاء للخلف . في نفس الوقت وصل القتال في الجنوب الشرقي إلى منطقة « نانسي » . وفي نهاية ١٩١٤ حدث توقف تام على الجبهة الغربية في أوروبا ، وتحولت إلى حرب الخنادق ، وسيطرت الأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة على ميدان المعركة مما أدى إلى إنتشار الشقاء بين الجنود المتعبة . وكانت حرب بدون فائدة ، لأن الجميع لا يعرفون الإجابة عن ... كيف تكسب الحرب ؟ وكانت مجرد أنها حرب دمرت أرواحاً كثيرة .

وفي يوم عيد الميلاد عام ١٩١٤ حدثت حادثة غريبة ، فقد إختلط جنود الجانبين في الأرض الحرام حيث تبادلوا السجائر ولعبوا كرة القدم ، إلا أن هذا التصادق والإختلاط لم يقر . وعلى أى حال لم يحدث مثل هذا التآخي مرة أخرى أبداً .

يوم الحصاد (أنظر اللوحة رقم ٤٦ ، ٤٧)

ولم يستطع الألمان هزيمة أعدائهم في الغرب في ستة أسابيع حسب الخطة الموضوعة ، فأدى هذا عدم إمكان تنفيذ الخطة الموضوعة للجبهة الشرقية ولذلك لم تبدأ العمليات كما توقع وقدر من قبل . ففي الحقيقة تم طرد القوات النمساوية وفشل غزوهم للصرب ، وبدأ الروس في التحرك بسرعة . وقد أظهرت العمليات الروسية الأولية خاصتين وهما : — الإخلاص لحلفائهم ... وعدم الكفاءة . فقد قام القائد العام الروسي « الدوق نيكولاس » بالاستجابة للنداءات الفرنسية ، ودفع في أغسطس بجيشين في إتجاه شرق بروسيا بالرغم من عدم إستعداد الجيشين .

وقد قسم مسرح العمليات بواسطة بحيرات « ماسوريان » ، فتقدم جيش بقيادة الجنرال



اللوحة رقم ٤٦ - معركة تانسبيرج

« رينينكاميف » من شمال البحيرات ، بينما تحرك جيش آخر بقيادة الجنرال « سامسونوف » موازياً تقريباً لجنوب البحيرات . وعبر « رينينكاميف » الحدود ولم يندفع للأمام بقوة بالرغم من أن الألمان كان لديهم جيشاً واحداً تحت قيادة الجنرال « بريتويتز » في شرق بروسيا ، ورجع ذلك لأن الجيش الروسى كان فى حالة مضطربة للغاية . ومثال لذلك كان لدى هيئة القيادة « بوصلات » بينما لم يكن لديهم أى خرائط للمنطقة . وعلى كل حال فى ٢٠ أغسطس إصطدم الروس مع الفيلق الألمانى عند « جومبينين » وكان تفوقهم العددي كبيراً مما أدى إلى إنتصار الروس على الألمان .

ولم تكن هناك أى إتصال أو تنسيق بين قوات « رينينكاميف » و « سامسونوف » ويرجع ذلك لوجود كراهية شديدة بين القائدين ، ولذلك إعتقد « سامسونوف »^(١) دون أن يتحقق بأن الجيش الألمانى قد هزم تماماً ولذا قرر الإندفاع للأمام بأقصى سرعة . فى هذا الوقت إقترح « بريتويتز » على رئيس أركان حرب القوات الألمانية الإنسحاب إلى خلف نهر « الفستولا » ، ونتج عن ذلك طرده من القيادة وتعين الجنرال « بول فون هندنبرج » خلفاً له .

وقد ولد « هندنبرج » عام ١٨٤٧ ودخل الكلية الحربية وتخرج ضابطاً فى مشاة الحرس وكان عمره ١٨ عاماً ، وحضر الخدمة العاملة بالنمسا عام ١٨٦٦ ، وبفرنسا فى عامى ٧٠ - ١٨٧١ ، وترقى من رتبة النقيب إلى رتبة الجنرال خلال سنوات السلام الأربعين ، وذلك ليس لأنه متفوقاً بل لأنه ضابط مهذب وحنى الضمير . وقد تقاعد عام ١٩١١ وعمره ٦٤ عاماً .

وفى ٢٢ أغسطس ١٩١٤ إستدعى من التقاعد وكان عمره وقتها ٦٧ عاماً وقد أسندت إليه قيادة الجيش الألمانى الثامن فى بروسيا الشرقية .

وقد عين الجنرال « أريك فون لندورف » رئيساً لأركان « هندنبرج » وكان عمره ٤٩ عاماً ويعتبر من أكثر الضباط عبقرية فى الجيش . وقد إكتشف « هندنبرج » فى « لندورف » ضابطاً يتمتع بعقلية قوية جبارة ، وكان هذا الشئ ينقص هندنبرج نفسه ،

ولذا قرر السماح له بمطلق الحرية في التصرف في الأمور حتى يحصل منه على أقصى فائدة من مواهبه العسكرية .

وسافر الإثنان سوياً إلى مركز قيادة الجيش الثامن عند « مارينبرج » فوصلاها في ٢٣ أغسطس . وبعد وصولهما بعشرة أيام جرت معركة « تاننبرج » وانتصر فيها الألمان على الروس . وبما أن « هندنبرج » كان قائد الجيش فقد حصل على الثناء ، وقفز بالتالي من الظلام إلى الشهرة ، وأصبح محبوباً ومشهوراً في كل ألمانيا .

ولم يفترق مطلقاً من ذلك الوقت كل من « هندنبرج » و « لندورف » وهذا يدل على حكمة كبيرة ، وإستمرار هذا حتى قبل نهاية الحرب بقليل في عام ١٩١٨ .

وعندما وصل « لندورف » إلى « ماينبرج » وجد أن الموقف هناك قد تولاه أحد ضباط هيئة قيادة « بريتويتز » ، وهو العقيد « هوفمان » ، وكانت التحركات الأولية في خطة العمليات التي وضعها « هوفمان » يتم تنفيذها فعلاً وكانت مقاربة إلى أفكاره هو .

أما « رينينكاميف » فلم يستغل نجاحه عند « جومبينين » وكل ما قام به هو التحرك قليلاً للأمام ، بينما كان « سامسونوف » يتقدم بتهور يؤدي إلى الخطورة . ولذلك قرر الألمان إبقاء قوات سائرة لحجز جيش « رينينكاميف » في الشمال ، مع دفع جميع القوى المتوفرة جنوباً لهزيمة « سامسونوف » .

وكانت هذه الخطة جريئة وخطرة لأنه من الممكن أن يثار « رينينكاميف » فيقوم على الفور بعمليات نشطة ، وعلى كل حال فقد وجد الألمان نسخة من أوامره مع ضابط روسي أسير وتدل على أنه لا توجد لديه خطط للهجوم في الوقت الحالي وتعرضت الخطة الألمانية للخطر ، في نفس الوقت فبحيرات « ماسوريان » ستمنعه من التقدم مباشرة لمعاونة « سامسونوف » .

وقد عرف الألمان أيضاً نوايا « سامسونوف » المستقبلية لأن عادة الروس إرسال إشاراتهم اللاسلكية بدون شفرة ، في نفس الوقت أدت سرعة تقدمه الحالي إلى توسيع الثغرة

الموجودة على يمينه والتي كانت غير محمية. وأصبح في إمكان « لندورف » التقدم، ولذا فعلى الفور تحرك بقواته .

وفي الفترة ما بين ٢٤، ٢٧ أغسطس إنتقلت الوحدات المواجهة لرينينكاميف إلى الجنوب ، وقد تم هذا التحرك خلسة وبدون أن يتنبه له الروس ، فقد تحرك ثلاثة فيالق ، إثنان منها على الطريق إلى « الينستين » بينما الفيلق الآخر نقل بالسكة الحديد وفي دورة واسعة . وفي ٢٧ أغسطس أرسل لواءان من الفرسان فقط لثبتيه قوات « رينينكاميف » ، في نفس الوقت كانت القوات الألمانية المواجهة « لسامسونوف » في موقف حرج فكان عليها إيقاف التقدم الروسى بالرغم من تفوق الروس عددياً بنسبة ٦ : ١ حتى تم جميع التحركات الألمانية إلى الجنوب .

وفي ٢٦ أغسطس وصل لندورف بعض التعزيزات الألمانية ، فأصبح في إستطاعته تنفيذ خطته التكتيكية ، وكانت تتضمن إيقاف تقدم « سامسونوف » في الوسط مع دفع جناحيه إلى الخلف بغرض فتح الطريق أمام القوات الألمانية لتطويق الوسط . وفي يوم ٢٦ أغسطس حدث بعض التقدم ولكن بقتال شاق ، ولم ينزعج « سامسونوف » بهذا الهجوم على الوسط لأنه كان يجهل ما يحدث على أجنابه .

وفي ٢٧ أغسطس نفذت الخطة بقوة مما أدى إلى إجبار اليمين الروسى على الإنسحاب إلى الخلف من « الينستين » إلى « بيشوفسبورج » بينما إنسحب اليسار الروس من « يسادو » إتجاه « نيدنبرج » .

وفي ٢٧ أغسطس حسمت المعركة ، فقد قام اليمين الألماني بالضغط على « نيدنبرج » بينما دار اليسار الألماني إلى الداخل نحو « باسهم » ، في نفس الوقت دفع بقوات قوية للهجوم على الوسط .

وفي خلال يومين بعد بعض التقدم والإنسحاب للجناحين الروسين دفعاً أخيراً خارج مسرح العمليات بينما طوق الوسط وحوصر .

وكانت الخطة جريئة وصائبة لأن « رينينكاميف » لم يتحرك برغم كل ذلك . وكان يوم ٣١ هو يوم « الحصاد » كما سماه « هندنبرج » .

وقد كتب إلى القيصر يقول : — « تم أمس إغلاق الحلقة حول الجزء الأكبر من الجيش الروسي ، وتم تدمير الفيالق ١٣ ، ١٥ ، ١٨ الروسية ، ولدينا حالياً أكثر من ٦٠.٠٠٠ أسير . ولا زالت المدافع الروسية المأسورة موجودة في الغايات وجارى الآن إحضارها . وكمية الغنائم كبيرة جداً .

أما الفيلقان ١ ، ٦ الروسيان اللذان كانا خارج حلقة حصارنا ، فقد تكبدا خسائر فادحة ، وهما ينسحبان الآن في عجلة كبيرة خلال « ملاوا » و « ميزانيك » ، وقد إنتحرو سامسونوف . وقد سمي لندورف هذه المعركة بـ « تاننبرج »^(١) ، وتعتبر من المعارك التكتيكية البارعة في حرب ١٤ — ١٩١٨ .

وبعد أن دعم « هندنبرج » و « لندورف » النصر ، وجها القوات ضد « رينينكاميف » .

وفي معركة بحيرات « ماسوريان » دفع الألمان بالروس إلى الخلف حيث إستسلم منهم أكثر من ٣٠.٠٠٠ أسير .

وبذلك إستعاد الألمان مواقعهم في بروسيا الشرقية والتي كانت في خطر . وبالرغم من هذه الخسائر إلا أن الروس إنتصروا في مناطق أخرى ، فقد إستولوا على « غاليسيا » من النمساويين ، وفي القوقاز إستطاعوا دفع الأتراك للخلف . وعلى كل لوهزم « هندنبرج » في شرق بروسيا لأصبح ذلك كارثة مروعة لألمانيا ، إلا أن روسيا تلقت ضربة قاسية هناك .

الأفكار الجديدة

وعلى شتاء ١٤ — ١٩١٥ إستنفذت القوة الدافعة في خطة الحرب الألمانية ، ولم يبق منها إلا تراثها في مواقع نابذة على جبهات القتال .

وحاول الزعماء السياسيون والعسكريون في كلا الجانبين السيطرة على مجرى الأحداث . وعلينا الآن إيجاز الصورة الاستراتيجية الكاملة لحرب ١٤ — ١٩١٨ بعد الصدام الأولى التي قامت به هذه القوات الكبير ، فنجد أن الألمان قد كسبوا مزايا كثيرة في المرحلة الأولى والتي إنتهت الآن ، ففي الغرب إستولوا على مناطق صناعية هامة من فرنسا ، أما في الشرق

(١) هو اسم تل في المنطقة تمسك به الوسط الألماني في أول الأمر . « العرب »

فقد وجهوا ضربة ضخمة إلى الروس . وأصبح من ناحية أخرى ، الحلم المزعج ^(١) الذى أربع هيئة الأركان الحرب الألمانية حقيقة واقعة ، وأصبحت ألمانيا مضطرة الآن إلى القيام بذلك ، فى نفس الوقت كانت على النمسا وتركيا القيام بذلك بالقتال على أكثر من جبهة . وقد أصبح واضحاً فى ذلك الوقت أن على الألمان تدعيم مجهود كل من الحليفتين ^(٢) بالمساعدات الاقتصادية والأفكار العسكرية والقوة البشرية ، كان « فلانكهائين » رئيس أركان حرب القوات الألمانية فى ذلك الوقت والذى خلف مولشكة الصغير .

وكانت إستراتيجية « فلانكهائين » لعام ١٩١٥ هو الالتزام بسياسة دفاعية فى الغرب مع المحافظة على المكاسب الألمانية هناك ، ثم القيام بهجوم رئيسى لإنهاء الأمر فى الشرق ، وبهذه الطريقة يستطيع الألمان تجميع كل قواتهم بعد ذلك فى الغرب لإنهاء الحرب لصالحهم .

وكان الألمان يستطيعوا تحويل الضغط من نقطة إلى أخرى حسب إرادتهم ، وأيضاً

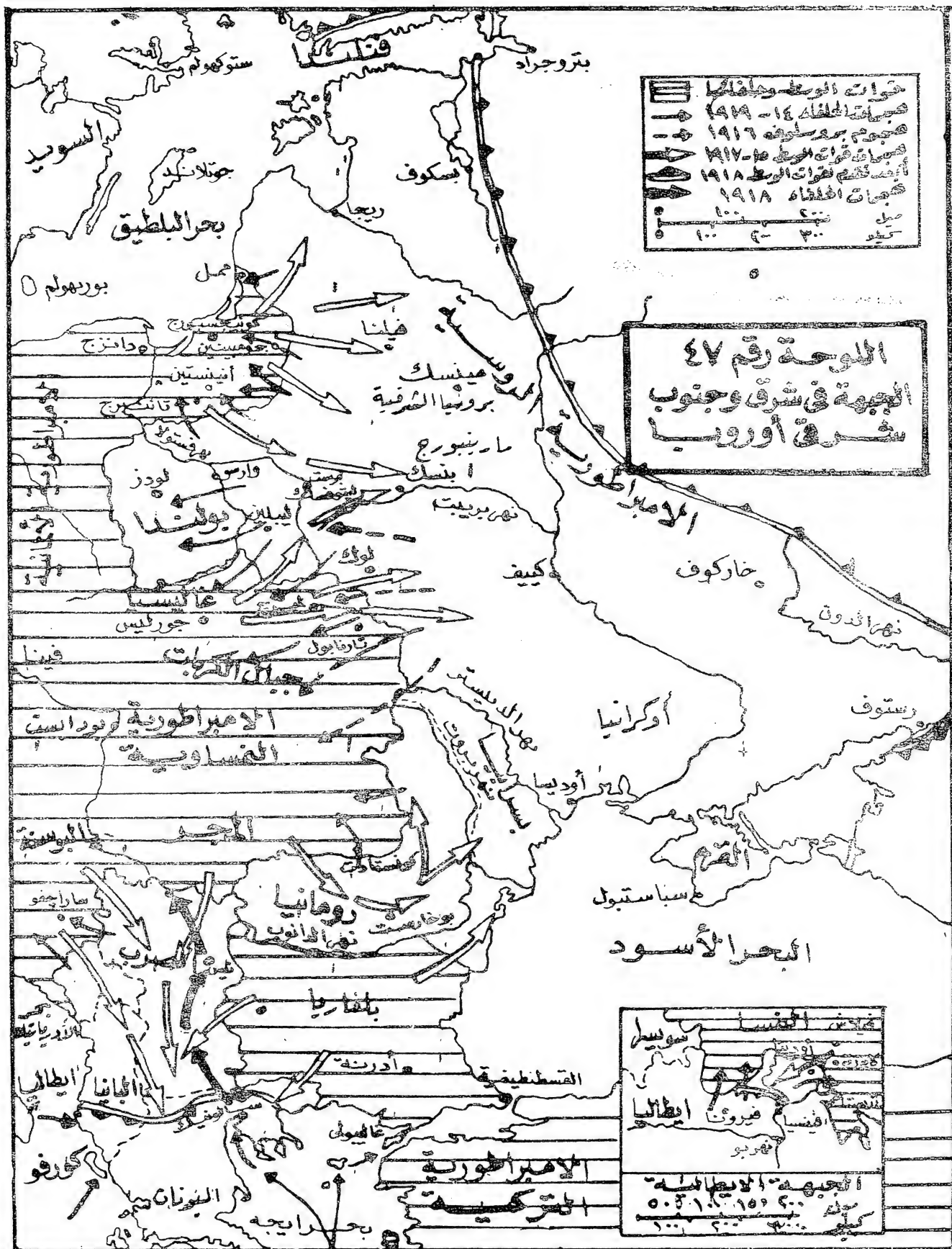
مقابلة التهديدات الجديدة بسرعة ، وذلك لتمتعهم بخطوط داخلية جيدة تربط بين الجبهة الغربية والشرقية علاوة على نظام جيد للسكك الحديد وموارد اقتصادية ممتازة . أما الناحية البحرية ، فقد ردت ألمانيا على الحصار البحرى للأسطول البريطانى ، بالسير فى سياسة حرب الغواصات .

أما إستراتيجية الحلفاء فلم يكن هناك تنسيق كبير بين قواها ، فلم ينعقد أول مؤتمر عسكري يجمع كل الحلفاء إلا فى ديسمبر ١٩١٥ . وكان الطريق الوحيد أمام الحلفاء لكسب الحرب هو هزيمة ألمانيا هزيمة حاسمة على إحدى جبهاتها الرئيسية ، ولما كان من المحتمل أن يستطيع الروس تحقيق ذلك ، فأصبح من واجب الحلفاء السعى للحصول على النصر على الجبهة الغربية . وبالطبع قبل الفرنسيون هذه الخطة واعتبروها المهمة الرئيسية للحلفاء وذلك لأنهم محتلون بواسطة الألمان ، بينما نظروا إلى كل الأفكار الإستراتيجية الأخرى بشك كبير .

وعلى العموم فقد طالب الروس بتنسيق عملياتهم مع عمليات الحلفاء فى الغرب لإجراء

(١) يقصد اضطراب ألمانيا للقتال على جبهتين .

(٢) يقصد النمسا وتركيا .



أقصى ضغط على جبهتي قوى الوسط في وقت واحد ، ولكن نادراً ما تمت هذه العمليات بنجاح .

وبما أن بريطانيا هي القوة البحرية العظمى فأصبح واجبها الرئيسي هو حصار ألمانيا بحراً لمنع تجارتها فتخضعها إقتصادياً ، بينما اعتمدت بريطانيا على المسرح الحاكم للحرب البرية وهي الجبهة الغربية . ولم توافق على هذه الحقيقة كل الأحزاب السياسية في بريطانيا إلا أن رئيس وزراء بريطانيا « سير وليام روبرتسون ^(١) » كان مقيداً للعمل حسب رغبة الفرنسيين ، أي التركيز على بناء القوات البريطانية على الجبهة الغربية ، وكان موافق على هذا الرأي معظم الخبراء العسكريين في بريطانيا ، إلا أنه كانت هناك مدرسة أخرى اعتبرت هذه المدرسة من الفكر مجرد إعتبارات عمياء . وقدرت أنه يمكن هزيمة ألمانيا في الجبهة الغربية ، ولكن بحشد قوات بريطانية كبيرة تماثل قوات العدو ، وكانت بريطانيا تفضل الإبقاء على جيشها الصغير ، بدلا من إنشاء ودفع أعداد كبيرة من الرجال إلى القتال ، بل وحتى إذا استطاعت إنشاء جيش كبير ، فهل سيعرف الخبراء العسكريون البريطانيون كيف يستخدموه ؟ ولذلك كانت المدرسة الأخرى ترى وتفضل ترك الجبهة الغربية للفرنسيين بينما تقتصر مساهمة بريطانيا في الحرب البرية عن طريق الإستراتيجية الغير مباشرة ، والتي سيكون لها فائدة عظمى ، وفي نفس الوقت أكثر إقتصاداً في القوة البشرية .

وعرفت هاتان المدرستان من الفكر باسم « الشرقية والغربية » . وقد تزعم « الشرقيون » « لويد جورج » وقد اعتبر أنه يمكن كسب الحرب « بالتخلص من الدعامات » أي بهزيمة حلفاء ألمانيا ، أما « الغربيون » فاعتبروا أن الحرب ممكن كسبها فقط بالهزيمة الحاسمة للألمان على الجبهة الغربية .

وكان « ونستون تشرشل » و « لويد جورج » من أهم المناصرين السياسيين لفكرة التخلص من الدعامات ، ويتم ذلك في منطقة جنوب شرق أوروبا حيث يجري تطور إستراتيجية الحلفاء . لأنه لو سيطرت الحلفاء على هذا المسرح ، فسينتج عنه نتائج هامة ، منها خروج تركيا من الصراع ، فيسهل على الروس حشد كل مجهوداتهم على الجبهة

(١) لقد أصبح بعد ذلك رئيساً لأركان حرب القوات البريطانية . « العرب »

الشرقية بعد غلق جبهة الأتراك ووصول الإمدادات لها من الغرب وبذلك تجبر النمسا على القتال على جبهتين ؛ فتضطر ألمانيا إلى تحويل قوات أ كثر لتقويتها ومساندتها . أما إذا أمكن إخراج النمسا من الصراع فسوف تضطر ألمانيا نفسها إلى القتال على ثلاث جبهات ، وكان كل هذا مجرد أفكار جذابة .

وفي عام ١٩١٥ أرسلت بريطانيا حملة إلى الدردانيل . وفي هذا العام والعام التالي له تسابقت دول الحلفاء ودول الوسط للحصول على رضا دول جنوب وجنوب شرق أوروبا المختلفة .

وفي عام ١٩١٥ دخلت إيطاليا الحرب في جانب الحلفاء ، وأيضاً رومانيا في عام ١٩١٦ . بينما كانت الصرب تحارب من قبل النمساويين . ومن ناحية أخرى إنضمت بلغاريا إلى قوى الوسط في عام ١٩١٥ .

معركة الفردان (أنظر اللوحة رقم ٤٥ ، ٤٨)

وكانت إستراتيجية الحلفاء في جنوب شرق أوروبا تثير الإعجاب الكبير ، فقد فرض أن الحرب يمكن كسبها في هذا المسرح ببعض الإستعراضات الجانبية ، وطبعاً فهي فكرة جذابة لأنها في نفس الوقت لو إستطاع الحلفاء كسب اليد العليا في هذا المسرح ، فسيحصلوا على مزايا عديدة جداً . ولكن كما سنرى لم يتحقق هذا بسرعة ، وكلما طال أمد القتال كلما عظم إستنزاف القوات والتي يمكن إستخدامها في مكان آخر . وإضطرت البريطانيون في النهاية إلى إنشاء جيش بريطانيا كبيرا ، وأرسلت معظم القوات إلى الجبهة الغربية كما طلب « الغربيون » . في ذلك الوقت فتتح البريطانيون مسرحاً حربياً منفصلاً في الشرق الأوسط ، وكان الغرض من العمليات في مصر والتي إمتدت إلى العربية السعودية وفلسطين وسوريا ، هي حماية المصالح الإقتصادية البريطانية وخاصة قناة السويس ، مع توجيه ضربة من أسفل للإمبراطورية التركية . وتم التدخل المسلح في العراق ، وقد برره البريطانيون بأنه لحماية الإمدادات البترولية في منطقة الخليج العربي ، بينما أرجعه الفرنسيون إلى الطمع الإستعماري البريطاني . ولكي تكتمل الصورة الإستراتيجية يجب ذكر الحرب في الأجزاء الأخرى للعالم .

ففي عام ١٩١٤ تحركت اليابان إلى داخل المنطقة الألمانية في « شانتونج » بالصين ، ونجح اليابانيون ما بين عام ١٩١٤ — ١٩١٨ في مد نفوذهم كثيراً في الصين ، وكان الدافع لذلك بدون شك الطمع الإستعماري .

وبما أن مستعمرات الخصوم كانت متجاورة كما في أجزاء من أفريقيا وجنوب المحيط الهادى ، لذلك إغتتم الطرفان الفرصة للقيام « بمحاولة » ضد بعضها هناك . وكانت هذه « الإستعراضات الجانبية » من وجهة النظر الألمانية ذات فائدة وهي « إزعاج العدو » ، أما تأثيرها على الجانبين فكانت تحويل قواتهما من المسارح الرئيسية ، وقد تم تحويل قوات بريطانية وفرنسية أكثر من القوات الألمانية . وعلى كل يمكن القول بأن الحرب في المسارح خارج أوروبا لم يكن لها أهمية إستراتيجية كبيرة . وفي الحقيقة كانت حرب ١٤ — ١٩١٨ حرباً أوروبية .

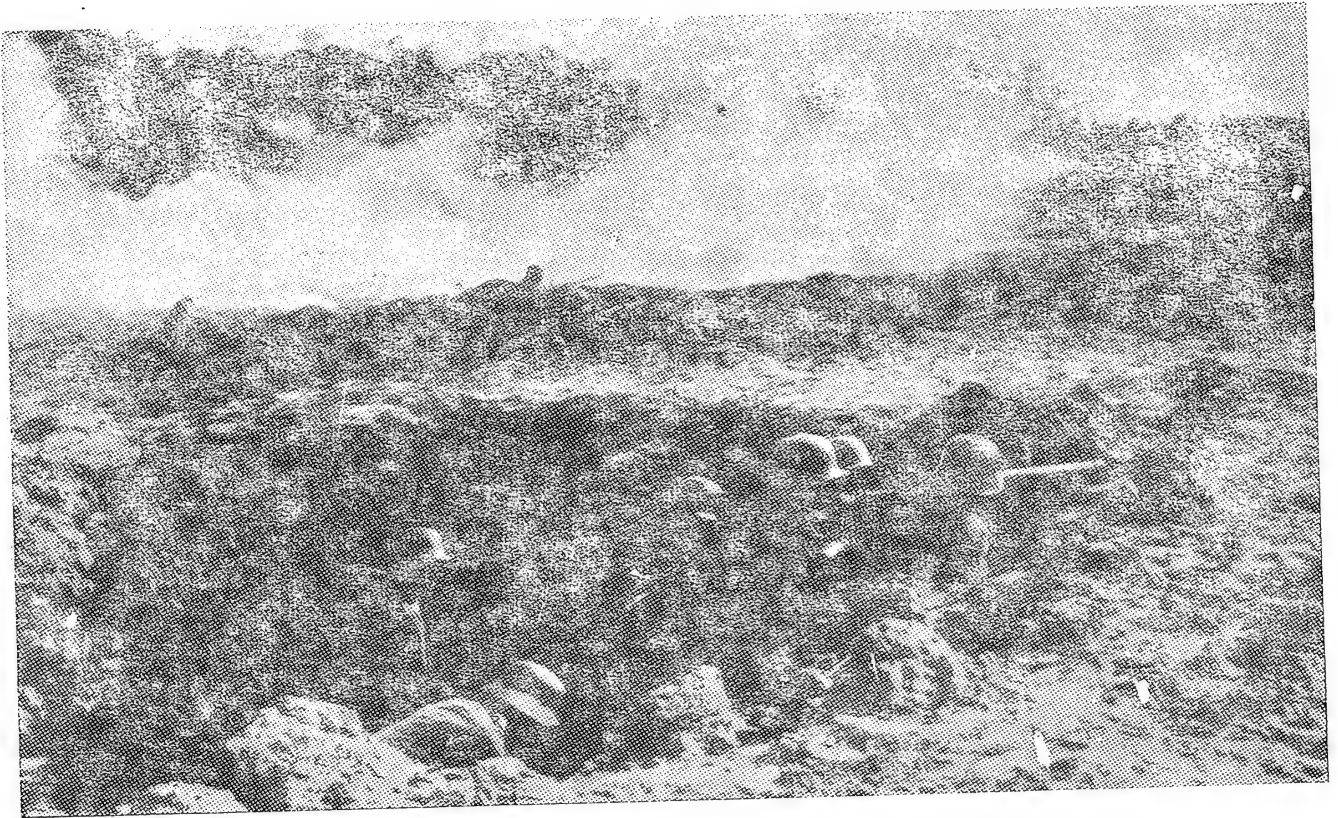
وقد سميت هذه الحرب بعد ذلك « بحرب عالمية » لإشتراك وحدات من أجزاء كثيرة من الإمبراطورية في أوروبا علاوة على إنضمام الولايات المتحدة في عام ١٩١٧ إلى قوى الحلفاء . ولكن يمكن أن نقول أيضاً بأنها حرب أقل من « حرب عالمية » لأن دور القوة البحرية كان في الحقيقة سلبياً ، وفي رأي فهدى لا تخرج عن بعض الصراعات السابقة مثل حرب الأعوام السبعة .

وبعد أن ألقينا نظرة عامة على صورة الحرب ، فإننى أقترح الآن أن ندقق النظر على أجزاء معينة من المشهد والتي هي ذات أهمية ، آخذين المسارح واحداً تلو الآخر محلينه وخاصة طبيعة القتال والقيادة .

وكما ذكرنا من قبل فقد تجمدت الحرب على الجبهة الغربية إلى الدفاع الثابت منذ معركة « إيبير الأولى » . وإمتد الخط الدفاعى الألمانى بين « الفلاندرز » و « سويسرا » إلا أنه كان بارزاً في تنوع عريض على شكل رأس ضعيفة عند « كومبني » . ولم يحدث قتال رئيسى في هذا المسرح سوى هجمتين كبيرتين للحلفاء في « أراس » (أرنوس) ، وإثنتين أخرتين في « شمبانيا » . وبلغت الخسائر في هجمات الخريف حوالى ١٩٠.٠٠٠ فرنسى و ٥٠.٠٠٠ بريطانى و ١٤٠.٠٠٠ ألمانى . وكانت النتيجة النهائية لهذه المذبحة هي إنبعاج المواقع الألمانية

قليلا . أما المعارك الكبرى في عام ١٩١٦ فكانت معارك « الفردان » و « السوم » ، وقد استمرت معركة الفردان ، حوالى عشرة أشهر تقريباً ، والتقدير الرسمى الفرنسى للخسائر الإجمالية للجانبين فى الفردان هى : — ٤٢٠ و ٥٠٠ قتيلا و ٨٠٠ و ٥٠٠ جريح ومصاب بالغاز ، وكان العدد الإجمالى للقوات مليون وربع تقريباً . وعند نهاية المعركة كانت الجبهة تقريباً كما كانت عندما بدأت المعركة .

وكتب « اليستار هورن » فى « ثمن المجد » يقول : — « فى معركة الفردان لم يكسب أى جانب شيئاً ، وكانت معركة غير حاسمة فى حرب غير حاسمة ، بل أنها معركة غير ضرورية فى حرب غير ضرورية . إنها معركة ليس فيها منتصرون فى حرب ليس بها منتصرون » .



معركة الفردان وتستخدم فيها القوات الألمانية المدافع الرشاشة

أما معركة السوم التى جرت من ١ يولييه إلى ١٨ نوفمبر فكلفت كل جانب حوالى ٥٠٠ و ٥٠٠ رجل بين قتيلا وجريح وأسير ، بينما كسب الحلفاء نتوأمنا الأرض الموحلة عمقه حوالى تسعة أميال ومواجهته حوالى ٢٠ ميلا ، ولم يكن له فى نفس الوقت أى قيمة

إستراتيجية . وكان الجنرال « فلا كنهين » هو المسئول عن إدارة العمليات في الجانب الألماني خلال هذين العامين .

وقد تولى منصبه بعد مولتكة الصغير في سبتمبر ١٩١٤ ، وقد إستطاع أن يمنع كارثة كبرى بسبب الفشل في خطة « شليفن » ، فقد قدر أن الخطة السليمة التي تتبع في الغرب في ذلك الوقت هو الدفاع . أما الهجوم الرئيسي للألمان بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ فكان الهجوم على الفردان^(١) .

وفي أغسطس ١٩١٦ تم إستبدال « فلا كنهين » بدلا من « هندنبرج » و « لندورف » ، وبعد قليل أثبت « فلا كنهين » في رومانيا بأنه قائد ومقاتل ميداني ماهر .

ويعتبر « فلا كنهين » الإستراتيجي البارز الوحيد في كلا الجانبين ، وهو صاحب نظرية « من الحكمة السعي وراء شيء أقل من النصر الكلي » . أما الحلفاء فلم يكن لهم قائداً أعلى للقوات على الجبهة الغربية قبل عام ١٩١٨ .

وقد إعتبر القائد العام الفرنسي الجنرال « جوفر » في عامي ١٥ — ١٩١٦ القوة المرشدة بالنسبة لكل الحلفاء . أما القادة البريطانيون^(٢) فكانوا مستقلين نظرياً ، في نفس الوقت لم تكن لديهم قوات كافية تجعلهم في موقف يمكنهم من إملاء إستراتيجيتهم بأنفسهم ، ولذلك فقد أتبعوا الإستراتيجية الفرنسية في كل الأمور تقريباً .

وقد كان الجنرال « جوفر » قاسياً وصلداً ، ولا يستسلم مهما قاسى ، ولكنه في نفس الوقت غيبياً . وقد كسب معركة « المارن » بالخط المطلق ، فكما ذكر « ليدل هارت » ، فقد دفع بمليون فرنسي ضد مليون ونصف ألماني وفي المكان الخاطيء ، وقد أدى فشله في اللورين أنه تمكن من إيقاف الألمان في الدقيقة الأخيرة بعد أن وصلوا تقريباً إلى مؤخرة قواته .

وفي عام ١٩١٥ لم يكن في الجبهة الألمانية أي أجناد معرضة حتى يستطيع « جوفر »

(١) هي قاعدة على الحدود وقد أصبحت رمز الكفاح الفرنسيين ، فقد رضوا بإستنزاف دماء شبابهم في الدفاع عنها .

(٢) يقصد فرنش ، وقد حل محله دوجلاس هيچ في ديسمبر ١٩١٥ . « المارب »

تطويقها ، ولذلك فقد قام « جوفر » بالمهجوم بالمواجهة على كلا الجانبين ^(١) لقطع البروز الألماني . وطبعاً لا يمكن تسمية هذا بإستراتيجية . وقد شاهدت طيلة حياتي قتالاً كثيراً وتعلمت « أنه ما يكون مرغوباً إستراتيجياً يجب أن يكون ممكناً تكتيكياً بالموارد التي تحت يد القائد » ، وأعتقد أن « جوفر » لم يفهم هذه الحقيقة الرئيسية .

غاز المستردة

لقد طالب الرأي العام بقيام الحلفاء بعمل هجومى لطرد الألمان الذين يحتلون الأراضي الفرنسية والبالجيكية، في نفس الوقت يجب عدم ترك الألمان بدون إزعاج على جبهتهم الغربية حتى لا يقوموا فيستطيعوا تسديد ضربة قوية للروس في الشرق. وقد برز السؤال التالي: — كيف يتم الهجوم.. وماهى الطريقة؟ وتواجدت إمكانيات وإحتمالات عديدة، منها إغراء العدو على التقدم للأمام بغرض الإستيلاء على المدن، ثم يتم تطويقه من كلا الجانبين، كما حدث ذلك مصادفة في عام ١٩١٨. على أن يتم ذلك على المواجهة الألمانية بإستخدام القوة البحرية البريطانية المتعاونة تعاوناً كاملاً مع الهجوم البرى الذى سيتم على جانب « الفلاندرز » . وأخيراً تم ببساطة إختيار طريقة الضرب بالمواجهة على أن يتم ذلك في هجمات متكررة ، وطبعاً فكان هذا حساباً خاطئاً من أساسه لإفترض أن مثل هذه الطريقة يمكن أن تنجح ، وعلى كل فقد أساء كل القادة تقدير القوة التكتيكية للدفاع . ولم يدرك قادة الحلفاء مبكراً في عام ١٩١٥ أن مثل هذه الهجمات الأمامية لن تحقق نتائج إيجابية لأنهم لم يدرسوا بجدية التاريخ العسكرى ، في نفس الوقت لم يكونوا جنوداً محترفين . وعلى كل حال فقد قرروا الإستمرار في نفس السياسة في السنة التالية وعلى مجال أكبر كثيراً ، وطبعاً هذه لم تكن الحرب التي أفهمها .

وكانت قوة الدفاع أساساً تتكون من المشاة التي تطلق نيران البنادق والمدافع الرشاشة من الخنادق الآمنة وتعاونها المدفعية .

وكانت المشكلة الرئيسية أمام المهاجمين كيف الوصول إلى مسافة قريبة من المدافعين؟ وفي الحقيقة كانت حرب الخنادق عبارة عن معارك حصاراً أكثر منها معارك مفتوحة ، وقد ظهرت

هذه المشكلة بوضوح في الحرب الروسية — اليابانية وحروب البلقان وفي الاشتباكات التي جرت عند « مونز » و « لى كانو » و « جريسي » حيث أمكن لعدد قليل جداً من القوات صد وإيقاف الإكتساح الألماني الكبير المتقدم . وأثناء الإصطدام الأولى في منطقة « مونز — لى كانو » استطاعت فرقتان بريطانيتان من إيقاف فيلقين ألمانين . وقد أدت القوة التكتيكية للدفاع والعوامل الإدارية إلى تأخير خطة شليفن عن الجدول الزمني الذي وضع لها مما أدى إلى فشلها في تحقيق أهدافها . وكان حامل البندقية الموجود في موقع ثابت يستطيع إطلاق ١٥ طلقة في الدقيقة عبر الأرض الحرام ، بينما يستطيع المدفع الرشاش إطلاق سيل من الطلقات ، لذلك زاد عدد المدافع الرشاشة بسرعة . في أول الأمر قرر « هيج » مدفعين لكل كتيبة ، ولكن لويد جورج لم يوافق في ذلك لعدم كفايتهما . وعلى نهاية الحرب تشكلت كتائب كاملة من المدافع الرشاشة بكل منها ٤٨ مدفع رشاش . وأصبحت الأسلحة الشائعة تحقق عائداً آخر للتقدم . وبمرور الوقت أضيفت تحسينات إلى الدفاع .

وقد أدخل الألمان الغاز بأنواع عديدة منها : — الخناق ... والمسيل للدموع .. والحارق ^(١) . وكان غاز المستردة ^(٢) أسوأها جميعاً لأنه كان أكثرها تعجيزاً وبغضاً ، ويحتاج إلى وقت أطول في التطهير . وأصبحت الخنادق تتكون من عدة خطوط في العمق وبذلك لا يسقط الموقع الدفاعي إذا اخترق المهاجمون الخط الأول ، في نفس الوقت يستطيع المدافعون إحضار قوات من الخلف بواسطة السكة الحديد والحملة الميكانيكية لملائ الثغرة أسرع من إمكان المهاجمين مواصلة الإندفاع للأمام . ومثال لذلك في معركة « إيبر الأولى » استطاع الألمان إختراق الخطوط الدفاعية البريطانية حتى وصلوا إلى المنطقة الخلفية للأسلحة الإدارية ولكنهم لم ينجحوا في إستغلال هذا المكسب .

وخلال شتاء ١٦ — ١٩١٧ جهز الألمان مواقع دفاعية إحتياطية ^(٣) إنسحبوا إليها في أوائل عام ١٩١٧ ، وقد تم إختيار هذا المكان لمزاياه الطبيعية والإستراتيجية . وكانت

(١) يحرق أنسجة الجسم . (٢) من نوع الغاز الحارق .

« المغرب »

(٣) سميت بخط هندنبرج .

المواقع الدفاعية تتكون من ملاجئ عميقة تجعل المشاة آمنة من الناحية العملية من كل أنواع المدفعية، بينما بنيت دشم خرسانية للمدافع الرشاشة مع إنشاء شبكة من السكة الحديد الخفيفة لنقل الرجال والمواد والأمداد إلى المناطق الأمامية . وفي الواقع أصبح الدفاع يتمتع بمزايا كبيرة نتيجة للأسلحة المتوفرة ، ولكن كان هناك نظرية عكسية تكونت قبل الحرب ، ويمكن تلخيصها بكلمات فوش : — « الحرب معناها دائماً القيام بالهجوم » . وقد افترضت هذه النظرية أن نيران المدفعية الحديثة والأسلحة الصغيرة سوف تعطي قوة للهجوم ، لدرجة أنه يمكن مهاجمة العدو وبنجاح في مناطقه الدفاعية القوية . وقد كتب فوش : — « الحرب لا يمكن أن تخسر مادياً بل يمكن أن تخسر فقط معنوياً ، والمعركة

التي تسبب هي المعركة التي لن يعترف فيها القائد بأنه هزم » . وأنا أوافق على أن المعركة لا تخسر مطلقاً إلا عندما يعتقد القائد العام هذا . ولكن من الضروري وجود حكم متزن بالرغم من أن القائد سيسعى دائماً لفرض إرادته على خصمه . فالقائد العام يجب أن يعرف متى يكون التعقل أفضل من الشجاعة ؟ كما يجب ألا تلورغبته في السيطرة على خصمه ، الإمكانات الحقيقية للموقف ، كما أن القائد الجيد الذي يكسب معاركه بأقل خسارة ممكنة في الأرواح . وعلى كل حال ليس الهجوم الأعمى في جميع الأوقات هو أفضل طريقة لتنفيذ هذه الفلسفة ، وعادة ما يكون الدفاع الإستراتيجي أمراً مستصوباً عندما يسعى وراء هدف تكتيكي موات . وعندما يوجد هذا فيصبح الوقت مواتياً للجرأة ، فقد تم عمل كل شيء يمكن أن عليه العقل لضمان النجاح ، وأعتقد أن فوش لم يفهم هذا .

صرخات الموتى الأخيرة

وكان الأسلوب العادي للهجوم هو تمهيد أولى بالمدفعية يتبعه إقتحام موجات من المشاة المسلحة بالبنادق والسناكي ، بينما كانت المدافع الرشاشة والغاز أقل فائدة في الإقتحام عنها في الدفاع .

وقد سبق الهجوم على الجبهة الغربية قصفات بالمدفعية استمرت عدة أيام . وكان الغرض الرئيسي من هذا القصف هو فتح ممرات في الأسلاك الشائكة وإسكات المدافع الرشاشة للعدو قبل أن تبدأ المشاة الإقتحام .

وفى أول الأمر تفوقت المدفعية الألمانية فى الكمية والنوع ، ولكن بعد ذلك أصبحت أنواع المدافع تشبه بعضها كثيراً فى كل الجيوش . وأكثرت المدافع البريطانية التى إستخدمت كانت من أعيرة ٢٥ رطلا و ٦ بوصة والهاوتزر ١٢ بوصة . وقد زاد المدى حتى وصل إلى أكثر من ١٠٠٠٠ ياردة . وإستخدمت الحملة الميكانيكية فى نقل المدافع ولكن كانت الخيل هى التى تحركها فى معظم الأحيان . أما أسلحة المدفعية الكبيرة جداً مثل المدفع الشهير عيار ١٧ بوصة والمسمى « برتا الكبير » الذى يستخدم فى الضرب على الأهداف الموجودة بالعمق البعيد ، وقد إستخدم الألمان معظم هذه الأسلحة . وعادت الهاونات للظهور والتى أهملت منذ مدة طويلة ، لأن هذه الحرب كانت من نوع حرب الحصار . وحلت الدانات شديدة الانفجار تدريجياً محل الشرابل ، كما إستخدمت أيضاً دانات الغاز والدخان . وقد تطلبت المدفعية درجة عالية من التنظيم لأن القصفات كانت تتم بمحشدوتر كيز وعلى مواجهاة كبيرة ، ولذلك أصبحت قيادة المدفعية على طول قطاعات الجبهة وإزداد عددها وتركيزها ، حتى يمكن تنسيق القصف وتركيز النيران على المكان الصحيح وفى الوقت المطلوب .

وقد إستفادت المدفعية أثناء تنفيذ مهامها بالوسائل المتطورة للمواصلات مثل التليفون واللاسلكى وطائرات الملاحظة علاوة على إستخدام وسائل أخرى مثل الصوت واللهب لتحديد المكان والمسافة .

وعلى عامى ١٦ ، ١٩١٧ كانت فنون المدفعية قد تطورت بدرجة كبيرة . وكان من عيوب مثل هذه القصفات أنها تفقد تحقيق المفاجأة التكتيكية ، علاوة على ذلك كانت المدفعية فى الجو الممطر تحول الأرض إلى بركة من الطين فيصبح تقدم المشاة المترجلة والتى تحمل معدات تزن حوالى ٦٦ رطلا صعباً جداً .

وعندما تنتهى القصفة ، وكانت فى بعض الأحيان تنتهى بسقارة من الدخان لإخفاء التحركات ، تترك المشاة المهاجمة خنادقها وتتقدم فى موجات لتشق طريقها بحذر خلال الأسلاك الشائكة الموجودة على جانبيها ، ثم تتشكل وتتقدم بسرعة خلف غلالة زاحفة من المدفعية .

ويصف أحد ضباط الآلاى ١٨٠ ألمانى الفرقة المشاة البريطانية وهى تهجم فى معركة السوم ، وكان هذا الهجوم هو النوع السائد فى ذلك الوقت : « ولقد أدرك الجميع أن القصفة

المركزه القتالية هي إبتداء إقتحام المشاة البريطانية ، ولذلك إنتظر الرجال في حفرهم على أهبة الإستعداد .

وكانت أحزمتهم مملوءة بالقنابل اليدوية ، بينما قبضوا على بنادقهم وأخذوا يستمعون وينتظرون رفع القصف من المنطقة الدفاعية الأمامية إلى الدفاعات الخلفية . وكان من الأهمية القصوى أن يتخذ الجميع مواقعهم لاقابلة المشاة البريطانية التي ستقدم مباشرة خلف غلالة



المشاة الانجليزية تتحرك في خنادقها إستعدادا للهجوم

المدفعية . وعند النظر إتجاه الخنادق البريطانية من خلال بيرسكوبات الخنادق الطويلة والممتدة إلى أعلا الملاجئ يمكن رؤية حشد من الخوذ الحديدية خارج المواقع الدفاعية إستعدادا للإقتحام . وفي الساعة ٧ ١/٢ ، توقفت عاصفة النيران فجأة كما بدأت ، وعلى الفور أسرع رجالنا خارج الملاجئ فراداً أو جماعات إلى أقرب حفرة سببها دانات مدفعية العدو . وأخرجت المدافع الرشاش من مخابها ووضعت بسرعة في أماكنها وأخذ أطقم المدافع في سحب صناديق الذخيرة الثقيلة فوق السلام نحو المدافع . وهكذا أقيم خط رهيب من النيران .

وبدأ الخط الأول في التقدم وكأنه يمتد إلى اليمين واليسار بدون نهاية ، وسرعان ما تبعه خط ثانى وثالث ورابع .

ونقدمت الجنود البريطانية ببطء وثبات وكأنهم لا يتوقعون وجود شيء حتى في خنادقنا الأمامية . وكان يسبق الخط الأول خط رقيق من المناوشين وقاذى القنابل اليدوية . وأصبح الخط الآن في منتصف مسافة الأرض الحرام .

وأخذت تمر كلمة «إستعد» على طول جبهتنا من حفرة إلى حفرة ، ، وظهرت الرؤوس على حافة الحفر وأخذ الجنود أوضاعهم الأخيرة بحيث تغطي أفضل رؤية بينما ثبتت المدافع الرشاشة القوية بقوة في أماكنها . وبعد دقائق قليلة وعندما أصبح الخط البريطاني الأمامى على مسافة ١٠٠ ياردة ، بدأت قفقة نيران المدافع الرشاشة والبنادق من على طول خط حفر الدانات .

وكان الجنود يطلقون النيران من الوضع مرتكزا ليحصلوا على أفضل رؤية للهدف فوق الأرض المكسرة ، بينما إنتاب الآخرون نشوة المعركة ووقفوا يطلقون النيران على حشد العدو المتقدم بغض النظر عن سلامة أنفسهم .

وأسرعت إلى السماء الزرقاء صواريخ حمراء كإشارة لبدء المدفعية ، وعلى الفور مزقت أعداد كبيرة من دانات البطاريات الألمانية الموجودة في الخلف الهواء لتنفجر بين الخطوط المتقدمة . وبدأ وكأن جماعات كاملة تسقط ، وسرعان ما تفرقت التشكيلات البريطانية الخلفية وكانت تتحرك في تشكيل منضم ، وأخذ يتعثر التقدم تحت وابل الدانات والطلقات . وكان يرى على طول خط الرجال المتقدم وهم يلقون بأسلحتهم ويسقطون بلا حركة إلى الأبد . وتدحرج الجرحى بينما زحف المجروحون الأقل خطورة إلى أقرب حفرة سببها المدفعية لآخذها كلاجأ للوقاية .

وعلى كل حال لم ينقص الجندى البريطانى الشجاعة ، فعندما يضع يده على السلاح فلم يكن من السهل تحويله عنه .

والآن ظهرت في الصورة بسرعة الخطوط الممتدة ولكنها أهتزت بشدة وحدث بها ثغرات كثيرة ، بينما قطع الجنود البريطانيون الأرض في إندفاعات قصيرة وبخطوة سريعة

بدلاً من الخطوة البطيئة . وفي خلال عدة دقائق ، وصلت القوات القائدة المتقدمة إلى مسافة إلقاء الحجر من خنادقنا الأمامية ، وقد استمر بعضنا في إطلاق النيران من هذه المسافة القتالة بينما ألقى آخرون بالقنابل اليدوية على القوات المهاجمة . ورد البريطانيون بقذفة من القنابل بينما أندفعت مشاتهم للأمام والسناكي مثبتة في بنادقهم .

وأصبح من المستحيل تحمل ضجة المعركة ، وكان يسمع من خلالها صراخ الأوامر والتشجيعات الصاخبة مختلطة بصوت الواابل الكثيف والعنيف للمدافع الرشاشة والبنادق وإنفجار الدانات ، ومع كل هذا إختلط أهات وتأوهات الجرحى والمعاونة وصرخات الموتى الأخيرة . ومرة أخرى تحطمت خطوط المشاة البريطانية الممتدة على الدفاعات الألمانية .

وكانت الصورة تشبه إلى حد كبير موجات البحر وهي تصطدم بالصخر ، والتي ينتج عنها تحطم الموجات فقط . »

وبهذا الشكل دارت الحرب على الجبهة الغربية في أوروبا . وبالرغم من توفر هذه الأسلحة القتالة والموقف الاستراتيجي القائم فلم تتوفر إلا فرص قليلة ليغير قتال الخنادق من شكل القتال العام ، لذلك لم يخلق مهارات تكتيكية جديدة تمكن المهاجم من إتمام عملية الاختراق .

حرب الانهالك

وبالرغم من ذلك ففي بعض الفترات دار قتال جيد مما يدل على أنه من الممكن حدوث قتال أفضل قليلاً من ذلك النظام العادي للهجوم .

وفي معركة الفردان حاول الألمان تحقيق المفاجأة ومهاجمة العدو في أضعف نقطة بدلاً من مهاجمته في أقوى نقطة ، ولذلك قامت جماعات الإستطلاع بشجاعة وذكاء وتحت ستر الظلام باستكشاف جبهة العدو لمعرفة الأماكن الضعيفة .

وعندما يجد الألمان الفرنسيين في نقطة متنبهين وأقوياء ، يحولوا هجومهم إلى مكان آخر أو يؤجلوا الهجوم بينما يستمروا في تهديد إضافي بالمدفعية . وكان يحالف الألمان دائماً النجاح في هجماتهم الصغرى متأكدين أن في إمكانهم إختراق خط العدو .

وقد أستغلوا منحنيات نهر الموز وصلاحيه الأرض هناك للقيام بتطويق العدو . وكان هناك تعاوناً وثيقاً بين المدفعية والمشاة الألمانية حققوا استخدام الإشارات المضئية (الصفرء والحمراء والخضرء) ، بينما لم تستطع قوات الحلفاء تحقيقها .

وقد قام الجنود الألمان أيضاً بتنظيم خنادقهم بدقة عالية . وعلى أى حال وخاصة فى الفردان فقد أستغل الألمان الفرص التكتيكية أفضل من أعدائهم . ولكن فى النهاية لم يستطيعوا تحطيم المقاومة الفرنسية فى الفردان ، لأن الوسائل التكتيكية المطبقة فى حرب الخنادق لم تعطى أى نتائج حاسمة . وقد جاء فى التاريخ الرسمى البريطانى عن منطقة « الباشنديل » خلال معركة « اير الثالثة » فى عام ١٩١٧ ما يلى : « لقد تحولت المنطقة القريبة من الجبهة والتي قصفت بالمدفعية إلى حاجز من المستنقعات الطويلة لأن جسور الأنهار إنهارت ، وأصبح عبور المستنقعات فى مدقات محددة جداً والتي أصبحت أهدافاً جيدة لمدفعية العدو ، فى نفس الوقت كان الخروج عن المدقات معناه المخاطرة بالموت غرقاً . » وفى هذه الأحوال البشعة حطم الأرهاق والضجر المعنويات ، ثلما حطمها الخطر والقذارة . وأخذ الحماس يضعف تدريجياً ، ولكن الشجاعة والتضحية بالنفس ظلت ثابتة ويتوجها الزمالة . وقد كتب سيدنى روجرسون يقول : « لم تكن حياة الخنادق كلها بشعة ، لأنها كانت مزيجاً لأشياء كثيرة ، الرعب والضجر . . . والفكاهة والزمالة . . . والمأساة والتعب . . . والشجاعة وقنوط . » وكانت هناك حقيقة غريبة ومخزية ، فمعظم الضباط الكبار كانوا يجهلون الأحوال التى يقاتل فيها الجنود .

وكانت الأوامر تصدر لتنفيذ الهجمات « بغض النظر عن الخسائر » وكانت تستمر لأيام متتالية . وكان هناك تناقض كبير بين معدن الرجال المقاتلين والقادة الذين أعطوا الأوامر . وقد كتب بصراحة م . ح . ب . نايلى : « كان الجندى هو بطل الحرب العالمية الأولى . » ويمكن أن نقول أن الجنود كانوا يستحقون قيادة أفضل لأنهم فى مجموعهم كانوا أفضل من قادتهم الكبار ، ولو أنه تواجد بين القادة بعض الاستثناءات القليلة جداً . وأصبح الموقف على الجبهة الغربية بطريقة الهجوم بالمواجهة ، حرب إنهاك وإختبار لتحمل كل جانب ودرجة توفر موارد . ومن المثير أن جنود الجانبين لم تفترهمهم ، فنجد أن الألمان نجحوا

بدرجة معقولة في القتال على الجبهتين ، وصمدوا في مواقعهم وقتلوا أعداداً كبيرة من أعدائهم أكبر مما فقدوه هم .

وإستطاع الألمان إمداد جبهاتهم بقوات ممتازة ويرجع ذلك لنظامهم في التجنيد الموضوع قبل الحرب ، وطول مدة تدريب جنودهم .

أما الفرنسيون فقد صمدوا أيضاً ، وقد إرتفعت معنوياتهم في الحقيقة بعد الفردان ، بالرغم من خسائرهم الفادحة في الإعداد أو في نوعية الرجال الذين قتلوا ، فكانوا في الواقع أفضل جنودهم العاملة .

أما البريطانيون فكانوا على وشك الوقوف على أقدامهم في الجبهة الغربية ، ففي ذلك الوقت قام « كتشنر » وزير الحرب بحملة للتجنيد مما أدى إلى تطوع ٤٠٠.٠٠٠ مدني من أجل الجيش الجديد^(١) وتم تدريبهم بقدر الإمكان وكانت معداتهم ناقصة ، وبالرغم من ذلك شعر البريطانيون على عام ١٩١٦ بقدرتهم على تحمل المسؤولية بالتساوي مع الفرنسيين .

وفي عام ١٩١٦ كانت قوات الحلفاء عند السوم تقريباً جميعها بريطانية ، ومعظمهم من الرجال الذين تطوعوا أخيراً .

وخلال تجارب عام ١٩١٦ تحول المسرح الأصلي للمتطوعين إلى عزم ضار شرس فقط . وقد تمتع كلا الجانبين خلال الحرب بموارد ضخمة من الأهالي والمعدات أمكن السحب منها .

ففي عام ١٩١٠ كان التعداد السكاني كالآتي : — ألمانيا ٦٥ مليون — فرنسا ٣٩ مليون — بريطانيا ٤٥ مليون^(٢) .

وكانت بريطانيا وألمانيا (عدا الولايات المتحدة) أعظم قوتين صناعيتين وتجاريتين في العالم .

وكان يدير الاقتصاد الألماني خلال الحرب الرأسمالي العبقري « والتراننو » والذي ساربه قدماً . وقد أعتمد الألمان من أجل الطعام على الأراضي الزراعية في وسط أوروبا بينما أعتمد الفرنسيون على أراضيهم أما البريطانيون ، فاعتمدوا على الاستيراد . وقد أثرت تعبئة

(١) كان الجيش البريطاني في ذلك الوقت حوالي ١٠٠ ر ١٠٠ فقط

(٢) لقد سحبت بريطانيا أعداد كبيرة من سكان مستعمراتها أكثر من الدول الأخرى « المغرب »

الملايين من الرجال على طبيعة المجتمع في الدول المشتركة ، لأن الصراع أصبح « حرب شاملة » بينما أخذت « الجبهة الداخلية » أهمية لم تأخذها من قبل . وظهر « دافيد لويد جورج » كزعيم حربي عظيم في بريطانيا ، وقد قوى بخطبه حماس الشعب ، حتى استطاع دفع زعماء النقابات ورجال الأعمال لمعاونته في إعادة تنسيق الصناعة لمقابلة إحتياجات الحرب ، بينما شجع النساء على العمل في المصانع والمكاتب لملأً أما كن الرجال الذين يقاثلون بعيداً . وهكذا نجد أن الحرب تركت علامات ثابتة على الحياة في بريطانيا كما أنشأت أشياء جديدة مثل التوقيت الصيفي وتحديد ساعات غلق المحلات العامة ، وكان الغرض من هذا هو جعل الناس تعمل أكثر .

وقامت الدعاية والرقابة الماهرة في كل البلاد بمنع الجمهور من إدراك ما يحدث حقيقة على الجبهة ، وعلى العموم كانت الأهالي متحمسة للحرب ، ولم تؤثر الغارات الجوية على حياة المواطنين .

(أنظر اللوحة رقم ٤٥)

باشنديل

ونجد أن قوة دول الحلفاء ودول الوسط تكافأة تماماً بالنسبة للقوة البشرية والإمداد بالمعدات ، بينما كانت الجبهات الداخلية تتمتع بروح معنوية عالية . وكانت الصورة في عام ١٩١٦ أنه من الممكن إستمرار حرب الإنهاك لبعض الوقت . وفي نهاية عام ١٩١٦ قام لندورف بأخبار الألمان بأنه لا يوجد صلح يحقق حلاً وسطاً ولذلك لا بد من كسب الحرب .

وفي ديسمبر من ذلك العام أصبح « لويد جورج » رئيساً لوزراء بريطانيا وأعلن نفس الكلام . وفي ذلك الوقت وصل في فرنسا شخصية جديدة إلى العلا ، وهو الجنرال « روبرت نيفيل » وقد رقى إلى رتبة القائد الأعلى مكان « جوفر » وذلك لأنه حصل في الفردان على نجاح مظهرى ، فقد إستولى على شريط من الأرض بخسائر قليلة نسبياً . وقد ادعى « نيفيل » معرفة « سر النصر » .

وكان « لويد جورج » قائداً ممتازاً للشعب البريطاني على الجبهة الداخلية ، ولكنه لم

يتفوق في الإدارة الحربية . وقد كره « لويد جورج » الحرب على الجبهة الغربية كما كان رأيه ضعيفاً بالنسبة لهيج .

وقد أقترح « لويد » في عام ١٩١٧ القيام بهجوم رئيسي على الجبهة الإيطالية ولكن الحلفاء لم توافق . بعد ذلك تأثر بنيفيل ، وقرر دفع الجهود البريطانية لمعاونة نيفيل ، وقام سرعان ليضمن أن يكون هيج تابعاً للقيادة الفرنسية العليا . وكنم نيفيل سره ، ولكنه سرعان ما كشفت أعماله عندما تولى القيادة وأنه لا يوجد لديه وصفه جديدة للنجاح . ومرة أخرى في عام ١ٹ١٧ ألقى الحلفاء ثقلاً أكبر من الرجال والمعدات ضد الألمان أكثر من السنة السابقة .

وفي ربيع عام ١٩١٧ كانت خسائر الفرنسيين فادحة أثناء الهجوم في معارك « أراس » و « آيسن » ، مما أدى أن الجيش الفرنسي بدأ يتصدع في مايو . وعزل نيفيل من القيادة وعين بدلامنه « بيتان » البطل الحقيقي لفردان . وكان هذا الوقت أحلك أيام الحلفاء فروسياً في آلام الاحتضار من الثورة بينما كانت الغواصات الألمانية تدمر سفن الحلفاء . في ذلك الوقت أصبح « هيج » المخطط الرئيسي لعمليات الحلفاء بالجبهة الغربية ، وكانت خطته القيام بهجوم قوى بالمواجهة ضد الألمان في الفلاندرز ، وهذا يعني أن البريطانيين سيسحبون الضغط من الفرنسيين ، وعلى كل حال كان الأمر الأكثر أهمية في نظره هو تجنب التشابك والتورط مع الفرنسيين . وكان يعتقد أنه إذا انتصر في هذا الهجوم فيستطيع طي جانب من المواجهة الألمانية ومعاونة القوى البحرية البريطانية في منع غواصات العدو من العمل في الموانئ الواقعة بجوار بحر الشمال ، وكمثال في الأراضي الواطئة .

وفي يونيو ١٩١٧ استولى البريطانيون على سلسلة « مسيني » المرتفعة ، وتبع ذلك فترة توقف ، حدث بعدها معركة « أيبير الثالثة » والتي استغرقت الفترة من ١١ يولييه حتى ١٠ نوفمبر ، وسقطت الأمطار في أغسطس ضعف المعدل العادي ، ثم هبطت من ٣ أكتوبر فصاعداً بدون توقف تقريباً .

وقد قاتل الرجال وماتوا في الطين وغرقوا في حفر الدانات . ويتذكر الكثير من الجنود هذه الأيام كلمة « باشنديل » برعب شديد وعلى كل فقد إنتهت ذروة الهجوم

بالاستيلاء على سلسلة «الباشنديل» ولكن ليس أكثر ، وقد فقد البريطانيون ٢٤٠٠٠٠ رجلًا وبالمثل فقد الألمان نفس العدد تقريباً .

وفي أكتوبر دفع « بيتان » بهجوم عند الجنوب الشرقى الأبعد أى عند « مالميسون » وكانت نتيجة هذا الهجوم مجرد إزالة لبعض النتوءات القليلة التى ليس لها قيمة من جبهة القتال .

وقد برهنت إستراتيجية الحلفاء لعام ١٩١٧ على أنها عقيمة . وعلى كل حال فليس معنى الإشارة إلى خطأ وفضاعة حرب الخنادق أن ننكر أن الروح القتالية للرجال كانت لا تزال تتحمل الحرب .

وقد أدبرت بعض العمليات بقدره فائقة ، وكان من الممكن تحت قيادة ماهرة الحصول على مكسب من الأرض ، ولكن سيكون محدوداً .

(أنظر اللوحة رقم ٤٥)

ظهور الدبابات

وقد أدى قتال عام ١٩١٧ والذي كان عبارة عن الخوض بصعوبة فى الوحل والدماء إلى تحطيم الفرنسيين ، لأنهم كانوا يندفعون منذ فترة طويلة فى هجمات إنتحارية ضد الخنادق وحدثت سلسلة من التمردات بعد هجمات « نيفيل » ولكن تخلص « بيتان » من العناصر السيئة وعالج الباقي حتى عادوا إلى حالتهم الطبيعية .

وفى خريف عام ١٩١٧ كان الجيش الفرنسى قد شفى تماماً . وظل البريطانيون مستبشرين كما كانوا سعداء بقدوم الوحدات الممتازة من الدومنيون لتدعيمهم مع وصول الأفواج الأولى من الأمريكيين . ولكن ما هو أكثر روعة ويلفت النظر هو تحمل الجنود الألمان للقتال فى الجبهة الغربية لمدة أربع سنوات على عاتقهم وبدون أى معاونة خارجية . وإذا ألقينا نظرة على معركة « أيبير الثالثة » لوجدنا أن الأمطار والوحل والبرد أكسبت « باشنديل » سمعة رهيبة فى نفس الوقت وصل علم التطبيق المتواصل المثابر والمستخدم إلى أعلى مستوى لمجرد إختراق مواجهة العدو . والرجل الذى حقق ذلك هو قائد الجيش البريطانى الثانى الجنرال « هربرت بلومر » والذي خدمت فى جيشه فى ذلك الوقت . وكان « بلومر » أحد القادة القلائل جداً فى الحرب ، فكان جندياً محترفاً وعلى درجة عالية بكل ما يعنى ذلك ،

ولذلك وثق به رجاله وأحترموه . وأخذ يخطط لمدة سنتين ويعد لعملية التلغيم والتي حققت له الإستيلاء على سلسلة المسيني المرتفعة في يونيه ١٩١٧ . فقام بحفر ١٩ نفقاً عميقاً وعلى مسافة أكثر من ١٠٠ قدم تحت الأرض ملاًها بمليون رطلاً من المواد المتفجرة . وجهازها لتنفجر كلها معاً في فجر صباح ٧ يونيه ، ونتج عن ذلك مجرد سير القوات البريطانية والإستيلاء على السلسلة .

وفي نهاية أغسطس أصبح جيشه الثانى رأس حربة في المعركة ، فعلى الفور تولى « بلومر » إدارة العمليات بنفسه ، وقد كتب تيران يقول : — « كان أسلوب « بلومر » هو التجهيز الواعى والتقدم المحدود خطوة خطوة أى حوالى ١٥٠٠ ياردة في المرة ، بعد أن يغطى ١٠٠٠ ياردة منها بغلالة أولية » . وقدر « بلومر » كثيراً أهمية المدفعية ، فقد طلب التجهيز لهجومه الأول ثلاثة أسابيع وأكثر من ١٣٠٠ مدفع هاويزر لتنفيذ الهجوم ووضع هذه المدافع مع ٢٤٠ مدفع رشاش على طول مواجهة الهجوم . وعندما حدث الهجوم الأول لبلومر كان نموذجاً للتجهيز والعزم .

وفي ٢٠ سبتمبر أثناء معركة سلسلة طريق مينين كانت مواجهة الهجوم ٤٠٠٠ ياردة ويقوم بالهجوم ٤ فرق^(١) وإستولت القوات البريطانية على مواقع العدو بمقاومة قليلة ، بينما كسب رجال « بلومر » في مرتين أخرتين مواجهة محدودة من الأرض عند غابة « بوليجون » و « بروودسيند » مستخدمين نفس الوسائل أى القيام من قبل بتهديد كثيف ومركز بالمدفعية .

وكانت نسبة الخسائر أقل بكثير من مثيلتها عند « السوم » وعند « ووترلو » . وبهذه الطريقة كان يتم كسب الأرض ، ولكن إذا كان سيتم بمعدل ١٥٠٠ ياردة كل ثلاثة أسابيع فمعنى هذا أن طرد الألمان إلى موطنهم سيأخذ وقتاً طويلاً . ولكن وصلوا أخيراً إلى ما يمكن في الحقيقة تحريك الحرب بسرعة أكثر .

وفي ٢٠ نوفمبر ١٩١٧ إستخدم البريطانيون الدبابات في الهجوم على « كامبرى » . وتقدمت ٣٠٠ دبابة في تشكيلات كثيفة للامام وبدون أى قصف تمهيدى للمدفعية . وأحدثوا في ذلك اليوم ثغرة عرضها ٤ أميال في خط هندبرج ، وخسروا ١٥٠٠ رجلاً بينما أخذوا

١٠٠٠ ر. ١٠ أسير ألماني و ٢٠٠ مدفع . وإخترقت الدبابات عمقاً وصل خمسة أميال ^(١) ويصف النقيب د . ج . بروني ^(٢) : « عبرت الدبابات الأحزمة الثلاثة للأسلاك الشائكة وبدأت الأسلاك وكأنها كنبات ذوو برة شائكة، وقامت الدبابات بفتح ٣٥٠ ممراً في الأسلاك للمشاة . وبينما كان المدافعون في الخندق الأول يخرجون بسرعة من ملاجئهم ودشمهم لمقابلة ضجة لهب الغلابة، عندما شاهدوا الدبابات القادمة و هي تقترب عليهم وكان منظرًا هائلاً ومرعباً . وفي الواقع فالقوائد التي كسبتها الدبابات ضيعتها بذلك عدم كفاءة القيادة العليا ، فكانت الاحتياطات الوحيدة المتوفرة لاستغلال النجاح هي الفرسان ذلك السلاح الذي أخفت خفة حركته التكتيكية في وجه الأسلحة منذ زمن بعيد .



أول أنواع الدبابات وهي تقوم بالهجوم

وفي ٣٠ نوفمبر قام الألمان بهجوم مضاد مفاجيء موجه إلى جنب ومؤخرة المنطقة التي كسبها الاختراق البريطاني وإستولوا عليها وبالتالى على المكاسب البريطانية . وعلى كل حال فكانت هذه المعركة هي علامة بارزة في تاريخ الحرب .

وفي عيد ميلادى عام ١٩٥٣ أهدانى سير ونستون تشرشل نسخة من كتابه « الأزمة العالمية ١١ - ١٩١٨ » ولاحظت أنه كتب في الجزء الثانى صفحة ١٢٢٠ عن معركة

(١) وهى المسافة التي أستغرقت لكسبها في أبريل أربعة شهور وكانت خسائرها ٣٠٠٠٠ جندي

(٢) كان حاضر هذه المعركة ورأى هجوم الدبابات «المعرب»

كامبرى يقول : « لقد إتهمت ونددت بدون إستثناء بكل هجمات الحلفاء الكبيرة فى أعوام ١٥ ، ١٦ ، ١٩١٧ . وقد وصفها بأنها عمليات تمت خطأ بدون فائدة وبتكاليف خيالية . وهنا أجد نفسى مضطراً للإجابة عن السؤال : — ما الذى كان يمكن عمله غير ذلك ؟ وأنا أجيب مشيراً إلى معركة كامبرى : — كان يجب عمل ما حدث فى هذه المعركة ، ومن الممكن أن يتم فى أشكال متنوعة وأكبر وأفضل كثيراً .

ولكن يجب أولاً يقتنع الجنرالات بأن الحرب ليست محاربة طلقات المدافع الرشاشة بصدور الرجال الشجعان » .

حروب الغواصات

أما بالنسبة لاستراتيجية الحلفاء فى البحر ، فقد توات البحرية البريطانية الدور الرئيسى ، بينما لعب الفرنسيون دوراً مفيداً فى البحر المتوسط ، كما عملت الأساطيل الروسية فى البلطيق والبحر الأسود .

وكانت سياسة بريطانيا البحرية عادة تأمين خطوط المواصلات البحرية والتي تعتمد هى وحلفائها عليها فى البقاء مع تدمير خطوط مواصلات العدو .

وفى عام ١٩١٤ كانت قوة البحرية البريطانية ٣٠ بارجة حربية و ٧ طرادات ثقيلة ضد ١٣ بارجة و ٣ طراد ثقيل لدى الألمان ويرجع الفضل فى ذلك لبرنامج « فيشر » من قبل الحرب والخاص « بالدريدنوت^(١) . وبدأ البريطانيون فى كنس البحار من العدو .

وفى ١ نوفمبر تقابل سرب ألمانى بقيادة الأدميرال « فون سبي » مع قوة بريطانية ضعيفة بقيادة « كرادون » خارج « كورونل » وغرق الألمان طرادين بريطانيين .

وفى ديسمبر تقابل « فون سبي » مصادفة مرة ثانية مع البريطانيين عند جزر « فولكلاند » وتم غرق أربع من كل خمس سفن ألمانية .

ومن ذلك الوقت قررت القيادة العليا الألمانية بعدم المخاطر بأسطول أعلى البحار ضد البحرية البريطانية مع إبقائها بدلاً من ذلك مستعدة للعمليات فى البلطيق ، ليصبح عنصر التهديد دائماً ، ويصلح ليكون عنصراً للمساومة فى أى مفاوضات للهدنة التالية . وهكذا

(١) البوارج الثقيلة

ترك الألمان البريطانيون أحراراً لتنفيذ سياستهم التقليدية لحصار أسطول العدو في موانئه وتدميره إذا جرؤ على الخروج .

وعلى كل حال لم تكن طريقة الحصار هي نفس طريقة الحصار أيام الشراع بأن يبقى الأسطول المحاصر خارج موانئ العدو ، لأن هذا العمل يكون خطيراً جداً لوجود الغواصات والألغام .

وبدلاً من ذلك أقام البريطانيون حصاراً غير مرؤ ، وذلك بتركز عمليات الأسطول الكبرى على قاعدة « سكابا فلو » في « الأركنيس » المواجهة للبلطيق . وأصبح النشاط الرئيسى للسفن البريطانية هو إعتقال السفن التجارية الألمانية وتفتيش السفن المحايدة ومهاجمة الغواصات الألمانية .

وتمت عمليات مختلفة في بحر الشمال بين الطرادات الثقيلة ، ولكن لم يحدث غير مواجهة واحدة فقط للأسطولين على مستوى كبير وذلك خارج « جوتلاند » في عام ١٩١٦ . فقد غامر الأدميرال الألماني « سيشر » بالخروج ولكن لم ينوِ الاشتباك في معركة كاملة ، بينما كان الأدميرال البريطاني « جليكو » يدرك خطر الطوربيدات الألمانية ، وأن البريطانيون إذا انتصروا فلن يكسبوا كثيراً أما إذا هزموا فسيخسروا كل شيء . وعلى ذلك إشتبك الأسطولان إشتباكاً خفيفاً خلال ٣١ مايو — ١ يونيو ، ثم قاما بالابتعاد . وبعد هذه المعركة بقي الأسطول الألماني بالكامل تقريباً بدون عمل حتى أن البحارة تمردت من مجرد الضجر في عام ١٩١٨ .

وقد قبلت ألمانيا بدون تحدى تقريباً سيادة بريطانيا على سطح البحار ، ولكن الأمر مختلفاً تحت سطح البحار . فقد رد الألمان على الحصار البريطانى بحرب الغواصات . وقد أدى البحث والتجربة إلى تطوير حديث للغواصة حتى أصبحت سلاحاً ذا تأثير فعال . وتكمن قوتها الضاربة في الطوربيدات التي تطلق بواسطة الهواء المضغوط من أنابيب في مقدمة الغواصة . وكان يوجد بأكثر الغواصات أربعة أنابيب تحمل كل منها طوربيدين وبذلك يمكن إطلاق ٥٠٠ رطل من مادة ت . ن . ت بسرعة ٣٦ ميل في الساعة ولمسافة ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ ياردة .

ويمكن للغواصة أثناء سيرها على عمق ٢٥٠ قدماً مراقبة كل ما هو على السطح خلال البيرسكوب .

وفي عام ١٩١٤ كان لدى بريطانيا في الواقع عدداً من الغواصات أكثر من ألمانيا^(١) .

ولكن في نهاية ١٩١٤ أدخل الألمان أنفسهم في برنامج كبير لحرب الغواصات ، فبنوا بسرعة عدداً كبيراً من القوارب «ي^(١)» وكان حجمها أكبر وقوة ضاربة وحمولة أكثر مما سبق ، في نفس الوقت بنى أنواع أخرى مثل «ي ١٠٠٠» وكانت عبارة عن غواصات صغيرة استخدمت لحماية الموانئ ورص الألغام .

وفي أوائل عام ١٩١٥ افتتح الألمان حملة الغواصات ، وكانوا يأملون في ضرب الأسطول الكبير ، ولكن بالرغم من الأخطار والمحاولات ، لم تنجح الغواصات مطلقاً في إختراق القاعدة البريطانية في «سكابافلو» ، إلا أن تأثير الغواصات أصبح شديداً جداً في هجومها على السفن التجارية .

وكانت السياسة الألمانية في عام ١٩١٥ هي «حرب الغواصات بدون قيود» أي الضرب فوراً بمجرد رؤية السفن التجارية المعادية والمحايدة وبدون إنذار ، وطبعاً هذا ضد القانون الدولي ، وقد عارضت أمريكا المحايدة في ذلك بشدة حتى حدد الألمان حملات غواصاتهم . وبالرغم من ذلك استمر إغراق كميات ضخمة من سفن الحلفاء في بحر الشمال وفي المداخل الغربية بين إيرلندا ویشانت وفي البحر المتوسط .

وعلى ربيع ١٩١٧ بدا وكأن عمليات الغواصات ستكسب الحرب لألمانيا ، ففي إبريل فقط دمر أكثر من مليون طن من سفن الحلفاء والمحايدین . وأدى هذا أن كل أربعة سفن تبحر من الموانئ البريطانية تغرق واحدة منها ، ولذا رفضت بحارة السفن الأجنبية الإبحار إلى إنجلترا .

وفي ذلك الوقت قرر الألمان عودة حرب الغواصات الغير مقيدة على أمل إنهاء الأمور تماماً .

وقد أخذ إكتشاف أفضل الوسائل المضادة للغواصات وقتاً طويلاً وعلى كل فقد رصت الألغام بغزارة ، وكانت السفن تبحر في خطوط متعرجة مع إلقاء عبوات الأعماق .

(١) كان لدى بريطانيا ٣٦ غواصة أما ألمانيا فكان لديها ٥٨

(٢) كانت الغواصات تسمى بقوارب «ي»

وترب نهاية الحرب اخترع « الأزيك » ، وهو جهاز يمكن كشف الغواصات القريبة بإرسال موجة صوتية حاملة .

وفي الحقيقة لم تؤثر هذه الوسائل في الغواصات . وأخيراً في اللحظة النهائية الحرجة فقط إكتشف « لويد جورج » الإجابة .. وكانت الإجابة القوافل . فقد أمر « لويد جورج » بالرغم من عدم موافقة الأدميرالية والتي لم تقدم أى حل ، بإنشاء نظام القوافل وذلك في نهاية إبريل عام ١٩١٧ ، فبالرغم من إزدياد عدد الغواصات العاملة إلى ١٤٠ غواصة في شهر أكتوبر ، فإن معدل الخسائر في سفن الحلفاء قد هبط كثيراً في ذلك الوقت ، كما زاد معدل تدمير غواصات العدو . فكان من الصعب على الغواصات مهاجمة القوافل لأن قطع السفن التجارية كان يصحبه سفن من البحرية لديها كل وسائل الدفاع المتوفرة ، وقد أعطى نجاح نظام القوافل ضد الغواصات شعاعاً من الضوء للحلفاء في نهاية عام ١٩١٧ بينما أعطى قرار الولايات المتحدة الأمريكية دخول الحرب^(١) إلى جانب الحلفاء في إبريل أملاً كبيراً للحلفاء في النصر وقد ساهمت القوى البحرية البريطانية مساهمة فعالة في مجهود الحلفاء الحربى ، فسيطرت على البحار مكن نقل القوات إلى المسارح المختلفة مع ضمان تدفق الأمدادات باستمرار .

وعلى كل حال فقد لعبت القوى البحرية البريطانية دوراً آخر لبريطانيا ألا وهو العمل كبنك قوى للحلفاء ، علاوة على أن الحصار البريطانى أضعف في نهاية الأمر قوى الوسط بدرجة خطيرة ، بالرغم من إمتلاك قوى الوسط لموارد محلية هائلة من الطعام والمواد . في نفس الوقت أدت حرب الغواصات ولأكثر من سنتين إلى تهديد خطير للحلفاء ، وفي نهاية سددوا ضربة مميتة لهم علاوة على الضربة القاتلة الأخرى بدخول الأمريكان الحرب إلى جانب الحلفاء .

(أنظر اللوحة رقم ٤٧)

التخطيط الروسى

لقد لعبت القوة الجوية دوراً صغيراً خلال حرب ١٤ - ١٩١٨ ، وأستخدمت الطائرات لمعاونة عمليات الجيش والبحرية . وكانت الطائرة مفيدة جداً في الاستطلاع ومهاجمة

الأمداد ، وعلى كل وحتى السنه الأخيرة من الحرب لم تشترك الطائرات في تكتيكات الحروب البرية إلا قليلا . وكانت هناك أعمال بطولية قام بها بعض الطيارين الأبطال المسمون « بالاس »^(١) ولكنهم في الواقع لم يؤثروا تأثيراً كبيراً . أما قصف الطائرات فلم يكن له أى تأثير مادي حقيقى بالرغم مما سببته غارات زيبلى من دعر كبير على المدن البريطانية . وعلى كل حال فعلى عام ١٩١٨ تطور سلاح الطيران الملكى وأصبح قوة كبيرة .

وسوف تصبح القوة الجوية سلاحاً جباراً خلال حرب ١٩٤٥/٣٩ ، كما سنرى في الجزء القادم . وكانت الجبهة الشرقية منطقة حسم للحرب لمن ينتصر فيها . وقد أستخدمت فيها نفس تكتيكات الجبهة الغربية ولكن حدثت تحركات أكثر في تلك الجبهة ، فنجد أن الجبهة تحركت للأمام وللخلف لمسافة ٥٠ ميلاً وفي بعض المرات أكثر من ذلك .

كانت المواقع الدفاعية في تلك المساحات الواسعة غير عميقة ، وفي نفس الوقت أفتقرت القوات النمساوية والروسية إلى المعدات والتدريب . وأدى هذا أن أستطاع المهاجمين كثيراً دفع المدافعين للخلف لمسافات طويلة .

وكانت القيادة في هذا المسرح تختلف عن مثيلتها في الغرب أى من الجهل المطبق إلى العبقرية النادرة ، في نفس الوقت كانت الحرب على الجبهة الروسية أكثر فظاعة من الحرب في الغرب ، ويقال أن روسيا خسرت وحدها مليونين من الرجال في عام ١٩١٥ ومليون آخر في عام ١٩١٦ . وبدلاً من أن يستغل الألمان النصر عند « تانبرج » بالتقدم إلى داخل بولندا ، توجهوا لنجدة النمساويين في غاليسيا .

وهناك عاود الروس الهجوم في ربيع ١٩١٥ ، فحول « فلاكنهاين » أعداد كبيرة من القوات الألمانية إتجاه الشرق^(٢) بواسطة السكة الحديد لتوجيهه هجوماً كبيراً ضد الروس . وفي عام ١٩١٥ نجحت الحملة الألمانية ضد هذا العدو الخاص . . وفي مايو قامت قوات

(١) وهو الطيار الذى يسقط خمس طائرات معادية على الأقل .

(٢) لم يرتدع فلاكنهاين بهجوم جوفى في الغرب .

ألمانية ونمساوية مشتركة تحت قيادة « ماكنسين » بالهجوم على جبهة الروس^(١) بمواجهة ٢٨ ميلا عند « جورليس »، وهذه هي المرة الوحيدة في الحرب التي تحطمت فيها جبهة وأخرقت بعرض وعمق كبيرين لدرجة أن المدافعين لم يستطيعوا سد الثغرة .

وطرد الروس إلى خارج غاليسيا وبعدها أجبروا على التخلي عن معظم بولندا ، وتبع هذا الإنسحاب ١٠ ملايين لاجيء مدني .

وعلى كل حال لم تكن هذه هزيمة حاسمة لأن الروس كانوا ينسحبون إلى بلادهم حيث يوجد إحتياطى من البشر لا ينتهى ، بينما أخذ يتحسن إنتاجهم للأسلحة . وفى سبتمبر أقيمت جبهة جديدة على مسافة ٣٠٠ ميل شرق الجبهة القديمة .

وكانت تتميز بسهولة الدفاع عنها لقصرها وليس لها أجباب معرضة . وعرض الألمان إجراء تسوية سلمية ولكن القيصر « نيكولاس الثانى » والذي كان يقود شخصيا القوات الروسية ، رفض الموافقة على فكرة التضحية بالأراضي الروسية والتخلي عن حلفائه الغربيين .

وعلى كل حال فقد أثبت نيكولاس أنه قائد ضعيف جداً فى قيادة الجيوش الكبيرة لأن الملوكة والأباطرة فى الأزمنة الحديثة غير مدربين على هذا العمل ، فالقوات الروسية تحت قيادته لم تعطى أى إستراتيجية مترابطة .

وكانت الروح المعنوية للقوات الروسية لازالت مرتفعة فى نفس الوقت تحسن موقف الأمداد . فبينما كانت القيادة الروسية تتخبط أكثر من ذى قبل ، فنجد مثلاً فى مارس ١٩١٦ ألقيت حشود من الرجال ضد أقوى أجزاء الجبهة الألمانية فى الشمال مما أدى أن أصبحت الخسائر الروسية إلى الألمانية بنسبة ٥ : ١ . وبعد هذا الفشل بقليل طلبت إيطاليا من روسيا نجدها بمهاجمة النمساويين ، وقد أستجاب لهذا الطلب « بروسلاف » قائد مجموعة الجيوش الروسية الجنوبية - الغربية .

وعلى كل حال كان الجنرال « الكيمى بروسلون » أحد القادة القلائل المستثنين ، وقد لمعت قدراته فى ظلام سوء الإدارة الحربية لمعظم حرب ١٤ - ١٩١٨ .

وكان يتمتع بسجل رائع للنجاح في القيادة قبل عام ١٩١٦ . ففي الشهور الأولى للحرب تقدم بجيشه إلى داخل غاليسيا ، وأستولى على « ليرج » بعد ٣٠ يوما من إعلان الحرب . وقد أحرق بعد ذلك سهل المجر مسببا ذعرا للعدو . وقد إضطّر لإجراء إنسحاب عام عندما تدمر الجيش الموجود على يمينه ، وبالرغم من تعرض جانبه الأيمن لهجمات متفرقة من العدو ، علاوة على نقص الذخيرة لديه ، فقد أستطاع « بروسلاف » الإنسحاب بجيشه خلال أرض صعبة وفي نظام جيد ، وفي الواقع كان قادرا على هزيمة الألمان عند نهر « السان » .

وكان رجلا مرحا وعطوفا وهي صفات ساهمت كثيراً في قدرته العسكرية . وبعد أن تولى القيادة في عام ١٩١٦ ، كان أول عمل له قيامه بالتفتيش شخصيا على قواته في الجبهة وبذلك عرف قواته وأصبح قادراً بالتالى على معرفة مايتوقع أن يأخذه منها .

وكان « بروسلاف » يقوم دائما بدراسة ماهرة للأرض ، ودراسة أسلوب قتال العدو ، علاوة على وجود هيئة قيادة لديه ذات كفاءة عالية . وفي الواقع كان « بروسلاف » جنديا على درجة عالية من الاحتراف . وكانت خطته القيام بالهجوم على نقط متعددة وفي وقت واحد ، مدركا قيمة المفاجأة التي ستتحقق من ذلك ، على أن يكون منها هجومين رئيسيين في قطاعين فقط : على اليمين في مواجهة « لوك » وفي اليسار في وديان « الدنيستر » و « البروت » ، وقد ساعده على ذلك توفر تفوقا عدديا في جبهته : — ٤٠ فرقة روسية كبيرة في مواجهة ٣٨ فرقة نمساوية .

وتعتبر حملته ضد القوات النمساوية — المجرية مثلاً ممتازاً للقيادة وإدارة الحرب . وهي تستحق دراسة أكثر مما خصصت لها في هذا الفصل . وعموما فقد بدأت الحملة في ٤ يونية ١٩١٦ . وقد تأرجح هجوم « بروسلاف » للأمام والخلف إلا أنه في أكتوبر ١٩١٦ ذبل عند أعالي جبال « الكروبات » ، لأن التدعيمات الألمانية أدت إلى تقوية المقاومة في نفس الوقت أصبحت المواصلات الروسية مجهدة حتى قاربت الوصول إلى نقطة التخطيم . وفي النهاية توقفت الجيوش الروسية بعد أسرها ٤٠٠.٠٠٠ أسير و ٥٠٠ مدفع ، وبعد ذلك بدأ الانسحاب الروسى .

وقد عبر بروسلاف عن رأيه في هذا الموضوع بقوله : « لوصم « نيكولاس » على

قيام بهجوم رئيسي في الشمال في الوقت الذي أقوم به بهجوم لأدى هذا إلى هزيمة قوى وسط في كل مكان على الجبهة الشرقية « وطبعاً هذا أمر بعيد الاحتمال ولكن إستياؤه ما يبرره . وبعد مرور سنتين ، خدم بروسولوف مع سيد آخر هو « تروتسكي »

القطار المغلق المتجه إلى روسيا

(أنظر اللوحة رقم ٤٧)

لقد أنقذ المجاهد الروسي^(١) في عام ١٩١٦ ، كل من فرنسا وبريطانيا ، لأنه أجبر الألمان على إبقاء قوات كبيرة على الجبهة الشرقية ، ولكن هذا المجاهد أيضاً كان سبب كارثة ديمراتورية النمساوية لأنه أدى إلى الأنهيار الكامل بين شعبها وأيضاً جيشها ولكنه في نفس الوقت كان السبب في إنهيار روسيا نفسها ، فقد أدى تجمع مليون أصابه حرب عام ١٩١٧ علاوة على إجهاد الإنتاج مع وجود تغفن في الحكومة مع وجود نقص في الطعام خلال الشتاء إلى التأثير على الشعب الروسي وحدث اضطرابات في المدن ، ونتج عن ذلك أن أجبر القيصر على التنازل في مارس ١٩١٧ .

وأستغل « لاندورف » الفرصة ليضع « القطة بين الحمام » فسمح للينين بالسفر من سويسرا خلال ألمانيا في قطار مغلق إلى روسيا .

في ذلك الوقت لم تخرج روسيا تماماً من الحرب ، ولكن كان النظام في الجيش ينهار عندما دفع « كرنسكي » القوات الروسية مرة أخرى ضد الألمان في يولية . وقد دمر هذا لمجوم الأخير الجيش الروسي وفتح الطريق للثورة البولشفية . وفي ٨ نوفمبر تعين الكونجرس سوفيتي مكان الحكومة في « بتروجراد » حيث قرأ عليهم لينين « مرسوم السلام » . قد أمل البولشفيون في السلام . . . « سلام عادل لكل الأمم بدون إستثناء » . ومن طبعي لم يكن الألمان في موقف صعب مثل الروس ، ولذلك فالشروط التي أملاها عند برست — لينوفسك « في مارس ١٩١٨ ، أقتطعت من الإمبراطورية الروسية السابقة ربع سكانها ، وأراضيها الصالحة للزراعة ، وثلاثة أرباع مواردها من الفحم والحديد نصف مصانعها .

وقد سبق أن ذكرت في خطوط عريضة الغرض الإستراتيجي العام من العمليات في

(١) كان هذا المجاهد الروسي نتيجة لتصميم القيصر في البداية وبروسولوف في النهاية « المرب »

جنوب شرق أوروبا ، ولكن الحملة البريطانية في عام ١٩١٥ تستحق أن نفحص بعض تفاصيلها . وفي ديسمبر ١٩١٤ سأل الروس الحلفاء الغربيين معاونتهم للقيام بعمليات ضد الأتراك وقد استقبلت الفكرة بحماس في إنجلترا وخاصة من « كتشنر » و « فيشر » و « تشرشل » ، لأن الحلفاء ستحصل على فوائد إستراتيجية كثيرة بالسيطرة على جنوب شرق أوروبا ، كما أن في هذه المرحلة كان مطلوب تحقيق أى نجاح ومن أى نوع وخاصة أنه إقترضوا أن تركيا أقل دول الوسط قوة ومناعة .

في ذلك الوقت تحسن تدريب وتنظيم الجيش التركي بفضل البعثة العسكرية الألمانية برئاسة « ليان فون ساندروز » ، علاوة على تميز الجندي التركي بالشجاعة الملحوظة وذا ضبط وربط عالى .

ولكن كان الجيش التركي يفتقر إلى المعدات فلم يتسلح بالبندقية الموزرا الحديثة سوى القواد الممتازة فقط ، والأكثر من ذلك الخسائر التي منوها في قتال الشتاء ضد الروس القوقاز والتي بلغت ٥٣٦٠٠ رجل من ٦٦٠٠٠ . وبالرغم من هذه الخسائر كانوا مضطرون لدفع قوات على الجبهة الروسية مع وضع حاميات في الأمبراطورية العثمانية الممتدة ، وابتدأ في بداية عام ١٩١٥ كان يحرس المداخل إلى القسطنطينية من خلال الدردنيل فرقتا فقط وقليل من القلاع الخربة المتهدمة .

وفي يناير ١٩١٥ قرر مجلس الحرب البريطاني بعد بعض التردد ، أن الحملة ضد القسطنطينية يجب أن تكون بحرية خالصة . ولكن في ١٩ فبراير عندما قصفت سفن البحرية البريطانية القلاع الخارجية للدردنيل تغيرت الخطة وصدرت الأوامر بتكوي جيش مصر تحت قيادة الجنرال « سيرايان هاملتون » للقيام بعملية برمائية تهدف إلى قتل عبر خلال الدردنيل ، على أن يكون جيش « هاملتون » مستعد لبدء العمليات في ٨ مارس ، ولكن تأخر بسبب التحميل الخاطئ لسفن النقل حيث وضعت معدات حيوية معه في قاع عتابر التخزين .

وبالرغم من ذلك دخلت مرة ثانية السفن الحربية المضائق الضيقة ، ولكن عندما أغرق الألغام ثلاث سفن قرر الأدميرال « ديروبيك » عدم المخاطرة وإنسحب بالتالى . وفي الحقيقة

نفذت الذخيرة من الأتراك ، وبالتالي كان من الممكن للسرب الأبحار حتى القسطنطينية
ون مقاومة ، ولكن ضاعت الفرصة . وكانت نتيجة هاتين العمليتين البحريتين الغير
سقتين هو ضياع المفاجأة وإعطاء إنذار للأتراك ليقوموا دفاعاتهم الحارسة للمضايق .

مصطفى كمال أتاتورك

وقامت البعثة الألمانية خلال مارس وأبريل بزيادة عدد القوات التركية الموجودة على
به جزيرة « غاليبولى » إلى ٦ فرق ، بينما بذل الأتراك مجهودا كبيرا فى حفر الخنادق
مجهز الشاطئ للدفاع .

ورفع الحلفاء قواتهم إلى ٨٤ سفينة و ٥ فرق وعدد كبير من حيوانات النقل والمركبات .
فى الحقيقة كانت هناك فرقة عاملة واحدة فى هذه القوة بينما كانت باقى القوات عبارة عن قوات
ليمية أو من الدومنيون . وكلها تفتقر إلى التجربة والخبرة ، فى نفس الوقت لم تدرس
لم تتدرب مطلقا على عمليات النزول على الشاطئ المعادى تحت ضغط مقاومة . وغادر
« هاملتون » لندن بدون أركان حرب وبدون الخرائط الملائمة بل وبدون معلومات عن
دفاعات التركية غير التى يعرفها فى عام ١٩٠٦ .

وعلى أى حال فى ٢٥ إبريل تم الأنزال الأولى وفاجأ الأتراك ولكن سرعان ما هبطت
نوة الدافعة الأولى وتحولت العملية إلى إختناقات حرب الخنادق . وأستطاع مصطفى كمال
أتورك القائد التركى من صد الأستراليين والنيوزيلنديين شمال « جاباتيب » ومن يومها
ذاعت شهرته .

وتكرر إقتحام المواقع الدفاعية التركية بالمواجهة ، ولكنها لم تنجح وكانت خسائرها باهظة
مثل مثيلتها فى الجبهة الغربية ، علاوة على أن الأحوال الطبيعية فى المسرح التركى كان أكثر
مؤافلا يوجد للحلفاء منطقة خلفية آمنة ولا حماية من الشمس المحرقة .

إستمر الأتراك فى جلب التعديلات والأمدادات حتى أصبح لديهم فى يوليه ١٥ فرقه ،
بما كان لدى الحلفاء ١٢ فرقة . وفى ٦ أغسطس قام « هاملتون » بهجوم مزدوج ، الأول
من خليج « الأنزاك » إلى سلسلة « سارى بور » حيث تقدمت قوات ليلا بصعوبة خلال
رض جبلىة ، وفى المرحلة الأخيرة أخطأهم سفنهم وقصفتهم بالنيران ، أما الهجوم الثانى

فكان من خليج « سوفلا » تحت قيادة الجنرال « ستوبفورد »^(١) حيث نزلت القوات بدون أى خسائر تقريباً، حيث هنا هم ستوبفورد وأمر لهم بفترة راحة. ولم يتوجه « ستوبفورد » إلى الشاطئ ولكنه بقي في سفينته ليأخذ فترة راحة، ولكن « هاملتون » أيقظه من نوم معترضا بأدب على عمله هذا. عندما حاولت القوات البريطانية التقدم مرة ثانية كان الدفاع التركي قد تنبه وأصبح قويا جداً .

وعزل « ستوبفورد » من قيادته ، وأتذكر أننى رأيته في لندن في نفس الشهر وه مرتدى ملابس المدنية ، فاستمتجت ما يدور في منطقة غاليمولى .

وظلت القوات البريطانية طوال الخريف في منطقة غاليمولى وكانت تفتقر إلى العزم ، وفك السياسيون في إنجلترا أكثر من مرة في انسحاب هذه القوات ، ولكنهم خشوا أن تفة بريطانيا هيبتها بهذا العمل ، مما أدى أن ظل الرجال في غاليمولى يموتون . وبناء على طلب جوفر ألقيت قوات بريطانية أكثر في هجوم الخريف على الجبهة الغربية ، وفي النهاية أجلى الحملة في تركيا عند نهاية السنة ، ونفذت هذه العملية على أى حال جيداً .

وكانت النتيجة إفساد فكرة إستراتيجية رائعة تسبب فيها القادة الذين عملوا جميع الأخطاء الممكن تصورها عند التنفيذ .

لورانس والعرب (أنظر اللوحة رقم ٤٨)

وفي عام ١٩١٥ فتح الحلفاء منطقة عمليات ثانية في البلقان وذلك من « سالونيك » بينما كان الألمان يجهزون لتسديد ضربة إلى الصرب ، وإمداد الأتراك بمعونة قوية ، في نفس الوقت أنضم البلغاريون إلى صفوفهم .

وفي أكتوبر نزلت قوة الحلفاء في « سالونيك » لمعاونة الصرب ولكن البلغاريون دفعوا إلى الحلف . وقد بقيت هذه القوة في « سالونيك » حتى نهاية الحرب بالرغم من إقتناع بعض القادة بأن ليس لها فائدة هناك . وعلى كل حال زادت هذه القوة لتصل إلى حوالى

(١) كان من قبل قائد برج لندن ولم يقود قوات في الحرب قبل ذلك

(٢) كان عددهم ٢٠٠٠٠ مقاتل .

٥٠٠.٠٠٠ رجل وكانوا لا يخدمون أى هدف مفيد ، وقد سماهم « كليمينصر » بـ « بستانية سالونيك » .

وقد قاموا بحفر الخنادق ضد هجوم لم يكن لدى الألمان والبلغار أى نية للقيام به . وأعتاد ممثلى الفـكاهة فى قاعات الرقص فى عام ١٩١٧ بلندن أن يغنوا : — « إذا كنت تريد أجازة فأذهب إلى سالونيك » . بينما سعى الألمان « سالونيك » بـ « أكبر معسكراتهم للأعتقال » .

وفى سبتمبر ١٩١٨ فقط قامت هذه القوة بهجوم جدى تحت قيادة الجنرال « فرانشت دى أسبيرى » ، إلى داخل بلغاريا فشطرت الجيش البلغارى إلى نصفين ، وعلى كل كانت الحرب فى مقدونيا خاطئة فى مفهومها . ودخلت دولة أخرى الحرب فى جنوب شرق أوروبا وهى إيطاليا .

وقدر الحلفاء أن إيطاليا ستهاجم النمسا مستفيدة بالباب الخلفى ، ولكن الإيطاليون أغتروا بقوتهم وأعتقدوا أنهم يجب أن يمثلوا دور القوة العظمى .

وعلى كل حال لم يستفد الحلفاء من الإيطاليين بل كانوا يمثلون عبئاً إقتصادياً كبيراً عليهم ، فى وقت كان البريطانيون يمدون فرنسا أيضاً بالامدادات .

وتعاونت البحرية الإيطالية فى البحر المتوسط ، بينما كان الجيش الإيطالى يفتقر للمعدات بعد الحرب الليبية ١١ — ١٩١٢ . وفى الحقيقة كان الباب الخلفى للنمسا عبارة عن سد من الجبال تمسك به النمساويون بسهولة ضد الإيطاليين ، وفشل الإيطاليون فى دفع النمساويين من مواقعهم الجبلية فى معارك « أسونزو » المتكررة .

وفى أكتوبر ١٩١٧ تدخل الألمان وقاموا بهجوم مضاد قوى عند « كابوريتو » ، حيث دفع الإيطاليين للخلف لمسافة ٧٠ ميلاً وخسروا أثناء ذلك ٢٠٠.٠٠٠ مقاتل إيطالى ، بينما فر الكثيرون قبل أن تستطيع القيادة الإيطالية إقامة مواجهة أقصر على نهر « البياف » . وتعتبر معركة « كابوريتو » من الفترات المريعة للحلفاء فى نهاية عام ١٩١٧ . وكانت الحرب بصفة عامة فى المسارح خارج أوروبا لها قيمة إستراتيجية قليلة ، إلا أنها أنجبت بعض القادة الممتازين ، وخاصة القتال الذى دار فى الشرق الأوسط ضد الأتراك .

في عام ١٩١٦ توفر للبريطانيين في مصر ٢٥٠٠٠٠ رجل تحت قيادة الجنرال «موراي»، وكان الغرض الرئيسي لهذه القوة هو إبعاد الأتراك عن قناة السويس .

وفي شتاء ١٩١٦ تقدم موراي إلى صحراء سيناء ليستطيع الدفاع عن قناة السويس . وتم وضع الخطط أثناء ذلك مع حسين شريف مكة للقيام بثورة عربية في الحجاز مما سيؤدي إلى جذب إنتباه الأتراك بعيداً عن القوة البريطانية ، وفي يونيو ١٩١٦ نشبت الثورة العربية في مكة .

واندفعت الأتراك بأسلحتهم المتفوقة جنوباً من المدينة إلى مكة حيث تفرقت القوات العربية ، وقد أدت الفظائع التي قام بها الأتراك إلى إنتشار الثورة .

وفي أواخر عام ١٩١٦ أيدت بريطانيا العرب وأرسلت لهم النقيب ت . لورانس الذي يبلغ من العمر ٢٩ عاماً . وكان يعلم لورانس الكثير عن العرب من دراساته ورحلاته السابقة إلى هناك . وجد لورانس أن القوات العربية مسلحة تسليحاً بدائياً وغير منظمة وتتميز بخفة الحركة ، فقرر إستخدامها كقوة مستقلة غير نظامية بدلا من مواجهة القوات التركية العاملة مباشرة . وكانت إستراتيجيةه تتضمن القيام بغارات من نوع إضرب ثم إهرب ، ويتم ذلك على خطوط المواصلات التركية الطويلة وخاصة ضد سكة حديد الحجاز ، مع نشر الثورة شمالا حتى دمشق مستخدماً في ذلك الوسائل الدعائية . وفي يناير ١٩١٧ نجحت عملياته الأولى مع فيصل (ابن حسين) نجاحاً مذهلاً .

وقد قام لورانس بالالتفاف ٢٥٠ ميل حول جانب القوة التركية المتقدمة إتجاه مكة مهدداً بذلك أى تحرك في إتجاه العقبة مستخدماً طريقاً ملتوياً حتى يتجنب الأتراك وفي نفس الوقت إنضم إليه بعض رجال القبائل .

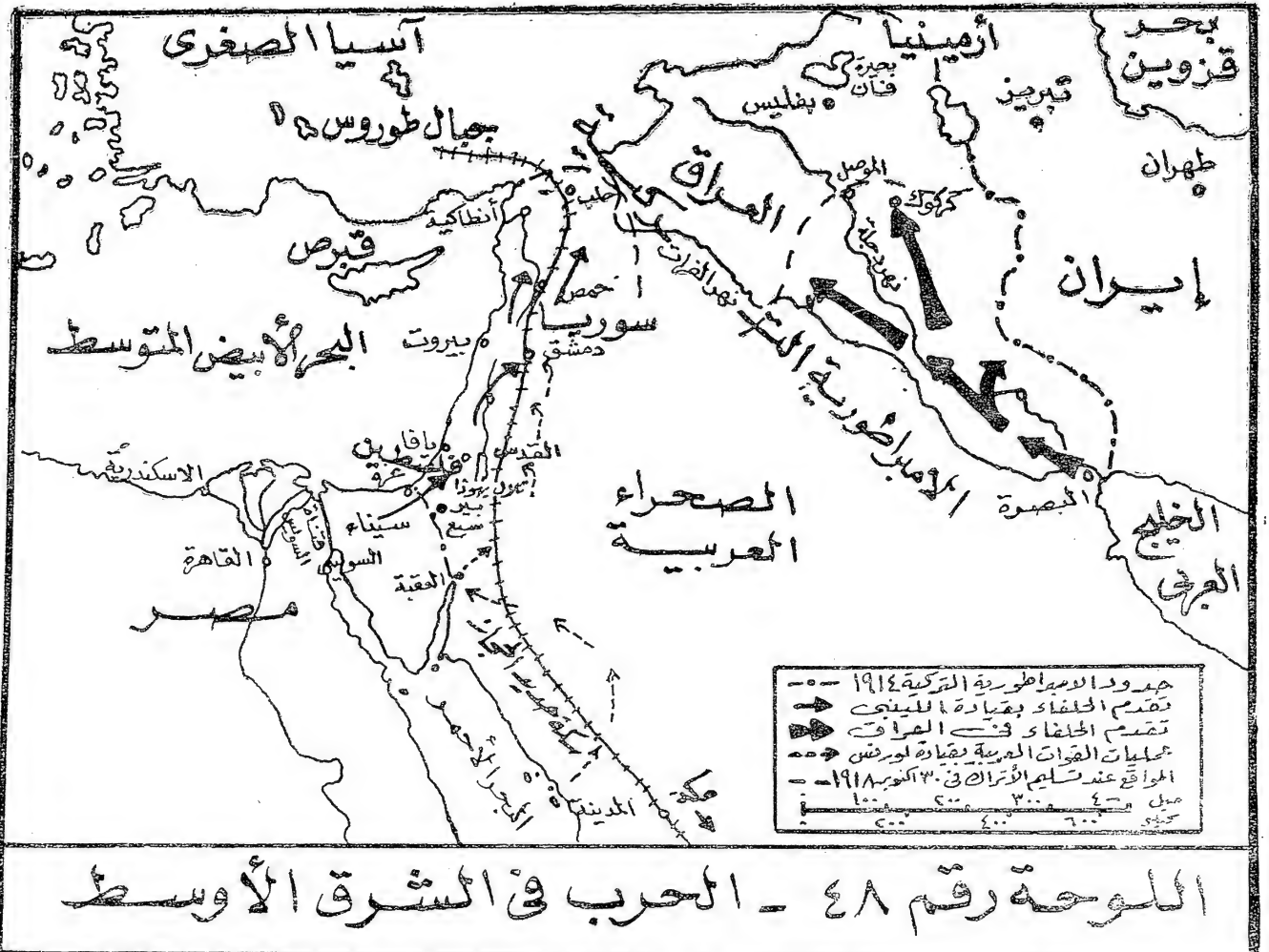
وفي يوليه ١٩١٧ أستطاع لورانس الأسقيلاء على العقبة لأنها لم تكن محصنة ضد الهجوم البري . في ذلك الوقت أستطاع الأتراك صد القوات البريطانية مرتين عند غزة . وعاد « موراي » إلى إنجلترا ، ورأى القائد البريطاني الجديد الجنرال «اللنبي» بأن العرب يمكنهم أن يلعبوا دوراً هاماً في هجوم آخر على غزة ، وأخذ يجهزه . وعلى الفور أرسل إلى قاعدة العرب الجديدة في العقبة الأسلحة والذخيرة والطائرات . وبعد ذلك إندفع لورانس والعرب

نحو الشمال وأغار على سكة حديد الحجاز وهدد مؤخرة الأتراك ، وبذلك نجح في جذب قوات تركية كثيرة من جبهة غزة مع حماية جانب « اللنبي » — وقد أصبح لورانس بطلا بين العرب لمهارته وقوة تحمله ، وقد أ كسبه ذلك مكاناً بين القادة العظام لحرب العصابات ، وكثيراً ما أعنت له قابليته .

(أنظر الملوحة رقم ٤٨)

اللنبي وحرب فلسطين

عندما تولى الجنرال اللنبي القيادة في يونيه ١٩١٧ ، قام بالتخطيط للتقدم شمالاً إلى داخل فلسطين . وكانت قواته التي تقف أمام خط غزة — بير سبع عبارة عن خليط من القوات البريطانية والإسترالية والنيوزيلندية والهندية والفرنسية ، وقد ثبطت همتهم بسبب شدة الحر والغبار وطول التوقف ، وعلى الفور توجه اللنبي بنفسه إلى الجبهة لرفع معنويات قواته ، حيث أعاد تنظيم قواته إلى ثلاث فيالق : — الفيلق ٣٠ تحت قيادة « شيتوود » والفيلق ٢١ تحت قيادة « بولفن » وفيلق الصحراء الرابك تحت قيادة « شوفال » . أما الموقع الدفاعي التركي



فكان محصناً بقوة بالخنادق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة ، وقد تولى قيادة الأتراك الجنرال الألماني « كرسنستين » .

وكانت خطة النبي تتضمن إختراق خط غزة باستخدام المفاجأة والخداع ، وذلك بتوجيه ضربات متعاقبة على كلا نهايتي الخط حتى لا يعرف الأتراك اتجاه الضربة الرئيسية . في نفس الوقت يقوم بهجوم مخادع آخر عند غزة فيعتقد الأتراك أنه الضربة الرئيسية ، وفي الواقع كان الإختراق الرئيسي سيكون عند بير سبع حيث توجد آبار المياه الضرورية لأي تقدم تالي للقدس .

وتم الأعداد للهجوم بدقة ، وسمح النبي بسقوط أوراق مزيفة في أيدي الأتراك لتضليلهم عن النوايا البريطانية الحقيقية في نفس الوقت دعمها بالتحركات الخداعية الكبيرة للقوات والأمدادات عند غزة ، وإنخدع الأتراك . في ذلك الوقت تم إعداد الجيش تماماً وجمعت آلاف الجبال لملح المياه .

وفي الأسبوع الأخير من أكتوبر أفتتح الهجوم بتمهيد كثيف للمدفعية عند غزة من البحر والبر مما أدى إلى تثبيت القوات التركية المحتشدة عند نهاية الخط الدفاعي هناك تحت عاصفة من النيران التي هبطت عليهم ، بينما تحرك الفيلق ٢٠ وفيلق الصحراء الراكب ليلا إلى بير سبع . وعند طلوع النهار قامت المشاة بهجوم مفاجيء على المدينة بينما إندفعت الفرسان على الأجناب ، وتم الاستيلاء على آبار المياه الثمينة هناك ، وأصبح الأتراك في تحبط تام ، بينما سقطت غزة في اليومين التاليين . وبعد تحطيم الخط التركي إندفع على الفور الفيلق الراكب بعد بير سبع اتجاه بيت المقدس ، بينما دفع الفيلق ٢١ الأتراك للخلف على الساحل وبدون هوادة . وفي الأسبوع الثاني من نوفمبر تم التقدم لمسافة ٤٠ ميلا . وقد إستمر ضغط الهجوم البريطاني بالرغم من الأجهاد والخسائر حتى لا يتوفر للأتراك على الإطلاق الوقت لأقامة مواقع دفاعية جديدة .

وفي ١٦ نوفمبر أستولى البريطانيون على يافا ، وبعدها جمع النبي جميع قواته في أسفل تلال يهوذا ، ولكن الطقس الرديء وعدم الرغبة في إحداث أضرار ببيت المقدس جعل إقتحامها أمراً صعباً .

وفي النهاية استطاعت حركة التطويق إلى تحطيم الدفاعات التركية والإستيلاء على المدينة في ٩ ديسمبر ١٩١٧ بعد أن حكمها الأتراك أربعة قرون . ولكن الهجوم البريطاني أوقف بعد بيت المقدس بعشرة أميال بسبب الأمطار الغزيرة . وقد تأخر اللنبي كثيراً في التقدم نحو سوريا نتيجة لسحب بعض قواته إلى الجبهة الغربية بينما احتاجت القوات الجديدة التي إنضمت على جيشة إلى تدريب طويل . وكانت خطة اللنبي لتحطيم الجبهة التركية الجديدة تشبه الخطة السابقة ولكن بالعكس ، وذلك بالقيام بهجوم خداعي عند اليسار التركي في التلال ، والقيام بالأختراق على طول الساحل .

وفي ١٩ ديسمبر ١٩١٨ بدأت العمليات ، وأستطاع اللنبي القضاء على الخط التركي إلى الخلف ، بينما حاصر جيشين تركيين آخرين ودمرها في مكانهما .

وتعتبر عملية الفرسان هنا من أفضل عمليات الفرسان في التاريخ والتي كانت في الواقع آخر عملية للفرسان في الحرب . وقد أسرع كل من اللنبي ولورانس نحو دمشق ولكن لورانس وصلها أولاً في أكتوبر . ولم يتبق سوى شريحة من القوات التركية والتي طورت بعد دمشق . وفي ٣٠ أكتوبر وقعت تركيا على طلب الهدنة للتسليم .

الامان يحاصرون باريس (أنظر اللوحة رقم ٤٥)

يجب أن أذكر هنا قائداً ممتازاً كان يعمل خارج مسرح الحرب الأوروبي وهو العقيد « فون ليتوفوربيك » ، وكان يدير العمليات الألمانية في شرق أفريقيا لمدة أربعة سنوات مسبباً إزعاجاً خيالياً للحلفاء بالرغم من صغر حجم قواته . وكان « ليتوفوربيك » ملهماً بطبيعة الحرب في الطقس القاري وفي المساحات الواسعة في شرق أفريقيا والتي لا يوجد بها طرق ولا سكك حديدية ولذا تحدى كل المحاولات التي بذلت لوضع نهاية لأعماله ، وعلى كل حال لم يستسلم إلا بعد الهدنة في نوفمبر ١٩١٨ .

وفي عام ١٩١٦ أدار الجنرال سمطس عملية مشتركة على مستوى كبير ضد ليتوفوربيك ولكنه أخذ براوغ أعدائه ، بالرغم من أنه لم يكن تحت قيادته سوى ٣٥٠٠ أوروبي و ١٢٠٠٠ وطني . وكان يعلم أنه لن يستطيع هزيمة القوات البريطانية المتفوقة في أفريقيا ، ولكنه في الواقع حقق أكثر من الهزيمة بأن جلب ١٣٠٠٠٠ من جنود الحلفاء من مساح أخرى

محتاجين اليهم فيها ، في نفس الوقت كلف بريطانيا ٧٢ مليون جنيه . ويستحق ليتوفوربيك أن يطلق عليه « أستاذ الحرب الغير نظامية » وذلك لصفاته الشخصية ومهارته العسكرية وحضور ذهنه وعزيمته وقيادته .

في ذلك الوقت كان في الواقع مدرسة الإستراتيجيين الأكثر تشاؤما هي الصائبة ، لأنه مهما حدث في أى مسرح ، فالقرار النهائى للوسول إلى نهاية الحرب يجب أن يكون في الجبهة الغربية تماماً كما قال « الغربيون » .

فوجد في عام ١٩١٨ قرر « لندورف » أن تخوض ألمانيا بكامل قواتها المعركة في الغرب من أجل النصر ، لأن روسيا أصبحت خارج الحرب ولا يوجد أى خطر من إيطاليا ، وبالتالي تستطيع ألمانيا أخيراً حشد كل قواتها على جبهة واحدة .

وقد كان من المهم الضرب بسرعة لأن النمسا بدأت تتداعى بينما بدأت القوات الأمريكية تتدفق على أوروبا . وكانت ألمانيا تستطيع إيجاد إمداد معقول من الطعام من المناطق المستولى عليها حديثاً في الجبهة الشرقية ولكن سيادة بريطانيا على البحار سببت نقصاً خطيراً في المواد الصناعية لألمانيا . كان لندورف يكره فكرة السلام المبني على التسوية ، ولذلك قام فيما بين ٢١ مارس و ١٥ يولييه ١٩١٨ بهجوم ألماني رئيسي على عدة مراحل في الجبهة الغربية . وقد تورطت أنا نفسي في الهجمات الثلاثة الأولى « ٢١ مارس على السوم » و « ٩ إبريل على ليس » و « ٢٧ مايو على شمن دي دامس » وعند « سواسون » .

ولم يحصل الألمان على أى مميزات خاصة من هذا الهجوم ، لأن القوات المتضادة كانت تقريباً متساوية حتى بعد تحريكهم لـ ٥٢ فرقة من الجبهة الشرقية ، في نفس الوقت لم يكن لديهم أى سلاح جديد في حين أن رئاسة الأركان الألمانية لم تقدر قيمة الدبابات في القتال . وعلى كل حال نوى لندورف الآن الاعتماد على الخداع والمفاجأة ، والتي قد نسيت فعلا في تكتيكات حرب الخنادق ، فقرر أن يضلل الحلفاء بقدر الامكان بالتحركات للقطارات الحملة بالجنود خلف الجبهة ، على أن تتخذ القوات المهاجمة مواقع تشكيل قتالها ليلاً ، مع منع القصف الأولى الثقيل للمدفعية ، في نفس الوقت تقوم المشاة بحس خط العدو لايجاد أضعف نقط فيه بدلا من مجرد رمي أنفسهم بحشد ضد الجبهة .

وكانت إستراتيجية لندورف تتضمن القيام بهجوم مخادع ببعض القوات فى الجنوب فى منطقة السوم حيث تتصل الخطوط البريطانية بالفرنسية، على أن يكون الاختراق الرئيسى فى جنوب « أيمر » مباشرة ، وذلك لطفى مواجهة الحلفاء من الشمال .

وبهذا البرنامج الاستراتيجى الطموح حصل الألمان على درجة كبيرة من النجاح . وفى ٢١ مارس أفتتحوا الهجوم ضد البريطانيين عند السوم مستخدمين تكتيكاتهم الجديدة ، وساعدهم الضباب الكثيف ، وتداعى الدفاع البريطانى ودفع للخلف أمام الهجوم الألمانى . قام بيتان بعمل الاستعدادات لستر باريس ، بينما أهتم هييج بموانى المانش .

وقد إنتاب الذعر جبهة الحلفاء خوفا من فتح ثغرة بواسطة العدو على مواجهة الفرنسيين أو البريطانيين علاوة على سماعهم فى نفس الوقت نبأ تعيين المارشال « فرديناند فوش » قائداً عاما لقوات الحلفاء فى فرنسا فى ١٤ إبريل .

أما « فوش » نفسه فلم يكن لديه السلطة لإصدار الأوامر لقادة القوات المقاتلة « هييج وبيتان وبيرشنج »^(١) ، وقد أستمروا فى القتال حتى النهاية بدون تنسيق كامل بينهم ، بينما سيطر فوش على الاحتياطيات .

أما التقدم الألمانى على السوم فقد نقص قوته الدافعة نتيجة لأحضرار المدافعين للاحتياطيات بالسكة الحديد ، وكان هذا أسرع من القوات المهاجمة إذا شقت طريقها قتالا وهى مترجلة . وفى ٢٨ مارس حطم لندورف المبدأ الخاص بعدم مهاجمة العدو فى المناطق القوية ، وأمر بأستمرار الهجوم شمالا إتجاه « أراس » ولكنه قوبل بمقاومة قوية وتكبدهم خسائر فادحة . أما الضربة الألمانية التى كانت ستوجه فى الشمال على نهر « الليس » فلم تتم حتى ٩ إبريل ، وفى ذلك الوقت لم تتوفر له سوى ١١ فرقة لتشارك فى القتال بدلا من ٣٥ فرقة ، وعلى كل حال إخترق الهجوم الجبهة عند « هازبورك » وكان يدافع عنها فرقة برتغالية ، وألقى « لندورف » بكل الاحتياطيات التى أمكن تواجدها ، وعلى ذلك تخلى « هييج » عن « باشيندال » وأنسحب للخلف إلى الموانى طالبا إحتياطيات من فوش والذى أرسل له ٤ فرق وبذلك تماسك المدفعون بشده .

وحتى ذلك الوقت لم يكتشف الألمان السر الخاص بكيفية تدعيم النجاح الأولى

للهجوم . . . وهو السر الذي راوغ أيضاً الحلفاء . والآن جرب الحلفاء بعض الوسائل الجديدة . ، وهي قصف قوات العدو بالدعاية لأغرائهم بالهروب من الخدمة ، وتشجيعهم على الانفصال كدولة مستقلة من الأمبراطورية النمساوية وذلك بالتشكيك . في ذلك الوقت كان لندورف يطور أيضاً خططا جديدة ، ففي مايو قام باستعدادات تم أخفاؤها جيداً للهجوم تحويلى آخر ضد الفرنسيين في الجنوب . وفي ٢٧ مايو فوجىء الحلفاء بهجوم ألماني في منطقة « الشيمن دى دامس » على « الأيسن » ، وفي ٣ يونية وصل الألمان إلى المارن حيث قصفوا باريس بمدفيعتهم البعيدة المدى . ولكن للمرة الثانية أغرى النجاح لندورف على إهمال القاعدة الأساسية في خطته وهي عدم الاستمرار في مهاجمة أقوى نقطة . ومرة أخرى ألقى الحلفاء بكل الاحتياطات المتوفرة ، ومرة أخرى أوقف الحلفاء الألمان .

وقد أستخدم فوش الإحتياطيات بمهارة فائقة ، بحيث يضمن في جميع الحالات توفر قوات كافية لأي إحتياجات في أى مكان آخر . وتوترت الأعصاب بشدة في باريس ولكن فوش كان يعرف ما الذى يعمل به وقد أيدته في ذلك رئيس وزراء فرنسا « كليمنصو . » . وفي يونية رفض لندورف مرة أخرى صلحا مشروطا . وفي ١٥ يوليو قام بهجوم على جانبي « ريمس » حيث أصبح الألمان أقرب إلى باريس عن أى وقت مضى . ولكن فوش كان يتنبأ ويتوقع الأحداث المستقبلية ، وأخيراً أستطاع إيقاف العدو ، وهكذا أحبطت إستراتيجية لندورف .

اليوم الاسود للجيش الالمانى (أنظر اللوحة رقم ٤٥)

ثم تحول المد . . . وفي ١٨ يولييه قام الفرنسيون بهجوم بالدبابات على الألمان غرب ريمس مما أدى إلى ألغاء لندورف ضربته المخطط لها في الشمال وأمر قواته بالانسحاب إلى خلف المارن . وفي ٢٤ يولية إتفق فوش مع قادة الحلفاء على خطط الهجوم . وتقرر إستخدام فكرة جوفر القديمة والخاصة بقطع البروز الدفاعى الالمانى ، ولكن هذه المرة بتكتيكات أفضل . وكانت الخطة أن يقوم البريطانيون بالهجوم من الشمال ، والأمريكيون من الجنوب ، بينما يتمسك الفرنسيون بالوسط . وفي ٨ أغسطس قام البريطانيون بالهجوم عند « أمينس » مستخدمين حشداً كبيراً من الدبابات ، وكان البريطانيون هم أول من أنتج الدبابة ، وأيضاً أول من إستخدمها في الحرب .

وعندما بدأت حرب الخنادق تخيل العقيد « أرنست سوينتون » فكرة الدبابة التي ستوفر له حل مشكلة القضاء على الأسلاك الشائكة والخنادق المدافع عنها بنيران الأسلحة الصغيرة .

وأخيراً ظهرت الدبابة ماركة I والتي أشترك في تصميمها العقيد « سوينتون » ، وكانت هذه الدبابة هي النموذج الأولى للدبابات التي استخدمت بعد ذلك في ميدان المعركة في عام ١٩١٦ .

وعلى كل حال لم يستطع أى شخص في القيادة العليا في هذه المرحلة أن يقدر إمكانيات وملاءمة والإحتمالات الهائلة لهذه الدبابة . وكان سوينتون ضابطاً من سلاح المهندسين وتمنيت كثيراً لو قابلته لأنه ألف كتابين رائعين عن الحرب ولا زلت أقرأهما حتى اليوم وهما « المنحني الأخضر » و « الدفاع عن نفق دوفر » . وقد أهتم تشرشل بأفكاره ، وكتب في نوفمبر ١٩١٥ مذكرة عن استخدام الدبابات في المعركة قال فيها تشرشل : —

« يجب عدم استخدام الدبابات إلا إذا كانت في حشد » . ولسوء الحظ لم تتبع هذه النصيحة وأستخدمت الدبابات عند السوم في عام ١٩١٦ استخداماً سيئاً في مجموعات صغيرة وليست في حشد . وتم استخدام الدبابات بطريقة مناسبة في نوفمبر ١٩١٧ فقط عند « كامبرى » كما سبق أن قلنا .

وبعد نوفمبر ١٩١٧ أدرك أخيراً عدد من الضباط الكبار أن مشكلة الجلود في حرب الخنادق يمكن حلها أخيراً . وخرج قائد الفيلق الاستراتيجي^(١) بهذه النظرية : — « ليس واجب المشاة في الواقع أن تستهلك نفسها في مجهود بطولى شاق ، وليس أيضاً الذبول والدوبان تحت نيران المدافع الرشاشة التي لا ترحم .

وليس أيضاً أن تتلقى بصدورها السناكى المعادية ، ولكن واجبها هو التقدم تحت أقصى حماية ممكنة من أقصى تنظيم ممكن للموارد الميكانيكية مثل المدافع الرشاشة والمدفعية والدبابات والهاونات والطائرات » وبناء على هذه النظرية تقرر تأييد برنامج كبير لبناء الدبابات .

وفي الجزء الأول من عام ١٩١٨ استخدمت الدبابات في عدد من العمليات الصغرى ،

بينما إختبر « موناش » أفكاره في عملية صغيرة عند « لى هامل » في ٤ يوليه ، ولم يكن هناك قصف أولى بل تقدمت المشاة والدبابات في تعاون وثيق . وقد إستخدمت أربعة دبابات لنقل المحولات إلى الأمام كان سيحتاج لنقلها ١٢٥٠ رجل ، بينما إستخدمت الطائرات لأول مرة في الجبهة الغربية في نقل الامدادات لميدان المعركة . وقد أصر موناش على عدم تغيير أى جزء من خطته الكبرى للمعركة والتي أعدها بعناية مع قادته المرؤوسين وهيئة قيادته . ونجحت العملية عند « لى هامل » كما وضعت تماماً مما أدى إلى تطبيق نفس المبادئ عند التخطيط لمعركة « أمينس » في ٨ أغسطس . وقد إسترشد فيها الجنرال « رالينسون » بنظرية الجنرال موناش عن الدبابات .

وقد توفر لدى « رالينسون » للمعركة القادة القوات الآتية : — ١٣ فرقة مشاة و ٣ فرق فرسان و ٢٠٧٠ مدفع و ٨٠٠ طائرة و ٤٥٠ دبابة^(١) ، مع تزويد القوات البريطانية بكافة إحتياجاتها من الأمداد . وعلى كل حال يرجع الفضل إلى لويد جورج لقيامه بتدعيم وتقوية الإنتاج في بريطانيا عام ١٩١٨ .

وقد تم إتخاذ كافة الإجراءات لإخفاء فتح القوات للمعركة عن العدو مع التشويش على نوايا بريطانيا المستقبلية .

وقد ساعد الضباب في صباح ٨ أغسطس على تحقيق المفاجأة ، فقد تم قصف قصير من المدفعية وبعدها تقدمت خطوط طويلة من الدبابات والمشاة للأمام .

وسارت الخطة كما رسمت تماماً ، ما عدا في الشمال حيث تنبه الألمان للهجوم خلال الليل علاوة على وعورة الأرض في هذا القطاع . وقد وصل الاستراليون في المنتصف إلى أهدافهم الأولى في الساعة السابعة صباحاً بينما وصلوا إلى هدفهم الثاني في الساعة ١٠ ، وعلى الساعة ١١ صباحاً وصل الكنديون على جانبيهم .

وقد وصل ضجيج التحركات في هذا الوقت أعلى بكثير من ضجيج النيران . وإنتهى القتال الرئيسي بعد حوالي ساعتين ، بعد أن أستولى الاستراليون تقريباً على كل أهدافهم بينما حقق الكنديون تقدماً بلغ أكثر من ٧ أميال . وقد حققت هذه النتائج الباهرة إستخدام

(١) مشكلة من ٣٢٤ دبابة ثقيلة مارك ٥، ٩٦ دبابة خفيفة مارك « دب » ، ١٢٠ دبابة إمداد « العرب »

الدبابات التي مرت بسهولة خلال حواجز الأسلاك الشائكة والخنادق ونيران المدافع الرشاشة والبنادق ، وفي الواقع دمرت مدفعية العدو العديد من الدبابات ، ولكن الدبابات التي واصلت تقدمها سببت فوضى شديدة بين الألمان . وعلى كل حال لم تعطى معركة « أمينس » كل ما كان مرجو منها ، لأن عند التقدم تخلفت المشاة ولم تنجح محاولة التنسيق بين الدبابات والخيالة . وقد سمي لدندورف يوم ٨ أغسطس باليوم « الأسود للجيش الألماني » في تاريخ الحرب .

حاول الحلفاء التقدم بالهجوم إلى الأمام إلا أن المقاومة الألمانية تم تقويتها خلال شهر سبتمبر . ووصل البريطانيون إلى منطقة معركة الفلاندرز السابقة حيث أعجزهم مرة أخرى عدوهم القديم وهو الطين والوحل عن التقدم . وفي ٢٦ سبتمبر قام الأمريكيون بهجوم في « أرجون » وتم بالأسلوب القديم لحرب الخنادق ، مما أدى أن تكبد الأمريكيون خسائر فادحة لتحقيق تقدم لمسافة ٨ أميال وذلك بعد أسبوع من القتال الشاق .

وأخيراً في ٤ أكتوبر طلبت ألمانيا الهدنة ، إلا أن القتال ظل مستمراً خلال المفاوضات حتى تم طرد الألمان من غربي بلجيكا ومعظم فرنسا . وفي ١١ نوفمبر ١٩١٨ توقف القتال في الجبهة الغربية ، ووصلت الحرب إلى نهايتها في كل المسارح في حوالى نفس الوقت ولكن لم يكن هناك ارتباط إستراتيجى في ذلك . وعلى كل حال لم يؤثر انهيار الأتراك والبلغار على الألمان والنمساويين أكثر من تثبيط همهم قليلاً . وفي الحقيقة كان النمساويون والإيطاليون قد أجهدوا تماماً مثل الألمان أيضاً .

وكان يرجع سبب خسارة ألمانيا للحرب هو هجوم لدندورف في عام ١٩١٨ أكثر من هجوم الحلفاء المضاد أو من الحصار .

وأخيراً وبعد طول التحمل تحطمت الروح المعنوية للجنود الألمان وذلك عندما تحطم هجومهم على المواقع الدفاعية والتي لم تكن لديهم أى وسيلة للتغلب عليها ، كما حدث لقوات الحلفاء خلال الأعوام السابقة . وفي الحقيقة كان يوم ٨ أغسطس يوماً أسوداً لنفسية الألمان أيضاً . وعلى كل حال عندما طلب الألمان الهدنة كانت جبهتهم سليمة على الأسلوب القديم للحرب . ولم ينجح الحلفاء حتى في تحطيم وهزيمة الجيوش الألمانية بالرغم من فقد الألمان أرضاً خلال الشهر الذى أعترفوا فيه بالهزيمة . وكان الناتج القدرى لتكنولوجيا ذلك الوقت هو الجودو الذى كان بمثابة العامل الحاسم في فن حرب ١٤-١٩١٨ . ولم يكن هناك خل

كاف لهذا الجمود ، بالرغم من إستخدام الدبابات لانها لم تحصل على نصر تكتيكي حاسم .
وفى الواقع كان لا يمكن كسب حرب ١٤ - ١٩١٨ بل كان يمكن فقط خسارتها لعدم
قدرة رجال كلا الطرفين على تحملها إلى النهاية .

وقد حارب رجال كلا الطرفين بمهارة وشجاعة ولكن فى النهاية تحطم الالمان .

انتهاء الحرب وحلول السلام

ولقد حاول القادة السيطرة على الحرب ولكنها تحدثهم جميعاً ، فليس معنى هذا أن
القيادة كانت جميعها ضعيفة .

وعلى كل حال فقد أنجبت هذه الحرب بعض القادة العباقرة أمثال « فلا كنهين » و « لندورف »
و « مصطفى كمال » و « بلومر » و « موناش » و « اللنبى » و « بروسلاف » وكانوا
جميعاً قادة مقاتلين ممتازين ، فى نفس الوقت لا ننسى « لورانس » و « ليتو » فقد كان لهم
قدراتهم الخاصة . وإننى أعتبر سيرجون موناش أفضل الجنرالات على الجبهة الغربية
الاوروبية ، لانه يمتلك أصالة خلاقة حقيقية ، وأعتقد أن الحرب كانت تنهى مبكراً وبخسائر
أقل إذا تعين موناش لقيادة القوات البريطانية بدلا من هيج الذى يفتقر إلى الخيال الواسع .
وتعليق على إستراتيجية الحلفاء أنهم ضيعوا قوات كبيرة جداً فى المسارح الرئيسية بدون
براعة وبدون خيال واسع أو تفكير صائب . وقد أخلص الروس تماما لحلفائهم ، بينما
أداروا معظم حربهم على الجبهة الشرقية فى عدم كفاءة بالغة .

أما بوفر فقد بدأ إستراتيجيته العقيمة فى الغرب ، بينما ألقي اللوم على فوش بسبب
نظرياته التكتيكية وألقوا المسؤولية عليه بالنسبة لمجازر هذه الحرب ، وبالرغم من أن توجيهه
للأحتياطيات والهجوم المضاد فى عام ١٩١٨ قد أظهر أنه بدأ يرى الضوء ولكن متأخرا .

أما فى الجانب الألمانى فقد دفعا رئيسا الأركان « فلا كنهين » و « لندورف » قواتهما
على الجبهات المختلفة بمنتهى الحكمة لمقابلة متطلبات الموقف . وقد كان صائبين فى إتباع
إستراتيجية دفاعية فى الجبهة الغربية معظم الحرب ، ولكن لندورف فى النهاية رفض
الصلح الذى يحقق حلا وسطا ، ثم قام فى عام ١٩١٨ بهجوم يماثل الهجوم الذى كاد يفقد
الحلفاء الحرب فى الأعوام السابقة ، مما أدى أن فقدت ألمانيا الحرب أخيراً .

وقد قدمت قبل ذلك إحترامى للجندى البريطانى ، وأحب قبل أنهى قصة حرب
١٤ — ١٩١٨ أن أعبر عن إعجابى بالجندى الفرنسى .

وقد أظهرت دراستنا للحرب أن كل الجيوش لها فترات نجاح وأيضاً فترات يأس
وثبوت المهمة ، فى نفس الوقت يصعب على قوات الدول الحصول على النصر لحكومة مذبذبة تنقصها
الشجاعة وغير قادرة على الروح القتالية لشعبها فى وقت الأخطار . أما إذا كانت الحكومة
على عكس ذلك فالقيادة الممتازة يمكن الإستفادة منها فى ذلك الوقت ، لأن الأمم تحصل
على النصر إذا كانت قواتها تقاد على كل المستويات بكفاءة ولديها التجهيزات الجيدة
ويتمتع الجنود بالضبط والربط العالى واللياقة البدنية والتدريب والروح المعنوية العالية .

وهذه العوامل تمثلت تماماً فى حالة فرنسا ، فقد رأينا الجنود الفرنسيين يقاتلون ببسالة بالرغم
من تكبدهم الخسائر الجسيمة من السرطان الأسباني . علاوة على الضربة الرهيبة لفتحهم
من موسكو . وعلى كل حال كان « رجال الحرس القدامى » جنوداً رائعين كما كان أحفادهم الشبان
أيضاً فى « الفردان » و « وديان بيان فون » و « الجزائر » .

وقد حاربت أنا شخصياً جنبا إلى جنب مع الجيش الفرنسى ، ووجدت أن الجندى
الفرنسى لو توفرت له قيادة شجاعة وخاصة على المستويات الصغرى^(١) لايبارية أحد فى
القتال ، وإنى أحبيه .

وأخيراً إنتهى القتال ، ليس لحصول الجميع على السلام ولكن فقط للمجرد كسب الحرب .
وقامت ألمانيا بمناورة أخيرة ضد فرنسا وإنجلترا بأنها أرسلت طلب الهدنة إلى الرئيس ويلسون
رئيس الولايات المتحدة ، لأنها تعلم أن ويلسون يتخيل نفسه منذ مدة طويلة كوسيط للعالم .
وفى يناير ١٩١٨ قدم ويلسون ١٤ نقطة^(٢) لإقرار سلام مثالى وتتضمن إحترام حق الدولة فى تقرير
مصيرها ، وإنشاء عصبة الأمم التى ستجعل قيام الحرب فى المستقبل مستحيلاً . وأعتبرت
دول الوسط هذه النقطة أحسن فرصة لتقليل خسائرهم فى القتال ، إلا أن فرنسا وبريطانيا
لم توافق عليها . وعلى كل حال لم تمثل قوى الوسط فى مناقشات شروط السلم التى تمت فى
باريس بين يناير ويونيه ١٩١٩ ، وعلى كل حال أخأت ألمانيا مكانها لمصالح القوى المنتصرة

(١) أنها ضرورية لكل الجيوش حتى تحصل على النصر .

« العرب »

(٢) لقد علق كلامه على هذه النقطة بقوله « الرب لديه عشرة فقط »

في ٢٨ يونية أملى السلام من فرساي ، وأعيدت الألزاس واللورين إلى فرنسا وحصلت
الأمبراطورية البريطانية وفرنسا على مناطق كثيرة مختلفة تحت أسم « الأنتداب » ،
وخلفت بولندا جديدة وأعطى لها ممر حراً إلى البحر ، وأزيلت الأمبراطورية النمساوية والامبراطورية
التركية بإعتراف الحلفاء بدول وطنية جديدة . وقد خسرت ألمانيا أرضاً صغيرة نسبياً في
أوروبا ، ولكن تم نزع سلاحها وأمرت بدفع تعويضات . أما روسيا فبعد الثورة البولشيفية
فلم تقبل في المجمع الدولي للأمم المتحدة ، وتركت التسوية الإقليمية التي تمت في معاهدة
« برست ليتوفسك » كما هي . وأقيمت عصبة الأمم ولم يسمح لألمانيا لعدة سنوات بدخولها .
وكانت نتيجة حرب ١٤-١٩١٨ أخطار مستمرة التأثير منها ألمانيا المذلولة الخائفة وروسيا
المشكوك في أمرها الغير مقبولة قانوناً ، في نفس الوقت لم يعد الثبات الإقتصادي إلى ما كان
يتميز به العالم قبل عام ١٩١٤ .

وأخيراً فقد ثبت أن شروط صلح فرساي لم ترض الكثير .

هكذا ينتهى الجزء السادس من الكتاب، أما الجزء السابع والأخير فضمنه مونتجمرى الآتى:-



العميد فتحى عبد الله النمر

- * الفوهرر أدولف هتلر . . .
- * الحرب الخاطفة . . .
- * روميل وحرب الصحراء . . .
- * محاولة إغتيال هتلر . . .
- * الأسلحة السرية . . .
- * إنتحار هتلر . . .
- * كارثة بيرل هاربور . . .
- * الهزيمة المهينة . . .
- * الألغام البشرية . . .
- * ضرب هيروشيما بالقنبلة الذرية . . .
- * الحرب فى العصر النووى . . .
- * الحرب البكتروولوجية القديمة . . .
- * السلوك الإنسانى القديمة . . .
- * العالم الممزق . . .
- * الحرب الكورية . . .
- * تكنولوجيا السلاح النووى . . .
- * الصراع النووى بين الشرق والغرب . . .
- * الحرب تحت البحر . . .
- * العودة إلى الهمجية الكاملة . . .
- * عالم الراحة والسلام . . .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء السابع والأخير

عميد

فتحى عبد الله النمر

مسابقة القراء

عدد

الجائزة الأولى : — ١٠ جنيهات مصرية ١

الجائزة الثانية : — ٣ جنيهات مصرية ٢

الجائزة الثالثة : — ٢ جنيه مصرية ٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحدها صحيح ، فعلى القارئ أن يضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم اختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع في مظروف عليه طابع بريد وترسل في بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالي :-

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لاختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين في الجزء التالي للكتاب والذي يظهر في أول كل شهر .

٥ — لقد رصد أنفيلد مارشال موتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

أسماء الفائزين في مسابقة الجزء الخامس

حل المسابقة :-

- | | |
|------------|--------------------------------------|
| ج ١ : ١ — | المرکز دی سا کس . |
| ج ٢ : ٢ — | نابلیون . |
| ج ٣ : ١ — | ٦١٠٠٠ مقاتل + ١٣٩ مدفعاً . |
| ج ٤ : ٤ -- | ووترلو . |
| ج ٥ : ٣ — | وحدة تتكون من ١٠٠٠٠ رجل . |
| ج ٦ : ٣ — | الصين . |
| ج ٧ : ١ — | ١٦٠٠ ميل . |
| ج ٨ : ٢ — | الهند . |
| ج ٩ : ٣ — | كوتيليا . |
| ج ١٠ : ١ — | إلقاء الضحية أرضاً وسحقها بالقدمين . |

الجوائز :-

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٤٠٤٩

باسم : وفيق يحيى

العنوان : مؤسسة مصر للطيران — مطار القاهرة الدولي

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات ومعدلها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٦٢١

باسم : بيومى حسن بيومى

العنوان : ٣ ميدان ابن سندل — القاهرة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢١١٠

باسم : كمال وهب العطار

العنوان : ١٤ ش الجراج حدائق القبة — القاهرة

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددنا ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٠٠٢

باسم : مصطفى الشاى

العنوان : ٢٢٢ ص . ب طرابلس — ليبيا

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢١٠٩

باسم : أبو العلا عبد الحميد

العنوان : ٤٣ ش الشهيد فكرى زاهر — دمياط

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٥٢٥

باسم : محمد اسامة

العنوان : ١٠٠ ص . ب بيروت

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* ونظراً لوجود بعض القراء خارج جمهورية مصر العربية سيتم إرسال جوائزهم عن طريق البريد الموصى عليه .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتهجرى لكل جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

* ترقبوا المسابقة الجديدة والجوائز المالية فى الكتاب الجديد « القرارات المميّنة » والذى يقع فى ستة أجزاء ، وسيتم نشر هذا الكتاب بعد الجزء السابع من « الحرب عبر التاريخ » مباشرة .

المسابقة

١ — صدرت الطبعة الأولى من كتاب « في الحرب » لفون كلاوزفيتز عام

١ — ١٨٥٠

٢ — ١٨٣٢

٣ — ١٨٣٧

٢ — « الأسبجاري » عبارة عن

١ — رمح رفيع تستعمله القبائل الأفريقية .

٢ — قائد الزولو .

٣ — اسم مدفع خفيف .

٣ — كان تعداد اليابان في عام ١٩٠٣ حوالي

١ — ٥٠ مليون نسمة .

٢ — ٦٠ مليون نسمة .

٣ — ٣٥ مليون نسمة .

٤ — في فبراير ١٨٦١ تم انتخاب أول رئيس لولايات الامريكية الكندفدرالية في الجنوب وكان

١ — لينكولن .

٢ — جيفرسون دافيز .

٣ — جاكسون .

٥ — « أن الماضي مفيد لي عندما أفكر في الغد حتى أرسم مستقبل » من قال هذا ؟

١ — ميتزلنك .

٢ — كريستوت .

٣ — ستينمتر .

٦ — المنطاد « زبلان » صنعته

١ — بريطانيا .

٢ - ألمانيا .

٣ - فرنسا .

٧ - برتا الكبير

١ - اسم قائد معركة فردان .

٢ - اسم كتاب ألفه فوش .

٣ - مدفع من عيار ١٧ بوصة .

٨ - في عام ١٩١٦ التقى الاميرال الالمانى « سيشر » مع الاميرال البريطانى « جليكو » في

١ - الأركينيس .

٢ - جوتلاند .

٣ - جزر فولكلاند .

٩ - نشبت الثورة العربية في مكة

١ - في يونية ١٩١٦

٢ - في يولية ١٩١٧

٣ - في يناير ١٩١٧

١٠ - دخل الانجليز بيت المقدس في ٩ ديسمبر ١٩١٧ بعد أن حكمها الاتراك

١ - ثلاثة قرون .

٢ - ٥٠ عاماً .

٣ - أربعة قرون .

الاسم
العنوان

المحج عبيد النمر

A HISTORY OF WARFARE

الجزء السابع

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمري

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبيد النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
في عيد العلم العاشر والحادي عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧١١	الفصل الحادى والعشرون : بعد عشرين عاما :- الحرب العالمية الثانية
٧١١	* الفوهرر أدولف هتلر
٧١٥	* الحرب المخاطفة
٧١٨	* الحرب الزائفة
٧٢٢	* نكسة دنكرك
٧٢٨	* روميل وحرب الصحراء
٧٤٣	* القصف الجوى على ألمانيا
٧٥٣	* محاولة إغتيال هتلر
٧٥٧	* الأسلحة السرية
٧٦١	* إنتحار هتلر
٧٦٣	* كارثة بيرل هاربور
٧٦٥	* الهزيمة المهينة
٧٧٢	* الجحيم فى ميدواى
٧٨٤	* الأنعام البشرية
٧٨٨	* ضرب هيروشيما بالقنبلة الذرية
٧٩٢	* ستالين وروزفلت وتشرشل
٧٩٤	* الحرب فى العصر النووى
٧٩٦	الفصل الثانى والعشرون : اخلاقيات الحرب
٧٩٦	* الحرب البكتروولوجية القديمة

تابع الفهرس

الصفحة	الموضوع
٨٠٣	* السلوك الإنساني للحرب
٨٠٨	* الدروس المستفادة
٨١١	الفصل الثالث والعشرون : الستمار الحديدي والحرب الباردة
٨١١	* العالم الممزق
٨١٧	* الحرب الكورية
٨٢٢	الفصل الرابع والعشرون : العصر النووي
٨٢٢	* تكنولوجيا السلاح النووي
٨٢٨	* الصراع النووي بين الشرق والغرب
٨٣٣	* الحرب تحت البحر
٨٣٧	الفصل الخامس والعشرون : الغاية من السلام
٨٣٧	* العودة إلى الهمجية الكاملة
٨٣٨	* عالم الراحة والسلام
	الخروايط :
٧٢٠	* اللوحة رقم ٤٩ : الحملة الألمانية في شمال غرب أوروبا عام ١٩٤٠
٧٣٠	* اللوحة رقم ٥٠ : الحرب في حوض البحر الأبيض المتوسط
٧٣٤	* اللوحة رقم ٥١ : الحرب في الجهة الشرقية
٧٥٢	* اللوحة رقم ٥٢ : معركة نورماندى
٧٥٨	* اللوحة رقم ٥٣ : هزيمة ألمانيا عام ١٩٤٤/١٩٤٥
٧٦٧	* اللوحة رقم ٥٤ : الحرب اليابانية ٤١ - ١٩٤٥
٧٨٠	* اللوحة رقم ٥٥ : الحلفاء يستعيدون بورما
٧٨٦	* اللوحة رقم ٥٦ : معركة ميكيتيلا

الفصل الحادى والعشرون

بعد عشرين عاما : الحرب العالمية الثانية

الفوهرر أدولف هتلر

عندما سمع « فوش » بتوقيع معاهدة فرساي للسلام عقب قائلا : « إن هذا ليس سلاما ، بل هدنة لمدة عشرين عاما » . وكان على حق ، فبعد عشرين عاما من الحرب العظمى والتي جرى وصفها فى الجزء السادس ، تورطت الدول فى صراع ثانٍ والذى إستمرست سنوات . وإذا كان من المبالغ فيه وصف حرب ١٤ - ١٩١٨ بأنها صراع عالمى ، فلم يكن هناك أى مبالغة فى إطلاق هذه الصفة على الحرب التى أشعلها هتلر عام ١٩٣٩ . ولقد كاد أن يندلع صدام ثانٍ فى الفترة بين ١٨ - ١٩١٩ بسبب حماقة قادة الحلفاء السياسيين المنتصرين . وقد أوضح هتلر فى كتابه « كفاحى » « أن السلام ليس إلا فترة إستعداد لحرب شاملة » وأصبح النظام النازى جهازاً للحرب ينادى بالحرب».

وتولى العريف السابق^(١) بنفسه زعامة الدولة والقيادة العليا ، وتعامل بدون رحمة مع هؤلاء الألمان الذين كانوا لا يقبلون نظرية المدافع إلى جانب الزبد .

وكانت الحرب الأهلية الأسبانية ٣٦ - ١٩٣٩ بمثابة التمهيد لحرب ٣٩ - ١٩٤٥ ، جرب خلالها الشيوعيون والفاشستيون أسلحة وأسلوب مستحدث للحرب . ولم يكن الرعب والهلع الذى تميزت به الحرب الأهلية الأسبانية إلا إشارة لما سوف يأتى بعد ذلك . وكانت المبادئ التى إعتنقها زعماء الألمان الجدد ، هى الحرب الشاملة وأسلوب الحرب الخاطفة ، يعكس تماماً الإتجاهات الدفاعية التى كانت سائدة عند الغرب وإعتقادهم بإمكانية تجنب الحرب .

وبدأت بريطانيا فجأة بإعادة تسليح نفسها كرد فعل للسياسة النازية ، ولكنها بدأت

في نفس الوقت على العمل على تهدئة الدكتاتوريين ، وهذه السياسة لم تكن تجدى ضد هتلر وحكومته العسكرية .

وبدأت الحرب العالمية الثانية عندما هاجم هتلر بولندا في أول سبتمبر عام ١٩٣٩ ، منهيًا بذلك سلسلة الإعتداءات التي وقعت في وقت السلم ، والتي بدأت باحتلال أراضي الراين عام ١٩٣٦ .

ولقد كانت الحرب الهتلرية مثار مناقشات عديدة بين سير ونستون تشرشل بعد إنتهائها .

وحيث كان تشرشل يعتبر أنه لا مفر من حرب ١٤ — ١٩١٨ فور تأزم الأحداث في البلقان ثم تورط ألمانيا فيها ، إلا أنه كان شديد الاقتناع بأنه في الإمكان تجنب مأساة الصراع الثاني .

وقد كتب في كتاب « الحرب العالمية الثانية » : — « لقد أدى ضعف الصالحين إلى دعم حقد الأشرار » . وكتب أحدهم ذات مرة : — « عندما نصبح ثلاثة أضعاف قوة العدو ، أبدأ بالهجوم فوراً » ، ولكن هتلر كان يعرف جيداً أن : — « من يكيل ضربته بسرعة خاطفة تصبح قوته أربعة أضعاف القوة الأصلية » وهذا هو ما فعله تماماً في الشرق والغرب ، فقد اندلعت الحرب الخاطفة في بولندا في سبتمبر ١٩٣٩ وبعد ذلك على الغرب في مايو ١٩٤٠ .

ولكن الحرب التي شملت العالم بعد ذلك كانت تختلف تماماً عن الصراع في حرب ١٤ — ١٩١٨ ، فقد إختفى نظام الخنادق والأسلاك الشائكة وحرب الحصار . واستطيع أن أقول بصدق بعد أن خضت كلا الحربيين ، أنه من المستحيل أن نجد حربيين ضد نفس العدو وبهذا الاختلاف الكبير .

٤٠ مليون قتيل في الحرب

وخلال هذه الحرب إرتكب الألمان واليابانيون من جرائم الحرب التي لا أعتقد أن هناك ما يوازيها في الوزن والفضاعة عبر التاريخ . وأكثر من ذلك فالسلاح الرهيب للقوات الجوية قد جلب الدمار والتعاسة للمدنيين في الجبهة الداخلية نتيجة للطريقة البشعة الخاصة

يقصف المدن المفتوحة والمرأ كز الصناعية من الجو، والتي بدأها الألمان ، ولكن كان هناك رد مماثل ومحقق من الحلفاء مع تزايد الحرب .
لقد كانت حرب غاية في التعقيد ، ولم يقتصر إندلاعها في أجزاء محددة بوضوح كما حدث في حرب ١٤ — ١٩١٨ .



نشرشل مم رئيس وزراء بريطانيا الجديد تشمبرلين

لقد كانت الرؤية فيها دأمة التغيير وقد غطت الحرب الكوكب الأرضى بالكامل فيما عدا الأراضى الشاسعة للقارة الأمريكية . وإنى أعتقد أنها كانت أكبر مأساة فى تاريخ البشرية . وطبقاً لأقوال رئيس التحرير العسكرى لجريدة « النيويورك تايمز » والذى ناقشت معه ذلك ذات مرة ، فإن الرقم الإجمالى للقتلى من البشر من جميع الأسباب كان حوالى ٤٠ مليون ، وكان منهم على الأقل ١٧ إلى ١٨ مليون مدنى . وإن مقدار ماعنته البشرية ليفوق كل تصور . ويكفى ذلك الآن ، ولنتعرف أولاً على أسباب المأساة بادئين باتفاقية فرساي الموقعة عام ١٩١٩ .

إن السلام الذى يوضع بفرض الإذلال والإنتقام لا يمكن أن يستقر مدة طويلة ولا يرضى ولا يقنع الصرف المغلوب وقد ظهرت هذه الحقيقة بسرعة فى عام ١٩٢٠ أى بعد توقيع اتفاقية فرساي بوقت قصير .

ولقد كان يجب إيجاد علاقات وحسن جوار معقول مع الدولة التى لديها أكبر تعداد سكانى وأكبر إمكانية صناعية فى أوروبا ، نعى ألمانيا وليس روسيا ، فقد تركت ألمانيا كما هى فى عام ١٩١٩ ، فيما عدا إنتزاع قطع صغيرة من أراضيها على الحدود . ولكن فى النهاية أدت المناورات السياسية ، لإيجاد وتنظيم جديد لأوروبا ، وهى التى أدت إلى أخطاء دفعت العالم إلى الحرب فى عام ١٩٣٩ .

وقد أهملت كل من روسيا وأمريكا مشكلة ألمانيا ، بينما مالت فرنسا نحو إتخاذ موقف سلبي ، وبذلك ترك الأمر إلى حد بعيد لكل من بريطانيا وألمانيا للعمل على إيجاد حل جديد .

وإنجهدت السياسة البريطانية إتحاء ألمانيا، منذ تولى «رامزى مكدونالد» رئاسة الوزارة ، وكانت تتحرك بدرجة كبيرة نحو الاسترضاء، وكانت هناك إلهاحات مختلفة نحو «الترضية» كما أصبحت تسمى هذه السياسة . وكانت تجربة ١٤ - ١٩١٨ قد ولدت الذعر من الحرب ، وجادل الكثيرون فى أن لدى ألمانيا سبباً قوياً لاستعادة ما فقدته من أرض ، وأن البديل للقوة الفاشستية فى وسط أوروبا هو تقدم الشيوعية ، وإذا تم وأتخذ موقف خشن بالنسبة للألمان كما كان يعتقد، فإنه سوف لا يعادى الألمان فحسب بل سيؤدى إلى متاعب جمة،

في حين لو عومل الألمان بطريقة مرضية فسوف يكون سلوكهم بالتأكيد لطيف .
ولكن سياسة « الترضية » المحمقاء وصلت آخر الأمر إلى أن : — « حاكم ألمانيا لم يكن
ذلك الرجل النبيل الذي كان يحسبه رؤساء الدول الأجنبية » .

ولقد لعب أدولف هتلر^(١) المباراة الدبلوماسية بطريقة أقل لطفاً من السياسة الآخرين
حيث كان ينشد إعادة ألمانيا كقوة عظمى .

وأصبح هتلر « فوهرراً^(٢) » في عام ١٩٣٤ وبالتالى أصبح في الواقع دكتاتوراً . وقد استغل
الحرب الأهلية الأسبانية التي بدأت في عام ١٩٣٦ في تجربة أسلحته وتكتيكاته
الجديدة .

وفي عام ١٩٣٦ دفع قواته إلى داخل أراضي الراين ، وفي عام ١٩٣٨ قام بضم النمسا
وإقليم « السوديت التشيكوسلوفاكية » . وأعتقد كل من « تشمبرلين » رئيس وزراء بريطانيا
و « دلاديه » رئيس وزراء فرنسا وجوب الموافقة على هذه المكاسب الألمانية كضمن للسلام
الآمن والدائم ، وفي اجتماعهم مع هتلر في ميونيخ تفاضوا عما قام به . كيف يمكن حرمان
ألمانيا من عودتها قانوناً إلى وضعها الطبيعي ؟ . كيف يمكن للسياسيين إشعال حرب رئيسية
ثانية من أجل قطعة تافهة من الأرض ؟ وقامت ألمانيا بحساب كل فرصها ، وأخذت توجه
الضربة تلو الضربة بدون عقاب .

ولم يكن هتلر أحقاً في تلك الأيام الأولى مهما أصبح فيما بعد .
وفي أوائل ١٩٣٩ أعلن الحماية على « بوهيميا » و « مودافيا » كما حصل على إقليم
« ممل » . ولقد قيل أن هتلر لم يكن ينشد الحرب حتى بدأت في عام ١٩٣٩ ، وربما كان
ذلك صحيحاً ، ولكنني أجد أن من المستحيل التصديق بأنه أعتقد أن في مقدوره جر المتاعب
على الدول الأوروبية بالطريقة التي كان يتبعها دون أن يؤدي ذلك إلى الحرب .

الحرب الخاطفة

وعندما تنهت بريطانيا وفرنسا للخطر وضمنتا سلامة بولندا في مارس ١٩٣٩ ، ولم
يعتقد هتلر أنهما سوف يحترمان كلمتهما ، بالرغم من إتفاق ميونخ . ومع ذلك فبعد ستة

(١) لقد أصبح مستشاراً لألمانيا عام ١٩٣٣ .

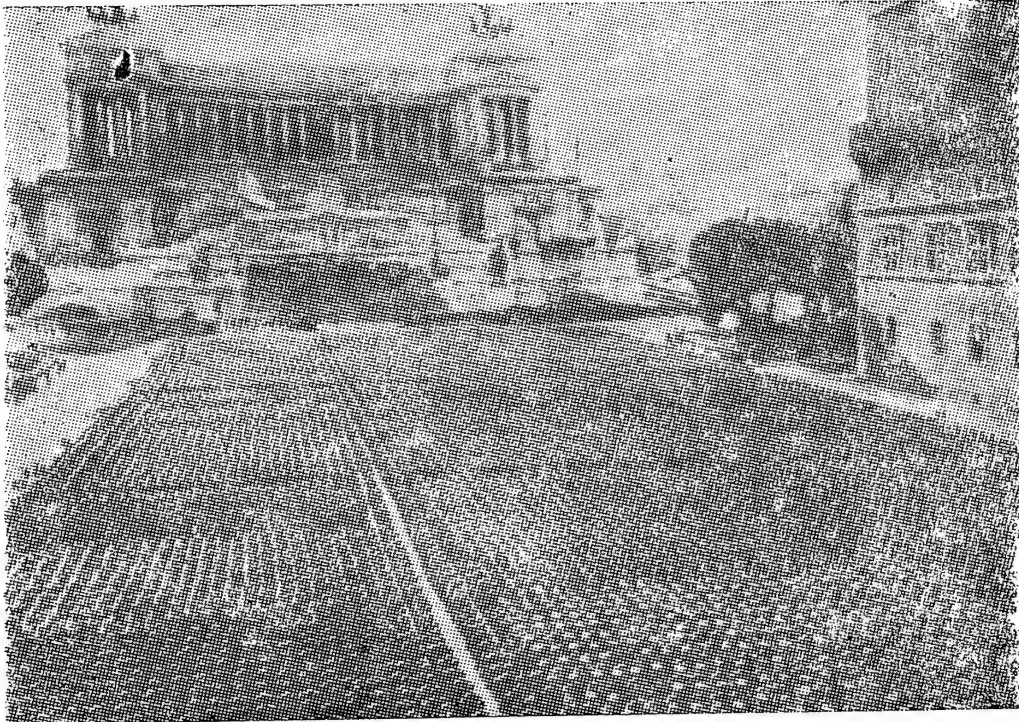
(٢) رئيساً للدولة

شهور قام هتلر بغزو بولندا ، متعمداً إطلاق العنان لـ كلاب الحرب . وكان مستعداً لإشعال حرب عالمية إذا دعت الضرورة ليس لهذا فقط بل لكي يحقق أغراضه . وأكثر من ذلك ، كان النظام النازي يعتمد على إثارة العواطف للشعب الألماني بالجنسية والعنصرية والوطنية والتي كانت مملوءة بالعجرفة والمرارة .

وهناك نقطة تروق لي وهي : — « متى قرر هتلر وبالضبط المخاطرة بالحرب من أجل تحقيق أغراضه ؟ . ومن المحتمل ألا نعرف أبداً هذا الأمر ، أما مانعرفه أن هتلر كان مقامراً متهوراً ، وأنه عندما غزا بولندا فقد تخطى قدرته .

لقد كان من المستحيل على بريطانيا وفرنسا المحافظة على سلامة بولندا بدون الدعم المسلح لروسيا ، وكان ذلك مستحيلاً من الناحية الاستراتيجية بدون الدعم المسلح الروسي ، وهذا الدعم تلاشى عندما وقع هتلر في أغسطس ١٩٣٩ إتفاق مع روسيا بعدم الإعتداء ، تلك المعاهدة التي كانت بمثابة تكتيك خبيث جداً .

ولكن قررت بريطانيا وفرنسا المحافظة على تعهداتهما ، وأعلنت كل منهما الحرب على ألمانيا في ٣ سبتمبر .



هتلر يستعرض جيوشه ليرهب العالم بقوته

واستجملت دول الإمبراطورية البريطانية قواها لمساعدة الدولة الأم ، وإلتزمت إيطاليا الصمت في هذه المرحلة .

وقررت الولايات المتحدة تجنب التدخل . وبقيت كل من بلجيكا وهولندا والدانمرك والنرويج ولو كسمبورج على الحياد^(١) . وربما كان يمكن باتخاذ سياسة أشد في الثلاثينيات القرن ٢٠^(٢) إلى تفادي الحرب ، ولكن ربما كان هتلر في جميع الحالات سيكون متهوراً جداً .

ولكن القدر حل في عام ١٩٣٩ كما حدث في عام ١٩١٤ . وإندلعت الحرب كنتيجة لخطأ في التقدير من جميع الأطراف . ولم تكن كل من بريطانيا وفرنسا مستعدة بشكل مرضي للحرب في عام ١٩٣٩ ، ولكن كيف كان الحال بالنسبة لألمانيا ؟ ؟ فقد كان اعداد الرجال المدربين في ألمانيا أفضل وأكثراً ، لأن هتلر أصدر قانون التجنيد الإجباري مبكراً في عام ١٩٣٥ ، وفيما يتعلق بنظرية فن الحرب ، فقد تقدم الألمان وسبقوا المنتصرين في صراع ١٤ — ١٩١٨ ، وأدركت ألمانيا أنها حرب جديدة ، وذات قوة ضارية وخفة حركة عالية جداً ، وذلك باستخدام الأسلحة الجديدة وهي الدبابة والطائرة^(٣) . وعلى هذا الأساس طور الجيش الألماني أسلوبه التكتيكي وخرج بأسلوب جديد هو « الحرب الخاطفة » ، وجوهر هذا الأسلوب القيام بالهجوم مع إختراق عميق بالقوة المدرعة ، تعاونها القوات الجوية حيث تقوم الطائرات بتدمير مواصلات ومنشآت العدو ، على أن تقوم بتقديم المعاونة لمدفعية الميدان أثناء التقدم بقصفها للأهداف الأرضية وعليها المحافظة على إمداد القوات المهاجمة بالرجال والمعدات ، بينما تحقق الدبابات التي تعاونها المشاة الحملة الإختراق على الأرض . والمبادئ التكتيكية الأساسية للحرب الخاطفة هي . .

الحشد . . . والمفاجأة . . . والسرعة . . .

وبهذه المبادئ السابقة يجرى إرباك وبعثرة العدو ثم يجرى تخطيطه دون رحمة بكل

ما في الكلمة من معنى .

(١) لقد كانت هذه الدول غير مستعدة تماماً لحماية حيادها في ذلك الوقت .

(٢) بدلا من سياسة الغرضية

(٣) لقد برزت الدبابة والطائرة خلال التطور الذي طرأ على ما كينة الاحتراق الداخلي .

وباستثناء الطائرة ، فلم يكن هناك إلا القليل من الاختراعات الفنية فيما بين عامي ١٨ — ١٩٣٩ ، وما حدث هو تطوير أسلحة ١٤ — ١٩١٨ وببطء .

وتطورت سرعة وتدريب وتسليح الدبابات ، وظهرت المدافع المضادة للدبابات وبدأ استخدام الهاونات ، وظهر مدفع رشاش صغير يمكن حمله باليد ، كما حسنت الأقنعة الواقية من الغازات وأساليب الإخفاء والانتشار ، وأصبحت وسائل النقل ميكانيكية . والقوة الأخرى الوحيدة بخلاف ألمانيا والتي تبنت الأفكار الجديدة عن إدارة الحرب هي روسيا بعد عام ١٩١٨ ؛ حيث قدرت كثيراً الدبابات والقوات المحمولة جواً .

أما باقي القوى التي إنتصرت في حرب ١٤ — ١٩١٨ فقد رضيت بما حققته من إنتصار ولم تغير على الإطلاق من أفكارها وأسلوبها ، ولم تهتم بالتطور العسكري اعتماداً على توقعها ببقاء السلام في المستقبل .

وتجاهل المسؤولون في كل من إنجلترا وفرنسا ، الأفكار والنظريات التي ناقشها قلة من العسكريين أمثال « ليدل هارت » و « فولر » والخاصة بأن القتال في المستقبل لن يهيمن عليه بواسطة الدفاع .

وفي كلا الدولتين في عام ١٩٣٩ تدهورت كثيراً كل من المعدات والتدريب وأصبحت حالتها سيئة .

وبني الفرنسيون « خط ماجينو^(١) » والذي لم يكن له مكان بالنسبة للمفاهيم التكتيكية الجديدة . ولم يدرس أى من المسؤولين بعناية كتابات « ليدل هارت » إلا في ألمانيا والتي وضعت أفكاره موضع التنفيذ ، بينما أدركت الدول الأوروبية قيمتها متأخراً في ربيع ١٩٤٠ عندما هبت الحرب الخاطفة غرباً .

الحرب الزائفة

(أنظر اللوحة رقم ٤٩)

لقد كان الغزو الألماني لبولندا هو الإقناع الأول لأوروبا بمدى قوة تكتيكات الحرب الخاطفة . وحصل الألمان على المبادأة بالضرب بدون إعلان للحرب . وفي البداية قامت

(١) وهو خط دفاعي من التجهيزات والذي كان يعتبر منيعاً بالنسبة لحرب ١٤ — ١٩١٨ فقط .

القوات الجوية الألمانية بتدمير القوات الجوية البولندية خلال يومين ، ولم يتمكن الكثير من الطائرات البولندية من الطيران للملاقة العدو .

أما السكك الحديدية البولندية والتي كانت بدون دفاع فقد شلتها الهجمات الجوية الألمانية مما أدى إلى إرباك تحريك الجيش البولندي . وحتى يكتمل الاضطراب وإنهيار الروح المعنوية ، قامت القاذفات الألمانية بضرب المدن والقرى وقولات اللاجئين من الجو . وقام البولنديون بدفع ما استطاعوا دفعه من القوات لمقاومة الغزو الأرضي ، ولكن المارشال « سميغلي ريدز » إستخدام قواته بأسلوب حرب ١٤ — ١٩١٨ ، بنشرها على جبهة طويلة بدرجة أنهم كانوا ضعافاً في كل مكان ، وليسوا بأقوياء في أى مكان . وتقدمت القوات الألمانية في ثلاثة أرتال ضخمة من الشمال والشمال الغربى والجنوب ، وأخترقت رؤوس الحراب المدرعة^(١) الجبهة البولندية بسهولة .

ومع ٧ سبتمبر تقابل الجيشان الشماليان بقيادة « بوك » بالقرب من « لودز » ، وبذلك طوق الألمان قوات بولندية كبيرة في المثلث « لودز — وارسو — تورون » . وفي أقصى الجنوب عبرت القوات الألمانية تحت قيادة « روندشتد » من جبال الكريات نهر « السان » .

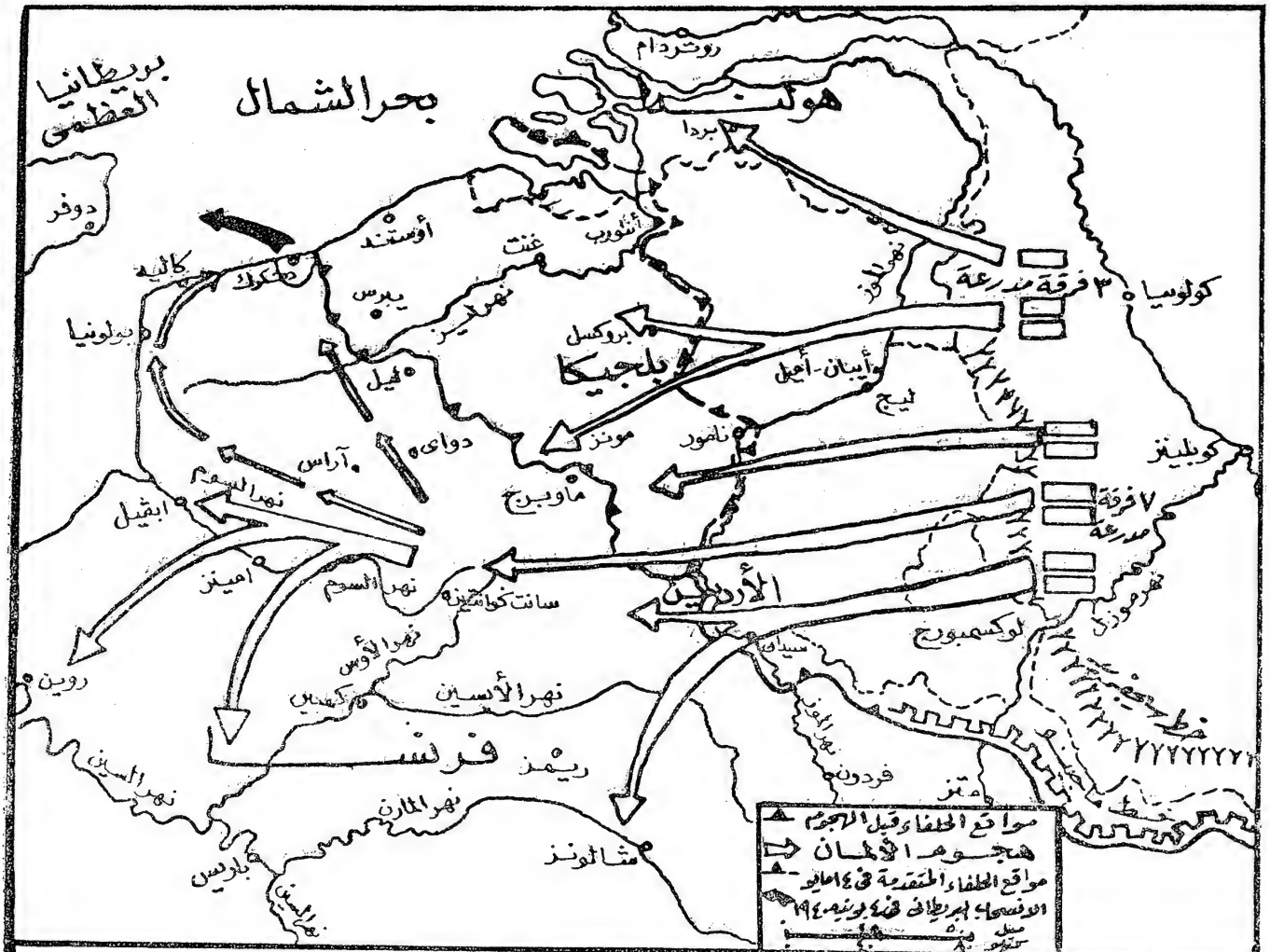
وفي ١٧ سبتمبر حرك ستالين قوات روسية من الشرق إلى خلف الجيش البولندي ، ومرة أخرى قسمت بولندا .

وهكذا أتم الألمان إحتلال بولندا ، الدولة التى تعدادها ٢٣ مليون نسمة في ١٨ يوماً وبخسارة ١٠٥٠٠ قتيل و ٣٠٠٠٠ جريح .

وكما ذكرت سابقاً لم تستطع كل من بريطانيا وفرنسا واللتان دخلتا الحرب بغرض حماية بولندا من القيام بأى شىء نحو الحفاظ على بولندا . وقد قامت بريطانيا بإرسال حملتها المكونة من أربع فرق نظامية من المشاة على شكل فيلقين إلى فرنسا في شهر سبتمبر ، حيث شغلت وقتها بمد دفاعات خط ماجينو إلى الشمال على طول الحدود البلجيكية^(٢) .

(١) كانت القوات المدرعة تعمل كرأس حربة أمام القوات الرئيسية الألمانية .

(٢) كانت البلجيكيون في ذلك الوقت محايدة . «المغرب»



الحملة الألمانية في شمال غرب أوروبا عام ١٩١٤

انتظروا في أول الشهر القادم

القرارات المميته

تعريب وتعليق العميد فتحي عبد الله النمر

وكانت الفرقة الثالثة المشاة والتي أقودها تقع على الجانب الأيسر من الجبهة البريطانية في المنطقة إلى الجنوب من « ليل ». وتواجد على يساري فرق الجيش السابع الفرنسي والتي مدت الجبهة حتى بحر الشمال . كما أرسل إلى فرنسا جزءا من القوات الجوية الملكية لمعاونة الحملة . ولما كانت النظرية الدفاعية مهيمنة على القوات البريطانية والفرنسية ، فلم تقم أيًا منهما بمهاجمة ألمانيا من جبهتها الغربية عندما كانت جيوشها لازالت مشغولة في القتال في شرق أوروبا .

وبدلا من ذلك قاموا بقصف ألمانيا بمشورات دعائية من الطائرات . . . !! وإذا كانت تلك هي الحرب ، فيبدو إنني لم أفهمها .

وتواجد مع الجيش البريطاني في فرنسا ، لواء مدرع واحد ذلك اللواء الذي لم أراه أبداً . . . !! بالرغم من أننا الدولة التي اخترعت الدبابة وأول من إستخدمها في القتال عام ١٩١٦ . وإستمرت حالة الجمود في الجبهة الغربية من سبتمبر ١٩٣٩ حتى مايو ١٩٤٠ ، وهي الفترة التي أصبحت معروفة بـ « الحرب الزائفة » .

وخلال ذلك الوقت إحتل الروس فنلندا لأنفسهم ، وسيطرت القوات الألمانية على الدانمارك والنرويج .

وانتهت « الحرب الزائفة » في ١٠ مايو ١٩٤٠ بالغزو الألماني للأراضي الواطئة وفرنسا . وقد عبأت فرنسا ٨٠ فرقة ، كما كان لبريطانيا ١٠ فرق في فرنسا ، ولكن كان ينقصها المعدات والتدريب وبذلك كانوا عاجزين عن المشاركة في حرب رئيسية . وقد تبني هتلر خطة وضعها الجنرال « فون مانشتاين » ، وكانت تقضي باكتساح بلجيكا وهولندا المحايدتين وبذلك يطوق خط ماجينو ، ويستولى على موانئ بحر الشمال وقواعده الجوية ، وقد إستوجب ذلك الهجوم على فرنسا فوراً .

ونوقع الألمان أن البريطانيين والفرنسيين سوف يوجهون قواتهم لملاقاة الغزو عبر بلجيكا ، ولذا قرر الألمان تشديد ضربتهم الرئيسية المدرعة عبر الأردن في إتجاه نهر « موز » عند « سيدان » وبذلك تفصل قوات الحلفاء التي زحفت نحو وداخل بلجيكا ، وسار كل شيء كما خطط تماما .

واكتسح الهجوم الخاطف الألماني هولندا في خمسة أيام . كما قامت مجموعة هجوم مكونة من رجال المظلات ومهندسي إقتحام بالاستيلاء على قلعة « أين — أميل » البلجيكية المنيعة وذلك خلال ٣٦ ساعة .

وقد كان الاندفاع نحو نهر « الموز » أسرع مما توقعه الألمان أنفسهم بعد أن إنهار رجال المدفعية الفرنسية وأصابهم الارتباك من هجمات القاذفات المنقضة الألمانية من طراز « ستوكا » .

وتم فتح ثغرة في جبهة الحلفاء عرضها ٥٠ ميلا ، وبعدها إندفع الجنرال « جودريان » بمجموعته المدرعة غرباً في اتجاه « سانت كوانتين » . وتحركت الفرق الميكانيكية على كلا جانبي الثغرة لحمايتها حيث تقدم بداخل الثغرة المدرعات الألمانية .

وفي الواقع كانت السيطرة الألمانية على الجو كاملة . أما قادة الحلفاء أمثال « جاملان » و « جورت » فكانوا غير قادرين على التعامل مع الجيش الألماني .

فكسة دنكرك

وفي ٢٠ من مايو كان الألمان في « أبفيل » ، وفي ٢٣ وصلوا إلى « بولونيا » . وفي منتصف ليلة ٢٧ مايو إستسلمت بلجيكا . وكان هذا أمراً محرجاً لى ولفرقتى ، لأننا كنا في هذا الوقت قد أصبحنا الفرقة ، اليسار للقوات الفرنسية البريطانية ، بالإضافة إلى الجيش البلجيكي المكون من ٢٠ فرقة ، والذي يمتد من يسارنا حتى البحر . وفي فجر ٢٨ مايو علمت أن ملك بلجيكا قد سلم كل جيشه للألمان . وقدرت في ذهني أنه ليس مناسباً للولوك في منتصف القرن ٢٠ أن يقودوا جيوش دولهم في المعركة . ولحسن الحظ كان يوجد الكثير من الجنود البلجيكية بين موقع فرقتي والبحر ، مما سيؤدي بعض الشيء إلى صعوبة تحرك الألمان خلاهم ، وهذا منحني فرصة من الوقت للتفكير في أفعله بهذا الخصوص . وفي ٤ يونيو كانت القوات البريطانية و ١٢٠٠٠٠ جندي فرنسي قد جلوا من دنكرك بأسلحتهم الشخصية فقط بينما تركوا خلفهم جميع المركبات والمعدات الثقيلة . وإستمر جلاء القوات البريطانية من شاطئ دنكرك^(١)

تسعة أيام وأمكن إنقاذ ٣٣٨٠٠٠ رجل ، وكان ذلك من أروع أعمال البحرية البريطانية التي حشدت ٨٨٧ سفينة من جميع الأحجام ، وأيضاً للقوات الجوية الملكية التي أسقطت خلال العمل المتواصل ولمدة أربعة أيام حوالى ١٧٩ طائرة معادية ، وبخسارة ٢٩ طائرة . وقد خفف من وقع صدمة الهزيمة الإرتياح التي شعرت بها بريطانيا بتخليص قواتها من دنكرك . ولكن ذلك لا يخفى الحقيقة أن الجيش البريطانى قد هزم تماماً فى القتال ، كما ترك الكثير جدا من معداته فى فرنسا ، بدرجة أنه فى صيف عام ١٩٤٠ لم يكن فى بريطانيا سوى فرقة واحدة^(١) مجهزة تجهيزاً جيداً . ولم تقم المدرعات الألمانية بمطاردة البريطانيين إلى داخل دنكرك ، وذلك بسبب أوامر هتلر والذى قرر التحول جنوباً للجهاز على الفرنسيين . وإنهارت الروح المعنوية للفرنسيين ، وفى ١٦ يونية إستسلمت حكومة بيتان الفرنسية ، واحتل الألمان شمال وغرب فرنسا . وعند هذه المرحلة ، أعلنت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا . ويرجع أسباب إحتلال ألمانيا لفرنسا وللبلاد الواطئة بسرعة إلى التفوق فى الأسلوب التكتيكى والقيادة . أما الحلفاء فقد كان لديهم تفوق طفيف فى العدد والعدة : — ١٤٦ فرقة للحلفاء إلى ١٢٦ فرقة للمحور ، ولكن الكثير من الفرق الفرنسية والبريطانية كانت قيمتها القتالية ضئيلة ، وكانت بعض دبابات الحلفاء أقوى فى نوعها من مثيلتها الألمانية وعلى سبيل المثال الدبابة البريطانية « ماتيلدا » . ولكن كان العامل الحاسم هو الاختلاف فى الاستخدام . فبينما كان وضع وتوزيع قوات الحلفاء خاطئاً نتيجة لبعثرة قواتهم على مواجهة واسعة وبدون إحتياطيات ، كان الألمان يضربون فى رتل صلب يتقدم بسرعة وقوة . وقد تم حشد سبع فرق من فرقهم البانزر^(٢) العشرة للقيام بعملية الاختراق بين « سيدان » و « نامور » . وقد أدى خطة مانشتاين الشاملة والتي نفذت بتكتيكات البانزر وعلى وجه الخصوص ضربة جودريان القوية غرباً إلى تحقيق إنجاز عسكري هام ورائع ، ومع ١٧ يونية أصبحت فرنسا خارج الحرب . وفى السنوات اللاحقة أصبح أعضاء حركة المقاومة الفرنسية وجنود إدارة العمليات الخاصة البريطانية ذات قيمة كبيرة . حيث قاموا بإزعاج قوات الاحتلال الألمانية ، ونظموا طرقاً لهروب الجنود الذين فروا من معسكرات الأسرى ، وللطيارين الذين كانت تسقط طائراتهم فوق فرنسا ، كما أفلقت

(١) كانت الفرقة الثالثة .

(٢) هى الفرق المدرعة .

إغارات الفدائيين راحة الألمان ، كما خدمت وحدات من الفرنسيين الأحرار في بريطانيا وفي أفريقيا . ولكن الحقيقة التي تحتم مواجهتها هي أنه في يونيو ١٩٤٠ ، وقفت بريطانيا وإمبراطوريتها وحيدة ضد قوى المحور ، ألمانيا وإيطاليا . وأستعد الشعب الإنجليزي للغزو الألماني ، وعلى أي حال فلم تطأ قدم أي عدو أجنبي أرض بريطانيا منذ ٩٠٠ عاما . وبالرغم من عدم وجود أي شخص في الدولة يعرف كيف يمكن هزيمة الألمان ، فلم يوجد أيضاً أي شخص يفكر في التسليم . وحتى ونستون تشرشل نفسه والذي تناقشت معه بهذا الخصوص في يونيو ١٩٤٠ ذكر لي أنه لم يقرر بعد كيف يمكن إتمام هزيمة ألمانيا ، ولكنه كان بدون شك على وشك الوصول إلى النتيجة النهائية ، كما كنت أنا . وقد رأيت فيه الزعيم الذي نحتاجه ، والرجل الذي جمع شمل أمة مهزومة ، وعلى إستعداد لقيادتها خلال أزمت أبعده مدى حتى ولو قدر لهذه المتاعب أن تنفجر فوقنا ، والتي كانت على وشك الحدوث . وأصبح تشرشل رئيساً للوزراء منذ مايو ، وبعد نكسة دنكرك إستجمع روح الشعب البريطاني بشجاعته وخطابته : — « لن نذبل أو نسقط ، وسنمضي حتى النهاية . سنقاتل في فرنسا وسنقاتل في البحار والمحيطات ، وسنقاتل بثقة متزايدة وقوة متزايدة في الجو . سندافع عن جزيرتنا مهما يكن الثمن . سنقاتل على الشواطئ وسنقاتل على أراضى زول العدو ، وفي الحقول والشوارع ، سنقاتل في التلال ، لن نستسلم أبداً » . وإنشق الحرس الوطني إلى الوجود ، وتحولت الطاقة الإنتاجية لبريطانيا إلى المجهود الحربي ، كما وصلت معونات مادية كثيرة من أمريكا المحايدة ، وبدأت تجري إعادة تجهيز الجيش بالمعدات وإزداد حجمه ، وتم تعديل التدريب ليسار أحدث أساليب الحرب العصرية . ومنذ ذلك الوقت تحققت منجزات عظيمة وكثيرة بواسطة السير « ألان بروك » وعلى وجه الخصوص تنظيم الجيش البريطاني ، وكان بروك يشغل وظيفة القائد العام لقوات الحرس الوطني ثم بعد ذلك رئيس أركان حرب الإمبراطورية ، ولكن كان هناك الكثير لعمله ، فقد توليت أنا قيادة فيلق على الشاطئ الجنوبي لبريطانيا ولكنني كنت غير متأكد كم سيمر من الوقت قبل أن يضرب هتلر ضربته . وقد إحتلت القوات المسلحة الألمانية كل أوروبا من النرويج حتى فرنسا . وأخبرنا تشرشل أن هتلر يعرف أنه إما أن يغزو بريطانيا ويهزمنا أو يخسر الحرب ، ولذلك فقد قدرنا جميعاً أن الدور التالي علينا .

عملية « سبع البحر » (٩)

والآن سندرس الحرب الجوية في أوروبا بين صيف ١٩٤٠ ومايو ١٩٤١ ، وكان على بريطانيا لمنع الألمان في عام ١٩٤٠ من عبور القنال الإنجليزي أن تعتمد على قوتها في الجو وفي البحر . وكان على ألمانيا لكي تغزو شواطئ عدو متفوق جداً في البحر ، أن تسيطر أولاً على الجو لأنها بدون ذلك لن تستطيع القوات الألمانية والامدادات أن تكون قادرة على عبور المانش . وفي حرب ١٤ - ١٩١٨ كان للطائرة أهمية ضئيلة ، ولكن الطيران تطور تطوراً عظيماً فيما بين الحربين . وخلال حرب ٣٩ - ١٩٤٥ أصبحت القوة الجوية سلاحاً قوياً وغيرت الكثير من مفهوم الحرب في البحر ، وأيضاً التكتيكات البرية . كالحققت القوات الجوية إمكانية كسب المعارك البرية في وقت أقل وبخسائر أقل مما لو لم تكن موجودة . وقد لعب القصف الاستراتيجي دوراً كبيراً في الحرب ، حيث كانت القوات الجوية للحلفاء عاملاً حاسماً في الحرب في أوروبا . وعندما عينت في قيادة أعلى عام ١٩٤٢ ، وضعت أمام عيني حقيقة لا أحيد عنها وهي يجب أن تكسب المعركة الجوية قبل القيام بالمعركة البرية أو البحرية ، ولكن مع تقدم الحرب وازدياد خبرتي ، وصلت إلى أن ذلك ليس صحيحاً تماماً ، ولكن من الضروري الحصول بقدر الإمكان على « السيادة الجوية » فوق منطقة العمليات ، وهذا المبدأ قد ساعدني حتى نهاية الحرب .

وكانت مهمة القوات الجوية الألمانية في صيف ١٩٤٠ هي تحقيق هذه السيادة الجوية فوق إنجلترا والقنال الإنجليزي كقدمة للغزو . وكان « هيرمان جورنج » على رأس وزارة الطيران الألمانية والقائد العام للقوات الجوية الألمانية ، وبحلول أغسطس كان قد حشد أسطولين جويين فيما بين الأراضي الواسعة ومقاطعة « بريتانى » وتولى « كسلرينج » في بروكسل قيادة أسطول منها ، بينما قاد « شبيرل » الأسطول الثانى من باريس ، وتمركز أسطول جوى ثالث صغير بقيادة « ستومبف » في النرويج . وتوفر لدى الأسطولين الجويين الرئيسيين حوالي ٢٠٠٠ طائرة صالحة للقتال وتتكون من القاذفات « الجونكر ٨٨ »

(١) يمكن الإلمام بعملية « سبع البحر » بالتفصيل في الجزء الأول من القرارات المميته تعريب

والتي كانت أسرع وأفضل ماصنع حتى الآن ، والقاذفات المنقضة « جونسكر ٨٧ » والمقاتلات « مسر شميت ١٠٩ » و « مسر شميت ١١٠ » . وفي مواجهة تلك القوة توفر لدى قيادة المقاتلات البريطانية بقيادة مارشال الجو « دودينج » خمسون سربا من طائرات الهاريكان والسبيتفاير ، وكانت القوة الجاهزة للقتال حوالى ٩٠٠ طائرة . كما كان هناك ١٧٠٠ مدفعا مضادا للطائرات . وقد تعين على الإنجليز بقوتهم العددية القليلة حماية الشاطئ البريطاني كله ، حيث سيختار الألمان المناطق التي سيركزون هجومهم عليها . وكانت المفاضلة بين المقاتلات البريطانية والألمانية ضئيلة ، فكانت السبيتفاير والهاريكان مسلحة بثأني مدافع رشاشة ، وسرعتها أبطأ قليلا من المسرشميت ١٠٩^(١) ولكنها تتفوق عليها في القدرة على المناورة . أما القاذفات الألمانية فكانت بطيئة وأكثر تعرضا للهجوم عليها ، وبالتالي فكانت محتاجة إلى حمايتها بالمقاتلات ، الشيء الذي قيد قدرات كليهما . وأكثر من ذلك كانت قيادة المقاتلات البريطانية منظمة جيدا ، وقد أعدت تحت قيادة « دودينج » في عام ١٩٣٦ في « بنتلي بريوري » بالقرب من لندن . وكان جوهر نظام قيادة المقاتلات ، هو المركزية في جميع الإنذار المبكر في « بنتلي بريوري » ، مع عدم المركزية في السطيرة التكتيكية على المجموعات المؤسدة في أنحاء الدولة . وكانت معلومات إقتراب طائرات العدو تجمع من ٢٠ محطة رادار^(٢) أو نحو ذلك موجودة على الشاطئ ثم تمرر المعلومات إلى رئاسة المجموعة المختصة والتي تكون مسئولة عن الإشتباك مع العدو ، بأن تدفع إلى العمل مقاتلاتها وأنوارها الكشفية ومدافعها المضادة للطائرات ، وقد عمل هذا النظام بكفاءة .

في ٢ يولية أمر هتلر قواته المسلحة بالاستعداد لغزو بريطانيا « عملية أسد البحر » ، وإستهل جورنج معركة بريطانيا بهجوم تمهيدى محدود ضد الملاحه في مضيق دوفر ، ورفض دودينج أن يستدرج . وبدأت المرحلة الرئيسية الأولى في منتصف أغسطس ، وكان الغرض منها تحطيم القوات المسلحة بتدمير الطائرات البريطانية في الجو ، بينما يستمر في نفس الوقت الهجوم على الملاحه . وركز كل من « كسلرينج » و « شبيرل » مجموعتهما فوق جنوب

(١) كانت سرعتها ٣٥٨ ميل في الساعة

(٢) جهاز الرادار يكتشف الأهداف البعيدة تحية إرتداد الموجات اللاسلكية ،

شرق إنجلترا ، بينما ركز « ستومبف » على المنطقة من النرويج حتى « ميدلاندر » .
وخلال أول معركة كبيرة ، يوم ١٣ أغسطس قامت المقاتلات البريطانية من مجموعة الجنوب
الشرق والتي تحت قيادة الفيس مارشال بارك بتدمير ٤٥ طائرة المانية وخسرت ١٣ طائرة .
أما في الصدام الرئيسي الثاني فقد ستومبف سدس قواته ، وهكذا لم يتمكن بعد ذلك
إلا أن يلعب دوراً ثانوياً في العمليات . وفيما بين ١٦ — ١٨ أغسطس عانى الألمان مرة
أخرى من الخسائر الجسيمة ، ٢٣٦ طائرة في مقابل ٩٥ طائرة بريطانية . وكانت هناك
ميزة يتمتع بها القوات الجوية الملكية وهي أن الطيارين لم يفقد معظمهم مع طائراتهم
بل كانوا يهبطون بالمظلات بسلام عند تدمير طائراتهم ، بالإضافة إلى سرعة إنتاج الطائرات
البريطانية . وأدرك جورنج الآن خطأه بعد تركيز كل قواته لهزيمة القوات الجوية الملكية
في الجو .

وفي المرحلة الثانية بين ١٩ أغسطس حتى ٦ سبتمبر كان هدفه الرئيسي تدمير القوات
الجوية الملكية في الجو ، ولتنفيذ هذا دفعت مقاتلات كسلرينج أثناء النهار وقاذفات
شبيرل خلال الليل ، ولم يقع بارك في الفخ والمخاطرة بكل قواته ضد المقاتلات بل واصل
إعتراضه للقاذفات الألمانية .

موسوئيني وغيرته من نجاح الألمان

وبدأت المرحلة الثالثة في أوائل سبتمبر ، عندما تركز كل الهجوم الألماني على لندن .
وتكلم هتلر ذا كراً بالتحديد كلمة « الإفناء »

وفي ٧ سبتمبر هاجم كسلرينج لندن بـ ٣٠٠ قاذفة و ٦٠٠ مقاتلة . وتم إسقاط معظم
القنابل مسببة دماراً فادحاً وخسارة جسيمة في أحواض السفن . وقد إشتبك مع العدو ٢١
سرباً مقاتلاً من القوات الجوية الملكية والتي كبدت الألمان مرة أخرى خسائر كثيرة
في الطائرات أكثر مما أوقعوه من خسائر في الطائرات البريطانية .

وإستمرت الغارات الألمانية وبلغت ذروتها في قتال ١٥ سبتمبر ، ففي هذا اليوم دفع
كسلرينج كل قواته بواقع غارة في الصباح وأخرى بعد الظهر ، وفقدت قاذفات كسلرينج

عشرها ، بينما أجبرت المقاتلات الألمانية على الهرب . وإعترفت القوات الجوية الألمانية بهزيمتها من المقاتلات البريطانية .

وفي ٢١ أكتوبر ألغى هتلر خطته للغزو . وعبر تشرشل عن إمتنانه لرجال القوات الجوية الملكية كالاتى : — « لم يحدث أبداً فى ميدان الصراع البشرى ، مثل هذا الدين الكبير جداً ، الذى يدين به كثيرون جداً إلى عدد قليل جداً » . وواصلت القوات الجوية الألمانية القصف الليلى أثناء الشتاء والربيع التاليين ، ولكن ليس الآن بغرض التمهيد للغزو ، وإنما بغرض تعطيل الإنتاج وتخطيم الروح المعنوية للمدنيين . وعانت معظم المدن الرئيسية معاناة هائلة ، وخاصة مدينة « كومنترى » . ولكن رغم كل ذلك لم يحقق الألمان هذه الأغراض الاستراتيجية .

وفي منتصف مايو ١٩٤١ بدأت القوات الألمانية فى النظر فى إتجاه روسيا ، إذ أن هتلر قرر أن يضرب هذا الشعب فى يونيه . ولقد كانت معركة بريطانيا صدمة لألمانيا ، ولكن رغم هذا ، قامت قوى المحور بعد ذلك بتوسيع إستراتيجيتها . وهو جمعت مصادر قوة بريطانيا . فقد قصفت قواعد ومراكز الصناعة ، بينما هوجمت جواً وبحراً المواصلات البحرية البريطانية .

وفي سبتمبر ١٩٤٠ بدأت إيطاليا هجومها فى شمال أفريقيا ، وفى أكتوبر غزت اليونان ، وكان على الألمان مساعدتهم بسرعة فى كلتا المنطقتين . وربما كان الدافع لموسوليني هو غيرته من نجاح الألمان .

ولكن الحرب فى مسرح البحر المتوسط كانت لها قيمة إستراتيجية حقيقية للمحور ، إذ أنها ضربة بعيدة المدى لمواصلات الإمبراطورية البريطانية . وكانت إستراتيجية المحور حتى هذه النقطة جسورة ، وواقعية وناجحة ولكن إلى حين .

روميل وحرب الصحراء (أنظر اللوحة رقم ٥٠)

وبعد ذلك ، فى ٢٢ يونيه ١٩٤١ قامت ألمانيا بالهجوم على روسيا ، وهذا خطأ إستراتيجى رئيسى والذى سوف يكون لدى الكثير مايقولونه بخصوصه .

وفى ١١ ديسمبر ١٩٤١ أعلنت ألمانيا الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية ،

ويتعذر فهم دافع هتلر في جر ألمانيا إلى هوة الخطر المثلة في إعلان الحرب على أقوى دولتين في العالم وفي آن واحد .

ربما كان يخشى من الهجوم عليه ، أو ربما إستبد به جنون العظمة . ولم تكن هناك صلة كبيرة بين الحرب التي دارت في الغرب وتلك التي بدأت في الشرق الأقصى عندما هاجمت اليابان الولايات المتحدة في « بيرل هاربور » في ٧ ديسمبر ١٩٤١ . وكانت هناك معاهدة بين ألمانيا واليابان ، ولكنهما من الوجهة العلمية لم يوحدا عملياتهما مثل ما عمل الحلفاء .

وحيث أنه كان لدى كل منهما أعداء مشتركين فقد عمل كل منهما إلى حد ما في شغل خصوم الآخر ، هذا بالرغم من أن روسيا واليابان لم تحاربا بعضهما مطلقاً . وأصبح الآن على هتلر أن يحارب ليس فقط الإمبراطورية البريطانية فحسب وإنما روسيا والولايات المتحدة الأمريكية أيضاً .

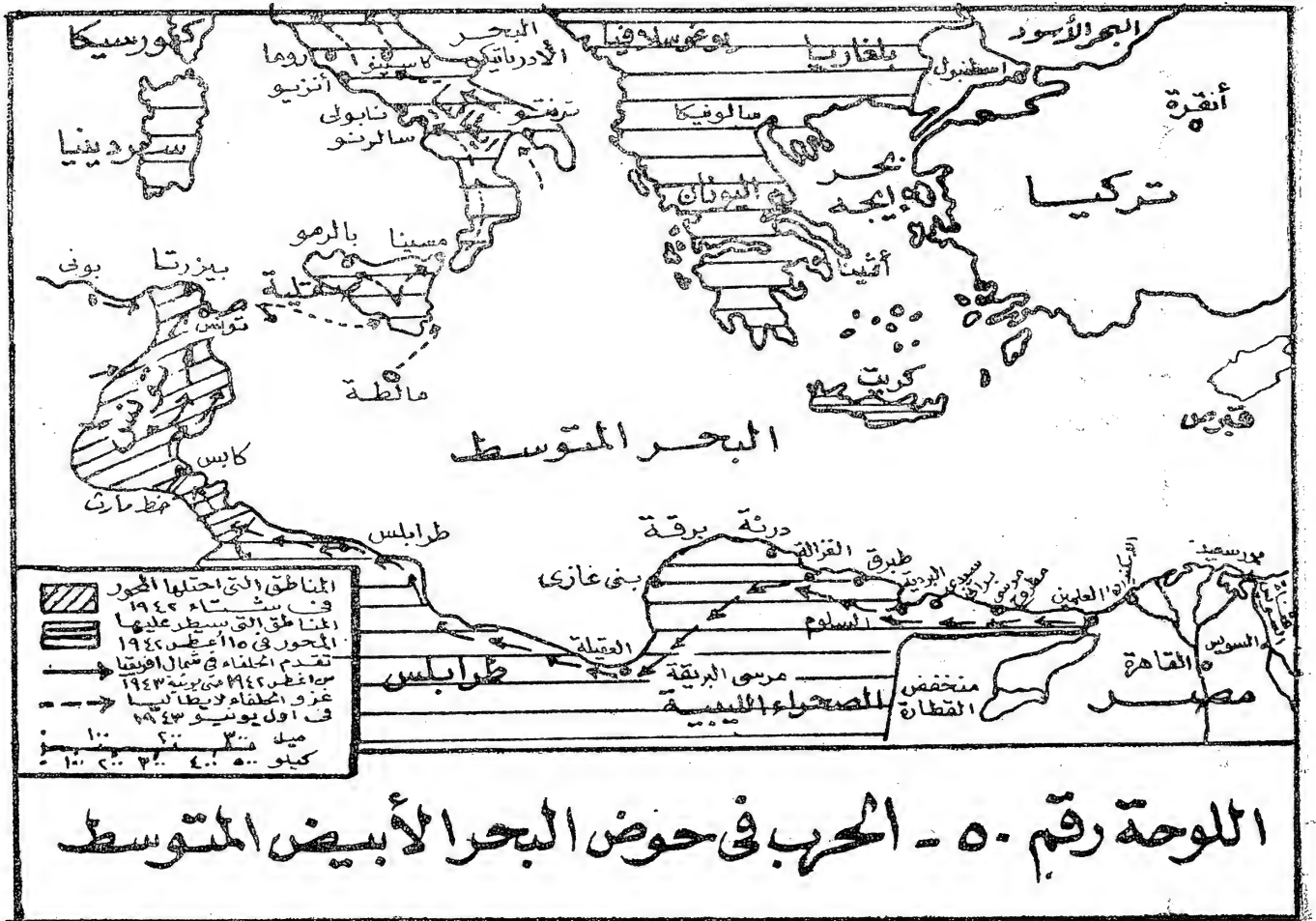
وأخذ قادته العسكريون ينظرون إلى المشكلة بأمل ضئيل وخاصة بعد أن ثبت أن إحدى قوى المحور وهي إيطاليا أضعف من أن يعتمد عليها . وكان لدى إيطاليا قوات بحرية وجوية قوية في البحر الأبيض المتوسط ، وأيضاً كان لديهم جيش كبير في ليبيا .

وفي ١٣ سبتمبر ١٩٤٠ بدأت القوات الإيطالية زحفها من برقة في اتجاه مصر وبعد إستيلائها على السلووم واصلت تقدمها حتى سيدي براني حيث توقفت . وقرر ويفل القائد العام البريطاني ، بالرغم من قواته الأقل كثيراً من القوات الإيطالية ، وجوب التصدي بشجاعة للعدو الذي يهدد مصر .

وقامت قوة الصحراء الغربية بالهجوم تحت القيادة الفعلية للميجور جنرال « أوكونور » على الإيطاليين .

وخلال ليلة ٨ — ٩ ديسمبر تمكن الهجوم من إختراق خط التحصينات الإيطالية^(١) وإستولوا عليها الواحد بعد الآخر . وبعد ذلك بليتين واصلت قوات « أوكونور » إختراقها

(١) كان الموقع الدفاعي الإيطالي مملوء بالعيوب التكتيكية فكان غير محصن ولا مدافع عنه جيداً مما سهل للانجليز الإستيلاء عليه وبسرعة .
« المغرب »



إلى البحر غرب سيدى برانى لمنع انسحاب القوة الإيطالية الرئيسية . ذلك الهجوم الذى بدأ كإغارة وتساعد حتى تحول إلى حملة .

وتم الإستيلاء على طبرق فى ٢٢ يناير ١٩٤١ ، وتقدم البريطانيون مرة أخرى للأمام بجسارة وتم الإستيلاء على « مرسى البريقة » و « العقيلة » فى ٢ فبراير . وتمكنت القوات البريطانية المكونة من فرقتين من تدمير القوات الإيطالية المكونة من عشر فرق ، وتم أسر ١٣٠٠٠ و ٣٨٠ دبابة و ٨٤٥ مدفعاً بينما خسر الإنجليز ٥٠٠ قتيل و ١٤٠٠ جريح . وكان من عوامل النجاح ، الشجاعة وخفة الحركة ، وفوق كل ذلك قيادة «أوكونور» والتعاون الوثيق المتبادل بين الأسلحة الثلاثة .

وهزم الايطاليين أيضاً فى شرق أفريقيا وى أريتريا والحبشة نتيجة خفة الحركة العالية والاندفاع بقوة بالرغم من صغر الجيوش البريطانية المهاجمة عن القوات المدافعة الإيطالية .

وخلال نفس الفترة ألحق أسطول الأدميرال « كاننجهام^(١) » خسارة فادحة فى البحرية الإيطالية .

وفى ١٥ أكتوبر غرقت ثلاث مدمرات إيطالية ، وفى ١١ نوفمبر قامت طائرات الأسطول بإغراق ثلاث بوارج إيطالية بالطوربيدات وذلك فى ميناء « تورنتو » .

وفى ٩ فبراير قصفت جوا أحواض السفن فى جنوة ، وفى ١٩ مارس وفى إشتباك خارج « كاب ماتابان » دمر « كاننجهام » ثلاث طرادات ومدمرتين ، بخسارة طائرتين فقط . كل ذلك كان نجاحاً مشجعاً . ولكن فى ١٢ فبراير ١٩٤١ وصل الجنرال روميل إلى طرابلس ومعه عناصر متقدمة من فيلقه الأفريقى ، وبدأت الأحداث تنعكس ضد البريطانيين مرة أخرى . وفى نهاية مارس هاجمت قوات روميل المدرعة قوة الصحراء الغربية فى « مرسى البريقة » وأجبرت البريطانيين^(٢) على الانسحاب . ولسوء الحظ وقع « أوكونور » فى الأسر أثناء الانسحاب . وفى ١٣ أبريل طوق روميل طبرق وتم حصارها

(١) كان هذا الأسطول متمركزاً فى الإسكندرية .

(٢) لقد ضعفت قوة الإنجليز لسحب قوات منها لعمليات فى اليونان .

ولكنها صمدت . وفي ٢٨ أبريل عبر روميل الحدود المصرية واحتل «ممر حلفايا» «والسلام» . وخلال هذه الفترة من الكوارث البريطانية إتخذت الخطوات الأولى باستطلاع مواقع دفاعية في منطقة العلمين ، لتستخدم في حالة حدوث أسوأ الاحتمالات . وقام ويفل بهجمات عديدة ولكن بدون جدوى ، وإستمر روميل مسيطراً على مسرح الصحراء .

وفي أول يولييه ١٩٤١ عين ويفل قائداً عاماً في الهند ، وعين «أوكنك» قائداً عاماً للشرق الأوسط ، وفي أكتوبر ١٩٤٠ غزا الإيطاليون اليونان ، ولكنهم فشلوا هناك أيضاً . وكان على الألمان التدخل فأجتاحوا يوغوسلافيا واليونان في ربيع ١٩٤١ . وفي ٢٠ مايو غزا الألمان جزيرة كريت ، وكانت طريقة الغزو إسقاط مظليين^(١) بعد قصف جوى للدفاعات المضادة للطائرات ثم أتبعوا هذا الإسقاط بقوات منقولة بالطائرات الشراعية وكانت عملية جريئة وماهرة بالرغم من أنها كلفت الألمان كثيراً . وسقطت كريت في أيدي الألمان ، وقد تطلبت عمليتي اليونان وكريت جلب قوات برية من الصحراء وأيضاً قوات جوية . وقد إعتبرت دائماً التدخل البريطاني في اليونان خطأ إستراتيجياً ، لأنه أضعف الجبهة البريطانية جنوب بني غازي ، وفي النهاية طردت القوات البريطانية من اليونان وكريت وبرقة .

هتلر وروسيا (العملية بارباروسيا) (أنظر اللوحة رقم ٥٠ ، ٥١)

والآن يجب علينا الآن دراسة الهجوم الألماني على روسيا ، ذلك الهجوم الذي أطلق عليه الاسم الكودي « بارباروسا » ، وبدأ الهجوم في ٢٢ يونية ١٩٤١ وتم بسرعة كبيرة وبتقدم واضح . وكانت خطة العمليات هي قيام الألمان بعمليات حصار في سلسلة من الجيوب في المناطق النائية بواسطة ضربات تقلاقي ، وتقوم بها القوات في تشكيل أرتال ، على ألا تستدرج القوات الألمانية إلى الأراضي الفسيحة المكشوفة للدولة . وكان لدى الألمان ١٤٥ فرقة ، منها ٢٠ فرقة مدرعة ، وكذلك بعض قوات من الدول التابعة لهم . وكان على هذه القوات مهاجمة ١٥٨ فرقة روسية و ٥٥ لواء مدرع محتشدة بالقرب من الحدود . ونجحت طريقة الضربات المتلاقية نجاحاً كبيراً ، وتم أسر قوات روسية وبأعداد كبيرة خلال عام ١٩٤١ . وقام جوديريان بقيادة فرقة مدرعة واحدة في أربع عمليات الحرب ، وذلك في ضربته الموجهة إلى «سمولنسك

(١) أصبح هذا الأسلوب معيماً في جميع الجيوش المتحضرة في الوقت الحاضر . «العرب»

وتطويقه القوات المعادية^(١) في هذه المنطقة . ووقعت المعارك الرئيسية عند « كييف » و « فيازما برياتسك » و « بحر أزوف » . ولكن قبل حلول الشتاء ، وبعد أن قطع الألمان ٧٠٠ ميل ووصلوا إلى مسافة ١٥ ميلا من موسكو ، صدرت أوامر هتلر لقادته بعدم القيام بضربة نهائية على مرا كز المواصلات الروسية والعاصمة الشيوعية . وتولى هتلر القيادة العليا المباشرة من الفيلد مارشال « فون براوشيتش » وإنسحب الألمان بعض الشيء إلى الخلف لتمضية فصل الشتاء . وكانت الوحدات الألمانية غير مجهزة لمقاومة شتاء روسيا ال رهيب^(٢) وعانت أيضاً كثيراً من الهجمات المضادة للروس ، ولكنها تحملت مشاقاً صعبة بثبات وجلد رائعين . وفي ربيع ١٩٤٢ ، امتدت الجبهة الشرقية من « ليننجراد » إلى « روستوف » على نهر الدون ، وبالتالي كان يحتل الألمان أفضل مناطق القمح الروسية وأيضاً مناطقها الصناعية الرئيسية . وفي البداية رحب الشعب الروسى بالألمان كمحررين له من حكم ستالين ولكن هتلر فشل في الاستفادة من ذلك ، وقرر أن أفضل وسيلة للتهدئة هي القسوة والتدمير . وتمت عمليات إخلاء جماعية للسكان بواسطة « وحدات الأمن » بأوامر من « هتلر » ومن ذلك الوقت وما بعده أصبح التعذيب والقتل من أكثر الأمور شيوعاً . وهكذا كانت معاملة الألمان مع الذين هزموهم أو أسروهم .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه السياسة ، هي حرب للمقاومة السرية المهلكة والتي امتدت في كل المناطق المحتلة في أوروبا الشرقية ، وقامى الألمان منها الكثير . وإستأنف الألمان الهجوم في عام ١٩٤٢ ، قاصرينه على الجبهة الجنوبية من « كورسك » حتى « خار كوف » وزحف للأمام حوالى ٥١ فرقة ألمانية يدعمها تفوق جوى كامل ، إلى « فرونز » على الجانب الأيسر ، وإلى « ستالينجراد » في الوسط ، وذلك كتوطئة لهجوم حاسم في القوقاز بغرض الإستيلاء على حقول البترول . ولكن قبل أن يتم ذلك ، قام الروس بهجومهم المضاد عند « ستالينجراد » . وقد صمد الروس قبل ذلك أمام هجوم الألمان عند « ستالينجراد » بأذلين في ذلك مقاومة عنيفة . وخلال هذا الوقت أخذت القوة الروسية تزداد بسرعة عن طريق الإنتاج المتزايد

(١) لم يكن الروس مجهزين بالمعدات أو حتى الأفكار التي تمكنهم من مواجهة تكتيكات الهجوم الخاطف .

(٢) كانت القوات الألمانية ترتدى الملابس الصيفية ولم يجهز لها ملابس لشتاء روسيا وذلك لإعتقاد

« العرب »

هتلر بأن حمة روسيا ستنهى قبل حلول الشتاء .

للمصانع الواقعة خلف مناطق القتال ، وأيضاً بواسطة المساعدات الأمريكية والبريطانية التي دفعت لهم عن طريق إيران وعن طريق البحر حول الرأس الشمالى للنرويج ، فى نفس الوقت توالى رجال أ كفاء قيادة الجيش الأحمر . وفى نوفمبر ١٩٤٣ ، وبعد أن دعموا بقوة تحول الروس إلى الهجوم تحت قيادة المارشال زوكوف ، هذا الرجل العسكرى الممتاز والذى أعرفه جيداً ، وأغلق طرفى الكماشة على ١٨ فرقة ألمانية ورومانية عند ستالينجراد ، ولم يسمح لهم بالانسحاب . وفى ٣١ يناير ١٩٤٣ إستسلمت القوات المتبقية من الجيش السادس الألمانى بقيادة الجنرال « باولوس » . وفى نفس الوقت قام الروس بفك حصار لينينجراد . وإضطروا الفيلد مارشال فون ليست إلى سحب مجموعة الجيوش الألمانية من القوقاز ، حتى يتفادى وقوعها فى الفخ ، وأيضاً لكي يتمكن من إصلاح جبهة الدون . وقد تم هذا الانسحاب من خلال « روستوف » بمهارة عظيمة .

وكان الروس فى ذلك الوقت يتقدمون بخطوات واسعة حتى وصلوا إلى « خار كوف »^(١) فى منتصف فبراير ١٩٤٣ .

ومن الجدير بالذكر أن الروس فى تقدمهم نحو « خار كوف » إضطروا للتوقف لفترة ، لأن « مانشتين » كان موطئاً أقدامه فى هذه المنطقة ، كما جعل ذوبان الثلج فى الربيع ، التحركات صعبة . وفى يولية قام الألمان بأقوى هجوم مدرع فى الحرب عند « كورسك » ، ولكن الروس صمدوا بصلابة . وخلال هذا الوقت كان الجيش الروسى تزداد قوته بالتدريج فى العتاد والأعداد ، تحت قيادة قادة جدد ، وعلى الخصوص « كونيغ » و « ركوسوفسكى » اللذين أعرفهما . ولم تعد الآن القوة الألمانية هى ذاتها القوية كما كانت فى عام ١٩٤١ . وفى سبتمبر وصل الروس إلى « سمولنسك » فى الشمال ، وعلى نهاية عام ١٩٤٣ وصلوا إلى « كييف » فى الجنوب . وبدأ المد فى التحول فى الجبهة الروسية نحو أما كن أخرى . وفى الشهور الستة التالية إعتباراً من أ كتوبر ١٩٤٢ (معركة العلمين) تم طرد الألمان من شمال أفريقيا ، وأتبع الحلفاء هذا النصر بالإستيلاء على جزيرة صقلية وبنزوا إيطاليا .

وفى هذا الوقت كان الأمريكيون قد قطعوا شوطاً كبيراً فى بناء قوتهم الضخمة والتي كان

الإحتياج إليها شديداً . وفي شتاء ٤٢ — ١٩٤٣ تصاعد قصف الحلفاء الجوى لألمانيا . وفي صيف ١٩٤٣ تحولت الحرب في الأطلنطى بشكل حاسم في صالح البريطانيين والأمريكيين .

تشرشل يقابل روزفلت

وفي يناير ١٩٤٣ وعلى ثقة بالنصر ، تقابل تشرشل مع روزفلت في « كارابلانكا » لتحديد إستراتيجيتهما ، وأعلن كلاهما أن سياسة الحلفاء تهدف إلى الحصول بالقوة على « إستسلام » ألمانيا وإيطاليا واليابان بدون قيد ولا شرط .

وقد اعتبرت دائماً هذا القرار خطأً مفاجئاً ، وما أدى إليه هذا القرار لخصه المرحوم اللورد هانكي في كتابه « السياسة — تجارب وأخطاء » قائلا : — « لقد زاد هذا القرار من مرارة الحرب ، وأصبح لامناص من القتال حتى النهاية ، وأغلق الباب في وجه أى إحتمال ليقتدم أى من الجانبين شروط أو البدء في مفاوضات ، معطياً للألمان واليابانيين شجاعة اليأس ، مقويهاً من مركز هتلر « كأمل ألمانيا الوحيد » ، ومدعماً بدعاية « جوبلز » ، جاعلاً من النزول في نورماندى أمراً محتوماً ، وما ترتب على ذلك من تقدم قاسى منهك ومهلك ، عبر شمال فرنسا وبلجيكا ، ولو كسمبورج وهولندا وألمانيا .

وأدت إطالة الحرب إلى تمكين ستالين من إحتلال كل شرق أوروبا وإسدال الستار الحديدي عليها .

وقد أدى القضاء على أكثر العناصر كفاءة في ألمانيا واليابان إلى تأخير إعادة الحياة وإعادة التعمير . ومن سوء الحظ أيضاً أن تلك السياسة لم تفعل أى شئ لتقوية الجانب المعنوى للحلفاء .

ولكن منذ أن تحولت الحرب إلى صالح الحلفاء أصبح التسليم غير المشروط لكل أعدائهم^(١) هو هدف الحلفاء الإستراتيجى . وأقترح الآن أن نتطلع أكثر قرباً إلى جوانب معينة من هذه التطورات الإستراتيجية .

لقد كان الهجوم على روسيا هو خطأ هتلر المميت ، فقد كان هذا حماقة مزدوجة منه أن

(١) فيما يختص بألمانيا الهتلرية ، فعندما انتهت الحرب لم تكن هناك حكومة يمكنها الاستسلام ،

بل مجرد قيادة عليا فقط .

« الممر »

يقوم بذلك قبل أن ينتهى الألمان بنجاح فى الحرب ضد بريطانيا فى البحر المتوسط وفى شمال أفريقيا . ولو أرسل هتلر جزء من القوات والمعدات التى إستخدمت ضد الروس إلى أفريقيا ، وخاصة الفرق المدرعة ، فكان من المحتمل إمكان إستيلاء الألمان على مصر وقناة السويس بل كان من الممكن إنشاء معقل لهم فى الشرق الأوسط .

الرمية الاخيرة للمقاتل (أنظر اللوحة رقم ٥٠)

وخلال كل هذه الحرب ، إعتمد النجاح فى الحرب فى الصحراء الأفريقية بطبيعة الحال على القيادة ، ولكنه إعتمد أيضاً بدرجة ملحوظة على عاملى المعدات والأمداد ، وتلك هى المشكلة التى سأقوم الآن بمناقشتها .

ولقد كانت التغيرات الهامة التى طرأت على ميزان هذين العاملين هى السبب الرئيسى فى تحرك كلا الجانبين جيئة وذهاباً عبر الصحراء . وهزم ويفل الإيطاليين عام ١٩٤٠ بقوات أقل عدداً ولكنها أحسن تجهيزاً . ثم وصل روميل ومعه فيلقه الأفريقى ، وتغير الميزان إلى صالح المحور .

وفى عام ١٩٤١ وحتى خريف ١٩٤٢ نوفر لدى الألمان تفوقاً فى المعدات حيث كانت دباباتهم أفضل تسليحاً من الدبابات البريطانية والتى كانت مدافعها أقل قدرة . وعلى سبيل المثال كان المدفع البريطانى المضاد للدبابات ٢ رطل ، بل وحتى المدفع ٦ رطل أقل قوة من المدفع الألمانى ٨٨ مم والذى يستطيع إختراق درع سميك للدبابة على مسافة ٢٠٠٠ ياردة . وفى الحقيقة كان هذا المدفع مدفعاً مضاداً للطائرات ، ولكن وجد روميل أنه يصلح كمدفع مضاد للدبابات وله تأثير فعال عليها ، وقد إستخدمه عادة فى هذا الواجب . وأمثلة أخرى لتفوق المعدات الألمانية ، هو خزانات البترول والمعروفة باسم « جيريكان » ، وكذلك ناقلات الدبابات والتى كانت توفر إستهلاك الجنزير .

ومن الجدير بالذكر أن المعدات التى تعطى تفوق فى خفة الحركة وقوة النيران لها قيمة

كبيرة فى الحرب فى الصحراء المفتوحة . نظراً لعدم إعتمادها على الدفاعات الثابتة . وأفضل

الوسائل فى كسب المعركة هى السرعة والمناورة الواسعة والتفوق فى قوة المدفعية والمدرعات .

وقد شبه ويفل فى ذات مرة تكتيكات الحرب فى الصحراء بالحرب فى البحر .

وكانت الألغام تزرع بكثرة في الصحراء تماماً مثلها كانت توضع في البحر . ولقد إمتلك الألمان التفوق في المعدات ، ولكنهم لم يتفوقوا دائماً في الإمداد ، والذي كان من العوامل ذات التأثير الكبير . وأدى إحتفاظ البريطانيين بطرق بعد كارثة مارس ١٩٤١ إلى حرمان روميل من أحد القواعد الهامة .

أما بالنسبة لبريطانيا ، فكانت مالطة نقطة حيوية لإمداد البريطانيين وفي نفس الوقت قاعدة يمكن أن تخرج منها الغواصات والطائرات لمهاجمة خطوط إمداد العدو . ولم يلق الألمان إنتباهاً كافياً لمالطة في عام ١٩٤١ ، ولذلك في أغسطس من هذا العام فقد الألمان والإيطاليون ٣٥٪ من إمداداتهم وتدعيماتهم عند محاولتهم عبورها البحر المتوسط ، وإرتفع الرقم في الخريف إلى ٧٥٪ .

وفي الفترة بين أكتوبر ١٩٤١ وأوائل يناير ١٩٤٢ ، إفتقر روميل نسبياً إلى الإمدادات ، ولذلك إستطاع «أو كنلك» على إرغام روميل مع دفعه للخلف إلى العقيلة ، ملحقاً به خسائر جسيمة في الرجال والمدركات ، وعندئذ أدرك الألمان مدى ما لعامل الإمداد من أهمية حيوية .

وفي شتاء عام ١٩٤١ تحولت ٢٥ غواصة من الأطلنطي إلى البحر المتوسط ، وفي ديسمبر بدأ المحور هجوماً قوياً على مالطة ، ونتيجة لهذا الهجوم ، لم تفقد قوات المحور في يناير ١٩٤٢ طناً واحداً من الإمدادات خلال عبورها البحر المتوسط ، بينما بلغت خسائر البحرية البريطانية حداً فادحاً في هذه الفترة .

وهنا بدأ دور البريطانيين في المعاناة من نقص الإمدادات . فقد كان «أو كنلك» قد تقدم لمسافة طويلة ، وأصبح جيشه بعيداً جداً عن قاعدته الإدارية في مصر .

وفي نهاية يناير ١٩٤٢ عاود روميل الهجوم ، ، ولكنه توقف عند خط الغزاة ، ثم هاجم ثانية في أواخر مايو وإستولى على طبرق في ٢١ يونيه ، وأصبحت مالطة في خطر عظيم . وواصل روميل زحفه بسرعة تميزت بالمهارة والجرأة . وطرده البريطانيين من مرسى مطروح حتى قبل أن يتمكنوا من تجميع شملهم .

وفي نهاية يونيه ١٩٤٢ وصل إنسحاب الإنجليز حتى خلف موقع العلمين ، حيث أنشأوا

موقعاً دفاعياً صعب الإجتياز بين البحر ومنخفض القطارة ، وكان مواجهة الموقع الدفاعي ٣٠ ميلاً في خط مستقيم . وخلال شتاء ٤١ - ١٩٤٢ كان على « أو كينك » أن يرسل بعض قواته للحرب ضد اليابان ، وبطبيعة الحال إفتقر إلى القوات والمعدات ليسدد ضربته إلى روميل . وعلى كل حال صمد موقع العلمين بصلافة في وجه هجمات روميل فلم يكن لهذا الموقع أجناباً مفتوحة . ومرة أخرى تأرجح بندول الإمدادات مع الألمان وهم على مسافة ٦٠ ميلاً فقط من الإسكندرية ، ووجد جيش روميل نفسه في نهاية خط إمداد طويل . وقام كل من « أو كينك » و« تيدر »^(١) باستغلال هذه الفرصة بمهارة وذكاء ، وقامت القوات الجوية بقصف مركز الإمداد الألماني فقط على طول الشاطئ ، في مرسى مطروح والبردية وطبرق ، حتى أصبحت أقرب قاعدة إمداد لروميل هي بنى غازى والتي تبعد ٦٨٠ ميلاً إلى الغرب من العلمين ، وأكثر من ذلك فقد أجل هتلر التصفية النهائية لمالطة ، مما أدى إلى تحسين موقف الإمداد البريطانى .

ووصلت قوات إضافية وأرسل الأمر يكان ٣٠٠ دبابة شيرمان و ١٠٠ مدفع ذاتى الحركة ، وأصبح الميزان متكافئ مع الألمان .

وكان هذا هو الموقف فى منتصف أغسطس ، عندما حل الجنرال « الكسندر » محل « أو كينك » كقائداً عاماً للشرق الأوسط ، وعينت أنا قائداً للجيش الثامن وقد وضحت بجلاء للجيش الثامن عن مدى تصميمى على هزيمة روميل وجيشه مرة واحدة وللأبد ، وذلك بطرد قوات المحور كلية من أفريقيا . ولكنى قررت فى نفس الوقت ألا أبدأ المحاولة حتى تكون قواتى مستعدة تماماً ، وهو ما كنت أذكره كثيراً للضباط والجنود . فكان يجب أن تتوفر لنا الإمدادات الكافية ليس فقط لهزيمة روميل فى العلمين ، ولكن أيضاً لمطاردته غرباً حتى نستطيع فتح موانى طبرق وبنى غازى . وبناءً على ذلك أمضيت شهرين فى بناء الجيش وروحه المعنوية . وقت بإدخال نظام فعال وجديد فى القيادة ، بحيث يتولى رئيس الأركان كل تفاصيل أعمال القيادة بينما أفرغ أنا للتركيز على المشكلة الرئيسية الخاصة بهزيمة خصمى الشهير روميل .

وفي ٣٠ أغسطس قام روميل بالهجوم على الجيش الثامن ، وهو هجوم بمثابة الرمية الأخيرة للمقامر بغية الوصول إلى القاهرة والإسكندرية .

وكان هدفه تبه « علم حلفا » والتي تمثل المفتاح الحقيقي لموقع العلمين ، وكنت متوقفاً مثل هذا الهجوم وقد فكرت بعمق في إنتصارات روميل السابقة في الصحراء ، ولاحظت أن تكتيكيه المفضل هو إغراء الدبابات البريطانية على مهاجمة مدرعته والتي تكون محمية بستارة من المدافع المضادة للدبابات ، حيث يتم تدمير جزءاً كبيراً من المدرعات البريطانية ، ثم يقوم بعد ذلك بدفع مدرعته لتوجيه ضربة قاضية لما تبقى من المدرعات البريطانية . وقررت أن ألعب معه بنفس تكتيكه .

ففي معركة «علم حلفا» تلقت قواته ضربات عنيفة من المدافع المضادة للدبابات البريطانية وكذلك من الدبابات المتمركزة في مواقع دفاعية مجهزة ، حتى اضطر روميل إلى إيقاف القتال والإسحاب وبذلك كسبت أولى معاركي مع روميل ، وكانت معركة دفاعية . في ذلك الوقت لم يكن قد مضى على وقت طويل في الصحراء ولكن كان يدور بخلدني نقطة راسخة ، بأن حرب الصحراء لا يناسبها أن يتم السيطرة عليهما من بعيد . وقررت خلق قيادة واضحة ، تمكنني من أن أقبض بقوة على زمام الجيش الثامن بحزم وبطريقة تعتمد على وضوح الرؤيا حتى لا يكون هناك مجالاً للشك في أي شيء .

دحر جيش روميل في شمال أفريقيا (أنظر اللوحة رقم ٥٠)

وبعد معركة «علم حلفا» مضيت في تحضيراتي إستعداداً للهجوم الكبير الذي صممت أن يكون هو بداية لنهاية روميل في أفريقيا .

وقد توفر لنا التفوق الكبير في القوات والمدرعات كما كان لدينا التفوق الجوي بنسبة ٣ : ١ ، في نفس الوقت كان الألمان تفتقر بشكل كبير إلى البترول . ولما كانت المفاجأة الإستراتيجية غير ممكنة فقد خططت للحصول على المفاجأة التكتيكية . وقمنا بتنفيذ خطة خداع متقنة بواسطة إقامة منشآت هيكلية مع تنفيذ بعض العمليات المتنوعة المضللة وذلك حتى نقنع روميل بأن هجومنا الرئيسي سيكون في الجنوب بينما كنا سنوجهه في الشمال . وفي الحقيقة كانت خلاصة الخطة هي فتح ثغرتين في جبهة العدو في الشمال حيث يقوم المهندسون

بتطهير الثغرات خلال حقول الألغام مستخدمين في ذلك مكتشفات الألغام مع معاونة الدبابات الدفاعة^(١) ، ثم تتقدم فرق المشاة خلال الثغرات على أن تتبعها الفرق المدرعة^(٢) . وقدرت أن فرق روميل المدرعة سوف تقوم بالهجوم على فرق المدرعة وهي في مواقعها المجهزة وذلك لإتخاذ مشاتها من التدمير .

وأثناء هذا القتال يقوم فرق المشاة البريطانية بهزيمة مشاة العدو بعمليات « تفتيت » على الأجانب وفي المؤخرة .

وقد تم ذلك تماماً كما قدرت ، وقد بدأت معركة العلمين في ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ وكانت معركة قاسية ، وقد قوبل هجومنا بمقاومة يائسة ، وكانت الهجمات المضادة لمدرعات العدو عنيفة ، وقد ازدادت مقاومة الألمان في الشمال حيث كان مخططاً أصلاً لعملية إختراقنا الرئيسي ، لذلك قررت أن تكون ضربتنا النهائية للاختراق إلى الجنوب قليلاً وبالذات في المنطقة التي يحتلها الإيطاليون من الموقع الدفاعي . وفي ٢ نوفمبر تمت هذه الضربة القاضية والتي تسمى « عملية سوبر تشارج » .

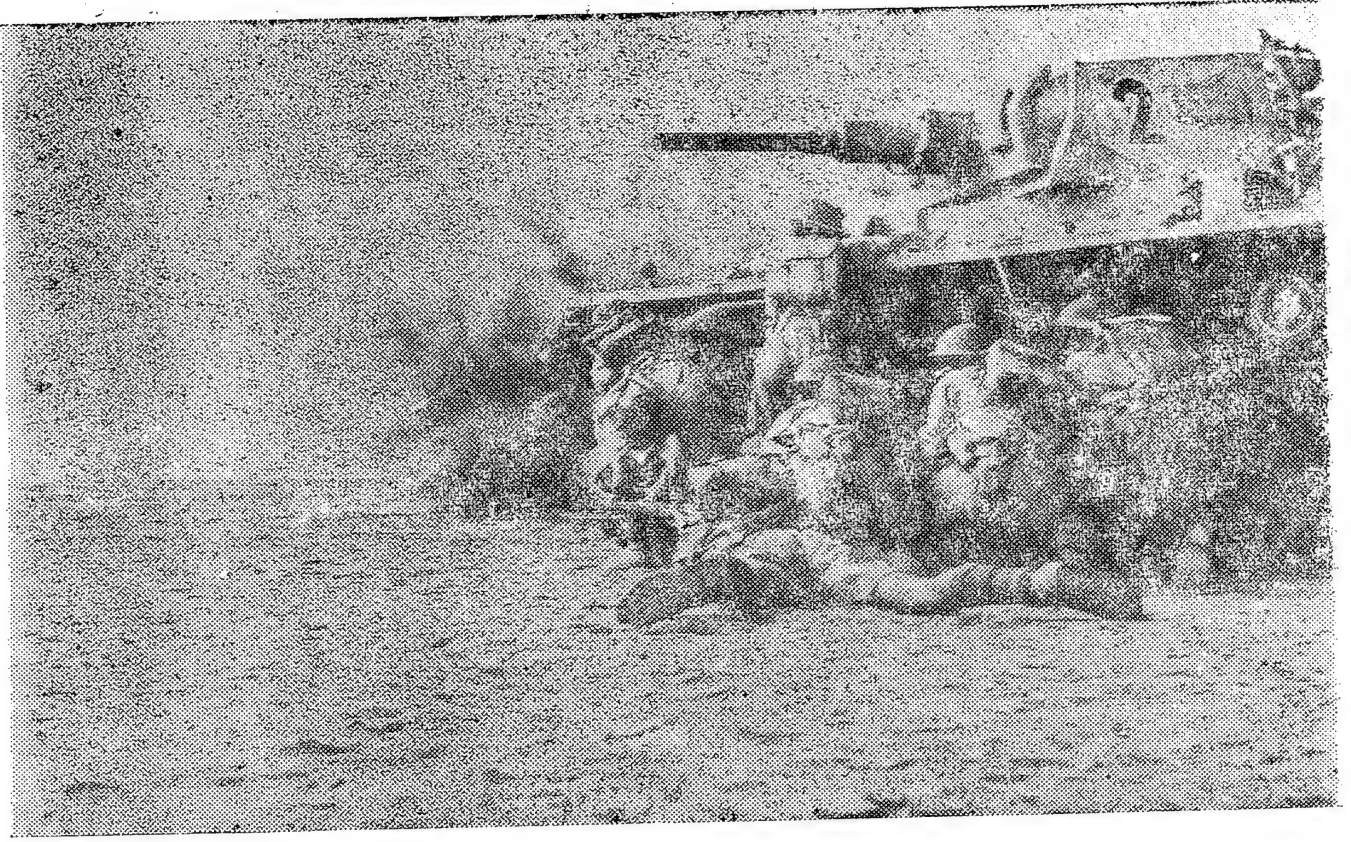
ولقد كتب الكثير عن معركة العلمين ، وفي الواقع فإن القليل جداً من المعارك الحديثة قد لقيت إلتفاتاً كبيراً من الكتاب البريطانيين مثلما لقيت هذه المعركة ، ولا يسمح لي الحيز هنا بمناقشة المعركة بالتفصيل^(٣) .

وفي ٤ نوفمبر كان من المؤكد أن المعركة قد كسبت ، وإلى مدى بعيد كانت هذه المعركة في نظر البريطانيين نقطة التحول في الحرب ، وقد إستمرت هذه المعركة ١٢ يوماً أسرنا خلالها ٣٠.٠٠٠ أسير من بينهم ٩ جنرالات ، بينما خسرنا حوالي ١٣.٠٠٠ مقاتل من جميع الرتب ، وبعد ذلك بدأت المطاردة .

(١) الدبابات المجهزة لتفجير الألغام الموجودة في الثغرات .

(٢) كانت على كل المدرعات البريطانية أن تحتل مواقع مجهزة على طرق الاقتراب خلف الموقع الدفاعي المشاة الألمانية في حين تقوم المشاة البريطانية بتدمير المشاة الألمانية الموجودة في الموقع تحت ستر المدرعات الإنجليزية .

(٣) يمكن الرجوع لهذه المعركة في قرارات هتلر المميته التي سوف تنشر بعد سلسلة « الحرب عبر التاريخ » حيث يوجد جزء كامل يتكلم عن معركة العلمين . ويمكن أيضاً الرجوع إليها في مذكرات روميل تعريب العميد فتحي النمر ، وبطلب من الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . « المعرب »



القوات المدرعة والمشاة البريطانية في معركة العلمين وهي تقاتل في تعاون وثيق

لقد استطاع روميل قبل ذلك التخلص من المعركة لينسحب قبل أن يجبر على ذلك ، ولكن كان عادة إنسحابه في ذلك الوقت لأسباب إدارية ، وعلى كل حال لم يحدث أن هزم روميل في أى وقت أو في أى معركة أثناء حرب الصحراء قبل ذلك ، ولكن ذلك قد حدث الآن . وظل هدفى قائماً والذي يتضمن طرده هو وقواته من أفريقيا . لقد أصبح فى ذلك الوقت يفتقر للوقود بدرجة كبيرة لدرجة أنه أصبح غير قادر على القيام بأى مناورة كبرى ، ولكنه كان قائداً ممتازاً . وقد قام بهجمات مضادة عديدة علينا ، كنا نعتبرها بعيدة الاحتمال .

وصممت على ألا تكون هناك عودة إلى الخلف بعد ذلك فى حرب الصحراء ، كما كنت غير مستعداً للقيام بأى مخاطرات فاشلة خلال المسيرة الطويلة إلى طرابلس ، وبعد ذلك إلى يونس ، علاوة على ذلك كنت أريد أقل خسائر ممكنة .

لقد أستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإصابة المطاردة ، بسبب الارتباك في منطقة الإختراق بعد المعركة ، علاوة على هطول الأمطار .

ولكن عندما تحرك الجيش الثامن ، تحرك بسرعة ، واضعاً نصب عينيه باستمرار على النقط الحيوية للإمداد في طبرق وبني غازي وطرابلس . ووصلنا إلى طرابلس في ٢٣ يناير ١٩٤٣ ، وبمجرد فتحنا للميناء فلم يعد هناك أى خطر كبير في المستقبل من فقداننا التفوق نتيجة نقص في الإمدادات .

وفي نفس الوقت ، في شهر نوفمبر نزات قوات أنجلو — أمريكية تحت قيادة الجنرال أيزنهاور في شمال أفريقيا الفرنسي ، وأصبح روميل الموجود في تونس محصوراً بين قوتين . ولكنه قد قام في فبراير بتوجيه ضربات أليمة وحادة للأمريكيين في منطقة « ممر كاسرين » .

ولكن في ٣٠ مارس هاجمه الجيش الثامن عند « خط مارث » حيث طوق جناح الألمان الأيمن مجبره على الانسحاب ، وكانت هذه بداية النهاية .

وفي ٣١ مايو ١٩٤٣ استسلمت قوات المحور في تونس . وتم تطهير البحر الأبيض المتوسط للملاحقة الحلفاء بالإستيلاء على صقلية والتي تم إجتياحها فيما بين ١٠ يولية و١٦ أغسطس .

وبدأ غزو إيطاليا في ٣ سبتمبر ، وسرعان ما استسلمت القوات الإيطالية ، ولكن القوات الألمانية في إيطاليا قاومت بعنف .

أما تقدم الأمريكيون على الساحل الغربي ، والبريطانيون على جانب الأدرياتيك فقد ساهم شيء من البطء بسبب حلول الشتاء في إيطاليا .

القصف الجوي على ألمانيا

يجب على القارئ أن يعرف الآن بعض الشيء عن القصف الجوي على ألمانيا . فقد بدأ البريطانيون قصفاً إستراتيجياً ضد هذه الدولة في مايو ١٩٤٠ . وحدد الغرض منه بعد ذلك في مؤتمر « كازابلانكا » في يناير ١٩٤٣ بأنه : —

« تدمير وتعطيل متزايد للجهاز العسكري والصناعي والاقتصادي لألمانيا ، وإضعاف

الروح المعنوية للشعب الألماني حتى تصبح قدرته على المقاومة المسلحة ضعيفة للغاية » . وكان الهدف من القصف هو إتمام الحصار البحري ، بضرب قواعد القوة الاقتصادية لألمانيا ، هذا القصف الذي جعل من صراع ٣٩ - ١٩٤٥ « حرباً شاملة » . ولقد تمت أول غارة جوية في ليلة ١٥ مايو ١٩٤٠ ، وذلك عندما قامت قوة بريطانية من ٩٩ قاذفة بمهاجمة أهداف السكة الحديدية وخزانات البترول في الرور ، وإستمر القصف بعد ذلك طول عامي ٤٠ ، ١٩٤١ ، ولكن لم تكن النتائج كما كانت مأمولة .

وكان القصف النهاري غير مرغوب فيه نظراً لقوة المدفعية الألمانية المضادة للطائرات وأيضاً خوفاً من المقاتلات الألمانية .

وبناء عليه فقد تعين القيام بالغارات ليلاً ، ولكن حتى ذلك جعله الألمان خطيراً جداً نتيجة لإستعانتهم بالرادار . وعلى أي حال فلم يمكن تحقيق الدقة على الأهداف المختارة . وفي المجموع كان تأثير القصف ضعيفاً على الإنتاج الكلي لألمانيا في ذلك الوقت . وفي عام



مدينة هامبورج بعد قصفها ب ٩٠٠٠ طن من القنابل

١٩٤٢ زادت كثافة الهجوم الجوي ، فقد دخل الأمريكيون الحرب . وبدأ في أول مارس إستخدام أول قاذفات « لا نكستر » وهي طائرة قوية يعتمد عليها وذات أربع محركات . وفي فبراير إستلم المارشال الجوي « ماريس » قيادة كل القاذفات الهجومية البريطانية ، وإستطاع عن طريق ما يتمتع به من طاقة ومن نشاط أن يدخل التطوير والتحسين على أسلوب هذا الهجوم . فأرتفع بمستوى تدريب الملاحين وقاذفي القنابل ، وفي أغسطس ظهرت قوة « باثفيندر » ، وهي قوة من القاذفات الموسكيتو الخفيفة السريعة التي لها قدرة على المناورة . وكانت هذه القوة تسبق القاذفات من أنواع « اللانكستر » و « الستيرلينج » و « الهايلفا كس » ، لتحديد لهم الهدف بدقة . وفي عام ١٩٤٣ ظهرت أنواع عديدة من أجهزة الرادار للمساعدة في الملاحاة والتدشين . وفي مايو ١٩٤٣ تصدعت السدود في كل من « سدى » و « موهن » و « أودر » بفعل الغارات التي قام بها سرب « جيبسون رقم ٦١٧ » والتي أعتبر عملاً مثيراً للإعجاب . وألقيت ٩٠٠٠ طن من القنابل في أربع هجمات رئيسية على « هامبورج » ثم تحول القصف إلى برلين بالغارات الأمريكية النهارية والغارات البريطانية الليلية . وقد أدى إصرار الأمريكيون على الغارات النهارية إلى فقد كثير من طائراتهم القاذفة من أنواع « الفورترس » و « الليبيريتور » خلال عامي ٤٢ ، ١٩٤٣ ، ولكن تغير الموقف بظهور الطائرة المقاتلة البعيدة المدى « ب ٥١ موستانج » . وفي عام ١٩٤٤ ، حصل الحلفاء على السيطرة الجوية فوق ألمانيا ، ولكن حتى في عامي ٤٣ — ١٩٤٤ فالهجمات الجوية لم تحقق ما كان مطلوب تحقيقه من إصابة العدو بالشلل . وعلى أى حال ، فقد أدى قصف الحلفاء الجوي إلى دفع الألمان على التركيز على إنتاج الطائرات المقاتلة ، مع توقفهم تقريباً عن أى قصف جوى كانوا يقومون به ،

ألمانيا والحرب البحرية

سوف نتحول الآن إلى الحرب في البحر . ففي ١٧ أغسطس أعلن هتلر فرض الحصار الكامل على بريطانيا ، وكانت للحرب في البحر ضد ألمانيا أهمية بالغة ، لأن بريطانيا لم تكن قادرة على إمداد نفسها ، على نحو كاف بالطعام والسلاح إلا بواسطة الأستيراد . ومن ناحية أخرى ، فقد أهمل هتلر بناء قوة بحرية كافية قبل أن يبدأ في تحقيق أغراضه ، وبالنسبة إلى لم

تعدن القوة البحرية الألمانية كافية لتنفيذ حصار مؤثر . وهكذا لم يكن لدى الألمان أى أمل فى السيطرة على القنال البريطانى بقوة بحرية من أجل مشروع غزو بريطانيا . وأصبحت الاستراتيجية الألمانية فى البحر ثلاثية : — الغواصات التى تخرج فى مجموعات — سفن السطح التى تخرج فى أنساق — القاذفات التى تقصف الملاحه على بعد كافى من الشواطىء . أما البحرية البريطانية فقد أستخدمت فى الدفاع عن القوافل البحرية ومطاردة سفن السطح الألمانية ، ولكنها كانت فى الحقيقة مقيدة لأن الكثير من سفنها كانت قديمة علاوة على النقص فى الغواصات والطائرات . ومنذ البداية كان الصراع متكافئاً تقريباً فوق سطح البحر . وفى يناير ١٩٤١ غادر الأدميرال « لوتجنز » ميناء « كييل » ومعه السفينتين « شارنهورست » و « جنيسناو » فى جولة لمدة شهرين ، وفى خلالها أغرق وأسر ٢٢ سفينة^(١) . كما تمت بنجاح غزوات مدمرة مماثلة للألمان بواسطة بارجة الجيب « شير » والطراد الثقيل « هير » ، ولكن كان للأنجليز ضرباتهم أيضاً . وفى ديسمبر ١٩٣٩ قامت ثلاث طرادات بقيادة « الكومادور هاروود » باستدراج بارجة الجيب الألمانية « جراف سي »^(٢) للدخول فى معركة معها خارج نهر « بلات » ، وأعطب البريطانيون البارجة الألمانية بدرجة أنها أغرقت بأوامر من قائدها . كما قام الأدميرال كاننجهام بأجتياح الأسطول الإيطالى فى البحر المتوسط . وأخيراً أغرقت المدمرتين « بسمارك » و « شارنهورست » .

أما بالنسبة لعمليات الغواصات الألمانية فقد كانت مؤثرة وخطيرة جداً على بريطانيا . وفى عام ١٩٤٢ فقد الحلفاء ١٦٦٤ سفينة^(٣) من بينها ١٦٠ ر ١ سفينة أغرقت بواسطة الغواصات . ولفترة فى عام ١٩٤٢ عانت بريطانيا معاناة عصبية من النقص فى البترول . وقد تمت معظم عمليات الغواصات عبر المسالك البحرية خلال الأطلنطى ، ولكن كانت هناك مناطق حيوية أخرى مثل « المحيط الهندى وطريق القوافل إلى مالطة والطريق إلى جزر الأركبيل » كلها طرق بحرية خفيفة للبحارة ، وقبلما نجت السفن من الغرق فى مياهها

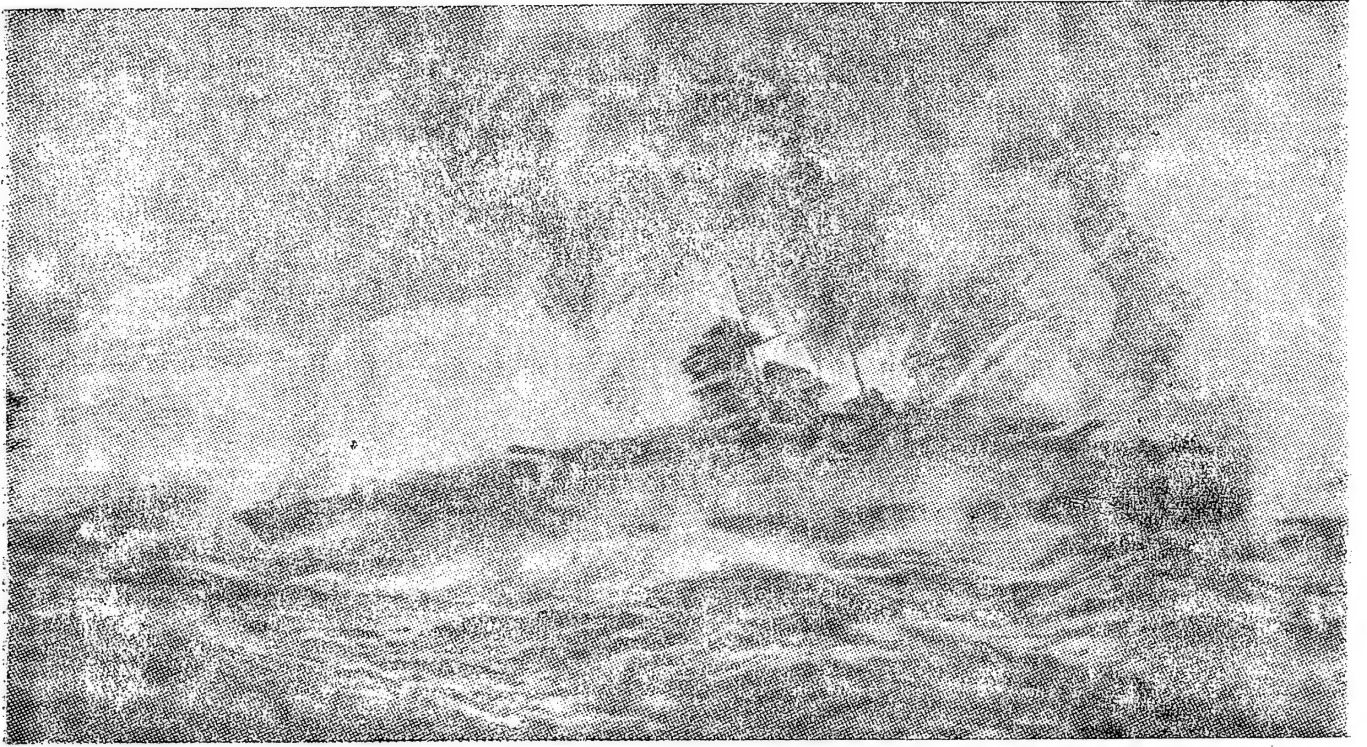
(١) كانت حمولات هذه السفن حوالى ٦٠٠ و ١١٥ طن .

(٢) لقد كانت البارجة قد أغرقت تسعة سفن بريطانية .

(٣) حمولاتها حوالى ٦٩٧ و ٧٩٠ و ٧ طن .

الثلجية . ولقد بدأت كل الحرب البحرية تتجه إلى صالح الحلفاء في خريف ١٩٤٢ . وكان المفتاح الرئيسى لهذا التحول هو القوة الجوية ، وبصفة خاصة الإستخدام المباشر للطائرات فى الحرب البحرية وخاصة ضد الغواصات ، والذي كان مؤثراً جداً . وعليه فقد أصبحت قيادة الشواطئ تفتقر إلى الطائرات فى ذلك الوقت ، فكانت الأولوية معطاة للقصف ضد ألمانيا والتي لم تكن مثمرة على الإطلاق حتى عندما تركز على ترسانات وقواعد الغواصات فيما بين يناير ومايو ١٩٤٣ .

ولكن منذ خريف ١٩٤٢ توفر لدى قيادة الشواطئ طائرات أكثر وأصبحت قادرة على مراقبة مسافة ٨٠٠ ميل فى داخل البحر ، كما أستخدمت الطائرات التى تنطلق من فوق الحاملات لمراقبة القوافل . وقد أدى الرادار ذو الموجات القصيرة إلى إكتشاف الغواصات القريبة وعبوات الأعماق الثقيلة وهذا ساعد على إنتعاش الحلفاء . وفى أواخر عام ١٩٤٢ فقدت قافلة القطب الشمالى ١٣ سفينة من ٤٣ سفينة ، ولكن القافلة شقت طريقها عنوة مسقطلة ٤١ طائرة ألمانية كانت متمركزة فى النرويج . وقد لعبت حاملة الطائرات المرافقة « أفنجر »



البارجة بسمارك أثناء غرقها

دوراً حاسماً في هذا المجهود . وظل الصراع قاسياً خلال الشتاء ، واحتفظ الأدميرال « دونر » بمائة غواصة في تشكيل دوريات في البحر ، وفقد الحلفاء حوالي ١٠٨ سفينة في مارس ١٩٤٣ . ولكن بدأ النظام الجديد تظهر نتائجه ، ففي مايو استطاعت قافلة قادمة من كندا أن تخرج سالمة من معركة مع العدو الذي خسر خمس غواصات . وخلال هذا الشهر إنخفضت خسائر الحلفاء في السفن التجارية بينما خسر الألمان ٤١ غواصة . ومع ذلك ، فلم تتوقف عمليات الغواصات ، ولم تنكشف أى وسيلة يعتمد عليها في تدمير هذه الغواصات ، ولكن على الأقل فقد أجبرت طائرات الحراسة هذه الغواصات على بقاءها غاطسة ، ومن ثم قلت من خفة حركتها ومنعتها من مهاجمة القوافل . والآن بدأت القبضة الألمانية تضعف على شريان الحياة لبريطانيا . وبالرغم من قيام قتال ضار في البحر ، إلا أن الخطر الاستراتيجي على بريطانيا قد زال عملياً . وبصفة عامة ، فمع نهاية الحرب كانت جملة خسائر الألمان ٧٨٥ غواصة من مجموع ١٦٢١ ، وهذه الغواصات أغرقت ٢٨٢٨^(١) سفينة للحلفاء معظمها بريطانية ، كما فقدت بريطانيا حوالي ٨٢٠٠٠ رجل في حرب البحر .

وأخيراً حصلت القوات الجوية على السيادة النهائية لبريطانيا على أسطول سفن السطح الألماني . وفي ١٩ نوفمبر ١٩٤٤ قامت ٣٢ طائرة « لانكستر » بقصف وتحطيم البارجة « تربتز » . وتوقفت تماماً ملاحاة ألمانيا التجارية بينما عادت مثيلتها البريطانية إلى الحياة . ومع بداية عام ١٩٤٤ أصبح النجاح في البحر المتوسط والأطلنطي وعلى الجبهة الشرقية واضحاً للعيان ، فقد أرغمت حوالي ٢٣ فرقة ألمانية بالبقاء في إيطاليا ، وقد استطاع كسلاينج بقيادته البراعة وعلى سبيل المثال منع الحلفاء من التقدم قبل منتصف عام ١٩٤٤ عند « أنزيو » و « كاسينو » كما كان مأمولاً . في نفس الوقت شغلت قوات المقاومة التابعة لتيقو وحدات ألمانيا أخرى . وفي الجبهة الشرقية إستهل الروس العام بالاندفاع خارج البروز الواقع إلى الغرب من كييف ، وخلال مايو ١٩٤٤ عبروا في الجنوب أعلى نهر « بروت » . وكان هدف الحلفاء الإستراتيجي التالي واضحاً وهو تحرير فرنسا ، ثم يلي ذلك غزو ألمانيا نفسها من الغرب . وفي الحقيقة عرضت الولايات المتحدة ذلك في عام ١٩٤٣

مفضلة أن يكون عن طريق إيطاليا . كما ضغط الروس لفتح جبهة رئيسية ثانية في أوروبا لكي تخفف الضغط الألماني بعض الشيء .

رومبل يلتقي بـ «نورماندي» في نورماندي (أنظر اللوحة رقم ٥٢)

وكان لدى ستالين بعد نظر إستراتيجي على عكس بعض سياسة الحلفاء ، حيث رأى أن النصر بات محققاً ، وقرر أن يمحصر عمليات البريطانيين والأمريكيين بأوروبا الغربية وبذلك يتمكن من الإستيلاء على أوروبا الشرقية للشيوعية . وفي المؤتمر الذي عقده بين ستالين وروزفلت وتشيرشل في طهران في نوفمبر ١٩٤٣ ، وافق ستالين مع الأمريكيين على ضرورة سحب فرق من الجبهة الإيطالية للنزول في جنوب فرنسا بغرض القيام بهجوم في وادي الرون ومنه في اتجاه « الفوج » والأفرع العليا لنهر الراين . ولم يوافق تشيرشل على هذه الإستراتيجية ، وقد كنت مع رأي تشيرشل ، لأن هذه الإستراتيجية تعني إبعاد عشر فرق من إيطاليا وبالتالى يستحيل تطور أى هجوم نحو الشمال عبر ممر « لوبليانا » في اتجاه « فينا » . وبدون ذلك تصبح الحرب في إيطاليا لا معنى لها ، كما كتب فوللر . —

« لقد أصبحت حملة بدون وسائل كافية وليس لها هدف إستراتيجي ، وبدون قاعدة سياسية » . وبالطبع كان غزو شمال فرنسا ملائماً تماماً لغرض ستالين لأنه سوف يبقى البريطانيين والأمريكيين بعيداً جداً من البلقان وأوروبا الشرقية . وعارضت فكرة هذا الغزو بقوة مع أيزنهاور وذلك عندما كنا نجهز لغزو نورماندي ، ولكن بدون جدوى ، فقد صمم الأمريكيون على الغزو . ومن وجهة نظري كان هذا الغزو من أكبر الأخطاء الإستراتيجية في الحرب ، وحاولت أن أقنع الأمريكيين برأيي بجميع الأدلة والوسائل . والشيء الذى وضح لى هو أن روسيا كانت تقاتل في ذلك الوقت ليس فقط لهزيمة ألمانيا ، ولكن أيضاً لكسب السلام من حلفائها . ولقد كان من المستحيل جعل انقادة الأمريكيين يفهمون ذلك . وقد تم أيضاً الاتفاق في مؤتمر طهران على أن المهمة الرئيسية للبريطانيين والأمريكيين في عام ١٩٤٤ هو غزو شمال غرب أوروبا . وعليه فقد قامت هاتان القوتان بالتخطيط للتركيز على هذا الهجوم ، وقد تعلم الحلفاء من الغارة التى قامت بها القوات الكندية في أغسطس ١٩٤٢ على « ديب » بدون معارضة جوية وبحرية إلى الحاجة القصوى لمثل هذه المعاونات عند القيام بعمليات إنزال

على الشاطئ المعادى وهى من أصعب العمليات التى تمت فى هذه الحرب كلها ، وكانت عملية مشتركة تماما بين القوات الثلاثة وتولى الجنرال الأمر بكى أيزنهاور القيادة العليا بينما كان نائبه الطيار البريطانى « تيدر » وعين « لى مالورى » قائداً للقوات الجوية ، و « رامزى » قائداً للقوات البحرية وكلاهما بريطانى . وعينت الحكومة البريطانية لقيادة الجيوش البريطانية المشتركة فى الغزو ، وهى مجموعة الجيوش ٢١ ، ولكن الجنرال أيزنهاور والذى خدمت تحت قيادته فى مسرح البحر الأبيض المتوسط أمرنى بإدارة عمليات الجيوش الأمريكية أيضاً حتى تكون كل القوات البرية تحت قيادة واحدة أثناء عمليات الإنزال وتطور الهجوم التالى من رأس الشاطئ .

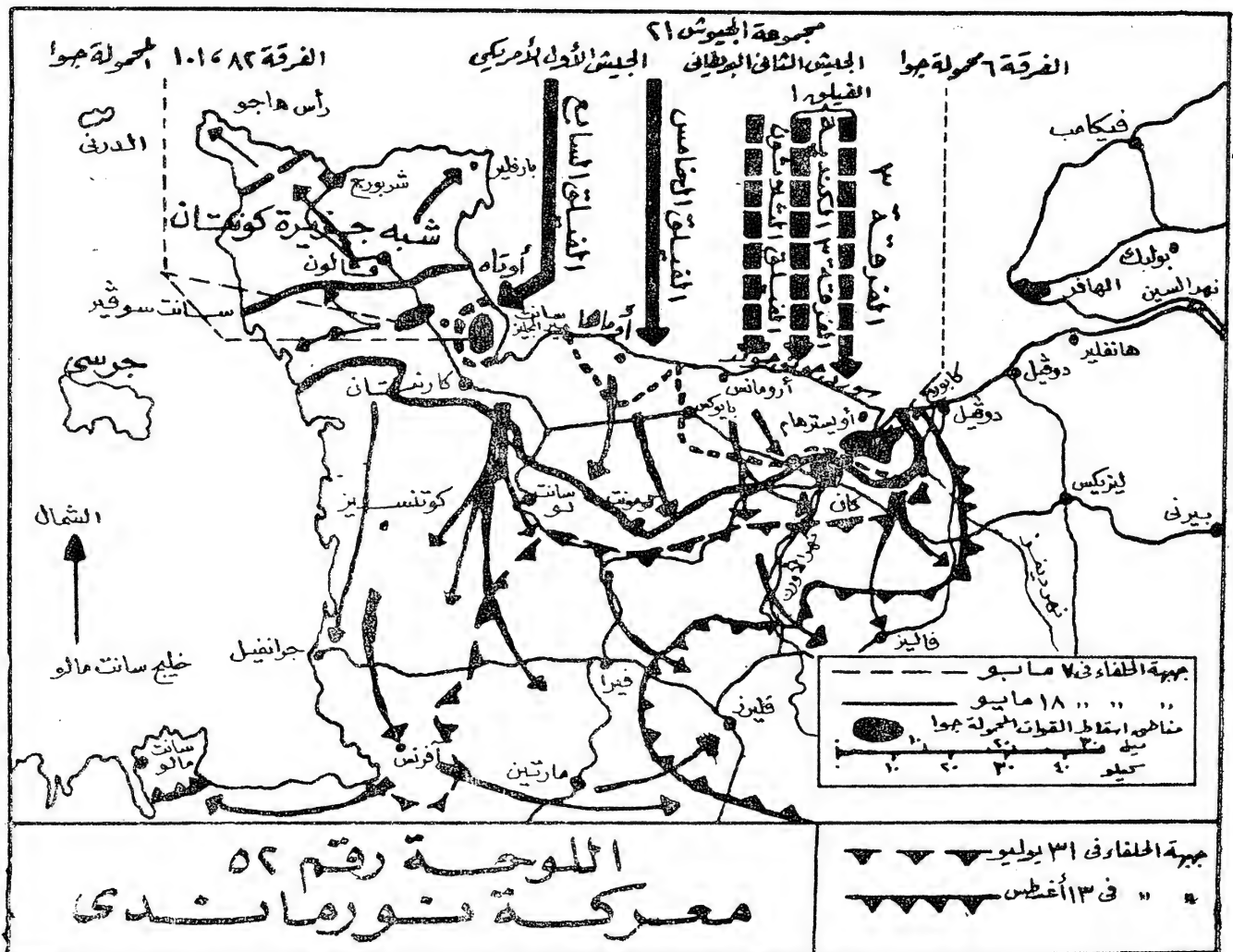
وفى الحقيقة فقد جعلنى أيزنهاور قائداً للقوات البرية التابعة له والمخصصة لغزو شمال غرب أوروبا تلك العملية التى أعطيت اسم « أوفر لورد » . والمنطقة التى أخبرت لأنزال قوات الحلفاء كانت ذلك الجزء من نورماندى فى خليج السين ، فيما بين « كابورج » و « فالونز » . وقد أخفيت هذه الخطة عن الألمان بواسطة تنفيذ تحضيرات هيكيلية على نطاق واسع تشير إلى أن الغزو موجه لمر كاليه .

وبناء على طلبى وخلال عدة شهور قبل يوم الإنزال ، تم قصف السكك الحديدية والكبارى ووسائل المواصلات الأخرى . وكان الهدف من ذلك هو أولاً إرباك تنظيم الأمداد الألمانى ، وثانياً عزل منطقة المعركة حتى يصبح من الصعوبة بمكان دفع فرق معادية بسرعة من المناطق الداخلية فى فرنسا أثناء معركة رأس الشاطئ فى نورماندى . وقد تحقق الغرض الثانى بدرجة أنه بعد نزولنا على شاطئ نورماندى وتمركزنا عليه بدأت تظهر الفرق الألمانية الأولى للتدعيم وعلى فترات متباعدة . وعندما فقد الألمان الأمل فى الانتصار فى الجبهة الشرقية ، قاموا بدفع جزء كبير مما لديهم من قوات إلى الجبهة الغربية . وكان يقود الجبهة الغربية الفيلد مارشال فون « روندشتد » وكان بها ٦٠ فرقة منها ١١ فرقة مدرعة ، وقد نظمت هذه الفرق فى مجموعتين من الجيوش ، وقد إنتشرت من هولندا عبر أنتورب ونورماندى وشاطئ بسكاي حتى البحر المتوسط . وكانت نسبة من هذه القوات فقيرة التسليح وقد قاد روميل ، خصمى أيام الصحراء ، مجموعة الجيوش « ب » والتى تحتل المنطقة من

هولندا إلى نورماندى . وكان الألمان فى هذه الفترة شديدى الضعف فى القوات الجوية ، فلم يكن لديهم سوى ٩٠ قاذفة و ٧٠ مقاتلة فقط صالحة للعمل . ومن سخرية القدر أن موقف الألمان الآن أصبح يشابه إلى حد بعيد موقف الفرنسيين عام ١٩٣٩ فكانوا يحتلون خط دفاعى طويل وهم غير متأكدين متى أو أين يتوقعون الضربة الرئيسية للعدو ؟ وأكثر من ذلك الخلاف الموجود بين « روندشتد » و « روميل » بخصوص الأسلوب التكتيكى المضاد لعملية الغزو .

فكان « روندشتد » يفضل دفاع غير قوى على الشواطىء ثم القيام بهجوم مضاد قبل أن يتمكن الحلفاء من تدعيم رأس الشاطىء ، أما روميل فكان يرغب فى وضع جميع قواته فى الأمام لمنع أى إنزال على الشاطىء ، بالرغم من أنه لا يعلم أين ستكون الضربة الرئيسية للانزال . ووافق هتلر على رأى روميل ، ولكن قرر أن يضع حلا يرضى الطرفين ، وهو وضع معظم المشاة فى الأمام بينما توضع معظم المدرعات فى الخلف . وقد تدخل هتلر كثيراً وبتأثير سىء فى إدارة الحرب فى الشرق ، وكان يقوم بنفس الشىء فى فرنسا .

وكانت القوات التى اقترحت لاستخدامها فى المواجهة الأولى من الأنزال هى خمس فرق محمولة بحراً وثلاثة محمولة جواً^(١) ، وقد خططت بأن يكون هناك ١٨ فرقة على الشاطىء فى نورماندى فى نهاية الأسبوع الأول أو حوالى ذلك . وكان لدينا أيضاً ٣٠٠ سفينة و ١٢٠٠٠ طائرة و ١٥٠٠ دبابة . وعند الغزو الفعلى توفر لنا مزايا المفاجأة والحشد القوى ، فكانت جيوش الحلفاء عبارة عن قوة متوازنة من جميع الأسلحة . وأخيراً كان لدينا التفوق الجوى الكامل ، ومن ثم ضمنا أن حشد العدو وتحركاته التالية سوف يتم إعاقتها كثيراً . وقد تم تعديل عدد من الدبابات سميت بـ « فنتيز » خصيصاً لأغراض الغزو (دبابات برمائية ودبابات دقاقة لتفجير الألغام الأرضية ودبابات تقوم بمد حصار لعبور المناطق اللينة على الشاطىء) وأيضاً لأغراض كثيرة أخرى . كما خططت لأغراق السفن القديمة لتصبح بمثابة حاجز للأمواج ، كما كان هناك مينائين صناعيين يطلق عليها الأسم الكودى « مولبريز » والذين بنيا من صناديق غاطسة ومتماسكة ، كما جهز خط أنابيب عابر للقناة سمي « بلوتو »



لتوصيل البترول إلى شاطئ نورماندى . وقد بدأت تحضيرات الغزو فى عام ١٩٤٣ وبالتالى فقد جهزت الحملة تجهيزاً جيداً .

محاولة اغتيال هتلر

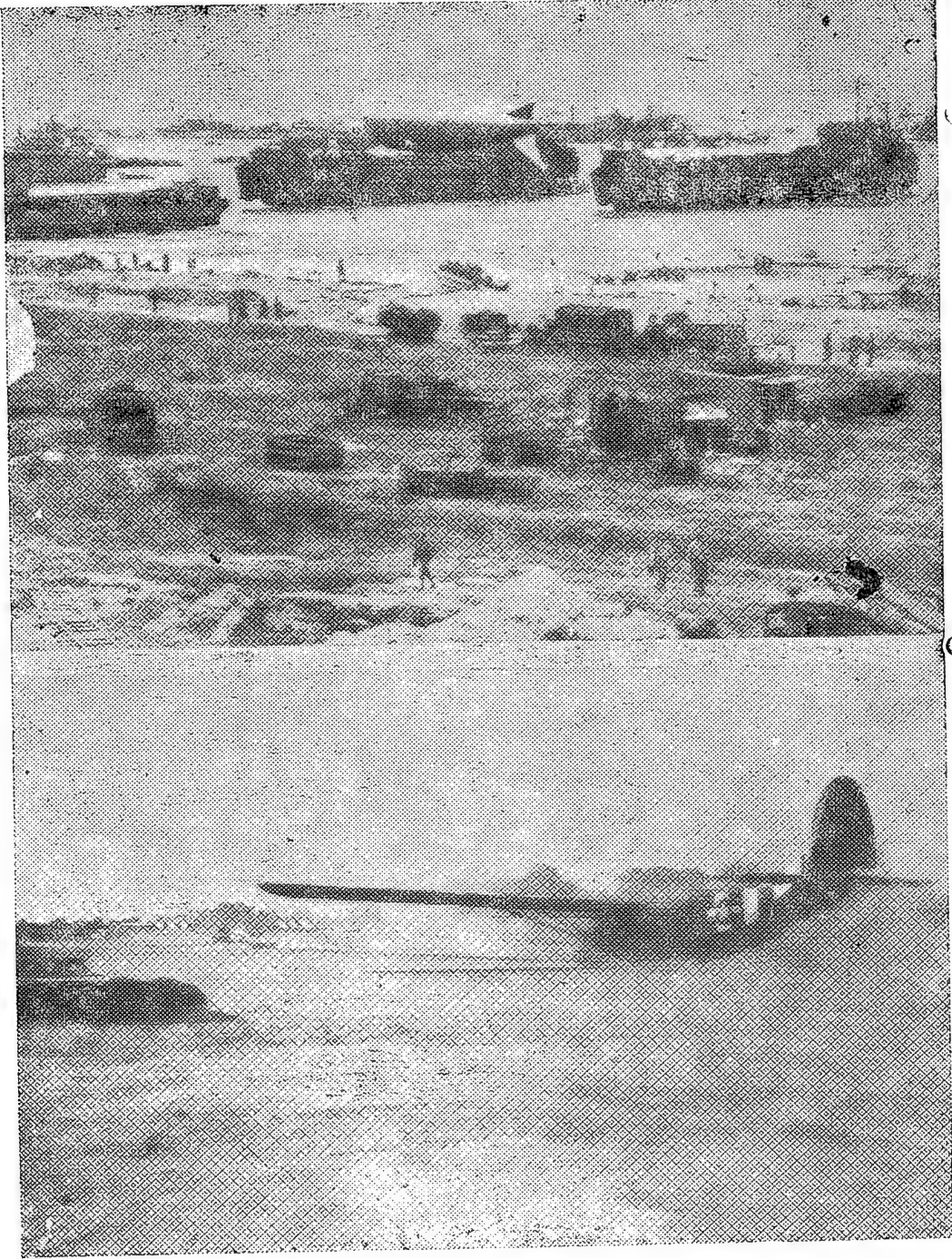
أما اليوم الحاسم فقد كان فى ٦ يونيه ١٩٤٤ . وفى الواقع كان النزول فى نورماندى عملية مشتركة حقاً . فكان الأمريكيون على اليمين والبريطانيون والكنديون على اليسار . فى الساعات الأولى من ٦ يونيه أسقطت ثلاث فرق محمولة جواً لتأمين أجانب منطقة رأس الشاطئ والأشتباك مع الألمان لمنعهم من مهاجمة القوات المنقولة بحراً أثناء إنزالها على الشاطئ . وقامت الطائرات الشراعية بنقل معدات الدفاع المضاد للدبابات . وكان نزول القوات المحمولة جواً أكثر انتشاراً مما كان مخططاً ، ولكن فى الحقيقة أفاد ذلك فى إرباك العدو . ونجحت هذه القوات فى مهمتها التكتيكية . وسبق عمليات الأنزال على الشاطئ قصف من السفن وقصف جوى شديد على محطات الرادار والقواعد الجوية ومواقع المدفعية وعلى الدفاعات الساحلية عموماً .

وأقوى مقاومة حدثت أثناء عمليات الغزو واجهتها القوات الأمريكية على شاطئ « أوماها » حيث كان هذا الشاطئ شديد الانحدار ، كما أن الأمريكيون رفضوا إستخدام الدبابات « فنتيز » البريطانية أو المدرعات المخصصة لعمليات الأنزال والتي سبق لى التنويه عنها . وأيضاً ارتكبوا خطأ نقل جنودهم فى سفن الأنزال وإنزالهم بعيداً جداً عن الشاطئ ، مما عرض القوات للطقس السيئ للبحر ولنيران المدفعية لمدة طويلة . وعلى أى حال فقد قاتل الأمريكيون وبإندفاع حتى تمكنوا من الوصول إلى رأس الشاطئ .

أما عمليات الأنزال البريطانية فقد كانت مدعمة تماماً بالبحرية البريطانية والتي أعطت ملاحه وقصف دقيق ، وكانت فترة البقاء فى سفن الأنزال قصيرة ، كما أثبتت الدبابات المتخصصة فاعليتها وجدارتها .

وقد ساعد الحلفاء مادب من إضطراب فى القيادة الألمانية ، فقد كان روميل وقائدان آخران متغيبين ، كما كان هناك وحدات مدرعة معينة لا يمكن إستخدامها إلا بأوامر هتلر الشخصية . وقد قيل أن الفوهرر كان نائماً فى « برشتسجادن » وغير مسموح بإيقاظه . أما

« روندشتد » فقد سادته الحيرة بعض الوقت عما إذا كانت عمليات الأنزال هذه مجرد خدعة لغزو حقيقى سيحدث بعيداً إلى الشمال ، ولذلك بدأت الهجمات المضادة الألمانية متأخرة علاوة على أنها كانت سيئة التنسيق. وشكراً كثيراً للعمليات الجوية للحافاء فى هذا الأمر . وأمن



الإمدادات والتعزيزات التى وصلت إلى رؤوس الشواطئ
فى نورماندى بعد الاستيلاء عليها

الحلفاء رؤوس الشواطئ في جميع نقاط الأنزال في ٦ يونيه بنحسارة ٩٠٠٠ رجل . وقام الألمان بهجمات مضادة خلال الأسبوع التالي ولكنها صدت جميعها ، وبحلول ١١ يونيه كانت كل رؤوس الشواطئ قد إتصلت وتم الإستيلاء على مساحة واسعة تسمح بحرية حركة القوات .

وفي ١٢ يونيه كان قد تم إنزال ٥٤٧ ر ٣٢٦ رجلا ومعهم ١٨٦ ر ٥٤٠ مركبة و ١٠٤٢٨ ر ١٠٤٢٨ طن من الإحتياجات . وقد أدى رداءة الطقس إلى تأخير برنامج إنزال الحلفاء أكثر مما سببه الألمان .

وقد كانت خطتي في إدارة المعركة البرية بعد إنشاء منطقة تماسكة في رأس شاطئ ، هي قيام القوات البريطانية بجذب القوة الرئيسية للألمان وخاصة فرقهم المدرعة إلى جانبنا الأيسر في منطقة السين ، للاشتباك معهم وإحتجازهم ، وذلك حتى يسهل على القوات الأمريكية إكتساب أرض على يميننا أى على جانبنا الغربي ، وعندئذ تقوم القوات الأمريكية بالاختراق النهائي في هذا الجنب .

وهكذا أو نحو ذلك تطورت المعركة . ونتيجة لتفوقنا الجوى الكامل كانت هجمتنا على الأرض أكثر تأثيراً مما حدث من قبل ، كما تحسن التعاون بين القوات البرية والجوية بدرجة كبيرة .

وقد وصف الجنرال « أرنولد » تقدم القوات الأمريكية في اتجاه « سانت لو » : — « كانت المقاتلات والقاذفات المقاتلة على إتصال وثيق وتحت إدارة مشتركة تنطلق قبل القوات البرية مدمرة الأهداف العسكرية ، كما كانت المقاتلات على إتصال مباشر مع الدبابات بواسطة اللاسلكي وتطير بنشاط مستمر فوق أرتالنا المدرعة .

وكان الضباط البريين يطلبون المقاتلات لقصف أو مهاجمة المدفعية أو المدرعات التي تعترض طريقهم . في نفس الوقت كان الطيارون يحذرون قادة الدبابات من الكائنات المعادية » وبالرغم من الدور الرائع الذي قامت به القوات الجوية والمدفعية والدبابات في المعركة ، ففي رأي أن جندي المشاة في الحرب الحديثة هو الذي يلعب الدور الحاسم في النهاية في المعركة البرية .

ولا أقول ذلك لمجرد أنني شخصياً جندى مشاة ، ولكن لأننى أعتقد أن ذلك صحيحاً ، لأن المشاة متعددة الاستخدام أكثر من أى سلاح آخر ، إذ أنها تستطيع العمل فى أى طقس وفى أى طبيعة للأرض « جبال — غابات — أحراش — مستنقعات — صحراء » وجندى المشاة يستمر فى المعركة ليل نهار دون راحة طويلة ودون نوم كاف . ويمكنه أن يعبر بطلاقة عن الطريقة التى يتعين عليه أن يتحمل بها العبء الأكبر فى المعركة ، وهو يفعل ذلك دائماً .. لذلك أننى أحياه .

ولا يمكن أن يكون هناك جيش جيد بدون مشاة جيدة ، ولكن أحب أن أضيف أن القوات البرية لا يمكنها كسب المعارك بدون معاونة قوات جوية جيدة ، وذلك صحيح خصوصاً فى الحرب ضد رجال العصابات الجندى التسليح أو القوات الغير نظامية فى منتصف القرن ٢٠ .

وقد قاتل الجنود الألمان ضد الحلفاء فى نورماندى بعنف وبدون معاونة جوية ، وزاد من سوء حظهم سوء التنظيم فى القيادة العليا الألمانية . وحلت الأزمة فى ٢٠ يولييه ، عندما قام عدد من الجنرالات بمحاولة فاشلة لاغتيال هتلر . ومن رأى أنهم كانوا على خطأ فليس من واجب الجنرالات إغتيال القادة السياسيين ، وإذا كان لابد من ذلك فالأفضل أن يقوم بذلك السياسيين أنفسهم . وكان روميل^(١) على علم بهذه المحاولة ، ولكنه رفض الإشتراك فيها ، وأعتقد أنه كان على حق . وقام هتلر بتغيير « روندشتد » القائد العام فى فرنسا بـ « كلوج » ، وبعد ذلك غير « كلوج » بـ « موديل » . وفى ١٥ يولية هاجمت المقاتلات سيارة روميل وجرح جرحاً خطيراً بدرجة أن دوره فى معركة نورماندى قد إنتهى .

وعندئذ تدخل هتلر الذى كان يجهل الحقيقة بأن الألمان قد خسروا المعركة فى نورماندى ، أو ربما كان لا يرغب فى تصديق ذلك .

وفى ٧ أغسطس أمر هتلر بقيام هجوم مدرع من « مورتين » غرباً حتى الشاطئ عند « أفرانشز » أملاً إلى شطر الجيوش الأمريكية إلى قسمين . ولم يكن مثل هذا الهجوم

(١) يمكن الرجوع لتفصيل هذه المؤامرة فى مذكرات روميل تعريب وتعليق العميد فتحى عبدالله النمر

ليحقق شيئاً ، فبدون معاونة جوية كان يعتبر ضرباً من الجنون . وعلى أى حال فالمعركة كانت قد خسرت فى ذلك الحين .

وكان الأمل الوحيد الممكن للألمان هو الانسحاب بسرعة خلف السين ومحاولة تكوين جبهة جديدة خلف هذا المانع ، ولكن هتلم رفض السماح بأى انسحاب وحتى عندما رضىخ لذلك فى ٧ أغسطس فقد أصبح الوقت متأخراً جداً ، وعلى أى حال فالهجوم المدرع الألمانى قد أوقفته الجيوش الأمريكية والبريطانية والكندية فى جيب عرف بـ «جيب فاليز» وسحق الهجوم الألمانى فى هذا الجيب خلال عدة أيام .

وقد زرت الجيب بعد أن إنتهى كل شىء ، ولقد كانت مذبحة رهيبة . وسرعان ما أنشأ الحلفاء رؤوس كبارى على نهر السين .

وفى ١٩ أغسطس قامت ثورة فى باريس . وبعد ذلك بستة أيام حررت القوات الفرنسية العاصمة . وبذلك تم الإستيلاء على « نورماندى » « وبريتانى » وفقد الألمان نصف مليون رجل . وقمت بأصدار أوامرى بالقيام بعمليات أخرى على أساس إنهاء تلك الحرب مع حلول عيد الميلاد . ولكن فى أول سبتمبر تولى أيزنهاور بنفسه القيادة المباشرة للجيوش البرية ، بالإضافة إلى مسئوليته كقائد أعلى لقوات الحلفاء فى غرب أوروبا . وكانت لديه آراء مختلفة ، وقام بأصدار أوامر جديدة .

الاسلحة السرية (أنظر اللوحة رقم ٥٣)

أما التفاصيل الدقيقة للخسائر الألمانية فى « نورماندى » فلم تعرف ، ولقد قدر الجنرال برادلى ذلك بقوله : — « بحلول أول سبتمبر إنخفضت قوة العدو التى كانت له فى يونيه فى الجبهة الغربية حتى أصبحت قوات ضعيفة غير منظمة . وبلغ مجموع كل الألمان المتبقين شالى الأردن عبارة عن ٢١ فرقة » .

وقد أصبح من الواضح أن الألمان قد منيوا بخسائر جسيمة . وكان واجب القائد الأعلى لقوات الحلفاء هو دفع الألمان إلى الخلف داخل ألمانيا وإنهاء الحرب بأسرع ما يمكن . وكان العمل العسكرى الصحيح يستطيع عندئذ أن يفض النظر عن بعض الإتفاقات السياسية فى مؤتمر طهران ، الأمر الذى كان يدركه القائد الأمريكى . ولهذا فقد إقترحت وبإلحاح حشد

قوات الحلفاء للقيام بهجوم قوى ساحق للاستيلاء على « الرور » أولاً ثم بعد ذلك التحرك إلى برلين ، « القلب السياسى لألمانيا » .

وكان رأى العسكرى الألمانى ، حسب قول « ليدل هارت » والذى قاله بعد الحرب : — « إن مثل هذا الإختراق ومعه سيطرة جوية ، كان كفيلًا بتمزيق الجبهة الألمانية إلى أقسام صغيرة ، وإنهاء الحرب فى شتاء ١٩٤٤ » . ولكن أعتبر الأمريكيون مثل هذه السياسة مخاطرة عسكرية علاوة على عدم ضرورتها من الناحية السياسية . ولم يكن روزفلت قد تنبه بعد إلى نية القوات الروسية لإجتياح شرق أوروبا .

وقد أصبح الأمريكيون الآن على قدر من القوة أكبر من البريطانيين وبالتالى كان على البريطانيين أن يسلكوا طريق الأمريكيين .

وكانت طريقة الأمريكيين هى أن يشكلوا قواتهم على نهر الراين من سويسرا إلى بحر الشمال ، وبعد ذلك يقرروا ما يجب عمله . وعليه فقد كان على الجيوش كلها التقدم فى وقت واحد ، وعلى مواجهة واسعة . وقد أبرزت إستراتيجية « المواجهة الواسعة » ثلاث مساوئ رئيسية هى : —

١ — ستكون الشؤون الإدارية مبعثرة جداً ، بحيث لن تستطيع معاونة تقدم كل الجيوش .

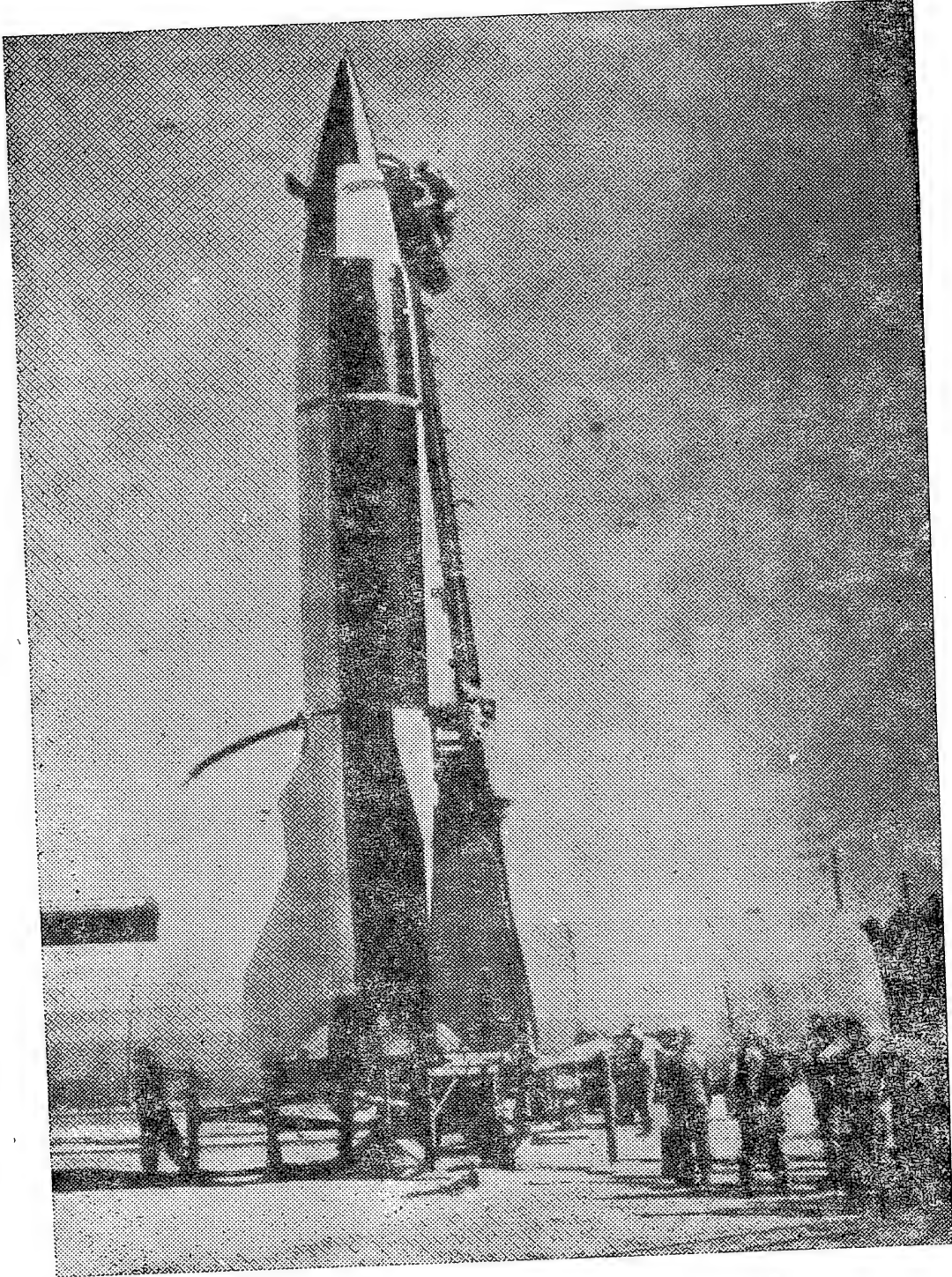
٢ — لن نكون أقوياء فى أى مكان بالقدر الكافى للحصول على نتائج حاسمة وبسرعة ، وكان هذا ضرورياً لو كان علينا إنهاء الحرب بنهاية العام

٣ — سوف يقل معدل التقدم تدريجياً وبذلك نكون قد منحنا الألمان وقتاً لإستعادة قوتهم .

ولكى نحصل على نتائج حاسمة سريعة ، فقد كان لازماً علينا أن نركز قواتنا فى مكان ما ، فى اليسار أو المنتصف أو اليمين ، حيثما يرى القائد الأعلى أنه أكثر ملاءمة . وكان ذلك هو الموضوع ببساطة ، وقد أيد رئيس هيئة أركان حرب القوات البريطانية وجهة نظرى ، ولكن لم يوافق عليها القادة الأمريكان .

وفى منتصف سبتمبر بدأ الألمان يستعيدون قوتهم ، حتى يستطيعوا توجيه ضربة عند

«أرنبهم» للقوات المحمولة جواً، والذين كانوا يقاتلون من أجل إنشاء رأس كوبري عبر نهر الراين الشمال



القنبلة الطائرة في ٤ ذات المحرك النفاث أثناء تجهيزها
للاطلاق نحو بريطانيا

بعد حصولهم على رؤوس كبارى قيمة عبر نهر « موز » ، وعبر نهر « الراين » عند « نيجميجن » .

وأخيراً في ديسمبر حشد الألمان قوة مدرعة كافية للقيام بهجوم قوى عبر الأردن في اتجاه « ألتوريب » وبدأ هذا الهجوم في أول الأمر بنجاح ، ولكنه تحطم تحت تأثير الهجمات على الأجانب ومن الجو .

وفي النصف الثاني من عام ١٩٤٤ سببت « الأسلحة السرية الألمانية » مثل « القنابل الطائرة » ف ١ و ف ٢ ذات المحرك النفاث أو الصواريخ الموجهة دماراً شديداً في بريطانيا . وبعد معركة الأردن لم يبدى الألمان أى مقاومة عنيفة . وتم عبور الراين في نقاط عديدة في مارس ١٩٤٥ ، وتقدمت جيوش الحلفاء حتى نهر الأل .



لقاء ستالين وروزفات وتشيرشل في يالطة

انتحار هتلر

وفي نفس الوقت لم يضيع الروس وقتاً على الجبهة الشرقية ، ففي حوالى نفس الوقت الذى تحرك

فيه الحلفاء في نورماندى ، قام الروس بهجوم ضخم من « فيتبسك » حتى مستنقعات « بريديت » . وفي أوائل أغسطس ١٩٤٤ وصل الجيش الأحمر إلى « ممل » و « وارسو » . وفي « وارسو » أنزلت قوات العاصفة الألمانية عقاب وحشى بالثورة التى قامت فى بولندا . وبعد ذلك واصلت القوات الروسية الزحف لتخطيم مجموعة الجيش الألمانى الشمالى ، ومن ثم الوصول إلى الباطيق .

وإذا ألقينا نظرة بأن الغرض هو هزيمة ألمانيا فقط ، فكان من واجب الروس مواصلة تقدمهم داخل ألمانيا فى عام ١٩٤٤ ، ولكن قورستالين إرجاء ذلك إلى ما بعد ، فكان شاغله الأول هو إجتياح دول جنوب شرق أوروبا . فى أغسطس كان الروس فى رومانيا ، وفى اكتوبر فى يوغسلافيا ، وفى ديسمبر فى المجر . وفى شهر يناير ١٩٤٥ فقط زحف جيوش « كونيغ » و « زوكوف » و « ردكو سونسكى » و « شرنيكوفسكى » إلى داخل ألمانيا . وفى ٤ فبراير تقابل ستالين وروزفلت وتشرشل مرة أخرى ، فى « يالطة » فى القرم . وتعامل قادة الدول الديمقراطية مع ستالين فى « يالطة » بمثل الاستهانة التى عاملوا بها الدكتاتور النازى فى مؤتمر مونيخ ، وأقنعوا أنفسهم بأن ستالين رجل نبيل ، ووافقوا على تقسيم ألمانيا .

وفى الحقيقة لم يكن هناك شىء يمكنهم عمله سوى ذلك . فقد خدع ستالين حلفاءه ، وكسب السلام لروسيا فى طهران ، وأخيرا توج إنتصاره فى يالطة . وفى ذلك الوقت بدأت الأحداث تتحرك بسرعة ، فى ٣٠ أبريل إنتحر هتلر فى برلين ، وفى ٤ مايو وصل « هيس »^(١) إلى مقر قيادتى فى « لونبرج » ووقع بيانا بالتسليم بدون قيد ولا شرط لكل القوات المسلحة الألمانية الموجودة فى المنطقة من هولندا إلى الدانمرك والتى يبلغ مجموعها حوالى مليونين من القتالين .

وفى ٧ مايو فى مقر قيادة أيزنهاور فى رهيمنز تم توقيع إستسلام كل القوات الألمانية

المسلحة على جميع الجبهات بدون قيد أو شرط . وهكذا إنتهت الحرب الألمانية وفي حوزة الروس المراكز السياسية الكبرى في وسط أوروبا « برنين — براغ — فيينا — بلجراد » ، وأيضاً كل العواصم إلى الشرق من هذا الخط العام ولكن بقيت الحرب اليابانية ، وسوف نأق الآن نظرة عليها .

كارتة بيرل هاربور (أنظر اللوحة رقم ٤٥)

لقد كانت اليابان عدوا طبيعيا للولايات المتحدة أكثر مما كانت ألمانيا . وقد أصبحت اليابان طموحة بعد نموها السريع نحو النضج الاقتصادي . وقامت بالتخطيط لضم منطقة شرق آسيا والمحيط الهادى تحت سيطرتها السياسية والاقتصادية . وفي مارس ١٩٣٣ أعلنت رسميا انسحابها من عصبة الأمم ، ثم قامت بعد ذلك بغزو منشوريا وحقت تقدما كبيرا نحو هدفها . وقد إنتهزت اليابان فرصة سقوط فرنسا ، وقامت بتجنيد أكثر من مليون مقاتل ، وفي يوليو ١٩٤١ أعلنت الحماية على الهند الصينية . وفي أكتوبر ١٩٤١ أصبح الجنرال « توجو » الذى كان وزيرا للحرب ، رئيسا لوزراء اليابان ، وأصبحت الدولة بالتالى فى قبضة حكم عسكري فردى . وتنهت الولايات المتحدة من إزدياد أطماع اليابانيين ، وعلى وجه الخصوص من انتصريحات العدوانية لنظام الحكم الجديد فى اليابان . ولما كان للولايات المتحدة مصالح راسخة فى المحيط الهادى ، فقد وقعوا فى عام ١٩٤١ عقوبات بترولية على اليابان ، وأنذروا تلك الدولة لوقف أعمالها العدوانية ، وبذلك أصبحت الحرب لا يمكن تجنبها . وصممت اليابان على توجيه ضربة عندما تحين لها الفرصة المواتية . وكان أواخر عام ١٩٤١ هى الفرصة المناسبة من جميع النواحي لليابان للقيام بحرب ضد القوى الإستعمارية فى الشرق الأقصى ، ومن المؤكد أن قادة اليابان إرتكبوا خطأ فى الحساب بافتراضهم أن الألمان قد كسبوا فى الواقع الحرب فى الغرب ، ولكن بالرغم من ذلك ، كان الهولنديون فى ذلك الوقت ، بدون أى قوة ، ولم يكن لدى البريطانيون أى قوات يستطيعون توفيرها ، حيث كانت أفضل قوات المستعمرات البريطانية^(١) مشغولة فى الشرق الأوسط . كما كانت البحرية البريطانية مجهدة للغاية ، بينما كانت القوات الجوية

الملكية فى آسيا مجهزة بطائرات قديمة . وكان لدى أمريكا قوات مسلحة أكبر مما لدى اليابان ، ولكن كان الأمريكيون فى ذلك الوقت يتطلعون غربا نحو لين سفنهم من المحيط الباسيفيكي إلى المحيط الأطلنطى . وفى الفترة بين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤١ ، ضاعفت اليابان من حمولة بحريتها ، وجددت سفنها القديمة . وأصبح لديها ١٠ بوارج و ١٠ حاملات طائرات و ٣٨ طرادا و ١١٢ مدمرة و ٦٥ غواصة . ولم تكن السفن الحربية اليابانية مختلفة إختلافا جوهريا فى التصميم عن مثيلاتها لدى القوى الغربية ، إلا أن طوربيداتهم كانت أكثر فاعلية من مثيلاتها لدى الأمريكان .

أما حاملات الطائرات اليابانية فكانت كل منها يمكن أن تحمل حوالى ٦٣ طائرة مقاتلة ما بين قاذفة وقاذفة طوربيد . وبلغ عدد الفرق فى الجيش اليابانى فى عام ١٩٤١ ، ٥١ فرقة ، ويتراوح قوة الفرقة بين ١٠٠٠ و ١٨٠٠٠ مقاتل ، وبذلك بلغ مجموع الجيش اليابانى حوالى ٧٥٠٠٠ مقاتل . ولم يكن لدى اليابانيين قوات جوية مستقلة ، ولكن كان لكل من القوات البرية والبحرية سلاحها الجوى الخاص بها . فتوفرت للقوات البرية حوالى خمس فرق جوية إحتوت على حوالى ١٥٠٠ طائرة ، بينما كان لدى البحرية قرة عمليات تتكون من حوالى ٣٠٠٠ و ٣٠٠ طائرة . وقد إكتسب اليابانيون خبرة قيمة فى الحرب الحديثة منذ غزوهم للصين ، كما تطورت معداتهم تطورا كبيرا . وفى نفس الوقت قاتل اليابانيون فى دراسة وضراوة وبشجاعة متعصبة أى على عكس الشعوب فى الغرب . وكان التخطيط اليابانى هو الضرب بسرعة وبقوة .

وكان عليهم تدمير الأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى وإجتياح «الفلبين» و«الملايو» و « بورنو » فى الهند الشرقية الهولندية وبورما . ثم بعد ما يتم التقدم جنوبا كان عليهم إنشاء حلقة منيعة من الحصون فى المحيط مارة بجزر « ويك » وجزر « مارشال » وجزر « الأرخيل » شمالى إسترااليا . وفى ٧ ديسمبر ١٩٤١ وبدون إعلان للحرب ، تم الهجوم فى وقت واحد على بيرل هاربور والفلبين والملايو .

وبالرغم من معرفة الأمريكيين الأكيدة لدى بغض وكره اليابانيين لهم إلا أن الهجوم اليابانى عليهم فى بيرل هاربور كان مفاجأة تامة ، ذلك الهجوم الذى إستهدف أسطولهم

في المحيط الباسيفيكي المتمركز في بيرل هاربور في « هاواي » .

فقد إقتربت القوة الضاربة للبحرية اليابانية ، المكونة من ست حاملات للطائرات وعليها ٤٥٠ طائرة تحت قيادة الفيس أدميرال « ناجومو » من الشمال الغربي من هاواي ، وأطلقت طائراتها في وضوح النهار في ٧ ديسمبر ، وكان هدفها الرئيسي ٧ بوارج في مراسيها من بين ٩٤ سفينة أمريكية ، وتم ضربها جميعا ، ونجت واحدة فقط من التدمير الخطير ، بينما فقدت إثنان بالكامل ولحق تدمير خطير جداً بباقي السفن والمنشآت ، كما تم تدمير ٢٠٠ طائرة من ٤٠٠ طائرة كانت تقف على الأرض بجوار بعضها ، وفقد اليابانيون ٣٠ طائرة . ورجع نجاح الغارة إلى المفاجأة الكاملة ومهارة رجال سلاح الطيران الياباني وبصفة خاصة في هجمات القاذفات التي تحمل الطوربيدات في المياه الضحلة . وفي نفس الوقت الذي كان يجري فيه الهجوم على بيرل هاربور ، قام اليابانيون بهجمات جوية ضد الأمريكيين في الفلبين ، حيث دمروا لهم ثلث مقاتلاتهم ونصف قاذفاتهم ، وفي ١٠ ديسمبر دمرت قاعدة « كافيت » البحرية . وبهذه الضربات الجوية السريعة والمدمرة في « بيرل هاربور » و « الفلبين » حصل اليابانيون على فترة من التفوق في البحر والجو ، والتي كانوا في حاجة إليها لتأمين عملياتهم في الغزو . وفي ديسمبر أستغلوا الفرصة باجتياح قواعد العدو في « جوام » و « ويك » و « هونج كونج » . ولم يتم إحتلال الفلبين بصفة نهائية حتى مايو التالي ، وذلك بسبب المقاومة التي نظمها الجنرال « ماك آرثر » . وفي مارس ١٩٤٢ إنتقل « ماك آرثر » إلى أستراليا ليتولى قيادة الهجوم الأمريكي ضد اليابان والذي تقرر أن يجري من هذه الدولة .

الوزيمة الهينة (أنظر اللوحة رقم ٥٥،٥٤)

وفي نفس اليوم ، ٧ ديسمبر ، يوم الهجوم على بيرل هاربور ، بدأ غزو شبه جزيرة الملايو بقوات يابانية ، نزلت في سيام وعبرت الحدود تحت قيادة الجنرال « ياماشيتا » ، وفي ١٠ ديسمبر أغرقت الطائرات اليابانية البارجة البريطانية « أمير ويلز » والطراد « ريبلس » وذلك أمام « كانتون » على الشاطئ الشرقي للملايو . وتقدم اليابانيون بمحاذاة الساحل مستخدمين السفن البريطانية المأسورة ، عن طريق عمليات مشتركة ضد أجناب الدفاع . ولم يكن لدى اليابانيين

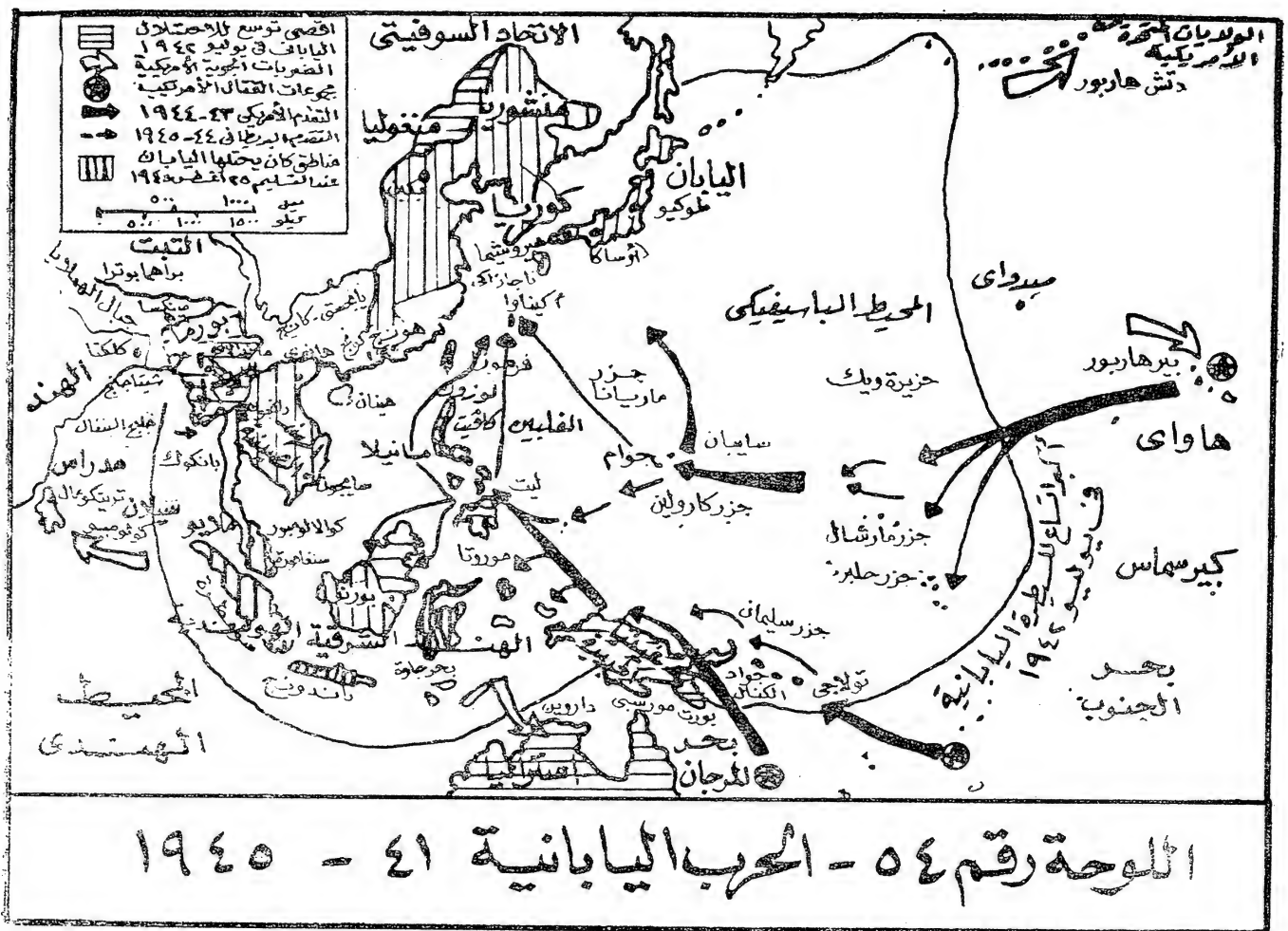
تفوق عددى كبير ، ولكن كانت القوات اليابانية أكثر جسارة وأعلى تدريبا على القتال في الأحراش ، من القوات البريطانية والأسترالية والهندية . وتم تدمير القوة الجوية البريطانية بسرعة ، وأدى القصف المتواصل للمدن إلى تدمير عزيمة المدافعين . وفي ١١ يناير ١٩٤٢ كان اليابانيون في « كوالا لومبور » ، وإستمر تقدمهم بسرعة .

وفي نهاية الشهر انسحب المدافعون إلى جزيرة « سنغافورة » حيث دمروا الجسر الذى يربطها بالملايو .

وأصبح الآن البريطانيون بدون قوة بحرية أو جوية ، كما لم يكن لديهم سوى مدفعية ضعيفة . وبعد أربعة أيام فقط من القصف نزل اليابانيون إلى الجزيرة . وفي أقل من أسبوع كان في حوزتهم المستودعات التى تمد المدينة بالمؤن . وإستسلمت أهم المراكز الرئيسية التجارية والبحرية لبريطانيا في الشرق الأقصى إلى الليفتنانت جنرال « ياماشيتا » وذلك في يوم الأحد الموافق ١٥ فبراير ١٩٤٢ ، كما إستسلم الجنرال « بريسفال » وحاميته المكونة ٧٠٠٠٠ رجل .

وكانت هذه هزيمة مهينة للقوات البريطانية أو بدون شك كان هناك الكثير لما يمكن عمله في مجال التدريب والأمور الأخرى ، ولكن لم يشاهد أحد ، إن كان قد تم شىء من هذه الأمور . وكان رأي دائما أن سنغافورة قد فقدت في لندن في « هوايت هول » قبل أن تبدأ الحرب على الإطلاق . وقد رجع ذلك إلى الإفتقار للتعاون المشترك الحقيقى بين القوات القائمة بالتخطيط للدفاع عن القاعدة الإستراتيجية الرئيسية ، وفي الواقع بسبب التخطيط الردىء في وقت السلم .

في ذلك الوقت أصبحت جزر الهند الشرقية الهولندية معرضة للغزو اليابانى . ومنذ شهر يناير قام اليابانيون بتوطيد أقدامهم في « بورنو » و « سولاويزى » ، وأصبحوا الآن مستعدين للضرب في جاوة ، أقوى الجزر . وفي ٢٧ فبراير ١٩٤٢ ، علم القائد الهولندى الحليف اللواء البحرى « دورمان » بأن هناك قافلة يابانية مكونة من ٣٠ ناقلة تحت حراسة ثلاث طرادات وسبع مدمرات ، متجه إلى جاوة ، وعليه فحشد « دورمان » قوة تتكون من خمس طرادات وعشر مدمرات ، وإشتبك مع القافلة اليابانية التى كانت تحت قيادة اللواء البحرى « كوندو » أمام ساحل جاوة الشمالى .



ودارت معركة طويلة ومعقدة ، تم معظمها في الظلام . وإنهت المعركة بأن أغرق اليابانيون نصف سفن الحلفاء دون أن يخسروا سفينة واحدة . وكان الحلفاء يتفوقون في قوة النيران ، ولكن المعركة كسبت بتفوق التكتيكات والمواصلات والطوربيدات والقوات الجوية اليابانية . وقررت معركة بحر جاوة هذه مصير جزر الهند الشرقية الهولندية .

وخلال الليلة اللاحقة لهذه المعركة نزل اليابانيون في ثلاث مواقع على الشاطئ الشمالى لجاوة . وفي ٨ مارس إستسلم حوالى ٩٠.٠٠٠ من القوات الأوروبية والأندونيسية في باندونج . وسرعان ما تم غزو باقى الجزر . ولم يكن لجيوب المقاومة المنعزلة لرجال العصابات أى تأثير إستراتيجى . وأغرقت كل السفن المتبقية للحلفاء فى المنطقة .

ونتحول الآن إلى بورما ، ففي نفس الوقت الذى كانوا يقومون فيه بحملتهم ضد جزر الهند الشرقية الهولندية ، وحتى قبل سقوط سنغافورة كان اليابانيون يتحولون غربا ضد بورما . وكان هدفهم الرئيسى من ذلك هو قطع طريق بورما الذى كانت تصل منه المساعدات إلى «تشانج كاي شيك» فى الصين ، وهدف آخر هو القيام بانتهاء الاحتلال البريطانى للهند بمعاونة القوميين الهنود . وجعل اليابانيون من « بانجوك » القاعدة المتقدمة للغزو ، وكان هدفهم الأول هو « رانجون » . وكان الدفاع عن بورما ضعيفا ، إذ أن ويفل^(١) لم يكن لديه إلا فرقتين غير كاملتين ، ثم دعم بعد ذلك بقوات صينية مساوية لها ، تحت قيادة الجنرال «ستيلويك»^(٢) ولم يكن فى بورما موارد كافية لإعاشة الحملة ، وكان من الضرورى إحضار المؤن من الهند ، وكانت المواصلات صعبة للغاية .

وقد سيطر اليابانيون على الطرق البحرية الطبيعية من لهند . ولما لم تكن هناك طرق عبر الجبال ، أصبحت المواصلات والامداد من الجو . وكانت محاور المواصلات فى بورما هى وديان أنهار « سلوين » و « أراوادى » و « سيتانج » ، وطريق سكة حديد مفرد يجرى شمالا من « رانجون » وعبر « ميكيتيلا » و « مندلاى » وتحت قيادة الليفتنانت جنرال « كاواب » . بدأ اليابانيون الهجوم على بورما بقصف مدينة « رانجون » فى يناير ١٩٤٢ مما أضعف روح

(١) كان القائد العام للمسرح

(٢) كان رئيس أركان حرب تشانج كاي شيك

المقاومة لدى السكان ، كما حدث في الملايو . وبعد ذلك تحركوا من الملايو وسيام ، ووصلوا بسرعة إلى « مارتابان » . وبحلول منتصف فبراير كانوا قد وصلوا وادي « سيتانج » ، وفي ٧ مارس كانت مدينة رانجون مهجورة . وقرر القائد البريطاني الجديد « الكسندر » وجوب سحب قواته إلى الهند قبل أن تهب الرياح الموسمية ، وينشئ جبهة دفاعية على حدود آسام . وقد عانت القوات البريطانية والهندية معاناة شديدة أثناء الانسحاب ، على عكس اليابانيين الذين لم يبدوا عليهم التعب .

وأشرك اليابانيون في هذه العمليات ثلاث فرق وثلاث ألوية مدرعة بدبابات خفيفة . ولم يحدث أبدا من قبل أن قامت حربا بين جيوش حديثة في مثل أرض بهذه الطبيعة ، ولكن اليابانيون كانوا قد تدربوا على أرض مشابهة في جزر « هينان » و « فرموزا » ، وأصبحوا في الواقع مقاتلين من الدرجة الأولى . وكانوا يقاتلون في مجموعات صغيرة خفيفة التجهيز ومسلحة أساسا بمدافع ما كينة خفيفة وهاونات . وقاموا بمناورات بارعة وجريئة لتصفية الجيوب وقطع المواصلات ، شاقين طريقهم بالقوة عبر الوديان المتوازية لنهرى « أراوادي » و « سيتانج » مطوقين باستمرار المقاومة .

وبانسحاب البريطانيين ، تحول ثقل هجوم اليابانيين إلى الجبهة الصينية في الشمال الشرقي ، حيث تلاشت المقاومة بسرعة . وعندئذ اندفعوا بسرعة إتجاه طريق بورما عند « لاشيو » . حيث وصلوها في نهاية أبريل وقطعوا هذا المحور ، كما عبروا الحدود الصينية في ١٥ مايو . وقد ناضل البريطانيون عبر الأعراس وفوق الجبال ، للوصول إلى « أمفال » داخل الحدود الهندية ورافقتهم وأعاقتهم آلاف كثيرة من المواطنين اللاجئين . ومع نهاية مايو ١٩٤٢ كان الكسندر قد نجح في سحب معظم رجاله ، ولكن بعد أن فقدوا الكثير من معداتهم .

معركة بحر المرجان (أنظر اللوحة رقم ٥٤)

وفي منتصف عام ١٩٤٢ ، تمكن اليابانيون من تحقيق جميع أهدافهم بتقدمهم السريع وقتلهم الفعال ووحشتهم مثلهم في ذلك مثل قبائل المغول القديمة ، تلك الأهداف التي لم تقتصر فقط على بورما ولكن امتدت إلى أندونيسيا والمحيط الهادى أيضا . وبعد إستيلائهم على

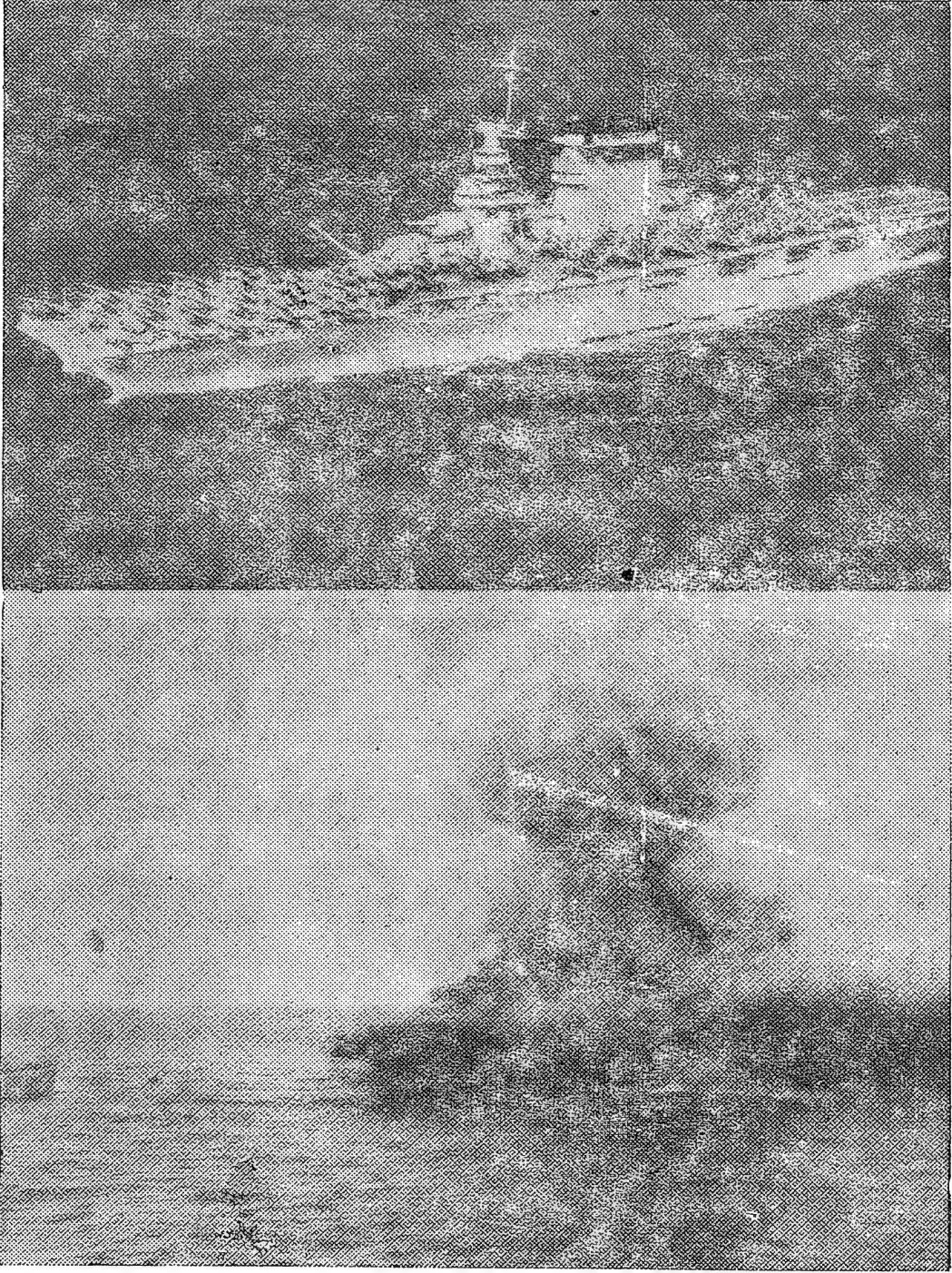
بورما لم يعبروا الحدود إلى الهند ، ولكنهم وطدوا أنفسهم بدفاع قوى في بورما .

ومن جزر الهند الشرقية الهولندية قاموا بمد فتوحاتهم شرقا إلى غينيا الجديدة وجزر « جلبرت » و « وسليمان » . وفي أبريل قام الأسطول الياباني بقيادة « ناجومو » بالدخول إلى المحيط الهندي والتجول فيه على هواه ، مدمرا القواعد البريطانية في « كولومبو » و « ترينكومالى » وأغرق طرادين وحاملة طائرات . وتحول « ناجومو » بعد ذلك شمالا حيث أحدث تدميرا خطيرا في السفن التجارية خارج « مدراس » وفي خليج « البنغال » . ولم يكن في استطاعة الحلفاء البدء في مهاجمة حلقة المواقع اليابانية بدون قوة بحرية . وعلى كل فالجرب في المحيط الباسيفيكي يعتبر قصة مشوقة للغاية . فقد أصبحت مشكلة اليابانيين الآن تكمن في القوة الجوية والبحرية لأعدائهم . وفي الحقيقة فقد أعجزت الغارة على بيرل هاربور في ديسمبر ١٩٤١ الأمريكان في المحيط الهادى ، ولكن كان إلى حين فقط . ففي الواقع لم تحقق هذه الغارة النجاح الحاسم لليابان ، والذي كانت تأمل فيه . وقد فقد الأمريكيون في تلك الغارة بوارجهم ولكن عصر تلك السفن الحربية الكبيرة كان قد انتهى مع ظهور حاملات الطائرات . وكان لدى الأسطول الأمريكى في الباسيفيك أربع حاملات طائرات تستطيع حمل ٣٥٠ طائرة ، وكان هذا هو المهم . أما التدمير الذى أصاب منشآت بيرل هاربور فقد أمكن للولايات المتحدة بقدرتها الصناعية التى تبلغ عشر مرات قدرة اليابان أن تبنى قوتها النسبية بسرعة . وقدر الأمريكيون أنهم سوف يكونون مستعدين للقيام بهجوم مضاد في عام ١٩٤٣ . أما اليابانيون فقد أدركوا ضعف موقفهم وبالتالي وجوب القيام بتحطيم القوة البحرية لعدوهم في الباسيفيكي خلال عام ١٩٤٢

وقدر الأدميرال « ياماموتو » قائد البحرية اليابانية ، أن بيرل هاربور بعيدة جدا على اليابانيين لكي يوجهوا هناك ضربة مباشرة وبقوة كافية ، ولهذا فقد أعد خطة مزدوجة لإستدراج أسطول الحاملات الأمريكية للدخول في مدى الضرب الياباني . وقد خطط أولا للحصول على السيطرة في بحر المرجان وبذلك يشكل تهديدا على أستراليا ، وبالتالي لا بد أن يقوم الأمريكان لإتقاذها . ثانيا سيقوم « ياماموتو » بالاستيلاء على « ميدواى » (١) .

(١) وهى جزيرة مرجانية صغيرة في منتصف المسافة بين كاليفورنيا والصين وعلى بعد ١١٠٠ ميل

وفي أواخر أبريل ١٩٤٢ بدأ تقدم اليابانيين في بحر المرجان ، وكان هدفهم الإستيلاء على نقطتين ، الأولى وهي « تولاجي » في جنوب جزر سليمان وقد تم الإستيلاء عليها كما كان مخططا في ٣ مايو . وتحركت مجموعة بحرية ثانية إلى ميناء « مورسبي » على الشاطئ .



حاملة الطائرات اكسينجتون في الصورة العليا قبل تدميرها مباشرة
وفي الصورة السفلى أثناء تدميرها

الجنوبى لغينيا الجديدة . ولكن كانت إجراءات الأمن اليابانية ضعيفة ، وعلم الأدميرال « نيمز » ^(١) بما كان يدبره اليابانيون ، وبناء عليه فقد تمركزت كل من حاملتي الطائرات « لكسينجتون » و « يوركتاون » بقيادة الأدميرال « فلتشر » بالقرب من « سامو » لمنع إستيلاء العدو على ميناء « مورشبي » .

وفي ٧ مايو ، تمكن « فلتشر » من تحديد موقع قوة التغطية اليابانية المكونة من الحاملة الخفيفة « شوهو » ومجموعات الطرادات الخفيفة التي تتقدمها لحمايتها . وعلى الفور قامت مجموعة من ١٩٣ طائرة من فوق أسطح « لكسينجتون » و « يوركتاون » بمهاجمة الحاملة « شوهو » حيث أغرقتها في نصف ساعة ، أما القوة الضاربة الرئيسية فقد إستمرت في إبحارها في اتجاه الغرب عبر بحر المرجان تحت قيادة الأدميرال « تاكاجي » . وفي اليوم التالي ، وعندما أصبحت المسافة الفاصلة بين القوتين المتضادتين ٢٠٠ ميل تمكن إستطلاعهما مشاهدة كل منهما الآخر . وقامت القاذفات الأمريكية بمهاجمة الحملات اليابانية ، وتركت « شوكاكو » مشتعلة و « زويكاكو » مدمرة ، وسجلت قاذفات الطوربيد اليابانية ست إصابات على « لكسينجتون » ، التي إنفجرت أثناء الليل . ومن الناحية الإستراتيجية تعتبر معركة بحر المرجان نصراً أمريكياً ، إذ أنها أحبطت الخطط اليابانية ضد كل من أستراليا والأسطول الأمريكي في المحيط الهادى ؛ أما من الناحية التكتيكية فكان لها أهمية عظيمة ، لأنها كانت بمثابة ثورة في الحرب البحرية ، فقد كان لدى الطرفين قوة كبيرة من السفن الحربية التقليدية ، ولكنها لم تشتبك مع بعضها على الإطلاق وتم القتال في المعركة بين حاملات الطائرات ، ولم تشاهد الأساطيل بعضها أبداً . ولم تكن حاملات الطائرات سفناً حربية ولكنها كانت قواعد متحركة للقوات الجوية ، وكانت قوة هذه الحاملات تكمن في قوتها الهجومية لأنها تحمل طائرات الطوربيد والقاذفات المنقضة والمقاتلات .

الجهيم في ميداوى

وفي هذه المرحلة ، كانت الطائرة اليابانية أكثر قوة ولكن قليلة العدد من الأمريكية وفيما بعد أنتج الأمريكيون طائرة الطوربيد « أفنجر » والمقاتلة « هلكات » ، بعد

إدخال بعض التطورات على مستوى أدائها . وأكثر من ذلك كانت الحاملات الأمريكية تحمل طائرات أكثر من اليابانية ، ولم تكن حاملة الطائرات نفسها مدرعة تدريباً ثقيلاً مما جعلها هدفاً ضخماً لما عليها من الوقود والمفرقات ، وقد اعتمدت في دفاعها على مقاتلاتها وعلى قوة نيران ستارة واقية من السفن الحربية الخفيفة .

وفي الحقيقة قد أثبتت حاملات الطائرات على أنها معرضة تعرضاً خطيراً للهجوم عليها من الجو . ولم تمنع هزيمة اليابان في بحر المرجان إلى التخلي عن تنفيذ الجزء الثاني من برنامجهم ، وهو الهجوم على ميدواي . وفي مايو حشد الأدميرال « ياماموتو » معظم البحرية اليابانية تقريباً ، حوالي ٩٠ سفينة في بحر « أنلاندا » وجزيرة « ماريانا » . ولكن الأمريكيون حلوا الشفرة اليابانية ، لأن الأمن والاستطلاع الياباني كانا سيئتين . وفي منتصف مايو علم « نيمتز » أن هناك هجوماً يابانياً سوف يتم على « ميدواي » في أوائل يونيو من الشمال الغربي . ودعمت ميدواي ، وشكل الأمريكيون قوتين للمهمة ، الأولى تحت قيادة الأدميرال « فلتشر » في حاملة الطائرات « بوركتاون » ، بينما كانت الثانية تحت قيادة الأدميرال « سيروانيس » ومعه حاملتي الطائرات « انتربريز » و « هورنت » . ولم يكن هناك بوارج ، وقد تمت تغطية حاملات الطائرات بالطرادات والمدمرات . وفي أواخر مايو خرجت القوتين من بيرل هاربور إلى نقطة في الباسيفيك تبعد ٣٠٠ ميل إلى الشمال الشرقي من ميدواي ، حيث كان عليها التجول لتشكيل كميناً . وإقرب اليابانيون في مجموعتين ، وكانت القوة الرئيسية مشكلة من أربع حاملات طائرات ، « أكلجى » و « كاجا » و « هيريو » و « سوريو » بقيادة « ناجامو » ، وتحركت هذه القوة في المقدمة وعلى بعد حوالي ١٠٠ ميل من باقي القوات . وفي فجر ٤ يونيو كان « ناجامو » عند نقطة بدء الهجوم وعلى بعد ٢٤٠ ميل من ميدواي ، في نفس الوقت كان أسطول الحاملات الأمريكية يقترب من على بعد ١٠٠ ميل إلى الشرق ، وتوفر لدى الأمريكيين ميزة خطيرة وهي أن اليابانيين لم يكن لديهم أجهزة رادار ، ولم يعلموا بالتالي أن الأسطول الأمريكي في البحر .

وهكذا كان « ياماموتو » يعتمد على المفاجأة الكاملة والتي لم تكن موجودة . وفي الساعة ٤ من صباح ٤ يونيو انطلقت ١٠٠ طائرة قاذفة ومقاتلة من الحاملات اليابانية الأربعة ،

وبعد ذلك بساعتين كانت ميداوى مشتعلة ويملؤها الدخان بالرغم من أن قوة القاذفات قد عانت خسائر جسيمة . ودمرت خزانات البترول والمنشآت والطائرات الأمريكية ، ولكن الخسائر في المدافع ومهابط الطائرات كانت صغيرة ، وقرر ياجومو أنه لا بد من توجيه ضربة أخرى . ولتقصير المسافة على الطائرات العائدة أبحرت الحاملات جنوباً ، كما تم خلال الفاصل الزمني وضع القنابل بدلا من الطوربيدات في الطائرات الأخرى تمهيداً للهجوم الثاني . وفي الساعة السادسة أرسل الأدميرال « سيراونس » قوة ضاربة من ١٠٠ قاذفة ومقاتلة ، الغرض منها إعتراض الحاملات اليابانية وهي في طريقها نحو الجنوب الشرقى . ولكن « ناجومو » علم بأقترابها وغير الاتجاه منبهاً طائراته العائدة في الطريق إلى موقعه الجديد حيث هبطت القاذفات اليابانية بسلام .

وفي الوقت المناسب أطلقت المقاتلات اليابانية لمقابلة أول مجموعة من الطائرات الأمريكية والمكونة من ٢٩ قاذفة طوربيد والتي لم يكن معها غطاء من المقاتلات . وعندما هاجمت القاذفات الأمريكية في ٩٦ أسقطت المقاتلات والسفن اليابانية ٢٥ طائرة من ٢٩ ولم يصب أى من الطوربيدات الأمريكية أهدافها ، وعندما دفعت الموجة الثانية والمكونة من ١٢ قاذفة لاقت نفس المصير . وبذلك فقدت ٣٥ طائرة أمريكية من بين ٤١ طائرة والتي أرسلت في محاولة لتحديد مكان العدو . وتلك التضحية الأولى كانت ذات قيمة عظيمة ، فبعد طائرات الطوربيد جاءت ٥٠ قاذفة منقضة أمريكية ، في الوقت التي كانت فيه الحاملات اليابانية لازلت تقوم بمناوراتها لتجنب الطوربيدات وبالتالي كانت غير قادرة على إطلاق طائرات أكثر من فوق سطحها ، كما كانت الحاملات « أكلجى » و « كاجا » و « سوريو » تسير في تشكيل واحد ، والطائرات جميعها رابضة على أسطحها ، وهذا أنقضت عليها القاذفات الأمريكية في هجوم مدمر ، وفي خلال بضع دقائق كانت الحاملات الثلاثة مشتعلة كالاتون حيث انفجرت طوربيداتها وقنابلها في حطائر السطح .

أما الحاملة اليابانية الرابعة « هيريو » فكانت متقدمة بضعة أميال ، وتوفر لديها الوقت لإرسال قاذفات المنقضة للثأر من الأمريكيين . وحوالي الظهر هوجمت الحاملة الأمريكية « يوركتان » ، وأستطاعت ست طائرات يابانية النفاذ من ستارة مقاتلاتها وأصبحت بثلاث

قنابل إشعلت فيها النيران ودمرت غلاياتها . وأمكن السيطرة على النيران ، وبعد حوالى ساعة كانت « يورككتاون » تسير فى مجراها ثانية .

ولكن تمت هجمة ثانية بواسطة ٣٢ قاذفة طوربيد من الحاملة « هيريو » ، وأتت الطائرات منخفضة ، وقامت « يورككتاون » بعمل غلابة من الرزاز وذلك بأطلاق مدافعها فى الماء لتضليل الطائرات المنخفضة ، ولكن تمكنت خمس طائرات من إختراق هذه الغلابة ، وضربت الحاملة بثلاث طوربيدات . ودمرت « يورككتاون » ندميراً خطيراً مما أوجب إخلائها ، وبعد ذلك بيومين أغرقها غواصة يابانية . وفى نفس الوقت تم تحديد مكان « هيريو » ، وأطلقت الحاملة « هورنت » قاذفات المنخفضة ، وفى الساعة الخامسة كانت آخر حملات الأدميرال « ناجومو » مشتعلة ، وبذلك تم إغراق الحاملات الأربعة . ولم يتمكن الأدميرال « ياماموتو » الموجود فى سفينة القيادة على مسافة ١٠٠ ميل فى الخلف من جمع أى تقارير واضحة عن الحركة إلا فى وقت متأخر من بعد الظهر . وبدأ على الفور الانسحاب غرباً خوفاً من هجوم تالى للحملات على أسطول . وقام سبروانس بمطاردته ومعه الحاملتين « أنتربرايز » و « هورنت » ولكن لم يحدث أى إشتباك حتى ٥ يونية .

وفى ٦ يونية أغرقت القاذفات الأمريكية ، الطراد الثقيل « ميكوما » وتملك كانت الحاملة الأخيرة لمعركة « ميدواى » . وواصل « ياماموتو » الأبحار للنجاة ، وأوقف « سبروانس » المطاردة نظراً لنقص الوقود فى الحاملات الأمريكية . وكانت معركة « ميدواى » فى يونية ١٩٤٢ ذات أهمية بالغة من الناحية الإستراتيجية ، فلو قدر ودمر اليابانيون أسطول الحاملات الأمريكية ، لفقدت الولايات المتحدة الفرصة لهزيمة اليابان لمدة طويلة . وظهرت فى السنوات التالية للحرب أهمية وحبوية وجود الحاملات فى الحرب البحرية . وقد كان من المستحيل الإستيلاء على الجزر المتناثرة غربى الباسفيك بدون غطاء جوى . وأصبح اليابانيون بعد خسارتهم لهذه الحاملات الأربعة فى موقف سيء للغاية ولم يتمكنوا من بناء سوى حاملة طائرات واحدة يمكن الاعتماد عايمها فقط قبل نهاية الحرب . ومن ناحية أخرى كان عليهم إستخدام البوارج المعدلة لتصبح حاملات ولكنها كانت ليست البديل الصحيح لقوة وتأثير حاملات الطائرات . وفى ذلك الوقت أصبح الأمريكيون فى موقف ملائم للهجوم ، وبدأوا حملتهم

الطويلة بالصراع حول « جواد الكنال » ، والتي إستمرت من أغسطس ١٩٤٢ حتى يناير ١٩٤٣ ، وكانت « جواد الكنال » نقطة إستراتيجية هامة حيث أنها جزيرة من مجموعة جزر سليمان ، أنشأ فيها اليابانيون مهبط للطائرات . وفي ٧ أغسطس دخل الأسطول الأمريكى إلى المنطقة ، وتم إنزال حوالى ٢٠٠٠٠ من رجال البحرية بنجاح . ولكن بعد ذلك بيومين ظهر على المسرح حشد بحرى يابانى ، وفي عملية ليلية أغرقت أربعة طرادات أمريكية وهى نصف القوة الأمريكية ، وكان الصراع التالى من أجل « جواد الكنال » بالغ القسوة . فالى جانب الأعمال الصغيرة المتعددة والهجمات الجوية المستمرة من كلا الجانبين ، فقد نشبت ستة معارك بحرية أخرى ، وأعجزت المعارك الثلاث الأولى منها ، اليابانيين عن إحضار تدعيمات قوية ، وعلى أرض « جواد الكنال » نفسها دار قتال قاسى وضارى وبطريقة متكافئة فى القوى وفى الخسائر لكلا الجانبين ، ثم تمكن الأسطول الأمريكى من إحراز التفوق على اليابانيين . وكانت آخر عملية بحرية عبارة عن عملية تغطية بواسطة اليابانيين للجللاء عن « جواد الكنال » . وأدى هذا الفجاء الأمريكى فى النهاية إلى إيقاف التقدم اليابانى جنوبا ، وحقق للأمريكيين قاعدة لهجومهم المضاد . ويشير الاسم الغير رسمى لها « عملية رباط الحذاء » على مدى صعوبتها .

أقوى قوة بحرية فى العالم (أنظر اللوحة رقم ٥٤)

وفى أوائل عام ١٩٤٣ حددت الخسائر الجسيمة التى وقعت بين السفن والطائرات اليابانية مقدار المعاونة التى يستطيع اليابانيون تقديمها لحمايتهم الخارجية . وبدأ الأمريكيون هماتهم لإعادة إحتلال القواعد اليابانية . وتميزت إستراتيجيتهم بالعمليات المشتركة ذات المستوى العالى بين جميع الأسلحة . وكان التقدم نحو اليابان لا بد أن يتم عبر سلاسل الجزر المتعددة وفى وثبات متتالية وذلك بالإستيلاء على الجزر التى يحتلها اليابانيون قبل الاتجاه إلى الجزر الأخرى ، ولذلك أستخدمت القوات الجوية من قواعد جوية متقدمة أو من حاملة للطائرات ، للقيام بأجراء الضرب التمهيدى ضد قواعد العدو ، ثم بعدها يتم وثبة إلى الإمام بواسطة القوات المحمولة بحراً أو جواً للاستيلاء على الهدف .

ثم يتم إنشاء « قاعدة متحركة » مكونة من السفن التى تحمل كل الإحتياجات من مؤن

ومعدات ووقود ، للتحضير للوثبة التالية . وقاد الجرال « دوجلاس مارك آرثر » التقدم على طول الشاطئ الشمالي لغينيا الجديدة حتى الفلبين .

وفي نفس الوقت تقدم الأدميرال « نيمتز » من جزر « هاواي » إلى جزر « جلبرت » و « مارشال » ثم إلى جزر « مارياناس » . وقام الأدميرال « هالس » بتطهير المنطقة جنوب شرق غينيا الجديدة . وقادت قوات^(١) مارك آرثر ، قتالا عنيفاً للاستيلاء على شبه جزيرة « فينستشافن » والتي تم الاستيلاء عليها في أكتوبر ١٩٤٣ ، وفي سبتمبر ١٩٤٤ وصلت القوات إلى النهاية الغربية لغينيا الجديدة . وكان له ثقل كبير في جزيرة موروتاي في مجموعة جزر الملوك ، استعداداً لغزو الفلبين . وأستولى « نيمتز » على جزر « جلبرت » في نوفمبر ١٩٤٣ وعلى جزر « مارشال » في أوائل ١٩٤٤ .

وفي يونيه ١٩٤٤ هوجمت جزر « سايبان » و « جوام » ضمن مجموعة جزر « مارياناس » . وإنخفض إنتاج اليابان للمواد الحربية إنخفاضاً كبيراً ، بينما أنتج الأمريكيون طائرات جديدة وبأعداد كبيرة ، كما كان تفوقهم في حاملات الطائرات كبيراً جداً . وأستخدم اليابانيون غواصاتهم في مهاجمة السفن الحربية الأمريكية ، في الوقت التي ركزت فيه الغواصات الأمريكية هجومها على سفن الشحن وناقلات البترول اليابانية ، وكان ذلك له أكبر الفائدة .

وكان من النادر أن يستطيع اليابانيون تدعيم الجزر ، حيث كانت القاذفات الأمريكية تقصف بعنف وشدة أي محاولة للنزول إلى البر ولكن كان القتال دائماً ضارياً وبدون رحمة من كلا الجانبين ، فكان اليابانيون ينتظرون في الأحراش ويهاجمون مشاة البحرية على الشواطئ شديدة الانحدار . وعلى أي حال فبعد عدة أسابيع من القتال تم الاستيلاء على جزر « المارياناس » ، وبعد ذلك وفي معركة بحر الفلبين في ٢٩ يونية أغرق أسطول « سبراوانس » أفضل حاملتي طائرات يابانية ، كما دمر حاملة أخرى ، بينما تم تدمير أكثر من ٤٠٠ طائرة يابانية بواسطة الطائرات الأمريكية من نوع « هلكات » . وقد خاض كل من « ماك آرثر » و « نيمتز » والذين أعرفها ، حملات بارعة في حروبهم ضد اليابانيين في الشرق الأقصى . وقد كانت هذه الحرب برمتها حرباً أمريكية ، وقد قاتل الأمريكيون حرباً جديدة وبوسائل

جديدة ، وواصلوا الحرب حتى حققوا النصر الكاملاً . وقد ركب الحلفاء أمواج هذه الحرب بصعوبة .

ولكن لم يكن لدى ماك آرثر حليف يقترح عليه حلاً بديلة . وخلال حرب ٣٩ - ١٩٤٥ أحدث الأمريكيون تأثيراً عميقاً جداً في الحرب البحرية ، فقد طوروا إستراتيجية جديدة وتكتيكات جديدة وأساليب تكنولوجية تلائم الحرب في البحر في العصر الجديد للقوة الجوية . وأرتقوا خلال الأربع سنوات من الحرب ليصبحوا أقوى قوة بحرية في العالم . ولكم أناسعيد عندما حظيت بالتعرف على الأدميرال « نيمتز » ، ذلك البحار العظيم .

عمليات سليم (أنظر اللوحة رقم ٥٥)

والآن يجب علينا أن نعود إلى بورما ، حيث يخوض الجنرال سليم معارك بارعة بجيشه الرابع عشر .

فبينما كان المديتحول ضد اليابانيين في الباسفيكي ، قام الحلفاء بالهجوم في بورما . فقد تبع انسحاب قوات الكسندر في عام ١٩٤٢ فترة من الركود حيث قام البريطانيون خلالها بتنفيذ برنامج كبير لإعادة التدريب في الهند ، وبأسلوب تجريبي إلى حد ما . وقد تم الهجوم بجذاء الشاطئ الغربي في منطقة « أراكان » وانسحب اليابانيون إلى موقع مجهز في شبه جزيرة « مايو » والمدافع عنها بشبكة من الدشم المحصنة . وهناك صدوا الهجمات المتكررة ، رغم التفوق عليهم بنسبة ٤ : ١ ، مما أدى أن انسحب البريطانيون أخيراً ، بعدما تكبدوا خسائر جسيمة كما حدث إنخفاض في الروح المعنوية . وفي نفس الوقت قام ضابط بريطاني هو العميد « أورد وينجات » بعملية قام هو بتصميمها وبموافقة ويفل عليها . وكانت نظرية « أورد » تتضمن أنه يمكن لقوة صغيرة ومدربة تدريباً عالياً ، أن تعمل في داخل بورما وذلك بشن حرب عصابات على مواصلات اليابانيين ، متجنبيين القوات الدفاعية الرئيسية لليابانيين على ألا تعتمد هذه القوة على المواصلات البرية ، ولكن يتم إمدادها من الجو . وفي فبراير ١٩٤٣ عبر « أورد » نهر « شندوين » ومعه ٣٠٠٠ رجل ، مخترقاً طريقه بعمق في الأراضي التي يحتلها اليابانيون .

وفي مارس تم قطع خط السكة الحديد من «مندلاي» إلى ميتكينيا في عدة أماكن وقتل مئات من جنود العدو .

وفي مايو عاد إلى الهند حوالي ٢٠٠٠ رجل من الحملة أحياء . ومن الناحية المادية ، لم تكن الحملة «أورد» قيمة كبيرة، كما اضطرت إلى ترك المرضى والجرحى لليابانيين المتوحشين وأدى هذا إلى الكثير من الشك في قيمتها ولكن اكتسب الأمريكيان خبرة ممتازة فيما يختص بالأمداد الجوي .

وفي عام ١٩٤٣ تم تنظيم قيادة جديدة للحلفاء ، وأصبح الأدميرال «موتبتان» القائد الأعلى والمسئول عن تنظيم وتنسيق التعاون بين القوات في جنوب شرق آسيا ، كما أصبح «ستيلاويل» نائبه ، والذي كان قائدا للقوة الأمريكية — الصينية في المنطقة الشمالية ، والتي تشمل على ثلاثة فرق صينية وثلاث كتائب أمريكية وقوة غير نظامية صغيرة .

أما القوة الرئيسية الأخرى فكانت الجيش البريطاني ١٤ والذي يتكون من حوالي ١٠ فرق من القوات البريطانية والهندية والجوركية والجنوب أفريقية ومعها لوائين من الدبابات . وفي أواخر عام ١٩٤٣ تولى الجنرال سليم قيادة الجيش ١٤ ، أما القوات اليابانية فكانت بقيادة الجنرال «كاواب» بلغ مجموعها حوالي تسع فرق كاملة ، وقد قسمت إلى ثلاثة جيوش : — الجيش ٢٨ ومسئولا عن مواجهة «أراكان» ، والجيش ١٥ مسئولاً عن الجبهة الوسطى وبصفة خاصة ممرات السكة الحديد ، والجيش ٣٣ يحتل ويسيطر على الجبهة الشمالية الشرقية .

وقد أعطى الأمريكيون الأسبقية الأولى لتطهير الطريق إلى الصين عبر شمالي بورما . وكانت إستراتيجية الحلفاء لهجوم شتاء ١٩٤٣ — ١٩٤٤ تدور حول هذا الرأي وتحتم تجديد الهجوم على «أراكان» بينما تتحرك قوة «ستيلاويل» جنوباً في اتجاه «ميتكينيا» لتغطيه طريق ليدو على أن يتعاون مع قوة «ستيلاويل» هجوم آخر «أورد» .

وأصبح من الملامح المميزة لهذه الحملة هو الاستخدام الجديد للمعاونة الجوية والتي حققتها القوات الجوية الملكية والأمريكية . فقد كانت الأمدادات والمواصلات تتم جواً بالكامل ، فكان يتم الأمداد بالكامل من الجو لفرقة تتقدم بسرعة عبر الأراضي الصعبة . وسارت الحملة سيراً حسناً . وحاول اليابانيون تطويق القوات البريطانية في «أراكان» ولكن

تم تطويقهم عندما دفع سليم بقوات إضافية جوا . وأدى هذا الانتصار الأول للبريطانيين على اليابانيين إلى رفع الروح المعنوية بدرجة عظيمة . وقد حققت قوات « ستيلويل » أهدافها ، فقد قوبلت بفرقة واحدة فقط .

وتم إزال لوائين من قوات « أورد » بواسطة الطائرات الشرعية في عدة نقاط ، بينما تقدم لواء واحد برأ ، وقامت هذه القوات بمهاجمة المواصلات ، فنجحت في جذب القوات اليابانية الرئيسية بعيداً عن « ستيلويل » قبل أن تشتبك معه في قتال . وقتل « أورد » نفسه في حادث سقوط طائرة .

وفي مارس ١٩٤٤ قام اليابانيون بهجوم رئيسي ضد آسام ، ودار صراع دام ثلاثة أشهر في كل من منطقتي « أمفال » و « كوهيا » . وقام سليم مرة أخرى بنقل قوات بطريق الجو ، حتى أصبح لدى البريطانيين ست فرق ضد ثلاث فرق يابانية . وبعد هجوم يأس تم في يولييه ، توقف اليابانيون وأنسحبوا عبر نهر « شندوين » بعد أن قاتل اليابانيون بعنف وخسروا أكثر من ٥٣٠٠٠ رجل ، كما أنهم عانوا المزيد من الخسائر التي نتجت عن الأمراض وخاصة الماريا . ويعتبر ذلك مقياساً لنوع الخدمات الطبية التي تتطلبها بشكل عام الحملات في مثل هذا النوع من البلاد . وبعد الهزيمة الساحقة لليابانيين في آسام ، أصبحت مهمه سليم هي إحتلال وسط بورما وجنوبها حتى « مندلاي » . في الوقت الذي أصبحت قوة اليابانيين فيه تعادل عشر فرق مشاة وفرنيتين من « الجيش الهندي القومي » وفوج دبابات ، بالإضافة إلى العديد من القوات على خطوط المواصلات .

وقد استطاعت قوة الحلفاء الشمالية والتي يقودها في ذلك الوقت الجنرال « سلتان » أن تشغل فرقين من قوات العدو ، بينما أمكن شغل ثلاث فرق أخرى بواسطة القوة التي في « الأراكان » وأيضاً عن طريق التهديد بعمليات إنزال بحري وجوي . وبذلك فأصبح من المتوقع أن يواجه هجوم الجيش ١٤ المكون من ست فرق على وسط بورما ، بخمس فرق معادية فقط . وقد كان لدى اليابانيين قائداً عاماً جديداً هو الجنرال كيورا . وقد قسم سليم جيشه إلى فيلقين الفيلق ٤ بقيادة الجنرال « مسيرفي » ويتكون أساساً من الفرقة ٧ والفرقة ١٧ واللواء

٢٥٥ دبابات^(١) . والفيلق ٣٣ بقيادة الجبرال « ستوبفورد » ويتكون من الفرقة الثانية والفرقة ١٩ والفرقة ٢٠ واللواء ٢٥٤ دبابات^(٢) . ووضعت الفرقة الخامسة في الاحتياطي . وكان على النقل الجوي أن يكون هو وسيلة الأمداد حتى المواقع المتقدمة .

وبدأ هجوم الجيش ١٤ في ٣ ديسمبر ١٩٤٤ ، وعبرت فرق سليم الستة نهر شندوين لغرض إجبار اليابانيين على الدخول في المعركة وهزيمتهم في سهل شويبو . وعلى أي حال فقد قرر « كيمورا » بعد هزيمته في « أمفال » عدم المخاطرة بمعركة في سهل مفتوح ، وقام بسحب قواته بالتدريج خلف نهر « أراوادي » حيث إستعد « لمعركة شاطيء نهر أراوادي » .

وكان يأمل أن يعطل الجيش ١٤ عندما يحاول عبور النهر ، وبعد ذلك يقوم بتدميره أثناء عودته منهكا إلى نهر « شندوين » .

ولكن عندما أصبح واضحاً أن اليابانيين ينسحبون ، قام سليم باتخاذ خطة جديدة لتدمير القوات اليابانية الرئيسية خلف « أراوادي » ، وكانت الخطة تتضمن أن يقوم الفيلق ٣٣ بعبور النهر عنوة شمال وغرب « مندلاي » ، جاذباً إليه أكبر تجمع ممكن من القوات اليابانية ، بينما يقوم في نفس الوقت الفيلق الرابع بالتسلل على طول وادي جانجاو ، ويعبر نهر « أراوادي » بالقرب من « باكوكو » ، ثم يقوم عندئذ وبدون توقف وبعنف بالهجوم بالمدركات والقوات المحمولة جواً على « ميكيتيلا » المركز الرئيسي الإداري للجيش الياباني .

فكان يتواجد في هذه المنطقة قواعدهم الرئيسية للأمداد ومستودعات الذخيرة والمستشفيات وعدة مطارات ، كما كان يلتقي عندها الطرق والسكة الحديد الآتية من الجنوب الشرقي والغرب ، وقبل أن تمتد ثانية إلى الشمال ، ولو تم الإستيلاء على ميكيتيلا فسوف تقطع مواصلات الجيوش اليابانية في المنطقة بين « سلوين » ونهر « أراوادي » ، وبذلك يحير « كيمورا » على القتال في معركة غير متكافئة من أجل إستعادتها . ويمكن للبريطانيين بعد ذلك متابعة النصر بالانطلاق نحو « رانجون » .

(١) كان نوع الدبابات شيرمان

(٢) كان نوع الدبابات جرانت وستوارت

وفي الأسبوع الثاني من يناير ١٩٤٥ كان جيش سليم يقترب من نهر « أراوادي » وعلى مواجهة أكبر من ٢٠٠ ميل فيما بين « وونزو » و « با كوكو » .

ولم يحاول اليابانيون التمسك بكل خط النهر ، ولكنهم ركزوا الدفاعات على أما كن
العبور المحتملة ، مع الإحتفاظ بإحتياطي خفيف الحركة في الخلف حتى يتضح لهم
نوايا البريطانيين .

وفي ليلة ١٤ يناير بدأ الفيلق ٣٣ تنفيذ دوره في إستراتيجية سليم ، وبدأت الفرقة ١٩
عبور نهر أراوادي ، شالي مندلاي ، عند « كياو كيوانج » حيث تم أقامة
رأس جسر .

وفي يوم ١٧ قرر العدو أن هذه هي عملية العبور الرئيسية للبريطانيين ، وتم حشد القوات
اليابانية للقيام بهجوم كبير هناك .

وفي خلال الثلاثة أسابيع التالية نشب قتال عنيف ، وأحضر « كيمورا » قوات أكثر
وأكثر ، بما في ذلك تدعيمات من « ميكيتيلا » ، لطرد البريطانيين خلف نهر « أراوادي » ،
ولكن رأس الجسر البريطاني كان يتسع بثبات ، كما تم عبور آخر إلى الغرب من
« مندلاي » .

وفي نفس الوقت كان الفيلق الرابع يشق طريقه جنوباً خلف نهر « شندوين » في اتجاه
نهر « أراوادي » عند « با كوكو » .

وكان آخر موعد لأبحاز العبور هو ١٥ فبراير ، ولأحباط أى أعاققة يقوم بها الحرس الخلفي
الياباني ، تم التقدم خلف منطقة « كان » وعلى مواجهة واسعة لكي يمكن تطويق العدو ،
وفي ٢٨ يناير وصل الفيلق الرابع إلى وادي نهر « أراوادي » .

وجند كل الرجال للعمل في إنشاء مهابط للطائرات وإصلاح الطرق حتى يمكن للدبابات
وعربات النقل أن تتحرك للأمام ، ومعها مهبات العبور . وقرر « مسيرفي » أن يتم العبور
بالقرب من « نياونجو » حيث هناك النهر ضيقاً .

ولكي يتم خداع العدو ، تمت عمليتين خداعيتين في نقطتين أخرتين على النهر . وقبل
فجر يوم ١٤ فبراير مباشرة قامت أولى القوات بالعبور في قوارب في سكون تام ، وكان مكان

العبور على بعد حوالى ميل من نياوانجو ، وقاموا بإنشاء مواقع دفاعية على الضفة البعيدة . وفي ضوء النهار عبرت النهر قوة كبيرة ترافقها المدفعية والدبابات علاوة على المعاونة الجوية لتوسيع رأس الجسر لباقي القوات .

وتم الإستيلاء على « نياوانجو » فى ١٦ فبراير . وفوجئ اليابانيون مفاجأة كاملة ، فلم يكن لديهم أى معلومات عن وجود قوات معادية رئيسية فى المنطقة . ولم يكن القيام بمثل هذه العملية ممكناً إلا بالتغطية التى وفرتها تحرك القوات من خلال الأحرش ودعم القوات الجوية لتحركات تلك القوات .

ولقد إنخدع « كيمورا » تماماً بخطة « سليم » ، فقد ظل يعتقد أن جميع الجيش ١٤ مازال فى المنطقة بين نهري « شندوين » و « أراوادي » ، شألى « مندلاى » . أما العمليات التى كانت تتم فى اتجاه « باكو كو » فقد اعتبرها « كيمورا » نوعاً من المظاهرات العسكرية الخداعية التى تقوم بها قوات صغيرة .

وظل « كيمورا » يتوقع أن يقوم البريطانيون بمحاولة رئيسية وواسعة للانطلاق فى اتجاه « مندلاى » ، ولذلك فقد إستمر فى سحب القوات من القطاعات الأخرى لحشدتها لمعركة شاطئ نهر « أراوادي » .

وفى أواخر شهر فبراير زادت التدعيمات من قوة « كيمورا » حتى وصلت قوته إلى تسع فرق ، وذلك ضد الخمس فرق البريطانية الموجودة عند « مندلاى » . وأصبح الفيلق ٣٣ يواجه مقاومة كبيرة من المجموعات الغير نظامية المحلية .

وكان من الضرورى على الفيلق الرابع أن يحقق نجاحاً سريعاً فى هجومه على « ميكتيلا » . الشئ الذى سوف يجبر « كيمورا » على التحول لأنقاذها ومن ثم تتعرض قواته لهجوم مزدوج .

الأفام البشرية (أنظر اللوحة رقم ٥٦،٥٥)

وفى ٢١ فبراير بدأت الفرقة ١٧ ولواء دبابات الفيلق الرابع التقدم نحو « ميكتيلا » . وفى ٢٥ فبراير إحتلوا مهبط طائرات « زابوتكون » الذى يقع على بعد عشرة أميال فقط من المدينة .

وفي اليوم التالي تدفقت قوات أكبر إلى المنطقة ، وجرت محاولات من جانب اليابانيين لأغلاق الطريق ، ولكن تم القضاء عليها بسرعة بواسطة هجمات بالمواجهة وبحشد من الدبابات . وعلى بعد خمسة أميال من المدينة توقف الفيلق الرابع لإعادة التشكيل . أما اليابانيون في « ميكتيلا » فقد قضاوا أياماً عديدة في حفر المواقع الدفاعية تحت قيادة الجنرال « كاسويا » .

وقد نظم « كاسويا » قوته المقاتلة والتي كانت حوالى ٣٢٠٠ رجل وعدد كبير من المدافع ، وقام بتسليح كل رجاله المتيسرين حتى الرضى بالمستشفيات ، وقد تم وضعهم في نقط قوية ، كما نصب المدافع المضادة للطائرات والتي جلبت من المطارات القريبة على المحيط الخارجى للدفاعات لتعمل كمدافع مضادة للدبابات .

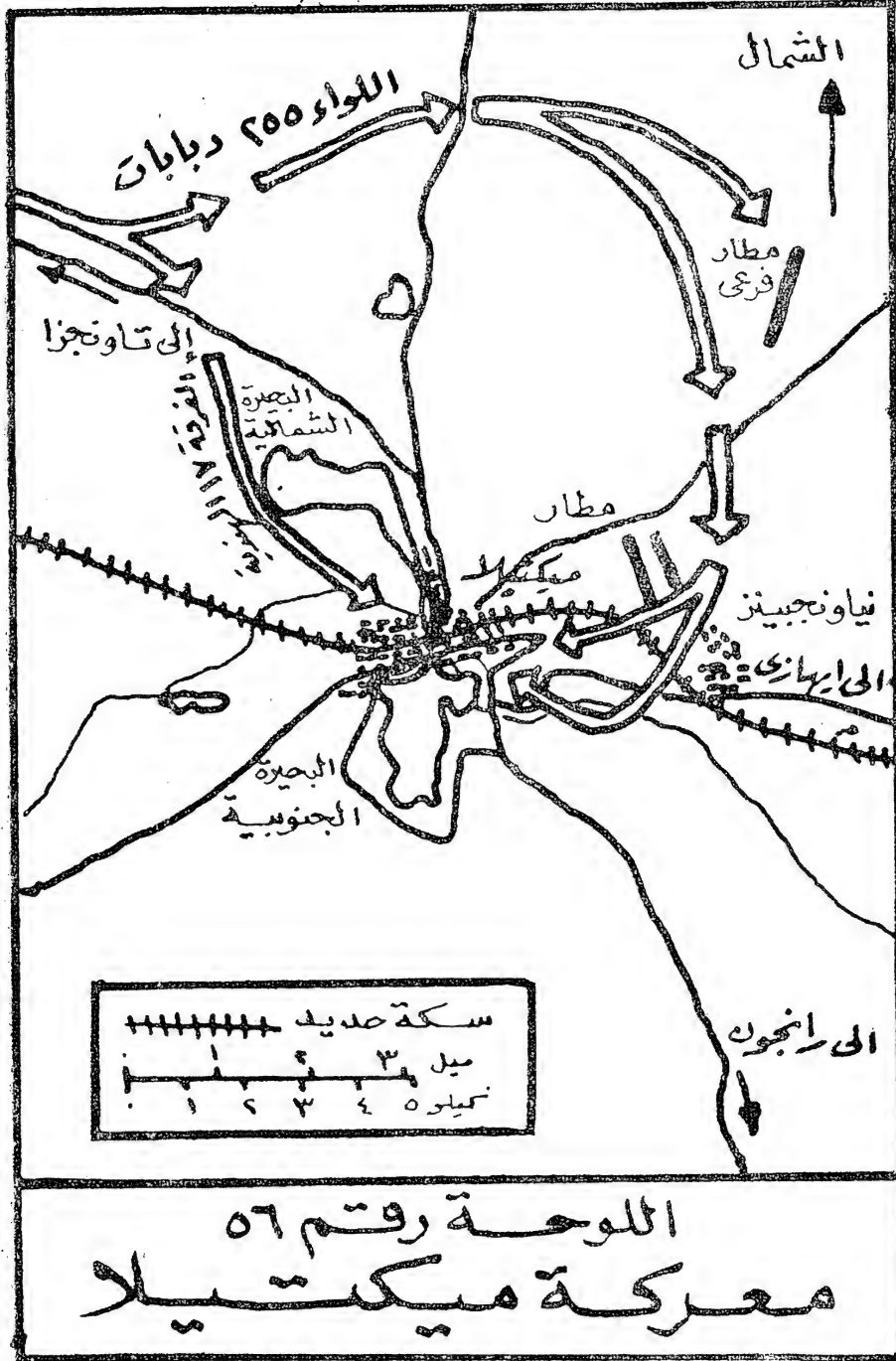
وعلى أى حال فقد كانت « ميكتيلا » مكاناً يصعب جداً مهاجمته ، حيث يوجد في شمال وجنوب المدينة بحيرات جعلت من السهولة الدفاع عن الطرق لأنها كانت طرقاً مرتفعة تمر في أرض منخفضة ، كما أن الأرض المحيطة كان يقطعها قنوات ومصارف للرى . وكانت الخطوة الأولى في الهجوم هي الإستيلاء على المطار الواقع على الأطراف الشرقية للمدينة ، حتى يمكن إرسال التددعيمات والمؤن بطريق الجو .

وفي ٢٨ فبراير ، شغل هجوم بريطانى على الدفاعات الغربية إنتباه اليابانيين ، بينما قام اللواء الدبابات ٢٥٥ بالتفاف لمسافة عشرة أميال حول « ميكتيلا » من الشمال حتى يصل إلى الشرق فيتشكل هناك للهجوم .

وتم الهجوم المدرع بمعاونة المدفعية والطائرات ، وإخترق البريطانيون مقاومة اليابانيين^(١) العنيفة وتقدموا نحو المدينة .

وكان أول مارس هو أعنف أيام القتال ، بينما تضاعف التقدم نحو الشرق ، وتم إجراء عدة هجمات أخرى على النقط الدفاعية التى فى الغرب وفى الجنوب الشرقى . ودار قتال ضارى داخل المدينة عندما زحف البريطانيون من ضواحيها المتطرفة نحو وسطها ، حيث إصطدموا بدشم مدافع الما كينة بالقناصة اليابانيين والمختبئين فى كل منزل وفى قنوات المياه وخلف

(١) كانت تتكون من جيوب شملت من بقى حياً من اليابانيين ، وطأت هذه الجيوب تقاليل بضراوة بانسة .



أكوام الحجارة . ولم يستسلم اليابانيون بل ماتوا حيث كانوا يقاتلون . وتقدم البريطانيون ببطء ولكن بثبات ، ومع حلول المساء كانوا تقريباً قد دخلوا المدينة ، وفي ٢ مارس تم حصار اليابانيين في الجزء الجنوبي .

وفي ٣ مارس ١٩٤٥ كانت الحامية قد أُبِيدت تقريباً ، وأصبحت « ميكيتيلا » في أيدي البريطانيين . وذهل « كيمورا » لسقوط المدينة ، وعلى الفور إستبعد تخطيطه الخاص بالهجوم على الفيلق ٣٣ في « مندلاي » وقام بتحويل قواته تحت قيادة الجنرال « هوندا » لاستعادة « ميكيتيلا » .

وكان لدى اليابانيون قوات كبيرة متيسرة لهذه العملية ، ولكن كان عليها أن تتجمع من اتجاهات مختلفة ، ولذا كان من الصعب على « هوندا » تنظيم التحركات ، وأكثر من ذلك فكان الحلفاء لهم السيطرة الجوية الكاملة في ذلك الوقت .

وفي الوقت الذي بدأت فيه القوات اليابانية تتجمع عند « ميكيتيلا » من الشمال والجنوب قام الفيلق الرابع بالضرب في جميع الاتجاهات في هجوم جريء . وقامت المشاة والدبابات بغارات يومية لمسافة وصلت حتى ٢٠ ميلاً وذلك لأصطياد ومهاجمة القوات اليابانية المقتربة .

وكان هدف اليابانيين الأول هو مهبط الطائرات ، والذي بإحتلاله كانت تقطع الإمدادات البريطانية . وبعد صراع وحشي ومستمر وصل فيه اليابانيون إلى حافة مهبط الطائرات ، ولكن أمكن طردهم تحت وطأة المجهات المضادة .

وفي الأسبوع الأخير من مارس أصبحت ميكيتيلا مؤمنة . وفي نفس الوقت الذي تحول فيه « كيمورا » لاستعادة « ميكيتيلا » ، قام الفيلق ٣٣ بهجوم شامل من رأس الجسر في اتجاه « مندلاي » .

وفي ٢٦ فبراير عندما بدأ الهجوم انسحب اليابانيون تاركين جيوباً للمقاومة والتي أمكن التعامل معها فيما بعد . ولكن كلما أقترب البريطانيون من « مندلاي » كلما قابلوا مقاومة عنيفة .

وإستخدم اليابانيون ألغاماً بشرية عبارة عن جندي راكب في حفرة ومعه قنبلة طائرة

زنتها ١٠٠ كيلو جرام بين ركبتيه ، ويوجد حجر كبير فوق الطابة ، وعندما تمر دبابة معادية فوق حفرة يقوم بأسقاط الحجر فتنفجر القنبلة والرجل والدبابة معاً . وفي الحقيقة أحدثت هذه الألغام البشرية خسائر طفيفة .

وفي ٨ مارس إنحصرت المقاومة اليابانية في موقعين قويين ، وهما « تل مندلاى » « وقلعة دوفرين » ، وقد تم الإستيلاء على تل مندلاى في ١١ مارس وذلك عندما تم حرق آخر المدافعين اليابانيين في أقبيتهم ، كما تم قصف قلعة دوفرين والإستيلاء عليها في ٢٠ مارس .

وفي نهاية مارس ١٩٤٥ كان الحلفاء قد أستولوا على كل ضفتى نهر أراوادى ، وذلك من « مندلاى » حتى « شاوك » والطريق الرئيسى والسكة الحديد المؤدية إلى رانجون جنوباً حتى « ووندين » . والآن من موقع ميكتيلا الحاكم أمكن لقوات الحلفاء التوسع في أى اتجاه .

وأدار سليم الحملة التالية بالبراعة التى تمت بها عملية « مندلاى » — « ميكتيلا » . وبعد التقدم فى منطقة « أراكان » تم فتح مطار جديد وطرق إمداد بحرية جديدة . وفى ٣ مايو أستعيدت « رانجون » ، وإنسحب اليابانيون شرقاً عبر نهر « سيتانج » وبذلك فقد كان لزاماً القيام بقتال ضارى لتطويقهم ، وبدأت بعد ذلك التحضيرات لغزو الملايو ، ولكن هذا لم يتم على الإطلاق .

ضرب هروشيما بالقنبلة الذرية

وفى سبتمبر ١٩٤٤ كانت كل من قوات « ماك آرثر » و « نيمتز » مستعدة للهجوم على الفلبين واليابان .

وفى ٢٠ أكتوبر بدأ الجيش السادس بمعاونة البوارج والطرادات والمدمرات و١٨ حاملة طائرات صغيرة فى النزول بجزيرة « ليت » . وقرر اليابانيون وجوب التمسك بالفلبين ، وتم حشد كل القوات البحرية المتيسرة من قواعد مختلفة .

وتمثل الصراع من أجل جزيرة « ليت » عن سلسلة من المعارك التى إمتدت عبر مئات من الأميال . وعلى مدى أربعة أيام جرى أكبر إشتباك بحرى فى الحرب ، حيث قاتل خلالها

اليابانيون بأسماته . وقد إستخدم الطيارون اليابانيون فى هذا القتال التكتيكات الإنتحارية، فكانوا ينقضون بطائراتهم المحملة بالقنابل ويرتطموا بأسطح الحاملات الأمريكية والسفن الغير مسلحة الأخرى . وقد تسبب هذا التكتيك إلى تدمير ٣٣ سفينة أمريكية .

ولكن يرجع الفضل أساساً للتفوق الجوى الأمريكى ، الذى أدى أن اليابانيين عانوا من هزيمة كبيرة بفقدانهم من قبل أربعة حاملات للطائرات وحاملتين صغيرتين وثلاث بوارج ، علاوة على الكثير غيرها . وعموماً ، فقد إستمر اليابانيون يدافعون عن الفلبين . وكان لدى الجنرال « ياماشيتا » حوالى ٢٥٠٠٠ مقاتل .

وفى نهاية عام ١٩٤٤ أستولى الجيش السادس بقيادة الجنرال « كريجر » على كل جزيرة « ليت » . وفى يناير غزا الجيشان السادس والثامن جزيرة « لوزون » والتى كانت أقوى الجزر .

وفى مايو ١٩٤٥ كان الحلفاء قد أستعادوا الفلبين . وكان الهدف الرئيسى التالى هو جزيرة « أكيئاوا » تلك القاعدة الجوية المتقدمة الهامة . وفى أول إبريل بدأ فيلق من مشاة الأسطول والفيلق البرى ٢٤ ، فى النزول على جزيرة « أكيئاوا » والتى كانت حاميتها مكونة من ١٢٠٠٠٠ مقاتل يابانى .

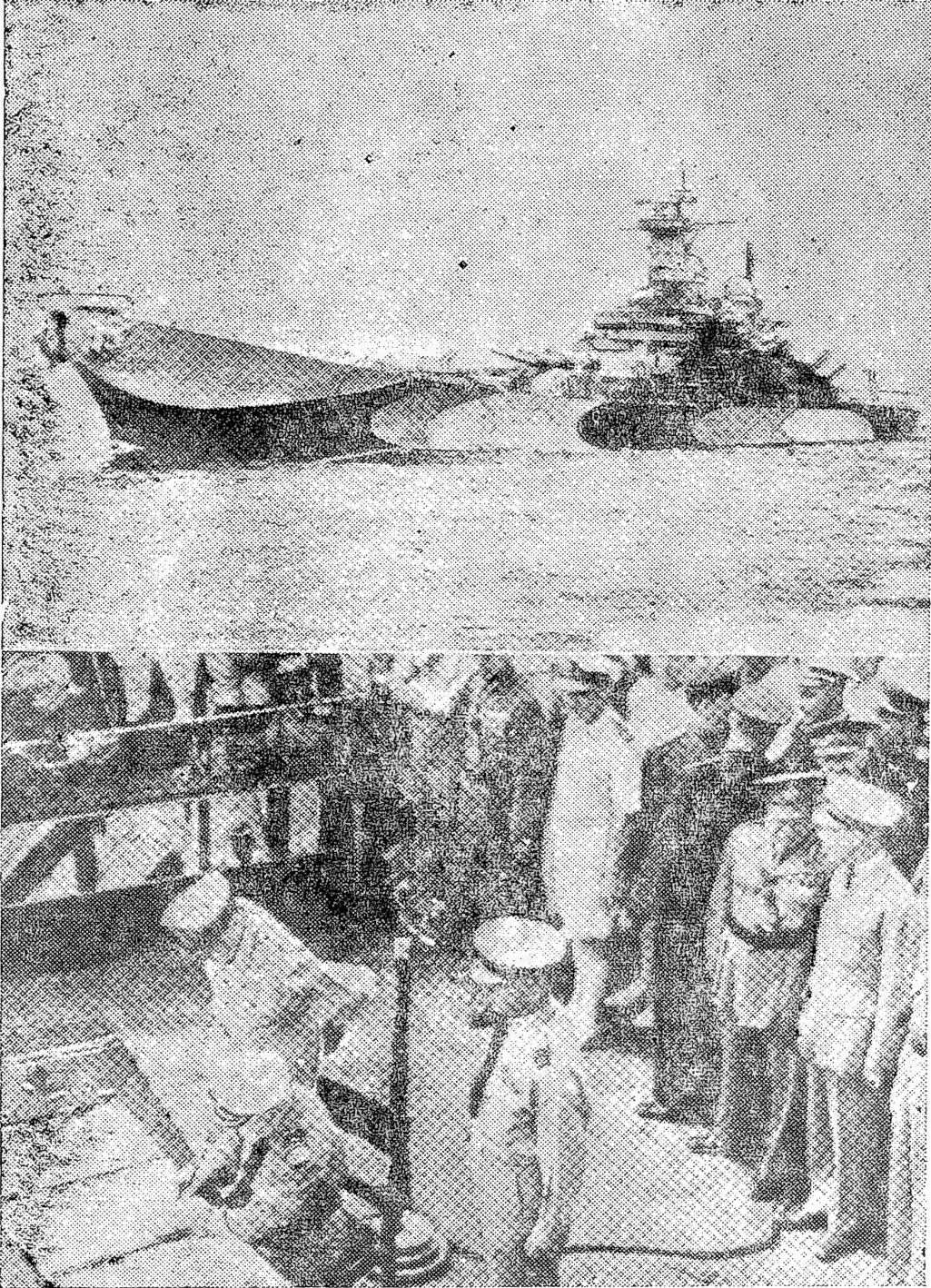
وعمل الطيارون اليابانيون الانتحاريون مرة أخرى ، وكان القتال فوق « أكيئاوا » من أعنف ما شهدته الحرب من وحشية والذى إستمر حتى ٢١ يونية عندما أستطاع الأمريكيون تأمين الجزيرة .

وقد بلغ قتلى اليابانيين ١٠٠٠٠٠ ، أما خسائر الأمريكيين من جميع الأنواع^١ ، فقد بلغت ٣٩٠٠٠ رجل .

ومنذ ذلك الوقت إشتراك الطائرات التى تعمل من « أكيئاوا » فى القصف الجوى ضد اليابان نفسها . والذى كان قد بدأ فى نوفمبر وأخذ يشتد فى الفترة بين إبريل وأغسطس ١٩٤٥ ، وذلك إستعدادا لغزو اليابان . وفى الفترة السابقة كانت الطائرات المحمولة على الحاملات هى التى تقوم بمعظم القصف ، ولكن الآن أصبحت القلاع الطائرة الكبيرة « ب ٢٩ » التابعة للقوات الجوية والتى تعمل مع الجيش هى التى تقوم بمعظم القصف .

وركزت الهجمات من « أكيناوا » على « نجازاكي » مدمرة أحواض السفن ومنطقة إنتاج الطائرات .

ومن قواعد في الصين وجزر مارياناس قصفت الطائرات المراكز الصناعية في اليابان ،



الاحتفال بتوقيع اليابان وثيقة الاستسلام بدون قيد أو شرط

بينما كملت الهجمات الليلية المحرقة القصف النهاري المحكم . وقد عانت «طوكيو» و«أوساكا»، من الدمار الشديد .

وفي أغسطس وصل القصف الجوي الهجومي ذروته . وفي ٦ أغسطس أسقط الأمريكيون أول قنبلة ذرية فوق « هيروشيما » حيث قتل ٨٠.٠٠٠ من السكان .

وفي ٩ أغسطس أسقطت القنبلة الذرية الثانية على « نجازاكي » والتي قتلت ٤٠.٠٠٠ من السكان وهذا أكثر من مجموع قتلى الغارات الجوية على لندن . ولقد شعر الأمريكيون بأن لديهم مبرر لاستخدام هذا السلاح الجديد فقد كان لا يزال لدى اليابانيون ٢٥٠.٠٠٠ مقاتل في جزر الباسفيك ، كما كانوا متمركزين بقوة في جزر الهند الشرقية الهولندية ، والملايو والصين . والدولة التي تعامل أسرها بمثل هذه الوحشية التي عامل بها اليابانيون أسراهم والتي انتهكت حرمة كل الاتفاقيات الدولية مثل الصليب الأحمر ، والتي استخدمت الألغام البشرية والطيارين الأنثجاريين ، يجب ألا تلقى أية رحمة . وفي ١٠ أغسطس ١٩٤٥ إستسلمت الحكومة اليابانية بدون قيد أو شرط ، وبذلك إنتهت حرب ٢٩ — ١٩٤٥ .

التخط السياسي

إن الحرب التي بدأت عام ١٩٣٩ ، والتي سميت باستمرار بـ « حرب هتلر » ، بدأت ببطء ، وبعد ذلك اشتعلت بسرعة عام ١٩٤٠ ، وأخيراً إنتشرت فوق كل الدنيا تقريبا ، وأصبحت معقدة جدا . وقد حاولت أن أقص القصص للقارىء بأبسط ما يمكن ، وبطريقه يمكنه رؤية الغابة بدون أن يتحول إنتباهه إلى أشجار كثيرة جدا .

وأود هنا أن أختتم هذا الفصل بقليل من الانطباعات التي ربما تساعد القارىء على فهم بعض أو كثير مما حوته هذه الحرب الحديثه من أمور معقدة .

فقد كانت القيادة الوطنية لها أهمية بالغة . فقد كان هتلر في إعتبار الكثيرين شخصية سياسية مجنونة . وفي الواقع كان هتلر رجلا شيطانيا ، ولكنه كان زعيما ومغامرا وداهية .

ولم يكن لديه ميل لأعلان الحرب وإعطاء الضحية وقتا لتستعد للضربة ، فقد أيقن أن ذلك ليس هو الوسيلة الصحيحة للقتال ، ويمكن إعتبار هذه النظرة معقولة لو أنه إتفق

على أن الدولة تحارب لتنتصر عسكريا فقط.

ولكن يجب ألا يكون هذا هو الهدف النهائي للحرب . وقد استطاع هتلر نقل زعامته الشريرة إلى الآخرين . وهنا يبرز سؤالاً . . من الذى أرتكب أسوء الأخطاء فى إدارة الحرب ؟؟ .. وأعتقد أنه هتلر . وقد أشرت إلى أخطائه فيما كتبت . ولقد كان خطأ عميقا مهاجمته لروسيا فى يونيو ١٩٤١ . وتقول أحد قواعد الحرب الأولى « لاتزحف نحو موسكو. » ومن المحتمل أنه لم يمكن قادرا على منع اليابان من مهاجمة الولايات المتحدة والتي بعدها أعلن الحرب هو نفسه على الولايات المتحدة نتيجة لمعاهدته مع اليابان . وعندئذ وجد نفسه يقاتل بريطانيا وروسيا وأمريكا ، ولم يكن يستطيع أن يأمل فى كسب هذه الحرب .

وبعد ذلك إرتكب ثلاثة أخطاء رئيسية على الجبهة الغربية : —

١ — « محاولته خوض القتال فى معركة فرنسا جنوب نهر السين بعد هزيمة فى نورماندى عام ١٩٤٤ »

٢ — « قيامه بهجوم مضاد فى الأردن فى ديسمبر ١٩٤٤ »

٣ — « وقوفه للقتال إلى غرب نهر الراين بأمل إنقاذ الرور. » وقد بدأ هتلر الحرب بداية حسنة ، فن الناحية التكتيكية المحضة لايسع المرء إلا أن يعجب بالهجوم السريع البارد الأعصاب والتي قامت به القوات المسلحة الألمانية على غرب أوروبا فى ربيع عام ١٩٤٠ ، والذى قلب الميزان العسكرى فى العالم ، وجعل من ألمانيا ، الدولة المسلحة السائدة على العالم . ولكن فى النهاية جلب هتلر الدمار لدولته لأنه كان مدفوعا وراء أنانيته وأطاعه الشخصية .

ستالين وروزفلت وتشرشل

والآن نلقى نظرة على ستالين ، فقد كان زعيما عظيما ، وربما كان متحجرا القلب وليس فيه صفة الرجل النبيل ، ولكن لولاه لكان من المحتمل أن يترك الروس الحرب مبكرا فى عام ١٩٤٢ .

وتشرشل الوحيد الذى أدرك أن ستالين سوف يستخدم الحرب لأحكام قبضته على شرق أوروبا ، وقد طغت الاستراتيجية السياسية على تفكير ستالين حتى قبل أن يبدأ الصراع على الإطلاق .

وفي الحقيقة فقد بدأ ستالين في تنفيذ هذه الاستراتيجية في اللحظة التي جف فيها حبر معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا في أغسطس ١٩٣٩ .

ولم يرتكب ستالين أى أخطاء تقريبا ، فقد كانت لديه إستراتيجية سياسية واضحة ، وقام بالسعى وراءها دون أى كلل أو هوادة وبدون أى إنحراف . وقد تعرفت عليه في أول مرة في مؤتمر « بوتسدام » في يولية ١٩٤٥ ، وبعدها كنت ضيفه في موسكو عام ١٩٤٧ .

وقد كان لديه حاسة إستراتيجية تثير الإعجاب والدهشة ، ولأستطيع أن أذكر أنه قد أخطأ ولو مرة واحدة أثناء نقاشنا في الموضوعات الاستراتيجية ، وبالطبع كانت إستراتيجيته السياسية والتي تهدف إلى جمع شعوب أوروبا الشرقية في داخل الأطار الشيوعي لا تروق للغرب .

أما روزفلت فلم يكن واضحا بالنسبة لي فيما يتعلق بالهدف الذي يقاتل من أجله ، فقد حاول التوحد إلى ستالين ولكن ستالين كسب السلم روسيا في مؤتمر طهران ، وكان مؤتمر يالطة تنويج لأنتصاره ، ولم يجد أى صعوبة في خداع روزفلت . أما تشرشل فكان زعيما عظيما للشعب البريطاني في محنته .

ولقد كتب الكثير عنه وفي الحقيقة كتبت أنا شخصيا عنه الكثير وذلك لأنني أعرفه جيدا . وأصبح يحتل مركز الصدارة بين كل أصدقائي . وهناك شيء واحد واضح جدا ، فبقوفه بحزم ضد هتلر في الوقت الذي بدأ فيه أن كل شيء قد فقد ، ولم ينقذ تشرشل بريطانيا فحسب ، بل أنقذ أيضا الحضارة الغربية . وإلى جانب كون تشرشل زعيما قوميا أثناء نكست بريطانيا ، وكذا كونه في الواقع ولفترة من الزمن ، الزعيم الوحيد في العالم الغربي ، والذي واجه الأستبداد النازي فقد كان لديه أيضا صفه وضوح الرؤية ، تلك الميزة التي وضعته في مكان الصدارة بين الاستراتيجيين .

فليس هناك طابع معين ثابت للزعماء القوميين أو الاستراتيجيين ولا حتى للقادة العسكريين ، لأننا جميعا بشر ، ونحن جميعا نرتكب الأخطاء . وبصفتي قائدا عاما في الميدان كنت أتمنى باستمرار لو أن تشرشل نفسه لم يكن رجلا عسكريا ، فقد كان مغرما بالإدارة

التكتيكية للمعركة بالدرجة التي كانت تجعله من آن لآخر يحاول التدخل في الشؤون التي كانت خارج إختصاصه ، بالرغم من أنه لم يملأ رأيه أطلاقاً ، وكان يتقبل دائماً توضيحاتي . وعندما أقوم بتقييمه أقول أنه لم يحدث لأي دولة أن وجدت زعيماً أكثر ملائمة لظروفها مثل ما وجدت بريطانيا في تشرشل أثناء حرب هتلر ، وعندما وضع في الميزان عام ١٩٤٠ وجد أنه كلف . أما العلم والتكنولوجيا فهما موضوعان كبيران جداً للخوض في تفاصيلهما بعمق في حيز هذا الفصل ، ولكن يمكنني أن أقول ببساطة ، أن الحرب قبل عام ١٩١٨ كانت عبارة عن قتال محصور داخل بعدن « في البر والبحر » وعبر مسافات قصيرة مرئية ، وبأسلحة تغطي منطقة صغيرة ولها درجة ضئيلة من الهلاك . أما في حرب ٣٩ — ١٩٤٥ فقد تغيرت الأمور تغييراً كبيراً ، فقد ظهر التوسع الهائل في البعد الثالث في « الجو » ، واتساع في أمكانية الرؤية للعدو « الرادار » ، واتساع في المدى الذي يتم فيه قتال المعارك ، مع التطورات التي دخلت على الأسلحة لرفع مستوى تأثيرها . وإلى جانب كل ما سبق ، فلا ننسى أن نضيف ما ظهر أيضاً من وسائل مضادة من جميع الأنواع . وقد اعتنقت دائماً وجهة النظر التي تقول بأن العامل الرئيسي الذي أثر تأثيراً كبيراً على معارك حرب ٣٩ — ١٩٤٥ هو ظهور القوة الجوية .

ولقد أحدثت القوة الجوية ثورة في الاستراتيجية وفي تكتيكات الحرب البرية والبحرية ، فالجنود والبحارة في دول كثيرة ، وعلى وجه الخصوص في بلدي ، لن ينسوا أبداً ما يدينون به لقواتهم الجوية .

وبالطبع كانت الولايات المتحدة لن تصبح أقوى دولة بحرية في العالم بدون أن تدرك تأثير القوة الجوية على الحرب في البحر .

الحرب في العصر النووي

أما الحرب في العصر النووي سيتم مناقشته في الفصل ٢٤ ، ولكن دعوني الآن أقول الآتي : — من وجهة نظري فلم يكن ضرورياً إسقاط قذبتين ذريتين على اليابان في أغسطس ١٩٤٥ ، ولا أستطيع أن أعتقد أنه كان من الصواب القيام بهذا العمل . وطبقاً لما قاله الرئيس ترومان « فقد تم ذلك لإنقاذ مئات الألوف من الأرواح سواء منها الأمريكية واليابانية » .

ولكن لو أزيات عقبه التسليم بدون قيد ولا شرط لكانت كنفيلة بإتقاذ هذه الأرواح، وإننى أعتقد أن اليابان كانت سوف تستسلم مبكراً ، لأن الحلفاء كانوا قد هزموا اليابان فعلاً بالأسلحة التقليدية، لدرجة أن القصف الجوى التقليدى بالقنابل قد أدى إلى دمار ساحق لدرجة أنه لم يعد هناك أهداف لتلقى عليها القنابل الذرية ، لولا صدور الأوامر بترك أربعة مدن يابانية سليمة تمهيداً لقصفها ذرياً ، والتي كانت هيروشيما وناجازاكي إحداها . وكان إسقاط القنابل الذرية تخطيطاً سياسياً رئيسياً ، وأيضاً مثلاً صارخاً على مستوى هبوط الأخلاقيات فى إدارة الحرب الحديثة . وربما كانت تلك هى أول ضربة أمريكية فى الحرب الباردة ، وإننى آمل وبعد تفكير عميق ، ألا تستخدم مطلقاً القوة الكاملة للحرب العلمية . ونقطة أخيرة ، فبعض الأشخاص يميلون إلى الاعتقاد بأن الأعمال العسكرية مبنية فقط على أرضية عسكرية محضة ، دون أن يأخذوا فى إعتبارهم نتائجها السياسية . ولكن يؤدى التفكير والعمل بهذه الطريقة فحسب ، إلى ترك قطاع السياسة فى خطر . فهل يمكن أن يكون أى قرار فى الحرب على أعلى مستوى غير سياسى ؟ وقد أدى التفكير المرتبك المشوش فى هذا الموضوع ، أن الدول الغربية لم تمنح السلام العادل المستمر والذى من أجله حاربت ستة سنوات . فى نفس الوقت حصل ستالين على ما كان يأمل فيه ، ويرجع ذلك إلى أن قرارته العسكرية قد اتخذت مع وجود خلفية من هدف سياسى محدد ، وهى هيمنة روسيا على أوروبا الشرقية ونشر النظام الشيوعى إلى أبعد ما يمكن فى الغرب .

الفصل الثانی والعشرون

أخلاقیات الحرب

الحرب البکترولوجیة القدیة

بعد أن قمنا بتلك الدراسة العامة لفن الحرب منذ عام ٧٠٠٠ ق . م حتى منتصف القرن ٢٠ ، ربما یجدر بنا أن ننظر عن قرب أكثر إلى المظهر المعنوی والأخلاقی للحرب ونسأل هل یأتری تمكن الجنس البشري من تحقیق أى تقدم عبر كل هذه العصور من القتال ؟ . . .

ففي التاريخ ، كانت مبادئ الأخلاق تترجم أحياناً على أنها قواعد ونظم للسلوك ، وفي أحيان أخرى تبقى المناخ الملائم لإبداء الآراء . ولكن في الحقيقة كان يبدو أنه كلما زادت مدنیة الإنسان كلما أصبحت حروبه أكثر رعباً وهلعاً ، بل ویجب إضافة أنه في العصور الحدیثة فقد إنتهكت بوقاحة ولاحیاء قواعد السلوك المتفق علیها .

وأثناء حرب ٣٩ — ١٩٤٥ إرتكبت جرائم ضد البشريّة ، وأيضاً لوقت قريب وعلى سبیل المثال في الكونغو الشیء الذی یوصلنا إلى هذه النتيجة : — « الحرب والقتل قد یكونان موضوعین مترادفین ، كما أنه من الممكن إثارة العوامل التي تحول الرجال إلى مخلوقات تتقمصها أرواح الشر » .

ولحسن الحظ أن هذا الميول ليس عالمياً ، ولكن أثبت الماضي وعلى وجه الخصوص الماضي القريب ، الحاجة إلى وجود قادة سياسیین وعسكريین لهم قبضة قوية للإبقاء على المبادئ الأخلاقیة والمعنویة ، والتي هی معرضة لأن تضیع بسهولة . وسنقوم الآن بالنظر عبر التاريخ ونحاول إكتشاف الحقائق التي تخص التقدم أو الفشل في موضوع أخلاقیات الحرب .

ودعونا الآن نتأمل بعض الأوجه الأساسية للموضوع مثل الشرف وطرق القتل والتسليم

ومعاملة الأسرى والجرحى والسلوك في منطقة العمليات ، وفكرة الحرب الشاملة والقوانين الدولية للحرب .

ومن ثم فن الواجب علينا محاولة الوصول إلى بعض الاستنتاجات والتي ستساعدنا على إدراك المستقبل مهما كان المصير غامضاً ومحتوماً .

نخلال الأعوام من ٥٠٠٠ ق.م إلى عام ٤٠٠ ق.م ، وفي الأيام الأولى من الحروب اليونانية استخدمت أساليب الخداع والخيانة والآبار المسمومة والأسلحة المسمومة . وبعدها في العصور الوسطى أثناء أعمال الحصار قذفت بجثث الحيوانات الميتة عبر التحصينات الدفاعية حتى تنتشر العفونة والأمراض ، ويمكن تسمية هذا النوع بأول مثال للحرب البكتريولوجية .

وفي مؤتمر في واشنطن عام ١٩٥٢ أعلن عدم شرعية هذه الصورة الخاصة من الحرب ، الشيء الذي بدا لي دائماً أنه خطأ .

وقد أثرت هذه الصورة على تفكيري وبدرجة كبيرة عندما عبرت الجيوش تحت قيادتي الراين في مارس ١٩٤٥ ، متحركة عبر السهل الشبلي لألمانيا نحو نهر « الألب » وبحر البلطيق ، وقد شكت هامبورج بحمايتها المعادية مشككة لي . وبناءً عليه قت بعمل الترتيب مع قائد القاذفات البريطانية لقصف المدينة ، وقام أسطول من ألف قاذفة بالمهمة . وقد تسبب عن ذلك قتل آلاف من الألمان ، وإحداث دمار كبير للمباني والمرافق العامة . وقد كان من الممكن أن يكون ذلك أقل فظاظة وفي نفس الوقت يؤدي إلى نفس النتائج الاستراتيجية لو جعلنا جميع سكان المدينة عديمي الفاعلية لمدة ٤٨ ساعة مستخدمين في ذلك جرائم مناسبة أو حتى الغاز .

وبالتأكيد فيعتبر إفقاد القدرة مؤقتاً لعدد كبير من العدو أفضل من استخدام الأسلحة التي تسبب موتاً كثيراً وتدميراً للممتلكات المدنية .

فهناك إمكانيات كبيرة في استخدام غازات الأعصاب للحصول على فقدان القدرة لفترة قصيرة ، بدون موت . ويجب على القادة السياسيين دراسة هذا الموضوع بعناية .

ومنذ عصر النورمانديين وحتى العصور الوسطى ، فقد فرضت الكنيسة المسيحية

سيطرتها تدريجياً على غرب أوروبا بمبادئ معقدة ومحاكمة والتي تعتبر الخيانة والغدر من الجرائم الحقة ، بينما تنظر إلى الشجاعة في القتال والولاء للسادة الإقطاعيين من الفضائل الرئيسية .

وفي نطاق ضيق لمجموعة الصفات الموروثة للطبقة العسكرية فقد حلت الفروسية بإخلاصها للعهود وكرم الأخلاق إتجاه الأعداء المهزومين ، مكان ما سماه « سير آرر بريانت » : — « القانون الانتحاري القديم للثأر القبلي والفوضى الدموية التي سببها سيادة مبدأ القوة على الحق » .

ونحن نعلم أنه على مر السنين ، فقد نمت بالتدريج ، نوع من أخوة السلاح حتى بين الخصوم ، مهما كانت وحشية القتال السابق بينهم .

وفي القرن ١٨ كانت هناك درجة كبيرة من الاحترام المتبادل بين الأعداء الأوروبيين ، فقد كان يتم تبادل خطابات المجاملة بين القادة ، كما وصل الأمر أيضاً إلى تبادل الأسرى والجرحى من الرتب المتساوية مع المعاملة الحسنة للقادة المأسورين ، وقد ظهرت أمثلة لذلك في حروب نابليون « البريطانيين والفرنسيون في أسبانيا » و « القوات الفرنسية والروسية خارج سمولسك وموسكو » .

وأستخدمت كنيات عن العدو مثل « جوني كرايو » أو « جون بول » بطريقة ودية ، وحتى في حرب ٣٩ — ١٩٤٥ سادت تعبيرات مثل « جيري » .

وفي عام ١٨١٠ كتب نقيب بريطاني في البرتغال لعائلته يقول : — « كنت بالأمس في مواقع الأعداء ، وحيانا الحارس الفرنسي ، ليس بطلقة ولكن بيده ، أليست هذه حرباً مدنية ؟ » وفي أحد الأيام تابعت كلاب الصيد ، المملوكة لضباط بريطاني آخر ، أرنبا داخل الخطوط الفرنسية ، وقد أعيدت الكلاب بذوق ، وكانت هذه الصورة من النبل في الحرب واضحة في الحملة المقدونية عام ١٥ — ١٩١٨ .

وفي أعلى وادي ستروما ، عندما كانت للفرقة ٢٨ البريطانية مجموعة من كلاب الصيد ، وتتحرق خطوط الأعداء في مناسبات عديدة ، كان البلغاريون يعيدونها دائماً لأصحابها .

ولم تكن تقاليد الفروسية قاصرة على أوروبا ، ففي اليابان إعتبراً من القرن ١٨ وما بعده أدت الفترة الطويلة من العداء العائلي والحرب الأهلية إلى وجود تقاليد للسلوك المتعارف عليها في الطبقة العسكرية ، وقد بنيت هذه القواعد والتي كانت معروفة مثل « طريق الفارس والقوس » على أساس ولاء المقاتل للرتبة التي أعلى منه دون أى مناقشة .

وإستمر هذا التشابه الياباني مع الفروسية لما يقرب من ألف عام وبعد ذلك في القرن ١٨ أحلت الحكومة الطقوس الدينية المسمى « بوشيدو^(١) » محل هذا السلوك . وقد كان « البوشيدو » بالإضافة إلى محافظته على المبادئ التقليدية للاخلاص في زمن الحرب ، يلائم مجتمعاً أكثر سلاماً بنشره الاعتدال والمحافظة وأيضاً قدرأ معيناً من تعاليم « كونفوشيوس » .

وعلى أى حال كان تأثير هذا الاعتدال ضئيلاً على سلوك العسكرية اليابانية خلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ ، عندما فاقت أساليبهم الوحشية لأسرى الحرب في الشرق الأقصى ، كل معتقد ، وحطمت كل قواعد السلوك المتمدن المقبولة تحت قناع « البوشيدو » .

مراسيم الحرب

ومع إنتشار مبادئ المسيحية ، تأثرت عادات الحرب، بدرجات متفاوتة . ولكن بينما كانت القواعد الإنسانية تتطلب المعاملة الرحيمة للأسرى ، فإنها لبعض الوقت لم تضع حدوداً لطرق القتل .

وعلى العموم ، ففي القرن ١٨ ، والذي كان يطلق عليه « عصر التنوير » بذلت محاولات لفرض قيود معينة .

ولقد رفض كل من لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر (ملكي فرنسا) إستخدام « سوائل جهنمية » قدمها لهما الكيميائيون .

وفي عام ١٨٥٥ ، عندما اقترح سرأ اللورد « دوندونالك » إستخدام سحابة دخان خانق خلال حصار سيبياستوبول ، رفضت الحكومة البريطانية خطته ، وبعد ذلك عشر سنين

أوقف نابليون الثالث تجارب الدانات الخائفة التي كانت مجرب على الكلاب ، معلناً أن مثل هذه الطرق الجهنمية يجب ألا يستخدمها مطلقاً الجيش الفرنسي لأنها مخالفة للقانون الدولي .

ثم جاء مؤتمر « الهوج » الأول عام ١٨٩٩ الذي حرم استخدام السم والأسلحة المسمومة ، ولكن لم يعلن عدم شرعية حرب الغازات أو إطلاق سحب الغاز ؛ بالرغم من أنه قد حرم استخدام القذائف التي يكون عملها الوحيد هو نشر الغازات الخائفة ، الأمر الذي يمكن إفتراضه بأنه يعني الضرب بقنابل الغاز ، ولكنه على العموم تركت المسألة بعيداً عن الوضوح . ولكن حرم المؤتمر بلا ريب استخدام الرصاص المتمدد .

أما القرن ١٧ فقد سمح عادة للمدافعين عن الحصون بالاستسلام على أساس مراسيم الحرب ، حيث يخرج جميع المدافعين حاملين أسلحتهم ورافعين أعلامهم بينما تصدح الموسيقى ، ثم يقومون بوضع أسلحتهم على الأرض .

وقد ظلت هذه العادة قائمة حتى وقت حرب الحصار في عصر « مارلبورو » وأيضاً في عصر « ويلنجتون » ، وأمثلة لذلك « فلوشنج » عام ١٨٠٩ و « سان سباستين » عام ١٨١٣ .

وقد ظهر نفس الشيء في حرب ٣٩ - ١٩٤٥ وبالتحديد في مايو ١٩٤١ عندما أعطى مثل هذا الوعد للحامية الإيطالية في « أمبا آلاجي » في الحبشة والتي كان بها الدوق « أوستا^(١) » ، وذلك كي أغراء لكي يتخلي عن المعركة بدون أي أعمال تخريب أو شرك خداعية أو تدمير ، وهذه السياسة أنقذت أرواح الكثيرين من الجيش الإنجليزي والهندي .

جرحى واسرى الحرب

إذا نظرنا إلى ما يتعلق بمعاملة الجرحى ، فسوف نجد أن هناك بعض التقدم ، فننظر من بعيد كان العرف في أوروبا والمتعارف عليه في الجانبين المتضادين أن يهيئوا فترة توقف مؤقتة لأعمال القتال لكي يمكن إعادة الجرحى ودفن الموتى .

ولكن عندما لا تحدث مثل هذه الهدنة كانت الترتيبات للجرحى على العموم غير كافية ، كيفما اتفق وبدون نظام ، وطبعاً كان جرحى العدو آخر من يعتنى بهم . وفي عام ١٨٦٤ نشر عالم سويسرى محب للخير يدعى هنرى دونانت وصف فيه ما عاناه الجرحى في معركة « سولفرينو » بتأثير شديد لدرجة أن الموضوع أيقظ على نطاق واسع انتباه وإهتمام الرأى العام . وحث « دونانت » على ضرورة تكوين الجمعيات المساعدة المتطوعة ، وكنتيجة لذلك اشتركت ١٦ دولة أوروبية في مؤتمر عقد في جنيف في السنة التالية .

ووقعت معاهدة جنيف الاولى عام ١٨٦٤ بعد أن أعيد النظر فيها ثلاث مرات ، وشكلت لجنة « الصليب الأحمر الدولية » لتحسين أحوال الجنود الجرحى في الميدان ، وبعد ذلك أصبحت مسئولة أيضاً على الإشراف على معسكرات أسرى الحرب . وفي وقت الحرب أصبح المقاتلون الجرحى والمرضى يلقون كل إحترام ورعاية مهما كانت جنسياتهم . كما أصبح من الواجب إحترام عربات الإسعاف وسفن المستشفيات التى تأويهم والأطباء وهيئة التمريض والقساوسة وما يرعى شئون هؤلاء من الإداريين .

وكل هؤلاء يجب أن يكون لهم مطلق الاحترام ويتوفر لهم سبل الحماية تحت كل الظروف على شرط أن يحملوا دائماً العلامات المميزة من أعلام وشارات تحمل الصليب الأحمر .

وبهذا فكل شئ في هذا الموضوع أصبح الآن يسير سيرا حسنا والصليب الأحمر يلقى كل الاحترام ، ولكن يجب أن أسجل هنا أن اليابانيين في الشرق الأقصى خلال حرب ٣٩ - ١٩٤٥ إنتهكوا بطريقة مشينة معاملة علم الصليب الأحمر وشعاره .

وعلى مدى قرون عديدة ، كانت معاملة أسرى الحرب في المجموع رهيبة وفضيعة . ففي البحر كانوا يقتلون أو يحولون إلى رقيق يعملون على المجاديف في السفن . وعندما كانت السفن الحربية المستخدمة صغيرة الحجم ، ولا يوجد بها سوى أما كن قليلة جدا لإيواء الأسرى وكذلك كميات قليلة من الطعام والماء لا تكفى الجميع ، فلهذا السبب كان الأغراء بأخذ الأسرى ضعيفاً .

ولكن مع إزدياد حجم وسعة السفن وقدرتها الأكبر على الاستيعاب ، فقد استخدمت في البحر أيضاً قوانين معاملة الأسرى على البر وبدرجة معقولة .

وفي عام ١٥٨٧ ، أى قبل هزيمة الأرمادا بسنة واحدة ، أمر القائد الأسباني بقتل كل رجل يوجد فوق سطح السفن البريطانية ، ولكن الملكة اليزابيث الأولى المنتصرة أرسلت كل البحارة الأسبان الذين تحطمت سفنهم على شواطئ إيرلندا إلى بلادهم ، وكانوا محظوظين بدرجة كبيرة بوقوعهم فى أيدي جنودها ، بدلا من الأيرلنديين . أما بالنسبة إلى معاملة كل من الألمان واليابانيين لأسراهم خلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ ، فاعتقد أننى أوضحت وجهة نظرى بما فيه الكفاية .

وفي عام ١٩٠٧ بدأت قواعد الهوج فى جمع وتفسير بعض المبادئ الإنسانية التى كانت سائده ، على أمل أن تتبع جميع الدول تلك المبادئ فى سلوكها نحو أسرى الحرب . ولقد تقرر أن يظل أسير الحرب محتفظاً بجميع ممتلكاته الشخصية فيما عدا أسلحته وحيوله وأوراقه العسكرية ، كما يجب معاملة أسرى الحرب فيما يتعلق بالغذاء والسكن والملابس ، بنفس معاملة الدولة التى أسرتهم .

وقد اختلف الآراء كثيراً حول أنسب نوع من الملابس لهؤلاء الأسرى ، واعتبرت عدة دول « الأحذية » جزءاً من مهمات الجندى وليست جزءاً من ملابسه . ويمكن للدولة المحاربة أن تستخدم جهد الأسرى ، فيما عدا الضباط ، ولكن يجب أن تكون المهام المعطاه لهم ليس لها علاقة بالعمليات الحربية وألا تكون زائدة عن الحد ، ويجب أن يدفع أجرا عنها .

وقد إنتهك اليابانيون هذه القوانين بشكل مخز خلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ ، وبصفة فى « سكة حديد الموت » المشهورة فى سيام .

وفى خلال الحربين العظميتين ١٤ — ١٩١٨ ، ٣٩ — ١٩٤٥ توصلت كل من بريطانيا وألمانيا إلى إتفاق يقضى بعدم إستخدام كل منهما لأسراه على مسافة أقل من ١٩ ميلا من خطوط القتال .

أما المقاتلون الذين يلجأون إلى دولة محايدة مثل سويسرا ، فمثل هؤلاء يجب إعتقالهم ، أما الضباط فيطلق سراهم لقاء عهد يقطعونه على أنفسهم بعدم الهرب .

وأخيرا فقد تقرر ألا يجبر الأسير على إفشاء أى معلومات لمن أسروه سوى رقه ورتبته واسمه .

ولكن ظهر فى القرن ٢٠ أسلوب جديد فى معاملة الأسرى يطلق عليه « غسل المخ » وقد تعرض أسرى الحرب من البريطانيين والأمريكيين بدرجات مختلفة لهذه المعاملة خلال الحرب الكورية التى بدأت فى يولييه ١٩٥٠ .

السلوك الانسانى للحرب

لقد أدى إنشاء الجيوش النظامية الدائمة إلى المساعدة فى محاولة الحد من التأثير العام للحرب . وبذلت مساعى كبيرة فى القرنين ١٧ ، ١٨ ، وقد بدأت كما رأينا بعد « حرب الثلاثين عاما » التى عانى من ويلاتها العالم .

وقد حرم السلب والنهب والذى كان أحد الدوافع للمغامرين والذين يشكلون جزءا كبيرا من القوات المقاتلة .

ولفترة من الزمن تجنب القادة المعارك بسبب معدلها المرتفع جدا من الخسائر ، كما أن الهدف الرئيسى للاستراتيجية كان يميل إلى إنهاك العدو بدلا من إبادة . ولكن أدت ضخامة القوات المجهزة فى حروب الثورة الفرنسية إلى تجديد الحرب غير المحدودة . وقد سببت أعمال الإزعاج وحرب العصابات ضد القوات النظامية المحتملة ، كما حدث فى روسيا وأسبانيا إلى توجيه أعمال عدوانية ضد المدنيين والتى اتخذت شكل الشار والانتقام ، وأدى ذلك إلى وحشية أكثر ، الأمر الذى زاد كثيرا من الهمجية وزاد من الرعب . ويكفى المرء أن يلقى نظرة على سلسلة مطبوعات جويا « كوارث الحرب » ليقدر ذلك حق قدره .

وقد استعمل الاصطلاح « حرب غير محدودة » عدة مرات ، وكان هذا اللفظ هو المستخدم فى تلك الأيام ، ولكننا نستخدم فى منتصف القرن ٢٠ اصطلاح « الحرب الشاملة » .

وفى صورة عامة قد أدى السلوك الجيد للقوات إلى تحقيق مكاسب عسكرية أفضل ، بينما أدى السلوك الوحشى المطلق ضد المدنيين إلى العكس .

ونذ كر جيش ويلنجتون كمثل للسلوك الأول، فقد أصر الدوق باستمرار على وجوب ضبط قواته لسلوكها، مع القيام بدفع قيمة كل ما يستخدموه ، وكانت النتيجة لهذا أنه عندما قاد رجاله إلى جنوب فرنسا في نهاية عام ١٨١٣ متوقفاً أن يواجه بأعمال عدائية فرنسية غير نظامية ، فقد قوبل بالترحاب .

وفي الواقع كان سلوك جيشه في فرنسا أفضل بكثير من سلوك الجنود الفرنسيين أنفسهم .

أما إذا أردنا مثالا للحالة الثانية وهي القسوة المطلقة ، فلن نجد خيراً لذلك من قرار ألمانيا عام ١٩١٧ باتباع سياسة عدم التقييد لحرب الغواصات ، والذي أثار غضب وإشمئزاز العالم ، وقد أدى في آخر الأمر إلى دخول أمريكا حرب ١٤ — ١٩١٨ . كما ظهر نفس الشيء في الغزو الألماني لروسيا في عام ٤١ — ١٩٤٢ العملية « برباروسا » فلقد رحب سكان القرى الروسية في أماكن كثيرة بالقوات الألمانية القائدة عندما وصلت إليهم أولاً ، ولكن كان سلوك قوات الاحتلال التي أتت بعد ذلك سيئاً لدرجة أن نفس الروس الذين تحركوا في موجات للترحيب بالقوات الألمانية القائدة، اختفوا في الغابات وقتلوا كقوات غير نظامية ومخربين ضد « المحررين » والذين كرههم الأهالي كرها شديداً .

وخلال الحرب الأهلية الأمريكية أمر الجنرال « شيرمان » بإخلاء المواطنين المدنيين لمدينة أطلانتا لتحويلها إلى قاعدة عسكرية ، وقد أثار ذلك موجة من الاحتجاج الشديد ضد « الحمجية » ، وعندما قدم إليه أحد المواطنين إلتماساً كتب يقول : — « إنك لا تستطيع أن تصف الحرب بتعبيرات مؤلمة أكثر مما سأصفها . فالحرب هي الوحشية ولا يمكنك تهذيبها » .

وعندما زحف شيرمان زحفته المشهورة « الزحف إلى البحر » ترك في أعقابها قطعة من الأرض طولها ٣٠٠ ميل وعرضها ٥٠ ميل ، خالية من الطعام والمؤن . وشبه الأهالي هذه المسيرة بأسوأ ما حدث في « حرب الثلاثين عاماً » ، بل حتى شبهوها بمسيرات « أتيليا » في القرن الخامس الميلادي .

الحرب هي الحرب

لقد أعلن شيرمان : — « لو أن الشعب رفع صراخه ضد همجيتي وقسوتي ، فسوف أجيب بأن الحرب هي الحرب » ، فقد كان يخوض الحرب ضد الأعداء المدنيين تماماً كما خاضها ضد القوات المسلحة المعادية . وفي عام ١٩١٤ كان يتم إعتقال البارزين من ملاك الأرض والعمد والقساوسة كرهائن ، جزءاً من السياسة الألمانية لتخويف الأهالي البلجيكيين المعادين . وحمل كل الجمهور مسؤولية الأعمال المعادية ، بالرغم من أن معاهدة الهوج حرمت مبدأ المسؤولية الجماعية . وزيادة على ذلك ، فلم يكن هناك حد فاصل بين الجنود والمدنيين في حرب العصابات ، والتي منها على سبيل المثال المقاومة الفرنسية في الحرب البروسية عامي ١٨٧٠ — ١٨٧١ . وكان الفلاحون الذين يطلقون النار على القوات الألمانية إذا ما قبض عليهم يتم شنقهم فوراً ، وقد أعلن ولي العهد البروسي : — « ليس أمامنا شيء نفعله سوى إتخاذ الإجراءات الانتقامية بحرق المنازل التي ينطلق منها الطلقات أو تستخدم الشياطين مع فرض التعويضات لنجبر الأهالي على التعاون معنا » .

وقال بسمارك : — « أنهم ليسوا جنوداً ... إننا نعاملهم كالقتلة » . وهذا النموذج تكرر مرات ، وفيه يصبح بطل المقاومة لأحد الأطراف ، إرهابي وقاطع طريق في نظر الطرف الآخر . وأي شخص يرتكب أعمالاً عداوية دون أن يكون تابعاً للجيش النظامي المعادي ، لا تسرى عليه إمتيازات أسير الحرب ، وكان يعامل مثلما تعامل الجواسيس تقريباً في زمن الحرب .

وقد أصبح الآن واضحاً أنه بالرغم من الجهود التي بذلت لجعل الحرب أكثر إنسانية إلا أنه كانت هناك إنتكاسات قاسية إلى الهمجية . وقد تبع عصر الفروسية عصر النهضة والذي كانت فيه المبادئ التي أعلنها « ميكافيللي » ذات تأثير فعال في السياسة ، ومهما يكن الأمر ، فقد كانت هناك عوامل كثيرة أدت إلى تحسين هذه القواعد لأن الحافز الرئيسي في ذلك المعاناة التي يعانيها السكان الغير مقاتلين والمدنيين في الحرب . وربما كان من أهم هذه العوامل ، التطور الذي حدث في القوانين الدولية للحرب . ففي أوروبا أدت الفوضى المروعة والتدمير والجماعة التي أحدثتها « حرب الثلاثين عاماً » (١٦١٨ — ١٦٤٨)

والتي كانت خسارتها من الأرواح حوالى ثمانية ملايين نسمة بالإضافة إلى قتلى المهارك ، كل ذلك أدى بالقانونيين الذين خلفوا « جروتيس » بالمطالبة بالتخفيف من ويلات الحرب ، وضرورة التفرقة بين الجنود والمدنيين .

وقد أدى بعض الأحداث ومنها نهب « ماجد بورج » إلى إثارت الرعب فى أوروبا ، وبات واضحاً أنه لا بد من وضع بعض القيود على الحرب . وفى عام ١٩٠٧ وافق مؤتمر الهوج الثانى على قرارات تختص بالسلوك الإنسانى للحرب ، وحرّم الإعلان بأنه لن تمنح الرحمة ، أو قتل أو جرح العدو إذا أستسلم ، أو مهاجمة أو قذف المدن والبـلـدان والقرى بالقنابل والتي لا تكون مدافع عنها ، ولذلك أصبح تعبير « مدينة مفتوحة » مستخدما . وأقر مؤتمر عام ١٩٠٧ أيضاً أنه لا يجوز بدأ الأعمال العدوانية بدون « تحذير سابق وواضح فى صورة إعلان مسبب للحرب أو إنذار مع شروط بأعلان الحرب » . وكان هذا القانون ضرورياً لأن اليابان ، كما نعلم ، بدأت حربها عام ١٩٠٤ مع روسيا دون إنذار أو إعلان سابق ، تماماً مثل ما فعلته ضد الصين عام ١٨٩٥ ، والأمـر الذى فعلته ضد أمريكـا فى ديسمبر ١٩٤١ فى « بيرل هاربور » . وقد شهدت حرب ٣٩ — ١٩٤٥ حوادث مختلفة على الحدود والتي لفقت بتعمد وخططات لتوفر ظاهرياً ذريعة قانونية لأعلان الحرب ، فى الوقت التى فشلت فيه الضحية المصمم الاعتداء عليها فى تقديم أى حادثة أو ذريعة لمنع الحرب .

الحياد

فى مؤتمر واشنطن عام ١٩٢٢ « للحد من التسليح » تمت الموافقة على بعض « قواعد الحرب » وعلى وجه الخصوص حرب القذف الجوى الذى يكون الغرض منه إرهاب السكان المدنيين أو تدمير أو تخريب الممتلكات الخاصة التى ليس لها أى صفة عسكرية ، وبالمثل حرم أصابة غير المقاتلين وكذلك حرم أيضاً فى عام ١٩٢٥ استخدام الغازات السامة ،

والخاتمة^(١) . وأعتبرت أيضاً الحرب البكتريولوجية حرباً غير مشروعة ، ولكن بالرغم من هذه القواعد ذات النيات الفاضلة ، فقد شهدت كل من الحرب الأهلية الأسبانية التي بدأت عام ١٩٣٦ ، وحرب ٣٩ - ١٩٤٥ حوادث كثيرة لعمليات القصف الأرهاني وقتل المدنيين ، بل أن أكثر الغارات الجوية حرصاً كانت عرضة لتدمير الممتلكات الخاصة ، فالكثير جداً من هذه الغارات لم يكن يستطيع التمييز بين الأهداف المدنية والعسكرية ، وعلى كل كانت غارات غير دقيقة أو مدمرة عن غير عمد للممتلكات المدنية . وأخيراً سوف أتعرض للحياد ، والذي جاء تعريفه في دائرة المعارف البريطانية كالآتي : —

« الوضع القانوني النابع من إمتناع الدولة عن جميع أنواع المشاركة في حرب بين دول أخرى . ويتطلب المحافظة على الحياد إتخاذ الدولة المحايدة موقفاً غير منحاز في معاملاتها مع الدول المتحاربة وكذا بأعتراف الدول المتحاربة بهذا الإمتناع وهذا الخلو من التحيز من جانب الدولة المحايدة » .

ودالك التعريف الحياد المذكور عاليه مأخوذ من مصدر حديث إلى حد ما ، أما في القرن ١٧ فكان تعريف الدول المحايدة بأنها تلك الدول التي لا تقدم العون للأطراف المتحاربة ولكن كانت الآراء غير محدودة في تلك الأيام فيما يتعلق عن إمكانية الدول المحايدة في حماية أراضيها من أن تستخدم لأغراض عدائية . ولم تكسب بلجيكا شيئاً من إتخاذها موقف الحياد في حربى القرن ٢٠ العظيمين ، فلم تكن تلك الدولة قادرة على الدفاع عن سياستها ، وبالنسبة إلى فقد كان هذا بالتأكيد الاختبار العملى لجدوى الحياد ، أما سويسرا فقد ظلت لأسباب مختلفة محتفظة بوضعها كدولة محايدة .

وفي الحرب الأهلية الأسبانية (٣٦ - ١٩٣٩) كانت كل من ألمانيا وإيطاليا وروسيا دول محايدة إسمياً فقط لأنها أرسلت جميعاً وحدات أو قوات جوية لمعاونة أحد الأجانب وذلك للحصول على الخبرة في التكتيك الحديث للحرب المقبلة . وبناءاً على معاهدة الهوج لعام ١٩٠٧ ، فلا يجوز للدولة المحايدة أن تمد دولة محاربة بالسفن الحربية وبالمؤن أو بالمواد الحربية ، أو ترفض تقديم أية تسهيلات لأحد الأطراف في حين منحها للطرف الآخر

وعلى العموم فقانون الأعادة والتأجير الأمريكي لعام ١٩٤١ ، قد منح سلطة تصنيع أو الحصول على « أى مهمات دفاعية لحكومة أى دولة يرى الرئيس أن مقتضيات دفاعها يعتبر حيويًا للدفاع عن الولايات المتحدة . » وأجاز بيع أو تبادل أو تأجير أو إعارة هذه المهمات والتي قد تحتوى على سلع زراعية وصناعية ، وكذا المعدات الحربية والأسلحة والذخائر والسفن ، إلى مثل هذه الحكومات .

الدروس المستفادة من أخلاقيات الحرب

والآن ماهى الدروس المستفادة من هذا الفحص القصير لأخلاقيات الحرب .. ؟
لقد سبق لى القول بأن معاهدة الهوج لعام ١٩٠٧ قد أقرت مبادئ معينة . « للسلوك الإنسانى للحرب » . ولكن يجب أن نخرج من عقولنا الآن وإلى الأبد أن هناك أو من الممكن أن يكون هناك أية إنسانية فى الحرب .

ولسوء الحظ لم يحن الوقت بعد الذى يمكننا فيه أن نقول أن الحرب قد محيت وأن السلام قد عم الأرض ، ولذلك يجب على الزعماء السياسيين والرؤساء المختصين مواصلة جهودهم لجعل الحرب أقل هولاً . وقد رأينا فى هذا الفصل ماتم إنجازه فى هذا الخصوص ، ولكن يجب الاعتراف بأن الحرب الشاملة سببت هبوطاً فى مستويات السلوك إلى أبعد من أى شىء كان معروفاً من قبل . وخلال الأعوام التى تلت حرب ١٤ — ١٩١٨ مباشرة ، كان الشعار السائد هو « إذا أردت السلم ، جهز للحرب » ولكن يجب على الأمم أن تعلم أن مثل هذا التفكير سوف لا يبعدهم عن الحرب كثيراً ، لأن باتباع كل الأمم لهذه النصيحة فسوف يصبح العالم معسكراً مسلحاً ، يخيم عليه المواقف المتفجرة والعرضة للاشتعال . ولكن ليدل هارت صاغ شعاراً أكثر إيجابية وهو : — « إذا أردت السلام ... فتفهم الحرب »
ذلك التفهم الذى سيحث الأمم لتتجنب وحشيتها .

أما « كلاوزفيتز » فقد أوضح أن تدمير القوات المسلحة للعدو هو الهدف الأول للقيادة

الأمر الذى أدى أن أعتقد الكثيرين بأنه يعنى إستخدام أكبر عنفا لتحقيق تدمير كامل أو إبادة .

وكانت هذه الفكرة السبب فى الكثير من المآسى غير الضرورية والتي سببت فقد أرواح كثيرة فى الحرب ، وهى أيضاً مسئولة إلى درجة كبيرة عن عدم الاستقرار السياسى الذى ساد عالم السياسة والحرب الحير ، والذى ساد منتصف القرن ٢٠ .

ولكن تلك الملحوظة قد أخذت أيضاً من سياق كلام كلاوزفيتز ، لأنه كتب أيضاً بأن الحرب : — « إستمرار للأجراآت السياسية ممزوجة بوسائل أخرى . » وقد قرأت أن هذا الرأى يعتبر حجة قوية لسيادة السياسة العامة للدولة على السياسة العسكرية الضيقة ، وأيضاً لممارسة الاعتدال فى حالة ما إذا أصبح النصر مؤكداً . فالمسئولية التى تقع على عاتق رؤساء الدول والسياسيين لهى مسئولية عظيمة جداً . ويقع التوجيه الأعلى للحرب فى أيديهم ، ولذا يجب عليهم أن يعطوا توجيهات سياسية واضحة لقادة قواهم . وإذا لم يفهموا أن هدف الأستراتيجية العليا يجب أن يكون السلام الذى يمكن أن تصان فيه القيم الأساسية ، وإذا لم يوجهوا كل الجهود العسكرية فى الحرب للحصول على موقف مسيطر ومعقول فى نهاية الحرب ، فسوف يلقون بعيداً بكل ثمار التضحيات الضخمة كما لن يعود من وراء هذه المذابح أية فائدة ، وسوف يحدث أبشع من هذا فى العصر النووى . وللأسف فقد تجوهلت هذه المبادئ فى حرب ٣٩ — ١٩٤٥ ، ولا يمكن لأكثر الأهداف والآراء الإنسانية أن تغطى ما جرته من أذى وويلات .

أما القادة العسكريين الذين ينفذون غرضاً سياسياً فهم يحملون مسئولية مختلفة ، فالنجاح أمر حيوى ، ولكن يجب أن تكسب المعارك بأقل خسارة ممكنة فى الأرواح . ولا يوجد شىء يفسد الروح المعنوية بسرعة أكثر من الشك فى القائد الذى يهمل رجاله ولا يهتم بأرواحهم ، وذلك الشك الذى يمكن أن ينمو من بعض المشاعر الحساسة التى تثار نتيجة لدفن الموتى من غير تمييز ومنظر القبور المتناثرة والمهملة ، والجثث الراقدة فى الخنادق أو الحفر . فليس هناك

قائداً يمكنه التغاضي عن تقديس الموتى والقيام بالإجراءات الملائمة لدفنهم حتى ولو كانوا من موتى الأعداء . بينما توضح صراعات القرن ٢٠ أنه لا يزال أمامنا الكثير مما يمكن عمله لجعل الحرب أقل هولاً ، وإني أرجو أن يكون معظم الجنس البشري قد حقق بعض التقدم منذ أن كتب « بليز دي مونتلوك » مارشال فرنسا في القرن ١٦ : « إتحاء العدو في كل شيء مسموح . . » وبالنسبة لي (اللهم أصفح عني) فلو استطعت أن أدعو جميع شياطين جهنم للتفوق على العدو الذي سوف يتفوق على فساد قوم بذلك من كل قلبي .

الفصل الثالث العشرون

الستار الحديدي والحرب الباردة

العالم الممزق

حتى الآن ، قمنا بعبور ما يقرب من ٩٠٠٠ سنة من تاريخ الحرب ، وقد بحثناها بتفصيل كبير ، وأنوى تكريس ما تبقى من الكتاب لمناقشة موضوعات ومشكلات معينة ، ربما لا تعتبر جزءاً من التاريخ ، ولكن قد تساعدنا دراستنا للتاريخ على تفهمها . وهي مشكلات يمكن أن يقال عنها أنها ميدان للتخمين ، وهي تفتقر للأسف للحزم والشجاعة الأدبية لمواجهة الحقائق العملية ، ولكن من الضروري مناقشتها طالما يخيم فوق عالمنا سلام غير مستقر .

ويبدو لي أنه يحق لرجل عسكري ذا خبرة عملية كبيرة في الحرب ، وعمل أيضاً مع قادة سياسيين في دول كثيرة خلال السلم ، يكون لديه الحق أن يطرح المشكلات التي تنشأ كما يترأى له ، ويحق له أيضاً أن يقدم آراءه كـ بعض الحلول ، وهذا ما أنوى القيام به الآن ؟

أما التعبيران الذي يتضمنهما عنوان هذا الفصل ، فقد أصبحا من التعبيرات الشائعة في هذا الأيام ، ولكن أشك في أن الكثير منا يفهم أصلهما .. وماذا يعنيان .. ؟ ومن الأفضل إزالة هذا الشك .

ويرجع شيوع تداول الإصلاح «الستار الحديدي» إلى ونستون تشرشل ، وإستخدامه لأول مرة في مايو ١٩٤٥ ، فقد إنزعج للنصر الذي أحرزه ستالين في إجتماع « يالطة » في فبراير ١٩٤٥ ، وأيضاً الطريقة المتعمدة من الروس لتجاهل أى إتفاق تم التوصل إليه في هذا الاجتماع .

وفي إبريل عام ١٩٤٥ توفي الرئيس روزفلت وألقيت فجأة مسؤولية رهيبة على عاتق خلفه ترومان ، في وقت كانت رؤيته للمواضيع محدودة ولم تكن قد اتسعت كما أصبحت فيما بعد .

وانتهت الحرب الألمانية في ٨ مايو ١٩٤٥ باستيلاء الجيش الروسى على كل العواصم الرئيسية لشرق ووسط أوروبا وعلى وجه الخصوص برلين وبراغ وفينا وبلجراد . وفي الحقيقة فقد أحكم ستالين قبضته على شرق أوروبا ، وأصبح مركزه لأى مفاوضات ، موقفاً حصيناً ولا يمكن مهاجمته عملياً .

وقام تشرشل بتحذير ترومان مما كان محتملاً حدوثه ، ولكن لم يبدى ترومان أى اهتمام لتحذيرات تشرشل . وهذا لم يثبط همة تشرشل ، فقام في ١٢ مايو ١٩٤٥ بإرسال برقية إلى ترومان والتي بدأت فقرتها الأولى بالكلمات الآتية : « إننى أشعر بقلق عميق حول الوضع في أوروبا » .

ثم قام بعدها بتحليل موقف الحلفاء الغربيين في مواجهة روسيا ، وفي الفقرة الثالثة بدأها بالآتي : — « لقد أسدل الروس ستاراً حديدياً على مواجهتهم ، ولا نعرف ما الذى يدور خلفه » .

وبعد ذلك عندما عينت قائداً عاماً وحاكماً عسكرياً للمنطقة البريطانية في ألمانيا عام ١٩٤٥ أصبحت أكثر إدراكاً لصدق كلمات تشرشل .

وفي أوائل أكتوبر ١٩٤٥ ذهبت إلى لندن وأبلغت أتلى رئيس الوزراء ، أننا في مجلس إدارة ألمانيا لا نستطيع الوصول إلى أى إتفاق مع الروس ، ويجب على القوى الغربية أن تجهز نفسها لصراع مستمر مع الشرق الشيوعى ، والذى ربما يستمر لسنين عديدة . وقد ثبت على الأقل صحة هذه النبوءة .

وفي ٥ مارس ١٩٤٦ ألقى تشرشل خطبة في « فولتون » بالولايات المتحدة الأمريكية والذى قال فيها : — « من » ستيتين « على البلطيق إلى » تريستا « على الأدرياتيك أسدل ستاراً حديدياً عبر قارة أوروبا » .

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أستخدم فيها هذا الاصطلاح على الملأ .
أما توضيح اصطلاح « الحرب الباردة » فليس بهذه السهولة ، لأننى لا أعرف من الذى
صاغه أو متى ؟ .

وعلى العموم فسأقص ما يمكننى قوله فى هذا الاصطلاح ، لقد أصبح متداولاً فى خريف
١٩٤٥ أى بعد نهاية حرب هتار ببضعة شهور .

وأستخدم لوصف حالة التوتر التى بدأت تتطور عندئذ بين الدول الغربية والكتلة
السوفيتية . وكما أوضحت خلال هذا الكتاب ، فقد تواجد التوتر دائماً بين الشعوب .
فى الماضى ، عندما يصبح التوتر غير محتمل ، كانت الدولة المعنية تحله بإعلان الحرب .
ولكن فى منتصف القرن ٢٠ فالقوة التدميرية المرعبة للأسلحة النووية والدقة التى وصلت
إليها أساليب التوجيه أو القذف جعلت الحرب العلنية بين الدول القوية أو مجموعات من الدول
لمحاولة فرض نهايات سياسية ، عبارة عن طريق إعدام ذاتى مؤكد ، ويرجع ذلك إلى أن
نتيجتها قد تكون التدمير التام للحياة فى الدول المعنية وطبعاً لا توجد دولة ترغب
فى الانتحار .

ومن منتصف القرن ٢٠ ونحن نعيش فى عالم ممزق ، فتوجد حالياً دولتان إسمهما
ألمانيا وهناك مدينتان إسمهما برلين . . . وهناك قارتان إسمهما أوروبا . . .

وهناك عالمان . . الدول « الرأسمالية » والدول « الشيوعية » ، كما توجد عداوة بين
الشعوب الشيوعية والديمقراطية . . وتوجد عداوة بين الشعوب البيضاء والملونة .

وأصبح من الملاحظ أن الصراع بين المجتمعات المختلفة محتموماً ، ولكن ليس من
الضرورى أن يكون صراعاً مسلحاً ، لأنه أعتبر من الأفضل الحصول على الأهداف بدون
حرب علنية .

وقد حول الشيوعيون ما كان يسمى بوقت السلم إلى أحد الأشكال المصغرة للحرب ، وذلك
بالتخريب وإثارة العصيان فى المستعمرات والانهك والتجسس عن طريق الأقمار الصناعية ، وهم

على كل حال خبراء في توليف وتنفيذ صور الحرب غير العسكرية ، من الناحية السياسية والاقتصادية والنفسية ، وهم يحرضون الدول الصغيرة على العدوان المسلح ثم يعاونونها ماديا مع إمدادها بالأسلحة .

وكل هذه الأعمال والتي تقل عن مستوى الحرب الشاملة إنما هي جزء مما أصبح يسمى « بالحرب الباردة » ، وبتعريف مختصر للحرب الباردة يمكن القول بأنها سياسة القيام بإيقاع الشقاق في العالم بكل الطرق الأقل من الحرب الفعلية ، مع عدم تورط الدول الشيوعية في صراع علني مع العالم الغربي .

وقد وجدت دول العالم الغربي أنه من الصعب عليها محاربة التكتيكات الشيوعية في الحرب الباردة منذ أن بدأت هذه الحرب عام ١٩٤٥ .

نقطة الغليان

ولماذا وصلت الأمور في العالم اليوم إلى مثل هذه الفوضى ... ؟ ربما يقول البعض أن ما حدث قد حدث ، والسبب مبهم وغير معروف . ولن أوافق على هذا القول . ففي هذا العالم . . عالم السياسة والحرب . . لا يمكن إلا كتمان القول بأن ما حدث قد حدث .. وإنما قد حدث بسبب سياسات وطنية معينة أو نقصها ، وخاصة فيما يتعلق بالحروب . وعلى كل حال ، فإذا كان السبب يبدو للبعض غامضاً فيجب علينا محاولة تبديد هذا الغموض .

وبصنة عامة فإنني أعتقد أن هذا يرجع إلى حد كبير إلى أفول قوة الرجل الأبيض في الدول الشرقية والأفريقية .

ففي الفترة بين عامي ٤١ — ١٩٤٢ إحتفى عصر خضوع الشعوب الآسيوية والمملونة لحكم الأوروبيين البيض ، وذلك عندما دخلت اليابان الحرب العالمية الثانية وإجتاحت قواتها المسلحة جنوب شرق آسيا .

وقد ظهر اليابانيون في هذا الوقت في صورة محررين لهذه الشعوب في ذلك الجزء من العالم ، بالرغم من نواياهم الاستعمارية وأساليبهم الوحشية والهمجية .

وعندما إنتهت السيادة اليابانية عام ١٩٤٥ فجأة كما بدأت ، فلم ترغب الشعوب في هذا

الجزء من العالم في أن يتسيد عليهم سادتهم القدامى، وفي الحقيقة لم يفعل هؤلاء السادة كثيراً من أجل غالبية الشعب المستعمر ولكنهم إستغلوا موارد هذه الدول الطبيعية لزيادة ثرواتهم القومية وبالتالي أصبح قيام حركات الاستقلال والتحرر أمراً محتوماً ، وانتشرت هذه الحركات التحررية في جميع أنحاء الشرق الأوسط والأدنى وقد ظهرت في الهند وفي الجزء الأكبر من دول أفريقيا .

وبدأت موجة سريعة من التحرر للشعوب الملونة في جميع أنحاء العالم . وفي كل مكان أجبر الرجل الأبيض على إتخاذ موقف الدفاع ، وبطبيعة الحال ، كان المحرك الرئيسي لهذه الشعوب هي روسيا لوعدها بتحرير كل الشعوب المتخلفة مع كشف سر الإمبريالية والاستعمار والرأسمالية .

وربما كان أهم من ذلك كله ، هو أن الشعوب الغربية نفسها لم تكن قوية الإيمان بأى مثل عليا .

وبعد إنتهاء إجتماع « يالطة » في عام ١٩٤٥ ، وضح للجميع أنه بعد إنتهاء حرب هتلر فسوف يقسم العالم إلى مذهبين عقائديين أو نظامين إجتماعيين مختلفين ، وهو ما حدث فعلاً . ولو لم يتضح ذلك آنذاك فإنه أصبح بالغ الوضوح عند نهاية إجتماع « بوتسدام » في يولية ١٩٤٥ ، وكنت أحد الحاضرين فيه وقابلت هناك كل من ستالين وترومان لأول مرة .

وكان هذا هو الاجتماع الأخير بين قادة الدول العظمى الثلاثة والتي شكلت التحالف العظيم في القتال من أجل الحرية والعدل ضد قوى المحور .

ومنذ تلك الأيام ظهرت لى أن الشؤون الدولية قد انحطت وكأنها أصبحت مثل لوحة الشطرنج والتي يمثل عليها غالبية الشعب العادية وكأنها قطع الشطرنج . وكانت نتائج التحرك والتحرك المضاد لها أهمية عميقة لهذه الشعوب ، ولكن ما يمكن أن تراه هذه الشعوب بعد هذه التحركات هي سياسات ليست في الواقع سوى نوع من الصراع بين المغامرين لكسب القوة ، ولا يوجد مكان أكثر وضوحاً لهذا الصراع اليوم مما هو في آسيا وأفريقيا .

والآن بعد أن قمنا بتعريف الحرب الباردة وناقشنا نتائجها المباشرة فمن المناسب الآن

أن نذكر أنفسنا كيف إقترب هذا النوع من الحرب إلى نقطة الغليان .
والثال الأول الذى يمكننا الاستشهاد به هو حصار الروس لبرلين الغربية ، والذى
بدأ فى يونيه ١٩٤٨ واستمر طوال هذا العام وجزء من عام ١٩٤٩ ، ذلك الحصار الذى
ذابت قيمته بفضل الجسر الجوى المائل لإمدادها .

وأدى هذا الحصار أيضاً إلى إنشاء منظمة حلف شمال الأطلسى فى إبريل ١٩٤٩ .
وعندما أفسدت منظمة حلف شمال الأطلسى المخطط الشيوعى فى أوروبا تحولوا إلى آسيا
حيث أفقدت الانتصارات اليابانية أثناء حرب ٣٩ — ١٩٤٠ الهيبة التقليدية للقوى الغربية
وهنا يجب أن أنوه بأن « الاعتبار » من أهم العوامل لدى العالم الشرقى .

وفى أندونيسيا ، قام الصراع من أجل الاستقلال الذى إنتهى بتحرير هذه البلاد ذات
١٠٠ مليون نسمة من القبضة الهولندية .

وفى الملايو إتجه رجال العصابات الصينيين إلى الغابات للقتال لمنع إعادة السيطرة البريطانية
وفى أول الأمر حققوا بعض النجاح .

ولكن بعد ذلك وتحت حكم « تمبر » (١٩٥٢ — ١٩٥٤) ، تم تركيز كل موارد
الدولة^(١) تحت القيادة العليا وتوجيه المندوب السامى^(٢) .

ومن ثم أدبرت الحرب بواسطة الرجل الموجود فى المكان نفسه ، وذلك بذكاء
وتصميم وقوة ومراعاة كاملة للأحوال المحلية . وكانت النتيجة النصر كاملاً
ومؤكدًا .

وفى نفس الوقت تقريباً وليس بعيداً عن ذلك المكان جرت حرب مشابهة فى صورتها
بواسطة الفرنسيين ضد القوميين الفيتناميين فى ولاية فيتنام التى كانت تحت الحماية الفرنسية .
وبدأت الحرب عام ١٩٤٦ وذلك بمحاولة الفرنسيين إعادة إحتلال الهند الصينية التى كانت
جزءاً من إمبراطوريتهم منذ ١٨٨٠ . وإنتهت باتفاقيات الهدنة الموقعة فى جنيف عام ١٩٥٤ ،

(١) يتعهد كل موارد الدولة السياسية والعسكرية والشرطة والمخابرات .

(٢) كان لديه السلطة الكاملة فى كل الأمور التى حولتها له حكومة الأمم فى لندن « العرب »

والتي قسمت فيتنام بين الشمال والجنوب عبر خط العرض ١٧ . وقد بلغت خسائر فرنسا في هذه الحرب ٣٥٠٠٠ قتيل و ٤٨٠٠٠ جريح ، وهذه الحملة تستحق الدراسة ، وأبرز ما فيها هو التردد والتذبذب وعدم وضوح الغرض السياسى ، والتدخل السياسى والعسكرى الدائم من قبل الحكومة الأم فى باريس .

معركة ديان بيان فو

وتلقى هذه الحرب أيضاً الضوء على العجز الكلى والتكبر الأعمى للقيادة العسكرية الفرنسية فى الهند الصينية ، والتي أدارت الحرب متجاهلة تماماً جميع الاعتبارات والأحوال المحلية . وكانت الكارثة النهائية عند تسليم الحامية الفرنسية فى « ديان بيان فو » فى مايو ١٩٥٤ ، والتي كانت الضربة المميتة للأمبرطورية الفرنسية ، وجعلت من تلك المنطقة مجالا مفتوحاً للحرب الباردة . والدرس المستفاد من هذه الحرب : — « لا تقلل من شأن أو تحقر العدو الأسوى . » ويوجد كتاب مفيد فى هذا الموضوع والذي كتبه المؤلف الفرنسى « جوليس روى » وأسم الكتاب « معركة ديان بيان فو » فعندما عاد « روى » إلى هانوى عام ١٩٦٣ قال له القائد الفيتنامى الجنرال « جياب » : — « لقد هزمت بواسطة أنفسكم . » وهذه حقيقة لا ريب فيها .

واليوم .. تقوم الولايات المتحدة بخوض نفس النوع من الحرب فى نفس الدولة . وفى عام ١٩٥٤ أدرك الفرنسيون أنهم خسروا حربهم فى الهند الصينية . وفى هذا الوقت الذى أكتب فيه هذا الكتاب لا زال الأمر يتطلب إقناع الأمريكيين بأنه ليس فى إستطاعتهم الانتصار فى صراعهم فى فيتنام بالقتال .

وليس هناك من شك فى أن الثورات فى أندونيسيا والملايو والهند الصينية هى بوحى شيوعى .

الحرب الكورية

وفى ٢٥ يولييه ١٩٥٠ عبر الجيش الكورى الشمالى والمدرّب تدريباً عالياً بواسطة روسيا ، خط العرض ٣٨ ° وغزا كوريا الجنوبية ، تلك الدولة التى كانت القوات الأمريكية قد انسحبت

منها حديثاً . وبطريقة أو بأخرى كانت الحرب الكورية حرباً محدودة ، فلم تتجاوز حدود هذه الدولة .

وبالرغم من أن القوات الصينية قد تدخلت في وقت متأخر من هذه السنة ، بعد التحذير الذي وجهته حكومة بكين إلى حكومة واشنطن من أنها سوف تتدخل لو عـبرت قوات الولايات المتحدة خط العرض ٣٨ ° . وعلى كل حال فالأراضي الصينية إلى الشمال من نهر « اليالو » كانت محرمة على قوات الأمم المتحدة برأً وجواً . ولم تنته الحرب الكورية إلا في يولية ١٩٥٣ ، وبلغ المجموع الكلى لخسائر الحلفاء من قتلى وجرحى ومفقودين وأسرى حوالى ٤٠٠.٠٠٠ . وأدى الصراع الكورى إلى تقارب الدول الغربية من بعضها في شكل أكثر كما أدى أيضاً وبصفة مباشرة إلى تسليح ألمانيا الغربية .

وقد أجتاحت أوروبا موجة من الخوف وفي هذا العالم المغلق المتشابك تواجد دائماً خطر الحرب التى تنشب في أى مكان وقد تصبح شاملة وتنتشر وتورط العالم كله . والكثير من الشعوب قدمت مقترحات لنزع السلاح ، ولكن جميع هذه الأقتراحات كانت تعتمد إلى حد كبير على الثقة والضمن بين الدول . وهو الشيء الغير موجود إطلاقاً .

ولم يحدث أى شىء منذ حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ يوحى إلى أن العدو لن يستغل فترة الضعف العسكرى التى تمر بها دولة ما لصالحه ، كما كان يفعل الأعداء باستمرار خلال صفحات التاريخ القديم المسجل ، وبناءً على ذلك ، فلا بد من الاستمرار للتخطيط العسكرى ، بحيث يوجه لمنع الحرب .

ولدى شعور اليوم بأن الدول تفتقر إلى الإستراتيجية بعيدة المدى . وذلك لأنشغال القادة المسئولين ومساعدتهم بالكفاح مع تعقيدات الشؤون اليومية ، والنتيجة الحتمية لذلك هى الارتجال والسرعة في وضع القرارات ذات المدى القصير على السياسة ثم تغييرها ، حتى أصبحت السياسة وكأنها حفلة تنكرية تتغير فيها الشخصيات .

السلام العالمى

وعلى كل حال فالمسألة ببساطة هى : « هل من الممكن إيجاد طريقة ما يمكن بواسطتها

أن تعيش الدول ذات المذاهب العقائدية والنظم الاجتماعية المختلفة في سلام مع بعضها بدون تدخل كل منها في شئون غيرها .. ؟

هذا يمكن تحقيقه لو توفرت قيادة حكيمة في كل من الجانبين ، الشرق والغرب ، في نفس الوقت هذا غير ممكن طالما يظن كل جانب أن الآخر سوف يهاجمه ، وطالما يستمر كل جانب في تصعيد الأزمة بالتهديد بالتدمير النووي للآخر . أى أن الأمر لن يكون ممكناً حتى يتم إزالة كل جانب الخوف والأرتياب وعدم الثقة من الجانب الآخر . ويجب على القادة السياسيين مواجهة الحقائق العملية ، لأن الخطر الأكبر هو على يصبح المرء عبداً لفكرة أو شعار إقنعه به في الماضي . وعلى سبيل المثال ، فإنه غير منطقي على الإطلاق ، كما أنه وهم حقيقى التفكير كالاتى : « أنه من الممكن فى أى وقت مستقبلاً توحيد ألمانيا ، لأن الروس لن يسمحوا على الإطلاق بقيام دولة تعدادها ٧٠ مليون فى وسط أوروبا ، والتي تنتشر فيها قواعد إطلاق الصواريخ النووية على الحدود البولندية » .

« أنه يمكن حل المشكلة الألمانية بدون حل مشكلة الأمن الأوروبى أولاً » .

« وأن الحكومة الحقيقية للصين هى فرموزا . » ^(١)

« وأن فى استطاعتنا التقدم نحو عالم أكثر سلاماً بدون إشراك أكبر دولة فى العالم على مائدة الاجتماعات ألا وهى الصين » ^(١) .

ويجب أن أكون أميناً فى تحديد رأي الشخصى عن السلام العالمى ، فبعد خدمتى لمدة عشر سنوات فى منظمة الدفاع الغربى وصلت إلى الخلاصة بأنه لن يكون هناك سلام مستقر فى هذا العالم الحير إلا بعد عودة القوات المسلحة لجميع الدول إلى أراضيها الوطنية . وقد ثبت صدق هذا رأى عندما أنهيت الخدمة العاملة فى منظمة حلف شمال الأطلسى عام ١٩٥٨ ، وأصبحت حراً فى زيارة القادة السياسيين والعسكريين فى الدول الغير منحازة والكتلة الشرقية . وقد تحدثت بإسهاب فى هذا المجال فى كتاب نشر لى عام ١٩٦١ بعنوان : — « الطريق إلى القيادة » — ولكنى الآن غير متأكد . والمشكلة هى أن الجانبين (الشرق والغرب) ،

(١) لقد تحققت نبوءة مونتجورى بعد الاعتراف بالصين الشعبية وقبولها فى هيئة الأمم المتحدة وطرد

قد وصلنا إلى ما يمكن تسميته بالاختلاط الفكري بدرجة أصبح من الصعب أن يكونوا واضحين . ويلوح للبعض ، الأمل في أن الحرب الباردة سوف تصل يوما ما إلى مرحلة يستسلم فيها أحد الجانبين ويحل السلام .

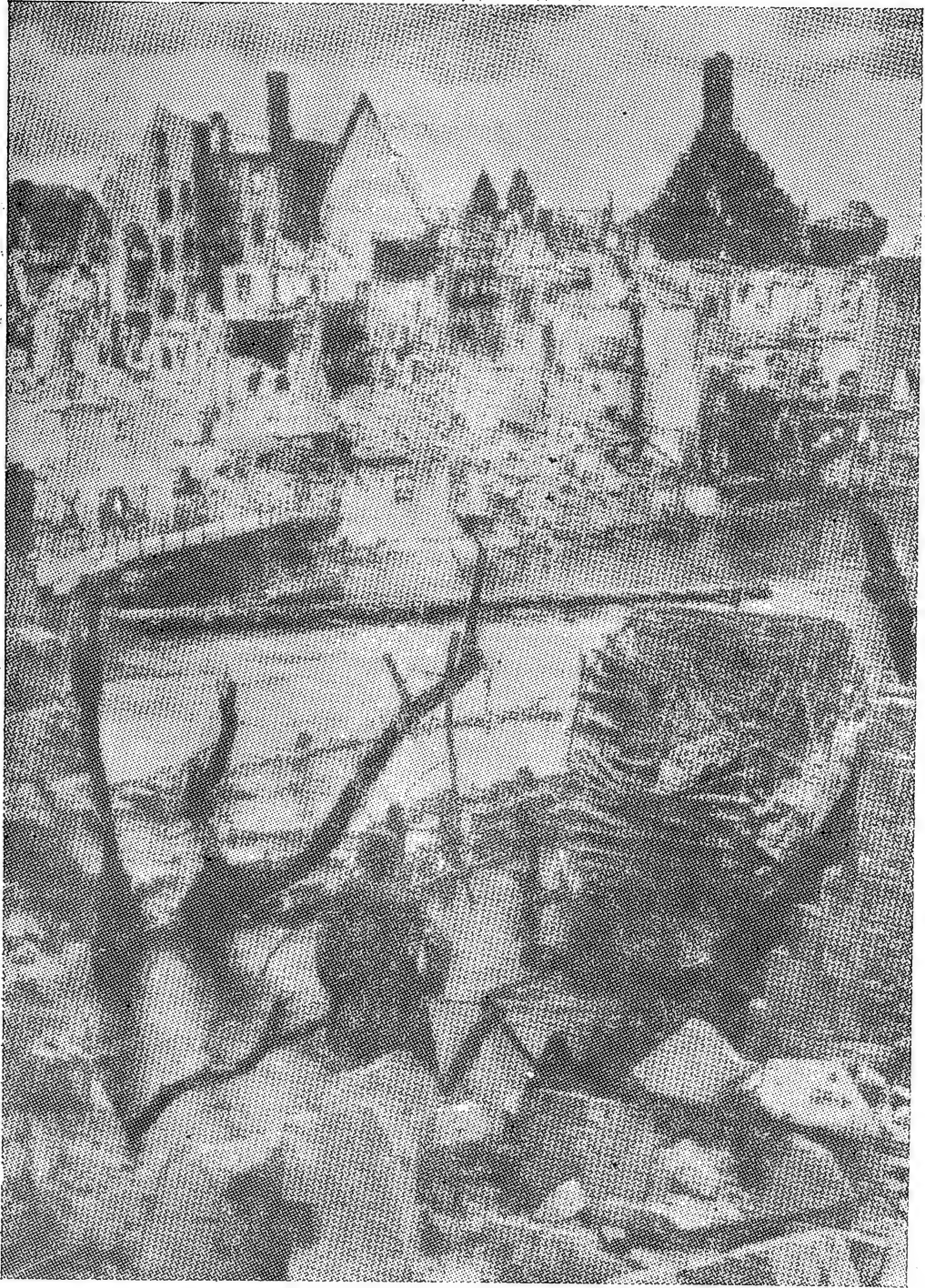
وعندما فكرت طويلا ، تأكدت من أن هذا الأمل هو وهم ، لأنه مبني على عدم فهم لطبيعة العلاقات الدولية . فالإتفاقيات والمعاهدات بل وحتى الحروب والمنازعات ما هي إلا بمثابة علامات الطريق الماضية ، كما تحدد فقط مرحلة على طول الطريق في الأمور الدولية .

والمواجهة الحالية بين عقيدة العالم الغربي وعقيدة العالم الشيوعي ليست من النوع المحدود ، بل هي صراع مستمر ، وقد يختلف في بعض الأحيان ولكنه قد يظهر بشكل واضح في أحيان أخرى .

وسوف يستمر الأمر هكذا لجيل أو لآخر ، فهو مثل المشكلات العائلية ، فلن تختفي فجأة وإذا قدر لها الحل ، فلن يكون حلا حاسما ونهائيا ، لأنه لا يمكن فصل هذا الصراع عن بقية المشكلات الدولية الماثلة أيضا ، مثل قابلية التطبيق الاقتصادي والعدالة الاجتماعية ويجب علينا أن نرفض أي حل لمشكلات عصرنا والتي تبني فقط على كسب الحرب الباردة ، ولا أعتقد أنه يمكن تحقيق النصر كاملا في هذا المجال ، ولكن بالممارسة الصابرة للسياسة وبالتصميم على إزالة الأرتياب والخوف وحتى الكراهية ، سيجعل العلاقات المتبادلة بين النظم الاجتماعية والعقائدية المختلفة أقل عرضة لأن تنفجر في حوب ، وتجعلها أكثر تماسكا مع تعايش سلمي حقيقى .

وقد بدأ الميل نحو هذا الاتجاه في السنوات الحديثة ، ولكن لم يكن هناك نوايا مغلصة بدرجة كافية وراء هذا الميل ، ولا تصميم أكيد على إنهاء الصراع ، والجميع يتفقون على نقطة واحدة : — « أن حالة دائمة من التعايش غير السلمى لن تجر سوى البؤس على الملايين من البشر البسطاء ، ولا بد من إيجاد وسيلة لمنع هذه الحالة » .

وفي الفصل القادم ، سأناقش المشكلات الرهيبة للعصر النووى ومدى الحاجة إلى إعادة تنظيم وأسس القوات المسلحة .



مدينة نورمبرج بعد تدميرها في الحرب العالمية الثانية
وهذه الصورة وغيرها ترهب العسكريين الغربي والشرقي من نشوب الحرب

الفصل الرابع والعشرون

العصر النووي

تدكنواوجيةالصلاحالنووى

والآن . . . يجب علينا أن نفحص بإمعان وعمق ، الرادع النووى الذى يحول اليوم من قيام حرب شاملة بين القوى الكبرى ، فربما الكثير من الناس لا يفهمون جيداً كل من قوة ومضمون الأسلحة النووية ، وخاصة القنبلة الهيدروجينية ، ولذا سنبحث هذا الموضوع لنرى إذا كان فى إستطاعتنا إكتشاف أفضل السياسات الملائمة والتي تمكن الجنس البشرى من العيش بسلام على الأرض ولسنوات طويلة . .

عكف العلماء على العمل فى مجال نظرية الطبيعة النووية ، ولكننا لسنا فى حاجة للذهاب بعيداً للخلف أكثر من بداية عام ١٩٤٠ .
فقد كان من الواضح أن إنتاج قنبلة ذرية سوف تمنح الحلفاء الأفضلية فى حرب ٣٩ - ١٩٤٥ .

وفى عام ١٩٤٠ علم أن العلماء الألمان يعملون فى هذا المشروع . وفى سرية تامة ، عكف العلماء البريطانيون والأمريكيون على العمل العاجل فى هذا المجال ، وتمت الموافقة فى عام ١٩٤٣ بين كل من روزفلت وتشرشل على أن تجرى كل الأبحاث والتطورات فى الولايات المتحدة ، لأنها كانت بعيدة عن مدى القاذفات الألمانية .

وتمت أول تجربة حية للقنبلة الذرية فى « نيومكسيكو » فى صباح ٢٦ يولييه ١٩٤٥ ونجحت التجربة مجاًحاً تاماً . وفى هذه الفترة كانت الحرب الألمانية قد إنتهت ولكن الحرب ضد اليابان كانت لم تتوقف . وفى اليوم السابق ، ١٥ يولييه ١٩٤٥ أفتتح مؤتمر « بوتسدام » فى برلين ، وتلقى الوفد الأمريكى فى المؤتمر أنباء التجربة الناجحة بعد ١٦ يولييه ١٩٤٥ .

وقد أحيط تشرشل علماً بذلك على الفور ، والذى أبلغنى فى سرية تامة ، وهنا برز سؤال هام . . . هل يجب إحاطة ستالين بهذه الأنباء ؟ ونوقش هذا الموضوع طويلاً ، وأخيراً

تم الاتفاق على وجوب إخطار ستالين ، وقام ترومان بأبلاغه بذلك في مساء ٢٤ يولية ١٩٤٥ ، وأبدى ستالين قليلا من الاهتمام فبطبيعة الحال قد عرف كل شيء عن ذلك من شبكة الخدمة السرية الروسية ولكن هذا مجرد تخمين .

وتمت الموافقة بالإجماع بين الوفد البريطانى والأمريكى على وجوب إستخدام القنبلة ضد اليابان ، وقد كتب تشرشل فى المجلد السادس من كتاب الحرب العالمية الثانية قائلا : - « لقد بدا لنا فجأة أننا قد أمتنا ككنا النهاية الرحيمة لهذا فى الشرق وأسعد الآمال للغرب ، ولقد كانت موافقة إجماعية حول مائدة الأتجام وتلقائية ، ولم أسمع أى إقتراح بأستعمال أى وسيلة أخرى » وبالرغم من هذه الموافقة بين الوفود البريطانية والأمريكية والروسية فى مؤتمر « بوتسدام » ، فإن الكثير من الناس وفيهم أنا ، قد أعتقدوا بعدم ضرورة إستخدام القنبلة الذرية ضد اليابان ، لأن اليابان بدأت تسعى للسلام قبل ذلك ببضعة أسابيع . وعلى أى حال فإن القنابل التقليدية أحدثت دماراً كاملاً فى اليابان بدرجة جعلت الشعب اليابانى لم يتبق له سوى أمل ضئيل فى مواصلة القتال اليائس . وعلى أى حال فقد أسقطت القنبلة الذرية الأولى فوق « هيروشيما » فى ٦ أغسطس ١٩٤٥ ، وأسقطت الثانية فوق « نجازاكي » فى ٨ أغسطس وبعد ذلك بستة أيام إنتهت حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .

أما العلماء فلم يتوقفوا ، بل واصلوا عملهم لتطوير قنبلة أكثر قوة . وفى عام ١٩٤٦ تم إجراء تفجير تحت الماء عند بيكينى فى جنوب المحيط الباسفيكى ، وفى أغسطس ١٩٤٦ تكونت « لجنة الطاقة الذرية » فى الكونجرس الأمريكى . وفى عام ١٩٥٢ تم إجراء التفجير الأول لقنبلة هيدروجينية فى المحيط الباسفيكى ، وتبعها ثلاث تفجيرات أخرى فى نفس الموقع فى مارس وإبريل ١٩٥٤ .

وبعد ذلك فى سبتمبر ١٩٥٤ توفى صياد سمك يابانى بمرض اليرقان الناتج عن إصابته بالأشعاعات المسببة من الغبار الذرى المتساقط . وأصيب الرأى العام فى جميع أنحاء العالم بالذعر وطالب بوقف التجارب الذرية فى الغلاف الجوى ، وتم الاتفاق على ذلك عام ١٩٥٨ . والآن نصل إلى أحد المواقف المثيرة والحامة ، فى مارس ١٩٦٢ أعلن الرئيس كنيدي أن الولايات المتحدة سوف تستأنف التجارب النووية فى الغلاف الجوى نظراً لنقض روسيا للتحريم القائم

وقت ذلك ، وتضمن بيان الرئيس على الفقرة التالية : — « يجب علينا إجراء التجارب في الغلاف الجوي لكي نسمح بتطوير هذه الأبحاث المتقدمة ، والأسلحة الأكثر تأثيراً وفعالية والتي صارت من أهم دعائم أمتنا على ضوء التجارب السوفيتية . لا يزال تكنولوجيا السلاح النووي ميداناً دائماً التغيير ولذا كان على أسلحتنا أن تكون أكثر مرونة في إستخدامها وأكثر إنتقاءً في تأثيرها .

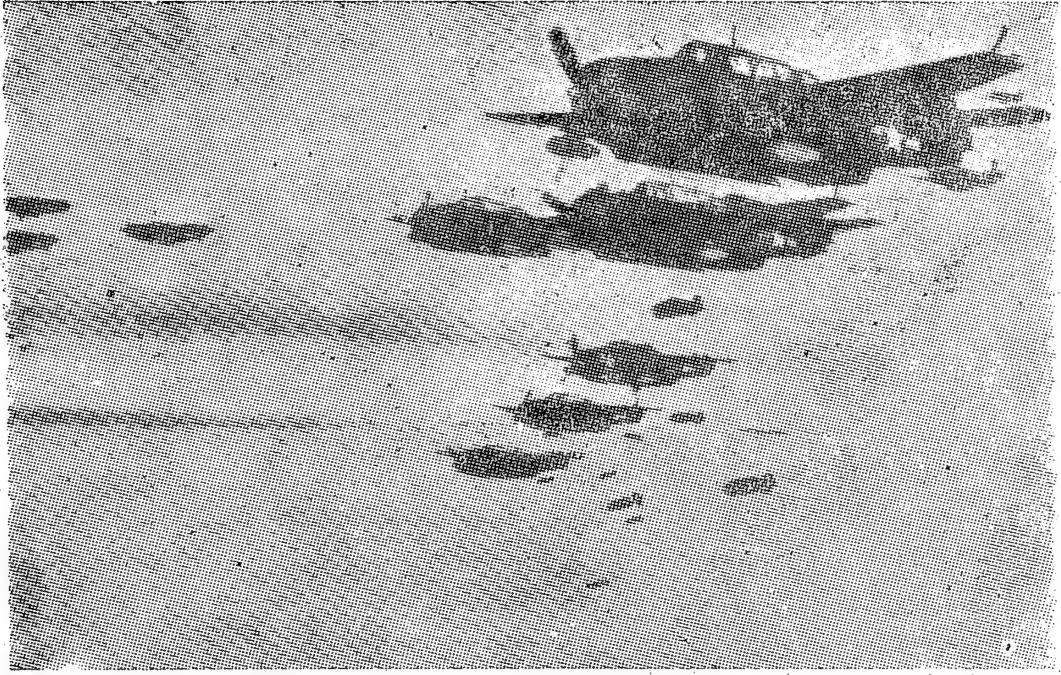
لذا يجب علينا أن نكون يقظين للتقدم العلمي الجديد وذلك بقيامنا بتجارب للتصميمات الجديدة ، وإذا أردنا المحافظة على قوتنا الدافعة العلمية وزعامتنا ، فيجب علينا ألا نوقف تقدم أسلحتنا أو نحد منها أو نعتمد على اوسائل النظرية أو نجعل التجارب داخل المعامل وفي الكهوف » . وإذا كان ذلك البيان صادقاً وحقيقياً وسارى المفعول ، وأنا شخصياً أعتقد أن له هذا ، فعلياً أن نحاول معرفة السبب الذي من أجله قام الرئيس كينيدي بعد ذلك بتوقيع « إتفاقية التحريم الجزئى للتجارب النووية ^(١) » مع كل من بريطانيا والاتحاد السوفيتي وأمريكا . ومن الأصح أن نعرف ما كان يدور في ذهن الرئيس الأمريكى ولكن هذا لم يحدث لأنه أعتيل في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ ، كما سقط خروشوف من مركز القوة بعد ذلك بسنة واحدة في ١٤ أكتوبر ١٩٦٤ .

وبعد ذلك وقعت العديد من الدول على هذه الاتفاقية ، ولكن لم توقع فرنسا والصين ، وهما الدولتان الوحيدتان الأخريتان اللتان لهما قوة ضاربة نووية . ولم تكن روسيا متخلفة كثيراً عن الولايات المتحدة في تطوير الأسلحة النووية ، فقد فجر علماءها قنبلتهم الذرية الأولى عام ١٩٤٩ ، وكانت لديها القنبلة الهيدروجينية عام ١٩٥٣ . وربما كان الرئيس كينيدي قلقاً بخصوص التقدم النووى في الصين ، فقد قام الصينيون فعلاً بتجارب نووية مؤكدة ، ففي ١٦ أكتوبر ١٩٦٤ ، أى بعد يومين من سقوط خروشوف من مركز القوة ، قاموا بتفجير جهازاً نووياً منخفض القوة في منطقته نائية في « سنكيانج » ، ولهذا لم يكن من الغريب عدم توقيع الصين على إتفاقية تحريم التجارب النووية .

لقد فجر الصينيون جهازاً نووياً ثانياً عام ١٩٦٥ وأثنى آخرين في مايو وديسمبر ١٩٦٦

(١) لقد أضيفت كلمة « جزئى » لأنه أنفق على إمكان إستمرار التجارب النووية تحت الأرض في السنة التالية أى في يولييه ١٩٦٣ . « المغرب »

والذى إحتوى كل منهما على مادة نووية حرارية وتقدموا بخطى واسعة فى هذا المجال حتى وصلوا إلى مصاف الدول الكبرى :



قذفت طائرات الحلفاء طول الحرب العالمية الثانية بحوالى ٣٥ مليون طن

القنبلة الهيدروجينية

يجب أن نبحت الآن علاقة القنبلة الهيدروجينية بالحرب ، لأنها ليست مجرد سلاح نووى آخر ذو قوة تدميرية أكبر . ويوجد اليوم وسائل من شأنها حمل القنبلة ثم توصيلها بسرعة رهيبية للغاية إلى أى هدف فى العالم ، وهذا الترابط المثير بين قوة النيران وخفة الحركة يعتبر ثورة فى فن الحرب ، فقبل العصر النووى كان الهجوم للأستيلاء على أو تدمير هدف عسكرى ، يستغرق أسابيع كثيرة ، أما اليوم فقنبلة هيدروجينية واحدة تكفى للقيام بهذا العمل فى مدة لا تتجاوز الجزء من الثانية ، أو بالطبع فلم يحدث أن ألقيت إحدى هذه القنابل على أى هدف فى الحرب . ولكن التجارب أثبتت أنها ذات قوة لا تصدق ، وقد يعطينا المثال التالى صورة لقوتها ، فقد بلغ الوزن الكلى للقنابل التى أسقطها الحلفاء خلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ فى مسرحى أوروبا والباسفيك حوالى ٣٥ مليون طن .

وإذا عبرنا عن هذا الرقم باللغة النووية فإنه يكون ٣٥٠ ميجا طن ، وهي أقل من قوة قنبلة هيدروجينية واحدة من الحجم المتوسط أو قوة رأس صاروخ نووى . ومن الأفضل لنا أن نأخذ فكرة عامة عن الفجوة الانفجارية لقنبلة هيدروجينية واحدة قوتها ٢ ميجا طن مستخدمين في ذلك الأرقام التى نشرتها لجنة الطاقة الذرية . وسوف نفترض فى سقوط القنبلة على مركز مدينة كبيرة ، وفى هذه الحالة سوف يحدث الانفجار فوهة عمقها حوالى ٣٥٠ قدم وقطرها ٣٧٠٠ قدم ، وسوف تتواجد خارج هذه الفوهة الكبيرة مساحة من الحطام ، المملوءة بالإشعاع الضار والتى تمتد إلى مسافة تقرب من ١٨٠٠ قدم وإلى إرتفاع حوالى ١٠٠ قدم ، وسوف يكون قطر كرة النيران الناتجة حوالى ٤ أميال ، كما تكون درجة حرارة الكرة حوالى ٨٠٠٠ درجة فهرنهايت .

وكل ما فى داخل هذه المنطقة من أحياء وجماد سوف يسحق تماما ، ما النشاط الإشعاعى المتخاف فسيجعل من المستحيل إعادة تعمير المنطقة قبل ٥٠ عاما . والمباني الكبيرة والتى على بعد ستة أميال من مكان سقوط القنبلة سوف تصبح لاشئ أ كثر من هياكل من الأنقاض ذات الأسقف والحوائط المنهارة .

وبالإضافة إلى هذا التدمير الذى أحدثه الانفجار ، فهناك درجة الحرارة الرهيبة التى ستبدأ فى إشعال النيران ، وسوف ينتشر الدمار والنيران الشائرة ، وستحدث ملايين من الخسائر التى تمتد إلى نحو ١٨ ميل من مركز الانفجار .

وسيدأ تساقط غبار ذرى شديد الإشعاع على هذه المنطقة بعد حوالى ٢٠ دقيقة من تفجير القنبلة والذى يستمر لمدة حتى نصف ساعة قبل أن يهدأ . وبعد الانفجار بـ ٤٨ ساعة سيتخذ الغبار الذرى المتساقط شكلا بعرض ١٨ ميلا وسينتشر مع الريح لحوالى ١٣٠ ميلا ، مسببا فيما بعد خسائر جسيمة . كل ذلك قد تحدثه قنبلة هيدروجينية واحدة طبقاً لبيانات لجنة الطاقة الذرية الأمريكية .

القوة النووية

وهذا إذن هو السلاح الذى جعل الكتلة الشرقية ، نتيجة الخوف منه ، تكف عن

تجاوز الحد في الحرب الباردة ، وذلك خوفاً من إشعال حرباً نووية شاملة بين الشرق والغرب .

وهو أيضاً السلاح الذى يأمل العالم الغربى ، فى أن يكون رادعا كافياً ضد أى عمل من هذا القبيل يقوم به العالم الشيوعى .

وعند الحديث عن احتمال أى عمل يمكن أن يقوم به أحد الطرفين الشيوعى أو الغربى فيمكن القول بأنه لا يهم مدى ما يكون عليه الهجوم المفاجئ ، فهما كانت سرعة المعتدى ، فإنه لن يستطيع الهروب من الضربات الانتقامية وهكذا فإن المخاطرة فى الحرب النووية الشاملة رهيبه جداً تجعل من العسير جداً القيام بأى مغامرة .

ومنذ أن قرر العالم الغربى إتباع سياسة الردع النووى برز لنا سؤال : —
« ماذا يعنى تعبير « القوة النووية ؟ » .

فمن الزاوية الاستراتيجية يمكن تعريف القوى النووية بأنها الدولة التى لديها أقل قدرة لتوصيل أسلحة نووية كافية لردع أى دولة معتدية ، أو بمعنى آخر منع العدو من إستكمال وتقوية مركزه بتوجيه ضربة قاضية مفاجئة .

ومعنى هذا أنه يجب أن يكون لدى الدولة المعتدى عليها القوة لترد الضربة . وهذه القوة هى التى بوجودها يمكن تجنب كارثة الحرب . ولكن إلى أى مدى ترد الضربة ؟ ؟
وفى تقديرى أن ترد الضربة بحيث تدمر تماماً عدداً غير مقبول من المدن الرئيسية أو المناطق الحيوية .

وفى قاموس أكسفورد المختصر عرفت كلمة « الردع » هو إحباط وتثبيط العزيمة بواسطة بث الخوف .

ويوجد فى العالم اليوم خمسة قوى فقط والتى ينطبق عليها هذا التعريف ، أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين .

والنقطة التى يجب فهمها جيداً هنا هى أن ما يمكن أن يردع إحدى الدول ، ولتكن مثلاً ، من إستخدام قوتها النووية ، ليس ضرورى أن يكون هو نفسه الذى ينطق على دولة أخرى مثل الصين . وهنا تكمن مانسميه : — « معضلة الردع » . والمشكلة هى أن نعرف

بالضبط ، درجة التدمير التي تعتبرها قوة نووية شيوعية أنه في إمكانها تحملها ، وما هو المطلوب من دول العالم الغربي لكي تقنع الدول الشيوعية بأن بعدوانها سوف تكسب أقل وتتكلف أكثر مما تأمل أن تتوقعه .

وقد أعطت أزمة كوبا عام ١٩٦٢ تلميحا لذلك ، ولكن رغم ذلك ، فليس هناك إجابة حاسمة لهذا السؤال . وأكثر من ذلك فلا توجد حتى الآن وعلى نحو مرضي ، وسائل لتقييد انتشار الأسلحة الذرية عن طريق نزع السلاح ، وبالتالي تتوفر الضمانات بوسائل مختلفة ، والتي تحقق درجة معقولة من القوى ، الشيء الذي لا تستطيع الأسلحة تحقيقه الآن .

وقد أصبحت الأمم المتحدة مجرد مرآة لعالم منقسم ، وبتنظيمها الحالي لا يمكنها أن تكون إطلاقاً أكثر من منبر للمناقشة ، وفي الواقع أصبحت الأمم المتحدة ميدان قتال للحرب الباردة ، بدلا من أن تكون مجالا لحلها . فالحرب لا يمكن أن تلغى نفسها ، وبأبسط تعريف ، فيمكن القول بأن الأسلحة النووية قد أعطت الجنس البشري الخيار بين إلغاء الحرب أو حرب فناء للبشرية بواسطة هذه الأسلحة .

والشيء الذي يجب الشروع في إنجازه ، هو إيجاد حل للاختلافات السياسية والعقائدية والتي تقسم العالم . وإذا لم يتحقق ذلك أولا فمن المحتمل أن نزع السلاح الذري سينزى من احتمالات الحرب التقليدية .

الصراع النووي بين الشرق والغرب

وقد تأتى الطامة الكبرى عندما تشن قوة نووية حربا تقليدية ضد قوة نووية أخرى ، ثم تجد نفسها سوف تخسر الحرب ، هل هذه الدولة لا تحاول عندئذ كحاولة أخيرة لها لا انتزاع النصر باستخدامها السلاح النووي في اللحظة الحاسمة ؟

يجب علينا ألا نهرب من هذا السؤال ، ومن الأرجح أن تكون أفضل إجابة على هذا السؤال بفرض سؤال آخر . هل من المحتمل في الحرب المحدودة أن تلجأ دولة إلى استخدام سلاحاً نووياً صغير العيار نسبياً . . . ؟ ؟ ويوجد اليوم أربع دول فقط يمكنهم إنتاج مثل هذه الأسلحة ، وهم الولايات المتحدة وروسيا وفرنسا والصين .

ويمكن لهذه الدول أن تمد الدول الصغرى والتي يوجد تعاطف معها بهذه الأسلحة ،
ولكن تقديم هذه الأسلحة ينطوى على المخاطرة المثلثة فى أن تطلب تلك الدول الصغرى
المزيد من الأسلحة الأكثر قوة والأشد دماراً ، وعندئذ تتسع دائرة الصراع لتصبح حرباً
نووية شاملة بين كتل القوى الكبرى ، أى نفس نوع الحرب التى يحاول الغرب أن يردعها
والتي فى الحقيقة لا يرغبها الشرق .

وفى رأى أن الإجابة على هذا السؤال هو « لا » ، فلا توجد دولة سواء فى العالم الغربى
أو العالم الشيوعى ، ترغب فى المخاطرة باستخدام أى نوع من الأسلحة النووية فى حرب
محدودة ذات طابع تقليدى ، إلا إذا كانت تمتلك قوة نووية ضخمة وموثوق بها لكسب
الحرب ، وذلك لاستخدامها فى حالة ما إذا اتسع الصراع .

ومثل هذه القوة النووية موجودة لدى أمريكا أقوى دول للعالم الغربى وأيضاً لدى
روسيا أقوى دولة فى العالم الشيوعى ، ولكن لن تخاطر أى من الدولتين بتحمل تبعات
إستعمال هذه الأسلحة ، لأن الدمار الذى ستلحقه الضربات الانتقامية لمدن كل منهما سيكون
دماراً مرعباً يفوق أى تصور ، كما أنه لا يمكن لأى منهما التأكيد من تحقيق النصر .
ولكن سيظل كل منهما محتفظاً بقدرته النووية الكبيرة ، إلى أن يتمكن رجال السياسة
من إيجاد وسيلة مقبولة للتعايش السامى .

وقد يكون من المستحسن أن نتعرض هنا لأزمة كوبا عام ١٩٦٢ ، فقد أظهر بوضوح
الاستطلاع الفوتوغرافى فوق الجزيرة للرئيس كيندى رئيس الولايات المتحدة بأنه هناك
قواعد صواريخ روسية جارى إنشائها وبالتالي أصبح ذلك يشكل تهديداً نووياً لأمريكا .
وبناء على ذلك قرر كيندى منع السفن التى تحمل الأسلحة من الوصول إلى كوبا ، مستخدماً
فى ذلك القوات البحرية والجوية الأمريكية . ولو أن خروشوف إختار أن يبدأ حرباً نووية
بسبب الأزمة الكوبية ، لنتج عن ذلك تنفيذ خطط القيادة الجوية الاستراتيجية الأمريكية
بالاشتراك مع الغواصات البحرية التى تحمل الصواريخ « بولاريس » ، لتدمير آلة الحرب
السوفيتية .

وقام كيندى بالاتصال بخروشوف طالباً منه سحب صواريخه من الجزيرة أو... المواجهة.. وبناءاً عليه قام خروشوف بالعمل الوحيد الذى كان فى استطاعته عمله ألا وهو إعادة صواريخه ثانياً إلى روسيا .

ولقد كان هذا مثالا كلاسيكياً عن « الردع الديناميكي » والذى قام به زعيم شجاع . وقد نجح كيندى لأن الولايات المتحدة كانت تتمتع بالترابط الكامل بين ثلاث عوامل حيوية يجب توافرها فى مثل هذه الأزمة وهى القوة العسكرية والشجاعة الدبلوماسية والوحدة الوطنية .

ولسوء الحظ تواجهنا حقيقة ساخرة ، وهى أن الحرب النووية قادرة على تدمير المجتمع ، فإن وسائل تجنبها تتكون من بناء وسائل تجهيزها للهجوم . والشئ الذى يجب أن نأمل فيه ، هو بعض إجراءات السيطرة على التسليح ، وإلى أن يتم الاتفاق على هذه المسألة ، فسوف يتوقف تجنب الحرب النووية على بقاء التوازن السياسى العسكرى محفوظاً بين الشرق والغرب .

ومن السهولة أن ينقلب هذا التوازن ، بسلاح جديد أو نظام دفاعى . أو بأسلوب جديد للهجوم أو بأى اختراع جديد يمكن أن يقلب التوازن مرجحاً كفة أحد الطرفين . وقد قال البعض ، أن فرص تجنب الحرب النووية تكمن فى إنشاء نوع من السلطة العالمية العليا أو الحكومة العالمية التى تسيطر على العلاقات بين الدول .

ولكن الصعوبات التى تقابل أى حل من هذا القبيل للمشكلة لا يمكن التغلب عليها ، وربما أكثر الحلول إمكانية فى العصر الحالى يتمثل فقط فى منع انتشار الأسلحة النووية خارج نطاق القوى النووية الخمس السابق ذكرها ، ولكن ذلك الحل صعباً أيضاً ، فقد صرح أحد الزعماء الغربيين بأنه لا يمكن لدولة أن تطلب مقعداً على « مائدة القمة » إلا إذا أصبحت هذه الدولة قوة نووية .

إذن لن يكون هناك مجال لهذا الحل حيث أن كل دولة ذات سيادة سوف تسعى جاهدة للجلوس على مائدة القمة . وطالما أن التعايش السلمى بين الشرق والغرب غير ممكن ، فالاستراتيجية الوحيدة السليمة فى هذه الحالة والتى يمكن أن تضمن أمنها القومى ، هى

إحتفاظ كل منها بقوات للردع وقوات أخرى تقليدية . ولكن في هذه الحالة لن يكون هناك إستقرار دائم مع وجود عنصر عدم الثقة .

صندوق بندورا

وفي أثناء ذلك يتابع العلماء في كل من الجانبين أبحاثهم لإنتاج أسلحة أكثر قوة ، بينما القادة العسكريون يصارعون المشكلة المستعصية المتمثلة في رسم الاستراتيجية التي سوى يطبقونها في العصر النووي .

وإحتمالات نزع السلاح النووي ضئيلة حيث لن ينهى تدمير كل الأسلحة النووية ، معرفة كيف يمكن صنعها ، كما كتب أحد الكتاب عن الأسلحة النووية : « إنه صندوق البندورا^(١) إذا فتح مرة ، فمن الصعب غلقه » .

والآن قد قلنا ما فيه الكفاية ويتبقى عندها رجال السياسة في العالم وعليهم العثور على الطريق الذي يبعدهم عن الكارثة بشرط أن يكون هذا التنفيذ مؤيداً بالحلول التي يقدمها الرأي العام في هذه الدول والذي على علم بحقيقة المشكلة ويرى بوضوح أبعاد المستقبل تحت التهديد النووي .

ويجب على رؤساء العالم أن يتعلموا من التجربة ، وفي كثير من الأحيان من التجربة المرة ، كما حدث في منتصف القرن ٢٠ .

ففي عام ١٩٤٣ رفعت سياسة « التسليم بدون قيد ولا شرط » رأسها القبيح عاليا وأدت بالغرب إلى إنتهاج هذه السياسة التي أرتدت علينا جميعا ، بالرغم من أن هذه السياسة كانت تلائم العالم الشيوعي جيداً في ذلك الوقت .

ويجب أن يكون الهدف الحقيقي في الحرب هو خلق السلام الآمن المستقر ، ولن يتحقق هذا لو إتجهت دولة أو مجموعة من الدول لتحقيق نصر عسكري كامل . وأغلق

(١) بندورا لمسم امرأة ورد في أحد الأساطير الأغريقية التي يقال أن الآلة زيوس أرسلها عقابا للجنس البشري بعد سرقة بروميثيوس للنار ، وأعطاهما علبة وعندما فتحتها بدافع الفضول حتى أنطلق منها جميع الشرور والردائل وعمت جميع البشر ولم يتبق منها غير الأمل «المعرب»

الباب بعنف في وجه أى فكرة للسلام عن طريق التفاوض ، وهو نفس الشيء الذى حدث في حرب ١٤ - ١٩١٨ وأيضاً في حرب ٣٩ - ١٩٤٥ . ويجب علينا ألا نعتمد على العلاقات الدبلوماسية الجامدة في العصر النووى .

وعلى المرء فقط أن يقارن بين العلاقات بين كل من ألمانيا والكمونولث البريطانى ، والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا ، والصين في عام ١٩٤١ . وفي عام ١٩٥٠ ، ثم أخيراً العلاقات بين نفس الدول في أواخر الستينات ، ليتحقق المرء من عدم إمكانية حدوث أى تفاهم أو إلتقاء بين هذه الدول خلال السنوات القادمة .

الة الحرب القومية

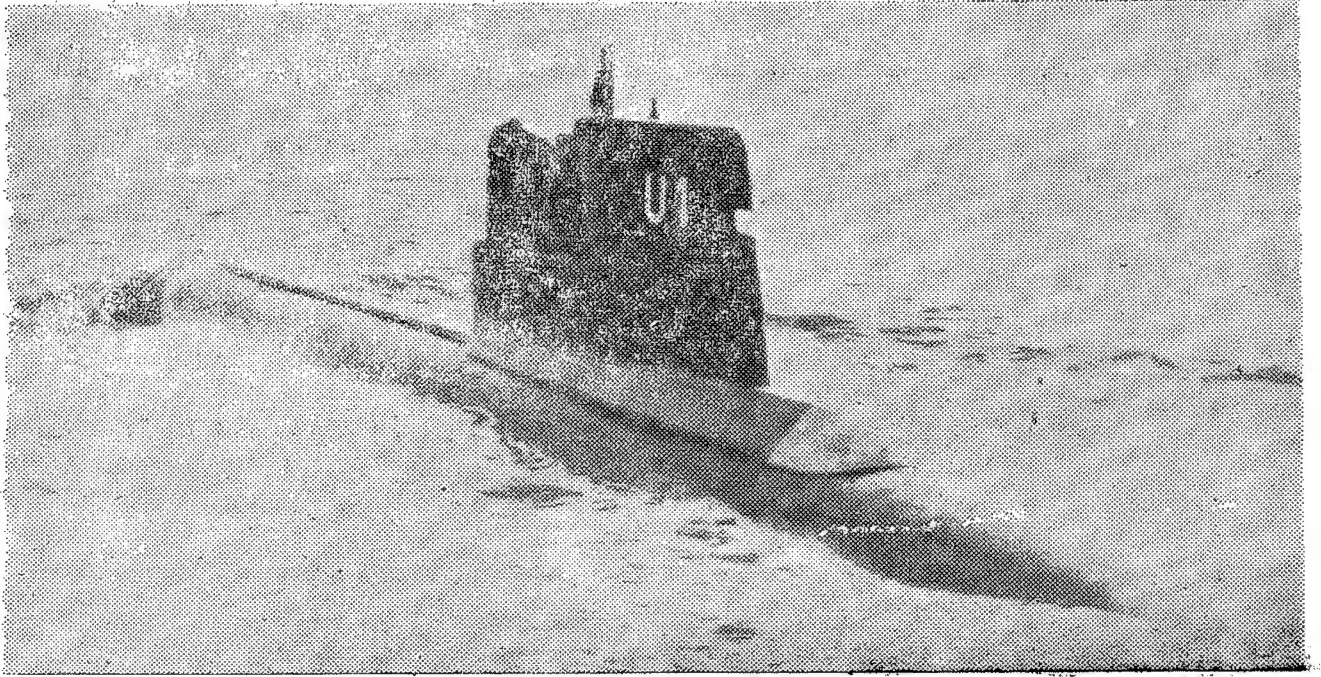
ومن الصعب التنبؤ بأى درجة من التأكيد بالكيفية المحتملة لتطور القوات المسلحة في العصر النووى ، ولكن يبدو لى أن المبادئ التالية سوف تثبت ذلك لأننى أرى من خلالها المستقبل العسكرى .

لقد أحدث التقدم العلمى ثورة في الأفكار والمفاهيم الاستراتيجية والتكتيكية منذ حرب ٤٩ - ١٩٤٥ وما بعدها ، وعلى ذلك ، فيمكن لأى إنسان أن يخمن ما الذى يمكن للعلماء تقديمه لنا في المستقبل ؟ .

وإشترك هؤلاء العلماء في البحث والتطور والابتكار خلال السنوات ٢٥ الماضية وكان لها نتائج باهرة . ولذلك إذا طرأ أى تقدم على نزع السلاح في العالم ، وإذا خفضت ميزانية الدفاع ، فإن ما يخص هؤلاء العلماء من أموال وقوى بشرية يجب أن يظل كما هو . وسيكون من الخطورة التكهن بأى استنتاجات لأبعد من ١٥ سنة القادمة . ولكن تأثير العلم في منتصف القرن ٢٠ على فن الحرب وعلى تنظيم القوات المسلحة هائلاً . وسبب هذا التأثير صعوبة احتمال قيام الحرب التكررى ، أى الحرب الشاملة ، والتي يستخدم فيها الجانبين الأسلحة النووية .

ولن ترغب أى دولة في تحطى الحد في الحرب الباردة ، ذلك التحطى الذى يدفع بها إلى الإلتحار .

وخلال الثمانى سنوات القادمة ومع بداية عام ١٩٨٠ ، فإن التركيز العسكرى سيكون مسلطاً على الحروب الصغرى والمحدودة جغرافياً ، والتي سوف يستخدم فيها فقط ما يطلق عليه بالأسلحة التقليدية ، وسوف يكون مسرح هذه الصراعات المسلحة فى نصف الكرة الشرقى أكثر من وقعها فى النصف الغربى مع زيادة إتساعها فى أفريقيا .



الغواصة الذرية بولارس

الحرب تحت البحر

ومن أهم وأبرز تطورات الحرب الحديثة هو الزيادة السريعة والمفاجئة فى قوة كل من البحرية والطيران ، وقد سبق أن ذكرت فى الفصل الأول أنه منذ العصور القديمة عندما تسيطر الدولة على البحار ، يكون النصر فى النهاية فى جانبها ، لأن عدوها سيكون محصوراً داخل نطاق الإستراتيجية البرية .

وقد أكدت القوة الجوية ذلك عندما وصلت إلى ذروتها فى التطور . والتجميع البارع للقوة البحرية والقوة الجوية لمن العوامل ذات الأهمية الأولى فى نجاح المعركة ، وينطبق نفس المبدأ فى حالة القوات البرية والجوية .

وفى مجال التنظيم العسكرى ، فليس هناك طريق مضمون للوصول إلى كارثة محققة أكثر من إتباع نظم كانت متبعة من قبل . ثم تطبيق هذه النظم السابقة والأستمرار فى تنفيذها ، فالمشكلة تتغير دائماً . ويبين هذا المبدأ إلى أن القوة البحرية سوف تعمل فى المستقبل بطريقة

مختلفة عما كانت تعمل به في الماضي ، وذلك بسبب تأثير العلم على فن الحرب . وقد ولي بالتأكيـد عصر البوارج الكبيرة ، والحرب البحرية المستقبلية ستدور بنسبة متزايدة تحت سطح البحر ، وسيكون تسليحها الرئيسي هي الغواصات من طراز « البولاريس » و« الهانتر كيلر » (الصيـادة القاتلة) وإذا أسطاعت الغواصة بولاريس الوصول إلى عمق أكبر من الحاضر ، فسيكون مستحيلاً تحديد مكانها بواسطة أى وسائل علمية معروفة في وقتنا الحاضر . أما السفن التي تعمل على سطح البحر ، فستصبح أكثر سرعة وصغيرة وقادرة على إطلاق الصواريخ . وسوف تحمل الصواريخ محل الطائرات المقاتلة .

ولكن إلى أن يتم إمكان إنتاج طائرة « فوتول^(١) » مناسبة قادرة على العمل من السفن الصغيرة ، وهو شيء ضروري جداً وحيوي ، فسوف تظل حاملات الطائرات مطلوبة ، وربما تختفي حاملات الطائرات الكبيرة في أوائل عام ١٩٨٠ .

القوة الجوية والمرونة

وأعظم مصادر القوة للقوات الجوية يكمن في مرونتها . ففي داخل حدود المدى التي تعمل فيه الطائرات ، يمكن توجيهها بسرعة ومن هدف إلى آخر في كل منطقة العمليات بدون تغييرها لقواعدها ، ولهذا فإنه في الإمكان إستخدام كل ثقل القوة الجوية المتيسرة على مناطق مختارة بالتوالي . ولهذا يجب أن تكون السيطرة مركزية على كل القوة الجوية المتيسرة الموجودة في القواعد البرية أو البحرية ، على أن تخرج أوامر وتعليمات القيادة من مصدر واحد .

وإذا تأملنا بأمعان مشكلة الدفاع ، سنصل إلى إستنتاج بأن الإجابة تقع أساساً في القدرة على إستخدام القوة البحرية والجوية بحرية ، مع حصر العدو للعمل في إستراتيجية برية فقط ، وبهذه الطريقة فقط سيصبح في الإمكان الحصول على أقصى مرونة ممكنة . ويجب على الحلفاء الغربيين ومنهم إنجلترا أن يضعوا التخطيط السليم الذي يحقق لهم التحرك والانتشار المرن بدرجة تجعلهم قادرين على التعامل بسرعة وبفاعلية مع كل المواقف ، بما في ذلك المواقف الغير محتملة والغير متوقعة .

وفي الحقيقة فالانتشار المرن يتركز أساساً على إستراتيجية بحرية ، وهذا يتطلب إعتبارين هامين هما الاتحاد والقيادة .

وعند التخطيط للدفاع وتقرير أنسب تنظيم للقوات المسلحة ، فمن الضروري وجود إستراتيجية طويلة المدى .

(١) طائرات مقاتلة تقاذف عمودية الأفعال والهبوط .

وأشك في أن الغرب سيستفيد بالقواعد البرية الثابتة الكثيرة أفضل إستفادة . ومن المحتمل عند نشوب أى أزمة أن تجد هذه القواعد الثابتة نفسها حجة موجودة في الاتجاه الخاطئ . وسوف تؤدى هذه القوات الثابتة إلى تقييد خفة حركة القوات ، وفي الحقيقة ستكون دائماً رهن الحظ . ويجب على القواعد التي تعتبر حيوية ألا تتواجد في مناطق يشعر سكانها بكره نحو هذه القواعد في أراضيهم أو سكان لن يقبلوا وجودها لأمد طويل ، ومثل هذه القواعد الأخيرة تعتبر بمثابة دعاية ممتازة لصالح أعداء الغرب .

ويجب على الجيوش أن تتجه إلى البحر ، لتكون في شكل قوات صغيرة لها خفة حركة جوية تكتيكيا ، نتيجة لتزويدها بطائرات الهليكوبتر لتحررها وإمدادها وللمعاونة الأرضية .

القوة الحقيقية للدولة

والنقاط السابقة التي ذكرتها عاليه ، ما هي إلا مجرد إطار خارجي لمشكلة كبيرة جداً ، وحلها كما أعتقد ، يقع بين يدي الاتجاه العام الذي أشرت إليه .

ولكن من الضروري أن نتذكر أن القوة الحقيقية والنهائية للدولة لا تكمن في

قواتها المسلحة ولا في إحتياطياتها من الذهب والدولارات ، بل تكمن في شخصيتها القومية

أى في شعبها وفي رجولة هذا الشعب ورغبته في العمل ، وفي فهمه التام للحقيقة المتمثلة في

أنه إذا أراد الرخاء والقوة الاقتصادية ، فيجب أن يحصل عليها بنفسه لنفسه وإلا فليمضى

بدونها .

وفي عام ١٩٤٦ كتبت هذه الكلمات : — « إن الاعتبار الوحيد الهام في الحرب هو الروح

المعنوية ، فلا يمكن مواصلة حرب لأمد طويل إذا إفتقر الشعب إلى العزيمة على القتال ، لأن

في هذه الحالة ستتوقف وظيفة الآلة القومية للحرب . وفي المعركة لن تنجح الاستراتيجية

إذا لم يكن وراءها الروح المعنوية ، وإذا فقدت الروح المعنوية فسوف تكون الهزيمة محتومة . »

وتلك كلمات صادقة سواء الآن أو في الوقت التي كتبت فيه ، وسوف أضيف إليها

خمس كلمات فقط : — « تنطبق نفس الكلمات في السلم » .

والآن أصل إلى نهاية آرائى عن الحرب عبر التاريخ ، ويبقى فصل واحد وأخير وهو

الغاية من السلام .

الفصل الخامس والعشرون

الغاية من السلام

العودة الى الهيجية الكاملة

في أحد الليالي ... عندما كنت أقرأ في الأنجيل مررت عبر هذه السطور مصادفة : —
« كل فرد من النبي حتى مستوى القسيس ، ينادى .. السلام .. السلام ، في وقت لم يكن فيه سلام .. »

تلك الكلمات كتبت منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة مضت ، وهي تنطبق تماماً على الموقف في أيامنا هذه .

وأعتقد أن الكثير من قراء هذا الكتاب قد حصلوا على ما ينبغي من معلومات عن الحرب وأيضاً علموا كم هو مفر إخفاء التصدع في وئام العالم . ويبدو أن شيئاً قد وقع بطريق الخطأ في العالم الذي نعيش فيه ، فبالرغم من التقدم في المدنية والرغبة الشديدة في السلام التي راودت عقول جميع الشعوب الراقية عبر الألفى عام السابقة أو أكثر ، لم تستطع الإنسانية أن تمنع القرن ٢٠ من أن يصبح أعنف وأكثراً فترة دموية سجلها التاريخ . خلال سنوات الحكم النازي في ألمانيا كانت الأمور تحدث بطريقة ليس لها مثيل حتى في أخطر وأخس أيام الإمبراطورية الرومانية أو المغولية ، فقد ارتكبت جرائم لا يمكن لمعظم الناس تخيلها ، إلا إذا شاهدوا مكاناً مثل « بلسن » والتي دخلتها في يوم تحريرها بقواتي في إبريل عام ١٩٤٥ ، فقد كان الأمر عبارة عن قتل جماعي للمدنيين لم يسبق له مثيل .

ويكشف لنا دراسة الهجوم الألماني على روسيا الذي بدأ في يونيو عام ١٩٤١ ، عن العنف المتعمد لألمانيا النازية الذي بدأ بتفجير بوضوح . وذلك في القتل الجماعي والنفي والتجويع في معسكرات الأسرى وحرق الأطفال في المدارس وهم أحياء ، وجعل المستشفيات المدنية أهدافاً للتدريب على الضرب ، ومثل هذه الفظائع كانت شائعة تحت سيطرة النزوات الوحشية

لألمانيا أثناء الصراع الرسمى لألمانيا . وتقع مسؤولية كل هذه الأشياء على رجل شيطاني واحد . . . هو هتلر .

وقد ماتت ملايين جوعاً ، بينما كان هو وأتباعه يستمتعون . وكان هتلر يفرق الزوجة عن زوجها ، والفتاة عن حبيبها ، والطفل عن والديه . ولو قدر لهذا الرجل أن يعيش فلم يكن في استطاعته أن يرد ما أخذه من هؤلاء بأساليب الظلمة القاسية ، ولن يستطيع أن يرد كل تلك السنوات من الحياة والصحة والسعادة والزوجات والأولاد والأحباب والأصدقاء . ولو كان لديه عشرة آلاف حياة فلم تكن ستكفر عن سيئاته حتى ولو جذبت كل منها إلى نهاية مرة وتعة مثل التي كان يوزعها على الآخرين .

وقد أدى تسخير جميع مظاهر الحياة الألمانية للحرب إلى التدمير الكامل لتلك الدولة المهزومة ، كما كان لابد من حدوث ذلك .

وبعدها ظهرت مشكلة إطعام تلك الدولة التي تركتها الحرب تتضور جوعاً ، وكما أعلم جيداً ، لأن هذه المشكلة وقعت على عاتق في القطاع البريطاني والذي احتوى على ٣٠ مليون ألماني . ونفس الشيء كان في الشرق الأقصى بالنسبة لليابانيين الذي تساوت وحشيتهم وقسوتهم مع الألمان .

هل من المحتمل أن يتكرر ما حدث مرة أخرى ؟ هل يمكن أن يظهر آخرون أمثال هتلر . . ؟ هل سنصل إلى الاستنتاج بأن الحرب الحديثة بين الدول هي العودة المطلقة إلى الهيمنة الكاملة ؟ .

هذه الأسئلة تقع مسؤولية مواجهتها على القادة السياسيين . ومن رأي أن دراسة الحرب عبر العصور ، مع دراسة العناصر السياسية والاقتصادية الكثيرة المتشابكة والتي تظهر في الصراع المسلح ، سوف توضح لنا ما الذي يمكننا عمله لتجنب الحرب مع العثور على الإجابات التي لم نحصل عليها حتى الآن .

القيم الروحية

وإننا نعلم أن مفاتيح السلام على الصعيد المادي والطبيعي ، هي في يد القوة ، فالرجل القوي المسلح يحافظ على مصالحه في سلام ، ولكن على الصعيد الروحاني فهناك من هو

أقوى منه ، فإن المجموعات الكبيرة لا تنقصر دائماً . وقوات الاحتلال مهما كبرت فهي لن تظل إلى الأبد تسيطر على ما يجول في أذهان الشعب المحتل . ودراسة الحرب تلقى الضوء على قيم روحية بالغة العمق والمغزى للمستقبل .

والآن . . ماذا عن المستقبل . . ؟ ذلك المستقبل إنما في أيدي الشباب ، وهذه الأيدي غير ثابتة في الوقت الحاضر ، والشباب يقول : « لقد فعل آباؤنا هذه الفوضى ، ويجب علينا أن نفلح عن ذلك ونسلك سلوكنا نحن ، والذي سيكون أفضل من سلوك آباؤنا » .

أما ما هو الأفضل لعمله . ؟ فذلك ما لا يعرفونه . . فجميعهم في بحر واسع ، بينما يميلون في تحركهم نحو المادية : « أحصد برعم الزهر مادمت تستطيع » . معتقدين أن ما كان بنقص آباؤهم هو حب السلام كشرط لحياة سعيدة هنيئة . ولكن آباؤهم المحبون للسلام قد حاربوا من أجل الحرية والعدل والتي بدونها يكون سلام الشعوب المروعة والمستعبدة جحيم على الأرض .

والسلام الذي ننعيم به الآن هو سلام الانتصار على الحمجية في الرجال ، وذلك النصر لن يكتب له البقاء إذا أهدرت الفضائل والقيم التي حققها وحافظ عليها ذلك الانتصار . فما الجدوى من السلام بدون الحرية ، وما قيمة الحرية بدون عدل بين رجل وآخر ؟ ويجب ألا يصبح الهدف من السلام مجرد الاستمتاع بحياة سهلة ومتراخية . ويجب أن تعيش الأمة على أسس من القيم الروحية وليس فقط على القيم المادية ، والدين هو مفتاح إرتفاع وإنخفاض القيم الروحية ، وهناك إختيار دائم يجب القيام به ، هو إختيار « مملكة الله » والذين يختارونها لن يفتقدوا التأييد والمعاونة سواء كانت بشرية أو سماوية .

عالم الراحة والسلام

وقد كتبت السطور الآتية في مذكراتي : — « لا أعتقد أن القائد في أيامنا هذه قادر على إثارة حماس جيوش كبيرة ، أو وحدات مستقلة أو حتى رجال منفردين ،

إلا إذا كان لديه إحساس خالص بعقيدة دينية صادقة . وفن القيادة يتركز على الصفة الروحية التي تتمثل في القدرة على إثارة الآخرين لكي يسيروا ورائه » . ولكن لن يكون لذلك أى جدوى لحل المشكلة إلا إذا كان الآخرون مهئين لقبوله .

ففي الحرب ينطلق الكثير من الحسنات وكذلك الكثير من الآثام ، فعندما يستشار الرجال ليهبوا أنفسهم لغرض نبيل سامي ، فإن الحروب ومشقاتها سوف تظهر أفضل ما لديهم من صفات مثل الزمالة والثبات والشجاعة والتضحية بالنفس ، والاستعداد للموت . وقد عبر عن ذلك في شعر عثر عليه في الصحراء الغربية أثناء تقدم الجيش الثامن بعد العالمين : —

ساعدنى يا إلهى عندما يقترب الموت حتى أهزأ بوجه الخوف الشرس
لأننى عندما أسقط لو قدر لى السقوط ... فأن روحى قد تبتهج بالنصر على الرمال .
وبتلك الروح كشفت النقاب عن أنصبه تذكارية كثيرة . وعندما كشفت الستار عن النصب التذكاري للعالمين في الصحراء الغربية عندما زرت مصر في أكتوبر ١٩٥٤ ، وحدثت بنظري في المكان رأيت صفوفًا كثيرة من الصليبان ، يضم كل منها عزيز على البعض في الوطن ، وأننى أعتقد أنه ليس هناك أية فائدة أو ميزة أو فضيلة في الخسارة الغير ضرورية للأرواح ، وفي الحقيقة فالخسارة الغير ضرورية ما هي إلا غباء وخزى .

ويجب أن تكون أرواح الرجال غالية عند أى قائد في المعركة ، ويجب ألا يضحي بها بدون سبب ولا تستخدم عندما يمكن لو سائل أخرى الوفاء بالغرض . ولكن كانت هناك أوقات في الحرب يتعين فيها على الرجال أن يقوموا بأعمال خطيرة ، فمثلاً عندما يجب الاستيلاء أو الدفاع على موقع مهما كان الثمن ، وكذلك عندما يعتمد نجاح ومصير أمة على بسالة وتصميم وتضافر الضباط والجنود .

وعندئذ يقوم الرجال الذين يفضاون الواجب على أنفسهم بوهب أرواحهم لتنفيذ ما عهد إليهم من مهمة حتى نهايتها . وهؤلاء قد انتصروا حتى الزمن ، وحققوا بل كسبوا شرفاً عالياً مما يحققه رجل لا يجيد سوى اقتال ، ولهم مكانة كبيرة عند ربهم . وهي على كل مسألة إختيار حر . وفي سبيل القيم الخالدة في هذا الاختبار ، تقام النصب بصرف النظر عما تتضمنه من ديانات أو معتقدات أو شكل العبادة ،

ومن خلال ضباب السنين وفي دوامة العصر القديم، لا يسعنا إلا أن ننصت بصمت رهيب
لعلنا نلتقط رسالة أمل وتشجيع من هؤلاء الذين وهبوا حياتهم ..
رسالة ربما تساعدنا على خلق عالم أفضل من ذلك الذي عاشوا فيه : —
« نحن الموتى ...

نقذف إليكم بأيدي هاوية بالشعلة ... حافظوا عليها وأحملوها عالياً ..

أما إذا حنثتهم بعهدكم معنا نحن الموتى ... فلن نستريح في رقدتنا .. »

يجب ألا تحث بالعهد مع شعلة العدالة والحرية التي قذفوها لنا ، فالجندي الحق هو عدو

لكل وحش في صورة إنسان وليس لأي شيء آخر .

وأنه لأمل الجندي أن يأتي يوم الغروب الذهبي للشمس ، حيث تطلق أبواق المساء
معلنة إنهاء النزاع والعداء ، ثم يتبعه شروق متألق للشمس وفيه تطلق أبواق الصباح موقظة
دول العالم على عصر جديد من الود والسلام .

هكذا ينتهى الجزء السابع والأخير من الحرب عبر التاريخ ، أما الجزء الأول من
« القرارات المميّنة » فيتضمن : -



- * ما هي عملية الأبيض والأحمر ؟
- * ما هي حرب المهزلة ؟
- * كيف دارت معركة بريطانيا ؟
- * ما هي عملية أسد البحر ؟
- * ما هي عملية فيلكس ؟
- * كيف غرقت البارجة بسمارك ؟
- * كيف إنتهت أخطر حملة في التاريخ ؟
- * لماذا كان هتلر ينفر من العمليات البرمائية ؟
- * كيف أنقذ هتلر موسوليني مرتين ؟
- * كيف تم غرق ٢ مليون طن من السفن ؟
- * حل مسابقة الجزء السابع وأسماء الفائزين .
- * مسابقة جديدة لكتاب « القرارات المميّنة » والشروط والجوائز المالية لكل جزء
- * فإلى اللقاء مع الجنرال س. ل. مارشال ومجموعة من الجنرالات الألمان ، تعريب وتعليق

عميد
فتحي عبد الله النمر

مسابقة القراء

عدد

الجائزة الأولى : — ١٠ جنيهاً مصرية ١

الجائزة الثانية : — ٣ جنيهاً مصرية ٢

الجائزة الثالثة : — ٢ جنيه مصرية ٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارئ أن يضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم اختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع في مظروف عليه طابع بريد وترسل في بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالي :-

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لاختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين في الجزء الأول من « القرارات المميّنة » والذي يظهر في أول كل شهر .

٥ — توجد جوائز جديدة ومسابقة جديدة للقراء ، أقرأ تفاصيلها في الجزء الأول من كتابه :

القرارات المميّنة

أسماء الفائزين في مسابقة الجزء السادس

حل المسابقة :-

- | | | |
|--------|-----|--------------------------------------|
| ج ١ : | ٢ — | ١٨٣٢ . |
| ج ٢ : | ١ — | رمح رفيع تستعمله القبائل الأفريقية . |
| ج ٣ : | ٣ — | ٣٥ مليون نسمة . |
| ج ٤ : | ٢ — | جيهرسون دافيز . |
| ج ٥ : | ١ — | ميتزلنك . |
| ج ٦ : | ٢ — | ألمانيا . |
| ج ٧ : | ٣ — | مدفع من عيار ١٧ بوصة . |
| ج ٨ : | ٢ — | جوتلاند . |
| ج ٩ : | ١ — | في يونية ١٩١٦ |
| ج ١٠ : | ٣ — | أربعة قرون . |

الجوائز :-

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة

باسم : مصطفى رضى عبد المطاب

العنوان : عمارة ١٤ شقة ١٠١ مدينة نصر — القاهرة

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة

باسم : أحمد فؤاد كامل

العنوان : ص. ب ٧٢٣١ الكويت

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٠٤٤

باسم : سـنـيـه حـجـاج

العنوان : ٤ ش إبراهيم صالح — الزيتون

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددنا ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٩٣٦

باسم : محمود عبد المحسن
العنوان : الصالون الأخضر — القاهرة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة

باسم : محمد علي القصاص
العنوان : ص . ب ٤٨٠ المملكة العربية السعودية

٣ — فازت بها استمارة المسابقة

باسم : فؤاد حجاوى
العنوان : ص . ب ٩٦ سوق الحجاوى — الزرقاء — الأردن

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد
(عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* ونظراً لوجود بعض القراء خارج جمهورية مصر العربية سيتم إرسال جوائزهم
عن طريق البريد الموصى عليه .

* ترقبوا المسابقة الجديدة والجوائز المالية في الكتاب الجديد « القرارات
الميتة » والذي يقع في ستة أجزاء وسيصدر في أول الشهر ، وسيتم نشر
مسابقة الجزء السابع والجوائز الخاصة بـ « الحرب عبر التاريخ » في الجزء
الأول من « القرارات الميتة » مع مسابقة جديدة وجوائز جديدة
للكتاب الجديد .

المسابقة

١ - قام هتلر باختراق فرنسا بين سيدان وفامور بـ

١ - ١٢ فرقة مدرعة .

٢ - ٧ فرق مدرعة .

٣ - ١٠ فرق مدرعة .

٢ - هشد هتلر لهاجمة روسيا

١ - ١٢٤ فرقة .

٢ - ١٥٨ فرقة .

٣ - ١٤٥ فرقة .

٣ - في نوفمبر ١٩٤٢ تحول الروس الى مواجهة الالمان تحت قيادة

١ - مارشال زوكوف .

٢ - جنرال كونييف .

٣ - مارشال ركوسوفسكى .

٤ - كانت مجموعة الجيوش «ب» الالمانية تحتل من هولندا الى نورماندى ويقودها

١ - الفيلد مارشال روندشتد .

٢ - الفيلد مارشال روميل .

٣ - الفيلد مارشال كلوج .

٥ - كان تعداد الجيش اليابانى في الحرب العالمية الثانية

١ - ٢٥٠.٠٠٠ مقاتل .

٢ - ١.٠٠٠.٠٠٠ مقاتل .

٣ - ٧٥٠.٠٠٠ مقاتل .

٦ - كان لدى اليابان في الحرب العالمية الثانية

١ - ٢.٠٠٠ طائرة .

٢ - ١٥٠٠ طائرة .

٣ - ٤٨٠٠ طائرة .

٧ - في ٦ أغسطس ١٩٤٥ اسقط الأمريكان أول قنبلة ذرية فوق مدينة

١ - نجازاكي .

٢ - هيروشيما .

٣ - أوساكا .

٨ - « اذا اردت السلام .. ففهم الحرب .. » من قال هذا ؟

١ - بليز دي مونتلوك .

٢ - ليدل هارت .

٣ - كلاوزفيتز .

٩ - « لقد هزمتهم بواسطة أنفسكم .. » من قال هذا

١ - كنيدى .

٢ - جوليس روى .

٣ - الجنرال جياب .

١٠ - تم في يولييه ١٩٤٥ أول تجريبه حية للقنبلة الذرية في

١ - نجازاكي .

٢ - نيومكسيكو .

٣ - بوتسدام .

الاسم

العنوان